القـــدس
معرفة في سبيل التحـرير

obeikan.com

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - أبريل ٢٠١٠م



٧ أ شارع فريد سميكة ـ مصر الجديدة ـ أمام نادى الشمس

تليفون وفاكس : ٢٦٤٣٢٤٨٨ - ٢٢٤٠٤٨٦٨

٠١٠١٦٣٣٧١٨ - ٢٢٤١٥٨١٦

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

obeikan.com

القدس
معرفة في سبيل التحرير

عصام الشنطي — د. عفاف عبد المعطي — م. عالية سامح عكاشة — عطا السيد الشعراوي

أحمد صبري الدبش — خالد سعيد — نجلاء مكاوي — أميمة الشريف

محمد حسني — ياسمين مجدي — آمال الخزامي — هدى فاروق

محمود عبده — رضوى عبد القادر — هشام محمد عبد الرءوف — دنيا العشري

نظيمة سعد الدين — رانية عبد الرحيم المدهون — رشا حسني — مي زيادي

عبلة الدجاني — منال فاروق — أكابر سيد — إسلام عبد الظاهر

محمود أحمد إبراهيم — منى محروس — مروة جبر — إلهام أحمد الشريف

نهال قاسم — م. أحمد زكريا — عصام الغريب — مجدي السيد

د. عبد التواب مصطفى — حسن هند — د. أمل خليفة

تحرير: عبد القادر ياسين

مكتبة الشروق الدولية

obeikan.com

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

القدس : معرفة فى سبيل التحرير .

تحرير عبد القادر ياسين . . . [وآخرون] .

ط١ . ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠١٠م .

٩٧٢ ص ؛ ٢٠ × ٢٨سم .

تدمك 4 - 005 - 701 -977 - 978

١ - القدس ـ تاريخ .

أ ـ ياسين ، عبد القادر (محرر) .

ب ـ العنوان . ٩٥٦,٩١

رقم الإيداع ٥٢٩٣ / ٢٠١٠م

الترقيم الدولى 4 - 005 - 701 -977- 978 I.S.B.N.

obeikan.com

المحتويات

الموضـــــوع	صفحة
إهداء	٩
لماذا القدس؟	١١
الباب الأول: التاريخ	
الفصل الأول: ولادة مدينة ـ أحمد الدبس	١٧
الفصل الثاني: القدس قيمتها وموقعها في الحضارة الإسلامية ـ رضوى عبد القادر	٢٥
الفصل الثالث: شوارع القدس العتيقة ـ م. عالية سامح عكاشة	٤١
الفصل الرابع: القدس تحت احتلال الفرنجة ـ أميمة الشريف	٦١
الفصل الخامس: القدس تحت الحكم العثماني ـ رانية عبد الرحيم المدهون	٧٣
الفصل السادس: المعارك العسكرية حول القدس ـ منى محروس	٩٩
الفصل السابع: زهرة المدائن والأعمال التراثية ـ رانية عبد الرحيم المدهون	١٠٥
الباب الثاني: المنارات الدينية	
الفصل الأول: القدس وعقائد ثلاث ـ محمود أحمد محمد إبراهيم	١٢٧
الفصل الثاني: مساجد القدس ـ إلهام أحمد الشريف	١٤٥
الفصل الثالث: كنائس القدس ـ إسلام أحمد عبد الظاهر	١٥٩
الفصل الرابع: الأوقاف في القدس ـ آمال الخزامى	١٧٥
الفصل الخامس: مسلمون ومسيحيون معًا ـ أميمة الشريف	١٩١
الفصل السادس: أبواب القدس والحرم الشريف ـ دينا العشري	٢٠٥
الفصل السابع: الاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة في مدينة «القدس» ـ أكابر سيد	٢١٧
الباب الثالث: الثقافة	
الفصل الأول: الدور الثقافي للقدس ـ نهال قاسم	٢٤٣
الفصل الثاني: قدس الرواية الفلسطينية الحنين إلى حلم المدينة المستعادة ـ ياسمين مجدي	٢٥٩
الفصل الثالث: القدس في المسرح المصري ـ رشا حسني	٢٧٣
الفصل الرابع: القدس في الشعر الفلسطيني المعاصر ـ مروة جبر	٢٨١

obeikandl.com

الفصل الخامس: القدس في الشعر العربي ـ مي قدري زيادي ٢٩٥
الفصل السادس: النضال باللوحة في سبيل القدس ـ منال فاروق ٣١١
الفصل السابع: المخطوطات في القدس ـ نجلاء سعيد مكاوي ٣٢٥
الفصل الثامن: مكتبات العائلات المقدسية ـ منى محروس ٣٣٥
الفصل التاسع: الكليات العربية في القدس ـ دينا العشري ٣٤٧
الفصل العاشر: الصحافة العربية في القدس ـ عبد القادر ياسين ٣٦٣

الباب الرابع: مبدعون

الفصل الأول: خليل السكاكيني، هذا المثقف الموسوعي الملتزم ـ عبد القادر ياسين ٣٨٥
الفصل الثاني: عارف العارف مؤرخًا ـ عصام الشنطي ٣٩٧
الفصل الثالث: إدوارد سعيد.. الوطن في العينين ـ د. عفاف عبد المعطى ٤٠٩
الفصل الرابع: القدس في نصوص جبرا إبراهيم جبرا ـ حسن هند ٤١٩
الفصل الخامس: إسحاق موسى الحسيني... هذا المثقف الموسوعي ـ رضوى عبد القادر ٤٢٩
الفصل السادس: نجاتي صدقي... المفكر والأديب المناضل ـ رضوى عبد القادر ٤٤١
الفصل السابع: محمد إسعاف النشاشيبي... فارس العربية وآدابها ـ عبد القادر ياسين ٤٥٥

الباب الخامس: ساسة ومناضلون

الفصل الأول: الحاج أمين الحسيني ... رائد كفاح، وبطل قضية ـ عصام الغريب محمد ٤٦٩
الفصل الثاني: عبد القادر الحسيني ... فارس ابن ذوات ـ عبد القادر ياسين ٤٨١
الفصل الثالث: خليل البديري ... مناضل وطني ديمقراطي نموذجي ـ إلهام أحمد الشريف ٤٩٣
الفصل الرابع: كابوتشي مطران العرب ـ أحمد زكريا ٥٠٩
الفصل الخامس: بهجت أبو غربية ... شيخ المجاهدين في فلسطين ـ رانية عبد الرحيم المدهون ٥٢٥
الفصل السادس: الأب عطا الله حنا... راعي الكنيسة ورمز الوطنية ـ هشام محمد عبد الرؤوف ٥٤٩
الفصل السابع: زليخة الشهابي ... رائدة الحركة النسائية الفلسطينية ـ عبلة الدجاني ٥٦٧
الفصل الثامن: ذو الكفل عبد اللطيف... مناضل انقطع به الحبل ـ أميمة الشريف ٥٧٥

الباب السادس: الرؤية الصهيونية للقدس

الفصل الأول: القدس في الخطاب الصهيوني ـ محمد حسني ٥٩٣
الفصل الثاني: القدس وثقافة التزوير الإسرائيلية ـ خالد سعيد ٦٠٩
الفصل الثالث: مراعي الحفريات في القدس ـ نظيمة سعد الدين ٦٢١
الفصل الرابع: هيكل سليمان والبحث عن السراب ـ أحمد الدبش ٦٣٣
الفصل الخامس: تفنيد أسطورة الهيكل الثالث (نقد الخطاب التوراتي حول القدس) ـ د. عبد التواب مصطفى ٦٤٥
الفصل السادس: الاستيطان في القدس ـ د. أمل خليفة ٦٦٥

الفصل السابع: تهويد القدس ـ مجدي السيد ٦٧٥
الفصل الثامن: قرى القدس... المجزرة ـ المحو ـ الذاكرة ـ هدى فاروق ٦٨٧

الباب السابع: الأبعاد الإقليمية والدولية

الفصل الأول: حقنا وباطلهم ـ عبد القادر ياسين ٧٠٩
الفصل الثاني: القدس في قرارات جامعة الدول العربية ـ مروة أديب جبر ٧١٩
الفصل الثالث: منظمة المؤتمر الإسلامي وضياع القدس ـ د. عبد التواب مصطفى ٧٣٩
الفصل الرابع: الدول الاشتراكية والقدس ـ عطا السيد فتوح الشعراوي ٧٥٩
الفصل الخامس: الفاتيكان والقدس ـ محمد حسني ٧٧٣
الفصل السادس: الولايات المتحدة الأمريكية والقدس ـ نظيمة سعد الدين ٧٨٧
الفصل السابع: الاتحاد الأوروبي والقدس ـ نهال قاسم ٨١٣
الفصل الثامن: القدس في قرارات الأمم المتحدة ـ دينا العشري ٨٢٧

الباب الثامن: الكفاح

الفصل الأول: القدس وثقافة مقاومة عبر التاريخ ـ عصام الغريب محمد ٨٤٣
الفصل الثاني: الاقتلاع الصامت للعرب المقدسيين ـ عبد القادر ياسين ٨٦١
الفصل الثالث: المقاومة الوطنية في القدس ـ محمود أحمد محمد إبراهيم ٨٧١
الفصل الرابع: المعارك العسكرية حول القدس ـ منى محروس ٨٨٩
الفصل الخامس: قطبة ثوب القدس ثقافة ومقاومة ـ منال فاروق ٨٩٩
الفصل السادس: القدس في المفاوضات ـ عطا السيد فتوح الشعراوي ٩١٣
الفصل السابع: مستقبل مدينة القدس ـ محمود عبده ٩٣١

obeikan.com

obeikan.com

إهـــداء

إلى روح صلاح الدين الأيوبي، الذي حلّت ذكراه الـ ٨٢٣ لتحريره القدس من الفرنجة (٢/١٠/١١٨٧م)، دون أن نوهم أنفسنا بعودة صلاح الدين، على صهوة جواده، شاهرًا سيفه، لتحرير القدس. فتحريرها، مهمة الأمة العربية، والشعوب الإسلامية، وكل أحرار العالم، وفي طليعتهم الشعب العربي الفلسطيني.

obeikan.com

obeikan.com

لماذا القدس؟

بالمصادفة، وحدها، غدت «القدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩»! وذلك أن وزراء الثقافة العرب التأموا، في مسقط (٢٠٠٦)، ورشحوا بغداد عاصمة للعام المذكور، وما أن اعتذر وزير الثقافة العراقي عن عدم قبول هذا الدور، لعاصمة الرشيد، حتى بادر وزير الثقافة الفلسطيني مقترحًا منح القدس هذا الموقع. وتمت الموافقة. واليوم، بعد انقضاء ثلثي العام ٢٠٠٩، فإن معظم الدول العربية لم تقم بواجبها حيال القدس! حتى الكلام بخلوا به على أُولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى الرسول الكريم، صلوات الله عليه، ومهد المسيح، عليه السلام.

أما من كان غير مؤمن بالله، واليوم الآخر، من حكام العرب، فليعلم بأن فلسطين قضية عربية، ليست بسبب كونها قطرًا عربيًّا، وجزءًا أصيلًا من الوطن العربي فحسب، بل، أيضًا، لأن فلسطين مجرد رأس جسر، يتطلع الصهاينة إلى استخدامها لوحة، للقفز منها إلى دولتهم «من النيل إلى الفرات»، وإن كان التراجع الرسمي العربي، المطرد، منذ ما يربو على الأربعة عقود، قد أغرى الصهاينة على التمدد بنفوذهم «من الخليج إلى المحيط»، متطلعين إلى وضع أحد أهم مقررات مؤتمرهم (١٩٨٤) موضع التنفيذ، والقاضي بخلق «حدَّاد»[1] في كل قطر عربي.

أي حتى من تجرد من الحس القومي، عليه إدراك أن فلسطين قضية أمن قومي، لكل قطرٍ عربيٍّ على حدة!

لعل ما يؤكد مركزية القدس، لكل من الوطن العربي، والعالم الإسلامي، على حدٍّ سواء، ما لهذه المدينة المقدسة من قيمة جيوإستراتيجية، إضافةً إلى قيمتها الدينية. أي بدون القدس لن يكون العرب.

لقد اقترب الاحتلال الإسرائيلي من هضم القدس، بعد أن تمكن هذا العدوان من قضمها، على جرعتين (١٩٤٨، و١٩٦٧)، ومضغها، وابتلاعها، عبر تطويقها بكل تلك الكتل الاستيطانية، والطرق الالتفافية، حتى عزلها المحتل، تمامًا، عن بقية الضفة الغربية، وبعد أن ابتلعت «القدس الكبرى» ٢٢ ٪ في المائة من مجموع أراضي الضفة.

لقد كان الأخطر هو إرجاء «اتفاق أوسلو» سيئ الصيت أمر البحث في قضية القدس ـ شأن المستوطنات، وعودة اللاجئين، والانسحاب إلى خطوط ٤/ ٦/ ١٩٦٧- إلى ما بعد قيام الدولة الفلسطينية على أراضي الضفة، والقطاع، والتي كان مقررًا لها يوم ٤/ ٥/ ١٩٩٩، لولا مماطلة المحتل، ومراوغته، وبعد أن نال باتفاق أوسلو ما أراد!

فيما لم تشترط القيادة المتنفذة في «منظمة التحرير الفلسطينية»، حينذاك، توقف الجانب الإسرائيلي عن الإضافة في

(١) المقصود هو الرائد سعد حداد، الذي انشق عن الجيش اللبناني، مطلع سبعينيات القرن الماضي، وأسس «جيش لبنان الجنوبي»، مخلب قطٍّ لإسرائيل.

أي من هذه القضايا الأربع. ما أطلق العنان للغول الإسرائيلي كي يلتهم المزيد، والمزيد من الأراضي العربية، ويضاعف من المستوطنات التي أقامها ذاك الغول، في الضفة الغربية، عمومًا، وفي القدس، ومحيطها، على وجه الخصوص.

يوفر هذا السِّفْر، معالجة شاملة لشتى أبعاد قضية القدس، التاريخية، والثقافية، فضلًا على الاحتلال الإسرائيلي، الذي يجثم على صدر القدس، منذ ما يربو على العقود الأربعة متصلة، ناهيك عن المقاومة الباسلة، التي واجهت ذاك الاحتلال، ولا تزال.

في الباب الأول (التاريخ)، يبدأ المحامي أحمد الدبش بفصل عن «ولادة مدينة»، تتبعه رضوى عبد القادر، لتقدم قيمة القدس، وموقعها في الحضارة الإسلامية، أما المهندسة عالية سامح عكاشة فتتبعت «شوارع القدس العتيقة»، فيما نقلتنا المحامية أميمة الشريف إلى ما عانته تلك المدينة المقدسة تحت احتلال الفرنجة. تلتها رانية عبد الرحيم المدهون، لتغطي أربعة عقود متصلة، عاشتها تلك المدينة المقدسة تحت الحكم العثماني. وعلى مدى نحو ستة آلاف سنة، عاشتها تلك المدينة المقدسة، فإنها تعرضت لهجمات وغزوات، عرضتها المحامية منى محروس، لتتوقف عند معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨). ولتنهي رانية المدهون الباب بالفصل السابع، عن «الأعمال التراثية» للمدينة المقدسة.

لكن هل يمكن الحديث عن القدس، دون رصد «مناراتها الدينية»، الأمر الذي تولاه الباب الثاني من الكتاب. ففي الفصل الأول كتب محمود أحمد عن «القدس وعقائد ثلاث»، فيما رصدت إلهام أحمد الشريف «مساجد القدس»، وتبعها إسلام أحمد عبد الظاهر، راصدًا كنائسها، وآمال الخزامي، دارسة أوقافها، ودينا العشري، متتبعة بواباتها. ولتلتقط الخيط أميمة الشريف، راصدة كيف عاش «مسلمون ومسيحيون معًا». ولتنهي أكابر سيد الباب الثاني، بتتبع «الاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات».

ينتقل الباب الثالث للحديث عن «الثقافة والمقاومة»، بدءًا من «الدور الثقافي للقدس»، الذي تابعته الصحفية نهال قاسم، «وقدس الرواية الفلسطينية»، الفصل الثاني، الذي كتبته الروائية ياسمين مجدي. فيما تتبعت الصحفية رشا حسني «القدس في المسرح المصري»، والتقطت الباحثة مروة جبر «القدس في الشعر الفلسطيني المعاصر». ومعها الشاعرة مي زيادي، التي تتبعت «القدس في الشعر العربي». وانتقلت منال فاروق إلى «اللوحة في سبيل القدس»، فيما تولت الباحثة نجلاء مكاوي رصد «المخطوطات في القدس». وعلى منوالها نسجت منى محروس، في تتبع «مكتبات العائلات المقدسية»، والباحثة دينا العشري «الكليات العربية في القدس»، وأنهى عبد القادر ياسين الباب الثالث، بفصلٍ عن «الصحافة العربية في القدس».

افتتح الكاتب نفسه الباب الرابع (مبدعون مقدسيون)، بفصلٍ عن المربي الفلسطيني المرموق، خليل السكاكيني، وكتب التراثي الفلسطيني المخضرم، عصام الشنطي، عن «عارفٌ العارف مؤرخًا»، فيما قدمت الناقدة الأدبية د. عفاف عبد المعطي، المفكر، ذا الشهرة العالمية «إدوارد سعيد»، وتولى المستشار حسن هند تقديم الروائي الشهير، جبرا إبراهيم جبرا. وقدمت الباحثة رضوى عبد القادر المفكر، والأديب، إسحاق موسى الحسيني، وأتبعته المفكر الموسوعي، نجاتي صدقي. وأنهى الباب عبد القادر ياسين بفصل عن اللغوي التقليدي، محمد إسعاف النشاشيبي.

لم تخلُ القدس من القادة السياسيين، الأمر الذي تولاه الباب الخامس، فكتب الباحث عصام الغريب، عن الحاج

أمين الحسيني، وقدم عبد القادر ياسين، عبد القادر الحسيني، ورصدت إلهام أحمد الشريف، سيرة خليل البديري، والشيء نفسه فعله أحمد زكريا، عن المطران كبوتشي، وعلى غرارهما فعلت رانية المدهون، حين قدمت شيخ المجاهدين، بهجت أبو غربية، وعلى الخطى نفسها، سار الباحث هشام محمد عبد الرؤوف، حين قدم الأب عطا الله حنا. دون أن ينسى الكتاب المرأة المجاهدة، فكتبت النقابية عبلة الدجاني، عن رائدة العمل النسائي الفلسطيني، زليخة الشهابي. واختتمت أميمه الشريف، بالكتابة عن المناضل الوطني المخضرم، ذو الكفل عبد اللطيف.

عن «الرؤية الصهيونية للقدس»، كان الباب السادس، حيث كتب فصله الأول، الباحث محمد حسني، وخصصه عن «القدس في الخطاب الإسرائيلي»، تبعه الباحث خالد سعيد حول «القدس وثقافة التزوير الإسرائيلية». فيما لاحقت الكاتبة الصحفية، نظيمة سعد الدين، الحفريات التي استمرأ الإسرائيليون إجراءها تحت المسجد الأقصى، بهدف تقويضه. ورأى المحامي أحمد الدبش، في «هيكل سليمان» مجرد البحث عن سراب. ما جعل الأستاذ الجامعي، د. عبد التواب مصطفى، يعمد إلى «تفنيد أسطورة الهيكل الثالث». لتنتقل الباحثة السياسية د. أمل خليفة إلى رصد «الاستيطان في القدس». ويتبعها الباحث مجدي السيد، بفصلٍ عن «تهويد القدس»، ولتقفل الباحثة هدى فاروق، البابَ بفصلٍ عن «قرى القدس: المجزرة، المحو، الذاكرة».

يُعنى الباب السابع، بالأبعاد الإقليمية، والدولية، لقضية القدس، فيبدأ عبد القادر ياسين بإلقاء حزمة من الأضواء على «حقنا وباطلهم»، تبعته الباحثة مروة جبر، راصدة مواقف الجامعة العربية، وقممها من قضية القدس، ولا يخلو فصل د. عبد التواب مصطفى من اتهام، حيث يتحدث عن «منظمة المؤتمر الإسلامي، وضياع القدس»، وعالج الباحث عطا السيد الشعراوي، مواقف الدول الاشتراكية من القدس، وعلى غراره فعل الأكاديمي محمد حسني، في حديثه عن «الفاتيكان والقدس»، ونظيمة سعد الدين، في رصدها لمواقف الولايات المتحدة الأمريكية، إزاء القدس. ونهال قاسم، عن «الاتحاد الأوروبي والقدس»، ودينا العشري، عن «الأمم المتحدة والقدس».

غنيٌّ عن القول، أنه ما كان للقدس، وأهلها أن يقفوا مكتوفي الأيدي، إزاء ما يقترفه العدو الصهيوني، ضد المدينة المقدسة. فعمد أولئك الأهل إلى المقاومة، في شتى الاتجاهات، الأمر الذي تولاه الباب الثامن والأخير، وكان فصله الأول «القدس في ثقافة المقاومة» لعصام الغريب. و«الاقتلاع الصامت للعرب المقدسيين» لعبد القادر ياسين. و«المقاومة في القدس» لمحمود أحمد. و«معركتي احتلال القدس ١٩٤٨ و١٩٦٧» لمنى محروس . و«القدس في المفاوضات» لعطا السيد الشعراوي. و«قُطبة ثوب القدس تقاوم» للأديبة منال فاروق. ليختم الباحث محمود عبده الباب بفصل عن «مستقبل القدس».

ولا يسعنا إلا تقديم خالص الشكر إلى «مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية» ورأسها المجاهد رائد صلاح، ونائبه كمال الخطيب، والناشط في المؤسسة د. محمد أبو عطا، على ما وفروه لنا من معلومات وصور فوتوغرافية.

نخلص من هذا كله، أن القدس أسيرة، تنتظر من يتقدم لتحريرها، في سياق تحرير فلسطين. أما الاكتفاء بالتغني بصمود أهالي القدس، فلا يحرر ذرّة تراب! بل يكرِّسُ أسرها، ويؤول به إلى ضياعها.

إن القدس رمز القضية الفلسطينية. والأخيرة قضية تحرر وطني، ذات عمق عربي، وبُعد روحي، وأُفق إنساني. لذا من الخطأ، والخطر، في آنٍ، الاقتصار في توصيفها على أحد تلك الجوانب.

إن هذا الكتاب سلاحٌ يمتشقه كل عربي حر، في وجه محاولات الصهيونية لمحو ذاكرتنا الوطنية، في سياق محو هويتنا، انتمائنا، وثقافتنا الوطنية.

لقد أخذ القسم العربي من القدس يذوي، شيئًا، فشيئًا، ويهتز الأقصى، بما يشي بقرب تقوّضِه، بزلزال الاحتلال. وأراني أتساءل مع الكاتبة المبدعة، ابنة لبنان، يُمنى العبد: «هل القدس عاصمة فعلية للثقافة العربية؟ ثقافة عربية تشارك في خرابها، عرب الاستبداد، والقمع، والجهل، والقصور، عرب المقايضة، والحرص على الكراسي، والعروش؟!».

تستطرد العبد: «بدأ الخراب، خراب القدس، كما يبدأ، عادة بالعمران، ولكنه لا يقف عند حدوده المادية، بل يتعداه إلى المشهد، إلى الفضاء، الذي به يتشكل الوعي الثقافي، ويطرح أسئلته على قيم الثقافة، ومعاييرها، التي تخص الآداب والفنون».

تنتهي كاتبتنا إلى أن المشاعر، والمواقف تتبدل «بسبب هذا الخراب، تبرز الأحقاد، تُستهدف الذاكرة، ويسهل هدر دم الإنسان». (الحياة [لندن] ٣١/ ٥/ ٢٠٠٩).

في القدس يتقاطع صوت الأذان، مع قرع أجراس الكنائس، وتتعانق مآذن المساجد مع أبراج الكنائس، في عناق تاريخي، تأكيدًا للحق العربي ـ المسيحي، والإسلامي ـ في القدس.

إننا أمام أخطر الاحتلالات للقدس، على مدى نحو ستة آلاف سنة، هي عمر هذه المدينة المقدسة. وتكمن خطورة الاحتلال الإسرائيلي بتوغله في تهويد المدينة المقدسة، وابتلاعها.

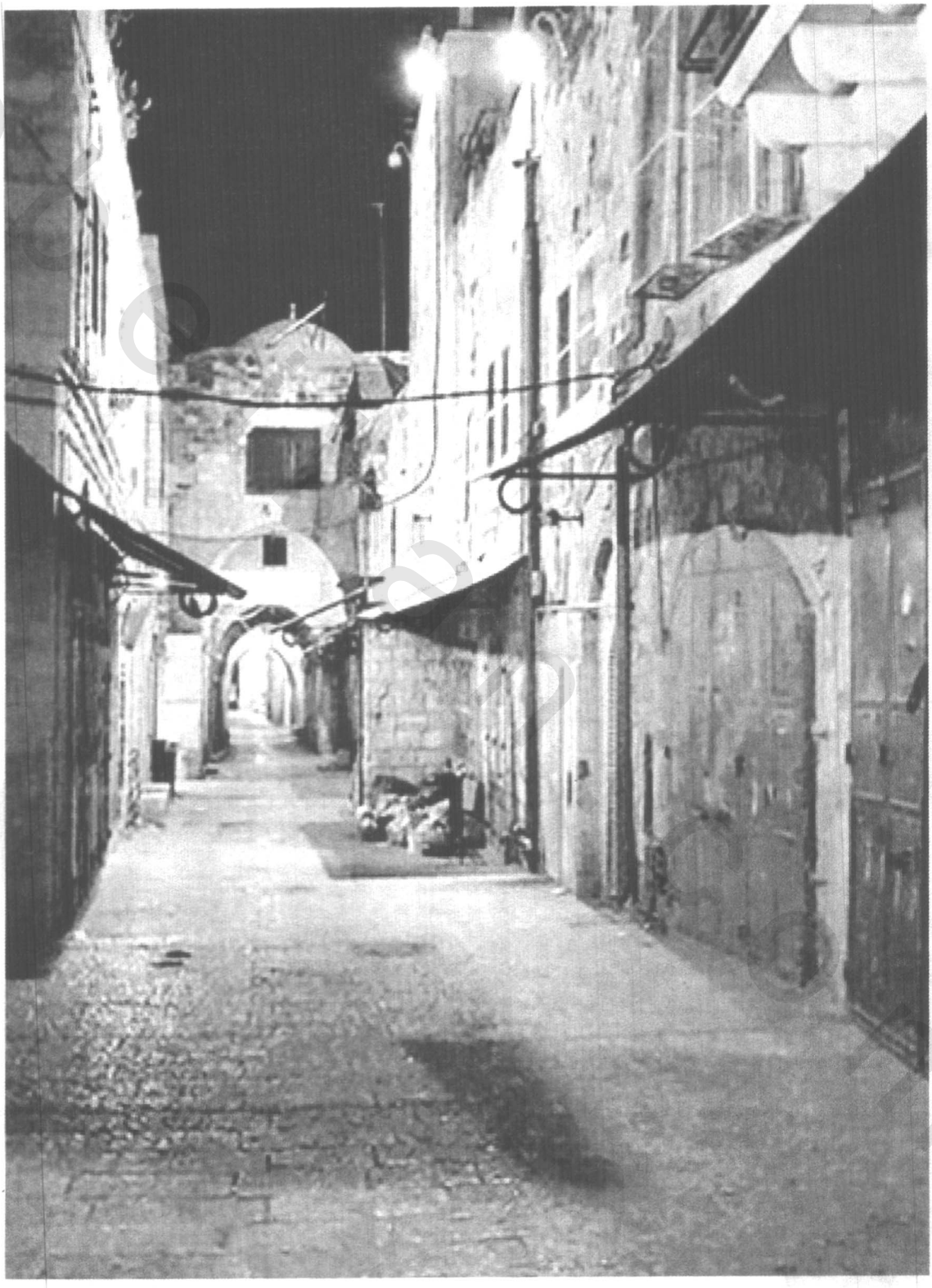
وبعد، فإن القدس تئن تحت وطأة المحتل الصهيوني، مهددة في هويتها، بل في وجودها نفسه، بينما سطا أعداء الأمة على مفردات هُويَّتِنا، ونسبوها لأنفسهم، في محاولة يائسة لاختلاق تاريخ لأولئك الأعداء. ومع أهمية إعلان تمسكنا بعروبة القدس، والعمل على تكريس هويتها، في وجدان الكافة، والاستقواء بالقانون الدولي، وبقرارات المحافل الدولية، التي تدين محاولات تهويد القدس، فضلًا على إعادة القدس، بكل قيمها، إلى الصدارة، وإلى تقديم الدعم المعنوي، والمادي لأهالي القدس، وحشد التضامن العربي، والإسلامي، والدولي خلف قضية القدس، مع أهمية هذا كله، إلا أنه يندرج تحت خانة «النضال التحضيري»، الذي لا يُغني عن تحرير القدس.

والمطلوب هو الانتقال من خنادق الدفاع إلى تلال الهجوم، وحشد كل أسباب قوتنا، وتصويبها إلى نقطة باطل الأعداء الهشّة. أما تحرير القدس، فسيحل كل ما ترتب على احتلالها. وهذا لن يتم إلا بالتحرير، وفلسطين مستقلة، ديمقراطية.

المحـــــرر

الباب
الأول

التاريخ



obeikan.com

الفصل الأول

ولادة مدينة

أحمد الدبش

يؤكد قادة العدو الصهيوني في جميع أحاديثهم على أن «أورشليم ـ القدس ـ كانت عاصمة لإسرائيل، لثلاثة آلاف عام خلت، وجبل الهيكل هو قلب الأمة اليهودية، ومركزها، وسيبقى موحدًا، أبدًا، وغير قابل للتقسيم».

في عواصمنا العربية الباسلة، درج الناس على سماع المسؤولين العرب يصفون القدس بأنها قدسان، واحدة غربية إسرائيلية، والثانية شرقية عربية ـ إسلامية، أسمى أمانيهم سماح الكيان الصهيوني للعرب، والمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية في الجانب الشرقي من القدس، وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل تم تقسيم القدس الشرقية، في أحاديثهم، إلى شوارع، وبيوت، وطرقات، وأحياء يهودية ومسيحية وإسلامية و.... إلخ. ولكن لماذا صدَّق العرب هذه المقولات؟ إنني أعتقد بأن أحد الأسباب الرئيسية هو أن الادعاء الإسرائيلي يجري تدعيمه من خلال أساطير الكتاب المقدس، وكتابات بعض مؤرخينا، من أصحاب، وحراس الفكر الآسن العربي.

فالسعي لكتابة تاريخ القدس يشكل محاولة عسيرة، في عصر أصبح العالم مهووسًا، لدرجة مثيرة للاشمئزاز، بما يسمى بالكتاب المقدس.

لقد كانت أسفار «الكتاب المقدس»، حتى وقت قريب جدًّا، تتمتع بمركز الصدارة في أي بحث، أو دراسة، في تاريخ فلسطين، ومن ضمنها القدس. وأصبح العالم أمام نظريات، اعتبرت مسلَّمات، حول تاريخ فلسطين، ومن ضمنها القدس، فاختُلق تاريخ جديد لإسرائيل، وللمنطقة بأسرها. وتم التعتيم على التاريخ الحقيقي لفلسطين، والقدس، وقد سار في هذا الطريق غالبية الباحثين، والمؤرخين الأوروبيين، وتبعهم في ذلك المؤرخون العرب، من أصحاب، وحراس الفكر الآسن في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا.

لكن هل يمكننا كتابة تاريخ القدس؟ نعم، يمكن الشروع به، لو تحررنا من أسر ما يسمى بالكتاب المقدس، باعتباره تأريخًا. وهذا ما سنحاول عمله من خلال كتابة مقدمة في تاريخ القدس.

البدايـــات

لم تكن عراقة فلسطين مسألة طارئة عليها، وإنما ارتبطت بأصل تكوينها، فالحفريات تشير إلى: «أن الإنسان وجد في فلسطين، منذ أقدم العصور، وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية»[١].

بالرغم من ذلك، فإننا لم نعثر في بلادنا فلسطين، حتى الآن، على آثار لإنسان الهوموهابيل، ولحضارة الحصى، المعروفة في شرق أفريقية، والمؤرخة في عصر البليستوسن الأدنى، ويرى الباحث زيدان كفافي أن دلائل وجود الإنسان في بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة، تعود إلى حوالي المليون ونصف المليون عام[٢].

أما د. سلطان محيسن، فيذهب إلى أن أقدم آثار الإنسان في فلسطين تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى، الذي بدأ هنا منذ حوالي مليون سنة، واستمر حتى حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت، وهذا العصر يرادف ما يسمى في أوروبا بالحضارة الآشولية، ذات الانتشار العالمي الواسع، والتي اشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية بخاصة. لقد سُكنت منذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية، ولبنان، وفلسطين من قبل إنسان «الهوموراكتوس»، الذي وصل بلادنا قادمًا من الجنوب، من القارة الأفريقية، حيث وجدت الآثار الأقدم له، والمؤرخة هناك على حوالي ١,٥ مليون سنة[٣].

إن ثمة بعض المؤشرات على وجود آثار للإنسان جنوب بحيرة طبرية، وكانت عبارة عن قطع لجمجمتين، وسنًّا واحدة. وبالرغم من أن الآلات الحجرية التي وجدت مع هذه المتحجرات العظمية المهشَّمة، بفلسطين، تشبه الآلات البدائية، التي وجدت في مواقع القرد البشري الجنوبي، في أفريقية. فهناك بعض الشك في معاصرة الهيكل العظمي، الذي وجد في تل العبيدية، للرواسب التي وجد فيها[٤].

ذلك أن الترسيبات التي وجدت، معقَّدة، حصلت على دورتين، وكل دورة مرحلتين، حدثت فيها ترسبات مستنقعية، وبحيرية، سميت (Li.Fi.Lu.FU). واحتوت بقايا إقامة بشرية طويلة، وجدت آثارها على امتداد طبقات مختلفة. هذا الموقع بكامله اعتبر سابقًا للانتقال القطبي المغناطيسي ماتوياما/ برونه، مما يعطيه عمرًا يناهز المليون سنة. وذلك للقسم الأعلى من ترسباته. إن الجديد، والأكثر أهمية، ربما كان أرضية السكن، التي يجب أن تؤرخ ١,٢٠٠,٠٠٠ سنة خلت[٥].

يقترح آخرون له تاريخًا قديمًا جدًّا، هو ١,٤ مليون سنة، معتمدين على دراسة البقايا الحيوانية. لكن ذلك لم يلق قبولًا شاملًا من الباحثين[٦].

لقد كشفت دورثي غارود عن وجود مصنوعات حجرية، ترقى إلى الزمان المطير الأول، الذي يعود إلى مليون سنة ونيف، وذلك في مغارة الطابون (التنور) في جبل الكرمل، وأن الأدوات المكتشفة في هذا الموقع سابقة على مثيلاتها في أوروبا وأفريقية، وأن عددها يتجاوز الأربعين ألفا[٧].

بدايات سكنى القدس

تدل الشواهد الأثرية على أن سكنى أراضي القدس قد تم في العصر الحجري القديم الأدنى الثاني، الذي يؤرخ من حوالي ٧٠٠,٠٠٠ ـ ٢٥٠,٠٠٠ سنة خلت، فقد عثر الآثاري رينيه نوفل في مغارة أم قطفة شرقي القدس، وعلى مسيرة عشرة كيلومترات للجنوب الشرقي من بيت لحم، بالقرب من وادي المربعات، على أدوات دقيقة، وأدلة استعمال النار.

في العصر الحجري القديم الأدنى، وهو يؤرخ بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت، كشفت عن آثار في فلسطين، في مغارة «الزطية» شمال غربي بحيرة طبرية، وأم قطفة في القدس، ومغارة الطابون وحولون ومعان باروخ[٨].

أقدم الهياكل العظمية البشرية

في مطلع العصر المطير الرابع والأخير، المعاصر للعصر الجليدي الأخير، فيرم في أوروبا، دخلت مجتمعات ما قبل التاريخ مرحلة جديدة، تؤرخ بين حوالي ١٠٠,٠٠٠ ـ ٣٥,٠٠٠ سنة خلت، ويطلق عليها اسم العصر الحجري الأوسط، أو الباليوليت الأوسط. في هذه المرحلة ظهر نوع جديد من البشر، هو «إنسان النياندرتال» حاملًا معه حضارة جديدة ـ وهى الحضارة الموستيرية، أو اللفلوازية ـ الموستيرية كما أطلق عليها البعض في بلاد الشام.

لقد اختفى الموزاييك الحضاري الذي ساد في العصر السابق، وتوارى «الهوموراركتوس» تاركًا المسرح لخلفه «النياندرتال»، وقد جاءت هذه التسمية نسبة لوادي نياندر في ألمانيا. فقد عثر على هياكل بشرية، من نوع نياندرتال، في جبل الكرمل، ما بين عامي ١٩٢٤ـ١٩٢٩، وذلك في كهفين؛ كهف الطابون، وكهف السخول، وكان ذلك تحت إشراف الدكتورة دورثي غارود، وقد درس هذه الهياكل الأستاذان ماك كاون وكيث عام ١٩٣٩، كما تناولها زوينر، من ناحية تقدير عمرها، عام ١٩٥٩، ويرى زوينر أن هياكل الطابون ترجع إلى آخر فترة غير جليدية، بينما هياكل السخول إلى أوائل الفترة الجليدية الأخيرة (فيرم ١).

لقد اتضح أن جماجم الطابون أقل غلظة من جماجم نياندرتال أوربة، ولكنها، مثلها، تفتقر إلى الذقن، وذات حواف عظيمة بارزة فوق العينين، ولو اقتصر الأمر على هذه الجماجم، لاكتفي بوضعها في نطاق نوع النياندرتال. إلا أن بعض جماجم السخول أقرب شبهًا إلى الإنسان الحديث، فهي ذات جبهة واضحة، وإن كانت عظام الحاجبين فوق العينين لا تزال غليظة ، إلا أنها مقسَّمة في الوسط ، كما نرى في الإنسان الحديث، فهي، إذن، لا تختلف كثيرًا عن عظام الحاجبين لدى الأوروبيين الحديثين، أو الأستراليين الأصليين. يضاف إلى هذا، أن مؤخرة الجمجمة مستديرة، وليست مدببة، وهي في هذه الصفة شبيهة جدًّا بجمجمة الإنسان الحديث، كما أن للجمجمة عظمة ذقن، لا شك فيها، وعظام الوجه دقيقة، وليست غليظة. والذي يلفت النظر، بشكل خاص، من بعض هياكل جبل الكرمل، أنها تظهر بعض الصفات التشريحية التي للإنسان الحديث.

تشير نتائج الأبحاث الحديثة جدًّا إلى وجود محتمل للإنسان العاقل في فلسطين، منذ حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة خلت، كما دلت على ذلك هياكله في جبل قفزة نفسه، وإذا علمنا أن هياكل جديدة نياندرتالية من مغارة الكبارا في فلسطين أرِّخت على حوالي ٦٠,٠٠٠ سنة، لأدركنا أنه يمكن طرح نظرية جديدة تقول بأن الإنسان العاقل وجد،

في بلادنا فلسطين، قبل النياندرتال، بـزمن طويل، ولم يكن متطورًا عنه، وأن هذا النياندرتال ربما أتى من أوربة، أو غيرها، ولكن لا بد من المعلومات، حتى نصبح أقرب إلى الحقيقة[٩].

طرح بعض الباحثين فرضا آخر، هو أن الإنسان العاقل (الحديث)، ومنه جماجم الكرمل، وإنسان نياندرتال، كانا متعاصرين، وربما كان شرقي البحر المتوسط مكانًا ملائمًا لظهور الإنسان العاقل (الحديث)، جنبًا إلى جنب مع إنسان النياندرتال[١٠].

هل الإنسان العاقل أصله فلسطيني؟ !

لكن ما هو «نوع» الإنسان الذي ننتمي نحن إليه؟! إنه ذلك النموذج الفيزيقي، الذي يطلق عليه، في العادة، اسم «الإنسان العاقل».

إن كل المعطيات المتوفرة لدينا، حتى الآن، تدل على أن الإنسان العاقل كان النوع الإنساني الرابع والأخير، في عصور ما قبل التاريخ، لقد ظهر هذا الإنسان منذ حوالي ٤٠ ألف سنة، أي في العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى). ولكن من أين أتى الإنسان العاقل؟!

يجيب على هذا التساؤل د.سلطان محيسن، في سفره الرائع «بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل»، بقوله: لقد أدت الاكتشافات المتزايدة، ومنذ مطلع القرن العشرين إلى تباين الآراء حول إنسان النياندرتال، ففي حين يعتقد بعضهم بأنه قد تطور نحو الإنسان العاقل الحالي، يقول آخرون بانقراضه، دون خَلَفٍ، ويعتبرونه فرعًا جانبيًا، على هامش العملية التطورية.

يعتمد أنصار تطور النياندرتال على المكتشفات التي أتت من فلسطين، حيث وجدت في الكثير من المغاور ـ مثل مغارة السخول، والأميرة، والطابون، والزطية، في جبل الكرمل، ومغارة جبل قفزة، قرب الناصرة، ومغارة العامود، بجوار بحيرة طبرية ـ عدة هياكل عظمية بشرية، لها صفات فيزيولوجية مشتركة مع الإنسان العاقل، مثل حجم الدماغ الكبير، حوالي ١٥٠٠ سم٣، والقامة الطويلة ١٧٠ ـ ١٨٠سم، بالإضافة إلى الذقن البارزة، وهذه كلها صفات متطورة، حملها الإنسان العاقل. وقد رافقت تلك الهياكل، أدوات حجرية، بينها نصال متطورة، أيضًا، استخدمها الإنسان العاقل، بكثافة، فيما بعد.

كل ذلك يشير إلى أن النياندرتال قد تحول في فلسطين، بشكل تدريجي نحو الإنسان العاقل، ومن جهة أخرى، فإن أنصار نظرية انقراض النياندرتال يستندون إلى معطيات أتت من غرب أوربة، من بعض المواقع في فرنسا (فونتوبشوفاد)، وألمانيا (شتاين هايم)، وإنجلترا (سوانسكومب)، التي وجدت فيها هياكل عظمية، لا تحمل صفات مشتركة بين النياندرتال، والإنسان العاقل، مما دفع إلى الاعتقاد بأن النياندرتال لم يكن السلف المباشر للإنسان العاقل، وإلا كان هذا الأخير حمل صفاته، وأن هذا السلف كان «الهوموراكتوس»، بدليل انتقال صفات هذا الإنسان إلى الإنسان العاقل، كما ظهر في عدة مناطق من أوربة، وأفريقية.

هكذا الإنسان العاقل قد تطور، من «الهوموراكتوس»، دون أن يمر بمرحلة «النياندرتال»، ويكون كل من «النياندرتال»، والإنسان العاقل فرعين مستقلين، تطورا عن «الهوموراكتوس»، الفرع الأول ـ أي، النياندرتال ـ انقرض، بينما تابع الفرع الثاني، وهو الإنسان العاقل، طريقه التطوري، والواقع أننا لا نزال بعيدين عن البت النهائي

في هذا الموضوع، لا سيما وأن المكتشفات قليلة، والتفسيرات النظرية أكثر مما يحتمل واقع تلك المكتشفات؛ لأننا إذا قبلنا نظرية انقراض النياندرتال، فليس لدينا دليل قاطع على السبب، هل هو تغيُّر مناخي مدمر، وكوارث طبيعية، أم وباء شامل، أطاح بهذا الإنسان، أم مذابح جماعية، نفذها العاقل، أدت إلى مسح إنسان «النياندرتال» المسالم، في طبيعته، من الوجود، وذلك كما يقول بعضهم.

لكن يصعب قبول هذا الافتراض الأخير لسبب بسيط، وهو أننا لم نعثر، حتى الآن، على آثار مثل تلك المذابح، بل إننا لم نجد أية هياكل عظمية «نياندرتالية»، قتل أصحابها بأدوات الإنسان العاقل. في ضوء ذلك كله، يمكن أن نفترض أن كلا من إنسان نياندرتال، والإنسان العاقل كانا وثيقي الصلة ببعضهما، وربما تعايشا معًا، لزمن قصير، أو طويل، قبل أن يسود النوع الأكثر تكيفًا، والأفضل، وهو الإنسان العاقل. ومهما يكن، فلا بد لنا، أيضًا، من قبول الحقيقة الراهنة، على الأقل. وهي أن النياندرتال الفلسطيني هو الذي تطور وحده، فيزيولوجيًّا وحضاريًّا نحو الإنسان العاقل، جدنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل، وأما مصير النياندرتال الأوروبي، فكان الانقراض، ولكن للأسف هناك من يرفض قبول هذه الحقيقة. مثل بعض الباحثين الغربيين، والألمان بخاصة، ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي، مدفوعا باعتبارات عنصرية، لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه، بصلة[١١].

أدل مثال على ذلك: عندما قال «فرانز فيدنرايخ» في مؤتمر علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية (علم الأجناس البشرية)، في كوبنهاجن، قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة: إنه يبدو أن الإنسان العاقل قد جاء من فلسطين إلى شمال أوربة، ثار المندوب النازي، وخرج من غرفة الاجتماع[١٢].

التاريخ يبدأ في القدس

تستمر آثار تواجد الإنسان في القدس، طيلة العصور الحجرية القديمة، حتى نصل إلى العصور الحجرية المتوسطة، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين بـ «الحضارة الناطوفية»، التي سميت كذلك نسبة إلى وادي النطوف، شمالي غربي القدس، والتي دامت نحو ستة آلاف سنة، اعتبارًا من حوالي عام ١٢٠٠٠ قبل الميلاد.

لقد كانت الحضارة الناطوفية الفلسطينية حضارة (ميكروليثية)، بالمعنى الصحيح، أي أنها تتميز بصناعة الآلات الصوانية، الدقيقة الحجم، خاصة النصل القمري، ومن أهم الآلات الصوانية الكبيرة الحجم، في هذه الحضارة، نصال المناجل والمعاول، مما يدل على الحياة الزراعية في الحضارة الناطوفية، وعلى أنها كانت تلم بحصد الحبوب، مما استلزم استخدام مناجل، بصفة منتظمة، وبعض الآلات، التي سمتها غارود معاول، هي أقرب إلى الفؤوس، التي استخدمت لعزق الأرض، قبل بذر الحبوب، ومن هذا يتضح أن أقدم الناطوفيين كانوا أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس، أي أنهم كانوا منتجي طعام، وجامعي طعام، في الوقت نفسه. ويميل تشايلد إلى اعتبار الحضارة الناطوفية ممثلة لمرحلة الانتقال من جمع الطعام، وإنتاجه.

يبدو أن الناطوفيين كانوا البادئين، أو الممارسين الأُوَل، على الأقل، لفن الحصاد، الذي بقي في أقدم المستعمرات الزراعية للعصور الحجرية الجديدة. فإن مناجلهم الغريبة كانت مكوَّنة من مقبض عظمي مشقق، فيه قطع قصيرة من الصوان كالأسنان، وقد وجد مثل هذه المناجل، أيضًا، في أقدم المستعمرات في الفيوم في مصر، وفي تل حسونة في

شمال العراق، وفي سيالك قرب كاشان في فارس. وهكذا يتضح أن نشر الزراعة لم يكن مجرد انتشار المعرفة بالحنطة، والشعير، وحسب، بل كان، إلى جانب ذلك، تعميم أداة الحصاد الغريبة المعقدة، التي استعملها الناطوفيون، لأول مرة، كما نعلم.

قد يكون الناطوفيون زرعوا محصولًا ما، أو جمعوا أعشابًا، لكنهم، إلى جانب ذلك، قاموا بصيد الأسماك، من البحيرات، والمستنقعات، وبعض المجاري المائية الدائمة، التي أقام الناطوفيون بجوارها. وقد دلت على هذا الصيد الخطاطيف، والصنابير، وبقايا عظام الأسماك، التي وجدت. كما كان صيد الحيوانات نشاطًا مهمًّا، أيضًا، دلت عليه البقايا العظمية. فقد استطاع أصحاب الحضارة الناطوفية استئناس الكلب، ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة، تقريبًا، لكلب في طبقات أحد كهوف الكرمل أول برهان على تدجين الحيوانات. غير أننا لا نعرف هل هناك حيوانات أخرى، استأنسها الإنسان، إلى جانب الكلب، في هذه الفترة. رغم أنه عثر على بقايا حصان، وماشية، في الرواسب الناطوفية. وقد توصلت الآنسة «بيت» (A. Bate) بالمتحف البريطاني، عن طريق دراستها لهذه البقايا، إلى أنها ترجع إلى بعض الحيوانات البرية.

يكفينا القول بأن الزراعة كانت أهم عامل دفع الإنسان نحو الحياة المستقرة، فنتج عن ذلك ظهور المجتمعات الصغيرة الأولى، ثم تطورت هذه المجتمعات إلى قرى، ثم إلى مدن صغيرة وكبيرة، وقد رافق هذا تطور مهم في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والفنية، والسياسية .

من الناحية البشرية، ينتمي أصحاب تلك الحضارة إلى عنصر البحر المتوسط، تدل الهياكل العظمية التي عثر عليها في مواضع مختلفة أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، يمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق ـ المسكون ـ مثل كثير من العرب الحاليين. فقد اكتشفت في مقبرة قديمة تبعد عشرين ميلًا عن القدس نحو خمسين هيكلًا عظميًّا[١٣].

تدل هذه المعطيات القليلة على أن القدس كانت تتمتع بمكانة عظيمة في تلك العصور. فإنه يصح لنا أن نطرح هذه المعضلة، على أهل الاختصاص، لماذا فشلت جميع المساعي للبحث عن دليل أثري واحد يثبت وجود هيكل سليمان المزعوم، أسفل الحرم الشريف بالقدس، وبالتحديد تحت المسجد الأقصى؟! وباعتبار أننا نعثر في بلادنا فلسطين، عامة، على آثار من العصور الحجرية القديمة، تعود إلى نحو مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنةٍ خلت، ونعثر في القدس على آثار تعود إلى اثني عشر ألف عام خلت، فإننا نتعجب من عدم وجود أدلة أثرية على وجود هذه النفايات البشرية، وهيكلهم المزعوم.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) أنطوان نمنم، **المواقع الأثرية بفلسطين في فترة ما قبل التاريخ**، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الثاني، بدون دار نشر أو بلد، ١٩٨٤، ص١١.

(٢) د. بشار خليف، **دراسات في حضارة المشرق العربي القديم**، ط١، مركز إنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٢، ص١٥٢ـ نقلًا عن: الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم، مجموعة من الباحثين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠.

(٣) د. سلطان محيسن، **بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل**، ط١، الأبجدية للنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ٧١.

(٤) د. تقي الدباغ ود. وليد الجادر، **عصور ما قبل التاريخ**، مطبعة جامعة بغداد، بغداد،١٩٨٣،ص٤١.

(٥) فرنسيس أور، **حضارات العصر الحجري القديم**، تعريب: د. سلطان محيسن، ط٢، مطابع الألف باء ـ الأديب، دمشق، ١٩٩٥، ص ٦٨.

(٦) محيسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٥.

(٧) نمنم، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢.

(٨) محيسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٤.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ١٠٤.

(١٠) د. محمد السيد غلاب ود.يسري الجوهري، **الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره**، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص (٢١٤-٢١٥).

(١١) محيسن، **مصدر سبق ذكره**، ص (٣٨-٣٩).

(١٢) وليم أولبرايت، **آثار فلسطين**، ترجمة: زكي إسكندر ود. محمد عبد القادر محمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٩٧١، ص٥٨.

(١٣) أحمد الدبش، فلسطين أصل الحضارة، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٣١، السنة ٢٥، شباط/ آذار، ٢٠٠٣، ص (٨-١٨).
لمزيد من التفاصيل يراجع:

ـ غولايف، **المدن الأولى**، ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.

ـ جوردون تشايلد، **تقدم الإنسانية**، ترجمة:د.محمد السيد غلاب، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧.

ـ جاك كوفان، **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**، ترجمة:د. سلطان محيسن، ط١، مطبعة الشام، ١٩٨٨.

ـ د. رشيد الناضوري، **جنوبي غربي آسيا وشمال أفريقيا**، الكتاب الأول، والكتاب الثالث، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٨٦.

ـ كارلتون أس. كون وإدوارد أ. هنت الابن، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

ـ هنري فرانكفورت، **فجر الحضارة**، ترجمة: ميخائيل خوري، منشورات مكتبة الحياة بدون تاريخ.

ـ ج. هاوكس ول. وولي، **أضواء على العصر الحجري الحديث**، ترجمة: د. يسري عبد الرازق الجوهري، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

obeikan.com

الفصل الثاني

القدس... قيمتها وموقعها في الحضارة الإسلامية

رضوى عبد القادر

القدس هي القلب الفلسطيني، الذي هو القلب العربي ـ الإسلامي؛ لذا سكنت في القدس أهم الحضارات، التي شهد لها العالم أجمع بالمجد، والتميُّز، وقد بدأت بالحضارة الكنعانية، تلتها الحضارة الإسلامية، التي استمرت زُهاء ثلاثة عشر قرنًا متصلة، عدا قرن واحد، كان من نصيب احتلال الفرنجة.

الدائرة الحضارية الإسلامية

مصطلح «الدائرة الحضارية» يدل على «حضارة نشأت، وازدهرت في رقعة من الأرض، يسكنها أقوام، وملل، وشعوب، وقبائل، وأمم شاركوا في إقامتها، وانتموا إليها بثقافاتهم المحلية، والقطرية». وهذا المصطلح متصل بالثقافة، والحضارة، والعمران، وهو يتضمن عنصرًا جغرافيًّا، يمثل المكان، وآخر بشريًّا سكانيًّا، يضم المقيمين في المكان، وثالثًا، تراثيًّا ثقافيًّا، حضاريًّا، عمرانيًّا، تحكمه رؤية كونية، يوفرها الدين ، في غالب الأحيان، والفلسفة الوضعية، حينًا، كما في العلمانية الغربية. ويشير الواقع الحضاري في عالمنا إلى أن دائرة الحضارة الغربية ـ الإسلامية هي واحدة من ثماني دوائر حضارية والحضارات السبع الأخرى هي: «الغربية، بفرعيها، الأوروبي، والأمريكي الشمالي، والأمريكية الجنوبية ؛ والصينية الكنفوشيوسية، واليابانية؛ والهندوكية ؛ والأرثوذكسية السلافية؛ والأفريقية – والحلقة المركزية في دائرة الحضارة الإسلامية، هي جزء من الوطن العربي، في جناحه الشرقي، وفلسطين والقدس في بؤرته، وتشغل هذه الدائرة قلب قارات آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والعالم القديم، وتجاوز خمسًا من الدوائر الحضارية الأخرى»[1].

لعل من أخطر حقائق واقع دائرة الحضارة الإسلامية أنها تعاني، منذ أكثر من قرن، من غزوة صهيونية استعمارية استيطانية، استهدفت قلب الوطن العربي، وقامت الدول الاستعمارية الأوروبية، وبخاصة بريطانيا، بدعم هذه الغزوة، لتمكين سيطرتها على المنطقة، وفلسطين هي عين القلب من العالم الإسلامي، دينيًّا أولًا، ثم جغرافيًّا. وتهديد الخطر الصهيوني لا يقتصر على العالم العربي، وحده، إنما يمتد إلى العالم الإسلامي[٢].

لمعرفة وقائع هذه الحضارة الإسلامية، خاصة في القدس، لا بد من المرور على الفتح الإسلامي لها، وتتابع العصور الإسلامية عليها، وإنجازات كلٍّ منها.

الفتح الإسلامي للقدس

توجهت خيول الفتح الإسلامي نحو بلاد الشام، منذ عهد الصديق، رضي الله عنه، ولكن فتح مدينة القدس تم على يدي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عام ١٧هـ/ ٦٣٨م. وقد قدم إلى المدينة لاستلام مفاتيحها، من بطريركها صفرانيوس، راكبًا على بعير أحمر، عليه غرارتان، في إحداهما سويق، وفي الأخرى تمر، وبين يديه قربة مملوءة بالماء، وخلفه حفنة للزاد. وكان معه ثلة من الصحابة الأجلاء، منهم الزبير، وعبادة بن الصامت، وأثناء مسيره كان يتناوب ركوب البعير مع خادمه، وعندما بلغوا سور القدس، كان دور الركوب لخادمه، فلما رآه المحاصرون من النصارى، أخذوا بمقود الراحلة، وغلامه فوقها، أكبروه، وبكى بطريركهم صفرانيوس، وقال: «إن دولتكم باقية على الدهر، فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة». ولما تسلم ابن الخطاب مفاتيح المدينة، كتب للنصارى أمانًا، وهو المشهور بـ «العهدة العمرية»، وقد أمَّنهم فيها على أموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، وكان من شروط النصارى، فى الأمان، ألا يسكن اليهود مدينة القدس. وبقيت القدس تحت الحكم الإسلامي، منذ الفتح العمري (١٧هـ)، وحتى اجتزأ اليهود قسمًا منها، عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، ثم احتلوا ما تبقى منها، عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م[٣].

بعد الفتح، أزال عمر بن الخطاب، بيده، ما تراكم على الصخرة من قاذورات، حيث وجد عليها زبلًا كثيرًا، مما طرحته الروم، غيظًا لبني إسرائيل، فبسط ابن الخطاب رداءه، وجعل يكنس ذلك الزبل، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل. وهنا كانت صخرة بيت المقدس. ومضى نحو محراب داود، فصلى فيه، ثم قرأ سورة ص، وسجد[٤]. وتتبع المسلمون مساجد الأنبياء، واحدًا واحدًا، ابتداءً من إبراهيم، فأعادوا بناءها، وحافظوا على قدسيتها، وطهَّروها، تطهيرًا. وبدأ اليهود، بعد الفتح الإسلامي، يعودون إلى المدينة؛ للزيارة. ثم العمل، والسكن، والعبادة[٥].

لم يفرّق المسلمون، زمن حكامهم الورعين، بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث، انطلاقًا من عدم تفريقهم بين أنبياء الله. وصارت لهم ذمة تُرعى، وعهد يُحفظ، وقامت في بيت المقدس حضارة روحانية فذَّة، وتلاصقت المساجد، والكنائس، والمعابد، وغلب على المدينة، بعد الفتح الإسلامي، اسم «بيت المقدس»، أو «البيت المقدس»[٦].

مكانة القدس في الإسلام

تتمتع مدينة القدس بمكانة جليلة وعظيمة، في الإسلام، وفي نفوس المسلمين، فهي المدينة المقدسة الثالثة، بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وهي[٧]:

ـ مسرى النبي الكريم، ومنها عُرج به إلى السماوات العُلا، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

ـ محضن المسجد الأقصى المبارك، الذي شُرع شد الرحال إليه، مع المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». (ثالث الحرمين). وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة». وعن الإمام أحمد، عن ميمونة بنت سعد، قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس؟ فقال لها: أرض المنشر والمحشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاتكم فيه كألف صلاة. قالت: أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: فليهد إليه زيتًا يُسرج فيه، فإنه من أهدى كان كمن صلى». وقد أشار شيخ من شيوخ الأزهر جليل، في ستينيات القرن العشرين، إلى الخلاف الواقع بين الروايات، في مقدار فضل الصلاة، في المسجد الأقصى، بأنه «لا يؤثر على جوهر الموضوع. فليس من الضروري معرفة المسلم لمقدار الثواب الذي يناله، بسبب الصلاة فيه، فإن مرده إلى الله سبحانه»[٨].

ـ أُولى القبلتين، حيث ظل المسلمون يُصلُّون إليه ستة عشر، أو سبعة عشر شهرًا، بعد الهجرة، إيحاءً باستمرارية الرسالة، ولاختبار مدى الاستجابة لها، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[٩] (البقرة: ١٤٣).

ـ موطن الطائفة القائمة على الحق، فقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأوائهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس».

ـ أرض مقدسة، طاهرة، مباركة، بنص القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٢١)، ولقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٧١).

ـ موطن الأنبياء عليهم السلام، ومهبط الوحي عليهم، وفيها أمَّ محمد ﷺ الأنبياء، في الصلاة، ليلة الإسراء.

ـ الثغر الذي عدَّه المسلمون منفذ العدو إلى الكعبة المشرفة، وقبر رسول الله؛ ولذا ما إن استقر لهم الأمر، حتى بادر المسلمون إلى سد هذا الثغر، وحمايته، كي يدرأوا عنهم خطرًا مروّعًا.

ـ عاصمة فلسطين، ومتحف آثارها الدينية، التي تجمعت مدة ١٣ قرنًا، وصلة الوصل بين الأقطار العربية. أشار مفكر إسلامي معاصر إلى أن القدس في الوعي الإسلامي ثالثة المدن المقدسة، وفي السيرة النبوية هي منتهى مسرى الرسول ﷺ، ومبتدأ معراجه إلى السماء، حيث فُرض ركن الإسلام الأعظم ـ بعد الشهادتين ـ وعماد الدين (الصلاة)، والقدس في التاريخ الإسلامي المتصل، هي قبلة العلماء الصالحين، ومقصد الفقهاء والدارسين، ومهوى أفئدة الزهَّاد والصادقين، حتى قيل في شأنها: «إنه ليس في بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر بما حوته من مقدسات، كمدينة بيت المقدس، فما فيها موضع شبر إلا صلى فيه نبيّ، أو قام فيه ملك، والقدس في الحضارة الإسلامية قطعة حيَّة من مآثرها، وصورة متكاملة لإنجازاتها العلمية، والتربوية، والمعمارية، والاقتصادية، يشهد لذلك السجل الغني في المكتبة العربية، وفي اللغات الأجنبية، لكتب تاريخها، وعمارتها، ومدارسها، ومعالم تطوّرها عبر العصور، وقد زاد

الله بيت المقدس شرفًا، إذ أنزل على رسوله، أثناء وجوده فيها (ليلة الإسراء)، قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥). ولا شك أن نزول تلك الآية، في بيت المقدس، زاد قصة الإسراء جلالًا، وزاد المدينة المقدسة قيمة في الضمير الإسلامي[١٠].

كما أشير إلى فضائل بيت المقدس التي لا تحصى، ومنها: فضل الإسراء إليها، فلما أراد الله أن يعرج نبيه ﷺ إلى سمائه، جعل طريقه عليه إظهارًا لفضله، وليجمع له فضل البيتين، وشرفهما، وإلا فالطريق من البيت الحرام إلى السماء، كالطريق من بيت المقدس؛ وفي قوله تعالى: «والتين والزيتون». وقال عقبة بن عامر: التين «دمشق» والزيتون «بيت المقدس». وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وهو سور بيت المقدس. ومن السُّنة أحاديث كثيرة، ذكرنا منها سابقًا، ومنها، أيضًا، عن عمران بن حصين، أنه قال: قلت يا رسول الله: ما أحسن المدينة! قال: كيف لو رأيت بيت المقدس؟ قلت: وهو أحسن؟ فقال ﷺ: «كيف لا يكون، وكل من فيه يُزار، ولا يزور، وتهدي إليه الأرواح، ولا يهدي الروح، ولا يهدي روح بيت المقدس، إلا أن الله أكرم المدينة، وطيَّبها بي». وقال كعب: لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس، فينقادان إلى الجنة جميعًا، وفيهما أهليهما. والعرض والحساب ببيت المقدس.

قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة، فلينظر إلى بيت المقدس». وقال ابن جريج عن عطاء، إنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يسوق الله خيار عباده إلى بيت المقدس، وإلى الأرض المقدسة، فيسكنهم الله إياها». وفي بيت المقدس، بشَّر الله زكريا بيحيى، وسخَّر الله تعالى لداود الجبال، والطير، وكان الأنبياء (عليهم السلام) يقربون القرابين، وأوتيت مريم (عليها السلام) فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وولد عيسى (عليه السلام)، وتكلم في المهد صبيًّا، ورفعه الله إلى السماء منه، وأنزلت عليه المائدة، ويغلب يأجوج ومأجوج على الأرض كلها، غير بيت المقدس، وتزف الجنة يوم القيامة بيت المقدس، وينصب الصراط على جهنم بأرض بيت المقدس، وتوضع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس. وقال سيدنا علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) «ليأتين زمان يقول أحدهم ليتني تبنة لبنة في بيت المقدس. وأحب الشام إلى الله بيت المقدس، وأحب جبالها إليه الصخرة»[١١]. وثمة حديث قدسي عن سيدنا محمد ﷺ، عن الله تعالى: «أنت جنتي، وقدسي، وصفوتي من بلادي، ومن سكنك فبرحمة مني، ومن خرج منك، فبسخط مني عليه»[١٢] صدق رسول الله، فيما بلغ عن رب العزة. وقد بشرنا الله بنصره، عندما ننتصر لدين الله، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وبشَّرنا بفتح بيت المقدس، حيث قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩). وبشرنا الرسول الكريم بذلك في قوله: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١٣]. ولقد عمل الصهاينة بهذا الحديث، حين زرعوا في فلسطين المحتلة الكثير من الغرقد.

لذا فقد أثبتت مكانة القدس في كتاب الله، وسنة نبيه محمد ﷺ، بل في سيرة الصحابة، أيضًا، ولهذه المكانة والأهمية توالى الخلفاء عليها، متسارعين، أولوها رعايتهم، لترك بصمة لكل منهم، في بيت القداسة والطهر «بيت المقدس»، كلٌّ حسب ظروفه، وإمكاناته، فضلًا على كونها أهم المدن، التي تجمع بين الديانات السماوية الثلاث، من مساجد، وكنائس، ومعابد يهودية.

في عهد عمر

أول عمل قام به عمر، بعد فتحه بيت المقدس، أن زار كنيسة القيامة، والصخرة، التي راح يحفن التراب عنها، ومعه الصحابة (كما ذكرنا سابقًا)، وبرزت الصخرة، وأمر عمر بأن يبنى هناك المسجد الأقصى، وبعد أن انتهى عمر من زيارة هذين المكانين (القيامة، والصخرة)، راح يتجول في شوارع المدينة، ويغشى أسواقها، وكانت هذه لا تزال تئن من الخراب، الذي أحدثه الغزو الفارسي (٦١٤م)، فرأى بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإداري، والقضائي، أولًا، فلم يتوان. ففرض للمسلمين الفروض، وأعطى العطايا، ثم وضع التاريخ الهجري، ودوَّن الدواوين؛ وقسَّم البلاد إلى مناطق، وعيَّن لكل منطقة أميرًا، ثم رتَّب البريد، ليؤمِّن الاتصال بين هذه المناطق، وأقام العيون (الاستخبارات)، وعيَّن قاضيًا (مفتشًا)، يطوف على المأمورين، ويحقق الشكايات. وأسس ابن الخطاب «الحسبة»، وهو نظام يقابل ما يعرف اليوم بـ «البلدية»، ومن مهام هذه البلدية: تنظيف الشوارع، وجمع القمامة، ومراقبة الموازين، والمقاييس؛ وتنظيم الأسواق، والتجارة، والحراسة، فضلًا على الرفق بالحيوان، وأوكل ابن الخطاب أمر إدارة الحسبة الأولى إلى أحد قادته، وهو يزيد بن أبي سفيان، ولقَّبه بالمحتسب. كما هدم عمر البناء المحدث، في وسط السوق، وحظر على الناس الازدحام في الطرق، وحضهم على التجارة، قائلًا: «لا تلهكم الرياسة وحبها، ولا يغلبنكم الغرباء على التجارة، فإنها ثلث الإمارة». وأقام على بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان، على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة، وانتدب للصلاة، من بعده، سلامة بن قيصر[١٤].

بجانب إعادة بناء المسجد الأقصى، تم في عهد عمر بناء المآذن، والأروقة، والمساطب، والصهاريج، وأقيم في صحن الصخرة، وبجوارها قبَّة المعراج، ومحراب النبي، وقبر يوسف، وقبة سليمان، وقبَّة الخضر، ومحراب داود، وذلك ضمن تتبع المسلمين لمساجد الأنبياء، ابتداءً من إبراهيم (عليه السلام)[١٥].

في عهد الأمويين

ضُمت القدس إلى الشام (٢١هـ/ ٦٤١م)، وخضعت لحكم معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، فأقام عليها سلامة بن قيصر، وكان للقدس، يومئذٍ، سور، عليه ٨٤ برجًا، وله ٦ أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها، ويخرجون. وكان فيها مسجد مربع الأضلاع، بُني من حجارة، وأعمدة ضخمة، نقلت من الأطلال المجاورة، وهو يتسع لثلاثة آلاف من المصلين (المعتقد أن هذا هو المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب) وكان أهل بيت المقدس يومئذٍ يأتون بالأخشاب التي يحتاجون إليها، من أجل البناء والوقود[١٦].

لقد بُذلت جهود مكثفة، خلال العهد الأموي، لإعادة بناء مدينة القدس، كان أولها في عهد معاوية، عندما زار المدينة، وصلى في مسجدها (٦٤١م)، لكن البناء الحقيقي، والتغيير الجذري لمعالم المدينة كان في عهد عبد الملك بن مروان، خامس الخلفاء الأمويين، الذي أمر ببناء قبة الصخرة، بإشراف المهندس، يزيد بن سلام، بتصاميم ماثلة للعيان، حتى اليوم. كما رصد ابن مروان، لبناء مسجد الصخرة خراج مصر، لسبع سنين، ونقش اسمه على القبة، مع تاريخ البناء (٧٢هـ). ثم توالى الخلفاء، والأمراء، فجددوا، وزخرفوا، حتى أضحى المسجد، بشهادة أحد المؤرخين الغربيين: «من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة، لا بل أجمل الآثار التي خلدها التاريخ». كما أتم الوليد بن عبد الله بناء المسجد الأقصى، الذي بدأه والده، وتوالى على تجديده، وتزيينه بالنقوش، والقناديل، والسجاجيد عدد

كبير من الخلفاء، والأمراء، آخرهم الملك المغربي، محمد الخامس، الذي فرش مسجد الصخرة بالسجاد الفاخر، وفيه تلقى خطبة الجمعة[١٧].

استمرت أعمال البناء، في صحن المسجد، في عهد مروان بن عبد الملك، تبعه ابنه سليمان، الذي زار القدس، وأمر ببناء مدينة الرملة، لتكون العاصمة الإدارية، حتى يتم الحفاظ على بيت المقدس، كمدينة للعبادة، والتعليم، كذلك زار الخليفة الأموي الثامن، عمر بن عبد العزيز، مدينة القدس، وطلب من جميع ولاته زيارة القدس، وحلف يمين الطاعة والعدل، في معاملة الناس في مسجدها. وقد أشار الباحثون إلى أن سور المدينة الشمالي بقي على شكله الأصلي، خلال حكم الأمويين، بينما ثمة شك حول القسم الجنوبي من السور[١٨].

قام الخلفاء، والأمراء، والصالحون بتعمير المسجدين: الأقصى، والصخرة، فكانا من أجمل وأروع ما بناه المسلمون في حواضرهم، بل من أجمل ما خلّده الفن المعماري من آثار في العالم. وأوقفوا عليهما معظم الأراضي المحيطة ببيت المقدس. كما قاموا بإضافة العديد من المساجد، والقباب، والمحاريب، والأروقة، والمآذن، والمدارس، حتى أضحت مدينة القدس متحفًا لا مثيل له[١٩].

حفظ التاريخ لعبد الملك بن مروان أنه حوَّل الدواوين إلى العربية، ونقش الدراهم، والدنانير العربية، (الله أحد) على وجه، و(الله الصمد) على الوجه الآخر. ويذكر أنه اعتنى بفتح الطرق، وتعبيدها، وهنا ازدهرت القدس، في عهده ، وعهد ابنه الوليد، وغدت واحدة من المراكز العظيمة، في الدولة الأموية، ففضلًا على إقامتهما مباني الحرم الشريف، فإنهما أعادا بناء الأسوار المحيطة بالمدينة، وبنوا القصور والأبنية الفخمة، بجوار الزاوية الجنوبية، لسور الحرم، التي استمرت مسكونة من قبل أمراء القدس في العهود الأموية، والعباسية، والفاطمية[٢٠]. وقد تمتع اليهود، خلال الحكم الأموي، بروح التسامح، حيث سمح لهم الخلفاء الأمويون بالعودة إلى القدس[٢١].

القدس وبنو العباس

أولى العباسيون اهتمامهم بمدينة القدس، فزارها الخليفة المنصور (٧٥٤م)، وأعاد بناء المسجد الأقصى، الذي تصدَّع، إثر زلزال ألـمَّ بالمدينة[٢٢]، ثم أصابه زلزال آخر، في عهد المهدي (١٦٣هـ/ ٧٧٩م) وقد روى الطبري أن المهدي ذهب بنفسه إلى بيت المقدس، وأعاد بناء المسجد الأقصى[٢٣].

بالنسبة للعصر العباسي، بلغت القدس أوج العز والمجد، في عهد الخليفة، هارون الرشيد (٧٨٦م)، الذين عامل النصارى أحسن معاملة، فسمح للإمبراطور الفرنسي، شارلمان، بترميم الكنائس، وبناء كنيسة العذراء، حيث تقوم على آثارها كنيسة الدباغة. كما تعهد الرشيد بحماية المسيحيين، الذي يفدون إلى القدس، بقصد الزيارة. واتسعت مملكة المأمون (٨١٣م)، ابن هارون، وخليفته، وزاره عدد كبير من العلماء، وأهل الفضل، إلا أنه في عهد المعتصم بالله (أخي المأمون)، بدأ تقهقر الدولة العباسية، حيث كان المعتصم أُميًّا، وجاهلًا، وهو أول من جنَّد الأتراك، واستعان بهم في الحرب، وقطع العطاء عن العرب، ولم ينقض وقت طويل، حتى أصبح الخلفاء من بني العباس آلات بأيدي مواليهم[٢٤].

توالت سنوات الضعف على الدولة العباسية، وبعد أن بويع القاهر بالله (٩٣٢م)، وقبع الخلفاء العباسيون

في قصورهم، اقتصرت سلطتهم على الشؤون الدينية، ومكثوا على تلك الحال، إلى أن زحف هولاكو على بغداد (١٢٥٧م)، وقضى على الخلافة العباسية[٢٥].

الفاطميون والقدس

أصبحت القدس فاطمية، سنة ٩٦٦م، وكان فيها، يومئذ، عشرون ألفًا من أهلها، جلهم من الشيعة، وكانت القدس مشهورة بخصوبة تربتها، وبزيتها، وصابونها، وقطنها، وعنبها، وزبيبها، وتفاحها، وخروبها. وأما من حيث الأهمية السياسية، فقد احتلت القدس الدرجة الثانية، بعد الرملة. ومن المؤسسات الفاطمية، في بيت المقدس (البيمارستان)، وهو أول مستشفى أسس فيها، وكان ينفق عليه مبالغ طائلة، تأتي عن طريق البر والإحسان، وتقاضى أطباؤه راتبًا مقطوعًا، فضلًا على دار العلم، وهي فرع لدار الحكمة، التي أسست، في مصر، عام ١٠٠٤[٢٦].

تزايدت حدة النزاع بين اليهود، والنصارى، ولكن الفترة الذهبية لليهود جاءت مع وصول الفاطميين، ذوي الأصول المغربية للحكم. فقد كان لليهود في المغرب، جالية كبيرة، ذات مركز مرموق، دفعت الفاطميين إلى إعطاء عدد من اليهود القادمين من المغرب، والذي أعلنوا إسلامهم وظائف مهمة، كان من نتائجها السماح لليهود بالسكن، والإقامة في بيت المقدس، أعداد كبيرة، وخاصة في حارة اليهود. وفي تلك الأثناء، أوغر اليهود قلوب الحكام الفاطميين ضد النصارى، فوقعت الفتنة بينهما، كان من ذيولها إحراق كنيسة القيامة، حيث كان لليهود دور بارز في عملية الإحراق تلك. ورغم تلك الحادثة، فإن القدس ظلت مدينة مزدهرة، ويصف حالتها، آنذاك، الرحالة (ناصر خسرو)، بقوله: «القدس مدينة عظيمة جدًّا، يسكن بها عشرون ألفًا، وكثيرًا ما يحج إليها المسلمون، عندما لا تتيسر لهم وسائل الحج إلى مكة، ويشبعون بها رغباتهم الدينية، فيضحُّون الأضاحي، ويتقربون إلى الله بالصلاة والعبادة، ويصل عدد الحجيج، إلى القدس، نحو ٢٠ ألفًا»[٢٧].

الأيوبيون والقدس

احتل الفرنجة القدس، سنة ١٠٩٩م وهَبَّ صلاح الدين الأيوبي، بعد انتصاره في معركة حطين (في الشام)، إلى توجيه المعركة إلى القدس، وانتصر فيها على الفرنجة، وتم تحريرها، سنة ١١٨٧م، لكن صلاح الدين لم يعامل أعداءه بمثل ما عاملوا المسلمين، حين احتلالهم، وبقيت المدينة تحت سلطة الأيوبيين، حتى عام ١٢٤٤م، ولقد بذل الأيوبيون جهدًا معماريًّا كبيرًا، في القدس، شمال الأبنية السكنية، والأماكن المقدسة، حيث إن معظم الأعمال الحالية، في المسجد الأقصى، أنجزت خلال عهد الملك المعظم عيسى، ابن أخي صلاح الدين (١٢٣٩م)[٢٨].

لقد شرع ملوك بني أيوب في إضافة الآثار الجميلة بالمسجد الأقصى، منهم الملك العادل، سيف الدين أبو بكر، أخو السلطان صلاح الدين، وتولى الملك المظفَّر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، كنس أرض قبة الصخرة بيده، ثم غسلها بالماء، مرارًا، ثم وأتبع الماء، بماء الورد، وطهَّر حيطانها، وغسل جدرانها، وبخَّرها. وكذلك الملك الأفضل نور الدين علي، والملك العزيز عثمان، فعلا في الأقصى أنواع من البر والخير. وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يحمل الحجارة على سرج فرسه، وينقلها إلى موضع بناء سور المدينة. تولى ذلك بنفسه، والجماعة خواصه، والأمراء، واجتمع لذلك العلماء، والقضاة، والصوفية، والأولياء، وحواشي العسكر، والأتباع، فبنى، في أقرب مدة، ما يتعذر بناؤه في

سنين. ويوجد، إلى اليوم، في الطرف الجنوبي من ساحة الصخرة، شاهد يذكر فيه تعمير صلاح الدين الخندق، وتوالى على تجديده، وتزيينه بالنقوش والقناديل[٢٩].

لقد وضع صلاح الدين منبرًا عظيمًا، في المسجد الأقصى، كان السلطان محمود نور الدين، قد أمر بصنعه، في حلب، عندما عزم على فتح القدس، ولكن المنيَّة عاجلته عن فتحها، فقام بذلك صلاح الدين، وأحضر المنبر من حلب، وجعله في موضعه، من المسجد، وبقي فيه، حتى أحرقه الصهاينة ١٩٦٩م[٣٠]

المماليك والقدس

بموت الصالح أيوب، تولت زوجته، شجرة الدر، السلطة، في مصر، عام ١٢٥٠م، ويُعتبر هذا التاريخ بداية قيام دولة المماليك، فقد كانت شجرة الدر أقرب إلى المماليك، منها إلى الأيوبيين. ولقد شهدت القدس، في عصر المماليك، مرحلة أخرى من مراحل العمران الحضاري الإسلامي، فقد نهج المماليك نهج الأيوبيين، في العناية بمدارس العلم، وبناء المساجد، والمنافع العامة، وتركوا آثارًا كثيرة في بيت المقدس. كما أن سلاطينهم كسوا قبة الصخرة المقدسة، من الخارج، بالفسيفساء[٣١].

كما نهج المماليك نهج الأيوبيين في سماحتهم، مع أهل الكتاب، نصارى، ويهودًا، وحين زارها الرحالة اليهودي، عبودية، ١٤٨٨م، ذكر أن ٧٠ عائلة يهودية تسكنها، وأن فيها معبدًا لهم، ملاصقًا لمسجد المسلمين[٣٢].

لما قُتل قطز، أقام الأمراء، بدلًا منه، الأمير ركن الدين بيبرس (١٢٦٠م)، (الظاهر بيبرس)، الذي زار القدس، مرتين عامي ١٢٦٢م، ١٢٦٥م، ومن المنشآت، التي تمت في عهده: (دار الحديث)، بجوار التربة الجالقية، على طريق باب السلسلة، (المدرسة الأباصيرية)، تجاه الرباط المنصوري، بجوار باب الناظر. كما جدد بيبرس ما كان قد تهدم من مسجد الصخرة، وجدد، أيضًا، قبَّة السلسلة، وزخرفها، وأنشأ خانًا. ووقف بعض القرى، لينفق من ريعها على مصالح المسجد، في كل عام، والفصوص التي على الرخام، في مسجد الصخرة، من الظاهر، من آثار بيبرس (١٢٧٠م)، وهو الذي بنى على قبر موسى (عليه السلام)، عند الكثيب الأحمر، قبل أريحا، قبة ومسجدًا (١٢٦٩م)[٣٣].

في عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٨٠م)، قامت بالقدس منشآت عديدة، منها: (رابط قلاوون)، ويُسمى، أيضًا، الرباط المنصوري، أنشأه عام ١٢٨٢م، ووقفه على الفقراء من زوَّار القدس؛ و(المسجد القلندري)، سنة ١٢٨٧م، الواقع في طريق دير اللاتين؛ و(الكبكية)، سنة ١٢٨٩م، يسميها الناس القبقية، وهي قبة جميلة، واقعة في تربة ماملا، وإلى الشمال الشرقي من البركة، فيها ضريح الأمير علاء الدين آيد، وغدي بن عبد الله الكبكي. وفي عهد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، قامت منشآت أخرى، منها: رباط الكرد (١٢٩٣م)؛ المدرسة الدوادارية؛ الباب العتم (١٢٩٥م)؛ المدرسة السلامية (١٣٠٠م)؛ المدرسة الوجهية (١٣٠١م)؛ المدرسة الوصلية؛ وغيرها من المدارس[٣٤].

رصد المماليك جزءًا من ثرواتهم الضخمة، التي عادت عليهم من وراء التجارة، في رعاية مقدسات المسلمين، كما وفروا أسباب الحياة الطيبة في القدس[٣٥].

خلال الحكم المملوكي، شهدت القدس مجدًا ذهبيًّا، من الناحيتين الحضارية، والمعمارية، حيث ابرز المماليك القيمة الروحية، والدينية للمدينة، ونشطوا في بناء أعداد كبيرة من المدارس، ودور العلم، والمساجد، التي لا تزال موجودة حتى الآن. كما شهدت القدس وفود كثير من الأُسر العربية المسلمة، من المشرق والمغرب. وتشير الكثير من المصادر إلى أن مدينة بيت المقدس غدت، في عصر المماليك، مهوى أفئدة كثير من العلماء، وطلاب العلم، بجانب صبغتها الدينية، مع تعدد مدارسها، التي حظيت برعاية، وعناية السلاطين، والأمراء، والكثير من أهل البر، والذين جاؤوا إليها بالأموال، والعقارات، التي خُصصت لأعمال الخير، وكان ينفق من ريعها على العلماء، وطلبة العلم. فضلًا على تعدد مساجدها، وزواياها، التي تعقد فيها حلقات التدريس، كذلك أنجبت مدينة القدس الكثير من العلماء، الذين أثروا الحياة العلمية بنتاجهم، بل إن كبار علماء ذلك العصر، وفدوا إليها، وتلقوا جانبًا من تعليمهم. وإذا قورن هذا العدد من العلماء، أو الفقهاء بالنسبة لعدد أهالي القدس، لتأكد لنا أن العلوم الدينية، بوجه خاص، قد حظيت بسهم وافر، في تلك البيئة، التي يغلب عليها الطابع الديني، ومن الطبيعي أن ينبع ذلك الاهتمام بتلك العلوم، مما اتسمت به الحياة في مدينة القدس، من سمات دينية، جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبة للفكر الإسلامي، في ذلك العصر، وكان من أهم تلك العلوم: التصوف؛ علم القراءات؛ الأدب والنحو؛ علم التاريخ؛ الرياضيات؛ والطب[٣٦].

لعل من أهم أسباب انتعاش الحياة الثقافية، وإقامة العلماء ببيت المقدس، أن الكثير من العلماء، لم يستسيغوا الإقامة الطويلة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، مع عظم المكانة الدينية لهما، وذلك لقسوة الحياة فيهما، وكذلك بعدهما عن مركز النشاط الحضاري، في العالم الإسلامي، في عصر المماليك. أما القدس، فبجانب ارتباطها بالوجدان الإسلامي، بكونها أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى الرسول، فإن الحياة فيها أطيب، نسبيًّا، لاعتدال جوها، فضلًا على وقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة الإسلامية، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون، خاصة المشتاقين، بعد احتلال الفرنجة لها[٣٧].

في بداية العصر المملوكي، لم نجد لليهود أثرًا بالمرة، على مدى مئتي عام، وظلت نظرتهم على القدس، في هذا الوقت، محصورة في أنها مكان للحج، فحسب، ولم يكن عند اليهود أي مطامع للبقاء هناك. ولكن مع التسامح الديني، الذي ميَّز فترة المماليك، ازداد عدد اليهود خاصةً، وسمح لهم ببناء معبد خاص بهم، في القرن الخامس عشر[٣٨].

أما عن القوة العسكرية لدولة سلاطين المماليك، فقد أثبتت فعاليتها، في الدفاع عن الإسلام، والمسلمين، ضد الأخطار المحيطة بالعالم الإسلامي، كانتصار المماليك في موقعة عين جالوت؛ وإتمام ما قام به صلاح الدين، من حركة الاسترداد، فكان اهتمام المماليك الرئيسي تدعيم نظامهم العسكري، واستغلال الشعوب التابعة لهم. كما هيمنوا على الحياة الاقتصادية[٣٩].

القدس والدولة العثمانية

بعد الانتصار الحاسم، الذي حققه السلطان العثماني، سليم الأول، في معركة مرج دابق (شمال سوريا)، في آب/ أغسطس ١٥١٦م، أصبحت القدس سنجقًا من ولاية دمشق، وقد شهدت الفترة الأولى للحكم العثماني إنجازات

معمارية كبيرة، فقام سليم الأول بحل مشاكل المياه في القدس، حيث مد إليها المياه من برك سليمان، وأنشأ ثلاث برك داخل المدينة[٤٠].

حين تولى ابنه، السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٠م) عني بالقدس، فرمم قبة الصخرة، وأعاد تبليط المسجد الأقصى، وعمَّر جدران الحرم الشريف، وأبوابه، وأنشأ عددًا من السبل، وأصبح يعرف بخادم الحرمين، في القدس، والخليل، إضافة إلى لقب «خادم الحرمين"، في مكة، والمدينة، وأمن السلطان سليمان الطريق بين يافا، والقدس؛ حماية للحجيج، وقام بترميم سور القدس، واستمر ذلك خمس سنوات (١٥٣٦ - ١٥٤٠م)، واقتضى نفقات طائلة، وكان هدف ذلك الترميم هو حماية المدينة من الغزو الأجنبي. من جهة أخرى، أولى السلطان سليمان مشكلة المياه المزمنة عناية كبرى، فخصصت مبالغ كبيرة من المال، لبناء المنشآت المائية، وإصلاحها، وصيانتها، كالقنوات، والبرك، والأسبلة، والحمامات[٤١].

في أواسط القرن السادس عشر، أقيمت في القدس، مؤسسة مهمة، هي تكية، أو عمارة (رباط ومطبخ)، خاصكي سلطان - أنشأتها خاصكي سلطان، زوجة سليمان، وهي روسية الأصل، سنة ١٥٥١م، وسرعان ما أصبحت تلك التكية من أهم المؤسسات الخيرية، في فلسطين، وكانت التكية مجمعًا بنائيًا ضخمًا، ضم مسجدًا، وخانًا، ورباطًا، ومدرسة، ومطبخًا، وكان المطبخ يقدم، يوميًا، مئات الوجبات إلى ضيوف الرباط، والصوفية، والطلبة، والفقراء، بشكل عام[٤٢].

اشتهرت القدس، في العهد العثماني، بصناعة العلب، والأدوات المدرسية، والبضائع الدينية، من خشب الزيتون، أو من الصدف، والشموع المختلفة. وكانت هذه تباع إلى الحجاج، الذين يفدون من كل حدب وصوب؛ بقصد زيارة الأماكن المقدسة، وكانت القدس مركزًا تجاريًا مهمًا، يصدِّر القمح منها إلى إنجلترا وبعض الدول الأوروبية، فضلًا على السمسم، والصابون، وزيت الزيتون. أما البضائع، التي هي في حاجة إليها، فقد كانت تستوردها من أوروبا، عن طريق مرسيليا، وتريستا، كالبضائع الصوفية، والحريرية، والخمور، والزجاج، والخشب، وما إلى ذلك من الأثاث المنزلي، وكانت المعاملات التجارية، كلها، تجري عن طريق الأمانة، والشرف، والاتفاق الشفوي، فلا عقود، ولا صكوك، ولا سمسرة، ولا تسجيل[٤٣].

تدل سجلات المحكمة الشرعية على وجود خمسة فروع رئيسية، من الصناعة في مدينة القدس، خاصة، في بداية فترة الحكم العثماني، وهي: الصناعات الغذائية، وتتمثل في استخراج الزيوت، وطحن الحبوب، وعصر الفواكه؛ صناعات النسيج والصباغة؛ الصناعات الجلدية؛ صناعة الصابون؛ الصناعات المعدنية (الحديدية، والنحاسية)[٤٤].

أنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس، عام ١٨٩٢م، وأُنشئ المستشفى البلدي، الكائن غربي المدينة، عند الشيخ بدر (١٨٩١م)، وجددت عمارة السبيل، المعروفة بسبيل قايتباي (١٨٨٢م)، ومنع إدخال التليفون (١٩٠١م) واستعمل اللاسلكي، وبنيت المدرسة الرشيدية، عند باب الساهرة (١٩٠٦م)، وأُنفق على عمارة الحرم القدسي ٣٠,٠٠٠ ليرة، كما تم رصف شوارع القدس، رصفًا جديدًا (١٨٨٥م)، ومعظمه موجود إلى يومنا هذا[٤٥].

عن «الحسبة»، التي أنشأها عمر بن الخطاب، وشملت مهام المحتسبة خلال الحكم العثماني، ضبط أسعار البضائع، وتعيين أماكن البيع، واختيار التجار، ومراقبتهم، خشية الغش، كذلك تنظيم عمليات البناء، والعتالة، وإصدار تصاريح خاصة بذلك، وفي عام ١٦٧٠م، بدأت الحكومة بتسمية المحتسب بـ «الأغا»[٤٦].

استثنيت الفترة الأولى للحكم العثماني، حيث في الثلث الأخير من القرن السادس عشر، بدأت تظهر تصدعات خطيرة في كيان الدولة العثمانية، وخاصة في السنوات الأخيرة من ذلك القرن، بسبب الانتكاسات المتلاحقة، لما سببته حروب العثمانيين، مع النمسا، من خسائر فادحة. وكان لهذه التطورات آثار سلبية على القدس، حيث صاحب ذلك تدهور في الأمن العام، وخاصة على الطريق المؤدي للمدينة. ومن أجل حماية الأمن العام، والمحافظة عليه، أُنشئت عدة قلاع، وزوِّدت بالرجال، والأسلحة، بيد أن هذه الإجراءات لم تنجح، ويرجع السبب في ذلك إلى تورط الحكومة العثمانية في الحروب، ولم تتمكن من تخصيص الأموال، والقوات الكافية لذلك. فضلًا على تصادف ذلك مع توجه أعداد كبيرة من يهود أوروبا إلى فلسطين، وجزء منهم إلى القدس، وقد حاول اليهود استصدار أمر من محمد علي باشا (إبان حكمه لولاية سورية [١٨٣٢ ـ ١٨٤٠م]) للسماح لهم بشراء الأراضي الزراعية، والعقارات، وتملكها، وإنشاء بعض الصناعات الخفيفة، لكن أعضاء مجلس القدس الشريف اعترضوا على هذا الطلب، فلم يسمح محمد علي لليهود، بعد ذلك، بالبيع أو الشراء للعقارات، والأراضي الزراعية[٤٧].

شواهد على قدسية القدس لدى المسلمين[٤٨]

١ ـ **المدارس الإسلامية القديمة**، ويزيد عددها على أربعين مدرسة، يعود تاريخها إلى العهد المملوكي، وكانت من أهم وظائفها تدريس الفقه والحديث.

٢ ـ **الجوامع**، والمساجد مثل: المسجد الأقصى، جامع عمر، جامع النساء، مسجد ولي الله محارب، جامع القلعة وغيرها حوالي ٢٤ جامعًا ومسجدًا.

٣ ـ **الزوايا**، وبنيت على أضرحة الأولياء، والعظماء، وعددها ستٌّ.

٤ ـ **الخوانق**، أو الخانقاوات، وهي نوع آخر من الأبنية الدينية الإسلامية، وهي كلمة تركية، تعني بناء مخصصًا للصوفية، وعددها ثلاثة.

٥ ـ **الرُّبط**، «جمع رباط» أنشئت لتخدم غرضًا مدنيًّا عسكريًّا، والهدف من بنائها في بيت المقدس، توفير أماكن لزوار المدينة، والحجاج الوافدين إليها، كما كانت توفر التعليم الديني، والصوفي للوافدين، وكان في القدس سبعة رُبط.

٦ ـ **الأسبلة**، (جمع سبيل)، انتشرت في أنحاء مختلفة من القدس، ابتغاء السقاية، والوضوء، وتوفير المياه للسكان، وعددها ٥ أيوبية، ١٢ مملوكية، ١٣ عثمانية.

٧ ـ **الحمامات**، هناك ٣ حمامات باقية، من ١٣ حمامًا.

٨ ـ **الخانات** (جمع خان)، وهو مكان إيواء القوافل، ورجالها من المسافرين، والتجار، والحجاج، ويوجد في القدس ١٦ خانًا.

٩ ـ **سور القدس وبواباتها**، وهو المعلم الأول، الذي يراه القادم إلى مدينة القدس، وفي السور ١١ بابًا (٣ منها مغلقة).

١٠ ـ **المقابر والترب**، دفن بها عدد من الصحابة، والتابعين، ومن أهمها مقبرة مأمن الله، ومقبرة الساهرة (للمجاهدين)، وغيرها. وكذلك مقابر المسيحيين، وأهمها مقبرة صهيون.

١١ ـ **دور الحديث والقرآن**، ومنها: القبة النحوية، دار الحديث، ودار القرآن السلامية.

١٢ ـ **الأوقاف**، في السنة العاشرة للهجرة، وصلت إلى ٩٠ وقفًا إسلاميًّا، كانت مخصصة لعشرات الأغراض الحضارية، التي جعلت من بيت المقدس حاضرة عظيمة من حواضر الإسلام.

فضلًا على ذلك، أثبت الباحثون أن القدس، على مدى التاريخ الإسلامي، هي قبلة العلماء، وطلاب العلم، والصالحين، فمدارسها – التي ربت على سبعين مدرسة – ارتادها آلاف بعد آلاف من العلماء، وطلاب العلم، وكان عدد زوايا الصوفية، ورباطاتهم أكثر من ٥٥، لا يزال الكثير منها باقيًا بناؤه. وكان، في القدس، في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد)، ٤٠ مدرسة للفقه، ١٠ دور للقرآن الكريم، و٧ دور للحديث النبوي الشريف، وقد كانت المسافة سالكة بين بيت المقدس، وبين الأزهر الشريف، في القاهرة، والجامع الأموي، في دمشق، والحرمين، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وأحيانًا إلى عاصمة الخلافة العثمانية، استانبول – وكانت الرحلة بين هذه المدن المتكررة، للقاء العلماء، ومدارس الفقهاء، وتحمل علوم العربية والإسلام، وأحيانًا لتقلد مناصب القضاء، أو الإفتاء، أو التدريس، التي كان يجري تنصيب المؤهلين لها من قبل السلطان، أو نوابه في مصر والشام. وقد اجتمع علم الأمصار المتفرّق، في بيت المقدس، بنقل علمائها له، أو بمرور حملته من علماء الأمصار القاصدين زيارة المسجد الأقصى، ولقاء علمائه، أو المجاورة في الأماكن الشريفة، من بيت المقدس[٤٩].

لقد جاور في بيت المقدس، حجة الإسلام الإمام الغزالي، وأقام في زاوية، فوق باب الرحمة، من أبواب المسجد الأقصى، ودرس الغزالي في المسجد الأقصى، وأتم فيه تأليف موسوعته «إحياء علوم الدين». وكان يقيم قبله، في الزاوية نفسها، قدوته في الزهد والعلم، الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي، الذي جاء إلى بيت المقدس من الشام، كما الغزالي. كما دفن في القدس، عدد كبير من الصحابة، والتابعين، والمجاهدين، منهم الصحابي عبادة ابن الصامت الأنصاري، الصحابي شداد بن أوس، والزاهدة رابعة العدوية، وغيرهم[٥٠].

هكذا ترعرعت في القدس أهم وأكبر الحضارات، ضمت المكان، والمعالم، والأشخاص. منظومة متكاملة، كلٌّ منها أحيا الآخر، ودعمه. وقد جاءت الإمبريالية الغربية، بمطامعها، لطمس معالم هذه الحضارة، فكان الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٧م)، ثم قرار التقسيم لصالح الصهاينة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧)، الذي كانت على أثره نكبة ١٩٤٨، وقد ذهب البعض إلى «أسلمة» الصراع العربي ـ الصهيوني، الذي لا يعني استثناء العروبة، أو المسيحية، كما أنه لا يعني الصراع مع الأديان، وخاصة اليهودية.

أسلمة الصراع

تحدث مفكر إسلامي معاصر، عن إسلامية الصراع، ورأى أن مشكلتنا ليست مع اليهودية الدين، وإنما مع

«الصورة التلمودية لليهودية»[*]، التي نسخت، ومسخت توحيد اليهودية، وحوَّلها إلى وثنية، ومشكلتنا هي مع «اليهودية الصهيونية»، التي جردت اليهودية من «عموم الدين»، وجعلتها ذروة «العنصرية»، ومشكلتنا كذلك مع «المشروع الصهيوني»، الذي وظف إمكانات الجماعات اليهودية، في الشراكة التي دعت إليها الإمبريالية الغربية، في مرحلة زحفها الاستعماري.

رأى المفكر نفسه أن إسلامية الصراع، هي «واقع» يضيف الإمكانات الإسلامية للإمكانات الوطنية الفلسطينية، والطاقات القومية العربية، فهو يرفدها، ولا ينتقص منها، ويدعمها، ولا يضعفها.

كما أن إسلامية هذا الصراع، لا تعني تحويله إلى «صراع ديني»، ذلك أن الإسلام ينكر الصراعات الدينية، ويستنكرها، في أي ميدان من الميادين، كما أن إسلامية هذا الصراع هي في مصلحة الآخر الديني. فقد تعددت، في ظل السيادة الإسلامية على القدس، تعددية مقدسات الديانات فيها، حتى كانت الأسر المسلمة هي المؤتمنة على نظارة أوقاف الكنائس، ومفاتيحها. ولم ينعم اليهود بانتعاش حر في القدس، إلا في ظلال الإسلام «فإسلامية القدس»، لا تنفي «وطنيتها الفلسطينية»، أو «طابعها العربي»، ولا تحتكر قداستها.

للإسلام، وإنما هي المظلة الجامعة للوطنية والعروبة، وهي المؤتمنة على جعل هذه المدينة «قدسًا شريفًا»، لسائر مقدسات الديانات كلها. والأمة الإسلامية، والجهاد الإسلامي، لا يبغيان «احتكار القدس»، وإنما يسعيان لتكون «إرثًا مقدسًا لكل أصحاب المقدسات»، وبعبارة صلاح الدين الأيوبي، لريتشارد قلب الأسد: (القدس إرثنا، كما هي إرثكم)[٥١].

بقي أن نشير إلى تحرك الأوساط الدينية، خاصة الإسلامية، بشأن الاحتلال الصهيوني للقدس.

لقد أثار القرار الإسرائيلي (٢٧/ ٦/ ١٩٦٧)، بضم القدس القديمة، مع ضواحيها، إلى إسرائيل، موجة شديدة من الاحتجاج، في الأوساط الدينية، خاصة الإسلامية، فأعلنت «رابطة الحجاج المسلمين»، في أندونسيا، أن المسلمين الأندونسيين مستعدون لشن حرب مقدسة، لاستعادة المسجد الأقصى، وتحريره من السيطرة الإسرائيلية، كما صرح مفتي المسلمين، في الاتحاد السوفييتي، بأن الشباب المسلم، في الاتحاد السوفييتي، أبدى رغبته في التطوع، في صفوف المسلمين، لتحرير بيت المقدس. فيما أذاع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، حينئذ، الشيخ حسن مأمون، وبطريرك الكرازة المرقسية بالإسكندرية وسائر أفريقيا، قداسة البابا كيرلس السادس، بيانًا مشتركًا، موجهًا إلى أصحاب الضمائر الحرة، في العالم، أعلنا فيه أن الصهيونية العالمية عصبية جنس، لا تمت للأديان بصلة، وهي تعادي الإسلام والمسيحية، وتعتدي عليهما، وعلى مقدساتهما، وأن المسلمين والمسيحيين يستنكرون الاعتداء الغاشم، الذي وقع على البلاد العربية، وعلى القدس، وما بها من مقدسات المسلمين والمسيحيين. وقد قررت إدارة الأزهر، وبطريركية الأقباط الأرثوذكس، إرسال نسخ من هذا البيان، إلى السكرتير العام، للأمم المتحدة، وإلى رؤساء وفود الأعضاء، والمنظمات الإسلامية والمسيحية. كما قوبلت الدعوى إلى تدويل القدس (منطقة مستقلة، تحت نظام دولي)، بمعارضة شديدة، من الأوساط الإسلامية، وقد حمل لواء هذه المعارضة الأزهر الشريف، بالقاهرة، ففي شهر حزيران/ يونيو

(*) **التلمود**: الشروح الدينية والدنيوية الجامعة للتراث اليهودي. دوَّنه الحاخامات، على امتداد نحو خمسمائة عام، فعكس نفسية الشتات، وأحقاد اليهود على الأغيار، ومثل الفكرية الانعزالية للجماعات اليهودية، أي فكرية «اليهودية الأرثوذكسية».

١٩٦٧م، وجه «مجمع البحوث الإسلامية» في الأزهر، بيانًا إلى العالم الإسلامي، استنكر فيه المؤامرة الصهيونية، ضد المقدسات الإسلامية، وأهاب بالمسلمين أن يهبوا لحماية بيت المقدس، وأن يدفعوا، بكل ما أوتوا من قوة وإيمان، أطماع إسرائيل الشريرة، في الاستيلاء على مدينة القدس، ومحاولات تدويلها، تحقيقًا لمخطط الاستعمار، ونكاية بالعروبة والإسلام(٥٢).

وبعد، فإن القدس ستبقى عربية - إسلامية، حاضنة الديانات السماوية الثلاث، دون تفرقة، وأكبر دليل على عروبتها وإسلاميتها، تلك الحضارة، التي لا تزال راسخة إلى الآن، فأي ادعاء صهيوني إلى الهاوية، ولكن ذلك لن يتحقق، دون تحالف عربي ـ إسلامي قوي، ومن هنا تكون البداية السليمة!.

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) د. أحمد صدقي الدجاني، **القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة**، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٢، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) **القدس الشريف، مدينة الإسراء والمعراج**، إنني من المسلمين، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنظمة الشرقية، لجنة شباب فلسطين، ١٩٧٢، ص ٦-٧.

للمزيد عن العهدة العمرية، انظر:

ـ د. سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، ط ٢، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠، ص ٤٢.

(٤) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ط ١، القاهرة، ١٢٨٣هـ، ص ١٥٣-٢٢٧.

أورده : د. إسحاق موسى الحسيني، **عروبة بيت المقدس**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، سلسلة «دراسات فلسطينية (٦١)، تموز/ يوليو ١٩٦٩، ص ٦٨.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٦٧ -٦٨.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٨ - ٦٩.

(٧) القدس الشريف، مدينة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨-٩.

- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١-٥٢، ٦٩-٧١.

(٨) فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد السايح، **مكانة القدس في الإسلام**، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، ١٩٦٩، ص ٣٣-٣٤، ٣٧

(٩) عبد الرحمن أبو عرفة، **القدس العتيقة، تشكيل جديد للمدينة**، ط ١، عمان، منشورات دار الكرمل، سلسلة «دراسات صامد الاقتصادي»، ١٩٨٦، ص ٢٠.

(١٠) الأديبة مها فرح الخوري، جورج ناصيف، أولغا حجّار، **مسلمون ومسيحيون معًا من أجل القدس**، (انظر: د. محمد سليم العوا، الندوة الدراسية: القدس إسلاميًا، ص ١٥٢-١٦١).

(١١) للمزيد ، انظر: الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٧-٨٣.

(١٢) راشد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٣) القدس الشريف، مدينة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦.

(١٤) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط ٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١.

ـــ القدس، **أمانة في عنق كل عربي ومسلم**، حقائق ومعلومات، إصدار لجنة يوم القدس، الندوة السابعة - عمان، ٥-٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦، (انظر: بلدية القدس وأمانتها في الماضي والحاضر، ص ١٧-٢٠).

(١٥) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧-٢٨.

(١٦) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٠-٥١.

(١٧) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣. وللمزيد عن وصف قبة الصخرة، انظر:

- العوا، **مصدر سبق ذكره**.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤.

- تحسين يقين، القدس المحتلة عبير الروح (استطلاع)، **العربي** (الكويت)، القدس مرارة الابتلاع، آيار/ مايو ٢٠٠٧، ص ٣٦ - ٥١.

(١٨) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨ - ٢٩.

(١٩) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٢٠) أحمد صدقي الدجاني، **بيت المقدس وثائق شاهدة على التسامح الديني أبان الحكم الإسلامي**، ط ١، غزة، مركز القدس للدراسات والإعلام والنشر، ٢٠٠٣، ص ١٨.

(٢١) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٢٨-٢٩.

(٢٣) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٤) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥.

- السايح، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨-١٩.

(٢٥) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧.

للمزيد عن العصر العباسي، انظر: **المصدر نفسه**، ص ٥٤-٥٨.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٢-٦٣.

(٢٧) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨-٢٩.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٩-٣٠

- السايح، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩.

(٢٩) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤.

(٣٠) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٣١) الدجاني، بيت المقدس ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٧-٢٨.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥-١٩٧.

obeikan.com

(٣٢) **المصادر نفسها**، الصفحات نفسها.

(٣٣) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧-٨٨.

(٣٤) للمزيد، انظر: **المصدر نفسه**، ص ٨٧-١٠٠.

(٣٥) د. علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ط ١، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٦، ص ٣٢.

(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ١٢١-١٥٢.

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ١٢١-١٢٢.

(٣٨) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩-٣٠.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥-١٩٧.

(٣٩) علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥ ، ٧٣-٧٤.

(٤٠) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٤١) لواء د. محمد صلاح سالم، **القدس، الحق ... التاريخ ... والمستقبل**، ط ١، القاهرة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٣، ص ٦٣.

- الدجاني، بيت المقدس ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨-٢٩.

(٤٢) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣.

(٤٣) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤-١٢٥.

(٤٤) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤.

(٤٥) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٠.

(٤٦) القدس، أمانة ... ، **مصدر سبق ذكره**.

(٤٧) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥-٦٦.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٠.

- أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠-٣١.

(٤٨) للمزيد، انظر:

- القدس، أمانة ... ، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: مكانة القدس الحضارية والدينية، ص ١٣-١٤).

- العارف -- **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧٨-٣٠٢.

- العوا، **مصدر سبق ذكره**.

- د. أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، ط١، الهرم، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٣، ص ٣٠-١٨٠.

(٤٩) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٥٠) **المصدر نفسه**.

- الحسيني - **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٣.

(٥١) د. محمد عمارة، **إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين**، ط١، سلسلة «في التنوير الإسلامي» (١٣)، القاهرة، نهضة مصر، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨، ص ٦-٧، ص ٢٣-٢٩.

(٥٢) ممدوح توفيق القاضي، **مستقبل القدس**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧، ص ١٠٦-١٠٩، ص ١١٣-١١٤.

obeikan.com

الفصل الثالث

شوارع القدس العتيقة

م. عالية سامح عكاشة



منظر لمدينة القدس من أعلى جبل الزيتون، عام ١٩٠٥

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

obeikan.com

حين سرت، أدق بقدمي، على طرقات وأزقة القدس، وجدتها تنبض بتاريخها.

حين لمست حجارة مبانيها، فاحت منها رائحة الياسمين، محمَّلة بأنين سنين غنية بالأحداث والتفاصيل.

حين ضممت حجرًا، كان ملقًى على إحدى الطرقات، شعرت أني أضم كل أهالي القدس من صغار وشيوخ.

١ـ المقدمة

الشوارع هي التاريخ الحي، التاريخ الملموس، فهي ليست مسارات مبلَّطة، تتراص على جوانبها حوائط حجرية بأبواب ونوافذ. بل إنها خطوات مشاها أناس، سطروا بها تاريخًا، ضحوا وماتوا، ليحفظوا هويَّة هذا الشارع التاريخي.

خلال العصور المختلفة، اتخذت جميع النشاطات العمرانية والمجتمعية من الشارع الرئيسي الحيوي مكانًا لها، فلم يكن الشارع مجرد مسار للعبور فحسب، بل مكانًا للتجمع، للتجارة، ولتجول الباعة، ولراحة المارة، ومكان إشهار الحدث، والتشهير بالمجرمين، و...إلخ. فما بالك بشوارع مدينة كالقدس، إنها متحف مفتوح، تسير في شوارعها كأنك تقلب صفحات كتاب تاريخي عربي، فتصميم مبانيها وعمارتها، وتخطيط شوارعها، ينبض ككل المدن العربية القديمة، يتكلم نفس اللغة والمفردات المعمارية، والعمرانية، تحمل نفس الصفات، والخواص التي تميِّز المدن العربية، كالقاهرة، حلب، دمشق، الجزائر، تونس، بغداد... إلخ. وإن كانت القدس تحمل في طياتها تاريخًا خاصًا، كان وراء شهرة هذه المدينة الصغيرة.

يحاول هذا البحث، من خلال التتبع السريع للمحطات الأساسية في تاريخ القدس، رصد شوارع القدس الشهيرة في البلدة القديمة، وأهم ملامحها، وسماتها العمرانية، من حيث النسيج التخطيطي، وما ارتبط بها من حياة ثقافية واجتماعية ودينية.

٢ـ محطات تاريخية

تعتبر القدس مدينة مقدسة بالنسبة للديانات التوحيدية الثلاث: الإسلام، المسيحية، اليهودية. بالنسبة للمسلمين فهي تحوي المسجد الأقصى، ثالث أقدس المساجد عند المسلمين، وأولى القبلتين، قبل الصلاة باتجاه الكعبة، أيضًا من القدس عُرج بالرسول محمد ﷺ إلى السماء، حسبما يعتقد المسلمون، أما بالنسبة للمسيحية، ففيها كنيسة القيامة، وهي المدينة التي شهدت صلب المسيح، وقيامته، حسبما يعتقد المسيحيون، أما بالنسبة لليهود فأورشليم (القدس) مدينة مقدسة لديهم، منذ القرن الرابع قبل الميلاد، حسب تقديرات بعض المؤرخين، أو من القرن التاسع قبل الميلاد، حسب المعتقد اليهودي الشائع، وتقول الشريعة اليهودية إن أهم صلواتهم يجب أن تكون بالتوجه نحو القدس.

جعلت هذه الأهمية والقدسية الثلاثية الجوانب القدس، دومًا، وعبر التاريخ، مركز اهتمام كبير لجميع أتباع الديانات التوحيدية. وهي طالما جمعتهم في ظلها، وطالما شهدت حروبًا مختلفة للسيطرة عليها، وغالبًا ما كانت تأخذ هذه الحروب مظهرًا دينيًّا.

مرت القدس بمحطات أثرت بعمارتها، وتخطيطها، ومبانيها المميزة، نذكر منها التالي:

ـ القدس ما قبل الفتح الإسلامي[1]:

سيدنا سليمان (٩٦٥ ـ ٩٢٨ ق.م) يَخلُف أباه داود، وهو أول شخصية عبرانية تُوجَد عنها وثائق تاريخية غير توراتية. تزدهر المملكة العبرانية المتحدة في عهده، وتُبنَى المدن، وتنشط التجارة. يبدأ بناء الهيكل، في السنة الرابعة من حكمه (٩٦٠ ق.م)، بمساعدة حيرام، ملك صور الفينيقي، وينهيه في السنة الحادية عشرة (٩٥٣ ق.م) بعد سبع سنوات وستة أشهر.

* المملكة الجنوبية (٩٢٨ ـ ٧٩٥ ق.م) تحت رئاسة قبيلة يهودا (عاصمتها القدس). كانت أكثر استقرارًا من المملكة الشمالية، لصغر حجمها، وقلة أهميتها، وفقرها، وبُعدها عن طرق الجيوش الغازية. ظَهَر فيها معظم الأنبياء، كما دُوِّن فيها معظم نصوص «العهد القديم».

* صدقيا، آخر ملوك المملكة الجنوبية (٥٩٧ ـ ٥٨٦ ق.م)، يتظاهر بالولاء للقوة البابلية الجديدة، ولكنه يتحالف مع المصريين، في العام التاسع من حكمه، ويحاول الاستقلال عن بابل، وينضم إلى التمرد، الذي ضم فينيقيا، وشرق الأردن، وفلسطين كلها. ترسل مصر قوة لمساعدة المملكة الجنوبية، ولكنها تُهزَم، وتبوء محاولة الاستقلال بالفشل، وتُدمَّر القدس، وجميع مدن المملكة، والهيكل. كما تم تهجير النخبة العبرانية، إلى بابل (٥٨٦ ق.م)، واختفاء سفينة العهد.

* ٥٢٠ ق.م يعاد بناء الهيكل الثاني (٥٢٠ ـ ٥١٥ ق.م).

* ١٧٢ ق.م تصبح القدس مدينة يونانية (بوليس) باسم إنطيوخيا.

* ٦٣ ق.م تسقط القدس في يد بومبي، وفلسطين تصبح جزءًا من مقاطعة سوريا الرومانية.

* ٨٣٠ م. صلب المسيح (حسب الرؤية المسيحية).

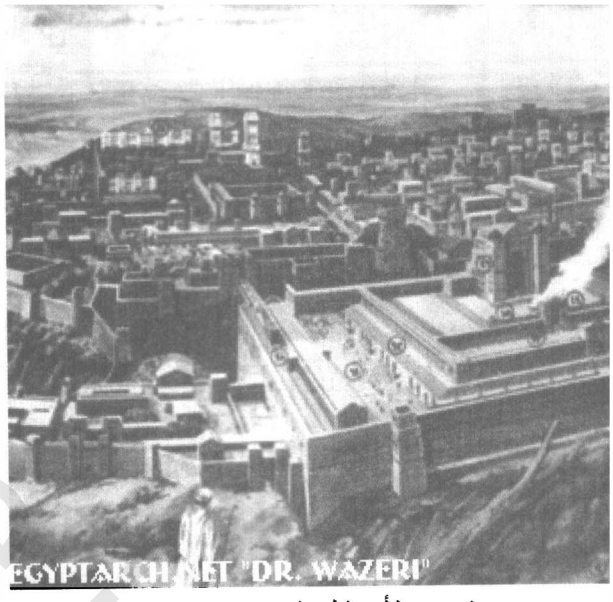
* ٧٠ م. يتوج فسبسيان إمبراطورًا على روما (٦٩ ـ ٧٩). ويقوم بحصار القدس، وهَدْم الهيكل، وتدمير القدس.

ثم أعيد بناؤها في عهد الإمبراطور هادريانس، وأطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا، عام ١٣٥م، ثم أحرقها الفرس، عام ٦١٤ م.

ـ القدس في ظل العصور الإسلامية

سيطر المسلمون على القدس، عام ٦٣٨م، في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، حيث استلم مفاتيحها من بطريركها، صفرونيوس، وأسماها العرب «القدس»، وقام الأمويون بتعمير علامات مميَّزة في القدس، تلاهم الحكم العباسي، ثم الدولة الإخشيدية، فالعصر الفاطمي.

سيطر عليها الصليبيون، عام ١٠٩٩م، واسترجعها المسلمون، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، بعد معركة حطين، عام ١١٨٧م.



تصور لأورشليم في عهد هيرود
المصدر: يحيى وزيري، ٢٠٠٥

حكم المماليك القدس، ومن القرن الـ١٥ وحتى بداية القرن الـ٢٠، خضعت القدس لسيطرة العثمانيين الأتراك. وفي بداية القرن الـ١٥ قام السلطان العثماني بترميم المدينة، وإعادة بناء سورها، الذي لا يزال يحيط بالبلدة القديمة. ومنذ هذا الوقت، والقدس القديمة تحافظ على هذه السمات المتراكمة، التي شكلت نسيج المدينة. ثم وقعت تحت الاحتلال البريطاني، كبقية المدن الفلسطينية منذ عام ١٩١٧ م. الذي مهد بدوره للاحتلال الإسرائيلي للقدس عام ١٩٦٧م، ولا تزال ترزح تحت عبئه، حتى يومنا هذا، وتقاومه.

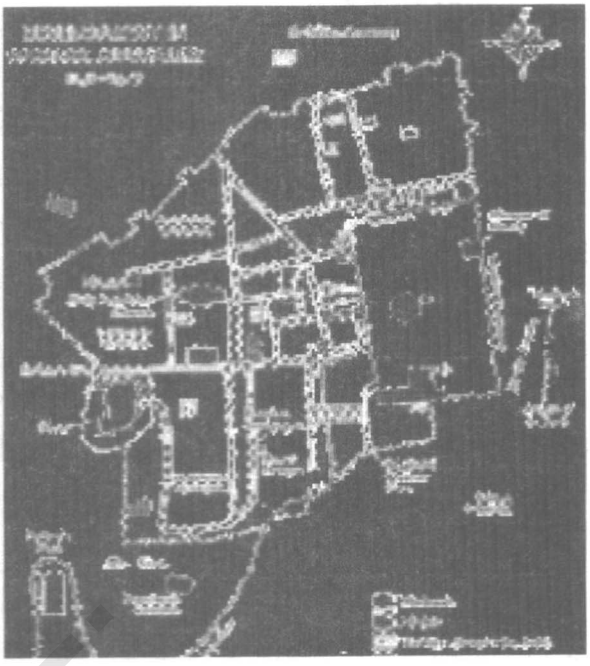
وبناءً على المحطات السابقة، نستنتج بأن مدينة القدس، التي تعرضت للهدم والبناء، عدة مرات، أصبحت مدينة مكوَّنة من طبقات تاريخية، وركام حجارة فوق بعضها، يصعب فصل تخطيط شوارع أي مرحلة منها، و تحديدها بدقة، عدا الفترة الأخيرة من بعد الفتح الإسلامي.

٣ ـ تخطيط القدس

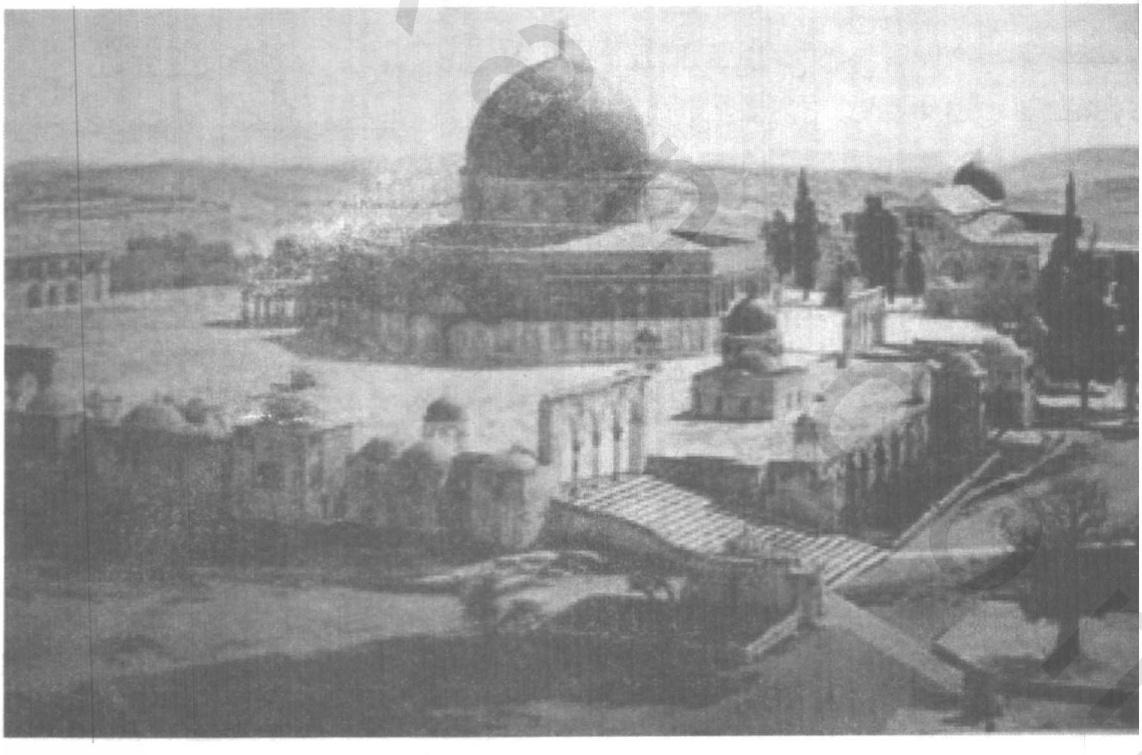
الأحياء/ الشوارع/ العلامات المميِّزة

كانت مدينة القدس مقسمة إلى أربعة قطاعات كبيرة، خلال فترة الحكم العثماني، يفصل تلك القطاعات شارعان رئيسيان، أحدهما شارع شمالي جنوبي، والآخر شرقي غربي، (انظر الخريطة رقم ٢). هذه القطاعات الأربعة مجزأة، أيضًا، إلى ثماني عشرة مقاطعة فرعية صغيرة. وقد أخذت القطاعات الأربعة الرئيسية شخصيتها، وملامحها، من الناحية الدينية، من الجماعات التي ضمتها، لقرون طويلة، من يهود، وأرمن، ومسيحيين، ومسلمين[٢].

خلال الحكم العثماني، شغل الحي الإسلامي الجزء الشمالي الشرقي من القدس، بمحاذاة الحرم الشريف، الذي يشرف على المداخل الشمالية والغربية، ممتدًّا على جانبي الشارع الرئيسي، بدءًا من بوابة دمشق، وحتى الحرم الشريف[٣].



خريطة (١) القدس في العصر المملوكي
المصدر: يحيى الوزيري، ٢٠٠٥



منظر للحرم الشريف يظهر فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، عام ١٨٩٥

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

احتل الحي المسيحي ربع المدينة الشمالي الغربي وضم بعض الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، ككنيسة القيامة. أما الحي الأرمني، فكان موجودًا في جنوب غربي المدينة، والحي اليهودي في الجنوب الشرقي، ويفصله الحي المغربي عن حائط البراق (المبكى)[٤].

لجأت الدولة العثمانية إلى تنظيم غير المسلمين في طوائف، عرفت بالملل، ونظام الملة يعطي قدرًا من الاستقلال لأصحاب الطائفة عن الدولة العثمانية، حيث كان لرئيس الطائفة سلطة القضاء بين أبنائها في منازعاتهم، في الأحوال الشخصية، وأحيانًا في الأحوال المدنية، مما رسخ العزلة، وأدى لزيادة نفوذ الزعامة الدينية والعشائرية[٥].

فكانت جميع الجاليات، العرقية، والدينية، المتنوعة، تنظم في كيانات شبه إدارية، يرأسها المشايخ، وكثيرًا ما يكون هؤلاء المشايخ هم أنفسهم الرؤساء الدينيون، وذلك في حالة ما إذا كانت الجالية تمثل أقلية مذهبية. ويتشابه هذا التنظيم، إذن، مع تنظيمات الطوائف المهنية، بل في بعض الأحيان يمتزج بها، وذلك حين تكون الجاليات، العرقية، أو الدينية، متخصصة في نشاط مهني محدد. هذا النموذج التنظيمي كان سائدًا في جميع المدن العربية الكبيرة في العصر العثماني[٦].

كان أتباع كل طائفة دينية يركزون نشاطاتهم، ومنازلهم، حول أماكنهم المقدسة، بخلاف المسلمين، الذين حافظوا على تصميم الحرم الشريف، الذي يتوسطه مسجد قبة الصخرة، الذي يحيطه تراسات (مستويات) متنوعة المناسيب، حولها أسوار، تعزل الحرم عن الحي الإسلامي، ولا يزال هذا الوضع إلى يومنا الحالي.

سهَّل هذا التقسيم لأهالي كل حي، من تلك الأحياء الأربعة، الوصول من داخل هذه الأحياء إلى منطقة وسط المدينة (ملتقى الطريقين الكبيرين: الشمالي- الجنوبي، والشرقي - الغربي)، حيث توجد أسواق المدينة الرئيسية. وكانت هذه الأسواق التجارية تمثل نقطة جذب، كما كانت، في الوقت نفسه، منطقة عازلة بين الطوائف الرئيسية[٧].

ترك الحكم العثماني حدود تخطيط المدينة الأصلي، مع قليل من الإضافات، كطبقة أخرى لما سبقها من عمران، دون مسح الأصلي، رغم سنوات الحكم، التي دامت أربعمائة عام، منذ فتح السلطان سليم الأول، سنة ١٥١٧م، وحتى الاحتلال البريطاني، بقيادة الجنرال اللنبي، سنة ١٩١٧م[٨].

يتسم تخطيط شوارع القدس عامة بالشكل المتضام و المتعرِّج، كثير المنحنيات، كمعظم المدن العربية، يرجع هذا إلى عدة عوامل، منها توفير الخصوصية لكل جماعة، كذلك بسبب المناخ، الذي لعب دورًا في تشكيل الشوارع، أيضًا، فمن المعروف أن معظم الدول العربية ذات مناخ حار، خاصة في الصيف، وأشعة الشمس ساطعة، معظم أيام السنة، ولقد وجد المخططون، والمعماريون أن النسيج العمراني المتضام، ذا الشوارع المتعرجة، يوفر ظلالًا للطرق، تحمي المشاة من أشعة الشمس، مع وجود مناطق مضيئة أخرى، وهذا التنوع في الإضاءة، يمنع الملل عن المشاة، و يجذبهم للسير في طرقات البلدة القديمة، خاصة التي بها أنشطة تجارية.

نجد معالجة منطقة السوق (الخان) مختلفة، فقد سقفت بأقبية، وعقود متقاطعة، تتخللها طاقات للنور، لتوفر أكبر مساحة مظللة، تشجع على حركة المتجولين، والعابرين، والراغبين في التسوق.



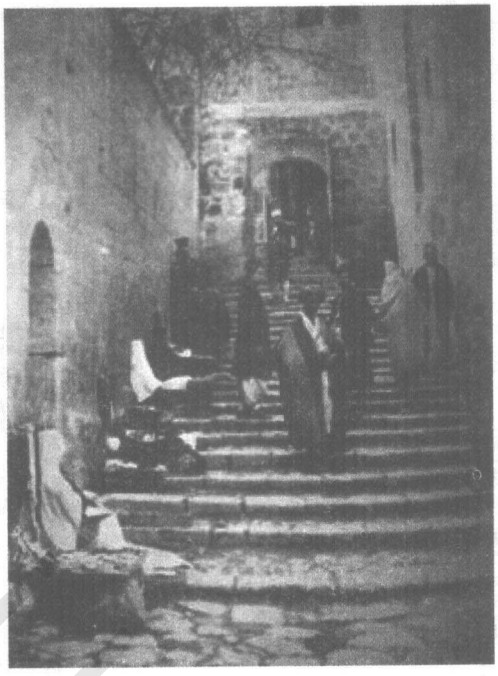
خريطة (٢) مناطق القدس الأربع
المصدر: أندريه ريمون، ١٩٩١

كما روعي ألا يزيد ارتفاع المباني على جانبي الشارع عن أربعة طوابق ، في أقصى الحالات، مما يتناسب مع ضيق الشوارع، حتى لا يمنع البناء الضوء والهواء عن جاره في الأدوار السفلية، أو عن المارين في الشارع، وهو ما عرف بحق الجيرة، فلا ضرر ولا ضرار.

يندرج تخطيط مدينة القدس تحت التصميم الداخلي للمدن، أو المدينة القلب، أو المركز، كما يطلق عليها المخططون، فالقلب التاريخي ـ الشارع في هذه الحالة ـ قد خصص لفترة، كانت وسيلة المواصلات فيه إما للمشاة، أو لعربات تجرها الأحصنة، أو الحمير. ونجد أن أرضية الشوارع مُهِّدت بقطع من كسر الحجارة، وهي المادة التي مثلت حوائط البنايات، أيضًا، وتتسم عمارة القدس، بانها عمارة عربية، متناغمة في تناسقها(*) . وقد كثر استخدام الحجارة، نظرًا لوفرتها في الطبيعة الجبلية الحجرية حول مدينة القدس، وفلسطين عامة.

أما نسيج المدينة، وهو العلاقة بين الكتل والفراغات، فهو نسيج متضام، فوق شبكة حركة متعرِّجة، تبدو غير منتظمة، عدا الشارعين الرئيسيين، يبدو تخطيط الشوارع غير منتظم، وبزوايا تقاطع دقيقة، وشوارع، في الأغلب، قصيرة، ومنحنية، متغيرة العروض، وتذهب في اتجاهات مختلفة.

(*) لعبت العمارة دورًا في تأكيد طابع الشارع العمراني، وأثرت في تميزه البصري، إلا أن هذا خارج نطاق هذه الدراسة.



طريق بدرج يؤدي إلى كنيسة القيامة، والباعة على جانب المسار
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

و إن كان يمكن تصنيفها من حيث التدرج، كالتالي:

شوارع فرعية ـ ممرات وأزقة ـ تؤدي إلى مساكن خاصة.

شوارع مجمعة، تصب بها عدة ممرات فرعية.

شارع رئيسي، أو قصبة، تصب بها الشوارع المجمعة.

كما يمكن تصنيف الشوارع، من حيث تغير العروض، والتقاطعات، والاستمرارية، فمثلًا الشارع الرئيسي (القصبة) من أعرض الشوارع، وبه تقاطعات كثيرة، ومستمر، يقطع المدينة بطولها، عكس الشوارع الفرعية (الأزقة) ضيقة العروض، ليس بها تقاطعات، تقريبًا، وقد لا تستمر، بل تنتهي بمبنى يسد الطريق، مما يوفر الخصوصية السكنية، ويحقق وظيفة كل طريق، ودرجة علاقته بالعامة. وهي بهذا تشبه في علاقاتها، وتفرعاتها، ونموها الشجرة، من حيث أوراق الشجر (الأزقة)، ثم الفروع (الشوارع المجمعة)، ثم الجذع (القصبة)[٩].

إن تخطيط المدن القديمة يعتمد، في الأساس، على تغير الشكل، أثناء المسار، لما له علاقة بالإدراك الحسي، حيث تصبح الحاسة وظيفة مهمة، مرتبطة بالقدرة على التعرف على الأماكن، والسلوك الوقتي، ومعرفة الطريق، وكل هذا مطلوب للوصول إلى المكان.

تأكدت شخصية مدينة القدس، داخل كل مربع، بالمباني الضخمة المميزة لكل ربع، خاصة قبة الصخرة. فحين تسير في شوارع القدس الضيقة، يمكنك أن تلمح قبة الصخرة، تلمع في نهاية مسارك، كعلامة مميِّزة للربع الإسلامي.

فالمرء يمكنه أن يدرك، ويحفظ في ذاكرته، مقاطعات (مناطق)، لها هوية مرئية واضحة، وهو ما يطلق عليه اسم الصورة الذهنية، بخلق علامات مميزة ملحوظة أو مسموعة، في نقاط، أو أوقات إستراتيجية، تستمر، وتؤكد على الشخصية العمرانية الحضارية، الموجودة بالفعل في المكان.



شوارع القدس وقبة الصخرة العلامة المميزة
المصدر: الباحثة، ١٩٩٦.

«كما يمكن للمرء أن يدرك المكان، من خلال المحيط، لما يحويه من أنشطة، تجعله أكثر ترحيبًا، كالأسواق، وهذا، أيضًا، ما تحققه أسواق القدس القديمة. بينما التنقلات البصرية، الفجائية، تحقق تأثيرًا قويًّا على إدراك المرء، فالمشي خلال الشوارع الضيقة يجذبك من خلال انحناءاتها وانفتاحها مرة أخرى».

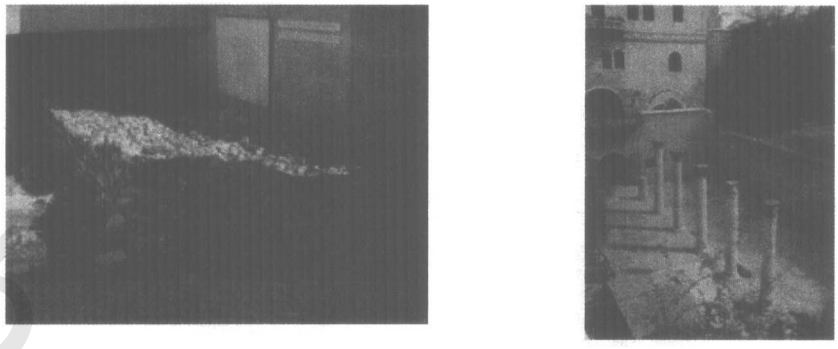
«في الماضي، كان أخذ الحاسة البصرية في الاعتبار، أثناء تصميم المدن، يعتمد، في الأساس، على تحليل البيئة المحسوسة، فمبادئ كالتناغم، والجمال، والتنوع، والنظام... كانت خلاصة فكر»[١٠].

٤- الشوارع الأكثر شهرة

«ديار النبيين، ومركز الصالحين... به القبلة الأولى، وموضع الحشر، والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم، وديار أيوب وبئره، ومحراب داود، وبابه، وعجائب سليمان، ومدنه ... وباب حطة، ذو القدر، والشأن... جنة الدنيا... بيت المقدس، ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها... بنيانهم حجر، ولا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها... وهي أصغر من مكة، وأكبر من المدينة، عليها حصن بعضه على جبل، وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب حديد...» [١١].

صممت الشوارع القديمة، والحارات، والأزقة الضيقة لسير المشاة، في الأغلب، فالقليل منها الذي يتسع لحركة العربات. وكان ينصح بتوخي الحذر، أثناء السير في حاراتها؛ لأنها لم تكن مصممة لصرف الأمطار، فتراكمت بها البرك، ورغم أن الشوارع القديمة في الأغلب دفنت تحت كسر الأحجار، وردم السنين، فإن هناك آثارًا باقية، مثل

شوارع من العصر الروماني، التي كشف عنها حديثًا. وشوارع أخرى أكدت على صحة عراقة تاريخ شوارع البلدة القديمة، والتي نذكر منها المسارت التالية:



شوارع من العصر الروماني، كشف عنها حديثا
المصدر: الإنترنت، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

ـ شارع السوق القديم

سبق وذكرنا أن الشارعين الرئيسيين، اللذين يقسمان المدينة، تتجمع عندهما مراكز النشاط الحيوي، التجاري بالأخص، وكانت الأنشطة المتشابهة تتركز في بؤر خاصة، فالعطارون، مثلًا، يتجمعون معًا، وكذلك القطانون، وبائعو الأقمشة، وغيرهم. وهذه التجمعات تعود إلى نظام الطوائف المهنية، الذي كان سائدًا خلال الحكم العثماني.

يعد الشارع المسقوف، حيث بازارات القدس الشهيرة، أشهر فراغات هذا الشارع، وأكثرها التصاقًا في ذاكرة زائري القدس، ليس لتميز المنتجات المقدسية الصنع التي تباع فيه فحسب، ولكن، أيضًا، لتميزه المعماري، والعمراني، فقد تم تصميم الشارع ليكون مغطى بأقبية، وعقود متقاطعة، تتخللها فتحات إضاءة، بإيقاع يشبه إيقاع موسيقي منتظم، مما يوفر الظلال والمناخ المناسب، للتمتع بالتسوق، خلال فترات اليوم المختلفة، وقد وفر ارتفاع العقود العالي مساحة من التهوية، وخلق تيارات هواء تسعد المارة في هذا الطريق.

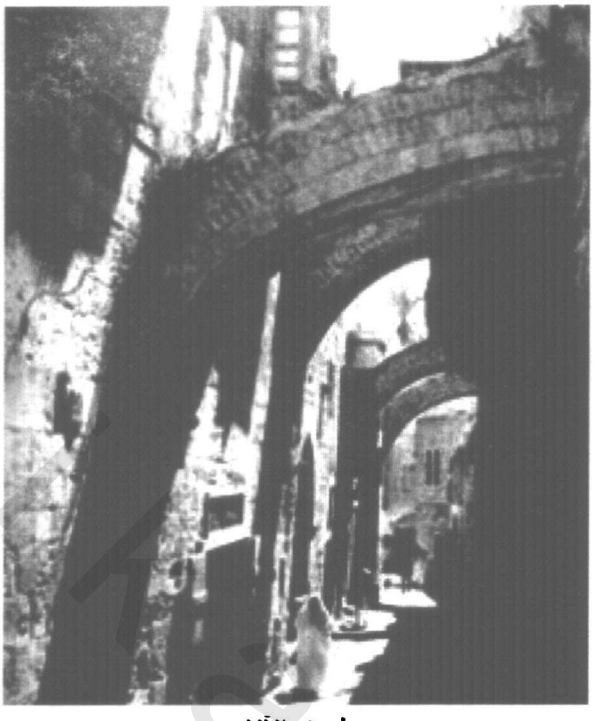
تأثرت ملامح شارع السوق القديم بالباعة من الأهالي المحليين، كما تأثرت بحركة العابرين، والزائرين. فصمم أكثر اتساعًا، وضم محلات على جانبيه، تبيع منتجات أهل القدس المحلية.



السوق في القدس القديمة
المصدر: الإنترنت / www.anniebees.com /the old city of Jerusalem

ـ طريق الآلام[١٢]:

تعد كنيسة القيامة من أقدس المواقع المسيحية، ورغم أن الكثير من علماء الآثار، وعلماء اللاهوت، قد يختلفون على حقيقة موقع الكنيسة الحالي، هل هو نفس الموقع المقصود، أو قريب منه؟ فإن هذا لا يقلل من قدسية الكنيسة.



طريق الآلام
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

مدخل الكنيسة، يقع في جهة الشرق، من حيث يبدأ طريق الآلام، من بوابة الأسباط، شمال الحرم الشريف، مخترقا بذلك الحي الإسلامي، وصولًا للحي المسيحي. وهو طريق الأحزان، أو طريق الصلب، كما يطلق عليه البعض، لكن الاسم الأكثر شيوعًا عالميًا هو طريق الآلام.

يعتقد المسيحيون أنه الطريق الذي مر فيه **يسوع المسيح** من المحكمة إلى **جبل الجلجلة**، حيث تم صلبه، وقد سميت بهذا الاسم نسبةً للآلام التي عاناها المسيح في الطريق. ويبدأ طريق الآلام من **باب الأسباط**، وينتهي عند **كنيسة القيامة**، وعرف الطريق بتقاطعاته، وبمحطات الصليب. وكنائس العالم بها لوح منقوش لهذه المحطات، وأغلب الكنائس البروتستانتينية تضم إحدى عشرة محطة للصلب، و الكنائس الأخرى، تعدهم اثنتي عشرة محطة، إلا القدس الوحيدة، التي تضم خمس عشرة محطة. وهي كالتالي:

١- محاكمة المسيح.

٢- حمل المسيح صليبه، ووضع على رأسه تاج الشوك.

٣- سقوط المسيح، لأول مرة.

٤- لقاء المسيح بوالدته.

٥- رجل من قيروان يحمل الصليب عن المسيح.

٦- فيرونيكا تمسح وجه المسيح.

٧- سقوط المسيح، للمرة الثانية.

٨- المسيح يكلم السيدة.

٩- سقوط المسيح، للمرة الثالثة.

١٠- تجريد المسيح من ثوبه.

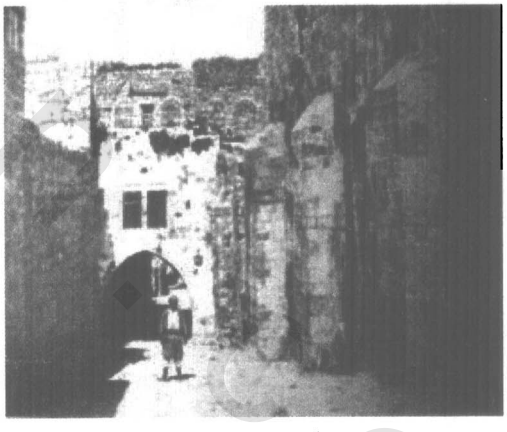
١١- مسمرة المسيح بالصليب.

١٢- موت المسيح على الصليب.

١٣- إنزال المسيح من على الصليب.

١٤- إرقاد المسيح في قبره (مدفنه).

١٥- قيامة المسيح من الموت.



المحطة الثانية للصلب



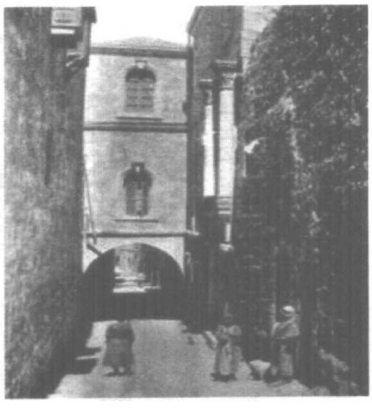
المحطة الرابعة للصلب

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

خلال هذه المحطات يرتل بعض المسيحيين صلوات قصيرة ، ويعتقد البعض أن هذا المسار ليس الطريق الحقيقي، الذي سلكه المسيح، فالمسار الحقيقي الذي مشاه المسيح دفن تحت حوالي ٦٠-٧٠ قدما، ولا يوجد ما يضمن أن تكون الشوارع الحالية مبنية فوق الأولى، تمامًا، كما لا يمكن تحديد الكثير من المحطات، بدقة.



المحطة الخامسة للصلب



المحطة السادسة للصلب

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

يكتسب هذا الشارع مظهرًا خاصًّا في الأعياد المسيحية، كعيدي الفصح والقيامة، حيث يشهد كثافة في حركة السكان المحليين، والحجاج المسيحيين.

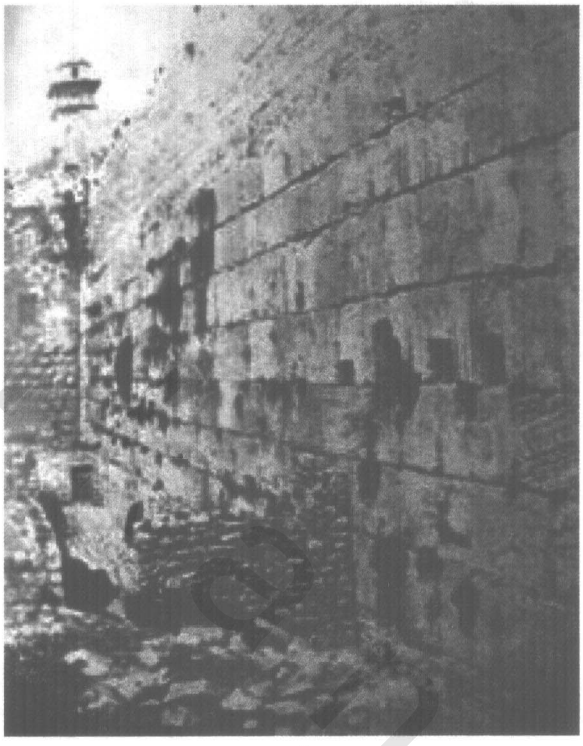


الحجاج في عشية عيد الفصح أمام كنيسة القيامة ، عام ١٨٨٥م
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

ـ حارة المغاربة[١٣]:

حارة المغاربة ،أو **حي المغاربة**، كانت حارة في جنوب شرق البلدة القديمة لمدينة **القدس**، بجوار **حائط البراق**، المدعو إسرائيليًّا بـ(حائط المبكى). في ٦ يونيو/ حزيران **١٩٦٧**، خلال **الحرب العربية الإسرائيلية**، الثالثة، احتل **الجيش الإسرائيلي** الجزء الشرقي من مدينة **القدس** الذي كان، في ذلك الحين، تحت الإدارة الأردنية. عند نهاية الحرب (في الـ١٠ أو الـ١١ من يونيو/ حزيران) دمرت إسرائيل حارة المغاربة، التي شملت ١٣٥ مبنى. ثمة تقرير يشير إلى

أن رئيس بلدية القدس الغربية آنذاك (**تيدي كولك**)، أمر بتدمير الحارة، وحسب تقرير آخر، لفت ضابط إسرائيلي انتباه وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، **موشي ديان**، إلى وجود مراحيض ملتصقة **بحائط البراق**، فأعطاه إذنًا بهدمها، مع الحارة كلها. كانت النية من تدمير الحارة إقامة ساحة لاستقبال مئات الآلاف من اليهود، الذين جاءوا لأداء الصلاة، أمام الحائط، بعد أن منعت السلطات الأردنية احتشاد اليهود أمام الحائط، منذ ١٩٤٩م، وإذ كان المكان الضيق بينه وبين بيوت حارة المغاربة المجاور، ولم يكن يتسع إلا لبضع مئات.



حائط البراق، المدعو إسرائيليًّا بـ(حائط المبكى) عام ١٨٦٦م
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

كان هذا الحي رمزًا لتعلق المغاربة بالقدس الشريف، فمنذ السنوات الأولى لاعتناقهم الإسلام، كان جُلهم يمر بالشام، بعد إتمام فريضة الحج، حتى ينعم برؤية مسرى الرسول ﷺ، ويحقق الأجر في الرحلة إلى المساجد الثلاثة (المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى). كان المغاربة يقصدونه كذلك طلبًا للعلم، كما أن الكثير من أعلام المغرب أقاموا هناك، لبضع سنوات، كأمثال الشيخ **سيدي صالح حرازم**، المتوفى **بفاس**، أواسط القرن السادس، والشيخ المقري التلمساني، صاحب كتاب «**نفح الطيب**».

لم تكن فريضتا **الحج**، و**طلب العلم**، هما الدافعان الوحيدان لتواجد المغاربة، في تلك البقعة الشريفة، بل كان ثمة دافع ثالث، لا يقل أهمية، وهو المشاركة في الجهاد، خلال **حروب الفرنجة**. فقد تطوع المغاربة في جيوش نور الدين، وأبلوا بلاءً حسنًا، و بقوا على العهد، زمن **صلاح الدين الأيوبي**، إلى أن تحررت المدينة من قبضة الفرنجة الغزاة. بعد الفتح، اعتاد المغاربة أن يجاوروا قرب الزاوية الجنوبية الغربية لحائط الحرم الشريف، أقرب مكان من المسجد الأقصى. وعِرفَانًا منه، وَقَفَ الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي هذه البقعة على المغاربة، سنة ١١٩٣ م (٥٨٣

هـ)، وهي نفس السنة التي توفي فيها صلاح الدين، بعد خمس سنوات من فتحه المدينة. سُمي الحي، منذ ذلك الحين، باسم حارة أو حي المغاربة، وكان يضم، بالإضافة إلى المنازل، عديدًا من المرافق، أهمها المدرسة الأفضلية، التي بناها الملك الأفضل، وسميت باسمه.

عمل الكثير من المغاربة، بعد ذلك، على صيانة هذا الوقف، وتنميته، باقتناء العقارات المجاورة له، وحبسها صدقاتٍ جارية، ومن أشهر هؤلاء، نذكر العالم أبا مدين شعيب، تلميذ الشيخ سيدي صالح حرازم، ودفين تلمسان (٥٩٤ هـ)، الذي حبس مكانين كانا تحت تصرفه، أحدهما قرية تسمى عين كارم، بضواحي القدس، والآخرُ إيوان، الذي يقع داخل المدينة العتيقة، ويحده شرقًا «حائط البراق». ظلت جميع تلك الأوقاف محفوظة، عبر السنين، وظلت الدُّول المتعاقبة على الحكم، تحترمها، خاصة أيام **الدولة العثمانية**، وكذلك أيام **الاحتلال البريطاني**.

في المرحلة النهائية، من المعارك في القدس في غضون **حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧م**، احتل **الجيش الإسرائيلي** حي المغاربة، مع باقي حارات القدس التي كانت خضعت للسلطة الأردنية، وفي **١٠ يونيو**/ حزيران ١٩٦٧م، أمرت السلطات الإسرائيلية بإخلاء سكان الحارة، وتدميرها، لتُسويه بالأرض، ولتقيم مكانه ساحة عمومية قبالة «**حائط البراق**». تم التدمير، خلال ساعات قليلة، وشمل ١٣٨ بناية، من بينها جامع البراق، وجامع المغاربة، وكذلك المدرسة الأفضلية، الزاوية الفخرية، ومقام الشيخ.

من عرض المثالين السابقين، نجد كيف انتعش مسار، ودمر آخر، بسبب سلسلة أحداث تاريخية، ارتبطت بأناس، أثروا و تأثّروا بالمسار، وخلقوا علاقات مختلفة مع المكان.

٥ ـ الحياة الثقافية والاجتماعية لشوارع القدس

إن الشارع، والأنساق العمرانية، التي يعد الشارع جزءًا متكاملًا معها، تنعكس، بل تساعد، على الحفاظ على شكل محدد من التنظيم المكاني، فالشوارع تحافظ على نمط معين من الحياة والعلاقات، من خلال توفير حواجز، ووصلات تحدد درجة التفاعل الاجتماعي بين الجماعات المختلفة. ويرجع الكثير نشأة الشوارع إلى الاحتياج للخصوصية المكانية، وارتباط نشأة الشارع بالمدينة والحضارة. إن تطور التقسيم الطبقي خصص الشوارع، لخلق مجاورات سكنية منفصلة لكل طبقة على حدة. ومن أوضح سمات هذا التقسيم زيادة المركزية قوة.

«حين نتحرك خلال مقياس النظام الاجتماعي، نجد هذا التخصص، منعكسًا في تخصص الشوارع. فمثلًا، عند زيادة عدد المؤسسات، ينتج زيادة من الشبكات المتقاطعة للعلاقات الاجتماعية، لربط المجتمع ببعضه البعض، وفي نفس الوقت، تتوالد منظمات، وجمعيات تخلق، أكثر فأكثر، مؤسسات خاصة... وهكذا، وينعكس هذا التطور على شبكات الشوارع، أيضًا، فتنشأ الشوارع الطائفية، لاحقًا بالشوارع المتخصصة بالـحِرَف والأعمال، وشوارع للتجارة، أو للأغراض الترفيهية ... كما يظهر فصل المناطق السكنية»[١٤].

«إن النصارى واليهود في - عهد المقدسي(*) - كانوا قد غلبوا على بيت المقدس، وأغلب الظن أن هذه الغلبة لم تكن عددية، وإنما تعني السيطرة على مقاليد الأمور؛ لأن النصارى كانوا قد استولوا على وظائف مهمة، إذ كان

(*) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بالبشاري، صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

الكتبة منهم، في أرجاء البلاد، كما كان منهم الأطباء، فإذا وصفهم المقدسي بالكثرة فتلك الكثرة، أيضًا، نسبية؛ لأنها، في أغلب الظن، لم تكن تروقه. أما اليهود فكانوا هم المسؤولين عن بعض الصناعات الحيوية، كالصيرفة، والصياغة، والجهبذة»[١٥].

كانت الحياة العمرانية في فلسطين عامة، والقدس خاصة، تتأثر سلبًا، بثلاثة عوامل: الهجمات الخارجية، والكوارث الطبيعية، كالزلازل، والأوبئة، التي تزعزع الاستقرار العمراني، وتعسُّف الحكام في جباية الضرائب، وما له من أثر اقتصادي، يؤثر على جميع جوانب الحياة، ومنها حركة العمران.

«فقد وقع زلزال، أيام العباسيين، طرح المغطى من المسجد الأقصى، إلا ما حول المحراب، ولعل ذلك حدث في خلافة المهدي، فلما بلغ الخليفة خبره، وعظَّموا عليه تكاليف إصلاحه، كتب إلى أمراء الأطراف، وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقًا، فبنوها أغلظ وأوثق صناعة مما كانت، وفي عهد المأمون، أيضًا، ضعفت كنيسة القيامة، وكادت تسقط، فقام بطريرك القدس بتجديدها، واستحضر لذلك خشب الأرز والصنوبر من قبرص، وأمده أحد أثرياء القبط بالمال اللازم لترميمها»[١٦].

أما خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، فيستشف من إعجاب المقدسي بمدينة القدس، السابق الذكر، أنها كانت، لكثرة مشاهدها الدينية، مقصد الزوار من شتى البقاع. «وقد قدر من يقصدها من المسلمين ـ ممن لا يستطيعون الحج إلى مكة ـ بأكثر من عشرين ألف شخص، كما كان يؤمها كثير من النصارى واليهود، ولهذا كثرت الفنادق، كما كان فيها مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، تصرف لمرضاه الأدوية، وبها أطباء يتقاضون مرتبهم من الأوقاف» [١٧].

أنشئ في عصر الأيوبيين، والمماليك، وبداية العصر العثماني عدد من المدارس، والمساجد، والبيوت الصوفية، كما ازدهرت معاهد العلم، التي استقطبت عددًا كبيرًا من العلماء من فلسطين وخارجها، وراجت الكتب، وازداد عددها، مما أدى إلى إنشاء المكتبات، وأشهرها المكتبة الخالدية، في شارع السلسلة، وكانت من أهم المكتبات الإسلامية في القدس، وقد ذاع صيتها. فقد أنشأ المكتبة الخالدية، في عام ١٨٩٩ ميلادي (١٣١٨ هجري)، الحاج راغب الخالدي، باعتبارها وقفًا إسلاميًّا.

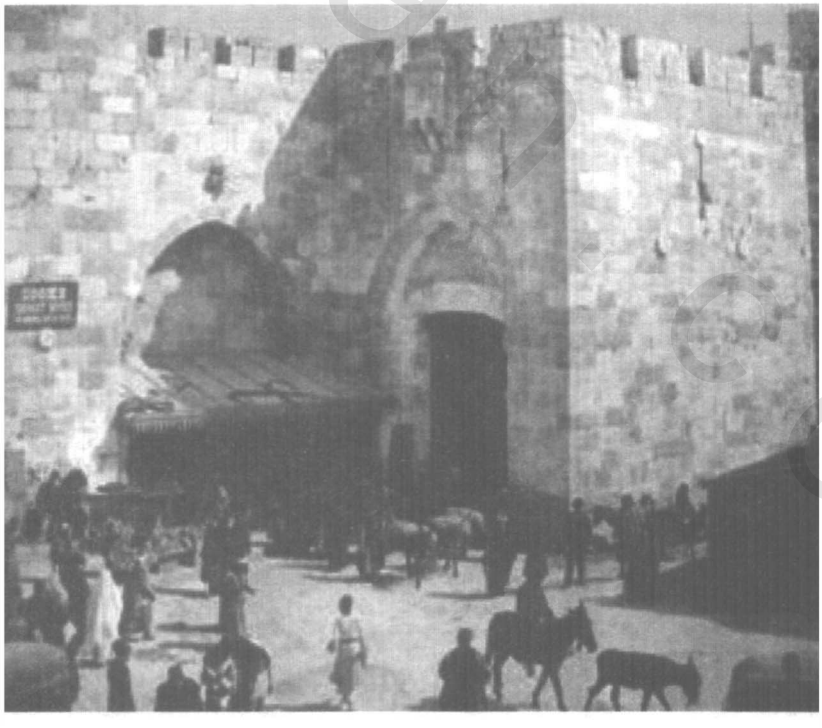
كان القصد من المكتبة أن تكون مكتبة عمومية، لتعزيز نشر العلم، وبعث الاهتمام بأمهات الكتب، في العلوم الإسلامية، وفي الموضوعات الحديثة[١٨].

تعد مدينة القدس حالة متفردة، بين كل الأماكن المقدسة، لجذب السياح من مختلف القوميات، والديانات، والثقافات. تشكلت السياحة الدينية في أوروبا، ثم بدأت تفد إلى القدس، في القرن السادس عشر، وتزايدت في القرن التاسع عشر، لقد تحولت السياحة من الفردية إلى الجماعات المنظمة إلى الأراضي المقدسة، في ربيع ١٨٦٩م، عندما قام توماس كوك، وابنه، بتنظيم رحلة سياحية لزيارة مصر، والأراضي المقدسة، لعدد ٣٠ سائحًا. وفي عام ١٨٨٢م، قادت الشركة أكثر من خمسة آلاف سائح للأماكن نفسها. وقد وصلت عام ١٩٩٥م لأكثر من ٢ مليون سائح، قاموا بزيارة القدس، في عام واحد[١٩].



مدخل المكتبة الخالدية، في القدس

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩



بوابة يافا عام ١٩٠٥م، وتظهر علامة مكتب توماس كوك للسياحة

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

إن الغرض من السياحة الدينية للقدس كان تعريف السائح، أو الحاج بتاريخ دينه، حيث يمكنه أن يدرك ويجسد معنى العالم الروحاني، الذي يتبناه، وتشكل تجربة الحاج إلى القدس علاقة اجتماعية متينة مرتبطة بالأماكن الدينية، والحكايات، والمرويات الخاصة بمعتقده.

٦ـ الخاتمة

منذ بداية الاحتلال الإسرائيلي للقدس، عام ١٩٦٧م، شَرَعت سُلطات الاحتلال تنفّذ الخُطط والإجراءات الرّامية إلى تهويد المدينة الـمُقدّسة. فقامت بربط أهالي القدس الشّرقية، إداريًّا، وقضائيًّا، واقتصاديًّا، وتعليميًّا بالواقع الإسرائيلي؛ إلاّ أنّ أخطر الإجراءات، وأكثرها تعسّفًا هو الاستيطان، والاستيلاء على الأراضي، والمنازل. فبعد أن قامت قوّات الاحتلال بهدم حيّ المغاربة، وطَردْ سكّانه، وإجلاء قسم كبير من أهالي حيّ الشّرف في البلدة القديمة، ومصادرة الكثير من الأراضي، وإقامة الـمُستعمرات عليها، والاستيلاء على العديد من المنازل العربيّة، ولا تزال مستمرة في عدوانها.

صادرت قوّات الاحتلال أكثر من ٢٣ ألف دونم من أراضي القدس الشرقية، ومحيطها. وأقامت عليها أكثر من ٣٥ ألف وحدةٍ سكنيّةٍ، في حين حُرِّم على العرب إقّامة أيّ وحدةٍ سكنيّةٍ. ولا تزال سلطات الاحتلال مستمرةً في مخطّطاتها، بمصادرة الأراضي.

يحيط بالقدس حوالي عشرة أحياءٍ سكنيّةٍ يهوديّةٍ، وأكثر من ٤١ مستعمرةٍ، تُشكّل خمس كتلٍ استيطانيّةٍ.

قامت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بالعديد من الإجراءات لرفع نسبة السكان اليهود، في الجزء الشرقي من مدينة القدس، ومن خلال بناء حارات يهودية جديدة، بين الحارات والقرى العربية الموجودة عبر «الخط الأخضر»، وتشجيع المواطنين الإسرائيليين، ليستقروا فيها. ونلاحظ أن تخطيط الأجزاء الجديدة، ونسيجها يختلف، تمامًا، عن هوية البلدة القديمة، فالشوارع متعامدة، منتظمة، متسعة، وذات بنايات مرتفعة، تشبه المدن الأوروبية الحديثة، فبناتها من ثقافة مختلفة عن المكان.

كذلك فقد استخدمت بلدية القدس المخطط الحضري للمدينة، كأحد الأدوات لمنع التوسع العمراني للحارات العربية، عن طريق تحديد المناطق التي يمكنهم فيها البناء، وتقنين منح رخص البناء والترميم، وهدم البيوت التي تقام دون الحصول على التراخيص اللازمة من السلطات الإسرائيلية. هذا غير ما تقوم به من حفر للأنفاق أسفل الحرم الشريف، خاصة المسجد الأقصى، بذريعة البحث عن الهيكل.

كل هذا وأكثر، رغم أنه قد تم تصنيف مدينة القدس، من قبل منظمة «اليونيسكو»، كمدينة تراثية عالمية، عام ١٩٨١ م[٢٠].

لا تزال القدس تفتقد لعمليات الحفاظ العمراني، بسبب تعسف الاحتلال، ونقص الدعم المادي، وغياب إدارة للحفاظ العمراني، كما أن زيادة السياح، والتلوث، يسهمان في تهديد الآثار، خاصة مع افتقاد ترميم وصيانة للكثير من عمارتها وشوارعها. مما يهدد بقاء البلدة القديمة، رغم وضعها ضمن قائمة التراث المهدد من قبل منظمة «اليونسكو» عام ١٩٨٢م، بدعوى توفير الحماية لها[٢١].

لهذا نتمنى على المعماريين، والمخططين، والمهتمين بعمران القدس، المشاركة بممارسة دورهم، في الدفاع عن عمران القدس، الذي يعد ملكًا للعالم، كتراث عالمي، لا بد من الحفاظ عليه. وتفعيل دور الأمم المتحدة، والمؤسسات الدولية، حيث يمكن للمؤسسات المهتمة بالحفاظ على المناطق ذات القيمة التاريخية، كاليونسكو، أن تمارس دورًا أكبر في إعادة تنظيم الإستراتيجيات الوطنية، بشأن التعامل مع الكوارث التي تقوم بها قوات الاحتلال من تهويد لمدينة القدس، ويتم ذلك من خلال:

(أ) زيادة المعرفة والوعي.

(ب) الخبرة التقنية، والتبادل في المعلومات مع الأهالي الأصليين.

(ج) تسريع مشاريع التخفيف من الأضرار، والعدوان الصهيوني، وتمويل هذه المشاريع.

(د) تشجيع الأهالي الأصليين على مقاومة التهويد لمدينتهم.

حيث إن وسائل المقاومة للاحتلال لا تقتصر على المقاومة بالسلاح فحسب، بل وجدت بدائل أخرى، تتكامل معًا، فهناك من يناضل بالكلمة، وباللوحة، وبالأغنية، وبالحفاظ على التراث، والهوية ... إلخ، كل يقاوم بالوسيلة التي يتقنها.

لعل العمارة، التي شهدت على بشاعة الاحتلال، الذي يلحق الدمار بكل ما له قيمة، مهددًا بطمس ذاكرة الجماعة، يمكنها أن توجد أشكالًا مختلفة للمقاومة، ذات أثر فاعل، ومؤثر، عن طريق الآتي:

(أ) التسويق للقيمة التاريخية للعمران، وأهميته.

(ب)حماية القيمة (الشوارع التاريخية الحية).

(ج) رصد القيمة (الشوارع)، وتسجيلها.

(د) تجريم أي اعتداءات على القيمة الممثلة في التاريخ الحي والعمران.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، الطبعة الإليكترونية، القاهرة.

(٢) أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص١٣١.

(٣) **المرجع نفسة**، الصفحة نفسها.

(4) Sylvia Auld & Robert Hillenbrand (Editor),**Ottoman Jerusalem.. the living city 15171917-**..the urban structure and physical organization of Ottoman Jerusalem in the context of Ottoman urbanism. by: Paolo Guneo). Altajir world of Islam Trust. 2000.pages (211220-).

(٥) أحمد صادق سعد، (بعض المنطلقات الثقافية للنزاعات الطائفية)، في: أبو سيف يوسف وآخرون، **المشكلة الطائفية في مصر**، ط١، القاهرة، مركز البحوث العربية، ١٩٨٨، ص ٤٤.

(٦) ريمون، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠٠-١٠١.

(٧) **المرجع نفسه** ، ص ١٣١.

(8) Sylvia Auld & Robert Hillenbrand (Editor). reference mentioned before pages (211220-).

(9) Stephen Marshall. **Streets patterns**. Spon press. NY. U.S.A. and Canada. 2005. Pages (85.89.129.163).

(10) **Good City Form**. the MIT press. fifth printing 1987. first paper back. Kevin Lynch (edition 1984. by Massachusetts Institute of Technology. .Pages (147. 150).

(١١) المقدسي ، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص (١٥١و١٦٦-١٩٣).

(١٢) (Colin Osman. Jerusalem caught in time. A.U.C. press. Cairo. 1999. pages (56-58.

وإنجيل متى، الإصحاح ٢٨،٢٧،٢٦

(١٣) موقع الإنترنت، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، حارة المغاربة، عن مئير بن دوف، موردخاي ناؤور وزئيف عينار (١٩٨٧). «الحائط»، ص ١٦٧ (باللغة العبرية).

(14) Stanford Anderson (Editor). **On Streets**. the Institute for Architecture & Urban Studies. The MIT Press. 1986. page (232).

(١٥) إحسان عباس، **فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان-بيروت، ١٩٩٣.

(١٦) **المرجع نفسه**، ص ٧.

(١٧) **المرجع نفسه**، ص ١٦.

(18) www.khalidilibrary.org

(19) The Tourist City. **Tourism in Jerusalem a place to pry**. by : Arie Shachar & Noam (211-Shoval. Yale university. U.S.A. 1999. pages (198).

(20) www. \Al-Hakawati.mht/ jerusalem

(21) jerusalem\History Channel \ www.UNESCO

الفصل الرابع

القدس تحت احتلال الفرنجة

أميمة الشريف

مدينة السلام، لم تنعم به منذ فجر التاريخ.

حين تولى الدعوة إلى محاربة المسلمين، ومهاجمتهم راهب فرنسي يدعى «بطرس الناسك»، بعد عودته من زيارة إلى بيت المقدس، مدفوعًا إلى ذلك بالفكرة التي روَّج لها البابا «أربانوس الثاني»، وأخذ يخطب في الجماهير المسيحية الغربية ليستنهضهم في سبيل استعادة قبر السيد المسيح، وتخليصه من أيدي «الكفار»، واعدًا الجماهير بالغفران جزاءَ عملهم، طلب مساعدة لويس السادس ملك فرنسا، ولم يذكر التاريخ، قبل ذلك، أن طلب البطريرك مناصرة الدولة للقيام بحرب تحت شعار ديني[1].

تخليص قبر المسيح

ظل البابا أربانوس يخطب في جماهير النصارى في أوروبا، ويلهب حماسهم، مستخدمًا عبارات تهيِّج مشاعرهم الدينية، فيقول لهم إنه «أثناء رحلته للقدس، رأى قبر السيد المسيح مهانًا، ومحتقرًا، وأن زواره مضطهدون، وأنه من الواجب على النصارى أن يسيروا على طريق المسيح، ويقدموا أنفسهم، وأموالهم». وقد عقد أربانوس مؤتمرًا في جنوب فرنسا، اجتمع فيه الفرنجة من سائر أنحاء أوروبا، أطلق فيه البابا صيحاته لمحاربة المسلمين، تحت شعار «الله يريد ذلك»! وقد خرج للقتال، تحت قيادة بطرس الراهب، رجالًا، ونساءً، وأطفالًا، في زحفٍ حاشدٍ إلى بيت المقدس سالكين الطريق الذي سار فيه الإمبراطور قسطنطين أثناء سيره لبيت المقدس، لكنهم لم يتمكنوا من دخولها، فقد اشتبكوا مع السلاجقة الأتراك، الذين هزموا الفرنجة، وأعادوهم هاربين إلى حيث أتوا[2].

بعد حوالي أربع سنوات من إطلاق البابا صيحته، وصل الفرنجة إلى بيت المقدس، وكان الوالي عليها نائبًا عن الخليفة الفاطمي، قائدًا يدعى افتخار الدولة، الذي حوصر وعسكره، طيلة أربعين يومًا، دافع فيها الجنود العرب عن المدينة ببسالة منقطعة النظير، ورفضوا الاستسلام للغزاة، إلا أن الفرنجة تمكنوا من دخول المدينة في أحد أيام شهر يونيو/ حزيران ١٠٩٩ م، وفور دخولهم بيت المقدس عاثوا فيها فسادًا[٣].

مبررات احتلال بيت المقدس

سرعان ما اتضح الأمر، وبانت حقيقة أن من جاءوا متسترين براية المسيحية، يحملون الأناجيل باسم الصليب، يخفون وراء ذلك أحقادًا، وأطماعًا، تنأى عن ذلك كثيرًا، ولا تمت لادعاءاتهم بأي صلة، فلم تكن حملتهم في حقيقتها إلا نوعًا من الاستعمار، الذي يمكّنهم من نهب خيرات، وثروات الشرق[٤].

ليس ذلك فحسب، وإنما جاء الفرنجة انتقامًا من الدولة الإسلامية، التي امتد نفوذها، واتسعت رقعتها، وشملت فتوحاتها معظم أراضي شرق البحر الأبيض المتوسط، الذي يعرف في أوروبا بـ «الليفنت» إلى شمال إفريقيا، وبلاد المغرب العربي، التي كانت تحت الحكم البيزنطي، وامتد نفوذ المسلمين حتى وصل إلى جنوب إيطاليا، وصقلية، ومدينة جنوة، الأمر الذي أثار أحقاد الفرنجة، وزاد طمعهم في استعادة تلك المستعمرات واستخلاصها لهم، مرة أخرى. وكان للدعوة الدينية أثرٌ كبير في حشد عدد من المقاتلين، الذين يرغبون في الفوز الديني، والذين تمت دغدغة مشاعرهم الدينية بما أثاره أربانوس، وكان من المحتمل ألاَّ يستجيبوا للدعوة، لو لم يتم إلباسها ذلك الثوب الديني، فمن المؤكد أن من ضمن تلك الحشود من جاء طمعًا في الغفران، حقًّا[٥].

راح الفرنجة يتوسعون في أرجاء المشرق، ولم يكتفوا باحتلال القدس، مما يدحض مزاعمهم، فلو أن الأمر كان خالصًا لوجه الدين، لما برحوا القدس ـ التي بها قبر المسيح ـ بحثًا عن غيرها من الأراضي والخيرات العربية، التي أخفوا نواياهم الحقيقية تجاهها[٦].

لم يكن المسيحيون، في القدس، في حقيقة الأمر، مضطهدين، بينما اتسمت حياتهم في ظل دولة الإسلام بالسلام والصفاء، فكانوا إخوانًا، لهم الحق في ممارسة حياتهم، وعباداتهم، بحرية وتسامح تام، متمتعين بحقوقهم المدنية، بلا أي نقص أو تدخل، وقد عبَّر عن ذلك جمع من الكتاب والمؤرخين، ومنهم الأستاذ/ رئيف ميخائيل الساعاتي، والأستاذ/ سيد أمير علي، فضلًا على المقدسي، الذي وصف رحلته إلى بيت المقدس قائلًا: إنه وجد النصارى فيها من «أصحاب الكلمة العليا»، ناهيك عمَّا جاء على لسان غاي لوسترينج في مقدمة كتابه، فقد ورد فيها أن المسيحيين لم يكونوا، أبدًا، مضطهدين في بيت المقدس[٧].

يرى هري الجرسون فوسديك أن الأسباب الحقيقية وراء دعوة البابا أربانوس لغزو بلادنا تكمن في حقن الدماء المسيحية – المسيحية في أوروبا، فقد استفحل الخلاف في أوروبا، فيما بين الطوائف المسيحية المختلفة، وازداد الاقتتال بينهم، مما أسفر عن وقوع الآلاف من القتلى اللاتين، وبيع الآخرين كعبيد[٨].

من الأسباب الحقيقية، أيضًا، لحملات الفرنجة ما أشيع من أن من يستولي على أي مدينة من الأمراء يصبح صاحبها الشرعي، فطمع زعماء الحملة في الاستيلاء على البلاد المفتوحة، وبسط سلطانهم عليها، وقد تردد هؤلاء في

شكل الاحتلال، مما دفعهم لإلباسه ثوب الدين، إلا أن الأمر كان يبدو محيِّـرًا حقًّا في شأن كنيسة القيامة، وأماكن العبادة، فلمن تؤول ملكيتها، هي والأماكن المحيطة بها؟[٩].

كما أن الصراع الدائر بين كل من الفرنجة القادمين من أوروبا، وبين الدولة البيزنطية المسيحية، في الشرق، كان دافعًا لمحاولة الطرفين للاستيلاء على الأراضي العربية، وكان كل طرف منهما يقدِّر جيدًا أهمية القدس، فيحرص على الاستيلاء عليها، وبسط نفوذه عليها، مما يؤكد الطبيعة الاستعمارية لتلك الحملات[١٠]. كما هاجرت أعداد كبيرة من الفرنجة لبلاد العرب، هربًا من الفقر الذي عانوه، زمن الأمراض والأوبئة التي تفشت في بلادهم، وقد سمعوا بأن بلاد الشرق تحتوي على الكثير من الخيرات، التي طمعوا في الحصول عليها، والمتاجرة بها في أوروبا[١١].

كما يؤكد المؤرخون أن حملات الفرنجة استهدفت إقامة مملكة لاتينية على الطراز الغربي في مدينة القدس، والتخلص من ثقافتها العربية، فضلًا على القضاء على المسيحية الأرثوذكسية المنتشرة في الشرق، في مدينة المسيح، ناهيك عن الحيلولة دون الاقتتال فيما بين الأمراء في أوروبا، عن طريق شغلهم بمحاربة المسلمين. فيما يرى آخرون أن هدف حملات الفرنجة لم يكن إلا تجاريًّا فحسب[١٢].

لكن، ورغم تعدد الأسباب التي ساقها مؤرخو المرحلة ومفكروها، فإن جميعها يؤكد بأن ثمة أهدافًا استعمارية دفعت هؤلاء الفرنجة للتوجه إلى منطقتنا العربية، وفي القلب منها المدينة المقدسة.

غزوات على القدس

في عام ١٠٩٩م، وفور وقوع مدينة القدس في أيدي الفرنجة، قاموا باقتحام المسجد الأقصى، وارتكبوا فيه مذبحة مروعة ضد الأهالي، الذين احتموا به، راح ضحيتها عشرات الألوف من أهالي المدينة المقدسة، وسرقوا ونهبوا ما وقع أمامهم من قناديل المسجد، والتنور الخاص به، وارتكبوا من الجرائم الوحشية ما تقشعر له الأبدان، وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد القتلى، فالبعض رأى أنهم وصلوا إلى مائة ألف قتيل، فيما قدرهم آخرون بسبعين ألفًا فقط[١٣].

في تلك الأثناء، قرر الوزير الأفضل الفاطمي، أن يستعيد بيت المقدس، فأرسل حملة كبيرة من الجنود إلى فلسطين، حتى وصلت إلى مدينة عسقلان، التي اتخذتها الحملة مركزًا لها، وانتظرت الحملة هناك، حتى تصل بقية الإمدادات، وأثناء فترة انتظارها هاجمها الفرنجة، وأوقعوا بها الهزيمة، فلم تفلح في استعادة القدس[١٤].

قام الفرنجة بتحويل معظم مساجد القدس إلى كنائس، ومنها مسجد قبة الصخرة، الذي أقاموا عليه كنيسة عرفت باسم «كنيسة هيكل الرب»، كما حوَّلوا المسجد الأقصى إلى سكن لفرسان المعبد، فيما بنوا على جزء منه كنيسة أُخرى[١٥]، فضلًا على أنهم عمَّروا كنيسة القيامة، وجمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة، على طراز الكنائس الغربية[١٦].

وهم في ذلك يحاولون تغيير معالم المدينة، إضفاء الطابع الغربي على مدنها، وعمارتها، فضلًا على سكانها، فقد أبعدوا من المدينة أهلها حتى يحل محلهم الأوروبيون القادمون، فتظهر المدينة كما لو كانت مدينة لاتينية، منذ وجدت[١٧].

المملكة اللاتينية في القدس

بدأ الفرنجة في تأسيس مملكتهم اللاتينية، في القدس، وحدث نزاع فيما بين البابا في أوروبا والكنيسة التي تريد أن تفرض سيطرتها على الكنيسة الشرقية، وبين بيزنطة التي تطمح لاستعادة مستعمراتها في الشرق. وقد أرسلت الكنيسة الغربية مبعوثًا بابويًّا، هو حاكم بيزا «ديمبرت» ليكون حاكمًا لمملكة بيت المقدس، وقد قام، على الفور، بعزل البطريرك الشرقي، وتولى هو منصبه، فضلًا على قيامه بطرد المسيحيين المحليين، والشرقيين، ومنهم اليونانيون، واليعاقبة، والنسطوريون، والأرمن، من كنيسة القيامة، وسائر كنائس المدينة المقدسة[١٨].

تراجع الفرنجة عن فكرة إنشاء مملكتهم في بيت المقدس على أساس ديني، واتفقوا على أن يحكمها حاكمٌ علمانيٌّ، واختاروا جودفري دي بويون، الذي رفض في البداية، إلا أنهم أجبروه على الموافقة، ولقب نفسه بـ «حامي القبر المقدس» أو «حامي بيت المقدس» مما يعني أن تلك الدولة كانت خليطًا أو وسطًا بين السياسة، والدين، فقد أشرفت عليها الكنيسة[١٩].

عاد معظم الجنود الفرنجة إلى بلادهم تاركين في مدينة القدس جيشًا هيكليًّا قليل العدد، كما هرب من المدينة أهلها، ناجين بأنفسهم من المذابح وجرائم القتل التي عانوا منها، متجهين إلى المدن المجاورة، فضلًا على قيام الغزاة بطرد المسيحيين من أهل المدينة وباقي المسيحيين الشرقيين من سكانها؛ لأنهم شكوا في تعاونهم مع المسلمين في محاربة الفرنجة، وبذلك أصبحت شبه خاوية من الأهالي، فلم يقطنها سوى بضع مئات، وتحولت إلى مدينة خربة، يتجمع المقيمون فيها في حي البطريرك، حول القبر المقدس، بحثًا عن الأمان[٢٠].

جاء ارتكاب الفرنجة لتلك المجازر، في المدينة المقدسة، وطردهم لأهلها في إطار خطة منظمة، فقد هدفت إلى تغيير ديموغرافية المدينة، وتركيبتها السكانية، استكمالًا لما قاموا به من تغيير معالمها العمرانية، وطرازها، لمحو طبيعتها، وإظهارها بمظهر غربي، محاولين بذلك إرساء دعائم وجودهم في القدس إلى الأبد، لكنهم عندما بدأوا في تنظيم أمور مملكتهم اللاتينية في القدس واجهتهم المشكلة السكانية، حيث لم يكن عدد مواطني المدينة يكفي لملء أحد شوارعها. فعمل المستعمرون على تشجيع أهالي المناطق المجاورة على الهجرة إلى القدس، بالترهيب أو الترغيب، فهاجر إليها النصارى من أبناء وادي موسى، ومن عمان، والسلط، والبلقاء، وأسكنوهم في حي خاص، أسموه حي الشارقه، تمييزًا لهم عن القادمين من أوروبا[٢١].

نجح بلدوين في أن يصل عدد سكان المدينة المقدسة إلى نحو ثلاثين ألف نسمة، وبدأت المدينة تشهد تطورًا ملحوظًا، فقد زادت الحركة بين الشرق والغرب، كما أحدثت زيادة حركة الحجيج والزوار للأماكن المقدسة رواجًا كبيرًا[٢٢].

أقام الفرنجة في القدس نمطًا للحياة على الطراز الغربي، فمثلًا استبدلوا بمحكمة الشريعة الإسلامية ثلاث محاكم مدنية، وجنائية، وهي: المحكمة العليا الخاصة بالنبلاء، وثانية للعامة من أبناء الفرنجة، فيما تختص المحكمة الأخيرة الأدنى منزلة بأهل البلاد من العرب، وتولى أمرها مسيحيون محليون، وبالنسبة لشؤون الكنيسة، اختار بلدوين بطاركة ارتضوا دورًا ثانويًّا في حكم المملكة، واختص البطريرك بالسلطة التشريعية، والقضائية في الحي المسيحي، وابتداءً من سنة ١١١٢م أصبح بلدوين حاكمًا علمانيًّا لبقية مملكة اللاتين في القدس[٢٣].

عاشت مملكة الفرنجة في مدينة القدس، وازدهرت لمدة أربعة عقود، إلا أن الانقسامات الداخلية والانقلابات بدأت تنهش دولتهم. وبحلول عام ١١٥٢م، اشتد الخلاف بين الملك بلدوين الثالث، وأمه ميسلندة، فقامت الأخيرة بتحصين مدينة القدس، واستعدت لمحاربته، وبَدَتْ نذر الحرب الأهلية وشيكة، لولا تدخل المواطنين، الذين أجبروها على التسليم، كانت هناك، أيضًا، انقسامات أخرى لدى فرسان الداوية والإستباريون، الذين رفضوا الخضوع لسلطة أي من البطريرك، أو الملك، وقاموا ببعض التصرفات التي عبرت عن ازدرائهم للكنيسة، والبعد عن تعاليم وأخلاقيات المسيح، فقاموا ببناء برج أعلى ارتفاعًا من كنيسة القبر المقدس، وتعمدوا إعاقة القداس بها، واستمرت الانقسامات والصراعات فيما بين الفرنجة، فكل يسعى للانفراد بالسلطة[٢٤].

مؤرخو الفرنجة يصفون فظائعهم

أرَّخ مؤرخو الفرنجة، لتلك الفترة، التي قامت فيها مملكتهم في المدينة المقدسة، وما ارتكبوه من وحشية ودمار فيها، ففي رسالة لأحدهم إلى البابا، أخبره بأن جنودهم كانوا يخوضون حتى الركب في دماء المسلمين. أما وليم الصوري، المؤرخ الفرنجي، فإنه وصف المدينة المقدسة بأنها كانت مخاضة واسعة من دماء المسلمين، كما وصف أحد الكهنة مشاهد القتل، والجثث، والأشلاء المتناثرة متألما لما رآه.

أما المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون، فإنه كتب في كتابه «حضارة العرب»، أن الأوروبيين كانوا يطاردون العرب في الشوارع والمنازل، وكانوا يخطفون الأطفال، ويذبحون الأولاد، والشبان والشيوخ، ويقطعون جثثهم، بالإضافة إلى مشاهد القتل الجماعي، حيث كانوا يشنقون الناس في مجموعات، بعضهم أمام بعض، وأن أحد أمراء الفرنجة، ويدعى بوهيموند، أحضر الأسرى من أهالي مدينة القدس العرب، وقام بتجميعهم في برج النصر، حيث أمر بضرب رقاب الشيوخ، والعجائز، أما الرجال والشبان فقد أمر ببيعهم في سوق الرقيق[٢٥].

أدى كل ذلك إلى ازدياد الحقد والكراهية لدى العرب لهؤلاء الغزاة المتوحشين، ولم يحاول الفرنجة إزالة أسباب تلك المشاعر، وإنما بقيت دولتهم في القدس، كيانًا غريبًا معاديًا، يزيد في كل يوم من عدوانه على أهالي البلاد، وتركزت أعمال الفرنجة في الاهتمام بتنظيمهم العسكري، والاستعداد الدائم لمحاربة العرب، ولم يهتموا بشيء، سوى ببقائهم في البلاد، فيما لم يسعوا، أبدًا، للتعرف أو الاستفادة من الثروات الفكرية، والتراث الحضاري لبلاد العرب، والمدينة المقدسة، الأمر الذي جعل مملكة الفرنجة غير مستقرة، بل مهددة دائما بالزوال[٢٦].

النضال العربي لاسترداد القدس

خرج صلاح الدين من مصر، في اتجاه فلسطين، ليحقق حلمه في توحيد صفوف المسلمين، بزعامته، في عام ١١٧٥م، وما إن وصل إلى ساحل مدينة عسقلان، حتى وجد جنود مملكة بيت المقدس في انتظاره، ولحقت به هزيمة شديدة، عاد على إثرها أدراجه، لكنه في السنة التالية أعاد الكرَّة، واستعاد بعض أجزاء المملكة، بعد أن هاجم حصونها، فلجأ الملك بلدوان الرابع، ملك المملكة اللاتينية في بيت المقدس، يسعى إلى طلب الهدنة التي تم عقدها في ١١٨٠م[٢٧].

تم تجديد الهدنة، فيما بين صلاح الدين وريموند، في العام التالي (١١٨١م)، واستمرت سارية، إلى أن نقضها أحد فرسان مملكة بيت المقدس، ويدعى رينو ديشانيون، أو أرنولد[٢٨]،الذي هاجم طرق حجاج المسلمين، أثناء رحيلها

للحج من مصر، مما أثار حفيظة المسلمين، وقائدهم صلاح الدين، فقام بإعداد العدة لمقاتلة الفرنجة، وخرج من القاهرة في عام ١١٨٢م، متجهًا لقتال الفرنجة، عازمًا على تحرير بيت المقدس، وما إن وصل إلى الكرك، حتى أغار على حصون الفرنجة، مما جعل أرنولد يطلب الصلح، فمنحه صلاح الدين الهدنة، لانشغال الأخير حينها بضم وتوحيد الدويلات العربية المجاورة، حتى يمكنه غزو الفرنجة، وتحقيق هدفه بتحرير القدس[٢٩].

دفاع العرب عن القدس

بعد أن اطمأن صلاح الدين إلى توحيد كلمة أمراء المسلمين تحت زعامته، وقبولهم محاربة الفرنجة معه، أصر على الجهاد، وإلحاق الهزيمة بالغزاة.

وفي تلك الأثناء، ساد دولة الفرنجة انقسام جديد، فقد توفي ملكها بودان الخامس، وانتقل ملكه إلى أمه، التي تزوجت من أحد الفرسان القادمين من أوروبا، وتوجته ملكًا على الفرنجة، مما أرضى الفرسان، والداوية، وبعض رجال الدين، إلا أن أمير طرابلس كان يطمع في أن يصبح ملكًا على الفرنجة، ومن ثم فقد ناصبهم العداء، وتآمر مع صلاح الدين ضد مملكة الفرنجة في بيت المقدس، وكان له دور عظيم في فتحها، وقد جمع صلاح الدين الجند من الجزيرة، ومصر، والشام، حتى صاروا قوة هائلة، وأخذ في فتح البلدان المجاورة، ودك حصونها، إلا أن الفرنجة استشرفوا الخطر القادم عليهم، وحاولوا أن يدرؤوه باتحادهم، وأنَبوا أمير طرابلس، وهددوه بالحرمان الكنسي، مما اضطره للانضمام إليهم، واشترك في تلك المعركة جميع أُمراء الفرنجة، عدا بوهمند الثاني، أمير أنطاكية، وتجمع منهم جيش قوامه خمسون ألف جنديٍّ، حملواءا الصليب.

في ربيع عام ١١٨٧م، اجتاحت قوات صلاح الدين قلعتي الكرك، وكراك دي مونريال، وبعد شهرين بدأوا في قتال الفرنجة، فيما احتشدت القوات المنطلقة من دمشق نحو بحيرة طبرية، والتي سميت بجيش الشام الموحد، الذي ضم قوات من دمشق، وحلب، والموصل، والتقى به جيش من مصر بقيادة الملك العادل وسار الجيشان تحت لواء صلاح الدين، حتى وصل إلى تل عشترة، وفي شهر مايو، أي العام نفسه (١١٨٧)، أبادت تلك القوات فصيلة كبيرة من فرسان الفرنجة، وقتلوا القائد الأكبر لجماعة الإسبتاريون روجيه دي مولان[٣٠].

كانت قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين تضم اثني عشر ألف فارس، من فرسان المشاة، بالإضافة إلى عدد كبير من رجال الاحتياط، والمتطوعين، فيما حشد الصليبيون اثنين وعشرين ألفًا من الفرسان والجنود، فضلًا على عدد كبير من المتطوعين، ثم ازداد عدد قوات جيش صلاح الدين بعدد من المتطوعين من مصر، والشام، وجميع أنحاء الدولة الأيوبية، حتى بلغ عدد القوات ما يزيد على الستين ألفًا، زحفوا عابرين نهر الأردن، جنوبي طبرية، حتى وصلوا في اليوم التالي إلى كفر سبت، جنوب غربي طبرية، واستولوا عليها، دون اشتباك مع الفرنجة، مما مكنهم من منع الفرنجة من بلوغ الماء، واستولوا على عيون الماء، واستخدموها، كأسلحة، بتعطيش الفرنجة، وأحرقوا الأعشاب، كما أشعلوا النيران، مما أثار الرعب في قلوب أعدائهم الفرنجة، وأجبروهم على الاشتباك، وقد استخدم صلاح الدين حيلة حربية، جر الفرنجة عن طريقها إلى السهل الواقع بين لوبيا وحطين، وشن هجومًا، فحاصرت قوات المسلمين تلال حطين، التي قفز إليها الفرنجة، وعندما حل المساء توقف القتال، الذي استمر في اليوم التالي (٤ يوليو/ تموز ١١٨٧م)، وكان الحر شديدًا، وفي ظل نقص مياه الشرب، لف فرسان الفرنجة سحب الدخان

المتصاعد، والتحم الجيشان على بعد ميلين من حطين، فأهلك جيش صلاح الدين الفرنجة، وقتل منهم عددًا كبيرًا، وجرح آخرين، برماح وسيوف المسلمين، واستسلم الآلاف، فوقعوا في أسر المسلمين[٣١].

تقدم أمير طرابلس، ريمون الثالث، وهو قائد الفرسان، بأمر من ملك مملكة بيت المقدس غي دي لوزيان، وزحزح بهجومه قوة من جيش المسلمين، كان يقودها تقي الدين عمر، فظن الفرنجة أنهم أحدثوا بذلك ثغرة في جيش صلاح الدين، واندفعوا فيها، فحاصرهم جيش صلاح الدين، وقامت من الطرفين معركة، استمرت طيلة سبع ساعات متوالية، سقط خلالها من الفرنجة الآلاف بين قتيل وجريح، ووقع ملك بيت المقدس نفسه في الأسر، بالإضافة إلى عدد كبير من القادة والبارونات، قدر عددهم بمائة وخمسين من الفرسان، منهم أرناط رينالد، صاحب الكرك، الذي قتله صلاح الدين، ولم ينج من الفرنجة إلا عدد قليل، فروا هاربين إلى صور ليحتموا وراء أسوارها.

مُنِيَ الفرنجة بهزيمة ساحقة، وفر أمير طرابلس إلى بلاده، حيث مات بعد ثلاثة أيام، فيما فتح صلاح الدين بعض المدن مثل عكا، ومجدل الصادق، ويافا، والناصرة، لكنه أبى أن يدخل القدس شاهرًا سيفه، فأرسل لمفاوضة أهلها، ليسلِّموا المدينة، و لما رفض المقدسيون طلبه، سار إليهم في ستين ألف جندي، وحاصرها، وأخذ يطوف حول سور المدينة، بحثًا عن أضعف مكان فيه ، نظرًا لمناعته وقوته، ونصب عليه المنجنيقات من جهة الشمال، وتمكن الجند من نقب السور، فاضطر البطريرك هرقل لتسليم المدينة المقدسة، طالبًا الأمان للفرنجة، ودخلها صلاح الدين، وجنوده فاتحًا، في ٢٧ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، وسمح للفرنجة بمغادرتها، بعد أن دفعوا الجزية، وقد دفعها بنفسه عمن لا يستطيع منهم دفعها، وأظهر في معاملة الأسرى والجرحى من التسامح ما يحمده له الغرب حتى الآن، وجعلهم ينسجون حوله العديد من الأساطير، حتى أنهم أوصلوه إلى مراتب القديسين[٣٢].

القدس بعد الفتح الصلاحي

احتفل صلاح الدين بدخول القدس، وأسماه « الفتح الأكبر»، ودعا مندوبين من كل أنحاء البلاد الإسلامية، ولم يتخلف أي شخصية خاصة العلماء، والمتصوفة، فدخلها مع ما يزيد على عشرة آلاف عمامة، وأخذوا يهنئون القائد بالنصر، بين جموع الشعراء، والمنشدين، وأرسلت رسائل الفتح إلى كل بلاد الإسلام[٣٣].

فور الانتهاء من الاحتفالات، عمل صلاح الدين على إعادة الطابع الإسلامي للمدينة، والذي غيَّره الفرنجة، فأمر بإظهار قبَّة الصخرة، بعد أن غطاها الفرنجة أيام احتلالهم للمدينة، وحينما ظهرت قام بنفسه بغسلها بماء الورد، ورفع الصليب الذي وضعوه عليها، كما أزال النقوش والآثار النصرانية من عليها، فضلًا على قيامه بتنظيف المسجد الأقصى، وأمر بتجديده، وإعادة إعمار محرابه، واهتم صلاح الدين بإعادة إعمار ما خرَّبه الفرنجة في مدينة القدس، وأقام فيها المستشفى المعروف بـ «البيمارستان» ونقل إليها الأدوية، والأطباء، حتى يتم تجهيزها لاستقبال المرضى، ومن أهم الأطباء الذين عملوا فيها رشيد الدين بن علي الصوري، وأنشأ الأيوبي، أيضًا، المدرسة الصلاحية، ومدرسة الشافعية، وثالثة للفقهاء، ورباط للصلحاء الصوفيين، عند باب الأسباط، ووقفها ضمن أوقاف بيت المقدس، في ١٣ رجب ٥٨٨ هـ[٣٤].

قام صلاح الدين، أيضًا، بتعمير وتجديد سور مدينة القدس، واشترك بنفسه في ذلك، وفي حفر خنادق حول

السور، فضلًا على أنه أسهم مع العمال في نقل الحجارة التي استخدموها، وفي إطار اهتمامه بتعمير المساجد، وسَّع وجدد جامع الجبل، الذي يقع على جبل الطور، شرقي بيت المقدس، كما أمر بتشييد مقبرة باب الساهرة، وفيها عدد من مقابر الصالحين، وتعرف بمقبرة المجاهدين[٣٥].

سمح صلاح الدين، بعد الفتح، لمسيحيي أوروبا، والشرق، بالحج إلى بيت المقدس، كما كانت القدس طريق حجاج المسلمين، القادمين من شمال أفريقيا، المتجهين إلى شبه الجزيرة العربية، في موسم الحج، فضلًا على التجار، الذين يتنقلون بتجارتهم بين مصر والشام، وطلاب العلم، مما أثرى ذلك المدينة، وانتعشت التجارة بها، وتأثرت الحياة الاقتصادية، والاجتماعية لأهلها[٣٦].

بمجرد أن علم البابا أربانوس الثامن بنبأ سقوط مملكة بيت المقدس، في معركة حطين، خر صريعًا، من هول الصدمة، وتولى خلفا له البابا جريجوريوس الثامن، الذي تولى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة. قامت الحملة الثالثة من حملات الفرنجة، التي اشترك فيها كبار الإقطاعيين، والفرسان، من بلدان أوروبا الغربية، وكان من أهم دوافع تلك الحملة المصالح التجارية لدول أوروبا وأطماعها في بلاد الشرق، قاد جيوش هذه الحملة كل من الملك فليب أوغست الثاني، ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد، ملك بريطانيا، وأيضًا فريدريك الأول ملك بربروسَّا، فتحركت الجيوش الألمانية قبل غيرها، في ثلاثين ألفًا من الفرسان والمشاة، ثم تحركت باقي الجيوش، وانتهت تلك الحملة في ١١٩٢م، بعقد صلح الرملة مع صلاح الدين، واحتفظ الفرنجة بموجبه بشريط ساحلي امتد من صور إلى يافا، فيما انفرد المسلمون ببقية بلاد الشام، وفي القلب منها القدس، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة القدس[٣٧].

بعد تعمير مدينة القدس، استمر صلاح الدين في نضاله ضد الفرنجة، حتى توفي في عام ١١٩٣م، وبكته المدينة المقدسة، وحزنت عليه حزنًا شديدًا، فهي تذكر له أنه حررها من استعمار الفرنجة، وأعلى كلمة العروبة والإسلام، وأنه أزال آثار العدوان والتخريب الذي أحدثه بها الفرنجة، وعمَّرها وقادها إلى المجد[٣٨].

بعد هزيمة قلب الأسد في الحملة الثالثة من حملات الفرنجة لم يتمكن من دخول بيت المقدس[٣٩].

الضعف والانقسام العربي أضاعا القدس

بعد وفاة صلاح الدين، تولى الملك العادل، الذي عمل على توحيد صفوف الحكام الأيوبيين، في مصر والشام، تحت سلطانه في الفترة ما بين سنة ١٢٠٠م – ١٢١٨م، وفي هذه الأثناء، ونتيجة لإصرار الفرنجة على إعادة احتلال بيت المقدس، قامت الكنيسة في أوروبا بإطلاق صيحاتها، مرة أخرى، لتجهيز حملة فرنجية جديدة، تحت الشعارات نفسها. وفي سنة ١٢٢٨م، وبعد وفاة الملك العادل، تولى الحكم الملك الكامل وبعد فشل الحملة الخامسة من حملات الفرنجة، عقد فريدريك بربروسَّا اتفاقا مع الكامل على الهدنة، التي أنكرها المسلمون في الشام ومصر، واتهموا ملكهم بالتنازل عن بيت المقدس؛ لأنها كانت تتضمن اتفاقًا على أن يتسلم الفرنجة، بقيادة ريتشارد، بيت المقدس، وبيت لحم، ويافا، وعكا، واللد، والناصرة، والطريق، فيما يبقى المسجد الأقصى، وقبَّة الصخرة في أيدي المسلمين، مقابل هدنة تستمر عشر سنوات، وتم تسليم المدينة، وسط أجواء من الحزن الشديد، والاستنكار، في عام ١٢٢٩م، إلا أن هذا الاتفاق لم يرق للبابا، بل إنه وبَّخ الإمبراطور فريدريك على قبوله؛ لأنه في مقابل الحصول على القدس، وعقد الاتفاق، وعد بأن لا يغزو مصر. وفي رأي البابا، فإن القدس وحدها لا تكفي، وهنا، أيضًا، أكد البابا أطماعهم الاستعمارية، التي تتستر بالدين. ومن ثم فقد أصدر قرارًا قضى بحرمان فريدريك كنسيًّا[٤٠].

بقيت القدس في أيدي الفرنجة، منذ تسليمها في ١٢٢٩م، وحتى ١٢٣٩م، وتلك الفترة كانت مليئة بالاقتتال فيما بين حكام الأيوبيين وبعضهم البعض، وانتهز الفرنجة فرصة الخلافات فيما بين العرب، لاستعادة تنظيم صفوف الفرنجة، وتجهيزاتهم، والقضاء على أسباب الضعف في صفوفهم، والتي أدت إلى انتصار المسلمين عليهم، وقام الفرنجة بتحصين المدينة المقدسة، وبناء سورها، الذي خرَّبه الملك المعظم عيسى الذي ولي الحكم بعد صلاح الدين، مخافة أن يغزو الفرنجة المدينة، مرة أخرى، كما دمر المدينة، أيضًا، للسبب نفسه، وفي ذلك الحين، كان الملك الكامل توفي، وتولى بعده أخوه، الملك الناصر داود، وما إن علم داود باستعداد الفرنجة، حتى أنهى الخلاف مع نجم الدين أيوب، وتحالفا على محاربة الفرنجة، واستعادة القدس، واستردادها منهم في ١٢٣٩م[٤١].

في تلك الأثناء، كان الفرنجة شديدي الحرص على احتلال القدس، فيما كان ملوك بني أيوب منهكين بالاقتتال فيما بينهم، طمعًا في السلطان، مما جعل القدس طبقًا شهيًا، على طاولة الاتفاقات، وموضوعًا للمساومات. ومرة أخرى اختلف نجم الدين داود، والي مصر، والناصر داود، حاكم الشام، فاتفق داود مع الفرنجة على تسليم القدس، على أن يكونوا عونًا له على الأول، وبهذا الاتفاق والتسليم تمكن الفرنجة من المدينة المقدسة بلا حروب، وجلسوا فوق الصخرة المشرفة بالخمور، وعلّقوا، مرة أخرى، الصلبان، والأجراس على المسجد الأقصى[٤٢].

استعان نجم الدين أيوب بالخوارزمية (التتر)، واستدعاهم إلى مصر، لمحاربة أهل الشام، وتجمع لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، اتجهوا إلى القدس، واستعادوها من أيدي الفرنجة، وأصبحت من أملاك نجم الدين[٤٣].

في ١٢٣٠م، صادق البابا على معاهدات فريدريك مع السلطان الكامل، ومع المسلمين.

في ١٢٤٥ أعلن لويس التاسع، ملك فرنسا، عن نيته القيام بحملة جديدة، ولم يكن البابا متحمسًا هذه المرة، وظل الملك يجمع الأموال من ضريبة العُشر من الكنيسة طيلة ثلاث سنوات، وأبحر في جيش قوامه عشرون ألف جنديٍّ، بينهم ثلاثة آلاف فارس، بعد أن جهَّز المؤن، والحبوب، والخمور، وظل يتفاوض مع مسيحيي الشرق، حتى نهاية مايو آيار ١٢٤٥م، ثم انطلق إلى دمياط، ومنها إلى الإسكندرية، لكن لويس التاسع وقع في الأسر، وانتشر بين جنود الحملة أمراض الملاريا والدوزنتاريا والأسقربوط، وأخلي سبيل لويس التاسع في ١٢٥٠م. وغادر دمياط إلى عكا حيث بقي بها أربع سنوات، ثم دعا إلى حملة جديدة، إلا أن البارونات، والدوقات، والكونتات، والفرسان تجاهلوا دعوته[٤٤].

كتب الفرنجة عن الحملة السابعة، بعد أن مُني فيها لويس التاسع بهزيمة ساحقة، أنه رغم اتشاحها الدين، فقد اتسمت بانحسار الشرف، والتعصب، وضعف الإدراك، ففقدت فاعليتها، وأصبح انهيار حروب الفرنجة أمرًا واقعًا[٤٥].

ظل الفرنجة مصرُّون على احتلال بيت المقدس، وتجهيز حملاتهم للسيطرة عليها. فالمدينة كانت ولا تزال محل أطماع الغزاة، فقد كان وضعها الجغرافي، بالإضافة إلى أهميتها، من الناحية الدينية، والسياسية، والتجارية مصدرًا لجلب الأعداء، وقيام الحروب على أراضيها، فلم ينعم أهلها بالسلام، وإنما ظلوا في حالة من النضال المستمر، حتى لا يتمكن منها المحتلون والغاصبون[٤٦].

كما بقيت مدينة بيت المقدس، وأهلها ، وحكامها في حالة من الجهاد، والاستعداد، لمواجهة الأعداء القادمين،

فقد ظل حلم استعادتها من قبل الفرنجة يراود أوروبا بأسرها، فاشترك في الحملات كل من الإنجليز، والفرنسيين، والألمان، وغيرهم، وقد أحدثت هزيمتهم على أيدي العرب المسلمين صدمة مروِّعة لرجال الكنيسة الغربية، فظلوا سنوات يعملون بدأب على استنفار الجيوش، واستنهاض وإلهاب حماس المسيحيين للإغارة على مدينة بيت المقدس، واحتلالها [٤٧].

كما أن الحكام والقواد العسكريين الغربيين، أيضًا، كانوا يعلمون جيدًا مدى أهمية احتلال بلاد الشام، وخاصة فلسطين، والقدس، على وجه التحديد؛ ولذا نجد أن بونابرت حين كان يعمل على وقف النفوذ البريطاني في المنطقة، وعندما قام باحتلال مصر كان يعي جيدا أنه لا بد من السيطرة على فلسطين، بما فيها القدس، حتى يمكنه البقاء في المنطقة، وتحقيق سياساته، ومنافسة بريطانيا [٤٨].

وعى حكام العرب، أيضًا، أنه لولا ضعفهم وانقساماتهم، التي استهلكت قوتهم، وقواتهم الدفاعية في ساحات القتال ضد بعضهم البعض، كما أثارت مطامع الغير في أراضيهم، وخيراتها، كما فهموا جيدًا أن اتحادهم وتحالفهم كان سببا في تحقيق النصر.

وبعد، فإن هجمتين للفرنجة والصهاينة اتفقتا، أولًا، في أنهما استعماريتان، استيطانيتان، وثانيًا باتشاحهما بالدين، كذبًا وافتراء، وثالثًا في إفراطهما باستخدام القوة الغاشمة، ورابعًا في اعتمادهما على ضعف العرب، وتفرقهم، حتى وصل الأمر ببعض حكام العرب إلى التحالف مع الفرنجة ضد العرب، أشقاء أولئك الحكام، حسب المفترض! ولكن هذا لا يعني أن الهجمة الصهيونية ستُهزم بنفس الطريقة، وستندحر في المدة نفسها التي استغرقها اندحار حملات الفرنجة.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) معين حسيب فرج الله، **تاريخ القدس العربية**، بيروت، دار سعاد الصباح للطباعة والنشر، سلسلة دراسات في القومية العربية، ط١، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٧، ص ٣٧.

عبد المنعم ماجد، **صلاح الدين الأيوبي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٢٣ ، ٢٤.

(٢) **المرجع نفسه**، ص ٢٤.

(٣) **المرجع نفسه**، ص ٢٩ .

عبد الحميد الكاتب، **الفتح الإسلامي، الغزو الصليبي، الهجمة الصهيونية**، القاهرة، مكتبة الأسرة، سلسلة «الأعمال الخاصة»، ١٩٩٨، ص ٨١.

(٤) وجيه أبو ذكري، **القدس عربية عبر القرون**، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، «سلسلة دراسات في القومية العربية ومشكلات الوطن العربي»، ١٩٦٧، ص ١٦ .

(٥) عرفة عبده علي، **القدس مدينة التاريخ والمقدسات**، سلسلة «هوية المكان»(١)، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ٣٠.

(٦) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨١ ، ٨٣ .

(٧) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٧ ، ٧٨.

(٨) **المرجع نفسه**، ص ٧٨.

(٩) هادية دجاني، شكيل، وبرهان الدجاني، **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، أبريل/ نيسان (١٩٩٤)، ص ١٤٨.

(١٠) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٩٤ .

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٨٤ .

(١٢) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤، ص ٧١ ، ٧٢ .

سمير جريس، **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، والتهويد**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص ١٨٨ .

(١٣) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٠ .

ـ سيد فرج راشد، **فلسطين عربية - إسلامية**، سلسلة مطبوعات الهيئة (٦٥)، ط ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(١٤) **المرجع نفسه**، الصفحتان نفساهما.

(١٥) د. أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، سلسلة كتاب القدس، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٩٨.

(١٦) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٠ .

(١٧) موقع إليكتروني: الجزيرة .نت www. Aljazeera .net عرض كتاب: **الحرب المقدسة: الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم**، لكارين أرمسترونج، ط١، بيروت، دار التقدم العربي، ٢٠٠٤.

(١٨) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، دار ألفريد أ. نوب، ١٩٩٦، ترجمة د. فاطمة نصر، د.محمد عناني، القاهرة، دار سطور، ١٩٩٨، ص ٤٥٦.

ماجد، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠.

(١٩) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٢.

(٢٠) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٥٧.

(٢١) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٢، ٣٣.

(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ٩٠.

(٢٣) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٦٢، ٤٦٣.

(٢٤) **المرجع نفسه**، الصفحات ٤٧٧: ٤٧٩.

(٢٥) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢٦) أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧١ .
(٢٧) ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٨.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٠٩.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ١١١، ١١٢.
(٣٠) الموسوعة الحرة org.arkipedia.www
(٣١) المرجع نفسه.
(٣٢) المرجع نفسه.
(٣٣) ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.
(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٢٠.
(٣٥) فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٤ .
ـ ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١ .
(٣٦) العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.
(٣٧) الموسوعة الحرة، www.arkpedia.org
مراجعة كتاب: الصليبيون في الشرق، ميخائيل زابوروف، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٤.
(٣٨) راشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.
ـ الكاتب، مرجع سبق ذكره، ص ١١٥، ١٢٨.
ـ علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤ .
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥ .
ـ فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦ .
(٣٩) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ علي، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .
(٤٠) فرج الله، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ .
ـ علي، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤.
(٤١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧ .
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦ .
(٤٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ راشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣، ١٩٥.
(٤٣) أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥.
(٤٤) الموسوعة الحرة، www.arkpedia.org
(٤٥) فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢.
(٤٦) أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٧.
(٤٧) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٧٢، ٧٣.
ـ أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٢١.
(٤٨) راشد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩.

obeikan.com

الفصل الخامس

القدس تحت الحكم العثماني

رانية عبد الرحيم المدهون

الوثائق دُعامة للتاريخ، وصوت الحقيقة الـمُعلَن، الصاخب، الذي لا يهاب الادعاء والتزوير، حين يبسط رداء الحقيقة، بالدليل القاطع، فينتهي الجدل، ويقطع الشك باليقين.

يقول الكاتب أوزوريس، المتخصص في التاريخ، «الوثيقة لا تصنع التاريخ، ولا يمكن إصدار حكم صريح من خلالها، حين توضع عشوائيًا جوار أخرى». فالكلمات ما لم تنظَّم لا تؤلِّف جملة مفيدة، كما أن الجمل المفيدة في ذاتها لا تصنع كتابًا، ما لم تنسق وفق خطة محكمة، بمعرفة ودراية، وصولًا إلى المعنى المنشود[1].

يُعد الأرشيف العثماني بإستانبول من أهم، وأكبرالمراجع التاريخية، الخاصة بالقـــدس، وتنبع أهميته، من احتوائه الكثير فيما يتعلق بالقدس، وفلسطين، وبمخططات الصهيونية العالمية للاستيلاء عليهما، قبل حوالي قرن من الزمان. خاصة في العهد العثماني الأخير، لا سيما أيام السلطان عبد الحميد الثاني الذي توفي عام ١٩١٨، حيث كان وقتها السعي لإقامة الدولة الصهيونية على أشده، وهذه الوثائق تؤكد، بما لا يدع مجالًا للشك، أن الدولة العثمانية، والسلطان عبد الحميد الثاني لم يقدما أي شبر من فلسطين، رغم الضغوط التي مورست على الدولة، وأن الشعب الفلسطيني لم يبِع أراضيه تحت الحكم العثماني، وهو ادعاء تكذبه الوثائق التاريخية، في ذلك الأرشيف (المراسلات بين الولاة والسلطان العثماني). وينوِّه «كمال خوجة»، الخبير المتخصص في أرشيف الدولة العثمانية، إلى قلة اهتمام العالم العربي بترجمة الوثائق التي تخصه، في الأرشيف العثماني. وفي جلسة بعنوان «دور الإعلام العربي والدولي في قضية القدس»، على هامش أعمال ملتقى القدس الدولي، الذي عقد في إستانبول، في الفترة (١٥ - ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٧م)، تحدث الباحث التركي أحمد زكى أوزجير، المتخصص بالوثائق العثمانية، والذي يعمل بالأرشيف

العثماني، عن ازدياد عدد الباحثين الأجانب، وخاصة اليهود، الذين ينقبون في وثائق الأرشيف العثماني المتعلق بالقدس وفلسطين، في حين تضاءل عدد العرب، والمسلمين، المهتمين بهذا الشأن. يحوي الأرشيف خمسة ملايين وثيقة تتعلق بمدينة القدس (لم تتعدَّ نسبة الوثائق التي تم إدخالها إلى الشبكة العالمية «الإنترنت» الـ ٥٪، فقط)، وتُعد أهم الوثائق التاريخية الخاصة بالقدس، وتكمُن أهميتها في إبرازها الحقوق التاريخية للمسلمين هناك، إلى ذلك إبرازها الحيل التي اتبعها اليهود لاغتصاب الأراضي الفلسطينية من أصحابها الشرعيين، وبهذا يكون الأساس الذي قامت عليه دولة الاحتلال أساسًا غير قانوني[٢].

تضم الوثائق والسجلات العثمانية نوعين أساسيين من مصادر المعلومات[٣]:

ـ السجلات الرسمية للدولة العثمانية.

ـ الوثائق، كالمراسلات، في أنحاء الدولة، أو إلى ممثلي الدولة في البلدان المختلفة، من مراسيم، وقوانين، ووقفيات تتعلق بفلسطين بشكل عام، وبمدينة القدس، تحديدًا، والسجلات التي تضم كذلك معلومات مفصلة عن السكان، والمدن، والأمور المالية، وأنواع الأراضي والأوقاف.

كما أن أقدم السجلات، التي وصلتنا من المحاكم العثمانية، سجلات محكمة بورصة، في القرن التاسع الهجري، وبعدها سجلات مدينة قيصري[٤].

بالإضافة إلى المستندات الأرشيفية في وزارة أوقاف القدس الأردنية، وتوجد في عدة مؤسسات داخل القدس وخارجها. وهي ذات أهمية كبيرة في دراسة الأوقاف الدينية في القدس، وفي فلسطين عامة، كما تتيح للباحثين حقلًا واسعًا من المعلومات عن الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، في الفترة العثمانية [٥].

إلى جانب سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، وهي واحدة من أغنى، وأقدم، وأفضل المحاكم المماثلة في فلسطين، من حيث الدلائل على المعلومات، وتغطي الفترة العثمانية من تاريخ القدس ٤١٦ سجلًا، وتحفظ نسخ من هذه الأفلام، أيضًا، في مركز الوثائق والمخطوطات في جامعة القدس، كما تحفظ مجموعات إضافية من هذه الأفلام في جامعة النجاح في نابلس، وفي جامعة حيفا. وللجامعة الأردنية جهد مشكور في تصوير عدد من سجلات المحكمة الشرعية، وسجلات دائرة الأراضي في القدس. أما في مجال تحقيق الوثائق ونشرها فإن أبرز الجهود ما قام به الدكتور كامل العسلي. وما زال عدد كبير من تلك السجلات والوثائق محفوظًا في متاحف الدول التي حكمها العثمانيون، وفي مكتبات الأمم المتحدة. وتغطي سجلات محكمة القدس الشرعية الفترة العثمانية، من القرن العاشر، وحتى الرابع عشر، (١٥٢٩ - ١٩١٧)[٦].

القدس في العهد العثماني الأول (١٥١٧ - ١٨٣١)

لقد كانت معركة مرج دابق (١٥١٦) بمثابة جسر عبر عليه التاريخ من عهد المماليك إلى عهد الإمبراطورية العثمانية، حين احتل السلطان سليم القدس(١٥١٧)، فاستقبله أهلها بترحاب وتقبُّل، فلقد كانت المدينة مهملة، أواخر عهد المماليك[٧] .

أتى العثمانيون بالقانون والنظام مرة أخرى، بعد أفول عهد المماليك، وبدوا كُرماء مع الأهالي العرب، في السنوات الأولى، فعندما فتح السلطان سليم بلاد الشام، ثَبَّتَ نظامًا إداريًا كُفئًا، وبقيت التقسيمات الإدارية بالمدينة على ما كانت عليه في عهد المماليك، وبعد حركة التمرد الفاشلة، التي قام بها جانبردي الغزالي، في القدس، شرع السلطان سليمان القانوني (العادل، الكبير) (١٥٢٠-١٥٦٦) في وضع نظام جديد لإدارة ولاية الشام، التي كانت القدس تابعة لها[٨].

كان رجال الشرطة كلهم من المسلمين، كما كان الأمن مستتبًا، في أغلب الأحيان. ولم يُشكِّل عرب متصرفية القدس أي جمعيات، أو أحزابًا تطالب بالإصلاح، أو حتى من يفكر بالسياسة[٩].

ركز السلطان سليمان القانوني جهوده على التنمية الداخلية، فازدهر الاقتصاد، في بداية العهد العثماني، فقد كانت القدس بلدية محدودة الموارد، وسرعان ما انتظمت إيراداتها، وغدى الناس في أفضل من أي عهد مضى. ويجسّد مظهر القدس، ببلدتها القديمة، ليس مراحل التطور في العصور الوسطى فحسب، ولكن، أيضًا، وبشكل جوهري، المباني التي أنشأها سليمان، لإعادة تثبيت مكانة المدينة، كمركز يشُدّ المسلمون إليه رحالهم، مستندًا إلى برنامج تطوير، لإعادة تفعيل مدينة القدس، لتصبح مركزًا حضاريًا[١٠].

شهدت القدس في عهد سليمان نهوضًا ثقافيًا وحضاريًا، وأصبحت أوقاف الحرم مصدر دخل لأعمال الخير. ولاح الإبطاء في نمو المدينة بعد عهد سليمان، فأصبحت معظم أعمال المعمار ترميمية، وليست تجديدية [١١].

شهدت فترة حكم السلطان سليمان القانوني نموًا متزايدًا في عدد السكان (ثلاثة أضعاف)، ما يُعَد مؤشرًا للجاذبية الجديدة للمدينة[١٢].

حاول السلطان إقناع رعاياه بالإقامة في المدينة، خاصة اللاجئين اليهود، الذين استقروا في الإمبراطورية العثمانية، بعد طردهم من إسبانيا المسيحية (١٤٩٢)، حيث تزايد عددهم في المدينة في عهد سليمان، وتوفرت لهم الحريات[١٣].

لم تكن الحياة بالنسبة ليهود القدس حياة سلام رعوي، فقد ظل هناك توتر بينهم وبين المسلمين حول المسجد العُمَري المُلحق بالمعبد، وعكس ذلك التوتر شعورًا عميقًا بعدم الأمن، كما وُجدَ توتر آخر بين المسلمين والمسيحيين الغربيين في القدس، حين تسببت الفتوحات العثمانية في تغيُّر المكانة النسبية للطوائف المسيحية، وعُقِدَت أولى المعاهدات (١٥٣٥)، بين فرنسيس الأول، ملك فرنسا، وسليمان الكبير. يقول الباحث «بولنت أري»، المتخصص في الأرشيف العثماني بوثائقه التي توصل إليها من دار أرشيف «الباش باقانلق»، إن القيود الضريبية التي أعدها العثمانيون اعتبارًا من القرن السادس عشر، وجددها السلاطين مرة كل ثلاثين عامًا، تعتبر خير مرجع لتوثيق أعداد اليهود، كما يقول: «أثبتَ أن سكان القدس كانوا من العرب المسلمين والنصارى، أما الأعداد الواردة لليهود فهي ضئيلة، بحيث لم تُعِرْهَا الوثائق الضريبية أي أهمية، حتى في التصنيف المبدئي لإيرادات القدس»، ويؤكد في رده على ادعاء الباحثين اليهود، أنهم «اختاروا أسماء التعبيد الإسلامية، كي يتخلصوا من دفع الجزية، وهذا ما يظهرهم قلة، في القدس، إبان العهد العثماني، رغم أنهم كانوا أكثر من المسلمين»، بأن الأرشيف قد رصد أسماء اليهود الذين غيروا أسماءهم، ولا يتجاوز عددهم المئات[١٤].

وبعد وفاة سليمان (١٥٦٦) بدأت دلائل ضعف الإمبراطورية في الظهور، وتدهور النظام الاقتصادي، تدريجيًا، بعد انتهاء حروب الفتوحات، وفتح طرق بحرية إلى الهند، واكتشاف العالم الجديد[١٥].

بلغ النفوذ اليهودي أوجه في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤)، كما ازداد سخط الإنكشارية، والفلاحين، ففقدت الإمبراطورية سيادتها العسكرية، بهزيمة العثمانيين في معركة لوبانتو (١٥٧١)، وبان المزق الإمبراطوري. وانتهى نفوذ اليهود في عهد مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٤). بدأ الباشوات باضطهاد المسلمين، والذميين معًا، بين عامي (١٥٧٥-١٥٨٤)، كما تدهورالأمن العام. كانت أشمل الوثائق التي حددت التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية هي رسالة تركية عنوانها «قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان»، ويعني «قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان»، كُتِبَ فيها (١٦٠٩) أن لواء القدس الشريف تابع لإيالة الشام، وكانت القدس في العهد العثماني جزءًا من سوريا الكبرى، كما كانت مركزًا لقطاع واسع سُمِّي «سنجق القدس»، حيث كان جزءًا من إيالة الشام (دمشق)، في بداية القرن الثامن عشر، والتي كانت مؤلفة من خمسة أقضية، هي: القدس، ويافا، والخليل، وغزة، وبئر السبع. وشملت القدس أربع عشرة ناحية، وثلاثمائة وتسعًا وسبعين قرية، وخمس قبائل كبرى، حيث قام على رأس كل قضاء قائمقام، وعلى رأس القطاع كله متصرف، كان يُخابِر وزير الداخلية في الآستانة رأسًا، في الشؤون السياسية، أما بالنسبة للشؤون المالية، فكانت تخص وزارة المالية، وكان قاضي القدس، في عهد الأتراك العثمانيين، المسيطر على جميع الشؤون، كما كان معظم الموظفين من أبناء البلاد، ما عدا الحاكم الأكبر، والباشا، ورؤساء بعض المصالح العمومية، الذين تمركزوا في القلعة. كما تحول إسكان الأتراك بالقدس، وتركز النفوذ بيد الزعماء، وذوي الإقطاع من مشايخ البلاد، وكان بالبلاد مجلس شورى، ومجلس عمومي، كما تألف البرلمان من «مجلس المبعوثان»، الذي ينتخبه الشعب، ومجلس آخر «للأعيان»، الذين يعينهم السلطان[١٦].

تزامن صعود القوى الغربية مع أفول الإمبراطورية العثمانية، فارضةً شروطها على السلاطين، على الرغم من أنهم لم يحصلوا على كل ما أرادوا من سيطرة على شؤون القدس. ففي عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٢- ١٦٣٩)، أظهر البطريرك اليوناني الأرثوذكسي، ثيوفانيس، في القدس وثيقة عثمانية حديثة، مضمونها أن السلطان سليم الأول، والسلطان سليمان كانا يُؤازران مطالب اليونانيين، فأصدر مراد فرمانًا منحهم بمقتضاه كنيسة الميلاد في بيت لحم، ومعظم المواقع الرئيسية في كنيسة القبر المقدس، إلا أن السلطان مراد عاد وألغى تلك الوثيقة، تحت ضغط البابا، وفرنسا، وفينيسيا، نظير مبلغ من المال، وتتابع ذلك، إلى أن عاد اليونانيون للسلطة، بفرمان مكَّنهم من موقع أعلى في القبر المقدس[١٧].

رغم اختلال الأمن، فإن المدينة كانت لا تزال تستحوذ على الإعجاب، فعندما زارها الرحالة التركي إفلي شليبي (١٦٤٨)، أبدى إعجابه بشعائر المدينة الحياتية [١٨].

وعلى الرغم من إهمال الأراضي التي خربتها غزوات البدو، فلقد لاحظ الرحالة الفرنسي ل. داريو (١٦٦٠) أن المنطقة الريفية المحيطة ببيت لحم كانت شبه مهجورة، نظرًا لهروب الفلاحين من باشوات القدس. وفي بداية ذلك القرن ظلت القدس تابعة لإيالة الشام، والتي كان مركزها دمشق. ثم سُلِخَ لواء القدس عن إيالة الشام (١٦٦٠) لتُشَكِّل إيالة صيدا. ووَضَحَ، بديهيًا، مما رصده السائحون الأجانب، أن كل شيء في القدس، في تلك الآونة، كان

على أفضل حال، ما عدا الأمن، لا سيما خارج أسوار القدس، ولعل أفضل وصف للقدس، في ذلك العهد، نجده في مخطوط للسائح الرحالة التركي «أوليا جلبي»، حين زارها، حوالي ١٦٧٠، فقد مدح زهوها الاقتصادي، وطابعها الثقافي، والحضاري[١٩].

بدأ النصارى واليهود ابتداع طقوس، اتخذوا أورشليم، تحديدًا، رمزًا لها، كما بدأ الأوروبيون يصلون إلى القدس، في القرن السابع عشر، سائحين، أكثر منهم حجاجًا، مثل الرحالة البريطاني جون ساندرسون[٢٠].

بحلول القرن الثامن عشر، بدت الإمبراطورية العثمانية، وقد تداعت، بشكل نهائي، حيث ضعف السلاطين، وتفرغوا لملذاتهم الخاصة، منفقين عليها من بيعهم للوظائف العامة، وإهمالهم لتطوير الإدارة، والمباني[٢١].

أما في عهد مصطفى الثاني (١٦٩٤- ١٧٠٣)، وتحديدًا (١٧٠٢)، فقد قام شعب القدس بثورة ضد الضرائب القاسية، التي فرضها جورجي محمد باشا، وهاجم المدينة مأزق اقتصادي، أدى إلى اندثار كثير من الأوقاف، التي بيعت، فيما بعد، لغير المسلمين. ولم يكن حال الذميين أقل سوءًا من المسلمين. وتزايد ضعف الولاة الأتراك، لدرجة عدم استطاعتهم جباية الضرائب من الأهالي المتمردين، فلا يوجد تقريبًا أي ذكر لريع المدينة، في وثائق القرن الثامن عشر العثمانية، لذلك لجأت إستانبول لتعيين العرب المقدسيين، ولاة للإدارة المدنية، كحلقة وصل بين الأهالي، والقوى الحاكمة، وذلك لحرص العثمانيين، منذ ثورة (١٧٠٣)، على الإبقاء على علاقات طيبة مع ذوى النفوذ في دمشق، وإستانبول، وكمكافأة لهم، منحتهم السلطات الحاكمة مساحات كبيرة من الأراضي، والمناصب المهمة[٢٢].

في بداية القرن الثامن عشر، تزايد عدد اليهود الأشكيناز القادمين من أوروبا تزايُدًا سريعًا. وقام اليهود بتقديم رشوة للباشا، وأسسوا المعابد، والمدارس العبرية، والدينية، كرد فعل للامتيازات. ولم يستطع اليهود الأشكيناز مغادرة المكتشفين للمدينة، رغم ما أصاب المدينة من سوء أحوال[٢٣].

كما ثار على الدولة السيد محمد، نقيب الأشراف، في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠)، فتم إخماد ثورته[٢٤].

وعن مدارس القدس، فقد اضمحلت، بسبب اضمحلال العقارات الموقوفة عليها، ووصلت حالة الشعب العلمية إلى أدنى مستوى، في هذا القرن، رغم ظهور عدد من علماء الدين البارزين، واستمرت القدس مركز جذب للمتصوفين، والعلماء، حيث اقتنى بعضهم مكتبات خاصة[٢٥].

أما في عهد السلطان مصطفى الثالث(١٧٥٧- ١٧٧٣)، فقد استمر النزاع بين الطوائف المسيحية، فأنهت الحكومة العثمانية الخصومات المتكررة، بإصدارها تشريعات (١٧٥٧ ، ١٨٥٢)، كما أصدرت فرمانات إمبراطورية، حددت بموجبها حقوق الطوائف المسيحية في القدس، وبيت لحم، وسميت مراسيم «الوضع الراهن»، وأُزيلت الفوارق بين أرباب الأديان المختلفة. وفي عهد السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٣- ١٧٨٨)، عُقِدَت معاهدات أخرى بين الدولة العثمانية ومعظم الدول الأوروبية، لتعاطي الحريات الدينية[٢٦].

زار الرحالة الفرنسي كونستاتين فولني مدينة القدس، للقيام بدراسة علمية، وأقر بتدهور أحوال المدينة، فقال: «لا نكاد نصدِّق أننا ننظر إلى المدينة الدولية، ذائعة الصيت، التي صمدت في الماضي لجهود أشد الإمبراطوريات عتيًّا»، ولاحظ فولني أن الأتراك حققوا أرباحًا هائلة نتيجة خلافات المسيحيين[٢٧].

لقد عاش الفلاح في شقاء، من جراء الإقطاع في الدولة العثمانية، حتى أوائل القرن التاسع عشر، حينما لجأ السلطان سليم الثالث (١٧٨٨-١٨٠٧) إلى وقف الإقطاعات الـمُحَلَّة، وإدخال إيرادها في الأوقاف العامة، لتُنفَق على إصلاح الجيش الجديد، الذي بدأ بإنشائه[٢٨].

كان الطمع في القدس واضحًا، على أنها مقدمة السيطرة على الأرض العربية، فالمحاولات اليهودية بدت استعمارية استيطانية، لا سيما للأرض المقدسة، منذ البداية، فلقد وُجدَت وثيقة بدار الكتب المصرية، تضمنت حادثة ذات دلالة، وهي أن القنصل الأمريكي، الذي كان يقيم بيافا، أراد تعيين نائب عنه في القدس، ورفْع العلم الأمريكي، ما يشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، منذ فترة مبكرة، باتت على أطماع إمبريالية، كان يجب التنبه لها، خاصة وقد كانت المنطقة تشهد، في تلك الحقبة، الزحف الغربي، والصهيوني، تدلنا على ذلك، أيضًا، المراسلات بين ديوان دولة الباشا، وسامي بك (من مصر)، التي أشارت إلى هذا، من واقع التقارير المستمرة، التي كانت تأتي إلى مصر، تُحذِّر بشدة من هذا الاتجاه، مثل (المحفظة ٢٤٧)، بوجه الخصوص، الوثيقة التركية رقم ١٧٤ في ربيع الأول ١٢٤٩هـ، وأكثر ما يُلاحظ على هذه الوثيقة أن الكثير من الشخصيات الأساسية، وقتئذٍ، اهتموا بالتوقيع بأختامهم على مثل هذه التقارير، التي ترصد الدور المصري، والمحفظة رقم٢٥٧، ترجمة للوثيقة التركية رقم ٣٢/ ٢٧، بتاريخ ٤صفر٢٠٥هـ، ورقم ٢٥٩ عابدين، وثيقة رقم ٤/ ١٢٩، والوثائق التركية في العهد العثماني، وأوقاف لواء قدس شريف عابدين، ترجمة للوثيقة التركية رقم ٣٢/ ٢٧، بتاريخ ٤صفر٢٠٥هـ[٢٩].

كان غزو بونابرت (١٧٩٩)، في عهد سليم الثالث، حين وجه بونابرت خطابه إلى العرب، كي يتخلصوا من أسر العثمانيين لهم، ويقبلوا حرية الثورة الفرنسية، إلى ذلك خطابه المشهور ليهود العالم. لكن السكان المحليين أدركوا أن هذه قوة غربية استعمارية، ومن ثَم زاد الغضب في القدس. وذاقت المدينة الأمرَّين من حكم أحمد باشا الجزار، ومحمد باشا أبو المرق، الأمر الذي وصل إلى حد بيع الأشراف أبناءهم في السوق، كعبيد، وتم تجنيد كل شبان القدس العرب الأقوياء في الجيش العثماني، حتى فشل مسعى بونابرت في إقامة إمبراطورية في الشرق، إلا أن تلك الحملة أتت بالتحديث، والعلوم إلى فلسطين، تبعها مستشرقون آخرون، أسهموا في نقل القدس إلى العصر الحديث[٣٠].

لقد عاشت الدولة العثمانية وهي تسعى للسيطرة على الوقف الإسلامي، وخاصة في القدس، رغم اهتمامهم به، وإضافتهم أوقافًا جديدة له، فلم تستطع أن تجعل من الوقف الإسلامي رسالة إسلامية تليق بالوعي، والنص الإسلامي الحثيث، وتبني القيم النبيلة، التي تقوم عليها مؤسسة الوقف في العالم الإسلامي. وبنهاية القرن الثامن عشر، تفشت الفوضى في إدارة الأوقاف، وأصبحت القدس مدينة يعمها الفقر، فأصدرت الدولة العثمانية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تمشيًا مع روح الإصلاح، والتجديد، قوانين تُنظم إدارة الأوقاف[٣١].

عُثِرَ في دار الوثائق المصرية على كثير من الوثائق والفرمانات التي تشير إلى أوقاف القدس وأكنافها على أنها عربية إسلامية خالصة، ونجد هذا في فرمانات القدس، إلى جانب الحجج، ورسائل الأمراء، والسلاطين، وأيضًا، بعد ذلك في سجلات الباب العالي (أرفق الكثير منها في كتاب الأوقاف على القدس) [٣٢].

هلَّ القرن التاسع عشر استهلالًا سيئًا في القدس، فقد عانت المدينة من الفقر، والفوضى، وأصبح والي صيدا هو حاكم القدس الفعلي، في السنوات الأولى من القرن، رغم أنها كانت، رسميًّا، تتبع متصرفية دمشق، كما كثر عدد ولاة

القدس العرب، وعانت الطوائف المختلفة من الانقسامات، وأُدخِلت تغييرات عديدة على التقسيمات الإدارية[٣٣].

في ظل الامتيازات التي قدمها العثمانيون للأجانب، عامّة، سيطر اليهود على الاقتصاد، والتجارة في بعض مدن الشام، ولعبوا دورًا متزايدًا لا يتناسب مع قلة عددهم في فلسطين، فلم يزد عددهم خلال القرون الثلاثة الأولى من الحُكم العثماني ـ رغم الامتيازات المقدمة لهم ـ على عشرة آلاف نسمة، وبسبب انتهاج العثمانيين لسياسة التسامح، تزايد هذا العدد، في أواخر ذلك القرن إلى المائة ألف، حيث أسسوا مدارس لتعليم العبرية، وأقاموا مستوطنات، وسيطروا على الاقتصاد والتجارة في بعض مدن الشام، وحين أدركت الدولة العثمانية خطر الامتيازات التي أعطتها لليهود، لم تستطع أن تحول دون نمو تلك الامتيازات. ومن الجدير بالذكر أن القحط قد أصاب فلسطين (١٨٢٦)، مما زاد الأوضاع سوءًا، ودفع رهبان الروم، في القدس، لإرسال رسالة إلى محمد علي باشا، والي مصر، بتاريخ ١٧/ محرم ١٢٤٢هـ، يسترحمونه في أن يؤذن لهم بابتياع ٥٠٠ إردب حنطة، و٥٠ إردبًا أرزًا، بالسعر الرائج [٣٤].

استمر الإقطاع في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٩٩)، الذي فاضت وقائعه في القدس، الأمر الذي أدى إلى إلغاء النظام الإقطاعي في الدولة العثمانية، فيما بعد. وثار الكثير من الفلاحين في القدس(١٨٢٤- ١٨٢٦)، إبان عهد مصطفى باشا، حيث كان ظالمًا، وقام بفرض ضرائب باهظة، لم يكن لهم عهد بمثلها، وعقب ذلك فتنة، ورفض الناس دفع تلك الضرائب بشدة [٣٥].

هاجم الثوار المقدسيون القلعة، وجردوا الأتراك من السلاح، وضيقوا الخناق على كل من هو غيرعربي، خلال ذلك، بُعِثَت رسالة (١٨٢٥) من قائمقام ولاية دمشق، إلى متسلم القدس، وعلمائها، تُفيد بتنصيب والي الدين باشا على الشام، وسنجق القدس (سجل المحكمة الشرعية في القدس رقم ٣٠٩، ص ٧٤-٧٥). وبعد انتهاء ثورة القدس، أرسل محمد علي رسالة إلى عبد الله باشا (المسؤول الجديد)، يشير فيها إلى علمه بانتهاء فتنة القدس، «ويظهر سروره وابتهاجه» (المحفوظات الملكية، ج١، ص ٨٩، وثيقة رقم ٢٠٨). رسالة أخرى من محمد علي، بشأن أشراف القدس، الذين غادروها أثناء الثورة إلى دمشق، يوصي بتنصيبهم، ٩جمادى الآخرة ١٢٤٢هـ (المحفوظات الملكية، ج١، ص ٩٢، وثيقة رقم ٢١٦)، إلى ذلك رسالتين، الأولى بخصوص عودة أغا الإنكشارية (المحفوظات الملكية، ج١، ص ٩٢، وثيقة رقم ٢١٧)، والثانية بخصوص عودة حاجب كنيسة الأرمن (المحفوظات الملكية، ج١، ص ٩٣، وثيقة رقم ٢٢٠)، إلى مرسوم من الباشا شغلى، متسلم القدس، من أجل القيام بالدورة لجمع الأموال الأميرية لقافلة الحج، غرة شعبان١٢٤١هـ ـ ١٨٢٦م (سجل المحكمة الشرعية في القدس رقم ٣١٠، ص ٢)، (سجل المحكمة الشرعية في القدس رقم ٣١٠، ص ٢)، (سجل المحكمة الشرعية في القدس رقم ٣١٠، ص ٣١)[٣٦].

ما إن هدأت الثورة، حتى أعلن محمد علي باشا، والي مصر، العصيان على السلطان العثماني، وأرسل الأول جيشًا إلى بر الشام، بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الذي احتل القدس، واصلًا إلى كوتاهيا، حتى كاد أن يحتل الآستانة نفسها، لولا تدخل الدول الأوروبية. ولما تصالح الفريقان، وُضِعت البلاد الواقعة بين أطنة وغزة كولاية تابعة لمصر، وبهذا وقعت القدس تحت حكم محمد علي[٣٧].

وضع الباحث إلْـهان يده على وثيقة، يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، فقد منع الباب العالي اثني عشر يهوديًا من التعبد والبكاء عند جدار في أحد زوايا مسجد عمر، وتقول الوثيقة: «بأمر من السلطان المعظم، يُمنع على اليهود

التعبد عند الجدار (يدعون أنه حائط المبكى)». وقد تبين، بعد البحث بأمر السلطان، عدم وجود دليل يؤكد الادعاء بأن الجدار المذكور هو من بقايا هيكل سليمان، وتوصل العثمانيون، آنذاك، إلى أن القدس كانت قد تعرضت للدمار الشامل، بل لحراثتها من قبل الغزاة، في القرن الثالث للميلاد؛ لذا أمر السلطان، في هذه الوثيقة، والي طرابلس بمنع اليهود من تلك العبادة [٣٨].

القدس تحت حكم إبراهيم باشا (١٨٣١ - ١٨٤٠)

تطورت البلاد في عهده تطورًا كبيرًا، وأتاح التجارة للأجانب، وألغى محمد علي الإقطاع، عندما أقدم على حل الجيوش العسكرية الإقطاعية في الولاية، قبل أن تلغيها الإدارة العثمانية رسميًّا في خط كلخانة (١٨٣٩). إلى ذلك، فقد نشر إبراهيم باشا روح التسامح، وأعلن المساواة بين جميع الأطياف، إلا في جباية الجزية من النصارى، مقابل تجنيد المسلمين. كما عمل إبراهيم باشا على تحديث الإدارة، وألغى التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في العصر العثماني الأول، وأقام وحدة إدارية بالقدس، لم تدُم، فقد اضطر الحكم المصري، تحت تأثير الثورات المستمرة، إلى أن يُعيد التشكيلات الإدارية السابقة، وأدخل نظام التجنيد العسكري الإجباري (١٨٣٣- ١٨٣٥). غير أنه فرض ضرائب كثيرة، واحتكر بعض المحصولات، وسخَّر حيوانات النقل لحمل المؤن والعدد للجيش [٣٩].

شهدت الولاية تطورًا فكريًّا، وثقافيًّا، سريعًا نسبيًّا، حيث أصبحت للدولة سياسة تعليمية ذات أهداف، كما جدد إبراهيم باشا في عمارة المدينة المقدسة، وبنى سلسلة من القِلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس [٤٠].

حصل اليهود على إذن بترميم المعابد، نجد صورته في سجل المحكمة الشرعية،وقد سُمُّوا طائفة السكناج (الغربية) للتمكين من الأوقاف الإسلامية، وسُمي اليهود في المكاتبات الرسمية (حماية الإفرنج)، للاستيلاء على الاقتصاد الوطني بهذه التسمية. يوجد أكثر من ثلاثين ملفًا من الفهارس، لوثائق مكتوبة بالتركية في فترة صعود محمد علي بالشام، تُحَذِّر من خطر الهجرة اليهودية، حيث قاوم إبراهيم باشا الخطط التي وضعها اليهود للاستعمار، كما وُجد في مذكرات السير موسى حاييم مونتفيوري، أحد كبار اليهود الإنجليز، أنه طلب عبثًا من إبراهيم باشا، وأبيه، أن يُؤجراه أرضًا، مساحتها خمسون فدانًا، ومائتي قرية من قرى فلسطين، لخمسين عامًا ، فلقد أراد اليهود أن يُسمح لهم بشراء الأراضي الزراعية، وممارسة التجارة، فاعترض أعضاء مجلس القدس الشريف على هذا الطلب، الذي تقدم به وكيل طائفة السكناج (اليهود الأشكيناز) بالقدس، وأيدهم محمد علي وإبراهيم باشا، ولم يُسمح لليهود إلا بالتجارة، في حدود البيع والشراء، لكن إبراهيم سعى وأبوه للهيمنة [٤١].

نزع محمد علي السلاح من الأهالي، لإزالة نفوذ المشايخ، والعائلات الإقطاعية، فقامت ثورة ضد حكمه، كانت القدس من أهم مراكزها، واستغل العثمانيون غضب المسلمين، وراحوا يحرضونهم على الثورة، وقد كان، فحاصر أهالي القدس المدينة، ورغم جميع الحوائل الدامية، فإن إبراهيم باشا تمكَّن من الوصول إلى القدس، حيث استقبله النصارى واليهود استقبال الفاتحين، لكن الثوار ما لبثوا أن جمعوا شتاتهم، ومع هذا الإصرار، إضافة إلى انتشار الكوليرا، اضطر إبراهيم باشا للانسحاب [٤٢].

بدأ العصر الحديث في التعامل مع الأوقاف على القدس، مع بداية عصر محمد علي، وظهر في الوثائق العثمانية في

عهده، والتي كانت باللغة التركية، محاولات اليهود، خاصة في القدس، للسيطرة على الأوقاف، كما سعى محمد علي للحصول على ريع تلك الأوقاف[٤٣].

لوحظ أن اليهود، لا سيما الآتون من الغرب، يعملون على الاستيلاء على أوقاف القدس، فنجد في الوثائق العثمانية، في ذلك الوقت، الكثير من العرائض الموجهة من القناصل الغربيين، تهتم وتدافع عن اليهود، إحداها من قنصل إنجلترا العام (١٨٤٠)، للأعتاب السنية، يدافع عن اتهام اليهود باستخدامهم دم الإنسان في أعيادهم، وتوطيدًا لنفوذهم في القدس، لوحظ عليه التأكيد على أن أثر اضطهاد اليهود سيؤثر على نفوس الأمم الأوروبية جمعاء (ترجمة للعريضة المؤرخة ٢٨ مايو ١٨٤٠، المقدَّمة إلى الأعتاب السنية، من قنصل إنجلترا العام). وتشير المكاتبات إلى أن مجلس القدس الشريف أشار إلى أنه لم يسبق أن سُمِحَ للأجانب بشراء ممتلكات في هذه الجهة، فقد كانت معظم أراضي القدس إما أميرية، أو موقوفة، ومُنِحَ اليهود حرية كبيرة، في تلك الفترة، على أساس «حماية الإفرنج»[٤٤].

من الوثائق المتعلقة بأوقاف المغاربة، أمر حاكم الشام بعدم تغيير وقفية أبي مدين، عام ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م، في ٢٤/ ١ سنة ١٢٥٦هـ ـ ٢٨/ مايو ١٨٤٠ جرنال، ٣٦٧ نمرة ٣٩، بختم محمد شريف باشا)[٤٥]. كما نجد في كتاب الأوقاف على القدس العديد من الوثائق[٤٦].

القدس في العهد العثماني الثاني (١٨٤٠ - ١٩١٧)

تنفس المقدسيون الصعداء عندما جلت قوات إبراهيم عن البلاد، وتابع العثمانيون، عند عودتهم، إقرار المساواة بين الطوائف، وفقًا لما جاء في خط كلخانة، وأرجعوا التقسيمات الإدارية، وربطوا لواء القدس بإيالة صيدا[٤٧].

ثم عاد السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١)، وأعاد تنظيم الجيش، الذي وُزِّعَ على جميع لواءات ولاية سورية، ومنها القدس، وانتظم المسيحيون في الجندية [٤٨].

تحت عنوان «المحاولات الأولى للاستيطان اليهودي في فلسطين وموقف الدولة العثمانية من ذلك»، كتب «إبراهيم المكي»، الباحث في التاريخ العثماني، عن وثيقة محفوظة في الأرشيف العثماني تحت رمز MKT/MHM/ ٢/ ١٠، بتاريخ ٤ آذار/ مارس ١٨٤٦، تكشف أن اليهود الأجانب قد تم منعهم، قبل ذلك التاريخ، من شراء الأراضي في فلسطين، والوثيقة عبارة عن قرار صادر عن السلطان عبد المجيد، لمتصرف القدس، يأمر فيه بضرورة استعادة قطعة أرض بالقدس كان قد اشتراها طبيب يهودي بريطاني يدعى الدكتور ماكوياني، وذلك ببيعها إلى أي مواطن من مواطني الدولة العثمانية، ذلك لأن امتلاك اليهود الأجانب للأراضي، في فلسطين، أمر ممنوع وغير قانوني. وتشير الوثيقة كذلك إلى أن الأمر بالمنع قد صدر، في وقت سابق، لتاريخ الوثيقة المذكور[٤٩].

بدأت الإرساليات التبشيرية في بيروت، في مجالات الثقافة، والتعليم، والتي يمكن تحديد بدايتها بتشكيل الجمعيات الأدبية، والعلمية (١٨٤٧ - ١٨٦٨)[٥٠].

جاء السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦)، مهتمًّا بعمارة المدينة المقدسة، وتأسست بالقدس أول بلدية (١٨٦٣)[٥١].

لقد تميز الحُكم العثماني، منذ القرن السابع عشر، بالخلافات بين الطوائف المسيحية، والتي استغلتها الدول الأوروبية الحامية للطوائف، وانفجرت حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦)، في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦٠)، من أجل الأماكن المقدسة، وابتهجت القدس للنصر العثماني، وراحت الدول تتسابق في بسط نفوذها على البلاد، فثار أهالي بيت المقدس على متصرفهم، الذي ارتضى بأن تُرفع أعلام تلك الدول، على القناصل. كان أهل القدس، حتى ذلك الحين، يعيشون ضمن الأسوار، فبدأوا يبنون العمارات خارج السور (١٨٥٨)، وفي أعقاب الحرب، قضت الدولة العثمانية بالمساواة بين جميع الرعايا، وعيّنت قناصل للدول الغربية، وبهذا بدأ التغلغل الاستعماري في البلاد، وجرَّ معه ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتفاقم عدد اليهود في القدس، تدريجيًّا [٥٢].

اتسم النظام الاقتصادي بالفوضى، والإقطاع، نظرًا لسطحية الحكم، ووجود هُوة سحيقة بين الحاكم والمحكوم، وعلى الرغم من الصعوبات التي جابهتها الدولة العثمانية فقد استطاعت أن تُنفِّذ برنامجها الإصلاحي (١٨٥٦ - ١٩١٤) [٥٣].

أُعلِنَ خط التنظيمات الخيرية (١٨٥٦)، وأصدرت الدولة قانون الأراضي الهمايوني (١٨٥٨)، وقانون الأراضي العثماني «الطابو» (١٨٦١)، لوضع حد للفوضى والتلاعب، ثم أُقيمت دوائر تسجيل الأراضي «الدفتر الخاقاني» [٥٤]. ولعب البدو دورًا مهمًّا في الحياة الاقتصادية [٥٥].

لم يكن الوضع الإداري في بلاد الشام مستقرًّا، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكثرت التغييرات فيه، ولم تستقر التقسيمات في كلتا الإيالتين (صيدا والشام)، تمامًا، حتى عام ١٨٥٦، لكن لواء القدس، بأقضيته السبعة، ظل تابعًا لإيالة صيدا، ثم ما لبثوا أن أعادوا إنشاءها، باسم ولاية بيروت، التي فُصِلَ عنها بعض الألوية منها متصرفية القدس [٥٦].

استفاد اليهود من أحداث ١٨٦٠، فاشتروا النهوبات بأسعار بخسة، وأقرضوا المسلمين [٥٧]. كما صدر عن جريدة حباسيليت اليهودية، في القدس [٥٨].

انتقل لواء القدس، وكل إيالة صيدا، إلى إيالة الشام عام ١٨٦٤، في أعقاب إصدار نظام إدارة الولايات الجديد، لتنبثق عنها ولاية سورية، وكانت تسمى «قدس شريف سنجاغي»، ولم تدم هذه الوحدة الإدارية مدة طويلة. وقد أولت الدولة العثمانية لواء القدس اهتمامًا خاصًّا، بعد أن رأت كثرة أعداد الزائرين الأجانب للقدس، ولمست مدى اهتمام الدول الأجنبية بالمدينة، إذ ما لبثت القدس أن انفصلت، عام ١٨٧٤، وأصبحت متصرفية، تخابر الباب العالي مباشرة، سميت «قدس شريف متصرف، لغي إدارة مستقلة» (سالنامة دولة علية عثمانية لسنة ١٢٩١هـ دفعة ٢٩، ص ٢٥٤)، وكان مجلس إدارة المتصرفية يسمى «مجلس القدس الكبير»، وحافظت القدس على وحدتها الإدارية، حتى نهاية العهد العثماني، فيما عدا السنوات التي أُلحق بها قضاء الناصرة، بعد فصله عن لواء عكا (١٩٠٦ - ١٩٠٩)، وألحقت الحكومة المركزية لواء نابلس بمتصرفية القدس، نظرًا لقوة مركز المتصرف، الذي كان، في الغالب، من الموظفين الأتراك، حيث مارس سلطات الوالي. ويمكن الرجوع إلى «تقرير محمد رشدي باشا، عن أحوال ولاية سورية (١٨٦٥)»، للتعرف على أمور المتصرفية، و«تقرير مدحت رشدي باشا، عن أحوال ولاية سورية (١٨٧٩)» [٥٩].

فتح اليهود مراكز علمية لهم، ففي عام ١٨٧٠ افتتحوا أول مدرسة زراعية، كما أسسوا بعد عامين مستعمرة ملبس[٦٠].

أخذت الأحوال تسوء، شيئًا فشيئًا، في عهد عبدالحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩)، في كل المجالات، إلى جانب انخراط العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. كان ذلك رغم تمتُّع دمشق بفترة انتعاش نسبية، وافتتاح طرق، منها الطريق بين نابلس والقدس(١٨٨٣)، ولم تُستغل ثروات سورية الطبيعية استغلالًا حسنًا، حيث انتشرت الغابات في جبال الكرمل، ومداخل القدس. إلى أن تألفت في البلاد جمعية «الاتحاد والترقي»، التي قامت بانقلاب ، أُعلِن على إثره الدستور .كما حدثت في عهد عبد الحميد أحداث جسيمة، حيث منح أهالي الولايات العثمانية ـ بمن فيهم أهالي القدس ـ في بداية الأمر دستورًا، وبرلمانًا، وساوى بين الأديان، لكنه عاد فأغلق البرلمان، وألغى الدستور، ونفى المطالبين به، وحكم البلاد برأيه ، فحسب . إلا أن عهده لم يَخْلُ من الإضافات المعمارية في المدينة، إلى جانب رصفه شوارع القدس ، رصفًا جديدًا، باقيًا إلى يومنا هذا[٦١].

هاجر اليهود خلال القرن التاسع عشر، واستقروا في قرى، منها القدس، ثم صدر قانون(١٨٧٧) يُحرِّم هجرة اليهود إلى فلسطين، وشراءهم الأراضي فيها ،ثم عُدِّل، فسمح لهم بأن يدخلوا فلسطين بهدف العبادة، بشرط ألا يقطنوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر[٦٢].

ازداد تنافس الدول الأجنبية بالقدس، ففتحت فيها الكثير من القنصليات، إلا أن الكلمة العليا ظلت للعرب، لا سيما المسلمين، وحاول السلطان أن يراوغ، فأسقطه البرلمان العثماني. كان متصرفو القدس، في عهده، من الموظفين الكبار، في قصر يلدز، بالآستانة، حتى يمكن للسلطان الاعتماد عليهم، في مواجهة تيار الهجرة الصهيونية المتدفق إلى فلسطين، والضغوط الأجنبية المختلفة[٦٣].

تشير بعض أعداد «سالنامة» ١٨٧٩، للدولة العثمانية، إلى أن القدس قد ضُمت ثانية إلى ولاية سورية (١٨٨١- ١٨٨٣)، وذُكِرت باسم «قدس شريف متصرف لغي»، أي «متصرفية القدس الشريف»، ولكن في أواخر سنة ١٨٨٢، في سالنامة دفعة ٣٨، ص٣٢٨، ودفعة ٣٩، ص٣٩، تذكر السالنامة قدس بالعبارة التالية: «قدس شريف مستقلا إدارة أو لنور»، وفي سنة ١٣٠١هـ-١٨٨٤م «قدس شريف سنجاغي مستقلا إدارة أولنمقده در»[٦٤].

زادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بين عامي(١٨٨١- ١٨٩١)، مما أدى للزيادة غير الطبيعية للسكان، فلقد تضاعف عدد السكان من الحكم المصري للمدينة، وحتى عام ١٨٩٠، ووصلت نسبة اليهود ٦٧٪ ، من لا شيء، تضاعف مرة أُخرى خلال السنوات العشر الأخيرة من هذا القرن، حتى صاروا ذوي نفوذ بها[٦٥].

أنشأت الدولة، أواخر القرن التاسع عشر، شبكة مواصلات، لفرض السيطرة التامة، وسنت القوانين، ومُدَّ خط سكة حديد (١٨٨٨)، بين يافا والقدس[٦٦].

رغم الاضطراب السياسي، والتدهور الاقتصادي، والتياه الاجتماعي، فقد شهدت سوريا حركة ثقافية نشطة[٦٧].

نتيجة الهجرة اليهودية الكثيفة، لم يستطع المسلمون الصمود أمام منافسة المهاجرين اليهود لهم في النواحي الاقتصادية، مما أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية للسكان، كما تمتع اليهود في مدن بر الشام الرئيسية بنفوذ تجاري

كبير، واستمرت هجرة اليهود إلى فلسطين، طوال القرن التاسع عشر، حيث اقتصرت خلال النصف الأول من القرن على المتدينين، الذين استقروا في القدس، وطبرية، وصفد، حتى صارت القدس، ونواحي جبل الكرمل، والناصرة من أملاكهم، وصاروا أصحاب النفوذ فيها. وبدأ الاهتمام بالحركة الصهيونية في أوساط عرب فلسطين، في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، فقد سجَّل عرب فلسطين أول تذمُّر رسمي لهم من الهجرة اليهودية، في٢٤حزيران/ يونية ١٨٩١، عندما بعث المتصرف، وزعماء المسلمين في القدس رسالة للصدر الأعظم، يعربون عن تخوفهم من وصول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، ويطالبون بمنع اليهود من دخول فلسطين، وفي العام التالي، أصدر الباب العالي قرارًا يمنع اليهود الأجانب والعثمانيين من تملك الأراضي الأميرية [٦٨].

على إثر ورود الأخبار بتأمين اليهود للنفوذ، وشراء أراضي الأشراف، وفي فقرة رسمية، مندرجة (في الصفحة ٤٧٦، -١ ١١٠/ ١٣٦ E.E.Y، إستانبول، ترجمة أ/ كمال خوجة)، بأن السفارة السنية بواشنطن، أبلغت وزارة الخارجية بمذكرتها المؤرخة في ٩ أيلول سنة ١٨٩٨، بأن قرارا اتخذ بمنع اليهود من دخول أراضي فلسطين، كما أنه على إثر الأمر الوارد بعدم منح تأشيرات على جوازات الأشخاص المشبوهين، الراغبين في السفر إلى تلك الجهات، خلال زيارة جلالة الإمبراطور الألماني ، إلى جهات فلسطين وسورية، أبلِغت القنصليات التابعة للسفارة العثمانية تعليمات بتنفيذ هذا الأمر، فقدَّم اليهود شكاوى إلى وزارة الخارجية ، وأخيرا تقدم رجل بطلب تأشيرة للسفر إلى سورية، فلما رُفِضَ طلبه، قدم شكوى إلى وزير الخارجية، فأرسل للسفارة العثمانية مذكرة قال فيها: «هذا الرجل ليس يهوديا وليس مشبوها ، بل هو رجل معروف وشهير. لذلك فإني أرجو منحه التأشيرة»، فأعطته قنصلية نيويورك التأشيرة ، وكانت كلمة «ليس يهوديًا» تأييد الحكومة الأمريكية، للمرة الثالثة، لقرار سد أبواب أرض فلسطين على اليهود. وجاء في رسالة وردت من وزير الخارجية، أنه بمناسبة مغادرة جلالة الإمبراطور جهات فلسطين وسورية، أُلغي أمر المنع السابق، مع الانتباه إلى عدم شمول الأشخاص المشبوهين للإلغاء، لكن الرسالة لم تتحدث أبدا عن منع دخول اليهود إلى أرض فلسطين، ومع ذلك فقد استمر سريان منع دخول اليهود أرض فلسطين، ولكن وزير خارجية نفس البلد قال في مذكرة: « علمت من السفير الأمريكي بدار السعادة، أن الباشا وزير الخارجية أبلغه بعدم وجود منع خاص باليهود من دخول أرض فلسطين، ولكن من غير المناسب سفرهم إلى هناك بصورة جماعية، وبغرض الهجرة، وعليه نرجو التفضل بإصدار الأوامر إلى القنصليات لمنح اليهود تأشيرات» ، كما أُرسلت برقية إلى دولة الباشا، تحدثت عما جرى بينه وبين السفير الأمريكي من حديث، وطُلِبَت تعليماته برقيًّا. وسنتناول ، بهذا الصدد، الوثائق التالية :

«ذكرت في تقريري رقم ٨٠، وتاريخ ١١ تشرين الأول سنة ١٨٩٨، أن السفير الأمريكي الجديد هو من مروجي، ومؤيدي مسألة فلسطين، وأنه يجب جعل أطواره وحركاته تحت المراقبة الدائمة. وقد ثبت الآن مدى الحاجة لهذه الحيطة، أكثر من أي وقت مضى. **تاريخ: واشنطن في** ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٩٩، إلى رئاسة دائرة الكتابة في القصر الهمايوني».

(Y.E.E ١٣٦/ ١١٠-١ الممثلية العثمانية في واشنطن ٢٤، كانون الثاني ١٨٩٩ ، الكتاب المقدم إلى مقام رئاسة دائرة الكتابة في القصر الهمايوني، بعنوان « دخول اليهود إلى أرض فلسطين ممنوع»).

(D.H.I.D ٧٣/ ٨ - ٢٥ «إلى المقام الجليل للخلافة العظمى، إلى مقام الصدارة العظمى، إلى مقام نظارة الداخلية، بواسطة متصرفية القدس، الصهاينة يواصلون تملك أراضي فلسطين»، وُجِدَ عليها أكثر من خمسين توقيعا من القدس وغزة ويافا)[٦٩].

تضاعف نشاط اليهود، أوائل القرن العشرين، وتطالعنا الوثائق على تمكن بعض اليهود الأجانب من شراء قطع أراض صغيرة، في فلسطين، لكن تلك الأرض لا تُسجّل باسم اليهودي ذاته، بل باسم قنصلية بلده. وقد جاء في الوثيقة رقم ١٠١/ ١٣MV، والتي هي عبارة عن ورقة ضبط خاصة بمذكرات مجلس الوكلاء، مؤرّخة في ١٩ جمادى الآخرة ١٣١٨هـ ، الموافق ١٤/ ١٠/ ١٩٠٠م، أنه تم السماح لليهودي الأمريكي، سومون بن ناحومان لوفنشتاين ، بشراء حقل، ودار بالقدس، باسم السفارة الأمريكية بإستانبول، غير أن ذلك السماح كان مشروطًا ، بأن يتعهّد الشخص المذكور، بعدم توطين المهاجرين[٧٠].

تثبت وثائق القدس الخاصة بالأوقاف ،خاصة، في القرن التاسع عشر، أن الدولة العثمانية استعادت سيطرتها ثانيةً على سنجق القدس، وبرز الفعل الإسلامي للمتنفذين المسلمين على الأوقاف، واستُخدِمت الوسائل الوطنية لمواجهة الخطر الصهيوني تجاه الوقف الإسلامي، أو حتى المسيحي الشرقي. وطوال القرن التاسع عشر ، لم يلفت يهود فلسطين النظر أو الشبهات إليهم؛ لقلة عددهم[٧١].

كانت الدولة العثمانية تُصدِر حولية رسمية سنوية «سالنامة دولت علية عثمانية»، وتعني «الكتاب السنوي للدولة العلية العثمانية»، وفي سالنامة (١٩٠٤) لم يوجد أي تغيُّر يُذكر[٧٢].

بقي العرب على حبهم للأتراك، وتمسكهم بالفكرة الإسلامية، حتى الانقلاب العثماني، «تركيا الفتاة» (١٩٠٨)، حيث تبدَّل الأمر، وساند هؤلاء الفكرة القومية الطورانية ، حينئذ، ظهرت بوادر الخلاف العنصري بين العرب والترك، ولاح حلم الاستقلال في قلوب العرب، فاشترك عرب القدس، مع غيرهم من عرب الولايات العثمانية ، في تأسيس الجمعيات العربية، أواخر العهد العثماني ، فقد بدأت اليقظة القومية العربية. في العهد الدستوري(١٩٠٨ - ١٩١٤)، أعقاب الحركة الفكرية ، التي تلت أعمال الإرساليات التبشيرية ، في بيروت ، التي خدمت الحركة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (لم يشارك عرب المتصرفية في مراحلها الأولى، لعدم توافر الظروف الملائمة، إلى جانب بداية التشديد على مركزية الحكم، والقبضة الحديدية)، وبدأت الحركة العربية نشاطها من خلال «مجلس المبعوثان»، والجمعيات الأخرى، التي كان أولها «جمعية الإخاء العربي ـ العثماني»، واتحد المسيحي والمسلم أمام هجرة اليهود، واشتداد الصهيونية، وقد أسهمت سياسة الاتحاديين المعادية للحركة العربية في تشكيل العلاقات العربية التركية، ولم تدُم جمعية الإخاء طويلًا، حتى أغلقتها جمعية الاتحاد والترقي، لما لمسته فيها من اتجاهات عربية قومية. وتوالى تشكيل الجمعيات، إلى أن انتقل زمام السلطة إلى «حزب الحرية والائتلاف»، الذي قام على فكرة اللامركزية في الحكم، ونشطت الجمعيات السرية العربية، وأخيرًا عُقِد في باريس المؤتمر العربي الأول (١٨-٢٣حزيران/ يونية١٩١٣)، حيث كان أول صدام مكشوف بين العرب والأتراك. وطالب، في البداية، بالإصلاح الإداري، وامتيازات اللغة ، والخدمة العسكرية، وعندما راوغ الأتراك، أعلن الزعماء العرب أنهم يبغون الاستقلال، فاعتزم الأتراك (١٩١٤) البطش بهم، وكلفوا جمال باشا بذلك، فحاكم المطالبين بالاستقلال، وأعلن الحصار الاقتصادي[٧٣].

زاد الإحساس بالخطر الصهيوني، الذي استهدف العرب في متصرفية القدس، فدعا الصحافي اللبناني المقيم في حيفا، نجيب نصَّار، وهو صاحب ورئيس تحرير جريدة «الكرمل»، إلى عقد مؤتمر «لا صهيوني» .ثم أخذت المعارضة العربية شكلًا جديدًا، في النصف الأول من عام ١٩١٠، عن طريق البرقيات الجماعية إلى الحكومة ضد تمليك الأراضي لليهود. وأدى جهل الوطنيين، وفقرهم إلى نمو الحركة الصهيونية. ولما اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين (١٩١٤)، ما هدد الموارد الاقتصادية في المتصرفية، استغاث المقدسيون، في نيسان/ أبريل ١٩١٤، بالمنتدى الأدبي في الآستانة ، ثم تشكلت جمعية جديدة في الآستانة، لتوحد كلمة الفلسطينيين، كان من بين أعضائها أبناء القدس، كما تناقص عدد اليهود خلال الحرب. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩١٤كانت الدلائل تشير إلى أن الحكومة الاتحادية جادة في إزالة سوء التفاهم مع العرب، لكنها أخذت تماطل في ذلك ، حتى أُعلِنَت الحرب العالمية الأولى ، في عهد السلطان محمد رشاد الخامس، وكان النشاط السياسي مقتصرًا على تقديم المساعدات للثورة العربية والقوات البريطانية الزاحفة ، ثم قامت الثورة، موقِدًا نارها الشريف حسين بن علي (١٩١٥)، متحالفًا مع الإنجليز، حيث أعطوا له عهدًا باستقلال البلاد العربية، إذا انتهت الحرب بنصرهم. وعانى عرب فلسطين، خلال الحرب العالمية الأولى، من سوء الظروف الاقتصادية، والاجتماعية. وكانت النتيجة خسارة الأتراك للحرب، فانتهى الحكم التركي للقدس خلالها، مما مكّن من سيطرة الحلفاء على القدس، وانتقالها ليد الإنجليز، بعد خمسة أسابيع من صدور «وعد بلفور»، في ٢تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧. وفي ٩كانون الأول/ ديسمبر١٩١٧، دخلت القوات البريطانية القدس بقيادة السير اللنبي[٧٤].

هناك وثيقة تشير إلى أن اليهودي النمساوي بيلنغ جاء متحدثًا باسم يهود العالم، طالبًا من السلطان عبد الحميد تمليك المنطقة العربية ، بالإضافة إلى فلسطين بثلاثة ملايين ونصف المليون ليرة ذهبًا، في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من الديون المتراكمة، بالإضافة إلى الامتيازات الأجنبية.(المترجم كمال خوجة) (١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٨). وثيقة أخرى من الأرشيف العثماني، تثبت النشاطات الصهيونية لإقامة حكومة يهودية في فلسطين، رسالة لبوسني من أسرة محمد علي باشا، تحذر من ازدياد الهجرة اليهودية، ترجمة الأستاذ كمال خوجة، إستانبول ، Y.P.R.KA./Z.J ١ /٣٤ [٧٥].

هكذا، وجدنا أن القدس قد عاشت في وطأة إستاتيكية، خلال العهد العثماني، الذي حماها قرونًا طويلة من الغزو الخارجي، لكنه جمَّد أوضاعها بفعل حكمه السطحي، وعندما اضطر للتطور مارسه بصورة بطيئة، واتبع خططًا جعلت الأكثرية الإسلامية تعتقد أن هذا التطور لم يكُن إلا تدخلًا إفرنجيًّا مسيحيًّا، فأقبل العرب على حضارة معادية لهم، وأخذوا عنها ليحاربوها بسلاحها[٧٦].

لا يزال الأرشيف العثماني، في العاصمة التركية أنقرة يُنبت بأسراره التي تؤثر في الجوانب القانونية ، للصراع العربي ـ الصهيوني، وخصوصًا فيما يتعلق بالقدس المحتلة. ففي وكالة (قدس برس) عثر محاميان في يناير الماضي على وثيقة من الأرشيف العثماني في أنقرة، تثبت ملكية عائلات فلسطينية لبيوتها في القدس الشرقية المحتلة، في حي الشيخ جراح، المحاذي للبلدة القديمة بالقدس، وتُمَكِّنها من منع سلطات الاحتلال الصهيوني من إجلاء عشرات العائلات الفلسطينية من بيوتها، وتَنفي مزاعم منظمة صهيونية متطرفة تعمل في مجال الاستيطان، وتُدعى «لجنة

الطائفة السفاردية» ملكيتها تلك المنازل، وشرائها لها قبل نكبة ١٩٤٨، وقدمت وثائق ادعت أنَّها عثمانية رسمية إلى المحاكم الصهيونية، التي اعترفت بحقوق ملكية اللجنة في هذه الأراضي، ويعود الموقف الجديد في هذه القضية إلى تغيير الموقف التركي من مسألة التعامل مع وثائق الأرشيف العثماني، بسبب الأزمة التي طرأت على العلاقات بين البلدين، بعد العدوان الصهيوني الوحشي على قطاع غزة في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨، والذي أدَّى لانتقادات واسعة من جانب الأتراك للكيان الصهيوني [٧٧].

يقول المختصون في الأرشيف العثماني إن المؤسسات العلمية في الكيان العبري قد استقطبت عشرات الباحثين، ومع الأسف فإن منهم أتراكًا، وأوروبيين، ينهضون بالادعاءات الصهيونية الاحتلالية. ويُعرَف بعضهم في الأوساط العلمية بتجارة التاريخ علنًا. وكان لبعضهم دور في إتلاف بعض تلك الوثائق عمدًا، وهذا ما أكده عدد من أشهر العلماء الأتراك، كما يؤكد الباحث «إلْـهان»: إن العديد من الوثائق نشرتها «إسرائيل»، واستعانت بباحثين غربيين لتحريف الوثائق المحفوظة في أرشيف رومانيا ، والمجر، والأمم المتحدة ومن أبرزهم الباحث اليهودي «يوريل هايد»، الذي نشر معظم الوثائق في قسم الأوراق الرسمية للدولة العثمانية، ويطلق عليها اسم «مهمة دفتري»، ووضع دراسة عن تاريخ فلسطين، ضمَّنها نماذج من الفرمانات العثمانية المتعلقة بفلسطين، وذلك في كتابه :

Ottoman ...s on Palestine (١٥٥٢ - ١٦٢٦)، (١٩٦٠)، حيث نشر في كتابه ١٢٦ وثيقة تتعلق بفلسطين من الدفاتر المشار إليها، بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية. فيما تتحدث مصادر مقربة من مديرية الأرشيف التابعة لرئاسة الوزراء عن تورط بعض العاملين في المديرية ببيع وثائق مهمة لعملاء المخابرات «الإسرائيلية» في بلغاريا عام ١٩٣١، وتقول هذه المصادر: «إن عبد الرحمن شرف قد حال دون الاستمرار في تلك الجرائم». كما تؤكد أن معظم القائمين على مخازن الأرشيف زاروا الكيان اليهودي أكثر من مرة، والغريب أنهم يعيشون بمستوى معيشي أعلى بكثير من المستوى الذي يمكن لمرتباتهم التي يتقاضونها أن تحققه لهم. ومن الباحثين الذين استعرضوا ما كتب عن البلدان العربية وقاموا ببعض الدراسات المتعلقة بها «برنارد لويس» الذي كتب بعض الأبحاث في هذا الشأن منها : «الأرشيف العثماني كمصدر لتاريخ البلدان العربية» و«دراسات في الأرشيف العثماني» [٧٨].

لا شك أن للأرشيف العثماني دورًا في حماية القدس، لعله دافعٌ للدول العربية والإسلامية للقيام بالبحث والنشر لتلك الوثائق، لدحض تزوير الصهاينة للحقائق، وخلقهم تاريخًا ملفقًا. واجبٌ يجب القيام به لتحيا القدس دومًا عاصمة للكرامة العربية.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) عيسى القدومي، **الأرشيف العثماني... وكنوز تاريخ القدس**، مركز بيت المقدس للدراسات، ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٨.

www.alquds-city.com

(٢) **المصدر نفسه.**

(٣) **المصدر نفسه.**

(٤) كامل العسلي، «معلومات جديدة عن مدارس القدس الإسلامية مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية في القدس» ص١٧١- ١٩١، عمّان، الجامعة الأردنية.

ـ د. شوقي شعث، **دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، المجلد الأول، حلب، جامعة حلب، مركز الآثار الفلسطينية، ١٩٨٤، ص١٧٣.

(٥) موسى سرور، **Y.E.E ١٣٦/ ١١٠-١، وثائق عثمانية والقضية الفلسطينية**، تاريخ مصر، أرشيفات القدس الإسلامية، مصادر لمسألة الوقف في الفترة العثمانية، ٢٤/ ١/ ١٨٩٩.

www.jerusalemquarterly.org

(٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه.**

- القدومي، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤، ص١٠٣ .

- عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، سلسلة هوية المكان١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ص٣٦.

- كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، ترجمة د. محمد عناني، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨، ص٥٢٥ .

(٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

- عبد العزيز محمد عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤- ١٩١٤**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩، ص٦١- ٦٢.

- ميشيل ماينكة، «**تطوير القدس في عهد السلطان سليمان القانوني**»، موقع مؤسسات القدس الدولية، من كتاب القدس الشريف في العهد العثماني، الصادر في القدس عام ١٤٢٣/ ٢٠٠٢ في الصفحات ٢-٢١، ترجمة بشير بركات، ٢٣شباط ٢٠٠٨.

www.alquds-city.com

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٣ .

- د.مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص٣٦.

- يحيى الفرحان، **قصة مدينة القدس**، «سلسلة المدن الفلسطينية»(٦). تونس، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص٢٦.

(٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢١ ـ ١٢٣.

- عادل حسن غنيم، «موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩»، ٢١٣- ٢٣٢، **مجلة الشرق الأوسط**، (القاهرة)، العدد الأول، مركز بحوث الشرق الأوسط، يناير/ كانون الثاني ١٩٧٤، ص٢١٣- ٢٣٢.

(١٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٤ ،١٢٣- ١٢٤.

- علي، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٦.

- عبد الكريم غرايبة، **سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠- ١٨٧٦ (محاضرات)**، القاهرة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١- ١٩٦٢، ص١٢٥ ، ١٤٥.

- الفرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦.

- ماينكة، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢٥- ٥٢٧.

(١١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص٥٢٥- ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠- ٥٣١.

- علي، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٦.

- هنري كتن، **القدس**، ترجمة إبراهيم الراهب، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٧، ص٢٦.

- **سكان القدس في العهد العثماني**، مركز المعلومات الوطنيّ الفلسطيني، ٣ تشرين الأول/ نوفمبر ٢٠٠٧.

www.alquds-city.com

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٤- ١٠٦ ، ١٢٣.

(١٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢٤.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢٨.

obeikan.com

(١٣) **المصدر نفسه**، ص٥٢٥_ ٥٢٦، ٥٢٨ ، ٥٣٠- ٥٣١.

(١٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص٥٣٣- ٥٣٧.

- د.محمد صابر إبراهيم عرب، «التسامح الديني في ظل الإدارة الإسلامية للقدس»، تقديم أ.د.محمد رأفت محمود، تحرير أ.د.محمد إبراهيم منصور، **القدس التاريخ والمستقبل أبحاث الندوة الدولية «القدس: التاريخ والمستقبل» التي عقدها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط (٢٩- ٣٠ أكتوبر١٩٩٦)**، القاهرة، جامعة أسيوط، مركز دراسات المستقبل، فبراير١٩٩٧، ص٣٣١-٣٣٢.

- القدومي، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(١٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- ماينكة، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٤.

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢٦.

(١٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص٥٢٥ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ - ٥٤٠.

- عوض، الإدارة، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٢- ٦٣.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢١- ١٢٣.

- نجلاء سعيد أحمد مكاوي، **مشروع سوريا الكبرى، دراسة لأحد مشروعات الوحدة العربية، في النصف الأول من القرن العشرين**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة المنصورة، ٢٠٠٦، ص٣.

- د. فاروق عثمان أباظة، «أطماع الغرب في القدس أثناء الحرب العالمية الأولى»، تقديم أ.د.محمد رأفت محمود، تحرير أ.د.محمد إبراهيم منصور، القدس **التاريخ والمستقبل أبحاث الندوة الدولية «القدس: التاريخ والمستقبل» التي عقدها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط (٢٩- ٣٠ أكتوبر ١٩٩٦)**، القاهرة، جامعة أسيوط، مركز دراسات المستقبل، فبراير١٩٩٧، ص١٠٨.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٨.

(١٧) أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٤٠- ٥٤٢.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص٥٤٢.

(١٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥١.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٢- ٦٣.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٥-١٠٦.

- ماينكة، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

(٢٠) أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٤٣- ٥٥١.

(٢١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٢- ٦٣.

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥١، ٥٥٤.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٦.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥١- ٥٥٣.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧١.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥٣- ٥٥٤.

- عرب، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٣٢.

(٢٤) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٦.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- الفرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٦.

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥٣.

(٢٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦.

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٨.

(٢٧) أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٥- ٥٥٦.

(٢٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢٧ ، ٢٣٩.

- عرب، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣١- ٣٣٢.

- د. خالد محمد صافي، **ثورة القدس ١٨٢٤-١٨٢٦م**، ٢٧ / ١٠/ ٢٠٠٨.

www.alquds-city.com

obeikan.com

- كمال خوجة ، مترجم، **قانون لواء القدس الشريف (من الوثائق العثمانية)**، مؤسسة فلسطين الثقافية.

www.thaqafa.org

- **صافي، مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(٢٩) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٩ ، ٦٩ ، ٧١- ١١٣.

(٣٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥٤.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٦-١٠٧.

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٠-١١١.

(٣١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٤٧-٢٥١.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٠-٦١، ٦٣.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٩.

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥٥.

(٣٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص٧١.

(٣٤) صافي، مصدر سبق ذكره.

www.alquds-city.com

- خوجة، **مصدر سبق ذكره.**

www.thaqafa.org

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢٧ ، ٢٣٩.

- عرب، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٣١-٣٣٢.

(٣٥) - خوجة، **مصدر سبق ذكره.**

www.thaqafa.org

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣٩.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٧-١٠٩.

- عرب، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٣١-٣٣٢.

obeikan.com

(٣٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- صافي، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٠-١١١.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٩-١١١.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٧.

(٣٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤-٣٥ ، ٣٧.

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠.

- غرايبة ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥.

(٣٨) - القدومي، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(٣٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- الفرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٩ ، ٢٣٩.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٦.

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(٤٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- الفرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٩، ٢٣٩.

- أباظة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- أرمسترونج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٢-٥٥٣.

obeikan.com

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٦-١١٧.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٥-٦٧ ، ٦٩ ، ١١٤.

(٤١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٦-١١٧.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥-٦٧.

(٤٢) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٣-١١٥.

(٤٣) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ ، ١١٩-٢٤٠.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ١١٤، ١٢١-١٢٢.

(٤٥) عبد الهادي التازي، «أوقاف المغاربة في القدس»، الرباط، المركز الجامعي للبحث العلمي، **دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية**، المجلد الأول، حلب، جامعة حلب، مركز الآثار الفلسطينية، ١٩٨٤، ص ١٩٣-٢٣٣.

(٤٦) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٦.

(٤٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤-٦٥ ، ٢٢٩-٢٣٠.

(٤٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٨.

- غرايبة ، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٥، ٦٧.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- القدومي، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

(٥٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- د.عبد العزيز عوض، «الحركة العربية في متصرفية القدس» **مجلة الشرق الأوسط**، (القاهرة)، العدد الأول، مركز بحوث الشرق الأوسط، مطابع جامعة عين شمس، يناير١٩٧٤، ص١٢٩- ١٨٣ .

(٥١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٨، ١١٩.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٨.

(٥٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٨.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦.

- كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦-٢٧.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧.

- الفرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

(٥٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦١، ١٢٥-١٢٧، ١٥٨.

(٥٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٠، ٢٣٥، ٣٣٥.

(٥٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٨.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧٠، ٣٣٥.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦، ٣٣٤.

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧.

- غرايبة. **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١، ٧٤.

obeikan.com

(٥٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص١٨٣-١٨٩.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧-٣٨.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١، ٣٤٥-٣٦٠.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧-١٠٨.

(٦٠) غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٧-١٢٨.

(٦١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٠.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

(٦٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٩-١٢٠، ١٢٤.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢٧.

(٦٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- علي، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٨.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢٠.

(٦٤) عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٢.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره.**

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧-١٠٨، ١٤٥.

(٦٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٩-١٢٠.

obeikan.com

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٧، ٢٧٥.

(٦٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عوض، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦٨-٣٦٩.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٢، ١٦٧.

(٦٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧-١٠٨.

- عرب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣١-٣٣٢.

- غرايبة ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩، ١٤٥.

(٦٩) Y.E.E ١٣٦/ ١١٠-١، وثائق عثمانية والقضية الفلسطينية، تاريخ مصر، الممثلية العثمانية في واشنطن، واشنطن في ٢٤ كانون الثاني / يناير ١٨٩٩، إلى رئاسة دائرة الكتابة في القصر.

http://forum.egypt.com

(٧٠) غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨.

(٧١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ ، ١١٥.

- عوض، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٣.

(٧٢) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧-١٠٨.

(٧٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- غرايبه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٧ - ١٢٩.

- عوض، الحركة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩ - ١٣١، ١٤٦ - ١٥٩.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢١ ، ١٢٧-١٢٨.

- القدومي، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- عوض، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩-١٨٣.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥١، ٢٥٩.

- كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣١، ١٥٨.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

(٧٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢١، ١٢٧- ١٢٨.

- القدومي، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- عوض، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩-١٨٣.

- عوض، الإدارة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥١، ٢٥٩.

- كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧

- سكان القدس في العهد العثماني، **مصدر سبق ذكره**.

www.alquds-city.com

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣١، ١٥٨.

- غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨.

(٧٦) غرايبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩- ٧٠، ١٨٥.

(٧٧) موقع نت، وثائق عثمانية تثبت ملكية فلسطينيين لمنازلهم في القدس، ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩.

www.alquds-city.com

(٧٨) - القدومي، **مصدر سبق ذكره**.

obeikan.com

الفصل السادس

المعارك العسكرية حول القدس

منى محروس

يعود تاريخ القدس إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، هُدِمَت، وأُعيد بناؤها ١٨ مرة، تهافت عليها المستعمرون، من شتى بقاع الأرض، محاولين تغيير صبغتها العربية، بالرغم من كل مزاعم هؤلاء بقيت، وستبقى عربية.

لقد سكن القدس **اليبوسيون**، إحدى القبائل الكنعانية، من العرب الأوائل، الذين نزحوا، من الجزيرة العربية، مع من نزح، من القبائل الكنعانية، حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م، واختاروا التلال المشرفة على المدينة القديمة، وبنوا قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية للمدينة، وسميت حصن يبوس، وكان أقدم بناء في مدينة القدس، وأُقيمت حوله الأسوار وبرج عال في أحد أطرافها، للسيطرة على المنطقة المحيطة بيبوس، للدفاع عنها، وحمايتها من غارات العبرانيين، والمصريين، كما أنشأ السلوقيون، في موضع حصن يبوس، قلعة منيعة، عرفت باسم عكرا، أو أكرا[١].

شن نُبوخَذ نَصَّر، الكلداني، هجومًا على فلسطين، عام ٥٩٧ ق .م، واستولى على القدس، والتي كانت عاصمة يهوذا، آنذاك، وأقام في القدس مُلكًا، بعد تمرد اليهود قام نبوخذ نَصَّر بتدميرها عام ٥٨٦ ق.م، كما غزا الفرس فلسطين، عام ٥٣٩ ق.م، في عهدهم عادت بقايا قبيلة «يهوذا»، من بقايا البابليين في القدس.

أما في **العهد اليوناني** فقد قهر الإسكندر المقدوني الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد، واستولى على القدس، وضمها إلى الإمبراطورية اليونانية عام ٣٣٢ ق.م[٢]. عندما وصل الإسكندر إلى القدس، وجد أحبار اليهود في انتظاره مرحبين، وأعلنوا مولد يهودي في تلك السنة، يسمى الإسكندر الأكبر، الأمر الذي لم يدم طويلًا بين اليونانيين واليهود، وجاء أحد خلفاء الإسكندر، وأذل اليهود، وظل الأمر هكذا، حتى دخل الرومان القدس سنه ٦٣ ق.م[٣].

شهد العهد الروماني ميلاد السيد المسيح (عليه السلام)، حاول اليهود استغلال الحرية الدينية التي منحت لهم في القدس منذ عودتهم من السبى البابلي، وسعوا لإقامة دولة خاصة بهم، ولكن الحاكم الروماني، بمساعدة الأهالي العرب، شن هجومًا عليهم عام ٧١ ميلادية، واحتل القدس، وقُتل عدد كبير من اليهود، قبل فرار من بقي حيًّا منهم إلى سوريا، ومصر، والبلدان العربية المجاورة الأخرى، وفي عام ١٣٠ م بنى هدريان مدينة جديدة مكان القدس، أسماها (إيلياكابيتولينا)، وفي عام ١٣٥م، كانت هناك محاولة يهودية لإقامة دولة في فلسطين، قاد تلك المحاولة أحد حاخامات اليهود، وسميت تلك المحاولة ثورة (بركوخبا)، واحتل هادريان المنطقة اليهودية في القدس، وبنى مدينة جديدة حَرَّمَ على اليهود دخولها، لم يحدث اليهود منذ ذلك الوقت أي قلاقل حتى مجيء القرن العشرين[٤]. ذلك بعد ألفي عام منذ زوال دولتهم عام ٥٨٦ ق.م[٥].

في العهد البيزنطي

بعد اعتراف الملك قسطنطين الأكبر بالمسيحية دينًا رسميًّا، بنى كنيسة القيامة، عام ٣٢٤م، في القدس، وتشير خريطة مهمة، مستمدة من أطلس الإسلامي، إلى أن فلسطين كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام، وكانت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية في صدر الإسلام (من ٦٣٦ : ١٠٧٢م). دخل المسلمون القدس في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بالصلح مع أهلها، وتسلم الخليفة عمر مدينة القدس، أو إيلياء آنذاك، وتدفقت القبائل العربية إلى فلسطين، وأصبحت اللغة العربية هي السائدة[٦].

وحين دخل الأُمويون المدينة (٦٦١- ٧٥٠ م)، كانت قد اتخذت طابعًا إسلاميًّا خالصًا، ثم جاءها العباسيون (٧٥٠- ٨٧٨ م)، فشهدت نهضة علمية كبيرة، قبل أن تعيش المدينة حالة عدم استقرار بسبب الصراعات العسكرية التي نشبت بين العباسيين، والفاطميين، والقرامطة، وخضعت القدس لحكم السلاجقة، منذ عام ١٠٧١م[٧].

الغزو الصليبى للقدس عام ١٠٩٩ م

سقطت القدس، في أيدي الصليبيين، عام ١٠٩٩ م نتيجة الصراعات التي سبقت الإشارة إليها، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت القدس مملكة لاتينية، تحكم من قبل أحد الملوك الكاثوليك، الذي فرض الشعائر الكاثوليكية عنوة، ما أثار غضب المسيحيين الأرثوذكس [٨].

كانت هناك رغبة صليبية في إقامة مركز روحي، ديني ثقافي، في فلسطين، ما يوضح مدى الأهميه الدينية، والثقافية لتلك المدينة المقدسة لكل من ينظر إليها، من الغاصبين، والمحتلين، وكان الفاطميون قد أرسلوا ثلاث حملات رمزية، كان قوام الأولى ٦٠٠ جندي، عادوا قبل دخول القدس فعلًا، وفي الحملة الثانية، والثالثة، أرسلوا عددًا أكبر من الفرسان، والمقاتلين والتقوا بكتائب من الصليبيين عند مدينة الرملة، وانهزموا، وعادوا إلى مصر، وخرج عماد الدين زنكي، من الثقالبة، محاربًا، ومجاهدًا، واستشهد، أيضًا، وخرج منهم نور الدين محمود، محاربًا، وانتزع دمشق، والشام من الصليبيين، ثم سير جيشه إلى مصر، ليقيم وحدة إسلامية قوية، مرهوبة، وخرج من جيشه إلى مصر شاب كردي، هو صلاح الدين الأيوبي، الذى تأثر بكل هؤلاء القادة، وتقدم إلى بيت المقدس رغبة في تحريره من قبضة الغاصبين الصليبيين[٩].

بدأ صلاح الدين يجمع جيوشه، في ربيع عام ١١٨٧ م، وجعل مركز قيادته في دمشق، وعندما اكتمل بناء الجيش، في صيف ذاك العام، اتجه إلى طبرية، في ٤ يوليو/ تموز ١١٨٧ م، وجعلها وراء ظهره، ثم تقدم غرب طبرية، عند قرية حطين، بمجرد أن علم، بتجمع الصليبيين، واحتشادهم هناك، من جهة الغرب، في يوم شديد الحرارة، رابطت جيوش صلاح الدين بينهم وبين الماء، مما اضطر الجيش الصليبى إلى قضاء ليلة يئن من العطش والإنهاك، واستغل الأيوبي ذلك، وطوَّقهم في الليل وانتصر عليهم، وألحق هذا الانتصار بآخر في اليوم التالي، بعد محاولة يائسة من الصليبيين لبلوغ الماء، دارت معركة من أهم المعارك في التاريخ العربي، والإسلامي هي معركة حطين الشهيرة، التي انهزم فيها الصليبيون، وتجلت في تلك المعركة الحنكة العسكرية للقائد صلاح الدين، الذي لم يكن قد تقدم بعد إلى القدس، بل فضَّل أن يعزلها عن الإمدادات البحرية التي تأتي إلى الصليبيين من الخارج، ولتحقيق ذلك، اتجة إلى عكا، التي سقطت دون مقاومة، واتخذها مركزًا للقيادة، ومنها وجه جيوشه لفتح المدن العربية، فاستولى على الناصرة، وقيصارية، وحيفا، وصفورية، والعولة، والطور، بينما استولى أخوه العادل على حصن مجدلية، بين يافا ونابلس، ثم يافا، وسبسطية (السامرة القديمة)، وصيدا، وفي أوائل سبتمبر/ أيلول ١١٨٧م استسلمت عسقلان، ولم يبق أمام الأيوبي سوى معركته الرئيسية، التى أدار من أجلها كل هذه المعارك، وكانت القدس[١٠].

بعد أن رأى صلاح الدين رايات النصر تخفق له، بعد استسلام معظم المدن التي كان يحتلها الصليبيون دون مقاومه تذكر، سار إلى قلب فلسطين، وأخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون، وعندما تأكد من تأمين الساحل لمنع وصول الإمدادات البحرية إلى الصليبيين، في القدس، ضرب صلاح الدين الحصار عليها، وعرض على أهلها التسليم، بنفس شروط استسلام المدن التي استسلمت قبلها، أقسم الأيوبي على أن يأخذ القدس عنوة، فتلمس من أسوارها نقطة ضعف يهاجم من خلالها، وفي ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١١٨٧م، بدأ هجومه، من الشمال، عند باب العمود، ونصب المنجنيقات، ونظم الرماة، وفتح جنوده ثغرات في الأسوار، وبدأ التصادم الذي لم يدم أكثر من أسبوع، في أعقابه رأى المحاصرون أنه لا أمل لديهم في النجاة، فأسرعوا في طلب التفاوض، وشروط التسليم، ولم ينكِّل الأيوبي بأهل المدينة، مثلما فعل الصليبيون عندما استولوا عليها قبل ذلك بنحو قرن، وخاطبهم صلاح الدين قائلًا: «لا أفعل بكم كما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه سنة ٤٩١، من القتل، والسبي»، ودخل العرب القدس، بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ـ ٢ أكتوبر/ تشرين أول ١١٨٧م، وجدَّد صلاح الدين أسوار بيت المقدس، وأنشأ عددًا من الأبراج العسكرية، في الجزء الواقع بين باب العمود، وباب الخليل، ذلك الجزء المواجه للطريق العسكري الآتي من الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض المتوسط، من يافا، خصوصًا، وذلك لتدعيم التحصين ضد الصليبيين، وقام بحفر عدد من الخنادق حول أسوارها[١١].

نجح الأيوبي، في فك حصار القدس، في مواجهة أربعين ألف صليبي، وبعد أن استسلمت الحامية المصرية الصغيرة، التي كانت موجودة هناك[١٢].

لم يدم ذلك كثيرًا، لقد نجح الصليبيون في السيطرة على المدينة، بعد وفاة الأيوبي، في عهد فريدريك ملك صقلية، واستمر أثرها ١١ عامًا، إلى أن نجح الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٤م في استردادها نهائيًا[١٣]. كما

تعرضت القدس للغزو المغولي عام ١٢٤٣/ ١٢٤٤، لكنهم قوبلوا بمواجهات كبيرة من المماليك، تحت قيادة سيف الدين قطز، وأتم النصر الظاهر بيبرس في معركة «عين جالوت» عام ١٢٥٩م، وضمت فلسطين بما فيها القدس إلى المماليك[١٤].

القدس في أيدي العثمانيين

كان السلطان سليم الأول قد فتح القدس عام ١٥١٦م، بعد أن هزم المماليك في معركة مرج دابق، وقتل سلطانهم قانصوة الغوري، وانتهى بذلك الحكم المصري العربي المملوكي للمدينة[١٥]. وأصبحت القدس بعدها تابعة للإمبراطورية العثمانية، وأعاد السلطان سليمان القانوني بناء أسوار المدينة وقبه الصخرة[١٦].

في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ - ١٨٠٧م)، هاجم بونابرت العريش عام ١٧٩٩م، وخرج بجيشه متجهًا إلى صحراء سيناء، متخذًا الطريق الساحلي القديم قاصدًا فلسطين، فاستولى على العريش، وغزة، والرملة، ويافا، أما محمد علي فقد أرسل جيشًا، بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى فلسطين، والشام، ولم يلبث أن احتل بيت المقدس، ومعظم مدن فلسطين عام ١٨٣١، وكانت المفاجأة عندما واجهه أهلها بمقاومه شديدة، فقد أعلنوا ثورةً على إبراهيم باشا وجيشه، لكنه نجح في إخماد تلك الثورة، ثم سحب جيوشه إلى مصر، رضوخًا لضغوط بعض الدول الأوروبية، وفي ضوء الأوضاع التي فرضتها تلك الدول على محمد علي في معاهدة لندن ١٨٤٠م، ومن ثم عادت سلطة الدولة العثمانية على القدس (السلطان عبد المجيد) بموجب تلك المعاهدة عام ١٨٤١، بدعم من إنجلترا، والنمسا، وظلت تحت الحكم العثماني[١٧]. فأنشأت الدولة العثمانية عام ١٨٨٠ متصرفية القدس، كما أزيل الحائط القديم للمدينة عام ١٨٩٨م لتسهيل دخول القيصر الألماني وليام الثاني، وحاشيته أثناء زيارته للقدس، واستمرت المدينة المقدسة تحت الحكم العثماني حتى فقدت تركيا معظم ما كان تحت سيطرتها من بلدان، بما فيها القدس الشريف، التي احتلها الإنجليز في ٩/ ١٢/ ١٩١٧، بقياده السير إدموند اللنبي، ضمن مجريات أحداث الحرب العالمية الأولى[١٨].

الاحتلال البريطاني للقدس

بدأ الحكم العسكري في فلسطين بإصدار منشور في ٢٤/ ١٠/ ١٩١٧، الأمر الذي تبعه احتلال عدد من المدن الفلسطينية، ويافا، كان ذلك تمهيدًا للمهمة الأولى للحملة البريطانية التي كانت مهمتها احتلال القدس، وكانت القوات التركية قد انسحبت من المدينة في ٨/ ١٢/ ١٩١٧، وسلمت للبريطانيين في عام ٩/ ١٢/ ١٩١٧ ودخلها اللنبي رسميًّا في ١١/ ١٢/ ١٩١٧، وفي اليوم نفسه، ومن قلعة صلاح الدين الأيوبي، أذاع منشور الأحكام العرفية في القدس الشريف، هكذا وقع الجزء الجنوبي من فلسطين، تلك الأقاليم الواقعة جنوب يافا، القدس، تحت الحكم العسكري، واستطاع جنرال «كلايتون»، مدير الإدارة العسكرية في فلسطين، آنذك، تنظيم هيئة عسكرية، تعمل تحت إدارته، وعين عسكريين في عدة مناطق، ومنها القدس بعد احتلالها في ٩/ ١٢/ ١٩١٧[١٩].

بعد وعد بلفور ١٩١٧م، ومع تزايد التسهيلات البريطانية للحركة الصهيونية من إجراءات تنظيمية، وأساليب مختلفة لنقل ملكية الأراضي للصندوق القومي اليهودي، ازدادت الهجرات اليهودية إلى فلسطين، الأمر الذي أجج أطماع الحركة الصهيونية وشد أزرها في مواجهة العرب، ما أدى إلى تفجر عدد من الهبات، والانتفاضات، والثورات

من جانب الفلسطينيين ضد الممارسات الصهيونية، وسياسة التهجير، فكانت القدس مركز هذه الثورات، التي استمرت من ١٩٢٠، وحتى ١٩٣٩، فقد حدثت في ٤/ ٤/ ١٩٢٠ انتفاضة مسلحة استمرت ٤ أيام، لكن الإنجليز قاموا بسحقها، واستشهد فيها ١٠ فلسطينيين، وكانت هذه الانتفاضة بداية الصدمات بين اليهود والعرب حول الأماكن المقدسة في القدس، الأمر الذي تكرر عام ١٩٢٦م[٢٠].

وفي ٢٣/ ٨/ ١٩٢٨ تزايدت الصدامات بين المستوطنين اليهود والشعب الفلسطيني، وقامت قوات الاحتلال البريطاني بالتصدي لهذه الصدامات، وإيقافها، الأمر الذي تكرر في العام التالي، واشتعلت الحركة الوطنية، آنذاك، ولم يستطع البريطانيون منع ذلك، كان ذلك بسبب الاستفزازات التي تسبب بها اليهودُ للمسلمين، في هبة البراق صيف ١٩٢٩، استمر الأمر أسبوعين، وانتهى باقتياد العرب إلى السجون والمعتقلات، وأصدرت محاكم الانتداب ٢٠ حكمًا بالإعدام بحق العرب، وتم إعدام صهيوني واحد، وأضحت القدس طول فترة الاحتلال البريطاني مركزًا لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، وإثر هبة ١٩٢٩ قررت حكومة الانتداب البريطاني تقسيم فلسطين إلى كانتونات، بعضها عربي، والآخر يهودي، لكن العرب قاوموا هذا المشروع، وأحبطو أغراضه، وتكررت الفكرة عقب ثورة ١٩٣٦، محاولة وضع القدس تحت نظام دولي، لمكانتها المقدسة، وفشل هذا المشروع أمام ثورة العرب عليه ومقاوماتهم له[٢١].

في صيف ١٩٣٧، عاد الفلسطينيون إلى حمل السلاح ضد البريطانيين، إثر صدور «تقرير لجنة بيل» الإنجليزية (٧/ ٧/ ١٩٣٧) التي اقترحت تمركز القيادة في القدس حيث مقر «اللجنة العربية العليا»(*) ، وفي خريف ١٩٣٧، أفلت معظم قادتها إلى خارج فلسطين، وسقط آلاف الشهداء، بينهم قادة عسكريون بارزون، إلى جانب إحكام الحصار البريطاني على المدينة[٢٢]. في أعقاب صدور الكتاب الأبيض (فبراير/ شباط ١٩٣٩م) أعادت المنظمات الصهيونية نشاطها للقدس مرة أخرى ضد العرب، والبريطانيين، وقامت بنسف عدد من الدور الحكومية، وأبرزها تدمير فندق الملك داود، الذي كان مقرًا لحكومة الانتداب، وقتلت فيه عددًا كبيرًا من المسؤولين البريطانيين[٢٣].

بقي الحديث عن احتلال إسرائيل للقدس، على جرعتين، سنة ١٩٤٨، و١٩٦٧.

* * *

(*) هي المؤسسة الجبهوية التي ضمت الأحزاب العربية الفلسطينية الستة (العربية/ الدفاع/ الاستقلال/ مؤتمر الشباب/ الإصلاح/ الكتلة الوطنية)، وذلك في ٢٥/ ٤/ ١٩٣٦، حتى تقود هذه الجبهه الثورة الوطنية، التي اندلعت قبل خمسة أيام، ودامت ٣ سنوات متصلة.

هوامش الفصل السادس:

(١) موسوعة المدن الفلسطينية، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، تونس،١٩٩٠، ص ٥٨٩.

(٢) بهاء فاروق، **فلسطين بالخرائط والوثائق**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٢.

(٣) عبد الحميد الكاتب، **القدس**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٤) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢ ،٥٣.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٨، ٥٩.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٥٥.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٣.

(٨) **المصدر نفسه**، الصفحات ذاتها.

(٩) الكاتب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩، ١٠٠.

(١٠) سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٣، ١٩٠.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٩١، ١٩٣.

(١٢) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨، ٥٩.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٤٤.

(١٤) **المصدر نفسه**، الصفحات ذاتها.

(١٥) **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٧.

(١٦) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٤.

(١٧) راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢.

(١٨) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٤.

(١٩) د.كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني (١٩٢٢-١٩٣٩)**، ط٢، طرابلس الغرب، ١٩٨٢، ص ٦٤، ٦٥.

(٢٠) هالة منصور، المقاومة الوطنية في القدس، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد (١١٠)، تشرين الأول (أكتوبر) ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢١) سمير جريس، **القدس/ المخططات الصهيونية الاحتلال والتهويد**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٧.

(٢٢) منصور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٠.

(٢٣) جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠، ٣٢.

الفصل السابع

زهرة المدائن والأعمال التراثية

رانية عبد الرحيم المدهون

باتت مدينة القدس من أشهر مدن العالم في التاريخ القديم، كما غدت أشهرها في التاريخ الحديث، فكانت بمثابة مركزٍ للعالم كله[١].

مدينة سخية بالحضارة، والأعمال التراثية التي تشهد على عروبة هذه البؤرة المقدسة، ولقد تربى المسلم والمسيحي في القدس على وتيرةٍ واحدةٍ، وشربا معًا من بيارة التراث الخصيب، في أرضها الحبيبة[٢]، التي تتعرض منذ ما يربو على ستين عامًا للحرب والتخريب والدمار، يصاحب ذلك العديد من الممارسات المعاضدة لسياسات الاحتلال لطمس معالم الشعب الفلسطيني، وتاريخه وحضارته، ومنها تعرض التراث الفلسطيني عامةً، والمقدسي بصورةٍ خاصة للنهب والتزييف والطمس والهدم، وفي المقابل نجد من يناهض هذه السياسات بسلاح محاولات المحافظة على هذا التراث وجمعه ونشره وتقديمه بكل الوسائل المتاحة[٣].

ردًّا على المخطط الصهيوني الذي يستهدف محو هذا التراث، وللإبقاء على الشعب الفلسطيني شعبًا واحدًا، في الداخل وفي أقطار اللجوء، وحمايته من خطر الفناء أو الذوبان في المجتمعات الجديدة التي انتقل إليها، لا مفر من العمل على إحياء التراث الشعبي، والإبقاء على معالمه، لتعزيز الهوية كنقطة في دائرة المحافظة على الشخصية القومية للشعب العربي الفلسطيني، وهذا يندرج في مجالات خطة التحرير والعودة[٤]. فقد اشتهر الشعب الفلسطيني بصموده، حيث لم يفلح التهجير والتشريد عن الوطن في النيل من تمسك الفلسطيني بمبدأ العودة، كما لم ينجح في تفكيك المجتمع الفلسطيني أو محو السمة الفلسطينية، وعلى النقيض، فقد ظل الفلسطينيون فلسطينيين في كل قطرٍ يقيمون فيه، يميزهم طابعهم الذي يستعصي على الزمن[٥].

لقد أخذت بعض المبادرات الفلسطينية، والعربية، بشكلٍ عام، طريقها الجِدِّي في هذه السبل، وكمثال على ذلك ما قامت به مراكز الدراسات الفلسطينية، والعربية، ومراكز الفولكلور داخل الوطن المحتل، وخارجه بهذا الصدد، حتى أنه لم تحجم حتى الفتيات الفلسطينيات، وكذلك الأطفال، عن الانخراط في فرق الفنون الشعبية الفلسطينية، كفرع من فروع التراث الفلسطيني، الذي يجب الحفاظ عليه في حدقات العيون[٦].

لنتطرق إلى التراث الشعبي (الفولكلور)، حيث دراسة «الحي، والميت»، حسب تعبيرات (Wright)، والتقدم وعدم تحديد تاريخ للنص الفولكلوري والتداول ومجهولية واضع المادة الفولكلورية، وما يجعلها مختلفة عن التاريخ، فالتراث الشعبي يعتبر تطورًا مأثورًا وشفويًّا لأصول الأشياء، وللتاريخ المبكر للإنسان، مع الأخذ في الاعتبار ـ كما تقول مارجريت مري ـ أن الفولكلور يمكن أن يصبح تاريخًا، كما أن التاريخ يمكن أن يصبح فولكلورًا، كما يوجد ارتباط بين الفولكلور والإثنولوجيا العامة، رغم توجيه الثانية اهتمامها إلى الشعوب الأمية، وإغفالها الثقافات الراقية، و(دراسة الإنسان)، جميع نشاطات الإنسان، مع معالجة الثقافة كجزء حي شامل لهذه النشاطات[٧].

يعني التقادم للمادة الشعبية أن تصبح قديمة، أو فولكلورية ليس بالضرورة من خلال الزمن، بل من الممكن أن تصبح المادة فولكلورية، أو فنًّا شعبيًّا دارجًا من خلال محتواها فحسب[٨].

لقد حاول الصهاينة، أيضًا، عبرنة التراث، والتاريخ، وحتى الأسماء، والألفاظ، فالمعروف أن الاسم الأول لمدينة القدس في التاريخ هو (يبوس)، استنادًا إلى العربي (يبوس بن كنعان) مؤسس المدينة، كما أن أول ذكر لها ورد في نصوص مصرية قديمة تعود إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، باسم (يورشاليم)، وهو اسم عربي موجود في السجلات الكنعانية التي ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور اليهودية، واليهود، واللغة العبرية بثمانمائه عام، كما جاء ذكرها في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد باسم (يورسالم)، وأقدم اسم لها في (العهد القديم) هو (شاليم)، كما ورد في سفر التكوين، و(يبوس) كما وردت في سفر القضاة[٩]، وهكذا نرى أن أسماء المدينة المقدسة كلها عربية الأصول، يبوسية أو كنعانية سابقة للوجود الإسرائيلي فيها، كما أنها سابقة على ظهور اللغة العبرية، ومع ذلك فقد حاول الصهاينة عبرنة أسماء القدس، وهذا مثال على التزييف، والتحريف الصهيوني لأصول الأشياء[١٠].

لقد عاشت فلسطين في ثوراتها المتعاقبه في الغالب الشكلين المتلازمين من أشكال النضال، أولهما النضال المسلح، سواء الفردي منه، أو الجماعي، المرتجل منه، أو المنظم، العشوائي منه، أو المتطور، وثانيهما النضال الجماهيري، في سلسلة أو قائمة الكفاح الشعبي، أو رفض الواقع، مثل الاحتجاجات الجماهيرية، والإضرابات، والمقاطعة الاقتصادية، وعلى رأس القائمة المظاهرات التي أفرزت كمًّا كبيرًا من إنتاج الموروث الشعبي الفلسطيني كفاعل، ومتفاعل مؤثر في ثوراته، ومتأثر بها[١١].

عندما نبدأ الحديث عن الموروث الشعبي، بشكلٍ عام، فقد اصطلح باحثو الموروث الشعبي على أن يقسموه إلى ثلاث دوائر رئيسية، تمثل ألوانه المختلفة، فتأتي الدائرة الأولى عن المرويات، أو المحكيات، وتذهب بنا الدائرة الثانية إلى العادات، والمعتقدات الشعبية على اختلاف أنواعها، أما الدائرة الثالثة فتتناول الممارسات بما فيها من دوائر صغرى

كالحركات، والفنون التشكيلية، والصناعات الشعبية[١٢]. وبكلمات أخرى يمكن تلخيص تلك الفروع إلى ثلاثة مصطلحات هي اللفظي والفكري والمادي[١٣]، يشتمل كل مصطلح منها على مجموعة المواد الفولكلورية التقليدية، حيث تعمل دراسة الفولكلور على جمع وتصنيف وتحليل هذه المواد، مع إظهار البيئة التي نبتت فيها، وشرح معانيها، والتنقيب عن تاريخها، ومن ثم وصف خصائص ومميزات أساليبها[١٤].

نحاول في هذا البحث بذل الجهد لإلقاء الضوء على شطر من التراث الشعبي الفلسطيني، وما يخص زهرة المدائن منه.

١ - رؤية فلكلورية للطبيعة والتضاريس: حيث تقسم فلسطين إلى[١٥]:

(أ) المنطقة الساحلية، من رأس الناقورة حتى رفح.

(ب) المنطقة الجبلية، بما فيها السهول والهضاب، التي تتخللها، من جبال الجليل حتى جبال القدس والخليل.

(جـ) الغور، من جنوب بحيرة الحولة حتى جنوب البحر الميت.

(د) بئر السبع والصحراء الفلسطينية (صحراء النقب وصحراء القدس).

وتقع مدينه القدس في نطاق المنطقتين الجبلية والساحلية من فلسطين.

٢ - لهجات التخاطب

هناك لهجات عديدة يتخاطب بها أهل فلسطين عامة والقدس خاصة، تتميز تميزًا واضحًا عن العربية الفصحى بطائفة من السمات والخصائص المشتركة في المادة الصوتية، وصوغ القوالب في تركيب الجمل، وفي القواعد والمادة اللغوية، كذلك في طرائق التعبير، فهي تجيز بأسلوبها وعفويتها ما تقتضيه الحياة، وتعطي فكرة واضحة عن مزاج أهلها وطريقة معالجتهم لمختلف القضايا التي تعترضهم في حياتهم الطبيعية[١٦].

٣ - الشعر الشعبي

ومنه شعر العامية المقاوم، والشعر الفصيح الذي يفوح منه شذى الروح الشعبية الوطنية[١٧]. وقد اتصفت لغة هذا الشعر بالكلمات التي تلهب الوجدان الشعبي والوطني إلى جانب التأريخ للثورات[١٨]، تلا ذلك شعر المنافي والحديث عن النكبة والهجرة والخيام والتموين، ثم تطرق الشعر إلى القومية والوحدة العربية والتحرير فالعودة[١٩]، ولو استشهدنا بالشعر لإبراز هذا التدرج نذكر ما يلي[٢٠]:

يا حضرة المستر دل، لا تظن الأمه بتمِل.

لكن إنت سايرها - بلكي على يد دل بتحل .

و:

من سجن عكا وطلعت جنازة عطا وجمجوم فؤاد حجازي

وجازي عليهم يا ربي جازي المندوب السامي وربعه عموما

و:

لطلع راس الجبل وأشرف على الوادي

وأقول يا مرحبا نسَّم هوا بلادي نسم هوا بلادي

وهو من أغاني الجفرة:

جفرا ويا ها الربع من هونا لمصر

ومحبتك فلسطين إبتعصرنا عصر

واحنا شباب فلسطين عنوان للنصر

ياللا نهجم عاالعد هجمه جماعيه

هجمه جماعيه

إلى:

هبتْ النار والبارود غنَّى

تسلم لينا يا حامي وطنا

و:

سألو الخيام بالليل وما ودعونا

وهيلي يا دموع العين إن كنت حنونا

سألوا الخيام بالليل وقطعوا

هيلي يا دموع العين إن كنت حنونا

و:

يا زريف الطول حلو يا مربوع

يا نازل للبر واحسب للطلوع

هاجرنا من حيفا وعلى الله الرجوع

والله يعلم كيف يصير بحالِنا

obeikan.com

٤ - الأغاني والأناشيد والقصائد الشعبية

رأينا الشعر الشعبي المقاوم وأصحابه المحترفين من القوالين، وحدَّائي الأعراس[٢١]، في فلسطين بشكلٍ عام، فلم يصل الوعي حينها إلى فهم المخططات الصهيونية التي تهدف إلى سلب كل فلسطين وتتويج القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، فلم يوجد شعر في تلك الآونة المبكرة يتغنى بالقدس كمدينة بعينها مستهدفة. بخلاف الأغاني الشعبية لحجاج القدس، إلى جانب أغاني الأفراح التي سمعت في ديار بيت المقدس، حين تحول الشعر إلى أغنيه شعبية يكمن فيها فيض زاخر من الحياة[٢٢]، تسير كرفيقة درب لقضية الوطن، وهمومه، إلى جانب تفاصيل حياته، فلنعرض لطائفة من الأغاني[٢٣]:

١ـ لحن ليه وليه يا بنيه ..... يا ورده ع الميه

٢ـ يا ميت مسا يا ميت مسا ..على العيون كويسة يا ميت مسا

٣ـ طالعه من بيت ابوها ..... خاشة بيت الجيران

٤ـ على واخ مشعل واخ مشعلاني

وفيها قول آخر هو:

ع الأوف مشعل يا با مشعلاني

ومثل:

٥ـ البدر لما زار يا عيني يا عيني

زالت الأكدار .

٦ـ يا عزيز عيني وأنا عايز أروَّح بلدي

وهو لحن مصري فلسطيني ردده الناس إبان الحرب العالمية الأولى.

ومثل:

٧ـ و الله أزرعك بالدار يا عود اللوز الأخضر.

ومثل:

٨ـ شعرك يا فلانه ع الميه حبال حبال

ومثل:

٩ـ أغنية بنات يافا ميناء القدس وهن تخاطبن الأرض:

جنه الدنيا بلادي حبها ملئ فؤادي

وأغنيتهن التي يخاطبن فيها نهر الجريشة:

يا أيها النهر الجميل كيف تسير بلا سمير

وأغنية:

نحن جند الله شبان البلاد

كما وجد نوع آخر من الغناء وهو ما عرف بالقصائد والأناشيد، مثل قصيدة موطني، وقصيدة وطني التي كانت تغنى بالمدارس، ومثل الأناشيد التي كانت تتردد في المظاهرات وفي الكشافة[٢٤]. لقد كانت الأناشيد من صميم الأدب المعطاء، فهي من الأدب النضالي المنبثق من صميم حياة الشعب ومثله العليا وتراثه الشعبي والنضالي، وهو يعبر عن حصيلة المسيرة النضالية مع بقية أدوات النضال له نصيب في إشعال نيرانها وتسجيل تاريخها، فنرى الشعب يغني الأناشيد في المظاهرة وفي المعركة والأفراح والحقل والجرن والبيارة والكروم[٢٥]. كما أن هناك أناشيد قومية غير فولكلورية إلا أن خروجها من حناجر الجماهير في المواسم يجعلنا نعتبرها فولكلورية مثل نشيد بلاد العرب أوطاني.

كما وجد صعوبة في جمع أناشيد ما قبل النكبة وذلك بسبب[٢٦]:

أولًا: لقد أصبح جيل الكشافة من شيوخ فلسطين ممن يحفظون الأناشيد في قلوبهم نادر العدد.

ثانيًا: أن دواوين الشعر التي احتوت على بعض الأناشيد أصبح بعضها نادرًا أو في حكم المفقود مثل الدواوين القديمة.

ثالثًا: عدم توفر كتاب قديم يجمع هذه الأناشيد بين دفتيه، فالكتيب الوحيد الذي كان بحجم الجيب كان من تأليف الكشاف جميل القدُّومي أصبح بحكم المفقود، والمؤلم أنه كان يجمع كل أناشيد الكشافة في ذلك الوقت.

أما عن أغاني وأناشيد ثورتي ١٩٥٩ و١٩٦٥ فقد ارتبطت أو احتوت على ألحان شعبية مؤصلة مع اختلاف صور الإبقاء أحيانا وكيفيته فيها بشكل أو بآخر، أي أنها استهلت ألحانها وأغلب كلماتها من أصول شعبية حقيقية يذوب معها الفرد، فموسيقاها أغلبها جماعية، ومن الألحان والقوالب الفولكلورية المؤصلة[٢٧]:

(أ) غزالي غزالي طاب جرحي طاب

ويعود جذوره إلى مدينة القدس .

(ب) إلي ذلك، القالب اللحني المقدس : طوِّعني معك.

(جـ) لحن ريدها ، وعرف منه في القدس

يا نخلتين في جنينة تمرحنا استوى

ويش يصير يا محبوبي لو شطحنا سوى.

(د) كما شاع في القدس، أيضًا، القالب اللحني، يا ميجَـنا، وهو اسم لفلاحة، زوجة لفلاح كادح، اختطفها إقطاعي، كان يتولى أرض الفلاحين، وهام زوجها على وجهه، وبعد ذلك يتغنى بأبيات مُلحَّـنة، يسميها بالميجانا.

٥- الموسيقى الشعبية (التراث الموسيقي)

لقد كانت دراسة الموسيقى الشعبية، قبل بداية القرن التاسع عشر، من أقسام علم الآثار، ولكن ظهور الرومانسية الأوروبية، والروح القومية جعلت للفولكلور دراسة خاصة، وحُدِّدَ له معنى «حكمة الشعب». والموسيقى الشعبية تختلف عند الشعوب باختلاف طبائعها، وتقاليدها وحالتها الاجتماعية، وحياتها المعيشية.

نرى الشعراء، إذا وافق الشعر التلحين ولان له، كانت القصيدة أغنية، وكان الشعر الشعبي غناء شعبيًّا، على نسق الدلعونا، ويا حلالي يا مالي.

ومثل اللحن الفولكلورى القديم:

عل يادي اليادي اليادي ثورتنا الشعبيه

تنحصِّـل كل الحقوق دوله مع هويه

إلى ذلك، ما يدرس للأطفال في الحضانات من أناشيد، بما فيها من قيمة تربوية[٢٨].

مميزات اللحن في الأغنية الشعبية[٢٩]:

(أ) قصر الجمل.

(ب) أبعاد اللحن.

(جـ) الطابع المقامي.

(د) الجاذبية اللحنية.

(هـ) الزخرفة اللحنية.

عن الآلات الموسيقية الشعبية، فقد تمثلت في الفقاشات، الطبل، الدف، النقارة، الدربكة، البازة، والآلات الوترية، مثل الربانة، والتي كانت أكثر الآلات شهرة، والعود، والقانون، وآلات النفخ، والناي، والمزمار، والمجوز[٣٠].

٦- الفنون الشعبية

للفنون الشعبية أهمية مزدوجة، فهي تعمل على توجيه الشعب، وتقرير نمط حياته، وتفكيره، وتصرفاته، وتعكس الكثير من حياة الشعب، وأفكاره، وأمانيه، ومشاكله، وأحاسيسه[٣١].

لقد استجاب الشعرالشعبي للألحان، ونسج قصصًا شعبية، تمايل على أنغامها من يمارسون الفن الشعبي، مثل رقصة السحجة، وعليها يقال:

هبت النار والبارود غنى أطلب شباب يا وطن واتمنى.

ومثل: العتابا والميجانا، دلعونا مشعل، زريف الطول، والأهازيج والقصائد الوطنية[٣٢].

تعتبر الدبْكة هي الرقصة الشعبية الأكثر شيوعًا في كل قرى فلسطين، وبعض مدنها، ويرقص الشبان منها في

obeikan.com

حلقة مفتوحة على أنغام المجوز، أو الشبابة، وباشتراك المغني أو «القويل»، ويمسك من يحتل طرف الصف «محرمته» أي منديلًا، معقودة الأطراف، ويلوِّح بها أثناء الدبكة، لذا يعرف باللوِّيح، وتسمح التقاليد للويح بأن ينفصل عن الحلقة، وأن يقوم بدبك منفرد، يُظهر فيه مهارته، وتفننه، مثل المغني ويشذ عن اللحن، ويرتجل لحنًا قريبًا منه، ولكنه أكثر زخرفة وأعقد تحاليًا، ويستمر التلويح في حركته في الاتجاه الدائري مع جماعة الراقصين على أنغام الموسيقى، وغناء الشبابة، والدلعونا، وأما الشخص الذي يأخذ الطرف الآخر من الحلقة، فيقال له «على الجحشة» وينفرد الرجال، عادة، برقص الدبكة، ما عدا في بعض قرى الشمال، حيث يسمح للمرأة بالاشتراك بالدبك، جنبًا إلى جنب مع الرجل[٣٣].

للدبكة حركات مميزه، تشتهر بها، وهي[٣٤]:

(أ) القفز إلى أعلى

وتعود جذوره البدائية إلى اعتباره رمزًا إلى نمو الزرع، وارتفاعه، على أساس ما شاع في ديانة الكنعانيين القدماء ـ وهم من أجداد شعب فلسطين ـ من عبادة قوى الطبيعة المنتجة، وقوى النمو، ثم تطور ذلك الرمز إلى علو الشعب، الأمة والوطن.

(ب) دق الأرض بالأقدام

ترجع جذوره البدائية إلى محاولة طرد القوى الشريرة، ثم تطور إلى قوة الشعب، وقوة الأمة، والثقة بحتمية العودة والتحرير.

(جـ) التكاتف

ويمسك كل دبيك بزمام من يجاوره دلالة على التعاضد والتكاتف والمساندة.

(د) الدور البطيء والسريع

كان يرمز في القدم إلى الدورة الزراعية، وإلى دوران الفصول والسنين والأشهر والأيام والساعات واللحظات، ثم تطور إلى استمرار الكفاح من أجل مستقبل الشعب والأمة، فهو يدل على الديناميكية والمسيرة واستمرار الثورة حتى النصر.

(هـ) أصوات وحركات وجدية مرافقة للرقصة

أصولها دينية الجذور وتدرجت لتصبح دينية أو اجتماعية أو وطنية.

ومن أنواع الدبكة المعروفة: الشمالية، الغزالة، الطيارة، التحليلية، السجدة، والسامر[٣٥]، أما فيما يخص النساء، فهناك ثلاثة أنواع من الرقص هي[٣٦]:

(أ) الدبكة في بعض القرى الفلسطينية.

(ب) الرقص المتداول في بعض القرى والمدن مثل رام الله، قطنة، وبيت لحم، حيث ترقص النساء في حلقة مقفلة، ثم تقف إحداهن في وسطها.

(جـ) رقص ابنة المدينة الذي تنقل فيه الراقصة رجليها، بخفة، تارة إلى اليمين، وتارة أخرى إلى الشمال بغاية التهذيب والبراءة.

(د) وهناك رقصات تترجم بنت المدينة فيها كلمات الأغنية، مثل: هيك، تك الزعرورة يا يما هيك. تقوم الفتاة بحركات مرتعشة بجسدها، تمثل حب الزعرور، وهو يتساقط عن الشجرة، ومثل، القهوجي، حيث تمسك الراقصة فناجين القهوة، وتمثل طريقة صبّها على الحاضرين.

(هـ) وهناك رقص يفتقر إلى البراءة والفن، وهو المعروف «بهز البطن»، وتقوم به الجنكيّات، أي نساء قبائل الغجر، دون غيرهن.

٧ - الأدب الشعبي

لقد ظل للأدب الشعبي في فلسطين المحتلة، منذ عام ١٩٤٨، دور فعال في يقظة الشخصية الفلسطينية، وتبصيرها بالواقع الذي تعيشه، ثم حمايتها من الأخطار[٣٧]. وعلى رأس القائمة رواد الأدب الشعبي الفلسطيني، توفيق زياد، شاعر الأرض المحتلة، الذي تبنى دعوة لتسجيل الأدب الشعبي الفلسطيني، وإعادة نشره، وتجديده، وإنقاذه من خطر الضياع[٣٨].

كان هناك رصيد خصب ووفير من الحكايات المتداولة، حتى عام ١٩٤٨، إضافة إلى حواديت الجدة العجوز، التي كانت تركز على قيمة الأرض، والوطن، والعودة. وتعد الحكاية الشعبية من أدب المقاومة الفلسطينية[٣٩].

إن أدبنا الشعبي مشبع بحكايات الشعب، وروايات السير الشعبية، والسرد القصصي والتراثي، وبطولاته، من الشخصيات الفلسطينية المناضلة، مثل محمد الملحم[٤٠]، وسيرة «أبو جلدة» والعرميط، ومثل حكاية (الزلمة والحية) [٤١]، وترتبط الحكايات الشعبية ببيئة القدس، ونلاحظ العنصر الديني (الإسلامي أو المسيحي) غالبًا عند بدايات القص، مثل: «ما هان ولاهان يا مستمعين الكلام، واللي يحب العذرا يقول عليها السلام...» وهذا شبيه باستهلال إسلامي، يقول: (كان يا ماكان، يا مستمعين الكلام، وما يطيب الهرج إلا بذكر الله العزيز الرحمن... وحدوا الله...)، وسنجد في موضوع آخر أن المسيحيين يروون حكايات المسلمين، والعكس يحدث أيضًا، ومثل ذلك:(قالوا له ياللا نروح نعزي، قال: بعد صلاة الجمعة....[٤٢]، كما أن المأثورات الشعبية قد بينت أبانا آدم باعتباره مواطنًا «فلسطينيًا»[٤٣].

هذه الحكايات، بالإضافة إلى احتفاظها بالمادة العامة في الحكاية الشعبية، فإن لها رموزًا إنسانية، كما أن بعضها فيه ربط الإنسان الفلسطيني بالأرض الفلسطينية، حتى ولو ارتحل من مكان إلى آخر على هذه الأرض، وربط الأصالة، أيضًا، بالأرض الفلسطينية[٤٤].

أما عند السير الشعبية، والسرد القصصي التراثي فقد كان يعرض إما على شكل نثر أو شعر، أو أغاني على الربابة[٤٥]، ومن أشهرها تغريبة بني هلال، الزير سالم، عنترة بن شداد، فيروز شاه، حمزة البهلوان، سيف بن ذى يزن، والأميرة ذات الهمة، وأبو أكباري. وقد نسج على منوال سير الأبطال الشعبية أيضا قصصًا شعبية فلسطينية، مثل سيرة أبي جلدة، والعرميط[٤٦].

ثمة فرق بين الأدب العامي، وبين الأدب الشعبي، من خلال التداول، فإن الأدب العامي هو نتيجة كتابات فرد، لكن هذا النتاج لم يجد هوى في مزاج الجماعة، فلم تتوارثه، وتتداوله، لذلك لم يصبح نتاجًا شعبيًّا، وهنا يتحكم التداول بمصير النتاج المصوغ باللهجة العامية[٤٧].

المثل الشعبي: هو خلاصة تجارب الشعوب، ومستودع حكمتها، حيث يعالج كل شؤون المرء، وعلاقاته بالآخرين، كما يقدم له النصح، وطريقة معالجة الموقف؛ لذلك فهو جزء مهم من التراث الشعبي الذي يشكل شخصية هذا الشعب، ويعتبر الحفاظ عليه، ونقله للأجيال حفاظًا على هذه الشخصية[٤٨].

لقد تناول المثل الشعبي أكثر من مجال، سنتعرض لبعضها[٤٩]:

(أ) العلاقات الأسرية مثل:

إذا بدك تعرف تربي ابنك وتسوسه، إعرف من صديقه ومن جليسه.

يوم عرسك اذبح بسك.

(ب) معاملة الجيران مثل:

جارك إللي بدك تصاحبه، كيف تقالجه.

وإذا جارك بخير إنت بخير.

(جـ) الأمور الصحية مثل:

نام بكير واصحى بكير، وشوف الصحة كيف بتصير.

والبرد والقلة سبب كل علة.

(د) الأمور المناخية:

إذا قوست باكر، خد عصاتك وسافر، وإذا قوست عشية دور لك عمغارة دفية.

وأيلول طرفه بالمطر مبلول.

غني عن القول أن للبيئة تأثيرًا على اختلاف الأمثال الشعبية، من حيث الألفاظ والدلالات، فمن أمثال أهل المدن :

سبع صنايع في إيديْ والبين جاير عليْ.

إعطي خبز للفران حتى لو ياكل نصه.

ومن أمثال الفلاحين:

إذا أمطرت بلاد بشِّـر بلاد.

كل واحد تقطينه بيقطِّـن.

أما أهل القرى فقالوا:

لو سلم المارس من الحارس الدنيا بخير.

لولا النواطير لطرحت الكروم قناطير.

وعن البدو فقالوا:

ربيع مصر بيروح في طريقها.

اللي تربط إيده على السيف ما بيضرب.

وقال أهل الساحل:

المركب اللي فيها ريسين بتغرق.

هدية الرعنة زلف [٥٠].

كما كان هناك أمثال خاصة بالفصول الأربعة، ومواسم حصاد المحاصيل، والصيد والغلال والأرض والأودية والآبار[٥١].

تأتي الأمثال الشعبية مثلًا آخر على انعكاس أثر البيئة على المدينة المقدسة، مثل: من طين بلادك حني خدادك، والزرع البعيد عن بلدك ما ينفعك ولاينفع ولدك، وارمي الحب واتوكل على الرب، وزان بلادنا ولا قمح الصليبي، والسمن للزين والزيت للعصبين، والمر ياكل الحلو[٥٢].

عُرض المثل الشعبي بصورة مسجوعة أحيانا، مما زاد من وقعه وسهَّل حفظه، وتناقُله على غرار: الحكاية مش رمانة لكن القلوب ملانة، ومثل: الدفا عفا[٥٣].

٨- المواسم الشعبية

وهى من سمات فولكلور القدس، وتشكل تفاصيل هذه الاحتفالات مادة يكاد يستحيل حصرها[٥٤]، كما أنها موزعة، من حيث الزمن، على دورة الحياة اليومية، ودورة الحياة السنوية، ففي الدورة الأولى ثمة احتفالات تمتد من أولى لحظات الولادة وانتهاءً بالوفاة، وفي الدورة الثانية، تبدأ الاحتفالات بموسم الربيع، مرورًا بمواسم الحصاد في الصيف والخريف[٥٥].

وعن احتفالات دورة الحياة اليومية، نرى احتفالات الولادة واحتفال قص شعر البطن، واحتفال الختان، واحتفال لبس الكوفية، واحتفالات البناء، ودخول البيت الجديد، واحتفال ختم القرآن، إلى ذلك احتفالات النجاح، والحصاد، والتي تتجلى في الزواج، إلى احتفالات الاستقبال، والتوديع للمسافر، والسجين، والمريض، والدارس، وزعماء العشائر. وعن احتفالات دورة السنوية، فتتجلى في الأعياد والمواسم[٥٦].

كما يوجد جوانب مشتركة لكل أنواع الاحتفالات، والمواسم الشعبية والدينية؛ ألا وهى: الطعام والابتهاج، وتبادل الهدايا، كفرصة للتعبير العلني عن الاحتفال[٥٧].

من الاحتفالات الدينية الإسلامية احتفالات رمضان في المساجد، والمصاطب، واحتفالات عيدي الفطر، والأضحى المباركين، والحج، والمولد النبوي، والإسراء والمعراج، والاحتفالات بالسنة الهجرية، وعاشوراء، وصلاة الاستسقاء، وغير ذلك من الاحتفالات بالشعائر الدينية[٥٨]. ومن الاحتفالات المسيحية احتفالات أحد الفصح المجيد، أو نزلة البطرك، وأسبوع الآلام، وسبت النور، والجمعة العظيمة، وعيد القيامة، وستنا مريم، وعيد الغطاس، إلى ذلك الكثير من المواسم، مثل موسم النبي موسى، وخميس الأموات أو البيض، وليالي الحرومة (استقبال الراهب)، وموسم خراب عسقلان، وموسمي النبي صالح والنبي روبين، إلى موسم وادي النمل، وصخرة الحضرا، وشعائر احتفالات المزارات بالمجدل[٥٩].

وهكذا، كما رأينا، نجد أن احتفالات المواسم الشعبية، والدينية جاءت انعكاسًا لأثر البيئة الدينية، الإسلامية، والمسيحية، على فولكلور زهرة المدائن[٦٠].

بالطبع، يرتبط بالاحتفالات الشعبية، والدينية عدد من الممارسات، منها الأسواق الشعبية في القرى، وتقاليدها المتوارثة، التي تشكل ركنًا من أركان الاقتصاد الوطني المحدود، والمحاصر من العدو الصهيوني؛ لذلك بقيت هذه الأسواق باذلة ما في وسعها على نقل معالم الفولكلور الفلسطيني، حيث يتم فيها نثر عدد من المأثورات والحكاوي، والأخبار[٦١].

٩- العادات والمعتقدات الشعبية

هناك عادات شعبية ارتبطت بالمعتقدات، مثل الأحلام، ومدلولاتها الشعبية، كدلالة الضيف، عند رؤية حرامي بالحلم، ومثل: رف العين اليسرى، وما تدل عليه من رؤية أحد عزيز، ورف العين اليمنى، وما تدل عليه من التفاؤل، إلى جانب المعتقدات المرتبطة بالزمن، وارتباط الخير، والشر بالطقس، وأساطير الخلق، والتكوين، والخوارق، التي تعود إلى الكنعانيين، كعوج ابن عنق، والطوفان، وتقديم النذورة، والعمالقة، ومنهم الجرزيون، وخلق المرأة من ضلع الرجل، بالإضافة إلى المعتقدات الخاصة بالسحر والرقى، والأحجبة، والتعاويذ على المريض والمسحور، وما تنقله الجدة، والجد منه، ولقد تمسَّك الفلسطيني بالداخل والخارج بمثل تلك المعتقدات. على النقيض، فقد خفت حدة العادات المرتبطة بالقتل، والأخذ بالثأر لدى الفلسطينيين، لتمسكهم بمبادئ الثورة الفلسطينية، بالرغم من محاولات إبقاء العدو الصهيوني، وحلفائه على هذه العادات[٦٢].

أما عن عادات التغذية، فتعتبر من أكثر العادات التي تمسَّك بها الشعب الفلسطيني، حتى في البلاد المضيفة، إلى جانب عادات الأكل التي لم تتقلص إن في الداخل، أو في الخارج[٦٣].

الألعاب الشعبية

نوع آخر من عادات أهل فلسطين، وهو ممارسة الألعاب الشعبية، مثل سباق الخيل، والفرسان، وألعاب السيف، التي تقلصت، نتيجة الهجرة، وعدم توفر هدوء البال بالداخل، حتى أن بعض أصناف الخيل قد خبت، مثل: المبروكة، والكحيلة، مع بقاء أنواع أخرى، مثل كعاب، وأعتاب، ونواصي. إلى ذلك لعبة تطقيش البيض، والتبان، إلى ألعاب التسلية، ومنها الضامة والبرجيس، وألعاب البنات، إلى ألعاب سهرات العرس، وألعاب الأطفال، مثل الغماية، والذئب والغنم، الشبيرة، وطار الحمام[٦٤].

القهوة السادة

عن العادات الخاصة بالقهوة السادة، هي باقية في التجمعات، لا سيما البدو، رغم تقلصها في الأسر المبعثرة خارج التجمعات، إلى جانب عادات اقتناء أدوات البيت، والحلى الشعبية، فهي ماضية إلى الزوال بحكم تطور تلك الأدوات، وجنوحها نحو التغيير، إلا عند الفلاح الفلسطيني في الداخل، خاصة في المناطق الجبلية من الضفة الغربية لنهر الأردن[٦٥].

الطب الشعبي

تتجلى العادات والتقاليد الخاصة بالطب الشعبي في فلسطين، والتي تبدأ من الوقاية من الأمراض، وتتفرع إلى علاج الأمراض الباطنية والصدرية والحميات، والمسالك البولية، إلى جانب أمراض الأطفال، والنساء، والقلب، والأمراض الجلدية، والروماتيزمية، والعصبية، إلى ذلك ثمة فروع أخرى، تعالجها آليات الطب الشعبي، المتمثلة في الأعشاب، مثل: المرمرية، والزعتر، والسنيبر، والسماق، وغيرها من عشرات الأعشاب والحبوب، إلى الأحجبة، والخرزات الزرقاء للطفل المولود، وقطعة «ما شاء الله» الذهبية، وخرزة العين للنساء. نرى الآن الطب الشعبي يؤول إلى التلاشي في المهاجر، على النقيض، فيمثل في الداخل حجر أساس مهم للحياة الفلسطينية[٦٦].

إذا ذهبنا للعادات الوافدة من الخارج، نجد من أمثلتها أسطورة جلجامش البابلية، والأساطير اليونانية التي يلعب الإسكندر المقدوني الدور الرئيسي فيها، والسحر والمزارات[٦٧].

الزواج

هناك أيضًا عادات الزواج، أو التزويج بالمعنى الأوضح، التي تقلصت إلى حد ليس بالقليل، وعما يخص القدس، فمنذ أكثر من مائة عام تقوم عروض الزواج في الاجتماعات العائلية، حيث يستقر أهل العريس على اسم عروسة من بين أسماء بنات العائلات، ويتم التركيز على أخلاق أم العروس، وطريقة معاملتها لأهل زوجها، ثم تتدرج الخطوات المتتالية من السوقة (الموفدين لخطبة العروس)، والطلبة والخطوبة، ثم الاستعدادات للعرس، من حمام العروس، وحمام العريس، والجلوة، والحنة، والصمدة، ثم استلام العروس الذي تتبعه الصباحية، وأخيرًا السبوع، وبعض هذه العادات لا تزال باقية في الداخل والخارج، على حدٍّ سواء مثل: المهر، والشبكة، والهدايا والسوقة[٦٨].

أساطير

ثمة عادات ومعتقدات خاصة بأساطير، وأمثولات فلسطينية خاصة بالقدس وبواباتها وبيت لحم، والناصرة، والخليل وقصص الأنبياء مثل الطلسم المكتوب على لوح في مسجد القدس، والذي لا تقربه الأفاعي والحيات، وما تقربه تكون غير سامة، والرخ والطير الأسطوري الذي حط في واد من أودية القدس، حتى سلط الله عليه طيورًا جارحة كثيرة فأبادته، ونسله، وغير ذلك من مئات الأساطير عن القدس، ودياناتها ورسلها[٦٩].

إلى عادات وتقاليد خاصة بالعائلة الفلسطينية، فالأب يسمى «جمل العيلة»، وهو الشخصية الرئيسية فيها، وبوجوده تتماسك العائلة، وتتوزع المهمات فيها، بالإضافة إلى الأخت، وما لها من حقوق كثيرة على أخيها، حتى بعد

زواجها، إلى جانب ابن الابن (الحفيد) الذي تفوق منزلته منزلة ابن البنت عند أهلها، إلى ذلك حق ابن العم الذي لا يناقش في أولوية الزواج من ابنة عمه[٧٠].

إلى كل ما سبق ثمة عادات الاسم، والتسمية للمواليد، حيث تسمي الأم ابنتها الأولى باسم أمها، ويسمي الأب ابنه الأول باسم أبيه، ويحمل أواخر الأسماء اسم حمائل أو عشائر، أو عائلات، ربما يعود أصلها إلى أيام الموجة العربية الإسلامية الأولى، التي خرجت من شبه الجزيرة العربية. كما أنه لا غنى عن الكنية في المجتمع الفلسطيني، في الداخل أو الخارج، فقد جرت العادة على ألا يخاطب الناس بعضهم بالأسماء المجردة، بل بكنية «يا أبا فلان»، أو «يا أم فلان» حتى من يتقدم به السن ولم يتزوج، فيناديه الناس «يا أبا (اسم أبيه)»، تيمنًا بأن يرزقه الله ولدًا، يحمل اسم أبيه[٧١].

لقد كان للأصل والنسب أهمية خاصة لدى الناس، حيث اعتنى الناس بأنسابهم وأصولهم، ونقلوها للأبناء، والأحفاد، فالعادات الخاصة بالأصل والنسب تحمل في طياتها العديد من الامتيازات المادية والمعنوية تتعلق بأمور كثيرة، منها المصاهرة[٧٢].

١٠ - الأكلات الشعبية

يعتمد الأكل الفلسطيني أساسًا على الفريكهة ـ سنابل مشوية ومطحونة ـ والتي ترجع إلى الكنعانيين، والخبز، ومن أشهر الأكلات الفلسطينية المنسف، الفتة، المسخَّن، الخروف، المحشي الملفوف، والكرشات، والمجدَّرة الصواني القدرة، والسمبوسك، أو الصفيحة. ومن الحلويات المسفن، العوامة، الزلابية، الزنجل، المعمول، الرز بالحليب، الهيطلية، البسيسة، أقراص الحلبة، النمورة، حلاوة السميد، والكنافة، والقطايف. في القدس بالذات نجد أن أشهر الأكلات هي شتى أنواع المحاشي[٧٣].

من الأمثلة على محاولات النهب والتزييف للتراث الفلسطيني من قبل الصهاينة محاولة نسب بعض المأكولات الشعبية لإسرائيل كتراث، مثل أكلة الفلافل التي اشتهر بها الشعب الفلسطيني[٧٤].

١١ - الزي الشعبي (الملابس الشعبية)

لقد نقش على مقابر في طيبة، وفي أماكن أخرى عدد من الرسوم الأثرية الموثقة لأحقية الشعب العربي الفلسطيني لأرضه، وتراثه، وتعتبر بمثابة وثائق تاريخية، ومستندات مؤثرة للشعب الفلسطيني في مفاوضاته مع العدو الصهيوني، ومن هذه الرسوم ما يخص الزي الكنعاني وما يحتويه من تفاصيل مثل المدماية، الخلق أو الهدم، الشملة، العباءة والسروال والعقال [٧٥].

من أزياء المرأة الفلسطينية التراثية الثوب، الشداد، أو الحزام، الوقاة، أو الصمادة، غطاء الرأس، الحذاء، إلى جانب أزياء الرجال، التي تتلخص في القمباز، السروال، الطاقية، العقال، الحطة، الحزام، المعطف، والعباءة[٧٦].

لقد توارث الشعب الفلسطيني صناعة الغزل والنسيج، والصباغة منذ آلاف السنين، حيث اشتهر بها الكنعانيون، وكان لهم أدواتهم الخاصة مثل «الثقالات» التي صنعت من الصلصال، كآلية تساعد النسَّاج للتعامل مع منسوجاته يدويًا. تم اختيارها من الفخار، كخامة لا تتأثر بتغير الأجواء[٧٧].

لقد عرفت المرأة الفلسطينية أجمل أنواع الغزل، عن طريق أصابع قدميها، وزادت فنقشتها بوحدات تطريزية مقتبسة من الطبيعة، مثل عرق القلوب. أو حبات اللوز، وعرق سعف النخيل، والقواوير، كرموز للحياة الاجتماعية الفلسطينية، وتعبيرًا عن البيئة المحيطة بهم مع تطعيم كل هذا الجهد بالمزيد من الحس الفني الدقيق، بين الشكل، والأرضية، والاتزان بينهما. من أنواع التطريز الفلسطيني: الغرزة الفلاحية (التصليبية)، غرزة التحريري، غرزة المد، إلى ذلك، قطبة الحاشية أو الحافة، كما اشتهرت كل قرية أو مدينة بثوبٍ مختلفٍ من حيث الألوان، أو النقلات (أشكال التطريز)، ومن أمثلة اللباس الشعبي للمرأة الفلسطينية الثوب الحريّمي التلحمي (نسبة إلى بيت لحم) وديار بيت المقدس. الذي اتسم بالذوق العالي، وعظمة الكلفة، حيث كان مليئًا بالتطريز المقصب، يصاحبه على رأس المرأة ما سمي بالشِّطوة. لقد تطورت أشكال التطريز الفلسطيني لتعبر عن الواقع الاجتماعي النضالي، بعد صدور قرار التقسيم (١٩٤٧)، حيث كانت الأرض الفلسطينية تعيش بركانًا من الغضب والثورة، فتحولت الزهرة كوحدة زخرفية إلى القنبلة، والورقة الخضراء سكينة، والحسون خنجرًا[٧٨].

١٢-الصناعات الشعبية

هناك تقصير غير مقصود، يتعلق بتدوين عادات بعض القرى، والمدن الفلسطينية، المتعلق بأدوات العمل، والأدوات الحرفية. مرده عدم توفر المصادر الحية، التي تكون المرجع الوحيد لاستقاء مثل هذه المعلومات. رغم توفر القليل من المعلومات عن بعض الصناعات والأدوات الفلسطينية القديمة، ومنها أشكال الزجاج المختلفة والملونة، والمشغولات من النحاس، والخوص والأباريق المعدنية، والآنية من خشب الزيتون، الذي تشتهر به مدينة القدس، فيتم نحته وحفره وصناعة أشكال مختلفة منه، مثل الصلبان، والتماثيل، والحلي، والعلب، إلى ذلك صناعات الخزف والفخار، الذي اشتهر به الإنسان الفلسطيني بشكلٍ عام، وصناعة الصدف السياحي الذي اشتهر به أهالي بيت لحم والقدس[٧٩].

* * *

هوامش الفصل السابع:

(١) محمد أديب العامري، **القدس العربية، الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية**، ط٢، عمان، دار الطباعة والنشر، ١٩٧١، ص ١٦.

(٢) فؤاد إبراهيم عباس، **موسوعة بيت المقدس**، الجزء السابع، حرف الباء، بيت المقدس في التراث الإسلامي والعالمي(١)، ط١، القاهرة، دار المنار للطباعة، ٢٠٠٠، ص ١٣.

(٣) فؤاد عباس، **مدخل إلى الفولكلور الفلسطيني**، ط١، القاهرة، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، بالتعاون مع دار الموقف العربي للصحافة والنشر، ص ٥ ، ٦.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٤.

(٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عباس، مدخل ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤ ، ٢٥ .
- د. شريف كناعنة، **من نسي قديمه تاه**... !، دراسات في التراث الشعبي والهولة الفلسطينية، ط١، عكا، مؤسسة الأسوار، تموز/ يوليو ٢٠٠٠، ص ١٥، ٦١ -٩٢.

(٦) عباس، مدخل ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

(٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- فوزي انعنتيل، **الفولكلور ما هو** ...؟، سلسلة «مكتبة الدراسات الشعبية»(٣٨)، ط ٢، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مايو ١٩٩٩، ص ٤٦، ٤٨ -٥٩.
- عباس، موسوعة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦.

(٨) نمر سرحان، **موسوعة الفولكلور الفلسطيني**، الطبعة الكاملة من الألف إلى الياء، الجزء الأول، ط٢، عمان، مطابع الأسوار التجارية، ص ٥٤.

(٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥.
- معلومات، **القدس بين الأسرلة والتهويد**، العدد ٤١، بيروت، المركز العربي للمعلومات، نيسان/ أبريل ٢٠٠٧، ص ١٥.
- د. محمد حلاء إدريس، **أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي**، ط١، القاهرة، مركز الإعلام العربي، سلسلة «كتاب القدس» نيسان / أبريل ٢٠٠١، ص ١٤-٢٨.

(١٠) العامري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

(١١) فؤاد إبراهيم عباس، **الموروث الشعبي الفلسطيني في ثورة ٣٦/ ٣٩**، سلسلة أوراق فلسطينية(٨٩)، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ص١٠ ، ١١.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٥.

(١٣) يسري جوهرية عرنيطة، **الفنون الشعبية في فلسطين**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، سلسلة «كتب فلسطينية» (١٤)، أيلول/ سبتمبر ١٩٦٨، ص ٣٣، ٣٤.

obeikan.com

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٤.

(١٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عباس، مدخل ... ، **مصدر سبق ذكره ص ٩، ١٠**

ـ موقع نت، تراث القدس، بريد الطالب البيئي، دور اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم في الحفاظ على مواقع التراث الثقافي والطبيعي في فلسطين.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١٧) د. حسني محمود، سلسلة الدراسات (٥٤)، **شعر المقاومة الفلسطيني دوره وواقعه، شعر العامية الفلسطيني المقاوم ١٩١٧، ١٩٦٧**، الجزء الرابع، عمان الزرقاء، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينية، ص ٣، ٤.

(١٨) عباس، الموروث ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦ .

(١٩) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠ - ٥٤ .

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٠، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص٤٢.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ١٧ .

(٢٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ **المصدر نفسه**، ص ١١.

ـ عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦ .

(٢٤) عباس، مدخل ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣ .

ـ عباس، الموروث ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩.

(٢٦) عباس، مدخل إلى ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦ ، ٣٧.

(٢٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ **المصدر نفسه**، ص ٦.

ـ سرحان، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨ ، ٦٦ .

(٢٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ **المصدر نفسه**، ص ٣٢ - ٣٤، ١٣.

ـ عباس، الموروث ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٠ - ٤٢.

(٢٩) عرنيطة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٤٠ -٤٢.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٤٥ - ٦١.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص ١٥.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٨.

obeikan.com

(٣٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣ .

ـ عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦ ، ٦٧.

(٣٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

ـ عباس، مدخل .... ، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٣.

ـ عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦ ، ٦٧.

(٣٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٦) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٧) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤.

(٣٨) توفيق زياد، **عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين**، بيروت، دار العودة، ١٩٧٠، ص ٥- ٧.

(٣٩) عباس، مدخل .... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣ ، ٤٤.

(٤٠) زياد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨.

(٤١) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١ .

(٤٢) عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠.

(٤٣) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١ .

(٤٤) عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠.

(٤٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٣ .

ـ عباس، الموروث ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥.

(٤٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عباس، مدخل ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩.

ـ عباس، الموروث ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥.

(٤٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢ .

ـ عباس، الموروث ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩ -٥٣، ٥٤.

(٤٨) محمد العبد المصري، **الأمثال الشعبية الفلسطينية**، الإسكندرية، منشأة المعارف، ٢٠٠٨، ص ٦، ٨.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٦.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٧ ، ٨.

(٥١) سليم عرفات المبيِّض، **الجغرافيا الفولكلورية للأمثال الشعبية الفلسطينية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٢١، ٨٥، ١١٥، ١٢١، ١٤٠، ١٦٧ - ١٧١، ١٧٥، ١٩٩، ٢٦١.

(٥٢) عباس، موسوعة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩، ٢٠.

obeikan.com

(٥٣) المبيِّض، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥.

(٥٤) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧، ٢٣.

(٥٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧.

(٥٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.

(٥٧) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٥٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عباس، مدخل .... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨ - ٨٢.
- عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

- عباس، مدخل ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨ -٨٢، ١٢٣ - ١٤٤.
- عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦١ - ١٨٦.
- سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢.
- عباس، موسوعة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨.

(٦٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص ١٩.
- **المصدر نفسه**، ص ٢٩.

(٦١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

- عباس، موسوعة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧ .
- عباس، مدخل .... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ .

(٦٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

- **المصدر نفسه**، ص ١٠٨ ، ١٠٩.
- عباس، مدخل ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨ ، ٤٩، ١٠٨ - ١١٤.

(٦٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٦ ، ٤٧.

(٦٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٦ ، ٤٧.

(٦٥) **المصدر نفسه**، ص ٤٧.

(٦٦) **المصدر نفسه**، ص ١١٤ ، ١١٦.

(٦٧) **المصدر نفسه**، ص ٤٨ ، ٩٤ - ١٠٤.

(٦٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩ - ١٣٩ .
- عباس، مدخل ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧ ، ٨٩ - ٩٤.

obeikan.com

(٦٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ **المصدر نفسه**، ص ٤٨.

ـ سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٧٠) **المصدر نفسه**، ص ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٣.

(٧١) **المصدر نفسه**، ص ٣٥ ، ٣٩.

(٧٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٠.

(٧٣) عباس، مدخل ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٤ – ٨٩.

(٧٤) **المصدر نفسه**، ص ٥، ٦.

(٧٥) **كتاب الاتحاد**، ص ١٠.

(٧٦) الفن الشعبي الفلسطيني، **مصدر سبق ذكره**، ليس للكتاب أرقام صفحات.

(٧٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ كتاب الاتحاد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١.

ـ الفن الشعبي الفلسطيني، **مصدر سبق ذكره**، ليس للكتاب أرقام صفحات.

(٧٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى :

ـ كتاب الاتحاد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠ ، ١٢ – ١٥ ، ٢٣.

ـ الفن الشعبي الفلسطيني، **مصدر سبق ذكره**، ليس للكتاب أرقام صفحات .

ـ عباس ، مدخل ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤.

(٧٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ عرنيطة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧ ، ١٨ .

ـ كتاب الاتحاد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

ـ الفن الشعبي الفلسطيني، **مصدر سبق ذكره**، ليس للكتاب أرقام صفحات.

ـ عباس، موسوعة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧.

obeikan.com

الباب الثانى

المنارات الدينية



obeikan.com

الفصـل الأول

القدس وعقائد ثلاث

محمود أحمد محمد إبراهيم

من بين كل مشاكل العالم، تشكل قضية القدس المفصل الأعظم، عاطفة وتفجرًا، فهي لا تشابه القضايا الأخرى في الصراع العربي – الإسرائيلي، حيث تتجاوز أهميتها ومداها الوطن العربي وشعوبه، فمدينة القدس فريدة من بين كل مدن العالم لارتباطها بالشرائع السماوية الثلاث، وهي الموروث الروحي والديني لنصف الجنس البشري.

لا تكمن أهمية القدس في الأماكن المقدسة: المساجد، والكنائس، والمعابد، فحسب، وإنما أيضًا، لأصحاب الشرائع السماوية مصالح حيوية في الحفاظ على الوجود الحي لورثة معتقداتهم في المدينة المقدسة[١].

اكتسبت القدس، عبر تاريخها، أهمية دينية وحضارية، وروحية فريدة، بحكم صلة الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلامية بها، وبحكم علاقاتها بنشوء هذه الأديان وتاريخها، حتى أصبحت تضم العشرات من الأماكن التي يقدسها أتباع الديانات الثلاث[٢].

شكلت القدس، دائمًا وعبر التاريخ، بؤرة صراع بين الديانات السماوية الثلاث، ولم يحسم هذا الصراع إلى يومنا هذا، فانتصار المسلمين في ظل الدولة الأيوبية، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، على الصليبيين، في عام ١١٨٧، وضع القدس تحت السيادة الإسلامية، إلى حدود عام ١٩١٧، وهو التاريخ الذي تزامن مع نجاح زعماء الصهيونية في الحصول على «وعد بلفور»، القاضي بإنشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين[٣].

من هنا، تناقش الدراسة أطروحة أو مفهوم أهمية القدس لدى أصحاب الشرائع السماوية الثلاث.

أولًا : القدس في اعتقاد المسلمين

القدس في الاعتقاد الإسلامي لها مكانة دينية مرموقة، اتفق على ذلك المسلمون، بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، فهو إجماع الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها، ولا غرو أن يلتزم جميع المسلمين بوجوب الدفاع عن القدس، والغيرة عليها، والذود عن حماها، وحرماتها، ومقدساتها، وبذل النفس والنفيس في سبيل حمايتها، ورد المعتدين عليها. وقد اختلف المسلمون، والعرب، ومنهم الفلسطينيون، في الموقف من قضية السلام مع إسرائيل: هل يجوز أو لا يجوز؟ وإن جاز؛ فهل ينجح أو لا ينجح؟ ولكنهم جميعًا ـ مسلمين وعربًا ـ لم يختلفوا حول عروبة القدس، وإسلاميتها، وضرورة بقائها عربية ـ إسلامية، وفرضية مقاومة المحاولات الإسرائيلية المستميتة لتهويدها، وتغيير معالمها، ومسخ شخصيتها التاريخية، ومحو مظاهر العروبة والإسلام والمسيحية منها. فللقدس قدسية إسلامية، وهي تمثل في حس المسلمين ووعيهم الإسلامي: القبلة الأولى، وأرض الإسراء والمعراج، وثالثة المدن المعظمة، وأرض النبوات والبركات، وأرض الرباط والجهاد[٤].

يصدر التعلق الروحي للمسلمين بالقدس عن دمجه العميق للمثلث المؤلف من مكة المكرمة، والمدينة المنوَّرة، وبيت المقدس، داخل جغرافية الإسلام الروحية، المنجذبة بقوة نحو البيت العتيق، البيت الحرام، الذي يشير المعتقد الإسلامي إلى أن سيدنا إبراهيم، أبا الأنبياء، قد بناه، ومعه ابنه إسماعيل، والأساس في هذا التصور أن المسجد الحرام يتبادل الموقع المركزي مع القدس (المسجد الأقصى)، في وحدة عضوية ما بين تكويناتها الثلاثة، إذ إن هناك في المتخيل الإسلامي وحدة عميقة بين أطراف الجغرافية المقدسة الإسلامية، وهو ما عبر عنه ماسينيون بقوله: «ما من مسلم مؤمن يقبل التنازل عن الخليل، ولا عن القدس خصوصًا، وهي ثالث الحرمين بين مكة والمدينة»[٥].

هذا يعكس التصور الإسلامي لوحدة الأصل الإبراهيمي في الأديان السماوية الثلاثة، ولعل الاعتقاد الراسخ بتلك المنظومة الجغرافية المقدسة، هو ما دفع المسلمين إلى أن يجعلوا جميع الأماكن والأبنية المقدسة في العالم الإسلامي تحاكيها رمزيًا. وقد تجلت تلك الوحدة بين مكة (المسجد الحرام)، والمدينة المنوَّرة (المسجد النبوي)، والقدس (المسجد الأقصى)، في الكثير من المعاني والرموز التي أسبغها المسلمون على تلك الأماكن المبجلة.

لعل الإسراء والمعراج أول تجسيد لوحدة تلك المنظومة الجغرافية، فكانت استعادة لرحلة النبي إبراهيم الخليل إلى الكعبة (مكة)، ومنها إلى الخليل، حيث كانت رحلة سيدنا إبراهيم إسراءً أرضيًا، سبقت رحلة «إسراء» سيدنا محمد ﷺ روحيًا من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه عُرج به إلى السماء، وليتمم بذلك قوس القدسية لرحلة جدّه إبراهيم، من الأقصى إلى البيت الحرام، برحلته المعاكسة من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة[٦].

المدينة المعظَّمة

القدس ثالثة المدن المعظَّمة في الإسلام. فالمدينة الأولى في الإسلام هي مكة المكرمة، التي شرفها الله بالمسجد الحرام. والمدينة الثانية في الإسلام هي طيبة، أو المدينة المنوَّرة، التي شرفها الله بالمسجد النبوي، والتي ضمت قبر الرسول ﷺ. والمدينة الثالثة في الإسلام هي القدس أو بيت المقدس، والتي شرفها الله بالمسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله، وفي هذا صح الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا». صدق رسول الله ﷺ.

فالمساجد كلها متساوية في مثوبة من صلى فيها، ولا يجوز للمسلم أن يشد رحاله، بمعنى أن يعزم على السفر والارتحال للصلاة في أي مسجد كان، إلا للصلاة في هذه الثلاثة المتميزة. وقد جاء الحديث بصيغة الحصر، فلا يقاس عليها غيرها.

أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى، وبركته، قبل بناء المسجد النبوي، وقبل الهجرة بسنوات، وقد جاءت الأحاديث النبوية تؤكد ما قرره القرآن، منها الحديث المذكور، وحديث آخر معناه أن: الصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة في غيره من المساجد، ما عدا المسجد الحرام، والمسجد النبوي (متفق عليه). ومنها، ما رواه أبو ذر، أن النبي ﷺ سئل: أي المساجد بُني في الأرض أولًا؟ قال: «المسجد الحرام»، قيل ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» صدق رسول الله ﷺ. والإسلام حين جعل المسجد الأقصى ثالث المسجدين العظيمين في الإسلام، وبالتالي أضاف القدس إلى المدينتين الإسلاميتين المعظمتين: مكة والمدينة، إنما أراد بذلك أن يقرر مبدأً مهمًا مبادئه، وهو أنه جاء ليبني، لا ليهدم، وليتمم، لا ليحطم، فالقدس كانت أرض النبوات، والمسلمون أولى الناس بأنبياء الله ورسله[٧].

بركة أرض بيت المقدس

ترجع بركة أرض بيت المقدس إلى كون هذه الأرض مبعث كثير من الأنبياء، كداود، وسليمان، وعيسى (عليهم السلام)، وهي مهبط الملائكة، لقوله ﷺ: «يا طوبى للشام، يا طوبى للشام». قالوا: «يا رسول الله وبم ذلك؟» قال: «تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام». رواه الترمذي، وأحمد، والحاكم.

يرقد في فلسطين كثير من الأنبياء، منهم أبو الأنبياء إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وقبره معروف في مدينة الخليل، وقد أوصى بعض الأنبياء بأن يُدفن فيها، وبعضهم طلب من الله أن يدفن في أرض قريبة منها، قال النووي:

«وأما سؤاله ـ أي موسى (عليه السلام) ـ الإدناء من الأرض المقدسة، فلشرفها، وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم»، ولكونها أرض المحشر والمنشر. روى الإمام أحمد، بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: «يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس». فقال: «أرض المحشر والمنشر»، وهي كذلك أرض الحساب، ووضع الموازين للناس. قال أبو عبد الله المنهاجي: وتوضع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس، وينفخ إسرافيل في الصور ببيت المقدس، ويتفرق الناس من بيت المقدس إلى الجنة والنار». وقال ابن الجوزي: قال كعب: «العَرْض والحساب ببيت المقدس»[٨].

القدس جزء من أرض فلسطين، بل هي غرَّة جبينها، وواسطة عقدها، ولقد وصف الله هذه الأرض بالبركة، في خمسة مواضع في كتابه:

أولها: في آية الإسراء، حين وصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء:١).

ثانيها: حين تحدث في قصة خليله إبراهيم، فقال (سبحانه وتعالى) ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء : ٧١).

ثالثها: في قصة موسى (عليه السلام)، حيث قال عن بني إسرائيل، بعد إغراق فرعون وجنوده (قال تعالى):

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (الأعراف: ١٣٧).

رابعها: في قصة سليمان، وما سخّر الله له من ملك، لا ينبغي لأحد من بعده، ومنه تسخير الريح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأنبياء: ٨١).

خامس ها: في قصة سبأ، وكيف منّ الله عليهم بالأمن والرغد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨).

فهذه القرى التي بارك الله فيها هي قرى الشام، وفلسطين. قال المفسر الآلوسي: «المراد بالقرى التي بورك فيها: قرى الشام، لكثرة أشجارها، وثمارها، والتوسعة على أهلها». وعن ابن عباس: «هي قرى بيت المقدس». وقال ابن عطية: «إن إجماع المفسرين عليه».

ذهب عدد من مفسري القرآن، من علماء السلف والخلف، في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: ١-٣)، إلى أن التين والزيتون يقصد بهما الأرض أو البلدة التي تنبت التين والزيتون، وهي بيت المقدس[٩].

من هنا تنبع أهمية القدس لدى المسلمين، ولكن هذا لا يدعنا نغفل حقيقة مهمة، هي كل المحاولات المعاصرة التي نراها أمامنا، والتي تمتد في أيدي المسلمين، لتصافح اليهود، وتعقد معهم اتفاقات، وتطبّع العلاقات ليشتري المسلمون من وراء ذلك رضا اليهود. الذين، إذا غضبوا، غضب العالم لغضبهم، وإذا حاربوا وقف الغرب والشرق معهم، وإذا هزموا في معركة، سارع الجميع لنجدتهم، وبالرغم من ذلك، وبالرغم من التخاذل العربي الإسلامي، وبالرغم من تمييع القضية، فإن طائفة من المسلمين سوف تقوم بالمهمة، وسيتحقق النصر النهائي على أيديهم، إن شاء الله، وسيعقب الانتصار إقامة الخلافة في القدس، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي حواله الأزدي (رضي الله عنه) قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي، أو على هامتي، ثم قال: يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل، والبلايا، والأمور العظام، والساعة، يومئذ، أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك» (صححه الحاكم ووافقه الذهبي)[١٠].

ثانيا : القدس في المعتقد المسيحي

القدس مكان المسيحية، على وجه التقريب، فإن كل الأماكن والمعابد المقدسة المتصلة بحياة وميلاد وموت المسيح توجد في القدس، وفي بيت لحم المجاورة القبر المقدس، طريق الآلام، كنيسة المهد، حديقة الجثمانية، جبل الزيتون، وثمان وثلاثون كنيسة أخرى [١١].

إن مدينة أورشليم، أو القدس، تتمتع بموقع ديني متميّز عند المسيحيين عمومًا؛ ولذلك فهي في ضمير كل مسيحي، حيث كان، وقد جاءت التشريعات منذ مجمع نيقة (عام ٣٢٥ م) تؤكد على أهمية المدينة، وعلى موقع كنيسة أورشليم، ورئيسها بالنسبة لباقي الكنائس. ففي القانون ٧، من مجموع الشرع الكنسي، أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة جاء ما يلي: «ليكرم أسقف إيليه (أورشليم)، دون أن تمس حقوق المتروبوليت». لا غرابة في أن

المدينة المقدسة يليق لها أن تتمتع بمركز خاص ممتاز بين الكنائس المسيحية. ويظهر أن من الغرابة بمكان أن تكون هذه المدينة، في العصور الأولى، كرسيًّا تابعًا لكنيسة قيصرية. ومن المحتمل أنه، نحو نهاية القرن الثاني، أخذت فكرة قداسة المكان تضفي على صاحب الكرسي في المدينة المقدسة أنها هي التي حملت آباء مجمع نيقة على سن هذا القانون[١٢].

القدس تميّز، لارتباط ثراها بنشأة، وحياة، ومدفن مريم والمسيح (عليهما السلام). وقد ذكر القاضي محيي الدين الحنبلي عن هذا الأمر ما يلي:

«أوتيت مريم (عليها السلام) فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، في بيت المقدس؟ وماتت مريم (عليها السلام) في بيت المقدس. وولد عيسي (عليه السلام) وتكلم في المهد في بيت المقدس، وأنزلت عليه المائدة في أرض بيت المقدس. ورفعه الله إلى السماء من بيت المقدس» [١٣].

كما أورد «العهد الجديد» نصوصًا تتحدث عن معجزات للسيد المسيح (عليه السلام)، حصلت في القدس، منها ما يلي:

«وبعد هذا كان عيد اليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم. وأن في أورشليم عند باب الغنم بركة تسمى بالعبرانية بيت جسدا، لها خمسة أروقة. وكان مضطجعًا هناك جمهور كثير من المرضى من عميان، وعُرج، ويابسي الأعضاء، ينتظرون تحريك الماء. وكان ملاك الرب ينزل، أحيانًا، في البركة ويحرك الماء، فالذي كان ينزل، أولًا، وبعد تمويج الماء كان يبرأ من كل مرض مسه».

عند عين سلوان في القدس معجزة كذلك. قال هذا وتفل على التراب وصنع من تفلته طينًاوطلس بالطين عيني الأعمى، وقال له: اذهب واغتسل في بركة سلوان الذي تفسيره المرسل، فمضى، واغتسل، وعاد بصيرا [١٤].

المسيح (عليه السلام) الذي جاء يصحح ما أفسده يهود، دخل بيتًا لهم في القدس، ليطهّره من رجسهم، ورذائلهم، هذا ما ورد في إنجيل لوقا: «وجاء إلى أورشليم، فدخل الهيكل، وجعل يخرج الذين يبيعون ويشترون في الهيكل. وقلب موائد الصيارفة، وكراسي باعة الحمام. ولم يدع أحدًا ينقل متاعًا في الهيكل. وكان يعلمهم، قائلًا أليس مكتوبا أن بيتي، بيت صلاة، يدعى لجميع الأمم، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص» [١٥].

في القدس، وفي المكان الذي شهد رفع السيد المسيح (عليه السلام)، أقيمت كنيسة القيامة، التي تم بناؤها من قبل هيلانة، أم قسطنطين الثاني، بعد أن اعتنق المسيحية. والكنيسة أقيمت على أنقاض المعابد الوثنية، التي كان قد بناها الرومان، وقد استغرق بناؤها حوالي عشر سنوات، وقد تم تدشينها في الثالث عشر من سنة ٣٣٥م ، وبعدها باتت مقدسًا لكل حاج مسيحي إلى بيت المقدس [١٦].

موقف الفاتيكان من القضية

لم يكن مستَغْربًا أنَّه في الوَقت الذي يحيا فيه الشَّعب الفلسطيني الذِّكرَى الستِّينَ لِنَكبَتِه واغتصاب أرضه على أيدِي عصابات القَتل والإرهاب الصّهْيَوْنِيَّة، التي ارتكبت بحقِّه المجازِرَ والمَذَابِح ـ أن يُعرِب بابا الفاتيكان، بنديكت

السَّادس عشر، عن أمنياتِه الصَّادقة بمناسبة «الذكرى الستِّينَ لإقامة دولة إسرائيل»، «شاكرًا الرَّبَّ لامتِلاك اليهودِ أرضَ أجدادِهم»..!

خَطيئة الشَّعب الَّذي رفَض المسيح

كانت الكنيسة تنظر لليَهوديَّة، على مَدار القرون الماضيَة، على أنَّها دين الماضي، فهي لم تعد شَريعَة سارية، بعد أن نسخها «العَهدُ الجديد»، كما اتَّهَمَت الكنيسةُ اليهودَ بأنَّهم قَتَلَة المسيح، وهو ما جعل الأرض ممهَّدة لكراهية اليهود.

فقد أصدر البابا، غريغوري الثالث عشر، عام ١٥٨١م، حُكمًا بإدانة اليهود، نصَّ على «أنَّ خطيئةَ الشعب، الذي رَفَض المسيحَ، وعَذَّبه، تزداد، جيلًا بعد جيل، وتحكم على كل فرد من أفراده بالعبوديَّة الدَّائمة». وسار على هذه السياسة الباباوات، من بعده؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يعمل اليهودُ على استهداف الكنيسة الكاثوليكية، والسَّعي إلى تقويض نفوذِها في فرنسا، تمهيدًا للانقضاض على الحصن الكاثوليكي في روما بالذَّات.

استمرَّ هذا المفهوم، مع نشأة الكِيان الصّهيوني؛ فقد رفض الفاتيكان الدعوات البروتستانتيَّة التي تقول إن «على كل مسيحي أن يَهتَمَّ بإعادة اليهود إلى أرضهم في فلسطين، والتي هي أرض آبائهم وأجدادِهم».

حدثت مواجهة بين الحركة الصهيونيَّة والبابويَّة، مُمَثَّلة بالبابا «بيوس العاشر»، الذي رفض الموافقة على المشروع اليهوديِّ ـ الصّهْيوني، في جعل القدس مركزًا لدولة يهوديَّة، وأكَّد على البيان الذي كان أصدَرَه الفاتيكان، عند انعقاد مؤتمر «بازل»، في سويسرا، وأوضح فيه أن «جعل القدس مركزًا لدولة يهوديَّة يتعارض مع نبوءات المسيح نفسِه». كما أنه أكَّد ـ أثناء لقائه مع هرتزل، في اللِّقاء الذي حدَث بينهما (سنة ١٩٠٤) ـ على مواقف الكنيسة الكاثوليكية من الحركة الصِّهْيونِيَّة، وذلك بقوله: «لا أستطيع، أبدًا، أن أتعاطف مع هذه الحركة الصّهْيونِيَّة؛ فنحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التَّوجه إلى القدس؛ ولكن لا يمكننا، أبدًا، أن نقرَّه، إنني بصفتي قيِّمًا على الكنيسة، لا أستطيع أن أجيبَك في شكل آخَر، لم يعتَرِف اليهود بسيِّدنا، ولذَلك لا نستطيع أن نعترف بالشَّعب اليهوديِّ»، وتاليًا: «فإذا جئتم إلى فِلَسْطين، وأقام شعبُكم هناك، فإننا سنكون مستعدِّين، كنائس ورُهبانًا، لتَعميدِكم جميعًا».

في هذا اللقاء، قال هرتزل: «إنَّ النكبات والاضطهادات لم تكن ـ في اعتقادي ـ خيرَ وسيلة لإقناع قومي بما يكرهون». فردَّ البابا: «إن سيدنا يسوع المسيح أتى إلى هذا العالم ولا قوَّة له ولا سِلاح؟ وهو لم يضطهد أحدًا، وإنما هو الذي تعرَّض للاضطهاد، وتخلَّى عنه الناس».

إذا كان هذا المقطع من كلام البابا بيوس العاشر يمثِّل ردًّا على ادعاءات هرتزل، فإنَّ البابا قد أوضَح، في مقطع آخر من الحديث نفسه، المعتقد المسيحي، وموقف الكنيسة من اليهود، ما نصه: «أمَّا أن يَظلَّ اليهود محتفِظين بمعتقَدِهم، ينتظرون مجيء المسيح، والمسيحُ عندنا قد جاء، وتَمَّت بعثته للبشر، في هذه الحالة نعتبر اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح، ولا مجال هنا لمساعدتهم، لا في فلسطين ولا في غيرها، وهذا هو الوجه الأوَّل والآخر أن يذهبوا إلى فلسطين شعبًا بلا دينٍ، بالإطلاق، وفي هذه الحالة نَجد أنفسَنا في مجال أضيق، وغير مستعدِّين لمؤازَرَتِهم».

وثيقة «١٩٨٥» تمهد لتطبيع العلاقات

هَكذا ظلَّت العلاقات متوتِّرة بين الفاتيكان و«إسرائيل»، منذ الحقبة النازية حتى حلول عام ١٩٩٤، عندما أقيمَت علاقات دبلوماسيَّة بين البلدين، والذي سبق بإصدار البابا، يوحنا بولس الثاني، ما عرف «بوثيقة ١٩٨٥».

تقول الوثيقة ـ وفقًا لكتاب «التاريخ اليهودي العام» لصابر طعيمة: «لا يتوقَّف الأمر فقط على استئصال رواسب العداء للسامية، هذا العداء الذي ما زال قائمًا، إلى الآن، في نفوس المسيحيِّين الكاثوليك؛ بل أن يضمن لهم، من خلال مجهود تربويٍّ، فهمًا صحيحًا للعلاقات الفريدة التي تربطنا بها كنيستنا بالعبرانيين والعبريَّة». ترد في الوثيقة: إنَّهم «يرثون للجهل المحزن لتاريخ وتقاليد اليهودية، هذه التقاليد التي تظهر فقط الأوجه السلبية منها، والتي كثيرًا ما تكون مضحكة، هي وحدها التي تظهر في الفهم العادي الشائع عند الكثيرين من المسيحيين». وتشفع الوثيقة لليهود، فتقول: «إنه لا يجوز أن يحسب شأن اليهود اليوم؛ كشأن الذين عرفوا المسيح ولم يؤمنوا به». تستطرد: «إن المسيح كان عبرانيًّا، وسيكون كذلك دائمًا» ! وتدعو كاثوليك العالم «ليفهموا تمسُّك اليهود الدِّيني بأرض أسلافِهم» ! وتصل الوثيقة ذروة هدفها، بالقول: «إن الشَّعبَين: المسيحي، واليهودي، على الرغم من أنَّهما ينطلِقان من وجهات نظر مختلفَة، غير أنهما يتجهان نحو أهداف متماثلة، تركِّز على مجيء المسيح أو عودة المسيح» ! وتختم الوثيقة: «إنَّه من الضَّروري أن نتقدَّم لحمل مسؤوليَّة تهيئة العالم لذلك لحضور المنقِذ». إلاَّ أنَّ الفاتيكان أصرَّ على رأيه بأن سيطرة اليهود على القدس أمر غير أخلاقيٍّ وغير قانونيٍّ، وهو الموقف الذي يصعب التخلِّي عنه في ظل رعاية الفاتيكان للمسيحيين العرب هناك.

مُواساة اليهود وتبرئتهم

لكنَّ البابا، يوحنا بولس الثاني، وفي خطوة تاريخيَّة لم يكن يحلم بها اليهود، اعترف عام ٢٠٠٠ بذنب الكنيسة تجاه معتنِقي الديانة اليهوديَّة في العالم، وطلب صفحهم عن كل ما حاقَ بهم من آلام، على مدار القرون الماضية، لكنَّه لم يُحمِّل الباباوات السابقين مسؤولية توسيع رقعة الفكر النازي، والهولوكست، ومعاداة السامية. وفي أغسطس/ آب ٢٠٠٥، أثبت البابا بنديكت السادس عشر، أنه يسير على خطى سلفِه في التَّقرُّب من اليهود، حيث دخل، للمرَّة الأولى في تاريخ البابوية مَعبَدًا يهوديًّا داخل ألمانيا، مَعقِل النازيَّة، ولم تكن مصادَفَة أن ذلك اليوم كان يوم إحياء ذكرى مَقتل يهود مدينة كولونيا، في فترة النازي، وأطلق الإعلام الألماني، حينئذ، على بنديكت لقب «البابا الثاني لليهود»، مثلما وصف يوحنا بأنه «بابا اليهود الأول»، بسبب تعَاطُفِه معهم. جاء في البيان الذي أقره، بنديكت السادس عشر، وصاغ جزءًا منه، بحسب ما أكدته مصادر بالفاتيكان: «إن علاقات الكنيسة مع اليهود لا تزال تستند إلى البيان التاريخي لمجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥، الذي نبذ مفهوم المسؤوليَّة الجماعية لليهود عن دم المسيح، ودشن حوارًا معهم». أضاف أن الكنيسة «ترفض أيَّ موقف ازدراء أو تمييز ضدَّ اليهود؟ وتنبذ بشدة أيَّ نوع من معاداة السامية». وقالت مصادر كاثوليكية ويهودية: «إن البيان سُلِّم إلى أمانة مكتب كبير حاخامات إسرائيل». وقال الفاتيكان: «إنه يأمل أن تساعد التوضيحات التي وردت في هذا البيان على تصفيَة أيِّ سوءِ فَهم، إنه يجدِّد التأكيد على رغبة لا تتزعزع في أن يستمر تطور التقدم الملموس الذي تحقق بخصوص التفاهم المتبادَل ونمّو الاحترام بين اليهود والمسيحيين»[١١].

الكنيسة الأورثوذكسية وبيع الأراضي العربية

الفضيحة التي نشرت عنها صحيفة «معاريف» (١٨/ ٣/ ٢٠٠٥)، عن قيام البطريركية اليونانية الأورثوذكسية في مدينة القدس ببيع جزء من أملاك الطائفة إلى مستثمرين يهود، بينما هذه الأملاك تابعة لأبناء الطائفة الأورثوذكسية، الذين يعيشون في فلسطين كلها، وليست ملكًا لأي دولة. وبما أن السواد الأعظم من الأورثوذكس في فلسطين هم فلسطينيون عرب، فإن هذه الأملاك تأخذ، إضافة إلى طابعها الديني، طابعًا قوميًّا، وتاريخيًّا، يجب عدم التنازل عنه. وكما قال الأرشمنديت، عطا الله حنا، فإن: «الكنيسة الأورثوذكسية هي كنيسة مشرقية أصيلة. وجزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني وقضيته، ومن يفرط بالأوقاف، ويتآمر ضد القضية الفلسطينية لا يمثلنا وليس منا»[١٨].

كما جاء في بيان «اللجنة التنفيذية للمؤتمر الأورثوذكسي» لعرب ١٩٤٨، الذي صدر في أعقاب انتشار الفضيحة: «إننا ننظر بخطورة بالغة إلى ما قامت به البطريركية في القدس، ونرى في ذلك منعطفًا مصيريًّا، ليس فقط بالنسبة للوجود المسيحي الأورثوذكسي في البلاد، إنما أيضًا لأماننا القومية، باعتبارها قضية وطنية لها أبعاد خطيرة على مستقبل القدس وعروبتها»[١٩].

ثمة حساسية خاصة بالنسبة لأملاك الطائفة الأورثوذكسية في فلسطين، فهي تعتبر من أغنى الطوائف هنا. فقد جاء على موقع إليكتروني ـ إسرائيلي ـ مقال كتبه عومر كرمون، أن الكنيسة الأورثوذكسية الفلسطينية تملك ١٨ بالمائة من أراضي القدس الغربية، و١٧ بالمائة من أراضي القدس الشرقية، وثلاثة بالمائة من أراضي مدن اللد، والرملة، ويافا، وحيفا. ولا بد هنا من طرح تساؤل: ماذا سيحدث لهذه الأملاك إذا استمرت البطريركية اليونانية في بيع هذه الممتلكات لمستثمرين صهاينة؟

فهذه القضية تثير العديد من القضايا، التي يواجهها الشعب الفلسطيني، بجميع طوائفه، فرغم أن الكنيسة الأورثوذكسية هي صاحبة الأملاك، فإن الأرض تابعة للشعب العربي ـ الفلسطيني، بكل طوائفه وشرائحه، وليس للطائفة الأورثوذكسية فحسب.

إن التصرف بهذه الأوقاف لا يمكن أن يتم إلا بموافقة أبناء الطائفة الأورثوذكسية، الممثلين في الجمعيات والمجالس الملّية، ومجالس الطائفة، وذلك حسب المادة الحادية عشرة من «قانون بطريركية الروم الأورثوذكس المقدسية» (قانون ٢٧/ لسنة ١٩٥٨). وجدير بالذكر أن هذا القانون ينص على وجود نائب علماني للبطريرك، وثمانية أعضاء علمانيين، ينتخبهم أبناء الطائفة، وذلك لضمان عدم التلاعب بممتلكات الكنيسة، أو استغلال المنصب الديني لأهداف لا تتماشى والموقف الشعبي للطائفة. معنى هذا الكلام أن هناك إطارًا للبعد القومي العربي، وهذه الأملاك هي جزء لا يتجزأ من الأراضي العربية الفلسطينية. والتابعة لجميع شرائح الشعب الفلسطيني، بكل طوائفه وأديانه. وقد كان من الخطأ أن يقبل أبناء هذه الطائفة رفع العلم اليوناني على هذه الأملاك، الأمر الذي يجب أن يصحح حالًا، ورفع العلم الفلسطيني عليها، بدلًا من ذلك العلم.

كما أن بيع هذه الأراضي والممتلكات لمستثمرين صهاينة يخلع عنها صبغتها العربية، وتصبح صبغتها يهودية ـ إسرائيلية، وبالتالي يضعف الحق الفلسطيني في القدس، ويضعف حتى موقف المفاوض الفلسطيني، عندما يحين الوقت. ولهذا فإنه من المهم بمكان إبطال هذا البيع، بأسرع وقت ممكن، على الرغم من أن سلطات الاحتلال

الإسرائيلي لن تستجيب لمثل هذه المطالب، ولن تنصف محكمة العدل العليا العرب إذا ما تقدموا بطلب لإبطال هذا البيع، فجميعهم صهاينة، والمصلحة واحدة[٢٠].

ثالثًا: القدس في اعتقاد اليهود

إذا كانت قضية القدس تقع في مركز الصراع الإسرائيلي ـ العربي، فإنّ هذه القضية يحيط بها سوء الفهم، ومغالطات تاريخية، يشترك فيها جميع أطراف الصراع. وإحدى المغالطات في الجانب العربي الاعتقاد أنّ الادعاء الإسرائيلي بأن المدينة موحدة هي عاصمة إسرائيل، يستند إلى موقف ديني أصولي يهودي. وحقيقة الأمر أنّ التيار الديني اليهودي (الأورثوذكسي) الذي يسيطر على المؤسسات الدينية الإسرائيلية الرسمية لا يعطي اهتمامًا لقضية السيادة على القدس، بل هذا التيار لعب دورًا في إلجام محاولات التيار الصهيوني المتدين، والعلماني اليميني، السيطرة على منطقة الحرم المقدس[٢١].

بداية، لا بد من ذكر أنّ القدس ذكرت مئات المرات في كتب يهودية مقدسة، ولكنها لم تذكر، أبدًا، في «التوراة»، وتحديدًا في أسفار موسى الخمسة الأولى، التي تعتبر كتب الوحي، والأكثر قبولًا من اليهود، مقارنة بكتب الأنبياء ورجال الدين اليهود اللاحقين، ولكن يؤمن اليهود بأن النبي داود بنى هيكل سليمان، نحو ألف عام قبل الميلاد.

ورد اسم مدينة «القدس»، أو «يروشاليم» في العهد القديم أكثر من ٦٨٠مرة، وقد أطلق «العهد القديم» على المدينة عدة كنايات، مثل مدينة الرب، والمدينة المقدسة، ومدينة العدل، ومدينة السلام، وأحيانا يذكر الاسم «يبوس»[٢٢].

ومع ذلك، تتسم صورة أورشليم في «العهد القديم»، بالتناقض الشديد، فهي المدينة المقدسة، التي فَضّلها الرب على سائر المدن، ولكنها، أيضًا، المدينة النجسة الزانية، ومدينة اللعنات، والويلات، التي غرقت في الوثنية، معظم تاريخها.

هناك من يرى أن القدس ظلت لدى الأدباء اليهود، على مر العصور، رمزًا للشوق إلى الخلاص، وتعبيرًا عن كل الطموحات الروحانية، والدينية، والقومية، حيث ذُكرت في الكتابات العبرية، على اختلاف أنواعها، أكثر من أي مكان آخر. لقد تشكلت صورة القدس في أدب العصور الوسطى، ثم أدب «الهسكالاه» ـ حركة التنوير العبرية ـ ككيان رمزي تجريدي، من خلال مصادر مكتوبة، غارقة في الطابع الأسطوري والغيبي؛ لذا فقد احتفظت القدس حتى القرن التاسع عشر بصورتها المثالية الرومانسية[٢٣].

لقد تجلى الموقف الأصولي اليهودي في القدس، في مرحلة ما بعد حرب عام ١٩٦٧. فعند دخول المدينة القديمة، بعد احتلالها، رفع جنود الاحتلال العلم الإسرائيلي على قبة الصخرة، وسارع حاخامات، مثل الحاخام شلومو جورن، كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي، إلى دخول منطقة الحرم. واقترح جورن، يومها، وكان يؤيد بناء الهيكل، وضع ١٠٠ كجم من المتفجرات لتفجير قبة الصخرة. لكن القيادة العسكرية رفضت بشدة. وعلّق جندي متدين بأنّه أوكل إليه حراسة بوابة قبّة الصخرة، في ذلك اليوم، وأنّه كان يعتقد أن مهمته حماية المكان، لحين وصول المهندسين لإزالة القبة. حاول متدينون صهاينة حث حاخامات للذهاب إلى قبّة الصخرة، وينقل إسرائيليون، كانوا يعيشون

في القدس الغربية، كيف بدأ هؤلاء بالمناداة في الطرقات بأن المسيح قد أتى! وأرسل جورن رجاله لحث حاخامات، يعتقدون إمكانية التهيئة لقدوم المسيح، مثل الحاخام زفي كوك، وديفيد كوهين، ولكن، وبعد تردد، حسم كوك أمره بالالتزام بموقف الحاخامات الرسمي، الذي يمنع بناء الهيكل، في تلك المرحلة. وفي ذات اليوم، أمر وزير الدفاع الإسرائيلي، آنذاك موشيه دايان، بإنزال العلم الإسرائيلي عن قبة الصخرة.

في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١، عندما وصلت مفاوضات السلام مرحلة متقدمة تتضمن الاتفاق على إعادة تقسيم القدس، لم يكن لدى حركة «شاس»، المشاركة في الائتلاف الحكومي، والقوة السياسية الثالثة في إسرائيل، آنذاك، اعتراضات دينية، بل إن أعضاء حزب الليكود، الذين قابلوا عوفاديا يوسف، القائد الروحي للحركة، لإقناعه بمعارضة الحل السياسي بالقدس، أثاروا موضوعين هما: سلامة وأمن المصلين عند الجدار الغربي تحت السيادة الفلسطينية في الحرم، وأن الحكومة الإسرائيلية، آنذاك، تقدّم مساعدات لمدارس ومؤسسات «شاس» الاجتماعية، ولم يتم إثارة موضوع السيادة على القدس، أو كونها عاصمة لإسرائيل، لمعرفتهم أنّ يوسف لا يؤمن بهذه المبادئ، شأنه شأن حاخامات إسرائيل، الذين يدعون للانتظار والصلاة، حتى تتحقق متطلبات بناء الهيكل المرتبطة بقدوم المسيح.

بالمقابل فإنّ النائب في الكنيست، أوري أرئيل، عن حزب الاتحاد القومي، (حزب غير ديني متحالف مع الصهيونية الدينية)، المتحالف مع الحزب الوطني الديني، والذي زار منطقة الحرم، في شهر أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦، يدعو، مدعومًا بمجلس حاخامات مستوطنات الضفة الغربية، لبناء كنيسة في منطقة الحرم، دون هدم المساجد هناك[٢٤].

يطرح «مركز القدس للدراسات الإسرائيلية» فكرة إنشاء عاصمة بديلة للفلسطينيين، على أن تبقى «القدس الكبرى» إسرائيلية، مع إمكانية إعطاء سيادة خاصة للبلدة القديمة، وحكم ذاتي للأحياء العربية، وإدارة فلسطينية للحرم. وهي الرؤية نفسها، تقريبًا، التي طرحتها «وثيقة بيلين ـ أبو مازن». يتبنى مشروع رعنان ويتز، أيضًا، فكرة إقامة قدس فلسطينية، شرقي قرية شعفاط، لتستوعب ٣٠٠ ألف فلسطيني، وإنشاء طريق يربط بينها وبين القدس الحالية، تحت إدارة مشتركة، مع ضم المستوطنات إلى القدس. أما المدينة المقدسة داخل الأسوار، فيقترح ويتز أن تدار دوليًّا، كما يقترح تخيير العرب المقيمين في القدس بين أن ينتقلوا إلى القدس الفلسطينية الجديدة، أو أن يبقوا في أماكن سكناهم الحالية[٢٥].

معروف أنه مع حلول عام ١٥٢٠ الميلادي دخل «الحائط العربي» إلى التقاليد اليهودية الجديدة، وصار جزءًا منها، وتحول إلى حائط لبكاء اليهود عنده.

لم يدرك السلاطين العثمانيون ما يبيته اليهود للحائط، وللقدس، وفلسطين عمومًا، وفي أجواء التسامح، أدوا طقوسًا قرب الحائط، سرعان ما أخذوا يعتبرونها حقوقًا لهم محاولين استغلال أي فرصة لتثبيتها، فقد سعوا إلى استغلال سيطرة المصريين على القدس (١٨٣٢ – ١٨٤٠)، فتقدم يهودي يتمتع بالحماية البريطانية بطلب للسماح له بتبليط الرصيف الواقع أمام الحائط، أو الزقاق المجاور له. وحين عرض الطلب على المجلس الاستشاري الذي أنشأه محمد علي باشا في القدس، رفض الطلب، وثبت محمد علي وابنه إبراهيم هذا الرفض. وطلب الأخير من متسلم

القدس أن يمنع اليهود من رفع أصواتهم أثناء طقوسهم مع السماح لهم بالزيارة، لقاء رسم محدود لمتولي الوقف، في حينه. وفي منتصف القرن التاسع عشر، بذلت الحكومة اليهودية جهودًاحثيثة للاستيلاء على الحائط، فقد حاول الحاخام عبد الله، حاخام بومباي، شراء الحائط، كما سعى الثري اليهودي، موشيه مونتفيوري، إلى استصدار إذن من السلطات العثمانية يسمح لليهود بوضع مقاعد وكراسي في المكان، ونصب أعمدة، لإقامة مظلات واقية من الأمطار. لكن مساعي مونتفيوري لم تنجم سوى عن السماح، مؤقتًا، بوضع طاولة للقراءة، قرب الحائط، أزيلت بعد فترة وجيزة، بناء على طلب السلطات الإسلامية الدينية هناك.

لاحقًا، حاول روتشيلد شراء حارة المغاربة، المجاورة للحائط، وفشلت جهوده، إلا أن اليهود كانوا يستغلون التسامح، والسماح بالزيارة على مدار الوقت، كي يتحول الأمر إلى حق ثابت، فعادوا إلى رفع أصواتهم، والبكاء، ومع حلول عام ألف وتسعمائة وأحد عشر حاولوا، مجددًا، إحضار الكراسي، للجلوس عليها أثناء البكاء، ووضعوا ستارًا بين مكان الرجال ومكان النساء ، ولكن كل ذلك أزيل، بأمر السلطات العثمانية، بعد شكوى متولي الوقف الإسلامي.

تغيرت الصورة مع فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، (صيف ١٩٢٢)، فهذا الانتداب كان يهدف، أساسًا، إلى التهيئة لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وكان نورمان بنويش، وهو أحد كبار موظفي حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، يعتبر «أن أكبر محفل ديني لاجتماع اليهود في القدس هو الحائط الغربي».

استغل اليهود الصهاينة تأييد حكومة الانتداب لهم، وعادوا إلى وضع أدواتهم أمام الحائط، ما فجّر غضب المسلمين الذين واجهوا هذا الوضع، عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين، مطالبين بإزالة ما وضعه اليهود من أدوات أمام البراق، لكن هؤلاء واصلوا البكاء والصراخ، مع تركيز أدواتهم عند الحائط، وهو ما فجّر هبّة البراق، سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين، التي أسفرت عن مقتل مائة وثلاثة وثلاثين مستوطنًا صهيونيًا، واستشهاد مائة وستة عشر مواطنًا فلسطينيًا[٢٦].

بعد هبّة البراق، جاءت لجنة تحقيق دولية إلى فلسطين، مارست اللجنة عملها، منذ ١٩ يونيو/ حزيران ١٩٣٠م، وأصدرت تقريرها في أول ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٠م، وجاءت النتائج، التي توصلت اللجنة إليها، قاطعة في شأن الحق العربي على «حائط البراق». فقد انتهت اللجنة إلى «أن حق ملكية الحائط، وحق التصرف فيه، وما جاوره من الأماكن المبحوث عنها في هذا التقرير عائد للمسلمين. ذلك أن الحائط نفسه هو ملك للمسلمين، لكونه جزءًا لا يتجزأ من الحرم الشريف. كما أنه ثبت للجنة أن الرصيف الكائن عند الحائط، حيث يقيم اليهود صلواتهم، هو، أيضًا، ملك للمسلمين». كذلك ثبت للجنة أن المنطقة التي تكتنف الرصيف المذكور قد وقفها على المسلمين الملك الأفضل، بعد صلاح الدين الأيوبي، حوالي سنة ١١٩٣ بعد الميلاد. وأعطت اللجنة لليهود حرية السلوك إلى الحائط، لإقامة التضرعات، دون جلب أي أدوات. مع ذلك واصل الصهاينة التحرش بالبراق، حتى كان عدوان يونيو/ حزيران ١٩٦٧ م واحتلال القدس.

هذا هو حائط البراق، الذي صنع اليهود من تسامح المسلمين معهم في الصلاة قبالته، من خارج ساحة الحرم الشريف، ومبناه حقًا مكذوبًا، وقداسة مزعومة، وخرافة تاريخية، يطالبون، بناء عليها، اليوم، بأن تكون لهم ملكية جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، أو السيادة الكاملة عليه[٢٧].

التهوين من قدسية القدس

أكد الدكتور حسن عبد الرحمن سلوادي، عميد كلية الآداب في جامعة القدس، أن المستشرقين اليهود يقومون بجهود حثيثة، ومكثّفة، ضمن مخطط مرسوم، هدفه التهوين من قدسية القدس، ومكانتها في الإسلام من جهة، وتوكيد أهميتها ومركزية النظرة إليها من التصورات اليهودية من جهة أخرى. أضاف السلوادي أن ما يطرحه المستشرقون والكُتاب اليهود يشكل الغطاء الإيديولوجي والأرضية الفكرية التي تنطلق منها سلطات الكيان الصهيوني، لتنفيذ سياستها وممارساتها الرامية لطمس معالم المدينة وتهويدها. جاء ذلك من خلال بحث للدكتور السلوادي بعنوان: «المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام» قُدم خلال مسابقة حول القدس نظمتها جمعية القدس للبحوث والدراسات في غزة، وقد نال البحث الجائزة الأولى[٢٨].

البعد الديني

أوضح الباحث أن المستشرقين ينطلقون جميعًا من نقطة بدء واحدة، هي أن قداسة القدس، وما يرتبط بها من معتقدات، وتصورات لا تتسم بالأصالة، ولا تعزى إلى عوامل ذاتية نابعة من صميم الديانة الإسلامية، وإنما هي مجرد تقاليد لما تقرر بشأن هذه القداسة في الأصول الدينية، والتصورات العقدية في الديانة اليهودية.

يضيف أن المستشرقين اليهود حاولوا زعزعة المكانة التي تحتلها القدس في التطورات الإسلامية، والتشكيك في أهميتها، ومكانتها لدى المسلمين، ولعل من أبرز محاولاتهم تأويل النصوص القرآنية، بطريقة تتلاءم مع أهدافهم، وإبراز التناقض في الروايات الحديثية، والتشكيك في الأحاديث النبوية، التي أجمع المسلمون على صحتها.

يشير الباحث إلى (سورة الإسراء)، والتي تتضمن إشارة صريحة إلى رحلة الإسراء والمعراج، والتي تحدث بها علماء المسلمين، بإسهاب، عن دلالات هذه المعجزة، وكيف كانت إرهاصًا وإعلانًا مبكرًا عن القيم الإسلامية للمدينة المقدسة. وقد حاول اليهود استغلال الاختلاف في الأنباء حول رخص الإسراء والمعراج، هل هي بالجسد والروح معًا، أو بالجسد فحسب، ويؤكد الباحث أن هناك إجماعًا لدى علماء المسلمين على أن الرحلة حق لا يعتريه باطل، وأن المسجد الأقصى المذكور في الإسلام هو عين الموجود في بيت المقدس، وذلك خلافًا لما ذهب إليه بعض المستشرقين، الذين استغلوا الاختلاف في الأنباء حول طبيعة الإسراء والمعراج، وعمدوا إلى تأويل الآية، تأويلا ينفي عن القدس سببًا من أهم أسباب قداستها، ومكانتها المميزة في الإسلام.

تتلخص فكرة التأويل، كما يشير الباحث، في أن المسجد المذكور في الآية الكريمة، أينما هو، مكان في السماء، وليس الذي بني، فيما بعد، في مدينة بيت المقدس. ويورد السلوادي قولًا لأحد المستشرقين، وهو إسحاق حسون، يقول فيه: «أما إسحاق حسون فيؤكد من جهته أن علماء المسلمين لم يتفقوا جميعًا على أن المسجد الأقصى هو مسجد القدس، إذ رأى بعضهم أنه ممر في السماء، يقع مباشرة فوق القدس، أو مكة، وهو يستعين في ذلك بما كتبه المستشرق الفرنسي ديمومبن، حاول من خلاله التمييز بين القدس السماوية، والقدس السفلى».

يشير الباحث إلى محاولات المستشرقين اليهود إلى التشكيك، أيضًا، بالأحاديث النبوية، وعلى رأسهم الدكتور كستر، من معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بالجامعة العبرية، والتي تمتدح المدينة المقدسة، وتتحدث عن

فضائلها، وتنوه بفضل مسجدها، وأهميته في الإسلام، أهمها حديث شد الرحال. وقد حاول المستشرق كستر جمع أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ، تتناقض في مضمونها مع حديث شد الرحال، والتي استقاها من مخطوطات ومجاميع لم يتحوط أصحابها في إيراد الأحاديث الضعيفة، التي لا يعتد بها في الصحيحين، ولم ترد في غيرهما من كتب الأحاديث المعتبرة.

يذهب المستشرقون إلى أبعد من ذلك، فهذا المستشرق اليهودي حسون يقر بأن أغلب الأحاديث التي تتناول فضائل بيت المقدس، وتتحدث عن منزلتها في الإسلام قد وضعت في أيام بني أمية، وهو بذلك يريد القول إن القداسة التي أنيطت بالقدس قد نجحت، وترسخت، نتيجة للتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة .

يخلُص الباحث إلى أن العديد من المستشرقين أجهدوا أنفسهم في تأويل النص القرآني، وعمدوا إلى التشكيك في صحة الرواية الإسلامية، التي تربط القدس الشريف بالإسلام، وذلك بهدف التشويش على مكانة المدينة، وقداستها لدى المسلمين، غير أنهم أدركوا، في النهاية، عمق الرابطة، وأن قداستها تزداد رسوخًا في وجدان المسلمين، ومن العسير عليهم، الآن، حياد من هذا الجانب، فاتجهوا بأنظارهم صوب تاريخ المدينة، لعلهم يجدون بين أحداثه دليلًا يدعم توجهاتهم بأن قداسة المدينة لم يكن عليها إجماع، في أي فترة من فترات التاريخ[٢٩].

البعد التاريخي والحضاري

يؤكد السلوادي أن المستشرقين اليهود أثاروا مجموعة من القضايا، التي تتصل بتاريخ بيت المقدس، وحضارتها، منذ بداية فتحها على يد المسلمين (عام ٦٣٧م)، حتى سقوطها في يد الإنجليز بعد هزيمتهم للأتراك العثمانيين، (عام ١٩١٧م). وكان الهدف من إثارة هذه القضايا التدليل على أن المدينة لم تكن لها أي مكانة مميزة في الإسلام، ولم يكن لها أهمية تذكر من الناحيتين الإستراتيجية والإدارية.

يضيف: إن أهم القضايا التي أثارها المستشرقون هي قضية فتح المدينة، وتسليمها للفاروق عمر بن الخطاب.

يفنّد السلوادي ما ذهب إليه مستشرقون من تشكيك في الرواية، التي تؤكد قدوم عمر بن الخطاب لاستلام بيت المقدس، بطلب من صفرونيونس، ويورد بعض المستشرقين روايات عديدة متناقضة، حول الشخص الذي تسلم المدينة، وعقد الصلح مع أهلها. ويرجع المستشرق اليهودي غويتاين رواية كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» التي تنص على أن المدينة سُلِّمت إلى قائد مغمور، لم يبرز بشكل خاص في القتال، هو خالد بن الفهمي، وكان شرط الاستسلام واضحًا، وهو فتح البلاد لسلطة المحتل. يضيف غويتان: «إننا لا نجد في هذه الرواية أي ذكر لنص عهد؛ لأنه لم يكن موجودًا» حسب رأيه. ويشير إلى أشد الروايات انتقاصًا من مكانة المدينة، وهي رواية هربرت يوسه، والتي تؤكد أن عمرو بن العاص هو الذي فتح المدينة، وتسلمها من أهلها؛ لأن عمر لم يدخل الإسلام إلا في العام الثامن للهجرة، كما أنه لم يكن من أكابر الصحابة، وذلك لا يتناسب والمكانة التي تحتلها المدينة، التي أخذت تسمو، شيئًا فشيئًا، وتتطلب أن يكون فاتحها شخصية إسلامية مرموقة.

يؤكد أن الإجماع المعقود بين المؤرخين على أن عمر بن الخطاب قدم إلى حامية الشام، بناء على طلب من أبي عبيدة، ليتسلم المدينة، حسب ما اشترط أهلها، وقد تسلم المدينة، فعلًا، من البطريك صفرونيوس، ودخلها حلمًا،

وكانت زيارته لها من أهم الأحداث التي رافقت الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وفي ذلك تجسيد للرؤية الإسلامية الإستراتيجية لمدينة القدس، وهي الرؤية التي جعلت من القدس أحد المحاور الرئيسية لدعوة الإسلام.

القدس والهويّة العربية

أوضح أن المستشرقين كانوا يتطلعون لعزل المدينة المقدسة عن هويتها العربية الإسلامية، بالتدليل على أن الفتح العربي كان مرحلة عابرة في تاريخ المدينة، وأن الوجود العربي فيها إنما كان ثمرة من ثمار هذا الفتح الطارئ، ويؤكد السلوادي أن صلة العرب بالقدس لم تبدأ بتاريخ فتحها، بل إن الصلة قديمة جدًّا، ويستشهد بذلك بذكر العرب كثيرًا في «العهد القديم»، وأن هذه اللفظة أطلقت على نوع من القبائل، كانت تسكن الجزء الجنوبي من فلسطين، بما فيه القدس. وما أثبته العالم الفريدارميا في كتابه «العهد القديم في ضوء الشرق القديم»، حيث قال: إن لفظة «عرب» في النصوص العبرية تدل على بعض أجزاء فلسطين، وبخاصة الجزء الجنوبي فيها، المعروف، أحيانًا، باسم «يهودا»، الذي كان آهلا بالعرب ومن هنا لا يتعدى كونه، في رأي العديد من الباحثين العرب، تحريرًا عربيًّا لأرض عربية، كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الأجنبي.

أضاف الباحث نفسه أن المستشرقين يهود، وكان جل تركيزهم في البحث والتنقيب عن أي خبر أو إشارة تسعفهم عن اختلاق دور تاريخي لليهود في التصدي للعدوان الصليبي، وتشكيل ذلك الدور، وصياغته بطريقة توحي بأنهم أصحاب الأرض، وأنهم تعرضوا للعدوان، ودافعوا عن البلاد، مثلما فعل العرب، فهم يتحدثون، عادة، عن اليهود الذين مكثوا في فلسطين، دفاعًاعن مدنهم، وقراهم، التي هاجمها الصليبيون، وركزوا الحديث على مقاومة اليهود القاطنين في بيت المقدس، واستبسالهم في الدفاع عن المدينة. ويؤكد الدكتور السلوادي بأن اليهود، في تلك الفترة، لم يكونوا مؤهلين للقيام بدور المقاومة، الذي تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم؛ ذلك لأنهم لم يكونوا يعيشون في كيان سياسي مستقل، كما لم يكونوا يملكون الجيوش أو الوسيلة العسكرية التي تمكّنهم من التصدي للعدوان الصليبي، ومن ثم لم يشاركوا المسلمين عبء التصدي والمواجهة، بل هناك شواهد دالة على تواطؤ العديد منهم مع القوات الطارئة.

دحض السلوادي ما زعمه اليهود والمستشرقون من أن القدس لم تكن سوى مدينة صغيرة، معزولة، ومهملة، لم تشد إليها الأنظار، وذلك للتقليل من أهميتها الإسلامية، من الجوانب السياسية، والثقافية، والديموغرافية. وأشار إلى ما كَتبه في هذا الصدد موشيه معوز، شلوموا غويتاين، من أن القدس لم تلعب في الإسلام دورًا مركزيًّا ثقافيًّا بل كانت مدينة جانبية، لا تأثير يذكر لها. واستشهد كذلك بما ذهبت إليه حوا لاتسروس، والتي قالت إن القدس، رغم قدسيتها في الإسلام، لم يقطنها إلا أعداد قليلة، نسبيًّا، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وأنها لم تثر انتباه رجال الدين والسياسة العربية إلا في العشرينيات من القرن العشرين بعد ظهور النزاع حول (حائط المبكى).

ويرى أن ما استند إليه أحد المستشرقين اليهود، وهو دروري، من عبارة على لسان الرابي عوفاديا، حين زار القدس، عام ١٤٨٨م، والتي يقول فيها: «القدس مدينة خربة مهجورة»! وقد استشهد دروري بهذا بطريقة توحي بأنها حقيقة مسلّم بها، مع العلم بأن الفترة التي زار بها الرابي القدس كانت المدينة تعج بالإنشاءات العمرانية، كالمساجد، والمدارس، والزوايا، والأربطة، والمباني السكنية، وشبكات المياه، التي أقيمت بتوصية من سلطان المماليك

قايتباي، والتي لا تزال حتى يومنا هذا، تشهد، أحيانًا، على المجهودات العمرانية الضخمة التي نهض بها المماليك في القدس الشريف[٣٠].

مشاعر قادة الحركة الصهيونية الحقيقية تجاه القدس

من المفارقات الغريبة في تعاطف اليهود مع القدس أن قادة الحركة الصهيونية ومفكريها وأدباءها كانوا، من ناحية عاطفية، يكرهون القدس، ويعبرون عن ذلك، صراحة، لدرجة تثير الاستغراب، مقارنة مع ذلك التشدد الذي أبدته الدوائر الصهيونية، في كل ما يتعلق بمستقبل المدينة السياسي. تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، زار، أواخر القرن التاسع عشر، القدس، وتجول في شوارعها، وبعدما عاد إلى أوروبا، كتب خواطره الخاصة، حول ما شاهده في المدينة، فقال، كما يروي المؤرخ اليهودي أفيشاي ريجمان: « مدينة أشباح، تلك التي يقدسونها، لقد كرهتها، منذ أول نظرة، لا أدري كيف يطيقون العيش فيها، كل ما فيها يثير التقزز، لم أشعر بأنني، في يوم من الأيام، يمكن أن أحن إليها، من هذا الكذّاب الذي روى لنا أن في هذه المدينة سحرًا أخاذًا؟! من هذا الكذاب الذي روى أن رائحة القدسية في جبالها تزكم الأنوف؟ أي شعراء أفاكون أولئك الذين تغنوا بتلك المدينة الملعونة ؟ لا جمال هناك، لا سحر هناك، لا قدسية هناك، حاخامات في حائط المبكى تدور رؤوسهم كما الرحى، منظر يثير الاشمئزاز لعيون ترقب منظرًا آخر، مع أنني أقول، في العلن، إن تلك المدينة المقدسة، التي صلى اليهود، منذ ألفي عام، لكي يعودوا لها، وحلموا بأن يكونوا في قلبها، وأطرافها، وسأظل أقول ذلك، إلا أنني كدت أشعر بالاختناق، عندما شاهدتها من بعيد، ولأنني سياسي لا مجال للعاطفة في التأثير على تفكيري، ولأنني يهودي، يهدف إلى تحقيق حلمه القومي، فالقدس هي قلب الخطاب الصهيوني، فسأبقى أكرر أن القدس هي قلب الشعب اليهودي النابض، ومحط أنظار أبنائه في كل بقاع المعمورة، لكن في الحقيقة فإنني لا أقبل بالقدس كنعال لي».

أما الكاتب اليهودي الفرنسي، جاك فابيوس، الذي زار القدس، بعد حرب عام ١٩٦٧، بعدما سقطت في أيدي الصهاينة، وكان من أكثر المنظّرين للفكر الصهيوني، فيعترف بأنه لم ير أي أثر لذلك الحنين، الذي تحدث عنه اليهود للقدس، ويقول، في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من نشطاء الحركة الصهيونية: «سأظل أقول لأطفالي إن القدس لنا، وسأظل أقول لهم هلموا للقدس، وسأظل أدافع عن حقنا بالاحتفاظ بالقدس إلى أبد الآبدين، لكن صدقني: إنني لم أطق أن أظل فيها ساعة، لن أعود هناك، لن أعيش فيها أبدًا، سأبقى أتغنى بها أمام الجماهير اليهودية، وسأظل أحكي لليهود الذين لم يهاجروا بعد عن سحر القدس، وجمالها، لكنني أعرف أنني أخونهم ، أيما خيانة».

لم يقتصر تعبير قادة ومفكري الصهاينة عن «كرههم للقدس» على خواطرهم الخاصة، التي كانوا يبوحون بها لأصدقائهم المقربين، بل تعداه إلى مجاهرة بعض الشعراء والمفكرين اليهود بكرههم للقدس، علنًا، والتعبير عن ذلك شعرًا، ونثرًا، وعلى صفحات الجرائد. يستغرب الشاعر اليهودي إبراهام جينوم أن يعقد أحد ما أي مقارنة بين القدس وتل أبيب، ويستغرب أن يترك أحد تل أبيب، ويتجه إلى القدس، ففي قصيدة نظمها، أوائل الثمانينيات، تحدث جينوم عن مشاعره نحو القدس وتل أبيب، ويقول: «تحدث أيها الأبله ما شئت عن القدس، فهذا ليس يعنيني، لست في حاجة للاستماع لتلك الترهات، دعك من هذا الحديث الفارغ، عن القدسية، والسحر، فهذا طعام الجهلة والمخبولين، أما أنا فاذبحني في تل أبيب، نعم في تل أبيب، أريد أن أحيا، في تل أبيب، أريد أن أمرح، في تل أبيب، أريد أن أسكر حتى الثمالة» [٣١].

الساسة يعترفون

يروى أن الساسة الصهاينة، المعاصرين الذين بالغوا في الحديث عن القدس، كانوا يكنون مشاعر أخرى للقدس، إذ إن رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة، جولدا مائير، كانت تقول في مجالسها الخاصة: إنه لو ترك الأمر لها لما وطأت قدمها أرض القدس، على الإطلاق، وإنها عندما تطأ أرض القدس يصيبها الانقباض، والضيق، والضجر. أما إسحاق رابين، والذي يوصف لدي اليهود بأنه: «الذي حرر القدس» لأنه كان «رئيس أركان الجيش الصهيوني» في عام ١٩٦٧، عندما نشبت الحرب، يقال إنه كان يقول إنه على الصعيد الشخصي ولو تجاهل الاعتبارات السياسية لأبقى على مقار الحكومة «الإسرائيلية» في تل أبيب، وليس في القدس، ويقال إنه كان يفضل الحضور بشكل كبير في مبنى وزارة الدفاع، وليس في مكتبه برئاسة الوزراء؛ لأن وزارة الدفاع توجد في تل أبيب، أما وزير الدفاع الصهيوني الأسبق، موشيه ديان، فكان يجاهر بكرهه للقدس، حتى أمام قادة الأحزاب المتدينة، وكان يسخر من أولئك الذين يتركون تل أبيب، ومدن الوسط ويقدمون للعيش في القدس[٣٢].

الخاتمة

انفردت القدس، من بين كل المدن، والأمكنة في العالم، بأنها صارت الملتقى الروحي لأبناء الديانات الإبراهيمية، وصعيدها المقدس.

إن القدس، علاوة على مكانتها الدينية، التي لا تزاحمها فيها أية مدينة أخرى، تحمل قدسية ومكانة قومية، وإن كنت لا أجد أية بقعة فلسطينية، وعربية، صامدة في وجه الصهيونية، بوجه خاص، أو أية بقعة صامدة في وجه الاستعمار والظلم، بوجه عام، أقل قدسية منها، إلا أنها تظل رمزًا لمصير الصراع العربي ـ الصهيوني .

هذه الحقيقة الإلهية الخالدة جاءت تنبه كل مؤمن من مخاطر الفكر اليهودي القائم على العنصرية والحقد، في جانبه الديني، أو السياسي.

إن القدس وما يتهددها من مخاطر تعد حلقة رئيسية في ملف المخاطر الكثيرة التي يحملها المشروع الصهيوني، المدعوم أمريكيًا.

ويستدعي الأمر جملة خطوات في إطار المواجهة والمقاومة: عرض هوية القدس، وطبيعتها، وموقعها، وشرح ذلك لأجيالنا العربية، ولكل مسلم، ومسيحي، في العالم، ويكون ذلك من خلال الدراسات، والأبحاث عن القدس، ماضيها، وحاضرها، وأن تتولى ذلك هيئات ومراكز حكومية أو أهلية على أن تتوفر هذه الدراسات بلغات عدة تحقيقًا للفائدة.

شرح العقيدة الدينية المزعومة والأطماع الإسرائيلية بالقدس، والأطماع عمومًا لتعطيل مفاعل الدعايات الصهيونية القائمة على التضليل والتزوير والأباطيل.

تعزيز التضامن الإسلامي ـ المسيحي، عربيًا، ودوليًا، من أجل ردع خطر التهويد عن المدينة المقدسة، عند الفريقين.

هوامش الفصل الأول:

(١) هنري كتن، **القدس**، ترجمة إبراهيم الراهب، ط١، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص ١٠.

(٢) سمير جرجس، **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٨١.

(٣) فايز فهد جابر، **القدس، ماضيها حاضرها مستقبلها**، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٥، ص٥٧ .

(٤) يوسف القرضاوي، **القدس قضية كل مسلم**، انظر الموقع الإليكتروني. www.qaradawi.net . (قسم الكتب).

(٥) يواكيم مبارك، **القدس قضية**، ترجمة مهاة فرخ خوري، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٦، ص ٧٩.

(٦) محمد مصطفى الباش، **القدس بين رؤيتين**، دار قتيبة، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٧) القرضاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٨) مصطفى الطحان، **القدس والتحدي الحضاري**، انظر الموقع الإليكتروني.

www.daawa-info.net

(٩) القرضاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(١٠) جاسم بن محمد مهلهل الياسين، **القدس قضية أمة**، انظر الموقع الإليكتروني.

www.daawa-info.net

(١١) كتن، **مصدر سبق ذكره**.

(١٢) **مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة**، جمع وتنسيق وترجمة الأرشمندريت حنانيا إلياس كساب، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩.

(١٣) القاضي محيي الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج١، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣، ص ٢٤٠.

(١٤) **إنجيل يوحنا**، الإصحاح التاسع، آية ٦، ٧.

(١٥) **إنجيل مرقص**، الإصحاح الحادي عشر، آية ١٥، ١٦.

(١٦) أبو جابر رؤوف سعد. **الآثار والمقدسات التوراتية في القدس والمحافظة عليها**، في يوم القدس، أبحاث الندوة الرابعة ٢/ ٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٣، عمان، ص ١٩١.

(١٧) أحمد مخيمر، **تحسين العلاقة بين الفاتيكان واليهود**، انظر الرابط الإليكتروني

http //: www.islammessage.com /articles.aspx?cid=1 & acid= 123&aid=2440

(١٨) فوزي الأسمر، **الكنيسة الأرثوذكسية وبيع الأراضي العربية**، انظر: الموقع الإليكتروني

.com.alriyadh.www

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) **المصدر نفسه.**

(٢١) أحمد جميل عزم، **هل يريد اليهود الأصوليّون السيادة على القدس؟** انظر الموقع الإليكتروني

www.amin.org

(٢٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، المجلد الثالث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤، ص ٥١٠.

(٢٣) أحمد الشحات، القدس **في الرواية العبرية المعاصرة** ١٩٦٧- ١٩٩٢، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥، ص ٥ .

(٢٤) عزم، **مصدر سبق ذكره.**

(٢٥) محمد خليل مصلح، **القدس في الخطاب السياسي الإسرائيلي**، الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية. انظر: الرابط الإليكتروني
http: / /www.alasra.ps /news.php?maa- View&id=56

(٢٦) نافذ أبو حسنة. **بيت المقدس، المحاولات اليهودية المبكّرة للسيطرة على حائط البراق.**

انظر: الموقع الإليكتروني www.palestine-info.info.

(٢٧) محمد سليم العوّا، **خرافة حائط المبكى عند اليهود**، انظر الرابط الإليكتروني.

htm.almabka /tahweed /alquds /arabic /info.info-palestine / /:https .

(٢٨) المركز الفلسطيني للإعلام، **المستشرقون اليهود يحاولون التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام.** انظر: الرابط الإليكتروني

htm.almustash /muslims /alquds /arabic /info.info-palestine / /:https

(٢٩) **المصدر نفسه.**

(٣٠) **المصدر نفسه.**

(٣١) المركز الفلسطيني للإعلام ، **مشاعر قادة الحركة الصهيونية الحقيقية تجاه القدس.** انظر: الرابط الإليكتروني

http: / /www.palestine-info /info /arabic /alquds /mukhtarat /mashaer.htm

(٣٢) **المصدر نفسه.**

الفصل الثاني

مساجد القدس

إلهام أحمد الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء: ١).

صدق الله العظيم

غني عن القول أن الديانات السماوية الثلاث: الموسوية، والمسيحية، والإسلامية، قد تركزت في مدينة القدس، بشكل لم يحدث في أي منطقة أخرى. وبالتالي، فلا توجد مدينة مثلها، عمرت بالكنس، والكنائس، والمساجد، والأديرة، والزوايا، والتكايا، إلى غير ذلك من الأماكن المقدسة. وأدى ذلك إلى محاولة المؤمنين التعبير عن مشاعرهم الروحية نحو المدينة المقدسة، عن طريق الاستعانة بالفن، فأطلقوا له العنان، ليزركش، ويزخرف، ويجمل مقدسات المدينة، حتى أصبحت وكأنها آيات فنية غاية فى الروعة، وظهرت المدينة بكل ما فيها من آثار، وكأنها متحف مفتوح[١].

من هنا، فقد أوليت هذه المدينة المقدسة اهتمام ورعاية الخلفاء، والأمراء، والصالحين، فأنشأوا فيها العديد من المنشآت المهمة، ومنها المساجد، وهى موضوع هذه الدراسة .

أولا: المساجد

تزخر مدينة القدس بروائع العمارة الإسلامية، ففيها ستة وثلاثون مسجدًا، بالإضافة إلى المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة المشرفة. وفيما يلي أهم هذه المساجد[٢].

١ - المسجد الأقصى

هو من أجمل آثار التاريخ الإنساني، وهو المنطقة المحاطة بالسور المستطيل، والواقعة في جنوب شرق مدينة القدس، حيث يعتبر الحرم الشريف جزءًا لا يتجزأ من المسجد الأقصى. وعلى عكس ما يعتقده البعض، من أن هذا المسجد قد بناه عبد الملك بن مروان، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وثاني مسجد وضع في الأرض، بنص الحديث الشريف، فقد قال رسول الله ﷺ، عندما سئل: «أي المساجد وضع في الأرض أولًا، فقال: المسجد الحرام. قيل ثم أي؟ قال المسجد الأقصى. قيل وكم بينهما؟ فقال أربعون سنة». وبناءً على ذلك يرجح أن يكون آدم (عليه السلام) هو أول من قام ببناء المسجد الأقصى، وعمَّره بعد ذلك إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم أعيد بناؤه على يد سليمان، حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، ومع الفتح الإسلامي للقدس، في ٦٣٨م/ ١٥ هجرية بنى عمر بن الخطاب المصلى القبلي، كجزء من المسجد الأقصى، فقد أمر بتشييده من الخشب، وكان يتسع لثلاثة آلاف مصلّ[٣].

أعيد إنشاء المسجد الأقصى، في سنة ٧٢ هـ/ ٩٦٢م، على يد الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان، ولم يكمله، حتى أتم بناءه ابنه الوليد بن عبد الملك، عام ٨٦ هـ/ ٧٠٥م، وكان البناء بشكل فخم، نظرًا لوجوده بجوار كنيسة القيامة، وكان المسيحيون يهتمون بزخارف أبنيتهم. فقد وصف المقدسي «المسجدَ الأقصى بأنه كان أحسن من مسجد دمشق». وهو عبارة عن حرم، ولم يكن له صحن، ومؤلفًا من بلاطات عمودية على جدار القبلة، قد تكون خمس بلاطات أو أزيد، تنتهي بالمحراب البسيط، والذي لم يكن موجودًا في المنتصف من جدار القبلة. ولم يكن للمسجد مئذنة، فضلًا على عدم وجود قبة، وقد يرجع ذلك إلى الخشية من أن تؤثر القبة، في حال بنائها، على جاذبية قبة الصخرة. ولم يكن يتبقى من الزخارف الأموية، تقريبًا، سوى ألواح خشبية، تحفظ الآن في المتحف الأثري في القدس، ومتحف الحرم الشريف، الواقع قرب المسجد الأقصى، وهي ألواح مزخرفة بحفر عناصر نباتية عليها، كما في قبة الصخرة، وقد يستعاض عنها بأطر متضافرة، تؤلف من معينات بها ثلاثة أحزمة متضافرة، في المركز منها ثمة عنصر نباتي، كما تحاط، أيضًا، بزخرفة نباتية، هي أساس الرقش العربي. وهذه الأخشاب جميعها من خشب الصنوبر[٤].

تقول الروايات بأن المسجد قد تهدم في زلزال في عام ١٣٠ هـ، وأمر أبو جعفر المنصور بترميمه، في عام ١٥٤هـ. بعدها تعرض المسجد لزلزال آخر في ١٥٨ هـ، وفقد الكثير من معالمه الأموية، وعندها أمر الخليفة المهدي بإعادة بنائه، بعد أن كتب إلى حكام الأمصار، ليعاونوا في هذا البناء، وينسب إلى المهدي أنه قال «أنقصوا من طوله وزيدوا في عرضه». وقد بقيت أجزاء من الأقصى الأموي، تم دمجها في التخطيط في العصر العباسي، وكان المسجد مؤلفًا من خمس عشرة بلاطة،عمودية على القبلة، والوسطى منها كانت هي أعظمها في السعة، والارتفاع، منتهية بالمحراب. ويقول المقدسي: كان للمغطى ستة وعشرون بابًا، باب منها يقابل باب المحراب، ويسمى باب النحاس الأعظم، وهو باب مصفح مذهب، وعن يمينه سبعة أبواب كبيرة أوسطها مذهب مصفح، وتوجد مثلهن من جهة اليسار بالإضافة إلى أحد عشر بابًا بسيطة من جهة الشرق، ويعلو منتصف المغطى جملون عظيم، خلف قبة حسنة الشكل، والأسقف ملبسة بالرصاص، عدا الأخير، فهو مرصوف بالفسيفساء. والجملون له مناور، لإدخال الشمس والضوء، كما أن القبة تغلف بصفائح الرصاص، فضلًا على تزيينها من الداخل بالجبس.

أما في العصر الفاطمي، فقد حدث للأقصى الكثير من التغيير، والتبديل، والترميم، والتجديد، وقيل إنه تحول

مخططه إلى أربع بلاطات فقط، بدلًا من خمس عشرة بلاطة، إلا أن الأمر مشكوك في صحته. فقد قام الرحالة ناصر خسرو بزيارة إلى بيت المقدس، بعد سنوات قليلة من أعمال الخليفة الفاطمي الظاهر، ويلاحظ أنه لم يعط وصفًا واضحًا لمخطط المسجد. فيما يرى كريزويل أن الحد الشمالي لمسجد الملك الظاهر، هو الحد الحالي نفسه. كما أن جزءًا كبيرًا من المسجد الأقصى الحالي هو من أعمال الملك الظاهر، وأصبح المسجد مؤلفًا من سبعة أروقة، ذات أعمدة عمودية على جدار القبلة، وكان في الرواق المركزي منور، وثمة سقف جملوني، بعده قبة خشبية كبيرة.

بعد تحرير الأقصى من أيدي الفرنجة، الذين احتلوا القدس قرابة قرن من الزمن، وقيام الدولة الأيوبية، اتضح أن الفرنجة قد بنوا دارًا وسيعة، وكنيسة، غربي القبلة، فقام صلاح الدين الأيوبي بهدم هذه الأبنية، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وأمر بتعمير المحراب، وترخيمه، وتزيينه بالفسيفساء، وقام بطلب المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود، قبل فتح المسجد بنيف وعشرين سنة في حلب، وما زال المحراب موجودًا حتى الآن، ويحمل إصلاحات صلاح الدين، والكتابة المؤرخة لترخيمه، عام الفتح٥٨٣هـ، ولكن المنبر الذي ظل يزين المسجد، وكان أحسن منابر الإسلام، فقد بقي موجودًا، حتى أحرقه الصهاينة، في حادث حريق المسجد الأقصى في ٢١ آب/ أغسطس ١٩٦٩م. كما قام صلاح الدين بكسوة الجدران القبلية بالفسيفساء من أعلى، ومن أسفل كسيت بالرخام، بالإضافة إلى تجديد أبواب المسجد، بأمر السلطان محمد بن قلاوون، والتي تم تنفيذها في عهد ابنه، الملك الكامل، سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٤م. فضلًا على إصلاح الرصاص، وقبة الصخرة، والفصوص، وبياض الجدران، في عهد قنصوة الغوري، في ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م.

لقد جرت إصلاحات للمسجد في العصر الحديث، فيما بين ١٩٢٧، ١٩٣٣م، وقيل إنها كانت في الفترة بين ١٩٢٤، ١٩٢٧م، ولكنها لم تغير المخطط والوضع العام، وإنما كانت لتقوية البنية العامة، وإصلاح السقف الأوسط، والرواق الشرقي، وتذهيبهما[٥].

وبصفة عامة، فإن بلاطات المسجد الأقصى تتميز، منذ القدم، بأنها عمودية على جدار القبلة، وليست موازية له[٦].

٢ - مسجد قبّة الصخرة

تم إنشاؤه في نفس توقيت إنشاء المسجد الأقصى، وبناه، أيضًا، عبد الملك بن مروان، في ٦٩١ـ٦٩٢م، ويتكون المسجد من جدار مثمّن طول ضلعه عشرون مترًا، وقطره خمسون مترًا، يليه مثمن آخر، طول ضلعه خمسة عشر مترًا، وقطره أربعون مترًا، وبداخله دائرة القبة، وقطرها عشرون مترًا، وبذلك يكون حول القبة رواقان، يصلحان للطواف. وللمسجد أربعة أبواب، والصخرة هي عبارة عن قطعة ضخمة من الصخر، تقع تحت القبة في وسط المسجد، ويوجد حولها درابزين من الخشب المنقوش والمدهون، وحول هذا ثمة مصلى للنساء، ذو الأبواب الأربعة، وثمة سياج من الحديد المشبك، يفصل بينه وبين مصلى الرجال. فضلًا على وجود مغارة تحت الصخرة، يمكن النزول إليها من الجنوب، بإحدى عشرة درجة، وهي ذات شكل مربع، وها سقف به ثغرة، وعند الباب قنطرة مقصورة بالرخام.

لقبة الصخرة أربع دعائم حجرية مستطيلة، بينها اثنا عشر عمودًا من الرخام، تعلوها ست عشرة قنطرة، ذات شكل نصف دائري، في أسفل رقبة القبة الأسطوانية، والمحتوية ست عشرة نافذة، وهي مغطاة بطاسة القبة، ذات طبقتين من الخشب، بينهما فراغ، وكانت مكسوة من الخارج بالرصاص، وفوقه صفائح النحاس المذهب، ومبطنة من الداخل بالجص المزخرف بالألوان.

يتكون المثمن الداخلي من ثماني دعائم، في رؤوس المثمن، بينها ستة عشر عمودًا، تحمل السقف، وأربع وعشرون قنطرة، تصل بينها جسورٌ خشبية فوق التيجان، وهي لتحكم ترابط البناء. أما المثمن الخارجي، فيعتبر واجهة البناء، وهو عبارة عن جدران حجرية، ولكل ضلع منها سبعة محاريب، أو تجويفات، في نهايتها من أعلى نوافذ، عدا التجويفين الأخيرين، تلك النوافذ، مع النوافذ الموجودة في رقبة القبة، الغرض منها، مجتمعة، إمداد المسجد بالنور.

كانت تعلو الجدران ستائر مزودة بمحاريب، ولكنها اختفت، وطمست معالمها، في عهد السلطان سليمان العثماني، عندما وضعت الكسوة القاشانية، في عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٦م. وأبواب المسجد الأربعة مفتوحة في وسط التثمينات، وتعلو سواكفها عقد نصف دائرية، ويتقدم الأبواب سقائف، عبارة عن قبوة نصف أسطوانية، محمولة على أعمدة، والسقف يمتد أسفل رقبة القبة، وهو مكون من طبقتين، خارجية مصفحة بالرصاص ومائلة، والداخلية مغطاة بالزخارف والأصبغة، وهذا التصميم في غاية التناسق والدقة، من حيث الهندسة المعمارية، وأيضًا، من الناحية الجمالية.

لعل مما يزيد من جمال المسجد، تلك الزخارف المستخدمة، وكانت تعتمد على الرخام، والفسيفساء. حيث يلاحظ تنوع الرخام، وألوانه، وأصنافه، في الأعمدة والجدران، وهو لا يزال محتفظًا بأصالته، وجماله، منذ العهد الأموي، عدا أجزاء صغيرة منه، تم تجديدها في العهدين العثماني والمملوكي. ولا تزال الفسيفساء في الداخل موجودة، أيضًا، منذ العصر الأموي، أما في الخارج، فقد تم استبدالها بألواح الخزف، نتيجة لتأثرها بعوامل الجو. واستخدم النحاس والبرونز المذهب، في كسوة وجوه الأبواب، وسواكفها، وكذلك الجسور الخشبية، وأيضًا، قبة الصخرة، كما استخدم ماء الذهب في تزيين السقوف الخشبية، ومعها الأصبغة. وهذه العناصر قد تمّ استبدالها بما يماثلها، حيث إنها لم تبق على حالها.

لقد تم تجديد أبواب المسجد في العصر العباسي، فبعد أن كانت الأبواب الأموية مصفحة بالذهب والفضة، أمر الخليفة العباسي، المقتدر بالله، بصنع الأبواب من خشب التنوب المتداخل، وأن يكون جميعها مذهبًا، وذلك في الفترة من ٢٩٥ـ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ـ٩٣٢م. كما تم تجديدها، أيضًا، في العهد العمري، فتم تصفيحها بالنحاس الأصفر المنقوش، كما في أبواب دمشق الباقية من العهد المملوكي.

كما حدثت تجديدات وترميمات، في طاسة القبة، وثمة لوحات تشير إلى تجديدها، في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي، وكانت القبة الأموية قد تهدمت، وهي المكونة من ثلاث طبقات، الأولى من ألواح مزوقة، والثانية عبارة عن أعمدة حديدية، حتى لا تميل بفعل الرياح، أما الثالثة فقد كانت من خشب عليه صفائح من النحاس المذهب، مكسوة بالصدف.

قام صلاح الدين الأيوبي بتنظيف الصخرة، مما وضعه عليها الفرنجة، وأقيمت عليها شبابيك حديدية، وفي

العصر الحديث تم ضرب قبة الصخرة من قبل الاحتلال الصهيوني، في ١٩٦٤م، فقامت الحكومة الأردنية بآخر التجديدات، وذلك بأن تمت كسوة القبة بالألومنيوم المذهب[٧].

قبة الصخرة

يصف العالم الأثري الشهير فان برشم قبة الصخرة بقوله: «لعل روعتها وجمالها يعودان لما في تخطيطها من بساطة وتناسق. حقًّا إنها مفخرة العمارة الإسلامية». ويقول عنها جوستاف لوبون: «إنها أعظم بناء يستوقف النظر. إن جمالها وروعتها لا يصل إليهما خيال إنسان». فهي ذات تصميم فريد في العمارة العربية الإسلامية، فتصميمها يزيد متانتها، وقد تم تزيين نوافذها، الست عشرة، بالزجاج المعشق، وتوجد بين كل اثنتين منها لوحة بها رقش هندسي. ويعلو النوافذ كتابة بالخط الثلث، على شكل شريط، به الآيات الثماني الأولى من سورة الإسراء. كما يمتد شريطان زخرفيان آخران، في أسفل رقبة القبة، ويحيطان بها كلها. وهذه الزخارف والكتابات من القاشاني الذي كان أمر بصنعه، في ٩٥٠ هـ/ ١٥٤٣م، السلطان سليمان، وقد تمت صناعته محليًا. ولقد كسيت واجهات المثمن، أيضًا، بالفسيفساء، قبل استبداله بالقاشاني، وتحل النوافذ في الجدران الثمانية، بالخزف المفرغ، عدا النوافذ الصماء، التي تغطى بلوحة قاشانية، توضع في كل جدار. من الخارج، تبدو القبة وكأنها كتلة من الذهب المشع، حيث إنها محززة بفواصل ألواح الألومنيوم.

أما من الداخل، فإن زخرفة القبة تجسد عبقرية وإبداع الفنان، وهي عبارة عن أشرطة زرقاء، بها زخارف ذهبية، كما توجد حلقة بخط الثلث، تشتمل على الآيتين ٢٥٥، ٢٥٦ من سورة البقرة.

ثمة حلقة سفلى، بها تعريف باسم صلاح الدين الأيوبي، منشئ القبة، كما تزين خوذة القبة من الداخل بالفسيفساء محلية الصنع ـ كما أكد الباحثون، ومنهم فان برشم ـ وهي عبارة عن مكعبات زجاجية صغيرة، وفصوص الفسيفساء، لها ألوان متعددة، تتنوع بين الأخضر، والأزرق، والأحمر، والبنفسجي، والبني، والأسود، واللونين الفضي والذهبي، اللذين استعملا كخلفية. وقد تم لصق هذه الفصوص على الجدار بطريقة فنية، بواسطة الجص، مع جعل الفصوص الفضية، والذهبية في وضع مائل، لكي تعكس النور على الأرض، ويلاحظ أن بعض هذه الفصوص من الأحجار الكريمة، أو الصدف، أو اللؤلؤ، وإن كان أكثرها من الزجاج.

يلاحظ أن الفسيفساء خلت من رسوم الكائنات الحية، ولكنها احتوت على رسوم نباتية، وهندسية فحسب، على أشكال حلي وتيجان في مناطق تحدها أطر، وبذلك تبدو القبة شديدة التألق براقة. فقد عُني الأمويون بتشييد المساجد وتزيينها، ليظهروها بما يناسبها من الجمال، ولكي يصرفوا المسلمين عن الإعجاب بالكنائس، التي كانت على درجة عالية من التزويق. ومع ذلك لم يخلص المسلمون من الأعداء، الذين يحاولون تحريف الحقائق، بهدف التشكيك في رجال الدين الإسلامي، والانتقاص من أعمال عظماء المسلمين، الذين كانوا ولا يزالون لهم شأنهم، فلفقوا الأكاذيب، من أن عبد الملك بن مروان قد بنى قبة الصخرة لكي يصرف المسلمين عن الحج إلى بيت الله الحرام، فحجوا إليها في أيام الدولة الأموية[٨].

٣ - مسجد عمر

يقع مسجد عمر غربي الحرم القدسي الشريف، أمام دير ماريعقوب. ولقد أقيم هذا المسجد في المكان الذي

صلى فيه أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، عند الفتح الإسلامي، وهو يتألف من صحن مكشوف أمام بيت الصلاة، مستطيل الشكل، ومغطى بأقبية متقاطعة، وثمة محراب مجوف، بسيط التكوين في حائط القبلة، وهذا المحراب من الحجر. وللمسجد مدخل تذكاري، قد شيد في العصر العثماني، له عقد مدبب، مليء بالزخارف الهندسية، وزين المدخل بشكل جملوني، كان شائعًا في بلاد الشام، كذلك حُليت فتحته بشكل جامة مفصصة. ومما يدل على مدى التأثر المعماري بالمآذن الشامية، تلك المئذنة مربعة الشكل، التي يعتمد تصميمها على تعامد طوابقها الثلاثة، منتهية بشرفة الأذان المسقوفة[٩].

٤- جامع النساء

يقع داخل الحرم القدسي الشريف جنوب غربي المسجد الأقصى، وبناه السلطان صلاح الدين الأيوبي، في نحو ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م. وهذا المكان كانت حولته قوات الفرنجة إلى مطعم لفرسان الهيكل، وعندما استعاد صلاح الدين بيت المقدس، أعاد تشييده مسجدًا، لتصلي به النساء، بعيدًا عن المصلين في ساحة المسجد الأقصى المكشوفة. وللمسجد مدخل بسيط، به عمودان رخاميان ومكون من ثلاثة أروقة، ذات عقود عمودية على جدار القبلة، وهي ذات دعامات لتقسيم الجامع إلى ثلاثة أقسام رئيسية، مغطاة جميعها بأقبية متقاطعة، وليس لهذا الجامع محراب لتعيين اتجاه القبلة؛ ذلك لأن جدار القبلة يوازي جدار قبلة المسجد الأقصى لتلاصقهما. وفي الجنوب الغربي ثمة فتحات الإضاءة، وقد تم شغل القسمين الجانبيين للمسجد بالمتحف الإسلامي، وبمقر لجنة إعمار المسجد الأقصى، بينما ظل القسم الأوسط جامعًا للنساء.

٥- مسجد ولي الله محارب

يقع غربي الحرم القدسي الشريف، وقد أنشأه ولي الله، محمد بن محارب، في ربيع أول ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م. وقد جعل للمسجد أوقافا كثيرة في القدس، للإنفاق عليه من ريعها.

كان ولي الله محمد بن محارب أحد قادة الأيوبيين. وللمسجد مدخل بسيط، من عقد نصف دائري يغلق عليه باب من مصراع واحد، وله بيت صلاة مميز باستطالته، وقلة عمقه، مقارنة بطوله، مما يدل على أنه قد تم اقتطاع مساحة منه في وقت غير معلوم. أما بيت الصلاة فمغطى بقبو طولي، وثمة محراب مجوف جميل الشكل، بوسط جدار القبلة[١٠].

٦- جامع القلعة

يقع داخل قلعة القدس، في السور الغربي للمدينة، وقد تم إنشاؤه في عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م. والذي أنشأه هو السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون. وتم تجديده في عهد السلطان العثماني محمود بن مصطفى، في عام ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م. وقد استخدمت القوات العثمانية هذا المسجد كمخزن للذخيرة في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤/ ١٩١٨م). ويتكون الجامع من حرم مغطى بقبو، على شكل مهد، وللحرم محراب جميل الشكل، تم تزيينه من الداخل بأشكال مضفورة. وبجوار المحراب الحجري منبر حجري نادر، به مكان للخطيب، على شكل قبة محمولة على أربعة أعمدة حجرية قصيرة، ويتميز المسجد بمئذنته، التي تم تشييدها في ١٠٦٥/ ١٦٥٥م، في سلطنة محمد الرابع. ولهذه المئذنة قاعدة مربعة، كما في المآذن الشامية والمملوكية. ثم طابقان آخران، لهما شكل أسطواني مستدق لأعلى قليلًا، مما يميزها عن المآذن المملوكية.

٧- مسجد الحريري

موقعه إلى الغرب من الحرم القدسي، وقد أنشئ في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ويمكن القول بأن هذا المسجد قد تم إنشاؤه لتعمير القدس به، بعد أن تم تحريرها من الفرنجة على يد الأيوبيين، وقبل عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨٢م تم تجديده على يد أحد تجار القدس، ويسمى شمس الدين محمد إبراهيم الحريري، ومن هنا جاءت التسمية، وبعد ذلك تعرض للفناء، في السنوات الأخيرة، ولم يبق منه سوى الجدران الخارجية، وكان تخطيط المسجد الأصلي هو بيت للصلاة، مستطيل الشكل، في الجدار الجنوبي منه محراب مجوف.

٨- المسجد القيمري

يقع بداخل أسوار القدس، من الشمال الغربي، قرب الباب الجديد، وقد أنشئ في القرن ١٠-١١هـ/ ١٦-١٧م. ويشبه هذا المسجد في شكله المساجد العثمانية، فهو على شكل قبة حجرية ضخمة، قليلة المغور، وهو مربع الشكل. وقد تم تشييد أربعة عقود، بطول الجدران، محولة الشكل إلى مثمن، ويوجد أمام بيت الصلاة حرم مكشوف، به قبر، قد يكون لمشيد هذا المسجد[١١].

٩- مسجد المولوية

يقع بداخل أسوار القدس، من ناحية الشمال، وقد أنشأه خداوندكار بك، حاكم القدس العثماني، وكان في الأصل، في هذا المكان، كنيسة، تعرف بكنيسة القديسة أغنس، وقد تم تحويلها إلى مسجد في العصر الأيوبي، وفي نهاية القرن العاشر الهجري، تم إنشاء خانقاه في المكان نفسه، لأتباع الطريقة المولوية، على أن يكون الطابق الأول مسجدًا، والثاني غرفًا لإقامة الدراويش، تحولت بعد ذلك إلى غرف لإقامة بعض العائلات، ولهذا الجامع مئذنة حجرية مستديرة، في نهايتها غرفة للأذان، وجوسق تغطيه قبة صغيرة.

١٠-مسجد الشوربجي

موقعه داخل أسوار القدس، جهة الشمال، وقد أنشأه عبد الكريم مصطفى الشوربجي، وهو أحد رجال الحامية العثمانية بالقدس، في ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م. وفي البداية كان قد تم تشييده كسبيل لتوزيع الماء على المارة، ثم تم تحويله بعد ذلك إلى مسجد مكون من ساحة مربعة، مدخلها في الضلع الشرقي للبناء، وتم إنشاء قبة لتغطيته على منطقة انتقال مثمنة، بواسطة مثلثات في نهاية المربع، وللمسجد محراب بسيط، مجوف في الجدار الجنوبي، كما تم تحويل شبابيك السبيل إلى نوافذ للإضاءة.

١١-الجامع الكبير

يقع في الجزء الجنوبي الغربي من القدس القديمة، جنوب كنيسة القيامة، ويعرف باسم الجامع العمري الكبير. وقد يكون تم تشييده في عهد عمر بن الخطاب، ثم جرى تجديده في العصر الأموي، وربما جرت له تجديدات أخرى، في العصر الفاطمي، قبل استيلاء الفرنجة على القدس، ثم أعيد تجديده في العصرين الأيوبي، والمملوكي، وثمة ترميمات أجريت في عهد السلطان عبد المجيد خان، ويتميز تصميم هذا الجامع بالبساطة، حيث يتقدم صحن الصلاة ممر،

ويغطي بيت الصلاة قبو متقاطع، وفي وسط الجدار الجنوبي ثمة محراب مجوف، جميل الشكل. وللمسجد مئذنة تشبه المآذن الشامية، تنتهي بشرفة أذان، تحمل على ثلاثة كوابيل حجرية، في كل ضلع من أضلاع المربع، وقد زينت قمتها بقبيبة صغيرة دائرية.

١٢ - مسجد النبي

هو في نهاية صحن الصخرة المشرفة، من ناحية الشمال الغربي. وقد أنشأه حاكم القدس العثماني، في ١١١٢هـ/ ١٧٠١م. ويطلق عليه، أيضًا، مصلى الخضر، وقبة بخبخ، ويتألف من بيت صلاة مربع الشكل، تقريبًا، مدخله في الضلع الشرقي، وغطي بيت الصلاة بقبة ضحلة، مشيدة على أربعة عقود مدببة، متقاطعة، وثمة شباك للإضاءة في كل ضلع من أضلاعه، فضلًا على وجود المحراب المجوف، الحجري. وقيل إن تسمية المسجد بمصلى الخضر كانت بسبب وجود كهف صغير أسفل بيت الصلاة، يتم النزول إليه بسلم.

١٣ - مسجد المغاربة

مكانه غربي الحرم القدسي الشريف، من ناحية الجنوب، وقد تم بناؤه قديمًا، وتم تجديده، على مختلف العصور، والتي آخرها، وأشملها ما تم في عهد السلطان العثماني، عبد العزيز خان ابن محمود، في ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. أما الآن فيستخدم هذا المسجد لعرض مقتنيات متحف الآثار الإسلامية. ويشغل، الآن، مساحة مستطيلة، تشبه المساجد الإسلامية الأولى، في قلة عمقها، والتي منها المسجد الأقصى نفسه. وللمسجد مدخلان في الضلعين الشمالي والشرقي، والأخير يؤدي إلى دركات مغطاة بقبة حجرية ضحلة، والمسجد من الداخل عبارة عن بيت للصلاة، تغطيه أقبية متقاطعة، وله محراب مجوف، ولكنه أزيل، وحول مكانه إلى باب يصل إلى قاعات المتحف، وظلت أعمدة المحراب وطاقيته موجودة.

تلك هي المساجد التاريخية الباقية في مدينة القدس، فضلًا على العشرات من المساجد، الأقل أهمية، من وجهة النظر الأثرية، فهناك العديد من المساجد التي تنتمي إلى العصر العباسي، مثل مسجد الحيات، غربي الحرم، ومسجد الديسي، في الجنوب الغربي، والمسجد العمري الصغير، غربي المدينة، ومسجد خان السلطان، غربي الحرم القدسي، ومسجد مصعب، شمال المدينة القديمة، ومسجد أبو بكر الصديق، غربي المدينة القديمة، ومسجد عثمان بن عفان، غربي المدينة، ومسجد سويقة غلوان، غربي المدينة، أيضًا، وإلى جواره ثمة مسجد البراق، فضلًا على مسجد الشيخ ريحان، شمال الحرم القدسي الشريف، وبهذا تبدو مدينة القدس وكأنها متحف معماري مفتوح[١٢].

ثانيًا القباب

١ - قبة الصخرة

سبق التعرض لها ضمن الحديث عن مسجد قبة الصخرة.

٢ - قبة السلسلة

توجد داخل الحرم القدسي الشريف، وقد أنشأها عبد الملك بن مروان، في ٧٢هـ/ ٦٩٢م. وهي على عكس ما

اعتقد البعض، من أنها مجرد نموذج لقبة الصخرة المشرفة، لمجاورتها لها، ولكن هي إحدى قبتين، قد تم إنشاؤهما لتخليد حادثتي الإسراء والمعراج، وهما قبة الرسول أو السلسلة، وقبة جبريل، وقيل إن التسمية جاءت من وجود سلسلة بها، يمسها المتقاضون فتحالف الصادق، وأن داود (عليه السلام) استخدمها، لحسم النزاع بين الخصوم. ولهذه القبة شكل سداسي، حيث يحملها مسدس، به ستة عشر عمودًا، وتحمل الأعمدة عقودًا، ترتكز عليها رقبة القبة، وخارجها أحد عشر عمودًا، تحمل عقودًا مماثلة، وقد تم السد بين اثنين من الأعمدة لإنشاء المحراب، وكسيت القبة ببلاطات القاشاني التركي، عندما تم ترميمها في عهد السلطان التركي سليمان القانوني، في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكانت هناك قبة قديمة، دمرها الفرنجة، ارتكزت على ثمانية أعمدة، لتضاهي قبة الصخرة المقدسة، شكلًا[١٣].

٣- قبة مهد عيسى

هي عبارة عن بناء تذكاري، تم إنشاؤه في العهد العباسي، وقيل في العصر الأموي، في عهد عبد الملك بن مروان، في ٧٢هـ/ ٦٩٢م. وأنه قد تم تجديده في العهد العثماني فحسب، في ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م. وهي قبة صغيرة، تحمل على أربعة أعمدة رخامية، على أربعة عقود مدببة، ويوجد تحتها حوض حجري، على شكل مهد، قيل إنه كان مهدًا للسيد المسيح. وأمام هذا الحوض محراب حجري مجوف، يعتقد أن السيدة مريم العذراء كانت تتعبد أمامه، وهذا كلام بعيد عن الصحة، حيث إن المسيحيين، أنفسهم، لا يعتقدون به، ولم يهتموا بالمكان إلا بعد الفتح الإسلامي[١٤].

٤- قبة يوسف

تقع داخل الحرم القدسي الشريف، وقد تم إنشاؤها، سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ويقال إنه قد أنشأها عوضًا عن قبة أخرى قديمة، قد هدمها الفرنجة، أثناء احتلالهم للقدس، وقد تكون هي ذاتها المعروفة بقبة جبريل. وقد تم تجديدها في العصر العثماني، في ١٩٠٢هـ/ ١٦٨١م. وهي بناء مربع، قاعدته عبارة عن عمودين رخاميين، ولها جدار واحد، ناحية القبلة؛ ولذا فهي عبارة عن ثلاثة عقود مفتوحة، وجدار مسدود، بواسطة حنية صغيرة، تشبه المحاريب المجوفة. وقد أشرف على تجديدها علي أغا يوسف أغا[١٥].

٥- قبة المعراج

هي داخل الحرم القدسي الشريف، في الشمال الغربي لقبة الصخرة، وقد أنشأها الأمير عز الدين عثمان بن علي الزنجلي متولي القدس في عهد السلطان العادل أبي بكر بن أيوب، وكان الهدف من إنشائها تخليد ذكرى الإسراء والمعراج، وهي ذات تصميم معماري نادر، وإن كانت تقوم على مثمن، كما في قبة الصخرة، فكل ركن من أركان المثمن به أربعة أعمدة مدمجة، فيما عدا الجهة الجنوبية، فكان بها ثلاثة أعمدة فقط. وبذلك يكون بها ثلاثون عمودًا، تحمل ثمانية عقودٍ مدببة، وقد سدت فتحاتها بالرخام، عدا ضلع في الناحية الجنوبية، فقد شيد به محراب حجري، يقابله ضلع آخر من الناحية الشمالية، به باب الدخول إلى القبة، وتحول أعلى المثمن إلى دائرة، شيدت عليها خوذة القبة[١٦].

٦- قبة سليمان

مكانها، أيضًا، داخل الحرم الشريف، ويعتقد بأنه كانت هناك قبة بالاسم نفسه في العصر الأموي، أو ربما تم

تشييدها في العصر الأموي بعد تشييد قبة المعراج. فقد قيل إنها أنشئت، في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج، أو تقليدًا للقباب الصغيرة، المعروفة باتصالها بهاتين الحادثتين، وهي، أيضًا، عبارة عن مثمن، يبدأ بأربعة وعشرين عمودًا من الرخام، تحمل عقودًا مدببة، سدت منها ستة بألواح الرخام، وخصص أحد الأضلاع بابًا للدخول، وبعد المثمن تم تشييد رقبة أسطوانية للقبة، بها ثماني نوافذ للإضاءة، وفوق الرقبة خوذة القبة الحجرية، وبداخل القبة صخرة ثابتة، يعتقد بأنها جزء من الصخرة المشرفة[١٧].

٧- قبة موسى

تقع داخل الحرم القدسي الشريف، على مقربة من البائكة الجنوبية الغربية، وقد أنشأها الملك الكامل الأيوبي سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م. وكانت مخصصة لتعبد أمراء الأيوبيين، عند زيارتهم للقدس، أو لتعبد بعض مشاهير الشيوخ بعد ذلك، وهي عبارة عن بناء مربع الجدران، به نوافذ للإضاءة، أنشئ به من الداخل والخارج بعض المحاريب، ولها باب في الضلع الشمالي، المواجه للقبة، وتم تحويل المربع إلى مثمن، وفتحت في أضلاعه نوافذ للإضاءة، وعلى المثمن شيدت خوذة القبة المثمنة[١٨].

٨- القبة القيمرية

تقع خارج أسوار القدس، ومُنشئها مجهول الاسم، ولكنه ربما يكون والي القدس في بداية العصر المملوكي، في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وقد شُيِّدت لتكون مدفنا لبعض شهداء حروب الفرنجة بالشام، وهي على مساحة مربعة الشكل في ضلعها الشمالي مدخل، وتم تتويجها بعقد ثلاثي بسيط، وأمام المدخل من الداخل حنية المحراب الحجري، وهو خال من الزخرفة، وتم تحويل المربع إلى مثمن، شيدت عليه رقبة القبة المثمنة، وفتحت لها نوافذ إضاءة، وهي، أيضًا، لتخفيف ثقل البناء[١٩].

٩- قبة الأرواح

تقع داخل الحرم القدسي الشريف، على مقربة من قبة المعراج، وقد تكون من إنشاءات السلطان سليمان القانوني، أو أحد ولاته على القدس، في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وقد جاءت التسمية نتيجة لقربها من مغارة الأرواح، وهي مشيدة على مثمن، يتكون من ثمانية أعمدة رخامية، لكل منها تاج مختلف، ولكل منها زخرفة جميلة، وتحمل على الأعمدة ثمانية عقود حجرية عليها رقبة واسعة، وحول الأعمدة من أسفل ثمة مدماك حجري يلفها جميعا، ومن هذا المدماك تم تشكيل محراب باتجاه القبلة، وثمة نجمة زخرفية، جميلة الشكل، في منتصف القوس الموجود أعلى المحراب[٢٠].

١٠- قبة الخضر

وهي داخل الحرم الشريف، ولم يعرف منشئها، ويبدو أنها قد شيدت للإشارة إلى حاصل من حواصل الحرم القدسي الشريف، والذي يقع أسفل القبة، ولا يزال مستخدمًا في تخزين احتياجات الحرم. وتقوم هذه القبة على ستة أعمدة رخامية، تحمل عقودًا حجرية مدببة مزخرفة، وهي تشكل مسدسًا، هو ذاته رقبة القبة، وقد تم تشييد الخوذة بفن، وبراعة. وفي داخل القبة بلاطة حمراء على شكل محراب باتجاه القبلة[٢١].

١١ - قبة النبي

توجد داخل الحرم القدسي الشريف، غربي قبة الصخرة، وأنشأها محمد بك، صاحب غزة، والقدس الشريف، ثم السلطان العثماني عبد المجيد الثاني. وكان بداية إنشاء القبة هو المحراب، الذي عرف «بمحراب النبي»، وأمر بتشييده، في نهاية ٩٤٥هـ/ ١٣٥٨م، محمد بك لواء غزة والقدس الشريف من لدن السلطان العثماني، سليمان القانوني، وهو محراب رخامي، يرتفع قليلًا عن الأرض، وهو على شكل مستطيل، ينتهي بشكل ثلاثي الأضلاع، أكثر ارتفاعا من باقي المستطيل، ثم قام السلطان عبد المجيد بن محمود بتشييد قبة فوق المحراب، في عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، عبارة عن مثمن، قاعدته ثمانية أعمدة رخامية، تحمل ثمانية عقود حجرية مدببة، نهايتها هي رقبة القبة، وعليها خوذة القبة[٢٢].

١٢ - قبة يوسف أغا

تقع داخل الحرم القدسي الشريف، إلى الغرب من المسجد الأقصى، وبناها يوسف أغا الوالي العثماني على القدس، في ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م. وكانت للعبادة، وعلى مقربة من المسجد الأقصى، وهي مساحة مربعة الشكل، شيدت بمداميك من الأحجار، وفتح على ساحة الحرم ثلاثة جدران كاملة، باستخدام عقود مدببة، وفي الجدار الجنوبي تم تشييد محراب بسيط مجوف[٢٣].

ثالثا: الاعتداءات على الآثار الإسلامية في القدس

لقد تعرضت مدينة القدس، وآثارها، للكثير من الاعتداءات، والنهب، على مر العصور المختلفة. ففي أثناء احتلال الفرنجة تم تحويل العديد من المساجد إلى كنائس، منها مسجد قبة الصخرة المشرفة، وجزء من المسجد الأقصى، فضلًا على اتخاذ جزء منه كمسكن لفرسان المعبد، كما تم تحويل مسجد النساء إلى مطعم لفرسان الهيكل، وتم أيضًا تعرض المسجدين الأقصى، وقبة الصخرة المشرفة إلى عمليات نهب للقناديل المصنوعة من الذهب، والفضة، والتي تعد ثروة هائلة، وغيرها مما لا يمكن إحصاؤه من غنائم[٢٤].

وخلال الاحتلال الصهيوني الراهن، قام الصهاينة بالعديد من الاعتداءات المخططة على مدينة القدس، من تدمير للمنشآت الإسلامية، والأثرية، كما قاموا بخلع بلاطات الممر المؤدي إلى باب المغاربة، من الجهة الغربية، والذي يعود إلى العصر الأموي، كمحاولة لتغيير هوية المكان، وادعى الاحتلال القيام بأعمال الترميم[٢٥].

في سبيل تحقيق أغراضها، قامت سلطات الاحتلال، وأجهزتها المختلفة، من رجال الحكم، والدين، والجيش بمواصلة أعمالهم، ومخططاتهم، من أجل وضع أيديهم على الحرم القدسي الشريف، ومحاولات هدم المسجدين، الأقصى، وقبة الصخرة، وطمس معالمهما، وإقامة الهيكل اليهودي على أنقاضهما، وحتى يتمكن الاحتلال من تحقيق ذلك، فقد قام بعدد من الاعتداءات، والتي من أهمها ما يلي:

- قيام قوات الاحتلال الإسرائيلي بمصادرة باب المغاربة، المؤدي إلى الحرم الشريف وإقامة وحدة عسكرية، سهَّلت دخول اليهود لإقامة صلواتهم داخل ساحة الحرم الشريف.

- قامت القوات الإسرائيلية بمصادرة أربعة أحياء عربية في الجهة الغربية للمسجد الأقصى، وأجلت سكانها، وقامت بهدمها، حتى توسِّع ساحة البراق، والتي يزعمون أنها «حائط المبكى».

- تمت إقامة الحفريات غير الشرعية أسفل المسجد، والتي تهدد بسقوطه، حيث يتم حفر نفق أسفل سور المسجد.

- في ٢١/ ٨/ ١٩٦٩م تم إحراق المسجد الأقصى المبارك، وكان الحريق في الجانب الشرقي، وتم حرق محتوياته، بما في ذلك منبر صلاح الدين الأيوبي، أو منبر نور الدين زنكي.

- أصدرت محكمة صلح إسرائيلية قرارًا أباح لليهود الصلاة داخل الحرم القدسي الشريف. في (٢٨/ ١/ ١٩٧٦).

- تمت محاولة لنسف الحرم القدسي، قام بها بعض رجال الجيش الإسرائيلي، في آذار/ مارس ١/ ٣/ ١٩٨٠، حيث قاموا بإحضار كمية من المتفجرات إلى مدرسة دينية يهودية مجاورة، ولكنها اكتُشفت قبيل التفجير.

- قام أحد أفراد الاحتلال، مع بعض زملائه، بالهجوم المسلح على مسجد قبة الصخرة المشرَّفة، في ١١/ ٤/ ١٩٨٢، مما تسبب في استشهاد اثنين، وجرح ٤٤ من المسلمين الموجودين فيه، وحوله.

- محاولة لنسف المسجد الأقصى، أعد لها فريق من ٤٦ من الإسرائيليين، قاموا بالتسلل أسفل المسجد، عن طريق الحفريات، حاملين مواد متفجِّرة تكفي لنسف جميع الأماكن المقدسة داخل الحرم، وتم اكتشافهم من قبل رجال الحرس الخاص بالأوقاف الإسلامية، وتم إبلاغ الأمن الإسرائيلي، الذي قام باعتقالهم، مع معداتهم، وأقيمت لهم محاكمة صورية، كما هو معتاد لغيرهم ممن سبق لهم الاعتداء، وأخيرًا تم الإفراج عنهم.

- وفي ٢٦/ ١/ ١٩٨٤م، جرت محاولة ثالثة لنسف الحرم، بما فيه من المسجدين، الأقصى، وقبة الصخرة المشرفة، من قبل جماعة من جيش الاحتلال، لاذوا بالفرار، لدى اكتشافهم من الحرس الخاص بالحرم، تاركين كميات من المتفجرات والأسلحة[٢٦].

و بعد، فإن لمدينة القدس قدسية كبيرة لدى المسلمين ، وهي زاخرة بالمقدسات الإسلامية، خاصة المساجد، وتنبع أهميتها من أنها تمثل تاريخ أمة لم ولن يتمكن العدو من القضاء عليها، فهي تحيا رغم كل المخططات، والمعوقات. والقدس ليست مجرد ذكريات يأتي عليها الزمن بالنسيان، وإنما هي محفورة في الوجدان، وهي جزء من كيان أمة، أبت الاستسلام، وسعت وراء النصر، على مر العصور والأزمان.

لذلك علينا، نحن أصحاب الحق، أن نحاول في سبيله فعل أي شيء، وكل شيء؛ فالقدس صمدت أمام جميع المحاولات السابقة، منتصرة، ولن تتوقف هذه الانتصارات، ما دام هناك من يتمسكون بحقهم، وأرضهم، ويناضلون باذلين الغالي، والنفيس في سبيلها.

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) د. إسحاق موسى الحسيني، **عروبة بيت المقدس**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، يوليو/ تموز ١٩٦٩، سلسلة «دراسات فلسطينية» (٦١)، ص٤٦.

(٢) د.سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (٦٥)، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٤٦.

(٣) **الموسوعة الحرة «ويكيبيديا »**، موقع إليكتروني،ar.wikipidia.org

(٤) د.جمعة أحمد قاجة، **موسوعة فن العمارة الإسلامية**، بيروت، دار الملتقى للطباعة والنشر، ودمشق، دار الحصاد للطباعة والنشر، ٢٠٠٠، ص ٦٧: ص٧٢.

ـ **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الرابع، ط١، بيروت، ١٩٩٠(انظر: عفيف بهنسي، العمارة والزخرفة في فلسطين منذ الفتح الإسلامي، ص٨٠١).

(٥) د.شوقي شعث (تحرير)، **دراسات في تاريخ وآثار فلسطين**/ وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، حلب، جامعة حلب، مركز الآثار الفلسطينية، ١٩٨٤ (انظر: عبد القادر ريحاوي، تاريخ الحرم القدسي الشريف وآثاره ـ الأقصى الشريف وقبة الصخرة في تاريخ الفن والعمارة، ص٨٦: ص)٩١.

ـ الموسوعة الفلسطينية ، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٠١: ص٨٠٣.

(٦) شعث، مصدر سبق ذكره (انظر: أحمد قاسم جمعة، العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، ص٦٧).

(٧) الموسوعة الحرة، **موقع إليكترونى سبق ذكره**.

ـ عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، ٢٠٠٧، ص٤٨،٤٧.

ـ ريحاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص٩٢: ٩٤.

ـ **المرجع نفسه**، ص٩٤: ٩٧.

لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى قاجة، **مرجع سبق ذكره**، ص٥٩: ٦٧.

(٨) **المرجع نفسه**، ص ٦١ :٦٧

ـ شعث، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: جمعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩).

ـ المرجع نفسه، انظر سعيد الديوة جي، قبة الصخرة، وما لفقوه عن سبب بنائها، ص ٧٣ .

ـ الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٦.

(٩) قاجة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٦ .

(١٠) د.أحمد الصاوي ،**القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى** ، سلسلة « كتاب القدس» ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(١١) **المرجع نفسه**، ص٣٦:٣٨ .

(١٢) **المصدر نفسه**،ص ٣٨: ٤١.

(١٣) **المركز الفلسطيني للإعلام**، موقع إليكتروني. wwpalastine_info /arabic /alaqsa

(١٤) **حماة الأقصى**، موقع إليكتروني www.to aqsa.net.

(١٥) **المركز الفلسطيني للإعلام**، موقع إليكتروني، **مصدر سبق ذكره** .

(١٦) **الموقع نفسه.**

(١٧) **الموقع نفسه.**

ـ **موقع إليكتروني** www.vahdet.com.

(١٨) م. رائف يوسف نجم وآخرون، **كنوز القدس**، ط١، ١٩٨٣، عمان، د.ن، ١٣٩.

(١٩) الصاوي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧١، ٢٧٠.

(٢٠) **موقع إليكتروني** www.almsjd_alaqsa.com

(٢١) حماة الأقصى، موقع إليكتروني، **مصدر سبق ذكره.**

(٢٢) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص٧٢.

(٢٣) **المركز الفلسطيني للإعلام**، موقع إليكتروني، **مصدر سبق ذكره.**

(٢٤) معين حسيب فرج الله، **تاريخ القدس العربية**، بيروت، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، ط١، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٧، ص٨٠.

(٢٥) رئيس الهيئة الإسلامية في القدس الشيخ عكرمة صبري، **إسرائيل تزيل الآثار الإسلامية لتهويد القدس**، من حوار أجرته **النهار**، (بيروت)، ٧/ ٢/ ٢٠٠٧، أورده: **القدس بين الأسرلة والتهويد**، العدد ٤١، ص٤٠ .

(٢٦) روحي الخطيب، القدس في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي، **شؤون عربية**، (تونس) العدد ٤٠، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤، ص٤٨.

* * *

الفصل الثالث

كنائس القدس

إسلام أحمد عبد الظاهر

بتنوعها الحضاري والثقافي، وأهميتها الدينية، لدى أصحاب الديانات الثلاث، اكتسبت معالم مدينة القدس أهمية خاصة، انفردت بها، دونًا عن مدن العالم.

لما كان الدين، في فترة من التاريخ، يعتبر أحد أهم أشكال تثبيت الحكم، وإعطائه الشرعية لتوطيده، فقد كانت للمعالم والأبنية الأثرية في مدينة القدس أهميتها السياسية، بجانب الأهمية الدينية، والثقافية، لمعظم الممالك والإمبراطوريات، في العصور الوسطى، في سبيل إظهار السيطرة والقوة، في أهم مكان تلتقي فية الديانات الثلاث، وتعضيد الـمُلك، بإظهار الحاكم في صورة حامي الدين والعقيدة.

لهذا يظهر في مدينة القدس، بوضوح، تأثر العمارة بالعوامل الدينية، والثقافية، والسياسية، وعلى وجة الخصوص العمارة المسيحية، حيث كانت المسيحية من أبرز السمات التي ميَّزت التاريخ الوسيط، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون عليه: «العصر المسيحي».

كانت البداية الحقيقية للعمارة المسيحية في مدينة القدس، عندما زارت الملكة هيلانة، أم الإمبراطور قسطنطين العظيم، القدس، بعد أن حدثها مطران المدينة عن الحالة المتدهورة للمدينة، فقررت زيارتها، وغادرت القسطنطينية في عام ٣٢٦م، ومعها الأموال التي زوَّدها بها الإمبراطور، لإعمار المدينة، وقد استعانت بمطران المدينة، في البحث عن صليب الصلبوت، الذي يعتقد المسيحيون أنه صُلب عليه المسيح، واكتشاف الأماكن التي عاش فيها المسيح، وتتبع ما يعتقدون أنها خطوات القبض عليه، ومحاكمته، وصلبه، وقد حرصت الملكة على أن تخلِّد ذكرى تلك الأماكن، ببناء الكنائس فيها، مثل المكان الذي عثر فيه على صليب الصلبوت، والقبر المقدَّس، وتلة الجلجثة، التي

يعتقدون أنها صلب فوقها المسيح، سنة ٣٣٠م، وأيضًا عملت الملكة، بمساعدة المطران، على إزالة معالم الطمس والتشويه، التي مارسها اليهود، بأوامر من الإمبراطور الروماني، هادريان، ضد الأماكن والمعالم التي ارتبطت بالمسيح، فاستمرت عملية بناء الكنائس، وإضفاء الرونق المعماري البيزنطي على الأماكن والمعالم المقدسة في المدينة، حيث تركت الإمبراطورة لأسقف المدينة أموالًا، لبناء مزيد من الكنائس فى جميع الأماكن المقدسة، وتم تدشين الكنيسة، بالفعل، فى ١٣ يوليو/ تموز من سنة ٣٣٥م، بحضور البطريرك أثانيوس الرسولي، بابا الإسكندرية، وسائر بطاركة الكرسي الرسولي[١].

استمرت تلك النهضة المعمارية، حتى بعد عهد الإمبراطور قسطنطين، في موجة ممتدة، فبنى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني العديد من الكنائس، والأديرة، وقامت زوجته، يودوكسيا، التى قامت برحلة حج، في سنة ٤٣٨م، انتهت في ١٥مايو/ آيار سنة ٤٣٩م، بتكريس مزار للقديس إستفانوس، خارج البوابة الشمالية للمدينة، وعندما نُفيت يودوكسيا للمدينة، في سنة ٤٤٤م، قامت ببناء العديد من الكنائس، والأديرة، وظلت تشرف على هذه الأبنية[٢]. وفي عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧)، بنى دارين للضيافة، إحداهما للحجاج، والأخرى للمرضى، بالإضافة للعديد من الكنائس والأديرة، التي قيل إنها بُنيت إمعانًا في إذلال اليهود، الذين ثاروا ضد الإمبراطور[٣].

لكن المقدسات المسيحية في القدس تعرضت للاضطهاد بداية من عام ٣٦١م، على يد الإمبراطور الروماني جوليانوس، الجاحد أو (المرتد)، حيث عمل على اضطهاد المسيحية، ومحاربتها، مما انعكس، سلبًا، على المقدسات المسيحية فى القدس، حيث تم تدمير العديد من الكنائس، وطمس المعالم المسيحية[٤].

في عام ٦١٤م، غزا الفرس القدس، في إطار حربهم ضد الدولة البيزنطية، مما جعل الفرس يقومون بأعمال تشويه، وتدمير للمقدسات والمعالم المسيحية في المدينة، بمعاونة اليهود، بالإضافة إلى استلاب صليب الصلبوت، الذي استعاده الإمبراطور هرقل من الفرس، بعد صلحه معهم، ودخوله المدينة عام ٦٢٩م، وإصلاح الكنائس، والأبنية المسيحية[٥].

أما بعد الفتح الإسلامي، وبمقتضى «العهدة العمرية»، التي نصَّت على: «هـذا ما أعطى عبد الله، أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب)، أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبناهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صُلُبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم».

لذ، فقد حرص المسلمون على المحافظة على مقدسات المسيحيين، وأملاكهم، ولم يتعرض المسيحيون لأي نوع من الاضطهادات، طوال فترة الخلافة الراشدة[٦].

في عهد الأمويين، لم يطرأ تغير كبيرعلى معاملة المسلمين والحكم العربي للمسيحيين بالقدس، فنرى أن الخليفة عبد الملك بن مروان يُوكل مهمة بناء المسجد الأقصى للمسيحيين، مع السماح لهم بتوارث الخدمة فيه[٧].

فى عصر العباسيين ـ الذين لم ينتهجوا سياسة سلبية ضد المسيحيين ـ سمح الخليفة هارون الرشيد، فى سنة ٧٨٦م، للإمبراطور الفرنسى، شارلمان، بترميم الكنائس، وبناء كنيسة باسم السيدة العذراء، وأيضًا بالإشراف على الحجاج المسيحيين[٨].

في عهد الدولة الفاطمية، هُدمت كنيسة القيامة، سنة ١٠٠٩م بعد أن أمر الخليفة، الحاكم بأمر الله، واليه على الشام بهدمها، حيث أرسل إليه يقول: «أمر الإمامة بهدم قمامة، فاجعل سماءها أرضًا وطولها عرضًا». فهُدمت الكنيسة[٩].

في فترة احتلال الفرنجة، تعرض المسيحيون الشرقيون لمضايقات، على يد الغزاة اللاتين، فنجد أن الأخيرين عينوا بطريركًا لاتينيًّا للقدس، على الرغم من وجود بطريرك المدينة الشرعي، واستمر تعيين بطريرك لاتيني طوال فترة الاحتلال الفرنجي، بالإضافة إلى تجريد الأرثوذكس العرب من بعض مهامهم ـ المقدسة ـ مثل حراسة القبر المقدس.

انتهت هذة المضايقات، باسترداد السلطان صلاح الدين الأيوبي للمدينة (سنة ١١٨٧م)، وإرجاع وضع المسيحيين الأرثوذكس إلى ما كان عليه، وأقر لهم صلاح الدين نصيبًا في كنيسة القيامة[١٠].

أما في عهد المماليك، فنرى الملك الأشرف قد أعطى للبطريرك ثاوفيلوس، بطريرك المدينة، مرسومًا موجزه «أن للبطريرك الحق في التصرف فى كنيسة القيامة، وبقية الأماكن المقدسة، تصرف المالك بملكه، كذي حق».

لكن هذه الميزة لم تدم طويلًا، ففي ١٤٣٨م، إبان حكم السلطان المملوكي جقمق (جقمك)، تعرضت القدس للأذى، وخصوصًا المقدسات المسيحية، فهدمت الأديرة، والعديد من الكنائس، على يد الوالي المملوكي (أبنال باي)، مما يؤكد على أن سياسة المماليك تجاه المسيحيين لم تكن واحدة، وتغيرت بتغير الحاكم[١١].

أثناء الحكم العثماني، استند مبدأ التعامل مع المقدسات المسيحية إلى ما يعرف بمرسوم «الخط الهمايونى»، الذي حدد سياسة الدولة العثمانية تجاه المسيحيين في جميع الولايات الخاضعة للعثمانيين، وقد استمرت هذه السياسة، في العصر الحديث، حتى بعد تطبيق نظام الامتيازات الأجنبية، مما أتاح للدول الأوروبية تشييد، وتجديد بعض الكنائس الخاصة بمختلف الطوائف المسيحية. ويعتبر القرن التاسع عشر الميلادي الحقبة الذهبية في تعمير الكنائس المقدسة الشهيرة[١٢].

هكذا، نرى أن بعض المعالم والأبنية الدينية فى القدس، بعضها قد بُني، أو تم تعديله، أو هُدم من أجل أغراض دينية سياسية، فنجد أن الأبنية الأثرية في القدس، وخصوصًا المسيحية، قد اتخذت طرازًا معماريًّا، يظهر من خلاله، بوضوح، تأثره بالصراعات الدينية والسياسية، حيث إن كل طرف سعى لتثبيت وضعيته في المدينة المقدسة، ليستمد منها قوة ونفوذًا على سائر بلاد العالم المسيحي. وقد رأينا هذا بوضوح في حملات الفرنجة، وخصوصا السادسة (١٢٢٧م)، حيث استجدى الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني مدينة القدس (المقدسات المسيحية فحسب)، من الملك الكامل في صلح يافا، حتى يستقوي بها في صراعه مع البابا في روما، ليظهر في صورة المنتصر، الذي سانده الرب حتى بعد صدور قرار من البابا قضى بالحرمان الكنسي على فريدريك الثاني.

أما الطوائف المسيحية في القدس فثماني طوائف رئيسية، تتوزع فيما بينهم المقدسات المسيحية في المدينة[١٣]:

الروم الأرثوذكس: وهي أقدم طائفة عاشت في القدس، منذ السنوات الأولى للمسيحية.

الروم الكاثوليك: أنشأ أبرشيتهم البطريرك مكسيموس مظلوم، سنة ١٩٤٨م، ويقع مقر بطريركيتهم في حارة الموارنة.

اللاتين الكاثوليك: أنشئت بطريركيتهم على يد البابا الروماني، في سنة ١٨٤٧م، ولهم العديد من الرهبانات والإرساليات، أهمها الدومنيكان، والفرنسيسكان.

الأرمن: وينقسمون إلى أرمن كاثوليك، وأرمن أرثوذكس، وكان عددهم، سنة ١٩٤٥، نحو خمسة آلاف، وينقسمون، من حيث الأقدمية في وجودهم بالمدينة، إلى طائفة قديمة تعيش فى دير ماركنجل، شرقي دير مار يعقوب، وطائفة حديثة، أتت إلى القدس بعد اضطهادهم على يد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨م).

الأقباط: يعيشون بالقدس منذ القرن الرابع الميلادي، وفى سنة ١٢٣٦م، تم تعيين أول مطران قبطي، وفى الخمسينيات وصل عددهم إلى نحو خمسمائة من رجال الدين.

الأحباش: جاءوا للقدس بعد القرن الرابع الميلادي، وكان لهم فيها كنائس، وأديرة كثيرة، أضاعوها، وآخرها دير السلطان، الذي دخلوا مع الأقباط فى نزاع حول أحقية ملكيته.

السريان: جاءوا إلى القدس منذ القرن الأول الميلادي، وزاد عددهم أيام الفرنجة، وينقسمون إلى فئتين: السريان الأرثوذكس، والسريان الكاثوليك.

الموارنة: يعيشون بالمدينة منذ عام ١٨٩٥م في حارة الموارنة، بين سوق علون، وحارة الأرمن، ولهم بطريركية باسمهم[١٤].

أما أهم المقدسات في البلدة القديمة، فهي كالتالي:

كنيسة القيامة: تقع بالقرب من باب الخليل، وهي أعظم الكنائس في العالم، حيث قدسيتها، ومكانتها فى قلب مسيحيي العالم. وكنيسة القيامة لا تخص طائفة بعينها، بل إن كل الطوائف المسيحية في القدس تعتبر كنيسة القيامة أقدس مكان بالنسبة لها. هذا بالإضافة إلى أن ثمة العديد من الأديرة والكنائس التي تخص مختلف الطوائف المسيحية داخل كنيسة القيامة، التي استغرق العمل في بنائها إحدى عشرة سنة، إذ بدأ سنة ٣٢٥م، وانتهى عام ٣٣٦م، وأشرفت على بنائها الملكة هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين، وأشرف على البناء، بشكل مباشر، مهندس سوري، اسمه زينوبيوس، ورجل دين من شيوخ الكنيسة، اسمه يوستاثيوس، وتم تكريس كنيسة القيامة سنة ثلاثمائة وست وثلاثين[١٥].

وصف الإدريسي الكنيسة بأنها: «الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم، التي في مشارق الارض، ومغاربها، وهي من عجائب الدنيا، ولها باب من جهة الشمال، ينزل منه إلى أسفل الكنيسة، على ثلاثين درجة، ويسمى هذا الباب باب شنت مرية (سانت مارية)، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة، تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة، وعليها قبَّة معقودة، قد أتقن بنيانها، وحصن تشييدها، وأبدع تنميقها»[١٦].

بدأ البناء عندما أقيمت حول القبر المقَدَّس دائرة واسعة، مكوَّنة من عشرين عمودًا من الرخام، وبناء هيكلين، على جانبى الدائرة، هيكل ثالث إلى الوراء منهما، في مقابل المدخل الكبير للكنيسة، وضم كل هذا قبة كبيرة، ثم شيِّدت، بعد ذلك، بالقرب من القبر المقَدَّس كنيسة موازية له، تسمى «المرتيريون»، ثم قام الفرنجة بتوصيل كل معابد الكنيسة في بناء واحد، وبنوا، شرقي القبر المقدس، كنيسة سميت «نصف الدنيا»، واستمر هذا التكوين المعماري، وإن تأثر،

على مر التاريخ، بحوادث عديدة، أدت إلى إعادة البناء، أو الترميم، مثل الذي حدث في سنوات ١٢٤٤، ١٤٠٠، ١٧١٩م، وبعد الترميم، الذي أعقب حريق ١٨٠٨م، عمد المهندسون إلى إحلال الدعائم الثقيلة بالأعمدة بالدعائم الثقيلة، وإقامة الجدران، بدلاً من أنصاف الأقواس، وبهذه التغييرات اتخذت الكنيسة الشكل المعماري الحالي، وعند المدخل نجد آثار الأعمدة القديمة، وكنائس مريم المجدلية، وماريعقوب الصغير، والأربعين شهيدًا.

يقع باب الكنيسة الرئيسي ناحية الجنوب، وشماله، نجد سلالم تلة الجلجثة، وأمام السلالم حجر أحمر، يعتقدون أنه غُسل عليه جسد المسيح، وأمامه القبر المقدَّس، الذي يعتقد المسيحيون أنه قبر المسيح، حيث يوجد في وسطها بناء عال، فوقه قبة، قطرها ٦٥ قدمًا، وهو يشبه مبنى البارنثيون في روما في شكله، وهو قائم على ١٨ عمودًا، متصلة من أعلاها بأقواس، غاية في الإتقان.

في الشرق أدوات التكريم، والتعظيم، كالقناديل، والمصابيح الذهبية والفضية، والشموع الضخمة، والرايات المقدَّسة، والصور المتقنة، وما عليها من الحلي الذهبية، والفضية، وفي أسفل الواجهة مدخل ذلك البناء إلى الضريح، في غرفة طولها ٢٦ قدمًا، وعرضها ١٧ قدمًا، مثمّنة الشكل، تغطي جدرانها صفائح الرخام، وتنتهي إلى حجرة تسمى «مصلى الملائكة»، طولها ١١ قدمًا، وعرضها ١٠ أقدام، وقد تعلقت في سقفها قناديل من ذهب، وفي وسط هذا المصلى حجر، يعتقد بأنه الحجر الذي دحرجه الملاك عن قبر المسيح، يوم قيامته، ومن هنا جاءت تسمية الكنيسة كلها باسم «القيامة»، وكنيسة «القبر المقدَّس».

من هذا المصلى يؤدي باب ضيِّق إلى حجرة الضريح، وفيها القبر نفسه، وطوله ستة أقدام ونصف، وعرضه نحو أربعة أقدام، وقد تمّت تغطيته برخام بديع، وسقفه قائم على أعمدة جميلة، حيث يتدلى ٤٣ قنديلًا من الذهب: أربعة منها للأقباط، وثلاثة عشر للروم، ومثلها للاتين، ومثلها للأرمن.

على جدران الحجرة نقوش، تمثل مناظر من حياة السيد المسيح، كل منها لطائفة من الطوائف التي تشرَّفت بامتلاك هذا المكان المبارك، وفي الحجرات تُتلى الصلاة، كل يوم[١٧].

شمال القبر، نجد هيكل القديسة مريم المجدلية، وشمال الهيكل نجد كنيسة ظهور المسيح للسيدة العذراء، ووراء هذه الكنيسة يقع دير الفرنسيسكان، ثم منحنى البتول، قبل هيكل حبس المسيح، فهيكل نصف دائري، للقديس لونجيوس ـ الذي يعتقدون أنه طعن المسيح بحربة، ويعتقد أنه آمن بالمسيحية، بعد ذلك. يليه هيكل اقتسام الجند لثياب المسيح، ثم هيكل السخرية، وهو على يمين مدخل كنيسة القديسة هيلانة، ثم تلة الجلجثة، التي بُنيت عليها كنيسة المرتيريون، وفي موضع الصلب نجد فراغًا، مغطى بالفضَّة، على يمينه وعلى يساره حجران من الرخام الأسود، يمثلان اللصين مع الذي ظنوا أنه المسيح، ثم انحدار يؤدي إلى معبد آدم، وعلى يمينة، يقع قبر جودفري، أول ملك فرنجي للقدس، وعلى اليسار قبر الملك بولدوين، ثم هيكلٌ باسم ملكي صادق، وتتوسط كنيسة نصف الدنيا القيامة، ثم هيكل الملاك، في غرب الكنيسة. وأخيرًا هيكل اللاتين. ومنذ أيام البطريرك جرمانوس المذكور، عمل الأرثوذكس اليونان على توسيع كنيسة القيامة، ولما دب الحريق في الكنيسة، سنة ١٨٠٨م، توصلوا إلى الانفراد بترميم أكبر قسم منه، بموجب مخطوطات الأرثوذكس اليونان، ولهم اليوم أكبر حصة فيها، ومنها كنيسة نصف الدنيا، وفي كل يوم يقيمون الصلاة هناك[١٨].

تمتاز كنيسة القيامة بوجود كنائس، وأديرة كثيرة بداخلها، متشابكة، لا يكاد يفصلها عن بعضها البعض سوى جدار، أو هيكل، أو حتى عمود، مما جعل الطوائف المسيحية تتشارك فى ملكية بعض الأماكن داخل القيامة، مع بعضهم البعض. ومن أشهر هذه المقدسات المسيحية فى ساحة القيامة، أو داخلها:

دير أبينا إبراهيم، الذى يقع عند ساحة القيامة شرقًا، وقد اشترت بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس دير القديس إبراهيم، عام ١٦٦٠م، من الأحباش، وأكملوه، وعثروا تحته، نحو سنة ١٦٩٠م، على كنيسة قديمة، تعرف بكنيسة الرسل، وتم تجديده ١٨٨٧[١٩]، يتكون من ثلاثة طوابق، والسطح جلوني، قرميدي، مستو، والسقف عبارة عن عقد نصف برميلي مستو، والأرضيات من بلاط كراميكا، وبلاط حجري[٢٠]. كذلك **كنيسة السيدة العذراء**، التي تقع داخل سور المدينة، جنوب كنيسة القيامة، وتتكون من طابقين، ويتخذ السطح شكل قبة، فيما يتكون السقف من عقد متقاطع، وعقد نصف برميلي، أما الأرضيات فتتكون من بلاط حجري[٢١].

دير السلطان: من المعروف أن كلمة «السلطان» تطلق على ملوك المسلمين، وقدجرى العرف على وجوب تسمية الأديرة بأسماء القديسين، ولو أن غير المسيحيين يفضِّلون، أحيانًا، تسميتها باسم البلد، أو المكان الذي توجد به، ولعل دير السلطان هو الوحيد بين الأديرة المسيحية الذي له اسم إسلامي الصبغة.

يرجع ذلك، غالبًا، إلى أحد أمرين: أحدهما: أن هذا الدير وموضعه كان هبةً من أحد السلاطين للأقباط، منسوبًا إليه إقرارًا بفضله، أو أن السلطان اتخذه لإقامة عماله في القدس، أو لإيواء رسله، الذين كان يوفدهم إلى الأقطار التابعة له، كالشام التي كان الطريق إليها من مصر عن طريق القدس؛ حيث كان يبدأ الطريق إلى الشام، الذي عُبِّد في أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٤- ٧٠٥م).

تاريخيًّا ثمة أمثلة لرجال من الأقباط تولوا مناصب رفيعة بالقدس، وكانت الأديرة مقر إقامتهم، مثل «أبي اليُمْن قزمان بن مينا»، الذي يقول عنه، ساويرس بن المقفع، المؤرخ القبطي المعاصر له: «إنه كان ناظرًا لكافور الإخشيدي (٩٦٥م) في كورة مصر، ولما تملك المعز، عيّنه في القدس؛ نظرًا لحسد يعقوب بن كلس، اليهودي الأصل له...». وفي رواية أخرى، أن أبا اليُمْن كان يقيم في دير السلطان.

يقول الرحالة ويليامز، الذي زار دير السلطان، عام ١٨٤٢م، في كتابه «المدينة المقدسة» :إن قسيس الدير روى له أن أحد سلاطين المماليك عرض على كاتبه مكافأة سخية، نظير إخلاصه في خدمته، مدة طويلة، فاعتذر عن قبولها، والتمس منه، عوضًا عن ذلك، أن يسمح له بتعمير الدير المخرَّب بالقدس، ليستطيع إخوته الانتفاع به، فأجاب السلطان التماسه، عن طيب خاطر، وبقيت ذكرى هذا الصنيع ممثلةً، لا في الاسم الذي يطلق على الدير فحسب، ولكن أيضًا في سلسلة حديدية ثقيلة، ثُبتت في الحائط، بجوار الباب، كشهادة بأن الدير يحظى برعاية السلطان، وحمايته، وهكذا أمكن المحافظة على حيازة الأقباط لهذا المكان. ومع أن هذه الرواية تعوزها الدقة؛ لأن تسمية الدير باسم السلطان ترجع إلى وقت إنشائه، لا إلى وقت تجديده، فإنها، مع ذلك، تدل على أن الدير كان بيد الأقباط، قبل سقوط دولة المماليك، عام ١٥٧١م، بزمن طويل، بدليل أنه كان في عهدهم خربًا، واقتضى الحال ترميمه[٢٢].

يقع دير السلطان بجوار كنيسة القيامة، وتبلغ مساحته ١٨٠٠م، تقريبًا، وهو متصل من الشمال بدير مارأنطونيوس، ومن الغرب بمباني كنيسة القيامة، وفي الزاوية الجنوبية الغربية لساحة الدير، كنيستان تاريخيتان، على الطراز القبطي:

إحداهما علوية، وهي كنيسة الحيوانات الأربعة غير المتجسدين، ومساحتها ٤٢م، ولها هيكل واحد حجابه مطعّم بالعاج، حسب النسق القبطي القديم، نُقش في أعلاه تاريخ ١١٠٣م ، وعليه، وعلى الحائط الجنوبي علّقت ثماني أيقونات قبطية قديمة. ويحيط بالكنيسة، من ناحيتها الشمالية والغربية، سياج حديدي يفصلها عن الممر الذي يسير محاذيًا إلى السلم المؤدي إلى الكنيسة الثانية، وهي باسم الملاك ميخائيل، وتقع في الطابق الأرضي، ومساحتها ٣٥م، ولها هيكل واحد، في أعلاه تاريخ مدوَّن برموز مشتقة من الحروف القبطية، وعلى الحجاب والحائط الجنوبي للكنيسة أيقونات قبطية قديمة، وحول الكنيسة من ناحيتها الشمالية والغربية سياج حديدي، يفصلها عن الممر المؤدي إلى الباب، الذي يفتح منها على ساحة القيامة[٢٣].

دير مارأنطونيوس: يقع في شمال كنيسة القديسة هيلانة بالقيامة، وقد أُصلح، وأضيفت إليه مبان جديدة، في سنة ١٨٧٥م، بتبرعات من أغنياء الأقباط، وفي سنة ١٩٠٧ عُمِّر من جديد، وفي سنة ١٩١٢م، صار لائقًا لجعله مقرًا رسميًّا للبطريركية، بعد تجديد كنيسته، وأساساته القديمة[٢٤]. وبالطابق الثاني من هذا الدير كنيسة مارأنطونيوس، وهي ملاصقة للحائط الشمالي لكنيسة القيامة، وأمامها فناء واسع، يقع على سطح الدور الأرضي، تحده من الجنوب والشرق مساكن للرهبان، ومقر رئاسة الدير، والكلية الأنطونية.

يرجع تاريخ بناء كنيسة مارأنطونيوس، التي تعتبر كنيسة الدير الكبرى، إلى عهد الأنبا باسيليوس الثاني، أو الكبير (١٨٥٦ - ١٨٩٩م)، وأكمل زينتها، ودشّنها الأنبا تيموثاوس، كما يتضح من الكتابة المدوَّنة فوق بابها. لكنيسة مارأنطونيوس هيكل واحد، وعلى حجابها أيقونات، طرازها بيزنطي، في أعلاه أيقونات للاثني عشر رسولًا، وعلى حوائطها، وأعمدتها صور مختلفة، وفي الطابق الثالث ثمة كنيسة أنشأها، في إحدى غرف الدير، المطران الراحل، الأنبا باكوبسوس، تذكارًا لظهور السيدة العذراء في هذه الغرفة لبعض طلبة الكلية الأنطونية، ولها هيكل واحد، ويقام فيها القداس الإلهي في صباح يوم الإثنين من كل أسبوع، تذكارًا لظهور السيدة العذراء، وفي الطابق الرابع ثمة مقر البطريركية، ومسكن المطران، وبه ردهة كبيرة للاستقبال، تطل نوافذها الجنوبية على فناء الدير، ومساكن الرهبان، والكلية الأنطونية[٢٥].

دير مارجرجس: يقع في حارة الموارنة، على مقربة من باب الخليل، ويرجع تاريخ بنائه للقرن السابع عشر، فلم ترِدْ إشارة إليه فيما كتبه المؤرخون قبل ذلك، ومن المؤكّد أنّه في سنة ١٧٢٠م، كان في المكان نفسه، الذي به الآن، ومن بين الوثائق الرسمية المتعلقة بأملاك الأقباط في القدس، وثيقتان قديمتان، أولاهما عبارة عن أمرٍ صادر من الشرع الشريف إلى معمارباشي مدينة القدس، بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٣٦هـ، الموافق ٢٧ ديسمبر/ كانون الثاني ١٨٢٠م، يتضمّن الإذن بترميم محلات دير السلطان، والدار الملاصقة له، ودير الخضر (مارجرجس)، وقد أشار نيوفتيوس إلى هذا الدير، في سياق كلامه عن المنازل التي اشترتها طائفة الروم الكاثوليك، بجوار دير مارجرجس، المملوك للأقباط. وقال الرحالة الإنجليزي روبنسون (١٨٣٨م) إنّه يقع في الجانب الشمالي لبركة حزقيال، وإنّ الأقباط كانوا قد فرغوا من إعادة بنائه، عند زيارته للقدس. ويقول توبلر، (١٨٥٣م)، إنّه يقع بجوار دير القديس ديمتربوس، غرب بركة حمام البطريرك، وأنّه يعتمد في نفقاته على عطاءات الحجاج، التي تتراوح، سنويًّا، بين ٣ و ٥ آلاف قرش. وقد جدّد الأنبا باسيلوس الكبير هذا الدير، وكنيسته، وعمل لها حجابًا بيزنطي الطراز، يحمل تاريخ ١٨٨٢م، والحجاب مكتوب فوق بابه الأنبا باسيليوس (١٥٩٧ ش ١٨٨١م)، أمّا الدير نفسه فمكتوب على بابه:

«الأنبا تيموثاوس(١٦١٧ ش ١٩١٠م)، ومعنى هذا أنّ كلًّا منهما قام، في السنين المذكورة، بإصلاحات، وتجديدات في الدير، والكنيسة. وللكنيسة هيكل واحد، وبها أيقونات أثرية جميلة، وتجري فيها خدمة القداس الإلهي، في كل يوم خميس، ويقيم بها الأرمن قدّاسًا، عندما يحتفلون بعيد مارجرجس، في ٧ أكتوبر/ تشرين الأول، سنويًّا، مقابل إقامة الأقباط قداس ليلة عيد الميلاد[٢٦]. يتكون من ثلاثة طوابق، وشكل السطح مستو، والسقف متنوع بين عقد متقاطع، ومستوٍ بدوامر حديدية، والأرضيات مكوَّنة من بلاط حجري، وبلاط أسمنتي حديث[٢٧].

القلعة (برج داود): تقع عند باب يافا الغربي، وهي عبارة عن حصن كبير، بُني أيام الملك هيرودوس الكبير، ونجا الحصن من تدمير المدينة، سنة ٧٠م، على يد القائد الروماني، تيطس، ولكن الإمبراطور سافيروس هدمه، ثم تمت إعادة بنائه على يد الإمبراطور هادريان، ثم هُدم عدة مرات، أشهرها على يد الخليفة المعتصم، سنة ١٢١٩م، أما البناء الحالي فقد تم بناؤه فى عهد السلطانَيْن العثمانيين، سليم الأول، وسليم الثانى[٢٨].

دير ماريعقوب: يقع بجوار القلعة، فى حارة الأرمن، حيث تخلَّد ذكرى استشهاد الرسول، يعقوب الكبير ـ الذي كان الإسبان يقدسونه، حتى القرن الثامن عشر الميلادي ـ حيث قطعت رأسه، بأمر من الملك هيرودس أجريباس الأول، حفيد هيرودوس الكبير، ويرجع تاريخه للقرن الثانى عشر الميلادي، ويشكل معقل الأرمن في القدس، ومساحته ٣٠٠ فدان، أي ما يعادل سُدس مساحة البلدة القديمة داخل السور، ويضم داخله كاتدرائية ماريعقوب. فضلًا على مواقع تاريخية، وبنايات مهمة، مثل دير رئيس الملائكة، ومعبد القديس تيودورس، وقاعة البطريركية، ومقر ومكاتب البطريركية، والمعهد اللاهوتي، الذي تأسس في عام ١٨٤٣م، ومدرسة القديس تاركمانشاتش، ومكتبة كولبنكيان، ومتحف ماريديكيان، وغيرها، كما تملك البطريركية أضخم ثاني مكتبة أرمنية للمخطوطات في العالم، وأقدم مطبعة في القدس، تأسست عام ١٨٣٣م، وكانت للدير قديمًا قبة قائمة على أربع دعائم، أزيلت عام ١٢١٩م[٢٩]. ويتكون الدير من طابق واحد، وسطحه متنوع بين الشكل المستوي، والمفلطح، والقبة، وسقفها متنوع، بين شكل القبة، والعقد المتقاطع، والأرضيات تتكون من بلاط كراميكا، وبلاط أسمنتي حديث[٣٠].

كنيسة القديس توما: تقع بالقرب من دير ماريعقوب ، وقد هُدمت فى عهد المماليك، وبُني مكانها جامع، ثم بُني مكانه كنيسة، في العصر الحديث، سُميت على اسم الكنيسة الأولى نفسه[٣١].

دير السريان: يقع شمال شرق كنيسة القديس توما ، ويرجح أنه منزل القديس مرقس الرسول، وترجع كنيسته للقرن الثاني عشر الميلادي، التي بنيت على أنقاض آثار قديمة قبلها ، ويمتاز هيكلها بصورة قديمة للسيدة مريم العذراء ، قيل إن راسمها هو القديس لوقا الإنجيلي، كما أن بها حوض تعميد، قيل إن مريم العذراء قد تعمدت فيه[٣٢].

كنيسة الثلاث مريمات: تقع حيث يعتقدون أنه ظهر السيد المسيح، بعد معجزة القيامة للثلاث مريمات، وأمرهن بأن يذهبن ويخبرن تلاميذه بأنه قام من بين الأموات، وقد حولت إلى منزل، في بدايات القرن العشرين[٣٣].

كنيسة القديسة حنة (الصلاحية) وبركة بيت حسدا: تقع الكنيسة شمالي الحرم القدسي، قرب باب الأسباط، على بُعد ٢٠ مترًا، ويطلق عليها، حاليًّا، كنيسة القديسة حنة «آن»، حيث أُقيمت فوق المغارة التي كانت تعيش فيها القديسة حنة، أم السيدة مريم العذراء، والتي رُبيت فيها، أيضًا، وقد بنيت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي، ولكنها هُدمت، وبُنيت مرة أخرى، في أوائل القرن السادس، ولكنها احترقت إبان الغزو الفارسي، عام ٦١٤م، فأعاد

الفرنجة بناءها، وتم تحويلها، في عهد صلاح الدين الأيوبي، إلى مدرسة للفقهاء الشافعيين، ثم استلمها الفرنسيون من السلطان العثماني، عبد الحميد الأول، سنة ١٨٥٥م، فأنشأوا بها مدرسة[٣٤].

لعل من أهم ما يميِّز الكنيسة، تقسيم الأعمدة لها إلى ثلاثة أقسام، بالإضافة لسقفها المبني على طراز الأقواس القوطية، التي يرتكز السقف عليها، ويقع تحت القبة هيكل نحته الفنان الفرنسي، فيليب كابلان، في سنة ١٩٥٤م، وعلى الهيكل ثلاثة رسومات، تمثل مشاهد من حياة المسيح، بالإضافة لبركة، وكنيسة بيت حسدا، وهي من الأماكن المقدسة الملحقة بالكنيسة، وكلمة بيت حسدا كلمة عبرية، معناها بيت الرحمة، وقد بنيت الكنيسة لتخليد ذكرى معجزة المسيح للرجل المقعد، عند البركة[٣٥].

تتكون الكنيسة من طابقين، والسطح متنوع، ما بين الشكل المستوي، والجملوني، المكون من القرميد، والسقف متنوع أيضًا ما بين القبة، والعقد المتقاطع، ومدعم بدعامات خشبية، والأرضيات مكوَّنة من بلاط حجري، وبلاط أسمنتي[٣٦].

طريق الآلام: وهو الطريق الذي مرَّ به المسيح، من قصر بيلاطس (المحكمة)، إلى جبل الجلجثة، حيث يعتقدون أنه تم صلبه، وبه الكنائس الخمس، التي تخلد ذكرى حادثة الصلب، على تلة الجلجثة، وقد سميت بهذا الاسم نسبةً للآلام التي يعتقدون أنه عاناها المسيح في الطريق.

بدأ طريق الآلام عند باب الأسباط، وانتهى في كنيسة القيامة، وتحتوي الطريق على أربع عشرة مرحلة، تسع منها في الطريق نفسه، وآخر خمس مراحل داخل كنيسة القيامة[٣٧].

أهم معالم هذا الطريق كنيسة الحكم، التي بنيت لتخليد المرحلة الأولى ـ الحكم على المسيح ـ سميت بهذا الاسم، حيث كان يقع مكانها دار ندوة مجمَّع البروتوريين، الذي حكم فيه الرومان على السيد المسيح بالصلب، وقد وجد نص الحُكم على السيد المسيح منقوشًا على لوح من النحاس، في إحدى حفريات التنقيب عن الآثار الرومانية. وهو كالآتي: «في السنة السابعة عشرة من حكم الإمبراطور طيباريوس، الموافق لليوم ٢٥ من شهر آذار/ مارس، بمدينة أورشليم المقدسة، في عهد الحبرين حنان وقيافا، حكم بيلاطس البنطي، والي ولاية الجليل، الجالس للقضاء، في دار ندوة مجمع البروتوريين، على يسوع الناصري بالموت صلبًا، بين لصين»[٣٨].

تتكون كنيسة الحكم من طابق واحد، ويتخذ السطح شكل قبوة، والسقف عبارة عن عقد متقاطع، يأخذ شكل قبة مجوَّفة، أما الأرضيات فتتكون من بلاط حجري[٣٩].

تبدأ المرحلة الثانية بمعبد التكليل، ويرجع للقرن الثاني عشر الميلادي، وبُني تخليدًا لذكرى وضع إكليل الشوك على رأس المسيح، أما المرحلة الثالثة، فعند كنيسة آيا صوفيا، التي هُدمت إبان الغزو الفارسي، وكان في مكانها الحجر الذي يعتقدون أنه وقف عليه المسيح عند الحكم عليه.

المرحلة الرابعة، التي يوجد بها كنيسة الجلد، أو دير حبس المسيح، وتتبع الكنيسة الفرنسسكانية، وتقع على آثار كنائس أقدم منها، والكنيسة الحالية بنيت بين العامين ١٩٢٧ - ١٩٢٩م، وصممها المعماري الإيطالي، أنطونيو بيلوزي، يعد أحد أكثر الأمور إثارة للانتباه هو النوافذ الثلاث المصنوعة من الزجاج الملوَّن، مُجسَّدة ثلاثة مناظر

مختلفة، أولها غسل يدي بيلاطس من خطيئة المسيحية، والثانية تحقير المسيح، ووضع إكليل الشوك على رأسه، والثالث صرخة النصر والفرح التي أطلقها باراباس، عند إطلاق سراحه[٤٠].

كان في موقع الكنيسة قديمًا كنيسة من العصور الوسطى تحولت إلى إسطبل للحيوانات، ثم حانوتٍ للحياكة، وفي عام ١٨٣٦م منحها إبراهيم باشا للفرنسيسكان، الذين باشروا أعمال الترميم، وافتتحوا الكنيسة للعبادة. وتحيي الكنيسة ذكرى جلد يسوع بالسياط، قبل الحكم عليه بالموت[٤١].

تتكون الكنيسة من طابق واحد، والسطح مفلطح، على هيئة قبة، والسقف عبارة عن عقد متقاطع، على شكل قبة مجوَّفة، أما أرضيتها، فتتكون من بلاط أسمنتي حديث، إضافة إلى بلاط حجري، وفسيفساء[٤٢].

تبدأ المرحلة الخامسة بمبنى يسمى قوس «هو ذا الرجل»، وعند طرفيه ثمة حجران، أحدهما وقف عليه المسيح، والآخر وقف عليه بيلاطس البنطي، وقال باللاتينية، وهو يشير للمسيح، «homo ecce»، أي «هذا الرجل»، وقد شيِّدت هناك قلعة، تسمى أنطونيا، التي تعتبر علامة لبداية طريق الآلام[٤٣].

أما المرحلة السادسة، فتخلد حادثة ما يعتقدون أنه سقوط المسيح، واقتراب العذراء منه، وسخرية الجند الرومان منه.

بعدها المرحلة السابعة، التي تنحرف نحو الجنوب، وتميِّزها كنيسة، شيَّدها الفرنسيسكان حديثًا. والمرحلة الثامنة التي تميزها كنيسة القديسة فيرونيكا، والاسم معناه «الأيقونة الحقيقية»، أو المحبة. تقول القصص المتوارثة: إن القديسة فيرونيكا خرجت من دارها، ومسحت وجه السيد المسيح، حين وقع تحت ثقل الصليب، بدافع من حبّها له، وإشفاقها عليه، فطبع وجه المسيح على المنديل، الذي يقال إنه موجود في روما، إلى الآن، وقد بنيت كنيسة في هذا المكان، لتخليد اسم القديسة فيرونيكا، وذكرى هذا الحادث[٤٤].

تتكون الكنيسة من طابق واحد، والسطح مستوٍ، أما شكل السقف، فيتنوع ما بين العقد نصف البرميلي، والعقد المتقاطع، فيما تتكون الأرضيات من بلاط حجري قديم، وبلاط أسمنتي حديث[٤٥].

أما المرحلة التاسعة، فتقع عند السور الغربي للمدينة قديمًا، حيث علَّق بيلاطس عليه رقعة الحكم بموت المسيح. المرحلة العاشرة التي يعتقدون أنه وقف المسيح فيها، وتحدث لبعض نساء اليهود، اللاتي يبكين عليه. ويليها المرحلة الحادية عشرة، عند دير مار أنطونيوس، وفي هذه المرحلة، يعتقدون أنه وقع المسيح، للمرة الثالثة، ويميز بدايتها عمود أعلى على جدار الدير، يليه المراحل الثلاث الأخيرة، التي تمثل باقي مراحل تنفيذ الحكم في السيد المسيح على تلة الجلجثة[٤٦].

تشترك معظم هذه الكنائس في النمط المعماري القوطي، الذي انتشر في العصور المسيحية الوسيطة، حيث يرجع أصل اللفظ إلى معمار الكنائس القوطية، الذي ساد العصور الوسطى في الغرب، باعثًا الرهبة في النفوس، بسبب ارتفاع جدرانه، وأعمدته، ونوافذه الملوَّنة، التي لا تسمح بمرور الضوء، وإن كانت تسمح بمرور صور القديسين، بينما دماؤهم تسيل، ومعها صور الصلب[٤٧].

التعديات الإسرائيلية على المقدسات المسيحية في القدس

غني عن القول أن المغتصب يبذل قصارى جهده في حماية ما اغتصبه، ومحاولة اغتصاب المزيد من حقوق الآخرين، فلا يفرِّق بين دين وطائفة، ذلك أن طبيعته العنصرية الاستيطانية تجعله لا يفكر سوى في التوسع، مستخدمًا أساليب أقل ما توصف به أنها «الشيطانية»، حيث ذكر استطلاع للرأي، نشرت نتائجه صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية، في فبراير/ شباط ٢٠٠٩م، أن غالبية الإسرائيليين لا يريدون رؤية مزيد من الكنائس في مدينة القدس[٤٨].

فقد سجلت نكبة ١٩٤٨م أول الاعتداءات الهمجية على المقدسات المسيحية، حيث عمد المحتلون الصهاينة إلى احتلال الأديرة الآتية[٤٩]:

- دير مارجرجس، تم احتلاله في ٣/ ٥/ ١٩٤٨.
- دير نوتردام دي فرانس، تم احتلاله في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨.
- دير رهبان القربان المقدس، تم احتلاله في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨.
- دير الآباء الهندوكيين، تم احتلاله في ١٨/ ٥/ ١٩٤٨.

وقد اتخذ الصهاينة من الأديرة قواعد لإطلاق النار، دون مراعاة لحرمتها، وقدسيتها. فيما أصيبت الأديرة الآتية بالدمار، الكلي أو الجزئي[٥٠]:

- دبر راهبات نوتردام.
- دير راهبات القلب المقدس.
- دير الآباء الهندوكيين.
- كنيسة قسطنطين وهيلانة، في ١٧/ ٥/ ١٩٤٨.
- بطريركية الأرمن الأرثوذكس.
- ساحة كنيسة مارمرقس، في ٦/ ٥/ ١٩٤٨.
- دير الآباء الفرنسيسكان الكبير، في ١٩/ ٥/ ١٩٤٨.

أما بعد عام ١٩٦٧م، واحتلال القدس بالكامل، فقد قام الصهاينة، في عام ١٩٦٨م، بإيفاد بعثة للتنقيب، جنوب الحائط الغربي(*)، نتج عنها تهدم جزئي لكنيسة القديس يوحنا، وسُرقت أثناء ذلك مجموعة من التحف الأثرية المسيحية[٥١].

قضية دير مار يوحنا:

تعتبر قضية دير ماريوحنا، من ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية في القدس، نموذجًا بارزًا من الاعتداءات الصهيونية

(*) يسميه المسلمون (حائط البراق)؛ لأن الرسول الكريم ﷺ ربط براقه عنده، عندما عرج به إلى السماء، فيما يزعم اليهود أن هذا الحائط هو المتبقي من هيكل سليمان بن داود.

على الأوقاف، والممتلكات. والمقدسات المسيحية في المدينة، وهي كذلك نموذج على طرق الاحتيال، والتدليس، التي يمارسها الصهاينة، في سعيهم لتهويد كل شيء في المدينة المقدسة، ففي نيسان/ أبريل من عام١٩٩٠م، قام مائة وخمسون مستوطنًا يهوديًّا بالاعتداء على دار الضيافة، التي تملكها كنيسة الأرثوذكس، والمعروفة بدير ماريوحنا، وتجاور كنيسة القيامة، وقام المستوطنون بالاعتداء بالضرب على بطريرك القدس، للروم الأرثوذكس، تيودورس الأول، وعلى عدد من رجال الدين المسيحي، الذين حاولوا منعهم من دخول المكان، ثم قاموا بتعليق نجمة سداسية على باب البناء المؤلف من أربع وستين غرفة، وتمترسوا داخله، مع أسلحتهم، ثم عمدوا إلى نقل أمتعة تخصهم إلى داخله. وبسبب هذا الاعتداء، أعلن رجال الدين المسيحي، من جميع الطوائف، إغلاق جميع الأماكن المسيحية في فلسطين، لمدة يومين، وذلك للمرة الأولى، منذ نحو ثمانمائة عام. وفي اليوم التالي للاعتداء، قام رجال دين، من المسيحيين والمسلمين، وشخصيات وطنية بمسيرة احتجاجية إلى دير مار يوحنا، ونزع البطريرك تيودورس النجمة السداسية، التي علقها المستوطنون على مدخل البناء، وقد حاول المشاركون في المسيرة إخراج المستوطنين من الدير، إلا أن شرطة الاحتلال أطلقت تجاههم القنابل المسيلة للدموع، والعيارات النارية، وفرَّقت المشاركين بشكل عنيف، وقد قامت شرطة الاحتلال بهذا الإجراء، برغم إصدار محكمة يهودية في القدس أمرًا بإخلاء المستوطنين من البناء، ولكن الشرطة بدلًا من تنفيذ هذا الأمر، قمعت تظاهرة المقدسيين؛ مما يوضح مدى تواطؤ المؤسسات الصهيونية مع المستوطنين وأساليبهم. ومع إصرار المقدسيين على إخلاء الصهاينة من الدير، ادعى هؤلاء أن استيلاءهم عليه تم بصفقة عقارية، وهذا ما نفته مصادر الكنيسة الأرثوذكسية، نفيًا قاطعًا، في حين ذهب رئيس الكيان الصهيوني، آنذاك حاييم هرتزو، إلى اتهام رجال الدين المسيحي بالعودة إلى ما سماه «العداء التقليدي لليهود». ووجه رسالة إلى كبير أساقفة كنيسة الروم الأرثوذكس، مليئة بالسباب والشتائم . ورغم ما أثاره الاعتداء الصهيوني من احتجاجات واسعة، وتدخلات من الكنائس الأرثوذكسية، والحكومة اليونانية، واستمرار التظاهرات الاحتجاجية من قبل المقدسيين، فإن الصهاينة استمروا في احتلالهم للدير نحو عام كامل، حين باشرت محكمة صهيونية أخرى النظر في شكوى الكنيسة، المتضمنة مطالبتها بإخلاء فوري للمستوطنين من أملاك الكنيسة[٥٢].

قضية بيع ممتلكات الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية لمتطرفين صهاينة:

كشفت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية، يوم الجمعة ١٨/ ٣/ ٢٠٠٥، عن هذه الصفقة، التي تورط فيها بطريرك الروم الأرثوذكس، إيرينيوس الأول[٥٣]. ببيع «ميدان عمر بن الخطاب» لمستثمرين يهود، مقابل ١٣٠ مليون دولار. وقد اعترف المسؤول المالي السابق للكنيسة نيكولاس بابايموس لصحيفة «الفتروتيفيه» اليونانية بهذه الصفقة، وعلى الرغم من هذا فإن بطريرك القدس اليوناني الأرثوذكسي قام بإصدار بيان صحفي عاجل، جاء فيه: «في ظل الأنباء التي تتناقلها وسائل الإعلام، حول بيع ممتلكات البطريركية في ميدان عمر بن الخطاب، في القدس، أنفي، أنا إيرينيوس الأول، بطريرك المدينة المقدسة، بشدة وبصورة قاطعة أية علاقة لي أنا شخصيًّا أو بحكم منصبي الرسمي، بهذه الصفقة المزعومة، التي لا يوجد لنا أي علم، أو تصور حولها»[٥٤].

جاءت إقالة بطريرك الروم الأرثوذكس، إيرينيوس الأول، بداية شهر مايو/ آيار ٢٠٠٥م، من قبل المجمَّع المقدس، في الكنيسة الأرثوذكسية، لتؤكد دوره وعلمه بهذه الصفقة، التي نفاها من قبل[٥٥]. لهذا فقد آثرت كنيسة

الروم الأرثوذكس تعيين بطريرك عربي من فلسطين، بعد هذه الحادثة، وهو المطران عطا الله حنا، الذى يصف نفسه بقوله: «عربي فلسطيني أعتز بانتمائي القومي العربي، وبهويتي الفلسطينية، ومسيحي أرثوذكسي». وقد كانت سلطات الاحتلال الصهيوني اتهمته بالإرهاب، واعتقل في السجون الإسرائيلية عدة مرات، وفُرضت الإقامة الجبرية عليه، لمدة ٤ سنوات، وسُحب جواز سفره، لكنه وقف متصديًا لقضية بيع بعض أملاك الكنيسة الأرثوذكسية للصهاينة، وهو من الذين لا يقبلون بحل الدولتين، بالنسبة للقضية الفلسطينية[٥٦].

بهذه الأمثلة التي أتت على سبيل المثال لا الحصر، يزيد تأكدنا من أن الكيان الصهيوني لا يفرق فى عدوانه العنصري الاستيطاني بين الأديان المختلفة في فلسطين، بل إنه يعمد، في كل الأوقات، إلى اقتناص الفرص التي تتاح له، لتنفيذ مخططاته التوسعية العنصرية.

* * *

obeikan.com

هوامش الفصل الثالث:

(١) ميخائيل مكسي إسكندر، **القدس**، القاهرة، كنيسة السيدة العذراء، ١٩٧٢، ص٤٢.

(٢) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، ترجمة فاطمة نصر ومحمد العناني، القاهرة، دار سطور، ١٩٩٨، ص٣٥٣.

(٣) عارف العارف، **تاريخ القدس**، القاهرة، دارالمعارف، ط٢، ١٩٥١م، ص٣٩.

(٤) راهب من برية شيهيت، **القدس**، القاهرة، بطريركية الأقباط الأرثوذكس، ط١، ٢٠٠١، ص١٧.

(٥) أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، نسخة إليكترونية من موقع: مؤسسة القدس الدولية، بتاريخ ١١/ ٣/ ٢٠٠٩. http: //www.alquds-online.org /index.php?s=13&id=729.

(٦) العهدة العمرية، نسخة إليكترونية من موقع: **المركز الفلسطيني للإعلام**، بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠٠٩.

http: //www.palestine-info.info /arabic /alquds /muslims /alomaria.htm

(٧) إسكندر، **مصدر سبق ذكرة**، ص ٤٨.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٧.

(٩) محاسن الوقاد، **تاريخ مصر الإسلامية**، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ص ٢٣٤، ٢٠٠٨.

(١٠) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٢.

(١١) **المصدر نفسه**، ص٦٤.

(١٢) الصاوي، **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ١١/ ٣/ ٢٠٠٩.

(١٣) رفعت سيد أحمد، لم نعد نملك لها سوى قصائد الشعر...قدسنا التي كانت، **الثورة**، (دمشق)، العدد ١٣٣٤٠، ١٨/ ٦/ ٢٠٠٧، نسخة إليكترونية بتاريخ ٢١/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://thawra.alwehda.gov.sy/_archive.asp?FileName=65473197920070617221759

(١٤) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٠: ١٢٥.

(١٥) نافذ أبوحسنة، نسخة إليكترونية من **المركز الإعلامي الفلسطيني**، بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.palestine-info.info/arabic/books/beet_maqdes/maqdes82.htm

(١٦) عبد الهادي التازي، **القدس والخليل في الرحلات المغربية**، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٧، ص ١٣.

(١٧) وسام الدويك، حراس كنيسة القيامة مسلمون، نسخة إليكترونية من موقع: **إخوان أُون لاين**، بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/07/article8.shtml

(١٨) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦: ١٢٨.

(١٩) عبد اللطيف خطاب، أديرة القدس الشريف، **التراث العربي**، العدد ٨٣- ٨٤، ١٦/ ٩/ ٢٠٠٣، نسخة إليكترونية، بتاريخ ١٢/ ٣/ ٢٠٠٩

.http://awu-dam.org/trath/83-84/trath83-84-011.htm .

(٢٠) دير أبونا إبراهيم، نسخة إليكترونية من موقع: **رواق للمباني التاريخية في فلسطين**، بتاريخ: ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

.http://www.riwaqregister.org/BPView.aspx?BId=36880

(٢١) دير السيدة العذراء بالقدس، نسخة إليكترونية من **المصدر نفسه**، بتاريخ ١٨/ ٣/ ٢٠٠٩.

.http://www.riwaqregister.org/BPView.aspx?BId=36111

(٢٢) الدويك، من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/07/article8.shtml

(٢٣) **المصدر نفسه**، بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

.http://www.islamonline.net/arabic/arts/2001/07/article8.shtml

وكذا: إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٧. (٢٤) البابا شنودة الثالث، المقدسات في الأرض المقدسة، **الهلال** (القاهرة) يناير/ كانون الثاني ١٩٩٤، ص١٠٢: ١٠٩.

(٢٥) **المصدر نفسه**: إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٩.

(٢٦) **المصدر نفسه**.

(٢٧) دير مارجرجس للأقباط، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ: ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=39081

(٢٨) حسين إمام محمد، **قضية القدس**، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ط١، ص١٣: ١٧، ٢٠٠١. وكذا: إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤١.

(٢٩) أسامة العيسة، صمدت رغم الأنواء السياسية التي لم تنته، نسخة إليكترونية من موقع: **البوابة الأرمنية في الشرق الأوسط**، بتاريخ ٢٣/ ٣/ ٢٠٠

.http://www.azad-hye.org/article.php?op=details&id=220 .9

وكذا: إسكندر، مصدر سبق ذكره، ص١٤٣.

(٣٠) كنيسة ماريعقوب، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ١٩/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=37233

(٣١) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٣.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ١٤٣.

(٣٣) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٣٤) راهب من برية شيهيت، **القدس**، القاهرة بطريركية الأقباط الأرثوذكس، ط١، ص ١٤٧.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٤٨.

(٣٦) كنيسة سانت ان (الصلاحية)، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=37365

(٣٧) طريق الآلام، (مقال مختار) من **موسوعة ويكيبيديا**، بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82_%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%84%D8%A7%D9%85

(٣٨) جورج فايق، مقال بعنوان: الحكم بصلب السيد المسيح هو أشهر فساد لمحكمة عبر التاريخ، **الحوار المتمدن**، ٧/ ٤/ ٢٠٠٧، نسخة إليكترونية، بتاريخ ٨/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=93229.

(٣٩) كنيسة الحكم، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ: ١٣/ ٩/ ٢٠٠٩.

.http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=38221

(٤٠) كنيسة الجلد، نسخة إليكترونية من: **موقع دليلك الفلسطيني**، بتاريخ: ١٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

.http://www.visitpalestine.ps/index.php?lang=ar&page=sites.what_to_see.jerusalem.old_city.via_dolorosa

(٤١) قلعة أنطونيا ودرب الصليب، نسخة إليكترونية من موقع : **الدليل الكتابي والسياحي للأراضي المقدسة**، بتاريخ ١٢/ ٣/ ٢٠٠. .http://www.christusrex.org/www1/ofm/ag/Jerusalem8_Ar.html

(٤٢) كنيسة الجلد، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ:١٣/ ٣/ ٢٠٠٩.

.http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=36388

(٤٣) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٧.

(٤٤) القديسة فيرونيكا، نسخة إليكترونية من موقع **مطرانية طنطا**، بتاريخ ١٩/ ٣/ ٢٠٠٩./ http://popekirillos.net/ar/fathersdictionary/read.php?id=1326. : راهب من برية شيهيت، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٣.

(٤٥) كنيسة فرونيكا، نسخة إليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ١٧/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.riwaqregister.org/BPview.aspx?BId=39435

(٤٦) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٨

(٤٧) عبد الوهاب المسيري، في مواجهة الخطاب القوطي الإسلامي، نسخةإليكترونية من **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ٢١/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1193049392371&pagename=Zone-Arabic-Daawa%2FDWALayout

(٤٨) غالبية الإسرائيليين لا يريدون رؤية مزيد من الكنائس بالقدس، **هآرتس**، بتاريخ ٢١/ ٠٢/ ٢٠٠٩، نسخة إليكترونية من موقع **شبكة الرصد الإخباري «Copt real»**، بتاريخ ١٢/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://coptreal.com/ShowSubject.aspx?SID=16212

(٤٩) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٤:٩٥

(٥٠) جورج وفيق، مقال بعنوان: ماذا تقول إسرائيل عن هذة الوثيقة؟، **وطني** (القاهرة) بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٦٩.

(٥١) إسكندر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠١.

(٥٢) نافذ أبو حسنة، قضية دير ماريوحنا، **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.palestine-info.info/arabic/books/beet_maqdes/maqdes93.htm

(٥٣) ياسر البنا، الكنيسة الأرثوذكسية بفلسطين.. استعمار يحتاج لتعريب، نسخة إليكترونية **من إخوان...**، **مصدر سبق ذكره**، بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1178724164981&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout. t

(٥٤) قسم الشؤون الصهيونية، هل تحولت البطريركية لفرع للوكالة اليهودية؟، نسخة إليكترونية من موقع **مفكرة الإسلام** بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.islammemo.cc/mobile/Articlep.aspx?id=2895&catid=333&lid=2918 .

(٥٥) البنا، **مصدر سبق ذكره**.

(٥٦) حوار مع المطران عطا الله حنا، إسرائيل تطاولت على الأديان.. والقدس لن تتحرر بالكلام، **المصري اليوم** (القاهرة) عدد١٥٣٢، بتاريخ ٢٣/ ٨/ ٢٠٠٨، نسخة إليكترونية بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩.

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=130374.

الفصل الرابع

الأوقاف في القدس

آمال الخزامي

غني عن القول أن القدس من أهم المدن المقدسة، حيث تتمتع بمكانة عظيمة لدى العرب، مسيحيين ومسلمين، منذ عشرات القرون، فهي مهد المسيح (عليه السلام)، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، كما أن مدينة القدس شهدت عددًا من الوقائع، والمعارك المهمة، التي تركت بصماتها على مجرى التاريخ، مما زاد من أهمية المدينة، بشكلٍ عام، وأهمية أوقاف القدس بشكلٍ خاص. ويؤكد على ذلك مفتي القدس، سماحة الشيخ عكرمة صبري، قائلًا: «البلدة القديمة في مدينة القدس، وأكنافها المعروفة، إنما هي، كلها، وقفيات، بمقدساتها، وبجميع مبانيها، وعقاراتها»[1].

ماذا يعني وقف المكان؟

معنى الوقف لغةً: الوقف مصدر للفعل وَقَفَ، بمعنى حبس.

وشرعًا: الوقف هو حبس العين المملوكة، ملكًا تامًّا، عقارًا أو منقولًا، والتصدق بمنفعتها على ذوي القربى، أو غيرهم.

الوقف في الإسلام نوعٌ من البر، والإحسان، وكانت عمليات الوقف شائعة في عهد الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين، واستمرت على امتداد مختلف العصور الإسلامية[2].

أنواع الوقف: هناك نوعان من الوقف، الوقف الخيري: وهو ما خصص ريعه، ابتداء، لصرفه على جهة من جهات البر، كالوقف على المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والملاجئ ... إلخ.

obeikan.com

الوقف الذُّري: وهو ما خصص ريعه للواقف نفسه، أو لغيره من الأشخاص، الذين يحددهم، سواءً اسمًا، أو وصفًا.

أركان الوقف: الواقف، الوقف، الموقوف عليه.

شروط الوقف: لا يجوز بيع الوقف، عقارًا أو منقولًا، إلا بمصوِّغ شرعي. وعلى المتولي الشرعي للوقف المحافظة على أعيان الوقف، ومنع التعدي عليه، والعمل على رفع الاعتداء عند حدوثه، فضلًا على العمل على إصلاح الوقف، وترميمه، وغير ذلك من الواجبات التي تكفل استمرار الوقف، وتأديته لوظيفته[٣].

يجب أن تكون هناك إدارة للوقف، تقوم على خدمته، ورعايته، تتكون من ناظر للوقف، ومتولي الوقف، ثم الجابي.

الأوقاف الإسلامية (العهدة العمرية)

اتسم العصر الإسلامي، منذ بداية القرن السابع الميلادي، (الأول الهجري)، بالفتوحات الإسلامية للبلاد المجاورة، وكان للقدس نصيب من ذلك، فدخلت القدس، وما حولها من مدن، مرحلة جديدة، ومهمة من تاريخها. في عهد الخلافة الإسلامية، بعد معركة اليرموك، عام ١٣ هجرية، ٦٣٣ ميلادية، في عهد الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وبقيت فلسطين، والقدس، تحت ظل الخلافة الإسلامية، حتى آخر عام ١٩١٧م، مع اختلاف لمركز الخلافة، فتارة يكون الخليفة أمويًا، وتارة ثانية عباسيًا، وثالثة عثمانيًا[٤].

ظلت القدس هدفًا مهمًا للدولة الإسلامية، منذ بداية الخلافة الإسلامية، فأرسل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) جيشًا، بقيادة أسامة بن زيد، لفتح بلاد الشام، محمِّلًا بنصائح مهمة «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولاتغلوا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً، ولا بقرةً، ولا بعيرًا، إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعهوهم وما فرغوا أنفسهم له». وقد تم تجهيز أربعة جيوش، لفتح بلاد الشام، كان أحدهم بقيادة عمرو بن العاص، خصص لفتح فلسطين، ونجح ابن العاص في فتح معظم أرض فلسطين. وحين تولى عمر بن الخطاب الخلافة، بعد وفاة الصديق، عام ١٣ هـ، أكمل ابن الخطاب مسيرة الفتح بإرسال جيش بقيادة أبى عبيدة بن الجراح، مع سبعة من خيرة القادة للزحف إلى القدس، وفتحها. ودارت معركة، استمرت عشرة أيام، بين الجيش الإسلامي، وجيش الروم. انتصر فيها الجيش الإسلامي. ودام الحصار للروم، أربعة أشهر، استسلموا بعدها، بشرط تسليم المدينة للخليفة نفسه، ووافقهم أبو عبيدة، واستمرت الهدنة، حتى جاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، واستقر في جبل الزيتون، ثم رحل إلى القدس، عام ٦٣٨م، وتسلم مفاتيحها، من البطريك صفرينوس، ثم زار كنيسة القيامة، وطلب البطريرك صفرينوس من عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، عندما حان وقت الصلاة، أن يصلي الخليفة في الكنيسة، فاعتذر عمر، حفاظًا على المقدسات المسيحية، كي لا تكون صلاته في الكنيسة سُنَّة يستن بها من يأتي بعده، واختار مكانًا آخر، ليصلي فيه[٥].

معروف أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، أعطى البطريرك صفرينوس «العهدة العمرية»، التي جاء فيها:

«هذا أمانٌ لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها .. ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن إيلياء أحد من اليهود»[٦].

كما تضمنت «العهدة»،أيضا، أن على أهل إيلياء أن يُخرجوا من المدينة الروم، واللصوص، «فمن خرج منهم، فهو آمن على نفسه، وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض (وتعني بأهل الأرض الفلاحين أصحاب الأرض الأصليين)، فمن شاء منهم قعد، وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء من الجزية، حتى يحصدوا أحصادهم».

لقد فرقت «العهدة» بين طائفتين: الروم، وهم حكام غرباء، عليهم أن يخرجوا من البلاد، وبين أهل البلاد الأصليين، النصارى، الذين لهم حق البقاء في بلادهم، يتمتعون بالحرية الدينية، ضامنين سلامة أموالهم، وأرواحهم، ودور عبادتهم. وتعد هذه «العهدة» بمثابة نواة للاستقلال الطائفي الذى ينم عن سماحة الإسلام مع «أهل الكتاب»[٧].

توجه عمر (رضي الله عنه)، بعد ذلك، إلى المكان الذى تقع فيه الصخرة المشرَّفة، التي انطلق منها معراج الرسول ﷺ، وكان قد تجمعت عليها القاذورات، فأخذ عمر ينظفها بنفسه هو ومن معه من الصحابة، ثم أمر ببناء أول مسجد في الإسلام في مدينة القدس.

مكث عمر (رضي الله عنه)، عدة أيام، في بيت المقدس، لبحث شؤونها، ثم غادر إلى المدينة المنوَّرة، وبعد أن خطب في الناس عيَّن يزيد بن سفيان عاملًا على إدارة مدينة القدس، تحت إمارة أبي عبيدة، وعيَّن سلامة بن قيصر إماما للصلاة، وعلقمة بن مجزر مشرفًا على شؤونها العسكرية[٨].

ظلت فلسطين تحت الحكم الإسلامي حتى آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان بعد معركة صفين، على النحو المعروف، وذهب إلى بيت المقدس، ليعلن خلافته من هناك (عام ٤٠ هـ - ٦٦١ م). وكان من أهم ما قام به الأمويون بناء الحرم القدسى الشريف، الذى يتألف من المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة، وما بينهما، وحولهما من منشآت، على مساحة ١٤٠٩٠٠ متر مربع. وقد بناها عبد الملك بن مروان، عام ٦٦هـ - ٦٨٥م، وأوقف على نفقاتها خراج مصر لسبع سنوات متصلة. وقد اكتمل بناؤه، في عام ٧٠هـ -٦٩١ م.

لقد ازدهرت القدس، في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، وعهد ابنه، الوليد بن عبد الملك[٩].

استمر إعمار الحرم القدسي، خلال مراحل التاريخ الإسلامي، سواء أيام العباسيين، أو الفاطميين، أو المماليك. وجاء الإعمار على شكل أعمال بناء، وتوسيع لمساجد الحرم، أو ترميمها، وأحيانًا وقف مبان، وسبل لزائري القدس، للصلاة، والزيارة[١٠].

يشتمل الحرم المقدسي على أربعة حوائط، شمالي، وجنوبي، وشرقي، وغربي، والصخرة المشرَّفة، وقبة الصخرة، المسجد (الجامع) الأقصى المسجد، قباب المسجد الأقصى، مآذن المسجد الأقصى. فضلًا على أروقة المسجد الأقصى.

وسبل الحرم، وهي سبيل قايتباي، وسبيل شعلان، سبيل بابا الحبس، وسبيل البديري، وسبيل قاسم باشا، وسبيل السلطان سليمان[١١].

شملت العقارات المقدسية الموقوفة على الحرم الآتي: دار الأيتام الإسلامية، تكية خاصكي سلطان، كلية روضة المعارف، المدرسه البكرية، حمام الشفا، دكاكين على مقربة منه، في سوق القطائين، دار حبس الرباط، دار حبس الدم.

المصلى المرواني: يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى المبارك، وكان يطلق عليه، قديمًا، التسوية الشرقية من المسجد الأقصى. يتكون من (١٦) رواقًا، تبلغ مساحتها (٢٧٧٥) مترًا مربعًا، أي ما يقارب (٤) دونمات، استعمل فرض الرسول ﷺ مصلى للأنبياء جميعًا، ضمن المسجد الأقصى المبارك. وللتسوية مداخل عديدة، منها مدخل من الجهة الجنوبية، وخمسة مداخل من الجهة الشمالية، استخدمه معاوية، كمصلى، ومكان للتدريس، وخصص في زمن عبد الملك بن مروان كمدرسة فقهية متكاملة، ومن هنا أُطلق عليه اسم المصلى المرواني[١٢].

ظلت القدس، طوال فترة الحكم الإسلامي، مزدهرة، ومنارة علمية، ودينية في آن، حتى حملة الفرنجة الأولى (عام ١٠٩٩م-٤٩٢هـ) وفيها تمكن الفرنجة من احتلال المدينة المقدسة، بعد قتال امتد أسبوعين، قتل خلاله الفرنجة، داخل المسجد الأقصى، ما يزيد على السبعين ألفًا، كثير منهم من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبَّادهم، حيث قام الفرنجة بمحاصرة المسلمين، في الحرم الشريف، وأعطوهم مهلة ثلاثة أيام، للخروج من المدينة، ومن يتأخر فسيقتلونه، وأما من كان في المدينة من اليهود، فقد جمعهم الفرنجة في الكنيسة، وأحرقوها عليهم. وأبقوا على العرب والنصارى، لكن بدون سيادة دينية، حيث ألغوا البطريركية الأرثوذكسية، وأقاموا بدلًا منها أخرى لاتينية [١٣].

استمر احتلال الفرنجة للقدس لمدة ١٩٢ عامًا. انتهت حين حررها صلاح الدين الأيوبي، بعد انتصاره في موقعة حطين، ودخل مدينة القدس في ذكرى الإسراء والمعراج، يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ، ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١١٨٧م. وقد كان صلاح الدين نموذجًا للفاتح المسلم، على غرار عمر بن الخطاب، حيث أعطى الأمان للمعتدين من الفرنجة، على أنفسهم، وأموالهم، حتى بلغوا الساحل. ثم قام صلاح الدين بتعمير بيت المقدس من جديد، وأمر بعودة كل أبناء القدس إليها[١٤].

وقفية صلاح الدين الأيوبي

تعد من أهم إنجازات صلاح الدين الأيوبي وقفيته التي عرفت، فيما بعد، باسمه، وقد تمت صياغة هذه الوقفية في ١٧ رمضان سنة ٥٩٠ هجرية، وبأمر من صلاح الدين الأيوبي، وبحضور قاضي القضاة، آنذاك[١٥].

نصت «وقفية صلاح الدين» على الأملاك الفلسطينية الآتية:

«جميع الدار المعروفة بدار البطرك في القدس، وما يليها، بما في ذلك الربع المجاور، وهو طاحونة، تعرف بعصفور، وفرن، ودير، يعرف بالحديد، وقبو كبير بإصطبل البطرك، ودار شمالي الإصطبل، وتشمل أقباء تحتائية بالحمام المعروفة بالبطرك، والقبو، والحوانيت المجاورة، البركة المعروفة بالبطرك، والربع الملاصق لها، البركة المعروفة بهاملا بظاهر القدس، والقناة التي يجري فيها الماء في هذه البركة الجوانية، المعروفة بالبطرك، أرض الحمورة العليا، الجورة السفلى، المعروفة بالإسبتارء البقعة، قطعة أرض، تعرف باسم حرج أشبكم، وقطعة أرض، تعرف باسم راس الحنوص. وتضمنت وقفية صلاح الدين «تحذيرًا من ألا يدخل على هذه الممتلكات أي وجه من وجوه التمليكات، أو يزيلها

عن تحبسها سبب من أسباب الانتقالات، ولا يقدح فيها تقادم الأعوام والدهور، محفوظة على شروطها، لا تغيير، ولا تبديل، ولا يلحقها نسخ، ولا تحويل، أبدًا، ما دامت السماوات والأرض، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها»[١٦].

كما حددت الوقفية دار البطريرك «سكنا للزائرين، الآتين إليها من سائر دول العالم، ولا يسكن في هذه الدار إلا بمقدار حاجته. وليس لأحد إخراجه منها»[١٧].

الجدير بالذكر أن وقفية صلاح الدين الأيوبي تعد أساسا لجميع الأوقاف الإسلامية، التي تلت في القدس وفلسطين. وتوجد هذه الوقفية بالمحكمة الشرعية بالقدس[١٨].

نهج المماليك طريق الأيوبيين، في سماحتهم مع «أهل الكتاب»، نصارى ويهودًا، وعاش اليهود، في العصر المملوكي، في حارة لهم، في بيت المقدس، شأنهم في المدن العربية الأخرى، إلى أن وصل الحكم العثماني.

ثمة أوقاف مقدسية عدة من بعض الأفراد، أو أوقاف شخصية، لأقاربهم، وذويهم، منها وقف أفضل الدين محمد بن عمران الحنفي الغزي، قاضي القدس، وزوج شقيقة قاضي القضاة، مجير الدين عبد الرحيم العلمي، والعين الموقوفة، هي دار سكن، وجهات الوقف على ابن الواقف، ثم زوجته، ثم على ذُرية الموقوف عليه، ثم فقراء المسلمين. ويعد هذا الوقف من نوع ذُري، ويقع هذا الوقف في حارة باب الحديد، الملاصق للمسجد الأقصى المبارك، من جهة الغرب، شمالي باب الحديد. وقد كان هذا الوقف، عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م[١٩].

في ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م، وقف الأمير علم الدين عبد الله الدويدار مدرسة الدويدارية، وقرى، وعقارات أخرى، والجهة الموقوف لها المدرسة (الخانقاه) الدويدارية شمالي المسجد الأقصى المبارك. ونوع الوقف خيري، وجاء في حجة الوقف أنه أوقفها ابتغاء وجه الله تعالى، على ثلاثين نفرًا، طوال العام، ولضيافة من يرد إليها من الصوفية، والمتصوفة، مدة عشرة أيام. «ووقف عليه قرية بيرنبالا من القدس الشريف، وقرية مجلا في أريحا، وفرن، وطاحون، وعلوهما بالقدس، ودار، ومصبنة، وستة حوانيت، ووراقة بنابلس، وثلاثة بساتين، وثلاثة حوانيت، وأربع طواحين ببيسان، ووقف هذه الخانقاه، وعلى تدريس مذهب الشافعي، وعلى سامع الحديث النبوي، وقارئ يقرأ عليه، وعلى عشر نفر يسمعون الحديث، ونفر يتلون كتاب الله، كل يوم ختمة، وعلى مادح ينشد مدح النبي، ذلك بالجامع الأقصى»[٢٠].

في عام ٨٣٦٠ هـ / ١٤٣٢م، أوقف نائب السلطنة، بابلسيتن، وقيسارية، الأخير محمد ناصر الدين محمد باش بن غرس الدين خليل بن دلغادر الملكي الأشرافي، والموقوف المدرسة الغادرية، الكائنة شمالي المسجد الأقصى المبارك، وخان الغادرية، وحوانيت. ونوع الوقف خيري[٢١].

في الأول من شهر رجب ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م، أوقف ناظر الحرمين الشريفين، ونائب السلطنة مدرسة الحسنية، الكائنة في حارة باب الناظر، وقرى، وأراضي متنوعة، والجهة الموقوف إليها، نوع الوقف خيري، يصرف منه على من يعلِّم كتاب الله تعالى، والفقراء القاطنين في الخلاء، والأيتام، والمتصوفين، ومن الأماكن الموقوفة في هذه الوقفية «قرية دبوان، تابع قدس قرية أم طوبى؛ (٢)، تابع قدس، قريه عنب (٣)، تابع قدس تمامًا، فرية طيبة الاسم نصارى (٤)، تابع قدس، مزرعة مالحة الكبرى (٥) تابع قدس تمامًا، قرية عصيرة الشمالية (٦) تابع جبل شام درنابلوس»[٢٢].

الأوقاف في العصر العثماني

ضمت الدولة العثمانية بلاد الشام إليها، في عام ١٥١٦، بعد انتصار السلطان سليم على السلطان المملوكي قنصوة الغوري، في معركة مرج دابق، قرب حلب.

وأصبحت القدس جزءًا من ولاية دمشق، ذهب إليها السلطان سليم، فاستقبله علماء، ووجهاء القدس، وعندما تولى ابنه السلطان سليمان، عام ١٥٢٠هـ/ ١٥٦٠م، اهتم بالقدس، فرمم قبة الصخرة، وأعاد تبليط المسجد، كما رسم جدران الحرم الشريف، وأبوابه، وأنشأ عددًا من السبل، وأصبح يعرف بخادم الحرمين في القدس والخليل. كما قامت زوجته بزيارة القدس، وأوقفت أوقافًا عليها [٢٣].

أضاف العثمانيون إلى الأوقاف الكثيرة، التي وجدوها بفلسطين، أوقافًا جديدة، كما أنشأوا منشآت خيرية، ارتبطت بالأوقاف، لضمان استمرار الأوقاف، وكانت الأوقاف الخاصة بالحرمين أكثرها انتشارا في مناطق كثيرة في فلسطين، وبشكل خاص في القدس، واللد، والرملة، ونابلس [٢٤].

جدير بالذكر أن هناك بعض الأقطار العربية أوقف أهلها كثيرًا من أملاكهم لحساب أوقاف القدس، منها عائلات كثيرة تقيم في مصر، كذا فقد حظيت الأوقاف، في العهد العثماني، بعناية كبيرة من الدولة العثمانية. مما زاد من حجم الوقفيات، وتعدد أوجه الاستفادة منها، والإنفاق عليها. فمثلاً عدد الأوقاف في إستانبول، في الفترة من ١٤٥٣ـ١٥٥٣، بلغ ٢٥١٥ وقفية، علاوة على أوقاف السلاطين، والأمراء، المقامة في هذه الحقبة، مما أدى إلى تباين وجهات النظر بين الفقهاء حول الوضع القانوني للأوقاف الخاصة، مما أدى بالتالي إلى تباين في إدارة الدولة العثمانية للأوقاف، من منطقة إلى أخرى، ومن وقف لآخر، متأرجح بين الصعود والهبوط، متأثر بأوقات ضعف الدولة العثمانية وقوتها [٢٥].

أهم الأوقاف الشخصية أثناء الحكم العثماني

في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، استقرت عشرات من العائلات الدمشقية في القدس، نتيجة الثورة العمرانية، التي قام بها السلطان سليمان القانوني، آنذاك، مما أدى إلى تضاعف عدد أهالي القدس ثلاث مرات في غضون سنوات قليلة [٢٦].

لقد تم تسجيل آلاف الوقفيات في سجلات المحاكم العثمانية، في بلاد الشام، ومن أهمها «وقف الدمشقي»، الذى أكدت كثير من الحجج أن وقف الدمشقي كان، في الأصل، وقفين منفصلين، لشخصين من أصل دمشقي، مقيمين في القدس، في أواخر القرن العاشر الهجري، حيث وقف كل منهما وقفًا مستقلًا، ولكن في عقارات مشتركة بينهما، ثم دمج الوقفان، فيما بعد، بسبب التزاوج بين الورثة. سجل الوقف الدمشقي باسم شهاب الدين أحمد بن الخواجة شمس الدمشقي، الشهير بابن الدمشقي، ومحمد الناصر كمال أدين، الشهير، أيضًا، بابن الدمشقي، ومكان وقفهما بالقدس الشريف، وخارجها. وذلك في عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م، ويشمل الوقف قطعة أرض في سلوان «جارية في وقف المدرسة الناصرية الصلاحية بظاهر القدس الشريف ... يحدها من القبلة أرض بيد محمد الدمشقي». «ودار تقع بحارة اليهود، تحت تصرف وارث المرحوم شمس الدين الدمشقي». وأوضحت الحجج أن العقارات الموقوفة

يوزع ريعها على المستحقين، كما تصف هذه العقارات بأنها «ثلاث دور، ودكانين، تقع في محلة اليهود، وقطعة أرض صغيرة، وحصة كبيرة من وادي حلوة في سلوان». وتناولت الحجج تعمير وترميم الوقف، طيلة العهد العثماني، وكان قاضي القدس الشريف يعيِّن على كل وقف شخصًا يتابع إجراءات التعمير، والتأجير، وتوزيع الريع على المستحقين، فضلًا على تعيين ناظر يتولى مراجعة تلك الإجراءات مع المتولي[٢٧].

بالإضافة إلى وقف الدمشقي، هناك أوقاف عدة لدمشقيين عاشوا في القدس، منها وقف عبد القادر الدمشقي، فضلًا على وقفيات عددية، كانت عقاراتها في دمشق، ولها مستحقون في القدس، منها ـ على سبيل المثال ـ وقف محمد شمس الدين النصاب الدمشقي، الكائن في مدينة دمشق، وعرف وقف النصاب بوقف الحصني، بعد أن تولى الإشراف عليه آل الحصني[٢٨].

الأوقاف في العصر الحديث

شهدت الأماكن المقدسة في فلسطين، مع بداية العصر الحديث والذى بدأ بتولية محمد علي الحكم في مصر (١٨٠٥م)، تحولات عدة، حيث أسس محمد علي، عبر ممثليه في أرض الشام، لتنظيم الحصول على ريع أوقاف القدس، وأصبحت القدس تابعة لمصر، فباتت تحصِّل مال وقف الحرمين، والسادات، لصالح مصر، كما كانت هناك مواقف يهودية مشينة، خاصة أولئك اليهود الآتين من الغرب، حيث لم يتوقفوا عن محاولة البحث عن استغلال الأوقاف الإسلامية، أو شراء مساحات من الأراضي، لتحويلها إلى ملكية يهودية، على حساب الأوقاف الإسلامية، فضلًا على تغيير معالم الأوقاف، التي استولوا عليها، وأقاموا عليها شعائرهم، خاصة في منطقة المغاربة، في الحرم الشريف. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، توالت الكتابات إلى محمد علي من شيخ المغاربة في القدس الشريف، بخصوص تبليط اليهود زقاق البراق، الكائن بحارة المغاربة، بقرب دور ووقف سيدي أبي مدين الغوث، قدس سرة، الملاصق لسور الحرم الشريف، وذلك بدون وجه حق[٢٩].

كما سعى اليهود، أيضًا، إلى بناء المعابد وترميم القديم منها، والتمكين من الأوقاف الإسلامية بالعمل المستمر، لترخيص الملاك، فكانوا يستولون على كل ما يريدون، ويقولون «نحن فرنج». حاول بعض المسلمين مواجهة الأفعال اليهودية العديدة، المستميتة للسيطرة على الأراضي والأوقاف في القدس، تحت حمايه بريطانية لهم، حيث أُنشئ في مصر نظارة للوقف، وتم تعيين مدير عام مسؤول عن الأوقاف في مصر، وما لبث، بعد ذلك، أن تم دمج بنى الوقف في إدارة ونظام جديد، وأنشئ مجلس إسلامي أعلى، ليتولى أملاك المسلمين، وخاصة أوقافهم. ورغم ذلك فقد ظل اليهود يمدون نفوذهم على المناطق الإسلامية، وخاصة مناطق الوقف منها، ليثبتوا وجودهم، بعنف، أمام «حائط البراق»، مما أدى إلى تزايد أعمال العنف والقتل في المنطقة، بجوار الحائط الغربي من الحرم الشريف[٣٠].

لقد أدت الاعتداءات المتكررة من اليهود على القدس، ومحاولة بعض العرب والمسلمين الدفاع عن القدس، قانونيًا، أمام اللجنة الدولية التي بعثت بها «عصبة الأمم»، في عام ١٩٣٠، لبحث مسألة حقوق العرب في «حائط البراق»، استمعت اللجنة الدولية، المشكلة من سويسرا، وهولندا، والسويد، والمسماة «لجنة البراق»، إلى الطرفين، العرب واليهود، وبعض موظفي حكومة الانتداب البريطاني. وبعد اطلاع اللجنة على جميع البيانات، توصلت إلى أن ملكية «حائط البراق»، وحق التصرف فيه، وما يحيطه تعود للمسلمين، ولا يحق لليهود سوى المطالبة بزيارة

الحائط، فحسب. كما أكدت اللجنة على أن الساحة المجاورة للحائط هي ملك إسلامي، وتعتبر وقفًا للمسلمين، من قبل صلاح الدين، منذ عام ١١٩٣م، وأن حي المغاربة، ومبانيه، التي هدمتها جرافات الاحتلال، قد أنشئت في عام ١٣٢٠م، لخدمة الحجيج المغاربة، وأصبحت أملاك وقف، بعد أن أوقفها أبومدين لهذا الغرض[٣١].

يتضح من ذلك خطورة المشروع الصهيوني في القدس، الذي بدأ من وقت مبكر، ولايزال مستمرًّا، رغم كل قرارات «عصبة الأمم» و«الأمم المتحدة» من بعدها، وعلى مسمع ومرأى من العالم بأسره.

الوجود والأوقاف المسيحية في القدس

تعد كنيسة القيامة من أقدم الأماكن المقدسة المسيحية في القدس، وكذا كنيسة القديسة مريم، التي تم تشييدها بعد زيارة القديسة مريم المصرية إلى القدس عام ٣٨٢ م. استمر الوجود المسيحي في القدس بعد الفتح الإسلامي، حيث أكدت العهدة العمرية على الوجود القبطي في القدس، وضمنت الأمان لكل الطوائف المسيحية في المدينة المقدسة، واستمر بناء الكنائس والأديرة في القدس، دون أي عوائق[٣٢].

ومن الممتلكات الدينية للأقباط في القدس، الآن، ما يلي[٣٣]:

١ـ دير السلطان، وبه كنيستا الملاك، والحيوانات الأربعة.

٢ـ دير مارأنطونيوس، شمال شرق القيامة.

٣ـ دير مارجرجس، في حارة الموارنة.

٤ـ كنيسة السيدة العذراء، بجبل الزيتون.

٥ـ هيكل على جبل الزيتون.

٦ـ كنيسة باسم ماريوحنا، خارج كنيسة القيامة.

٧ـ كنيسة صغيرة، باسم الملاك ميخائيل، ملاصقة للقبر المقدس في الغرب.

كما ترتب على الوجود القبطي في القدس إنشاء بعض المؤسسات ذات الطابع المدني، من أشهرها المدرسة القبطية، وكلية الشهيدة دميانة للبنات. فضلًا على وجود جمعية خيرية اجتماعية، لرعاية الأقباط في القدس[٣٤].

الأوقاف المسيحية

حفلت الوثائق القبطية بالعديد من حجج الأوقاف المرصودة على القدس. والجدير بالذكر أن الوقف لم يكن حكرًا على الأماكن المقدسة في القدس من الأثرياء الأقباط فحسب، بل كانت معظم الأوقاف من أفراد الطبقة المتوسطة القبطية، فهناك عديد من الأوقاف القبطية تشتمل على عمارات صغيرة، أو جزء من عقار، بعضها موقوف لنفع الأبناء والذرية، على أن تؤول، فيما بعد، إلى الأماكن المقدسة في القدس، والبعض الآخر تم وقفه لصالح الأديرة القبطية في مصر، وفي حالة تعذر ذلك، تعود عائداتها إلى القدس. فضلا على أوقاف موقوفة، مباشرة، على القدس. وبصفه عامة توضع معظم الأوقاف القبطية تحت إشراف البابا القبطي في القاهرة، وينوب عنه المطران القبطي في القدس، ولكن في حالات نادرة وقف بعض الأقباط أوقافًا على الحرم القدسي بصفة عامة، دون تخصيص لدير، أو

كنيسة معينة، وفي هذه الحالة توضع هذه الأوقاف تحت إشراف ناظر أوقاف الحرم القدسي، وهو من المسلمين[٣٥].

منذ القرن التاسع عشر، تولى الأقباط بأنفسهم رعاية الأوقاف والممتلكات القبطية في القدس، ولا سيما مع تولي بعض الأقباط لوظائف إدارية في القدس[٣٦].

الانتداب البريطاني والأوقاف المسيحية

نظرًا لأهمية الأوقاف الأرثوذكسية في معركة التهويد، حيث تملك الأراضي والعقارات، وخصوصًا في المدينة القديمة، ولما تعرضت له البطريركية بالقدس من أزمات مالية، مما منح الفرصة لحكومة الانتداب للتدخل في أوائل ١٩٢١، فعين المندوب السامي لفلسطين السير هربرت صموئيل لجنة تحقيق لعمل الإجراءات اللازمة لتسوية الأزمة المالية في البطريركية. ثم عاود المندوب السامي تشكيل لجنة ثانية عام ١٩٢٥، للنظر في مدى احتياج الأنظمة السلطانية الصادرة في سنه ١٨٧٥ م، بشأن بطريركية الروم الأرثوذكسية، وأيضًا، ضمان حق دخول الطائفة الأرثوذكسية العربية في أخوية القبر المقدس، فضلًا على أمر إقالة مجالس البطريركية الأورشليمية الأرثوذكسية العربية والبطريركية.

لقد ظهر بوضوح عمق الخلافات بين المسيحيين العرب واليونان، وكانت قضية الأوقاف أهمها لارتباطها المباشر بمخطط التهويد والاستيطان[٣٧].

تقسيم فلسطين والأوقاف في القدس

«إني ذاهب إلى فلسطين لتنفيذ أوامر حكومتي لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين». هكذا قال أول مندوب سامي لبريطانيا على فلسطين، هربرت صموئيل، عندما فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، عام ١٩٢٠، من قبل مجلس الحلفاء، وقبل اعتماده من قبل «عصبة الأمم»، بعد عامين. كان لقيام «دولة إسرائيل»، في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٨. أثر سلبي شديد على نظام الأوقاف المعمول به، في تلك الحقبة، سواء على مستوى المسؤولين، أو الموظفين، حيث أُغلق كثير من المساجد، وتعطلت الصلاة، وغيرها من الشعائر الدينية. وحدث اضطراب وضرر طال الكثير من الأنشطة الدينية، والعملية في القدس، فتعطَّل العمل في المناطق الإدارية، وغاب كثير من موظفي الدوائر، بما نتج عنه توقف نظام الأوقاف عن العمل، مما أصاب كثيرًا من مباني الأوقاف بأضرار جسيمة، نتيجة الإهمال، وعدم الصيانة، فضلًا على سيطرة سلطة الاحتلال على موارد الأوقاف، إما بأساليب إدارية ومالية، تم وضعها من قِبَل المحتل، أو بدمج إدارة الأوقاف، أو باستقطاب بعض المسؤولين عن الأوقاف[٣٨].

لقد سعت سلطة الاحتلال للسيطرة على الأوقاف في القدس بطرقٍ شتى، مثل سَنِّ القوانين الجائرة، أو باللجوء إلى العنف، ورغم ما واجهته سلطة المحتل من مقاومة من الشعب الفلسطيني فإنها لم تتوان عن السعى للسيطرة على الأوقاف، وساعدها على ذلك ما قررته اللجنة التي تم تشكيلها من الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين، في مايو/ آيار ١٩٤٧م، من تعامل مع مدينة القدس، بوصفها كيانًا منفصلًا، يخضع لنظام دولي خاص، تديره الأمم المتحدة. وجاء تعريف هذه اللجنة للأماكن المقدسة بأنها عبارة عن مجرد قوائم لهذه الأماكن، دون أن يسري عليها تطبيق أسس الوضع القائم، فغدا لا فرق بين هذه الأماكن المقدسة، وبين الأماكن العادية، من حيث الأهمية[٣٩].

لقد كان لوضع الأوقاف المسيحية شأن آخر أكثر سوءًا، حيث تم توقيع عقد إيجار طويل المدى[٣٩]، إبان النكبة، بين البطريرك يتموثيوس الأول، تخلى بموجبه عن مساحات واسعة من أراضي البطريركية في القدس الجديدة بما كان يعرف بأرض المصلّبة، أقام عليها الصهاينة عمارات الكنيست، ومقر رؤساء إسرائيل، وسكن رئيس الوزراء الإسرائيلي، ومقر وزارة التعليم، وسكن وزير المالية[٤٠].

من النكسة حتى أوسلو

إبان نكسة ١٩٦٧م، أصدرت «إسرائيل» قانون حماية الأماكن المقدسة الإسرائيلية، وبناء عليه أصبحت سلطة الاحتلال ترى في نفسها الحارسة الأمينة على الأماكن المقدسة في القدس القديمة، بالتعاون مع زعماء الطوائف الدينية الثلاث، وذلك رغم وضع الكيان الصهيوني غير القانوني، كمحتل![٤١].

فعندما سقطت مدينة القدس في يد الكيان الصهيوني، بعد معركته مع الجيش الأردني، استولى الكيان على مفاتيح القدس، ومنها مفتاح باب المغاربة، أحد أشهر الأبواب العتيقة، ولا يزال هذا المفتاح في حوزة سلطة الاحتلال، رغم إلحاح الأوقاف الاسلامية على ضرورة رده. ومن هذا اليوم، لم يسمح للأوقاف الفلسطينية بتجاوز هذا الباب، أو بإجراء أي ترميم له، أو لغيره من الممرات العتيقة، لحمايته من الانهيار، تحت وطأة حفريات سلطة الاحتلال المستمرة، والتي لا تنقطع[٤٢].

لقد اتخذت سلطة الاحتلال عدة إجراءات، قانونية وعملية، للقضاء على الأماكن المقدسة في القدس. حيث عمدت، بعد نكسة ١٩٦٧، إلى القضاء على التراث الإسلامي والمسيحي، فشرعت بحفريات غير قانونية، حول الحائطين، الغربي والجنوبي للحرم القدسي، والمسجد الأقصى، بذريعة التفتيش عن الهيكل المزعوم، مما أدى إلى تهديد ٣٠٠ عقار حضاري وسكني بالانهيار[٤٣].

في ٢١/ ٨/ ١٩٦٩م، أحرق أحد الصهاينة المسجد الأقصى، وقد أتى الحريق على منبر صلاح الدين، وأجزاء من الحرم القدسي.

أسهم القرار السياسي الصهيوني بنقل العاصمة إلى القدس في تحولها إلى مركز لبعض المجالات الإدارية، والتعليمية الصهيونية، وتعزز هذا المركز عبر اتساع مجال القدس الغربية، بإدراج ضواح يهودية، وقرى عربية مهجَّرة، وأراضٍ خالية ضمن هذا المشروع التوسعي. بجعلها مدينة يهودية لا يوجد بها سوى أقلية من غير اليهود، لا تتجاوز ١٠٪ من السكان[٤٤].

قامت سلطات الاحتلال بإصدار عدة قوانين، وأنظمة، وأوامر لتكريس «القدس الموحَّدة»، كواقع جغرافي وسياسي، على النحو التالي:

ـ عدلت قانون القضاء والإدارة، بإدخال بعض فقرات جديدة على المادة ٢١ منه، حيث نصت على: «أن قانون القضاء والإدارة يسري على كل منطقة في (أرض إسرائيل)، تحددها الحكومة بموجب أمر».

ـ كما أدخلت إسرائيل تعديلات على المادة ٣ من قانون إدارة البلديات، نصَّت على أنه «يحق للوزير (أي وزير

الداخلية) بناءً على رأيه الخاص، دون إجراء تحقيق بموجب م ٨ توسيع حدود بلدية ما، بإعلان إدخال المنطقة المحددة بالأمر ١١/ أ، من قانون القضاء والإدارة العام ٥٧٠٨/ ١٩٤٨».

ـ كما نصَّت الفقرة ٢: «حيثما وسَّع الوزير منطقه بلدية ما، كما وصف سابقًا، فإن حقه أن يعين بأمر أعضاء إضافيين من سكان المنطقة المضمومة».

جديرٌ بالذكر أنه في اليوم التالي لإقرار تعديل قانون البلديات، في ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧م، أصدر وزير الداخلية، حاييم عوش شاير، أمرًا إلى رئيس بلدية القدس المحتلة، تيدي كوليك، قضى بتوسيع منطقة بلدية القدس[٤٥].

في عام ١٩٧١ عبرت هيئة «اليونسكو» عن قلقها بشأن الحفاظ على المواقع المقدسة في المدينة القديمة. وتم عقد مؤتمر، في عام ١٩٧٢، بإشراف اليونسكو، تقرر فيه مطالبة «إسرائيل» بضرورة اتخاذ الإجراءات الضرورية للحفاظ الدقيق على العقارات والمباني الحضارية كافة. وأن تمتنع عن إجراء أية حفريات، تنقيبًا عن الآثار، وعن نقل المعالم الحضارية من أماكنها، وإجراء أي تغييرات تطمس سماتها، وطابعها التاريخي، خصوصًا الدينية المسيحية والإسلامية.

ولا تزال سلطة الاحتلال تتجاهل هذا القرار، كغيره من القرارات الدولية، وتصر على رفض كل المقترحات المتعلقة باستغلال مبانٍ، أو مواقع دينية معينة، عن سيادة أي دولة[٤٦].

في ٣٠/ ٧/ ١٩٨٠م، أقر الكنيست قانونًا حمل توقيع رئيس الدولة، آنذاك، إسحاق نافون، ورئيس حكومته، مناحم بيجن، ونص على أن «أورشليم الكاملة، الموحدة، هي عاصمة إسرائيل، ويكون فيها مقر رئيس الدولة، والكنيست، والحكومة، والمحكمة العليا». وتنفيذًا لسياسة توحيد شطري القدس، عمدت سلطات الاحتلال إلى جعل ضم القدس الشرقية واقعًا، يتعذر تجاوزه، فربطت أجزاء المدينة، ومحيطها، بشبكة البنية التحتية الإسرائيلية، مع إهمال متعمد للخدمات الخاصة بالمواطنين العرب هناك[٤٧].

نجح الاحتلال الصهيوني منذ نكسة ١٩٦٧م في الاستيلاء على مساحات إستراتيجية، من الأوقاف بالقدس، تم تحويلها، كلها، إلى مستوطنات، فصل بعضها بين القدس، وبين بيت لحم، حيث استغل الاحتلال بعض النفوس الضعيفة من الطوائف المسيحية، ومعهم بطريرك يوناني، في الاستيلاء على كثير من أملاك، وأوقاف الطائفة الأرثوذكسية العربية، ببيعها لجمعيات صهيونية، فتم توقيع عقد بيع ميدان عمر بن الخطاب في باب الخليل، الذي يضم ثلاثة فنادق تاريخية، وعشرات المحال التجارية، متورطًا فيه بطريرك الروم الأرثوذكس، البطريرك أرينيوس الأول، مقابل ١٣٠ مليون دولار، فضلًا على تأجير ٣٢ دونما من أراضي البطريركية، في محيط مسجد بلال بن رباح، عند مدخل مدينة بيت لحم لألف عام! لقد ساد الاستنكار، والغضب أوساط الطائفة الأرثوذكسية في القدس، وتزايدت المطالبات بتنحية البطريرك أرينيوس، وتقديمه للمحاكمة، ووصف الأب الأرشمنديت عطا الله حنا ما حدث بأنه «مشهد مخزٍ من مشاهد الحالة التي وصلت إليها الكنيسة». أضاف عطا الله بأن «أرينيوس الأول يعد خادمًا للوكالة الصهيونية، التي مهمتها الأساسية شراء، أو سرقة الأراضي العربية، كحلقة من حلقات المشروع الصهيوني الاستيطاني».

تسببت تلك التصريحات للأب عطا الله للتحرش به، والاعتداء عليه جسديًا، من قبل أجهزة «الشاباك» الصهيونية،

كما تلقى تهديدات بالتصفية لمواقفه الوطنية، حين صرح بأن صفقة بيع ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية، في القدس الشرقية، لجماعات يهودية سوف تظل وصمة عار، تلاحق الذين قاموا بها، وخططوا لها[٤٨].

على الرغم من رفض أكثر من سبعين سفارة في تل أبيب الانتقال إلى القدس، فإن الاحتلال واصل عمليات التهويد للمدينة المقدسة، من الداخل، بالاستيلاء على الأوقاف وإحاطتها بسياج من المستعمرات الاستيطانية، حتى طرحت القضية في مؤتمر مدريد، خريف عام ١٩٩١[٤٩].

أوسلو والأوقاف

منذ توقيع «اتفاق أوسلو» (١٣/ ٩/ ١٩٩٣)، بدأت مرحلة جديدة، نجح فيها الكيان الصهيوني في تجميد مناقشة قضية القدس، وترحيلها إلى مفاوضات الوضع النهائي، التي كان مقررًا البدء فيها في مايو/ آيار ١٩٩٩. ولقد شهدت القدس أعلى مراحل التهويد، حين أصدر الكنيست، في نهاية عام ١٩٩٤، القانون الثالث، الذي حظر على منظمة التحرير أي عمل، أو نشاط في القدس الشرقية، مما أدى إلى اندلاع «هبَّة النفق»، عام ١٩٩٦، إثر قيام المتطرفين اليهود بحفر نفق بمحاذاة الجدار الغربي للمسجد الأقصى، وفتح بوابة للنفق تحت المدرسة العمرية، وهي عقار ووقف إسلامي، في الرواق الشمالي للمسجد الأقصى، ويبدأ هذا النفق من نهاية حائط البراق، وطوله ٤٧ مترًا، وعمقه حوالى ١٥ مترًا، ويستمر النفق حتى باب الغوانمة[٥٠].

قدمت بلدية القدس المحتلة، في عام ١٩٩٨، إلى حكومة نتنياهو مخططًا من حصيلة عمل هيئات وشخصيات متخصصة في التخطيط والاستيطان، قضى بتوسيع القدس للمرة الثالثة، بمقدار خمسة أضعاف مساحتها الحالية، ما اقتضى، في المقابل، تقليص الوجود العربي الفلسطيني في المدينة إلى النصف، ليصل إلى نحو ١٥٪، فقط من مجموع أهلها، وسكانها المقيمين الوافدين عليها، وغالبيتهم الساحقة من الصهاينة[٥١].

في سلسلة لا تنقطع من القوانين، والقرارات، التي دأبت سلطة الاحتلال على إصدارها، لتهويد، واغتصاب القدس، صدر في ٢٦ يناير/ كانون الثانى ١٩٩٩ قرارٌ من الكنيست، وقضى بتشديد إجراءات إعادة أيٍّ من الأرض المغتصبة في القدس، حيث اشترط القرار موافقة ٦١ نائبًا، من أصل ١٢٠ (مجموع أعضاء الكنيست)، لإعادة أي أرض تمت السيطرة عليها، من قبل سلطة الاحتلال، مثل القدس الشرقية، على أن يعرض الأمر، بعد الموافقة، للاستفتاء الشعبي[٥٢].

انتفاضة الأقصى والاستقلال، والأوقاف

اندلعت «انتفاضة الأقصى والاستقلال» في ٢٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠، كما هو معروف، إثر زيارة آرئيل شارون للحرم القدسي، ولقد شهدت تلك المرحلة أخطر عمليات التهويد للمدينة المقدسة، من أهمها حفر نفق القدس، وتوسيع بلدية القدس، مع استكمال إقامة المستعمرات الاستيطانية، وفي مقدمتها مستعمرة (أبو غنيم)، وقد توجت هذه المرحلة ببناء جدار الفصل العنصري، الذى يبتلع «القدس الكبرى»، بحدود بلديتها، ويدشن المزيد من المستعمرات، وإضافةً إلى تلك الإجراءات العملية، واصلت سلطة الاحتلال إجراءاتها القانونية. ففي ١٥ يوليو/ تموز ٢٠٠٣، صادق الكنيست على مشروع قرار، قدمته كتلة «الليكود»، قضى بأن أراضي الضفة الغربية، وقطاع غزة

ليست محتلة، من الناحية التاريخية، ولا حسب القانون الدولي، ولا وفقًا للاتفاقيات التي وقعت عليها إسرائيل». وهذا يعني السيادة الصهيونية المطلقة على القدس كلها، ورفض أي مفاوضات مستقبلية بخصوصها، مع إقامة ما ترغب فيه إسرائيل من مستوطنات في القدس[٥٣].

وصل الأمر أبعد من الاستيلاء على الأوقاف، بل إلى حد هدم بيت المقدس. يقول القيادي الإسلامي المعروف، الشيخ رائد صلاح: «لا شك أن ممارسات، وأقوال المؤسسة الإسرائيلية بمثابة ضوء أخضر للعنف، والإرهاب، حيث قامت بإصدار التوجيهات لكل هؤلاء اليهود الإرهابيين كي يواصلوا محاولاتهم، بشتى الطرق، لهدم المسجد الأقصى، وإن هذه المؤسسة هي التي أرخت الحبل على غاربه لبعض الإرهابيين اليهود لكي يواصلوا هدم المساجد، أو حرقها، أو جرف مئات المقابر، أو تدنيس البعض الآخر من المساجد، والكنائس». يضيف صلاح: «إنه خلال السنوات القليلة الماضية قام بعض المتطرفين اليهود بهدم مسجد الفرج، ومسجد الفلوجة، ومسجد وادي الحوارث، ومسجد صرفند، وأيضًا مسجد حسن بيك، ومسجد البحر، ومسجد الفاروق. علاوة على تدنيس مسجد البعثة، وكنيسة البعثة، وكنيسة معلول، وذلك على مرأى، ومسمع من المؤسسة السياسية الصهيونية، بل هي من قامت بتسجيل تلك الجرائم ضد مجهول»[٥٤].

لقد وضع خبراء بلدية القدس الصهاينة خطوطًا عريضة لصورة القدس، حتى عام ٢٠١٠، واقترحوا إقامة نحو (٥٢٢١٧) وحدة سكنية إضافية، في المدينة، وضم مساحات كبيرة من احتياطي الأراضي الموجودة شرقي المدينة. ونص المشروع على إنشاء عشرين إدارة يهودية، وتسع إدارات عربية، يكون لكل منها هيئة ممثلة، تتعاون مع البلدية في اتخاذ القرارات وتقديم الخدمات[٥٥].

في مخطط آخر لتوسيع القدس لعام ٢٠٢٠ يدور الحديث عن توسيع القدس، وضم مناطق وأحياء غير مدرجة، اليوم، في الحدود الإدارية، والبلدية للمدينة، بحيث تشمل ١٢ حيًا يهوديًا و٦ أحياء عربية، بما فيها أحياء المدينة القديمة[٥٦].

وبعد، فإن الشريعة الإسلامية لا تجيز بيع الوقف، ولا تحويله خلافًا لشروط الواقف، كما أن الوقف لا يسقط بتقادم الزمن، إلا إذا كان اغتصب، لأكثر من ثلاثة وثلاثين سنة، على الأقل، بدون ممانعة، أو انقطاع، وهو الأمر الذي لم يحدث للأوقاف في القدس، منذ بداية الاحتلال، وحتى الآن.

لذا فإن التمسك بالحقوق، والثوابت التاريخية في القدس، والمحافظة عليها واجبٌ لا يمكن التخلي عنه، أو التساهل فيه.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) د.مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص٧.

(٢) إبراهيم عبد الكريم، **حائط البراق/ الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي**، ط١، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، ٢٠٠١، ص ١١.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١١.

(٤) د. أحمد صدقي الدجاني، **تاريخ القدس منذ الفتح العربي**، موقع المركز الفلسطيني للإعلام.

(٥) **المرجع نفسه**.

(٦) **المرجع نفسه**.

(٧) **المرجع نفسه**.

(٨) **القدس بين الأسرلة والتهويد**، بيروت، سلسلة «معلومات»، شباط/ فبراير ٢٠٠٧، ص ٣٠.

(٩) موقع المركز الفلسطيني للإعلام، **تاريخ القدس منذ الفتح العربي (٢)**.

(١٠) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٢.

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٣٥.

(١٢) **المرجع نفسه**، ص ٣٦ـ٣٧.

(١٣) **موقع المركز الفسطيني للإعلام**، تاريخ القدس منذ الفتح العربي (٣).

(١٤) **المرجع نفسه**، (٣).

(١٥) **موقع مؤسسة فلسطين للثقافة**، وقفية صلاح الدين الأيوبي لآل الخالدي في القدس، ١١/ ٥/ ٢٠٠٧.

(١٦) القدس بين الأسرلة والتهويد، **مصدر سبق ذكره**، ٢٧ ، ٢٨.

(١٧) **المرجع نفسه**، ص ٢٨.

(١٨) موقع مؤسسة فلسطين للثقافة، **مرجع سبق ذكره**.

(١٩) **موقع مؤسسة فلسطين للثقافة**، نصوص وحجج لأوقاف مقدسية، ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٦.

(٢٠) **المرجع نفسه**.

(٢١) **المرجع نفسه**.

(٢٢) **المرجع نفسه**.

(٢٣) موقع المركز الفلسطيني للإعلام، تاريخ القدس (٣) **مصدر سبق ذكره**.

(٢٤) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٠.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٦١.

(٢٦) بشير بركات، وقف الدمشقي في القدس، **موقع مؤسسة فلسطين للثقافة**، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٨.

(٢٧) **المرجع نفسه**.

(٢٨) **المرجع نفسه.**

(٢٩) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٩ـ١٢٢.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣١) د. أحمد يوسف القرعي، **دفاعًا عن القدس**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص١٣ـ١٤.

(٣٢) د. محمد عفيفي، **الوجود القبطي في القدس حتى القرن العشرين**، أبحاث الندوة السادسة، هوية القدس العربية والإسلامية ٢ـ ٥ تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٩٥، عمان، موقع المركز الفلسطيني للإعلام.

(٣٣) القدس بين الأسرلة والتهويد، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢٩.

(٣٤) عفيفي، المركز الفلسطيني للإعلام، **مصدر سبق ذكره.**

(٣٥) **المرجع نفسه.**

(٣٦) رؤوف أبو جابر، أزمة الأوقاف الأرثوذكسية في القدس، **موقع بانيت الإليكتروني**، ٣/ ٥/ ٢٠٠٨.

(٣٧) عفيفي، المركز الفلسطيني للإعلام، **مصدر سبق ذكره.**

(٣٨) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**. ص ١٢٩ ـ١٣٠.

(٣٩) أبو جابر، موقع بانيت، **مرجع سبق ذكره** .

(٤٠) عبد الغني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠ ، ١٥٦.

(٤١) **المصدر نفسه**، ص١٥٤.

(٤٢) **المصدر نفسه**، ١٥٤ ـ١٥٦.

(٤٣) **القدس بين الأسرلة والتهويد**، بيروت، سلسلة «معلومات»، شباط/ فبراير، ٢٠٠٧، (انظر: حسن السبع، **القدس التدويل والتهويد**، ص٢١٢).

(٤٤) إبراهيم عبد الكريم، المخططات الهيكلية الإسرائيلية لتهويد القدس، **شؤون عربية (القاهرة)**، يونيو/ حزيران، ٢٠٠٠، العدد ١٠٢، ص ١١١.

(٤٥) **المصدر نفسه**، ص ١٣،١٢.

(٤٦) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٦، ١٥٧.

(٤٧) عبد الكريم، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٤، ١١٥ .

(٤٨) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٥ ، ٢٤١.

(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ١٥٨.

(٥٠) **المصدر نفسه**، ص ١٥٨.

(٥١) عبد الكريم، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٣.

(٥٢) عبد الغني، **مصدر سبق ذكره**، ١٦٠ ، ١٦١.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٥٤) الشيخ رائد صلاح، اعتداءات المتطرفين على القدس، **الموقع الفلسطيني للإعلام** .

(٥٥) عبد الكريم، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤.

(٥٦) **المصدر نفسه**، ص ١٢٥.

obeikan.com

الفصل الخامس

مسلمون ومسيحيون معًا

أميمة الشريف

غني عن القول أن فلسطين هي جوهر الصراع العربي ـ الصهيوني، والقدس هي لب هذا الصراع.

لم يتعايش المسلمون والمسيحيون، في القدس، بل عاشا معًا[١]. ذلك أن التعايش لا يكون إلا بين نقيضين، كالاشتراكية، والرأسمالية، مثلًا، أما المسلمون، والمسيحيون فهم بناة القدس، ينحدرون من العرب، هويتهم وانتماؤهم واحد. لا يفرِّق بين المسلم والمسيحي إلا عبادة الأول في المسجد، بينما يقيم المسيحي طقوسه في الكنيسة.

اليبوسيون بناة القدس[٢]

القدس، المدينة المقدسة، حباها الله بموقع جغرافي، جعلها مفتاحًا للشرق العربي، وغربه، كما أنها تحتل منطقة تمثل قلب العالم، حيث تقع في منطقة الانطلاق إلى كل من قارتي آسيا، وأفريقيا، وقد حظيت بمجموعة من الجبال، التي تشكل حماية طبيعية، جعلتها في مأمن عند أي محاولة للعدوان عليها، كما أنها زخرت بالثروات، والأنهار، التي كانت سببًا في قيام الزراعة، والاستقرار على أراضيها منذ أقدم العصور[٣].

قامت على أراضي المدينة المقدسة أقدم الحضارات، وقد سكنها، منذ حوالي ستة آلاف سنة، الكنعانيون[٤]، وهم أحد بطون العرب، وسميت «أرض كنعان». وقد أقاموا عليها أقدم الحضارات العربية، وشيدوا فوقها مباني على الطريقة الفلسطينية، واشتغلوا بالزراعة، والتجارة، وكانوا يمارسون عبادتهم، وطقوسهم الوثنية كبقية العرب[٥].

كانت القدس قديمًا تسمى «أور سالم»، أي مدينة السلام، في لغة الكنعانيين، أو «أورشاليم» لنسبتها إلى إله السلام عندهم، فضلًا على أسماء «إيليا» أو «إلياكابيتولينا». جميع تلك الأسماء تعني المدينة المقدسة، أو مدينة السلام[٦].

من أسماء القدس قديماً «يبوس» حيث شيَّدها، وسكنها اليبوسيون، وهم من العرب «الكنعانيين»، الذين نزحوا من الجزيرة العربية، منذ أقدم العصور، بحثًا عن الاستقرار، والأمان، وقد وجدوهما في المدينة المقدسة، فاتخذوها عاصمة لهم[٧].

شكل اليبوسيون، والأموريون، من أهالي المدينة المقدسة، مجموعة كبيرة تحركت في هجرة معًا، انطلقوا فيها من القدس إلى غرب الأردن، وسوريا، وبسطوا نفوذهم الكامل عليها، وبنوا بها مدنًا، وحضارات عربية كنعانية عريقة، وعاشوا فيها لقرون عديدة، عيشة مستقرة، دلت عليها الآثار التي تركوها بها، فقد عثرت الأبحاث الأثرية على مدن كنعانية كاملة، وبقايا شعب عربي أصيل، أقام حياة، وحضارة بأرضه، التي لم ينازعه عليها أحد، ولم يشاركه فيها شريك، تلك الحضارة التي كانت سببًا في أن أصبحت الأراضي العربية، الكنعانية، مقصدًا للغزاة، وقبلة للطامعين[٨].

بنى اليبوسيون حول مدينتهم سورا عظيمًا، لصد هجمات يوشع بن نون، وغزواته عليها، وبعد حوالي ٥١٥ سنة من فشله في اقتحام أسوار المدينة، وحصونها، وفي عام ١٠٠٦ ق.م بالذات هُزم جيش الملك اليبوسي، أدوني صادق، ودخلها اليهود في عهد النبي داود الذي قام بشراء بيدر من أحد اليبوسيين، وأقام عليه هيكلًا للرب، وعاش اليهود أقلية بين أهل المدينة العرب، وعند دخول اليهود إلى المدينة وجدوا فيها جمهرة من العرب، اليبوسيين، الموآبين، والعمونيين، والكنعانيين، واندمج اليهود في هذه القبائل، وتشربوا عاداتهم، وطقوسهم الدينية[٩].

عاش اليهود ضمن المجتمع العربي في القدس، كأقلية دينية، إلا أنه تم تدمير هيكلهم، ومعبدهم، في ٩ آب/ أغسطس ٦٥٧ ق.م، أيام نبوخذ نصَّر، وتلك كانت المرة الأولى التي يهدم فيها، كما أنه تم هدم المعبد الثاني أيام تيطس، بعد القضاء على ثورة اليهود، المسماة ثورة باركوخبا، ومن الغريب أنه جاء الهدم الثاني للمعبد، والهيكل، في التاسع من آب/ أغسطس ٧٠ م[١٠].

مع انتهاء الوجود اليهودي في القدس، بقي فيها أهلها العرب، ومعظمهم من المسيحيين، وانتشرت فيها الممتلكات الدينية، والأماكن المقدسة المسيحية[١١]، ومنها:

دير السلطان، وبه كنيستا الملاك ، والحيوانات الأربعة. وهو الدير الذي يحمل اسما غير قبطي.

- دير مارأنطونيوس ، شمال شرقي القيامة .

- دير مارجرجس ، بحارة الموارنة .

- كنيسة السيدة العذراء ، بجبل الزيتون .

- هيكل ، على جبل الزيتون .

- كنيسة باسم ماريوحنا ، خارج كنيسة القيامة .

- كنيسة صغيرة، باسم الملاك ميخائيل، ملاصقة للقبر المقدس، من الغرب.

تنتشر المقدسات داخل وخارج القدس القديمة، فهناك موقع صعود المسيح على جبل الزيتون، والجثمانية، وستنا

مريم، وكنيسة العشاء السري، خارج باب النبي داود، فضلًا على مقام النبي عكاشة، والنبي صموئيل، والشيخ جرَّاح، ومقبرة الشهداء[١٢].

في عام ٢٢٥م، وبعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الروماني المسيحية، قامت والدته، القديسة هيلانة، بزيارة الأماكن المقدسة، وهناك عثرت على الخشبة التي يعتقدون أنها صلب عليها المسيح، فأمرت بتشييد كنيسة القيامة مكانها. وأصبح معظم أهل البلاد يدينون بالمسيحية، واستمر الوجود المسيحي في القدس، حتى الفتح الإسلامي للمدينة[١٣].

الفتح الإسلامي

حاصر المسلمون مدينة القدس، بعد فتح الشام، لمدة طويلة، ثم أرسل حاكم المدينة إلى قائد جيش المسلمين برغبة أهل المدينة في تسليمها إذا حضر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إليها، وبالفعل حضر إلى المدينة المقدسة، وكانت تدعى إيليا، وقد دخلها راجلًا، بدون سلاح في عام ٦٣٨، وأعطى أهلها الأمان، فيما يسمى «العهدة العمرية»، وقد استقبل مسيحيو القدس الفتح الإسلامي فرحين، حيث ضمن لهم خليفة المسلمين الأمان في أنفسهم، وأموالهم، مع تعهد بعدم التعرض لكنائسهم، وأديرتهم، وشعائرهم، كما ضمن الخليفة لمن يريد الخروج مع الرومان الأمان، حتى يصلوا إلى مأمنهم، وديارهم الجديدة. كما تعهد ابن الخطاب لأهل المدينة بألا يساكنهم فيها يهودي، حسب طلبهم، وأسماها عمر (رضي الله عنه) «القدس» أو «بيت المقدس».

عندما كان ابن الخطاب (رضي الله عنه) في كنيسة القيامة، حان موعد صلاة العصر، فطلب منه البطريرك صفرنيوس أن يصلي حيث هو، لكن خليفة المسلمين رفض مخافة أن يتخذ المسلمون، من بعده، تلك الكنيسة مصلى لهم، ويطالبون بحقهم فيها، وأمسك عمر (رضي الله عنه) بحجر، رماه بقوة، حتى استقر، فصلى حيث سكن الحجر، وهو المكان الذي شيد فيه الحرم الشريف، وما يعرف بالمسجد العمري. ومنذ ذلك التاريخ ضمت مدينة القدس، في عناق جميل، كلًا من المسجد والكنيسة، في دلالة بليغة على احتضانها لكل المقدسات، والموروثات الدينية السماوية[١٤].

بعد أن أتم عمر (رضي الله عنه) فتح بيت المقدس، وأعطى الأمان لأهلها، سلم الراهب صفرنيوس للخليفة مفاتيح كنيسة القيامة، فسلمها إلى عائلتين من المسلمين، هما: نسيبة، وجودة، ولا تزال المفاتيح بيد أحفاد هاتين العائلتين حتى الوقت الراهن، حيث تتولى الأولى الحفاظ على مفاتيح الكنيسة، بينما تضطلع العائلة الثانية بمهمة فتح أبواب الكنيسة، وإغلاقها، وتنظيم مواعيد الزيارة لها[١٥].

لأن الإسلام دين متسامح، يؤمن المسلمون بجميع الرسالات السماوية السابقة، ويحترمون رسلهم، وأنبياءهم، ويقدسون الأماكن الدينية الخاصة بغيرهم من المؤمنين بتلك الديانات؛ لذا فقد عاش المسلمون في المدينة المقدسة مع غيرهم من أهل البلاد في وئام تام، حرص فيها المسلمون على حماية المقدسات الدينية، واستمر المسيحيون في ممارسة شعائرهم الدينية، وفي بناء الأديرة، والكنائس الخاصة بهم، في حرية تامة.

عمل المسلمون على حماية جميع المقدسات المسيحية، ورعاية شؤون البلاد، واحترام حقوقهم باعتبارهم «أهل

ذمة»، وتنفيذ جميع ما جاء بـ «العهدة العمرية»، بعد أن ذاق مسيحيو القدس الويل والاضطهاد أيام حكم الرومان؛ ولذلك فقد أصبح كل من المسيحيين والمسلمين، بعد الفتح الإسلامي، إخوة، يعيشون كتفًا إلى كتف، تحت راية العروبة.

لعل من مظاهر العيش في ودّ واستقرار فيما بين المسيحيين والمسلمين في المدينة المقدسة أنه على الرغم من كثرة الطوائف المسيحية هناك، ووجود العديد من الأديرة والكنائس، ونتيجة للوازع والطبيعة الدينيين، وللظروف الاجتماعية لنظام الوقف، فإن الأوقاف على الأماكن المقدسة المسيحية من جانب أثرياء المسيحيين، أو الطبقة المتوسطة منهم، توضع تحت إشراف ناظر أوقاف الحرم القدسي، وهو من المسلمين، كما أنه، في بعض الحالات، وقف بعض المسيحيين أوقافًا على الحرم القدسي، دون تخصيص لكنيسة ما، أو دير معين[١٦].

استمر الحال كذلك طوال حكم الأمويين، وزاد الاهتمام ببناء المساجد، والكنائس، وتزيينها، وأيضًا أيام الخلافة العباسية، ففي أيام الخليفة هارون الرشيد، وفي عام ٧٩٧م، على وجه التحديد، تبادل الرشيد السفراء مع الإمبراطور الفرنسي شارلمان، وسمح الرشيد للأخير باستعادة كنيسة القبر المقدس، وبترميم الكنائس، وبناء كنيسة العذراء[١٧].

في العصر العباسي، وصف الرحالة برنارد الحكيم القدس وما حولها، فكتب: «إن المسلمين والمسيحيين يعيشون فيها في تفاهم تام، والأمن والأمان مستقران»[١٨].

نظرًا لسماحة الإسلام والمسلمين، وتسامحهم مع أهل الديانات الأخرى، بصفةٍ عامة، ومع المسيحيين، بصفةٍ خاصة، فقد استمرت رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة، بعد الفتح الإسلامي، وازدادت، بشكلٍ كبير، حتى دخول الفرنجة للقدس، فقد منعوا الزيارة للقدس، وارتكبوا فيها أبشع المذابح والجرائم، وروَّعوا أهلها، ودمروا المقدسات، ونهبوها[١٩].

عن المعاملة الطيبة التي شملت المسيحيين خلال الحكم العربي، منذ الفتح الإسلامي للقدس، وعدالة المسلمين، وتوفيقهم في حسم الخلافات بين المسيحيين بشأن الأماكن المقدسة، أدلى المؤرخ جيبتون بشهادة حق، أكدها الأمين العام للمجلس العربي الإسلامي ـ المسيحي، عندما تحدث عن الوجود المسيحي المستمر في القدس منذ ميلاد المسيح، والذي تعزز بعد «العهدة العمرية» (٦٣٨م)، وأكد على أن المسيحيين عاشوا، وتعاونوا مع إخوتهم المسلمين في بناء الصرح الحضاري لها.

يتشبث مسيحيو القدس بعروبتها، وبفرض السيادة العربية، وحدها، على القدس، وبأن مصيرهم والمسلمين في المدينة المقدسة واحد، لهم جميعًا فيها نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات، فهم جميعًا عرب فلسطينيون[٢٠].

بعد انتهاء العصر العباسي، جاءت الدولة الفاطمية، فنشب العديد من الخلافات داخل هذه الدولة، وهي الخلافات التي أدت إلى ضعف الدولة، وزيادة الأطماع فيها. وقد سمح بعض الولاة لليهود بالعودة إلى المدينة المقدسة، مخالفين بذلك العهد الذي سبق أن أعطاه الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهالي المدينة المقدسة.

غني عن القول أن تسامح المسلمين، مع أهل الديانات السماوية الأخرى، كان وراء سماحهم لليهود بالدخول إلى القدس، وزيارة الأماكن المقدسة، للوقوف، والبكاء عند قبر داود، مكان الهيكل، الذي دمره الرومان[٢١].

طوال المراحل السابقة لم يسع المسلمون إلى تغيير معالم المدينة، بل حرص كل حكامها منهم على حماية المقدسات الإسلامية أو المسيحية، على حدّ سواء، أو ما يتعلق منها بالديانة اليهودية، وانطلاقًا من احترام الديانات السماوية، ظل المسلمون حريصين على تأمين ممارسة الجميع لمناشطهم الدينية، وعلى الاهتمام بدور العبادة، وترميمها، وتزيينها، وازدياد عدد المساجد، والكنائس، والأديرة، كما أصبحت المدينة المقدسة قبلة للزوار، من طلاب العلم، وليس الحجاج فحسب، حيث تم بناء العديد من المدارس، والمعاهد العلمية[٢٢]. تبقى بعد ذلك الأهمية الدينية للمدينة المقدسة.

الأهمية الدينية

لم يجتمع في مدينة ما من المقدسات مثل ما اجتمع في مدينة القدس، فهي تضم مقدسات تخص الرسالات السماوية الثلاث؛ لأنها مهبط الديانات، ومسرى الأنبياء، والرسل؛ لذا سميت بالقدس، أو بيت المقدس، فهي قدس الأقداس، والحرم الشريف[٢٣].

تضم القدس، بين جنباتها، أماكن مقدسة خاصة بالمسيحيين، وأخرى خاصة بالمسلمين، الأمر الذي جعلها قبلة الأنظار، وقرة الأعين، منذ أقدم العصور[٢٤].

ولد المسيح في مدينة بيت لحم، جنوب القدس، وانتقل للعيش في القدس، وبُعث فيها، وأقام بها، وعلَّم تلاميذه، ودخل معظم أهل المدينة المقدسة، بل معظم أبناء الأراضي الفلسطينية، في الديانة المسيحية، ولهم في القدس آثار[٢٥].

المقدسات المسيحية

منذ ميلاد المسيح، وإقامته مع والدته في القدس، وبعثه بالرسالة فيها، واضطهاده هو والمؤمنين به من قبل اليهود، حتى رفعه إلى السماء، انتشرت بالمدينة بعض الأماكن التي أصبح لها أهمية في نفس كل مسيحي[٢٦].

استمر المسيحيون في بناء دور عبادتهم من كنائس، وأديرة عند جبل الصعود، وجبل الزيتون، وكنيسة المهد، وكنيسة العشاء السري، وكنيسة السيدة العذراء، وغيرها، مما جعل للمدينة المقدسة مكانة خاصة في نفس كل مسيحي، تهفو نفسه لزيارتها، والتبرك بتلك الأماكن الطاهرة، التي عاش فيها المسيح، وألقى تعاليمه لتلاميذه عندها، والتي شهدت آخر كلمات له، وللمسيحيين حق في المدينة المقدسة[٢٧].

القدس، هي التي ورد ذكرها في آي الذكر الحكيم، وهي التي أسري برسولنا الكريم إليها، ليلًا، في ليلة الإسراء والمعراج، وعرج به منها، من فوق الصخرة المقدسة، إلى السماء، وهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ولها في نفوس المسلمين أعظم مكانة[٢٨].

ترتفع مكانة القدس لدى المسلمين، إنها مدينة مباركة، دفن بها آدم عليه السلام (أبو البشر)، وهاجر إليها نبي الله إبراهيم (أبو الأنبياء)، في رحلة بحثه عن خالق الكون، عندما رفض الوثنية، عبادة آبائه وأجداده، وعندما وصل إليها، وجد بها ملكًا موحدًا، يعبد الله الواحد، هو ملكي صادق، أي القديس صادق، فظل إبراهيم بها، بعد أن اهتدى إلى عبادة الله الواحد[٢٩].

في القدس، أيضًا، قبر اثنين من أنبياء الله، داود، وسليمان، وهناك عاش عيسى عليه السلام، وبشر برسالته.

كما أن في القدس عاش كثير من الصحابة الأجلاء، والأئمة، والتابعين، وماتوا، ودفنوا بها، وفيها قبورهم[٣٠].

يؤمن المسلمون بجميع الديانات السابقة على الدين الإسلامي الخاتم، ويقدسون هذه الديانات، ومن ثَم أصبحت القدس مدينة الحرم الشريف، فالقدس مقدسة لأكثر من مليار مسيحي، وهي كذلك لما يربو على مليار مسلم، كما أنها مقدسة، أيضًا، لما يعادل أربعة عشر مليون يهودي[٣١]، وهي مدينة عريقة، مفتوحة لجميع من يدينون بهذه الديانات لممارسة شعائرهم الدينية، وزيارة مقدساتهم، دون أي تعصب، وبلا أي قيود، فهي لم تغلق بابها إلا في وجه الغزاة فحسب، ولكنها ظلت، طوال تاريخها، مفتوحة الأبواب، والقلب، لكل طالب علم، ولكل حاج، أو زائر، للجميع فيها حقوق دينية، بينما الحق في ملكية أراضيها، والسيادة عليها ثابت، بحكم التاريخ، والواقع، والقانون لأهلها الفلسطينيين العرب[٣٢].

لعل من المواقف التي تدل على عظيم مكانة القدس عند المسلمين أنهم دأبوا على أن تكون مكانًا للأمور العظيمة، والأحداث الكبيرة، في دولة الإسلام، ففي سنة ٤٠ هـ عمد أهل الشام إلى مبايعة معاوية بن أبي سفيان بالخلافة، في مدينة القدس[٣٣].

بعد أن تولى عمر بن عبد العزيز، والملقب بخامس الخلفاء الراشدين، لم يكن بيت مال المسلمين بحاجة إلى المال، فأمر الخليفة عماله، وموظفيه بأن يخففوا عن أهل الذمة (المسيحيين) في استيفاء الجزية. ولكنه عندما علم بأن لليهود مطمعًا في القدس، سارع بإخراجهم منها[٣٤].

استمر خلفاء المسلمين في حكم مدينة القدس، والمحافظة عليها، والعناية بمقدساتها، والاهتمام بأهلها، إلا أن ذلك انحسر، نسبيًّا، أيام حكم الفاطميين، وهو ما دفع الفرنجة الطامعين في المدينة المقدسة إلى مهاجمتها، واقتحامها[٣٥].

احتل الفرنجة القدس سنة ١٠٩٩م، متشحين بالصليب، بذريعة «استرداد» المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، في حين أن الدافع الحقيقي لتلك الهجمات البربرية لم يكن سوى أطماع غزاة، فقد ارتكب الفرنجة الغزاة من الفظائع ما يكفي لملء صفحات كتب كثيرة، فقتلوا، ودمروا، ونهبوا المقدسات، وانتهكوا الحرمات[٣٦].

في سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ)، أحرق الفرنجة الحرم القدسي، وعلى إثر ذلك الحريق أكلت النيران المنبر الذي أعده نور الدين زنكي، وصممه بنفسه، ليضعه في المسجد الأقصى، وكان من الخشب الأبنوس، ومطعمًا بالفضة، وليس به مسمار واحد، وبه زخرفة نادرة، كما أتى الحريق على القبة الخشبية الداخلية من قبة الأقصى، وما بها من زخارف بديعة[٣٧].

ارتكب الفرنجة الغزاة ما ارتكبوه من جرائم وحشية عند احتلالهم بيت المقدس ضد عرب القدس، من مسلمين ومسيحيين، على السواء، كما أنهم لم يفرقوا بين مقدسات أي منهم، الأمر الذي يجعل مزاعمهم في «استرداد» القدس من أيدي المسلمين كاذبة، تخفي وراءها أطماعهم في المدينة المقدسة، وخيرات الشرق[٣٨].

بالمقارنة بين موقف هؤلاء الغزاة المحتلين، والموقف المتسامح الذي اتخذه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما فتح بيت المقدس، وما أظهره من محبة، وتسامح، متمثلا في عهدة الأمان العمرية، وكيف عاش

مسيحيو المدينة، بعد الفتح الإسلامي، مع إخوانهم المسلمين، في ود وتفاهم وأمان، وشهد بذلك الكثير من المؤرخين الغربيين أنفسهم على ذلك، نرى أن المسلمين الفاتحين لم تكن لهم في المدينة أي أطماع، فهم فاتحون لإدخال الدين الإسلامي إلى أرض عربية فحسب، وقد تركوا أهلها وشأنهم، من شاء منهم دخل في الإسلام، ومن لم يشأ بقي على دينه، بل من شاء البقاء في دياره بقي، ومن شاء أن يلحق بالرومان رحل[٣٩].

معروف أنه ليس للحج عند المسيحيين أصل عقائدي مقارنة بالحج عند المسلمين، إلا أنه بعد أن اكتشفت القديسة هيلانة الصليب المقدس، وبنت كنيسة القيامة، فضلًا على عدة كنائس أخرى، بدأ النصارى يتوافدون من كل بقاع الأرض لزيارة هذه الأماكن المقدسة، والحج إليها، والتبرك بها[٤٠].

أوقف الفرس زيارات المسيحيين للمدينة المقدسة، ومنعوا الحج إليها، خاصة في سنة ٦١٤م. وفي سنة ٦٢٢ م، استعاد هرقل، ملك بيزنطة، القدس، وعادت زيارات الحج المسيحي من جميع أنحاء المعمورة إلى بيت المقدس[٤١].

بعد استيلاء الفاطميين على الشام، صاهر الخليفة العزيز الفاطمي، بطريرك بيت المقدس، وفي ذلك العهد ارتكبت خطيئة كبرى في حق المدينة المقدسة، بتسامح الخليفة مع اليهود، أيضًا، فسمح لهم بدخول القدس، مخالفًا بذلك «العهدة العمرية». وحين تولى بعد العزيز خليفة فاطمي متعصب (الحاكم بأمر الله)، منع النصارى في بيت المقدس من الاحتفال بأعيادهم، وهدم أماكن عبادتهم، ومنها كنيسة القيامة، ودير النساء، وفرض على اليهود ارتداء علامات مميزة تدل عليهم مثل الثياب السوداء. فيما أمر النصارى بتعليق الصليب بارزًا، مما أثار غضب النصارى، وكان سببًا لخروجهم من المدينة المقدسة، متجهين إلى بلاد الروم، وتوقفت بذلك الزيارات، والحج المسيحي. لكن الحاكم بأمر الله عاد إلى رشده، وتراجع عن سوء معاملة النصارى، وأمر بإعادة بناء كنيسة القيامة، وغيرها من الكنائس السابق هدمها. وقد هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين في الشام، وبيت المقدس، فساءت، مرة أخرى، أحوال النصارى، وتوقفت زيارات الحج. ولكن الفرنجة اتخذوا من شكاوى حجاج بيت المقدس من النصارى ذريعة لشن الحرب ضد المسلمين، والتجأ البابا إربانوس الثاني من إيطاليا، إلى لويس السادس، ملك فرنسا، ليكلف رجل الدين الفرنسي بالدعوة إلى الحرب المقدسة، لتخليص الأماكن المقدسة. وتم للبابا ما أراد. ثم جاءت أولى حملات الفرنجة، بقيادة بطرس الراهب، مكونة من نساء، وأطفال، من جميع أرجاء أوروبا، في الطريق الذي سبق أن سار فيه الإمبراطور قسطنطين، وفي أثناء زحفهم، سرقوا، ونهبوا، وقتلوا جميع اليهود الذين عثروا عليهم، كما أحرقوا القصور، ونهبوا الكنائس، ولم يكونوا، أبدًا، حماة صليب، ولا قاصدي حماية الأماكن المقدسة، كما اشتبكوا مع السلاجقة. وفي مارس/ آذار ١٠٩٨م (٤٩١هـ)، زحف الفرنجة للمرة الثانية، عن طريق بلاد الأرمن المسيحية، وتوقفوا عند أنطاكية، فقد استعصت عليهم، بسبب جباها، وبروجها، وحصونها، وخرجت جماعات من المسلمين، من الشام، وحلب، والقدس، لنصرتها. لكن الفرنجة استولوا عليها، بعد أن حاصروها تسعة أشهر، وبنوا أمامها قلعة، جمعوا حجارتها من المقابر، وعندما دخلوها أراقوا الدماء وذبحوا المسلمين، حتى أنه تمت تغطية الأرض بالجثث المتراكمة. وهبَّ العرب، وسلاجقة الشام لاستعادة إنطاكية، وحاصروها، حتى كادوا أن يستولوا عليها، إلا أن انقسام القواد أضاع الفرصة. وتمكن الفرنجة من دخول بيت المقدس، في ١٠٩٩م (٤٩٢ هـ)، وارتكبوا أفظع الجرائم، فذبحوا نساء وأطفالًا، وشيوخ مسلمين، وسقط في أيديهم بيت المقدس. فحول الفرنجة جميع مساجدها إلى كنائس، وبخاصة مسجد قبة الصخرة، الذي يعظمه المسلمون، وبنوا فوق الصخرة المقدسة كنيسة، وأقاموا على

قبتها صليبًا من الذهب، ناهيك عن المسجد الأقصى، الذي أقاموا فيه كنيسة، ونُزُلًا لفرسان الداوية، وأصبح يعرف باسم «المعبد»، أو «قصر سليمان»[٤٢].

أصبحت القدس أهم ممالك الفرنجة، ونقطة انطلاقهم، لتحقيق أطماعهم في الجزيرة، والعراق، ومصر.

انتهت الخلافة الفاطمية، وانفرد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة، ووضع نصب عينيه هدف تحرير القدس من أيدي الفرنجة[٤٣].

أمضى صلاح الدين سبع عشرة سنة في توحيد صفوف المسلمين، ثم فتح المواقع الأكثر إلحاحًا، وأمن المواصلات بين مصر وفلسطين، واتجه في أسطول عظيم نحو القدس[٤٤].

في عام ١١٩٨م (٢٠ من رجب ٥٨٣ هـ)، اشتبكت قوات المسلمين، بقيادة صلاح الدين، مع الفرنجة المحتلين، وجاهد المسلمون جهادًا عظيمًا، إلى أن طلب قادة جيش الفرنجة الصلح، فقبل صلاح الدين، على أن تسلم مدينة القدس للمسلمين، ويرحل عنها الفرنجة، وتم ذلك في ٢/ ١٠/ ١١٨٧م (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ)[٤٥].

أظهر صلاح الدين من التسامح ما لا يقل عن أسلافه الفاتحين، فبمجرد أن دخل جيش المسلمين، بقيادة صلاح الدين، إلى القدس، حتى عملوا على حفظ الأمن، والنظام، وسمح القائد للمسيحيين بإقامة شعائرهم، وللحجاج المسيحيين بالوفود إلى المدينة، فضلًا على أنه رفض مشورة بعض أصحابه بهدم كنيسة القيامة، واتكأ هذا البعض على أن بقاء هذه الكنيسة سيبقى ذريعة لإعادة احتلال المدينة من قبل الفرنجة. إلا أن صلاح الدين التزم بروح التسامح الإسلامي، وأمر بالحفاظ على الكنيسة. واقتطع جزءًا من دار القسوس، وأقام عليها مسجدًا، وخانقاه للمتصوفة[٤٦].

كما ادعى الفرنجة أن غايتهم تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين، تحت راية الصليب، زعمًا لإخفاء مطامعهم، وأحقادهم، جاء الصهاينة الذين ادعوا، زورًا، أن فلسطين هي «أرض الميعاد»، وأنهم «شعب الله المختار» الذي اصطفاه الرب لتحرير قبر المسيح، دونما سند من الدين، أو القانون. وفي ٩/ ١٢/ ١٩١٧ وقف الجنرال اللنبي، حين دخل القدس، مفاخرًا يقول: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»[٤٧].

إبان الانتداب البريطاني (١٩٢٠-١٩٤٨)، انتشرت المظاهرات الفلسطينية الرافضة، ووقعت حوادث عنف دامية بين اليهود والعرب الفلسطينيين، أسفرت عن قتلى وجرحى من الجانبين[٤٨]. وتشكلت حركات نضالية، ضمت المسلمين والمسيحيين، في جمعيات أهلية في كل أرجاء الأرض المحتلة، وكانت العائلة الحسينية تقود النضال الوطني في مدينة القدس، وفي شهر أبريل/ نيسان ١٩٢٠، وعند احتفالات شباب فلسطين بموسم النبي موسى، تألفت ثلاث جمعيات، اشترك في تكوينها الشباب من المسلمين والمسيحيين المقدسيين، وهي: جمعية روضة المعارف، وجمعية مقتطف الدرس، وجمعية الإخاء الأرثوذكسي، فضلًا على تأسيس جمعية محبي القدس، والنادي العربي، وكان النضال، في تلك المرحلة في القدس، متخذًا شكل حركة أدبية، إلا أنه سرعان ما تكونت الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية، التي شجعت عليها الحكومة البريطانية في القدس، حيث كان ستورز، الحاكم العسكري للقدس، يدعم تأسيس مثل هذه الجمعيات، وتشكلت جمعية مسيحية ـ إسلامية، لها برنامج يهدف إلى مقاومة السيطرة اليهودية، والحيلولة دون شراء الأراضي العربية، ومكافحة بسط النفوذ اليهودي[٤٩].

كان تشكيل هذه الجمعيات، المعبِّرة عن أجلى صور الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب العربي في فلسطين، وفي القلب منها القدس الشريف، ردًّا حاسمًا وجليًّا ضد الموقف الداعم للصهيونية من جانب الحكومة البريطانية، ولإظهار وحدة الفلسطينيين الوطنية، كشعبٍ عربيّ واحد، وبيان وحدة مصيره، ولإحباط أي محاولة لزرع الفتنة الدينية، أو الطائفية، متخذين رمزًا لهم الهلال والصليب.

استمر النضال العربي الفلسطيني، واتخذ عدة صور، منها ما هو سلمي، مثل انعقاد مؤتمر القدس (١٩٢١)، للمطالبة برفض الانتداب البريطاني، وإلغاء «وعد بلفور»، واستقلال فلسطين، وفي ١٩٢٢ كان أول إضراب عام في القدس[٥٠]. ثم كانت هبَّة البراق، التي اندلعت في القدس سنة ١٩٢٩ قبل أن تنتقل شرارتها إلى صفد، والخليل، وهي الهبة التي امتدت لنحو أسبوعين.

كما سبق للفرنجة أن اتخذوا من زيارة الحجيج المسيحيين للأماكن المقدسة في القدس ذريعة للعدوان على المدينة، بزعم استردادها من أيدي المسلمين، لإخفاء مطامعهم الحقيقية في احتلال المدينة، والانطلاق منها للسيطرة على بقية الأقطار العربية المجاورة، تتستر الهجمة الصهيونية بالدين اليهودي، لإخفاء مطامعها الاستيطانية، أو بالأحرى الاستعمارية، وإقامة إسرائيل الكبرى «من الفرات إلى النيل»[٥١].

كما استهدفت حملات الفرنجة الأولى القضاء على المسلمين والمسيحيين العرب في القدس، فإن فرنجة العصر الحديث (الصهاينة) يرمون إلى الهدف نفسه، ويسعون إلى تحقيقه بالسبل نفسها، وإن اختلفت الأدوات. وكما خلط الفرنجة السياسة بالدين، فقد تسربل الصهاينة، في معركتهم ضد العرب، بثوب ديني، متخذين من التوراة أسبابًا زائفة لحشد يهود العالم، وتوجيههم إلى أرض الميعاد.

وكما عبثت حملات الفرنجة الأولى بكل المقدسات الإسلامية، فقد عمد الصهاينة، في ١٩٦٩ إلى إحراق المسجد الأقصى لتدميره، وبناء هيكلهم المزعوم على أنقاض المسجد، واستمروا، بعد ذلك، في تدمير، وإزالة الآثار الإسلامية، والعبث بها، مثل خلع بلاط الممر المؤدي إلى باب المغاربة.

كما قاوم فلسطينيو القدس العرب ـ مسيحيون ومسلمون على السواء ـ حملات الفرنجة، وقاتلوا تحت لواء صلاح الدين، وقد بذلوا الأنفس، لاستعادة المدينة المقدسة، وتحريرها من الفرنجة، كذلك فإن مسلمي القدس ومسيحييها يقاومون الاحتلال الصهيوني الراهن، صفًّا واحدًا، مكونين معًا نسيجًا واحدًا.

لقد وعى الفلسطينيون العرب حقيقة الاستعمار والاحتلال الصهيوني لبلادهم، ولم ينخدع المسيحيون العرب من أبناء فلسطين، أيضًا، بمحاولات المسيحية الصهيونية، أو محاولات استدراج مسيحيي الشرق لدعم المشروع الصهيوني، أو حتى لجعلهم يتخذون موقفًا حياديًّا تجاهه، ولم يستجب مسيحيو فلسطين العرب لمحاولات بث الفرقة بينهم وبين أشقائهم المسلمين، وإنما عبَّروا عن وحدتهم، ووحدة مصيرهم العربي، في نضالهم المشترك، ضد عدوهم الصهيوني، واتخذوا، طوال تاريخهم النضالي المشترك، مواقف يندر تكرارها في أي حركة إنسانية تحررية أخرى، فتشبث مسيحيو فلسطين بجنسيتهم الفلسطينية، وبعروبتهم.

اجتمع المسيحيون والمسلمون في القدس، قافزين على العقائد الدينية، متجاوزين أيًّا من أسباب إثارة الفرقة،

أو الخلاف فيما بينهم، متحدين، متآلفين معًا، في نضالهم ضد العدو الصهيوني، لنصرة قضية عروبة وطنهم، وحماية قضايا الحق والعدل، باذلين النفس والنفيس للحفاظ عليها. وقد عبَّر المسيحيون العرب، في مناسبات عديدة، عن أن علاقة اليهود العرب، مع بقية العرب من أهل البلاد لم تتأزم إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية، وأكدوا على أن علاقة الإسلام والمسلمين باليهودية كانت أفضل من علاقة اليهود بالمسيحية في الغرب، فضلًا على أن مدينة القدس كانت تعيش في هدوء تام، قبل دخول اليهود إليها.

من صور النضال المشترك لمسيحيي القدس ومسلميها، كان قيامهم معًا، نساءً، ورجالًا، وأطفالًا، بالدفاع عن عروبة مدينتهم ضد الاحتلال ومساعي التهويد للمدينة المقدسة. ففي ٢٧/ ١/ ١٩٦٩ اعتصمت ٢٤ سيدة، وأغلقت كنيسة القيامة، احتجاجًا على احتلال القدس.

في مواجهة الاستيطان في حي النصارى، أغلق وجيه نسيبه، ممثلًا عن عائلته المقدسية المسلمة ـ التي تتولى فتح أبواب كنيسة القيامة، وإغلاقها ـ أغلق أبواب الكنيسة في وجه المصلين، والزوار، وقرعت أجراس الكنائس، تنفيذًا للقرار الذي اتخذه رؤساء الطوائف المسيحية في القدس.

تضامنًا مع موقف الطوائف المسيحية، أعلن «المجلس الإسلامي الأعلى» في القدس رفضه لقيام المستوطنين الصهاينة باحتلال دير ماريوحنا، في حارة النصارى. وقرر المجلس إغلاق المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة أمام الزوَّار، والاكتفاء بفتحهما للمصلين فحسب، على أن يغلقا عقب الصلاة. واعتبر المجلس أن وجود المستوطنين في القدس الشرقية بمثابة اعتداء على الأماكن المقدسة، وعلى حقوق المسلمين، والمسيحيين، في الأراضي المقدسة.

كما أصدر «مجلس كنائس الشرق الأوسط» بيانًا استنكر فيه سياسة الاستيطان في القدس، ومحاولات العدو الصهيوني لإلغاء الطابع العربي للمدينة، كما سنَّ المحتل التشريعات، التي تهدف إلى إفراغ المدينة من أهلها العرب الفلسطينيين. وأكد البيان أن ممارسات العدو الصهيوني تستفز المشاعر الدينية، والوطنية للمقدسيين، بل لكل أبناء الشعب العربي عمومًا، وخاصة الفلسطينيين. وأعرب «مجلس كنائس الشرق الأوسط» عن أن تلك الأفعال، والممارسات العدوانية تخرق كل المواثيق الدولية، التي تقضي بعدم تبديل معالم مدينة تحت الاحتلال. وانتهى المجلس إلى التعبير عن سماحته، وناشد كل المؤمنين أن يحافظوا على القدس مدينة للسلام، مفتوحة للجميع .

استمر النضال العربي لمسلمي القدس، ومسيحييها حتى الوقت الراهن، واستخدموا في نضالهم كل الإمكانات المتاحة لديهم، بدءًا بنضال الكلمة، وإصدار البيانات، وكتابة المذكرات، مرورًا بعقد المؤتمرات الإسلامية، والمسيحية، وتشبثهم بكل ذرَّة تراب وطني، إلى رفع القضايا الدولية، ليعلم العالم بأن محاولة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لا يؤيدها أي سند تاريخي، وتولت ترسانتهم اصطناع الفريات لمحاولة التأثير على المشاعر الدينية لجمهرة اليهود، لإخفاء الطبيعة العنصرية للصهيونية، ويؤيد ذلك أنه عندما نشأت فكرة إقامة دولة يهودية، على أساس ديني، لم تكن فلسطين مطروحة كمكان وحيد، لا بديل عنه، وإنما كانت هناك عدة بدائل واختيارات أخرى، مثل أوغندا، أو كينيا، أو الأرجنتين، أو ألبانيا، أو جزيرة قبرص، أو شبه جزيرة سيناء، وقد اختارت بريطانيا فلسطين، لزعماء الحركة الصهيونية، أثناء عقد مؤتمرهم الخامس (١٩٠٣).

أما الحائط الذي يدعي اليهود أنه «حائط المبكى»، فهو ـ في حقيقة الأمر ـ «حائط البراق» المقدس لدى المسلمين،

وقد حدثت مصادمات دموية بين المسلمين، واليهود بسببه، (١٩٢٩)؛ ولذا فقد اقترحت بريطانيا إحالة هذا الادعاء إلى «عصبة الأمم» لتعيين لجنة تحقيق دولية، في سبيل التأكد من حقوق المسلمين، واليهود، وادعاءاتهم حول الحائط.

في سنة ١٩٣٠، جاء قرار لجنة التحقيق التابعة لعصبة الأمم ليثبت أن المسلمين، وحدهم، يحوزون حقوق الملكية للحائط، والممر المتاخم له، الذي يشكل جزءًا من الحرم الشريف، وأن اليهود يملكون حق ممر حر له بهدف العبادات.

الخلاصة

نخلص من كل ما سبق إلى أن اليبوسيين هم بناة القدس الأوائل منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ومنهم من تنصر، أو دخل الإسلام لاحقًا. ولعل في هذا يكمن سر الإخاء الإسلامي ـ المسيحي الذي عز نظيره، واستعصى على كل محاولات الشق.

بأحرف من نور، وبرائحة الدم الزكية، يروي أبناء القدس ترابها متصدين بأجسادهم، مسيحيين ومسلمين، لكل محاولات تهويد القدس، وطمس هويتها العربية، مؤكدين بذلك انتماءهم للمدينة المقدسة التي بناها أجدادهم، وللعروبة التي تحدروا منها، مسلمين ومسيحيين على حدّ سواء.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، سلسلة «هوية المكان»، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٣٠.

(٢) هنري كتن، **القدس**، ط١، دار كنعان للنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص٢١.

ـ د./ أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، سلسلة «كتاب القدس»، ط١، مصر، مركز الإعلام العربي، ص٥.

(٣) **القدس بين الأسرلة والتهويد**، بيروت، المركز العلمي للمطبوعات، العدد ٤١، أبريل/ نيسان ٢٠٠٧، (انظر اكتشافات أثرية في القدس مدينة متطورة قبل اجتياح العبرانيين لها بـ ٨٠٠ سنة، **السفير** (بيروت) ٢٣/ ١/ ١٩٩٨، ص١٥٠.

(٤) د. عبد الحميد زايد، **القدس الخالدة**، سلسلة «تاريخ المصريين» (١٩٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٣٩.

- **القدس بين الأسرلة والتهويد**، بيروت، العدد(٤١)، أبريل/ نيسان (٢٠٠٧)، (انظر: بناها الكنعانيون عام ٥٠٠٠ ق.م. وعرفت باسم أورشليم)، النهار، (بيروت)٢٤/ ١٠/ ٢٠٠٠، ص٢٠.

- **كتن، مرجع سبق ذكره**، ص١٥، ص١٦.

- سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، مطبوعات الهيئة (٦٥)، ط(٢)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص٥٣.

(٥) زايد، **مرجع سبق ذكره**، ص٨١.

- علي، **مرجع سبق ذكره**، ص٢١.

- اكتشافات أثرية: القدس مدينة متطورة قبل اجتياح العبرانيين، **مرجع سبق ذكره**، ص١٥٠.

- يورشليم اسم عربي موجود في السجلات الكنعانية التي ترجع إلى القرن الخامس عشر، **المرجع نفسه**، ص١٦.

- راشد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٣.

(٦) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص٢١.

(٧) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٨) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٩) راشد، **مرجع سبق ذكره**، ص٥٧، ٥٨.

- الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص٨ .
- بناها الكنعانيون ...، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٠.

(١٠) راشد، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٣، ٢٤.
- كتن، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢١، ٢٢.

(١١) انظر: الوجود القبطي في القدس حتى القرن العشرين، القدس بين الأسرلة والتهويد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(١٢) حوار الأمين العام للمجلس العربي الإسلامي - المسيحي في القدس، النهار (بيروت)، أورده: القدس بين الأسرلة والتهويد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٦.

(١٣) الوجود القبطي في القدس ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(١٤) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٠٠.
- زايد، **مرجع سبق ذكره**، ص١٧٨.

(١٥) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٠٢ .
- كلمة سماحة الشيخ أحمد كفتارو رئيس مجلس الإفتاء الأعلى في: **مسيحيون ومسلمون معًا من أجل القدس**، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٩، ص ٤٦، ٤٧.
- زايد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٦٣.
- علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٥.

(١٦) الوجود القبطي ...، **مرجع سبق ذكره**، ص١٣٠.

(١٧) راشد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨٣.
- كتن، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٢.

(١٨) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٠.

(١٩) كلمة سماحة الشيخ أحمد كفتارو، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٨ ، ٣٩.
راشد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٩٢ .
ـ علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٩٠.
ـ د. سهيل زكار، القدس في العصر المملوكي، **شؤون عربية** (القاهرة)، العدد ٩٦، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٨، ص١٢٣.

(٢٠) حوار بطريرك القدس لطائفة اللاتين ميشال مصباح مع **السفير** (بيروت)،٣/ ٥/ ١٩٩٧، ورد في القدس بين الأسرلة والتهويد ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٤٢.

(٢١) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص٩١.

(٢٢) زكار، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٣.
- علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٩.

(٢٣) كتن، **مرجع سبق ذكره**، ص ١.

(٢٤) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص١٧.
- كلمة قداسة البطريرك مارأغناطيوس زكا الأول عيواص بطريرك أنطاكية وسائر الشرق الأوسط للسريان الأرثوذكس.
- **مسيحيون ومسلمون معًا من أجل القدس**، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٩، ص ٩٦.

(٢٥) **المرجع نفسه**، ص٢٨.

(٢٦) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٢٧) حوار الأمين العام للمجلس العربي الإسلامي - المسيحي ...، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦.

(٢٨) **المعالم التاريخية للقدس**، المهندس رائف نجم وزير الأشغال العامة بالمملكة الأردنية الهاشمية، **شؤون عربية**، (تونس)، العدد (٤٠)، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٤، ص (٢٦:٣٦).
- سمير جريس، **القدس. المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت سنة ١٩٨١، ص ١٨٣.

(٢٩) كلمة سماحة الشيخ أحمد كفتارو، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٨.

(٣٠) **المعالم التاريخية للقدس، مرجع سبق ذكره.**
- جريس، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨٣.

(٣١) كتن، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

(٣٢) مسيحيون ومسلمون معًا من أجل القدس، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٨، ٥٧.

- جريس، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠.

(٣٣) المعالم التاريخية للقدس، **مرجع سبق ذكره**.

(٣٤) **المرجع نفسه**.

(٣٥) مواقف خالدة للإسلام في القدس، عبد الحميد السائح، **شؤون عربية** (تونس)، العدد (٤٠)، ديسمبر/ كانون الأول، ١٩٨٤، ص٣٧:٤٧.

(٣٦) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣، ٩.

(٣٧) **المرجع نفسه**.

(٣٨) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣، ٩.

(٣٩) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣، ٩.

(٤٠) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣، ٩.

(٤١) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣، ٩.

(٤٢) راشد، مرجع سبق ذكره.

- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣، ٩.

(٤٣) مواقف خالدة في القدس، **مرجع سبق ذكره**، ص(٣٧:٤٧).

(٤٤) **المرجع نفسه**.

(٤٥) **المرجع نفسه**.

(٤٦) **المرجع نفسه**.

- الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٠٢.
- راشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٣.
- زايد، مرجع سبق ذكره، ٢٢٥.
- علي، مرجع سبق ذكره، ص ٨١.

(٤٧) زعرور، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢.

(٤٨) إغلاق الأقصى وقبة الصخرة تضامنا مع الكنيسة الأرثوذكسية، **السفير**، بيروت، ٢٥/ ٣/ ١٩٩٠، القدس بين الأسرلة و التهويد، **مرجع سبق ذكره**.

(٤٩) زعرور، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

(٥٠) الصاوي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣، ١٩٨. رئيس الهيئة الإسلامية في القدس الشيخ عكرمة صبري: إسرائيل تزيل الآثار الإسلامية لتهويد القدس، حوار مع **النهار** ٧/ ٢/ ٢٠٠٧، ورد في: القدس بين الأسرلة والتهويد، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٩٠.

(٥١) زايد، **مرجع سابق ذكره**، ص ٢٢٦

- عرفه، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السادس

أبواب القدس والحرم الشريف

دينا العشري

تعتبر مدينة القدس من أهم المدن التاريخية التي توافد عليها العديد من الغزاة والفاتحين، بمطامعهم السياسية، وهذا ما كان يجعل كل من ينزل بها يقيم سورًا حول المدينة، من هنا كان العديد من الأسوار التي أقيمت حول القدس، وتهدمت أيضًا، بدءًا بأول سور أقامه اليبوسيون، عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد، انتهاءً بالسور الذي أقامه السلطان سليمان القانوني، عام ١٥٤٠ م، حيث احتوى هذا السور على ما يقرب من أحد عشر بابًا حسب بعض الروايات، ولعل ما يثير الانتباه هو أن هناك تفاوتًا بين تعداد الباحثين للأبواب الموجودة في السور، وهذا ما سنحاول معرفته من خلال هذه الدراسة.

التسلسل التاريخي لبناء سور القدس

يمثل سور القدس أحد أهم الأبنية الضخمة، أقامه المستعمرون حول مدينة القدس، ويقع السور حول الحرم الشريف، الذي يقع هو الأخير في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القدس، ويشترك سور الحرم من جهة الشرق والجنوب مع سور المدينة القديمة، ويعود بناؤه إلى عهد اليبوسيين[1].

يتبين لنا، من خلال العديد من الدراسات أن مدينة القدس لم يحط بها سور واحد، بل تعددت الأسوار حول المدينة، والحرم الشريف.

ـ السور الأول

بُني السور الأول للقدس في عهد اليبوسيين، الذين دخلوا القدس، وراودتهم فكرة بناء سور حول المدينة،

ليحتموا به، وكان هذا البناء في عام ٢٥٠٠ ق.م، وأقاموا فيه ستين برجًا، وامتد السور حتى شمل الأحياء الغربية للبلدة القديمة (باب الخليل، وحي الأرمن، وحي النبي داود)، إلى أن وصل إلى التلال الواقعة شرقي الحرم، وظل هذا السور قائمًا أكثر من ١٧١٠ أعوام، إلى أن قام يهوأش بن يهو احاز، ملك إسرائيل بتخريب جانب منه، عام ٧٩٠ق.م[٢].

ـ السور الثاني

أعاد الملك «منه» ترميم جزء من السور بعد الاحتلال الآشوري، عام ٦٤٤ق.م، وقد ضم السور، في ذلك الوقت، العديد من الأحياء التي أنشئت في العهد اليبوسي، ولا تزال بعض هذه الأحياء حتى الآن (حارة النصارى، وغيرها...)، كما كان يقام على هذا السور أربعة عشر برجًا، وبالرغم من هذا، فإن السور لم يبق على حاله، فبمجرد احتلال الملك نبوخذ نصَّر للقدس، بعد الملك منه قام بهدم جزء من هذا السور، أيضًا، وذلك عام ٥٨٦٠ق.م.

ظل السور الثاني يتعرض للعديد من عمليات الهدم والترميم لبعض أجزائه من قبل الحكام الجدد، حتى قام الملك نحاميا، في زمن الفرس، ببناء ما تهدم من السور، وكان ذلك عام ٤٤٠ق.م. حيث كان السور يحيط بجبلي صهيون، وموريا، من الشرق، وقام نحاميا، ببناء هذا الجزء ليلًا؛ لأنه كان يخشى من الحورونيين، والعمونيين، الذين كانوا يقطنون البلاد المجاورة للقدس، لكونهم غير راضين عن هذا المشروع، وقاوموه غير مرة، كما أن يهود القدس كانوا يخشون منهم، أيضًا، ولولا وجود حراب الفرس، التي كانت تحمي اليهود، لما تم بناء السور، في ذلك التوقيت[٣].

ما أن احتل بطليموس الأول القدس حتى قام بهدم جزء آخر من السور الثاني، عام ١٦٨ ق.م. وتوالى بعد ذلك الفاتحون، الذين حاولوا بناء الأجزاء المهدَّمة من السور، وكان منهم الفاتح الروماني بومبيوس، عام ٦٣ ق.م. وقيل إنه هدم باقي السور الثاني، لكن بعض الروايات تذكر أن بعض أجزاء السور قد بقيت حتى عهد هيرودوس، الملك الذي أضاف إلى السور بعض الأبراج، التي يتوسطها قصره، والذي يقع في المنطقة التي يقام عليها الآن كنيسة المسيح، وثكنة البوليس، ودير ماريعقوب[٤].

ـ السور الثالث[٥]

جاء العهد الروماني، وشرع اليهود في بناء سور جديد، حول القدس، بدلًا من السور الذي تهدم بفعل الفاتحين، فقام الحاكم هيرودوس أغريباس، عامي ٣٧ ـ ٤٤ ميلادية، بمحاولة بناء سور جديد، إلا أن الإمبراطور الروماني قلوديوس منعه عن هذا العمل، وظل اليهود آنذاك ينتظرون الفرصة التي تسمح لهم ببناء سور جديد، أكثر من ٢٦ عامًا، إلى أن جاءت الفرصة لهم أثناء حصار تيطس للمدينة، عام ٧٠ م، وقاموا بعملية البناء، حيث اختلف هذا السور عن سابقيه في أنه ضم بداخله أحياء جديدة، بالإضافة إلى الأحياء القديمة، ومن هذه الأحياء، الحي الذي يحيط بمدارس الفرير، عند الباب الجديد، وقبور السلاطين، وكان لهذا السور تسعون برجًا، ولكن تيطس لم يترك السور على حاله، بل قام بهدم جزء منه، أيضًا، وفي عام ١٣٥م، قام الملك أدريانوس بهدم الجزء الآخر من السور.

ظل هذا الوضع إلى ما يقرب من ٣٠٠ عام، حتى جاءت الملكة أفدوكيا، زوجة الملك تيودويسوس ٤٣٨ ـ ٤٤٣م، وقامت ببناء سور جديد حول المدينة، وأدخلت قرية سلوان ضمن السور، ولم يدم السور كثيرًا، كما هو

الحال دائمًا، حيث دك الفرس هذا السور، عام ٦١٤م. إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي، وفتح مدينة القدس، عام ١١٨٧م، وأعاد بناء السور، وحفر خندقًا حول السور، وكان يشرف على بنائه بنفسه، واستخدم صلاح الدين العديد من الفرنجة في بناء السور الكبير، وفي عام ١٢١٩م، تولى الملك المعظم عيسى الأيوبي حكم المدينة المقدسة، وبالطبع قام هو الآخر بهدم جزء كبير من السور القائم حول المدينة، ولم يكتف بذلك، بل هدم كل الأبراج التي أقامها صلاح الدين، وكانت ذريعته في ذلك أنه يخشى من أن يستولي عليها الفرنجة.

عندما أراد المسلمون؛ بعد ذلك، بناء السور جرت مفاوضات طويلة متقطعة، بينهم وبين الصليبيين، حتى تمت الهدنة بينهم، عام ١٢٢١م، واشترط الصليبيون، لإتمام هذه الهدنة، أن يدفع المسلمون خمسمائة ألف دينار، ليستطيعوا إعادة بناء السور، إلا أن المسلمين رفضوا هذا الشرط، مما أدى إلى اشتعال القتال بين الطرفين، وبعد سبع سنوات من القتال بين المسلمين والصليبيين توصل الملك الكامل إلى عقد هدنة مع الإمبراطور فردريك، عام ١٢٢٨م، إلا أن شروطها كانت قاسية على المسلمين، حيث إن الإمبراطور اشترط تسليم القدس للفرنجة، بعد تعميره، فرد الملك الكامل على ذلك بأنه لم يقم بتعمير السور، وظل الأمر على حاله، إلى أن جاء الملك العادل زين الدين ، عام ١٢٩٥م، وقام بترميم جزء من السور.

كما تم ترميم جزء آخر من السور في عهد الملك المنصور، عام ١٣٣٠م، الأمر الذي أكدته الكتابات التي لا تزال منقوشة على جدران السور، وكان آخر تعمير لهذا السور في عهد السلطان سليمان القانوني، عام ١٥٤٠م، وقد ذكر عن هذا السلطان أنه قام بقطع رأس المهندس الذي عمَّر السور، وذلك لكونه لم يدخل في البناء مقام النبي داود[٦]، وظل السور بعد الملك سليمان على حاله، ولم يأت أحد بعده لكي يرمم أي جزء من أجزائه.

وصف السور

مثلت الأسوار التي أقيمت حول القدس سدًّا منيعًا أمام العديد من الغزاة، حيث إنه تميز بصلابة وطول شاهق، إلا أن هناك اختلافات في سماكة السور، وارتفاعه من مكان لآخر، ذلك نتيجة لاختلاف التضاريس الطبيعية للأرض، حيث بلغ ارتفاعه في بعض الأماكن أكثر من ثلاثين مترًا، وزاد سمكه في معظم الحالات على مترين، حتى يتمكن الحرس من السير والتنقل فوقه بسهولة، ويعلو الأسوار شراشيف حجرية، وتبرز من جدرانه السقاطات، بالإضافة إلى طاقات مستطيلة في الجزء العلوي من السور، لكي يستخدمها الحرس في توجيه البنادق منها، وتبرز من خارج السور، في بعض الأماكن، شبابيك تشبه المشربيات الإسلامية، وبها فتحات رفيعة للحراسة، تتسع من الداخل حتى يستطيعوا توجيه البنادق منها.

يتبين لنا مما سبق، أن السور تم بناؤه بأحجار مختلفة الحجم، حيث أنشئت الجدران من الأحجار الضخمة، أما المداميك العلوية فتم بناؤها من أحجار أقل حجمًا، واستخدمت المونة الجيرية في لحاماتها، مما جعل البناء أكثر قوة وصلابة، وينفتح في السور أبواب المدينة، وتدعمها الأبراج الصغيرة، في بعض جهاتها[٧].

كما أن معظم بوابات القدس مصنوعة من الخشب الفاسي، المصفَّح بالصاج، ما عدا باب الساهرة، وباب الحديد، اللذين تم تجديدهما بأبواب حديدية، في عهد الانتداب البريطاني (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨).

مراحل هدم وترميم أسوار القدس

تعرضت أسوار القدس للهدم والتخريب أكثر من مرة، بل يُذكر في العديد من الروايات أن القدس وأسوارها تعرضت للهدم والترميم أكثر من سبع عشرة مرة، وكان بدايتها في عام ٥٨٧ ق.م. عندما حاصر الملك نبوخذ نصَّر المدينة، وقام اليهود من خارج القدس بتهريب اليهود الموجودين داخل المدينة عن طريق فتح جانب من السور، ليهربوا منه مع ملكهم، إلا أن الكلدانيين ألقوا القبض على الملك، وابنه وأتوا بهما إلى نبوخذ نصَّر، الذي قام بقتل الابن، وفقأ عين الملك، وأرسله إلى بابل، ثم دمَّر الهيكل، وهدم أسوار القدس.

في عام ١٦٣٠ ق.م حاصر أنطونيوس الخامس القدس، مع حوالي ١٢ ألفًا من الجيش اليوناني، وقام بهدم أسوار القدس، مرة ثانية، وكذلك الحال عام ٦٣ ق.م عندما جاء بومبيوس الروماني من سوريا، وحاصر القدس لمدة ثلاثة أشهر، ثم قام بهدم أسوارها، مستخدمًا المجانيق، حتى أحدث ثقوبًا بها.

في عام ١٨ ق.م أتى هيرود، الأرمي الأصل، واعتنق الديانة اليهودية، وخرج على المكابيين، انتقامًا لأبيه، الذي مثل به هؤلاء، وذهب إلى الرومان، فنصَّبوه ملكًا على فلسطين، فقام بترميم الهيكل، حتى يرضي الشعب الذي كان يحبه، ويذكر بعض اليهود أن جزءًا من الحرم الشريف الحالي (حائط البراق)، قد بني في عهد الملك هيرود؛ لأنه كان يستخدم الأحجار الكبيرة في ترميم الأسوار، وهذا ما تم إثباته من خلال الحفريات الإسرائيلية المعاصرة[٨].

بالرغم من هذا البناء المنيع، فإنه دمر بعد أن جاء تيطس الروماني مع ٨٠ ألف جندي من الجيش الروماني، وقام بدك أسوار القدس عام ٧٠م، مستخدمًا في ذلك الأبراج المتحركة، والمقاليع، وقام بحفر الخنادق أسفل السور، حتى يسهل عليه تدميره، إلا أنه فوجئ بوجود سور آخر داخل السور الخارجي، والذي أقامه اليهود. إلا أن تيطس قام بهدمه هو الآخر بعد أن تخلص من السور الخارجي.

ثم جاء هدريان، عام ١٣٥م، فدمَّر آثار الهيكل بكامله، وقام باستخدام الأحجار الكبيرة، التي حصل عليها بعد عملية الهدم، حتى يعيد استعمالها في بناء السور، مرة أخرى، من هنا نلاحظ أن أسوار القدس تعرضت للهدم والترميم أكثر من مرة، حتى جاء السلطان العثماني سليمان القانوني، عام ١٥٤٠م، وأعاد بناء السور، الذي بلغ محيطه أربعة كيلومترات، وله سبعة أبواب، منذ تلك اللحظة بقي السور شامخًا، يتصدى لجميع عوامل التلف والانهيار، إلا في بعض المناطق المحدودة، التي تتطلب الترميم حتى يستمر هذا الأثر العظيم موجودًا[٩].

التسلسل التاريخي لبناء بوابات القدس

تعددت بوابات القدس، مما أدى إلى الخلط في روايات الباحثين حول عدد الأبواب الموجودة بسور القدس، ويرجع هذا إلى كثرة عمليات الهدم والتدمير التي تعرضت لها أسوار المدينة المقدسة، من ثَم نجد أن بعض الروايات تؤكد وجود ثلاثة عشر بابًا، وبعضها يقول إنهم خمسة عشر، وروايات أخرى تؤكد وجود سبعة أبواب فقط.

ـ وصف باب القدس

يتكون الباب من مدخل ذي عقد، وله مصراعان خشبيان مصفحان، يؤدي مدخله إلى دركاة، فيها غرفة صغيرة، تغطيها قبوة مروحية، كما تؤدي الدركاة إلى مدخل ثانٍ، يمتد إلى داخل السور[١٠].

أبواب القدس والحرم الشريف

١ ـ باب العمود

يقع باب العمود، أو كما يسميه الأجانب «باب دمشق»، في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس، ويرجع هذا الباب إلى عهد السلطان سليمان القانوني، ويعلو هذا الباب قوس مستدير، قائم بين برجين، ويؤدي إلى ممر متعرج داخل المدينة، وقد أقيم هذا الباب على أنقاض باب يرجع إلى العهد الصليبي، وهذا ما تم اكتشافه أثناء حفريات سنتي ١٩٣٦، ١٩٦٦، حيث وجدت بقايا بابين، يعود أحدهما إلى زمن الإمبراطور هادرويانوس، ويرجع الثاني إلى زمن الإمبراطور هيرودوس أغريباس، في منتصف القرن الأول الميلادي.

يتكون باب العمود من مدخل، وعقد، يقوم فوقه برج محمول، ويرتكز الباب على دعامتين من الحجارة القديمة المنحوتة والمزوَّدة بإطار أنعم نحتًا، والباب من الخشب المصفَّح بالنحاس، ذو مصراعين، يؤدي إلى دركاة مغطاة بقبوة مروحية الشكل، ثم يلي ذلك دهليز منكسر يصل إلى داخل السور، وهو مغطى بقبوة متقاطعة.

لقد أضيف عمود داخل الباب، في زمن الإمبراطور هادريانوس، ويظهر العمود في خريطة الفسيفساء التي عثر عليها في الكنيسة البيزنطية، وبقي هذا العمود حتى الفتح الإسلامي؛ ولذلك سمى العرب الباب «باب العمود»، وكان يدعى من قبل «باب دمشق»؛ لأنه مخرج القوافل إليها[١١].

٢ ـ باب الساهرة

يقع باب الساهرة في الجزء الشمالي من سور القدس، على بُعد نصف كيلومتر من شرقي باب العمود، وهو بناء بسيط، أقيم ضمن برج مربع، ويعود تاريخ هذا الباب إلى عهد السلطان سليمان العثماني، عام ١٥٣٧م، ويطلق عليه الغربيون اسم «باب هيرودوس»[١٢].

٣ ـ باب الأسباط

يقع باب الأسباط في الجزء الشرقي لسور القدس، ويطلق الغربيون عليه اسم باب القديس «أسطفان»، ويشبه بابُ الأسباط بابَ الساهرة في شكله، ويرجع تاريخه إلى السلطان سليمان العثماني أيضًا، كما يختلف هذا الباب عن باب الأسباط، الذي يوجد في الجزء الشمالي من سور الحرم الشريف، والذي ورد اسمه في جميع المصادر التاريخية، وبالتحديد عام ١٢٣٢م، الذي بناه الظاهر بيبرس، وهذا ما يتضح من وجود أسدين قائمين على جانبي الباب، وأطلق عليه الصليبيون اسم باب «سانت أتين»، أو «ست مريم»، ويتمثل الباب على هيئة عقد حجري مدبب، متوسط الحجم، يؤدي إلى ردهة مغطاة بقبو متقاطع، ويفتح الباب على الحرم بعقد حجري مدبب، مماثل للعقد الخارجي، وله مئذنة في حجم السورين باب الحطّة، وباب الأسباط، وهو الباب الذي يدخل إليه جميع الآتين من خارج المدينة نفسها، ويغلق الباب بعد صلاة المغرب[١٣].

٤ ـ باب المغاربة

يقع باب المغاربة فى الحائط الجنوبي لسور القدس، ويعتبر هذا الباب أصغر أبواب القدس، وآخرها من الناحية

الغربية، وهو عبارة عن قوس قائم، ضمن برج مربع، ويعرف هذا الباب عند «المقدسي» باسم «باب النبي»، أو «باب البراق»، وظل يعرف بهذا الاسم حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وتعود تسميته باسم باب المغاربة إلى أنه يجاور جامع المغاربة، ونهاية هذا الباب عند حارة المغاربة أيضًا، وقد تم تجديد هذا الباب كلية في عهد السلطان المملوكي، الناصر محمد بن قلاوون، ولهذا الباب أهمية خاصة بالنسبة للسلاطين والمماليك الذين احتلوا القدس؛ وذلك نتيجة لصغر حجمه، خاصة بعد إزاحتهم للخطر الصليبي عن الشام، فلم تعد ضخامة الأبواب شيئًا مهمًا بالنسبة لهم.

يتكون الباب من عقد حجري مدبب، بسيط البناء، ومتوسط الارتفاع، وله باب من مصراعين خشبيين يغلقان عليه، بالإضافة إلى أن بعض الروايات ذكَرت أن «باب النبي»، أو «باب البراق»، أو «باب صهيون»، هو عبارة عن باب كبير مفتوح، يؤدي إلى ساحة داخل السور، وتم إنشاؤه في عهد السلطان سليمان العثماني، عندما أعاد بناء سور المدينة، ١٥٤٠م[١٤].

٥ـ باب الحديد

يعتبر باب الحديد من الأبواب جديدة العهد لسور القدس، حيث أنشئ عام ١٨٩٨م، ويقع في الجانب الشمالي للسور، على مسافة كيلومتر تقريبًا غرب باب العمود، وليس لهذا الباب دركاة، أو غرف، ويذكر بعض الباحثين أن باب الحديد قد شُيِّد كما لو كان يخص منشأة تجارية مملوكية[١٥].

٦ـ باب الخليل

يقع باب الخليل، أو كما يسميه الغربيون «باب يافا»، أو «باب لحم»، في الحائط الغربي لسور القدس، وقد قام بتجديد هذا الباب السلطان العثماني، عام ١٥٨٣م، وأهم معلم يقع في باب الخليل الآن هو قلعة «داود»، التي تقع تحت سيطرة الإسرائيليين، كما يتميز هذا الباب بوجود مقهى معلق، أطلق عليه المربي الفلسطيني الراحل خليل السكاكيني (قهوة الصعاليك)، التي كانت مكانًا لتجمع الكُتاب، والأدباء، والمثقفين، وكذلك الفلاحين العرب الفلسطينيين[١٦].

إلى ذلك فثمة عدة أبواب لسور الحرم الشريف منها:

١ـ باب السلسلة وباب السكينة

يقع هذان البابان في السور الغربي للحرم الشريف، وهما متجاوران، ومن أبواب الحرم القديمة، ويعرف «باب السكينة» بباب السحرة، وكذلك بالباب المغلق؛ لأنه مغلق، ولم يفتح، كما كان يعرف هذا الباب في نهاية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، باسم«باب داود»، أو «الباب المفتوح»، أما «باب السلسلة»، فيقع شمالي باب السكينة، وسمي بهذا الاسم لأنه يقع على مقربة من قبة السلسلة، وأعيد بناء هذا الباب في العصر الأيوبي، وبالتحديد بعد استرداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، ويتشابه البابان في أن لكل منهما مدخلًا شاهقًا على هيئة عقد مدبب من صنجات حجرية معشقة، ويرتكز عقد المدخلين على دعامات حجرية من الخارج.

أما في الداخل، فثمة زوجان من الأعمدة في كل جانب موضوعان فوق بعضهما البعض، ويغلق على كل مدخل مصراعان من الخشب السميك، ويوجد باب صغير يعرف باسم خَوْخة»، وهو عبارة عن فتحة صغيرة، تكفي لدخول شخص واحد عند إغلاق الباب الكبير[١٧].

٢ـ باب الناظر

يعتبر باب الناظر من أبواب الحرم القديمة، وبالتحديد في السور الغربي للحرم، وكان يعرف في السابق بباب مخائيل، ثم باب علاء الدين البصير، وذلك لمجاورته لرباطه، وعندما قام الأتراك العثمانيون بتحويل هذا الباب إلى حبس، عرف باسم باب الحبس، ثم توالت الأحداث، وعرف بباب الناظر، وباب «المجلس الإسلامي الأعلى»، وهذا الباب من إنشاء الملك المعظم عيسى الأيوبي، في عام ٦٠٠هـ ـ ١٢٠٣م؛ واجهته عبارة عن عقد حجري مدبب، وعقدين جانبيين داخل الباب، حتى يصلا بين عقدي الواجهة والداخل، وللباب مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس[١٨].

٣ـ باب العتم

هذا الباب، أيضًا، من الأبواب القديمة للحرم، ويقع في السور الشمالي للحرم، وكان يسمى «باب شرف الأنبياء»، وباب «الدوادرية» وتم تجديده على يد الملك المعظم عيسى الأيوبي، عام ١٢١٣م، كما يتشابه «باب العتم» مع «باب الناظر» في هيئته وتكوينه، حيث يبدو على شكل عقد حجري مدبب متين البناء، وفتحت خَوْخة في أحد المصراعين الخشبيين، وتكفي الخوخة لمرور شخص واحد عند إغلاق الباب الكبير[١٩].

٤ـ باب الحطة

يقع باب الحطة في الجزء الشمالي من سور الحرم الشريف، وهو من أقدم الأبواب في سور الحرم، حيث يذكر أن ناصري خسرو قال إن هذا الباب هو الباب الذي أمر الله (عز وجل) بنى إسرائيل بالدخول منه إلى الحرم، وهذا ما ورد ذكره في القرآن الكريم (سورة البقرة)، وأعيد بناء هذا الباب في عام ١٢٢٠م، أي خلال فترة حكم الملك عيسى الأيوبي، ويوصف الباب بأنه عبارة عن مدخل حجري، معقود بعقد مدبب، على جانبيه مكسلتان حجريتان، وفرشت أرضُه بالأحجار التي تمتد إلى داخل الحرم، وغطيت المسافة بين جانبي المدخل بأقبية متقاطعة، ولهذا الباب مصراعان من الخشب القوي، يتم من خلالهما إغلاق الباب[٢٠].

٥ـ باب المطهرة

يعتبر «باب المطهرة» كغيره من أبواب الحرم القديمة، والذي يقع في السور الغربي للحرم، وعرف هذا الباب عند العرب باسم «باب المتوضأ»، حتى عام ١٨٩٠م، وجدد خلال العصر المملوكي، ثم جدد مرة أخرى على يد الأمير علاء الدين البصير، عام ١٢٦٦م، في عهد السلطان المملوكي، الظاهر بيبرس البندقداري.

يتميز هذا الباب عن غيره من أبواب الحرم الشريف في كونه صغير الحجم، حيث يبدو على هيئة مدخل على جانبيه عمودان رخاميان، يحملان عقدًا مدببًا، وبه صنجات معشَّقة على هيئة مخدات متلاصقة، ويؤدي الباب إلى

ممر مكشوف، يسبق المطهرة، ويعتبر هذا البناء من أكثر الأبواب روعة، لكونه مكشوفًا لتوفير الإضاءة، والتهوية للمطهرة[٢١].

٦ ـ باب الغوانمة

يقع باب الغوانمة في نهاية الجهة الغربية من الناحية الشمالية لسور الحرم القدسي، وعرف قديمًا باسم «باب الخليل»، وقد ذكره المقدسي «بباب الوليد»، إلا أن مجير الدين الحنبلي أشار إليه باسم «باب الغوانمة»؛ وذلك لكونه ينتهي إلى حارة بني غانم، وأعيد بناء هذا الباب في العصر الأيوبي، ثم تم تجديده في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذلك عام ١٣٠٨م[٢٢].

أبواب القدس المغلقة

بالرغم من وجود العديد من الأبواب داخل سور القدس والحرم الشريف، من أجل استعمالها في جميع الأغراض، فإن مجموعة من هذه الأبواب مغلقة، ولا تزال، وقد تم إغلاقها، عمدًا، بسبب انتشار العديد من الخرافات.

١ ـ باب الرحمة

هو من أهم وأجمل الأبواب المغلقة في سور القدس، وعرف هذا الباب عند الأجانب بالباب الذهبي، حيث يقع على بُعد ٢٠٠م جنوبي باب الأسباط، في الحائط الشرقي لسور القدس، ويرجع بناء هذا الباب إلى العصر الأموي، وهو عبارة عن باب مزدوج، يعلوه قوسان، يؤدي إلى باحة مسقوفة، مغطاة بعقود ذات أقواس قائمة فوق أعمدة ذات تيجان كورنيشية ضخمة، ويعتبر هذا الباب من أجمل أبواب المدينة، حيث يؤدي مباشرة إلى الحرم الشريف، وقد تم إغلاق هذا الباب، في زمن العثمانيين، بعد أن سادت خرافة بين الناس، مؤداها أن الفرنجة سيعودون، ليحتلوا المدينة المقدسة، عن طريق هذا الباب[٢٣].

لم يكن باب الرحمة هو الباب الوحيد الذي تم إغلاقه، بل ثمة ثلاثة أبواب أخرى أغلقت، وتوجد جميعها في الحائط الجنوبي للسور، وتؤدي مباشرة إلى مدخل الحرم الشريف، وهذه الأبواب هي[٢٤]:

١ ـ الباب الواحد

هو أول هذه الأبواب الثلاثة الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية للسور، ويقع هذا الباب في زاوية السور، ويعلو هذا الباب قوس.

٢ ـ الباب المثلث

يتألف هذا الباب من ثلاثة أبواب، يعلو كل منها قوس.

٣ ـ الباب المزدوج أو المدرج

يتألف هذا الباب من بابين، يعلو كل منهما سور، وتشير الأدلة إلى أنه بني مع المسجد الأقصى، في أيام الدولة

الأيوبية؛ وهذه الأبواب جميعها تم إنشاؤها في العهد الأموي، وبالتحديد أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، خلال بنائه لقبَّة الصخرة، وهذه الأبواب جميعها تم إغلاقها[٢٥].

بوابات القدس وعلاقاتها بالأنبياء

ربط المسلمون بعض الأبنية المقدسة في القدس والحرم الشريف، وخاصة البوابات، بتاريخ الأنبياء، ومن ثم بدأوا يقدسون هذه الأبنية، ويبجلونها، ومن هذه الأبنية قبة السلسلة، التي تقع شرقي قبَّة الصخرة، ويذكر أن هذا كان المكان الذي يصدر الملك «داود»، عليه السلام، منه أحكامه على بني إسرائيل، وأنه كان يستخدم سلسلة خاصة من الضوء لها القدرة على كشف الكذب.

أما في نهاية الحرم الشمالي فثمة مقعد لسيدنا سليمان (عليه السلام)، وهذا المكان هو الذي صلى فيه «الملك سليمان»، بعد انتهائه من بناء المعبد.

بالإضافة إلى ذلك، تم ربط بوابات الحرم بتاريخ اليهود، حيث قيل إن اليهود حملوا التابوت، ودخلوا من بوابة الحضور الإلهي، أو كما تسمى باب «الشكيناه»، ثم قاموا بالصلاة طالبين المغفرة، وكان ذلك عند «بوابة التوبة»، المعروفة باسم «باب الحطة»، في يوم كيبور (عيد الغفران)[٢٦].

بيد أن مدينة القدس نفسها (أورشليم)، والتي يسمونها مدينة «عيسى»، وهي التي ذكر فيها ولادة «عيسى»، ومراحل طفولته، في القرآن الكريم، وكذلك ما تعرضت له السيدة مريم من اضطهاد، إلى أن رعاها زكريا (عليه السلام)، والمعجزات التي أحاطت بها، مثل الطعام الذي كانت ترزق به، وطفلها الذي تكلم في المهد، وحيث كانت تعتبر آية من آيات نبوته، كل هذا جعل الكثير من زوار القدس يؤدون الصلاة عند موضع معجزة زكريا، في الركن الشمالي الشرقي من الدكة، إلى جانب الضريحين الصغيرين في الأقبية الواقعة أسفل الدكة، والتي كانت، في السابق، محراب مريم، ومهد عيسى.

كما يطل الزائرون من المتراس على وادي جهنم، وجبل الزيتون، المكان الذي يتوقع أن يكون هو الذي سيبعث ويحاسب فيه البشر، ومن هذا المنطلق أطلقوا على الباب الذهبي الموجود في الحائط الشرقي للحرم «باب الرحمة»؛ لأنهم يعتقدون أن الصراط الذي سيعبره الناس، ويحدد من رضيَ الله عنهم ومن حلت عليهم اللعنة، كما هو موجود في القرآن الكريم، في هذا الباب.

أضف إلى ذلك، ما قيل عن الحرم، باعتباره المكان الذي ستصبح الجنَّة فيه، بعد الحساب، أما الجحيم فسيكون مكانه في وادي جهنم، وهذا ما جعل المتصوفين ينشئون غرفًا فوق بوابة الحرم، تلحق بها مسجدًا، حتى يمكنهم تأمل النهاية القادمة[٢٧].

بالرغم من عرض العديد من أبواب القدس والحرم الشريف، فإننا لا نستطيع الوقوف على عدد حقيقي أو محدد لهذه الأبواب، وذلك نتيجة لوجود آثار أبواب قديمة تحت الأبواب الموجودة حاليًا، تعود إلى زمن بعيد؛ لذا يصعب معرفة العدد الحقيقي لهذه الأبواب، وهذا ما خلق تناقضات في العديد من الروايات حول هذا الموضوع.

تناقضات المؤرخين حول عدد أبواب القدس

أسباب أولية لوجود التناقضات

لم يستطع أي من المؤرخين التوصل إلى عدد، أو مسمى حقيقي وواضح لجميع أبواب القدس والحرم الشريف، حيث إن ما عثر عليه من آثار بوابات قديمة تحت البوابات الحالية يؤكد وجود أبواب أخرى قديمة، ترجع إلى عهود سابقة، ويلاحظ أن ذلك يرجع إلى تزايد عدد السكان باستمرار في مدينة القدس، ومن ثَم لم تستطع المدينة استيعاب العدد الكبير من السكان، أو المباني، داخل السور فتم انتشار البناء خارج السور، في جميع الجهات، وهذا ما جعل أحياء كثيرة تظهر، وهى التي عرفت، بعد ذلك، بالقدس الجديدة، إلى جانب الضواحي، التي التحقت بالمدينة، والتي كانت في السابق مجرد قرى صغيرة تابعة لها[٢٨].

نتيجة للتغيرات الطبوغرافية التي طرأت على عمارة القدس والحرم الشريف، سواء كانت بفعل الطبيعة منذ الأزل، أو بفعل العوامل البشرية، أي ما قام به الملوك والسلاطين الذين توافدوا على مدينة القدس، وقيامهم بهدم أسوارها، خاصة خلال احتلال الفرنجة، الذي خرَّب المدينة بكل ما فيها، كل هذه العوامل مجتمعة أدت، بشكل أو بآخر، إلى وجود تناقضات في أقوال المؤرخين، المسلمين أو غير المسلمين، بشأن عدد ومسميات بوابات القدس، بل نجد أن بعض الروايات تخلط بين سور القدس والحرم الشريف، وتجعله سورًا واحدًا، وبواباتٍ واحدة.

بل نجد أن ثمة تناقضات في عدد البوابات نفسها، فنلاحظ، مثلًا، أن عدد البوابات عند المقدسي ـ الذي زار الحرم في نهاية القرن الثالث الهجري ـ ثلاثة عشر بابًا، وهي: (باب الحطة، بوابتا النبي، محراب مريم، باب الأسباط، باب الهاشميين، بوابة الوليد، بوابة إبراهيم، بوابة أم خالد، بوابة خادو، باب السكينة، باب قبة السلسلة، باب الرحمة، باب البركة). أما الرواية الثانية، فترجع إلى ما قاله الرحالة الفارسي، ناصري خسرو ـ بعدما زار القدس في منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ـ من أن سور الحرم الشريف به أحد عشر بابًا هي: (باب داود، باب صقر، باب الأسباط، باب الأبواب، باب الرحمة، باب التوبة، باب النبي، باب العين [سلوان]، باب الحطّة، باب السكينة، وباب يؤدي إلى أماكن الوقود).

فيما تؤكد رواية ثالثة أن للحرم عشرة أبواب، هي: (باب السلسلة، باب السكينة، باب الناظر، باب العتم، باب الحطة، باب الغوانمة، باب المطهرة، باب المغاربة، باب الحديد، باب الأسباط)، بالإضافة إلى وجود رؤية رابعة، أشارت إلى وجود خمسة عشر بابًا في سورالقدس، وترتيبها كالتالي:

ـ من الشرق، الباب الذهبي، وهو مؤلف من بابين: باب التوبة، وباب الرحمة.

ـ ومن الجنوب ثلاثة أبواب، (باب الأسباط، باب المثلث، وباب المضاعف).

ـ أما الغرب فبه (باب المغاربة، باب السلسلة، باب السلام، باب الوضوء أو المتوضأ، باب الحديد، باب القطانين، باب الحبس، باب النذير، باب السرايا، باب الغوانمة).

ـ في الشمال يوجد (باب العم أو باب الفيصل، نسبة للملك فيصل الأول، الذي دخل الحرم من هذا الباب عام ١٩٣٣، باب الأسباط، باب الحطة).

هوامش الفصل السادس:

(١) شوقي شعث (محررًا)، **دراسات في تاريخ وآثار فلسطين**، وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، بيروت، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٩٨،(انظر: عفيف بهنسي، **المنشآت الأثرية في الحرم الشريف تاريخ إنشائها وتجديدها**، ص ٧٩١).

(٢) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٩٩٤، ص ١٧٠.

(٣) **المرجع نفسه**، ص ١٧١.

(٤) المهندس رائف يوسف نجم و(آخرون)، **كنوز القدس**، (عمان)، د.ن، ١٩٨٣، ص ١٧١.

(٥) العارف، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٧٢.

(٦) سور القدس: انظر

http://www.palestine.strabon.org/jncs/pm_jerusalem/Gates/ExternalGates_ar.html

(٧) نجم، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٩ ـ ٣٠، ٣٢.

(٨) **المرجع نفسه**.

(٩) شعث، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩٠.

(١٠) **المرجع نفسه**، ص ٧٩١.

(١١) يحيي الفرحان، **القدس قصة مدينة**، سلسلة «المدن الفلسطينية»، رقم ٦، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت. ص ٣٣.

(١٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، الدراسات الخاصة المجلد الرابع بيروت: ١٩٩٠ (انظر: عفيف بهنسي، **العمارة والزخرفة في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي**، ص ١٢٧).

ـ لمزيد من التفاصيل انظر: بوابات القدس

http://www.palestine.strabon.org/jncs/pm_jerusalem/Gates/ExternalGates_ar.html

(١٣) أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، سلسلة «كتاب القدس» القاهرة: مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٣، ص ٥٤.

ـ لمزيد من التفاصيل: بهنسي، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٢٨.

(١٤) الصاوي، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣.

(١٥) الموسوعة الفلسطينية، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩١.

(١٦) الفرحان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

(١٧) **المرجع نفسه**.

(١٨) عرفة عبده علي، **القدس مدينة التاريخ والمقدسات**، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ص٤٦.

ـ بوابات القدس، **مرجع سبق ذكره**.

(١٩) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٧.

ـ الفرحان، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٥.

(٢٠) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢١) **المرجع نفسه**، ص ٥٠، ٥٣.

(٢٢) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص٤٧.

(٢٣) أبواب القدس والحرم الشريف: انظر:

http: / /www.merbad.net /vb /showthread.php?t=٢٤١٧

ـ الفرحان، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٦.

ـ الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٩١.

ـ علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧.

(٢٤) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني، القاهرة: سطور، ١٩٩٩، ص ٤١٦ـ ٤١٧.

(٢٥) الفرحان، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٧.

(٢٦) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢٧) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(٢٨) **المرجع نفسه**.

* * *

الفصل السابع

الاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة في مدينة «القدس»

أكابر سيد

تتمتع مدينة القدس بمكانة خاصة في الأديان السماوية الثلاثة؛ لذلك عمد الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٦٧(*)، بشكل منهجي إلى تهويدها، بالتركيز على مشاريع الاستيطان فيها، وتهجير أهلها العرب، وتغيير ملامحها العربية، بالهدم والمصادرة للأراضي، وبشتى الوسائل. اليوم، وبعد أن مر الصراع العربي/ الإسرائيلي بحلقات مختلفة، ما زالت سلطات الاحتلال تواصل مخططاتها ـ مع الخواء العربي ـ وبمنتهى الشراسة لتحويل «القدس العربية» إلى «أورشليم المقدسة»، وخلق «واقع جديد»، يصبح حقيقة على العالم أن يتقبلها، شاء من شاء، وأبى من أبى!!

لقد قسمنا رصد الاعتداءات الإسرائيلية على فترات؛ نظرًا لاختلاف متغيرات الصراع من فترة لأخرى، وتأثير هذه المتغيرات على حجم الاعتداءات، وكيفيتها.

من عام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠

كان عام (١٩٦٧) عامًا فاصلًا في حياة الأمة العربية بأسرها، ففيه هزم العرب، واحتل الصهاينة سيناء في مصر، وهضبة الجولان بسوريا، والقدس بفلسطين.

اتسمت الفترة من عام (١٩٦٧ - ١٩٧٠) بتعملق العمليات الفدائية، فاستطاعت تلك العمليات توجيه ضربات

(*) سبق ذلك، ومنذ نكبة ١٩٤٨، انتهاكات الصهاينة لفلسطين، من مصادرة أملاك العرب، مسلمين ومسيحيين، وهدم عدد كبير من المساجد، والكنائس، واضطهاد رجال الدين. لمزيد من التفاصيل انظر:

د. إسحاق موسى الحسيني، **عروبة بيت المقدس**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩.

موجعة للكيان الصهيوني. وكبدته خسائر مادية ومعنوية كبيرة، فاقت ما مُنيت به في حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ مجتمعة.

مثلت تلك العمليات، مع حرب الاستنزاف (*)، رادعًا قويًّا لإسرائيل، ناهيك عن «تيار القومية العربية»، والذي ساد هذه الفترة، فمثل حائطًا قويًّا في وجه الهجمة الصهيونية، وأحلامها التوسعية في المنطقة العربية، كانت الضربة للفدائيين في الأردن، مذابح أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، كافية لتشتيت جهود المقاومة لفترة[١].

تلا ذلك غياب عبد الناصر ٢٨ أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، ثم سقوط النظام السوري، الذي كان يدعم الفدائيين الفلسطينيين، قبل مذابح أيلول/ سبتمبر بالدبابات، وانتقال المقاومة الفلسطينية إلى لبنان عام (١٩٧١)[٢]، ما مثَّلَ نهاية تلك المرحلة في تاريخ القضية، والحركة الوطنية الفلسطينية، وفيما يلي رصد الاعتداءات في الفترة المذكورة:

ـ ٦/ ٦/ ١٩٦٧ احتلال الحرم القدسي، وتحطيم نوافذه، وأبوابه، وتدنيس طرقه، وممراته.

ـ ٢٧/ ٦/ ١٩٦٧ قرار توحيد القدس من قبل الحكومة الإسرائيلية.

ـ ١٤/ ٨/ ١٩٦٧ منح وزير الشؤون الدينية الإسرائيلي الإشراف على الأماكن المقدسة، والشؤون الدينية في القدس، وسائر المنطقة المحتلة[٣].

ـ ١٥/ ٨/ ١٩٦٧ شلوموغورن، الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي، يقيم الصلاة في ساحة المسجد الأقصى، والجيش الإسرائيلي يقيم حواجز على الشوارع المؤدية للمسجد لمنع المصلين المسلمين من الوصول إليه[٤].

ـ أواخر عام ١٩٦٧ قيام عدد من الإسرائيليين بسرقة تاج العذراء من كنيسة القيامة.

ـ ٢١/ ٨/ ١٩٦٩ أحد المتطرفين اليهود يقوم بإحراق المسجد الأقصى، مما أدى إلى تلفيات جسيمة بالمسجد (*).

ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٧٠ ليلة عيد القيامة، احتل الجنود الصهاينة بطريركية الأقباط الأرثوذكس، وكنيستهم، وألغيت على إثر ذلك الاحتفالات بالعيد.

ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٧٠ قامت السلطات الإسرائيلية بالاستيلاء على بناية النوتردام، وكذلك على أرض لبطريركية الروم الأرثوذكس، قرب فندق الملك داود، وعلى جميع أبنية مدرسة شنلر (الألمانية)، وأملاك الكنيسة الأرثوذوكسية (المسكوبية).

ـ ٢٤/ ٢/ ١٩٧١ الاعتداء على قناديل الزيت والشموع فوق القبر المقدس[٥].

(*) بدأت حرب الاستنزاف في ٨ آذار/ مارس ١٩٦٩ وانتهت بمبادرة روجرز في عام ١٩٧٠، وكان الهدف منها إصابة آلة الحرب الإسرائيلية في سيناء بقدر مؤثر من الدمار في الأسلحة، المعدات، التحصينات. لمزيد من التفاصيل انظر:
المشير عبد الغني الجمسي، **مذكرات الجمسي – حرب أكتوبر ١٩٧٣**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٦٣.

(*) ٢١ آب/ أغسطس تاريخ يعني شيئًا مهمًا لليهود، فهو كما يزعمون تاريخ تدمير الهيكل؛ ولهذا أرادوا أن يكون هو تاريخ إحراق المسجد الأقصى أيضًا.

وبالنظر في الاعتداءات المذكورة نجد :

أسرع «الصهاينة» والعرب في غيبوبة هزيمة (١٩٦٧) في خلق «الظروف المواتية» لتجسيد أهداف الكيان الصهيوني.

فيما يخص مدينة القدس، ففي ثاني أيام الحرب استولت على المسجد الأقصى، ثم ضمت القدس الشرقية لها، أعقبت ذلك بإعلان القدس عاصمة رسمية «لإسرائيل»، بقرار من الكنيست الإسرائيلي، وضم المزيد من الأراضي العربية المجاورة، وأحكمت السيطرة على المقدسات، والشؤون الدينية، حين وضعت كل ما يخص ذلك في قبضة وزير إسرائيلي للشؤون الدينية، يستوي في ذلك المقدسات المسيحية، والإسلامية.

من عام ١٩٧١ إلى ١٩٧٣

انتقال المقاومة الفلسطينية إلى لبنان عام ١٩٧١ كان بداية هذه المرحلة، وكان هدف إسرائيل فيها ـ بمعاونة ودعم حليفتها الولايات المتحدة ـ أن يكون لها التفوق العسكري، فتتجسد قوتها، وتنشر هيمنتها على النظم السياسية العربية، ومن ثم تفرض شروطها. مستظلة بحالة اللاحرب واللاسلم، آنذاك، سمح ذلك لإسرائيل بتثبيت الأمر الواقع في الأراضي المحتلة، وهو الاحتفاظ بالأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ ـ سيناء المصرية، والجولان السورية ـ حتى يتقبل الرأي العام العالمي الأمر المقضي[٦].

كان وجود قوتين عظميين في هذه الفترة ـ الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي ـ من شأنه اعتدال كفتي الميزان، فكان دعم السوفييت لمصر وسوريا السلاح لمواجهة التدخل الأمريكي ـ الصهيوني في المنطقة.

«قومية المعركة» كان شعارًا التف من حوله العرب، فتم التعاون العسكري بين مصر وسوريا، ثم استخدام العرب ـ الدول النفطية ـ لسلاح «البترول» ـ كقوة ضغط غير مباشرة ـ بالتهديد بقطع الإمدادات البترولية عن أوروبا وأمريكا واليابان في أثناء حرب ١٩٧٣، ما جعل العرب يشكلون خطرًا حقيقيًّا على إسرائيل، والولايات المتحدة، فقامت الأخيرة بالضغط على إسرائيل لتتبنى موقفًا معتدلًا في نهاية حرب أكتوبر ١٩٧٣[٧]، وبتلك الحرب انتهت تلك الفترة.

وفيما يلي رصد الاعتداءات في تلك الفترة:

ـ ٢٦/ ٢/ ١٩٧٣ إحراق المركز الدولي للكتاب المقدس.

ـ ١١/ ٢/ ١٩٧٣ إحراق ٤ مراكز مسيحية[٨].

لقد كان اتحاد العرب، حول معركة العبور، كابحًا قويًّا، لجم الصهاينة عن بطشهم، فكلما كنت قويًّا من الداخل، فلن يستطيع كل من هب ودب المساس بحقوقك وممتلكاتك.

من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧

بدأت تلك الفترة بالمفاوضات بين الرئيس السادات والإدارة الأمريكية، والذي ما فتئ يناور ليحصل على تسوية منفردة، فكانت انعطافته نحو الغرب، وهو ما أكده تصريح «كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكي، في الأول من

مارس/ آذار ١٩٧٤ في أكبر مؤتمر صحفي من نوعه، آنذاك، حين قال: «يسرني أن أؤكد اليوم أن عصرًا جديدًا قد بدأ بين بلادي ومصر، والفضل الأول في ذلك يرجع إلى الرئيس السادات»[٩]، ولطالما كرر السادات القول بأن ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة بيد الولايات المتحدة الأمريكية.

تفكيك وحدة الوطن العربي كان هدف الولايات المتحدة وربيبتها إسرائيل، ليسهل التهامه، فقاما بجر المنطقة إلى حروب طائفية، فكانت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٧٦) هي الضربة الثانية بعد المفاوضات مع السادات[١٠].

مثَّلت زيارة السادات «للكيان الصهيوني» في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٧٧ الطامة الكبرى بالنسبة لقضية «الصراع العربي الإسرائيلي»، فكان اعترافًا بالكيان الصهيوني، مما أتاح ـ فيما بعد ـ للكيان المذكور إقامة علاقات واسعة مع بعض الدول العربية، فتغلبت المصلحة الفردية على روح الجماعة ، وبهذا انتهت هذه الفترة[١١].

رصد الاعتداءات في الفترة السابقة :

ـ ٢٨/ ١/ ١٩٧٦ محكمة إسرائيلية تقرر لأول مرة أن من حق اليهود الصلاة في المسجد الأقصى[١٢].

وبالنظر في هذا الاعتداء نجد:

من المعروف أن للصهاينة إستراتيجية بعيدة المدى، لتحقيق أهدافهم، مستغلين الظرف المناسب، وساعد في خروج ذاك القرار إلى حيز الوجود حالة التفكك والتشرذم العربي، أما مسألة حق اليهود في الصلاة فيما يسمى جبل الهيكل، فهي دعوة بدأت بمجموعة صغيرة من الحاخامات، سرعان ما جذبت إليها الكثير من اليهود المتدينين.

من عام ١٩٧٨ إلى ١٩٩٣

وقعت مصر اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ مع الكيان الصهيوني، تبعتها معاهدة الصلح ١٩٧٩، وبذلك نجح الكيان في شل الكفاح الوطني الفلسطيني عمومًا، وفي قطاع غزة خصوصًا، وفي تحييد جميع المناطق القريبة من القطاع ، وتخلت بذلك مصر عن دورها القيادي العربي بتلك التسوية السياسية المنفردة، فكان خروجها ـ مصر ـ من دائرة الصراع تحولًا في الصراع، فأصبح مصطلح «القضية الفلسطينية» بدلًا من الصراع العربي الإسرائيلي[١٣].

ضرب المقاومة الفلسطينية في لبنان، عام ١٩٨٢، كان أول تداعيات «كامب ديفيد»، وكان الاجتياح الإسرائيلي للبنان هدفه ضرب «منظمة التحرير الفلسطينية»، وبنيتها التحتية هناك، وإبعاد بقية الفلسطينيين إلى حدود بعيدة عن الكيان.

في أقل من شهرين ونصف الشهر استطاع العدوان المدمر قتل أكثر من أربعين ألف فلسطيني، ولبناني، وإصابة أكثر من مائة ألف آخرين، وتشريد حوالي نصف مليون نسمة، وأصبحت المخيمات الفلسطينية «ذكرى» في مخيلة الآلاف من المطرودين خارج لبنان[١٤].

مثلت كل تلك الآلام بالداخل والخارج مخاض «الانتفاضة الفلسطينية الأولى»، أواخر عام ١٩٨٧، وكان تعسف الاحتلال، وتحكمه في الاقتصاد الفلسطيني، والتعليم، والعمل، ناهيك عن إهداره للحقوق الوطنية، والإنسانية للشعب الفلسطيني، وحصار الضفة، وقطاع غزة، ثم العجز العربي عن مجرد المساندة للشعب الفلسطيني، إكمالا

لقتامة الصورة، ومفجرًا لبركان المقاومة (الانتفاضة)، من شعب مكبل بكل أنواع القيود. ورغم قوة الانتفاضة ودويها، إلا أن هناك ثمة عوامل أضعفتها فلم تؤتِ ثمارها، فكان سقوط «المعسكر الاشتراكي» في (١٩٨٩)، وانهيار الاتحاد السوفييتي (١٩٩١)، سند القضايا العربية، سببًا في تخلخل النظام العالمي، الذي أصبح حكرًا للقطب الأمريكي وحده، ثم حدوث حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١)، كل هذه المصائب المتوالية دفعت بالقضية الفلسطينية في سلم أولويات الحكومات العربية إلى الوراء باطراد[١٥].

أصابت ضربة «اتفاقات أوسلو» (١٩٩٣)، التي وقعتها القيادة المتنفذة في «منظمة التحرير»، مع الكيان الصهيوني، القضية الفلسطينية في مقتل، وشكلت مفترق طرق، وأحدثت بلبلة داخل الفلسطينيين، وحملت معها الكثير من التداعيات، والتراجعات، والتنازلات أهمها: إغفال حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، ثم قضايا القدس، والاستيطان، واللاجئين، وحق العودة[١٦].

وبدا الأمر وكأن القيادة المتنفذة تتنازل عن فلسطين، والشعب الفلسطيني بالداخل، للصهاينة؟! الأمر الذي أعطى دفعة للأخير، فزادت شراسته في التعدي على المقدسات الإسلامية، والمسيحية، على السواء، على النحو الذي يوضحه السجل التالي:

ـ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٩ انتشار شائعات حول اعتزام جماعة من أتباع كاهانا، وطلاب المدارس الدينية إقامة الصلاة في الحرم القدسي، يؤدي إلى تجمع حوالي ألفين من الشباب العرب الفلسطينيين، بالهراوات، والحجارة، في ساحة الحرم، ورجال الشرطة الإسرائيليون يقومون بتفريقهم.

ـ ٣/ ٨/ ١٩٧٩ قدمت مجموعة صهيونية طلبًا إلى المحكمة العليا لإلغاء المنع المفروض على اليهود لتأدية الصلاة في الحرم، عملًا بالمادة الثالثة من القانون الجديد الذي صدر بشأن القدس، والتي تؤكد حرية الوصول إلى الحرم القدسي.

ـ ١٤/ ٨/ ١٩٧٩ محاولة جماعة «غورشون سلمون» المتطرفة اقتحام المسجد الأقصى، والمواطنون يتصدون لهم، وتكرار المحاولة من مائير كاهانا، وجماعته، بدعم من قوات كبيرة من رجال الشرطة الإسرائيلية، إلا أن عشرين ألف مواطن تصدوا لهم، وخاضوا مع الجنود مواجهات ضارية للدفاع عن الحرم، سقط خلالها عشرات الجرحى العرب.

ـ ١١/ ١١/ ١٩٧٩ أطلقت الشرطة الإسرائيلية وابلًا كثيفًا من الرصاص على المصلين المسلمين، مما أدى إلى إصابة العشرات منهم بجراح مختلفة.

ـ ١٩/ ٤/ ١٩٨٠ عقد الحاخامات اليهود مؤتمرًا لهم في القدس المحتلة، خططوا خلاله للسيطرة على المسجد الأقصى.

ـ ١٣/ ١/ ١٩٨١ اقتحم أفراد «أمناء جبل الهيكل» الحرم القدسي الشريف ورافقهم الحاخام «موشى شيغل» وبعض قادة حركة «ها تحيا»، وأرادوا الصلاة وهم يرفعون العلم الإسرائيلي، ويحملون كتب التوراة.

ـ ٧/ ٥/ ١٩٨١ محاولة ٢٥ يهوديًا من المتطرفين الدخول لساحات الحرم القدسي الشريف، ومنعهم حراس

الحرم الشريف من الدخول، وضباط شرطة الحرم، وبقي المتطرفون خارج باب المغاربة، وبعدها انضم إليهم فوجٌ آخر، وقاموا بإثارة الضجيج، والصياح، ثم أدوا الصلاة هناك[١٧].

ـ ٢٨/ ٨/ ١٩٨١ اكتشاف نفق يمتد من أسفل الحرم القدسي، ويبدأ من حائط البراق (المبكى) قامت بحفره السلطات الإسرائيلية.

ـ ٣١/ ٨/ ١٩٨١ تصدع الأبنية الملاصقة للحرم بسبب الحفريات.

ـ ٤/ ٩/ ١٩٨١ إعلان الإضراب العام بسبب الحفريات[١٨].

ـ ٢٤/ ٢/ ١٩٨٢ قيام رئيس مجموعة «أمناء الهيكل» غورشون سلمون باقتحام ساحة الأقصى لأداء الصلاة، والشعائر الدينية.

ـ ٢/ ٣/ ١٩٨٢ محاولة اقتحام صهيونية للحرم الشريف من باب السلسلة على يد مستوطنين مسلحين.

ـ ٨/ ٤/ ١٩٨٢ العثور على طرد يحتوي على قنبلة وهمية، ورسالة تهديد عند باب الحرم الشريف.

ـ ١١/ ٤/ ١٩٨٢ هاري جولدمان أحد الجنود الصهاينة يقتحم المسجد الأقصى، ويطلق النار عشوائيًا، واستشهاد مواطنين، وجرح أكثر من ستين آخرين.

ـ ٢٥/ ٧/ ١٩٨٢ اعتقال يوئيل ليرنر من حركة كاخ بتهمة التخطيط لنسف المسجد الأقصى، واعتقال عدة مجموعات أخرى بالتهمة نفسها.

ـ ١٠/ ٣/ ١٩٨٣ قامت الشرطة باعتقال ٤٠ شخصية يهودية بتهمة التخطيط لدخول الحرم بالقوة، ومحاولة مسلحين اقتحام الممر الأرضي، المعروف باسم «إسطبلات الملك سليمان».

ـ ١١/ ٣/ ١٩٨٣ محاولة اقتحام للحرم الشريف ليلًا، من مجموعة يهودية، مدججين بالسلاح، من طراز «عوزي» وبنادق من طراز إم ١٦، ومسدسات[١٩].

ـ ١١/ ٣/ ١٩٨٣ إحباط محاولة اقتحام للأقصى من قبل متطرفين يهود، أرادوا احتلاله، وقبة الصخرة، وإقامة مركز للدراسات الدينية هناك.

ـ ١٢/ ٣/ ١٩٨٣ اكتشاف عدة فتحات تحت الحائط الجنوبي للحرم الشريف.

ـ ٣/ ٤/ ١٩٨٣ مجموعة ما يسمى «أمناء جبل البيت» توجه دعوة لإقامة تجمع داخل باب المغاربة، قرب ساحة البراق (المبكى).

ـ ١٦/ ٤/ ١٩٨٣ اعتراف جماعة «أمناء جبل الهيكل» بنشرها الملصقات على الجدران للدخول إلى الأقصى لتأدية ما يسمى «بصلاة عيد الاستقلال».

ـ ١٣/ ٥/ ١٩٨٣ جماعة من المتطرفين والمسماة «أمناء جبل الهيكل» يؤدون الصلاة أمام باب قرب الأقصى.

ـ ٢٩/ ٣/ ١٩٨٤ انهيار الدرج المؤدي إلى مدخل المجلس الإسلامي الأعلى، حيث اكتشفت ثغرة طولها ٣ أمتار، وعرضها متران، وعمقها أكثر من عشرة أمتار.

ـ ٢٣/ ٤/ ١٩٨٤ أفراد حرس الحدود، والذين جيء بهم لمنع اعتداءات المتطرفين اليهود على الأقصى، يجوبون الحرم وساحاته بالسلاح في أوقات الصلاة، وغيرها، ويتصرفون بها لا يتناسب وقدسية الأقصى، واكتشاف تشققات في الجدران، وتشقق العمارات الإسلامية الموجودة بمحاذاة سور المسجد الأقصى الغربي، ومن بينها عمارة دائرة الأوقاف الإسلامية.

ـ ٢١/ ٨/ ١٩٨٥ الشرطة الإسرائيلية تسمح للمتطرفين اليهود بأداء الطقوس في المسجد الأقصى إذا طلب عشرة منهم ذلك.

ـ ٤/ ٨/ ١٩٨٦ عقد عدد من الحاخامات اليهود اجتماعًا خاصًا، قرروا فيه إقامة كنيس لليهود في ساحة الأقصى.

ـ ٩/ ٨/ ١٩٨٩ سمحت الشرطة الإسرائيلية بإقامة صلوات للمتدينين اليهود على أبواب الحرم الشريف، للمرة الأولى، رسميًا.

ـ ١١/ ٤/ ١٩٩٠ احتلال فندق (ماريوحنا) في الدباغة، والعائد لبطريركية الروم الأرثوذكس.

ـ ٨/ ١٠/ ١٩٩٠ مذبحة داخل الحرم الشريف، حيث اقتحم جنود، ورجال المخابرات، والمستوطنون، الحرم، واستعملوا جميع الأسلحة، مما أدى إلى استشهاد ٢٣ مصليًا، وإصابة أكثر من ٢٠٠ آخرين بجراح مختلفة.

ـ ١٩/ ٩/ ١٩٩٠ قيام مجموعة من المتطرفين اليهود بجولة في ساحات المسجد الأقصى.

ـ ٨/ ١٢/ ١٩٩٠ سماح الشرطة الإسرائيلية لعشرة متطرفين من أعضاء حركة «كاخ» العنصرية بالدخول لساحة الحرم القدسي، حيث قاموا باستعراض استفزازي، ورددوا شعارات ضد العرب، والمسلمين.

ـ ٢/ ٤/ ١٩٩٢ تجمع حوالي ٥٠ صهيونيًا عند مدخل المسجد الأقصى، ورفعوا شعارات دعت إلى إعادة بناء الهيكل مكان المسجد الأقصى[٢٠].

ـ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٢ هدم كنيسة «الجلاليا» لطائفة الروم الأرثوذكس على جبل الزيتون[٢١].

نجد أن الاعتداءات زادت كمًا، وكيفًا، فهناك العديد من المذابح، وأكثر من ٢٥ محاولة اقتحام مسلحة للمسجد الأقصى، وانهيارات، وتصدع بسبب الحفريات، واكتشاف لـحُفر، وهدم لكنيسة، واحتلال أخرى، عدا الاعتداء النفسي، بالتهديد بهدم الأقصى، أو إيذائه، والتخويف للمصلين، والتضييق عليهم، من خلال الحواجز العديدة التي تحول دون وصولهم إلى الحرم للصلاة، وكثرة إجراءات التفتيش الـمُهين، بالإضافة إلى ترويع المواطنين بالمذابح، والاعتقالات، واقتحام المنازل، بدون أسباب، كل هذا الضغط النفسي على الفلسطينيين لإبعادهم عن مدينة القدس، وعزل المقدسيين عن أشقائهم في جميع أنحاء فلسطين.

وقد أدت الاعتداءات المذكورة، وغيرها من التجاوزات، كالإقصاء القسري، إلى نزوح عدد كبير من المقدسيين، وخاصة المسيحيين، والذين هبط عددهم من ١٨ ألفًا، عام ١٩٦٧، إلى ١١ ألفًا، عام ١٩٩٠، ثم إلى حوالي ٤ آلاف، عام ١٩٩٥[٢٢].

من عام ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٩

«أوسلو» وما أدراك ما «أوسلو» وما عاناه الشعب الفلسطيني بسببها؟! ـ بالإضافة إلى طول أمد الاحتلال ـ من بطالة، وتدني مستوى المعيشة، وتعقيدات التنقل من الضفة إلى القطاع، والعكس، وفساد السلطة، أبدت الشعب العربي الفلسطيني قانطًا، مستكينًا، ولكن ما أن أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن فتح نفق تحت المسجد الأقصى للسياح في ٢٥/ ٩/ ١٩٩٦، حتى اشتعلت المقاومة من جديد، وتفجرت هبة (النفق)، وسقط خلالها الكثير من الجرحى، والشهداء الفلسطينيين، معلنين للصمت العربي أنه لا قيمة للحياة حينما تبذل من أجل المقدسات والوطن[٢٣].

سرعان ما عادت الأوضاع إلى سابقتها، وتجمل الشعب الفلسطيني بالصبر المر، حتى زيارة آرييل شارون، رئيس حزب الليكود الإسرائيلي، في يوم ٢٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠، وتدنيسه لساحة المسجد الأقصى، في حراسة الشرطة الإسرائيلية، هنا نفد صبر الشعب الفلسطيني، فانفجر بركان غضبه «بانتفاضة الأقصى والاستقلال»، وعبر فلسطين كلها، وانتقلت جذوته إلى كل الشعوب العربية، المتغافلة، فهبت متظاهرة، تضامنًا مع «حرمة المقدسات» خاصة، وعروبة فلسطين عمومًا، وسرعان ما قدمت تلك الشعوب الدعم ـ عينيًا، وماليًا ـ بل وأرغمت الأنظمة العربية ـ مسايرة للشارع العربي ـ أن تعقد الأخيرة قمة عربية كاملة الأطراف، للمرة الأولى منذ عشر سنوات![٢٤].

– القصة لم تنته بعد، أو بالأحرى المعاناة، فكل يوم تحمل لنا وكالات الأنباء اعتداءات جديدة، ربما لم تعد الذاكرة تستوعبها، أو تتحملها، لكن هذا الشعب، العربي الفلسطيني، لم يعرف اليأس، قط، مرددًا في ضميره: الصبح ليس ببعيد «وإنا له لفاعلون». وفيما يلي رصد الاعتداءات في الفترة المذكورة:

– ١٣/ ٧/ ١٩٩٤ دخول مجموعة من ٦ أشخاص إلى المسجد الأقصى الساعة ٨,٣٠ ص، وتجولوا في ساحات الأقصى، وغادروا، عند الظهر، عن طريق باب المغاربة، وتكررت المحاولة في يوم ١٦/ ٧/ ١٩٩٦..

– ٧/ ٧/ ١٩٩٦ حدوث اهتزازات في الحائط الجنوبي الغربي للأقصى بسبب الحفريات الإسرائيلية.

– ١٤/ ٧/ ١٩٩٦ متطرفون يهود يطالبون نتنياهو بتقسيم الحرم القدسي الشريف بين العرب واليهود.

– ٢٤/ ٩/ ١٩٩٦ فتح نفق تحت السور الغربي للمسجد الأقصى أمام السياح، واشتباكات بين قوات الاحتلال والشعب الفلسطيني على مدى ثلاثة أيام متصلة، سقط خلالها ٨٤ شهيدًا فلسطينيًا.

– ٤/ ١٠/ ١٩٩٦ وضع حواجز عسكرية على مداخل الأقصى، ومنع الشبان الذين تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة من الوصول للصلاة في المسجد الأقصى.

– ٢٧/ ٤/ ١٩٩٧ محاولة ٣ متطرفين يهود الدخول إلى المسجد الأقصى من باب المغاربة لأداء الصلاة.

– ١٠/ ٥/ ١٩٩٧ محاولة مجموعة من اليهود المتطرفين الصلاة في رباط الكرد في القدس من الناحية الغربية، من أسوار الحرم القدسي الشريف.

– ١٢/ ٥/ ١٩٩٧ محاولة مجموعة من ١٢ متطرفًا اقتحام المسجد الأقصى قبل الظهر.

- ١٣/ ٥/ ١٩٩٧ نشر تفاصيل مشروع ساحة البراق التي أعلنت عنها وزارة الأديان الإسرائيلية مؤخرًا.

- ٢٤/ ٥/ ١٩٩٧ إقامة نقطة مراقبة بجوار رباط الكرد.

- ٢٨/ ٥/ ١٩٩٧ حث اليهود على الصلاة في ساحات المسجد بأمر من الحاخامات المتطرفين الذين طالبوا بتقسيم الحرم القدسي بين المسلمين واليهود [٢٥].

- ٤/ ٦/ ١٩٩٧ محاولة يهودية جديدة لدخول المسجد الأقصى.

- ١١/ ٦/ ١٩٩٧ تحرك لاقتحام المسجد الأقصى، وتكرارها يوم ١٤/ ٦/ ١٩٩٧.

- ٢٠/ ٦/ ١٩٩٧ متطرفون يستعدون للاستيلاء على الحرم القدسي.

- ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٧ محاولة مجموعتين من المتطرفين اليهود لاقتحام المسجد الأقصى عبر بوابتي السلسلة والأسباط.

- ١٢/ ٧/ ١٩٩٨ متطرفون يهود يصلون في الحرم الشريف.

- ١٢/ ٨/ ١٩٩٨ محاولتان لمتطرفين يهود في سبيل اقتحام المسجد الأقصى المبارك من جهة باب المغاربة وباب القطانين لأداء الطقوس الدينية اليهودية هناك.

- ٢٦/ ٨/ ١٩٩٨ جنود الاحتلال ينتهكون حرمة المسجد الأقصى المبارك، ويعتدون بالضرب المبرح على أحد المواطنين داخل ساحات المسجد، والاحتلال يرفض إبعاد جنوده من هناك.

- ٩/ ٩/ ١٩٩٨ متطرف يهودي يحاول التسلل إلى ساحة المسجد الأقصى من الجهة الأمامية والجنوبية.

- ٢٧/ ٩/ ١٩٩٨ متطرفون يهود يحاولون دخول ساحات المسجد الأقصى المبارك بعد أن سمحت لهم الشرطة الإسرائيلية بذلك.

- ١٧/ ١/ ١٩٩٩ القاضي السابق، مناحيم آلون، يدعو إلى تقسيم الحرم القدسي، ويعتبر أن المسجد الأقصى هو الهيكل المزعوم.

- ٢٤/ ١/ ١٩٩٩ كشف النقاب عن تخطيط أحد ناشطي أقصى اليمين الإسرائيلي دميان فاكوبيتش حسب اعترافاته لتنفيذ عملية تفجير كبيرة تهدف إلى نسف المسجد الأقصى المبارك.

- ٤/ ٤/ ١٩٩٩ الشرطة الإسرائيلية تسمح لتسعة عشر متطرفًا يهوديًا، من جماعة أمناء جبل الهيكل، بدخول الحرم القدسي الشريف والتجول في ساحاته.

- ٨/ ٦/ ١٩٩٩ تسلل أحد المستوطنين لساحة المسجد الأقصى المبارك وقيامه بتصرفات استفزازية تسيء لقدسية المسجد، وذلك على مرأى من الشرطة الإسرائيلية.

- ٢١/ ٧/ ١٩٩٩ أصدرت المحكمة العليا الإسرائيلية قرارًا سمح لأمناء جبل الهيكل بالدخول إلى الحرم القدسي الشريف في اليوم التالي.

- ١٠/ ٨/ ١٩٩٩ قيام سلطات الاحتلال بإغلاق نافذة في جدار الأقصى القديم، كانت قد فتحت لغاية التهوية، ومعالجة الرطوبة.

- ٣١/ ٨/ ١٩٩٩ الكشف عن مخططات إسرائيلية لهدم القصور الأموية المحاذية للمسجد الأقصى المبارك، وتوسيع حائط البراق (المبكى)، وتخريب المعالم الإسلامية.

- ١٣/ ٩/ ١٩٩٩ الحكومة الإسرائيلية تبحث خططًا لفرض هيمنتها على الحرم القدسي الشريف، مثل أبواب إليكترونية، وسياج مكهرب، محل حراس الشرطة.

- ٢٣/ ٩/ ١٩٩٩ دعوة أمناء جبل الهيكل لاقتحام المسجد الأقصى المبارك بمناسبة «عيد المظلة» اليهودي، يوم الإثنين (٢٧/ ٩/ ١٩٩٩).

- ٢٧/ ٩/ ١٩٩٩ قيام شركة إسرائيلية للنبيذ بلصق صورة للقدس يتوسطها المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة على منتجاتها من زجاجات النبيذ.

- ٢/ ١٠/ ١٩٩٩ الكشف عن قيام مجموعات يهودية متطرفة باستئناف محاولات بدأت بها منذ سنوات للاستيلاء على قطعة أرض في الحرم الشريف، علمًا بأنها مسجلة كوقف.

- ٢/ ١٠/ ١٩٩٩ قيام المستوطنين بمحاولتين لاقتحام ساحات المسجد الأقصى المبارك، وذلك من ناحية سوق القطانين، وقد أفشل الحراس هاتين المحاولتين.

- ٣/ ١٠/ ١٩٩٩ قيام رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك بافتتاح مدرج في الجهة الجنوبية للمسجد الأقصى المبارك، بهدف قيام المتطرفين اليهود بأداء الطقوس الدينية الخاصة في هذا المكان.

- ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٩ كشف النقاب عن العد التنازلي «الإسرائيلي» لهدم المسجد الأقصى المبارك.

- الحاخام الصهيوني إسحاق ليفي زعيم حزب «المفدال» ووزير الإسكان في حكومة باراك يدعو إلى تقسيم الحرم القدسي الشريف بين المسلمين واليهود في التسوية النهائية.

- ٢٥/ ١١/ ١٩٩٩ اعتقلت الشرطة الإسرائيلية شرطيًّا إسرائيليًّا سابقًا خطط للقيام بعملية إرهابية في الحرم القدسي الشريف.

- ٢/ ١٢/ ١٩٩٩ أصدر رئيس بلدية القدس إيهود أولمرت أمرًا قضى بمنع هيئة الأوقاف الإسلامية من مواصلة أعمال الترميم في المصلى المرواني . وهدد أولمرت بقطع المياه عن الأوقاف الإسلامية بسبب أعمال الترميم.

- ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٩حركة صهيونية تدعى «هذه أرضنا» تخطط لتنظيم تظاهرة ضخمة حول الحرم القدسي الشريف احتجاجًا على افتتاح بوابة طوارئ في المصلى المرواني.

- ٦/ ١/ ٢٠٠٠ تظاهر العشرات من الصهاينة الذين يعملون في سلطة الآثار احتجاجًا على عمليات الترميم في الحرم القدسي.

- ٢٥/ ١/ ٢٠٠٠ الشرطة الإسرائيلية تمنع شاحنتين محملتين بمواد أولية تحتاجها أعمال الترميم الجارية في المسجد الأقصى المبارك من الدخول إلى المسجد.

- ٩/ ٣/ ٢٠٠٠ جمعية دينية يهودية متطرفة تدعى «عزرات مناحيم» تعمل على تشييد قاعة احتفالات كبرى في (ساحة البراق) من أجل الاحتفالات اليهودية.

- ٢/ ٨/ ٢٠٠٠ مجموعة «أمناء الهيكل» تحاول اقتحام الأقصى من خلال «باب المغاربة» في ساعات الصباح، ومن خلال «باب القطانين» في ساعات المساء.

- ١٠/ ٨/ ٢٠٠٠ مجموعات يهودية متطرفة تحاول اقتحام المسجد الأقصى من باب المغاربة، تمر من باب القطانين الجديد إلا أن المصلين يفشلون مخططاتهم.

- ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠ زعيم حزب الليكود، آرييل شارون يزور ساحة المسجد الأقصى، تحت حماية ثلاثة آلاف جندي إسرائيلي مدججين بالرشاشات، فأدى هذا التعدي إلى تفجر انتفاضة الأقصى والاستقلال، كما سقط تسعة شهداء، وثلاثون جريحًا، برصاص الجنود، أثناء تصدي المصلين، داخل الحرم، لتدنيس شارون وجنوده لحرمة ساحات الحرم.

- ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠ مجزرة ضد المصلين في الأقصى بعد صلاة الجمعة، وسقوط عدد من الشهداء والجرحى داخل ساحات المسجد الأقصى المبارك.

- ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٠ قوات الاحتلال الإسرائيلي تقتحم المسجد الأقصى المبارك لإنزال العلم الفلسطيني من فوق قبة الصخرة المشرفة.

- ١/ ١/ ٢٠٠١ القبض على ثلاثة متطرفين يهود، عند باب المغاربة، حاولوا اقتحام المسجد الأقصى لتفجيره بالقنابل.

- ١١/ ١٢/ ٢٠٠١ مجموعة من المستوطنين تحاول اقتحام المسجد الأقصى المبارك، من بابي الأسباط والسلسلة، وسلطات الاحتلال تحوِّل المدينة المقدسة إلى ثكنة عسكرية، وتمنع المصلين من الوصول إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة، وإحياء ليلة القدر.

- ٨/ ١/ ٢٠٠٤ الشرطة الإسرائيلية تمنع إدخال سيارات الإفطار للصائمين في المسجد الأقصى.

- ٢٨/ ١/ ٢٠٠٤ وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي، تساحي هنغبي، يفاخر بأن من أهم إنجازاته هدم مسجد شهاب الدين، في الناصرة، والسماح لليهود بالدخول إلى المسجد الأقصى.

- ٣/ ٢/ ٢٠٠٤ حزب «تكوماه» اليميني ينظم مسيرة استفزازية حول أسوار المسجد الأقصى وبمحاذاة أبوابه، وشعار المسيرة «بناء الهيكل المزعوم على حساب المسجد الأقصى المبارك».

- ٨/ ٢/ ٢٠٠٤ جمعية «العاد» الاستيطانية تستولي بالقوة على ١٦ منـزلًا في قرية سلوان، المحاذية للمسجد الأقصى المبارك في حملة لتهويد محيط المسجد الأقصى المبارك.

- ٩/ ٢/ ٢٠٠٤ مجموعة من المتطرّفين اليهود تقوم بتحطيم أعمدة رخامية أثريّة بالقرب من المتحف الإسلامي داخل ساحة المسجد الأقصى، يعود تاريخها إلى العصور الإسلامية الأولى.

- ٩/ ٢/ ٢٠٠٤ صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية: «تهديدات من قِبل الجماعات اليهودية المتطرفة بتفجير المسجد الأقصى مقابل ما يسمّى «خطة شارون» للانسحاب أُحادي الجانب من غزة ١٣/ ٢/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تفرض حصارًا مشدّدًا على القدس وتحرِم الفلسطينيين من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.

- ١٥/ ٢/ ٢٠٠٤ فجر الأحد، انهار جزءٌ بمساحة ١٠٠ متر من الطريق المؤدّية إلى باب المغاربة، أحد الأبواب الرئيسية للمسجد الأقصى، بسبب أعمال الحفريات التي تقوم بها سلطات الاحتلال.

- ٢١/ ٢/ ٢٠٠٤ تعرُّض حافلة تقلّ مصلين من عكا والمكر عائدين من المسجد الأقصى للاعتداء من قبل متطرفين يهود في القدس، مما تسبّب في تحطيم زجاج الحافلة وإصابة عددٍ من المسافرين.

- ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٤ بلدية القدس تطلب من الشرطة الصهيونية السماح لها بإدخال وفد صهيوني إلى داخل المسجد الأقصى المبارك بدعوة ما أسمته «فحوصات هندسية لمبنى المسجد الأقصى» في محاولة صهيونية متكرّرة للتدخّل في شؤون المسجد الأقصى.

- ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٤ القوات الصهيونية تقتحم المسجد الأقصى المبارك خلال صلاة الجمعة، مما يؤدّي إلى إصابة ٢٤ شخصًا بينهم نساء، إصاباتهم بين خفيفة ومتوسطة.

- ٢/ ٣/ ٢٠٠٤ منظمة «أمناء جبل الهيكل» المتطرّفة تقدّم التماسًا إلى المحكمة العليا الصهيونية من أجل استصدار قرارٍ بمنع أعمال ترميم تقوم بها دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس.

- ٤/ ٣/ ٢٠٠٤ مصادر صحفية فلسطينية تكشف شروع جمعية «العاد» الاستيطانية في بناء مجمّع سياحي وتجاري في الساحة الخارجية لباب المغاربة.

- ١٨/ ٣/ ٢٠٠٤ «سلطة الحدائق الصهيونية» تهدِم جزءًا من سور مقبرة الرحمة المحاذية للمسجد الأقصى، والتي تحوي رفات قبور للصحابة الكرام والتابعين والعلماء المشهورين من السلف الصالح.

- ٣١/ ٣/ ٢٠٠٤ مستوطنون يستولون على عمارتين في حي سلوان المحاذي للمسجد الأقصى لتشديد الحصار وتهويد محيط الحرم القدسي.

- ٣١/ ٣/ ٢٠٠٤ حزب «تكوماه» ينظّم مسيرة استفزازية حول أسوار المسجد الأقصى وأبوابه تخلّلها دعوات إلى إقامة الهيكل الثالث المزعوم.

- ١/ ٤/ ٢٠٠٤ خلال ثلاثة أسابيع متتالية تمنع الشرطة الصهيونية مَنْ هم دون الـ ٤٥ من دخول المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة، وتحوّل مدينة القدس ومحيط المسجد الأقصى إلى ثكنة عسكرية.

- ١/ ٤/ ٢٠٠٤ رفع تقرير سري لشارون يوصي بإغلاق المصلّى المرواني أمام المصلين المسلمين في المسجد الأقصى المبارك.

- ٢/ ٤/ ٢٠٠٤ القوات الصهيونية تقتحم المسجد الأقصى خلال صلاة الجمعة، وتصيب ٤٥ مصليًا، وتعتقل ١٥ آخرين.

- ٨/ ٤/ ٢٠٠٤ على مدار يومين: مستوطنون يقتحمون المسجد الأقصى، ويحاولون إقامة طقوس غريبة.

- ٩/ ٤/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تمنع مَنْ هم دون سن الـ ٤٥ من دخول المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة.

- ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٤ جماعات يهودية تنظّم ما يسمّى بـ «مسيرة الأسوار» في محيط المسجد الأقصى، يتخلّلها رفع شعارات عنصرية مسيئة للعرب والدين الإسلامي.

- ٢١/ ٥/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تحوّل محيط المسجد الأقصى إلى ثكنة عسكرية، وتمنع مَنْ هم دون الـ ٤٥ من أداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.

- ٣/ ٦/ ٢٠٠٤ مخطّط حكومي صهيوني لإقامة حيٍّ يهودي جديد قرب باب الساهرة داخل أسوار مدينة القدس.

- ٤/ ٦/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تمنع ـ ولمراتٍ متكرّرة ـ مَنْ هم دون سن الـ ٤٥ من دخول المسجد الأقصى لأداء صلاة فجر الجمعة في المسجد الأقصى.

- ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٤ سلطات الاحتلال تنقل سرًّا نقطة مراقبة شرطية إلى داخل المسجد الأقصى، بمحاذاة المصلى المرواني، بعدما كانت سابقًا موجودة خارج سور المسجد الأقصى المبارك.

- ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تقتحم المسجد الأقصى، وتمنع عمليات ترميمٍ عادية في المصلّى المرواني.

- ٤/ ٧/ ٢٠٠٤ أيدٍ مجهولة تحاول إحراق مسجد البراق داخل المسجد الأقصى.

- ٦/ ٧/ ٢٠٠٤ يهود متطرّفون يقتحمون المسجد الأقصى، ويعتدون على أحد حرّاسه، ورئيس المخابرات الصهيوني يحذّر من تصعيدٍ لليمين المتطرّف ضد المسجد الأقصى.

- ٧/ ٧/ ٢٠٠٤ ما يسمّى قائد شرطة القدس «ميكي ليفي» يقتحم المصلّى المرواني متخفّيًا، والشرطة الصهيونية تجري قياساتٍ مسحيّة مريبة داخل المسجد الأقصى.

- ١٨/ ٧/ ٢٠٠٤م ٤٠٠٠ مستوطن يشاركون في مسيرة استفزازية حول أسوار المسجد الأقصى وأبوابه، تتضمّن تحريضًا تلموديًّا على المسجد الأقصى.

- ١٩/ ٧/ ٢٠٠٤ الشرطة الصهيونية تتعمّد إدخال السائحين، والأجانب، واليهود إلى المسجد الأقصى، وهم بلباسٍ فاضح، وشبه عراة.

- ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٤ عرائس يهوديّات تقتحمن المسجد الأقصى، ويؤدين طقوسًا غريبة في يوم زفافهنّ.

- ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٤ ما يسمّى وزير الأمن الداخلي يصرّح في مقابلة صحافية: «خطر حقيقيّ يتهدّد المسجد الأقصى من قبل الجماعات اليهودية المتطرفة».

- ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٤ صحيفة هآرتس العبرية: «إمكانية إطلاق طائرة مفخّخة أو انتحاريّ يهودي لتفجير المسجد الأقصى، واحتمالات بإمكانية اغتيال شخصية بارزة من رجالات الأوقاف الإسلامية في القدس».

- ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٤ المجرم يهودا عتسون أحد زعماء عصابة «أمناء جبل الهيكل»، يدعو إلى هدم وإزالة المسجد الأقصى.

- ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٤ في ذكرى ما يسمّى خراب الهيكل، جماعات يهودية تحاول اقتحام المسجد الأقصى، والآلاف منهم يجتمعون في ساحة البراق.

- ٣١/ ٧/ ٢٠٠٤ قوات الشرطة الصهيونية تمنع أطفال المخيمات الصيفية من التكبير، ورفع شعارات «بالروح بالدم نفديك يا أقصى»، داخل ساحات المسجد الأقصى.

- ١/ ٨/ ٢٠٠٤ هنغبي مرة أخرى: «الشرطة الصهيونية تفتقر إلى القدرات التكنولوجية اللازمة لحراسة المسجد الأقصى».

- ٢/ ٨/ ٢٠٠٤ وفاة أحد موظّفي دائرة الأوقاف داخل المسجد الأقصى بالنوبة القلبية، بعد مشاهدة قوات الشرطة الصهيونية تعتدي على أحد المتطوّعين من أمّ الفحم يساعد في أعمال صيانةٍ في المسجد الأقصى.

- ٣/ ٨/ ٢٠٠٤ جهاز المخابرات الصهيوني يقول: «ضباط متطرّفون في الجيش قد ينقلون صواريخ «لاو» لجهات يهودية متطرفة لنسف الأقصى».

- ٧/ ٨/ ٢٠٠٤ مستوطن يهودي يحاول اقتحام المسجد الأقصى خلال مهرجان طفل الأقصى والمقدّسات الثالث.

- ١٦/ ٨/ ٢٠٠٤ مسيرة صهيونية استفزازية في محيط المسجد الأقصى.

- ١٩/ ٨/ ٢٠٠٤ على مدار ثلاثة أسابيع، عُرض مجسّم جديد للهيكل الثالث المزعوم داخل أروقة الكنيست.

- ١٩/ ٨/ ٢٠٠٤ الكشف عن ملهى أمريكيّ يموّل مخطّطات يهودية تستهدف المسجد الأقصى.

- ٢/ ٩/ ٢٠٠٤ حملات تحريض إعلامية غير مسبوقة على دائرة الأوقاف من قبل بعض الجماعات اليهودية.

- ٦/ ٩/ ٢٠٠٤ المحكمة العليا تصدر أمرًا بمنع إخراج «أتربة» من المسجد الأقصى، هي عبارة عن مخلفات أعمال نُفذت قبل سنوات.

- ٨/ ٩/ ٢٠٠٤ شركة صهيونية تبيع «ترابًا مقدسًا» تم استخراجه من الجدار الغربي للمسجد القدسي.

- ٩/ ٩/ ٢٠٤ مناحيم فرومان راب من مستوطنة تكواع يقيم حفل زفاف لابنه داخل المسجد الأقصى تخلله شرب الخمور والنبيذ.

- ١٣/ ٩/ ٢٠٠٤ في سياق مخطط جديد للخارطة الهيكلية لمدينة القدس، وفي خطة صهيونية جديدة لترحيل العرب المقيمين في البلدة القديمة، عرضت بلدية القدس «تعويضًا» لكل من يبدي استعداده لإخلاء بيته، على أن توفر له سكنًا بديلًا خارج البلدة القديمة.

- ٢١/ ٩/ ٢٠٠٤ قام ما يزيد على ٤٠٠ طالب يهودي باقتحام جماعي للمسجد الأقصى، وتجمعوا قبالة باب

المغاربة، وحاولت مجموعة منهم أداء طقوس دينية مشبوهة، مما أدى إلى نشوب مشادات كلامية بين المستوطنين ومندوبين عن دائرة الأوقاف الإسلامية.

- ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٤ بأمر من رئيس الوزراء الإسرائيلي آرئيل شارون منع دخول المصلين إلى المصلى المرواني، والمسجد الأقصى، بذريعة إمكانية حدوث انهيار، تبعته سلطات الاحتلال بحملة إعلامية واسعة حول أخطار انهياره، بسبب اكتظاظه بالمصلين في شهر رمضان المبارك، والقائم بأعمال وزير الأمن الداخلي الصهيوني يقول: إن إسرائيل ستحدد عددًا مسموحًا لهم بالدخول إلى الأقصى، إذا لم تحل مشكلة الترميمات في المصلى المرواني.

- ٣/ ١٠/ ٢٠٠٤ أعضاء من الجماعات اليهودية تستبيح مدينة القدس بممارسات استفزازية صاخبة بساحة «حائط البراق»، جنوب شرق الحرم القدسي، وفي شوارع القدس القديمة بمحاذاة أبواب الأقصى، ورددوا هتافات عنصرية، وممارسات استفزازية، واعتداءات على المواطنين المقدسيين، وممتلكاتهم، تحت حماية وحراسة غير مسبوقة من قوات الاحتلال. وقيام أفراد من المخابرات الصهيونية يلبسون الزي المدني بالدخول إلى المصلى المرواني، رغم محاولات المصلين منعهم، ولكنهم دخلوا يتقدمهم قائد شرطة القدس، وطائرة عسكرية تحلق فوق الأقصى.

- ٤/ ١٠/ ٢٠٠٤ المئات من أعضاء المجموعات اليهودية المتطرفة يشاركون في مسيرات استفزازية حول إحراق المسجد الأقصى، وهم يحملون لافتات عليها صورة المسجد الأقصى، وقد وضع عليها إشارة (×) وبجانبها صورة للهيكل الثالث المزعوم، في إشارة واضحة لهدم المسجد، والبناء على أنقاضه.

- ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٤ صحيفة «معاريف الإسرائيلية» تقول: إن سلطات الاحتلال قررت، نهائيًا، السماح فقط لخمسين ألف مسلم بالدخول إلى المسجد الأقصى أيام الجمعة.

- ١/ ١١/ ٢٠٠٤ رئيس الكيان الصهيوني يصرح بأن شعار «الأقصى في خطر» هو شعار فارغ المضمون، وأن هدفه الأول والأخير التحريض على أرض الكيان، وسلطات الاحتلال تعيق دخول بعض سيارات إفطار الصائمين خلال شهر رمضان إلا بعد المغرب.

- ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٤ أصوات دينية تزعم أن السبب المباشر وراء ما يصيب اليهود من نكبات، وبالذات مسألة إخلاء المستوطنين من غزة، سببه بقاء (الهيكل)، أي المسجد الأقصى، بيد المسلمين (الغوييم) الأغيار.

- ١٩/ ٢/ ٢٠٠٤ الحكومة الصهيونية ترصد مبلغ ٥ ملايين شيكل لهدم جدار باب المغاربة، وبناء جسر بديل يتسنى من خلاله لليهود، وشرطة الاحتلال، الدخول إلى المسجد الأقصى، واحتلاله، وأوكلت التنفيذ لمكتب رئيس الحكومة الصهيونية، مباشرة.

- ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٤ مستوطن يهودي يقتحم المسجد الأقصى، ويحتسي الخمر، ويكسر الزجاجة داخل ساحات المسجد الأقصى.

- ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٤ صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية تقول: إن جمهورًا واسعًا من المستوطنين في الضفة الغربية يتدارسون، فيما بينهم، خططًا فورية التنفيذ ضد الأقصى، بهدف وقف خطة الانسحاب من غزة[٢٦].

- ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٥ مجموعة مسيحية أصولية تؤمن بأن نزول السيد المسيح (عليه السلام) لن يكون إلا بعد بناء

الهيكل المزعوم، وتضع صليبًا على باب قبة الصخرة في المسجد الأقصى، وتسكب الخمر على الصليب، وتؤدي شعائر استفزازية أمامه.

- ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٥ مستوطنان يحملان سكينًا كبيرًا يحاولان اقتحام المسجد الأقصى، وشرطة الاحتلال تحقق معهما حول نيتهما الاعتداء على حرس المسجد الأقصى، ومن ثم تعلن أنهما كانا في حالة سكر، في محاولة للتخفيف من أهمية الحادث.

- ٤/ ٤/ ٢٠٠٥ شرطة الاحتلال في القدس تنشر تفاصيل خطة تدعي أنها لحراسة الأقصى، وتتضمن الخطة تركيب أجهزة استشعار للحركة، وكاميرات بدوائر مغلقة، يقدر ثمنها بأكثر من ١٠٠ مليون شيكل (٢١ مليون دولار)، على أمل خلق (جدار إليكتروني) غير مرئي حول الأقصى.

- ٧/ ٤/ ٢٠٠٥ جماعات يهودية متطرفة يتراوح عدد أفرادها ما بين ألفين وثلاثة آلاف شخص تتدفق على البلدة القديمة في القدس، وتنقل، فور وصولها، حملة طواف حول بوابات المسجد الأقصى، وهي ترفع المشاعل، وسط تواجد مكثف لقوات الاحتلال. وسلطات الاحتلال تعتِّم، وتفرض رقابة على خبر إلقائها القبض على ثلاثة متطرفين، زودوا خلايا إرهابية يهودية بقنابل يدوية، وارتجاجية، ومتفجرات، لاستهداف المسجد الأقصى.

- ٨/ ٤/ ٢٠٠٥ قوات الاحتلال تحول مدينة القدس إلى ثكنة عسكرية، وتنشر أعدادًا هائلة من جنودها في المدينة، وعلى سور وبوابات الأقصى، والبلدة القديمة، وتسيِّر عشرات الدوريات الراجلة، والمحمولة، وتمنع الرجال، ممن تقل أعمارهم عن ٤٠ عامًا، من دخول المسجد الأقصى لأداء صلاة الجمعة.

- ١٠/ ٤/ ٢٠٠٥ رئيس الدولة الصهيونية يطلب السماح لليهود بدخول الأقصى، على غرار المسجد الإبراهيمي في الخليل، وأن يسمح لجميع المسلمين واليهود بأداء شعائرهم الدينية في هذا المكان المقدس. ومحاولة اقتحام فاشلة للمسجد، نفذتها جماعة «رفافاه» اليهودية المتطرفة.

- ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٥ مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، التي تنشط في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨، تؤكد أن شركة حكومية في إسرائيل باشرت بناء جسر جديد في منطقة (حائط البراق) يهدف إلى إدخال أكبر عدد من اليهود، والسياح الأجانب إلى المسجد الأقصى، عن طريق باب المغاربة، الذي تسيطر عليه شرطة الاحتلال، وعلى مفاتيحه بشكل كامل.

- ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٥ مجموعات من المتطرفين اليهود، تتألف كل منها من ٥٠ فردًا، اقتحمت باحة المسجد الأقصى، الواحدة تلو الأخرى، على مدار الأسبوع السابق.

- ٨/ ٥/ ٢٠٠٥ أفراد من شرطة الاحتلال يضعون علامة حمراء تحدد موقع تركيب كاميرات لتصوير كل من يدخل إلى الأقصى، ويركبون كاميرات فوق باب الأسباط من الخارج.

- ٩/ ٥/ ٢٠٠٥ منع مئات المصلين، ممن تقل أعمارهم عن ٥٠ عامًا، من دخول المسجد الأقصى، والممنوعون من الدخول يؤدون صلاة الفجر في الشوارع المحاذية للمسجد، والمقدسيون يتظاهرون احتجاجًا على هذا القرار.

- ١٦/ ٥/ ٢٠٠٥ الشرطة الإسرائيلية تكشف عن أنها أفرجت عن ٩ متطرفين يهود خططوا لهجوم ضد المسجد الأقصى المبارك، بذريعة أنهم لم ينفذوا ما خططوا له، مشيرة إلى أن الحديث عن خليتين إرهابيتين، إحداهما خططت

لتفجير المسجد، باستخدام صواريخ «لاو»، والثانية خططت لإطلاق طائرة صغيرة بدون طيار، مزوَّدة بكاميرا، لاستفزاز المصلين، والمواطنين الفلسطينيين، في القدس.

- ١٩/ ٥/ ٢٠٠٥ احتجاز ٢٠٠ طالبة فلسطينية، حضرن من منطقة الخليل، جنوب الضفة، للصلاة في المسجد، لمدة ساعة، قبل أن يسمحوا لهن بالدخول.

- ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٥ لورا بوش، زوجة الرئيس الأمريكي، تزور القدس، وتتجول في المسجد الأقصى، تحت حراسة مشددة، وتنتقل لزيارة حائط البراق (المبكى)، وتضع ورقة أمنيات في شقوق الحائط، تقليدا للطقوس الدينية اليهودية.

- ٣١/ ٥/ ٢٠٠٥ منظمات يهودية متطرفة، أبرزها «الحركة من أجل إقامة الهيكل»، وحركة «رفافاه»، ومنتدى «الخلاص الإسرائيلي»، تعمم إعلانًا تحت عنوان «نتواصل مع جيل الهيكل، صلاةً، واعتصامًا»، تحرض فيه عامة الجمهور الإسرائيلي على اقتحام جماعي للمسجد الأقصى، يوم ٦/ ٦، في الذكرى الـ(٣٨) لاحتلال القدس.

- ١/ ٦/ ٢٠٠٥ العضو العربي في الكنيست عبد المالك دهامشة يعرض أمام أعضاء الكنيست صورة لملصق قامت حركة «رفافاه» بتوزيعه مؤخرًا، دعا إلى الاشتراك في المظاهرة، والطقوس الدينية، أمام باب الأسباط، ويستغرب الدهامشة أن الملصق يختتم بجملة «المظاهرة بتنسيق مع قوات الأمن الاسرائيلية»! كما كشف النائب العربي قيام وزارة المعارف الإسرائيلية بمنع طلاب المدارس العربية، في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، من القيام برحلات إلى المسجد الأقصى المبارك.

- ٢/ ٦/ ٢٠٠٥ الدكتور إبراهيم الفني، خبير الآثار والأراضي المقدسي الفلسطيني، كشف النقاب عن انتهاء سلطات الاحتلال من بناء الجزء الأكبر من مدينة دينية سياحية أسفل المسجد الأقصى.

- ٦/ ٦/ ٢٠٠٥ مجموعتان يهوديتان تدخلان المسجد الأقصى، والشبان الفلسطينيون يتصدون لهم بالحجارة، والشرطة الإسرائيلية تقمع المتظاهرين، مستخدمة القنابل الصوتية.

- ٧/ ٦/ ٢٠٠٥ المصلون الفلسطينيون المرابطون داخل المسجد الأقصى يتصدون لمحاولة جديدة لاقتحام المسجد من قبل مئات المستوطنين اليهود أثناء صلاة العشاء.

- ٦/ ٧/ ٢٠٠٥ قوات خاصة من شرطة الاحتلال تنتهي من مد شبكة البنية التحتية لكاميرات المراقبة على جميع أبواب المسجد الأقصى، ومنظمات يهودية متطرفة من بينها «رفافاه» تنظم مسيرة تطلق عليها «مسيرة الأسوار»، وهي المسيرة التي تنطلق رأس كل شهر عبري، من ساحة البراق، وتسير بمحاذاة أبواب المسجد الأقصى، وتنتهي عند باب الأسباط، ويحمل المشاركون صورًا ومجسمات للهيكل الثالث، المزعوم، ويهتفون «لِيُبْنَ الهيكل»!

- ١٦/ ٧/ ٢٠٠٥ قوات الاحتلال تمنع ثلاثة من حراس المسجد الأقصى من الدخول إليه، أو الاقتراب منه، مسافة ٥٠ مترًا، ومؤسسة الأقصى تحذر من مغبة إقدام شركة إسرائيلية بحفر نفق جديد تحت ساحة حائط البراق، يمر تحت أسوار القدس، مخترقًا منطقة باب المغاربة، أحد أبواب المسجد الأقصى.

- ١٧/ ٧/ ٢٠٠٥ دولة الاحتلال تمنع الشيخ رائد صلاح من دخول المسجد الأقصى، لمدة أربعة أشهر، بعد إطلاقها سراحه.

- ٦/ ٨/ ٢٠٠٥ مستوطنون يحاولون اقتحام المسجد الأقصى من باب القطانين، لتخريب مهرجان صندوق طفل الأقصى والمقدسات الرابع، وحراس المسجد يعترضونهم، ويمنعونهم.

- ٩/ ٨/ ٢٠٠٥ عشرات المستوطنين اليهود يحاولون اقتحام ساحات المسجد الأقصى، من بابي حطة، والسلسلة، تحت حماية شرطة الاحتلال، وحراس المسجد الأقصى يتصدون لهم.

- ١٠/ ٨/ ٢٠٠٥ مجموعات من اليهود تطوف شوارع مدينة القدس، وبلدتها القديمة، في مسيرات استفزازية ضخمة، مرددة شعارات ضد المسجد الأقصى، وضد الفلسطينيين، بحضور قوات الاحتلال، التي أغلقت شوارع المدينة المؤدية إلى المسجد الأقصى، وساحة البراق.

- ١٢/ ٨/ ٢٠٠٥ ظهور إعلانات لجماعة «رفافاه» اليهودية المتطرفة، تدعو إلى اقتحام المسجد الأقصى، في يوم الأحد (١٤/ ٨/ ٢٠٠٥).

- ١٤/ ٨/ ٢٠٠٥ ١٥٠٠ مستوطن يهودي يصلون إلى باب المغاربة، أحد مداخل المسجد الأقصى، مطالبين بالسماح لهم بدخول المسجد للصلاة، في «ذكرى خراب الهيكل».

- ١٤/ ٨/ ٢٠٠٥ قوات الاحتلال تغلق الطرق المحيطة بالقدس القديمة، خاصة شارعي سليمان القانوني، والشارع المؤدي إلى باب الأسباط، وتسيِّر دوريات راجلة، في محيط المسجد الأقصى، وقناصة الاحتلال تعتلي أسطح المباني المشرفة على المسجد، وتطلق منطادًا يحمل أجهزة تنصت، وكاميرات لمراقبة حركة المصلين داخل المسجد الأقصى، ومروحية تابعة لشرطة الاحتلال تحلق في سماء القدس.

- ١٥/ ٨/ ٢٠٠٥ مجموعة مكونة من ١٠٠ يهودي يحاولون اقتحام المسجد الأقصى عبر باب المغاربة، بعد أن تجمعت في منطقة الحي اليهودي في القدس القديمة، وشرطة الاحتلال تعلن اعتقال أحد منظمي هذا التجمع. وشرطة الاحتلال تعتقل متطرفيْن يهوديين حاولا التسلل إلى المسجد الأقصى، بعد أن تصدى لهما حراس باب السلسلة، وعدد من المواطنين.

- ١٧/ ٨/ ٢٠٠٥ مجهول يهاتف أحد حراس المسجد الأقصى، باللغة العبرية، ويبلغه بأنه سمع رجلين يهوديين يتحدثان فيما بينهما بأنهما سيقومان يوم الخميس بالتخفي بلباس عربي، واقتحام المسجد الأقصى لتفجيره.

- ٦/ ٩/ ٢٠٠٥ شرطة الاحتلال تشرع في إقامة سياج إليكتروني، ومجسات حرارية عند أسوار المسجد الأقصى، وتنصب آلات تصوير حديثة على أسطح الرواقين الشمالي، والغربي للمسجد.

- ١٤/ ٩/ ٢٠٠٥ عيران شطرينبرغ، الناطق بلسان المستوطنات الصهيونية السابقة في قطاع غزة، يقول: «لكل يهودي الآن الحق في التعرض للأماكن المقدسة للإسلام، بما في ذلك (جبل الهيكل)، أي المسجد الأقصى».

- ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٥ سلطات الاحتلال تغلق مؤسستيْ، الرفادة، واقرأ، وتعتني كلاهما بخدمة المسجد الأقصى، والمصلين الوافدين إليه، ومؤسسة اقرأ التي تشرف على نحو مائتي حلقة تدريس للقرآن الكريم في القدس.

- ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٥ أهالي مدينة القدس يكتشفون أنفاقًا جديدة متشعبة، يستخدمها المستوطنون اليهود، توصل إلى أسفل باحات المسجد الأقصى.

- ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٥ قوات الاحتلال تدشن موقعًا، يعتبر الأول من نوعه، في الفضاء التحتي للمسجد الأقصى، تحت اسم «أنت في سلسلة الأقصى».

- ٢/ ١٠/ ٢٠٠٥ قوات الاحتلال المنتشرة على مداخل المسجد الأقصى تمنع المصلين من إدخال نسخ من القرآن الكريم إلى داخل المسجد.

- ٣/ ١٠/ ٢٠٠٥ سلطات الاحتلال تمنع ترميم الجدار الشرقي الساند للدرج المؤدي للمصلى المرواني، من الجهة الشمالية، للمسجد القبلي، من دون إبداء أسباب.

- ٨/ ١٠/ ٢٠٠٥ متطرفون يهود يحاولون تسلق جدار المسجد الأقصى، في منطقة باب الأسباط، والمواطنون يجبرونهم على الهرب باتجاه المستوطنات في حي سلوان، المتاخم للمسجد الأقصى.

- ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٥ العشرات من المتطرفين اليهود من جماعة «أمناء جبل الهيكل»، يقتحمون المسجد الأقصى، بحماية من قوات الاحتلال، ما بين الساعة السابعة، حتى التاسعة صباحًا، للحد من تواجد المصلين المسلمين.

- ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٥ ثلاثة مستوطنين يهود، بينهم امرأة، يحاولون اقتحام المسجد الأقصى المبارك من بابي الناظر، وحطة، خلال أداء المصلين لصلاة التراويح، وحراس المسجد يتصدون لهم.

- ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٥ موقع صحيفة «يديعوت أحرونوت» ينشر أفلام فيديو، صرح مستوطن يهودي يدعى رون بلد (٣٤ عامًا)، أنه قد صورها سرًّا في المسجد القبلي، والمصلى المرواني، وقبة الصخرة، وهي مناطق ممنوع دخول اليهود إليها.

- ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٥ سلطات الاحتلال تمنع أهالي قطاع غزة، للسنة الخامسة على التوالي، من التوجه لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وتسمح لبضعة آلاف من مواطني الضفة الغربية، ممن تزيد أعمارهم على ٤٥ عامًا، بأداء صلاة الجمعة فيه، بمناسبة شهر رمضان .

- ٩/ ١١/ ٢٠٠٥ مجموعة قوامها ٣٥ شخصًا، من مخابرات دولة الاحتلال، يقتحمون المسجد الأقصى، وهم يحملون أسلحتهم الخاصة، من باب المغاربة(*)، ويقومون بجولة لمدة ساعتين في باحاته، حيث دخلوا المسجد القبلي، والمصلى المرواني، وقبة الصخرة، ونزلوا أسفلها، والتقطوا صورًا لكل هذه المواقع بكاميرات الفيديو، وآلات التصوير الفوتوغرافي.

- ٢/ ١/ ٢٠٠٦ عناصر من «أمناء جبل الهيكل» يؤدون طقوسًا دينية تدعو لهدم المسجد الأقصى، وعدم تقسيم القدس، ويعتدون على عدد من الشبان الفلسطينيين، ويحاولون اقتحام المسجد الأقصى.

(*) تحتفظ دولة الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ بمفاتيح هذا الباب.

- ٣/ ١/ ٢٠٠٦ الشيخ رائد صلاح، رئيس «الحركة الإسلامية» في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨، يعقد مؤتمرًا صحفيًّا شرقي القدس، بمشاركة مفتي فلسطين، الشيخ عكرمة صبري، ويكشف في شرح مفصل، وبالصورة الموثقة فوتوغرافيًّا، وبالفيديو، عن وجود حفر يهودي أسفل المسجد الأقصى، وعن العديد من الغرف المستحدثة، مشيرًا إلى اعتراف سائق شاحنة، طلب منه نقل بعض الأدوات، وكانت المفاجأة أنه عندما سار بسيارته في ممر تحت المسجد الأقصى، لم يتصور أن يتسع الممر لشاحنات كبيرة، وأضاف صلاح أن مصممًا يدعى إلياف نحليلئلي قام على مدار سنوات بإقامة سبع غرف تحت المسجد الأقصى.

- ١٤/ ٢/ ٢٠٠٦ حراس المسجد الأقصى يُفشلون محاولة تسلل أربعة من المتطرفين اليهود إلى المسجد الأقصى في ساعات متأخرة من الليل، حيث كانوا يحفرون في مقبرة الرحمة، محاولين الوصول إلى المسجد الأقصى، ويذكر أن المقبرة تعرضت لكثير من الانتهاكات، كان من أبرزها اقتطاع أجزاء كبيرة، ومهمة، منها لصالح توسعة الشارع المؤدي إلى حائط البراق.

- ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٦ رئيس بلدية الاحتلال في القدس أوري لوفوليانسكي يبادر إلى إجراء استطلاع عن علو صوت الأذان من مساجد القدس، ويدعي أن شكاوى كثيرة وصلت إلى البلدية، من كل أنحاء المدينة، عن الضجيج الذي يحدثه صوت الأذان.

- ١٣/ ٣/ ٢٠٠٦ بعد ثلاث سنوات من العمل، مسؤولون يهود يفتتحون غرفة جديدة لصلاتهم في ساحة البراق (المبكى)، بحضور رئيس دولة الاحتلال (موشيه كاتساف)، ورئيس بلدية الاحتلال في القدس أوري لوفوليانسكي، والحاخامين الرئيسيين في الدولة الصهيونية، وتقع هذه الغرفة تحت المبنى المشهور باسم مبنى المحكمة في القدس.

- ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٦ شرطة الاحتلال في القدس تغلق الأقصى، وتمنع المصلين المسلمين من أداء صلواتهم فيه، بذريعة الخوف من التوتر الذي يمكن أن ينجم بين المسلمين والمتطرفين اليهود في اليوم الذي تجري فيه الانتخابات العامة في إسرائيل.

- ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٦ إغلاق المسجد الأقصى أمام الزوار، مخافة وقوع مناوشات بين العرب واليهود، بمناسبة ذكرى «يوم الأرض».

- ١٠/ ٤/ ٢٠٠٦ الشيخ تيسير التميمي، قاضي القضاة في فلسطين، يكشف النقاب عن عدة سيناريوهات أعدتها حكومة الاحتلال لهدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، منها الحفريات التي تنفذ في الفترة الأخيرة، ومنها قصف المسجد بطائرات محملة بالمتفجرات والقنابل، أو عن طريق قصفه بصواريخ، بالإضافة للمخططات المعلنة من الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة، التي تستهدف المسجد الأقصى.

- ١٢/ ٤/ ٢٠٠٦ مجموعة من ناشطي «جبهة يهودية قومية» الاستيطانية المتطرفة تحاول الدخول إلى المسجد الأقصى، بزعم تقديم قربان بمناسبة حلول عيد الفصح العبري، حيث أحضروا معهم جديًا، وأرادوا الوصول إلى باب المغاربة لذبحه هناك، إلا أن الشرطة منعتهم.

- ١٢/ ٤/ ٢٠٠٦ مستوطن متنكر بزي عربي يتسلل إلى ساحات المسجد الأقصى، وذلك خلال صلاة الظهر، حيث شوهد وهو يتوجه إلى مخفر شرطة الاحتلال، الموجود في المسجد الأقصى المبارك.

- ١٣/ ٦/ ٢٠٠٦ إيهود أولمرت، رئيس وزراء دولة الاحتلال يؤكد خلال كلمة ألقاها أمام مجلس العموم البريطاني أنه لن يتنازل عما أسماه «جبل الهيكل»، أي الجبل الذي يقوم عليه المسجد الأقصى، بأي شكل من أشكال التفاوض مع الفلسطينيين.

- ١٨/ ٦/ ٢٠٠٦ الشيخ رائد صلاح يكشف النقاب عن قيام دولة الاحتلال مع أطراف أوروبية بمخططات، وصفقات مشبوهة لاختلاس أوقاف ومقدسات في القدس.

- ١٨/ ٦/ ٢٠٠٦ بعد ١٨ عامًا من الحفريات الأثرية، غرب حائط البراق، الاحتلال يدشن مركزًا جديدًا لليهود الزائرين في حائط البراق، تحت اسم «سلسلة الأجيال»، مدخل هذا الممر قريب من مدخل «نفق السور الغربي من القدس»، ويعطي الزائرين انطباعًا عن علاقة الأجيال اليهودية بالقدس، منذ زمن النبي إبراهيم (عليه السلام) وحتى يومنا هذا.

- ٥/ ٧/ ٢٠٠٦ المحامي شموئيل باركوبيتش، من سكان تل أبيب، أصدر كتابًا أسماه «كم هذا المكان مهاب»، تحدث في بحثه عن الهيكل المزعوم، وأحقية اليهود فيه، مؤكدًا أن أجزاء من الحائط الغربي (البراق) مسجلة كملك للدولة الصهيونية في سجل الأراضي الإسرائيلية.

- ١١/ ٧/ ٢٠٠٦ مصادر صحفية في دولة الاحتلال تؤكد البدء بتنفيذ أكبر توسعة في ساحات «حائط البراق»، وذلك بعد استجابة رئيس بلدية القدس أوري لوفوليانسكي لطلب المصليات اليهوديات، في حائط البراق، بتخصيص مساحة مساوية لهن لأداء الصلاة كما هي المساحة المخصصة للرجال، مما يعني هدم التلة الترابية والطريق المؤدي إلى باب المغاربة، أحد أبواب المسجد الأقصى.

- ٣/ ٨/ ٢٠٠٦ المسلمون المرابطون في الأقصى يحبطون محاولة المتطرفين اليهود لاقتحام المسجد في ذكرى ما يسمى «خراب الهيكل». السلطات الإسرائيلية تطرح مناقصة لهدم طريق باب المغاربة، الملاصق للجدار الغربي للمسجد الأقصى، والمفضي إلى باب المغاربة، الذي يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسجد.

- ١٠/ ١/ ٢٠٠٧ إسرائيل تستكمل خطوة هدم طريق باب المغاربة.

- ١٣/ ٤/ ٢٠٠٨ بعض صحف الاحتلال تعلن أن أحجار حائط البراق بدأت بالتفتت، خاصة الأحجار الواقعة في أعلى السور، أي أحجار مصلى البراق، الذي يقع أقصى الطرف الغربي للمسجد الأقصى، ويمهد هذا الإعلان، في غالب الظن، لإغلاق مسجد البراق، ومنع المصلين من الوصول إليه، تمهيدًا لتحويله إلى كنيس يهودي، أو موقع أثري، متصل بالمدينة المفترضة.

- ١٦/ ٧/ ٢٠٠٨ سلطات الاحتلال تستكمل مصادرتها لأراضي مقبرة الرحمة، الملاصقة للسور الشرقي للمسجد الأقصى، وتدخل عددًا من الجرافات إلى المقبرة، وتدمر عددًا من القبور، مغطية المكان بالرمل الأحمر، في خطوة هدفها تحويل المقبرة إلى حديقة عامة![٢٧].

- ١/ ١/ ٢٠٠٩ قوات الاحتلال تقيم الحواجز الطيارة الفجائية على مداخل معظم القرى والبلدات المحيطة بمدينة القدس.

- ٢/ ١/ ٢٠٠٩ قوات الاحتلال تفرض طوقًا أمنيًا مشددًا حول المسجد الأقصى، مانعة أيًا من المواطنين الذين

لا يقطنون في البلدة القديمة من الدخول إليها، ومنع مَنْ يقل عمره عن ٥٠ عامًا من الدخول إلى المسجد، وإجبار المواطنين على تأدية صلاة الجمعة في الشوارع، وبعد انتهاء الصلاة سارعت بمهاجمة المصلين، ومطاردتهم بالعصي والهراوات.

- ١٦/ ١/ ٢٠٠٩ استمرار الطوق الأمني على الأقصى، وإجبار المواطنين على الصلاة في الشارع (صلاة الجمعة).

- ٨/ ٣/ ٢٠٠٩ عزل المدينة المقدسة، واستمرار التشديد حول المسجد الأقصى.

- ١/ ٤/ ٢٠٠٩ وجهت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أمرًا بالهدم إلى إدارة مدرسة الهدى، التابعة لجمعية الأقصى الإسلامية، في البلدة القديمة، في القدس المحتلة، وتقع المدرسة بالقرب من باب الحديد (باب أرغون)، على أرض وقف إسلامي، تابع لجمعية الأقصى.

- ٢/ ٤/ ٢٠٠٩ استمرار منع الفلسطينيين من الصلاة في المسجد الأقصى.

- ١٨/ ٤/ ٢٠٠٩ سلطات الاحتلال تمنع المئات من المواطنين المسيحيين من الوصول إلى كنيسة القيامة، في البلدة القديمة من مدينة القدس المحتلة، والذين جاءوا للاحتفال بسبت النور، الذي يصادف هذا اليوم، وأكد شهود عيان أن الشرطة الإسرائيلية سمحت للسياح الأجانب بالدخول إلى كنيسة القيامة، بينما حرمت الأهالي المسيحيين من حقهم في العبادة، وأقامت الشرطة لذلك العديد من الحواجز حول كنيسة القيامة، وزادت من صعوبة الحركة على رجال الدين المسيحي بالقرب من الكنيسة.

- ١٢/ ٤/ ٢٠٠٩ اقتحام ما يقارب ٨٠ مستوطنًا لباحات المسجد الأقصى، بعد عدة اقتحامات في الأيام القليلة السابقة، وهذا يعد أكبر اقتحام، وكانوا ينادون بهدم الأقصى، وعندما تصدى لهم الحراس الفلسطينيون، ومنعوهم، قامت سلطات الاحتلال باعتقال الصحفي محمود أبو عطا، المنسق الإعلامي في مؤسسة الأقصى.

-١٢/ ٤/ ٢٠٠٩ إغلاق الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل أمام المصلين، وسلطات الاحتلال تقوم بفتح أبوابه بالكامل أمام المستوطنين، وأنصارهم.

- ٦/ ٥/ ٢٠٠٩ قوات الاحتلال الإسرائيلي تقتل مدنيًّا على أحد مداخل المسجد الإبراهيمي.

ولا تزال الاعتداءات مستمرة فإلى متى ؟![٢٨].

الاستنتاجات:

- القدس جزء من فلسطين العربية.

- الاعتداءات على المقدسات المسيحية والإسلامية هدفه واحد: محو عروبة فلسطين، تاريخًا، وجغرافية.

- للكيان الصهيوني، كانت وما زالت، سياسة منهجية لتهويد مدينة القدس.

- وحشية وشراسة الاعتداءات، وتزايدها، بغرض تجريف المقاومة، وفرض الرضوخ والاستسلام.

- لا بد من وجود عربي، قوي، موحد، يستطيع التأثير في موازين القوى الدولية.

- أهل فلسطين، وخاصة المقدسيين، وهم في عزلة بالداخل، بحاجة إلى تكاتف عربي، وإلا غرقنا جميعًا.

- يجب أن نحذر من أن يجرنا العدو إلى حيث يريد، أي صبغ القضية «بالطابع الديني»، بمزاعمه حول «الهيكل».

- الإسرائيليون يستهدفون صبغ الصراع بالطابع الديني، ظنًّا منهم أن ذلك سيجر المسيحيين البروتستانت إلى تبني الرؤية الصهيونية للصراع.

- «الطابع الديني» قد يجذب بعضًا من جمهرة اليهود في العالم لتأييد الكيان الإسرائيلي، ولكن «الدين» لا يغني عن «صك الملكية»، ففلسطين، كل فلسطين، ملك لشعبها العربي منذ آلاف السنين.

* * *

obeikan.com

هوامش الفصل السابع:

(١) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٠.

(٢) عبد القادر ياسين، **شبهات حول الثورة الفلسطينية**، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١١٦، ١١٧.

(٣) ياسين، الحركة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٣.

(٤) لجنة يوم القدس، الندوة السابعة «**القدس أمانة في عنق كل عربي ومسلم**»، عمان، ١٩٩٦، ص ٦١.

(٥) مرسى عطا الله، **الأهرام**، (القاهرة)، ١٩/ ٤/ ٢٠٠٩.

- لجنة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦١.

(٦) **المرجع نفسه**، ص ٦٣.

(٧) المشير عبد الغني الجمسي، **مذكرات الجمسي - حرب أكتوبر ١٩٧٣**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٨) على محبوب وآخرون، **مصر بعد العبور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٩) لجنة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٣.

(١٠) ياسين، الحركة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٤.

(١١) محبوب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٥٩.

(١٢) **المرجع نفسه**، ص ٤٨٥.

(١٣) شبكة الإنترنت www.islamic-aqsa.com .

(١٤) إدوارد سعيد، إبراهيم أبو لغد وآخرون، **الواقع الفلسطيني الماضي والحاضر والمستقبل**، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٦٤ - ٦٥.

(١٥) **المرجع نفسه**، ص ٤٧.

(١٦) ياسين، الحركة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧١ - ٧٢.

(١٧) نايف حواتمة، **أبعد من أوسلو ... فلسطين أين؟!**، ط ٢ المحروسة للنشر، **القاهرة**، ٢٠٠٤، ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(١٨) شبكة الإنترنت www.isalmic-aqsa.org .

(١٩) لجنة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦١.

(٢٠) **الموقع نفسه** www.isalmic-aqsa.org .

(٢١) لجنة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٣.

(٢٢) الأرقام من **المرجع نفسه**، ص ٦٣.

(٢٣) ياسين، الحركة ...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٣.

(٢٤) **المرجع نفسه**، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢٥) www.isalmic-aqsa.org .

(٢٦) **الموقع نفسه**.

(٢٧) تقارير www.alquda-online .

(٢٨) تقارير أسبوعية www.pchrgaza.org .

الباب
الثالث

الثقافة



obeikan.com

الفصـل الأول

الدور الثقافي للقدس

نهـال قاسـم

عمدت قوات الاحتلال الإسرائيلي إلى اتخاذ العديد من الإجراءات، كمقدمة لتهويد القدس الشريف، الذي يزخر بالعديد من المعالم التاريخية، والدينية. ويسعى الكيان الصهيوني إلى وضع القدس على لائحة التراث الثقافي العالمي، كمدينة يهودية، حتى يكتسب ذاك الكيان وضعًا ثقافيًا حيثيًا دوليًا، عن طريق منظمة «اليونسكو»، استكمالًا لتهويد المدينة المقدسة، وتعميم الزعم الإسرائيلي بأنها «عاصمة أبدية لإسرائيل»!

أولًا: خلفية عن الأوضاع التعليمية، والثقافية

(أ) القدس تحت الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩٤٨

اتسع ـ نسبيًا ـ عدد المدارس الخاصة، والعامة في القدس، أيام الانتداب البريطاني، وبلغ عددها مائتين وخمس مدارس، هي ملك مختلف الأجناس، والعناصر، والأديان، وكانت كلها خاضعة لإشراف دائرة المعارف الحكومية، ويقوم على رأسها مدير إنجليزي، يساعده خمسة رجال إنجليز، ويعمل تحت إمرته في الإدارة العامة اثنان وعشرون موظفًا فلسطينيًا، إثنا عشر منهم عرب، وأربعة يهود؛ وهذه الإدارة الحكومية كانت مسؤولة عن شؤون التعليم في فلسطين كلها، وليست القدس وحدها[١].

وفيما يلي أسماء هذه المدارس، وعدد الطلاب، والطالبات، والمعلمين، والمعلمات من كل طائفة، كما سجلت في مصلحة المعارف عام ١٩٤٥؛ هناك سبع مدارس إسلامية خصوصية، هي[٢]:

١ - كلية روضة المعارف الوطنية.

٢ - الكلية الإبراهيمية.

٣- المدرسة المحمدية.

٤ - مدرسة الفلاح.

٥ - مدرسة الحكمة.

٦ - مدرسة البنات الإسلامية.

٧- دار الأيتام الإسلامية.

فضلًا على إحدى عشرة مدرسة حكومية للعرب، هي :

١ - الكلية العربية.

٢ - دار المعلمات.

٣- المدرسة البكرية.

٤ - المدرسة العمرية.

٥ - مدرسة المصرارة.

٦ - مدرسة الشيخ جرَّاح.

٧- الكلية الرشيدية.

٨- المدرسة العلوية.

٩- مدرسة البقعة.

١٠ - المأمونية القديمة.

١١ - المأمونية الجديدة.

ويذكر أن التعليم في المدارس الحكومية لم يكن إجباريًّا.

أما المدارس الخصوصية، فلكل منها فئة خاصة، لا تتدخل الحكومة في تعيينها؛ المدارس المسيحية الخاصة عددها سبع وثلاثون مدرسة، وهي[٣]:

١ - مدرسة الروم الأرثوذكس.

٢ - المدرسة الأرثوذكسية للبنات.

٣- مدرسة السريان الأرثوذكس.

obeikan.com

٤- مدرسة الأرمن الابتدائية.

٥- مدرسة اللاهوت الأرضية.

٦- مدرسة تراسانطة للبنين.

٧- مدرسة تراسانطة للبنات.

٨- ميتم تراسانطة للبنين.

٩- ميتم تراسانطة للبنات.

١٠- كلية تراسانطة.

١١- كلية الفرير.

١٢- مدرسة الفرير للبنين.

١٣- مدرسة ماريوسف.

١٤- مدرسة نوتردام دوسيون.

١٥- ميتم نوتردام دوسيون.

١٦- مدرسة مارفنسان.

١٧- مدرسة ماريير دوسيون.

١٨- مدرسة الإرسالية الفرنسية.

١٩- مدرسة الساليرية.

٢٠- مدرسة سان جورج الإنجليزية.

٢١- كلية شميث الألمانية للبنات.

٢٢- كلية البنات الإنجليزية.

٢٣- مدرسة صهيون.

٢٤- مدرسة كنيسة يسوع للبنات.

٢٥- المدرسة السويدية.

٢٦- مدرسة الأرمن البروتستانت.

٢٧-يستان لأطفال الروم.

obeikan.com

٢٨- المدرسة الأرثوذكسية الوطنية للبنين.

٢٩- مدرسة الأرمن الكاثوليك.

٣٠- مدرسة السيدة صهيون الإنجليزية.

٣١- مدرسة الجالية الإنجليزية.

٣٢- مدرسة الأمة.

٣٣- كلية النهضة.

٣٤- مدرسة الشفقة.

٣٥- المدرسة الأسقفية.

٣٦- دار الأيتام السورية (شنلر).

٣٧- مدرسة الصلاحية.

أما المدارس اليهودية، فعددها تسع وتسعون مدرسة، ما بين عمومية، وخصوصية، أما العمومية فتدار بأموال خصصتها حكومة فلسطين لليهود من خزانة الدولة، وأما الخصوصية فإنها أديرت بأموال تبرعت بها بعض المؤسسات اليهودية، وعدد من أثرياء اليهود؛ و المدارس العمومية عددها تسعة بساتين للأطفال، في زكرون موشة، ومذكرات موشة، ويمين موشة، ومحنة يهودا، وشمعون صادق، وجبعات شاؤول، وبيت هايلد، وكرن أبراهام، وبستان لأطفال العمال. وهناك مدرسة ابتدائية للعمال أنفسهم، وكذا المدارس الابتدائية في رحافيا، وتل بيوت، وصوقولوف، وشقولي، وروحاما، وتحكموني، وعيروني، وبيت مناحيم، وكرن أبراهام. كما أن هناك عددًا من الكتاتيب للمزراحيين، والسفارديم، وأبناء اليمن، وآخر للبنات المزراحيات. وثلاث مدارس ثانوية في بيت هاكيرم، وبفروت، ومعلي، ومدرسة رفقا صوماخ، ودورش صهيون، وبصاليل الجديدة، ودار للتربية، ودار لتعليم العبرية، ودار للمعلمين المزراحيين، ودار للمعلمات المزراحيات[٤]. وأما المدارس الخصوصية اليهودية فعددها أربعة وثلاثون بستانًا للأطفال، وتسع عشرة مدرسة ابتدائية، وست مدارس ثانوية، وثلاث وثلاثون مدرسة لتعليم التلمود، وست دور للأيتام، ودار للفنون، ومدرسة تجارية للبنين، وأخرى للبنات، وثلاث دور للمعلمات، ومدرسة زراعية، وهناك «الجامعة العبرية» على جبل الزيتون، وهي الجامعة الوحيدة لا في القدس وحدها؛ وإنما في فلسطين كلها في عهد الانتداب.

جدير بالذكر أن اليهود منحوا في عهد الانتداب حصتهم من الأموال التي خصصت للتعليم، فأنفقوها كما يشاءون، وأنشأوا من المدارس ما هم في حاجة إليه، وساروا في إدارة مدارسهم على مناهج وضعوا أسسها بأيديهم، فلم يتدخل الإنجليز في شؤونهم، على النقيض كان الإنجليز يتدخلون في إدارة المدارس العربية الحكومية، ويرسمون مناهجها كما يرغبون[٥].

وفيما يلي عدد الطلاب، والطالبات، والمعلمين، والمعلمات في المدارس سالفة الذكر[٦]:

الديانة	الطلاب	الطالبات	المعلمون	المعلمات
المسلمون	٣٥٠٢	٢٣٠٧	١٠٧	٥٣
المسيحيون	٣٤١٦	٣٠٩٨	٢٠٠	٢٨٧
اليهود	١١٠٦٧	١٠٨٧٢	٦٣٩	٥١٠
المجموع	١٧٩٨٥	١٦٢٧٧	٩٤٦	٨٥٠

يذكر بأن المدارس الوطنية في القدس الإسلامية، والمسيحية، قد لعبت دورًا بارزًا في تنشئة الأجيال الصاعدة، ومنها كلية روضة المعارف الوطنية، التي أنشأها المرحوم الشيخ محمد الصالح، قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وأعيد نشاطها بعد عام ١٩١٨، وكانت منارة للعلم، والوطنية، ومنها تخرج عدد كبير من الشباب، الذين أسهموا في الحركة الوطنية الفلسطينية، كما انعقد في رحابها أول مؤتمر إسلامي، عام ١٩٣١، واعتلى منابرها خطباء العرب، وجهابذة علماء المسلمين، وتناولها الشعراء في قصائدهم، فضلًا على صرح وطني كبير آخر، هو المدرسة الإبراهيمية، في حي سعد وسعيد التي تحولت، حاليًا، إلى الكلية الإبراهيمية، في عقبة الصوانة، خارج البلدة القديمة، وقد لعبت هذه المدرسة، بفضل مدرسيها الوطنيين الأحرار، دورًا بارزًا في قيادة الحركة الوطنية، وكان أساتذتها، وطلابها وقودًا للحركة الفلسطينية[٧].

كما لعبت باقي المدارس الوطنية الإسلامية، والمسيحية، دورًا وطنيًا بارزًا، ومنها المدارس الحكومية: الرشيدية، والعمرية، والبكرية، وكلية الأمة، وكلية النهضة، التي خرج من بين طلابها عدد كبير من القادة الوطنيين، والباحثين، والعلماء، وقادة الفكر، والرأي، وهناك المدرسة المأمونية الثانوية، والقادسية، وخولة، التي تخرج من بين صفوفها، وصفوف غيرها من المدارس أمهات فاضلات، وقياديات بارزات، وعاملات في جميع المجالات الإنسانية، والثقافية، والأدبية، كما كان للكلية العربية التي أغلقت أبوابها عام ١٩٤٨ وكان لهادورٌ بارزٌ في حركة التعليم في فلسطين، حيث تخرج فيها معظم الأساتذة البارزين في حقل التعليم، وقادة الرأي، والفكر، والمال، والسياسة. كما نشطت المدارس المرتبطة بالمؤسسات الكنسية، ومن أشهرها سان جورج (المطران)، تراسانطة، صهيون، شميدث، الفرير، ماريوسف، وغيرها، والتي خرَّجت العديد من أبناء الشعب العربي الفلسطيني، الذي ناضل ضد الاحتلال البريطاني، والاستيطان الصهيوني، ولا يزال. كما وصل العديد منهم إلى مراكز متقدمة في المجالات السياسية الوطنية، والمالية، والتعليمية، وغيرها[٨].

أما مكتبات القدس ـ وعددها تسع وأربعون مكتبة ـ فتغشاها الجماهير، في أي وقت شاءت، وفيما يلي بعضها، حسب تاريخ تأسيسها[٩]: مكتبة القديس المخلص (١٥٥٨)؛ مكتبة الخليلي (١٧٢٥)؛ مكتبة البطريركية الأرثوذكسية (١٨٦٥)؛ مكتبة كنيسة القديس جورج (١٨٩٠)؛ المكتبة الإنجيلية الأثرية الفرنسية (١٨٩٠)؛ مكتبة الجامعة العبرية (١٨٩٢)؛ مكتبة الجمعية الروسية الأرثوذكسية (١٨٩٥)؛ المكتبة الخالدية (١٩٠٠)؛ مكتبة المدرسة الأمريكية للبحث عن الآثار الشرقية (١٩٠١)، مكتبة المعهد الألماني الإنجيلي (١٩٠٢)؛ مكتبة بصاليل الصناعية (١٩٠٦)؛ مكتبة الكلية العربية (١٩٩٩)، مكتبة مدرسة الآثار البريطانية (١٩٢٠)؛ مكتبة مصلحة الزراعة بالحكومة الفلسطينية

(١٩٢٠)؛ مكتبة مصلحة المعارف بحكومة فلسطين (١٩٢٠)، مكتبة القوانين في محكمة العدل العليا (١٩٢٥)؛ مكتبة المسجد الأقصى (١٩٢٧)؛ مكتبة الآباء اليسوعيين (١٩٢٧)؛ مكتبة المتحف الفلسطيني (١٩٢٨)؛ مكتبة مدرسة نيومن للإرساليات (١٠٢٨)؛ مكتبة غولبنحيان الأرمنية (١٩٢٩)؛ مكتبة الدراسات الإنجيلية الفرنسية (١٩٢٩)؛ مكتبة بني بريت في أورشليم (١٩٣٠)؛ مكتبة جمعية الشبان المسيحيين (١٩٣٣)؛ مكتبة دار التموين للشؤون الاجتماعية (١٩٣٤)؛ مكتبة شوتن (١٩٣٥)؛ مكتبة الإحصاءات بحكومة فلسطين (١٩٣٦)؛ مكتبة معهد الأبحاث الاقتصادية بالوكالة اليهودية (١٩٣٦)؛ مكتبة مصلحة الإذاعة بحكومة فلسطين (١٩٣٦)؛ مكتبة المعهد الثقافي الفرنسي (١٩٣٧)؛ مكتبة يشارون (١٩٣٩)؛ مكتبة العمال (١٩٤٠)؛ مكتبة المعهد البريطاني (١٩٤٤)، مكتبة قلم المطبوعات بحكومة فلسطين (١٩٤٤)؛ فضلًا على بعض المكتبات التي لا نعرف تاريخ إنشائها على وجه التحديد، ومنها مكتبة دير الصليب الأرثوذكسية، ومكتبة الآباء الفرنسيين، والمكتبة الكائنة في دير الدومينيكان.

إلى مكتبات خاصة، يملكها بعض الأشخاص، والأسر، كالمكتبة التي أنشأها الشيخ خليل الخالدي، وإسعاف النشاشيبي، وإسحاق موسى الحسيني، وخليل السكاكيني، ومكتبة أحمد عباس، وغيرهم كثيرون. ومن المكتبات العائلية: المكتبة الفخرية، ملك آل أبي السعود، ومكتبة آل جار الله، ومكتبة آل قطيفة، ومكتبة آل البديري، ومكتبة آل الإمام، ومكتبة نفيسة، التي تحوي العديد من المخطوطات، ومكتبة آل المؤقت ملك الشيخ أحمد بن يحيى، الشهير بالمحدث، ومكتبة عبد الله مخلص، وفيها العديد من الكتب العلمية، والتاريخية القيمة[١٠].

لقد برز في القدس العديد من الجمعيات الأدبية، والأدباء، والمفكرين، وعلماء المسلمين، مما أسهم في قيام حركة علمية، وثقافية نشطة في القدس، في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ممن أفنوا عمرهم في خدمتها، ومن هاجر من أبناء القدس إلى مختلف بقاع الأرض أثبت مكانة أدبية، أو فكرية، أوعلمية، وفيما يلي أسماء بعض هؤلاء الأدباء، والمفكرين، على سبيل المثال لا الحصر[١١]:

١ ـ يوسف ضياء الخالدي (١٨٤٢ - ١٩٠٦)، والذي تتلمذ في المدارس الإنجليزية، والفرنسية في القدس، كان من نواب المعارضة في مجلس المبعوثان (البرلمان)، وعمل أستاذًا للغة العربية في جامعة فيينا (١٨٨٠)، وجمع أشعار لبيد بن ربيعة، وترجمها إلى الألمانية، وكان قد أقام «سوق عكاظ» في إستانبول أثناء فترة عمله قائمقام في شمال شرق تركيا.

٢ ـ حنا عبد الله العيسى (١٨٥٨ - ١٩٠٩)، أسس جريدة «الأصمعي»، وكان من أهم كتابها إسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، وعادل جبر.

٣ ـ المعلم نخلة زريق (١٨٦١ - ١٩٢١)، كان معلمًا نادرًا، جاء إلى القدس عام (١٨٨٩)، حيث عين مديرًا لمدرسة الشباب الإعدادية المقامة على جبل صهيون، والتي تحولت فيما بعد إلى المدرسة الإنجليزية في سعد وسعيد، وكان مسكنه منتدى أدبيًا، يجتمع فيه: سليم الحسيني (رئيس بلدية القدس)، وموسى عقل، وفيضي العلمي، وقد تتلمذ على يديه نخبة من الأدباء، والمفكرين.

٤ ـ روحي الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣)، درس في إستانبول، وفي السربون في باريس، وقد انتخب نائبًا عن القدس، في العهد العثماني (١٩٠٨)، وغدا رائدًا للبحث التاريخي الحديث في فلسطين، وهو من أوائل الذين حذروا من الخطر الصهيوني في فلسطين، وله العديد من المؤلفات.

٥ ـ خليل جواد الخالدي (١٨٦٦ - ١٩١٤)، كان من أعلم الناس بالمخطوطات، وأماكنها؛ تعلم في مصر، وتولى القضاء في حلب، زار المغرب، والأندلس، وكان رئيسًا سابقًا لمحكمة الاستئناف الشرعية في القدس، وقد جمع في مكتبته خمسة آلاف مخطوطة قديمة.

٦ ـ علي عمر النشاشيبي، طبيب بيطري، من أركان «الجمعية القحطانية»، التي تأسست في إستانبول (١٩٠٩)، وكانت غايتها رفع مستوى العرب الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، ولما انتهى أمر هذه الجمعية، انضم النشاشيبي إلى جمعية سرية أخرى، هي «جمعية العهد»، كان قد أسسها الضابط عزيز علي المصري، عام (١٩١٢)، وقد دأب النشاشيبي على حث الشباب على التضحية، والفداء في سبيل قومهم ، ووطنهم، أعدمه جمال السفاح، في تشرين الأول/ أكتوبر (١٩١٦)، في القدس.

٧ ـ أحمد عارف الحسيني، أديب، وكاتب، وكان نائبًا عن فلسطين في «مجلس المبعوثان»، أعدمه العثمانيون (جمال باشا السفاح)، عام ١٩١٦، في باب العامود بالقدس، هو وولده «مصطفى».

٨ ـ الدكتور بندلي صليبا الجوزي، (١٨٧١ - ١٩٤٢)، أستاذ في الجامعات الروسية، ألف ١٧ كتابًا باللغة العربية، و٢٦ كتابًا بالروسية، واشتهر من مؤلفاته باللغة العربية كتاب (الحركات الفكرية في الإسلام).

٩ ـ خليل بيدس (١٨٧٤ - ١٩٤٩)، مؤسس مجلة «النفائس»، التي كانت في مستوى مجلتي (المقتطف، والهلال) في مصر، قاد أول مظاهرة عربية في بيت المقدس، عام ١٩٢٠، بمناسبة عيد النبي موسى، يعتبرمن رواد الرواية في اللغة العربية.

١٠ ـ خليل السكاكيني (١٨٧٨ - ١٩٥٣)، تتلمذ على يد المعلم نخلة زريق، أسس جمعية الإخاء الأرثوذكسي، كما أسس المدرسة الدستورية، إحدى المدارس الوطنية في القدس، عام ١٩٠٩، وقد شاركه في تأسيسها الأساتذة علي جار الله، وجميل الخالدي، وأفتيم مشبك، كما أسس كلية النهضة مع آخرين.

١١ ـ بولس شحادة (١٨٨٢ - ١٩٤٣)، تتلمذ على يد المعلم نخلة زريق، عمل مديرًا لعدد من المدارس الأرثوذكسية في فلسطين، أصدرجريدة «مرآة الشرق» التي كانت أول جريدة في القدس تصدر بعد الاحتلال البريطاني باللغتين العربية، والإنجليزية، عام ١٩١٩وقد قامت الحكومة البريطانية بإغلاقها عام ١٩٣٩ لأجل غير مسمى، بسبب نشرها قصيدة من نظم شحادة، دعا فيها شباب العرب إلى الثورة على البغي، والطغيان. من أشهر مؤلفاته «تاريخ القدس»، الذي شاركه في تأليفه الأستاذ خليل طوطح.

١٢ ـ محمد إسعاف النشاشيبي (١٨٨٢ - ١٩٤٨)، من كبار أدباء فلسطين، لقب بأديب العربية، وكان خليل السكاكيني يعتبره «معجم لسان العرب يمشي على قدمين»، تتلمذ على يد الشيخ عبد الله البستاني، في دار الحكمة، في بيروت، وهو ابن اثنتى عشرة سنة، لمدة ثلاث سنوات، وبعدها حسب قول إسعاف «لا مدرسة من قبل، ولا من بعد»، وكان بيته كعبة الأدباء، والعلماء، إذا تكلم كأنه يغرف من بحر. أسهم في مبايعة أحمد شوقي أميرًا للشعراء، وكان موضع تقدير، واحترام من زعيم مصر آنذاك سعد زغلول. له من المؤلفات ما يزيد على العشرة، خلاف المقالات، والأبحاث.

١٣ ـ الدكتور توفيق كنعان (١٨٨٢ - ١٩٦٤)، مارس الطب في عيادته في القدس، بالإضافة إلى عمله في مستشفى البرص (١٩١٨ - ١٩٤٧)، أسس «الجمعية الطبية العربية في فلسطين»، وكان رئيس تحرير مجلتها، وأمين سر «جمعية المستشرقين الفلسطينين». أتقن ست لغات، وهو أول من تنبه إلى أهمية النقب، وأول من اهتم بالفولكلور الفلسطينيين، وجمعه، وله العديد من المؤلفات في الفولكلور، والدراسات، والأبحاث، ومعظمها باللغتين الإنجليزية، والألمانية.

١٤ ـ عادل جبر (١٨٨٥ - ١٩٥٣)، تخرج من سويسرا، حاملًا ليسانس علوم اجتماعية، واقتصادية، أنشأ جريدة «الترقي»، في يافا، في عهد العثمانيين. كان أستاذًا للاقتصاد، والعلوم السياسية في معهد الحقوق بالقدس، وأنشأ جريدة يومية في القدس اسمها «الاقتصاديات العربية». كما عمل في المدرسة الدستورية في القدس، لصاحبها خليل السكاكيني، وفي عام ١٩٢٣، عيّنه المجلس الإسلامي الأعلى مديرًا للمتحف الإسلامي، ودار الكتب في المسجد الأقصى[١٢].

ثانيا: الأوضاع التعليمية، والثقافية في القدس عام ١٩٦٧

بدأت القوات الإسرائيلية، منذ أيام الاحتلال الأولى، في تضييق الخناق على النواحي التعليمية، والثقافية، والرياضية العربية، وحرمتها من التمويل الضروري لها، وأخذت تشجع الشبان العرب على التردد، والانتساب إلى النوادي الرياضية اليهودية، والمؤسسات الثقافية الإسرائيلية، بهدف تفتيت روح الوحدة، والتجمع، والتضامن، والانتماء بين الشباب العربي، وتكريس روح الإحباط الناجم عن المقارنة، بين المستويين الإسرائيلي، والعربي[١٣].

كما قامت قوات الاحتلال بإغلاق العديد من المؤسسات الثقافية في القدس العربية، ومنها «جمعية الدراسات العربية»، لمدة ٤ سنوات، ومصادرة العديد من الكتب، والوثائق، مما أدى إلى إلحاق أضرار بالغة في مكتبة الجمعية، وأرشيفها، كما تم إغلاق مقر «اتحاد الكتاب»، ومنعت مكتبات القدس الشرقية (العربية)، التي تجاوز عددها أكثر من ستين خزانة، وتضم أكثر من ١٠٠ ألف كتاب من نوادر المؤلفات، وأكثر من نصف مليون وثيقة، ومخطوط، وسجل، من اقتناء كل ما تقتنيه المكتبات في القدس الغربية، وتداوله، ومنها الكتب الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومركز الأبحاث الفلسطيني، التي تتواجد في مكتبات الجامعات، والمعاهد الإسرائيلية، وإغلاق القدس، ومنع الدخول إليها، وعزلها عن الضفة الغربية، وقطاع غزة، مما أدى إلى حرمان أساتذة الجامعات، والباحثين، والدارسين، والطلبة، من الوصول إلى مراكز الأبحاث، والمكتبات في المدينة، للاستفادة من الكتب، والمراجع الموجودة فيها[١٤].

كما لم يتردد الاحتلال الإسرائيلي في تدمير مقر الإذاعة، والتليفزيون، عدة مرات، ودهم عدد كبير من المحطات التليفزيونية، والإذاعية، والمراكز الثقافية العامة، والخاصة، وهدم بعضها، كما توقفت معارض الكتب المركزية السنوية، والمهرجانات الثقافية، ومسابقات الإبداع[١٥].

أما المؤسسات التعليمية في القدس، والتي بلغت ٣٠ مدرسة حكومية، عربية (١٨ للذكور، ١٢ للإناث)، بالإضافة إلى ١٤ مدرسة طائفية، وأهلية، يدرس فيها حوالى ١٥ ألف طالب، وطالبة، فقد قامت السلطات الإسرائيلية بعد ٥حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بالاستيلاء على كل المدارس الحكومية، ووضعتها تحت إشراف بلدية القدس، ووزارة

المعارف الإسرائيلية، التي أصبح لها الإشراف الكامل على مؤسسات القدس التعليمية، والثقافية، وبرامج التعليم، ومصادر التمويل، كما فرضت على جميع المدرسين الحصول على تراخيص إسرائيلية، تجيز لهم الاستمرار في المهنة.

أما التعليم العالي، والمتوسط، فكانت هناك ثلاث مؤسسات للتعليم الجامعي، هي جامعة القدس، جامعة القدس المفتوحة، وكلية الحقوق الفلسطينية، وهناك ثلاث مؤسسات للتعليم العالي المتوسط (سنتان بعد التوجيهي)، وهي الكلية الإبراهيمية، وكلية الأمة، وكلية العلوم الإسلامية، وقد تعرضت بعض هذه المؤسسات للإغلاق عدة مرات خلال السنوات الماضية، كما أن عددًا كبيرًا من مدرسيها، وطلابها حرموا من الوصول إليها، بسبب الطوق الأمني، ونقص مواردها المالية، كما تشير بعض الإحصائيات إلى ازدياد عدد رياض الأطفال في القدس العربية من ٦٣ - ٧٩ روضة، تضم حوالي خمسة آلاف طفل، يعمل بها حوالي مائتي معلم، ومعظم هذه الرياض تابعة لمؤسسات، وجمعيات خيرية، وهي مهددة، الآن، بالإغلاق، بسبب شح الموارد المالية [١٦].

ثالثا: خطوات تهويد مؤسسات القدس

١ - المؤسسات التعليمية

بدأت القوات الإسرائيلية في اتخاذ العديد من الإجراءات بالغة الخطورة، كمقدمة لتهويد القدس العربية، منذ أيام الاحتلال الأولى، عام ١٩٦٧، حيث عملت على تهويد المؤسسات التعليمية، والثقافية، والحضارية العربية، الإسلامية، وفي مقدمتها إلغاء برامج التعليم العربية الأردنية، وجميع الكتب المدرسية الخاصة بها، والتي كانت تطبق في المدارس العربية المحتلة، منذ عام ١٩٤٨، واستبدالها بالمناهج الإسرائيلية، في جميع المدارس الحكومية، بمراحلها الثلاث، ونقل ملكيتها، وإدارتها من بلدية القدس العربية إلى بلدية «القدس الموحدة»، ووزارة المعارف الإسرائيلية(*)[١٧].

كما قامت بإغلاق مكتب مدير التعليم الأردني، وطلبت منه، ومن موظفي مكتبه، وجميع العاملين في الجهاز التعليمي بالتوجه إلى بلدية القسم المحتل، أو وزارة المعارف الإسرائيلية، لتقديم طلبات التحاق جديدة بأجهزة التعليم الإسرائيلية، تجيز لهم الاس تمرار بممارسة المهنة. وقد لاقت هذه الإجراءات الرفض القاطع من جانب مدير التربية والتعليم العربي، ومساعديه، وجميع موظفي مكتبه، والجهاز التعليمي، الذين أبوا الانضمام إلى أجهزة السلطات المحتلة، رغم كل الإغراءات المادية التي عرضت عليهم، وكانت حجة الموظفين العرب في ذلك أنهم يرون في تنفيذ، وتطبيق برامج التعليم الإسرائيلية إعلانًا بقبولهم عملية ضم القدس إلى إسرائيل، وهو ما يرفضونه بشدة[١٨]. ومن ناحية أخرى، قاموا بإرسال مذكرة إلى وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية، يوم السابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٦٧، أوضحوا فيها رفضهم إلغاء البرامج التعليمية العربية، واستبدالها بالبرامج الإسرائيلية؛ لأن ذلك يعتبر نسفًا للكرامة المهنية للمدرسين، وللعرب، كبشر، واستدراج الطلاب العرب، والجيل الجديد منهم إلى الابتعاد عن دينهم، وثقافتهم، وتاريخهم، وتراثهم، وقيمهم، وحضارتهم العربية، حتى تذوب في النهاية شخصيتهم، وهويتهم الأصيلة، وطمسها كليًا في بوتقة الشخصية اليهودية، والدولة الإسرائيلية[١٩].

(*) وقد اتخذت الحكومة قرارها بناء على توصية من وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية، التي تذرعت بكون القدس العربية قد أصبحت جزءًا من دولة إسرائيل، وعليها بالتالي أن تخضع للنظام التعليمي نفسه.

وقد قامت سلطات الاحتلال، ردًّا على هذا الموقف؛ بإصدار الأوامر باعتقال كل من مدير التعليم العربي، حسني الأشهب، ومساعده أحمد عبد اللطيف، واعتقل كل منهما مدة ثلاثة أشهر، ومع اقتراب موعد افتتاح السنة الدراسية الأولى بعد الاحتلال، في السابع من آب/ أغسطس ١٩٦٧، أصدرت سلطة الاحتلال سلسلة من الأوامر المشددة تهدف إلى فتح المدارس على مراحل، ولو بالقوة، في الموعد المحدد لها، الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧[١٩]، كما قامت بالضغط على أجهزة التعليم، وأولياء أمور الطلاب، بشتى الطرق، للتعاون، واستئناف السنة الدراسية، وقد تمكنت سلطات الاحتلال من إجبار ست مدارس (من ٣٠ مدرسة حكومية عربية) باستئناف التدريس خلال الأيام الثمانية عشر الأولى، والتحق بها ١٠ من المعلمين، والمعلمات، من أصل ٧١ مدرسًا في هذه المدارس، بينما امتنع قسم كبير منهم عن ذلك، ولم يتعدَّ الطلاب نصف العدد المتوقع[٢٠].

أما المدارس الطائفية، والأهلية، التي بلغ عددها (١٨ للذكور، و١٢ للإناث) فقد توقفت لفترة، ثم ما لبثت أن واصلت التدريس، بعد أن تراءى لها إمكانية الاستمرار في تدريس برامجها الخاصة. فقد رأت سلطات الاحتلال عدم فرض البرامج الإسرائيلية على هذه المدارس، في محاولة لشق صفوف المعارضة. وقد اغتنم عرب القدس هذه الفرصة، وقاموا بتحويل قسم كبير من الطلاب، والطالبات إلى المدارس الطائفية، والأهلية، بعد أن تفاهموا مع إدارتها، لتوسيعها، وإفساح المجال لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الطلاب، مما أدى إلى تخفيض أعداد الطلاب العرب في المدارس الحكومية، وخاصة الثانوية منها، بشكل أقلق السلطات المحتلة، ودفعها إلى إصدار قانون جديد اسمه (قانون الإشراف على المدارس، عام ١٩٦٩، نشر في مجلة القوانين الإسرائيلية رقم (٥٦٤)، الصادر بتاريخ ١٩٦٩/٧/١٧، وتقرر العمل به، اعتبارًا من ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٠، وعد هذا القانون في مجمله حلقة جديدة من حلقات التهويد الإسرائيلي للقدس![٢١].

تمكنت سلطات الاحتلال، خلال شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧، من فتح معظم المدارس الابتدائية، والإعدادية، وبلغت نسبة الحضور بين الطلاب ما يقرب من ٧٥٪، أما المدرسون فلم يلتحق منهم سوى اثني عشر مدرسًا من أصل ٣٠٠، فقامت سلطات الاحتلال بتعيين مدرسين جدد من حملة الشهادات الثانوية من غير المؤهلين للتدريس، مما أدى إلى تدهور المستوى الثقافي، والتعليمي للطلبة الفلسطينيين.

أما المدارس الثانوية فقد بدأت تفتح أبوابها، مع بداية كانون الثاني/ يناير١٩٦٨، وبلغ عددها (٢ للذكور، وواحدة للإناث)، وقد تم إغلاق إحدى مدارس الذكور، لنقص عدد الطلاب فيها، وجمعهم في مدرسة الراشدية، التي بلغ عدد طلابها ٤٨٩ طالبًا، في مقابل ٨٠٠ قبل الاحتلال، بينما بلغ عدد طالبات مدرسة المأمونية الثانوية ٣٠٠ مقابل ٣٥٠ قبل الاحتلال.

وقد أمر ضابط التربية والتعليم في الحكم العسكري بالضفة الغربية بعدم قبول الطلاب الذين يحملون «هوية القدس» للدراسة في مدارس، ومعاهد الضفة، لوضعهم أمام خيارين، إما النزوح عن المدينة مع عائلاتهم، أو الالتحاق بمدارس بلدية القدس، التي تدرِّس المناهج الإسرائيلية. وقد أدى ذلك إلى استياء فئات المواطنين كافة، لما يسببه هذا الإجراء من حرمان الطلبة من استكمال دراستهم العليا دون مبرر، خاصة أن للمغتربين الفضل الأكبر في إنشاء المدارس، وتطوير المنطقة بأسرها، كما أن أطفال القدس العربية لا يثيرون أي مشاكل أمنية للسلطات

الإسرائيلية. ولذا فإن حرمانهم من الدراسة كان بمثابة حرمانهم من حقهم الطبيعي في التمسك بتراثهم، وثقافتهم، وقوميتهم العربية في وطنهم؛ ولذا فقد وجه رؤساء بلديات لواء رام الله برقية احتجاج إلى الحاكم العسكري العام في الضفة الغربية، بواسطة حاكم منطقة رام الله، والبيرة العسكري، رافضين القرار المجحف، الذي اتخذته السلطات بمنع طلاب مدينة القدس العربية من الدراسة في مدارس لواء رام الله، والبيرة، والذي يعد وسيلة أخرى من وسائل السلطات لوضع العراقيل أمام أبناء هذا الشعب، ومحاولة سد فرص التعليم أمامهم. وطالب رؤساء البلديات بإلغاء هذه القرارات المجحفة، وإتاحة الفرصة لكل مواطن، بمن فيهم المغتربين، من التعليم، الذي هو أبسط حقوق الإنسان المعمول بها في جميع دول العالم، وبغض النظر عن الجنسية، أو الديانة، أو القومية. وأن محاولة سلب هذا الحق تعتبر انتهاكًا للقوانين، والأعراف الدولية[٢٢].

يذكر أن المنهج الإسرائيلي، الذي كان يطبق في المدارس العربية بالقدس، تضمن الآتي:

أولًا: فرض اللغة العبرية على الطلاب العرب، كلغة أساسية في المنهج الدراسي للمراحل الثلاث.

ثانيًا: فرض مادة المجتمع الإسرائيلي، وإلغاء مادة المجتمع والتاريخ العربيين، وكل المواد الوطنية الأخرى، مما يعزل الطالب الفلسطيني عن حضارته، ويكرِّس القطيعة ما بينه وبين تاريخه، وتراثه، ويفك الارتباط بقيمه الروحية، والحضارية، ويغرس مشاعر اليأس، والإحباط، والفشل، من خلال التوجه غير الوطني، الذي تنشره المواد التعليمية الصهيونية، التي تركز على الانقسام والضعف العربيين، والتأكيد على عبقرية اليهودي، وتفوقه على غيره من البشر[٢٣].

لم تكن الاعتبارات السياسية الدافع الوحيد لدى المواطنين العرب لرفض البرامج التعليمية الإسرائيلية، بل كانت هناك، أيضًا، اعتبارات عملية، فالبرنامج التعليمي الإسرائيلي كان يعد الطلاب لدخول الجامعات الإسرائيلية، في حين لا تعترف بها جامعات الدول العربية، التي تستوعب الغالبية العظمى من الطلبة الفلسطينيين بشهادة الدراسة الثانوية الإسرائيلية، مما يغلق الباب أمام هؤلاء الطلبة لمواصلة دراستهم العليا. وقد اتضح مع بدء تطبيق المناهج الجديدة أنها تشكل عبئًا ثقيلًا على الطلاب، والمدرسين في آن واحد. فقد أكدت نتائج السنة الأولى لامتحانات هذه الشهادة مخاوف الأهالي، والطلاب، حيث لم ينجح منهم سوى ٤ من أصل ٩٦ طالبًا تقدموا إليها، في حين تراوحت نسبة النجاح في شهادة الدراسة الثانوية قبل الاحتلال بين ٧٠- ٨٠ ٪. بهذا لم يقتصر الخطر على حرمان الطلاب من مواصلة التعليم العالي، بل أصبح حصولهم على شهادة الدراسة الثانوية أمرًا بعيد المنال أيضًا، الأمر الذي جعل وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية، بالتعاون مع بلدية القدس، تقوم بتشكيل لجنة من العرب، واليهود، لوضع برنامج تعليمي جديد خاص بالطلاب العرب في القدس، يدمج ما بين البرنامج الإسرائيلي، والبرنامج الأردني، في نهاية العام الدراسي ١٩٧٢/ ١٩٧٣، وقد تضمن البرنامج الجديد معظم مواد المنهج الدراسي الأردني، مضافًا إليها عددٌ كبيرٌ من الحصص يدرس فيها الطلاب المنهج الإسرائيلي، الذي أثبت فشله أيضًا؛ لأنه يثقل كاهل الطلاب، ويسمح للأساتذة بالتركيز على المنهج الأردني، وإهمال ما عداه. وفي الوقت نفسه بدأت المدارس العربية تعيد تدريس المنهج الأردني في الصفوف الدنيا[٢٤].

إزاء فشل سياسة فرض المناهج الإسرائيلية على المدارس العربية في القدس الشرقية، تقرر، في نهاية عام ١٩٧٥،

التسليم بمعظم المطالب العربية، والسماح بتدريس منهجين منفصلين في الصفوف الستة العليا (المدارس الإعدادية، والثانوية)، ابتداء من السنة الدراسية (١٩٧٦- ١٩٧٧)، الأول يتبع المنهج التعليمي الأردني، المطبَّق في الضفة الغربية المحتلة، مضافًا إليه دروس في اللغة العبرية، والمدنيات الإسرائيلية، والثاني يتبع المنهج المطبَّق في المدارس العربية في إسرائيل، وقد تقرر تجميع الطلاب المسجلين في هذا البرنامج في مدرسة واحدة، أما المدارس الابتدائية الرسمية فقد واصلت اتباع المنهج الإسرائيلي، الذي لم يكن هناك فارق كبير بينه وبين المنهج الأردني[٢٥].

إن إلقاء نظرة سريعة على هذه المواقف، التي قد تبدو متناقضة، وصعبة التفسير، تجاه سلطات الاحتلال الإسرائيلي إلى منح الحرية الكاملة للمدارس الدينية، والأهلية بتدريس المنهج الأردني، بينما الإصرار على تدريس المناهج الإسرائيلية في المدارس الحكومية الرسمية، والتي كانت تهدف كلها إلى تصفية التعليم العربي في القدس، فقد أدى تطبيق المنهج الإسرائيلي، خلال السنوات السبع الأولى من الاحتلال، إلى انهيار شبكة التعليم الرسمي انهيارًا شبه تام، وإلى تخريج دفعات من الطلاب قاربت نسبة السقوط بينها ١٠٠ ٪، مما أغلق أمامها إمكان مواصلة تعليمها العالي، سواء في الجامعات العربية، أو الإسرائيلية، مما أراح سلطات الاحتلال من أعداد كبيرة من الخريجين الذين سوف يضطرون، بالتالي، إلى الالتحاق بالجامعات العربية، أو الأجنبية، وربما التحق بهم أفراد من عائلاتهم ، بسبب تقلص فرص العمل أمامهم، نتيجة السياسة الإسرائيلية تجاه المؤسسات الاقتصادية العربية، وعدم اعترافها بشهادات جامعات الدول العربية، إمعانًا في تصفية الوجود العربي في القدس، ديموجرافيًا، واقتصاديًا[٢٦].

٢- المؤسسات الثقافية

عندما احتلت القوات الإسرائيلية مدينة القدس، عام ١٩٦٧، كان عدد مكتبات القدس العامة، والخاصة، تجاوز الستين خزانة، ضمت أكثر من مائة ألف كتاب، من نوادر المؤلفات، وأكثر من نصف مليون وثيقة، ومخطوط، وسجل؛ وقد تعرضت مكتبات القدس بعد الاحتلال إلى إجراءات بالغة الخطورة، هدفها الرئيسي تهويد القدس من جهة، والقضاء على الإرث التاريخي، والحضاري من جهة أخرى؛ ولذا فقد قامت سلطات الاحتلال بمصادرة مكتبة القدس العامة، بكل محتوياتها من الكتب، والدوريات، والوثائق، ونقلت ملكيتها، وإدارتها من بلدية القدس العربية إلى ما يسمى «بلدية القدس الموحدة»، ونقلت عددًا آخر من الكتب، والدوريات ـ التي اعتبرتها ممنوعة ـ إلى مكان مجهول، كما حددت نوعية الكتب، والدوريات المسموح بإدخالها إلى هذه المكتبة، وحظرت استيراد العديد من الكتب، وتوزيعها، ومنعت تداولها في أسواق، ومكتبات القدس الشرقية (العربية)، ولم يقتصر الحظر على الكتب السياسية، والكتب الخاصة بفلسطين، والقضية الفلسطينية، بل امتد ليشمل كتب التاريخ، والتراجم، والأدب، والشعر، والتي تتواجد في مكتبات القدس الغربية، والجامعات، والمعاهد الإسرائيلية، كما فرضت رقابة صارمة على الصحف، والدوريات، والكتب الصادرة في القدس، بدعوى الحفاظ على «أمن الدولة»[٢٧]!

كما اتبعت سياسة الإبعاد، والاعتقال، وفرض الإقامة الجبرية بحق العشرات من الأدباء، والباحثين، والمثقفين من أبناء القدس، وخاصة الذين نشطوا في الدفاع عن عروبة القدس.

وأصدرت أوامر عسكرية بضرورة مرور أي مطبوع على دائرة الرقيب العسكري الإسرائيلي، للاطلاع عليه

واتخاذ قرار بشأن السماح بالنشر، وعانى النشر من عمليات الشطب، والحذف التي وصلت أحيانًا إلى نصف حجم الصحيفة، الأمر الذي أدى إلى انخفاض كبير، وملموس في حركة التأليف، والنشر في مدينة القدس[٢٨].

من ناحية أخرى، قامت قوات الاحتلال الصهيوني بالاستيلاء، وسرقة، ونهب كل ما يدل على تاريخ هذه المدينة المقدسة، ويدعم إسلاميتها، وعربيتها، ومنها وثائق، وأوراق، ومستندات، وسجلات المحكمة الشرعية في القدس، التي كانت تخص حياة المسلمين فيها، منذ عام ١٥١٧م، وكذا المخطوطات، والسجلات القديمة ـ التي كانت تمتلئ بها أرفف المكتبات في المسجد الأقصى ـ بذريعة حمايتها من خطر الضياع، والهلاك، في ظل ترميمات المسجد الأقصى، كما منعت ترميم المخطوطات التي تتضمن تاريخ المدينة، وأحوال الناس فيها، منذ الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨، ونقلتها إلى الجامعات الصهيونية، ضمن ممارستها الهادفة لمصادرة التاريخ، والهوية الثقافية للشعب الفلسطيني، ناهيك عن عدم وجود مؤسسات داعمة، وراعية تقوم بالعناية بالمخطوطات، وترميمها[٢٩].

كما قامت السلطات الإسرائيلية، في ٢/ ٤ / ١٩٦٨، بافتتاح معرض خاص في «متحف روكفلر»، خُصص جزء منه لعرض مخطوطات أثرية لا مثيل لها، تسمى (لاشيشي)، تم نقلها من المتحف الفلسطيني، وقد صرح كبار المسؤولين الأثريين في مدارس الآثار في القدس المحتلة بأن هذا المعرض ما هو إلا سابقة، ومقدمة لنقل كل محتويات المتحف الفلسطيني إلى إسرائيل، خاصة مخطوطات البحر الميت ـ التي اكتشفت في الأردن ـ التي تعتبرها حكومة إسرائيل ملكًا لها.

في ٦/ ٦/ ١٩٦٧، قامت سلطات الاحتلال بسحب هذه المخطوطات، وخاصة الجزء الخاص بالمزامير، ولم تتم إعادة هذه المخطوطات إلى المتحف الفلسطيني، مما يكذب المزاعم الإسرائيلية السابقة، ويجعل إسرائيل تقع تحت طائلة القانون، بمخالفتها المادتين ١٧، ١٨ من ميثاق لاهاي، والمادة الأولى التي تنص على وجوب قيام كل دولة من الدول الموقعة عليها بمنع إخراج الممتلكات الثقافية من المناطق التي تم احتلالها، بعد نزاع مسلّح، فضلًا على أنهم لم يقوموا بإخطار المفوض العام لمنظمة «اليونسكو» عن عملية النقل، سواء قبله، أو بعده، وفقا للمادة ١٩، كما أن نقلها من مكانها، وتحميلها على السيارات، التي قد تكون عرضة للهجوم، مما ينطوي على انتهاكٍ صارخٍ، وتهديد لسلامة المخطوطات المذكورة، طبقًا للمادة ٤ من ميثاق لاهاي.

كما تمت سرقة مخطوطات الهيكل، التي ذاعت شهرتها ـ من منزل كاندو ـ في بيت لحم، قبل إعلان الهدنة، فضلًا على مخطوطات أخرى، تم اكتشافها في الضفة الغربية المحتلة، وجرى نقلها، وبيعها. ووفقًا لأحكام المادة ١٨ من ميثاق لاهاي، كان يجب أن تعاد إلى المنطقة المحتلة جميع محتويات المتحف الفلسطيني التي جرى نقلها أثناء الحرب، خلال ستة أشهر من المطالبة بها، بعد انتهاء النزاع المسلح.

ويذكر أن الحكومة الأردنية قد قدمت شكوى ضد هذه الاعتداءات إلى «منظمة اليونسكو» الدولية، التي قامت بتحقيق شامل، وبحث الموضوع في عدد من جلسات المجلس التنفيذي المنبثق عن المنظمة، والذي اتخذ عددًا من القرارات، كان آخرها القرار الشامل الذي صدر في ١٠/ ١٠/ ١٩٦٩، وأعرب فيه عن القلق الكبير للمخالفات المتكررة التي ارتكبت من قبل إسرائيل، ومطالبتها بالمحافظة على التراث الخالد للقدس، حفاظًا على ذاكرة الأمة[٣٠].

ترصد وثيقة عربية حديثة لوزارة الثقافة الفلسطينية الأوضاع الثقافية، والعلمية في الأراضي الفلسطينية، تلك الأخطار التي تتربص بالتراث الثقافي الفلسطيني في القدس، والمدن الفلسطينية الأخرى، من خلال سرقة التراث الفلسطيني المادي، والشفهي، ونفي الرواية الفلسطينية للمكان، والزمان، عبر المناهج التعليمية الإسرائيلية، ووسائل الإعلام المسيطرة، ويضاف إلى ذلك مساعي إسرائيل لفرض سياسة التجهيل على الشعب الفلسطيني من خلال منع، وعرقلة وصول الكتب، والمراجع، والموسوعات الحديثة إليه، بما فيها الكتب الجامعية، وإغلاق القدس، ومنع الدخول إليها، وعزلها عن الضفة الغربية، وقطاع غزة، بواسطة جدار الفصل العنصري، وسياسة الضم، والتوسع الاستيطاني، ومئات الحواجز العسكرية التي تقطع أوصال الأرض المحتلة، وتعزل القدس عن الضفة الغربية، ناهيك عن عزل الضفة كلها عن قطاع غزة!

كما رصدت الوثيقة الفلسطينية دور الأدب الفلسطيني في الحفاظ على الهوية العربية، وبث روح المقاومة، في مواجهة الحاضر، بكل تحدياته؛ ولذا رأت وزارة الثقافة في التراث الثقافي الفلسطيني حيوية المستقبل، وتجليات إشراقه، بحتمية إنهاء الاحتلال، والتخلص من الاستيطان، واستكمال معركة الاستقلال، وصولًا إلى بناء دولة فلسطين المستقلة، وعاصمتها القدس الشريف[٣١].

يذكر أن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد حركة واسعة في حماية الثقافة الفلسطينية، والتراث الفلسطيني، مع تزايد الوعي بأن من يسرق الأرض لا يمكن أن ينجح في ذلك إلا إذا سرق الذاكرة الوطنية الفلسطينية؛ ولذا فقد ظهرت حركة علمية جديدة ، كان رائدها الأول الدكتور توفيق كنعان، الذي تخرج في الجامعة الأمريكية، في بيروت، عام ١٩٠٥، واشتهر بوصفه أقدم طبيب عربي في مدينة القدس، كما تشير الموسوعة الفلسطينية، وقد أعانته إجادته ست لغات أجنبية على كتابة بحوث على درجة بالغة الأهمية في المجالات الثقافية، والفولكلورية، كتب معظمها باللغة الإنجليزية، والألمانية، وترجمت إلى العربية. وقد جاء بعده عدد من الباحثين، الذين عملوا على دراسة التراث الشعبي الفلسطيني، وأصدروا عشرات الكتب المهمة كان منهم (تودد عبد الهادي، عمر الساريسي، نمر سرحان، إبراهيم مهوي، شريف كناعنة، علي الخليلي، وليد ربيع)، كما لعبت السير الذاتية الفلسطينية، والشعر الذي كتب في فترة الثلاثينيات، والأربعينيات من القرن الماضي دورًا كبيرًا في حماية الموروث الثقافي الفلسطيني، وكذا الكتب التي خصصت لدراسة الجوانب الاجتماعية، والتاريخية، والتراثية لمدن، أو قرى بعينها، والأعمال الكبيرة التي أصدرتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والدائرة الثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية، التي أصدرت سلسلة مدن فلسطينية، حفاظًا على الذاكرة الجماعية الفلسطينية[٣٢].

سبل حماية التراث الثقافي الفلسطيني

أولًا: إحياء دور المدارس، والجامعات الفلسطينية، ودعمها ماديًا، للقيام بدورها العلمي، والثقافي، الذي تراجع تحت وطأة الطوق الأمني المفروض عليها، وقلة مواردها المالية.

ثانيًا: إنشاء مركز لتوثيق التراث الثقافي للقدس، وصيانته، وترميمه، وتوفير الحماية القانونية لحمايته من محاولات التهويد، والتشويه المتعمدة.

ثالثًا: جمع، ودراسة، وتحليل الوثائق التاريخية في القدس، وبيان أهميتها، للوقوف أمام الهجمة الشرسة لتزييف تاريخ المدينة المقدسة، ومحو الذاكرة التاريخية، والحضارية، وتفعيل دور الإعلام، ومخاطبة المؤسسات العربية، والإسلامية، والدولية، لحماية التراث الفلسطيني المادي، والشفهي.

رابعًا: استمرارمقاطعة زيارة الأماكن المقدسة، باعتبارها تمثل وسيلة ضغط على الكيان الصهيوني، ومنع جميع أشكال «التطبيع»، حتى تتم التسوية العادلة للقضية الفلسطينية.

خامسًا: التذكير بقضية القدس، وحقوق العرب التاريخية فيها، والتي بدأت تتراجع، خلال السنوات الأخيرة، بعد الغزو الأمريكي لكل من أفغانستان، والعراق، وتهديد كلٍّ من سوريا، وإيران.

سادسًا: إظهار خطر الهجمة الإسرائيلية الشرسة على مؤسسات القدس الثقافية، وخاصة بعد اختيار القدس عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٩ ، وسعي الكيان الصهيوني إلى إدراج القدس على قائمة التراث الثقافي العالمي كمدينة يهودية في منظمة اليونسكو، حتى يكتسب وضعًا ثقافيًا، حيثيًا، دوليًا، مما يدعم قولهم بأن القدس عاصمة أبدية للدولة اليهودية، في تحدٍّ سافر للقانون الدولي، والشرعية الدولية، المتمثلة في قرارات الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، التي تقر بأن القدس أرض محتلة، علمًا بأن القدس مسجلة على قائمة التراث العالمي من قبل الأردن منذ عام ١٩٨٢، الأمر الذي يتطلب دعم وتضافر جهود الدول العربية، والإسلامية للحفاظ على الهوية العربية، والإسلامية للمدينة المقدسة، وتوفير الدعم المادي اللازم لإصدار كتب حول تاريخها، وحضارتها، وأسوارها، باللغات المختلفة، وتوزيعها على أوسع نطاق، والتعريف بالحقوق العربية، والثقافية فيها[٣٣].

سابعًا: التذكير بمكانة القدس في وجدان الأمة، وعقيدتها، باعتبارها أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى رسول الله ﷺ، ومعراجه إلى السماوات العلى، ومهد السيد المسيح عليه السلام، وهي أرض الجهاد على ترابها كسرت شوكة الدولة الرومانية في أجنادين، واليرموك، كما تسببت في حروب الصليبيين التي امتدت قرابة قرنين من الزمان، واندحارهم في حطين، كما سبق لجيوش التتار أن هزمت في عين جالوت.

ومن المعلوم أن أحلام اليهود تتجاوز أرض فلسطين، وتمتد «من النيل إلى الفرات»، بما فيها جزيرة العرب[٣٤]، ومن ثم فإن تهديد القدس هو تهديد للمسجد الحرام.

إن فلسطين قضية عربية، وإسلامية؛ ولذا فإن تحريرها واجب على كل عربي ـ مسلم، أو مسيحي ـ ولا يجوز التفريط، أو التنازل عن شبر من أرض فلسطين.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٩٤، ١٩٥

(٢) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥.

(٣) **المصدر نفسه**.

(٤) أحمد عباس، **القدس الدامية**، دار نشر خاصة، د. ت، ص١٩٦، ١٩٧، ١٩٨.

(٥) **المصدر نفسه**.

(٦) لجنة القدس، **القدس - أمانة في عنق كل عربي ومسلم** - (حقائق،ومعلومات)، الندوة السابعة، عمان، ١٩٩٦، ص ٧٩.

(٧) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٩، ٨١، ١٩٨، ٢٠٠

(٨) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص٩١.

(٩) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨، ٢٠٠.

(١٠) د. غازي حسين، **عروبة القدس**، طبعة خاصة، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٢٤.

(١١) محمد خالد كُلاب، الحملة الصهيونية على مكتبات القدس منذ عام ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا، **الأقصى أون لاين**، ٢٠٠٧، www.alaqsa-online.com.

(١٢) كلاب، **مصدر سبق ذكره**.

(١٣) د. أسامة الأشقر، جوانب الأزمة الثقافية في فلسطين، دمشق، **صوت فتح**، ٢٠٠٨، www.fateh-voice.com.

(١٤) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦١، ٨١.

(١٥) حسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣.

(١٦) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٠.

(١٧) سمير جرجس، **القدس ـ المخططات الصهيونية ـ الاحتلال ـ التهويد**، سلسلة الدراسات رقم ٦١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨١، ص ١٦٨، ١٧٠

(١٨) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٠.

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) جرجس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠، ١٧٣.

(٢١) حسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

(٢٢) جرجس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

(٢٣) إسحاق البديري، **القدس بين التاريخ والسياسة والثقافة**، ورقة بحث قدمت في المؤتمر الحادي عشر للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٠.

(٢٤) محاسن أصرف، مكتبات ومخطوطات القدس عبق يتهدده التهويد، **القدس أون لاين**، د.ت، www.alqudsonline.com .

(٢٥) أصرف، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٦) **المصدر نفسه**.

(٢٧) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٩، ٨٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**.

(٢٩) إبراهيم نصر الله، فلسطين ذاكرة لا تموت ولا يصيبها النسيان، **المعرفة**، ٢٠٠٨ www.aljazeera.net.

(٣٠) **إخوان أون لاين**، مخطط صهيوني لمنع الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية، ٢٠٠٨، wwwikhwanonline.com.

(٣١) إخوان أون لاين، **مصدر سبق ذكره**.

(٣٢) **المصدر نفسه**.

(٣٣) د. علاء الدين محرم، **أمة المقاومة**، القاهرة، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ٢٠٠٦، ص ١٤، ١٧.

(٣٤) **المصدر نفسه**

الفصل الثاني

قدس الرواية الفلسطينية
الحنين إلى حلم المدينة المستعادة

ياسمين مجدي

شغلت أطلانطس ـ تلك المدينة الساحرة المفقودة تحت الماء ـ أذهان الجميع؛ لأن للمدن حضارات وحياوات تطاردنا إلى أبد الوجود، كما أن للأماكن المفقودة طعمًا خاصًا. القدس هي مدينة أخرى مفقودة، صحيح أنها موجودة، جغرافيًا، فوق الأرض، إلا أن العربي الفلسطيني لا يصل إليها؛ لأن هويته المكانية مقموعة.

أحد سبل الوصول المستحيل للمدينة هو الإبداع، لتصبح الروايات المكان الذي يستعيد فيه الفلسطينيون أوطانهم، بعيدًا عن كل معاناتهم معه؛ لأنه، كما تقول الفيلسوفة وعالمة الجمال الأمريكية؛ سوزان لانجران: «الرموز تستدعي تصوراتنا الخاصة عن الأشياء... ويساعد الرمز على تحرير التفكير من المنغصات المباشرة الخاصة بالعالم الطبيعي المباشر»[1]. كما أن الفن، فيما ذكر فرويد، وسيلة لتحقيق الرغبات في الخيال، تلك الرغبات التي أحبطها الواقع. والتي منها حاجات الحب والانتماء، التي أكد عليها إبراهام ماسلو، عالم النفس والاجتماع[2]. ليصر الأدباء على إبراز الهوية في رواياتهم، بعد أن ضاعت أو كادت تضيع الهوية المكانية[3].

مثلت القدس أهمية خاصة في كتابات الأدباء الفلسطينيين؛ نظرًا لأنها العاصمة التي حملت أحلامهم، هم قاطنو المدن الفلسطينية المختلفة. كما أن للقدس مكانة أدبية خاصة، حيث شهدت صدور أول رواية فلسطينية، وهي «الوريث»، للكاتب خليل بيدس (١٩٢٠). ليعيش الأدباء بذلك في روايتهم قدسًا خاصة، قدس الرومانسية، والحب، والذكريات الجميلة، خاصة بعد عام ١٩٦٧، إذ «إن المشهد الروائي الفلسطيني، حتى سنة ١٩٤٧، لم يكن سوى محاولات سردية مبعثرة»[4]. أما بعد النكبة، فقد ضاعت المكتبة الفلسطينية بشقيها؛ العام والخاص، إلى أن كانت هزيمة ١٩٦٧، فأدت إلى تصاعد مذهل في معدّل الروايات، الذي وصل، بعد النكسة، إلى ثمانية أمثال العدد،

في الفترة السابقة لها[٥]. لتتنوع القدس داخل الروايات، ما بين ظهورها كمحور للأحداث، أو هامش جوهري.

القدس محور الأحداث

استمدت أعداد من الروايات عالمها من عالم القدس، ومن أوائل تلك الروايات «الكابوس» لأمين شنَّار (١٩٦٨)، «التي رمز فيها إلى فلسطين كقرية، وإلى القدس بالبيت الكبير، الذي يحاول الغرباء الاستيلاء عليه بمزاعم أن لهم الحق بالقرية والبيت الكبير!»[٦].

لتصبح القدس فضاء، تدور فيه أحداث روايات كثيرة، وإن اختلفت طريقة طرحها من كاتب لآخر، وفقًا لظروف نشأته. ليتناول الكُتاب المقدسيون ـ الذين يعيشون في القدس ـ المدينة بطريقة تختلف عن المقدسيين المنفيين، وحتى عن المنفيين من أبناء المدن الفلسطينية الأخرى.

١ - الكُتاب المقدسيون المقيمون في القدس

دارت بعض أعمال هؤلاء الكتاب حول الأحداث الراهنة في القدس، لكن يلحظ أن عددًا آخر منهم، ورغم بقائهم داخل القدس، افتقدوا حقيقة المدينة، وتاريخها العربيين، مما دفعهم لاستلهام التاريخ في أعمالهم كأنهم يعودون إليه ليستخدموا وقائعه في سبيل إثبات عروبة مدينتهم. بدا ذلك في رواية «**برج اللقلق**»، **للأديبة المقدسية ديمة السمان** (٢٠٠٥)، التي تدور أحداثها في القدس القديمة، في برج اللقلق، المنطقة المرتفعة التي تُشرف على المسجد الأقصى، ويمتد زمن الرواية من أواخر العهد العثماني حتى نهاية القرن العشرين، من خلال عائلة «آل عبد الجبار»، التي تقطن باب اللقلق. ويتأكد حرص الكاتبة المقدسية على استغلال التاريخ لتأكيد عروبة القدس، من خلال سردها لطبيعة حياة المقدسيين، وعاداتهم، وتقاليدهم، وإصرارهم على مكافحة المحتل من أتراك، وبريطانيين، وصهاينة. وكان لأسرة «آل عبد الجبار» دور رئيسيٌّ في المقاومة، فتنتهي الرواية بعملية تفجيرية، يقوم بها أحد أبناء العائلة.

في المنطقة التاريخية نفسها جادت رواية «صبري»، للكاتب **المقدسي عزام أبو السعود** (٢٠٠٨)، بعالم مشابه عن القدس، في فترة الانتداب البريطاني والهجرات الصهيونية، ما بين ١٩١٤ و١٩٢٩. وطرحت الرواية عادات وتقاليد ومستجدات القدس آنذاك، مثل انتشار الفقر في أواخر العهد العثماني، وتوزيع تكايا القدس لحساء الفريك مجانًا على المحتاجين، ومن بينهم أبناء العائلات المعروفة.

ليثبت بذلك اهتمام عدد من الكُتاب المقدسيين بالقدس، كمدينة تاريخ عريق، فعبروا عنه في كتاباتهم.

٢ - المقدسيون المنفيون

أما المقدسيون المنفيون خارج فلسطين فكتب بعضهم روايات تدور داخل فلسطين، كأنهم بهذه الطريقة يستعيدونها، في عالم روائي افتراضي، من خلال ما يكتبونه من حكايات تدور في أزقتها، وحواريها، ومساجدها، وكنائسها، مثل **خليل السواحري أو «قمر القدس الحزين»**[*]، المنفي من القدس عام ١٩٦٩، والعائد إليها، رغمًا عن

(*) كما أسماه الناقد العراقي، د.ضياء خضير في كتاب بالاسم نفسه؛ «قمر القدس الحزين، دراسات نقدية في الأعمال القصصية لخليل السواحري»، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،٢٠٠٣.

الاحتلال، بقصص تدور في فلك مدينة القدس، لعل قصصه عن القدس تجعله كالحمام، الذي **«له التصاقٌ عجيبٌ بالمكان، فهو حين يغادره إلى السماء، لا يلبث أن يعود إليه... حتى وهو يعلم أن مصيره أو مصير فراخه الذبح»**[٧].

فظهرت مجموعة **«مقهى الباشورة»** (١٩٧٥)، لتصور الريف المحيط بالقدس، بعد عام ١٩٦٧، من خلال أوضاع القرويين تحت الاحتلال. وتلتها مجموعة **«تحولات سلمان التايه»** (١٩٩٦)، **متناولة القدس من المناطق المحيطة بها من الشمال، حيث يحتشد الفلسطينيون، بعد أن حرمتهم إسرائيل من إقامة أي مبانٍ في القدس الجديدة خارج الأسوار، كما صادرت بيوتهم في الداخل.**

تدور أعمال الروائي المنفي نبيل خوري، أيضًا، في فلك حارته؛ حارة النصارى، في القدس القديمة، التي كانت بطل الأحداث في **«الثلاثية»**. تحدث الجزء الأول **«حارة النصارى»** (١٩٦٩) عن شاب مقاوم سقط شهيدًا في عدوان حزيران ١٩٦٧، لتعيش زوجته معاناة نفسية بعد موته، وهي ترى الخونة يرثون القدس: «الجبناء ينامون الآن بجانب زوجاتهم وأطفالهم....إنني أراهم كل يوم يمشون في الشارع بلا خوف... القدس لا تستأهل. ولا حتى حارة النصارى»[٨]!، لكن سرعان ما تفيق البطلة، تستعيد نفسها، ومدينتها، حينما تشتعل الثورة، فتقول: «أمس نزعت السواد المحيط بصورتك... أنت لم تمت، كل فدائي هو أنت»[٩]. فربما يكون هذا هو حلم الروائي نفسه، ليستعيد صورة حارته، وينزع عنها الشريط الأسود. فالقدس حاضرة لديه، حتى وهو يكتب في الجزء الثالث من الثلاثية؛ **«القناع»**، عن بطل من القدس، يعيش في باريس، ورغم أنه لا يشعر بحنينٍ قويٍّ، فإنه لا يمكنه الهروب من مدينته.

لتظل حارة النصارى، الحارة الخصبة، التي دفعت رشاد أبو شاور، ليختارها مقرًّا لعلاقة حب في قصة **«عودة الغريب»**، حيث العاشقان يرتبطان ببعضهما وبالحارة، التي يفارقانها ويفترقان، لكنهما يعودان إليها، مرة أخرى، من أجل العمل الفدائي، لكنهما لا يلتقيان، فيقول: «آه يا قمري... ها هي أقدامنا تعانق أرضنا بعد غياب طال.. ها هو الغريب يعود حاملًا النار، والحقد، والتحدي، أتستطيعين رؤيتي؟!»[١٠].

يصبح بذلك نبيل خوري، وخليل السواحري نموذجين للكتابة عن مناطق بعينها في القدس، وذلك على سبيل الحنين لمناطق النشأة والطفولة، ليختلف ذلك مع محمود شقير، الذي دفعته سنوات المنفى الطويلة إلى الكتابة عن أماكن القدس كلها، التي عاد إليها، أخيرًا، ليعيش بذلك عمرين؛ واحدًا في العالم الحقيقي في شوارع القدس العائد إليها؛ والآخر على الورق، يستعيد من خلاله سنواته الضائعة التي لم يعشها في القدس، فامتلأت أعماله بحياة تلك المدينة وناسها، كما ظهر جليًّا في مجموعته القصصية **«خبز للآخرين وقصص أخرى»** (١٩٩٠)، فيحلم بطل قصة **«البلدة القديمة»** بأن يصلي ركعتين في القدس، لكن جند الاحتلال يمنعونه، فيقرر أن يجمع أهل بلدته، «ولسوف يضحكون، حينما يبصرونني ألبس ثوب مرتي.. ولكنني، سأبصق في وجوههم، وأقول لهم قصوا لحاكم وشواربكم»[١١]! ذلك الانكسار الذي يشعر به شقير تجاه مدينته، بدا بقوة في **«ظل آخر للمدينة»** (١٩٩٨)(*)، التي تحدث فيها عن ذكرياته مع أماكن القدس قبل أن ينفى عنها، وعن محاولاته لاسترجاعها عند عودته، لكنه يكتشف أن اليهود أبادوا جغرافية ذكرياته المكانية، لكنه ظل محتفظًا بها في قلبه، «تلك المدينة التي نادتني ذات فجر بعيد،

(*) زعم البعض أن «ظل آخر للمدينة» رواية، إلا أن شقير نفسه لم يكتب على الغلاف كلمة رواية، مما يعني أنها ليست رواية، بل سيرة ذاتية، كتبت بتقنية الرواية.

فبقيت مشدودًا إليها، كأنها أمي التي ولدتني»[١٢]. ويظل شقير في حالة استعادة دائمة لأيام وشخوص قدس صباه، فيخرج مؤخرًا بكتاب «**مرايا الغياب: يوميات الحزن والسياسة**» (٢٠٠٧)، حول شخصيات عرفها في القدس.

عائدة أخرى، هي المقدسية المولد؛ ليانة بدر، التي عادت بعد «اتفاق أوسلو»، لتقطن رام الله، والتي، لتنقلها في صباها بين أكثر من مدينة فلسطينية، بدا صوت القدس خافتًا في كتاباتها، إلا أن بعض كتاباتها دارت في المدينة، مثل قصتين من مجموعتها: «**سماء واحدة**» (٢٠٠٧)، هما قصة «**طريق رقم واحد**» التي دارت في القدس الشرقية، قبل احتلالها عام ١٩٦٧، حول حياة الأطفال الصعبة، آنذاك، وهم يبيعون الحلوى للسيارات، ليحصلوا على نقود يتعيشون بها. وقصة «**منتزه ديناصورات**»، **حيث العم مهدد منزله بالهدم في القدس؛ لأنه لم يتبع القواعد الإسرائيلية في البناء**. ليظل المكان الأصلي بالنسبة لليانة في مخيلتها: «مثل ضوء منارة تبثّ إشارتها للسفن البعيدة، هكذا أحسّ كلما تذكرت القدس مسقط رأسي، والخليل بلد أهلي، وأريحا، حيث عشت طفولتي وصباي»[١٣].

بهذا كتب المقدسيون المنفيون عن مدنهم، فدارت أجواء رواياتهم في المدينة الأم القدس، أو في مناطق بعينها داخل القدس.

٣- المنفيون من أبناء المدن الفلسطينية الأخرى

نوع آخر من المنفيين، تدور رواياتهم في القدس، رغم أنهم ينتمون إلى مدن أخرى. فلعل ذلك من قبيل الحنين إلى العاصمة، باعتبارها بوتقة حلمهم. وهم يرون **القدس في مكانة خاصة، كالجنة، أو كالقنطرة، التي تنتظر فيها الأرواح، وذلك بدا في قصة «بئر الأرواح»**، للكاتب الحيقاوي عدنان كنفاني، المقيم في سوريا، والتي تروي قصة بئر عميق، يقع تحت صخرة عظيمة في ساحة الحرم في مدينة القدس، يُحبس فيه أرواح الناس، حتى يوم النشور، وسارة التقية، زوجة إبراهيم، حارسة على بئر الأرواح، حتى يوم الحشر، تسألهم عن أمنياتهم الأخيرة.

سبب آخر يجعل الأدباء غير المقدسيين المنفيين يكتبون روايات تدور في القدس، مثل سحر خليفة، التي ذكرت في رواية «**الميراث**» (١٩٩٧): البيك ابن القدس، الذي جاب العالم، بحثًا عن المجد والتجارب، وجد، في نهاية الأمر، أن القدس هي الأروع. لم يكن غريبًا ارتباط خليفة بالقدس، هي المولودة في نابلس؛ لأنها ترثي نابلس من خلال رثائها للقدس، كما قالت: «كتاباتي كلّها عن نابلس، مسقط رأسي...حتى حينما كتبت عن مدينة القدس في روايتي «**صورة وأيقونة وعهد قديم**»... فإن أوصاف البلدة القديمة في القدس تكاد تكون صورة مكبرة عمّا اعتدت عليه في بلدة نابلس القديمة»[١٤].

لتدور أحداث روايـة خليفة «صورة وأيقونة وعهد قديم»[*](٢٠٠٢)، في القدس، حول إبراهيم، الشاب المسلم الذي يقع في حب مريم الفتاة المسيحيّة، في إحدى قرى القدس، وفي رحلة لهما إلى مدينة القدس يقضيان ليلة معًا، فتحمل بصبي، بعدها يهرب إبراهيم. لتبدو مريم كأنها رمز للقدس، وابنها هو التاريخ الشاهد الوحيد على هرب أبيه إبراهيم، إثر احتلال الضفة الغربية عام ١٩٦٧، ليعود إبراهيم، بعد سنوات قضاها في الخارج، غنيًّا وتعيسًا، يبحث عن ابنه، أو «تاريخه، وتاريخ القدس»، فيرفضه ابنه، ومريم، التي اختارت الرهبنة في دير نوتردام في القدس،

(*) فازت رواية «صورة وأيقونة وعهد قديم» بجائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٦.

ترفض الاستماع إليه، فمريم هي المدينة الضحية، التي تعيش في الدير، لا تجد شيئًا يعوضها سوى الالتجاء إلى الرب، والدين، مَلْجَئِهَا الوحيد هي العاجزة، بعد تخلي إبراهيم عنها. لتصبح بذلك «الرواية مرثية لمدينة الراوي الحبيبة؛ مدينة القدس، التى هجرها أنبياؤها الجدد سعيًا وراء أموال الخليج»[١٥].

في هذا السياق الرمزي، يكون مشهد النهاية، حين يقع إبراهيم وسط معركة في ساحة المسجد الأقصى، بين جند الاحتلال الإسرائيلي والمصلين، ولم يُنقذه من الموت إلا امرأة كانت على علاقة بمريم، وقد يشير ذلك إلى أنه، رغم كل شيء، فإن القدس لا تتخلى عن أبنائها.

جاءت هذه التيمة لتشبيه المرأة بالقدس مكررة بعد رواية **«غزل الذاكرة»** (١٩٩٧) للكاتب يوسف العيلة، المولود في قلقيلية، حيث تخلى نبيل عن عايدة، أو «القدس»، التي قاومت إغراء تاش الأمريكي، وكوك الإنجليزي. ولدى غياب نبيل تقع عايدة فريسة لغواية اليهودي؛ ابن نفتالي ديفيد، الذي يغتصبها، بعد سلسلة محاولات، قاومته خلالها، فتحمل بطفل، تسميه «جاد»، وتلقي باللوم على نبيل، الذي تركها لذلك المصير. أما رمزية عايدة، فتبدو من خلال حديث الراوي عنها، حيث تتجلى بتسميتها وطنًا تارة، وقلادة عسمليّة، طورًا، مع تأكيد رمز القلادة إلى الدول العربية، تحديدًا فلسطين. يصور الكاتب عايدة، في نهاية الرواية، وقد راحت تزور ابنها جاد، وتلتقي مع تاش وكوك، وتعقد اتفاقات معهم، فيظن أنها تتآمر ضده، معهم، ويبقى مصيرها معلقًا، دون تحديد[١٦].

يظهر بشدة اختلاف رواية سحر خليفة عن رواية زكي العيلة، فكلاهما استخدم امرأة داخل قصة حب، كرمز للقدس، إلا أن سحر خليفة تعاطفت مع المرأة، أو القدس، بينما أدانها العيلة. ويرجع ذلك إلى أن سحر بطبيعتها متعاطفة مع المرأة في كل كتاباتها، وتعبر عن قهر الرجل لها؛ لذا رمزت للقدس بالمرأة الضحية. أما العيلة فقد رمز للقدس بامرأة تحوم شكوك حول خيانتها، وذلك لطبيعة الفترة التي كتب فيها روايته (تسعينيات القرن الماضي)، وهي الفترة التي شهدت التفاوض الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وجهًا لوجه، والذي أثبت فشله في تحقيق حلم فلسطين (الدولة المستقلة)، مما أدى لكتابة العيلة الناقدة الحادة، الحاملة لملمح التخوين.

دار عدد آخر من الروايات والقصص في القدس، وكان موضوعها الانتفاضة، الحافلة بالأمل، مثل قصص جمال جنيد، المولود في دمشق (١٩٤٩)، حول انتفاضة الأقصى. فقدمت قصة **«الزهرات الثلاث»** صورة جميلة للانتفاضة، عن طريق الشيخ الذي يلقي حجارته من مكانه في المئذنة العالية، المطلة على بوابة المهدي، في القدس الشرقية. وفي قصة **«ما زال بيننا»**، مات طفل شهيد، وهو يلقي بحجره في القدس، وبعد فترة يولد صبي آخر، فيسمونه باسمه.

***

يمكن القول إن عددًا من الروايات دارت أحداثها داخل مدينة القدس، فاهتم المقدسيون، الذين لا يزالون يقيمون في القدس، باستعادة التاريخ العربي للمدينة، عبر عدد من الروايات التاريخية، ليؤكدوا هوية مدينتهم. أما المقدسيون المنفيون، فكتبوا أعمالًا دارت داخل مدينة القدس، لعلها تنجح في منحهم شعورًا أنهم عادوا، ولو في الخيال، فكتب هؤلاء الروائيون عن القدس كلها، أو عن الأماكن التي نشأوا فيها في طفولتهم. نوع آخر، هم الأدباء المولودون في مدن فلسطينية أخرى، لكنهم كتبوا روايات دارت في القدس، باعتبارها المكان صاحب القيمة الخاصة

في وجدانهم، العاصمة الضائعة، التي حملت، يومًا ما، بريق صباهم، والتي حين ضاعت أحبطت آمالهم، فجاءت أعمالهم معبرة عن ذلك الإحباط الكبير.

على حدود القدس

نوافذ على القدس كثيرة، أطل منها أدباء فلسطينيون، كانوا يقطنون مدنًا مجاورة لها، فرسموا القدس في أعمالهم، من خلال تلك المدينة الجارة. جاءت بوابات القدس في مقدمة كتاباتهم، تلك التي تقف بينهم وبين القدس، أهمها بوابة مندلبوم(*)، التي ظهرت خلال ما كتبته سميرة عزام، المولودة في عكا، عن أشخاص ينتظرون يوم الزيارة على بوابة مندلبوم، ليستعيدوا شيئًا من عالمهم «اسألوا قبل أن تأتي الساعة. اسألوا كيف يبدو شكل المدينة، هل كبرت الدالية؟. هل امتدت يد آثمة إلى أغراس الزيتون؟...اسألوا، وتملّوا مما تسمعون، فذخيرة الذكريات التي تحملون هي الشيء الوحيد الذي لا تجور عليه العاديات» (١٧).

البوابة نفسها كتب عنها إميل حبيبي، عام ١٩٥٤، فعبر عنها في شخوص تتحرك بدرامية عنيفة، عبر انتقال والدة البطل الراوي من الناصرة إلى القدس، من خلال بوابة مندلبوم، تلك المنطقة الحرام الفاصلة بين الإسرائيليين والأردنيين، بين شرطيين، أحدهما إسرائيلي والآخر أردني، والطفلة الصغيرة لا تعرف الفرق بين جندي يضع عقالاً، وآخر حاسر الرأس(١٨).

إذا ابتعدنا قليلًا فسنرى القدس من خلال القرى المجاورة، التي كان منها المالحة، قرية رواية «**الطريق إلى بيت لحم**» للروائي رسمي أبو علي. إنها «واحدة من هذه القرى التي تحيط بالقدس، إحاطة السوار بالمعصم، والتي يقال إن صلاح الدين أنشأها، لتكون سوارًا أمنيًّا للقدس»(١٩). وتأتي النكبة، لينفصل السوار عن المعصم، حين يسقط أول شهيد من بينهم، بسبب رصاصة تأتيه من قطار قادم من القدس، فتبدو كأنها بشارة، أرسلتها القدس، لتخبر القرويين بأن اليهود سيعبرونها وسيسقطونهم شهداء، أو منفيين. ليهربوا من القرية، وبعيدًا عن مكانهم قرب مدينة القدس يتألمون، حيث الراوي الطفل تعرض لتحرشات جنسية يبكيها قائلًا: «لو كان هذا الحادث وقع في المالحة، لكانت سالت دماء كثيرة»(٢٠). لكن طالما السوار انفصل عن المعصم، «فثمة طريق وحيد يربط بيت لحم بالقدس، ولكنه الآن مقطوع»(٢١).كخيط أملهم المتدلي، في إحباط.

«**بير الشوم**» رواية أخرى لفيصل الحوراني، ترصد أحداث النكبة في قرية «بيت دراس»، القريبة من القدس، والتي انتظرت النجدة من القدس، لكنها لم تصلها، فيذهب «مبعوث القرية إلى القيادة العليا في القدس، ليحصل على موافقتها في القيام بإحدى عمليات المقاومة... فحصل، في النتيجة، على توقيع شخص يعمل حارسًا، أو بوابًا في مبنى القيادة العليا الغائبة، التي أراد الكاتب أن يقول إنها غير موجودة، أصلًا(٢٢). فقيادة القدس تحوي «ضابطًا مرهقًا من كثرة العمل، ومن الفوضى...ينهض، وفي نيته أن يزور زميلًا في حجرة أخرى، ويشكو له ضيقه بالعمل المتراكم طيلة اليوم»!(٢٣)، لتعكس الرواية إحساس الألم المرتبط بالقدس في وجدان الحوراني؛ لأنها المدينة الحلم الذي تعلق به، فشعر بأنها تخلت عن قريته.

(*) بوابة مندلبوم: هي البوابة التي كان يسمح للعرب القادمين من الأجزاء المحتلة من فلسطين عام ١٩٤٨ بالخروج عبرها إلى مدينة القدس، يوم عيد الميلاد، فيلتقون بالأهل، والأقارب على البوابة خلال وقت قصير.

قرية أخرى مجاورة للقدس، في رواية «**زمن الخيول البيضاء**» (٢٠٠٨)، للروائي إبراهيم نصر الله، المولود في عمان، عام ١٩٥٤، لوالدين فلسطينيين من قرية الولجة، قرب القدس، فكأنه يستحضر في تلك الرواية ملامح قريته، حيث تدور الأحداث من الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى عام النكبة (١٩٤٨)، في قرية متخيلة، تسمى «الهادية»، بالقرب من القدس، حيث خالد يحب ابنة تاجر في القدس، ويتزوجها، لكن الموت يخطفها منه، فيحيل مشاعره إلى فرسة بيضاء، جاءته شاردة، ويشب ابنه شابًّا يافعًا، يعمل في القدس، ويحب بنت قريته، إنها العلاقة التبادلية ما بين القدس وقراها المجاورة، التي أبرزها نصر الله في روايته.

عكست تلك الأعمال مدى تعلق القرى المجاورة بالقدس، وانتظارهم لتحدد القدس مصيرهم، بدا الأمر أكثر تطورًا في رواية «**دائرة الموت**»(*)، للكاتب رجب عطا أبو سرية (١٩٩٢)، لتصبح القدس مصبًّا لساكني المدن الأخرى، يلتقون فيها، للحظات تحدد فيها مصيرهم، الذي قد يكون مشتركًا. أبرزت رواية أبو سرية تلك اللحظة لدى صبي يخرج من مدينته؛ بئر السبع، ليزور القدس، وهناك يتركه أبوه، ليذهب في عملية فدائية، ليتحول حلم الصبي بالقدس إلى كابوس، خوفًا من أن يفقد أباه، ويصبح يتيمًا. اللحظة المهمة في القدس، هي لقاؤه بصديقه ابن عمه؛ فارس، ولعبهم لعبة الحرب، يفترقان بعدها، ويرتب القدر لهما رحلة مصير واحدة، فيقول الراوي: «في اليوم التالي لليوم الذي اعتقلت فيه أنا، شرقي النهر، خرج هو [فارس] من المعتقل إلى القبر، وخرجت أنا إلى المنفى»[٢٤]!

تلعب مدينة القدس بذلك دور مركز الأقدار، حيث أحداث بسيطة داخل القدس، تغير مصائر مدن أُخرى، برز ذلك في رواية «**على جانبي الطريق**»، لكمال كاشور (١٩٦٩)، حيث ساري اليهودية التي تغوي الجميع لتحقق أطماعها، تهرب مع البطل إلى القدس الجديدة، وتغير هويته باسم يهودي، إذ بذهابها إلى القدس تتمكن من السيطرة على البطل العربي، وتحول اسمه إلى آخر يهودي، وهي إشارة لسيطرتها على المدن كلها.

بوجود القدس الجغرافي قرب عدد من المدن الفلسطينية جعل حضورها الوجداني وثيق الصلة بعدد من المدن، فحتى لو كانت الروايات تعرض لمدن أخرى، فلا نعدم ملامح من القدس تتسرب إلى العمل، مثل رشاد أبو شاور، الذي يمس القدس، رغم كتابته عن أريحا، فيقول بطل روايته «**العشاق**»: «أنا لا أشعر بالغربة في القدس، ولكنني أشعر بالقهر. القدس عاصمة وطني»[٢٥].

مبرر ارتباط فلسطينيي المدن الأخرى بالقدس هو أنها مركز التعليم، الذي حلم أبو علي في قصة «**ذكرى الأيام الماضية**» ببيع أرضه، وتعليم ابنه بثمنها في القدس، فدافع عن أرضه، حتى استشهد. مبرر آخر، ذكره أبو شاور، هو أن الطريق بين تلك المدن هو خط الحياة، كما بدا في قصة «**ممنوع التدخين**»، حيث نكتشف أن السائق على خط أريحا/ القدس، الذي تدور حوله شائعات كثيرة، ليس إلا فدائيًّا، نكتشف ذلك حين يُقتل مجنَّد يهودي على الطريق، وبهذا فالطريق الذي شقه إلى القدس هو طريق حياة، ورزق، وبطولة[٢٦].

تتعدد المدن الأخرى التي نرى من خلالها القدس، وقد لا تكون المدن مكانًا، بل عقلًا وفكرًا آخر، كما بدا في قصة حسن حميد «**في المطعم البلوري**»، التي نرى فيها القدس، من زاوية العقلية الأوروبية، حيث يسأل الصحفي الفرنسي دليله عما تفعله الطائرات الحوَّامة في القدس؟!. فيجيبه: «إنها ترش مادة الكبريت فوق حقول الخضروات يا سيدي»، دون أن يخبره أن الطائرة كانت ترش الغازات الخانقة، والمسيلة للدموع فوق المخيمات الفلسطينية!!

(*) حصلت رواية «دائرة الموت» على الجائزة الأولى في مسابقة سعاد الصباح لعام ١٩٩٢.

يمكن القول بأن عددًا من الأدباء الفلسطينيين وعوا العلاقة الحميمة ما بين القدس والمدن المجاورة لها، فعبَّروا عن ذلك في رواياتهم، إلا أن عددًا من تلك الأعمال عكس حنقه على القدس، تلك العاصمة التي انتظرت المدن والقرى المجاورة أن يتم حمايتهم من قِبَلها، لكن لم يجدوا استجابة لاستغاثاتهم سوى بالنكبة، والمنفى، وسقوط المدن، بشكل متتابع، إثر سقوط القدس.

القدس الحنين

أدباء آخرون لم يستطيعوا تجاوز ألمهم، فكتبوا عن افتقادهم القدس، وتنوعت كتاباتهم، فمنهم من كان في الخارج، لظروف عمله، وبالتالي لم تكن القدس محجوبة عنه قسرًا، مما جعل كتاباتهم أشبه بالرثاء، مثل إبراهيم الصوص(*)، في روايته المكتوبة بالفرنسية «**بعيدًا عن القدس**»(**)، والتي عرضت تجربة طرد أسرة من بيتها في القدس، عام ١٩٣٥[٢٧]. كما تحوي تلك الأعمال طعم الغربة، كرواية عيسى بُلاطة «**عائد إلى القدس**» (١٩٩٨)، وهو الكاتب المقدسي المهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، الذي دارت روايته حول حبيبين في المنفى، وحين توشك المرأة على العودة إلى القدس تموت، ليقول لها البطل: «لك أقدم لوحة هذا الخريف الأخير، الذي أقضيه في هذه البلاد، وفي المستقبل القريب، بعده أنا عائد إلى الوطن، أنا عائد إلى القدس، ولذكراك يا وداد بقية حياتي».

صورة مختلفة تظهر في أعمال الأدباء العاجزين عن العودة، كأعمال ليلى الأطرش، المولودة في قرية بيت ساحور، قرب القدس، حيث صوت حنين الأطرش عالٍ جدًّا في رواياتها، وهي التي تقطن الأردن. إذ إن أغلب أعمالها تدور حول فلسطينيين ناجحين في الخارج، لكنهم يحنون إلى بلدتهم؛ القدس، كما بدا في أولى رواياتها «**وتشرق غربًا**» (عام ١٩٨٨)، التي قالت عنها: «أنا لم أعرف كم كانت القدس لي .. بي ومعي .. حتى كتبت روايتي الأولى (وتشرق غربًا)، عام ١٩٨٦... فتندحر (بيت أمان) ـ المكان المتخيل والموازي لمدينة مغروسة في أعماقي ـ وتحتل القدس روايتي .. باسمها، وبكل تفاصيلها الإنسانية، والعمرانية، والاجتماعية»[٢٨].

استمر الحنين في روايتها «**مرافئ الوهم**» (٢٠٠٥)، عبر قصة الحب التي بدأت في القدس، ولم تستطع أن تكتمل في المنفى؛ لأنه هكذا بعيدًا عن مدينتك الحقيقية كل المدن مرافئ وهم.

جبرا إبراهيم جبرا، بوتقة حنين كبرى، افتقد وطنه؛ القدس، عبر كل ما كتبه، متأثرًا بسيرته الذاتية، لـ «يكتب عن شخصيات اختزنها من تجربته، التي عاشها، خاصة في الطفولة في أرض اضطر أن يرحل عنها...خاصة عندما تعرض إلى منع قسري من الامتداد في المكان»[٢٩]. فبدأ برواية «**صيادون في شارع ضيق**» (١٩٦٠)، **بطلها؛ جميل فران، سافر عام ١٩٤٩ إلى بغداد، ليعمل في التدريس، سافر بجرحين؛ جرح سقوط القدس؛ وجرح قصة حبه. ليتألم قائلًا**: "ما عدت أستطيع أن أذكر ملامح أية مدينة في العالم، سوى مدينة واحدة. مدينة واحدة أذكرها، أذكرها طيلة الوقت. تركت جزءًا من حياتي مدفونًا تحت أنقاضها، تحت أشجارها المجرحة، وسقوفها المهدمة».

(*) إبراهيم الصوص، دبلوماسي فلسطيني، عمل مديرًا لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس.

(**) لم نتمكن من الاستدلال على تاريخها؛ لأنها صادرة بالفرنسية، لكن أغلب الظن أنها صادرة في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، إذ ذكرها السيد نجم، في مقالة له كنموذج على رواج النثر، في فترة ما بعد الانتفاضة. انظر:

السيد نجم، **المقاومة والقص في الأدب الفلسطيني؛ «الانتفاضة نموذجا»**، http: / /www.thaqafa.org /Main /DataFiles /Contents /Files / almkawmawalkas.doc

القدس هي الذاكرة المفقودة المجسَّدة في شخصية المسافر في روايات جبرا، تتداخل الذاكرة مع الحلم، وتنتظر شخوص جبرا أن تحقق ذلك الحلم، يومًا، ويبرز ذلك، بقوة، عن طريق وديع عساف، بطل رواية **«السفينة»** (١٩٧٠)، التي تدور حول مجموعة أشخاص على متن سفينة، ووديع وسطهم غارق في ذكريات طفولته في القدس، وحبه الأول لابنة العطار، فوديع أقسم أنه سيعود إلى القدس، «بشكل ما، غازيًا، أو متلصصًا، أو قاتلًا، حتى لو قتيلًا على صخرة»[٣٠].

تتطور أحلام جبرا بالعودة، فيكتب روايته **«البحث عن وليد مسعود»** (١٩٧٨)، وهو أنضج وأجرأ شخصيات جبرا، إذ يعود إلى القدس، بالفعل، لا يعود هو بشخصه، بل يسجل ذكرياته على شريط، ويختفي، وكأنه بذلك يمنح كل معارفه وأصدقائه الفرصة ليعودوا إلى القدس من خلال استماعهم إلى الشريط، إلى تلك الأيام، وتلك المدينة، ليستعيدوا روح صباهم عن طريق حكايات القدس القديمة. وبهذا، ففي تلك الرواية تتحول الذاكرة من ذاكرة مفقودة إلى ذاكرة حية، ورغم اختفاء وليد، فإنهم همسوا، في النهاية، أنه سيعود. فوليد هو الشخص الخاص الذي يحمل عبق الوطن، القنطرة التي عبرها الآخرون ليصلوا إلى مدينتهم.

ليعيش جبرا حنينًا لدرجة أتعبته، وجعلته يتبع تلك الروايات الثلاث برواية «الغرف الأخرى» (١٩٨٦)، عن بطل فقد هوبته، وتاه في مكان لا يعرفه، حتى اسمه لا نصل إليه.

تتشابه مع شخصيات جبرا رواية «الوناس عطية» (٢٠٠٦) للكاتب حسن حميد، الذي يعيش في سوريا. فبطلنا «الوناس» موجود خارج فلسطين، إلا أنه ممتلئ بحنين خاص إلى القدس، حتى أنه اقترح على المرأة التي أحبها أن يقوما بزيارة إلى القدس، بعد الزواج، واختلفت مواقف شخوص الرواية من هذه الرغبة. فرأى بعضهم أنها قد «ترمم جراحنا»، أو «نموت مرة أخرى». أما حبيبته فرأت: «لأجلهما معًا.. وأشياء أخرى». لتظل خريطة فلسطين المنسوجة على قطعة خيش كاكية اللون مع الوناس عطية، بعد أن أهدتها إليه طفلة صغيرة.

ليس كل الحنين للقدس نفسها، فبطل رواية «موّتي وقط لوسيان» (١٩٩٨) للكاتب **محمود شاهين**[*] يحن إلى نفسه، أيام كان في القدس. فالرواية عبارة عن رسالة البَطل إلى صديقته لوسيان، يعتذر فيها عما بدر منه، حين رفض أن يدفن قطها، الذي أسمته على اسمه، وأخبرها بأن تلقي به في القمامة!. عنى البطل بذلك أنه هو الذي يستحق سلة القمامة ـ وليس قط مسكين يحمل اسمه ـ بعد أن فر من جنود احتلال (١٩٦٧)، وترك حبيبته، ليخرج إلى آلام المنفى، بعيدًا عن القدس، فيقول: «صبرًا اختصار شقائك، فاركن إليها، صبرا اختصار موتك. رمز مسافات العذابات فيك»[٣١]. ويتساءل لعلَّ المنفى غيره، هو الذي كان في القدس، يرضع من الحيوانات، فهو «ابن الأغنام، ابن الجبال، والبوادي، والشقاء»، فـ «ذات يوم قبل احتلال عام ١٩٦٧، كان لدينا كلب جميل أسود»[٣٢]!

قد لا يكون الحنين إلى أيام إنسانيتك في القدس، بل إلى أناس عرفتهم، فيكتب مجيد منيب إلياس ـ وهو روائي من عرب ١٩٤٨، مهاجر إلى فرنسا ـ عن بطل في رواية **«البندوق»**[**] يعيش في أوروبا، إلا أنه يفتقد أصدقاءه، الذين

(*) هي قصة حقيقية من حياة محمود شاهين، الذي أكد ذلك بنفسه، كما أن حياة البطل تتماس مع حياة المؤلف. فالكاتب، المقيم في سوريا، نشأ بالفعل في منطقة رعوية، في قرية السواحرة، بالقدس، مثل بطل روايته الذي أسماه باسمه؛ محمود.

(**) البندوق هو طائر صوته جميل، لكن مشكلته انه سريع التعلم، قد يلتقط أصوات الطيور الأخرى، فقد تصبح لغته خليطًا من الحسون

تعرَّف عليهم في الجامعة، في القدس. **وأصدقاؤه الثلاثة هم عثمان الفلسطيني، وإليانة، وأفيشالوم اليهوديان.** وتدور الرواية حول هذا الأثر المهيمن لعثمان على البطل، فعثمان الوحيد من بين أصدقائه الذي عاود الظهور للراوي، في غربته في أوروبا، كشبح، وذلك رغم انتحار عثمان، مما يعني أن **الروائي مسكون بالعروبة، خاصة وهو أحد أبناء عرب ١٩٤٨ المسجونين في حدود إسرائيل، والذي رمز بذلك إلى أن من بين أصدقاء الراوي اليهود والعرب في القدس، فإن عثمان العربي هو الذي عاود تشكيل ذاته؛ وعاد إلى الحياة بعد موته. وأغلب الظن أن عثمان هو رمز لمدينة البطل المفقودة، ولأيام شبابه، وانطلاقه في القدس. وفي النهاية نجد أن حنين الراوي إلى القدس قوي، لكنه لا يستطيع البقاء في القدس، «لأن الجميع تشرذموا.. كيف نعود إلى دنيا اختفى منها ماضينا؟»**[٣٣]. **هذه هي القدس، التي حتى لو عاد إليها، كمكان، فلن يعود إلى جوهرها الحقيقي.**

فعرب ١٩٤٨ سُكِّنوا بالقدس، هم الموجودون داخل حدود بلادهم المحتلة، لكنهم يشعرون بحنين إليها، ومثال آخر، هو إميل حبيبي، الحيفاوي، وهو ابن عرب ١٩٤٨، والذي أبرز القدس كأم للجميع، في القصة الرابعة من «**سداسية الأيام الستة**»، تحت عنوان: «**كيف أصبح لشاب واحد ألف أم؟!**»؛ ففي مسيرة في القدس قبض جنود الاحتلال على شاب فلسطيني، فصرخت أمه: «ولدي»! مما جعلهم يجرجرونها، فانشق الهتاف من كل جانب: ولدي! حتى لم يعرفوا أيّهن أمّه.

في قصة «وأخيرًا نوَّر اللوز»، ضمن «السداسية»، يحكي إميل حبيبي عن رجل قاطع أصدقاءه، وأصبح وحيدًا، بعد احتلال ١٩٦٧، لكنه، فجأة، يستعيد ذاته، عندما يتذكر لقاءه في القدس بفتاة أحبها، وتعاهدا على أن يحتفظ كل منهما بفرع من شجرة اللوز، وأن يلتقيا في الربيع القادم، حين ينوِّر اللوز. وبهذا مثلت القدس في ذاكرته براءة أيامه الأولى، كما مثلت له امرأة لا تزال على عهدها، تلك المرأة التي كان بحاجة للتفكير فيها، ليستعيد ذاته، ومدينته المفقودة.

ذلك حنين الباقين داخل فلسطين، الذين يعانون من شعور الفقد، فهو الموجود داخل الوطن جغرافيًّا، لكنه المحروم منه نفسيًّا. وذلك ما جعل سامية فراس، تكتب روايتها الأولى الإليكترونية، على شبكة الإنترنت، حول حنين امرأة إلى القدس، رغم أن سامية لا تزال تقطن فلسطين! لتصبح رواية سامية «**حارة السعدية**» (يونيو/ حزيران ٢٠٠٨) رواية بعبق القدس، وحواريها، ورائحة الثوم، والبندورة، نستعيد معها، من خلال ذكريات امرأة منفية، تلك الحارة، بكل ما يعيش فيها من شخوص تبدو حقيقية من تراب المدينة، حيث «**النسوة يشاهدن من فوق أسطح البيوت العالية بيوتهن في القدس الغربية...أي حب هذا الذي يجعلك تفرح بما مضى، وكأنه فرح الآن!**»[٣٤].

فالقدس مثلت أحلامًا للكثيرين، منهم **نجوى قعوار، المولودة في الناصرة، والتي تعلمت في دار المعلمات بالقدس، فلم تتمكن قعوار من تجاوز حنينها إلى القدس، هي التي لم تكتب عملًا كاملًا عن القدس، لكن حين أتيحت لها فرصة للترجمة إلى الإنجليزية، اختارت مجموعة من قصصها، وسمَّتها «حجارة القدس الوردية» (٢٠٠٢)، لتبث حنينها إلى مباني القدس، المشهورة بأحجارها الوردية.** كما عكست **بشرى أبو شرار، التي تقيم في الإسكندرية، حنينها في قصة «حقيبتي الغائبة»** ـ ضمن مجموعة «**القلادة**» (٢٠٠٢) ـ **من خلال** سائق مصري بسيط،أعاد لها حقيبتها، على أمل أن تعطيه ميدالية مفاتيحها، المنقوش عليها صورة القدس.

=والكناري، لذا يفضّل عند تربيته أن يُربى وحده. وربما عنى الكاتب من هذا المعنى أن البطل تربى، وهو أحد أبناء عرب ١٩٤٨، وسط إسرائيليين وعرب، ففقد صوته الحقيقي. وقد تعني الكلمة «ابن السفاح»، لتشير إشارة أخرى إلى أنه بلا أب ، يتيمٌ شريدٌ بعيدٌ عن وطنه.

لتصبح القدس مدينة الحنين، سواء للفلسطينيين المبعدين عن دولتهم، أو هؤلاء المقيمين فيها، الباقين في أماكنهم نفسها، والموقنين، رغم ذلك، بأنهم ليسوا في عالمهم.

رؤية عامة

القدس مدينة خاصة، لا تشبه أخرى، فـ «حين يكون البيت عتيقًا، أَوْدَع الموتى في صرير أبوابه أسرارهم، وحين يكون ذاكرة حجرية للأجداد، يصبح أكثر من مجرد ملاذ لجد متعب. إنه ملاذ الروح»[٣٥]. إنها القدس ملاذ كثير من الأدباء الفلسطينيين، الذين كتبوا روايات دارت داخل المدينة، أو روايات رصدت القدس من الخارج، كما كتبوا روايات مملوءة بالحنين إليها.

قام بعض المقدسيين بكتابة روايات في تاريخ المدينة المقدسة. أما المقدسيون المنفيون، فعبروا عن حنينهم إلى المدينة بطريقتين؛ هما كتابة روايات تدور أحداثها في القدس، أو روايات عن بطل منفي، يتألم في الخارج. وبالنسبة للكُتاب غير المقدسيين، فقد اعتبروا القدس هي قلب فلسطين، فكتبوا عن مدينة القدس، ليتذكروا من خلالها مدنهم الخاصة، التي تتشابه معها، (مثل سحر خليفة)، أو كتبوا عن القدس عبر عيون مدن فلسطينية مختلفة، مثل أريحا، أو نابلس، أو بيت لحم، طارحين لعلاقة المدينتين، (مثل فيصل حوراني). وفي الحالتين بلورت كتاباتهم إحباط ضياع القدس؛ عاصمتهم، سواء بإدانة المدينة نفسها، أو بإدانة الفلسطيني الذي تخلى عنها، جريًا وراء منافع ذاتية ضيقة، فسقطت القدس، مما ترتب عليه سقوط مدينته.

أما عن الروائيين من أبناء عرب ١٩٤٨، فقد افتقدوا القدس، ذلك المكان الذي بقي لهم جغرافيًا، لكنهم شعروا في قرارة أنفسهم بأنه أسير هوية لا يعرفونها، ومنهم من رأى القدس حلمًا جميلًا، باستعادته يستعيدون ذواتهم [إميل حبيبي، نموذجًا]، وآخرون فقدوا الأمل في عودتهم إليه [مجيد منيب إلياس، نموذجًا].

ليغلب صوت الراوي الطفل على الأعمال الروائية الفلسطينية؛ لأن أغلب هذه الروايات عبَّرت عن سيرة الأدباء أنفسهم، الذين شهدوا في طفولتهم النكسة، فظل صوت الطفل بداخلهم، يصرخ بتلك الكارثة، إلى أن تمكنوا من كتابته، الأمر الذي أدى لحضور تاريخ ١٩٦٧، بقوة، في تلك الروايات، تاريخ ضياع القدس، الذي ترك بداخلهم الجرح.

تم الترميز للقدس، في أغلب أعمال أولئك الروائيين، بالمرأة، أو بقصص الحب، لما تحمله عاطفة الحب من معنى بأن من يملك قلب القدس هو أبناؤها، وليس بالضرورة هؤلاء الذين يمتلكون جسدها. فالحب أقوى أثرًا، كما قال بطل قصة «**وجهة نظر طفل**»، للروائي الياباني ياسوناري كاواباتا «تزوجي بمن يضغطون عليك، للزواج منه... وتيقني من أنك ستلدين طفلًا جميلًا، يشبهني»![٣٦]. هذه هي القدس التي يحتفظ الأدباء بها في أعمالهم، تحديًا لواقع تضيع فيه، يلقحونها بذكرياتهم، فيحصلون على صورة لمدينة قديمة، كانت مدينتهم.

هوامش الفصل الثاني:

(١) د. شاكر عبد الحميد، **سيكولوجية الإبداع الفني في القصة القصيرة**، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص٣٤٩.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٨.

(٣) ناهض زقوت، **انعكاس الإرهاب الصهيوني على الرواية الفلسطينية؛ دراسة نقدية**، ط١، غزة، منشورات اتحاد الكُتاب الفلسطينيين، مطبعة الأمل التجارية، ٢٠٠٢، ص١٩.

(٤) فاروق وادي، **ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية**، ط١، بيروت، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ١٩٨١، ص ٣٣.

(٥) شكري عزيز ماضي، **انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية**، ط١، بيروت، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ١٩٧٨، ص٢٨.

(٦) انظر: أسامة فوزي، **قراءة في كتب نقدية عن الرواية الفلسطينية**، html.http: / /www.arabtimes.com /osama-all /doc٣٨

(٧) انظر: قول السواحري في حواره مع جعفر العقيلي، كاتب من جيل (الأفق الجديد) يرى أن غياب الطفولة يعني غياب القدرة على استثارة الذاكرة. htm.٠٣٢-isb٩٩٥ /٩٩٥ /٢٠٢٠٠٥٪http: / /www.awu-dam.org /alesbouh

(٨) نبيل خوري، **حارة النصارى**، بيروت، دار النهار، ١٩٦٩، ص٢٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص١٢٨-١٢٩

(١٠) رشاد أبو شاور، **الأعمال القصصية**، المجلد الأول، ط٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٣٢.

(١١) محمود شقير، **خبز الآخرين وقصص أخرى**، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٠، ص٧٤.

(١٢) محمود شقير، **ظل آخر للمدينة**، ط١، القدس، دار القدس للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص٢٠٤.

(١٣) انظر قول ليانة، ضمن حوار نبيه القاسم معها، **ليانة بدر، نجمة في سماء أريحا**،

http: / /www.nabih-alkasem.com /liana_interview.htm

(١٤) سحر خليفة: **هناك ثالوث مقدس للأدب الفلسطيني، يرفضون أن يزيدوا عليه واحدًا**، حوار راشد عيسى، http: // www.assafir.com /WeeklyArticle.aspx?EditionId=٩٤٤&WeeklyArticleId=٤٠٢٤٢&ChannelId=٥٣٠٤&Author=٪D٨٪B١٪D٨٪A٧٪D٨٪B٤٪D٨٪AF-٪D٨٪B٩٪D٩٪٨A٪D٨٪B٣٪D٩٪٨٩

(١٥) انظر:

د. سامية محرز، **الروائية الفلسطينية سحر خليفة تفوز بجائزة نجيب محفوظ**، http: / /www.albawaba.com /ar / literature،spotlight /٢٥٧١٣٠.

(١٦) رائدة ياسين، **مرايا الأنا والآخر في رواية « غزل الذاكرة» ليوسف العيلة**، http: / /www.diwanalarab.com /spip. php?article٤٥٣٢

(١٧) سميرة عزام ، **العيد من النافذة الغربية**، ط١، بيروت، دار العودة، ١٩٨٢ ، ص١١٠.

(١٨) د. هاشم ياغي، **الرواية وإميل حبيبي**، ط١، القاهرة، الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص١٢.

(١٩) رسمي أبو علي، **الطريق إلى بيت لحم وقصص أخرى**، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩١، ص٨.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص٧٦.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص٨٠ .

(٢٢) رئيفة شبلاق، **تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية**، ط ١، القاهرة، دار العالم الثالث، ١٩٩٤، ص٢٢.

(٢٣) فيصل الحوراني، **بير الشوم**، ط٣، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.، ص١٥٧-١٥٨.

(٢٤) رجب عطا أبو سرية، **دائرة الموت**، الكويت، دار سعاد الصباح، القاهرة، مركز ابن خلدون للدراسات الإنسانية، ١٩٩٢، ص٤٨.

(٢٥) أبو شاور، **العشاق**، ط٤ القاهرة، مؤسسة العروبة للطباعة والنشر، ١٩٩٠ ، ص١٢٩.

(٢٦) رشاد أبو شاور، الأعمال القصصية...**مصدر سبق ذكره**.

(٢٧) السيد نجم، **المقاومة والقص في الأدب الفلسطيني؛ «الانتفاضة نموذجا»**، http: / /www.thaqafa.org /Main /DataFiles / Contents /Files /almkawmawalkas.doc.

(٢٨) انظر:

- ليلى الأطرش، **القدس...القدس!**، http: / /www.lailaatrash.com /presentations /jerusalem.htm.

(٢٩) د. مصطفى عبد الغني، **الغيم والمطر؛ الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة**، القاهرة، مكتبة الأسرة، دار جهاد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ص٤٤.

(٣٠) جبرا إبراهيم جبرا، **السفينة**، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٣، ص٢٢.

(٣١) محمود شاهين، **موتي وقط لوسيان**، نابلس، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، ١٩٩٨، ص٣٠-٣١.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص٦٠.

(٣٣) مجيد منيب إلياس، **البندوق**، ط٢، القاهرة، دار البيادر للنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص١٣٠.

(٣٤) انظر: سامية فراس، رواية **حارة السعدية**، http: / /asil.maktoobblog.com / 1063454 /%D8%AD%D8%A7%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D9%8A%D9%87.....%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B3

(٣٥) خيري منصور، **صبي الأسرار**، ط١، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ص٩٠.

(٣٦) ياسوناري كاواباتا، **قصص بحجم راحة اليد**، ط٢، ترجمة كامل يوسف حسين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣، ص٧٣.

* * *

obeikan.com

الفصل الثالث

القدس في المسرح المصري

رشا حسني

شغلت مدينة القدس مكانةً بارزةً في نفس كل عربي، تجلى ذلك الاهتمام في شتى الفنون، وفي القلب منها «المسرح». لم ينتبه المسرحيون لأهمية المدينة عقب قيام دولة الكيان الصهيوني فحسب ـ كما هو شائع ـ وإنما أولوا اهتمامًا لتلك المدينة المقدسة منذ مطلع القرن العشرين. تجلى ذلك في عرض فِرَق مسرحية مصرية عدة لمسرحيتين، عالجت كلٌ منهما القضية نفسها، وتكرر عرضها، فيما بين عامي ١٨٩٣ و١٩٤٢.

المسرحية الأولى «صلاح الدين الأيوبي مع ريكاردوس قلب الأسد»، اقتبسها المسرحي اللبناني الأصل نجيب حداد عن قصة «**الطلسم**» للسير ولتر سكوت. وعرضت للمرة الأولى في ٢٨ مارس/ آذار ١٨٩٣، بدار الأوبرا الخديوية، حيث قدمتها فرقة الشيخ سليمان حداد، ثم عرضتها فرقة سليمان القرداحي في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٩٣، في مدينة طنطا. أما فرقة إسكندر فرح، فقد قدمت المسرحية نفسها في أبريل/ نيسان ١٨٩٤، على مسرح الأوبرا الخديوية، ثم بدأ جوق (فرقة) السرور عرضها في مارس/ آذار ١٨٩٦ في شبين الكوم، وسرعان ما قدمتها جمعية الابتهاج الأدبي في أواخر مارس/ آذار من العام نفسه بالإسكندرية، وفي ديسمبر/ كانون الأول من العام نفسه، قام جوق بولس قرداحي بعرض المسرحية نفسها بمدينة المنصورة[1].

توالى تسابق الفرق المسرحية المختلفة على عرض مسرحية «**صلاح الدين الأيوبي مع ريكاردوس قلب الأسد**»، فعرضتها فيما بين عامي ١٨٩٧ و١٩١٦ أكثر من عشر فرق مسرحية، من بينها «جوق شبان مصر الوطني»، و«جوق الاتفاق الوطني»، و«جوق جمعية الآداب التمثيلية»، و«جوق حضرة الأديب محمود أفندي أحمد»، و«جوق الاتحاد الوطني»، و«فرقة الشيخ سلامة حجازي»، و«فرقة الشيخ أحمد الشامي»، و«جوق عبد الله عكاشة»، و«فرقة منيرة

المهدية». لعل المثير هنا أن هذه العروض لم تقتصر على مسارح العاصمة والمدن الكبرى، وإنما شملت كذلك المراكز، والمدن الريفية، مثل رشيد، وأبو قرقاص، وبنها، والزقازيق، وسوهاج، وبني سويف[٢].

أما المسرحية الثانية، التي عرضت في ثلاثينيات القرن العشرين، وتناولت مدينة القدس، فهي «**صلاح الدين ومملكة أورشليم**»، التي كتبها الكاتب اللبناني الأصل، فرح أنطون، في عام ١٩١٤. وقد قامت فرق مسرحية عدة بتقديم المسرحية، من بينها «الفرقة القومية المصرية»، التي تأسست عام ١٩٣٥، كما عرضها «جوق أبيض وحجازي»، في أواخر ١٩١٤، ثم قدمها «جوق عكاشة»، أوائل ١٩١٥، و«جمعية الشبان المسلمين»، عام ١٩٤٢[٣].

مثلت الحروب العربية ـ الإسرائيلية، منذ منتصف القرن العشرين، (١٩٤٨ - ١٩٥٦ - ١٩٦٧ - ١٩٧٣)، مواجهة جديدة بين الإرادة العربية، وقوى الاستعمار الغربي، الذي زرع الكيان الصهيوني في أرض فلسطين، واستباح «القدس»، تلك المدينة التي تشغل مكانًا عزيزًا في وجدان كل عربي، بما تمثله من قيم دينية، وقومية، وإنسانية. وقد أدى تجدد المواجهة، بهذه الصورة الحادة، إلى استدعاء الذاكرة العربية للفترات التاريخية التي احتشدت بالمواجهات مع الغرب، ولا سيما حروب الفرنجة، التي دارت رحاها حول القدس أساسًا[٤].

كان المسرح هو تلك الساحة التي سعى من خلالها الفنانون لحفظ الذاكرة العربية، ومناقشة القضايا المصيرية، التي كان من الصعب مناقشتها بجرأةٍ كافية بعيدًا عن خشبة المسرح.

في مايو/ آيار ١٩٦٩ عرضت، للمرة الأولى، مسرحية «**زهرة من دم**»، للكاتب والأديب اللبناني الشهير سهيل إدريس، وأخرجها كمال ياسين، وكان العرض الأول لها على مسرح الحكيم بالقاهرة. تضمنت المسرحية ثلاثة فصول، ضم أولها أحد عشر مشهدًا، وضم الثاني أربعة عشر مشهدًا، أما الفصل الثالث فضم سبعة مشاهد. لم تطرح المسرحية القضية الفلسطينية، فنيًا، بشكل لا يحتمل التأويل، وإنما اعتمدت على تقديم أنماط تقليدية، في إطار زمني ينفصل فيه الماضي عن الحاضر، ويبقى الحاضر مجرد منطقة راكدة، لا تتحرك إلى الداخل، برغم أن الدراما المتميزة هي تلك التي تتلاقى فيها الأزمنة المختلفة، ويصبح فيه الحاضر مناسبة للتقويم الذاتي، ويولد المستقبل الذي يناضل للتحرر من كل ما هو شائخ، وكل ما يقف في سبيله[٥].

تحكي المسرحية قصة خمسة فدائيين عرب يمارسون نشاطهم، ويجتمعون في بيت قائدهم «نزيه»، الذي ناضل أبوه ضد الصهيونية، واستشهد في ١٩٤٨. ولنزيه أخ مثقف صامت دائمًا، وأخت تنتظر عودة الفدائيين، كلما خرجوا للجهاد، أما الأم الصلبة الصامدة فتعيش على ذكريات زوجها، وبطولته القديمة. لكن المواجهة التي يخوضها أبطال المسرحية مع جنود الاحتلال، الذين يقتحمون المنزل بحثًا عن الفدائيين، عكست قدرًا عاليًا من النمطية في تصوير الشخصيات، فضلًا على التحول غير المبرر لشخصية الجاسوس العربي المتعاون مع الاحتلال، الذي يتحول، فجأة، لمساندة «إخوانه» الفدائيين[٦].

كتب عبد الرحمن الشرقاوي «**وطني عكا**»، عن الشتات الفلسطيني في المخيمات بعد حرب ١٩٦٧، وأبرز قدرة الفدائي الفلسطيني على تجاوز المحنة، ومواصلة المقاومة ضد المحتل. كما كتب الشرقاوي ثنائية «**النسر الأحمر**»، التي استرجع فيها كفاح صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس، ومقاومته لجيوش أوروبا بملوكها، وأمرائها، وفرسانها، وهو الصراع ذاته الذي رآه الشرقاوي ممتدًّا في الواقع العربي المعاصر[٧].

في هذا السياق جاءت مسرحية «**وطني عكا**»، التي عرضت في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٩، وأخرجها كرم مطاوع. فخلال خمسة عشر مشهدًا، تنقّل الشرقاوي بين تفاصيل القضية الفلسطينية، برؤية مغرقة في الرومانسية، وصفت، نقديًا، بأنها تحقق انتصارات زائفة، وتجعل من البطولات اليومية مجرد مازوكية(*) قاتلة[٨].

كانت نماذج الثورة التي ساقها الشرقاوي في مسرحيته الشعرية صادمة، فأحداث المسرحية تبدأ بعودة «ماجد» إلى غزة، بعد ما اختار الهجرة إلى أوروبا وقضى بها ١٥ عامًا، خوفًا من عواقب المقاومة (السجن ـ الفقر)، لكنه عاد ليدعم الثورة بما جمعه من المال، ويجد عمه، الذي سجن لمجرد إصراره على الصراخ في الأسواق: «وطني عكا»، قد خرج من السجن، ومعه نماذج أخرى، ممن يتمسكون بأطياف الماضي، ويستلذون عذابات الذكرى، وقد تحولوا إلى كائنات زجاجية. أما الشخصيات الإسرائيلية فتبدو، في معظمها، تعبيرًا عن انهيار المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، التي تحمل في داخلها عوامل انهيارها، وكأن الشرقاوي استراح للتفسيرات التي حاولت بها الشعوب العربية تفسير الهزيمة، وتعليقها على القدر، دون كشف حقيقة ما جرى، ومحاولة إصلاح الواقع الذي أدى إلى الهزيمة[٩].

بدت على السطح مشكلة الرؤية التي ينضجها الشاعر في مسرحية الشرقاوي «**وطني عكا**»، وقد اختار مجموعة من التفاصيل، والأحداث، التي تسببت كثرتها في تضييق المساحة الممنوحة لرسم شخصيات أبطال الرواية، وتعميق سلوكهم، مع أن دقة رسم شخصيات المسرحية كانت أدعى إلى إثراء العمل المسرحي فنيًا. أغلب الظن أن هذه التجربة المسرحية كانت في حاجة إلى وقت أطول، لتصبح أكثر نضجًا[١٠].

مثّل الإغراق في النمطية، أو الرومانسية فخًا وقع فيه كثير من الأدباء، الذين سجلوا في مسرحياتهم الصراع العربي ـ الإسرائيلي. ربما عادت تلك السمات، التي طغت على متانة النص الأدبي المسرحي ومنطقيته إلى الفترة التي كتب فيها، في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الأليمة، التي تركت أثرًا واضحًا على الوطن العربي كله، وجاءت ردود أفعال الكُتاب عليها متباينة في محاولة للدفاع عن النفس واستعادة الثقة بها، لكن التجارب اللاحقة بدت أكثر عمقًا في معالجتها للقضية الفلسطينية.

امتزجت الرؤية الفنية في مسرحية «**النسر الأحمر**»، لعبد الرحمن الشرقاوي، التي عرضت في منتصف سبعينيات القرن العشرين على مسرح «**الأزبكية**»، بمسؤوليات العمل السياسي، إبان الصراع الحضاري، والسياسي، والعسكري، والاقتصادي الذي خاضته الأمة العربية، آنذاك، فالقضايا التي تناولتها المسرحية لا ترتبط بعهد صلاح الدين وحده، وإنما طرحت المعارك المعاصرة، التي خاضها العرب مؤخرًا في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وقد قام مخرج العرض، الفنان كرم مطاوع، بالتعاطي مع النص عن وعي، وألقى مسؤولية إضافية على الفنانين، الذين قاموا بإلقاء قصائد شعرية منفردة، ضمن أحداث المسرحية، وصل إلى حد التأليف الموسيقي، بأصوات متداخلة، حسب قواعد الهارموني. وكان الجهد مركبًا بتداخل الأداء المسرحي مع العرض السينمائي وخيال الظل[١١].

الملاحظ أنه في مسرحيات الشرقاوي تبدأ القصة بحدث يقع خارج خشبة المسرح، وعادة ما يمثل تعرض الوطن لخطر الاحتلال، أو طمس الهوية، عبر قوى تعرف تاريخيًا بالبربرية، والعنصرية. والفاعل في مسرح الشرقاوي دومًا مطارد وتلعب المرأة فيه دورًا إيجابيًا. والمنظر المسرحي مدعم بحضور رمز ديني خاصة في النصوص التي كان الدين فيها فاعلًا في الصراع، مثل «بيت المقدس»، في «**النسر الأحمر**»[١٢].

(*) **المازوكية**: مرض نفسي، يتلذذ صاحبه بتعذيب الحبيب له.

اتسع مفهوم الوطن في دراما الشرقاوي ليشمل الوطن العربي كله، مما عكس وعي العقلية العربية، الذي تمثل في المناضل، والفدائي، والوطني، فالمناضل المصري يناصر ثورة شعبي الجزائر وفلسطين، بحضور شخصية، أو أكثر، في البنية المسرحية، واشتراكها في المواجهة.[١٣]

سبقت «**النسر الأحمر**» مسرحيات مصرية عدة، تناولت القضية الفلسطينية عرض معظمها في الموسم المسرحي (١٩٦٩- ١٩٧٠). وأهمها، على الإطلاق «**ثورة الزنج**»، و«**النار والزيتون**».

عرضت مسرحية «**ثورة الزنج**» للمرة الأولى على خشبة المسرح الحديث بالقاهرة، في فبراير/ شباط ١٩٧٠، وقد ألفها الشاعر الفلسطيني المرموق معين بسيسو وأخرجها للمسرح نبيل الألفي. تربط المسرحية بين «**ثورة الزنج**»، التي وقعت بالعراق في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ضد سيطرة مَنْ يملكون الأرض والعبيد وبين الثورة الفلسطينية، باعتبارها قضية تحرر وطني. فقد رأى بسيسو أن هناك خيطًا رفيعًا بين الأوضاع التي شتتت الزنج قبل أن توحدهم المقاومة، بيضًا وسودًا، لمواجهة كبار الملاك، وبين الفلسطينيين الذين تشتتوا في أعقاب نكبة ١٩٤٨، حتى جمعهم الكفاح المسلح مرة أخرى، عندما انطلقت الرصاصة الأولى ضد الاحتلال الإسرائيلي في يناير/ كانون الثاني ١٩٦٥، فالسيف في القرن الثالث الهجري وحَّد الزنج، والبندقية في القرن العشرين الميلادي وحَّدت الفلسطينيين[١٤].

استدعى بسيسو في مسرحيته «**ثورة الزنج**» الكلمات، والتعابير بصورة قصدية، لم يعتمد على الحدث السردي نفسه فحسب، وإنما وضعه في إطاره التاريخي، والفلسفي، والأدبي، ورصد القضية في علاقتها الجدلية بالأنظمة السياسية التي تحاول تعليقها في برواز أنيق بجانب كرسي العرش. وتدور أحداث المسرحية في لوحات منفصلة، تبدأ بصورة متخيَّلة لاثنين من الرجال مهمتهما غسل التاريخ، وإعادة صياغته مرةً أخرى، ومن ثم ، ينبغي قتل الأبطال، والتاريخ ذاته، وإعادة طباعته، لتختلط التفاصيل، والملامح، ويزَّيف التاريخ. وفي لوحات تالية استعاد المؤلف أحداثًا من ثورة الزنج، وسعى لمقارنتها بالظرف التاريخي، الذي كانت تمر به القضية الفلسطينية، آنذاك[١٥].

أما مسرحية «**النار والزيتون**» فربما كانت الأكثر تعبيرًا عن القضية الفلسطينية، وقد تجلى ذلك في الاستقبال النقدي لها.

عرضت مسرحية «**النار والزيتون**»، للمرة الأولى، على المسرح القومي في أبريل/ نيسان ١٩٧٠، وهي من تأليف الكاتب ألفريد فرج، وقام بإخراجها الفنان الموهوب سعد أردش. استخدم فرج الدراما، والملحمة، حيث يرد السلوك النموذجي للشخصيات الرئيسية في العرض المسرحي عن الأسئلة المطروحة، دون أن تتجرد من علاقتها الجدلية بالواقع، أو الظرف التاريخي. وتتحرك النماذج الإنسانية البسيطة، تحلم وتعاني، وتقاوم، وتستشهد. تجاوز «فرج» حدود الجزئي إلى الكلي، واستخدم الحدث الهامشي، ليعبر نحو القضية كاملة، بكل تفاصيلها، وقد دعم مشاهد المسرحية بجانب آخر تسجيلي، لكنه استطاع، بمهارة، الإفلات من قالب المسرح التعليمي الجاف[١٦].

نجح فرج، من خلال النص المسرحي «**النار والزيتون**»، في تقديم نص على قدر كبير من النضج، والتكامل الفكري، ميَّزته وحدة فكرية شاملة وعززه إلمام نظري بالقضية، إلى جانب معرفة حية بالتجربة، وقد كتب هذا النص

في صورة فنية طموحة لعلها تتجاوز إمكانيات المسرح المصري، لكن «أردش» تمكن من توظيف كل الإمكانات المتاحة لخدمة النص المحكم[١٧].

اعتمدت أحداث العرض المسرحي على التسلسل المنطقي، الذي حمل الحدث من نقطة استهلها مشهد استعداد «أبو شريف»، ومجموعة من رفاقه الفدائيين لنسف مصنع ذخيرة إسرائيلي، ثم عندما يصاب إثر طلقات مباشرة، من مجنَّدة إسرائيلية يكتشف أبو شريف، بعد فترة وجيزة، أنها «نتاليا» رفيقة الطفولة، وعندما تراه هي لا تعرف فيه الفدائي الفلسطيني، الذي أطلقت عليه النار، بل الصديق القديم، الذي اتخذت من أمه أمًّا، ومن أبيه أبًا، لكن اللحظة العابرة سرعان ما تتبدد، أمام الواقع المر الذي خلقته الصهيونية العنصرية، ولا تتردد «نتاليا» في استدعاء القوات الإسرائيلية لتحتجز كل أهالي البلدة العرب، من الرجال، والنساء، والأطفال. ومن خلال ذلك المشهد الافتتاحي توالى سرد كثير من تفاصيل القضية الفلسطينية، وتاريخها الموشَّى بالدم العربي الفلسطيني، عبرمذابح ومجازر استمرأ الاحتلال الإسرائيلي ارتكابها طوال تاريخه[١٨].

في عام ١٩٧١، قدم «بسيسو» مسرحيته الشعرية الثانية **«شمشون ودليلة»**، التي أخرجها نبيل الألفي، وعرضت، للمرة الأولى، على مسرح الحكيم بالقاهرة، واعتبرت المسرحية تجاوزًا فنيًا وفكريًا لمسرحيته الأولى، **«ثورة الزنج»**، إذ سعى بسيسو هنا لرصد القضية الفلسطينية، بشكل أكثر وعيًا، بعيدًا عن الاتشاح بعباءة التاريخ، والتخفي وراء مفردات، وصور الماضي، فالقضية في **«شمشون ودليلة»** واضحة، ومحددة. تبدأ الرحلة من لحظة الحصار داخل العربة الواقفة منذ سنوات بعيدة، والتي كانت الحركة فيها حركة إلى الداخل، وفيما عدا ذلك حركات فردية ثورية، أو متمردة، إلى أن تأتي اللحظة التي يدرك فيها ركاب العربة، مع اشتداد القهر والحصار، أن الموت فوق الأسلاك الشائكة، في محاولة لاقتحام حدود الوطن المسلوب، أفضل آلاف المرات من الموت تحت عجلات العربة، أو بين أسوارها الحديدية. هنا تحولت المحاولات الفردية إلى تحركات جماعية، مع انطلاقة شرارة الثورة والمقاومة[١٩].

في عام ١٩٧٤، قدمت على المسرح القومي مسرحية **«سقوط بارليف»**، عن المسرحية الشعرية **«السؤال»**، للشاعر الفلسطيني الكبير «هارون هاشم رشيد»، وقام بإخراجها الفنان «سناء شافع». تناولت المسرحية فكرتين رئيسيتين، أكدت أولاهما على أن الثور التي بدأت في الأرض المحتلة ضد الاحتلال الإنجليزي، والزحف الصهيوني المنظَّم، هي بالأساس ثورة العمال والفلاحين بعيدًا عن الحكومات، والأنظمة الواقفة في شرفات المشاهدة. أما الفكرة الثانية، فهي إطلاق صيحة تحذير، من تحويل الثورة من حركة تحرير إلى حركة هدفها الانقضاض على السلطة، في إشارةٍ إلى موقف سياسي واضح من الأحداث التي سبقت مجازر أيلول الأسود (١٩٧٠). كذلك بدت في المسرحية رؤية واضحة إزاء الأحداث التي حاقت بالثورة، وموقف أجهزة الإعلام، والحكومات العربية، والأجنبية منها، ومحاولات إجهاضها. لكن تلك المسرحية لم يقدَّر لها أن تعرض سوى لأيام معدودة، لتفسح المجال لمسرحية وزير الثقافة ـ آنذاك ـ يوسف السباعي **«الحرب والسلام»**[٢٠].

توقف اهتمام معظم الكُتاب المسرحيين بتناول القضية الفلسطينية، ولم تعد «القدس» ضمن أولوياتهم الفنية، منذ عام ١٩٧١، ولم يسع الكُتاب لتناول القضية الفلسطينية، في صعودها الدامي، وإن بقي الكاتب «يسري الجندي» على اهتمامه بالقضية، وتناولها في أكثر من عمل مسرحي لاحق.

في أغسطس / آب ١٩٨٤، قدمت «فرقة بورسعيد القومية»، التابعة للثقافة الجماهيرية، مسرحية «**اليهودي التائه**»، للكاتب يسري الجندي، وأخرجها الفنان عباس أحمد. تناولت المسرحية القضية الفلسطينية، والظلم الفادح الذي تعرض له الشعب العربي الفلسطيني، الذي تحالفت ضده قوى الاستعمار في العالم. وقد رأى الجندي أن يتصدى لتلك القوى، من خلال مسرحية تخاطب الرأي العام العالمي المضلل، ليكشف الأبعاد الحقيقية للقضية الفلسطينية، واتبع الجندي في سبيل ذلك منهجًا علميًّا دقيقًا في فحص ودراسة كل عناصر القضية، وتدعيم رؤيته بالوثائق، والأرقام، والتواريخ والمواد ذات الأصول الفلسفية، والتاريخية، والدينية، والسياسية[٢١].

كان من المقرر أن تعرض مسرحية «**اليهودي التائه**» على مسرح الحكيم بالقاهرة، تحت عنوان «**السيرك الدولي**» عام ١٩٧٢، وبإخراج «محمد صديق»، لكن الرقابة أوقفتها ليلة الافتتاح، ولم تقدم إلا بعد ذلك بسنوات. وقد جمع المؤلف المادة التاريخية، ولم يكتف بطرحها، تأكيدًا للقضية، وإنما تعدى حدود الطرح المطلق إلى محاولة إعادة طرحها، من خلال رؤية تمتلك القدرة على صياغة العالم، عبر استخدام الوثائق بعيدًا عن الصيغة التعليمية، وإنما لتخليق صور جديدة مدهشة، تنقل وجهة نظر متكاملة[٢٢].

وفّق المؤلف في اختيار شخصية سرحان بشارة، وحادثة إطلاقه الرصاص على مرشح الرئاسة الأمريكي، روبرت كيندي (١٩٦٨)، ليجعل الجندي منه نموذجًا للإنسان الفلسطيني العادي، الذي مر بمراحل نمو الوعي، والاستيعاب الكامل لأبعاد القضية، وحقيقة القوى التي تناصب وطنه وإنسانيته العداء. فالمسرحية تمثل مراحل نمو الوعي الذي تدرج بـ «سرحان»، نموذج الإنسان العربي المعاصر، من الحيرة، والبلبلة، والضياع، إلى البحث والتأمل وصولًا لما تحقق من يقين بأن أصل الصراع يكمن في تحالف الرأسمالية المستغلة مع قوى الاستعمار ضد الشعوب الأخرى، التي تقع ضحية هذا التحالف، وعلى رأسها الشعب الفلسطيني[٢٣].

في عام ١٩٨٨، واصل «يسري الجندي» اهتمامه بالقضية الفلسطينية، وتبلور ذلك في مسرحية «**واقدساه**»، التي قدمت في يوليو/ تموز من العام نفسه، على المسرح القومي بالقاهرة، كأول عمل يقدمه «اتحاد الفنانين العرب، بالاشتراك مع دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، حول قضية فلسطين، وأخرجها التونسي «المنصف السويسي»، ثم قدمت في بعض الأقطار العربية. طرح الجندي، من خلال المسرحية، المقابلة المميتة ما بين الماضي والحاضر، ليصل، في النهاية، إلى تلك النقطة المشتعلة، كيف نجحوا هم، وفشلنا نحن؟! وتتبع، في سبيل الإجابة على ذلك، بداية المقاومة الشعبية، والفعل الشعبي، منذ عهد جماعة الإصلاح في مصر، وشهداء الصخرة في القدس، وصولًا إلى لحظات الغضب، الذي يتحول إلى انتفاضة[٢٤].

في أوائل عام ٢٠٠٢، بدأ عرض مسرحية شريف الشوباشي «**لن تسقط القدس**» على مسرح الجمهورية بالقاهرة، من إخراج فهمي الخولي، وقد استطاعت المسرحية أن ترتفع عن مستوى الحديث الدائر في العالم العربي، لترى المشهد من علٍ، فتعي التاريخ في أزليته، والمستقبل في حتميته، ليقوم الفن بالدور المنوط به في إيقاظ الوعي، واستشراف المستقبل. فالمسرحية التي كتبها الشوباشي، قبل خمس سنوات من عرضها، بدت متشابهة مع الواقع، برغم أنها عالجت قضية تعود لأكثر من تسعة قرون مضت، إذ تعرض لحظة سقوط القدس في أيدي الفرنجة، واختلاف القائد «افتخار الدين» مع بعض أعوانه من الشباب المتحمسين، واختياره الخروج من القدس، معللًا ذلك للشاب الثائر عبد الرحمن بأن موتهم لن يفيد الوطن. غير أن قاضي قضاة دمشق، الذي اتخذه أهل القدس زعيمًا، يصر على الالتحام

بالشعب، ليصل إلى أمير المؤمنين في العاصمة العباسية بغداد، لكنه يصدم بحقيقة الأمير الذي لم يختلف موقفه عمن فضَّلوا ترك القدس تسقط، وفروا بحثًا عن سلامتهم. وقد نجح المخرج في تقديم عرضٍ راقٍ، فطَوَّعَ جماليات الفن المسرحي لتحسين هذا الموقف الفكري[٢٥].

المتتبع لحال المسرح المصري، ومدى اهتمامه بالقضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، يدرك، تمامًا، أن المنحنى في هبوط، وأن شيئًا ما يكمن وراء هذه العزلة، التي صارت تعانيها القضية الفلسطينية، فنيًّا، بعدما كان المسرح السياسي متربعًا على عرش الفنون، في الستينيات، وحتى أوائل سبعينيات القرن العشرين. ولا نريد الغوص في التفاصيل، مكتفين بالقول إن هذا الهبوط تواكب مع الهبوط السياسي، منذ «مبادرة السادات»، وقد تعزز هذا مع انعطاف جمهور المسرح العربي إلى المسرح التجاري. وهي حالة تعد انعكاسًا لحالة اليأس العامة، وتمثل نوعًا من الانتحار العقلي، ويشهد على ذلك ما سجله كثير من النقاد من صعود مسرح الستينيات، متواكبًا مع سطوع المشروع القومي الناصري، بينما دلت دراسات أخرى لمسرح الثمانينيات على مرحلة مغايرة تسجل لحظة الاصطدام بأرض الواقع المؤسف[٢٦].

فسر الناقد المصري الكبير فاروق عبد القادر تلك الظاهرة بأنها ارتبطت ـ بالأساس ـ بالموقف الضبابي للسلطات الرسمية من القضية الفلسطينية، الأمر الذي لا يحفز المبدعين على المغامرة بكتابة، وإنتاج، وإخراج عمل مسرحي قد لا يرى النور قبل لحظات من عرضه، كما حدث، مؤخرًا، عندما منع عرض مسرحية «**القضية ٢٠٠٧**»، ليسري الجندي على «مسرح الهناجر»، دون إبداء أسباب، ودون أن يُعرف المتسبب في إيقافها[٢٧].

من ناحية أخرى، لفت عبد القادر إلى أن الظاهرة التي باتت مسيطرة على العروض المسرحية مؤخرًا مع تراجع المسرحيات، التي تعالج القضية الفلسطينية، وهي ظاهرة «التلسين» التي باتت ملاصقة للمسرح التجاري، وبخاصة في مسرح جلال الشرقاوي، إذ يتم إقحام الإسقاطات، والآراء السياسية على أحداث المسرحية، التي قد لا يربطها أي صلة بالموضوع الأساسي للمسرحية[٢٨].

برغم صعوبة مطالبة القائمين على المسرح الخاص بأن يتحولوا إلى ثوار، لديهم الشجاعة للقيام بالدور الذي تخاذلت عنه مسارح الدولة، بتأثير عدم وضوح حدود الدور، الذي تمارسه الرقابة، وخضوعها لنزوات المسؤولين، وتخبطهم، تبقى المسؤولية معلَّقة في عنق كل فنان تجاه قضايا أمته لا يعفيه منها تعقد الأوضاع، أو ضيق أفق الحرية، فالحرية تُنتزع ولا تُـمنح، ورسالة الفن الحقيقي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالارتقاء بوعي الجمهور بماضيه، وحاضره، وتأهيله لاستشراف مستقبل الوطن.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) فلسطين في قلب المسرح المصري منذ البداية، **تراث المسرح** (القاهرة)، المركز القومي للمسرح والسينما والفنون الشعبية، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، ص ٨٢ -٨٩.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٨٩ -٩٤.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٩٥ -١٠١.

(٤) سامية حبيب، **دلالة المقاومة في مسرح عبد الرحمن الشرقاوي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٣٩- ٤٠.

(٥) محمد الرفاعي، **فلسطين في المسرح المصري**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٨، ٣٦.

(٦) أمير إسكندر، «زهرة من دم»، **الجمهورية**، (القاهرة)، ٢/٥/١٩٦٩.

(٧) حبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٠.

(٨) الرفاعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٠ ـ٤١ ،٤٨.

(١٠) رشدي صالح، وطني عكا وماذا يصنع النقاد؟ **الأخبار** (القاهرة)، ٢٢/١٢/١٩٦٩.

(١١) فتحي غانم، النسر الأحمر.. صحافة أم أدب؟، **صباح الخير**، (القاهرة)، ٢٧/٣/١٩٧٥.

(١٢) حبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٠-٤١.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص١٩٧.

(١٤) فوزي سليمان، ثورة الزنج .. مسرح المقاومة والنقد المرتجل، **المساء**، (القاهرة)، ١٥/٥/١٩٧٠.

(١٥) الرفاعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٣ - ٦٤، ٦٨.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص٨٤ ،٩٧.

(١٧) لطيفة الزيات، النار والزيتون .. أفضل العروض التي قدمت عن القضية الفلسطينية، **المسرح**، (القاهرة)، مايو/ يونيو ١٩٧٠.

(١٨) **المصدر نفسه**.

(١٩) الرفاعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠١، ١١٨.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٣٩، ١٤٨.

(٢١) عدلي الدهيبي، **المسرح** (القاهرة)، أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٤.

(٢٢) الرفاعي، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦٦، ١٩٠.

(٢٣) الدهيبي، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٤) الرفاعي، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩٥، ٢٠٦.

(٢٥) محمد سلماوي، «لن تسقط القدس» .. حين يسبق الفن السياسة، **الأهرام**، (القاهرة)، ٤/٢/٢٠٠٢.

(٢٦) مهدي بندق، **المسرح وتحولات العقل العربي**، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص١٢١و١٧١.

(٢٧) **فاروق عبد القادر، مقابلة معه**، (في منزله بالقاهرة)، ٩/ ٧/ ٢٠٠٨.

(٢٨) **المصدر نفسه**.

الفصل الرابع

القدس في الشعر الفلسطيني المعاصر

مروة جبر

القدس، هذه المدينة المقدسة المعمرة العامرة المعمورة العصية على التاريخ، تعددت أسماؤها، فمن أورسليما في سجلات الفراعنة، إلى يبوس، نسبةً إلى اليبوسيين، إلى أليا كابيتولينا، حتى سماها العرب عندما سيطروا عليها عام ٦٣٨م القدس.

بقيت المدينة طوال تاريخها عرضةً للغزو، والغزو المضاد، وبالتالي للحروب والمعارك، لكنها بقيت صامدة، ثابتة، تحمل تاريخ من مروا عليها نقشًا على صفحات أسوارها وجدران مبانيها من مساجد، وكنائس، ودور علم. لذلك كانت عظمتها مصدرًا لإلهام الشعراء على مر العصور، وما يهمنا في هذا المقام ما كتبه الشعراء الفلسطينيون عن المدينة في عصرها الحديث، وما تعيشه من معاناة، وما نالها من عسف الاحتلال.

فكان تاريخها وحيًا للاستشهاد به على عظمتها، أو لاستنهاض الهمم لإنقاذها من طغيان الاحتلال، فهذا أبو سلمى(*) يقول في ثلاثينيات القرن الماضي، بمناسبة بناء قصر المندوب السامي البريطاني، فوق جبل المكبِّر:

في نـاحـيـة شـهـيـد خـالـد ... هـو مـن يـنـادي لا نـريـد دخيلا

قم يا شهيد القوم واخطب في الورى ... أصبحت حيًّا مذ غـدوت قتيلا

(*) هو عبد الكريم الكرمي، من مواليد طولكرم، عام ١٩١٠، تلقى فيها تعليمه، نزح إلى سورية، عام ١٩٤٨، وعمل في الإذاعة السورية، وفي وزارة العدل. عُرف بزيتونة فلسطين، عمل في «منظمة التحرير الفلسطينية»، توفي عام ١٩٨٠، كان في شبابه معاصرًا للشاعر إبراهيم طوقان، وقد جمعتهم صداقة حميمة.

جبل المكبرّ طال نومك فانتبه قم واسمع التكبير والتهليلا
فكأنما الفاروق دوّى صوتُه فجلا لنا الدنيا وهز الجيلا
جبل المكبر لن تلين قناتنا ما لم نحطم فوقك الباستيلا

وينشد الشاعر أديب رفيق محمود(*)، مستوحيًا تاريخ صلاح الدين الأيوبي

أواه يا مدينة السلام
يا روعة الصهيل، كوكبة الخيول
تعبر الأبواب في وضح النهار
هذا صلاح الدين.

أما الشاعر هارون هاشم رشيد(**)، فقد خاطب في قصيدة موجهة إلى عمر بن الخطاب، يستعرض أبطال الفتوحات الإسلامية، ثم يصف الحال المعاصر، ويخاطب ابن الخطاب قائلًا:

أبا حفصٍ وللتاريخ في وجداننا صور
نراجعها فلا نأسى بما فيها ونعتبر
ونقرأ كيف أن الحق دون السيف ينكسر
بغير السيف لا فتحٌ ولا عودٌ ولا ظفر
فكيف نظل في الأعتاب والأبواب ننتظر
وكيف تراه يرجعنا إلى الأوطان مؤتمر.

ويشترك المسلم والمسيحي من الشعراء في الاستلهام من الأماكن المقدسة لأصحاب الديانتين، حيث الهم واحد، والمحنة مشتركة، فنجد أدمون شحادة(***) يقول:

يا لهف الكنائس المنزرعة في كل أشواك الحقول
وفي عيون حاملي صليبها وقبة الأجراس في أعيادها.

ثم يتابع:

يا بهجة المساجد العالية الأعناق
ويا امتداد ومضة الإيمان
في القلب والشفاه

(*) ولد في إحدى قرى جنين، عام ١٩٣٣. تلقى تعليمه في بلدته الأم، عنبتا، وطولكرم، ونابلس، عمل مدرسًا، وكتب العديد من الدواوين، والكتب النثرية، والدراسات النقدية.
(**) ولد بمدينة غزة، عام ١٩٢٧، أنهى دراسته الثانوية في كلية غزة، ونال شهادة المعلمين. عمل في حقل التعليم، وإذاعة «صوت العرب»، ومكتب «منظمة التحرير الفلسطينية» في غزة، والقاهرة، إنتاجه الشعري غزير، كتب المسرحية الشعرية، وله دراسات وأعمال أدبية.
(***) ولد في حيفا عام ١٩٣٣، أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٥٠، أصدر العديد من الدواوين الشعرية.

ووحدة الرحمن.

أما الدكتور فاروق مواسي(*)، فقد استعار درب الآلام والقيامة، للتعبير عن الهم الوطني فأنشد قائلًا:

كنيسة تدق في أجراسها

«قيامة» مسيحيًّا يا ناصري

يا درب آلامي أسير صابرًا

أمشي على إيلام جرح طاهر .

كما أن الشاعرة القديرة فدوى طوقان(**) استخدمت الرموز الدينية المسيحية في شعرها حين قالت:

يا سيد مجد الأكوان

في عيدك تطلب هذا العام

أفراح القدس

صمتت في عيدك

يا سيد كل الأجراس

القدس عى درب الآلام

نجلد تحت صليب المحنة

تنزف تحت يد الجلاد

والعالم قلب منغلق

دون المأساة

.....

يا سيد مجد القدس

يرتفع إليك أنين القدس

رحماك أجز يا سيد هذي الكأس.

ولم يختلف أمين شنار(***) في هذا المجال، ففي قصيدته «**بيت المقدس**» يقول:

هنا المآذن الحزينة التي تسامر النجوم

تمتد في وجوم

(*) ولد في باقة الغربية، عام ١٩٤١، وأنهى تعليمه الثانوي في بلدة الطيبة، وهو أستاذ محاضر في عدد من الجامعات في فلسطين (١٩٤٨)، وهو أديب، وشاعر، وباحث، شغل مواقع أدبية عديدة، له مؤلفات في مجالات أدبية عدة، من بينها «القدس في الشعرالفلسطيني الحديث»، وهي دراسة قيِّمة في هذا المجال.

(**) ولدت عام ١٩١٧، في مدينة نابلس، وهي إحدى أهم شاعرات فلسطين في القرن العشرين، وهي شقيقة الشاعر إبراهيم طوقان، وتعتبره عرَّابها، ومعلمها، تأثرت كثيرًا بوفاته، لكن روحه بقيت معها، حتى وفاتها عام ٢٠٠٣، مؤثرة فيما تكتبه من أشعار.

(***) شاعر، وأديب، وصحفي، ومفكر، ولد في ألبيرة عام١٩٣٣ .

وههنا الأسوار مرفوعة الهامات في إصرار

.....

المسجد الأقصى هنا مسرى الرسول

مشى المسيح ها هنا وأمه البتول

وههنا الفاروق شاد مسجدًا

هنا صلاح الدين روَّع العدا

هنا الوليد، والمجيد، والشهيد.

أما الشاعر إبراهيم رجا سلامة(*) فقد جاء في ديوانه «**تراتيل مقدسية**» قصيدة بعنوان «**الإسراء الأخير في رثاء شهداء الأقصى**» قال فيها:

والأغنيات العذاب في فيك شدو وغلال

طريق لنا والمراثي في فمنا تكفي السؤال

طريق لله شهادة وابتهال

ولك من العذر

من الصبر

من القهر

ألف سؤال وسؤال

بين القيامة والصخرة وعلى ثغور القدس

البراق يحط على جداره تمتطيه نبيًّا

ورحيل الشهداء إسراء.

ولم يقتصر الاستشهاد بالرموز الدينية المسيحية والإسلامية فحسب، فقد استخدم الشاعر محمود درويش(**) الرموز التوراتية، أيضًا، ففي مقطوعة أفردها للقدس، بعنوان «**المزامير**»، وهي المقطوعة السابعة عشرة من ديوان «**أحبك أو لا أحبك**» جاء:

وتغني القدس

يا أطفال بابل

(*) شاعر فلسطيني ولد في أم الزينات، وعاش في دمشق، يترقب يوم العودة، عرف السجون والمعتقلات الصهيونية، وجاء ديوانه الثاني بعنوان «تراتيل مقدسية»، وفي قصيدة وصف فيها الشهيد بعنوان «الإسراء الأخير»، في رثاء شهداء الأقصى.

(**) ولد في قرية البروة، في الجليل، قرب عكا، عام ١٩٤١، عاش في قرية الجديدة، بعد أن دمرت سلطات الاحتلال قريته، وأقامت على أنقاضها قرية زراعية إسرائيلية، بعد أن أنهى دراسته الثانوية انتسب إلى الحزب الشيوعي، عمل في العديد من الصحف، ولديه دواوين عدة، وهو من أبرز الشعراء الفلسطينيين، وأسهم بتطوير الشعر الحديث، وإدخال الرمزية فيه، والبراعة في استخدام الرموز الدينية، سواء الإسلامية، أو المسيحية، أو التوراتية.

obeikan.com

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس قريبًا

وقريبًا تكبرون

وقريبًا تحصدون القمح من ذاكرة الماضي

وقريبًا يصبح الدمع سنابل

آه يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريبًا

هللويا

هللويا.

يقول الدكتور فاروق مواسي في بحثه« **القدس في الشعر الفلسطيني الحديث**» إن محمود يبرر ذلك بأنه يعتبر نفسه فلسطينيًّا وكنتاج هذه الأرض الفلسطينية، أحد الذين يملكون حق أن يرثوا كل تاريخ الإبداع والثقافة التي جرت على هذه الأرض ومنها التوراة.

ننتقل إلى موضوع آخر، حول القدس، وهو التخاذل بشأن القدس، فيقول إبراهيم رجا سلامة، في القصيدة السابقة نفسها، وقد اعتصره الألم من العجز العربي، أمام التغول الإسرائيلي:

سبحان الذي خلق، خلق الشهداء من ألق

ما تقول عنا؟

هل ستعلن أنك منا براء

مهلًا أيها المسربل بالوطن

إنا كما قيل

ليس على العاجز من حرج.

وكان قد سبقه في هذا المجال الشاعر إبراهيم الدباغ(*) في قصيدة بعنوان فلسطين الدامية:

أين الفتى العربي المستهان به ... يوم الكريهة هل ضاع الفتى العربي؟

متى أرى القوم حول الصخرة اجتمعوا ... بعد التفرق من ناءٍ ومقترب؟

إني أرى حولها برقًا وجلجلة ... وقد خلا رعدها من هاطل المطر

(*) عاش معظم عمره في مصر، لكن فلسطين بقيت في قلبه ووجدانه، وقد عاش فيها قبل النكبة عام ١٩٤٨، لكن الخطر كان يلوح واضحًا، والتفرق العربي المزمن على حاله، وكان يصدر مجلة «الطليعة»، وهي مجلة شعرية، في الثلاثينيات من القرن الماضي، مطبعة محمود توفيق بالدَّرَّاسة، ونشرت قصيدة «فلسطين» بها عام ١٩٣٨.

ولم يتخلف الشاعر حسن البحيري(*)عن ركب النقد للتخاذل العربي والفلسطيني، ففي ديوانه «**لفلسطين أغني**» قصيدةً بعنوان «**المسجد الأقصى**»، نظمها عند زيارته للقدس، آب/ أغسطس عام ١٩٤٨، وبعدما استعرض ما يتهدد المسجد الأقصى من خطر، وتخاذل الأشقاء، والإخوة، ثم توجه إلى ملوك العرب يلومهم على التخاذل قائلًا:

ما بالكم يا ملوك العرب في دعة

وأمة العرب واحزناه تحتضر؟!

ثم توجه لكل منهم بنقدٍ لاذع لا يخلو من خطابٍ عنيف، بمن فيهم الحاج أمين الحسيني، رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، الذي يعيش في لبنان بعيدًا عن معاناة شعبه، قائلًا:

يا للزعيم الذي لاثت عمامته

كف الدخيل وألوى خده الصعر

قصوره في ذرى لبنان ساقفة

زاهٍ سناها ومرعى عيشه خضر

وشعبه في فلسطين الأسى اصطلحت

سود الليالي عليه وهو يحتضر.

ثم يقول مخاطبًا هؤلاء الزعماء:

يا خانعين إلى الأعداء يوردكم

سوط المذلة وردًا ما له صدر

وخانسين عن الأحداث ماضية

بكم تقاعس عن إدراكها الخور.

ثم ينذرهم بعاقبة تخاذلهم عن نصرة القدس، قِبلتهم الأولى، إن لم يبادروا لإنقاذها:

قوموا ادفعوا عن حماكم ما ألمّ به

من نائبات بدجن الهول تعتكر

أو ارقبوا من رياح الشعب عاصفة

تجتاح من صغروا منكم ومن كبروا

تمضي بكم في متيهات الفناء فلا

يبقى على وجهها من ربحكم أثر .

(*) ولد حسن البحيري عام ١٩٢١ في مدينة حيفا، وعاش فيها يتيمًا، نشأ على سفوح جبل الكرمل، وتأمل ذلك الجمال، والإطلالة الساحرة على البحر، عشق أزهاره. وأعشابه، تفتحت عيناه على ما يجري في فلسطين من عملية إحلال للغرباء، على حساب أهله، وعشيرته، فكتب الشعر مبكرًا، ووهب حياته لشعره.

في كثيرٍ من المواقف رأينا الشاعر يتنبأ، وينبِّه، وينادي، فهذا الشاعر إبراهيم طوقان(*) نبَّه، مبكرًا، لنبذ التناحر الحزبي الفلسطيني، وأنذر، في الثلاثينيات من القرن العشرين، بعاقبةٍ وخيمةٍ من جرائه، حين قال في قصيدة بعنوان «القدس»:

دار الزعامة والأحزاب كان لنا قضية فيك ضيعنا أمانيهـــا

هل تذكرين وقد جاءتك ناشئةً غنية دونها الأرواح تفديهـا

تود لو وجدت يومًا أخا ثقةٍ لديك يوسعها برًّا ويحميهـا

ما كان كفؤًا عفيف النفس كافلها ولا أبيًّا حميّ الأنف راعيهـا

ولا أفادت سوى الأحقاد تضرمها فوق البلاد (زعاماتٌ) ونذكيهـا

ولم تبال بما تلقى لها حطبًا ولا بأيّ كرام الناس ترميهـا

قضية نبذوها بعدما قتلت ما ضر لو فتحوا قبرًا يواريهـا؟!

وبعده نبَّه الشاعر عبد الرحيم محمود(**) إلى خطورة ما يتعرض له المسجد الأقصى، وفلسطين، في قصيدته التي أنشدها في استقبال الأمير سعود بن عبد العزيز، الذي مر بقرية الشاعر، في طريقه إلى بيت المقدس، في أغسطس/آب ١٩٣٥، بعنوان «نجم سعود»، وقال مخاطبًا:

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر

ضمت على الشكوى المريرة أضلعه

المسجد الأقصى أجئت تزوره

أم جئت من قبل الضياع تودعـه

حرم يباع لكل أوكع آبق

ولكل أفاق شريد أربعـه

وغدًا، وما أدناه، لا يبقى سوى

دمعٍ لنا يهمي، وسنٍّ نقرَعـه.

***

كان لما تتعرض له فلسطين من أخطارٍ تهدد بضياعها أثر كبير على الشعراء الفلسطينيين، فكتبوا حزنًا، وغمًّا عليها،

(*) من مواليد نابلس، عام ١٩٠٥، وهو ابن عائلة طوقان الثرية، درس في نابلس، والقدس، أما تعليمه العالي ففي الكلية الأمريكية ببيروت (الجامعة الأمريكية، حاليًا)، ونال شهادة الجامعة في الآداب، عام ١٩٢٩. عمل، بعد تخرجه، بالتدريس في مدرسة النجاح بنابلس، ثم في الكلية الأمريكية، عام ١٩٣٩، تسلم القسم العربي في إذاعة القدس، وعُيِّن مديرًا لإدارة البرامج العربية حتى عام ١٩٤٠، عاجله المرض في شبابه، ولم يمهله، فقد توفي عام ١٩٤١، عن ستة وثلاثين عامًا، تاركا حصيلةً شعريةً وفيرة، والعديد من المقالات، والأحاديث الإذاعية.

(**) ولد في قرية عنبتا عام ١٩١٣، عاش اليتم مبكرًا، نشأ في ظروف الحرب العالمية الأولى، ثم الانتداب البريطاني، شاهد وطنه يتسرب من تحت أقدامه، ليحتله الغرباء. كل هذه الأحداث صهرت موهبته، فكان شعره زاخرًا بعاطفة متأججة، متنبئًا، بحسه الشعري، المستقبل المظلم المقبل على البلاد.

وعلى مقدساتها، ففي وقتٍ مبكر، وفي الثلاثينيات من القرن الماضي، كتب الشاعر مطلق عبد الخالق(*) قصيدةً بعنوان «فلسطين الشهيدة»، جاء فيها:

وخرت صخرة الأقصى خشوعًا ومهد يسوع مما شام ريعا
مآسٍ ما رأى الدهر شبيهًا لها مما عرفنا أوهِ قريعا

عن الاحتلال ومآسيه يكتب راشد حسين(**) قصيدةً بعنوان «القدس... والساعة»، تضمنها ديوانه «أنا الأرض لا تحرميني المطر»، يقول:

كانت الساعة في القدس قتيلًا وجريحًا ودقيقة
ولهذا كلما مرت بمحتلي عيون القدس طفلة
طفلة بنت صغيرة
فتشت أعينهم آلاتهم في صدرها
في رحمها
في عقلها
عن قنبلة
وإذا لم يجدوا شيئًا أصروا
هذه البنت الصغيرة
ولدت في القدس
والمولود في القدس
سيضحى قنبلة
صدقوا ... المولود في ظل القنابل
سوف يضحى قنبلة.

كما يتحدث خليل توما(***) عن الاحتلال في قصيدته «أغنيات الليالي الأخيرة»، في ديوان يحمل الاسم نفسه:

خرجت من أجداثها كتائب البرابرة

(*) ولد بالناصرة، وتلقى تعليمه بها، تميز بالذكاء، وسعة الاطلاع، عمل بالصحافة، لم يمهله القدر، فتوفي إثر حادثٍ أليم عام ١٩٣٧ وهو في سن السابعة والعشرين، نظم الشعر في التاسعة من عمره.

(**) ولد في إحدى قرى أم الفحم، عام ١٩٣٦، أنهى تعليمه الثانوي في الناصرة، ثم عمل محررًا لمجلتي «الفجر»، و«المرصاد»، وكان ناشطا في «حزب العمال الموحد» (المابام). ترك فلسطين عام إلى الولايات المتحدة، وتوفي عام ١٩٧٧ إثر حريق شب في بيته بنيويورك، وقد كتب قصيدةً بعنوان «القدس .... والساعة» تضمنها ديوانه بعنوان «أنا الأرض لا تحرميني المطر»، منشورات فلسطين الثورة، ١٩٧٦، في بيروت.

(***) ولد في بيت جالا، عام ١٩٤٥، حصل على الشهادة الجامعية في الأدب الإنجليزي من جامعة بيت لحم، عمل في الصحافة، صدر ديوانه الأول بعنوان «أغنيات الليالي الأخيرة»، عام ١٩٧٥ وهو في سجون الاحتلال.

شقَّت كتل الصخر عن صدورها

فرَّقت ورق التوت

ولفافات الأسطر المحنطة

فإذا رائحة الموت تعانق أزهار الليمون

ماذا رأيت؟

سارت القدس أسيرة

جسدًا يستغرق كل الصلوات.

عن العشق والحب لهذه المدينة، أنشد الشاعر أسعد الأسعد(*) إحدى قصائده عن القدس، على مسرح البالون بالقاهرة، عام ١٩٩٠، بمناسبة قيام الرئيس ياسر عرفات بتكريم الأدباء، والشعراء الفلسطينيين، عَبَّر فيها عن مشاعره الحزينة، وهو يمر على معالم القدس، ومنظر الغرباء المنتشرين في نواحيها، ينغِّص عليه، ويختتمها بهذه الأبيات:

غريبٌ أنت وحلمك مسكونٌ بالغرباءِ

تتبعك كلاب الصيد

تعشش في الطرقات عناكب تقتل حلمك

فحذار حذار، تشبث واحرس حلمك من أعينهم

وافتح للحلم نوافذك

تهب الريح، وتمتد الشطآن

تشبث،

في ليلٍ يفتقد العاشق عاشقه

يلتف الكل بعشق، قد يأبى ذات صباح

واصل حلمك وتشبث وتذكر

في باب العامود بشر من كل الملل

وكل الألوان

ولونك مطلوب من دون الألوان.

أما هارون هاشم رشيد، فقد كتب قصيدةً مليئةً بالعاطفةِ والحبِّ لمدينةِ القدس، أرضًا وجبلًا، وشجرًا، وزهرًا، تصل إلى حد العشق:

أحبك يا قدس لا تسأليني

لماذا وكيف وماذا أحب

(*) شاعرٌ، وأديبٌ، وباحثٌ فلسطينيٌّ، وُلِد بالقدس، عام ١٩٤٧، حمل هموم بلاده، وأنشدها شعرًا، ونثرًا، وروايةً، أفرد للقدس ديوانًا بعنوان «أنت ... أنا ... القدس والمطر».

فإني حملتك جرحًا ثخينًا

بأعماق قلبي ونارًا تشب.

ويسرد في وصفه جمال المدينة، من قبابٍ، ومآذن، وعطرِ الزهورِ في ربوعها، والزيتون في حقولها، ويختتم بأبياتٍ متفائلةٍ بالنصر:

ولا بد للعاشق المستهام

وإن طال ليل وأظلم درب

بأن يلتقي بهواه الكبير

فيحلو لقاء ويزدان قرب

على صهوة من رياح الفداء

يجيء إليك مع النصر شعب.

لا تخلو كتابات الشعراء من الانتشاء بالمقاومة، والدعوة لها، فيكتب خالد أبو خالد، الشاعر الفلسطيني، ابن سيلة الظهر، للوطن، وتظل فلسطين دائمًا حاضرةً في كتاباته، وفي ديوانه الخامس، بعنوان «**وشاهرًا سلاسلي أجيء**»، كتب قصيدةً بعنوان «**قرطبة في هجرة صقر قريش**»، جاء فيها:

هنا الصوت والبحر يختلطان

وينحل صمت البنادق حولي

وينهض تشرين بوابتين

إلى القدس واحدة، وإليك ... إليكِ

- انتبه!

- أين تمضي ؟

- هنا القدس

وتشتعل الأرض سكينة تتحول

ترسم أدخنة المدفعية

والدم خارطتي

للسهوب التي عرفتني.

في «**العنوان الجديد**»، قصيدة الشاعر جمال قعوار(*)، يخاطب فيها القدس بعد الانتفاضةِ مباشرةً، ويقول:

جددي يا قدس عهدًا

واكتبي في الكون مجدًا

(*) ولد بالناصرة، عام ١٩٣٠، وتلقى تعليمه الابتدائي، والثانوي بها، عمل معلمًا بدار المعلمين بحيفا، ثم التحق بجامعتها، وحصل منها على إجازته في اللغة العربية، ثم حصل على الماجستير في اللغة العربية من الجامعة العبرية، غزير الإنتاج الشعري، مع الجودة.

وانشري في أضلع المحتل رعبًا

ليس يهدأ

****

لتعود القدس حرة

لتبقى أبدًا في جبهة التاريخ غُرَّة.

ويبقى جرح القدس غائرًا في نفوس الفلسطينيين، لا سيما الشعراء منهم، فهذا سميح القاسم(*) يكتب في ديوان «**جهات الروح**»، قصيدة «**انتقام الشنفري**»، قال:

ويومًا بذات الجليل

ويومًا بذات الخليل

ويومًا بيافا وحيفا

وبيروت باريس عمان روما

ويومًا بكل الحواضر

كل المنابر

كل المقابر

وللشمس أمر

وللقدس دهر

يحاذر حينا

وحينا يجاهر

وشعب على العسف والخشن صابر

وللقدس جرح يهز الضمائر ...

ما من ضمائر

ذريني يا أم واسترسلي جثة في كثيب

ذريني ليأسي وغنمي

إذا حرموني الحبيب فإني المحب وإني الحبيب

وماضٍ وحاضر

ومستقبل في غياب هذا الزمان المغامر.

(*) ولد عام ١٩٣٩ لأسرة درزية، تعلم في مدارس الراحة، والناصرة، وعلَّم في مدارسها، ثم انصرف إلى الحياة السياسية، قبل أن يتفرغ لعمله الأدبي، وهو من أبرز الشعراء الفلسطينيين، غزير الإنتاج الفكري، والشعري.

في الختام عذرًا؛ لأنني في هذه العجالة لم أستطع تغطية جميع الشعراء الفلسطينيين، فليس ثمة شاعر فلسطيني لم يأت بشعره عن القدس، فالقدس ملهمة الشعراء، وهي في مكانة القلب لكل الفلسطينيين، والعرب، ونختتم هذا الموضوع بقصيدة طويلة، للشاعر الفلسطيني الشاب تميم البرغوثي(*) «**في القدس**»، حيث جمعت القصيدة كلًا من التاريخ، والمكان، والحب، وظلم الاحتلال، والحنين، والتفاؤل، نقتطف منها:

مررنا على دار الحبيب فردنا ... عن الدار قانون الأعادي وسورها
فقلت لنفسي ربما هي نعمة ... فماذا ترى في القدس حين تزورها
ترى كل ما لا تستطيع احتماله ... إذا ما بدت من جانب الدرب دورها
وما كل نفس حين تلقى حبيبها ... تسر ولا كل الغياب يضيرها

ويعبِّر عن تعلقه بالمدينة قائلًا:

متى تبصر القدس العتيقة مرة ... فسوف تراها العين حيث تديرها

يمضي في استعراض الوجوه في القدس، حيث المهاجرون أتوا من جميع أصقاع الدنيا، ويعود إلى استعراض متى مروا عليها عبر التاريخ المحفور على حجارة أبنيتها، ونرائحة توابلها في حوانيت خان الزيت سحر، يخاطب الشاعر:

في القدس رائحة تلخص بابلًا والهند
في دكان عطار بخان الزيت
والله رائحة لها لغة ستفهمها إذا أصغيت
وتقول لي إذ يطلقون قنابل الغاز المسيل للدموع عليّ: لا تحفل بهم
وتفوح من بعد انحسار الغاز وهي تقول لي: «أرأيت»؟

ثم يستعرض من مر على المدينة سواء غازيًا أو زائرًا:

فالقدس تقبل من أتاها كافرًا أو مؤمنًا
امرر بها واقرأ شواهدها بكل لغات أهل الأرض
فيها الزنج والإفرنج
والقفجاق والصقلاب والبشناق
والتاتار والأتراك
أهل الله والهلال
والفقراء والملاك

(*) ولد بالقاهرة عام ١٩٧٧، وهو ابن الشاعر مريد البرغوثي، درس العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، يكتب في الشعر، وفي السياسة.

والفجَّار والنُّسَّاك

فيها كل من وطئ الثرى

أرأيتها ضاقت علينا وحدنا

يا كاتب التاريخ ماذا جد فاستثنيتنا

يا شيخ فلتعد الكتابة والقراءة مرة أخرى، أراك لحنت.

ويختتم القصيدة بنبرة حزينة لكنها متفائلة:

العين تغمض ثم تنظر

سائق السيارة الصفراء مال بنا شمالًا نائيًا عن بابها

والقدس صارت خلفنا

والعين تبصرها بمرآة اليمين

تغيرت ألوانها في الشمس من قبل الغياب

إذ فاجأتني بسمة

لم أدر كيف تسللت في الدمع قالت لي وقد أمعنت ما أمعنت

«يا أيها الباكي وراء السور» أحمق أنت؟

أجننت؟ .. لا تبك عينك أيها المنسي من متن الكتاب

لا تبك عينك أيها العربي واعلم أنه

في القدس ما في القدس لكن لا أرى في القدس إلاّ أنت.

***

مراجع الفصل الرابع:

- الشيخ إبراهيم الدباغ، **الطليعة**، مطبعة محمود توفيق، الدَّرَّاسة، ١٩٣٨.
- حسن البحيري، **لفلسطين أغني**، مطبعة دار الحياة، دمشق، ١٩٧٩.
- **ديوان إبراهيم طوقان**. دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.
- **ديوان أبو سلمى**، دار العودة، والاتحاد العام للكُتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١.
- خالد أبو خالد، **وشاهرًا سلاسلي أجيء**، بيروت، منشورات الاتحاد العام للكُتاب والصحفيين الفلسطينيين، رقم٨.
- خليل توما، **أغنيات الليالي الأخيرة**. القدس، منشورات صلاح الدين، ١٩٧٥.
- راشد حسين، **أنا الأرض لا تحرميني المطر**، بيروت. منشورات فلسطين الثورة، ١٩٧٦.
- سميح القاسم، **جهات الروح**، القاهرة، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
- عبد الرحيم محمود، **روحي على راحتي**، نابلس، مركز إحياء التراث، مكتب الكرمل، ١٩٨٥.
- فاروق مواسي، دراسة بعنوان: **القدس في الشعر الفلسطيني**، موقع أفق على الشبكة العنكبوتية.
- هارون هاشم رشيد، **مفكرة عاشق**، دار سيراس، تونس، ١٩٨٠.

obeikan.com

الفصل الخامس

القدس في الشعر العربي

مي قدري زيادي

لم يعد الشعر ديوانًا للعرب ومفخرة لهم، كما كان من قبل، لكن دوره تراجع بعد تراجع موقع العرب في العالم، بعدما استفحلت العولمة داخل حياة الشعوب العربية: الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، ومع تعرض الوطن العربي للهجمات الشرسة من الإمبريالية الغربية، والصهيونية، التي تحاول دائمًا اختراق الهوية العربية، وفرض سيطرتها عليها. فلم يعد الشعر أداة للتعبير عما حققه العرب من إنجازات، وبطولات، كما كان من قبل، بل أصبح الشعراء الذين يحملون هموم أوطانهم على أكتافهم، وفي قلوبهم، يستخدمون الشعر كأداة للتعبير عن الظلم الواقع عليهم، وعلى أوطانهم، ولتفجير قضايا الوطن العربي في كل مكان، لعل أصواتهم تصل إلى كل من بيده الأمر، فيهب مسرعًا لنجدة أوطاننا من الخزي والعار، ولإشعال حماسة العرب، وأصالتهم وتاريخهم.

تتناول دراستنا كيفية تناول الشعراء العرب لقضية القدس، وموقفهم منها، ومن الحكام، والشعوب العربية، التي تشترك جميعًا في الحق في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وفي قلبها القدس.

إذا كانت القدس إحدى أهم المدن التليدة العريقة في العالم؛ فإنها تمتاز عن غيرها من المدن بقدسيتها، ومكانتها العالية عند أصحاب الرسالات السماوية، حيث يؤمونها جميعًا سواءً بسواء، ليحج كل فريق منهم إلى أماكن عبادته المقدسة، التي تتجاور في هذه المدينة العريقة، وكأن تلك الأماكن جميعًا تؤكد أنها تهدي بني الإنسان إلى قيم الحق والخير والجمال[1].

من هنا نالت القدس استقرارًا في المنطقة اللاشعورية للشعراء، فمنهم من بكاها كمكان، ومنهم من بكاها كرمز، ومنهم من بكاها وهو يرى بأم عينيه ما يحدث لها، ومنهم من بكاها كحلم، ومنهم من بكاها كذكريات ماضية، أو كمكان سمع عنه من أهله اللاجئين في شتى الأقطار[2].

تتحدد علاقة الشاعر بالمكان في صورة مباشرة، يصور فيها الشاعر المكان بكل أجزائه بروح من يعيشه، ويحياه بمشاعره، ويعكسه من خلال عدسته التي تجوب المكان وأحراشه، وقد تتحدد علاقة الشاعر بالمكان بصورة أخرى، غير مباشرة، يتحول فيها المكان حلما، أو تجربة شعرية، غير أنه يبقى واقعًا محتملًا؛ لأن جزئياته إنما تستقر في العقل الباطن، إما بالمشاهدة، أو بالسماع. وفي كلتا الحالتين يلعب الخيال الشعري دوره في تحديد المكان، وتشكيله، وفق مفردات لغوية، تنأى به عن الواقع، أو بمعنى آخر توهماته[٣].

.بما أن المدينة المغتصبة، والمحاربة، تحتل مكانة كبيرة في رؤية الشاعر العربي المعاصر، فقد استطاع الشعراء العرب رصد تاريخ القدس، وما يحدث لها، من خلال قصائدهم التي رصدت كل ما لحق بالقدس منذ وعد بلفور عام ١٩١٧، وهبة البراق عام ١٩٢٩ وظهور النزعة الدينية المقدسة في الشعر العربي للدفاع عن القدس والثورة الوطنية الفلسطينية عام ١٩٣٩، وبعدها يأتي الشعر العربي، ليعبر عن القدس بعد نكبة ١٩٤٨، وضياع القدس العربية، حتى حلول هزيمة يونيو/ حزيران ١٩٦٧.

مكانة القدس كمدينة، ورؤية الشعراء لها

نظر الشاعر اللبناني «رشيد الخوري» إلى «وعد بلفور» البريطاني للصهاينة باعتباره وعدًا باطلًا، وحيث كانت الغارات الحربية اليومية في القدس هي التي تخبر الملأ عمن هو صاحب الحق في الأرض، هنا قال الخوري[٤]:

جزى الله عنا بلفرا أجر محسن

فوالله لم يبرأ من الفضل بلفر

عرفنا به أنا سلالة أمة

مخلدة كالفجر يطوي وينشر

إذا كان أولى الناس بالعيش باسل

فنحن به من سائر الخلق أجدر.

يستكمل إيليا أبو ماضي، وعيناه على القدس، وما حل بها وبفلسطين، منذ بواكير عهد فلسطين بالانتداب البريطاني، بل منذ أن برز إلى الوجود «وعد بلفور»، فيقول أبو ماضي[٥].

ديار السلام، وأرض الهنا

بشق على الكل أن تحزنا

فخطب فلسطين خطب العلا

وما كان رزء العلا هينا

ألا ليت بلفور أعطاكم

بلادًا له، لا بلادا لنا

فلندن أرحب من قدسنا

وأنتم أحب إلى لندنا.

بعد صدور «وعد بلفور» أخذ المستوطنون اليهود يهتفون بجوار حائط البراق، «الحائط حائطنا»!، ويدعون بأن هذا الحائط هو ما تبقى من هيكل سليمان، بينما المسلمون يؤكدون أن هذا هو «حائط البراق»، الذي عُرج بالرسول ﷺ منه إلى رحلة المعراج، من هنا بدأ الشعراء يكتبون قصائدهم، حاملين النزعة الدينية المقدسة لهذه المدينة العتيقة، حيث كان للقدس مكانة كبيرة في نفوس الشعراء، فنجد الشاعر المصري الكبير محمود حسن إسماعيل في ديوانه «**القدس تتكلم**»، يقول[٦]:

يا قدس يا حبيبة السماء

قومي إلى الصلاة

وباركي الحياة

ورددي التسبيح في المآذن

وأيقظي التكبير في المآذن

وكبري لله لا تهادني

قومي إلى الصلاة

وباركي الحياة.

أما الشاعر المصري أحمد سويلم، فله قصيدة تحت عنوان «**صلوات في المسجد الأقصي**»، ويتضح من عنوان القصيدة أن ما يقصده سويلم لم يقتصر في قوله على المسجد الأقصى، بل كان حسبه أن يجعل المسجد الأقصى عنوانًا، تندرج تحته أغراض أخرى، كما أن ذكره للصلوات يكشف عن إيمان يعمر في قلبه، ويحن إلى عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين، ليؤدوا الصلاة فيه، فيقول الشاعر[٧]:

لن تسألني أرضي يوما

من أنت؟

لم يسألني أمسي...

لن تسألني المئذنة الشاهقة الهامة

فأنا ما جرجرت الساقين لها في تيه الغربة

ما ارتعدت أطرافي وأنا أهو فوق روابيها.

يربط الشاعر المصري محمود حسن إسماعيل في قصيدته «**الأذان الذبيح**» بين رحلة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ وبما حدث للمسجد الأقصى من احتلال الجيش الإسرائيلي له، وللقدس، فيقول إسماعيل، موجها خطابه إلى أذان المسجد الأقصى، وهو يعاني من وراء السكون والأغلال، وذلك على الرغم من نبرة التشاؤم والحزن المسيطرة على الجو العام للقصيدة، فيقول[٨]:

تلفت..فما زال خطو النبي

يرش لك النور بالراحتين

ويسقيك إسراؤه في الظلام
رحيق القداسة من خطوتين
ألمت شعاعاته بالتراب
وخطت به أولى القبلتين
وأول إصغاء هذا الوجود
لرب السماوات في سجدتين.

عن مدى تأثر الشعراء بالقدس، من الجانب الديني، نجد الشاعر صالح جودت متأثرًا بالقرآن الكريم، فيكتب عن ذكرى عودة المشردين، الذين أُبعدوا عن ديارهم، فكان الشاعر هنا أقوى لهجة، وأكثر تأكيدًا لما يقول، معتمدًا على الله، الذي يرفع إليه أكف الضراعة، والدعاء، وهو موقن بأن الله سيجيب دعاءه، وينصف المسلمين من كيد وبطش الظالمين، فيقول[٩]:

لا والضحى والليل إذا سجى
وكل سيار به تهتدي
لن يطلع الصبح على ظالم
مستغرق في حقده الأسود
سترجع القدس إلى أهلها
مجلوة بالمجد والسؤدد
والمسجد الأقصى إلى ربه
يزخر بالرُّكَّع السُّجَّد
ستشرق الشمس على أمة
لغير وجه الله لم تسجد.

في تجربة شعرية ضخمة صاغ الشاعر المصري محمد عايش عبيد السيرة النبوية العطرة شعرًا، في عشرة آلاف بيت، وفي كتاب من أربعة أجزاء، معتمدًا في صياغته على السيرة النبوية لابن هشام، فتناول عبيد رحلة الإسراء والمعراج قائلًا[١٠]:

عن رحلة الإسراء سلني إنني في الصادقين
هي رفعة للمصطفى فوق الخليقة أجمعين
هي فتنة للمشركين ورحمة للمؤمنين
تمت على متن البراق وصحبة الروح الأمين.

أثر نكبة فلسطين في الشعر العربي

كان للنكبة أثر بالغ في الشعر العربي، ابتداءً من عام ١٩٤٨، فإلى جانب الموضوعات التي أوجدتها المأساة، تناول

الشعراء جوانب الضعف في بناء الأمة العربية، وحدد الشعر موقف هذه الأمة من إسرائيل، العدو المشترك، وممن يمدونها بأسباب البقاء، والقوة، ويمهدون لها الطريق والعدوان، والتوسع، وموقف الأمة من المنظمات الدولية التي تحيزت لإسرائيل، ومن الدول ومن الأحلاف العسكرية، وظهر أثر المأساة في الشعر الحديث، معبرًا عن الذات العربية، واعتناق فلسفة، ومخاطبة المستعمر بلغة المصلحة، والكشف عن جوانب القوة الكامنة في الأمة العربية، وما تملكه من مقدرات ، وإمكانيات، تتيح لها إذا اتحدت وتضامنت أن تملي إرادتها على الذين أوجدوا إسرائيل، وأن تعيد الحق إلى أهله[١١].

نظم الشاعر المصري علي الجارم هذه القصيدة عندما توالت انتصارات الجيش المصري في فلسطين ١٩٤٨، إلى أن وصل إلى مشارف تل أبيب، فتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية، وفرضت الهدنة على الجانبين، من أجل مصالح إسرائيل، لتجنبها عار هزيمة محققة، فقال الجارم[١٢]:

تألق النصر واهتزت عوالينا

واستقبلتْ موكب البشرى قوافينا

غنى لنا السيف في الأعناق أغنية

عزفت على الأيك إيقاعًا وتلحينا.

في النص الأول للشاعر علي محمود طه، في قصيدته المشهورة **«مولد إسرائيل»**، يقول[١٣]:

أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا

أنتركهم يغتصبون العروبة مجد الأبوة و السؤددا؟

وليسوا لغير صليل السيوف يجيبون صوتًا لنا أو نِدا

فجرد حسامك من غِمده فليس له بعدُ أن يُغمدا

أخي إن في القدس أختًا لنا أعد لها الذابحون الـمُدى

أخي قم إلى قبلة المشرقين لنحمي الكنيسة والمسجدا.

فهنا حض الشاعر المصري على الجهاد، لاستخلاص قطعة عزيزة من ميراث الآباء، والأجداد، وتطهير البلد المقدس من الدخلاء، ولم يخص في دعوته قطرًا دون آخر، وإنما وجه دعوته عامة للعرب جميعًا، ليسارعوا إلى النضال.

رؤية الشعراء العرب للقدس بعد هزيمة ١٩٦٧

أعلن الشاعر الحضرمي الأصل، علي أحمد باكثير، من خلال قصيدته المسماة **«إما تكون أو لا تكون»**، عدم قبول الصلح مع العدو الإسرائيلي، مهما كانت الخسائر العربية، ومهما بغى العدو الصهيوني، واستشرى بلاؤه، ومهما نال من أقدس مقدساتنا، وأعمل فيها الخراب، فقال باكثير في إصرار يدل على مكانة الأصالة فيه، وفي جوهره، ومعدنه[١٤]:

لا صلح يا قومي وإن طال المدى

وإذا أغار خصمنا وأنجدا

وإن بغى وإن طغى وإن عدا

وروَّع القدسَ وهد المسجدا.

ينظم الشاعر المصري أمل دنقل، بعد هزيمة ١٩٦٧، قصيدة «**سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس**»، وفيها تظهر رؤية دنقل العميقة التي تتجاوز الرؤية المباشرة، فيقول دنقل[١٥]:

عائدون

وأصغر إخوتهم ذو العيون الحزينة

يتقلب في الجب...!

أجمل إخوتهم لا يعود...!

وعجوز هي القدس يشتعل الرأس شيبا

تشم القميص، فتبيض أعينها بالبكاء

ولا تخلع الثوب حتى يجيء لها نبأ عن فتاها البعيد.

هنا يشبه دنقل ما حدث في هزيمة يونيو/ حزيران ١٩٦٧ بقصة سيدنا يوسف (عليه السلام) ويصور القدس هنا وكأنها عجوز اشتعل رأسها شيبًا من كثرة الحزن.

أما الشاعر المصري، محمود حسن إسماعيل، فيتحدث عن القدس، يقول: وجدنا المآذن فوق المنابر، على دور العبادة في القدس تحكي عن المجازر التي يرتكبها المحتل الغاشم في حق الفلسطينيين، ثم يقول إسماعيل برؤية متفائلة: على الرغم من ذلك، هناك ليل ينادي الشروق، أي مهما كثر الظلم والطغيان، فنحن في انتظار الحرية.

ويؤكد إسماعيل أن صوتًا من عند الله ينادي في كل مكان، أنه لو دمرت كل قباب دور العبادة، وأصبحت القدس أرضا للطغاة، فسنظل جميعًا ذاهبين لمحراب القدس نصلي[١٦]. ويقول إسماعيل في قصيدة «**وجئت أصلي**»:

وجدنا المنابر

تحكي مجازر للطهر مخنوقة في العروق

وجدنا على صخرة الحق

ليلًا.... ينادي الشروق

و نارًا... تشدُّ يد النور

من قاع ليلٍ عميق

وصوتًا من الله

يزأر في كل ركن عميق[١٧].

ينظم الشاعر السوري، الشهير، نزار قباني، قصيدة، يعبر من خلالها عن رأيه في أن العرب كلهم مشاركون في الجريمة، جريمة الجهل بالتاريخ، والتقاعس عن نجدة وإغاثة من يستغيث، إنه يقول، ذات مرة، وهو بالعراق، في ذكرى مرور عامين على هزيمة يونيو/ حزيران ١٩٦٧[١٨]:

لو قرأنا التاريخ..ما ضاعت القدس

وضاعت من قبلها الحمراء

فلسطين..لا تزالين عطشى

وعلى الزيت نامت الصحراء

العباءات كلها من حرير

والليالي رخيصة حمراء

يا فلسطين..لا تنادي قريشًا

فقريش ماتت بها الخيلاء.

فيما أشاد الشاعر اللبناني المخضرم، بشارة الخوري، ببسالة العرب في فلسطين، وصور حزن الأمة العربية عليها، واستثار العرب، لنجدتها في قوله[١٩]:

يا فلسطين التي كدنا لما ... كابدته من أسى ننسى أسانا

نحن يا أختُ على العهد الذي ... قد رضعناه من المهد كلانا

يثرب والقدس منذ احتلما ... كعبتانا وهوى العرب هوانا

شرف للموت أن نطعمه ... أنفسنا جبارة تأبى الهوانا

يستكمل الشاعر العراقي المعروف، والذي عرفته عواصم الدول العربية شاعرًا، مشردًا، وهو مظفر النواب الذي كتب قصيدته «**القدس عروس عروبتكم**» عام ١٩٧٢، وهو يشعر بالغضب، إزاء العرب، وخاصة منهم الخونة، الذين باعوا فلسطين، من أجل مصالحهم، فينظم النواب قصيدته المفعمة بالثورة والغضب، يقول[٢٠]:

من باع فلسطين وأثرى بالله

سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام

ومائدة الدول الكبرى

فإذا جن الليل

تدق الأكواب بأن القدس عروس عروبتنا

أهلا أهلا أهلا

من باع فلسطين سوى الثوار الكسبة

أقسمت بأعناق أباريق الخمر

وما في الكأس من السم

وهذا الثوري المتخم بالصدف البحري ببيروت

تكرش حتى عاد بلا رقبة

أقسمت بتاريخ الجوع ويوم السغبة

لن يبقى عربي واحد، إن بقيت حالتنا هذي الحالة

بين حكومات الكسبة

القدس عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها؟!

ووقفتم تستمعون وراء الباب

لصرخات بكارتها

وسحبتم كل خناجركم

وتفاخرتم شرفًا.

يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل عقب الحريق الآثم للمسجد الأقصى، في أغسطس/ آب ١٩٦٩: إنه رغم اندلاع الحرائق والأعاصير في ساحات المسجد الأقصى ورغم كل تلك المعوقات، جاء الناس من كل مكان لأداء الصلاة والطقوس الدينية، يقول إسماعيل[٢١]:

وجئت أصلي

ورغم اندلاع الدجى، كالبراكين حولي

ورغم الأعاصير ترمي خطاها لسفحي وجرحي

وساحات هولي،

أتيت أصلي..!

أما الشاعر محمد التهامي، الذي يلقب بشاعر العروبة، فيقول في قصيدته بعنوان «القدس»[٢٢]:

كثير ببابك تلك الصور، وأكثر منها لديك العبر

وذكرك أعيا لسان الزمان لعمق الحكايا وطول السِّيَر.

فالشاعر هنا يجعل لقصيدته مقدمة، يتجه فيها بالكلام إلى القدس، فيضعها في منزلتها بين المدن، وينسب إليها ما لا ينسب إلى غيرها، وما كان له غنية عن قوله، إنها ملتقى الأنبياء، فهذا من الدلائل على سمو قدرها، ثم يقول:

ويا واحة منذ فجر الوجود تجمع فيها الهدى و انتشر

تربى النبيون في حِجرها وأرضعت الحق حتى كبر

وضمته في الدفء أحضانها وساقته أنفاسها فانتشر

وأول خيط الهدى عندها وآخره فوق كل البشر.

تعبر الشاعرة العراقية المعروفة، نازك الملائكة، برؤية فلسفية، تبعث على وجوب إحياء القضية، التي تتبناها الشاعرة في قصيدتها «**سوسنة اسمها القدس**»، حيث استطاعت في أسلوب إنشائي، جاء في صورة استفهامات متكررة، في إطار رؤية تحمل معاني الخوف، والتقصير، والإحساس بالذنب، حين يبدأ الحساب الذي يعقب الموت، تقول نازك[٢٣]:

إذا نحن متنا وحاسبنا الله

قال: ألم أعطكم موطنا؟

أما كنت رقرقت فيه المياه مرايا؟

وحليته بالكواكب؟ زينته بالصبايا

وفي ظلمات لياليكمو، أنا قد زرعت القمر.

يستدعي الشاعر العراقي، بدر شاكر السياب، من التاريخ مشهد ما يدعون أنه صَلْب المسيح، والعبارات الشعرية على لسانه ذاته، ويمزج هذا المشهد بمشهد مخاض القدس في الوقت الحاضر، في رؤية شعرية ذات آمال في المستقبل، على الرغم من دموية الحاضر، فيقول شاكر[٢٤]:

بعدما أنزلوني، وسمعت الرياح

في نواحٍ طويلٍ تسف النخيل

والخطى وهي تنأى إذن فالجراح

والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل

لم تمتني وأنصت: كان العويل

يعبر السهل بيني وبين المدينة

مثل حبل يشد السفينة

وهي تهوي إلى القاع، كان النواح

مثل خيط من النور بين الصباح.

يقول الشاعر فاروق جويدة، في قصيدته «لن تموتوا مرتين»[٢٥]:

القدس سوف تحاصر الموتى

ستهدم كل جدران المقابر

ستطوف فوق شواهد الأحياء

نصرخ في بيوت السوء

سوف تصيح من فوق المنابر

يتدفق الصوت العتيق

هنا يتحدث جويدة عن القدس، وكأنها شيء قام بمحاصرة الموتى، وكأنها جرار سيهدم كل المقابر، وكأنها طير يحلق فوق الأحياء، وكأنها إنسان يصرخ في العرب المتخاذلين، الذين سماهم جويدة «بيوت السوء».

عبرت الشاعرة العراقية، نازك الملائكة، بتأثر شديد عن مدى حزنها على ما أصاب فلسطين، ومعها تراث الأجداد و مسرى النبي ﷺ وموطن المسجد الأقصى، وتوعدت غاصبيها بأن العرب أقسموا على التفاني في تحريرها[٢٦]:

رددي نفحة العلا والخلود في ديار الإسراء أرض الجدود
رددي للبقاء لحن الأماني أتت أولى الشاردين بالتغريد
رجعي نغمة لقد طالما سر نا على وقعها لفتح جديد
وانثري أجمل الزهور على تر ب فلسطين موضع التوحيد
وافخري إذ بنوك تواصوا أن يضنوا بعزك المعهود

الشاعر العراقي المعروف، أحمد مطر، كتب قصيدته المشهورة «**بين يدي القدس**»، يناجي فيها القدس، وكأنها سيدته، التي يطلب منها المعذرة، ويصف حاله بأنه ليس له يدان، وليس له أسلحة، أو ميدان ليدافع عن حقوقه، فيقول مطر[٢٧]:

يا قدس يا سيدتي..معذرة
فليس لي يدان
وليس لي أسلحة
وليس لي ميدان
كل الذي أملكه لسان
والنطق يا سيدتي أسعاره باهظة
والموت بالمجان

سيدتي أحرجتني
فالعمر سعر كلمة واحدة
وليس لي عمران
أقول نصف كلمة
ولعنة الله على وسوسة الشيطان.

يشير الشاعر محمود حسن إسماعيل، في قصيدته «**رفض الهزيمة**»، إلى القدس، وهي ترفض الذل والعار، فهي المدينة التي تبعث بالنور لكل العالم، والتي أُسْرِيَ بالرسول ﷺ منها إلى رحلة الإسراء والمعراج، فهي المدينة التي تنقذ وجه الأرض من الظلمات، ألقى إسماعيل هذه القصيدة في مهرجان الشعر العربي الثامن عشر بالقاهرة عام ١٩٦٨، يقول إسماعيل[٢٨]:

ترفض مثلي أرض سمعت نجوى الله على شفتيها
أصغت ورنت، ثم أضاءت حَلَك الدنيا من خديها
ثم تهادى خطو الرسل، يدفق نورا بين يديها

obeikan.com

عانق فيها كل نبي مَرَّ ....أخاه،

وغدت كل حصاة فيها قدس الصلاة

قدس لقاء بارك وجه الله ثراه

حين أتاها حاوي النور يشق ضحاه

فوق سفين عبرت لج الغيب وطارت دون شراع

غير نداء الأفق الأعلى سبح في يمناه شعاع

فدنا منه وشرب الحق من الآيات

ومضى ينقذ وجه الأرض من الظلمات.

ينادي الشاعر المصري الشعبي المعروف، عبد الرحمن الأبنودي، القدس بأن تنتبه إلى العدو الحقيقي لها، دون أن تقع تحت وطأة الخداع، باسم مصلحة القدس، فيقول الأبنودي[٢٩]:

يا قدس لمي جناحك وارجعي تاني

لا تصدقي قولي ولا تأتمني أحضاني

نامي في حضن العدو..هو العدو التاني

يا قدس خافي قوي من العدو التاني

الخنجر المختفي وانتي فاكراه ضلع

الأفعى ورا ضحكتي والموت في أسناني.

ينظم الشاعر المصري، محمد إبرهيم أبو سنة، قصيدة احتفالًا بنصر أكتوبر ١٩٧٣، لكنه لم ينس القدس الجريحة، وهي على قمة المدن العربية التي نُهش لحمها بأنياب ومخالب الذئب الإسرائيلي الشرس منذ أعوام عديدة، فقال أبو سنة والحزن ملء الصدر[٣٠]:

القدس تجلس والدماء

فوق الثياب وفوق أطواق الحمام

وتظل تقرأ في الكتاب

الله في القرآن والإنجيل والتوراة يشهد

إن غربان الحدود من اليهود

صلبوا على الأرض السلام

أسرى غرامك يا فلسطين الأسيرة.

أما أمل دنقل، فتوحد مع أبناء شعبه، ورنا، وكتب عن القهر في التنازل عن الثورة، مصير مصر، وهنا كتب دنقل قصيدة «**لا تصالح**»، بمجرد توقيع اتفاقية فصل القوات الثانية بين إسرائيل وحكومة مصر، ونُشرت القصيدة على نطاق واسع في الصحافة العربية، فلقد رأى كثيرون في تلك الاتفاقية بداية مريبة، تهدد الموقف القومي العربي، فهنا

تحدث دنقل عن القدس، ولكن برؤية غير مباشرة، فهو يرفض الصلح، على حساب القضية الفلسطينية، وفي قلبها القدس، فيقول[٣١]:

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما؟

هل ترى؟

هي أشياء لا تشترى[٣٢].

شهداء القدس في الشعر العربي

تنظم الشاعرة الموريتانية، مباركة بنت براء، في قصيدتها «**رسالة من الشهيد محمد الدرة**»، بعد انتفاضة الأقصى يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠، تقول مباركة[٣٣]:

رصاصَك سدِّدْ فالصور مواقد

وبالأرض من همي جوى متصاعد

رصاصك سدِّدْ يا حقود فلا أنا

من القتل مزور ولا أنا شارد

أنا من دمي تخضر أرضي وتنتشر

وينبت جيل يألف الهم واعد.

يستكمل فاروق جويدة قصائده بعد اندلاع انتفاضة الأقصى، فيصور صعود الشعب الفلسطيني في القدس، وتمسكه بثأره، فيقول جويدة وهو يبث روح الحماس في الإنسان العربي[٣٤]:

في القدس شعب عنيد قام في شَمَم

بالثأر أقسم سوف يبر بالقَسَم

يا أمة الحق هبي الآن في غضب

كيف استكنت لذل العجز والندم

أشلاؤنا لم تزل في القدس دامية

وكل طفل لها يغفو على اللغم.

تأخذ الانتفاضة مساحة بارزة في قصائد الشاعر السوري سليمان العيسى، وهو الذي أبدع، فوق شعره القومي، في الشعر الموجه إلى أطفال الأمة، وكأن وقع بطولات فتيان الحجارة كان ذا صدى خاص في وجدانه؛ لذلك قال في قصيدته «**نشيد الحجارة**»، والتي تحدث فيها عن القدس، باعتبارها المدينة التي يستشهد هؤلاء الشهداء من أجلها[٣٥]:

وأضم أطفالي إلى وتري

وألتمس البقايا من نشيد الحجر

أهديها إليهم

أرسم الألق العظيم على الدخان

أقول للشعراء:

هذا عصر ملحمة الحجارة

أبطالنا المتشبثون بأرضهم وشمسهم

وبزهرة الرمان والزيتون في أيديهم

لهم تهيىء ثوبها القدس الجريح

مطرزا بالأرجوان

وتستعد لعرسها العربي.

يعبر فاروق جويدة في قصيدة «**إلى آخر شهداء الانتفاضة**» عن قضية فلسطين، من خلال الشهيد الذي يسقط مدافعًا عن القدس، فجعل جويدة من القدس إنسانًا يبكي، فوق قبر الشهيد، الذي مات مدافعًا عنها، لمدة ألف عام، فيقول جويدة[٣٦]:

مت صامدا...

واترك عيون القدس تبكي

فوق قبرك ألف عام

قد يسقط الزمن الرديء

ويطلع الفرسان من هذا الحطام.

تنظر الشاعرة المصرية المعروفة إيمان بكري إلى الانتفاضة في قصيدتها، «**قَسَم قدسي**»، معلنة بأن الإصرار العربي لن تلين قناعته، باستشهاد الصغار، أو الكبار، فالقدس ستعود حتمًا، إلى حضن العرب، وذلك حينما قالت[٣٧]:

مات الصغير وبعينه السمراء أغنية تقاتل

وبكفه اليمنى الصغيرة نبض أحجارها تناضل

قسمًا بموت سنابلي جهرًا على صدر الحقول

قسمًا بنفي رسائلي وبذبح أوردة النصول

سنعيدها عربية

وعزيزة وأبية

باسم انتفاضة قدسنا ويعزمنا باسم الإرادة.

عندما استشهد القائد الفلسطيني «عبد القادر الحسيني»، وهو القائد العام لقوات الجهاد المقدس، في معركة القسطل (٨/ ٤/ ١٩٤٨)، كتب الشاعر المصري، أحمد مخيمر، وقتها قصيدته «**البطل**»، حيث قال فيها مخاطبًا هذا البطل الشهيد[٣٨]:

نلت الشهادة فاهنأ أيها البطل

بمثل عزمك تبني مجدَها الدول

أمامك الجنة الخضراء تفتحها

لك السيوف التي حطمت والأسل

السابقون من الأبطال قد دخلوا

والضائعون من الأحرار قد وصلوا.

فالشاعر هنا يخاطب إنسانا حيًّا، لا ميتًا، فهو إنسان يعي، ويدرك ما يقال له، ومخيمر بذلك يرسم صورة للشهيد، بحيث تقوم السيوف بفتح أبواب الجنة على مصراعيها له، فضلًا على ذكر الشاعر لرغبة هؤلاء الشعراء في العودة للحياة الدنيا مرة أخرى لكي ينالوا الشهادة مرة ثانية.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) محسوب محمد سليمان، **شعر القضية الفلسطينية في الأدب العربي المعاصر**، المنصورة، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص١١٥.

١٩٩٧، ص ٨٩.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٨٧ و ص٨٨.

(٤) إبراهيم حلمي، **القدس في الشعر العربي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨، ص١٣٦.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ١٣٥.

(٦) محمود حسن إسماعيل، **القدس تتكلم**، **القاهرة**، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٦، ص٨٠.

(٧) حسين مجيب المصري، **القدس الشريف بين شعر الشعوب الإسلامية**، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٢، ص٧٤.

(٨) إسماعيل، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٠.

(٩) المصري، **مصدر سبق ذكره**، ص٧١.

(١٠) حلمي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٥.

(١١) كامل السوافيري، **الشعر العربي في مأساة فلسطين**، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٣، ص٦٣٧.

(١٢) حلمي، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٤.

(١٣) السوافيري، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٩٧.

obeikan.com

(١٤) حلمي ، مصدر سبق ذكره، ص١٦٥ .

(١٥) أمل دنقل، **الأعمال الكاملة**، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٥، ص٢٩٧.

(١٦) www.alqudsonline.com .

(١٧) إسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص٧٨.

(١٨) حلمي، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٦.

(١٩) محمد أحمد الخوفي، **وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث**، بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٤، ص٧٢.

(٢٠) http: /montada.alwast.party com /showthread.php?t.

(٢١) إسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص٧٣.

(٢٢) المصري، مصدر سبق ذكره، ص٧٨و ص٧٧.

(٢٣) عبد الباقي. مصدر سبق ذكره، ص١٠٩.

(٢٤) حلمي، مصدر سبق ذكره، ص١٣٣.

(٢٥) فاروق جويدة، **قصائدي في رحاب القدس**، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٢، ص١٤٣.

(٢٦) الخوفي، مصدر سبق ذكره، ص٧٣.

(٢٧) أحمد مطر، **الأعمال الكاملة «لافتات»**، القاهرة ، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص٧٥، ٧٦.

(٢٨) إسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧ ، ٨٨.

(29) / Http: /forum.egypt.com /arforum.

(٣٠) حلمي ، مصدر سبق ذكره، ص١٧٧.

(٣١) عبد الرحمن الخوفي، **مراجعات في الأدب المصري المعاصر**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص٦٨.

(٣٢) دنقل، مصدر سبق ذكره، ص٣٤٧.

(٣٣) حلمي، مصدر سبق ذكره، ص١٨٨.

(٣٤) **المصدر نفسه**، ص١٩١.

(٣٥) خالد الكركي. **حماسة الشهداء**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٨، ص٣٤٩.

(٣٦) جويدة، مصدر سبق ذكره، ص٥.

(٣٧) حلمي، مصدر سبق ذكره، ص٢٨٠.

(٣٨) **المصدر نفسه**، ص٢٦٣.

* * *

obeikan.com

الفصل السادس

النضال باللوحة في سبيل القدس

منال فاروق

لطالما مثلت القدس مصدر إلهام للفنانين التشكيليين من مختلف الجنسيات، وبالأخص الفنانون الفلسطينيون، يؤهل هذه المدينة المقدسة لذلك كونها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومهد السيد المسيح (عليه السلام)، ومسرى الرسول ﷺ.

هذا يجعلنا نبدأ من البداية.

إن فن الرسم ولد مع الإنسان، نقل به ما أراد توصيله، مسجلًا به تاريخه، قبل معرفته الكتابة، عبر به عن ذاته في جميع تقلباتها، وعلى الرغم من ذلك فالتشكيل ـ الرسم تحديدًا ـ مهمل، ولم يحظ بدراسة وتحليل، بل مجرد عرض تاريخي له، وهنا نتناول التشكيل، كرافد من روافد المقاومة الفلسطينية، متحدثين عن:

الجانب التاريخي: من دور الاستشراق، والتصوير الفوتوغرافي في استعمار الأرض، مرورًا بتاريخ التشكيل في فلسطين، والحديث عن روافد هذا الفن وتطوره، متناولين لوحات لبعض الفنانين الفلسطينيين، شغلت قضية القدس بتكوينها الرمزي اهتماماتهم، راصدين هذه اللوحات بتحليل، من خلال تذوقها فنيًا، وليس من باب النقد، وهنا أختار إحدى عشرة لوحة.

البعد التاريخي

التاريخ سجل كبير، تسطر فيه الشعوب حياتها، وتاريخ التشكيل في فلسطين طويل، وإن حصر في الأعمال التطبيقية، من زخرفة ونقوش على الحوائط، وفي الأيقونات المسيحية.

هذه الفنون لم تكن وليدة لحظة عابرة، بل هي تراكم تاريخ طويل، من حضارات مختلفة، عبرت فلسطين، فتاريخ الفن «يرتبط، منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا، بعلاقات جدلية ثابتة ووثيقة ترتبط بالمجتمع ـ وهي علاقات نبت حاجات المجتمع نفسه ـ إلى دور الفرد داخل الجماعة، وعلاقته معها لإشباع دافع اجتماعي، ونفسي، وفكري»[١].

ينتج عن هذه العلاقة الجدلية منتج فني، تنوع بتنوع وسائل الأداء، وهنا أتناول تحديدًا الرسم، وهو «يقتصر على الأعمال المسطحة، والتي أنتجت بهدف تعليقها داخل إطار على الحائط، والتي حققت بواسطة القلم ومشتقاته، الرئيسة، أو الفرشاة، أو بواسطة فنون الحفر والطباعة اليدوية، ناقلة اللون المائي أو الزيتي الفرد، أو المتعدد فوق سطح الورق، أو الخشب الخفيف أو القماش»[٢].

هذه الأعمال أثرت فيها روافد، منها الأيقونات المسيحية، والزخرفة، وكذلك المأثورات الشعبية الفلسطينية، والتي استلهمها التشكيليون في أعمالهم، التي عبرت عن قضيتهم، وكذلك اللوحات الاستشراقية، والتصوير الفوتوغرافي، وذلك لكونه من أول الأشياء التي تناولت التشكيل بالمعنى المعاصر، وصدرت صورة محددة، أسهمت في استعمار البلاد.

الاستشراق والتصوير الفوتوغرافي

مع بدايات القرن التاسع عشر، بدأت البعثات الاستكشافية الغربية في القدوم إلى المنطقة، وخاصة بعد أن قام محمد علي، ومن بعده ابنه إسماعيل، بالاهتمام بتحديث المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم، مما لفت أنظار الغرب لها، ومع ضعف الدولة العثمانية، وتقسيم تركتها بين الورثة غير الشرعيين من أبناء الغرب، خاصة أن الشرق كان له سحره، الذي نقل عبر «ألف ليلة وليلة»، والحملات الصليبية، التي نقلت للغرب رؤى معينه عن الشرق، ليأتي المستشرقون لاكتشاف المنطقة.

يعتمد الاستشراق ـ كما يقول د. إدوارد سعيد في كتابه المعنون بالاسم نفسه ـ «في وضع إستراتيجية بأسلوب يتسم بالاتساق على هذا التفوق المرن في الأوضاع، ومعناه وضع الغربي في سلسلة كاملة من العلاقات، التي يمكن أن تنشأ مع الشرق»[٣]. وقد ساعد على هذا سهولة تنقل المستشرقين، وخاصة مع بدء الحركة الاستعمارية.

نقل الفن الاستشراقي، ومن بعده التصوير الفوتوغرافي، صورة للشرق، ساعدت على استعماره، حيث «ساهمت اللوحة الاستشراقية في إنتاج معرفة مبتسرة عن جزء من العالم، باسم الشرق، مع صورة نمطية عما فيه من خراب، وعنف، واسترخاء»[٤].

لكن لا بد أن ندرك أن الاستشراق، كمبحث أكاديمي، يهدف إلى دراسة الشرق بكل ما فيه، ووضع إستراتيجية لدراسة العربي، مع كل أوضاعه ليسهل للغربي التعامل معه[٥].

هذا التعامل نقل صورة عن الشرق، استطاع الاستعمار استغلالها، وخاصة بعد اكتشاف الفوتوغرافيا، والتي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على دخول المستعمر. «في عام ١٨٥٠ وصلت أول بعثة فرنسية تضم (أكسيم دو كانط)، و(غوستاف فلوبير)، والتقط مجموعة صور لمدينة القدس»[٦].

كان التصوير الفوتوغرافي صرخة في عالم الاختراعات. استخدمته أوروبا بشكل جيد، فقامت ببعثات كثيرة ورحلات لتصوير معالم وتاريخ مدينة القدس، ودول الشرق، وخاصة مصر وبلاد الشام.

لم تكن الحركة الصهيونية بمعزل عن هذا الاختراع، فقد استخدمته لاقتلاع شعب فلسطين من أرضه[٧]، ففي عام ١٨٣٩ أطلت الأكذوبة (فلسطين شعب بلا أرض)، ذلك كان اعتمادًا على ما نشر من صور تخلو من العنصر البشري، وذلك نتيجة لمعتقدات فنية ودينية [٨].

في عام ١٨٦٥ تأسس صندوق استكشاف فلسطين، «وساهمت الطائفة اليهودية في تمويل هذا المشروع»[٩]. وبرغم هذا لا ننفي أن الفن والتصوير الفوتوغرافي قد سجلا مشاهد عامة لمدينة القدس، من طبيعة وأماكن مقدسة، كما لا ننكر أن الصورة الفوتوغرافية ساهمت في الحفاظ على التراث الفلسطيني، برغم المحاولات المستميتة لطمس معالمه، من أزياء، وأشجار زيتون، وملامح للعمارة الإسلامية[١٠].

روافد الفن التشكيلي

عند التعامل مع التشكيل الفلسطيني لا بد أن نعي أنه فن يجمع بين الخاص والعام في بوتقة واحدة، فنحن حين نتعامل معه، لا بد أن نفهم خصوصيته، ومحددات هويته، في ظل مجموعة من العوامل:

أولها: أننا في عالم يحكمه الأقوى، بكل هيمنته وجبروته، في ظل عولمة تفرض، وتتلاعب بالعقول بشكل فاضح.

ثانيها: وحدة الموضوع المتناول، بكل ما يحمل من وجع، مستخدمين التقنيات التي تساعد على تطوره.

ثالثها: الخصوصية التي تنطلق إلى عالمية الموضوع، الذي يتناول الإنسان، بحرياته المتعددة المستويات، التي تجعله يشعر بآدميته وإنسانيته.

من هنا تعد الذاكرة الثقافية[١١] من أهم الروافد التي ألهمت التشكيليين الفلسطينيين. هذه الذاكرة حملت معها لغة تلقائية، تطورت بتطور الحركة التشكيلية الفلسطينية، منذ بدء انطلاقها عام ١٩٤٨، والتي كانت بمثابة «إعلان عن مجموعة تراكمات، أنتجت ما تحويه اللوحة»[١٢].

هذه الذاكرة تعي قضية الأصالة والمعاصرة، وتعني الأصالة بالدرجة الأولى الطابع الذي يطبع به الإنسان منتجاته الفكرية والمادية، وهو هنا فعل يتضمن الإرادة، والقدرة، والقصد، والعلاقة التي يقيمها الإنسان بالجماعة، وتقيمها الجماعة بالطبيعة[١٣].

هذه الذاكرة الثقافية أثبتت كذب مقولة «أرض بلا شعب»، فقد حمل الفنان الفلسطيني على كتفه القضية منذ تفجيرها عام ١٩٤٨، واشتدادها مع نكسة ١٩٦٧ ليتطور التناول، وتتطور معه تقنيات التعبير، وكان الموضوع الفلسطيني، ولا يزال، هو الهاجس الأول عند الفنانين برغم قصر عمر الحركة التشكيلية الفلسطينية[١٤].

كان التراث الفلسطيني بكل ما يحمل من مكونات (الأرض، الإنسان، العلاقات الاجتماعية، القيم) المكون الأساسي للمادة المستلهمة في الفن التشكيلي، فقد تحددت الهوية الفلسطينية كسلاح عرف فيه الفنان الفلسطيني

خاماته، وموضوعاته، والتي عبَّر بها عن أفكاره النضالية، برغم أن فلسطين لم تشهد معرضا للفن التشكيلي، بمفهومه الحديث، قبل عام النكبة.

إن الاحتياج إلى الفن، الذي هو ذاكرة جماعية تحافظ على الروح، كان أحد أهم روافد التشكيل الفلسطيني، فالشعب الفلسطيني «بحاجة إلى بناء ذاكرته بناءً معينًا»[١٥].

لهذا، فالذاكرة الفلسطينية مليئة بالجراح، المحمَّلة بمجموعة من المفردات، التي عبر عنها الفنان التشكيلي عبر ملوناته، هذه المفردات «الفدائي، الأرض، المخيم»، تماست بأشكال مختلفة، وطرق تعبير تنوعت في الذاكرة التشكيلية مع التراث، لتؤسس معالم العلاقة ما بين المقاوم والأرض، والتي عن طريقها يستطيع التواصل مع أصوله، عبر جذور يستنبط منها طرقا مبتكرة للتعايش تحدد هويته وخصوصيته الإنسانية التي ينقلها عبر الأجيال.

هذه الروافد جعلت التشكيلي يتناول مجموعة من الرموز، والرمز هنا «هو ذلك الطيف الواسع من الرؤى، والمشاهدات البصرية، المتصلة بذاكرة المكان العربي الفلسطيني التعبيرية، بواسطة الخط، واللون، والسطوح، والتقنيات المتاحة في ميادين الفن التشكيلي الأكاديمي، المدرسي والتعبيري، المتحرر من القيود النمطية، والمقدم عبر ابتكارات الفنانين التشكيليين بصياغات معاصرة»[١٦].

إن الرمز هو مجموعة قيم إنسانية، تتفاعل مع بعضها البعض، فالقضية الفلسطينية هي في أساسها رمز لهيمنة القوى الاستعمارية، من هنا ظهرت خصوصية الرمز، المنتج والمبتكر، فهو جزء لا يتجزأ من تاريخ وثقافة وحضارة الشعب الفلسطيني.

لقد واكب تاريخ تطور الرمز مجموعة تواريخ أهمها تاريخ النكبة (١٩٤٨)، وقبله تاريخ ولادة الحركة الصهيونية وظهورها على الساحة (١٨٩٧) واتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦) وتاريخ آخر، وهو تاريخ كان أحد أهم روافد تفجير وتحميل الرمز (١٩٦٧) بما يحمله من انكسار للروح العربية، والتي قاومت بطرق مختلفة.

إن الرمز في المنتج التشكيلي الفلسطيني مرتبط بواقع الاحتلال، لهذا فقد تنوع الرمز، وظهر في اللوحة، مثل الزخرفة الفلسطينية، الحطة، الحصان، رمزًا للثورة، المرأة، بكونها رمزًا للأرض والوطن والخصب... إلى غيرها من الرموز، مستخدمًا «بالتة» ألوان تعبِّر عن كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ الممتد (ستين عامًا)، هي عمر نضال هذا الشعب بجميع الوسائل المتاحة والممكنة التي تصل إلى يديه.

تطور الفن التشكيلي في فلسطين

لقد تأخر انطلاق الحركة التشكيلية ـ بالمعنى الحديث للكلمة ـ في فلسطين نتيجة لما مرت به القضية الفلسطينية ذاتها، مع دخول أول جماعة يهودية (١٨٨٢)، وقد تأخر الفن في تناول هذه المشكلة، ولم يتحرك إلا مع نكبة ١٩٤٨، وإن كانت هناك إرهاصات قبل ذلك في بعض المعارض التي كانت تعرض المنتجات الفلسطينية.

إن الفنون الشعبية الفلسطينية، تحديدًا، وخاصة التطريز[١٧]، مع مجموعة عوامل، مثل الاحتكاك بالمستشرقين، وببعض الفنانين الغربيين الذين وفدوا إلى المنطقة، ساعدت على بلورة الفن التشكيلي الفلسطيني بمعناه الحديث.

لقد مرت التجربة التشكيلية الفلسطينية بمراحل مختلفة هي ـ كما يرى أديب فلسطيني معروف ـ [١٨]، مراحل الوعي و الوعي بالذات، وهي ثلاث مراحل:

١ ـ **المرحلة الأولى**: هي مرحلة الانكشاف تحت الأضواء، ومصابيح علماء الآثار الغربيين.

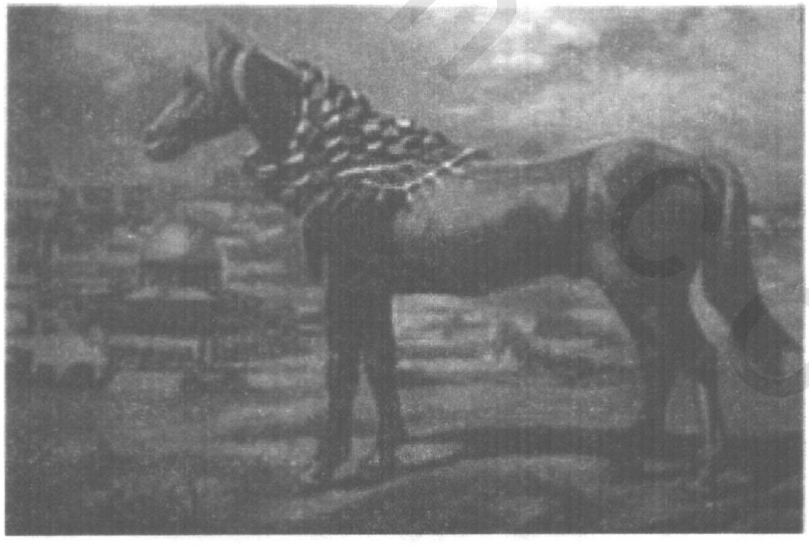
٢ ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة النهوض، وتتميز بكونها عملية جدال واسع مع ـ أو ضد ـ هذا المد الغربي الكاسح.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: تكاد تكتمل هنا عملية تغيير السياق البنيوي، وهي تتميز بالتعامل مع العالم البصري، كواقع تشكيلي ذي دلالة.

هذه المراحل طوَّرت في تقنيات، ومعنى الرموز المستخدمة في الفن الفلسطيني، فهناك رموز تراثية، ورموز أسطورية، ورموز حضارية، ورموز نضالية، هذه الرموز أفرزت إنتاجًا فنيًّا، سجَّل واقع فلسطين المعاش، ومعها كانت القدس رمزًا من رموز التحرر، فهي أرض الأديان.

عندما يعمل الفنان التشكيلي على لوحته فهو يجسد من خلالها مجموعة من المشاكل التي ترتبط بتجربته، وهويته، وتقنيات العمل؛ لهذا فالفنان يمارس فنه، وهو يعي أعماق إشكاليات واقعه الراهن، بكل ما يحمل، وليس مشكلاته الخاصة وحسب.

من هنا «لم يكن مسموحًا أبدًا لأي فنان فلسطيني أن يبتعد عن الخط النضالي الوطني المباشر والمقاوم» [١٩]؛ لهذا تحددت هوية الفن الفلسطيني كأحد أسلحة المقاومة، التي تطورت مع تطور التقنيات الفنية، ومع احتكاك التشكيليين الفلسطينيين بغيرهم من الفنانين.

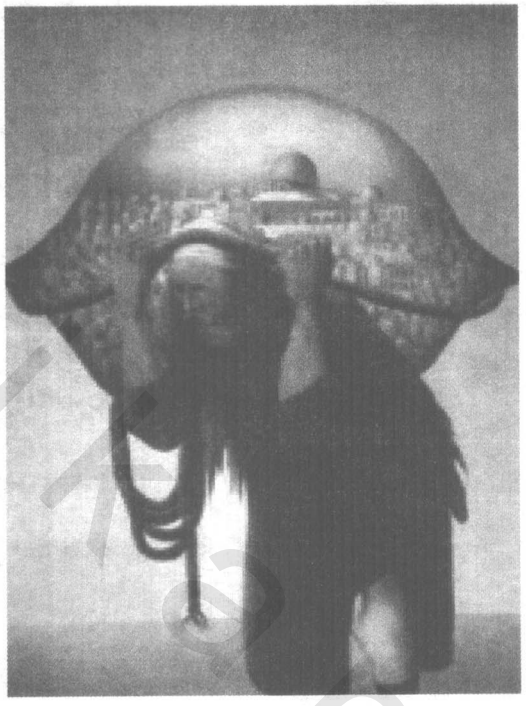


القدس والثورة للفنان الفلسطيني بشير السنوار

على الرغم من كون التشكيل الفلسطيني مهدرًا دمه، بين مجموعة بلاد (سوريا/ الأردن/ مصر/ العراق)، وغيرها من البلاد العربية والأجنبية، بالإضافة إلى انقسامه في الأرض المحتلة إلى ما هو داخل «إسرائيل»، والضفة

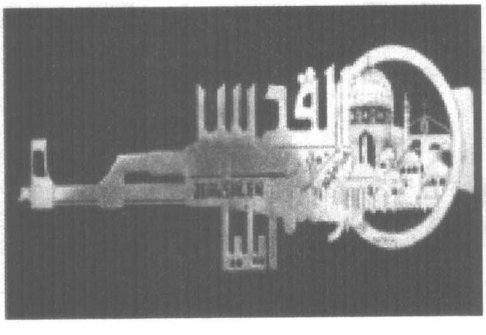
الغربية، وقطاع غزة، فقد حمل التشكيل الفلسطيني رسالة، «فهو أكبر من مجرد رسالة، إنه جزء من المعركة الطويلة والشرسة»[٢٠].

لقد تحول الفن إلى ثقافة معاشة انتمت للمكان، ووثقت له عبر استخدام الرمز، وأحيانا عبر التسجيلية الواقعية.



لوحة جمل المحامل للفنان سليمان منصور

تنوعت أساليب واتجاهات وعناصر التعبير بما يتلاءم مع شخصية كل فنان، وإن ظلت القضية الفلسطينية بكل مرارها هي القاسم المشترك بينهم؛ لهذا تنوعت الرموز المستخدمة، وتطورت من مجرد تسجيل للواقع المعاش، والمناطق الطبيعية إلى الرمز، والمزج بينه وبين اللون، في مزاوجة مهمة، طورت الحركة التشكيلية.

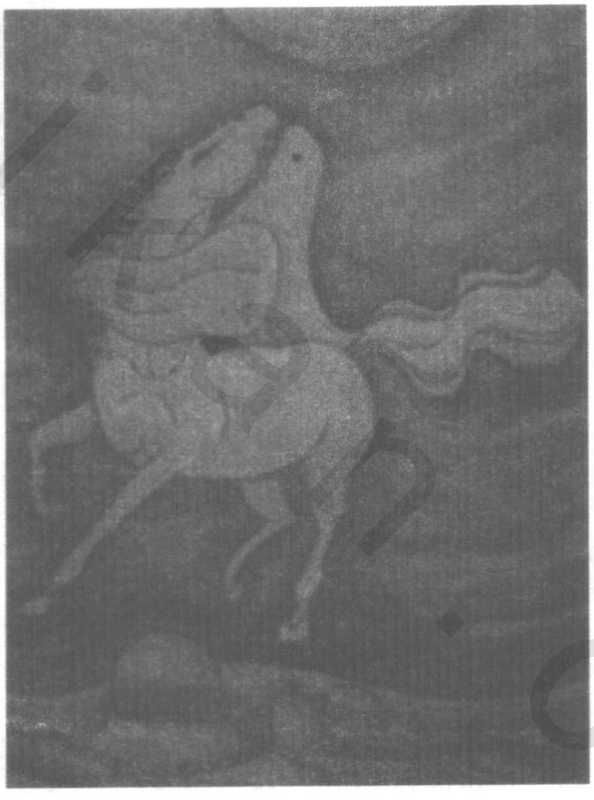


لوحة الفنان ياسر أبو سيدو الغول

أهم المدارس التشكيلية

إن أهم المدارس التي أثرت في الحركة التشكيلية الفلسطينية هي الكلاسيكية، والواقعية التسجيلية، الناقلة لما نشاهده بصدق، فهي عين الإنسان التي تنقل، والتي بدأت قبل النكبة، مستلهمة الفن الإسلامي والمسيحي في واقعية، وقد استفاد هذا التيار من كل ما وقع تحت يده من إمكانيات الخط العربي، والتقنيات الزخرفية[٢١]. ثم المدرسة التعبيرية، والتي هي «نقل ما يحس به الفنان من مشاعر وتأثير، والإفصاح بلغة الرسم أو الصورة عن هذه المشاعر، وهذه الشحنة الداخلية عنده»[٢٢] لتكون المدرسة التعبيرية، بكل فروعها التأثيرية، والرمزية، والتجريدية، والتي يعتبر أهم ما يميزها هو إخراج ما بداخل الفنان من إحساس وشعور على لوحته كما يحسه وينفجر بداخله.

هذا ما تعامل به الشعب الفلسطيني في تسجيل يومياته مع النكبة، والانتفاضة، وفي تسجيله لتاريخ مدينة القدس.

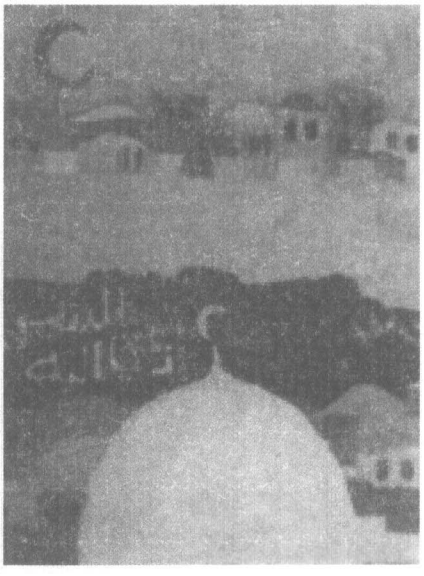


لوحة عناق الثورة والسلام للفنان الفلسطيني ماهر قصير

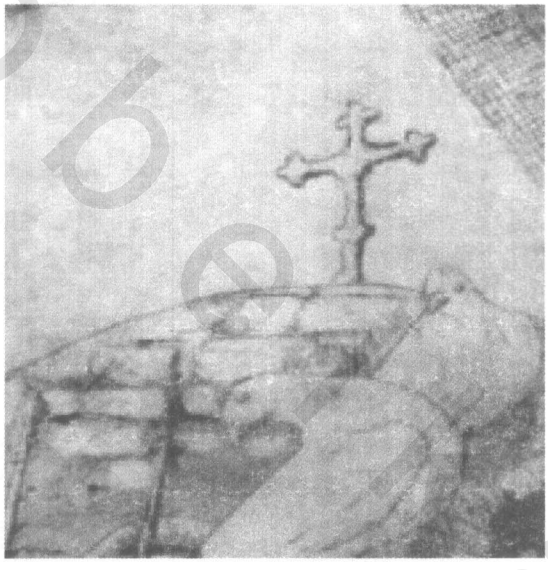
هذه المدارس، ونتيجة لعملية التهجير القسرية، جعلت الفن التشكيلي الفلسطيني يتأثر بظروف ومعطيات الدولة التي نشأ بها، فهناك فنانو قطاع غزة والضفة، وهناك فنانو الشتات، وغيرها من الدول، مما أثر في حركة التشكل الفلسطيني بشكل كبير، متأثرًا بواقع الدولة المعاش فيها، وما يحمله من روح المقاومة، هذه اللوحات حملت مفرداتها الخاصة[٢٣]، البيت، القرية، المسجد، الكنيسة، شجرة الزيتون، القمر، الغزالة، الحصان، الهلال، البندقية، رماة الحجارة، الحمامة، وغيرها من الرموز التي كانت تتمحور حول هوية هذا الشعب، والتي استخدم فيها الفنان التشكيلي الخطوط، والمساحة اللونية، التي اشتقها من «باليتة» الألوان، التي تقع تحت يده، متعاملا مع طبيعة اللون،

من حرارة وبروده، ومن ألوان محايدة، ورماديات، ليكون له مجموعة من الألوان الخاصة به، والتي يعزف بها على أوتار قضيته.

فتغدو دائرة الألوان الأساسية هي (الأحمر، والأصفر، والأزرق)، والألوان المساعدة والمتممة (الأبيض، والأسود) بتنوعات وتدرجات لونية جمعت بين الحدة والهدوء، في تجانس لوني، يجعل العين تتأمل اللوحة.



لوحة القدس للفنان الفلسطيني عصام بدر



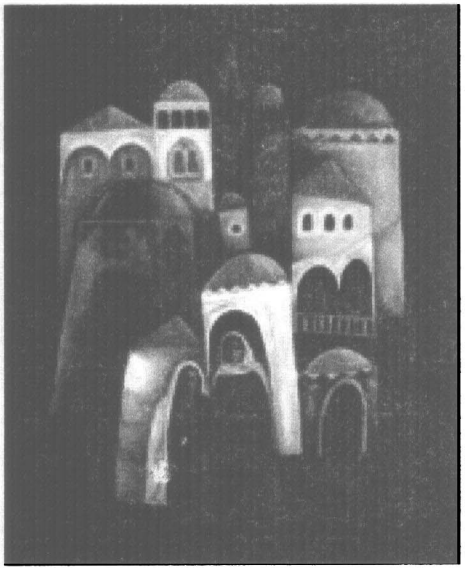
لوحة حفر حول القدس والسلام للفنان الفلسطيني إيليا بعيني

إن هذه المدارس ذات التنوع البصري لعمليات التلقي تتعامل مع النص ـ اللوحة ـ من منطلق ثلاثة نصوص وهي:

النص المغلق: الذي يتعامل مع اللوحة وفق النظام الأكاديمي،

النص المفتوح: وهو يتعامل مع اللوحة عن طريق اتساع دائرة التلقي لدى العين، **والنص المتغير**: وهو النص الذي يحمل جميع أطياف التناول[٢٤].

هذا التنوع أعطى التجربة الفلسطينية غزارة في تناول الخامات التي تتناول اليومي، الواقع، الحلم في القضية الفلسطينية.



لوحة من وحي التراث الفلسطيني ـ عبد المعطي أبو زيد

أهمية مدينة القدس

«تتميز القدس عن سائر قضايا الصراع العربي ـ الإسرائيلي بخصائص فريدة في جذورها، وأبعادها، ومضاعفاتها؛ ذلك أن البعدين: الديني والدنيوي، الروحي والمادي، السياسي والرمزي، الوجداني والعقلاني، تقاطعت وتفاعلت فيها»[٢٥].

إن للقدس مكانة غير عادية في نفوس البشر، فهي مهد الديانات، وهذا ما حمل الفنان الغربي ـ المستشرق ـ على أن يقوم برسمها، وتصوير معالمها، فقد جمعت كل الدلالات الرمزية التاريخية، المرتبطة بواقع اجتماعي وسياسي[٢٦]. فقد تم رسم الفلسطينيين بأزيائهم، ورسم معالم المدينة، من تلال، تزينها أشجار الزيتون، وفى الخلفية العمارة الإسلامية [٢٧].

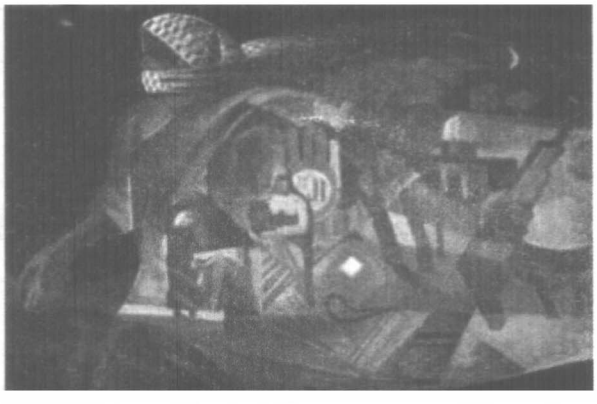


لوحة القدس للفنان الفلسطيني عبد المطلب عبيان

تحمل القدس في الذاكرة الجمعية الكامنة كمًّا من المخزون المشاعري، والرمزي عند جميع البشر، فهي بما تجمعه من رموز دينية (الكنائس والأبراج و المآذن) التي ترتفع إلى عنان السماء، فيما بين جنباتها، وما تحمله من صفاء روحي، لم يبخل على أحد بالعطاء، جعل الإعلان في عام ١٩٨٠ عن تشكيل رابطة الفنانين التشكيليين في الأرض المحتلة، وكان مركزها القدس [٢٨]، أمرًا عاديًّا، مستفيدًا من كون القدس تحت الحماية الدولية، مما ساعد التشكيليين الفلسطينيين على التعامل بحرية مع مدينة القدس وما ترمز له.

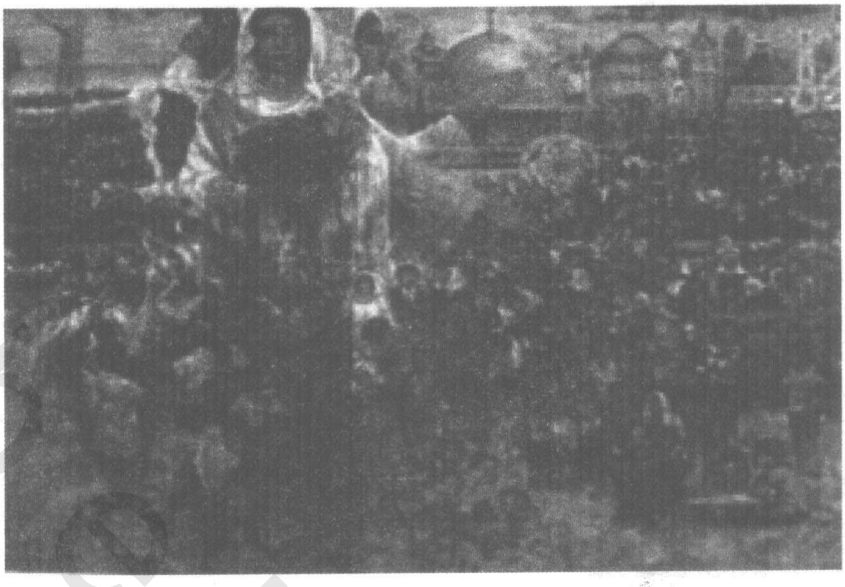
الرموز التي اتخذتها القدس

لقد تمحورت حول القدس مجموعة من الرموز، والتي حملت دلالات مختلفة عن القضية الفلسطينية. رمزت القدس إلى القضية الفلسطينية وعدالتها، وليس من الطبيعي أن تحمل القدس من الأسماء، عبر تاريخها الطويل، ما يحمل دلالات السلام، ولم تكن هي أهم رمز للقضية الفلسطينية، لكن معنى السلام ليس بضرورة أن يكون هو أهم رمز للقضية الفلسطينية.



انتفاضة الأقصى للفنان الفلسطيني سليمان العلي

فالقدس، وعبر تاريخ التشكيل الفلسطيني ـ القصير نسبيًّا ـ حملت دلالات رمزية أعمق وأشمل ، فهي الأم/ المرأة، وهي العروس التي «ترقص الميجانا والعتابا على عتبات سورها وأبوابها»[٢٩]، وهي «جمل المحامل» كما صورها سليمان منصور.



لوحة إرادة الحياة للفنان الفلسطيني إسماعيل الشموط

القدس واللون

مع ولادة الفكرة في مخيلة الفنان تنشأ بينه وبين الخامة التي سيقوم بالتعامل معها علاقة وثيقة، تنبثق من طبيعة الفكرة، ومكونها الأساسي، ولقد شكلت «الملونات الترابية، والمائية، والزيتية، والأحبار، والصبغيات، متنوعة الخصائص، الموارد الضرورية لإنتاج أعمال تصويرية حافلة بالموهبة، والخبرة، والقدرة على التقاط الفكرة التعبيرية الموحية عن القضية الفلسطينية»[٣٠].

هذه الألوان تعامل معها كل من «بشير السنوار/ سليمان منصور/ ياسر أبو سيدو الغول/ ماهر قصير/ عصام بدر/ عبد المعطي أبو زيد/ إيليا يعيني / سليمان العلي/ عبد المطلب عبيان/ أيمن الطرشة/ إسماعيل شموط» ـ لا بد أن أذكر هنا أن هذا الاختيار هو من قبيل أن الجزء يعبر عن الكل وليس هو هنا للتفضيل ـ بتقنيات مختلفة في التناول.

إن جمال اللون يظهر من خلال المضمون، الذي يعبر عنه، وأهمية هذا المضمون، وطبيعة العين التي تنظر إلى اللون، والعمل كوحدة واحدة، وارتبط اللون بالمعاش في حياتنا، هو ما يسبغه الفنان على أعماله، فهو يربط بين اللون، والقضية، والمعاش.

إن قوة اللون في التعبير تقوم على مجموعة من الملامح، وهي[٣١]:

* قوة اللون، طبيعيًّا ورمزيًّا.
* الرسائل التي يريد اللون أن يوصلها لنا.
* طبيعة علاقة اللون بالموت والحياة.
* قوة العوامل النفسية والجسدية على تقبل اللون.

* طبيعة اللون، الساخنة والباردة، وتقدمه في اللوحة أو تأخره فيها.

هذه العوامل تجعلنا نرى أن القاسم المشترك بين اللوحات هو اللون الأصفر، بما يحمل من رمز للحياة، وأحيانا الخوف من فقده، فهو خلف جدار عازل، يواجه فيه الهلال الأحمر في أعلى اللوحة الهلال الأصفر الذي يعلو قبة الصخرة، وتدرجات لونية حملت الحلم بتعبيرية تجريدية، ليعبر عصام بدر عن حبه لوطنه ببيت شعري «وطني لو شغلت عنه» متداخلا ما بين البيوت وجدران البيوت التي حملت بلون الأرض.

مع ياسر أبو سيدو الغول، يحمل اللون الأخضر ممزوجا بالأصفر في تصميم لمفتاح يحمل اسم القدس، ويرمز إلى البندقية في الوقت نفسه، رمزا للحنين إلى الوطن/ الخصب، فمفاتيح المنازل هي كل ما بقي من الأرض والوطن، بعد النكبة.

ليكون اللون الأسود ممزوجا باللونين الأحمر والأزرق في الجمع ما بين الألوان الحارة والباردة في ملونات الأكريليك، من خلال المنازل الفلسطينية، التي تقف كجسد واحد، والمرأة الفلسطينية، بثوبها تقف أمامها في تعانق. وفي لوحة أبو زيد نرى الرصف المعماري هو الأساس، الذي يأخذك إلى التعمق في اللوحة. لتجد أن اللون لا ينفصل عن جسد اللوحة، ولا تستطيع أن تستوضح الأرض من العمارة، فهما امتزجا في خليط جمع بين التراث واللون.

لتكون لوحة سليمان العلي للفارس، الذي يمسك بالبندقية، والحجارة، ويخفي وجهه، خلف الحطة مقاومًا الريح، التي اتخذت اللون الأخضر، والتي تدفعه ليلقي بالحجارة التي في يده، وخلفه تحمل الريح كل ما ترمز له القضية من موروثات «القدس ، أشجار الزيتون ، الأم» لتعانق خلفية لونية، تحمل اللون البني رمز الأرض، وبالأزرق رمز العطاء، والفدائي هنا يأخذ وضعية الانقضاض الجانبية، مما يعطيه عمقًا في التعبير عن رغبته في التحرر.

مع لوحة أيمن الطرشة باللون المجنتا «الأحمر المشوب بالأزرق» رمز الأسى والحزن والفراق، وبرغم ذلك نحمل إلى الصلب والفداء، فعلى أبوابك يا قدس نفارقك موتًا، فنحن نحبك، ولك نضحي بأرواحنا.

مع عبد المطلب عبيان نخاف على القدس، التي تنادي أبناءها الذين يرتدون الأبيض، «السلام»، ويقفون على جانب اللوحة في شكل دائري، والقدس مشنوقة، تلتهمها النيران، والأعاصير، في عمق اللوحة، الذي يحمل اللون الأحمر، وحية تحمل اللون الأسود تظهر من بين الأشقاء العرب والجسد الفلسطيني، يحلم «بالقدس/ الحياة»، لكن الحبل ملتف حول رقبته!

ليحمل «الحصان/ الثورة» الحلم، وهو ينظر إلى القدس في لوحة بشير السنوار، بمعزوفة الألوان الدافئة، والحصان العربي باللون الأرض، يحمل الحطة الفلسطينية حول رقبته، وينظر إلى القدس، وهي تعانق السماء الممتلئة بالخصب الذي تحمله لها عبر الغيوم.

ليأخذنا سليمان منصور، في لوحته «جمل المحامل»، بألوانها الترابية المحايدة، والرجل الذي يحمل على ظهره القدس، رمز القضية بثوبه المتداخل الألوان، ما بين الأسود والبني، هو يقف على قاعدة رمادية، أقرب إلى اللون البني، لتتدرج الخلفية مع الأصفر، لتصل إلى درجة الرمادية، المائلة إلى الأخضر.

ما بين الحصان والحمامة، يتعانق كل من الثورة والسلام، في خلفية لونية جمعت بين الدفء والأقدام، فالشمس

في أعلى اللوحة تقبلها القدس وما بينهم تموجات، جمعت بين الأصفر، والبني المائل إلى الحمرة. لتلعب الظلال في حفرية إيليا بعيني بتقنيات الجرافيك والطباعة اليدوية المعدنية، بألوانها الداكنة، الرمادية المتدرجة ما بين مجموعات وأوصاف جميلة، بسيطة، وعميقة، تحمل مدلول المكان كإشارة، والحمامة كمفهوم.

مع إسماعيل شموط نثق بأن الثورة قادمة، وأن الحياة لا تقف، بل هي تتولد من عمق المأساة فالمرأة/ الأرض محمَّلة بالخصب والنماء، في تناغمية لونية جمعت ما بين الأخضر، والأصفر، بدلالتهما الرامزة إلى العطاء، والنمو، والتدفق، فهي «إرادة الحياة»، التي تتدفق في ديمومة واستمرار.

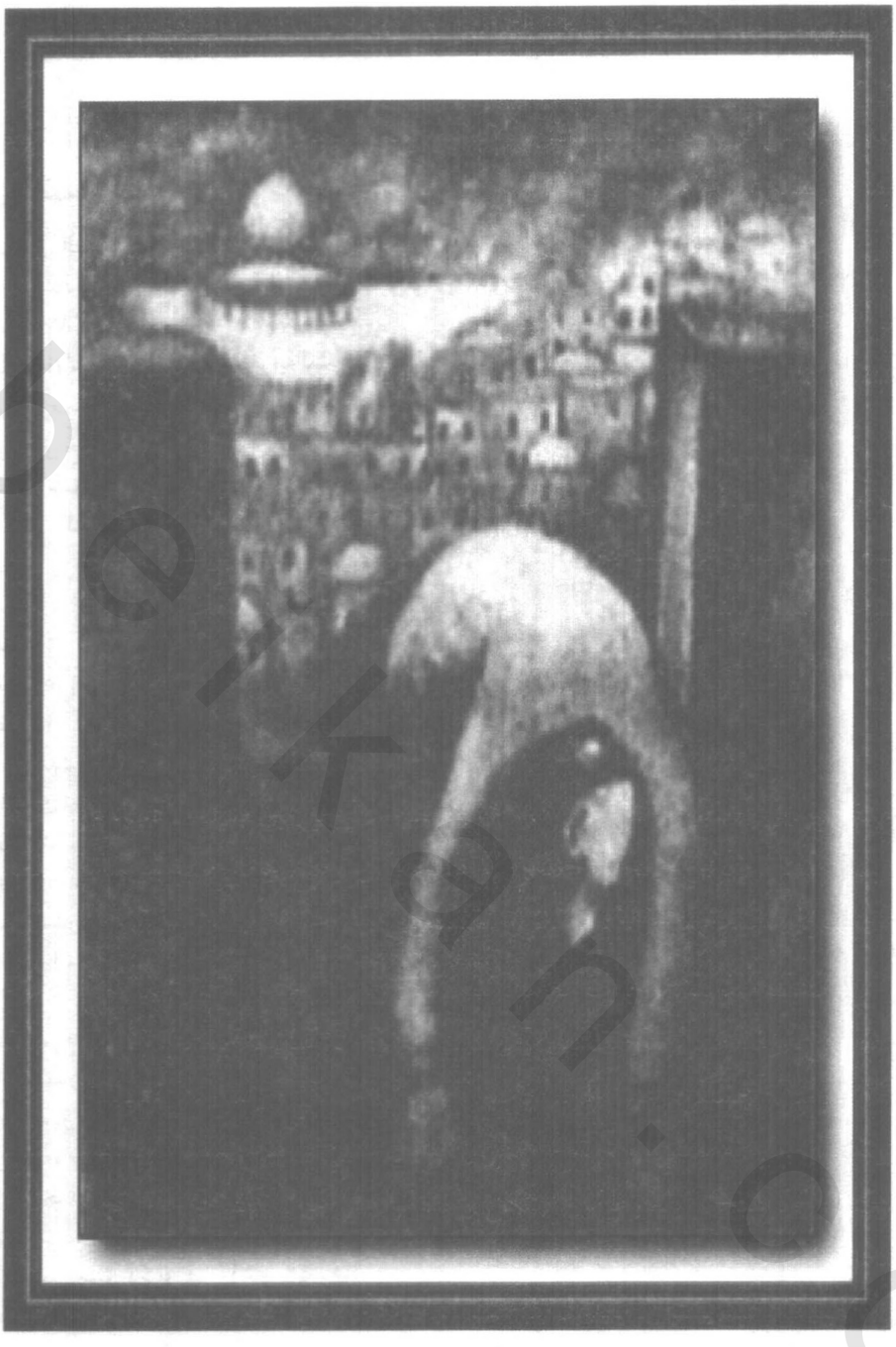
في رحابة اللون والبحار بين رموزه المحمَّلة بمدلولات نفسية، نرى القضية الفلسطينية، والقدس، وقد استفادا من تطور تقنيات اللون والرسم، ليعبر بهما عن عدالة القضية، والتي لا بد لها من أن تستفيد بكل ما يقع تحت يدها من أدوات للمقاومة.

خطر التركيز على القدس

برغم أن «القدس تمثل في الوجدان العربي الفلسطيني موقع القلب في الجسد، الوطن في حيزه الجغرافي التاريخي، المتجاوز لحدود الطبيعة، وجزءًا لا يتجزأ من ذاكرته لجميع المبتكرين الفلسطينيين، لا سيما المشتغلين في الفن التشكيلي واللوحة»[٣٢]؛ فإن هناك خطرًا من جعلها محور الاهتمام، وذلك لما يعرف عن العدو الصهيوني من استغلال للمواقف، فهو قد يستغل التركيز على القدس ـ وخاصة مع الاحتفال بها كعاصمة للثقافة العربية ـ ليروِّج إلى أن كل ما يهم الفلسطينيين هو القدس وليس الأرض التي يعيشون عليها.

لهذا، فعلى التشكيلي وعلى كل من يعمل بالقضية الخروج من بوتقة الخاص إلى العام، وإرسال رسالة عبر أعمالهم مفادها أنه لا استغناء عن شبر من أرض الوطن، وهذا يظهر في اللوحات السابقة، ولكن لا بد من تكثيف وجهة النظر هذه، والعمل على نشرها، وتوضيح أن القدس جزء لا يتجزأ من حياتنا، وأنها الخاص، الذي يحمل العام بين جنباته، وأنها الحلم بتحرير الأرض.

* * *



لوحة من أجلك يا قدس للفنان الفلسطيني أيمن الطرشة

هوامش الفصل السادس:

(١) محمد البطروي، **القدس في الفن التشكيلي المعاصر** (دمشق، مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠٠٥).
(٢) **الموسوعة الفلسطينية**، دراسات خاصة، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: كمال بلاطة «الفن التشكيلي الفلسطيني خلال نصف قرن ١٩٣٥-١٩٨٥»، ص٨٧٢).
(٣) إدوارد سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، القاهرة: رؤية، ٢٠٠٦، ص ٥٠.
(٤) محمد الأرناؤوط، **من اللوحة الاستشراقية إلى الصورة الفوتوغرافية**، من الشرق المتخيل إلى الشرق الموجود، جامعة آل البيت الأردن، دون تاريخ.
(٥) سعيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١.
(٦) سامي أبو سالم، **التصوير الفوتوغرافي بين حداثة الاختراع وإلغاء الآخر**، رام الله، البيادر السياسي.
(٧) **المصدر نفسه**.
(٨) **المصدر نفسه**.
(٩) **المصدر نفسه**.
(١٠) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «هوية المكان» (١)، ٢٠٠٧. ص ٩١.
(١١) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٧ وما بعدها.
(١٢) مروان العلاّن، **تجارب تشكيلية فلسطينية اللون والبوصلة**، «كتاب تشكيل(١)» رام الله: نشر خاص، ٢٠٠٣، ص٢٤.
(١٣) محمد الأسعد، **الفن التشكيلي الفلسطيني**، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دمشق، ١٩٨٥، ص ١٢.
(١٤) islamonline.net .
(١٥) الأسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٦.
(١٦) عبد الله أبو راشد، **القدس في عيون الفنانين التشكيليين الفلسطينيين**، سلسلة دراسات، دمشق، مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠٠٥

(١٧) إسماعيل شموط، **الفن التشكيلي الفلسطيني**، صفحة word ، ٢٠٠٥.
(١٨) الأسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.
(١٩) العلاّن، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٦.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٢.
(٢١) أبو راشد، **مصدر سبق ذكره**.
(٢٢) سعيد الشيمي، **سحر اللون من اللوحة إلى الشاشة**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة «آفاق السينما» (٥٣)، ٢٠٠٦.
(٢٣) العلاّن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧ وما بعدها.
(٢٤) عبد الله أبو راشد، **أوراق من ذاكرة الفن الفلسطيني**، سلسلة دراسات مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠٠٥.
(٢٥) وليد الخالدي، محاضرات في مؤتمر القدس، **شؤون عربيه**، (القاهرة)، العدد ١٠١، مارس/ آذار ٢٠٠٠.
(٢٦) البطراوي، **مصدر سبق ذكره**.
(٢٧) عبده، **مصدر سبق ذكره**.
(٢٨) البطراوي، **مصدر سبق ذكره**.
(٢٩) **المصدر نفسه**.
(٣٠) أبو راشد، أوراق...، **مصدر سبق ذكره**.
(٣١) سعيد الشيمي، **مصدر سبق ذكره**.
(٣٢) أبو راشد، **مصدر سبق ذكره**.

الفصل السابع

المخطوطات في القدس

نجلاء سعيد مكاوي

تحتل المخطوطات موقعًا فريدًا في الذاكرة الوطنية لأي شعب؛ لذا يولي الأعداء اهتمامًا خاصًّا لحرمان الشعب الرازح تحت الاحتلال من مخطوطاته؛ للإجهاز على هويته الوطنية؛ فالتراث المخطوط لأية أمة من الأمم هو بمثابة العمود الفقري لحضارتها، وتاريخها الثقافي. ولطالما وقعت فلسطين تحت احتلالات عدة، وتعرضت لطمس ملامح هويتها الثقافية، وجذورها العربية، وفي كل مرة كان الشعب الفلسطيني حريصًا على صون مخطوطاته، وتراثه الثقافي؛ للحفاظ على زاده في الكفاح، ومقاومة المحتل، وضمان استمرار تلك المقاومة، وانتصارها.

غني عن القول أن فلسطين كانت الجسر الرابط بين بغداد والقاهرة؛ مما جعلها سوقًا رائجة لمخطوطات هاتين العاصمتين، كما أن مدينة القدس، خلال العصرين المملوكي والعثماني، كانت من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، حيث وفد إليها الدارسون، وطلاب العلم من جميع البلاد؛ الأمر الذي أثرى الحياة العلمية في هذه المدينة، وجعلها قبلة لكبار علماء العرب والمسلمين. ونشأت المكتبات في المدارس والمساجد، وامتلأت بالوثائق والمخطوطات النادرة التي كتبها أصحابها، القاطنون في المدينة في تلك الفترة؛ مما أدى إلى وجود آلاف المخطوطات في مكتبات القدس، في شتى العلوم، الدينية والطبيعية؛ فكان، بحق، عصرًا أفرز لنا كنوزًا من المخطوطات العربية، سواء التي وضعت، من البداية، بمكتبات القدس الشهيرة، أو التي كانت في المكتبات الخاصة ببيوت رجال العلم بالمدينة، والتي آلت، في النهاية، إلى المكتبات العامة بالقدس. وعلى الرغم من اندثار عدد كبير من هذه المخطوطات، فإن بعض المكتبات لا يزال بها الكثير من المخطوطات، التي ترجع إلى العصرين المملوكي والعثماني، وستتناول هذه الدراسة أهم هذه المكتبات، ونفائس المخطوطات الموجودة بها، وأيضًا الفهارس التي أعدت لتصنيف وحصر المخطوطات في مكتبات القدس، وأسماء العلماء الذين قاموا بإعداد هذه الفهارس.

أولًا: خزائن المخطوطات في القدس

تعددت خزائن الكتب في مدينة القدس، العامة منها والخاصة، وتميز الكثير من هذه الخزائن باحتوائه على الكتب المخطوطة؛ فأضفت قيمة كبيرة وأعطت شهرة واسعة لمكتبات القدس، التي امتلأت خزائنها بالمخطوطات النفيسة والنادرة، وكان أشهرها خزانة المكتبة الخالدية، ومكتبة المسجد الأقصى، والمتحف الإسلامي، فضلًا على خزائن مكتبات الأسر الخاصة، وخزائن الأديرة والكنائس.

١ـ خزانة المكتبة الخالدية

تعتبر من أهم دور الكتب في فلسطين، وأغناها، تقع في خط باب السلسلة، عن يمين الحرم الشريف، كانت مدرسة آلت ملكيتها للسيدة خديجة الخالدي، ابنة القاضي موسى الخالدي، قاضي عسكر بر الأناضول؛ فأوصت ولدها راغب الخالدي، رئيس المحكمة الشرعية، بأن يجعلها وقفًا، وينقل إليها كتب الأسرة الخالدية[١]. وكانت نواة المكتبة مجموعة من المخطوطات التي توارثتها الأسرة الخالدية، وحفظت في ديوان الأسرة بباب السلسلة، ثم ضمت إليها مكتبات أفراد الأسرة الذين توفوا، واشتهروا بالعلم؛ فتجمع في المكتبة عدد كبير من المخطوطات النادرة[٢].

حوت المكتبة الخالدية أكثر من عشرة آلاف كتاب، ثلثاها مخطوطات في شتى المعارف والعلوم، في التفسير، والتجويد، والقراءات، والرسم والأصول، والفقه، والفرائض، والنحو، واللغة، والأدب، والسياسة، والقوانين، وغيرها[٣]. وفهرس المكتبة الخالدية الذي تم إعداده سنة ١٩٧٣ يشير إلى أن عدد المخطوطات الموجود آنذاك لم يتجاوز أربعة آلاف مخطوطٍ؛ فكثيرٌ من المخطوطات التي كان من المؤكد وجودها في خزينة المكتبة الخالدية، ومن جملتها مخطوطات ما يعرف بفضائل بيت المقدس، لم يعد لها وجود، وقد صورت مكتبة الجامعة الأردنية، في السنوات الأخيرة، بعض مخطوطات المكتبة الخالدية، بعد أن صورت بعثة من «معهد المخطوطات العربية» قسمًا منها عام ١٩٥٣[٤].

٢ـ خزانة المسجد الأقصى

تعد من أشهر خزائن الكتب العامة في القدس؛ وذلك لقيمة ما تحتوي عليه من الكتب والمخطوطات، خاصة المخطوطات الدينية، والتي قدر عددها بألف مخطوطٍ، كالمصاحف، والربعات الشريفة، وكان أكثرها في العصرين المملوكي والعثماني[٥]. وعندما شكل المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين، عام ١٩٢١، اهتم بجمع الكثير من المخطوطات الباقية، وأنشأ دارًا للكتب في المسجد الأقصى، وضع فيها ما أمكن جمعه من الأسفار المخطوطة. وافتتحت هذه المكتبة في عام ١٩٢٢، في القبة النحوية، التي كانت مدرسة للنحو والأدب، أنشأها الملك المعظَّم، وضمت العديد من مخطوطات المتحف الإسلامي، ومخطوطات مكتبة الشيخ خليل الخالدي، التي قدِّر عددها بـ ٥٠٠ مخطوطٍ، وأضيف إليها في السنوات الأخيرة عدد كبير من المخطوطات التي نجت من عوامل الزمن[٦].

٣ـ المتحف الإسلامي

أسسه المجلس الإسلامي الأعلى في عام ١٩٢٣، ومقره جامع المغاربة القديم، قرب جامع النساء، في الجزء الجنوبي الغربي من الحرم القدسي، ويحتوي المتحف على مخطوطات نادرة من المصاحف، يقدر عددها بـ ٦٥٠ مصحفًا، كتب

معظمها بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري، ومن نوادر مقتنيات المتحف، نصف مصحف قديم، مكتوب على رَق(*)، بخط كوفي، يرجع تاريخه إلى القرن الثاني الهجري[٧].

في المتحف الإسلامي صندوق كبير يضم مصحفًا مخطوطًا كتبه بخط اليد ـ على رق للمسجد الأقصى ـ السلطان أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، أحد ملوك المغرب، وتاريخه يرجع لعام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م، وصندوق مزخرف بالميناء، على الطريقة الأندلسية. ومن المصاحف المهمة، أيضًا، في خزانة المتحف مصحف كبير وقفه على المسجد الأقصى ناظر الحربية العثمانية، أنور باشا، عام ١٩١٧م[٨].

٤ ـ خزائن الأسر الخاصة

(أ) خزانة آل البديري

آل البديري من الأسر العريقة في القدس، وكان لديهم خزانة كبيرة غنية بمخطوطاتها، ولكنهم اقتسموها، فتشتت شملها، وأكبر قسم من مخطوطات تلك الخزانة عند الشيخ محمد أفندي البديري، وقد أودعت في جناح من أجنحة المسجد الأقصى فيما بعد[٩]. وضمت الخزانة ألف مخطوطٍ، أما المخطوطات الباقية منها فهي في حالة سيئة بسبب الإهمال، وقد صورها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية[١٠].

(ب) خزانة آل قطينة

وهي توجد بالقدس بباب العمود، وآل قطينة أسرة حنبلية، يقال إنهم الحنابلة الوحيدون في القدس، وفي هذه الخزانة مخطوطات نفيسة في الرياضيات، والفلك، والتنجيم، ولكن معظم هذه المخطوطات تبعثر، واندثر[١١].

(جـ) خزانة الشيخ خليل الخالدي

يعد من أشهر العلماء العرب، ومن أعلم الناس بالمخطوطات، وأماكنها، ولد بالقدس، وتعلم بمصر، ووُلي قضاء حلب، وكان رئيسًا لمجلس التدقيقات الشرعية في إستانبول، ورئيسًا سابقًا لمحكمة الاستئناف الشرعية ببيت المقدس، واطلع على معظم خزائن البلدان العربية، وجمع في مكتبته ما يقرب من خمسة آلاف مخطوطٍ[١٢]. وعندما توفي عرضت مخطوطاته في داره الكائنة في الزاوية الشمالية الغربية من الحرم لسنوات طويلة، ثم نقلت إلى المتحف الإسلامي، ثم إلى مكتبة المسجد الأقصى، وضاع منها الكثير، أما الباقي فمحفوظ في صناديق تحتاج للصيانة والفهرسة[١٣].

بالإضافة إلى العديد من المكتبات الخاصة التي حوت نوادر من المخطوطات، والتي كانت موجودة في بيوت شيوخ المدارس، ورجال العلم، وقدر عددها بالمئات، حيث كان وجود المخطوطات في بيوت العلماء أمرًا شائعًا، ولعل من أشهرها مكتبة حسن الترجمان، الذي كان يجمع كل ما وقع تحت يديه من مخطوطات، حتى وصل عدد المخطوطات، في

(*) المادة الأصلية للرَّق من أصل حيواني، تستخدم فيه جلود الخراف، والماعز، والبقر، والغزال، وكان الرق يُصنَّع عن طريق نزع الشعر من جذوره، وإزالة النجاسات الموجودة عليه، باستعمال الجير، أو أية مادة حفظ أخرى، ويترك ليجف مع شَدِّه على إطار خشبي، وعملية الشد هذه هي التي تفرق بين الرق والجلد، وكانت الكتابة تتم عادة على الوجه الأملس، أما حجم الرق فكان يختلف باختلاف طول الحيوان المستمد منه.

انظر: أيمن فؤاد السيد، **الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات**، جزء ١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧، ص ١٨.

مكتبته، نحو تسعمائة مخطوطٍ. أما الشيخ محمد صنع الله الخالدي، الذي كان (رئيس كُتَّاب) المحكمة الشرعية بالقدس، وتوفي عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م، ففي فهرست المكتبة الخالدية بالقدس مخطوط رقم ١٤٥٧ عنوانه: «أسماء الكتب التي وقفها محمد صنع الله الخالدي على أولاده وأحفاده»، والتي كان عددٌ كبيرٌ منها مخطوطًا. أيضًا، الشيخ برهان الدين إبراهيم، خطيب المسجد الأقصى، ومدرس المدرسة الصلاحية ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، كانت له مكتبة نفيسة، حوت نسخًا من المخطوطات القيِّمة، بخطوط المصنِّفين، وكان عددها كبيرًا جدًّا[١٤]. بالإضافة إلى المخطوطات التي حفظت بمكتبات المدارس والزوايا، والتي نمت نموًّا ملحوظًا في العصرين المملوكي والعثماني، حيث النهضة العلمية التي شهدتها المدينة إبان هذين العصرين، ولكن عددًا كبيرًا من المخطوطات اندثر وأُتلف، إما لعوامل زمنية أهلكته، وإما بفعل الاحتلال الصهيوني والحروب.

٥ ـ خزائن الأديرة والكنائس

ثمة مخطوطات نادرة في عدد من خزائن الأديرة والكنائس بالقدس، والتي من أشهرها مكتبة دير مارسابا، الذي يقع على مقربة من سلوان، وبناه القديس مارسابا عام ٤٨٤م، وهو يحتوي على ٣٠٠ مخطوطٍ نادرٍ[١٥]. وقد أُضيفت محتويات هذه المكتبة إلى دير الروم، أو البطريركية الأرثوذكسية في القدس، التي يبلغ عدد مخطوطاتها أكثر من ألفي مخطوطٍ، بإحدى عشرة لغة، أهمها اليونانية والعربية والسريانية، وثلاثة أرباع المخطوطات باللغة اليونانية، وقد كتبت هذه المخطوطات فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلادي. ووضع للمكتبة فهرسٌ مطبوعٌ عام ٨٨٣هـ. فضلًا على مكتبة دير السريان، للسريان الأرثوذكس في القدس، وهو واقع في حارة الشرف، بين حارتي الأرمن واليهود، وفي هذا الدير مكتبة حافلة بالمخطوطات والوثائق، بقي منها ثلاثمائة واثنان وستون مخطوطًا، محفوظة بكل حرص، منها عدد وافر مكتوب على رق غزال، ومنها ما هو مزيَّن بالصور الرائعة، وفيها صكوك، وحجج قديمة، وفرمانات سلطانية، ورسائل مهمة، استند إليها بعض الباحثين في تاريخ بلاد المشرق، وخاصة القدس[١٦].

ثانيًا: نفائس المخطوطات في القدس

المكتبة الخالدية، ومكتبة المسجد الأقصى هما أكثر مكتبات القدس ثراءً بالمخطوطات العربية النفيسة والقيّمة، وتوضح الفهارس التي وضعت لحصر وتصنيف المخطوطات في هاتين المكتبتين أهمية وندرة تلك المخطوطات، وفيما يلي عرض لنفائس المخطوطات في خزانتي المكتبة الخالدية، ومكتبة المسجد الأقصى:

١ ـ نفائس المخطوطات في المكتبة الخالدية

المكتبة الخالدية ـ كما سبق ذكره ـ تحتوي على نوادر المخطوطات العربية الموجودة بمدينة القدس، وتناولت هذه المخطوطات شتى العلوم، فمن الاطلاع على فهارس المكتبة يتضح جليًّا أن معظمها يعد مصدرًا مهمًا لدراسة العديد من العلوم، سواء في اللغة، أو الأدب، أو الدواوين، والفلك، والتراجم، والرياضيات، وغيرها. وحيث إن المجال لا يتسع لسردها وذكرها تفصيلًا فسوف يرد أهمها، أو ما يعد حقًّا من نفائس المخطوطات العربية عامة، ونفائس الخزانة الخالدية خاصة، ومنها المخطوطات في الأدب، مثل:

(مختصر حياة الحيوان)، لجلال الدين السيوطي، المتوفى عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، وهو مختصر لحياة الحيوان

الصغرى، لكمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري[١٧]. (الأول من النوادر) لمحمد بن زياد بن الأعرابي، وقد ذكر عنه في كتاب (بغية الوعاة للسيوطي)، وكشف الظنون، والنسخة فريدة، وقيِّمة جدًّا، وبحالة جيدة، فضلًا على المخطوط المهم (الكنايات) للجرجاني[١٨].

في الدواوين والمدائح النبوية: (إيضاح المبهم بشرح لامية العجم)، لمؤلفه سعيد بن مسعود الصنهاجي أبو جمعة[١٩]، وهي نسخة جيدة وسليمة.

(شرح القصائد النجديات في النسيب)، لأبي المطهر محمد بن أحمد الأبيوري الأموي، وهي قصائد في النسيب، عدد أبياتها ألف، وقال ابن السمعاني عن صاحبها «أوحد عصره، وفريد دهره، في معرفة اللغة والأنساب، وغيره». ومن ذلك المخطوط نسخ متعددة، وعنه بحث قيم في المجلة الألمانية ZDMG.

وفي مجال علم النحو ضمت خزانة المكتبة العديد من المخطوطات النفيسة والقيمة، منها، على سبيل المثال، (رفع الاشتباه عن إعراب كلمة لا إله إلا الله)، لإبراهيم بن حسن الكوراني الشهراني الشافعي، وهي رسالة حسنة، في عشر كراريس، بحث فيها عن وجوه إعراب الشهادة، والنسخة جيدة الخط.

(المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية)، لبدر الدين العيني الحلبي، وهي الشواهد المعروفة بالكبرى، والنسخة حسنة منقولة من نسخة المؤلف عام ٨٦٢هـ. (البهجة الوفية بحجية الألفية)، لأبي البركات بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد الغزي العامري الدمشقي الشافعي، وهي نسخة قيِّمة وصحيحة، مكتوبة عام ٩٤٠هـ بخط نسخي جيد[٢٠]. (شرح رسالة الألغاز النحوية)، لابن أسد النحوي[٢١].

في التراجم، كتابان على جانب كبير من الأهمية، هما: (رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ)، لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن شاهين الكركي، المشهور بسبط ابن حجر العسقلاني، وتشتمل النسخة على النصف الثاني من الكتاب، وهي مسودة المؤلف، وعليها خط الحافظ زين الدين أبي الفضل القاسم، المشهور بابن قطلوبغا. وكتاب (الطبقات السنية في تراجم الحنفية)، لتقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري، وهي نسخة جيدة، في مجلد ضخم، بخط دقيق واضح، عليها خط المؤلف، ومنها نسخ عديدة في مكتبات الشرق والغرب[٢٢].

من الكتب المخطوطة المهمة بالخزانة الخالدية، كتاب (إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى)، لأبي عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطي، ويتناول بالتفصيل المسجد الأقصى، وفضائله، وفضائل زيارته، ويتحدث عن الصخرة الشريفة، وأوصافها، وعن الإسراء والمعراج بالتفصيل، وعن فتح أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، للقدس. كما يدخل الكتاب في تفصيلات سيرة سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى (عليهما السلام)، ويختتم الكتاب بالحديث عن فضل الشام، وما ورد في ذلك من الآثار والأخبار(*).

في علم الحديث توجد العديد من المخطوطات النادرة، مثل: (الترتيب والتفسير بمعرفة سنن البشير النذير)، لأبي زكريا يحيى بن شرف النواوي، وهي نسخة مضبوطة، كتبها داود ابن أغلبك بن علي الحنفي عام ٧٠٧هـ. و(الكوكب

(*) هذا الكتاب قسمان، نشر كل قسم في جزء، ونشرت الجزءين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، وقام بتحقيقه الدكتور أحمد رمضان أحمد. (انظر: أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤).

المنير لشرح الجامع الصغير للجلال الأسيوطي)، ألفه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العلقمي الكوكبي، وموجود منه الأجزاء ١، ٢، ٤، كُتب عام ١٠٤٦هـ. و(كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح)، للحسين بن مسعود البغوي، أخرجها صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي السلمي، وهي نسخة حسنة، ترجع إلى زمن المؤلف. و(جامع الأصول لأحاديث الرسول)، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن الأثير الشيباني الجزري، كتبها بعض تلاميذ المصنف عام ٦٣٥هـ. و(جامع الأصول لأحاديث الرسول لابن الأثير)، الجزء التاسع، وقد كتب على هامشه أن محمد بن أبي بكر الرازي، صاحب مختار الصحاح، قد قرأه على الإمام أبي المعالي صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي عام ٦٦٦هـ. و(النهاية في غريب الحديث)، لمجد الدين بن الأثير، الجزء الأول منها كتبه محمد بن نصر بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري، ابن أخي المؤلف، عام ٦٩٢هـ، والنسخة جيدة، وحسنة الخط[٢٣].

بالإضافة إلى المجموعات التي تحتوي على الرسائل، مثل مجموعة فيها (مرشدة السالك لأداء المناسك)، لعبد الوهاب بن أحمد عربشاه. و(شفاء الكليم في مدح النبي الكريم)، نظمًا له وبخطه. ومجموع رسائل لابن كمال باشا، منها (تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية)، وله مجموع آخر فيه رسائله، أيضًا، وابن كمال هو شمس الدين أحمد بن سليمان، أحد شيوخ الإسلام في عهد السلطان سليمان العثماني، وتوفي عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م. و(رسالة النجوم الزاهرة في حوادث مصر والقاهرة)، تأليف السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد العثماني، المتوفى عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، وهي نسخت عام ١٢٠٤هـ[٢٤]. ومجموع فيها (شرح الفقه الأكبر) المنسوب لأبي حنيفة، ألفه كمال الدين البابرتي، و(أحوال السلف وطبقاتهم)، لابن كمال باشا. و(رسالة في الحكم العقلي)، لعبد الحليم الشافعي. و(تبييض الصحيفة بمناقب الإمام أبي حنيفة) لجلال الدين السيوطي[٢٥].

٢ـ نفائس مخطوطات المسجد الأقصى

تعتبر المصاحف والربعات الشريفة من أهم نفائس خزينة المسجد الأقصى، وقد وقفها السلاطين والأمراء على المسجد، وعندما فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م، حمل إلى محراب المسجد الأقصى مصاحف، وختمات، وربعات شريفة. ومما وقف على المسجد الأقصى المصحف الذي كتبه السلطان أبو سعيد عثمان المريني بخط يده، وأرسله إلى المسجد الأقصى عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م[٢٦].

في خزانة المسجد الأقصى نسخة من القرآن الكريم، موجود منها نحو نصفها، كتبت بالخط الكوفي، وهي لمحمد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[٢٧]. فضلًا على نسخة من القرآن الكريم، النصف الثاني منه، مكتوبة على ورق صقيل بالخط الثلث، ترجع إلى أيام المماليك، الهوامش مذهبة، وأسماء السور مكتوبة بحبر أبيض على أرض ذات زخارف بديعة، غنية بنقوشها الهندسية، وألوانها الذهبية الزاهية، الحمراء، والزرقاء، وكل ألفاظ الجلالة مكتوبة بالذهب. والجزآن الثاني عشر والتاسع عشر من القرآن العظيم بخط نسخي جيد، وقفت على المسجد الأقصى. والجزء التاسع منه مكتوب برواية أبي عمرو بن العلاء، مؤرخ عام ٩١٨هـ، وقفه محمد بن الحافي. والجزء الثامن منه مكتوب بقاعدة ثلثية عثمانية، مذهَّب، في أوله لوحة حسنة التذهيب، وهو من ربعة وقفها السلطان العثماني على قبة الصخرة الشريفة[٢٨].

في المكتبة أيضًا ربعة شريفة ثلاثون جزءًا، مكتوبة على رق غزال، بقلم مغربي رائع في جماله، وهوامش الأجزاء

منقوشة بنقوش جميلة، وأسماء السور عُني بزخرفتها عناية فائقة، ولكل جزء من الأجزاء الباقية جلد مزركش بالفضة والذهب، وفي آخر كل جزء مكتوب بخط مذهب ما نصه: «كتبها، وأوقفها على المسجد الأقصى المبارك عبد الله علي أمير المسلمين ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، ملك المغرب، سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة». ولهذه الربعة صندوق من جلد دقيق النقش، والصنعة، محلى بزخارف فضية وذهبية ثمينة. وربعة شريفة أخرى، ثلاثون جزءًا بخط ثلث حسن، جيد النقش والزخرفة، وخصوصًا صدور السور، وفواصل الآيات الكريمة، وكل أسماء الجلالة منقوشة بماء الذهب، ولتلك الربعة صندوق خشبي ذو نقوش رائعة، كتب عليها بعض آيات الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية[٢٩].

لعل من أنفس ما حوته الخزانة، وأشار إليه مفهرسوها، مخطوط كتاب (نشق الأزهار في عجائب الأقطار)، لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس[٣٠]، وبه ذكر لأغرب ما رآه المؤرخ من عجائب مصر، وأعمالها، وفيه، أيضًا، ذكر لملوكها القدماء، وأخبار النيل، والأهرام[٣١]. ومخطوط (تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم)، لأبي بكر الخطيب علي بن ثابت البغدادي، المتوفى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م، وهي نسخة قيمة جدًا، صحيحة ومضبوطة، كتبت عام ٥٧٧هـ. ومخطوط (كتاب الأقاليم)، لأبي إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الإصطخري، المتوفى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م، وقد طبعه المستشرق مولر Muller، ويقال إن ذلك المخطوط يرجع إلى القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري[٣٢].

كما توفرت نسخة نفيسة من مخطوط (طبقات الشافعية)، لتقي الدين أبي بكر بن أحمد بن عمر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي الشافعي، وهو مقسم إلى تسعة وعشرين فصلًا، ومن هذا الكتاب نسخ متعددة. ومخطوط (الفوائد السنية في شرح الألفية)، لمحمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي البرماوي الشافعي، وهو شرح ألفية في أصول الفقه الشافعي، واسمها النبذة الذكية في القواعد الأصلية، والنسخة حسنة، مكتوبة عام ٨٦٨هـ، وفي المكتبة نسخة أخرى مكتوبة في السنة نفسها . هذا بالإضافة لعدة كتب مخطوطة أخرى، على جانب كبير من الأهمية، مثل: (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، لناصر الدين بن عبد الصمد المالكي، و(إرشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي)، لشرف الدين الشافعي الشاوري اليمني، و(الخصائل في المسائل الفقهية)، لنجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي، و(إيضاح مختصر القدوري أبي الحسين أحمد بن محمد البغدادي)، لركن الدين عبد الرحمن بن محمد الكرماني، و(البهجة المرضية في شرح الألفية لابن مالك)، لجلال الدين السيوطي[٣٣].

يرجع وجود العديد من المخطوطات، في مكتبة المسجد الأقصى إلى أن الكثير من العلماء كانوا حريصين على إرسال نسخة من مؤلفاتهم إلى المسجد الأقصى؛ لتحفظ في خزانته. وكانت هذه النسخ تعرف باسم (نسخ القدس)؛ الأمر الذي جعل خزانة المسجد الأقصى من أشهر خزائن القدس، لما تحويه من النوادر، والنفائس.

ثالثًا: فهارس المخطوطات في القدس

قام عدد من العلماء العرب من أبناء القدس وغيرها، فضلًا على علماء الغرب، أيضًا، بعمل فهارس لمخطوطات مكتبات القدس، واعتنى الكثيرون بقراءة، وتصنيف هذه المخطوطات، وفهرستها، وكان أول من بدأ بالكتابة عن

المخطوطات في القدس عبد الله مخلص(*) عام ١٩٢٤؛ فقد كتب مقالة، ذكر فيها قرابة خمسين مخطوطة من مخطوطات المكتبة الخالدية في القدس، وكان عنوان هذه المقالة التي نشرت في مجلة المجمع العلمي بدمشق: (نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف).

لعل من كبار العلماء الذين عنوا بالمخطوطات في: فلسطين وفهرستها الدكتور محمد أسعد طلس(**)، الذي كتب مجموعة من المقالات تحت عنوان: (دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها)، ونشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، وهي من أهم ما كتب عن المخطوطات في مكتبات القدس؛ حيث إنه عرض بالتفصيل لنفائس مخطوطات المسجد الأقصى والمكتبة الخالدية.

أما بالنسبة للمخطوطات نفسها، فيوجد مخطوط على درجة كبيرة من الأهمية، يتناول مكتبات القدس، ونوادر مخطوطاتها، وهو لطاهر الجزائري(***)، ويحمل عنوان: (فهرس منتخبات لنوادر الكتب من فهارس الآستانة والسلطانية بالقاهرة والأحمدية والعثمانية بحلب وخزانة باريس والظاهرية بدمشق وبيت المقدس ومعارف بغداد)، مخطوط بدار الكتب المصرية، «فهارس تيمور». كما وضع طاهر الجزائري برنامج المكتبة الخالدية العمومية بالقدس عام ١٩٠٠م.

بالإضافة إلى علماء الغرب الذين قاموا بوضع فهارس لمخطوطات القدس، فكان منهم جراف G. Graf، الذي أعد فهرسًا للمخطوطات العربية المسيحية في القدس، وقد تناول القسم الأول منه مخطوطات المعهد الملكاني للقديسة آنا، وتناول القسم الثاني مخطوطات الأقباط، أما القسم الثالث فتناول مخطوطات دير اليونان. ونشر هذا الفهرس على أجزاء في مجلة «الشرق المسيحي»، كما كتب جرومان A. Grohmann عن البرديات العربية في متحف الآثار في كتابه «علم البرديات العربية». ناهيك عن كلارك K. W. Clark، الذي أعد قائمة بالمخطوطات في مكتبات بطرخانة اليونان، وبطرخانة الأرمن في القدس، مصورة على ميكروفيلم لمكتبة الكونجرس. كما قام كويكيلدس K. M. Koikylides بإعداد فهرس للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبة بطريركية الأراضي المقدسة بدير اليونان(٣٤).

يبقى القول بأن التراث المخطوط هو أغلى وأنفس ما تقتنيه المكتبات العربية عامة، ومكتبات القدس بوجه خاص؛

(*) هو عبد الله بن محمد عبد الله مخلص، كاتب له اشتغال بالأدب والتاريخ، يماني الأصل، ولد في حلب، كان من أعضاء المجمع العلمي العربي، وله في مجلة المجمع العلمي العديد من الأبحاث، وقد صنف كتبًا ورسائل منها (تاريخ الجليل)، (تاريخ صفد)، (تاريخ بيت لحم)، (أدوات الزينة عند نساء العرب) وهي مخطوطة، عمل مديرا للأوقاف الإسلامية بالقدس.

انظر: فؤاد إبراهيم عباس، **موسوعة بيت المقدس**، الجزء ٧، بيت المقدس في التراث الإسلامي والعالمي، القاهرة، دار المنار، ٢٠٠٠، ص ٢٣١.

(**) من كبار علماء المخطوطات العربية، كشفًا عنها وتحقيقًا لها، ولد بحلب، وتعلم بها، وانتقل إلى دمشق، استقر بها حتى وفاته، كان أمينا عامًا لوزارة الخارجية السورية، وفي ميدان الكشف عن المخطوطات العربية وضع «الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف» ببغداد؛ فكان له الفضل الأول في تعريف العالم الإسلامي بهذه المخطوطات.

انظر: منجد، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦ – ٧.

(***) الشيخ طاهر الجزائري، كان قد جاء إلى القدس منفيًا من دمشق، بأمر من السلطة العثمانية، وكان من أكبر غواة الكتب، وصديقًا حميما لراغب الخالدي مؤسس المكتبة الخالدية؛ فكلف الثاني الجزائري بأن يساعده في تبويبها، وفهرستها.

انظر: الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

ذلك لأن الكتاب المطبوع مهما ندر، وغلا ثمنه، يمكن أن يُعوَّض، وليس الحال كذلك بالنسبة للمخطوطات؛ فكل نسخة من نسخ الكتاب الواحد مهما تعددت، لها قيمتها الذاتية؛ لأنها كثيرًا ما تختلف عن غيرها من النسخ في نصها، ولأنها تتميز بخطها، ومدادها، وحجمها، وتاريخ نسخها، ونوع ورقها، وبما قد تحمله من التمليكات، والسماعات، والمقابلات، وغيرها من مظاهر توثيق النص[٣٥]. ولا تزال المخطوطات في القدس في حاجة للعناية، والاهتمام، والجرد، والصيانة؛ لحماية ما تبقى منها، وتصويرها، والقيام بفهرستها فهرسة علمية، تفيد القارئ العربي، وتضع بين يديه قوائم بأسماء هذه المخطوطات ومؤلفيها، حتى يمكننا الاستفادة من تراثنا العربي، على خير وجه، هذا التراث الذي يجب الحفاظ على بقاياه بشتى الطرق والوسائل؛ حفاظًا على الهوية والذاكرة الوطنيتين.

* * *

هوامش الفصل السابع:

(١) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة، مدينة التاريخ والمقدسات**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ص ٧٤ – ٧٥.

(٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم ٢، المجلد ٣، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: كامل العسلي، التربية والتعليم في فلسطين، ص ٣٠٤).

(٣) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٥.

(٤) كامل العسلي، آثار القدس ومخطوطاتها، **شؤون عربية**، (تونس)، العدد ١٥، مايو/ آيار ١٩٨٢، ص٣٠٨.

(٥) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٦) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٢.

(٧) العسلي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٨.

(٨) – الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٢.

(٩) أسعد طلس، دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها، (انظر: صلاح الدين منجد، **المخطوطات العربية في فلسطين**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٢، ص ٨ – ٦٢).

(١٠) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٥.

(١١) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٣.

(١٢) مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، القسم ٢، الجزء ١٠، (في بيت المقدس)، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٦، ص ٣٧٧.

(١٣) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٦.

(١٤) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٦.

(١٥) يوسف نجيب، **القدس عبر التاريخ، دراسة كتابية وتاريخية وأثرية للقدس والأراضي المقدسة مدعمة بالخرائط والصور**، القاهرة، مطبعة المصريين، ٢٠٠٤، ص ٩٨.

(١٦) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠٧ – ٣٠٨.

(١٧) طاهر الجزائري، **منتخبات النوادر والكتب، من فهارس الآستانة والسلطانية بالقاهرة والأحمدية والعثمانية بحلب وخزانة باريس والظاهرية بدمشق وبيت المقدس ومعارف بغداد**، القاهرة، مخطوط بدار الكتب، ١٨ فهارس تيمور، ميكروفيلم رقم ٣٠٠٧٠، ص ٣٠٠.

(١٨) **المصدر نفسه.**

(١٩) **المصدر نفسه.**

(٢٠) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦، ٤٢.

(٢١) الجزائري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٠.

(٢٢) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥ – ٤٦.

(٢٣) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ ، ٢٥، ٢٦.

(٢٤) عبد الله مخلص، **نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف**، ص ٦٨ ، ٦٩. (انظر: صلاح الدين منجد، **مرجع سبق ذكره**).

(٢٥) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ٦١.

(٢٦) الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٨٧.

(٢٧) كوركيس عواد، **أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م**، القاهرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢، ص ٤٥.

(٢٨) –طلس، مرجع سبق ذكره، ص ١٥ ، ١٦.

(٢٩) **المرجع نفسه.**

(٣٠) علي، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢ .

(٣١) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠ .

(٣٢) علي، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢ .

(٣٣) طلس، مرجع سبق ذكره، ص ١٨ – ٢٠.

(٣٤) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي، مجموعة المخطوطات العربية في مكتبات العالم**، ترجمة: محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٩١، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٣٥) عبد الستار الحلوجي، **المخطوط العربي**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ص ٢٦٥.

* * *

الفصل الثامن

مكتبات العائلات المقدسية

منى محروس

كان في القدس العديد من العائلات العلمية، التي اهتمت بحفظ المخطوطات العربية القديمة، بالإضافة إلى المطبوعات النادرة، وأثرت تلك العائلات كثيرًا في الهوية العربية لمدن فلسطين، وعلى رأسها مدينة القدس، باعتبارها مركزًا مهمًا من مراكز العلم والثقافة، على مدار تاريخها، وقد أُنشئ العديد من المكتبات الخاصة بالعائلات المقدسية القديمة، التي احتوت على ما جمعه هؤلاء من نفائس الكتب والمخطوطات، لكن ما احتوت عليه تلك المكتبات قد فقد منه الكثير، وذلك للعديد من الأسباب، وعلى رأسها الاحتلال البريطاني، ومن بعده الصهيوني، لما قام به كلاهما من عمليات النهب المنظَّم لأهم الكتب، والمخطوطات، ونقلها إلى المعاهد الصهيونية، بالإضافة إلى قيام الاحتلال بحرق عدد كبير من خزائن الكتب العامة والخاصة، كما قام عدد من غير أهل العلم بنهب هذه المكتبات، وبيعها في الأسواق لأصحاب الأفران، وذلك ما يؤكده الشيخ الخليلي في وقفيته، المؤرخة في سنة ١١٣٩م، حيث قال: «إن الكتب قد قل وجودها بها [أي في الديار المقدسة]، ونقلها غير أهلها، وباعوها بأبخس الأثمان، وما ذاك إلا لقلة اشتغالهم بالعلوم، وعدم معرفتهم بالمنطوق والمفهوم». وفي موضع آخر، قال الشيخ الخليلي: «بيت المقدس كان فيه كتب كثيرة موقوفة من السلاطين، والأعيان، والأكابر، وقد استولى عليها أناس، وتصرفوا فيها بالبيع، والهدايا، للأعيان»[1].

يضاف إلى كل ما سبق ما أخذه الغربيون من نفائس الكتب والمخطوطات، التي اشتروها بأبخس الأثمان، في الوقت الذي لم تعرف فيه قيمة تلك الثروة من قبل أهل البلاد الذين باعوا أعدادًا لا تقدر بثمن منها إلى الأجانب، فضلًا على تسرب كثير من كتب التراث إلى أمريكا، وأوروبا، حتى الآن ثمة عدد من الصناديق المليئة بالمخطوطات في عدد من الجامعات الأوروبية، وفي جامعة هيدلبرج بألمانيا ثمة أعداد من الكتب عليها ختم المسجد الأقصى، وبعد

الاحتلال الإسرائيلي للقدس سنة ١٩٦٧م تسرب كثير من الكتب إلى الجامعة العبرية، وغيرها من مكتبات مراكز الأبحاث الصهيونية[٢].

تاريخ المكتبات في القدس

إن أي حديث عن وجود مكتبات في بلاد الشام، وفلسطين في جملتها، قبل القرن الثالث الهجري، هو غير ذي جدوى، باستثناء وجود عدد من نسخ القرآن الكريم في المساجد القديمة، منذ القرن الأول للهجرة، وتعد مكتبات المساجد أول ما عرف في فلسطين الإسلامية، ويعد كارثة حقيقية عدم وصول مخطوطات أصلية مما ألف في القرنين الثاني والثالث للهجرة إلى فلسطين، فكل ما وصل قد نسخ في العام السابع للهجرة وما بعده، وتعتبر الكارثة الكبرى التي حلّت بفلسطين نهب الفرنج لمكتبة دار العلم التي مُحي أثرها إثر حملات الفرنجة المتكررة للقدس[٣].

العصر الأيوبي والمملوكي

كان فتح صلاح الدين الأيوبي لمدينة القدس بداية للحياة العلمية التي عمت بلاد الشام، وفلسطين خاصة. وقد استهل صلاح الدين عهده في فلسطين بأعمال عظيمة، ومنها إنشاء المدارس، والعمل على تزويد المسجد الأقصى بالكتب الدينية والعلمية. ويقول العماد الأصفهاني: «فاوض السلطان جلساءه من العلماء، والأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للعلماء الصوفية»[٤]. الأمر الذي يؤكد بداية ازدهار الثقافة العربية، والاهتمام بها منذ مطلع العصر الأيوبي.

ابتداءً من أواخر القرن السادس الهجري، والرابع عشر الميلادي، بدأت ملامح جديدة للحركة المكتبية في فلسطين. وتميَّز عصر الأيوبيين، والمماليك، والقسم الأول من العصر العثماني بنهضة علمية حقيقية، تمثلت في مظاهر متعددة، منها البدء في إنشاء المدارس، ثم كان تطور هذه المدارس، وازدهار معاهد العلم التي وفد إليها الكثير من العلماء من داخل فلسطين، وخارجها، وكثر التأليف، وراجت الكتب، وازداد عددها زيادة كبيرة، بالإضافة إلى تطور إنشاء المكتبات بشكل ملحوظ، والإنفاق على الكتب.

كما كثرت المكتبات الخاصة في بيوت شيوخ المدارس، ورجال العلم، وكان في القدس، وحدها، أكثر من سبعين مدرسة، وعشرات الزوايا، والرباطات، والخوانق التي امتلأت خزائنها بالكتب. فقد جاء في «الأُنس الجليل»، لمجير الدين الحنبلي: «أن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي، أخي صلاح الدين الأيوبي، وقف على المدرسة النصرية، التي كانت بباب الرحمة، شرقي ساحة الحرم كتبًا، من جملتها كتاب إصلاح المنطق لأبي يوسف بن يعقوب بن السكيت، وقد وقف مجير الدين على كراسة من هذا الكتاب بخط ابن الخشاب، وتاريخ وقفها ٦١٠هجريًّا - ١٢١٣م»[٥].

يعتبر ما فعله الأيوبيون بداية ازدهار الحركة العلمية في مدينة القدس، وكان مقدرًا للمماليك الذين استولوا على الحكم في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أن يسيروا في الحركة العلمية أميالًا إلى الأمام، ولم يتمكن الأيوبيون من إنجاز الكثير في إحياء الحركة العلمية في غير مدينة القدس؛ ذلك لأن البلاد لم تكن في حالة استقرار تام بعد احتلال الفرنجة القدس مرة أخرى. وبدءًا من ٦٢٦- ٦٤١هجرية/ ١٢٢٩-١٢٤٤م استمرت

هذه المنازعات أكثر من نصف قرن، الأمر الذي أثر سلبًا على التطور العلمي في فلسطين، وبالتالي أخفق التطور الذي كان قد حدث من قبل في بداية ظهور المكتبات، والاهتمام بالكتب. لكن الأمر اختلف في العصر المملوكي، وقد شهد القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي قمة التطور، حيث ازداد عدد العلماء الفلسطينيين، والعلماء الوافدين إلى فلسطين زيادة كبيرة، وكانت القدس قد أصبحت مركزًا مهمًا من مراكز العلم في فلسطين.

لقد جاء في الجزء الثاني من «الأنس الجليل» أن أكثر من ٤٤٠ سيرة مختصرة لعلماء، وخطباء، وقضاة، ومؤلفين، ممن عاشوا في بيت المقدس، منذ الفتح الأيوبي، حتى سنة ٩٠٠ للهجرة ١٤٩٤م، من بينهم أفراد عائلات علمية كثيرة، مثل بني القلقشندي، وبني جماعة، وبني غانم، وبني الديري. وهناك دراسة إحصائية أثبتت أن ثمانين عالمًا علّموا في القدس، بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة، لقد جاءوا من اثنين وعشرين قطرًا، ومنْ ستين إلى سبعين مدينة، وجاء عدد كبير من هؤلاء من المغرب، التي كانت تربطها ببيت المقدس صلات وثيقة، على مدى العصور الإسلامية.

تركز هؤلاء العلماء في مدينة القدس، بما يحملونه معهم من مخطوطات نادرة، ومؤلفات خاصة بهم، التي وصل جزء كبير منها إلى المكتبات الخاصة فيما بعد[٤٦].

لقد شهد عصر المماليك نشاطًا منقطع النظير في التأليف من ناحية، وفي جمع الكتب، وإنشاء المكتبات، والعناية بها من ناحية أخرى، وكان سلاطين المماليك أنفسهم ممن يقدرون أهمية الكتب، فاحتفظوا بها في خزائن المدارس، ومن أهم الكتب في تلك الفترة كتب الحديث، والتفسير، والفقة، واللغة، والطب، والأدبيات، ودواوين الشعراء.

كما ألحقت خزائن كتب هؤلاء السلاطين بالخانقاوات، والجوامع، وكانت تغذية المكتبات مستمرة، حيث استمرت المكتبات تحصل على الكتب الجديدة، إما عن طريق الهدايا والهبات، وإما عن طريق النسخ، أو عن طريق الشراء، ولم يكن هناك ما يعرف بإعارة الكتب في تلك الفترة، وذلك لصعوبة نسخ الكتب، والحصول عليها[٧].

يرجع اهتمام المماليك بالكتب إلى انتشار أسواق الكتب، وتجارتها، فضلًا على تعظيم كثير من السلاطين والأمراء للعلم وأهله، بالإضافة إلى تميُّز هذا العصر بازدياد الثروات الضخمة التي مكّنت الكثيرين من اقتناء الكتب الثمينة، والنادرة، ووقفها على المساجد، والمدارس، والزوايا، لينتفع بها الطلاب، والعلماء، وفي وقت كانت فيه الكتب قليلة الانتشار، وغالية الثمن، وذلك لعدم معرفة الطباعة، وكانت المكتبات، في ذلك العصر، محور النشاط التعليمي، والثقافي[٨].

كما حرص العلماء على تكوين المكتبات، واقتناء الكثير من الكتب النادرة فيها، واعتز العلماء بتلك المكتبات التي اقتنوها، وحرصوا على ألا يراها غيرهم من المشتغلين بالعلم، عندما يزورونهم في منازلهم. وحرص العلماء على تزويد تلك المكتبات بأمهات الكتب، سواء عن طريق الشراء أو النسخ، بأن ينسخ الواحد منهم بنفسه بعضًا من الكتب، أو يستأجر أحد الأشخاص المعروف عنهم الاشتغال بالنسخ، بالإضافة إلى حرص أولئك العلماء على اقتناء كثير من الكتب، بخطوط مؤلفيها أنفسهم، وغالبًا ما كان يتم الشراء من ورثتهم، عقب وفاتهم. لعل من بين أسباب كثرة المكتبات الخاصة، في ذلك العصر، أن مصانع الورق التي وجدت في المدن القريبة من بيت المقدس كانت تمد المشتغلين ببيع، أو نسخ أو تأليف الكتب، بكميات وفيرة من الورق، بمختلف أنواعها المعروفة، في ذلك الوقت،

مما ساعد على انتشار الكتب وتجارتها، وقد أقام أشهر علماء هذا العصر في بيت المقدس، منهم ابن قدامة الحنبلي، وشهاب الدين أبو العباس، وابن النقيب، ونجم الدين الطوخي، وابن جبارة، وبدر الدين بن جماعة، وابن الهائم، والقلقشندي، وغيرهم الكثيرون، الذين أسهموا في حفظ التراث الثقافي الفلسطيني[٩].

العصر العثماني

استمر الحكم العثماني لبلاد الشام، ومن ضمنها فلسطين، طيلة ٤٠٠ سنة، كان أزهاها القرن الأول، من حيث ازدهار الحركة العلمية، واستمرت في العصر العثماني ظاهرة العائلات العلمية، التي ساعدت في الحفاظ على الموروث الثقافي، وقد توارث أفراد هذه العائلات وظائف التدريس، والمناصب الدينية الرفيعة، ومن هذه العائلات في القدس آل بني جماعة، وآل الديري، وآل أبي اللطف، الذين تولوا التدريس في المدرسة الصلاحية، وذلك بالإضافة إلى العائلات الفلسطينية الأخرى في صفد، وغزة، ونابلس. وفي تلك الفترة، درس ١٢٣ عالمًا من القدس في الأزهر الشريف، وأقاموا علاقات طيبة مع عدد من العلماء العرب، الذين التقوا بهم في الأزهر الشريف، وقد عثر، مؤخرًا، في القدس على ثلاث رسائل وردت إلى مفتي القدس، طاهر الحسيني، سنة ١٢٨٢هجرية (١٨٦٥، ١٨٦٦م)، من المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الجبرتي، ومن الشيخ حسن العطار، والشيخ عبد الرحمن الشرقاوي، وتضمنت رسالة العطار الحديث عن الكتب، والمخطوطات، الأمر الذي يؤكد استمرار الاهتمام بالكتب والمخطوطات في تلك الفترة، بالرغم مما أحدثه الاستعمار الفرنسي في القطر المصري بكل ما يتعلق بالثقافة العربية.

لقد عمل عدد كبير من أفراد العائلات المقدسية بالتدريس في مدارس القدس إبان العصر العثماني، الذي حفل بمكتبات خاصة كثيرة، تدل على النشاط العلمي، والنهضة العلمية، ومن أهم المكتبات التي أسهم في بنائها علماء كثر مكتبة الشيخ الخليلي، ومكتبة الشيخ محمد بن بدير، ومكتبة حسن بن عبد اللطيف الحسيني، ومكتبة خير الدين الرملي، ومكتبة يحيى بن شرف الدين بن قاضي الصلت[١٠].

لعل أفضل وصف للقدس، في ذلك العصر، يوجد في مخطوط للسائح التركي الشهير، وليا جلبي، الذي زار القدس حوالي سنة ١٦٧٠م ووصفها وصفًا جيدًا، فقال: «كان هناك سبع دور للحديث، وعشرون للقرآن، وأربعون مدرسة للبنين». كما يقول: «إن كل شيء كان على ما يرام، خلا الأمن». وكانت القدس تابعة، آنذاك، لطرابلس الشام، ومما سبق يتبين لنا أنه بالرغم مما كانت تتعرض له البلاد من فقدان تام لأمنها، وذلك لتعرض بلاد الشام الدائم للاعتداءات من قبل الطامعين، فإن الاهتمام بالحركة العلمية والثقافية، والتراثية ظل قائمًا[١١].

كان في القدس ٤٩ مكتبة تقصدها الجماهير في أي وقتٍ شاءت. وبالإضافة إلى ما احتوت عليه خزائن المدارس، والمساجد، وبيوت العلماء من خزائن الكتب، كما كان ثمة عدد كبير من المكتبات داخل الكنائس، ومن أمثلتها مكتبة القديس المخلص (١٥٥٨)، ومكتبة البطريركية الأرثوذكسية (١٨٦٥)، ومكتبة القديس جورج (١٨٩٠)، والمكتبة الإنجيلية الأثرية الفرنسية (١٨٩٠)، والجامعة العبرية (١٨٩٢)، ومكتبة الجامعة الروسية الأرثوذكسية (١٨٩٥). فضلًا على العديد من المكتبات، التي لا يُعرف تاريخ إنشائها، كمكتبة دير الصليب، والمكتبة الأرثوذكسية، ومكتبة الآباء الفرنسيين الكائنة في دير الدومنيكان. بالإضافة إلى المكتبات التي امتلكتها بعض الأسر، والأشخاص، كمكتبة الشيخ خليل الخالدي، ومكتبة إسعاف بك النشاشيبي، وإسحاق موسى الحسيني، وعبد الله مخلص، وخليل

السكاكيني، وغير هؤلاء كثيرون، ومن بين المكتبات العائلية: المكتبة الحسينية، والداودية، والفخرية لآل أبي السعود، وآل جار الله، وآل قطينة، وآل البديري، وآل الإمام، ومكتبة الترجمان[١٢].

تشير سجلات المحاكم الشرعية في القدس إلى وجود عدد كبير من المكتبات الخاصة التي تعود إلى العصر العثماني، وقد شاع أمر الكتب المخطوطة في بيوت العلماء، فكان هناك عالم متواضع، هو برهان الدين الناصري، مات وفي تركته ١٣٨ كتابًا مخطوطًا، وغيره الكثير من الشيوخ والعلماء الذين تركوا عددًا لا بأس به من المخطوطات، التي تعبر عن فترات تاريخية مزدهرة، ومن أهم هذه التركات، التي لا تقدر بثمن، وجدت في مكتبة الشيخ برهان الدين بن جماعة، خطيب المسجد الأقصى، والشيخ محمد بن بدير المقدسي، وعرفت مكتبته باسم مكتبة البديري، بموجب حجة شرعية مؤرخة في ١٩ ذي الحجة ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م)، وضمت هذه المكتبة ١٠٠٠ مخطوط، لا يزال منها بقية، وتبدد أكثرها. ومكتبة الشيخ أحمد بن محمد، الشهير بالمؤقت، وهو مغربي الأصل، وكان مفتي الحنفية في المسجد الأقصى، وقيل عنه إنه جمع خزانة كتب نفيسة، وجليلة، ووقفها، وجعلها صدقة جارية، ووقفيتها مؤرخة في سنة ١١٨١هـ (١٧٦٧م)[١٣]. ومكتبة حسن عبد اللطيف الحسيني، مفتي القدس في القرن الثالث عشر الهجري، ويفيدنا السجل رقم ٢٦٧ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس بأنه كانت له مكتبة حافلة، وقفها بموجب حجة شرعية مؤرخة في سنة١٢٠١هـ (١٧٨٦م)، وقد حوت المكتبة كتبًا من موضوعات مختلفة، ومن بينها كتابان في الطب والبيطرة، فضلًا على الموضوعات الدينية واللغوية. مكتبة محمد صنع الله الخالدي، الذي كان باشكاتب (رئيس كُتاب) المحكمة الشرعية بالقدس. وقد وقف الشيخ صنع الله كتبًا كثيرة، وفي فهرس المكتبة الخالدية بالقدس مخطوط ١٤٥٧ عنوانه أسماء الكتب التي وقفها محمد صنع الله الخالدي على أولاده الذكور، وأحفاده. ومكتبة الشيخ أمين خليفة بن إبراهيم، من علماء القرن العاشر، وقد وقف كتبه على نفسه، ثم على أولاده، فإذا انقرضوا، انتقلت الكتب إلى مكتبة المدرسة البلدية الأرغوانية في القدس، وعدد تلك الكتب ٥٠ كتابًا[١٤].

إلى ذلك انتشرت مكتبات المدارس، كما ذكرنا سابقًا، ومن أهم مكتبات المدارس:

مكتبة المدرسة (الخانقاه) الفخرية

وقد وقفها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، المتوفى ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، اغتنت بمخطوطاتها الدينية، والفلكية، وقدر عدد مجلداتها بنحو عشرة آلاف مجلد، غير أن أفراد أسرة ابن السعود التي آل إليها الإشراف على الخانقاه قد اقتسموا الكتب فيما بينهم، الأمر الذي أدى إلى تبعثرها، وتلاشيها فيما بعد.

مكتبة المدرسة الأمينية

تقع في رواق الحرم الشمالي، بها غرفة مخصصة للكتب، وكان فيها كتب الشيخ محمد صالح الإمام، شيخ المدرسة، في القرن الثالث الهجري، وفي سجلات المحكمة الشرعية بالقدس حجة وقف وجبها الشيخ يحيى بن شرف الدين بن قاضي الصلت، المتوفى ١٠٤٠هـ (١٦٣٠م)، ومن أجداد عائلة الإمام، مدفون داخل المدرسة، وقد وقف الكتب على أولاده ونسله من بعده، ومن بعدهم طلبة العلم من السادة الشافعية في القدس الشريف، وحجة الوقف مؤرخة في ٢٥رجب سنة ١٠٠٧هـ (١٥٩٨م).

كما كان في المدرسة البلدية مكتبة الشيخ محمد الخليلي، مفتي السادة الشافعية، وفي المدرسة الأشرفية السلطانية خزائن للكتب. وقد جاء في الوقفية الخاصة بالمدرسة ثلاث خزائن كتب، يعود وقفها إلى السلطان قايتباي، كما كان في المدرسة الغادرية كتب موقوفة أيضًا، وقفها شهاب الدين أحمد الإنطاكي على المدرسة سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م)[١٥].

أما تركات الشيوخ، فتمثلت فيما يلي:

تركة الشيخ محب الدين محمد بن الدويك

كان قاضي القدس، وقد تضمنت تركته حوالي ١٥٠ كتابًا في التفسير، والتصوف، والأصول، والقراءات، والأدب، والنحو، بالإضافة إلى عدد من الكتب في الطب، والتاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، والمنطق.

تركة الشيخ عبد الله بن عبد الله النقرزان

هو من أهم علماء القرن العاشر الهجري، وقد تضمنت تركته ٦٠ كتابًا من أهم الكتب التي كانت متداولة، آنذاك.

تركة الشيخ محمد أفندي زادة

كان مفتي القدس في القرن الثاني عشر الهجري، وتضمنت كتبًا دينية، ولغوية، ومنها من كتب العلوم، كتاب الرحمة في الطب والحكمة، لمهدي بن علي المقري، المتوفي ٨١٥ هـ (١٤١٢م).

احتلال القدس

منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى اليوم توالت على فلسطين أربعة عهود مختلفة، هي القسم الأخير من العهد العثماني الذي انتهى عام ١٩١٧، عهد الاحتلال البريطاني، من ١٩١٧ حتى ١٩٤٨، ثم الاحتلال الإسرائيلي لمعظم فلسطين (١٩٤٨)، قبل الاحتلال الإسرائيلي لكل فلسطين ١٩٦٧ حتى اليوم.

الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩١٨

تلك الفترة التي ازداد فيها التغلغل الاستعماري لبلاد الشام، ذلك التغلغل الذي أخذ أشكالًا مختلفة، وللناحية الثقافية نصيب كبير منها، فتأثرت الحركة العلمية، وضمنها المكتبات التي تأثرت كثيرًا بما حدث، فمنذ ذلك التوقيت لم يتم افتتاح مكتبات جديدة، بالإضافة إلى عدم تنظيم المكتبات القديمة، وكانت المكتبة الخالدية قد افتتحت قبل ذلك التاريخ بقليل، وتحديدًا عام (١٩٠٠م)، وقد تم تأسيس عدد من المكتبات الأجنبية في أواخر العهد العثماني، التي أدخل من خلالها مبادئ تنظيم جديدة في العمل المكتبي، التي اعتبرت جديدة، حيث حفظت الكتب في أماكن أفضل، أو ترتيبها على الرفوف، ووجود قاعات مجهزة للقراءة، بالإضافة إلى وضع فهارس حديثة بعض الشيء، وبقيت تلك المكتبات بعيدة عن أهل البلاد، وظلت معزولة، وغير مؤثرة في المكتبات الوطنية[١٦].

ما حدث عام ١٩٤٨

لقد نتج عن الاحتلال الإسرائيلي لمعظم فلسطين، عام ١٩٤٨، سقوط مئات المكتبات العامة، وآلاف المكتبات الخاصة، داخل عدد لا يحصى من البيوت التي رحل عنها أهلها، واستولى عليها الصهاينة، ونقلوا أفضلها إلى مكتبات معاهدهم، بالإضافة إلى ما قامت به قوات الاحتلال، فإن أعمال النهب اتسعت ممن استغلوا الفوضى التي حدثت في البلاد، وقام هؤلاء بنهب عدد من المكتبات العريقة، وعلى رأسها مكتبة إسعاف بك النشاشيبي، وقد حملوها إلى مدينة الزرقاء في الأردن، وباعوها بالرطل لأصحاب الأفران، كما أن هناك مكتبات هُجرت، وأكلها العث والرطوبة، وازدادت آنذاك أعمال النهب، والحرق، من قبل قوات الاحتلال، بالإضافة إلى منع استيراد الكتب، ومنع تداولها، ونشرها، وبدأ ذلك بشكل كبير منذ عام ١٩٦٧، وحتى الآن تتعرض الهوية العربية للاعتداءات من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي، وذلك لمحو كل ما هو عربي، وإحلال ثقافة جديدة تكرِّس «حق» الاحتلال الإسرائيلي في امتلاكه للأرض الفلسطينية، على أن ثمة الكثيرين الذين يتصدون لتلك المحاولات الصهيونية، التي تهدف إلى محو تاريخ الثقافة العربية الفلسطينية العريقة[١٧].

أما أهم مكتبات العائلات، فلعلها:

المكتبة الخليلية

وهي تركة الشيخ عبد المعطي الخليلي، مفتي الشافعية بالقدس، ومن علماء المسجد الأقصى، توفي سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م)، ودفن في تربة باب الرحمة، وقد تحدث حسن عبد اللطيف الحسيني في تراجم أهل القدس عن المكتبة الخليلية، قائلًا: «جمع مولانا خزانة كتب علم فريدة، من الكتب الصحيحة المجيدة، وهي، الآن، نفع نافع لكل طالب علم، وفي وقفية الشيخ الخليلي ثبت بأسماء الكتب الموقوفة، مرتبة حسب المواضيع، ومنها سبعة مصاحف شريفة، وكتب عديدة في التفسير، والحديث، والفقة، والتصوف، والأصول، والتوحيد، والقراءات، والفرائض، والحساب والفلك، والنحو، والمعاني، والبيان، واللغة، والمنطق، والصرف، والعروض. ويقدر عدد المجلدات بسبعة آلاف مجلد.

لقد وقف الشيخ الخليلي الكتب على نفسه مدة حياته، ثم إلى أولاده وأحفاده، ما تناسلوا، فإذا انقرضوا فعلى أقرب عصبات الواقف ما تناسلوا، فإذا انقرضوا فعلى الزاوية المحمدية في صحن الصخرة، وعلى الفقهاء الشافعية. ووضع الخليلي شروطًا كثيرة للحفاظ على الكتب، بحيث لا تباع، ولا توهب، ولا ترهن، ولا تهدى لأحد من الحكام والأعيان، ولا تستبدل. كما أوصى بالعناية بالكتب، وترميمها، وتجليدها، وعدم إعارتها، إلا لطلبة العلم، وأن تبقى الكتب تحت أيدي الموقوف عليهم في المدرسة البلدية، ما داموا فيها. وقد وضع الشيخ الخليلي الكتب تحت تصرف أهل بيت المقدس، وبذلك تعد مكتبة الشيخ الخليلي، وكان مقرها المدرسة البلدية، مكتبة عامة مفتوحة الأبواب لكل الناس، وهي من المكتبات التي لا تزال باقية في القدس حتى اليوم[١٨].

يقال إن الشيخ الخليلي أول من حقق فكرة إيجاد مكتبة عامة في القدس، استنادًا إلى وقفية كتبه. وقد حفظت الكتب المذكورة في المدرسة البلدية، التي أنشأها نائب السلطان، الأمير سيف الدين منكلي بغا، المتوفى سنة٧٨٢ هجرية (١٣٨١م)[١٩].

على أن الكثير من المخطوطات التي كانت داخل المكتبة اختفت، ولا يوجد لها فهرس الآن[٢٠].

دار الكتب الخالدية

تعد من أعظم دور كتب القدس، تقع في خط «باب السلسلة»، على يمين الحرم الشريف، وهي المدرسة المعروفة باسم «بركة خان»، التي آل ملكها إلى آل الخالدي إلى عدة قرون مضت، وانتقلت إلى ملك السيدة خديجة خانم الخالدي، ابنة القاضي موسى أفندي الخالدي، قاضي عسكر بر الأناضول، وأوصت خديجة ولدها، الحاج راغب أفندي، رئيس المحكمة الشرعية بيافا، بأن يجعلها وقفا، ويضع فيها كتب الأسرة الخالدية. وقد نفذ راغب وصية والدته، سنة ٣١٨ هـ (١٩٠٠م)، وأعانه في ذلك شيخ الشام، طاهر أفندي الجزائري، وقام بترتيب كتبها، وعاونه في ذلك الشيخ أبو الخير محمد بن محمود الحبال الدمشقي، وطبعا لها فهرسًا اشتمل على أسماء الكتب الموجودة[٢١].

لقد جرى الاتفاق على أنه متى توفي أحد أفراد الأسرة تنقل إلى المكتبة الخالدية. وهكذا ضمت إليها كتب يوسف ضياء الدين باشا الخالدي، نائب القدس في مجلس المبعوثان العثماني، سنة ١٨٧٨م، ومكتبة روحي بك الخالدي، الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان العثماني، عام ١٩٠٨م، ونظيف بك الخالدي، أحد أهم مهندسي السكة الحديدية الحجازية، وأحمد بدوي بك الخالدي، وغيرهم من آل الخالدي. ويقول الرحالة دي طرازي: «ما كانت المكتبة تظهر إلى الوجود، لولا أن أقبل إلى القدس الشيخ العلامة طاهر الجزائري، منفيًّا من دمشق، بأمر السلطة العثمانية، وكان من أكبر غلاة الكتب، وصديقًا حميمًا للحاج راغب راغب الخالدي، مؤسس المكتبة»[٢٢].

ثم تولى الشيخ أمين الأنصاري إدارة المكتبة، وبقيت إدارته حتى توفي في مطلع الخمسينيات، وكان يتقاضى على ذلك أجرًا من ريع الوقف، الذي وقفه الشيخ راغب الخالدي، الذي وقف على المكتبة نصف حمَّام العين. وبعد وفاة الأنصاري تولى ابنه إدارة المكتبة، وفي عام ١٩٦٧ تولى أمر المكتبة حيدر أفندي الخالدي بوصفه قائمًا بأعمال متولي أوقاف آل الخالدي في القدس[٢٣].

أما عدد الكتب في المكتبة الخالدية، فكانت تقرب من أربعة آلاف مجلد، ثلثاها مخطوطات نادرة، وعدد من نفائس المطبوعات التي جلبها عدد من المستشرقين[٢٤].

نظرًا لأهمية المكتبة الخالدية قامت بعثة من «معهد المخطوطات» في جامعة الدول العربية، بزيارة المكتبة عام ١٩٥٣م، وتم تصوير مخطوطات المكتبة، لكن ما تم تصويره قد تعرض للتلف، فلا يستطيع أحد الاطلاع عليه. وفي محاولة أخرى، قامت الجامعة الأردنية بتصوير مجلدات المكتبة من جديد، وبالفعل وصلتها بعض الصور، وستوالي تصوير الباقي، لكن التصوير وحده لا يكفي في حفظ المخطوطات، والمطبوعات الأصلية، وحمايتها من التلف، الأمر الذي يستدعي وقفة من قبل العلماء المهتمين بحماية التراث الثقافي في العالم العربي تحديدًا، للحفاظ على ما تبقى من مخطوطات ومطبوعات تلك المكتبة.

لقد تعرضت المكتبة إلى محاولة مصادرتها من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، تلك المحاولة التي باءت بالفشل، بعد أن راجع حيدر الخالدي السلطات الإسرائيلية باعتبار الدار ملكًا من أملاك وقف آل الخالدي، وبالطبع ألغي أمر المصادرة[٢٥].

لقد ضاع، بالفعل، عدد كبير مما تحتويه المكتبة، فعندما تأسست المكتبة كانت تضم ١٣١٨ كتابًا. وفي عام ١٩٣٦

ازداد عدد كتبها، ومخطوطاتها، حتى بلغ سبعة آلاف مجلد، ثلثها مخطوطات تعود أجزاء منها إلى سبعة قرون مضت. وفي عام ١٩٤٥م، ازداد عدد الكتب والمخطوطات إلى عشرة آلاف كتابٍ باللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والفارسية، والتركية.

لقد أُعد للمكتبة فهرس عام ١٩٧٣، أكد أن عدد الكتب والمخطوطات لا يتجاوز الآلاف الستة، بالتحديد ٥٩٨٠ كتابًا ومخطوطًا، ومنها ٤٤١٢ باللغة العربية، أي أن نصف المكتبة تقريبًا قد اختفى[٢٦].

لقد تعددت نوعيات الكتب في المكتبة، وضمَّت كتب التفسير، والحديث، والتجويد، والقراءات والرسم، والأصول والفتاوى، والفقة الحنفي، وفقة المذاهب الأربعة، والتوحيد، والفرائض النبوية، والتصوف، والمواعظ، والحِكَم، والنحو، واللغة، والأدب، والسياسة، والدواوين، والمدائح النبوية، والسيرة النبوية، والمناقب، وكتب التراجم، والفلك، والطب، والروحانيات، والمجاميع. ما يؤكد أن دار الكتب الخالدية هي من أهم دور الكتب في تاريخ فلسطين[٢٧].

دار الكتب الفخرية

هي قسم من الخانقاه الفخرية المجاورة لجامع المغاربة، ويعود وقفها إلى القاضي فخر الدين عبد الله بن محمد بن فضل الله، ناظر الجيوش الإسلامية، المتوفى سنة ٧٣٢هـ. والزاوية، اليوم، ملك لآل أبي السعود، تلك الأسرة التي تقطن القدس منذ نيف وسبعة قرون، وبلغ عدد كتب هذه الدار نحو عشرة آلاف مجلد تقريبًا. وقد نفدت الكتب وتفرقت بعد أن اقتسمتها الأسرة، ولم تعد نفعًا لأحد[٢٨].

مكتبة عبد الله مخلص

تُعرف بخزانة عبد الله بك مخلص، عضو «المجمع العربي بدمشق»، وهو من علماء التاريخ والآثار، وقد سكن القدس، بعد انتقاله من عكا، ناقلًا معه إلى القدس مكتبة عريقة، احتوت على عدد من المخطوطات والكتب النادرة، ووضعها في دير القربان، الذي نسف في نهاية عهد الاحتلال البريطاني، وتحديدًا أثناء خروج الاحتلال، بعد تسليم القدس إلى العصابات الصهيونية، التي بلا شك أكملت مسيرة الاحتلال في القضاء على كل ما يحفظ تاريخ فلسطين. وقد ضاعت كل الكتب والمخطوطات تحت الأنقاض، وقد زاد عددها على ٣٠٠٠ مجلد، بينها ١٢٠ مخطوطًا[٢٩].

خزانة آل قطينة

تُنسب الخزانة إلى تلك الأسرة الحنبلية الوحيدة، كما صرح أحمد سامح الخالدي في أحد أحاديثه. ويعود نسب هؤلاء إلى مجير الدين الحنبلي، صاحب «تاريخ القدس والخليل»، وتقع خزانة هؤلاء بباب العمود، وكان في الخزانة أربعة آلاف مصنَّف، ومن بينها مخطوطات نفيسة، في الرياضيات، والفلك، والتنجيم، ولم يبق من تلك الخزانة اليوم شيء[٣٠].

مكتبة الشيخ حسام جار الله

كانت تضم حوالي ألفيْ كتاب ومخطوط في العلوم الإسلامية والعلوم العربية، والأدب العربي، ومن بينها مخطوط

قرآن، مجلد بجلد الغزال، وقد سرقت المكتبة عام ١٩٤٨، من قبل الصهاينة، كما احترقت مكتبة إسحاق موسى الحسيني، وقد بيعت مكتبات أُخرى، بعد نهبها، مثل مكتبة فهمي الأنصاري، ومروان العسلي، التي كانت تضم ٤٥٠٠ مجلد، وقد جمع منها د. إسحاق موسى الحسيني زهاء ٥٠٠ مخطوط من أماكن متفرقة، وتوجد الآن في كلية الآداب بنات في القدس[٣١].

خزانة آل البديري

آل البديري من أعرق أُسر القدس التي امتلكت خزائن كبيرة، ومليئة بالمخطوطات، وهي موجودة عند الشيخ محمد أفندي البديري، الذي جعلها من أجنحة المسجد الأقصى[٣٢].

خزانة الشيخ محمود اللحام

تقع في ضاحية سلوان، ويزيد عدد كتبها على أربعة آلاف مصنَّف[٣٣].

مكتبة حسن الترجمان

أسسها حسن الترجمان الصالح، وقد اعتنى بجمع كل ما يقع تحت يده من مخطوطات ومطبوعات، حتى بلغ ما جمعه ثلاثة آلاف مجلد، بينها تسعمائة مخطوط[٣٤].

تلك بعض ما تبقى من المكتبات التي فُقدت، أو سطا عليها الاحتلال البريطاني، ومن بعده الصهيوني، ونهب نفائس مخطوطاتها وكتبها، التي تعود إلى قرون عدة، محاولة من الاحتلال لطمس الثقافة العربية الفلسطينية، ومحو الهوية العربية، التي حملتها خزائن تلك المكتبات بداخلها قرونًا عديدة، ومما ذكرناه عن تاريخ القدس تلك المدينة العريقة يتبين لنا أنها من أفضل مراكز الثقافة العربية الأبدية، مهما حاول غاصبوها أن يمحوا تاريخها العربي.

* * *

هوامش الفصل الثامن:

(١) كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨١، ص٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(٣) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الخاص، المجلد الثالث، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: كامل العسلي، المكتبات الفلسطينية منذ الفتح الإسلامي حتى سنة ١٩٨٥، ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٤) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧١.

(٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٥ ، ٢٨٦.

(٦) **المرجع نفسه**، ص١٢ ، ١٣.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ١٩٦٥، ص٣٣٠ : ٣٣٦.

(٨) علي الـ يد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٦٨، ١٦٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ١٧١، ١٧٢.

(١٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩: ٢٤.

(١١) عارف العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، دار المعارف، القاهرة ،١٩٩٤، ص١٠٥ ، ١٠٦.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٩٨: ٢٠٢.

(١٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٨.

(١٤) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٦ .

(١٦) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ٢٩٣، ٢٩٤.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص٢٩٦ ، ٢٩٧.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(١٩) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٢٠) د.صلاح الدين المنجّد (معد ومقدم)، **المخطوطات العربية في فلسطين**، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢، ص١٢.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص١٠، ١١.

(٢٢) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٤: ٢٨٨.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٨١.

(٢٤) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٠.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص٦٤.

(٢٦) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٤: ٢٨٥ .

(٢٧) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣: ٥٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١٢، ١٣ .

(٢٩) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٦ .

(٣٠) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣ .

(٣١) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٦ .

(٣٢) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣ .

(٣٣) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(٣٤) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩١ .

* * *

obeikan.com

الفصل التاسع

الكليات العربية في القدس

دينا العشري

لم تكتف مدينة القدس بمآذن مساجدها، وأجراس كنائسها، فأضافت القدس إلى هيبتها الدينية هيبة العلم والتعليم، فغدت واحدة من أهم المدن الإسلامية في هذا الميدان، وبالرغم من توالي الأحداث السياسية على القدس، فإنها حاولت الصمود، حيث كان للحكم العثماني، ومن بعده الانتداب البريطاني آثارهما السيئة على أوضاع المجتمع الفلسطيني، وخاصة الوضع التعليمي، فتبعت الحكومة العثمانية، وكذلك حكومة الانتداب البريطاني، سياسة تضييق الخناق على الحركة التعليمية؛ لخدمة أغراضها السياسية.

من ثم، لم يكن في القدس تعليمٌ عالٍ بالمعنى المتعارف عليه، فعرقلت حكومة الانتداب إقامة جامعة عربية في فلسطين، واكتفت بإقامة مدارس ثانوية، أطلقت عليها لفظ «كليات»، والتي لم تكن في حقيقة الأمر سوى مدارس ثانوية، لم ترتق بعد للبكالوريوس، أو الشهادة العليا.

الحركة التعليمية في القدس

شهدت الحياة التعليمية في القدس نهضة لا مثيل لها، خاصة منذ تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ/ ١١٨٧م، حينما أعاد بناء ما أحرقه الفرنجة، من مدارس، ومساجد، ومنشآت حضارية، وبدأ بإنشاء المدارس، وعمل على تزويد المسجد الأقصى بالكتب الدينية والعلمية [١]، فأقام المدرسة الصلاحية، عام ١١٩٢م، لتدريس الفقة والحديث، وتعتبر هذه المدرسة من أهم المدارس التي تم تحويلها إلى كلية علمية دينية، عرفت باسم «كلية» صلاح الدين الأيوبي، في العهد العثماني، على يد جمال باشا، وذلك في عام ١٩١٥م[٢].

كما سار الأيوبيون والمماليك على سُنَّة صلاح الدين الأيوبي في تأسيس المعاهد العلمية، وتزويدها بالمدرسين، والكتب، والمخطوطات، من هنا أصبحت القدس بيئة الحضارة العالمية، ومهد المسيحية، والقبلة الأولى في الإسلام، وهمزة الوصل في حركة المواصلات العالمية[٣]، كما أقام المماليك المدرسة الجاولية كذلك في عام ١٣٢٠م، والذي شيَّدها الأمير علم الدين بن عبد الله الجاولي، أحد الأمراء الكبار في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، التي خصصت لتدريس الفقه والحديث، وتحولت في العهد العثماني إلى دار للحكم، ومقرٍّ للحامية العثمانية، إلى أن جاء الاحتلال البريطاني لفلسطين، عام ١٩١٧، وقام بتحويل المدرسة إلى كلية، عرفت باسم «روضة المعارف الوطنية»[٤]، من ثم أصبحت القدس مهدًا للعلماء، وطلاب العلم في ذلك الوقت، وأنجبت القدس الكثير من العلماء، الذين أثروا الحياة العلمية بإنتاجهم الديني والفكري، حتى يومنا هذا[٥].

الحركة التعليمية في العهد العثماني

تمثلت الحركة التعليمية في محاولات الكنائس، والمساجد، والجماعات الدينية نشر التعليم، خاصة مع تقصير واضح من الجهات المختصة بذلك، فمع قيام الدولة الحديثة، ابتداءً من الحكم العثماني لفلسطين، بدأت المنافسة بين الإرساليات، والكنائس، والجماعات الإسلامية، التي كانت تحت الإدارة العثمانية، لمحاولة نشر التعليم، خاصة بعد أن قام السلطان عبد الحميد الثاني بتضييق العملية التعليمية خوفًا من ظهور طبقة مثقفة تنقلب على الحكم، فبدأ بتقليص الميزانية المخصصة للإنفاق على التعليم الابتدائي[٦]. ما أدى إلى وجود الجمعيات الأهلية، التي أقامت العديد من المدارس الوطنية، ومنظمات للتعليم الخاص، والمدارس العلمانية[٧].

هدف التعليم خلال العهد العثماني

كان الهدف العثماني الأول من التعليم هو خدمة السلطة الحاكمة، وذلك من خلال سعيها لخلق جيل فلسطيني يدير شؤون البلاد تحت السيطرة العثمانية، وهذا ما جعل الحكومة العثمانية تتبع سياسة تجهيل العرب عن طريق[٨]:

١ ـ فرض اللغة التركية بدلًا من اللغة العربية، وجعل الأولى اللغة الرسمية، مما أدى إلى تدني مستوى التعليم لدى الطلبة في المدارس الحكومية، وانتشار الجهل بشكل كبير، خاصة بين الطبقات الفقيرة، وطبقة الفلاحين.

٢ ـ فرضت الحكومة العثمانية نظام التعليم الفرنسي، واعتبرت اللغة الفرنسية إلزامية، خاصة في المدارس الرشيدية، باعتبارها لغة ثانية في المدارس الحكومية، بسبب سياسة التتريك هذه.

بعد إعلان الدستور في إستانبول ١٩٠٨م ظهر شيء من التنظيم في العملية التعليمية، فكانت المدارس الخاصة تختلف عن المدارس الحكومية بشكل كبير، حيث كانت المدارس الابتدائية تختلف مدتها في القرية عن المدينة، فكانت الأولى ستة صفوف، وتلاها في المدينة المدرسة الابتدائية ومدتها سنتان، وتسمى الرشيدية في القدس[٩].

أخذ الأتراك نظام التعليم من فرنسا، فكان كالتالي:

١ ـ تعليم ابتدائي، ومدته ست سنوات.

٢ ـ تعليم إعدادي، ومدته ثلاث سنوات.

٣ ـ تعليم سلطاني، ومدته ثلاث سنوات، وبه يختتم التعليم الثانوي، ويبدأ التعليم الجامعي خارج القدس[١٠].

من هنا يتضح أن المدارس الخاصة كانت أعلى في المستوى التعليمي من المدارس الحكومية، حيث الأولى كانت تدرس اللغة العربية إلى أن فرضت الحكومة العثمانية ضريبة خاصة بالتعليم، من أجل التوسع في التعليم، وإنشاء مدارس جديدة، فتم تشكيل «ديوان المعارف العثمانية»، ليشرف على شؤون التعليم. وفي عام ١٩١٣م أصدر الديوان نظامًا جديدًا للتعليم، منح مزيدًا من المسؤولية للقائمين على شؤون التعليم الابتدائي في النواحي الإدارية والمالية، بالإضافة إلى المجانية، والتعليم الإجباري في تلك المرحلة[١١].

من ثم، نجد أن العهد العثماني انتهى تاركًا خلفه العديد من المنشآت التعليمية، حيث وصل عدد المدارس الابتدائية الموجودة في القدس، قبل قدوم الانتداب البريطاني، إلى ٥٢٨ مدرسة حكومية وخاصة، وفي عام ١٩١٤م وصل عدد المدارس الابتدائية الرسمية إلى ٩٥ مدرسة، و ٣ مدارس ثانوية، كان يدرس فيها نحو ١٢,٥٠٠ طالب، ويعمل فيها ٣٥٠ مدرسًا، أما المدارس الخاصة فبلغ عددها في العام نفسه نحو ٣٦٥ مدرسة إسلامية، كان معظمها عبارة عن كتاتيب في المساجد، أو أبنية عامة، من هنا ظل التعليم العثماني معمولًا به في مدارس القدس حتى عام ١٩٢٠م[١٢].

الحركة التعليمية تحت الانتداب البريطاني (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨)

وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨م، وتم فصل مدينة القدس وفلسطين عن تركيا، وأصبحت الأولى تحت الإدارة البريطانية، وفقًا للمادة ٢٢ من ميثاق «عصبة الأمم»، (١٩٢٠)، وبدأ الحكم البريطاني للقدس على مرحلتين، مدنية وعسكرية، حيث عُين أول مسؤول بريطاني، وهو الميجر وليمز، صاحب الباع الطويل في الشؤون التعليمية، فأوكلت إليه الإدارة البريطانية مسؤولية إعادة بناء النظام التعليمي في القدس، وبدأ التخطيط لفتح المدارس في مدينة القدس، بعد أن تم إغلاقها، وخاصة المدارس الإسلامية[١٣].

السياسة التعليمية في عهد الانتداب

لم تختلف سياسة التعليم في عهد الانتداب البريطاني من حيث الشكل والمضمون عن سابقتها في العهد العثماني، حيث إن فترة الانتداب اتسمت، أيضًا، بالتفرقة، والسيطرة على الحركة التعليمية، كما لم تُلزم بريطانيا أهالي الطلبة العرب بالتعليم، مما أدى إلى عدم الإقبال على التعليم، واتساع دائرة الأمية بين الصغار والكبار على حد سواء، بالإضافة إلى أن السياسة المتبعة اتسمت بالانتقائية، حيث اعتمدت على اختيار ثلاثة فقط من الطلبة الأوائل لينتقلوا إلى المدارس الثانوية، لاستكمال تعليمهم، وحرمان الآخرين من ذلك[١٤].

من الواضح أن الحكام البريطانيين لم يهتموا بالتعليم في المرتبة الأولى، فما يهتمون به هو النظام الأمني، والبريد، والصحة العامة، والمحاكم، ثم في النهاية يأتي التعليم، وهذا ما حدث بالفعل منذ بدء الانتداب (١٩٢٠م) على الأراضي الفلسطينية، حيث ظل النظام العثماني معمولا به مدة كبيرة، وكانت أعلى درجات التعليم هي الدرجة الرشيدية، أو الإعدادية، ولم يوجد في فلسطين مدرسة سلطانية، كما كانت تتلقى الأقليات الدينية تعليمها في الكنائس، والأديرة، والمدارس التبشيرية[١٥].

من ضمن السياسة التعليمية المتبعة، أيضًا، اعتماد دار المعارف في بداية عملها على المدارس الموجودة منذ الحكم العثماني، وعلى مساعدة الأهلين لبناء المدارس، وليس هذا فحسب، ولكن دار المعارف قامت بإلغاء اللغة التركية كلغة أولى للعرب، واعتمدت اللغة العربية كلغة رسمية في المدارس، كما أدخلت اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ثانية ابتداءً من الصف الرابع الابتدائي. بالإضافة إلى وضع مناهج تعليمية غير ملائمة للطلبة العرب، حيث اعتمدت على تقليل معرفة الطلبة بتاريخهم وبجغرافيا فلسطين، وكذلك قضايا الساعة[١٦].

أهداف السياسة التعليمية للانتداب

يتضح لنا من خلال السياسة التعليمية التي اتبعتها دائرة المعارف أن هناك أهدافًا سياسية معلنة، وأخرى خفية للانتداب البريطاني، وتتلخص الأولى في الآتي[١٧]:

١ ـ تعليم شامل لمحو الأمية، وذلك عن طريق تيسير سبل تعميم التعليم الابتدائي لكل أطفال العرب، ما بين سن ٧ ـ ١٤ سنة.

٢ ـ التعليم من أجل كسب العيش، أي التعيين في الوظائف الإدارية.

٣ ـ إعداد المواطن الفلسطيني الصالح القانع.

أما الأهداف الخفية فتتمثل في:

١ ـ إعداد مواطن فلسطيني لا يهتم بمشاكل وطنه، كي يتقبل «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين[١٨].

٢ ـ إعاقة حركة التطور الطبيعي لمجمل قطاع التعليم، وذلك عن طريق الفصل الاصطناعي عن المحيط العربي والإسلامي.

حيث حرم المجتمع الفلسطيني نتيجة لسياسات الإغلاق، وقطع الطرق، وإغلاق مراكز التعليم، وتخفيض الموازنات التطورية، من حقه في وطنه والتمتع بالحياة الكاملة بداخله[١٩].

هذا على عكس هدف التعليم عند اليهود، الذي كان يرمي إلى توحيدهم، وإلى تحويلهم إلى مواطنين لبلد واحد يزعمون أنه بلدهم (فلسطين)، بالإضافة إلى إحياء التراث، والثقافة اليهوديين، والعمل على نشرهما في جميع أنحاء العالم[٢٠].

نتيجة لهذه السياسة المتبعة الهادفة لعرقلة النظام التعليمي في القدس كانت هناك آثار سلبية على المحيط التعليمي، حيث تأرجح عدد المدارس بين الهبوط والارتفاع، فكانت في عام (١٩٢٠م) ١٧١ مدرسة، ثم ارتفع عدد المدارس إلى ٣١٤ مدرسة نتيجة لتدخل الأهلين لبناء المدارس، وانخفضت في عام ١٩٣٣م إلى ٢٩٤ مدرسة[٢١]، ثم عملت الحكومة المنتدبة على زيادة عدد المدارس، عملًا بمقترحات لجنة التحقيق التي تقصت أحوال المدارس العربية العامة، فارتفع عددها، مرة ثانية، إلى ٣٨٤ مدرسة عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦م، تلت هذه الفترة مرحلة من الركود وصلت إلى حوالي ٧ سنوات حتى عام ١٩٤٣م، حيث ازداد عدد المدارس، والطلبة، والمعلمين، حتى بلغ عدد المدارس ٥٥٥ مدرسة عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م، نتيجة لتحمل الأهالي القسم الأكبر من النفقات[٢٢].

نتيجة لذلك اتسع التعليم الخاص في فترة الانتداب، فوصل عدد التلاميذ في المدارس العربية الخاصة عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م إلى ٣٨٣٥٠ طالبًا، أي نسبة ١٣ , ٢٧ بالمائة من مجموع الطلبة العرب، أما عدد الطالبات في القدس فبلغ نحو ٦٣٥ , ٥ طالبة، منهم ٧٧٢ , ١ في المدارس الحكومية، و١٤٨ في المدارس غير الحكومية.

بالرغم من ذلك فإن الأمية في المدن كانت قليلة نسبيًّا، خصوصًا للصبيان، بينما في القرى كانت عالية جدًّا لدى البنات، ومتوسطة عند البنين، في نهاية عهد الانتداب البريطاني[٢٣].

الميزانية المخصصة للتعليم في القدس

قامت الحكومة البريطانية بإنشاء دار للمعلمين عام ١٩٢٠م، باعتباره أول عمل لها بعد فرض الانتداب على فلسطين، لتتولى هذه المؤسسة تدريب المعلمين للمدارس الابتدائية في جميع أراضي فلسطين، ومن هنا قامت حكومة الانتداب بوضع نظام جديد للتعليم، تلخص في خمس مراحل[٢٤]:

١ ـ مدارس حضانة، حتى سن السادسة من العمر.

٢ ـ مدارس للتعليم الابتدائي الأول، من سن السادسة إلى الحادية عشرة، ومدته خمس سنوات.

٣ ـ التعليم الابتدائي الثاني، من سن الحادية عشرة إلى سن الثالثة عشرة، ومدته سنتان.

٤ ـ التعليم الثانوي الأول، من الثالثة عشرة إلى سن السادسة عشرة، ومدته سنتان.

٥ ـ التعليم الثانوي الثاني، من سن الخامسة عشرة إلى سن السابعة عشرة، ومدته سنتان.

بانتهاء هذه المرحلة يتقدم الطلاب لاجتياز امتحان (المتركيوليشين)، وإن كانت هناك عقبة كبرى واجهت حكومة الانتداب وهي مشكلة الميزانية، حيث رصدت تلك الحكومة ميزانية ضعيفة جدًّا لتعليم العرب، مما كان له الأثر السيئ على التعليم، حيث قسمت سلطة الانتداب التعليم إلى قسمين، قسم خاص باليهود، والآخر بالفلسطينيين، مما جعل إدارة المعارف تضع مبدأ قام على عدم صرف المال إلا على من هم أهل للتعليم، أي على الأذكياء، الذين يتفوقون على غيرهم في تحصيل العلم، ومن هنا كان الطلاب الذين يجتهدون لدخول «الكلية العربية» في القدس من النخبة من بين جميع طلاب فلسطين[٢٥].

الموقف الفلسطيني من سياسة الانتداب التعليمية

نتيجة للسياسة التعليمية التعسفية، التي اتبعها الانتداب البريطاني، في القدس، إضافة إلى الميزانية المخصصة للتعليم، والتي بلغت ٠٠٠ , ٧٨ جنيهًا مصريًّا في عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١، وفي عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ بلغت نسبتها ٤ , ٨٦ بالمائة من الموزانة العامة للبلاد، وانخفضت هذه النسبة في عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ إلى ٣ , ٩ بالمائة، وهي نسبة ضئيلة جدًّا بالنظر إلى ميزانية التعليم في أي بلد آخر[٢٦].

لذا كان من الطبيعي، بفعل هذه السياسة البريطانية وإجراءاتها الاستعمارية مضافًا إليها المشروع الصهيوني، أن تمتشق الحركة الوطنية الفلسطينية التعليم، باعتباره أحد أشكال الكفاح الوطني ضد المستعمر وسياسته، من ثم، بدأت تتوسع تلك الحركة في إنشاء المدارس الأهلية، والوقوف ضد الإجراءات الاستعمارية لتهويد القدس.

فقامت الحركة الوطنية بالعديد من الحركات الثورية المسلحة والسلمية، بالإضافة لعقد مؤتمرات عدة، والتي بدأتها في أواخر عام ١٩١٨ ـ ١٩١٩ لرفض تقسيم سورية، والإعلان عن أن فلسطين جزء من سورية، كما اهتمت الحركة الوطنية، في تلك الحقبة، بفتح المدارس، وتوطيد مركز اللغة العربية، بعد إذلال عانى منه الفلسطينيون في العهد العثماني، كما رأوا أن من واجب المدارس العربية أن تعرِّف تلاميذها على الثقافة العريقة للأمة العربية[٢٧].

فضلًا على العديد من المؤتمرات الأخرى، لتحض الحركة الفلسطينية خلالها. السواد الأعظم من الناس على عدم الإذعان لسياسة الإدارة البريطانية، وأساليبها، مما جعل الطبقة الوسطى، وخاصة المتعلمين، يطلقون على إدارة المعارف «سياسة التجهيل أو تخفيض المستوى» وبدأ التخطيط لمقاطعة حكومة الانتداب، بل محاربة جميع النشاطات الصهيونية في فلسطين، فبدأت المقاومة بالمطالبة بجعل إدارة المعارف بيد الوطنيين، وتسجيل أملاك المعارف باسم لجان المعارف الأهلية[٢٨]. وازداد هذا الطلب، بعد تجديد النضال الوطني العربي الفلسطيني، بعد هبَّة البرُاق في صيف ١٩٢٩م، ومحاولة الصهاينة إقامة دولة إسرائيلية، ومساعدة الاستعمار البريطاني لهم، من هنا أدرك الشعب العربي الفلسطيني مدى إصرار الانتداب البريطاني على توجيه سياسة التعليم.

كما تضمن بيان لحزب الاستقلال عام ١٩٣٢ هجومًا عنيفًا على سياسة المعارف التي أكدت سياستها التخريبية، من حيث إبقاء سُدس عدد الأولاد الفلسطينيين تقريبًا دون مدارس، بالإضافة إلى قتل روح الوطنية لدى التلاميذ، ومن هنا قرر الشباب العرب والحركة الوطنية أن تتولى مدارس العرب بفلسطين إدارة عربية في مايو/ آيار ١٩٣٥م، مثلما تفعل المدارس اليهودية، التي تتولاها إدارة صهيونية[٢٩].

إلا أن حكومة الانتداب رفضت طلب قيادة الحركة الوطنية بالإشراف على إدارة المعارف الخاصة بتعليم المواطنين العرب، وسمحت للعرب فقط بتكوين لجان معارف المدن والقرى، تكون مهمتها المساعدة في جمع التبرعات لبناء المدارس[٣٠].

لذلك، كان رد فعل الحركة الوطنية على سياسة الانتداب البريطاني، والمشروع الصهيوني في القدس، الذي تمثل في عدة ثورات، بدءًا بانتفاضة موسم النبي موسى(أبريل/ نيسان ١٩٢٠م)، وانتفاضة يافا (١٩٢١م)، وهبَّة البراق (١٩٢٩)، وانتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٣، ثم حركة القسام[٣١]. وكانت الثورة الطلابية أشد تعبيرًا عن خطورة الوضع التعليمي في القدس، والتي عبرت عنها الكلية العربية، بقيام طلابها بالمظاهرات، والإضراب العام، كذلك بالنسبة لثورة ١٩٣٦، والتي انطلقت شرارتها الأولى من خلال رفض مقاول يهودي تشغيل أي عامل عربي في بناء ثلاث مدارس بمدينة يافا، مما جعل العمال العرب يتجمعون في موقع إحدى المدارس، ويمنعون اليهود من الوصول إليها[٣٢].

حاولت الحركة الوطنية الوقوف أمام السياسة البريطانية في تقليص المدارس، والمعاهد العلمية، من خلال التبرع لبناء المدارس الأهلية، والمعاهد، حتى لا تنتشر الأمية بين المواطنين، فنجد أن المبادرة الأولى، خاصة في بداية الانتداب البريطاني، ومحاولة عرقلته لنظام التعليم، وخاصة أعمال المجالس المحلية، فتم افتتاح مدارس وطنية في العديد من المدن الفلسطينية، كما تم توسيع بعض المدارس الأهلية القديمة، ومن المدارس التي تم إنشاؤها، مدرسة النجاح في نابلس، التي أصبحت مدرسة ثانوية، فيما بعد، وهي، الآن، جامعة النجاح، كما تم توسيع مدرسة «روضة المعارف

الوطنية» في القدس، لتصبح هي الأخرى مدرسة ثانوية، وقد كانت المعارف تضم المدارس الأهلية الابتدائية، وتتحمل أعباءها بدلًا من بناء مدارس جديدة[٣٣].

الكليات العربية في القدس

عانت مدينة القدس من سياسة الانتداب البريطاني لعرقلة العملية التعليمية بها، وخاصة التعليم الجامعي، فلم تحظ القدس بإقامة الجامعة العربية في القدس، وذلك نتيجة لوقوف حكومة الانتداب البريطاني في وجه إقامة جامعة عربية في فلسطين، بالرغم من تسهيلها إقامة «الجامعة العبرية» لليهود على الأراضي الفلسطينية.

عندما تقدم الفلسطينيون بطلب رسمي لإنشاء جامعة في القدس، قامت مجموعة من البريطانيين، ومجموعة أخرى من الصهاينة بتشكيل لجنة عام ١٩٢٢م برئاسة السير رونالد ستورس، حاكم لواء القدس، آنذاك، وكان الرفض من نصيب هذا الطلب، نتيجة خوف البريطانيين والصهاينة من أن تنافس هذه الجامعة الجامعة العبرية التي يود الصهاينة إنشاءها[٣٤].

بعد أن تقدم الصهاينة للمسؤولين البريطانيين، وقد كانت القدس في ذلك الوقت (١٩١٤م) تحت الحكم العثماني، بشراء موقع يكون مقرًا للجامعة العبرية في فلسطين، وبالفعل، تم شراء المكان في القدس، على جبل الزيتون، ووضع حجر الأساس لهذه الجامعة عام ١٩١٨م، وبدأت الدراسة بها في عام ١٩٢٥، والذي قام بافتتاحها اللورد بلفور[٣٥].

من الغريب أن تقام مثل هذه الجامعة على أرض لم يستطع أبناؤها أنفسهم أن يقيموا جامعة لهم، فقد انتهت فكرة تأسيس جامعة فلسطينية، واكتفوا فحسب بتشكيل مجلس التعليم العالي الفلسطيني عام ١٩٢٣م، تحت رئاسة رونالد ستورس، ثم تولى إدارته مدير المعارف نفسه، واقتصر عمل هذا المجلس على عقد الامتحانات، ولم يتجاوزها طوال الـ ٢٥ عامًا اللاحقة.

من هنا، كان الطلاب الفلسطينيون الذين يتمون دراستهم داخل القدس ينتقلون إلى الجامعات في الأقطار العربية المجاورة، مصر ولبنان، ليكملوا دراستهم بها[٣٦].

من الواضح أن التعليم العالي في القدس اقتصر على إقامة بعض المعاهد العليا، مثل معهد الحقوق، لكي ينتسب إليه موظفو الدولة، ويدرسون خمس سنوات، وبعدها يحصلون على الدبلوم، كما أقامت حكومة الانتداب بعض المعاهد الأخرى لتدريب المعلمين، وآخر لتدريب المعلمات في القدس[٣٧].

كما يتبين فإن إدارة المعارف لم تكن مهتمة كثيرًا بالتعليم الثانوي، بقدر احتياجها إلى معلمين، ومن أجل ذلك قسم النظام التعليمي الفلسطيني على النحو التالي:

حضانة، وابتدائي أدنى خمسة صفوف، ثم ابتدائي أعلى صفان، وبعد ذلك الانتقال إلى الثانوية الأولى (الأدنى)، صفان، والثانوية الأعلى صفان، وبانتهاء هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يتقدم لامتحان (المتركيوليشن) الفلسطيني (المترك)، وبعد الحصول عليه يتقدم للانتساب إلى الصف الثاني في الجامعة الأمريكية في بيروت، أو الدراسة في بريطانيا[٣٨].

وضعت الحكومة البريطانية شروطًا قاسية من أجل الاستمرار في التعليم، ومن ثم، كانت الأكثرية الكبرى من تلاميذ المعارف تغادر الدراسة بعد الصف الخامس الابتدائي، أو قبله، بينما يكمل عدد ضئيل جدًّا من الطلاب الدراسة فإذا كانوا من المتفوقين استطاعوا الانتساب إلى الصفوف العليا الحكومية، حيث إنه لا توجد سوى ثلاث مدارس حكومية تحتوي على (المترك)، أو أعلى، وجميعها في مدينة القدس، وهي[٣٩]:

١ ـ الكلية العربية.

٢ ـ المدرسة الرشيدية.

٣ ـ ودار المعلمات.

تعتبر هذه المدارس أبرز المدارس الثانوية، وقد لعبت دورًا مهمًّا في التعليم أثناء فترة الانتداب البريطاني، وسنتناول كلًّا منها بشيء من التفصيل.

١ ـ الكلية العربية

تعتبر الكلية العربية في القدس أعلى المؤسسات التربوية الحكومية خلال الاحتلال البريطاني، حيث تأسست في عام ١٩١٨ ـ ١٩١٩م، وكانت تُعرف في ذلك الوقت بـ «دار المعلمين»؛ لأن هدفها كان إعداد المعلمين للعمل في المدارس الابتدائية، وبعض الصفوف الثانوية الأدنى.

لقد تم تأسيس هذه الدار عن طريق ضباط عسكريين إنجليز، استعانوا بنخبة من الأساتذة المصريين[٤٠].

إلى ذلك، تم تعيين الميجور تدمن من قبل الإدارة البريطانية العسكرية كأول مدير للدار، ولكنه لم يدم طويلًا، إذ سرعان ما قدم استقالته عام ١٩٢٠م، وذلك لاحتجاجه على تعيين هربرت صموئيل أول مندوب سامي بريطاني (يهودي) في فلسطين، وجاء بعد ذلك خليل طوطح كمدير للدار حتى عام ١٩٢٥م، إلا أنه قدم استقالته نتيجة للعديد من الأسباب، أحدها، احتجاجه على المظاهرات التي كان يتصدرها ثوار طلاب الدار، بعد أن فشل في إقناعهم بعدم التظاهر، بسبب علاقته الوثيقة مع المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل، حتى جاء أحمد سامح الخالدي ليتولى الإشراف على دار المعلمين، والذي قام بعد توليه لهذا المنصب بتغيير اسم دار المعلمين إلى الكلية العربية الحكومية (١٩٢٨م)[٤١].

من هنا، تعتبر دار المعلمين (الكلية العربية) من أهم المؤسسات التعليمية، ليس في فلسطين فحسب، ولكن أيضًا في الوطن العربي، حتى عام ١٩٤٨م؛ لذلك كان اختيار الطلاب يتم بطريقة متميزة، لا فرق بين غني وفقير، ولكن الاختيار يتم على أساس التفوق العلمي، أي ممن تفوقوا على غيرهم في تحصيل العلم، وهكذا كان طلاب هذه الكلية من أفضل طالبين أو ثلاثة ممن أنهوا الصف الثاني الثانوي في كل مدرسة حكومية بفلسطين.

كانت مدة الدراسة في البداية سنة ونصفًا، وفي عام ١٩٢١م أصبحت سنتين، ثم ازدادت مدة الدراسة بعد ذلك (١٩٢٩م) إلى أربع سنوات، يتلقى فيها الطلاب دروسًا في التعليم الثانوي، مع دروس نظرية وعملية في التربية والتعليم، وبعد إكمال الطالب دراسته في الكلية يتقدم لامتحان (المترك) الفلسطيني، وقد يقضي الطالب في بعض الأحوال الخاصة سنة أخرى في صف تدريب المعلمين[٤٢].

أما في مجال الرسوم الدراسية فكان الطلاب يلتحقون بالقسم الداخلي مجانًا، ولكن ابتداءً من عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م فرضت رسوم تعليمية، بلغت ١٨ جنيهًا على الطلاب غير المتعاقدين، بينما أعفي الطلاب المتعاقدون، وكان طلاب القسم النهاري يدفعون رسوم التعليم (ثلاثة جنيهات سنويًا)، وفي عام ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م ارتفعت الرسوم إلى ٢٤ جنيهًا لطلاب الأقسام الداخلية من الطلاب غير المتعاقدين، و٦ جنيهات للطلاب الذين لا يلتحقون بالقسم الداخلي.

كما شهدت الكلية تغييرًا في عام ١٩٢٦م، عندما أُلغي النظام القديم، الذي اشتمل على مناهج التعليم الثانوي، وموضوعات تدريب المعلمين، التي تشتمل كذلك على التدريب العملي، وطرق التدريب، وإدارة الفصول، وعلم النفس[٤٣].

انتقلت الكلية العربية في عام ١٩٣٤م من مقرها المستأجر في حي باب الساهرة إلى مبنى خاص بها على جبل المكبِّر، في جنوب شرق مدينة القدس، وتم وضع شعار لها تمثل في صقر عربي، موشى بالألوان الأربعة للعَلَمْ الفلسطيني. ولم يكن هذا الانتقال مجرد تغيير في الأماكن فحسب، بل كان تطورًا جديدًا في عمل الكلية، وكذلك بداية لمرحلة جديدة في التعليم الجامعي عند العرب، ثم للتدريب على التعليم في المرحلة الثانوية الأولى[٤٤].

كما أُضيف في عام ١٩٣٩م الصف السادس الثانوي إلى صفوف الكلية، حتى إذا ما أتم الطالب دراسته فيه حصل على شهادة «الإنترميديت» في الآداب، والعلوم، بالإضافة إلى دبلوم التربية والتعليم النظري والعملي.

كان طلاب الكلية في الصفين الخامس والسادس الثانوي يقدمون في نهاية المرحلة امتحانين، أحدهما لنيل شهادة الدبلوم، وقد حصل عليها تسعة طلاب في نهاية عام ١٩٢٧م، بعد ذلك يتم تأهيلهم للتعليم الثاني، لنيل شهادة الإنترميديت، ويشترك طلاب الفرعين العلمي والأدبي في دراسة اللغتين العربية والإنجليزية، حيث يختص طلاب الفرع العلمي في دراسة الرياضيات، بفروعها، الكيمياء والفيزياء، ويختص طلاب القسم الأدبي بدراسة الفلسفة، والمنطق، واللغتين اللاتينية، واليونانية[٤٥].

من الواضح أن «الكلية العربية» كانت مدرسة للطلبة المتفوقين، الذين ينتقلون إليها من مختلف المدارس، الابتدائية والثانوية، كما أنها لا تقبل أكثر من طالب أو طالبة، في بداية تأسيسها، ولكنها أصبحت، في عام ١٩٣٥م، غير قادرة على استيعاب أكثر من خمسة عشر طالبًا، في مرحلة ما بعد «المتروكليشن»، وهناك إحصائية توضح عدد الطلاب الذين التحقوا بالكلية، بين عام ١٩١٨ ـ ١٩٢٩م.

جدول رقم (١): إحصائيات عدد الطلاب في الكلية العربية بين عامي (١٩١٨ ـ ١٩٢٩)

العام الدراسي	عدد الطلاب
١٩١٨ ـ ١٩١٩	٢٣
١٩١٩ ـ ١٩٢٠	٣٥
١٩٢٠ ـ ١٩٢١	٣٠
١٩٢١ ـ ١٩٢٢	٦٧
١٩٢٢ ـ ١٩٢٣	٧٥

العام الدراسي	عدد الطلاب
١٩٢٣ـ ١٩٢٤	٨٠
١٩٢٤ـ ١٩٢٥	٩١
١٩٢٥ـ ١٩٢٦	٨٠
١٩٢٦ـ ١٩٢٧	٧٨
١٩٢٧ـ ١٩٢٨	٧٦
١٩٢٨ـ ١٩٢٩	٨٤

جدول رقم (٢): إحصائيات فيما بين عامي (١٩٣٢ـ١٩٤٦)

العام الدراسي	عدد الطلاب
١٩٣٢ـ ١٩٣٣	٧٤
١٩٣٤ـ ١٩٣٥	١٠٠
١٩٣٥ـ ١٩٣٦	٨٦
١٩٣٨ـ ١٩٣٩	٩٨
١٩٣٩ـ ١٩٤٠	٨٨
١٩٤٠ـ ١٩٤١	٩٢
١٩٤١ـ ١٩٤٢	٨٩
١٩٤٢ـ ١٩٤٣	٨٨
١٩٤٤ـ ١٩٤٥	٩٠
١٩٤٥ـ ١٩٤٦	٨٨

بالرغم من أن إحصائيات عدد الطلاب في الكلية العربية يتراوح بين الارتفاع والانخفاض، فإنها تمثل الكلية الوحيدة في القدس التي بها أكبر عدد من التلاميذ [٤٦].

كما شرعت الكلية العربية في التحضير لمنح شهادة «البكالوريوس» الفلسطيني، قبل نكبة ١٩٤٨م، حيث كان طلابها يتوجهون لاستكمال تعليمهم في جماعات خارج فلسطين، بشهادة (المترك)، التي تؤهلهم لدخول الصف الأول الجامعي حسب النظام البريطاني، والثاني الجامعي حسب النظام الأمريكي، ولكن وقوع النكبة أحبطت عمل الكلية، بل وضع الكلية ودار الحكومة تحت إشراف الصليب الأحمر الدولي، حتى تم الاستيلاء عليها من قبل الصهاينة، في أغسطس/ آب ١٩٤٨م[٤٧].

٢ ـ دار المعلمات

تأسست دار المعلمات في القدس عام ١٩١٩م، أثناء حكم الإدارة العسكرية البريطانية، في بنايات مستأجرة غير

مناسبة، وظلت بها حتى انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وانحصر الهدف من إنشاء هذه الدار في تخريج المعلمات للتدريس في المدارس التابعة للحكومة (الابتدائي، والثانوي الأدنى).

واجهت الحكومة في بداية الأمر مشاكل عدم توفير العدد الكافي للفتيات المسلمات للالتحاق بهذه المدرسة، مما جعل إدارة المعارف تلجأ إلى قبول الفتيات اللاتي ينتمين إلى الفئات الاجتماعية الفقيرة، أو الفتيات اليتيمات[٤٨].

أما القسم الداخلي للدار فيتوفر فيه مكان ملائم للسكن، وكانت الدراسة في البداية دون مقابل، كما لم تجد دائرة المعارف صعوبة في الحصول على العدد الكافي من الفتيات المسيحيات؛ لأن معظمهن قد التحقن بالمدارس التبشيرية، أو مدارس الطوائف المحلية، على عكس الفتيات المسلمات، ولكن بمرور الوقت بدأ الإقبال من الفتيات المسلمات.

تمتد الدراسة في هذه الدار لمدة أربع سنوات ثانوية، حيث تدرس الفتيات في السنتين الأولى والثانية مناهج التعليم في المرحلة الابتدائية العليا، وفي السنة الثالثة والرابعة تدرس مناهج السنة الأولى والثانية من التعليم الثانوي[٤٩].

كانت دار المعلمات، شأنها شأن مدارس البنات، تعلم التدبير المنزلي، من موضوعات رعاية الأطفال، وأشغال الإبرة، والخياطة، كما تتلقى الفتيات دروسًا في التربية، وإدارة الفصول، وعلم النفس. وقد كان البرنامج الأسبوعي للدراسة يشتمل على موضوعات عديدة تفيد الفتيات في شتى مناحي الحياة[٥٠].

لقد تم تقسيم الفتيات إلى مجموعتين، إحداهما في رياض الأطفال، والأخرى للعمل في الفصول المدرسية، وذلك في السنة الرابعة من الدراسة، وكان على خريجات دار المعلمات أن ينتقلن مباشرة للعمل في المدارس الابتدائية والثانوية لمعرفة مدى صلاحيتهن للعمل، وإذا ثبت ذلك يتقدمن لإتمام امتحان شهادة الدبلوم.

شهدت دار المعلمات بعض التغييرات، نتيجة للتحسين الذي طرأ على مدارس البنات الابتدائية، مما جعل المناهج الثانوية لمدة ثلاث سنوات فقط، وإعداد المعلمات في السنة الرابعة من الكلية، كما تقبلت الدار الفتيات من جميع الطوائف: الإسلامية، والمسيحية، والدرزية، وكانت الفتيات المتعاقدات يلتحقن بالقسم الداخلي مجانًا. أما الفتيات غير المتعاقدات فكانوا يدفعون رسوم دراسية تقدر بـ ٢٤ جنيهًا فلسطينيًا، مثلها مثل «الكلية العربية»[٥١].

من هنا، كان عدد الطالبات اللاتي التحقن بالدار في عام ١٩٢٠م ٢٣ طالبة، وازداد هذا العدد في عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥م ليصبح نحو ٥٤ طالبة، إلى أن وصل إلى ١٠٤ طالبة عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦م، ١٥ طالبة منهن في السنة الأخيرة من التعليم[٥٢].

نلاحظ، أيضًا، أنه في عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٢م تم إدخال تعديلات جديدة في نظام التعليم داخل دار المعلمات، فأصبحت الدراسة لمدة خمس سنوات، منها أربع سنوات ذات طابع أكاديمي، تتمثل في مناهج التعليم الثانوي، والسنة الخامسة لإعداد المعلمات، حيث تقتصر هذه السنة على الفتيات اللاتي حصلن على «المتروكليشين فلسطين»، وتستطيع الفتيات التقدم لامتحان (المترك) بعد الانتهاء من السنة الرابعة من التعليم، وتقدم في العام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣م لهذا الامتحان ثماني فتيات، حصلت أربع منهن على شهادة «المترك»، وحصلت الثلاث الباقيات على شهادة المدرسة، وفي عام ١٩٤٦م بلغ عدد من تقدم لامتحان (المترك)، عشرون طالبة، نجح منهن تسع طالبات فقط، وحصل عشر فتيات على الشهادة المدرسية، فيما فشلت واحدة فقط.

هكذا زوِّدت الحكومة الفتيات العربيات بأول مدرسة داخلية يستطعن من خلالها التقدم لامتحان الثانوية العامة، حيث لم يكن في ذلك الوقت ثمة مدرسة داخلية ثانوية نهارية ذات أربعة صفوف تابعة للحكومة[٥٣].

ففي القدس ثمة مدارس أو دار المعلمات غير الحكومية، ومنها كلية البنات التابعة للبعثة الأنجليكانية، التي تخرَّج فيها عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٦م تسع فتيات فقط، كذلك كلية شميدت للبنات في القدس أيضًا، وكانت هذه الكلية تابعة لبعثة الألمان الكاثوليكية، وقد بلغ عدد خريجاتها عام ١٩٤٦م عشر معلمات.

بالرغم من كل ما قدمته دار المعلمات، فإنها ظلت عاجزة عن سد احتياجات مدارس البنات التابعة للحكومة في القرى والمدن العربية، حيث إن الدار لم تستوعب في عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦م سوى ١٠٤ فتيات فقط، من بينهن تسع عشرة طالبة في السنة الخامسة الخاصة بإعداد المعلمات، كما بلغ عدد خريجات دار المعلمات، منذ تأسيسها حتى عام ١٩٤٦م، ثلاثمائة خريجة فقط.

دار المعلمات القروية

تأسست هذه الدار في عام ١٩٣٥م في مدينة رام الله بمنطقة القدس لتعليم الطالبات نتيجة لقلة الخريجات من دار المعلمات في منطقة القدس، وعملت هذه الدار على تخريج طالباتها للتدريس في مدارس البنات الريفية، وقدمت الدار للفتيات التعليم، والمسكن، وكذلك الطعام بالمجان. وكان نظام التعليم يشتمل على سنتين بعد مرحلة التعليم الابتدائي، حيث كان يقبل في الدار الفتيات اللاتي أتممن دراستهن الابتدائية. وفي عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦م تم تطوير الدراسة لتصبح أربع سنوات، وقد بلغ عدد طالباتها ٣٤ طالبة، كما وصل عدد خريجات هذه الدار اثنتي عشرة خريجة في كل سنة دراسية[٥٤].

بالرغم من المحاولات العديدة لتطوير التعليم، وإقامة المدارس، خاصة لتعليم الفتيات، فإن الأمية انتشرت وبائيًا بين المواطنين الفلسطينيين، نتيجة لاقتصار التعليم الثانوي والعالي على أبناء العائلات الغنية، ذات النفوذ السياسي، تحت الانتداب البريطاني.

٣ ـ الكلية الرشيدية

تعتبر الكلية الرشيدية من أشهر المدارس الحكومية النهارية للتعليم الثانوي في القدس، حيث بنيت هذه المدرسة أيام الدولة العثمانية، خاصة أيام السلطان رشاد؛ لذلك كان يطلق على المدرسة اسم «الرشادية»، ثم تحولت بعد الاحتلال البريطاني لتصبح مدرسة الرشيدية وضمت التعليم الابتدائي، والثانوي أيضًا[٥٥].

تختلف هذه المدرسة ـ التي تأسست لتكون في الأصل مدرسة على عكس دار المعلمات والكلية العربية ـ لأنها لم تكن أحد المراكز الحكومية لإعداد المعلمين، فقد زُوِّدت هذه المدرسة، بعد ذلك، بالصف الرابع الثانوي في عام ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م، ومن ثم، أصبحت أول مدرسة ثانوية نهارية تابعة للحكومة تؤهل طلابها لتقديم امتحان «المتروكليشين»، الفلسطيني.

كما تطورت المدرسة الرشيدية، بعد ذلك، وتم إضافة سنة خامسة لها في عام ١٩٤٣م، لما بعد «المترك»، من أجل

تطوير الدراسات العليا، واحتوت المدرسة على قسم ثانوي علمي، وآخر أدبي، وخرَّجت المدرسة الرشيدية خمسين مرشحًا لأداء امتحان المتروكليشين في يوليو/ تموز ١٩٤٢م[٥٦].

بالإضافة إلى كل ما سبق، تم افتتاح صف سادس لمرحلة ما بعد «المتروكليشين» في سنة ١٩٤٤م في المدرسة الرشيدية، وكانت الموضوعات التي تدرَّس في الصفين الخامس والسادس تشتمل على موضوعات تحضيرية لدراسة الطب والهندسة، مثلما كانت سياسة التعليم في الكلية العربية ودار المعلمات، حيث لا يتقدم إلى الدراسة في السنة الخامسة والسادسة إلا الطلاب المتفوقون فحسب، الحاصلون على شهادة «المتروكليشين»، من جميع المدارس الحكومية، وهذا ما حدث في الكلية الرشيدية[٥٧].

نجد أن المدرسة الرشيدية زُودت بقسم داخلي يلتحق فيه الطلاب الذين أكملوا مرحلة تعليم الثانوية الدنيا في المدارس الحكومية، حتى تتاح لهم فرصة إكمال تعليمهم الثانوي العالي، من هنا تقدم من المدرسة ٤٨ طالبًا لأداء امتحان «المتروكليشين» في يوليو/ تموز ١٩٤٦م، حصل منهم ٣١ طالبًا على شهادة «المترك»، بينما حصل ١٧ طالبًا على الشهادة المدرسية، كما التحق بالمدرسة ٣١٠ طلاب في العام الدراسي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦م، من بينهم ٣٦ طالبًا في صفوف ما بعد «المتروكليشين»، وتقدم من الكلية ٥٣ طالبًا في يوليو/ تموز ١٩٤٦م لأداء امتحان شهادة الدراسة الثانوية، حصل ٣٧ منهم على شهادة «المتروكليشن»، ١٢ طالبًا على الشهادة الدراسية[٥٨].

بالرغم من الامتيازات التي حصل عليها الطلاب في المدارس الثانوية العليا بالقدس (الكلية العربية، دار المعلمات، المدرسة الرشيدية)، فإنها لم ترتق، بعد، إلى الكلية بمعناها التام، فكل ما بها مجرد صفين فوق الرابع الثانوي، في الوقت الذي كانت مدرسة «مس روبرتسون» للبنات، ومدرسة الشباب للرجال، حصريًّا، تُمكِّن تلميذها من الحصول على درجة البكالوريوس، بالرغم من عدم إلحاقها بجامعة، ولكن حكومة الانتداب اعتبرت هؤلاء الخريجين كأنهم خريجو جامعة يحملون البكالوريوس[٥٩].

لم تكن هناك صورة واضحة بالنسبة لعدد الذين حصلوا على «المترك»، أو الشهادة المدرسية، خلال سنوات الانتداب البريطاني من الكليات الثلاث. فحسب نتائج سنة ١٩٤٢م تم حصر ٧٨ شخصًا حصلوا على «المترك» العربي، و٣٥ طالبًا على «المترك» الإنجليزي، وحصل ٤٦ طالبًا على شهادة مدرسية عربي، و٢٥ على شهادة مدرسية إنجليزي[٦٠].

* * *

هوامش الفصل التاسع:

(١) يحيى الفرحان، **القدس قصة مدينة**، سلسلة «المدن الفلسطينية»(٦)، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص ٥٨.

(٢) أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، سلسلة «كتاب القدس» (القاهرة): مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٣، ص٧٦.

(٣) الفرحان، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٤ ، ٥٩.

(٤) الصاوي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٠.

(٥) علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٦، ص ١٢٣.

(٦) يوم القدس، **أبحاث الندوة الخامسة: القدس مدينة العلم، ٩ ـ ١٢ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٤**، عمان، ١٩٩٥ (انظر: حسن الكرمي، التعليم في فلسطين، ص ٣١).

(٧) نبيل أيوب بدران، **التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني**، الجزء الأول: عهد الانتداب، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٦٩، ص ٦٤.

(٨) علياء العسالي، **قراءات في أثر الاحتلال على واقع التعليم في المجتمع الفلسطيني**

http: / /blogs.najah.edu /staff /aliaassali /article /article١- /file

(٩) الكرمي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣١.

ولمزيد من التفصيل انظر: نبيل أيوب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٥.

(١٠) **المرجع نفسه**.

(١١) العسالي، **مرجع سبق ذكره**.

(١٢) سمير جريس، **القدس/ المخططات الصهيونية الاحتلال ـ التهويد**، سلسلة دراسات (٦١)، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص ص ١٧٠، ١٧١.

(١٣) هنري كتن، **القدس**، ترجمة: إبراهيم الراهب، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٧، ص ٢٩. ولمزيد من التفصيل انظر: **يوم القدس**، أبحاث الندوة الخامسة، القدس مدينة العلم، ٩ ـ ١٢، أكتوبر ١٩٩٤، عمان ١٩٩٥(انظر: عدوية العلمي، **تعليم البنات في القدس**، ص ٤٠، ٤١).

(١٤) العسالي، **مرجع سبق ذكره**.

(١٥) الكرمي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٢.

(١٦) **الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**.

html.http: / /www.pwic.org.ps /information /education٣

(١٧) **يوم القدس**، أبحاث الندوة الخامسة، القدس مدينة العلم، ٩ ـ ١٢، أكتوبر ١٩٩٤، عمان ١٩٩٥(انظر: عدوية العلمي، **تعليم البنات في القدس**، ص ٤٤، ٤٥).

(١٨) حامد الشافعي دياب، **مكتبة المسجد الأقصى المبارك (ماضيها وحاضرها)**

http://www.alquds-online.org/index.php?s=١٩&ss=١٩&id=١٣٨

(١٩) العسالي، مرجع سبق ذكره.

(٢٠) العلمي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢١) بدران، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢.

(٢٢) الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، مرجع سبق ذكره.

(٢٣) بدران، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٥.

(٢٤) حامد الشافعي دياب، مرجع سبق ذكره.

لمزيد من التفصيل انظر: العلمي، **مصدر سبق ذكره**، ص٣١.

(٢٥) الكرمي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣، ٤٤.

(٢٦) العلمي، مرجع سبق ذكره، ص ٤١.

(٢٧) بدران، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٣٠) الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، مرجع سبق ذكره.

(٣١) عدنان أبو عامر، المقاومة الفلسطينية للانتداب البريطاني، دراسة تاريخية شفوية

http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?_ContentType=ART&_Conte

(٣٢) محمد خالد الأزعر، **المشروع الصهيوني والقدس في عهد الانتداب**

http://www.alqudsonline.com/show_article.asp?topic_id=٢٤٠٣&mcat

(٣٣) بدران، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٥.

(٣٤) العسالي، مرجع سبق ذكره.

(٣٥) العلمي، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢، ٥٣.

(٣٦) الأزعر، مرجع سبق ذكره.

(٣٧) بدران، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ١٢٩، ١٣١.

(٣٩) عبد الله عبد السلام القشطان، **التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني** (١٥١٦ ـ ١٩٤٨)، **التعليم في فلسطين**، الجزء الأول «كتاب صامد ـ رقم ١٣»، (عمان): منشورات دار الكرمل ـ صامد، ١٩٨٧، ص١٧٤.

(٤٠) **الكليات العربية في القدس**

htm.http://www.palestine-info.info/arabic/books/beet_maqdes/maqdes١٢١

(٤١) القشطان، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٤٢) الكليات العربية في القدس، مرجع سبق ذكره.

(٤٣) القشطان، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

(٤٤) الكليات العربية في القدس، **مرجع سبق ذكره.**

(٤٥) **المرجع نفسه.**

(٤٦) القشطان، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨٠، ١٨١.

(٤٧) الكرمي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٦.

(٤٨) القشطان، **مرجع سبق ذكره**، ص١٨١.

(٤٩) **المرجع نفسه**، ص ١٨٢.

(٥٠) الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره.**

(٥١) القشطان، **مرجع سبق ذكره**، ص١٨٤.

(٥٢) الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره.**

(٥٣) القشطان، **مرجع سبق ذكره**، ص١٨٥.

(٥٤) الملامح العامة للتعليم في فلسطين منذ الانتداب البريطاني إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره.**

(٥٥) نقولا زيادة، **ذكريات التعليم في فلسطين أيام الانتداب.**

٣٧٦٤٢=id&٨٤=sid&٥=com /display.x?cid.http: / /www.arabs٤٨

(٥٦) القشطان، **مرجع سبق ذكره**، ص١٨٧.

(٥٧) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٥٨) **المرجع نفسه.**

(٥٩) زيادة، **مرجع سبق ذكره.**

(٦٠) بدران، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٣٤.

* * *

الفصل العاشر

الصحافة العربية في القدس

عبد القادر ياسين

اقترن ظهور الصحافة في فلسطين بالتطور الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي في هذه البلاد، خاصة مع دخول الصناعة إليها، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. بالتساوق مع رغبة الرأسمالية الوليدة في إيصال الأفكار الوطنية إلى الشعب، مستعينة بوسائل اتصال جماعية جديدة[١].

صحف العهد العثماني

لقد كان طبيعيًا أن يتَركز إصدار تلك الصحف في القدس، إبان العهد العثماني، لموقعها الديني المتميز، فضلًا على تميُّزها الإداري، فهي متصرفية، وليست تابعة لولاية من الولايات العثمانية. ومن بين أربعين صحيفة عربية صدرت في فلسطين ما بين سنتي ١٩٠٣، و١٩١٦، فإن ٢٣ منها صدرت في القدس وحدها، وستًّا في مدينة حيفا، وثماني صحف في يافا، وصحيفة واحدة في بئر السبع. قبل أن تنتقل صحيفة واحدة من القدس إلى حيفا، هي «النفير»، لصاحبها ورئيس تحريرها إيليا زكا، فيما انتقلت صحيفة واحدة من القدس إلى يافا، وهي «الاعتدال»، وصاحب امتيازها بكري السمهوري، وهو رئيس تحريرها في الوقت نفسه[٢].

لقد استيقظت السلطة العثمانية على هذا العدد من الصحف، فنشطت الغدة التشريعية العثمانية في استصدار القوانين، حتى منذ وصول المطابع إلى البلاد، حيث صدر «قانون المطابع» في سنة ١٨٦٥، الذي تعزز سنة ١٨٨٠، وتشدد بعد تسع سنوات أخرى. إلى أن صدر « قانون المطبوعات العثماني» سنة ١٩٠٩، الذي تعامل مع «كيفية النشر»، و«العقوبات»، و"القدح والإهانة»، وتم التضييق في «قانون المطبوعات» سنة ١٩١٢، قبل أن يصدر مرسوم حول جرائم الطباعة[٣].

اتسمت الصحف العربية الصادرة في القدس، آنذاك، بالمظهر الخشن، وقلة الخبرة في المحتوى والشكل، وبالإطناب في الأسلوب، على حد سواء، كما أغرق أغلب تلك الصحف في القدح والطعن، ولم تكن الصحافة توفر دخلًا للمشتغل فيها، الذي كان عليه أن يدبر له وظيفة أخرى يتعيش منها، ومع ذلك نجحت صحف العهد العثماني العربية، مقدسية وغير مقدسية، في التحذير من الخطر الصهيوني على البلاد[٤].

استكملت القوات البريطانية احتلالها فلسطين سنة ١٩١٨، واقتطعتها من الجسم السوري الكبير، وحصلت على انتداب بريطاني عليها، أولًا من مؤتمر سان ريمو (يوليو/ تموز ١٩٢٠)، الأمر الذي صادقت عليه «عصبة الأمم» بعد سنتين. وامتدت المرحلة الأولى من عمر الحركة الوطنية الفلسطينية اثني عشر عامًا متصلة، اتصفت فيها تلك الحركة باحتكار كبار الملاك لقيادتها، وسيادة فكرهم، وأساليب الكفاح المتواضعة، التي فرضوها على الجماهير العربية الفلسطينية (عريضة/ مؤتمر/ وفد إلى لندن، وآخر إلى المندوب السامي البريطاني في القدس)، والاحتكام للانتداب في الصراع العربي ـ اليهودي.

صدرت في فلسطين، في تلك المرحلة، خمسون صحيفة، خص منها القدس سبع وعشرون صحيفة، ويافا ثماني صحف، وحيفا اثنتا عشرة صحيفة، فيما كانت صحيفة واحدة تابعة لسلطات الانتداب البريطاني، فضلًا على صحيفتين تبشيريتين («أورشليم جديدة»، و«القدس الجديدة»)[٥]، على النحو الذي يبينه الجدول رقم (١).

* * *

الجدول رقم (١)

الصحف العربية الصادرة في القدس في العهد العثماني

اسم الصحيفة	صاحب الامتياز	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
الأصمعي	حنا عبد الله عيسى	حنا عبد الله عيسى	١٩٠٨/٩/١	شهرية أدبية
القدس	جورجي حبيب حنانيا	جورجي حبيب حنانيا	١٩٠٨/٩/٨	سياسية نصف أسبوعية
النفائس	خليل بيدس	خليل بيدس	١٩٠٨/١١/١	أسبوعية أدبية
بشير فلسطين	أطناسبوس تيوفيلو باندازي	ـــــ	١٩٠٨/١٢/٥	أسبوعية دينية
الإنصاف	بندلي إلياس مشحور	بندلي إلياس مشحور	١٩٠٨/١٢/٢٣	نصف أسبوعية منوعة
النجاح	علي أحمد الرياوي	علي أحمد الرياوي	١٩٠٨/١٢/٢٤	أسبوعية
بالستين	الأب ماكلسباكس	الأب خريستو ستومس	١٩٠٨	أسبوعية دينية
صهيون الجديدة	بطريركية الروم الأرثوزكس	ياكوبوس كبنكاس	١٩٠٨	شهرية دينية
منبّه الأموات	ـــــ	ـــــ	١٩٠٨	شهرية دينية
النفير	إيليا زكا	إيليا زكا	١٩٠٨ القدس ثم حيفا	أسبوعية سياسية
الاعتدال	بكري السمهوري	بكري السمهوري	١٩١٠/٥/١	أسبوعية سياسية
الحرية	توفيق السمهوري	توفيق السمهوري	١٩١٠/٦/٢٠	أسبوعية سياسية

الدستور	المدرسة الدستورية	خليل السكاكيني ثم جميل الخالدي	١٩١٠/١٢/٦	أسبوعية أدبية منوعة
المنادي	سعيد جار الله	سعيد جار الله	١٩١٠/١٢/٨	أسبوعية منوعة
المنهل	جميل رمضان	جميل رمضان	١٩١٣/٨/٥	شهرية أدبية

المصدر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الرابع، ١٩٩٠ (انظر: عبد القادر ياسين، الصحافة العربية في فلسطين، ص ٤٣١، ٤٣٢).

صحف المرحلة الأولى

من بين الصحف الست التي كانت تصدر في العهد العثماني، وعاودت الصدور تحت الاحتلال البريطاني، ثمة صحيفتان صدرتا في القدس ثانية، هي: النفائس العصرية، وبيت المقدس. فيما عاودت «النفير» الصدور في حيفا، و«فلسطين»، و«الأخبار» في مدينة يافا[٦]، على النحو الذي يبينه الجدول رقم (٢).

الجدول رقم (٢)

الصحف العربية الصادرة بالقدس خلال المرحلة الأولى من الحركة الوطنية

اسم الصحيفة	صاحب الامتياز	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
سورية الجنوبية	عارف عارف ومحمد حسن البدري	عارف العارف ومحمد حسن البدري	١٩١٩/٩/٨	أسبوعية سياسية
مرآة الشرق	بولس شحادة	بولس شحادة	١٩١٩/٩/١٧	نصف أسبوعية سياسية
بيت المقدس	بندلي إلياس مشحور	بندلي إلياس مشحور	١٩١٩/١٢/٢٦	نصف أسبوعية سياسية
القدس الشريف	حسن صدقي الدجاني	حسن صدقي الدجاني	١٩٢٠/٤/١٣	أسبوعية سياسية
الأقصى	صالح عبد اللطيف الحسيني	صالح عبد اللطيف الحسيني	١٩٢٠/٩/٦	أسبوعية سياسية
يوم الرب	إسبر ضومط	إسبر ضومط	١٩٢٠/١١/٢٨	شهرية دينية

رقيب صهيون	بطريركية اللاتين	بولس سمعاني	١٥/ ١/ ١٩٢١	شهرية دينية
لسان العرب	إبراهيم سليم النجار	إبراهيم سليم النجار	٢٤/ ٦/ ١٩٢١	يومية سياسية
الصباح	محمد كامل البديري	محمد كامل البديري	١٩٢١	أسبوعية سياسية
أورشليم جديدة	و.و. كاتلنج	و.و. كاتلنج	١/ ١١/ ١٩٢١	شهرية دينية
الأخبار الكنسية	المجمع الكنسي للطائفة الإنجيلية	إلياس مرموره	١/ ١/ ١٩٢٤	شهرية دينية
الزنبقة	كشافة القديس جاورجيوس	ـــــ	١٨/ ٥/ ١٩٢٤	شهرية دينية
الروايات الأهلية	مكتبة ومطبعة بيت المقدس	بندلي إلياس مشحور	١٩٢٤	أدبية شهرية
الكرمة المصورة	واصف يوسف	واصف يوسف	١٠/ ١/ ١٩٢٦	ـــــ
الإعلان	ميشيل سليم النجار	مشيل سليم النجار	٢٣/ ٩/ ١٩٢٦	إعلانية
الجامعة العربية	منيف الحسيني	منيف الحسيني وطاهر الفتياني	٢٠/ ١/ ١٩٢٧	أسبوعية سياسية
الصفير	جمعية الكردنيال فراري وكلية تراسانطة	ـــــ	٢٢/ ٥/ ١٩٢٧	شهرية دينية
إلى الأمام	الحزب الشيوعي الفلسطيني	ـــــ	١٩٢٨	سياسية غير دورية
المعاد	ميشيل سليم النجار	ميشيل سليم النجار	١٨/ ٩/ ١٩٢٨	أسبوعية سياسية

بهبّة البراق(*) صيف ١٩٢٩ انتهت مرحلة وبدأت أخرى في حياة الحركة الوطنية الفلسطينية، اتسمت باعتماد الاستعمار البريطاني «أس البلاء»، والصهيونية مجرد ذيل له، وحلّت أشكال صدامية من الكفاح محل الأساليب السلبية المتواضعة. وارتفع منسوب إصدار الصحف، بالتوازي مع صعود الحركة الوطنية، واستحدثت سلطات الانتداب أساليب قمعية في مواجهة الصعودين معًا.

(*) هبّة البراق: تراكمت أسباب الاحتقان الشعبي العربي الفلسطيني، فعدا عن الاحتلال، في حد ذاته، ثمة محاباة الانتداب للصهيونية، في شتى المجالات، مع تهديد المشروع الصهيوني للشعب والوطن الفلسطينيين، خاصة بعد توسيع «الوكالة اليهودية»، وانتشار البطالة، واتساع دائرة الأراضي التي انتقلت إلى أيدي الصهاينة، وأخيرًا جاء الطاعون، والزلزال، والأزمة الاقتصادية، لذا حين هتف الصهاينة ـ عند «حائط البراق»: «الحائط حائطنا»، اندلعت نار هبّة وطنية، دامت لأسبوعين، وشملت مدن الخليل، وصفد، فضلًا على القدس.

صحف المرحلة الثانية

امتدت المرحلة الثانية من الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩، صدر خلالها ٦١ صحيفة عربية، خص القدس منها ٢٥ صحيفة، ويافا ١٨ صحيفة، وحيفا ست صحف، وبيت لحم ثلاث صحف. وفي المرحلة نفسها أصدرت الحركة الصهيونية صحيفتين بالعربية («العامل»، ١٩٣١، و«حقيقة الأمر»، ١٩٣٧). كما عمدت صحف عبرية إلى إدخال اللغة العربية إلى صفحاتها (العامل الحر/ ذي بالستين ويكلي/ دوارهايوم/ عين دافار/ هادوآر هاكلكالي في هاكسبي/ إسرائيل/ هابنيان باميزراح هاركرويف/ لفانت راديو/ نيف هامآ فير/ تلامن/ وهيكة[٧].

ويوضح الجدول رقم (٣) تفاصيل من الصحف العربية التي صدرت في القدس، في المرحلة الثانية من الحركة الوطنية الفلسطينية.

الجدول رقم (٣)

الصحف العربية الصادرة خلال المرحلة الثانية من الحركة الوطنية[*]

اسم الصحيفة	صاحب الامتياز	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
الحياة	عادل جبر وخالد الدزدار ثم خير الدين الزركلي	عادل جبر وخالد الدزدار ثم خير الدين الزركلي	١/ ٤/ ١٩٣٠	يومية سياسية
الأخلاق	داود الكردي	جبرائيل رحّال	١٩٣١	أسبوعية جامعة
مجلة دار الأيتام الإسلامية الصناعية	دار الأيتام الإسلامية	جميل وهبة	١٩٣٢	شهرية تربوية
العرب	عجّاج نويهض	عجاج نويهض	٢٧/ ٨/ ١٩٣٢	أسبوعية سياسية
اللواء	جمال الحسيني	إميل الغوري ثم علي الحسيني ثم عثمان قاسم	٤/ ٢/ ١٩٣٣	يومية سياسية
رقيب صهيون	بطريركية اللاتين	شكري سرور	٨/ ٤/ ١٩٣٣	أسبوعية دينية
مرآة الشرق	بولس شحادة	بولس شحادة	١٦/ ٤/ ١٩٣٣	نصف أسبوعية سياسية

(*) المصدر: الموسوعة الفلسطينية....، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٠، ٤٤٣.

مجلة البطريركية	بطريركية السريان الأرثوذكس	قسطندي ثيودوري	٢٤/ ٤/ ١٩٣٣	شهرية دينية
مجلة كلية روضة المعارف	محمد الصالح	حسان أبو رحاب	٢٩/ ٥/ ١٩٣٣	شهرية تربوية
مجلة جمعية فلسطين الشرقية	توفيق كنعان	هربرت دابعي	٨/ ٨/ ١٩٣٣	فصلية تراثية بخمس لغات
أخبار دار الأيتام السورية	دار الأيتام السورية	إرنست شنللر	١٥/ ٨/ ١٩٣٣	شهرية بالألمانية والعربية
الوحدة العربية	إميل الغوري	إميل الغوري	٤/ ١٢/ ٩٣٣	يومية سياسية
الشباب	إميل الغوري	إميل الغوري	٢٩/ ٥/ ١٩٣٤	نصف أسبوعية سياسية
الاقتصاديات العربية	شركة المطبوعات العربية المحدودة	فؤاد صالح سابا	٢٥/ ١٠/ ١٩٣٤	نصف شهرية ثم أسبوعية اقتصادية
الأوقات العربية	علي الحسيني	علي الحسيني	٢٥/ ١/ ١٩٣٥	نصف أسبوعية ثم يومية سياسة
المياه الحية المقدسة	خليل أسعد حبرائيل	خليل أسعد جبرائيل	٨/ ٤/ ١٩٣٥	شهرية دينية بالعربية والإنكليزية
مجلة دار الأيتام الإسلامية	إسحاق درويش	عبد اللطيف ممتاز الحسيني	٢/ ٣/ ١٩٣٦	شهرية تربوية
مجلة الأشرطة السينمائية والسينما	إبراهيم تلحمي	إبراهيم تلحمي	٢٦/ ٤/ ١٩٣٧	أسبوعية سينمائية بالعربية والإنكليزية
وكالة الأخبار العربية	شركة المطبوعات العربية المحدودة	فؤاد صالح سابا ثم موسى الحسيني	٤/ ٦/ ١٩٣٧	يومية سياسية بالعربية والإنكليزية
اللهب	أديب خوري	أديب خوري	١٧/ ١٢/ ١٩٣٧	شهرية جامعة
السلام والخير	حراسة الأراضي المقدسة	ـــــ	١٩٣٧	شهرية دينية
بيت المقدس	بندلي إلياس مشحور	سامي نقولا نصر	٨/ ١١/ ١٩٣٨	يومية سياسية

صحف المرحلة الثالثة

في ربيع ١٩٣٩ خَفَتَ صوت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، ما أفسح المجال للمرحلة الثالثة من الحركة الوطنية الفلسطينية، التي اتسمت بجملة من المظاهر، لعل في مقدمتها اشتداد عود الطبقة العاملة العربية الفلسطينية، بفعل الانتشار الواسع لمعسكرات الجيش البريطاني، ووقف الاستيراد، مما أعطى دفعة قوية، نسبيًّا، للصناعة العربية الفلسطينية، لعلها تلبي احتياجات جنود الاحتلال، وقد تضاعفت أعدادهم، في مقابل توطن الهزيمة في أذهان عدد لا بأس به من الرأسماليين العرب الفلسطينيين الذين تأكدوا من عقم مواجهة الاستعمار البريطاني، وضرورة البحث الحثيث عن أساليب جديدة في التعامل مع هذا الاستعمار، وجدها بعض الرأسماليين الفلسطينيين في الرهان على مزاحم هذا الاستعمار البريطاني، وأعني به الاستعمار الأمريكي.

ما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها صيف ١٩٤٥، حتى بدأ العد التنازلي لإقامة المشروع الصهيوني في فلسطين، وعادت الروح للحركة الوطنية الفلسطينية من جديد، الأمر الذي عبَّر عن نفسه في غير مجال، بما في ذلك إصدار المزيد من الصحف. فشهدت المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٤٠ ـ ١٩٤٨) صدور اثنتين وستين صحيفة عربية، إلى صحيفتين عن سلطات الانتداب، وخمس صحف عن الحركة الصهيونية، ومؤسساتها. وكانت حصة القدس من الصحف الاثنتين وستين ٢٤ صحيفة، وصحيفة صهيونية واحدة، وصحيفتين حكوميتين[٨]. ويلقي الجدول رقم (٤)، تفاصيل عن الصحف العربية الصادرة في القدس خلال المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية.

الجدول رقم (٤)

الصحف العربية الصادرة في القدس خلال المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية(*)

اسم الصحيفة	صاحب الامتياز	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
الحرب	يوسف فرنسيس	يوسف فرنسيس	٢/ ٧/ ١٩٤٠	يومية سياسية بالعربية والإنكليزية
الأنباء العربية	رشاد أبو غربية	رشاد أبو غربية	٢٣/ ٥/ ١٩٤١	يومية سياسية
الأرض المقدسة	دير المخلِّص بالقدس	باسيل أتلاتبنيان	١٩٤١	شهرية دينية بخمس لغات
اللهب	يوسف فرنسيس	يوسف فرنسيس	١٩٤٢	أسبوعية سياسية
الغد	عيسى شاكر	عبد الغني الخطيب	٢٤/ ٤/ ١٩٤٥	نصف شهرية
الرياضة والسينما	جبرائيل شكري ديب	جبرائيل شكري ديب	٢٦/ ٤/ ١٩٤٥	أسبوعية رياضية سنيمائية بالعربية والإنكليزية

(*) المصدر: الموسوعة الفلسطينية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٨، ٤٥٠.

الوحدة	إسحاق عبد السلام الحسيني	خيري حماد	١٩٤٥/٦/٥	يومية سياسية
المجلة الطبية العربية الفلسطينية	الجمعية الطبية العربية الفلسطينية	محمود طاهر الدجاني	١٩٤٥/٦/٢٨	طبية تصدر مرة كل شهرين
الهدف	جبرائيل ديب	جبرائيل ديب، ثم حنا سويدا	١٩٤٥/١١/٦	أسبوعية سياسية بالعربية والإنكليزية
الشرق الأوسط	جمعية الشرق الأوسط بالقدس	خيري حماد	١٩٤٥	أسبوعية سياسية جامعة
النيل	حسين حسني	حسين حسني	١٩٤٥/١/٢٨	أسبوعية جامعة
النضال	إميل الغوري	إميل الغوري	١٩٤٦/٣/٢	أسبوعية سياسية
الوطن	يوسف هيكل	حازم زكي نسيبه	١٩٤٦/٤/٨	أسبوعية سياسية
الرأي العام	أحمد خليل العقاد	إميل جورج أبو خليل	١٩٤٦/٦/٣	أسبوعية سياسية
القرية العربية	عارف علي النجار	عارف علي النجار	١٩٤٦/٩/٣٠	أسبوعية بيئية، بالعربية والإنكليزية
الذخيرة	حسين حسني	حسين حسني، ثم محمد درويش	١٩٤٦/١٠/٦	أسبوعية سياسية
مجلة اتحاد النوادي الأرثوزكسية	اتحاد النوادي	حنا عبد النور عطا الله	١٩٤٦/١٠/٢٨	شهرية رياضية
الشباب	علي سعيد خلف	علي سعيد خلف	١٩٤٦/١٢/٤	أسبوعية جامعة
صوت الكلية	موسى ناصر	موسى ناصر	١٩٤٧/٥/١٦	شهرية تربوية، بالعربية والإنكليزية
مجلة جمعية الشرق الأوسط	جمعية الشرق الأوسط بالقدس	جاكوب بروير	١٩٤٧/١٠/٩	فصلية بالعربية والعبرية والإنكليزية

obeikan.com

ما بين النكبة والنكسة

عصفت نكبة ١٩٤٨ الفلسطينية بكل بنَى المجتمع العربي: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والنقابية، ومن ضمنها الصحف، إلا ما كان يصدر منها في القدس، في وقت كانت فيه الصحف اليومية الثلاث الوحيدة في البلاد تصدر في يافا(*)، التي وقعت تحت الاحتلال الصهيوني، وإن نجحت إحدى تلك الصحف في الصدور من جديد سنة ١٩٥٠، في عمان، وهي يومية «فلسطين»، التي انتقلت إلى الصدور من القدس بعد نحو عام، واعتبارًا من عام ١٩٥٩ عاودت «الدفاع» الصدور من القدس، وعادت للصدور في عمان بعد الاحتلال الإسرائيلي للقدس عام ١٩٦٧.

ما بين نكبة ١٩٤٨، وهزيمة ١٩٦٧ صدر في الضفة الغربية خمس وعشرون صحيفة سياسية، وأربع صحف ثقافية، وصحيفتان نسائيتان، وصحيفة اقتصادية، وأخرى سياحية، وكان صدور ثماني صحف على نحو شهري، وقد صدر جل هذه الصحف من القدس(٩).

ويلقي الجدول رقم (٥)، تفاصيل عن الصحف العربية التي صدرت في القدس فيما بين نكبة ١٩٤٨، ونكسة ١٩٦٧.

الجدول رقم (٥)

الصحف العربية التي صدرت في القدس فيما بين نكبة ١٩٤٨، ونكسة ١٩٦٧

اسم الصحيفة	صاحب الامتياز	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
البعث	عبد الله الرياوي	عبد الله الرياوي	١٩٤٨	سياسية أسبوعية
الصريح	هاشم عبد الله السبع	هاشم عبد الله السبع	١٩٤٨	سياسية أسبوعية
الجامعة الإسلامية	حسين التاجي الفاروقي	حسين التاجي الفاروقي	١٥/ ٣/ ١٩٤٩	سياسية يومية
الدفاع	إبراهيم الشنطي	صادق الشنطي	٧/ ١٢/ ١٩٤٩	سياسية يومية
الهدف	برهان الدجاني	برهان الدجاني	١٩٥٠	سياسية أسبوعية
الجواد	سليم الشريف	محمود أبو الزلف	٣١/ ٧/ ١٩٥٣	سياسية يومية
المنار	كامل الشريف	جمعة حماد	١٥/ ٦/ ١٩٦٠	سياسية يومية
الأفق الجديد	كامل الشريف	أمين شنَّار	١٥/ ٦/ ١٩٦٠	أدبية شهرية
الشعب	أكرم الخالدي	أكرم الخالدي	١٩٦٠	سياسية مسائية

(*) هي: فلسطين، والدفاع، والشعب.

الحوادث	ـــــــ	محمد المسلمي	١٩٦٣	سياسية أسبوعية
في القدس هذا الأسبوع	طاهر عنبتاوي	محمد عايد	١٩٦٣	سياحية أسبوعية
القدس	محمود أبو الزلف	محمود أبو الزلف	مارس/ آذار ١٩٦٧	سياسية يومية

غني عن القول أن الحكومة الأردنية أقدمت في ربيع ١٩٦٧ على دمج أربع صحف يومية في صحيفتين؛ فكانت «القدس» نتيجة دمج صحيفتي «الدفاع» و«الجهاد»، وظلت تصدر في القدس، فيما دمجت «فلسطين» و«المنار»، في صحيفة «الدستور»، التي انتقلت إلى العاصمة عمان في مارس/ آذار ١٩٦٧ ، وقد احتكرت «القدس» إعلانات الاحتلال الإسرائيلي منذ إعادة إصدارها في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٨ .

تحت الاحتلال الإسرائيلي

أسكت الاحتلال الإسرائيلي (١٩٦٧) كل أدوات التعبير في الأراضي التي رزحت تحت نيره، وفي مقدمة تلك الأدوات الصحف، ومن ضمنها صحف القدس العربية، واصطف الإجماع الوطني وراء مقاومة المحتل، بالكلمة والبندقية على حد سواء، فكانت الصحف السرية التي أصدرتها منظمات المقاومة في الأراضي الفلسطينية المحتلة[١٠]، وإن عاودت يومية «القدس» العلنية الصدور في القدس، بعد أن تأكد أن الأرض سترزح تحت الاحتلال سنوات وسنوات، وليس على غرار «العدوان الثلاثي» نحو أربعة أشهر فقط. وصدر العدد الأول من «القدس» تحت الاحتلال في ٩/ ١١/ ١٩٦٨[١١]، ورغم إعلان هذه الصحيفة أنها «مستقلة»، فإن رئاسة تحريرها عمدت إلى فصل أحد محرريها لمجرد أنه أبدى تعاطفًا مع وزير الخارجية المصري في موقفه القومي الحاسم في مجلس الأمن الدولي[١٢]. وسرعان ما قفزت «القدس» إلى مقدمة كل صحف الضفة الغربية وقطاع غزة، في مجال التوزيع (١٠ ـ ١٥ ألف نسخة، يوميًا)[١٣]، وقد كتب فيها كتاب سياسيون مرموقون، أمثال إدوارد سعيد، وإبراهيم أبو لغد.

حين انحسرت المقاومة المسلحة، وارتبك الموقف الرسمي العربي، بغياب جمال عبد الناصر، (٢٨/ ٩/ ١٩٧٠)، وطال أمد الاحتلال الإسرائيلي، عدلت الحركة الوطنية الفلسطينية عن موقفها الاستنكافي، ومالت للتمدد الإعلامي، علها تعوِّض انحسار عملها الفدائي، خاصة مع إغلاق راديو «صوت الثورة الفلسطينية» (صيف ١٩٧٠ ـ صيف ١٩٧١)، المنطلق من القاهرة، والذي كان يغطي كل أراضي فلسطين المحتلة، عدا أرجاء واسعة من العالم، وعاد «صوت الثورة الفلسطينية» إلى الصمت منذ خريف ١٩٧٥، وحتى صيف ١٩٧٦، ثم كتمت أنفاسه مرة وإلى الأبد منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧، مع زيارة السادات لإسرائيل. فيما استهدفت إسرائيل تحقيق حزمة من الأهداف بسماحها بإصدار صحف عربية، **أولها**: الظهور في صورة المحتل الديمقراطي، **وثانيها**: استدراج المقاومة من السري إلى العلني، ومن الكفاح المسلح إلى العمل الإعلامي، ويبقى الغرض الثالث المتمثل في احتمال ظهور قيادة بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، حتى وإن لم تكن مهاودة للمحتل، إذ يكفي أن تلعب إسرائيل على التناقض بين قيادتي

الداخل والخارج الفلسطينيتين. واستمر الشد والجذب بين المقاومة والمحتل الإسرائيلي، كلٌّ يحاول الظفر بتحقيق أهدافه.

هنا أقدمت عناصر فلسطينية على إصدار صحف بالقدس، على وجه التحديد، بسبب خضوع القدس ـ دون غيرها من مدن الضفة والقطاع ـ لقانون المطبوعات الإسرائيلي، بعكس الضفة والقطاع، اللذين خضعا للأحكام العسكرية، فصدرت أسبوعية «الفجر»، في ٧/ ٤/ ١٩٧٤، لكن رئيس تحريرها، يوسف نصري، تم اختطافه، بعد أقل من عامين، واختفى أثره. بعدها غدت «الفجر»، نصف أسبوعية (السبت، والأربعاء)، وتولى رئاسة تحريرها الأديب اليساري المعروف، محمد خالد البطراوي، ومنذ ١٥/ ٦/ ١٩٧٤، تحول إصدارها إلى اليومي[١٤]، وفي صيف ١٩٧٥، تولى رئاسة تحريرها الأمين العام للتنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة الغربية، (فرع الحزب الشيوعي الأردني)، بشير البرغوتي، مما يدل على أن «فتح» لم تكن تمتلك صحفيين مؤهلين، بعد، في الضفة والقطاع، فضلًا على أن الحدود السياسية بين «فتح»، والشيوعيين في الضفة لم تكن واضحة. على أن يمين «فتح» لم ترق له خطوة تعيين البرغوتي، ومن هذا اليمين كان القيميْن على «الفجر»: حنا سنيورة، وهيا نصار، فعمدا إلى إقالة هيئة تحرير «الفجر»، وعطلا الجريدة نفسها، لتعود بعد شهر ونصف وقد ترأس تحريرها هنا مأمون السيد، المحسوب على «يسار فتح»، لكن بال «يمين فتح» لم يهدأ حتى اقتسم مع «يسار فتح» رئاسة تحرير «الفجر»، فمثل زياد أبو زياد الاتجاه الأول، فيما مثل علي الخليلي «يسار فتح»، وأصبح أبو زياد والخليلي رئيسين لتحرير «الفجر»[١٥]، وتراوح توزيع «الفجر» ما بين ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ نسخة يوميًّا.

ألحقت «فتح» بالفجر يومية أخرى هي «الشعب»، التي صدر عددها الأول في ٢١/ ٧/ ١٩٧٢، وصاحب الامتياز هو محمود يعيش، وعلي الخطيب رئيسًا للتحرير، وإن أبعدت سلطات الاحتلال الأخير إلى لبنان، بعد ثمانية وعشرين شهرًا من صدور «الشعب»، وتراوح توزيعها ما بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ نسخة يوميًّا. وبسبب مواقفها الوطنية تعرضت للإغلاق عدة مرات، كما أُحرقت من قِبَل «مجهول» مرتين، ومنعت من التوزيع ما يزيد على عشرين مرة في العام الواحد[١٦].

جرت الانتخابات البلدية في الضفة سنة ١٩٧٣، فيما تمكنت فصائل المقاومة من قطع الطريق على مثيلتها في القطاع، خشية انعكاس أزمة المقاومة المستفحلة على نتائج هذه الانتخابات، وكانت المفاجأة حين اكتسحت العناصر الوطنية انتخابات الضفة، فاستجدَّت خشية لدى القيادة المتنفذة في منظمة التحرير من انتقال زمام أمور القضية الفلسطينية إلى تلك العناصر الصاعدة.

لم تقف الثورة المضادة مكتوفة الأيدي في الضفة، بل سارعت إلى إصدار أسبوعية «البشير» سنة ١٩٧٠، القريبة من رئيس بلدية الخليل، آنذاك، محمد علي الجعبري، وترأس تحريرها إبراهيم حنظل، وتولى عضوية مجلس إدارتها زياد أبو زياد، قبل أن ينتقل ـ بقدرة قادر ـ إلى «الفجر». وتبعت البشير أسبوعية «صوت الجماهير» سنة ١٩٧٣، وترأس تحريرها محمد أبو شلباية[١٧]. وفي عام ١٩٧٢ صدرت شهرية «فلسطين الطبية»، وأسبوعية «ألوان» المنوعة[١٨].

فيما تعرضت كل من «القدس» و«الفجر»، و«الشعب» إلى إغلاق كل منها مرتين، والمنع من التوزيع في الضفة والقطاع بأمر من سلطات الاحتلال، فإن السلطات نفسها أمرت بسحب ترخيص «فلسطين الطبية»، فيما توقفت كل من «ألوان» و«صوت الجماهير» بقرار من صاحبي الامتياز[١٩].

غني عن القول بأن الرئيس المصري السابق، أنور السادات، قد وجه طعنة نجلاء إلى الانتصار الجزئي الذي تحقق في حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣ ضد إسرائيل، وذلك حين نفّذ السادات وعده بالصلح مع إسرائيل، التي زارها (١٩/ ١١/ ١٩٧٧)، وأدار ظهر المجن لكل العرب، وباتفاقية كامب ديفيد (سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨)، «ومعاهدة السلام» مع إسرائيل أخرج السادات مصر من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وحرم القضية الفلسطينية من الموقف المصري، بل أنهى السادات الموقع القيادي لمصر في الوطن العربي، ما نتج عنه من تراجع الحركة الوطنية الفلسطينية، واندماجها، أكثر فأكثر، في الاتجاه للنشاط الإعلامي، وفيما بين انتصار أكتوبر و«مبادرة السادات»، سيئة الصيت، التي تُوّجت باتفاقيتي كامب ديفيد (سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨)، «ومعاهدة السلام»، مع عدو الأمة الإسرائيلي (مارس/ آذار ١٩٧٩)، بدا وكأن ثمة تسوية مشرّفة للصراع العربي ـ الإسرائيلي تلوح في الأفق، كثمرة لانتصار أكتوبر، تسوية تفضي إلى ظهور دولة فلسطين.

حث الشيوعيون الخطى في التحضير للدولة المرتجاة، فأصدروا أسبوعيتهم «الطليعة»، في القدس، ابتداءً من ٢٧/ ٢/ ١٩٧٨، وألحقوها بشهرية فكرية هي «الكاتب»، منذ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٩. ولأهمية الأولى، فقد تولى رئاسة تحريرها الأمين العام للتنظيم الشيوعي الفلسطيني في الضفة والقطاع، بشير البرغوتي، وهو نفسه أصبح الأمين العام للحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي أعلن عن تأسيسه في ١٠/ ٢/ ١٩٨٢، فيما تولى واحد من أهم مثقفي التنظيم رئاسة تحرير «الكاتب»، وهو أسعد الأسعد[٢٠].

بعد أن كانت سميحة خليل قد أصدرت عن مؤسستها الاجتماعية التراثية النشطة، «جمعية إنعاش الأسرة»، في بيرزيت، فصلية «التراث والمجتمع»، منذ أبريل/ نيسان ١٩٧٤، وأسندت رئاسة تحريرها إلى سليم تماري. وفي آخر ١٩٧٥، ترأس إبراهيم سابا شهرية «المسرح»، وتبعتها في مارس/ آذار١٩٧٧ شهرية «البيادر»، التي ترأس تحريرها جاك خزمو، ثم جاءت أسبوعية «الشراع»، السياسية، القريبة من «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، وترأس تحريرها مروان العسلي، ولهذه الشبهة أغلقتها سلطات الاحتلال، فيما لم تلق أي من «المسرح»، أو «صوت الجبل» رواجًا، فأغلقهما أصحاب امتيازهما. أما «الطليعة» فمنعت من التوزيع في الضفة والقطاع، ما دفع «الشيوعي» إلى توزيعها سرًّا في هاتين المنطقتين المحتلتين، كما لاحق مقص الرقيب العسكري موادها، ما أرهق هيئة تحريرها[٢١].

أحدثت خطوات السادات التفريطية تبدلًا واضحًا في أداء الحركة الوطنية الفلسطينية، وبدأ التركيز التنظيمي والإعلامي داخل الوطن المحتل، الذي شهد تسابقًا ملحوظًا بين فصائل المقاومة في مجال الصحف، فصدرت «الميثاق»، نصف الأسبوعية السياسية، المقرّبة من «الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة»، منذ ١٣/ ٢/ ١٩٨٠، واعتبارًا من أول أغسطس/ آب ١٩٨٤ غدت يومية، وقد ترأس تحريرها صاحب امتيازها، محمود الخطيب، ونالت «الميثاق» أعلى منسوب من قرارات منع التوزيع التعسفية (١٠ ـ ١٥ مرة سنويًا)، فيما كانت سلطات الاحتلال قصرت توزيع «الميثاق» على القدس دون الضفة والقطاع، وقُصف عمر هذه الصحيفة بقرار تعسفي عسكري[٢٢]، فأتبعتها «الشعبية ـ القيادة العامة» بأسبوعية سياسية جديدة، هي «العهد»، التي ترأس تحريرها غسان الخطيب، شقيق محمود الخطيب، والاثنان نجلا علي الخطيب (رئيس تحرير «الشعب» السابق). وفي الأول من أبريل / نيسان ١٩٨١ صدرت أسبوعية «البيادر السياسي»، برئيس تحرير شقيقتها «البيادر»، الأدبية نفسه (جاك خزمو)[٢٣].

مع التراجع الوطني والقومي، عادت الثورة المضادة لتطل من جحورها، فأصدرت «روابط القوى» العميلة للاحتلال أسبوعية «أم القرى»، السياسية، سنة ١٩٨٠، وتوالى على رئاسة تحريرها كل من محمود الراغب، فمحمد نصر، ومع اختفاء «أم القرى»، أخلت مكانها في ٢٠/ ٢/ ١٩٨٢ لأسبوعية أخرى هي «المرآة»، التي ترأس تحريرها يونس الحنتولي[٢٤].

في توسعها المفاجئ داخل الوطن المحتل أصدرت «فتح» أسبوعية «الفجر الإنجليزي»، ابتداء من ٢٣ أبريل/ نيسان ١٩٨٠، وأسندت رئاسة تحريرها إلى حنا سنيورة، وألحقتها بأسبوعيتين عبريتين، هما «الفجر العبري»، وتولى زياد أبو زياد رئاسة تحريرها، منذ يناير/ كانون الثاني١٩٨٢، و«جيشر»، في ٢٠/ ٦/ ١٩٨٦[٢٥].

مع ظهور «الجهاد الإسلامي» في فلسطين نهاية السبعينيات، انخرطت في السباق، فاستخدمت ترخيص صحيفة «النور» الصادرة عن «جمعية الشبان المسلمين» في القدس، وأخذت الحركة في إصدارها، منذ فبراير/ شباط ١٩٨٢، وإن عدّلت اسمها إلى «النور الرباني»، ولم تنتظم في الصدور، حتى توقفت نهائيًا في أواخر العام نفسه. فيما أصدرت «الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» يومية «الدرب» السياسية، التي ترأس تحريرها سمعان خوري عام ١٩٨٥، لكن سلطات الاحتلال عاجلتها بالإغلاق في أغسطس/ آب ١٩٨٦، بعد صدور عشرين عددًا منها، فيما استقوى الحكم الأردني بيومية «النهار»، التي صدرت أسبوعية في ٢٧/ ٦/ ١٩٨٦ قبل أن تتحول إلى يومية ابتداءً من أبريل/ نيسان١٩٨٧، وترأس عصام العناني تحريرها[٢٦].

كان طبيعيًّا أن تتعرض كل هذه الصحف إلى المصادرة، والمنع من التوزيع في الضفة والقطاع، وبعضها كان مصيره الإغلاق[٢٧]، فبرغم رغبة الاحتلال في استدراج المقاومة إلى العمل العلني، السياسي، والإعلامي، على حساب العمل العسكري، فإن تلك الرغبة ظلت مكبوحة بالحذر الإسرائيلي من استخدام المقاومة للسياسي والإعلامي في سبيل إنعاش العسكري.

حين اندلعت انتفاضة ١٩٨٧ تواضع إسناد الصحافة العربية الفلسطينية لها، بسبب من مقص الرقيب، وعسفه، ثم جاءت حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، وانفرط عقد الاتحاد السوفييتي أواخر ١٩٩١، وتوقفت دول الخليج عن الدعم المالي لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، عقابًا لها على موقفها المؤيد لصدام حسين في حرب الخليج الثانية، ما اضطر صحف «الشعب»، و«الفجر»، و«البيادر السياسي»، و«الأسبوع الجديد» إلى التوقف عن الصدور. ويوضح الجدول رقم (٦) تفاصيل عن الصحف العربية التي صدرت في مدينة القدس، تحت الاحتلال الإسرائيلي، وحتى «اتفاق أوسلو».

* * *

جدول رقم (٦)

الصحف العربية الصادرة في القدس منذ احتلال ١٩٦٧ وحتى «اتفاق أوسلو»

اسم الصحيفة	رئيس التحرير	تاريخ صدور العدد الأول	دوريتها وطبيعتها
القدس	محمود أبو الزلف	١٩/ ١١/ ١٩٦٨	يومية سياسية
البشير	إبراهيم حنظل	٢٩/ ١١/ ١٩٧٠	أسبوعية سياسية
الفجر	يوسف نصري نصر	٧/ ٤/ ١٩٧٢	أسبوعية سياسية ثم يومية
الشعب	علي الخطيب	٢٠/ ٧/ ١٩٧٢	يومية سياسية
فلسطين الطبية	أحمد السيد	١٩٧٢	شهرية علمية
ألوان	يوسف نفاع	١٩٧٢	أسبوعية منوعة
صوت الجماهير	محمد أبو شلباية	١٩٧٣	أسبوعية سياسية
صوت الجبل	جمال عبد الله الشنطي	١٩٧٥	شهرية منوعة
المسرح	إبراهيم سابا	١٩٧٥	شهرية أدبية
البيادر	جاك خزمو	مارس/ آذار ١٩٧٧	شهرية أدبية
الطليعة	بشير البرغوثي	٢٧/ ٢/ ١٩٧٨	أسبوعية سياسية
الشراع	مروان العسلي	١١/ ٥/ ١٩٧٨	أسبوعية سياسية
الكاتب	أسعد الأسعد	فبراير/ شباط ١٩٧٩	شهرية فكرية
الفجر الأدبي	حنا سنيورة	١٩٧٩	شهرية أدبية
أم القرى	محمد نصر ومحمود الراغب	١٩٨٠	شهرية أدبية
الميثاق	محمود علي الخطيب	١٥/ ٣/ ١٩٨٠	أسبوعية سياسية
الفجر الإنجليزي	حنا سنيورة	٢٠/ ٤/ ١٩٨٠	أسبوعية سياسية
البيادر السياسي	جاك خزمو	١/ ٤/ ١٩٨١	شهرية سياسية
العهد	غسان الخطيب	٩/ ١٢/ ١٩٨١	أسبوعية سياسية
الفجر العبري	زياد أبو زياد	يناير/ كانون الثاني ١٩٨٢	أسبوعية سياسية
الوحدة	فؤاد سعد	٢٠/ ٢/ ١٩٨٢	أسبوعية سياسية
النور	ـــــ	فبراير/ شباط ١٩٨٢	غير منتظمة، فكرية
المرآة	يونس حنتولي	يونيو/ حزيران ١٩٨٢	نصف أسبوعية سياسية
العودة	إبراهيم قراعين	أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٢	نصف شهرية، سياسية
العودة الإنجليزي	إبراهيم قراعين	ـــــ	غير منتظمة، سياسية

هدى الإسلام	هاشم أحمد عشاير (مديرعام)	١٩٨٢	شهرية فكرية
التقدم	جميل العزة	١٩٨٤/٨/٧	يومية، سياسية
مرايا	ناظم بدر	مارس/ آذار ١٩٨٥	أسبوعية سياسية
الدرب	سمعان خوري	١٩٨٥	أسبوعية سياسية
جيشر	زياد أبو زياد	١٩٨٦/٦/٢٠	أسبوعية سياسية
البيان	ـــــ	١٩٨٥	غير منتظمة فكرية
النهار	عصام العناني	١٩٨٧/٤/١	يومية سياسية

وقد حصرت سلطات الاحتلال توزيع الصحف التالية في القدس دون الضفة والقطاع من باب التضييق عليها، وهذه الصحف هي: الطليعة، والشراع، والميثاق، والفجر الإنجليزي، والوحدة، والعودة، والموقف، والدرب، والبيان، فيما منعت صحفًا أخرى من التوزيع على فترات في الضفة والقطاع، وهي صحف: الفجر، الشعب، البيادر الأدبي، والبيادر السياسي، مما يعني رضى سلطات الاحتلال عن أداء بقية الصحف، أو تقدير تلك السلطات بأن لا خطر في الموضوعات التي تنشرها.

مع التمدد النسبي للصحف العربية في القدس، تجمع نحو خمسين صحافيًا ليؤسسوا في القدس «رابطة الصحافيين العرب» سنة ١٩٨٠، ترأسها فؤاد سعد رزق، قبل أن تنتخب الرابطة هيئة إدارية جديدة سنة ١٩٨٢، ترأسها رئيس تحرير «الشعب»، أكرم هنية، الذي أُبعد عن الضفة الغربية سنة ١٩٨٥، فخلفه رضوان أبو عيّاش، ومنذ ١٩٨٩ حل محله نعيم طوباسي، ولا يزال. أما آخر انتخابات جرت في الرابطة فكانت سنة ١٩٩٣. وما أن حلّت بركات الحكم الذاتي حتى كفت هذه الرابطة عن إجراء انتخاباتها. وعن سجل العضوية، فقد اقتصر على ١٥٥ عضوًا حتى ١٩٨٧، ووصل سنة ١٩٩٣ إلى نحو ٤٥٠ عضوًا، ثلثاهما في الضفة الغربية، والقدس. وقد عدّلت الرابطة نظامها الداخلي، مرتين، **أولاهما**: سنة ١٩٨٧، **والثانية**: سنة ١٩٩٣[٢٨].

تقييم الصحافة تحت الاحتلال

لقد حاول المحتل أن يغطي الفراغ المترتب على توقف الصحف العربية في الضفة والقطاع، فأصدر المحتل يومية «اليوم» منذ سنة ١٩٦٨، لكنها أشهرت إفلاسها السياسي، فحلت محلها يومية «الأنباء»، بلهجة مراوغة ألطف، لكنها توقفت عن الصدور منذ مطلع فبراير/ شباط ١٩٨٥، حسب شهادة كاتب سياسي وأدبي مرموق، عاش تجربة تلك الصحف تحت الاحتلال قرابة العقدين، فإن تلك الصحف عانت كثيرًا من الحصار، وعسف الرقابة، وقد ارتد هذا كله سلبًا على تلك الصحف، خاصة في مستواها المهني والتقني. وبعد سنة ١٩٨٠ دخلت عناصر مؤهلة إلى ميدان العمل الصحفي، ما انعكس إيجابًا على هذا العمل. الأمر الذي آتى أُكله، خلال سني الانتفاضة المباركة (١٩٨٧ ـ ١٩٩١)، وإن استمرت معاناة الكتاب الطامحين في مواصلة التوعية والتعبئة في مواجهة مقص الرقيب، ومع ذلك فقد تمكن الصحافيون من تحقيق هدفهم، بنشر الوعي الوطني الجديد[٢٩].

تحت الحكم الذاتي

حين تم توقيع «اتفاق أُوسلو» في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض بواشنطن في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣، بدا وكأن عهدًا جديدًا قد هلّ، ما دفع دعاة المقاومة والميالين للبديل الأردني على حد سواء إلى التحرك، والاستقواء بالصحافة، فأصدر غسان الخطيب في القدس صحيفة «الأمة» الأسبوعية السياسية ، وتبعه الصحفي المخضرم البارز، ناصر الدين النشاشيبي، فأصدر أسبوعة سياسية حملت اسم «أخبار البلد»، وقد صدر عددها الأول في ٢/ ٥/ ١٩٩٤، وإذا كانت الصحيفة الأولى قد عبَّرت عن الخط السياسي للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة، فإن الثانية لم تخفِ ميلها لمزاحم الحكم الذاتي، وأعني به الحكم الأردني.

لقد ظن الطرفان ـ «الأمة»، و«أخبار البلد» ـ أن الحكم الذاتي سيخفف من وطأة المحتل الإسرائيلي، ولم يعلما بأن الأول كان المطرقة، بينما المحتل السنديان ضد المقاومة، والصحافة الوطنية.

صحيح أن القدس بقيت تحت الاحتلال الإسرائيلي، لكن صحفها لم تسلم من الخنق والبطش للحكم الذاتي الجديد، تحت سمع وبصر المحتل، ما يعني مباركته، فما أجمل أن يضرب العدو العدو. فقد أقدمت عناصر من أجهزة أمن الحكم الذاتي ـ وخاصة «الأمن الوقائي» ـ على تعقب الصحفيين في القدس، واختطافهم، والتضييق على الصحف، بمنع توزيعها في مناطق الحكم الذاتي (الضفة والقطاع)، وإغلاق مكاتبها هناك، وتدمير مقارها، ومطابعها، كما حدث مع « الأمة»، أما «أخبار البلد»، «والنهار» فقد اضطرتا للتوقف، الأولى في ١٧/ ٧/ ١٩٩٤، والثانية في ١/ ١/ ١٩٩٧.

قبل أن يكمل الحكم الإداري الذاتي المحدود عامه الأول أصدر رئيس هذه السلطة، في ٢٥/ ٦/ ١٩٩٥، «قانون المطبوعات والنشر»[٣٠]، بعد أن كان العام السابق على إصدار ذلك القانون حافلًا بالبطش بالصحفيين، وخنق حرية الصحافة، حتى بدا صدور «قانون المطبوعات والنشر» وكأنه لتوفير المسوِّغ القانوني لذاك العسف ضد الصحافة والصحافيين العرب الفلسطينيين.

ترى قانونية سورية، معنية بحرية الصحافة، محقة، أنه «ما كان لمثل هذه السلطة إلا أن تنتهك حرية الصحافة، ضمن انتهاكاتها الفظَّة للحريات الديمقراطية». وتؤكد القانونية نفسها أن «هذه السلطة غير مؤهلة لإشاعة هذه الحريات، أو صيانتها»، حيث إن هذه السلطات «خالية الوفاض»، تمامًا، من أي موروث ديمقراطي، كما لا تحاط بجوار ديمقراطي، ولا تستند إلى مؤسسات ديمقراطية، فضلًا على أنها تُعبِّر عن طبقات وفئات اجتماعية مغرقة في طفيليتها، غير منتجة، وبالتالي فهي غير معنية بإشاعة الحريات الديمقراطية في البلاد، كما أن هذه السلطة تحكم مجتمعًا متسولًا، يعيش على المعونات الأجنبية، وتتسع فيه دائرة الفئات الاجتماعية الهامشية، ناهيك عن الموقف السياسي البالغ الهشاشة لهذه السلطة، الأمر الذي يجعلها تفتش عن أساليب استثنائية لحماية نفسها من الانتقاد، والأنكى أنها لم تأخذ من واجبات الدولة إلا القمع؛ لذا نراها تدخل قطاع غزة وأريحا مدججة بأجهزة القمع... بينما لم تكن سلطة الحكم الذاتي قد أعدت نفسها لمواجهة المشاكل المستعصية» للشعب[٣١].

استهجنت القانونية السورية إعطاء السلطة نفسها حق إصدار قوانين في غيبة البرلمان، صاحب الحق في سن القوانين، بل إن السلطة لم تصف القانون بأنه مؤقت، فضلًا على أنه افتقر إلى مذكرة تفسيرية تعززه[٣٢].

إذا أتينا إلى مواد القانون، فسنلاحظ أنها مجهضة بجملة «في حدود القانون»، وحظر البند (و)، من المادة (١١) على من يقيم خارج فلسطين تولي رئاسة تحرير أي دورية، فيما أمر الدخول إلى فلسطين منوطٌ برغبة المحتل الإسرائيلي، وليس برغبة الفلسطيني المعني، أو حتى السلطة الفلسطينية، وتتعسف الفقرة ٤ من البند (أ) في المادة ١٣ حين تشترط أن يكون رئيس التحرير«حاصلًا على مؤهل علمي ذي علاقة بالموضوع الذي تخصصت به المطبوعة». كما أن البند (د) من المادة (١٤) يشترط في مدير دار النشر خبرة مناسبة في المجال الذي يعمل فيه. فيما اتسمت المادة (٣٢) بالطابع الأمني، إذ شددت على رئيس التحرير ألا ينشر أي مقال باسم مستعار! إلى العمومية الشديدة، والالتباس في بعض مواد القانون. ناهيك عن أن القانون لم يحدد طبيعة المحكمة التي تنظر في مخالفات الصحف، ما يفتح الباب واسعًا للمحاكم العسكرية، أو الاستثنائية. وبينما يُطل المحتل الإسرائيلي، تمامًا، على تسليح أجهزة أمن الحكم الذاتي، فإن قانون النشر الجديد يحظر نشر الصحف أي معلومات عن ذاك التسليح! وثمة مفهومان مطاطيان، **أولهما**: «الإساءة إلى الوحدة الوطنية»، **وثانيهما**: «زعزعة الثقة بالعملة الوطنية»، وهذا بمثابة سيف مصلت على رقاب الصحف، والصحفيين. والغريب أن مناطق الحكم الذاتي بلا عملة وطنية، إلا إذا كان يقصد بالعملة الوطنية «الشيكل الإسرائيلي» !

أما من يده في النار فيرى ـ على لسان قانوني فلسطيني ـ أن سلطة الحكم الإداري الذاتي المحدود «ليست مؤهلة لصياغة قوانين تلبي توق الشعب الفلسطيني للحرية بسبب نقص سيادة السلطة، وما تم ليس انسحابًا عسكريًّا لقوات الاحتلال، بل مجرد إعادة توزيع هذه القوات. هناك لا مفر من الدستور، حتى يُصَيَّرَ إلى محاكمة ما يصدر من قوانين». وتوقع القانوني نفسه أن يترك «قانون المطبوعات والنشر» الجديد بصماته «على الكتابة السياسية، والأدبية، والصحافية، التي كان لها الفضل في زرع اسم فلسطين في ذاكرة الشعب الفلسطيني، وأبقت القضية الفلسطينية حيَّة، الأمر الذي يرعب أعداء الأمة. ما يجعل الكتابة الفلسطينية جديرة بقانون مطبوعات ونشر ديمقراطي»، لا أن ينقل القانون الذي أصدرته السلطة ٢٧ مادة ـ نقل مسطرة ـ من «قانون المطبوعات والنشر» الأردني، رقم (١٠)، لسنة ١٩٩٣، مع تعديلات طفيفة على بقية المواد الواردة في القانون الأردني المذكور.

استطرد القانون الفلسطيني: «إن مجلس التشريع والإفتاء الفلسطيني لم يُنجز قانونًا ديمقراطيًّا للمطبوعات والنشر، ملتزمًا بلائحة حقوق الإنسان بشكل كامل، ولم يراع واقع الشعب الفلسطيني، بتوقه للحرية، وبناء دولته الديمقراطية، وإضفاء صفة أخرى لصفات عاصمته (القدَس)، عاصمة الأديان السمحة، والعبادة، والمحبة، لتصبح، أيضًا، عاصمة للثقافة، والرأي الحر»[٣٣].

بدخول السلطة إلى الضفة والقطاع بهت دور الصحافة العربية في القدس، وتوالى احتجاب صحفها، بعد أن احتجبت أسبوعية «الطليعة» بصدور عددها في ٢٥/ ٢/ ١٩٩٥، بمجرد أن وعت قيادة «حزب الشعب الفلسطيني» المشرفة على إصدار تلك الأسبوعية بأن إصدارها في القدس قد استنفد أغراضه، كما أن مركز الثقل في العمل الفلسطيني انتقل إلى رام الله، التي تعامل معها رئيس السلطة ، ياسر عرفات، باعتبارها العاصمة المؤقته للسلطة، فضلًا على أن قيادة «الشعب» أيدت «اتفاق أوسلو» بأغلبية النصف زائد واحد، مما يعني أن الاستمرار في الدعوة لهذا الاتفاق يمثل تهديدًا بشق الحزب، ناهيك عن الضائقة الاقتصادية التي أخذت بخناق الحزب، مما جعل إصدار «الطلعية» عبئًا ماليًّا ثقيلًا على الحزب، ولم يبق إلا يومية «القدس» صحيفة لكل العصور. وانتقل مركز الصحافة العربية الفلسطينية إلى رام الله، التي اختارها الحكم الذاتي عاصمة مؤقتة له، ومنها أصدر يوميتي «الحياة الجديدة»، و«الأيام» التي لا تزال بيننا!

هوامش الفصل العاشر:

(١) لمزيد من التفاصيل في هذا الصدد يمكن الرجوع إلى دراستنا في:

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: عبد القادر ياسين، **الصحافة العربية في فلسطين**، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠).

(٢) **المرجع نفسه**، الصفحات نفسها.

(٣) **كنز الرغائب في منتخبات الجوانب**، الجزء الخامس، ص ٥٦ـ ٥٩، ١٥٠ ـ ١٥٣.

ـ **قانون الجزاء الهمايوني**، ص٣٦ ـ ٣٨.

لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى:

- يوسف ق. خوري، **الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٦، ص ٥٦ ـ ٥٩، ١٤٨ـ ١٥٣، ١٥٩ـ ١٦٠.

(٤) يعقوب يهوشع، **تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني ١٩٠٨ـ١٩١٨**، القدس، مطبعة المعارف، ١٩٧٤، ص ١٣ ـ ٢٩، ١٥٠ ـ ١٥١.

ـ جورج كيرك، **موجز تاريخ الشرق الأوسط**، ترجمة: عمر الإسكندري، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٥٧، ص ١٨٩.

(٥) لمزيد من التفاصيل حول صحف تلك المرحلة، يمكن الرجوع إلى: ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٦) إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عامًا (١٩٢٢ ـ ١٩٣٧)**، ج٢، بيروت، دار النهار، ١٩٧٤، ص١٣.

(٧) عبد القادر ياسين، **الصحافة العربية في فلسطين والحركة الوطنية**، الدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والتعمير (دمشق)، العدد ١٨ ـ ١٩، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٩، ص ٧٦ـ٩٥.

ـ خوري، **مرجع سبق ذكره**، ٥٧، ٦٨ـ ٧٤ ـ ٧٨، ٨٥ ـ ٨٦، ١٠٥ـ ١٠٦.

ـ يعقوب يهوشع، **تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ١٩٣٠ ـ ١٩٤٨**، ج٣، القدس، معهد هاري ترمان بالجامعة العبرية، شفا عمرو، دار المشرق للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص ٤٠ـ٤١.

(٨) لمزيد من التفاصيل حول كل صحف المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية الفلسطينية، وبشكل أخص تلك الصحف العربية الصادرة من القدس، يمكن الرجوع إلى:

ـ يهوشع، **مرجع سبق ذكره**، ج٣، ص ٥٥ـ ٦١، ٨١ ـ ١٠١، ١١٧، ١٢٨ـ ١٣٥، ١٤١، ١٤٣، ١٥٠ـ ١٥٦.

ـ خوري، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٢ ـ ١٤٠.

ـ ياسين، الموسوعة الفلسطينية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٤٧ـ ٤٥٠.

(٩) لمزيد من التفاصيل حول الصحف، وأسمائها، وأماكن صدورها، وتاريخ صدور أعدادها الأولى، وأسماء رؤساء تحريرها، يمكن الرجوع إلى:

ـ **المرجع نفسه**، ص ٤٥١ـ ٤٥٣.

(١٠) في قطاع غزة تشكلت «**الجبهة الوطنية المتحدة**»، كائتلاف ضم «**البعث**»، و«**الشيوعي**»، و«**ج.ت.ف**»، ومستقلين، غداة الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة، وأصدرت الجبهة صحيفة سرية أسبوعية، حملت اسم «**المقاومة**»، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧ صدرت

«الجماهير» السرية غير الدورية عن «طلائع المقاومة الشعبية»، التي كانت لفرع «**حركة القوميين العرب**» في قطاع غزة، وأصدقائهم. وفي الضفة صدرت شهرية «**الوطن**» السرية عن «**جبهة القوى الوطنية**».

(١١) أسعد الأسعد، **الثقافة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال: الصحافة**، دمشق، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة، د.ت، ص٢٠.

(١٢) عيسى الشعيبي، صحف الضفة الغربية، **شؤون فلسطينية**، (بيروت)، العدد ٢٦، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، ص ١٩٠ ـ ١٩٨.

(١٣) دوف شينار، داني روبنشتاين، **الصحافة تحت الاحتلال/ الأبعاد السياسية**، ط١، ترجمة د. كمال أبو سماحة، عمان، دار الكرمل، ١٩٨٨، ص١٢.

(١٤) الأسعد، **مرجع سبق ذكره**، ص٢١ ـ ٢٤.

(١٥) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(١٦) روبنشتاين، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٢.

(١٧) **المرجع نفسه**، ص١٧.

ـ الشعيبي، **مرجع سبق ذكره**.

ـ محمد خليل الفقيه، **بيبلوغرافيا المؤسسات الصحفية في الأراضي المحتلة**، تشرين الأول/ أكتوبر، القدس، رابطة الصحفيين العرب، ١٩٨٧، ص٤.

(١٨) **المرجع نفسه**، ص٦.

ـ الشعيبي، **مرجع سبق ذكره**.

ـ ياسين، الموسوعة....، **مرجع سبق ذكره، مجلد ٤**، ص٤٦٢.

(١٩) الفقيه، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢١.

(٢٠) **المرجع نفسه**، ص ٣، ٤، ١٣، ٢١.

(٢١) **المرجع نفسه**، الصفحات نفسها.

(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ٨.

(٢٣) **المرجع نفسه**، ص١٦.

(٢٤) ياسين، الموسوعة....، **مرجع سبق ذكره، مجلد ٤**، ص٤٦٣.

(٢٥) الفقيه، **مرجع سبق ذكره**، ص٦.

(٢٦) **المرجع نفسه**، ص ٥، ١٠.

(٢٧) لمزيد من الاطلاع على ما تعرضت له تلك الصحف من مصادرة، ومنع من التوزيع، وسحب تراخيص، يمكن الرجوع إلى:
ـ **المرجع نفسه**، ص ٥ ـ ٢٣.

(٢٨) علي الخليل، الصحافة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي، شهدة في التجربة، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٠٢، تشرين الأول (أكتوبر) - تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٥، ص ٨٥ ـ ٩٤.

(٢٩) **المرجع نفسه**.

(٣٠) انظر نص «قانون المطبوعات والنشر» في:

ـ منى أسعد، **التشريعات الصحافية في فلسطين**، القاهرة، اتحاد الصحفيين العرب، ١٩٩٦، الملحق السادس، ص٢٢٣ـ ١٤٣.
ـ **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٠٢، تشرين الأول (أكتوبر) ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٥، ص٢٦٣ ـ ٢٧٥.

(٣١) أسعد، **مرجع سبق ذكره**، ص٩٤.

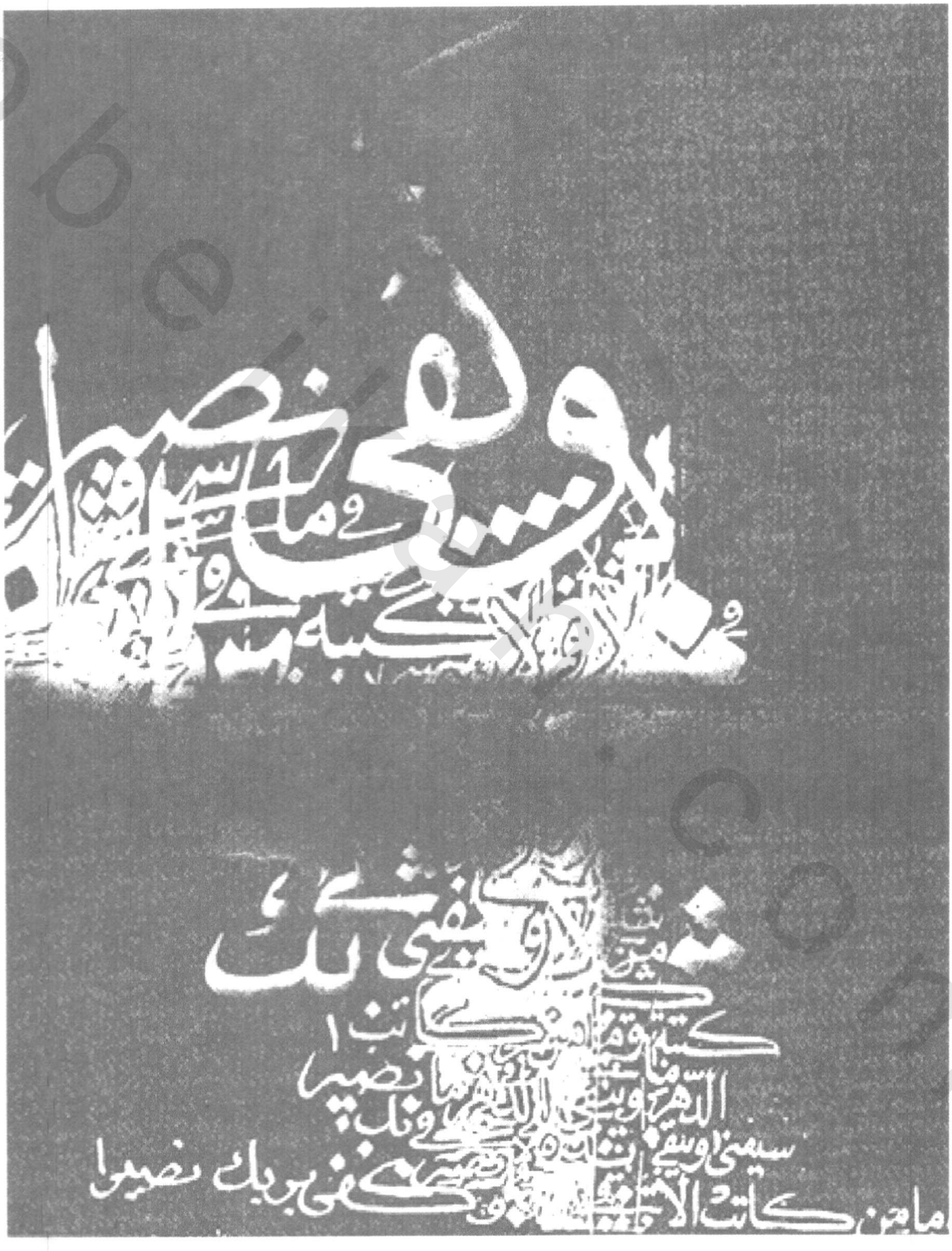
(٣٢) **المرجع نفسه**، ص ٩٤ـ ٩٥.

(٣٣) المحامي إبراهيم أبو رحمة، ملاحظات حول قانون المطبوعات والنشر لسلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٠٣، كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ـ آذار (مارس)، ١٩٩٦، ص ١٨٤ ـ ١٩٨.

obeikan.com

الباب
الرابع

مبدعون



obeikan.com

الفصـل الأول

خليل السكاكيني
هذا المثقف الموسوعي الملتزم

عبد القادر ياسين

هل يمكن الإشارة إلى أي من الحركة الوطنية، أو الحياة الثقافية، أو التربية في فلسطين دون أن يحتل ابن القدس، خليل السكاكيني، موقعه المتقدم في هذه المجالات الثلاثة؟! فهو «الحجر الأساس في تشكيل الوجدان الأدبي واللغوي لأجيالٍ متعاقبة، فضلًا على القيم التربوية والأخلاقية التي أشاعها فعززت مفهوم النزاهة، كموقف، والذي بدونه تتحول القضية الضميرية إلى اجتهادات تبريرية للسلوكيات المنحرفة، وتحييد الالتزام بالركوب مع الموجات الانتهازية، والوصولية. والذي لم يدَّخر السكاكيني جهدًا في فضحها، وتعريتها، وخاض مع رموزها أعنف المعارك، وأصدقها». بكلمات الأديب الفلسطيني المعاصر المعروف، نواف عبد حسن.

غني عن القول أن للمربي «السكاكيني» على طلاب فترة الانتداب البريطاني في فلسطين (١٩٢٢-١٩٤٨) الفضل الأول في تكوينهم اللغوي، فعلى كتب «القراءة الرشيدة» للسكاكيني تعلَّم طلاب ذاك الزمان الكتابة والقراءة، وأجادوا قواعد النحو والصرف.

لقد ألـمَّ هذا المثقف الموسوعي الوطني الديمقراطي بفروعٍ شتى للمعرفة، وشهر الثقافة سلاحًا في وجه أعداء الأمة.

هـويتـه

ولد خليل السكاكيني في عاصمة فلسطين، القدس، في ٢٢/ ١/ ١٨٧٨، قبل نحو أربعة عقود من إخلاء الحكم العثماني موقعه في فلسطن للاحتلال البريطاني (١٩١٨).

أرسله والده، قسطندي السكاكيني، إلى مدرسة الروم الأرثوذكس، لكن الفتى قاطعها، احتجاجًا على لطم مدرس السكاكيني على وجهه لغير ذنب جناه. ومن هذه المدرسة التحق السكاكيني بمدرسة أسستها، في القدس، جمعية (CMS). وحرص صاحبنا على المرتبة الأولى طوال سني دراسته في هذه المدرسة.

كان ممتلئًا يميل إلى القصر، يتدحرج في مشيته كالكرة، يعلوه شعرٌ أحمر طويل، ضفَّرته له والدته.

شغف صاحبنا منذ صغره بتربية الخراف، واقتناء الكلاب، كما ولع بالماء، والنظافة، والعبادة، قبل أن يتعلق بالصيد، فضلًا على العزف على الكمان.

في مدرسة (CMS) أنهى السكاكيني الدراسة الابتدائية، فالتحق بمدرسة صهيون الإنجليزية بالقدس، ومنها التحق بكلية الشباب (الكلية الإنجليزية، لاحقًا). حيث تتلمذ على يدي الأستاذ نخلة زريق، وتخرج في تلك الكلية سنة ١٨٩٣، حيث مارس مهنة التعليم في القدس، وانتسب إلى «جمعية زهرة الآداب». وكاد يسافر إلى روسيا لتعلُّم الطب، لكنه عدل عن السفر في اللحظة الأخيرة.

بعد وفاة والده توجه الفتى إلى بريطانيا، ومنها انتقل إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٠٧، حيث أقام في نيويورك، وإن حال ضيق ذات اليد دون تمكن السكاكيني من استكمال تعليمه، فعمد إلى إعطاء دروس خصوصية لبعض الطلاب هناك، كما عمل ـ في الوقت نفسه ـ في محل تجاري، ومن بعده، عمل محررًا في مجلة «الجامعة»، التي كان يصدرها فرح أنطون. وما أن صدمته أخلاق الأمريكيين القائمة ـ كما يقول ـ على «الغش، والخداع، والكذب، إلى غير ذلك من الصفات التي تأباها نفسي، ولو متُّ جوعًا»[1]، على ما يقرر السكاكيني نفسه في يومياته، حتى اندفع اندفاعًا للعودة إلى أرض الوطن، وقد شجعه على هذه العودة إقدام السلطان العثماني عبد الحميد الثاني على منح البلاد دستورًا، صيف ١٩٠٨، تحت ضغط انقلابيي «الاتحاد والترقي».

أولى السكاكيني جُل اهتمامه لإصلاح أوضاع الطائفة الأرثوذكسية في فلسطين، غير عابئ بتصدي وجهاء الطائفة له. وقد التحق السكاكيني بجمعية «الاتحاد والترقي»، توهمًا منه بأنها جمعية ديمقراطية، قبل أن يفتضح وجهها الشوفيني الطوراني، وينفض العرب من حولها، ليكوِّنوا جمعياتهم السرية، وليطوِّروا شعارهم الرئيسي من الإصلاح إلى الاستقلال الذاتي، قبل أن يصلوا إلى شعار الاستقلال التام.

أسس السكاكيني سنة ١٩٠٩ «المدرسة الدستورية»، لتكون «مصنعًا للرجال»، وشاركه في جهوده هذه كل من: علي جاد الله، وجميل الخالدي، وأفتيم، حين كانت «أكثر من مدارس هذه الأمة أجنبية دينية، ومدارس الحكومة... لا تزال عرضة لسوء الاستعمال». وفي المدرسة الدستورية ركز السكاكيني على اللغة العربية، بهدف غرس الروح الوطنية، فعنده أن أكبر عامل «في إيقاظ الشعور الوطني هو أدبيات اللغة. والمعلِّم الوطني لا يعدم من أدبيات اللغة العربية ما يثير الحماسة في نفوس التلاميذ، ويبعث فيهم الحياة. إن أمة عندها أمثال المتنبي، وأبي فراس، وأبي تمام، والبحتري، وأبي العلاء، وعنتر، لا يمكن أن تموت[2].

حين أسس القائد العثماني الشهير، جمال باشا السفاح، المدرسة «الصلاحية» في القدس، عهد بإدارتها إلى رستم حيدر، وعيَّن السكاكيني مدرسًا فيها.

خلال احتدام معارك الحرب العالمية الأولى بين العثمانيين والإنجليز أقدمت السلطات العثمانية على إعدام قادة الحركة الوطنية السورية، واعتقال العشرات من الوطنيين، ومن بينهم خليل السكاكيني (١٩١٧)، وقد أودعته عمارة الروس بالقدس، قبل أن تبعده مخفورًا إلى دمشق، أما التهمة فكانت إيواء اليهودي والتر ليفين.

بذل وجهاء فلسطين جهودًا مضنية، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر المظفَّر، فأفرج عن السكاكيني بكفالة مالية في ١٠/ ١/ ١٩١٨، ليمتهن إعطاء الدروس الخصوصية في اللغة الإنجليزية لطلاب دمشقيين. وبعد برهة تمكن من الإفلات من رقابة العثمانيين في دمشق، وانضم إلى «الثورة العربية الكبرى»، قبل أن يتوجه إلى مصر، ويطل على حركتها الثقافية، ويلم بطموحات شعبها الوطنية.

بعد أكثر قليلًا من عام واحد على احتلال القوات البريطانية للقدس (٨/ ١٢/ ١٩١٧) عاد السكاكيني إلى مسقط رأسه، وشرع في إعطاء دروس خصوصية إلى طلاب هناك، قبل أن يبدأ في تعليم ثلاثة صفوف من الضباط الإنجليز اللغة العربية، بتكليف من مدير المعارف الإنجليزي في فلسطين، آنذاك، الميجور تدمن.

في الوقت الذي اعتمدت القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية خطًّا سياسيًّا قُطريًّا، فإن السكاكيني تمسك بإيمانه بالوحدة العربية. كما نفر من احتكام تلك القيادة للاحتلال البريطاني في الصراع العربي ـ الصهيوني، وفي عداء تلك القيادة لليهود كدين، وفي اعتماد أساليب كفاح سلبية متواضعة، لا تتعدى المؤتمر، والبيان، والوفود المسيَّرة حينًا إلى لندن، وأحيانًا إلى المندوب السامي البريطاني في القدس. فيما طالبت قيادة الحركة الوطنية الشعب العربي الفلسطيني بالصبر والصمت!

لم يكن هذا كله من باب المصادفة، بل بسبب الطبيعة الطبقية لقيادة الحركة الوطنية، إذ من المعروف أن كبار الملاك هم الذين احتكروا مقاعد هذه القيادة على مدى العشرينيات، وهم الذين دأبوا على لعب دور الوسيط بين الولاة والرعية في العهد العثماني، ناهيك عن أنهم يجترون الفكر الإقطاعي. فيما كان السكاكيني ممثلًا أصيلًا للبرجوازية المقطوعة الصلة بالسوق الرأسمالية العالمية، فضلًا على أن تلك البرجوازية كانت تواجه عدوًّا مزدوجًا (الاستعمار البريطاني، والصهيونية)، ناهيك عن كون تلك البرجوازية وليدة، وهذا كله حدَّد ثورية البرجوازية الفلسطينية على مدى عشرينيات القرن العشرين، وثلاثينياته.

فيما بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٠ أدار فلسطين حكم عسكري إنجليزي، حيث تم تعيين السكاكيني ضمن هيئة المعارف الفلسطينية، فيما تعينت عقيلته في هيئة المعارف لمدارس البنات.

في ٢٨/ ١٠/ ١٩١٩ افتتح السكاكيني «دار المعلمين»، وغدا مديرًا لها. حيث دأب على حث الطلبة على التحرر، والاعتداد بالنفس، وأسس لهم جمعية للمحاضرات والشعر، فضلًا على مجلة «الجوزاء»، ليحرروها بأنفسهم.

حين تم تعيين الصهيوني البريطاني المعروف، هربرت صموئيل، مندوبًا ساميًا على فلسطين في أول تموز/ يوليو ١٩٢٠ سارع السكاكيني إلى تقديم استقالته من عمله في «دار المعلمين»، من باب الاحتجاج. وسرعان ما لبى دعوة «الجمعية السورية الأرثوذكسية» في القاهرة، لإدارة القسم العربي لمدرسة «العبيدية». وفي العاصمة المصرية وطَّد السكاكيني علاقاته بكوكبة من المفكرين والكتَّاب المصريين، وفي القلب منهم كتَّاب أسبوعية «السياسة الأسبوعية»، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين، الذي اجتذب ليبراليين كُثُر، أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق، د. منصور

فهمي، سليم سركيس، أحمد زكي باشا (أبو العروبة)، جورج حبيقة، وطه حسين. لقد جاء انجذاب صاحبنا هنا منطقيًا، إذ إن هاجس أولئك هاجسه: الفكر والديمقراطية.

بعد سنتين عاد السكاكيني إلى مسقط رأسه من جديد (١٩٢٢)، ومن هناك واظب على إرسال مقالاته إلى صحف مصرية بعينها، وخاصة «المقتطف»، و«الهلال»، فضلًا على «السياسة الأسبوعية». إلى جانب مزاولته نشاطه السياسي في القدس، أمينًا لسر اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني، التي كانت تقود الحركة الوطنية الفلسطينية، على مدى عشرينيات القرن العشرين، والسنوات الثلاث الأولى من الثلاثينيات، منبثقة عن مؤتمر وطني عام، حرصت الحركة الوطنية الفلسطينية على عقده دوريًا مرة كل عام، باستثناء سنوات الركود الوطني (١٩٢٣-١٩٢٧)، وهي السنوات التي فقدت فيها قيادة الحركة الوطنية الاتجاه، بعد أن خاب أملها في «الحليف» البريطاني!

دأب صاحبنا، منذ عاد إلى القدس، على التردد على مقهى شعبي في «باب الخليل»، أطلق عليه «قهوة الصعاليك»، فيما سمى بيته «الكوخ». فصاحبنا مولع بسك الصفات ذات الطابع الطريف.

منذ ربيع ١٩٢٥ أقلع عن أكل اللحم، وغدا نباتيًا، وبالتالي كف عن الخروج للصيد في الغابات المحيطة بالقدس.

بمجرد مغادرة هربرت صموئيل فلسطين، صيف ١٩٢٦، عاد السكاكيني للالتحاق بإدارة المعارف، وغدا مفتشًا عامًا للغة العربية فيها، وهنا تم اختياره عضوًا في «المجمع العلمي العربي»، بدمشق.

في عز اشتداد الثورة الوطنية المسلحة في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) لم ينس السكاكيني العلم، فأسس سنة ١٩٣٨ «كلية النهضة» في القدس، بمشاركة كل من إبراهيم شحادة الخوري، ولبيب غلمية، وشكري حرامي.

لكن الخطوب كانت لصاحبنا بالمرصاد، إذ خطفت يد المنون زوجته، سلطانة، في ٣/ ١٠/ ١٩٣٩. فرثاها، وعاش مخلصًا لذكراها.

بعد نشوب الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، مجرد صدور قرار تقسيم فلسطين عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧) رشح طه حسين صاحبنا (١/ ١/ ١٩٤٨) لعضوية «المجمع اللغوي» بالقاهرة، وصادق المجمع على هذا الترشيح، ووصل السكاكيني إلى القاهرة، في ٣/ ٤/ ١٩٤٨، لكن صدمة أخرى زلزلت حياته، بفقدانه وحيده، سري، بالسكتة القلبية في ١١/ ٥/ ١٩٥٣، فلحق بابنه بعد بضعة أسابيع (١٣/ ٨/ ١٩٥٣).

قسماته

ظل السكاكيني معتدًّا بنفسه طوال حياته، فهو القائل: «أنا لا ألقى دهري إلا غير مكترث، ولا أنتسب إلا إلى نفسي». وقد بادر إلى تقديم استقالته من «إذاعة القدس» الحكومية بمجرد سماعه صوت المذيع يعلن: «هنا فلسطين، أرض إسرائيل»[٣]. بعد أن كان قدم استقالته من «دار المعلمين» احتجاجًا على تعيين صموئيل مندوبًا ساميًا، على النحو الذي أشرنا إليه آنفًا. وحين ضاقت بصاحبنا السبل، لم يتردد في إعلان استعداده للعمل حجارًا[٤].

لم يحدث أن قال كلمته ومضى، فهو من ردد: «سأقول كلمتي وأقف، ومن شاء أن يصارعني فليتقدم». فيما كان وفاؤه مضرب الأمثال، إن كان لصديق صباه، داود الصيداوي، أو لابن خالته، يعقوب فرّاج، أو لأستاذه نخلة

زريق، فضلًا على وفائه لرفاقه في مصر. ناهيك عن وفائه الاستثنائي لزوجته، حتى أنه دأب على زيارة قبرها كل يوم، بل قال: «إني أخجل أني عشت بعدها»!

في الإجمال، كان السكاكيني إنسانًا، وطنيًّا، ورياضيًّا، وطالب قوة، متمثلًا قول المتنبي:

غثاثة عيشي أن تغث كرامتي وليس بغث أن تغث المآكل

إلى قوله: «كذا أنا يا دنيا، ولا عاش من يمشي على الأرض خائفًا، أو مزهوًّا».

فلسفته

لم يفت السكاكيني ما للفلسفة من أهمية؛ لذا أولاها عناية خاصة، فركز على القراءة لكلٍّ من نيتشه، وسبنسر، وشوبنهاور. على أنه تأثر بالأول أكثر من غيره من الفلاسفة؛ لذا وجدنا السكاكيني يدعو إلى التحرر، ويرى بأن الصلاة إذا لم تكن مبتكرة، صادرة عن الإحساس، فلا معنى لها. ودعا إلى فهم روح الشريعة. فيما رأى في الاتكالية دليلًا على انحطاط الشعوب. ويقول مفكرنا: «أهون على الإنسان آيات القرآن، والزبور، والتوراة، من أن يمسك نفسه عن الكذب، أو الإضرار بالناس، أو يملك نفسه، عند أقل التجارب»[٥].

لم يكن صاحبنا يسلِّم بأمر إلا بعد أن يقلِّبه في عقله، ويمحِّصه بخبرته. ولطالما أكد أنه لا يخشى جهنم، ولا يرغب في السماء[٦].

لذا لم يكن غريبًا أن يدعو السكاكيني إلى عبادة النفس، فيقبل الإنسان على نفسه، ليستكمل فضائلها، وينتقدها، فلا يرى اعوجاجًا إلا قوَّمه، أو فسادًا إلا أصلحه، فيحافظ على نقاء جسده، وصحته، وقوته، وشبابه، وجماله، فضلًا على أن ينزِّه نفسه عما يشينها.

ما أن رحلت زوجته حتى تمكَّن منه الحزن الشديد، وغاب عنه تفاؤله، وكف عن المرح، واتهم الحياة بالقسوة؛ تعطي لتأخذ، وتهب لتسترد، وتُفرح لتُحزن، فانجذب، منذئذ، أكثر فأكثر إلى فلسفة شوبنهاور المتشائمة، واتهم الناس بأنهم يعيشون «في هذه الدنيا بلا عقول»[٧]!

أما العقل، في رأيه، فهو ضد الغريزة؛ لذا تخشاه الطبيعة، ومن هنا فأكثر العقلاء لا يتزوجون، وإذا تزوجوا، فإنهم لا يُكثرون في الأولاد، بل أحيانًا لا يُنجبون!

لقد أعطت هذه الشخصية الغنية، فأجزلت في العطاء، في غير مجال.

فكـــره

كان السكاكيني «متطرفًا في آرائه ووطنيته، صعب القياد، لا يطيق أن يتحكم به أحد»، برأي المثقف السياسي الفلسطيني المعروف، جورج أنطونيوس.

لعل من المثير للدهشة أن مفكرنا لم يلُذ ببرجه العاجي، بل انغمس في السياسة حتى أذنيه، رغم أنه حرص على التأكيد «أنا لست من رجال السياسة، ولكنني عربي قبل كل شيء، ويهمني، بل من واجباتي أن أسعى في إنهاض هذه الأمة».

أغلب الظن أن صاحبنا قصد أنه ليس حزبيًّا محترفًا، بقوله: «لست من رجال السياسة». وكان معه كل الحق في عدم انتسابه لأي من الأحزاب العربية الفلسطينية، في ذلك الزمان، التي لم تكن إلا بنى فوقية، من علية القوم، منبتَّة الصلة بجماهير الشعب. وانحصرت الفروق بين هذه الأحزاب في درجة ترديها، وفي انتسابها لهذه العائلة الكبيرة، أو تلك. وقد رأى السكاكيني بأم عينه كيف «أن هذا الحزب يقاوم ذلك الحزب، لا لإنقاذ البلاد من الخطر، ولكن لينتزع هذا الحزب الوجاهة والنفوذ من ذلك الحزب. يتقاتلون على الوجاهة والنفوذ، وينسون الخطر الذي يهدد البلاد. وإذا فكرنا في إنقاذ البلاد، فليس إلا الاحتجاج»[٨].

لطالما ثار ـ بجسارة عزَّ نظيرها ـ على الظلم والفساد، فتمرد على الحكم العثماني الجائر، ليُسجن، ويصدر حكم الإعدام بحقه. وفي وقت لاحق يرفض تلبية دعوة المندوب السامي البريطاني بمناسبة رأس السنة الميلادية (١٩٣٣) بدعوى التعارف.

إن صاحبنا هو من ثار على الرهبانية اليونانية في فلسطين، قبل أن يُحدث ثورة تربوية، بمناداته بجعل المدارس أماكن تَرَبٍّ وتعلُّم، لا أماكن تربية وتعليم. وحين خطفت يد المنون شريكة حياته، سلطانة، كتب في صدر مكتبه: «لن نرضى»! وجاءت هاتان الكلمتان معبرتان عن تكوين هذا المفكر الغاضب الرافض.

لكن، ما موقف مفكرنا من الوحش الصهيوني، الذي أنشب أنيابه في الجسد الفلسطيني؟ لقد كره السكاكيني الصهيونية؛ لأنها تحاول أن تبني وجودها على أنقاض شعوب أخرى. لكن صاحبنا حرص على التفريق بين اليهودية والصهيونية، ورأى أن اليهود بحاجة إلى توراة، لكنه أبدى خوفه من أن يكون نصيب النبي الجديد فيهم نصيب أسلافه، ممن أحرقهم اليهود، وقتلوهم. لذا خاطب السكاكيني اليهود: «الأنبياء والتوراة منكم، ولكن ليست لكم، إذا كنتم تشعرون بحاجتكم إلى توراة جديدة، فيجب أن تستمدوها من غيركم»[٩].

في مواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني، حرص صاحبنا على أن يجعل من قول ابن الرومي شعارًا للمدارس العربية الفلسطينية:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ولا أرى غيري له الدهر مالكا

أما نظرته إلى أوروبا فاتسمت بالازدواجية: «أوروبا! أوروبا أصل البلاء... لم يكفِ الاستعمار، حتى زدتنا بوعد بلفور... ولعار عليكِ [يقصد بريطانيا] أن تكوني في سياستك خاضعة لنفوذ اليهود»[١٠].

بيد أن إدانته هذه للغرب لم تمنعه من أن يغبط الغرب على نزعته الاستقلالية، ويحزن لغرق الشرق في الاتكالية. ويُرى الأخير ينتقل من الحداثة إلى شيخوخة ثقيلة، بينما الغرب ينتقل من الحداثة إلى شباب دائم[١١]. كما يلاحظ أن الغرب يستند في فلسفة الحكم إلى الوسائط، دون المبادئ، فيما «لا يكون الرقي رقيًّا، إلا إذا كان عن مبدأ الوسائط قد تضمن الأمن والعدل، ولكن لا تجعل الأمن والعدل خلقة في النفوس». وينتهي صاحبنا إلى «أن المدينة قائمة بالوسائط، لا المبادئ، لمدنية منحطَّة». إن السكاكيني يريد أن تفد الفضائل من المبادئ والمُثُل، لا أن تُفرض بالقانون والقوة[١٢].

إنسانيته

دون ما تعارض مع الوطنية فإن السكاكيني تحلى بإنسانية مطلقة، ولطالما ردد قول الشاعر:

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل الناس فيها أقاربي

رغم أن صاحبنا نشأ في جوّ حافل بالخرافات، فإن قراءاته لكتابات د. شبلي شميِّل العلمانية دحرت الخرافات عنه، على ما يذكر السكاكيني نفسه. لذا كانت ثورته على رجال الكنيسة من الرهبان اليونانيين ثمرة لهذا التحول، خاصة بعد أن لمس مدى استبداد هؤلاء الرهبان بالطائفة. كما أعلن أنه ليس ابن دين من الأديان السماوية، أو الأرضية، أو جنسية بعينها، «بل أنا فرد من أفراد هذه الإنسانية... أرى من واجبي، بل من دواعي سروري وطربي أن أشتغل فيما يكون به الخير للناس، على اختلاف ألوانهم، وأديانهم، ولغاتهم». يستطرد صاحبنا: «إذا كانت الوطنية في حب الحياة، فأنا وطني، وأما إذا كانت في تفضيل دين على آخر، ولغة على أخرى، ومدينة على مدينة، ومصالح على مصالح، فلست وطنيًّا». وامتدادًا لهذا الموقف الإنساني المطلق، سجل السكاكيني في يومياته (١٩٣٤): «لا يشقيني شيء مثل أن أرى آثار البؤس والشقاء، حتى في الحيوان الأعجم»[١٣]. كما لطالما تأذى من الظلم، وربما جاءت إنسانية السكاكيني في أعلى تجلياتها، حين طبع بطاقته الشخصية، على هذا النحو:

خليل السكاكيني إنسان إن شاء الله

المربـــي

أولى السكاكيني اهتمامه الأكبر للنشء الاحتياطي الإستراتيجي للمجتمع، ووعْد المستقبل، بعد أن كان الأوان قد فات لإعادة صياغة الكبار! فحضَّ صاحبنا الفتيان والفتيات على الجسارة، وممارسة الرياضة، وحب الوطن، والسعي وراء الثقافة: جامعًا، في آن، بين فكر كل من المتنبي، ونيتشه، وجان جاك روسو، وبستالوتزي.

لم يلم السكاكيني بالفكر التربوي فحسب، بل أضاف، وأبدع في هذا الميدان، حتى أنه بلور رؤية من شأنها تحويل المدرسة إلى مصدر متعة، وثقافة للطالب. بل اعتُبر صاحبنا، أيضًا، رائدًا في مجال الدعوة للتركيز على الطريقة أكثر من المادة، من أجل مد الطالب بطرق التفكير[١٤]. ورأى أن «احترام التلميذ، وحسن معاملته كفيلان بأن يخلقا فيه شخصًا جيدًا جدًّا، عنده عزة نفس، وكبر، ويحتقر الذل، ولا يحني رأسه أمام أحد، ويتحلى بالشجاعة والصدق، ولا يصبو إلا إلى الأفضل»[١٥]. وقطع السكاكيني بأن لا صناعة تعدل التعليم. ولعل من غير المستغرب أنه جعل القرآن في مدرسته عامًّا بين المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء، لإيمانه بأن «المدرسة هي خير أداة للإصلاح، وخير عدة لرفع شأن البلاد»، على ما ذكر عنه المفكر الديمقراطي المصري المرموق، د.منصور فهمي[١٦]. أما السكاكيني نفسه فأكد بأن رسالته هي: «أن يكون التعليم، أولًا وطنيًّا، وثانيًا صحيحًا»[١٧].

أما هدف التعليم عند صاحبنا فهو توسيع المدارك، وتقوية العقل، لا حشوه بعلوم الأولين والآخرين، فيمتلئ، ولكن يبقى صغيرًا. ذلك أن الغرض الأول من التعليم، برأي مفكرنا، هو «خلق نوع جديد من البشر، يُعملون عقلهم في كل أمر». وقد حصر السكاكيني أهداف التعليم في السعي لتعزيز الملكات الأساسية للغة، كلامًا، وقراءة، وكتابة، ليس الهدف الإثقال على التلميذ بالحفظ، بل توسيع المدارك، وإنماء الفكر. فمنهاج الأدب، مثلًا، يتضمن موضوعات تثير في نفوس التلاميذ الحماسة، وتوسع آمالهم، وتكبِّر نفوسهم، وتحببهم بالحياة، وليس مادة تخدِّر الحواس، وتسفِّل الأهواء، وتولِّد اليأس، والخمول، والزهد بالحياة[١٨]. لذا انحاز السكاكيني إلى حرية المعلِّم في بلورة مناهج تستجيب لاحتياجات المكان، والزمان، والبشر، أي «حسب الحاجة، لا حسب التقليد»[١٩].

لقد آمن صاحبنا بأن التعليم ليس في مراكمة المعلومات، بل بالإفادة منها في الحياة، «نعلِّم طلابنا التاريخ، لا ليعرفوا التاريخ، ولكن ليكونوا مؤرخين، نعلِّمهم الأدب، لا ليعرفوا أصول الأدب، ولكن ليكونوا أدباء. نعلمهم اللغة، لا ليعرفوا اللغة، ولكن لينزلوا منها منزلة أهلها. ونعلِّمهم الرياضيات لتكون أدمغتهم رياضية...»[٢٠]. لذا نرى السكاكيني يلح في ضرورة الاعتناء بالذاكرة، والفهم، والانتباه، والملاحظة، ويصر على ألا يوضع التلميذ تحت ضغوط الامتحانات، كما دأب صاحبنا على المناداة بالتعليم الذاتي. بذل جهودًا مضنية لاستحداث أساليب تعليم للغة العربية، منطلقًا من أن اللغة وسيلة، لا غاية، وأن هدف الأساليب التعليمية تقريب اللغة إلى التلاميذ، وتحبيبها إلى نفوسهم. وقد أصاب صاحبنا في تحديد أهداف تعليم اللغة العربية في أربعة أهداف: الحديث، والسماع، والقراءة، والكتابة.

يتفق مفهوم السكاكيني هنا مع آخر ما وصل إليه علم التربية في هذا الصدد؛ فالقراءة عملية عقلية، تهدف إلى التعلُّم؛ لأنها مهارة تحصيل، بها يكتسب التلميذ المعارف، ويتدرب على التحليل، والتمييز، ويلتقي بالمُثُل، والأخلاق العليا، فيتشربها. كما تتفق أساليب صاحبنا في تعليم القراءة مع أحدث الأفكار في موضوع فهم المقروء، وكيفية تطوير المهارات لدى المتعلم. وتتضمن هذه المهارات قراءة النص، وفهمه، حرفيًّا، بكل تفاصيله، وثروته اللغوية، وفكرته المركبة، وتسلسله الموضوعي، والزمني، أو السببي، ثم محاولة قراءة ما بين السطور، لاستخلاص النتائج، وتفسير المشاعر، وتحليل الشخصيات، ومن ثَم القراءة النافذة، والقراءة الإبداعية، وفيها يحاول الطالب تقييم ما قرأ، والاستفادة منه في حل مشاكل مشابهة. وشدَّد مفكرنا على ضرورة تحويل القراءة إلى قراءة هادفة، فيعرف القراء لماذا يقرأون، ويتعلمون كيف يفهمون ما يقرأون[٢١].

في مجال تعليم قواعد العربية تبنى السكاكيني الأسلوب الخلدوني؛ الذي يقتصر على الشواهد، دون القواعد، حيث نبدأ بالمثل، لننتقل إلى الاستعمال، فيقاس الكلام بعضه على بعض، بحيث تصبح الملكة سليقة، لا قاعدة. ويؤخذ بهذا الأسلوب اليوم؛ إذ تثار المشاكل، ثم يبدأ التدريب، لتثبت القاعدة في أذهان الطلبة[٢٢].

لعل خير تطبيق لأفكار هذا المربي المتمكِّن تلك الأجزاء الأربعة من «الجديد في القراءة العربية»، التي ألفها السكاكيني، فأتت مستوفية الأصول التربوية الحديثة، مراعية الطريقة الصوتية الكلية، أي من الكل إلى الأجزاء، ومن الجملة إلى الكلمة. فالمقطع ثم الحرف، بحيث يتعلم التلميذ أصوات الحروف، ويربط بين الصوت والرمز، بما يمكنه، لاحقًا، من التأليف بين رموز تكوين أصوات تحمل معاني، وصورًا ذهنية، تُنقل بأوضاع حياتية قريبة من مفهوم التلميذ، وترتبط بتجاربه الذاتية، وخبراته السابقة، والممتعة، في الغالب[٢٣].

إن تقطيع «القراءة» يسهِّل على الطالب قراءتها، وفهمها، واستخدامها، فضلًا على الكتب المدرسية التي ألفها السكاكيني، وظفت الأدب، الذي عكس تراثًا حضاريًّا، عربيًّا، وعالميًّا، قديمًا، وحديثًا، ذا قيمة جمالية، وخالدة، كما راعى صاحبنا في «القراءة» ميول، واحتياجات، وقدرات المتعلمين. فالكتاب الجيد ـ برأي السكاكيني ـ هو الذي يجد فيه الطالب فائدة ومتعة، على أن يكون في موضوعه ولغته في مستوى التلميذ. ولهذا الغرض أصدر السكاكيني كتاب «الدليل»، بهدف إرشاد المعلِّم إلى كيفية اعتماد كتاب «القراءة».

نأتي إلى وظيفة المدرسة، حيث آمن السكاكيني بالعلاقة الإيجابية بين المدرسة المتطورة، وخلْق جيل جديد، يتحلى

بالمعرفة الوطنية؛ لذا أعلت مدرسة السكاكيني منزلة العقل، دون السطوة، في حل ما استعصى من المشاكل، وتلك أسمى معاني التربية الديمقراطية.

كان صاحبنا مؤمنًا بأن المدرسة هي المركز الأهم في عملية الخلق الجديد وفي عملية التحول المنشودة لمجتمعه، وبلده.

إلى ذلك طالب السكاكيني بتعليم الأطفال، دون السن القانونية، بإرسالهم إلى المدرسة.

أما المعلِّم، فقد اعترف السكاكيني بدوره الطليعي في العملية التربوية. حيث إن واجب المعلِّم إدخال الفرح إلى قلب التلميذ، وإحسان معاملته، وتحريره. كما رأى صاحبنا في المعلِّم الوسيلة لتحقيق أهداف التعليم. وأكد أن وظيفة المعلِّم تعزيز الطالب، لا إذلاله، «إذ ليس أكره إليَّ من أن تُساس المدارس بالعنف». وإذا ظهر عيب في الطالب، فإنه عيب المدرسة. وحذر صاحبنا بأن ليس ضمن وظائف المدرس أن يخرِّج للأمة «دراويش مطأطئي الرؤوس».

اللغوي والأديب

لقد تعددت المذاهب في تحديد مفهوم اللغة[٢٤]؛ فأصحاب المذهب الطبيعي رأوا أن اللغة كائن حي، فيما قال أصحاب المذهب النفسي بأنها ظاهرة نفسية، واعتبر أصحاب المذهب الاجتماعي اللغة ظاهرة اجتماعية، على أن السكاكيني أخذ بالمذاهب الثلاثة مجتمعة، كما ربط ـ محقًا ـ بين اللغة والقومية، لذلك وجدنا مفكرنا الكبير جزعًا لما أصاب العربية من ركاكة، وضعف.

على أنه رفض استخدام لغة البداوة؛ فاللغة ـ برأيه ـ يجب أن تتطور في أساليبها، أيضًا، وليس في ألفاظها فحسب. كما كان من المنطقي أن ينفر السكاكيني من ضروب البديع؛ لأنها لم تعد قادرة على التعبير عن العصر الحديث.

اللافت أن السكاكيني دعا إلى إلغاء القواعد، والاكتفاء ـ في المراحل التعليمية الأولى ـ بما يلي:

١ ـ أن يتبع أسلوب الجداول (التوابع/ النداء/ الاستغاثة/ والعدد).

٢ ـ أن نأخذ من القواعد ما نحتاج إليه في القراءة والخطابة.

٣ ـ أن نتبع تعدد القاعدة، لا توحيدها.

إلى ذلك طالب صاحبنا بأن تصبح العربية لغة التعليم في جميع المواد، وبأن تكون لغة الكتب المدرسية لغة صحيحة، وأن تتحلى المدرسة بالروح العربية.

نبقى في الميدان اللغوي، حيث اهتم السكاكيني بدراسة الأصوات، وخصائصها في اللغة العربية. ولاحظ أن أصوات حروفها واضحة صريحة، بعكس الكثير من الحروف اللاتينية، وأعاد صاحبنا الحروف الحلقية ـ التي تنفرد بها العربية ـ إلى البيئة الصحراوية، حيث أتاح هواؤها النقي حلقًا قويًّا، قادرًا على إخراج الأصوات. واكتشف السكاكيني العلاقة بين تلك الحروف الحلقية وبين أمزجة العرب، من حدة، وصراحة، ووضوح. بيد أن حلوق العرب ضعفت في عصر الانحطاط، والميل المتزايد للترف، فاستثقلت بعض الأصوات القوية؛ فليَّنوا القاف، وتحولت عندهم إلى همزة، وحذفوا العين من بعض كلماتهم («السا»، بدلًا من «هذه الساعة»)، واستبدلوا بالحركات القصيرة حركات ممدودة، بسبب من رخاوتهم («قُم»، حل محلها «أوم»)[٢٥].

لفت صاحبنا الانتباه إلى أن صوت الضمة والفتحة أصلح للغناء من صوت الخفض الثقيل، لسهولتهما؛ لذا يميل لفظ المناطق الباردة إلى الضم والخفض؛ لأن أهل هذه المناطق يتجنبون فتح أفواههم، تجنبًا للبرد، بعكس سكان المناطق الحارة الميالين لممارسة الزفير؛ ولهذا كثر الفتح في لغة العرب[٢٦]. كما لاحظ السكاكيني أن هذه «لا تخلو من نظرة عاطفية...نتيجة اعتزازه بلغة قومه».

غني عن القول أن السكاكيني أخذ بالنظرية القائلة إن بدء اللغات كانت محاكاة الإنسان للطبيعة؛ في أصوات رياحها، ومياهها، ووحوشها؛ حيث تراعي الحركة في أصوات، مثل: «فحَّت الأفعى»، و«شقَّ الثوب»، و«مصَّ الشراب»، و«حام الطائر»، و«سال الماء»، و«هبَّ النائم»، و«شبَّت النار». كما أشار صاحبنا إلى مدى قوة «إن» للتأكيد.

حين عرض السكاكيني التطور التاريخي للحروف الهجائية، أكد أن الخط قطع ـ قبل أن يصل إلى صورته الحالية ـ أربعة أدوات: التصوير الذاتي (بتصوير الحمامة، مثلًا)، والتصوير الرمزي (المحبة رمزًا للجماعة)، والدور المقطعي (حاء مفتوحة للدلالة على الحمامة)، وأخيرًا الدور الهجائي.

أديبًا ومؤرخًا

امتلك صاحبنا ناصية النثر بشتى فنونه؛ من المقال، والرسالة، والخطبة، إلى اليوميات. وكان لنزوله ـ مع أمثاله من كبار الأدباء العرب ـ إلى ميدان المقالة الأثر الكبير في إحياء الأدب، وتطوره.

أما الرسائل، فلعل أشهرها تلك التي وجهها السكاكيني إلى شريكة حياته، سلطانة، ثم إلى ولده، سرى. وقد اتسمت المجموعة الأولى بالرومانسية، فيما تضمنت رسائله إلى وحيده خلاصة خبرة الوالد بالحياة والبشر.

حين احتدت المعركة بين أنصار القديم وأنصار الجديد في الأدب، كتب صاحبنا في أسبوعية «السياسة الأسبوعية» القاهرية، يتهم أنصار القديم بالتكرار، والإسراف في المترادفات، على غير حاجة إليها، وعزا السكاكيني ذلك إلى ندرة الأفكار لدى أنصار القديم.

بسهولة، يمكن إدخال السكاكيني في عداد المؤرخين، إذ يكفيه أنه ضمَّن «كذا أنا يا دنيا» يومياته، وتأملاته في الشؤون العامة والخاصة على حدّ سواء. وتعود الدقة في يوميات السكاكيني هذه إلى حرصه على تسجيلها، أولًا بأول. كما أن صاحبنا قدم بهذه اليوميات بانوراما للأوضاع في فلسطين، غداة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، في كتابه «فلسطين بعد الحرب العظمى»، الذي ضم تلك المقالات التي نشرها في مصر، فيما بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٠، حول أوضاع فلسطين.

وبعد، فرغم تعدد مواهب ومهارات السكاكيني، فإن المربي كان هو الأساس. وأغلب الظن أن صاحبنا جاء إلى هذا العالم سابقًا لأوانه.

هوامش الفصل الأول:

(١) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا/ يوميات السكاكيني**، القدس، ١٩٥٥، ص٢٦.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٦٦.

(٣) **المصدر نفسه**، ص١٤٥.

(٤) خليل السكاكيني، **المجموعة الكاملة**، القدس، ١٩٦٢، ص٩١.

(٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٠.

(٦) **المصدر نفسه**، ص١٥١.

(٧) **المصدر نفسه**، ص١٧٢.

(٨) **المصدر نفسه**، ص٣٢٦.

(٩) **المصدر نفسه**، ص٦٥-٦٦.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص٢٨٤.

(١١) خليل السكاكيني، **ما تيسر**، الجزء الأول، المطبعة العصرية، القدس، ١٩٤٣، ص٦٧.

(١٢) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٤، ٢٣١-٢٣٢.

(١٣) السكاكيني، ما تيسر، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٣.

- السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٩، ٢٤٧، ٢٦٤.

(١٤) يوسف حداد، **خليل السكاكيني/ حياته، ومواقفه، وآثاره**، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين، ١٩٨١، ص٥١.

(١٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧١.

(١٦) مجموعة من الكتاب، **ذكرى السكاكيني**، القدس، ١٩٥٥، ص١٢٤.

(١٧) يعقوب العودات، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، عمان، ١٩٧٦، ص١٧٩.

(١٨) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١، ٧٢، ٨٤.

(١٩) **الشورى** (القاهرة)، ٤/ ١١/ ١٩٢٦.

أوردها: حداد، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٣.

(٢٠) السكاكيني، ما تيسر، **مصدر سبق ذكره**، ص٧-٩.

(٢١) خليل السكاكيني، **الدليل الثاني**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٣١، ص١٩-٣٣.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص٢٣١.

(٢٣) **المنتدى** (القدس)، ١/ ٣/ ١٩٤٤.

أوردها: حداد، **مصدر سبق ذكره**. ص٢٢٤.

(٢٤) عدا المراجع المشار إليها في هذا القسم، فقد استعنت، أساسًا، هنا بالدراسة القيمة للأستاذ عصام الشنطي، **خليل السكاكيني اللغوي**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧.

- نواف عبد حسن (إعداد)، **خليل السكاكيني بين الوفاء والذكرى الطيبة**، ١٩٩١. (انظر: أحمد حامد، خليل السكاكيني لغويًا وأديبًا، ص٥٧-٦٤)

(٢٥) السكاكيني، كذا...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٨-٦٩.

(٢٦) السكاكيني، المجموعة الكاملة، الجزء الثاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤.

obeikan.com

الفصل الثاني

عــارف العــارف مؤرخًــا

عصام الشنطي

توطئــة

في يوم صائف جميل، من أيام جبال القدس العليلة، أوائل شهر حزيران/ يونية من عام ١٩٥٤، وكنتُ قد تخرّجتُ في الجامعة منذُ عام، وأعمل في مدينة القدس، حضرتُ حفل تخرّج طلاب في دار المعلمين الريفية، الواقعة على الطريق بين مدينتي القدس ورام الله، وعلى مدخل الطريق المتفرِّعةِ والمؤدِّية إلى قرية بيت حنينا التي تبعد عن الدار، في الداخل، بضعة كيلومترات. وكان قد بنى الدار عبد الحميد شومان، مؤسس «البنك العربي» ورئيسهُ، وفاءً لقريتهِ. وأهداها لوزارة التربية والتعليم الأردنية، لتعمِّرها بالدراسة والتعليم الزراعي.

وإذا بخطيب الحفل عارف العارف الذي كان، آنذاك، رئيسًا لبلدية القدس، وكنتُ قد قرأتُ له بعض كتبه، ولكنني لم أنعم برؤيته، أو لقائه قبلِ هذا الحفل. كان بادي الحيوية، لم يجاوز عمره الستين إلاَّ قليلًا، مشرق الطَّلعة، جذَّاب الحديث، ينمّ عن أديب متمكن، وباحث رصين، واسع المعرفة، يشدُّ المستمعين إليه.

وزاد من انجذاب الحضور إليه طريقة تناوله الموضوع الذي رغب في طرحه، وأُسلوبه الذي أمتع الأسماع به. فَفَجَأنَا بحديثه عن تقدّم هذه البقعة المعقود فيها الحفل. وراح يفصِّل في ذلك تفصيلًا، جعلنا نندهش من هذه الصورة الأشبه بالخيال. فهي تتضمَّن مزارع نموذجية، وحدائق غنَّاء، وشوارع نظيفة، ومساكن للفلاّحين وثيرة، يعيشون فيها حياة ناعمة، ويتمتّعون برعاية صحية راقية، ويتعلم أبناؤهم جميعًا تعلّمًا متقدّمًا. واستخدم المتحدِّث بيانه الرائع، مستمدًّا ذلك من بلاغته وثقافته الواسعة، وتجاربه الثّرية، حتى وصل في الحديث إلى أنه كان نائمًا ويحلم، ثم أفاق فوجد نفسَه بين يدي دار المعلمين الريفية، فتنبّأ أن المنظر الذي رآه حلمًا، يمكن أن يتحقق بجهد هذه الدار، وجدّية برامجها، وسهر المسؤولين عنها.

منذ ذلك الحين عرفت هذا الرجل المقدسيّ على حقيقته، صورةً وجوهرًا. فهو أعظم من كتبه، مهما عظمت، واسع الآمال، مؤمن بالمستقبل. في الوقت الذي كانت فيه جروح النكبة عميقة في القلوب والجوانح. و كنّا نحيا فيها، لم يمضِ من الزمن عليها غير بضع سنين.

حياته وثقافته

وُلد عارف محمد العارف في مدينة القدس عام ١٨٩٢. وتلقّى تعليمه الابتدائي فيها. وشدَّ الرِّحال وهو فتى يافع إلى إستانبول، حيث أكمل دراسته الثانوية والجامعية عام ١٩١٣، أو نحوها، وتخصّص في الإدارة، والسياسة والاقتصاد.

وعمل بعد تخرّجه مترجمًا في وزارة الشؤون الخارجية العثمانية. وفي الحرب العالمية الأولى، ١٩١٤، جُنِّد ضابطًا في الجيش العثماني. وفي المعارك مع الروس أُسر عام ١٩١٥، ونُقلَ إلى سيبيريا التي قضى فيها معتقلًا نحو ثلاثة أعوام، عانى فيها كثيرًا من بردها الشديد، وحياتها القاسية، مع غربة وبُعد عن وطنه.

ولمّا نشبت الثورة الاشتراكية الروسية عام ١٩١٧، فرّ ورفاق له من العرب، في رحلة طويلة خطيرة. ولمّا وصل وصحبه فلسطين، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، وانسحب الأتراك من بلادنا، وبدأ في فلسطين حكم الانتداب البريطاني، عمل معلّمًا في المدرسة الرشيدية الحكومية.

ثم عُيِّن في عام ١٩٢٠، وما بعدها، قائمقام في مدينة جنين، ونابلس، ثم بيسان، ويافا، وبئر السبع، وغزَّة، ورام الله إلى أن انتهى الانتداب في عام ١٩٤٨.

وفي حكومة الأردن عُيِّن رئيسًا لبلدية القدس، ثم وزيرًا للأشغال العامة عام ١٩٥٥. وفي عام ١٩٦٧ عُيِّن مديرًا لمتحف الآثار الفلسطيني بالقدس.

أما وفاته فكانت سنة ١٩٧٣، بعد أن وفى من عمره ثمانين حولًا.

هذا هو الهيكل العام لحياة عارف، من تعليم وأعمال قام بها، ووظائف تسنَّمها. وبين حنايا هذا الهيكل نلحظ الشرايين تنبض بالحياة، وتكشف عن ثقافته ونشاطاته الأخرى، فضلًا على اهتماماته وتوجّهاته.

لقد شارك عارف العارف في الحركة الثقافية والفكرية في فلسطين، وكان من أعلامها المرموقين في القرن العشرين الميلادي.

وعُرف عضوًا بارزًا في الحركة القومية العربية، التي تنشد الاستقلال والوحدة، مع عدالة اجتماعية تهيب أفراد المجتمع بطبقاته كافة.

وسلك للوصول إلى هذا السبيل كل مسلك. وهو صاحب قلم وأديب، فالتحق، وهو في عنفوان الشباب، في إستانبول بالمنتدى الأدبي، وانتُخِبَ عضوًا في إدارته. وكان هذا المنتدى قد أنشأه العرب في العاصمة العثمانية، يهدفون من خلال نشاطه إلى استقلالهم ووحدتهم.

ولو أردنا أن نتعرّف إلى كنه شخصيته لأرشدنا إليه مفتاح هذه الشخصية المتمثِّل في التصميم والتحدّي، المُفضي

إلى الآمال العريضة، نحو مستقبلٍ أفضل. ونعدُّ من مظاهر هذا المفتاح سفره إلى إستانبول وهو فتى غضّ، يحمل شهادة الابتدائية، مصرٌّ على تخطّي عقبة المال لإكمال دراسته، بالعمل ليلًا في صحيفة تركية.

وكذلك عزمه على تعلّم غير لغة، فأتقن التركية (العثمانية) والفرنسية، بجانب اللغة العربية. وتعلّم في منفاه بسيبيريا الألمانية، وبعض الروسية. ومن فرْط نشاطه أصدر في المنفى صحيفة كان يكتبها بخطّه، أسماها «ناقة الله»، طابعها ثقافي فكاهي، ومعنية بنقد أوضاع المنفى.

وما فراره من المنفى مع رفاقه إلاّ من باب الإصرار والتحدّي، دون أن يتسرب اليأس إلى نفسه. ولمّا وصل إلى فلسطين شغلته القضية بدءًا من صدور «وعد بلفور» لإنشاء وطن قومي يهودي في بلاده. فأنشأ وصديقٌ له مقدسيّ صحيفة «سوريا الجنوبية»، عام ١٩١٩، شنَّ فيها حربًا على الصهيونية والانتداب البريطاني. وفي تسمية صحيفته إشارة إلى صلة فلسطين بسوريا خاصّة، ومن ثَمَّ بالعرب عامَّة. وبعد عام من صدورها، وعقب انتفاضة قومية عربية في فلسطين، أغلقت السلطات البريطانية الصحيفة، واعتقلته مع زعماء مقدسيين آخرين. وحين اقتادوه للمحاكمة العسكرية، هرب عارف العارف على قدميه، قاطعًا مسافة طويلة بين الجبال والفيافي، إلى أن وصل إلى شرقي الأُردن، واختفى بين قبائلها. وطفق البريطانيون يتعقّبونه دون جدوى، وكان قد حكموا عليه بالسجن عشر سنوات.

ولمّا ظهر، بعد ذلك، في دمشق، في عهد فيصل بن الحسين، شارك في المؤتمر السوري، وتقرّر فيه تأسيس «الجمعية العربية الفلسطينية»، واختير صاحبُنا أمينها العام.

وهكذا نرى أن حياة عارف العارف حياة زاخرة بالنشاط السياسي والفكري والثقافي. وكان في حركة دائبة، يحدوه الأمل في مستقبل أفضل لبلاده.

منهجه في مؤلّفاته التاريخية

إذا تعقبنا ما ألّف عارف العارف من كتب، وما صنَّف من مؤلَّفات، نجد أن جلَّها، إن لم يكن كلّها، تحدوها روح مؤرِّخٍ، باحثٍ منقّب، واسع المعرفة، يعالج مسائله بموضوعيةٍ، وإنصاف، بعيدًا عن هوى النفس وأطماعها.

وبلغ من ولعه بالتأليف التاريخي أن قَرَنَ عناوين كتبه بكلمة تاريخ، من مثل: تاريخ بئر السبع وقبائلها[١]، وتاريخ غَزّة[٢]، والموجز في تاريخ عسقلان[٣]، وتاريخ الحرم القُدْسي[٤]، وتاريخ القدس - الموجز[٥]، وتاريخ قبة الصخرة المشرَّفة والمسجد الأقصى المبارك[٦].

وكان يغلب على هذه الكتب ما يتطلّبه منهج التاريخ من تحليل، يكشف فيه عن طبيعة الأحداث التي يأتي على ذكرها، وظروفها، وأسبابها ودوافعها، إلى أن يخلص إلى استنباط نتائج هذا العَرْض والتحليل.

ويدهشنا من كتبه في التاريخ كتاب: تاريخ بئر السبع وقبائلها، الذي ذكرناه عمّا قليل، وألّفه عقب كتابه ذي العلاقة الوثيقة بقبائل بئر السبع، وهو كتاب «القضاء بين البدو»[٧].

ومنذ أن شرع في مقدمة الكتاب يستبين القارئ أن عارف العارف كان باحثًا مجلّيًا في بحوثه التاريخية. ففيه أخذ يذكر تاريخ كل قبيلة، وأصلها، وما رواه الثقات من أبنائها.

غير أنه لاحظ ـ في بعض الحالات ـ تناقضًا، أخضعه بحاسته التاريخية إلى إمعان النظر فيه بمِجهَر دقيق.

تساءل في كتابه، وناقش فيه مَنْ هم أعراب بئر السبع، ومن أين أتَوْا، وإلى أية قبيلة من قبائل الجزيرة العربية ينتمون، ومن أيّ بطن من بطون العرب الأوائل يتفرّعون؟ وهل هم حقًّا عرب أقحاح من الجزيرة، نزحوا منها إلى هذه الديار؛ وإذا كان هذا هو الواقع، فمتى حدث ذلك؟ ألم يختلطوا بأقوام حلّوا بالمنطقة كالكنعانيين والمصريين والعمالقة والفلسطينيين، وغيرهم؟

ويحاول أن يحسم الأمر بعد هذه التساؤلات التي تكشف عن روح تاريخية متميِّزة. ويقرّر أنه رجع إلى الكتب والأسفار، والأطلال والآثار، والأحاديث والأخبار. ونبّه أن المؤرِّخ الأصيل لا يأخذ كل ما وجده في مصادره على علاّته. وبصراحة يتحفظ على مسائل في مبحثه هذا يكتنفها الغموض، وتحتاج إلى تمحيص وتنقيح، ومجهَر أدقّ وأوفى.

ويزداد اندهاش القارئ حين يعود لمصادره التي رجع إليها، فهي مصادر فيها استقصاء، وفيها طول نَفَس، وصبر على استخلاص ما يفيده منها. وأعانه على تنوع مصادره اتقانه لغير لغة أجنبية كالإنكليزية، والفرنسية، والألمانية.

وختم كتابه بما في العادة يختم كتبه في التاريخ، وهو «بئر السبع في يومنا هذا»، يقصد سنة ١٩٣٣، وقد كان قائمقامها. وهو فصل رصد فيه واقع المنطقة، وسجّل أوضاعها ونشاطاتها المختلفة.

ومما يلفت النظر، أنه كان في بئر السبع ومنطقتها سبع عائلات يهودية، لا يتجاوز أفرادها العشرين، غادروها عقب الهبَّة الوطنية التي وقعت عام ١٩٢٩، وقد باعوا كل ما يملكون من مال ومتاع، ولم يعودوا إليها.

وفي كتاب له آخر، «تاريخ الحرم القدسي»، نلحظ ما يكشف عن بعض عناصر منهجه في مؤلَّفه هذا، يقول: «درست الموضوع دراسة مستفيضة. وهأنذا أضع ... كتابي ... مشتملًا على تاريخ الصخرة المشرَّفة، والمسجد الأقصى المبارك، وما بينها، وحولها من مبانٍ وآثار، مؤيِّدًا قولي، على قدر استطاعتي، بالصحيح من الأخبار، والثابت من الأسفار، وبالكتابات المنقوشة على الأبواب، والقباب، والمنابر، والجدران. ولقد توخيتُ، بقدر الإمكان، أن يجيء الكتاب في أسلوب تفهمه العامّة، وترضى عنه الخاصّة، وأن تتعاقب فيه الحوادث تعاقب السنين والأيام».

ويُقرُّ في هذه المقدمة أنه اعتمد على مصادر من التراث، مع بعض الحقائق التي قُدِّرَ له أن يطلع عليها بنفسه، وبعض الآراء التي دوَّنها من أجل إيضاح مسألة غامضة.

ويزيد عارف العارف منهجه في دراساته التاريخية وضوحًا، ويكشف عن الأهداف التي يتوخّاها في دراساته هذه، في كتابه «النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود»[٨]، الذي يعرض فيه منهجه بشفافية بالغة، وبأمانة ونزاهة. على أننا نلاحظ في العنوان أنه جعل الوطن بأكمله في كفة، وبيت المقدس في كفة مقابلة؛ لإحساسه أن العمود الأساس الذي يقيم بلادنا فلسطين هو مدينة القدس.

يقول في أول الكتاب[٩]: إنَّ هدفي من جميع بحوثي التاريخية هو الوصول إلى بيان الحقائق. وينبغي على المؤرِّخ أن يكون موضوعيًّا ومنصفًا، بعيدًا عن المصالح الذاتية والحزبية والقومية والدينية.

لقد وضع صاحبنا قواعد مفصَّلة عند تقييد الاحداث التاريخية، **أولها**: ألَّا تُرصَد حين وقوعها. وخير رصد للأحداث هو ما يُكتب بعد نحو ربع قرْن من الزمان، حتى تنجلي هذه الأحداث، وتتكشف حقيقتها، وتكون روايتها أقرب للصحة. وهي إشارة منه ذكية إلى ضرورة تجاوز ظاهر الأحداث كما يذكرها الإخباريون والإعلاميون.

وثانيها: أن يهتم المؤرِّخ بذكر أسباب هذه الأحداث ومراميها، وهي إضاءة للقارئ لمعرفة مجريات الأمور.

وثالثها: لا بد من ذكر مصدر هذا الحدث، هل هو شاهد عيان ثقة؟ وإن كان، فيفضَّل ـ إذا تيسَّر الأمر ـ أن يكونوا شهود عيان متعددين. أو هل هو وثيقة تدعم هذا الحدث وتؤيّده، أو مصدر من المصادر أو المراجع التي ينبغي على المؤرِّخ العودة إليها في كل حين.

ورابعها: أن يذكر المؤرِّخ هذه الأحداث بتاريخ وقوعها، مرتّبة ترتيبًا متعاقبًا، مرتبطة بالأحداث التي سبقتها، والأحداث اللاحقة لها.

وواضح أنَّ مثل هذا التمحيص والتدقيق في الكشف عن منهجه في الكتابة التاريخية يُرجِّح تأثره بعبد الرحمن بن خلدون(*) (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م) الذي وضع منهجًا للتاريخ، وأشاد به المؤرِّخ آرنولد توينْبي Arnold Toynbee (ت ١٩٧٥)؛ لأنه ـ بقوله ـ صاغ فلسفة للتاريخ.

لقد وضع ابن خلدون للمؤرِّخ شروطًا، منها أنه محتاج إلى معارف متنوعة، وحُسْن نظر وتثبّت، يُفضيان بصاحبها إلى الحق، ويُبعدانه عن الفهم الخطأ.

إن شمولية ابن خلدون مكَّنته من الفحص، والتحليل، واستعمال منهج «قياس النظير». ورأى أن المؤرخين، كالمسعودي مثلًا، كانوا يقعون في الخطأ والوهم؛ لأنهم اعتمدوا على نقل المبادئ، غثَّها وسمينها.

إن المبادئ التي وضعها ابن خلدون صدرت عن روح مؤرِّخ موضوعي منصف، ظهرت في كتابه المعروف «كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر ...»، سواء في مقدمته المشهورة، أو في سائر أحداث التاريخ التي تعرَّض لها في كتابه.

ونذكر ما ضربه ابن خلدون من أمثلة، كحكاية العبّاسة أخت هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م)، التي رأى أن توضع تحت المجهر، وأن يستخدم المؤرِّخ عقله ومنطقه حين يحلل مثل هذه الروايات. وانتهى منها أن التهمة التي أُلصقت بالعبّاسة كانت دسيسة موضوعة، وقد لُفقَتْ لأهدافٍ سياسية، وأغراضٍ شخصية.

الاهتمام بتاريخ القدس خاصّة

نالت مدينة القدس عناية عارف العارف البالغة، لا لأنه مقدسيٌّ فحسب، بل عدَّها ـ مع عروبتها وقدسيتها المميزة ـ المحور الأساس لقضية وطنه فلسطين. وهو الذي يعي، حقَّ الوعي، أطماع الصهيونية فيها، ومحاباة الإنكليز لهم في هذا السبيل. وكان من فرْط عنايته بقدسيتها أن ألف كتابًا في «تاريخ الحرم القدسي»[١٠]. وثنّى بكتاب بعنوان «المسيحية في القدس»[١١]. وظلت المدينة همه الأول، فأصدر كتابًا بعنوان «تاريخ القدس»[١٢]. وفي مقدمته بيّن أنه

(*) من المؤكد أن عارف العارف كان واسع الاطلاع والمعرفة، وأنه رجع إلى تاريخ ابن خلدون، فقد ذكره من مصادر كتابه «تاريخ القدس ـ الموجز»، ص ٣٠٧.

«الموجز في تاريخ القدس». ذلك لأن تاريخها المفصّل يعمل على تأليفه منذ عشر سنين. ويرجو أن يخرجه للناس في أربعة مجلدات(*).

وأصدر كتابًا خامسًا في نكبة فلسطين، دعاه «النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود» في سبعة أجزاء(**). وواضح أنه خصَّ في العنوان مع نكبة فلسطين، الحديث عن نكبة القدس خاصّة؛ لأنها ـ كما قلنا ـ المحور الأساس للقضية بأسرها.

وكان عارف العارف قبل وفاته ببضع سنين (عام ١٩٦٥) يضع الجزء الثامن لهذه الموسوعة، بعنوان «طريق العودة». وختم في سنة وفاته (١٩٧٣) بكتاب: «مآخذي على الحكم الإسرائيلي في القدس»(***).

وهكذا نلحظ أنه لم يتوقف عن التأليف نحو مدينة القدس خاصة، وفلسطين عامة، إلى أن فارق الحياة بجسده. كان دائب الإنتاج، غزير المعرفة نحو هذه القضية، التي كان يعرضها من باب التوعية القومية، وتثبيتًا لعروبة القدس، وسائر البلدان الفلسطينية الأخرى.

ونلحظ، أيضًا، أن كتبه حول القدس وفلسطين كان يحرص على إصدارها مترجمة إلى لغات أوروبية مختلفة، ليعرف الأوروبيون قاطبةً مدى فداحة ما تفعل الصهيونية ببلاده وأهلها.

إن هذه الجهود لم تَضِعْ، وبقيت ماثلة في وجدان الفلسطينيين خاصّة، وقدّرها قومه حق قدرها، فمُنحت روحه وذكراه الخالدة «وسام القدس للثقافة والفنون»، عام ١٩٩٠.

تاريخ القدس ـ الموجز

ذكرنا أنه وضع هذا الكتاب ونشره عام ١٩٥١. وفي مقدمته بيّن أنه «الموجز في تاريخ القدس». وفي آخر الكتاب عدَّه بمثابة الجزء الأول من تاريخ القدس؛ لأنه بدأ فيه من اليوم الذي بناها اليبوسيون (٣٠٠٠ ق. م)، إلى أواخر عهد الانتداب البريطاني (١٩٤٧).

أمّا الجزء الثاني فهو كتاب النكبة، الذي أتينا على ذكره عمّا قليل. وهي النكبة الحواشي التي ألـمَّت بكلٍّ من المدينة والبلاد، مبتدئًا من اليوم الذي صدر فيه قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧) إلى اليوم الذي يصدر فيه ذلك الجزء.

وحين ننظر في هذا الكتاب، وهو شامل لتاريخ المدينة، نجده قد عرضَ أبوابه، وذكرَ الحوادث التي قامت فيها على مرّ العصور، بأسلوب تاريخي مجمل وموجز.

يقول في شمولية كتابه، وفي تمحيصه وتدقيقه: إنه لم يترك بابًا إلاّ طرقه، ولا معبدًا إلاّ ولجه، ولا كلمة منقوشة على الأسوار، أو الجدران إلاّ أنعم النظر فيها، ولا كتابًا أو مخطوطًا، صُنِّفَ في تاريخ هذه المدينة، وسمع به إلاّ رجع إليه ينهل من معينه، ولا طللًا من طلولها البالية إلاّ وقف عليه يستنطقه الخبر.

(*) صدر بعنوان: **المفصّل في تاريخ القدس**، القدس، ١٩٦٢.

(**) عام ١٩٥٦ - ١٩٦٢.

(***) ط ، بيروت، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية.

وقال إنه جمع مادة الكتاب بروح موضوعية، بعيدًا عن الأهواء السياسية، أو المعتقدات المذهبية. واعتصم في كتابه بالحيدة. وذكر جميع الأمم التي استوطنت المدينة، وما فعلته فيها من خير وشر. وعُنيَ عناية خاصة بالإشارة إلى ما تركته هذه الأمم من طابع فيها، نافع أو ضارّ، دون أن يعبأ بإرضاء فريق، أو إغضاب آخر.

ومن أجل هذه الموضوعية و الحيدة كان يشير في الحواشي إلى المصادر التي استقى الأخبار منها، سواء كان حادثًا أو قولًا من الأقوال.

وفي الباب الأول أتى على ذكر القدس اليبوسية، وزمن الفراعنة، وبني إسرائيل، والآشوريين، والبابليين، والفرس، واليونان، والرومان، والبيزنطيين.

وخلصَ، بوضوح، إلى أن اليبوسيين هم بناة القدس، وفي عهدهم دُعيَت «يبوس». وهؤلاء عرب نبتوا في الجزيرة العربية، ونزحوا مع القبائل الكنعانية، وإن توطّنوا في هذه الديار، وكان ذلك منذ نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وكانوا أصحاب حضارة، وملكهم (ملكي صادق) هو الذي اختطها وبناها، وكان مسالمًا فعُرفَ بلقب (ملك السلام). ومن ثم عرفت المدينة باسم سالم، أو شالم. وزاد ملكهم اليبوسي في بنيانها، وشيّد برجًا على هضبتها الجنوبية للدفاع عنها، وعُرفت بعد ذلك باسمها الكنعاني (أور ـ سالم)، أي مدينة السلام، ونمت المدينة، لموقعها التجاري المتميِّز، يسندها جيشها وتحصينها. وتحلّق أناسها حول صنمهم الذكر (بعل)، ومعناه الرب.

وعند ضعف اليبوسيون، دَعَوا تحوتمس الثالث بمصر (١٤٧٩ ق. م) إلى أن يدخل البلاد ويدفعوا له الجزية، لقاء حمايتهم من غزو العبرانيين الذي عُرف عنهم أنهم كلما احتلوا مدينة أعملوا السيف والنار فيها، وفي سكانها. وبقيت القدس ومنطقتها تحت السيطرة الفرعونية دهرًا كان لهم فيها جيش يحمي طريق التجارة إلى مصر. ولم يحاول المصريون القدماء تمصيرها، بل اكتفوا بتحصيل الجزية من سكانها، بإزاء حماية طريق التجارة.

وخرج بنو إسرائيل من مصر، يقصدونها، ولم يفلحوا في الوصول إليها من الجنوب، فالتفوا إليها عن طريق جبال مؤاب بشرقي الأردن، فاحتلوا أريحا، ودكّوها دكًّا، وقتلوا من وُجد فيها من رجال، ونساء، وشيوخ، وأطفال(*). وكذلك بقية المدن والقرى في الطريق إلى «يبوس» التي استعصت عليهم، لشدّة مقاومة اليبوسيين لهم، وتحصين المدينة أمامهم.

وبعد حين دخلوها بقيادة يهوذا الذي احتلها وأشعل النار فيها، وقتل عشرة آلاف رجل من سكانها. ولكنه لم يلبث حتى خرج منها تحت ضغط اليبوسيين. وفي عهد داود (١٠٤٩ ق.م)، ملك بني إسرائيل، زحف من «حبرون» بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، ولقوا أول الأمر مقاومة اليبوسيين العنيفة. ثم حاول مرة أخرى فسيطر عليها، بعد أن سيطر على عين الماء التي تستقي المدينة منها.

لم يؤثر بنو إسرائيل باليبوسيين ومنطقتهم، لسبب بسيط، وهو أنهم كانوا أصحاب حضارة، وبنو إسرائيل يعيشون في خيام. فكان أن تأثر بنو إسرائيل بحضارتهم، وسكنوا بيوتًا بنوها كبيوت الكنعانيين، وخلعوا الجلود التي كانوا يلبسونها، ولبسوا الصوف كثياب الكنعانيين. وجعل داود المدينة عاصمة ملكه، وترك اسمها الكنعاني (أورو ـ

(*) سِفر يشوع، الإصحاح ٦، عدد ٢١ – ٢٥.

سالم)، وأسماها مدينة داود. وأراد أن يحسِّن صورته أمام شعبه الذي سخط عليه، فاشترى من (إرنان اليبوسي) أرضًا كانت تستخدم بيدرًا للحبوب، وشرع في بناء الهيكل، ولـمّـا توفي قبل أن يتمَّه تولى سليمان الملك بعده، وأتمَّ الهيكل (١٠٠٧ ق. م). وفي عهده نمت المدينة وازدهرت، وصاهرَ فرعونَ مصر ليأمن شرَّه. وبعد موته اقتتل ابناه، غير الشقيقين، فانقسمت المملكة إلى شطرين: (يهوذا) وعاصمتها أورشليم، و(إسرائيل) وعاصمتها شِيكِيم (وهي نابلس). وفرض كل منهما على شعبيهما الضرائب الباهظة ليتغلّب على خصمه. ومُنعَ شعب شطر (شيكيم) من زيارة أورشليم.

وظلت أورشليم، بعد ذلك، أربعة قرون يحكمها اليهود، قضوها في حروب مع مصر وشطر (شيكيم). وفي ثورات، ومؤامرات، وشغب، وقتال.

وفي عهدهم غزا البابليون أورشليم، فافتتحها نبوخذ نصَّر، ودك سورها، ودمَّر هيكل سليمان، وقَتل منهم من قتل، وسبى جميع الأحياء، وأرسلهم إلى بابل، بمن فيهم ملِكهم. وانقرضت مملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق. م.

ولـمَّـا جاء الفرس سمح كورش، ملكهم وقد تزوج بيهودية، بأن يعود من يرغب من اليهود إلى أورشليم. وعاش من عاد إليها كطائفة دينية، يرأسها كاهن، دون أن يكون لهم كيان سياسي البتَّة.

وبمجيء بومبي ـ إمبراطور الرومان ـ احتلَّ المنطقة بأسرها ، وقضى على حرية الشعب اليهودي قضاء تامًّا ، ومن ثمَّ عاش اليهود بعد ذلك في ظلِّ الشعوب والأمم الأخرى .

و ظلَّت العلاقة متوترة بين الرومان واليهود. ففي عهد الوالي الروماني بيلاتوس (٢٦ – ٣٦ م) صُلِبَ من يعتقدون أنه السيد المسيح. ووَصَفَ هذا الوالي اليهودَ بقوله: إنهم يضحّون بكل غال ورخيص في سبيل مصلحتهم. ووَصَفَ يورو سالم ـ بسبب أفاعيل اليهود ـ بأنها «عش الدسائس والفِتَن».

وكان الرومان تارة يُنزلون باليهود أشد العقاب، وطورًا يجنحون إلى الرأفة. ولـمَّـا ساد الشرُّ من فئة اليهود، وعمَّ الفسق، وفُقِدَ الأمن، تقرر أن يقضي الرومان عليهم قضاء مبرَمًا، فحاصرَ تيطس المدينة (٧٠ م) بجيش لجب، فيه فرقة من العرب، وقَتَل من سكانها خلْقًا كثيرًا، وحَرَق الجندُ الهيكلَ، ودُكَّت الأسوار، وهُدِمَت المنازل، وامتلأت الشوارع بجثث القتلى. وأصاب اليهود على يد تيطس ما أصابهم من ذُلٍّ وهَوَان. وحُرِّمَ على اليهود الرجوع للمدينة، وبقي فيها المسيحيون، وحاميتها الرومانية.

ولمَّا استمرَّ الشَّغَب من اليهود، وتولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧- ١٣٨ م) اعتزم أن يَقضيَ على اليهود، فقتل من اليهود عددًا كبيرًا، ومن لم يُقتل طُرد من المدينة، وتشتّت اليهود، بعدئذٍ، تحت كلِّ كوكب. ولكي ينسى اليهود يورو سالم أمر أدريانوس بتدميرها.

ثم أُتبعت المنطقة لبيزنطة، وتولّى قسطنطين العرش وتنصَّر. وزارت أُمه الملكة هيلانة إيليا (بديل يورو سالم التي دُمِّرَت) وبنت فيها كنيسة القيامة (٣٣٥ م)، وخرَّبَت البناءَ من بقايا الهيكل، وجعلته مكانًا لقمامات البلد، استهانة باليهود. وعَقد المؤلِّف الباب الثاني للفتح الإسلامي. وذكر من الأحداث ما نعرف في مصادر التاريخ ومراجعه. ودخـل العرب إيلياء (القدس) سِلْمًا، وأعطى عمر بن الخطاب لأهلها أمانًا مكتوبًا، عُرِفَ بالعهدة العُمَرية، أُرِخَّ

سنة ١٥ للهجرة. ويلفت النظر إلى ما ورد فيه: «ولا يسكن بإيلياء معهم (أهلها من النصارى) أحدٌ من اليهود». وهذا شرط اشترطه أهل إيلياء.

وفي عهد الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ م) أمر بإخراج اليهود من بيت المقدس، لـمَّـا أحس بنيَّتهم نحو المدينة.

ولـمَّـا حكم كافور الإخشيدي ذكرت المصادر أن اليهودَ في عهده عاثَوا فسادًا، وخرَّبوا وهدموا بعض الأماكن فيها.

وفي عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون (٢٨٠م)، وهو من المماليك، أصدر مرسومًا قضى بألاّ يُستخدم في الدولة أحد من أهل الذِّمَّة ـ اليهود والنصارى ـ فصُرفوا عنها عام ١٢٨٥ م.

ولـمَّـا تولى الحكم سلطانُ المماليك قايتباي (ت ١٤٩٥ م) قام خلاف شديد بين المسلمين واليهود حول دار واقعة في حارة اليهود، بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين. وكان حكم قضاة المدينة ومشايخهم في صالح اليهود. ولـمَّـا رفع المسلمون أمرَهم إلى السلطان بمصر نقض حكمَ القضاة، ثم عاد فانصاع لإلحاح اليهود، وأصدر أمرَه في صالحهم. وشاعت حينئذٍ في القدس شائعات تقول إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية، وثار المسلمون، وهدموا الكنيس، فغضب السلطان غضبًا شديدًا، وأمرَ بإحضار زعماء المدينة إليه، وأُرسِلوا مصَفّدين بالأغلال، وهناك ضُرِبوا، وسُجِنوا، ولم يُطلَق سراحهم إلاّ بعد أن هدأت الفتنة.

وهكذا، في حَيْدة واضحة، يعقد المؤلِّف بابًا في الفتح العثماني، وإبراهيم باشا في القدس، وبابًا آخر للاحتلال البريطاني، إلى أن أتى إلى «وعد بلفور» الذي منحه الإنكليز، يمثّلهم وزير خارجيتهم اللورد بلفور إلى اليهود، بوساطة زعيمهم روتشيلد، بتاريخ ٢ تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩١٧م. وبقي هذا الوعد سرًّا لم يُذعْ إلاّ بعد أن احتلّ الإنكليز القدس في ٩ كانون الأول من العام نفسه، ووضعَت الحربُ أوزارَها، و لم يعُد الإنكليز في حاجة لرضا العرب أهل البلاد.

ويتلو المؤلِّف الأحداث حدثًا حدثًا، إلى أن عَيَّنَت إنكلترا السير هربرت صمويل مندوبًا ساميًا على فلسطين. ونزل القدس بحراسة الدبَّابات، خشية أن يغتاله العرب، فهو يهودي إنكليزي، ومن أقطاب الحركة الصهيونية.

وفصَّل عارف العارف فيما وقع من حركات ثورية من قِبَل العرب ضد الصهيونية والإنجليز. وبقي الإنجليز يمكّنون اليهود من فلسطين، بشتّى الوسائل إلى أن انتهى الأمر بتسليم البلاد إلى الصهيونية، وأعلن قيام دولة إسرائيل ظلمًا وعدوانًا.

وبعد هذه الأبواب المعالجة للأحداث السياسية، يعقد المؤلِّف أبوابًا في أخبار القدس، في مختلف العصور: أسمائها، وأسوارِها، ومياهِها، وما تعرّضت له من زلازل.

ويلفت النظر استعراضُه أسماء القدس، منذ نشأتها الكنعانية إلى منتصف القرن العشرين. وقد تنوّعت مصادره من إنجليزية إلى مصادر من التراث العربي، كمعجم البلدان، لياقوت الحموي، وتاريخ ابن عساكر، وكتب أُلِّفت في فضائل هذه المدينة. وفي حالات أخرى يردّ على أقوال مجتهدين معاصرين. وكان يصوِّر، في هذا كله، عن اتساع معارفه، وكونه يملك روحَ مؤرِّخٍ متمكِّنٍ حقًّا.

وعقد في الباب السابع مادة نفيسة بعنوان: القدس كما رأيتها في أواخر عهد الانتداب البريطاني، عام ١٩٤٧م. وقد حوى الباب مادة وفيرة وقيّمة عن القدس، أهميتها التاريخية، وموقعها الجغرافي، وهو استقصاء وافٍ، وسجل لأمور القدس المتنوعة في ذلك الحين، خاصة أن إسرائيل في العقود الأخيرة أخذت بخطًى حثيثة نحو تهويد المدينة في مناحيها كافة.

أمَّا بابه الأخير فيختمه بذكر الأماكن المقدّسة، ودور العبادة من يهودية ومسيحية وإسلامية. وفيه تجلّى المؤلِّف بمعلومات مكثفة وشاملة. وبهذا جاء الكتاب بمثابة سجل أمين لتاريخ القدس، من أقدم العصور، إلى ما كانت عليه عام ١٩٤٨م، وهو انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين.

الخاتمة

مهَّدتُ للبحث بتوطئة تكشف عن معرفتي بعارف العارف، ولقائي به في القدس، في صيف عام ١٩٥٤م، وخرجتُ بانطباع أنه شخصية مقدسية فذَّة، أعظم من كتبه مهما عظمت، يفتِّح لمستمِعِهِ أبوابَ الأمل على مصاريعها، بالإصرار والعزيمة، مهما اشتدَّ الضيق، وأطبق الظلام.

واستعرضتُ هيكل حياته وثقافته. فوجدناه بادي الحركة والنشاط على الأصعدة السياسية، والفكرية، والثقافية، طوال الثمانين حولًا التي عاشها. ووضعتُ يدي من خلال إعدادي للبحث على مِفتاح شخصيته، المتمثِّل في التصميم والتحدّي. وقد تسلَّح بتجارب مختلفة، ومعارف واسعة، وأتقنَ غير لغة من لغات الشرق والغرب.

وبيَّنتُ ولعه ببحوثه التاريخية في غالب مؤلفاته. وكشفتُ منها عن منهجه في كتابة التاريخ. وأعانني في ذلك أنه في مقدمات كتبه كان يذكر بوضوح طريقته في التأليف التاريخي، ومنهجه الذي وضع له الضوابط، وألزَمَ نفسه بها. و كان يتوخّى في مؤلفاته التاريخية الموضوعية والحيْدة، والنزاهة، معتمدًا على أوثق المصادر، وأصدق المراجع، يعينه في ذلك، على نحو ما ذكرنا، من إتقانه غير لغة أجنبية. وربطتُ بين هذا المنهج، وما كان قد دعا إليه ابن خَلْدون في تاريخه الشهير ومقدمته ذائعة الصيت، والتي نالت عند العلماء قاطبة أعلى المراتب.

وتوجَّه المؤلِّف في كتبه التاريخية إلى تاريخ كثير من المدن الفلسطينية بعامَّة، والقدس بخاصَّة؛ لأنها العمود الأساس الذي ترتكز عليه بلادنا، ولكي يبقى تاريخ هذه المدن ماثلًا في أذهان الفلسطينيين والعرب، وكذلك ذكراها.

كثَّفتُ الحديث حول كتابه «الموجز في تاريخ القدس»، وكيف أنشأها اليبوسيون، وهم عرب أصحاب حضارة. وكيف احتلها العبريون الذين عُرفوا في التاريخ بالإيغال في التقتيل، وسفك الدماء، والتحريق والتخريب، وإثارة الفتنة والفوضى. وكيف أثاروا حفيظة كثير من الحكّام آنذاك، فنبوخذ نصَّر البابلي فتك بهم في القدس، ومن نجا منهم ساقه أسيرًا إلى العراق. وفعل الرومان بهم الأفاعيل، من كثرة ما نشروا في القدس من فِتَن، وأشاعوا من مظاهر التخريب.

ونذكر أن الوالي الروماني بيلاتوس، الذي صُلب من يعتقدون السيد المسيح في عهده، وصف اليهود بقوله: إنهم يضحّون بكلِّ غالٍ ورخيص في سبيل مصلحتهم. ووَصف يورو سالم بسبب أفعال اليهود فيها بأنها عُشُّ الدسائس والفِتَن.

ولم ينسَ المؤلِّف، بعد أن ذكر الأحداث السياسية، أن يرصد أخبار القدس، في مختلف العصور. وفي آخر المطاف عقد بابًا في القدس كما رآها، وعرفها في منتصف القرن العشرين. وقد حوى الباب مادة وفيرة عن ظروف القدس وأحوالها المختلفة، الأمر الذي يدعو إلى العودة إلى الباب وقراءَته بدقة وتمحيص، بإزاء ما طرأ عليها من تهويد أحيائها في الداخل، وكذلك محيطها الواسع في الخارج.

حقاً، لقد صدق مَن عَدَّ التاريخ معملًا للتجربة الإنسانية وأطماعها. لقد اتَّضح صدق هذه المقولة في ثنايا أحداث مدينة القدس، وتضاعيف قضية فلسطين، كما أتى على ذكرها عارف العارف، في حَيْدة تامَّة، وموضوعية مدْهِشة.

* * *

هوامش ومراجع الفصل الثاني:

(١) **القدس**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الإنكليزية والألمانية، وفصول منه إلى العبرية.

(٢) **القدس**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الألمانية والعبرية والإنكليزية.

(٣) **القدس**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الألمانية والعبرية والإنكليزية.

(٤) **القدس**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧ م. وتُرجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية.

(٥) **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥١. وتُرجم إلى الإنكليزية «المطبعة التجارية بالقدس، ١٩٥١»، والفرنسية.

(٦) **القدس**، ١٩٥٥. ولعله طبعة جديدة من: تاريخ الحرم القدسي.

(٧) ط، ١٩٣٣.

(٨) عارف العارف، النكبة: **نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود**، سبعة أجزا ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٩٥٦ - ١٩٦٢.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣ - ٦.

(١٠) عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

(١١) عارف العارف، **المسيحية في القدس**، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، ١٩٥١. وترجم إلى الإنكليزية والفرنسية.

(١٢) عارف العارف، **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١.

(١٣) عارف العارف، **تاريخ بئر السبع وقبائلها**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٤م.

(١٤) د. تيسير الناشف، **مفكِّرون فلسطينيون في القرن العشرين**، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨١م.، ترجمة عارف العارف، ص ٣٠ - ٤٩.

(١٥) محمد عمر حمادة، **موسوعة أعلام فلسطين**، دار الوثائق، دمشق، ط ١، ٢٠٠٧م، ترجمة عارف محمد العارف، الجزء الخامس (ع - غ)، ص ٢٢ - ٢٥.

obeikan.com

الفصل الثالث

إدوارد سعيد... الوطن في العينين

د. عفاف عبد المعطي

يظهر مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي وقد تنوعت مشاربه بين السياسة التي اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها، بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبي، وجماليات الفنون . يلخص هذا المشروع ـ باعتباره أستاذًا للأدب المقارن ـ كتاب «الاستشراق»، ١٩٧٨، الذي يُعرفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم يكن الشرق لصيقًا بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا، وأغناها، وأقدمها، ومصدر حضارتها، ولغاتها، ومنافسها الثقافي. ثم كتاب «الثقافة والإمبريالية»، الصادر بعده بخمسة عشر عامًا (١٩٩٣)، الذي يقدم أجوبةً لأسئلةٍ أثارها كتاب «الاستشراق»؛ حيث يرفض الفصل الـمُطلق بين الأبيض، وغير الأبيض (أي الغرب ومن سواه)، بوصف هذا الفصل أسطورةً من الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها، كما لـخَّص إدوارد سعيد وضع عالمنا، بوصفه عالـمًـا من المشاركة، والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها، ونزعاتها من الثراء ما يمتلكه التاريخ الإنساني نفسه، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناه الروابط العميقة، والحيوية بين العرب والغرب، واليابان، والصين، وأفريقيا، هذه العلاقة التي تفوق، في عائدها، وخصوبتها، ما ينفي المقولة المعروفة المتخيَّلة، التي تفترض أنه وضع غربي شرقي، «نقي صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض»، فالموقف الفكري في «الثقافة والإمبريالية»، الذي ينطلق منه إدوارد سعيد، ينبع من إيمان عميق بالإنسان، والحرية، وضرورة التواصل، والتفاعل، والإثراء المتبادل بين الثقافات، والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية، والاستعمار، والهيمنة، والتسلط، والتمركز الغربي، وضد نقائضها من قوميات ضيِّقة، وهويات متشرنقة، وتمركز إسلامي، أو عربي، أو أفريقي. لذا، يشكل إدوارد سعيد ظاهرةً قابلة للتأمل، أكثر منها للتأويل، ويلاحظ المتأمل أن فكر إدوارد ثنائي التركيب، يظل مفتوحًا على العالم، بعيدًا عن أحادية المكان والزمان، ولعل من أبرز ملامح ظاهرة

إدوارد سعيد أننا يجب أن نتساءل بعد مرور أربع سنوات على رحيله؛ ما الذي تبقى من إدوارد سعيد؟ ولماذا تصدر عنه الكتب حتى الآن؟

بداية لقد حول إدوارد سعيد، نفسه، الفردية إلى ذاتٍ جماعية، التحمت بالعالم العربي، وقضاياه، خاصة فلسطين، التي تمثل للجميع وجعًا حقيقيًّا، ثم ارتقت ذات إدوارد سعيد إلى أسمى درجات التمثيل، فلم تعد فلسطين، بحدودها الجغرافية، والتاريخية، هي شغله الشاغل فحسب، بل لقد نجح إدوارد سعيد في وضع فلسطين على خارطة العالم، كما يشهد الجميع، وكذلك مواقفه السياسية، خاصة إبان اختلافه مع القيادة المتنفِّذة في منظمة التحرير الفلسطينية، ومن ثم هجومه على سياساتها (كتاب السيف والقلم ـ حوار مع إدوارد سعيد). لقد أصبح إدوارد سعيد منذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٩١ واحدًا من أبرز المناهضين لما يُسمّى بعملية السلام، وظل صوتًا منفردًا للمقاومة، وسط جو استسلامي يائس. ويَعتبر سعيد أن الثقافة من أهم الوسائل لمحاربة الذوبان والإلغاء. ولعل أروع ما في إنتاجه الفكري، هو أن معارف الكون التي أصبح فارسها قد تحولت على يديه إلى أدواتٍ طيِّعة، تُشهد العالم على ما حلّ بفلسطين من ظلم، وقد نحت إدوارد سعيد، بموهبته الخارقة، صورة كونية لفلسطين، بحيث غدت راسخة الأقدام، ثم جعلها تسافر في أرجاء المعمورة، مجسِّدة صورة المظلومين، والمقموعين، والمشردين، والمحرومين، والمنفيين. صورة يمثل الفلسطينيون فيها نموذجًا لضحايا الظلم، والقمع، والتشريد، والحرمان، والنفي. واستطاع إدوارد أن يجعل الصورة تتخطى حدود العِرق، واللغة، والدين، والتاريخ، والجغرافيا. وعندما سأله ديفيد بارساميان (مدير محطة «الراديو البديل» في كولورادو، وصاحب كتب حوارية عدّة مع تشومسكي، وإدوارد سعيد، وطارق علي)، في كتاب «الثقافة والمقاومة»، عن سر حماسه منقطع النظير للفلسطينيين! أجاب بأنه إنما يتحمس للمظلومين، ولو صادف أن رُفع الظلم عن الفلسطينيين، وانتقل إلى اليهود، لتحوّل حماسه لنصرة المظلومين الجدد، أينما كانوا. فهو إذن ينحاز إلى نصرة الحق، ويقف في وجه الظلم، ويسافر في سبيل ذلك إلى حيث يُسلب الحق، ويخيِّم الظلم، بغض النظر عن هوية المظلومين.

كذلك عندما نتأمل اهتمام إدوارد سعيد البالغ بالعالم، أو الكونية، فإننا نجد أن هذا الاهتمام يُشكّل مرتكزًا أساسيًّا في فكره، وحياته، وقد عبّر عنه في المقال الذي كتبه، في أوائل الثمانينيات، تحت عنوان «العالم والنص والناقد»، والذي أضحى، فيما بعد، عنوانًا لكتاب لا يزال النقاد والأدباء والمفكرون يتخذونه نموذجًا يُحتذى به في الفكر، والأدب، والنقد. ويمكن تلخيص فكرة إدوارد سعيد الأساسية في هذا الكتاب بالقول إن النص الأدبي، أو اللغوي، أو الثقافي، لا يولد من فراغ، ولا يعيش في فراغ، ولا يحدوه أو يحدده ظرف مُعيّن، يرتبط بسيرة المؤلف، وبتاريخ مجتمعه، أو بروح العصر، أو حتى بشكلانية اللغة، أو بجماليات الأدب؛ أي أن النص لا يثبُت في مكان، أو زمان، أو شخص مؤلفه، أو سوسيولوجية مجتمعه. وفي الوقت ذاته لا ينكر إدوارد سعيد على المؤلف الأدوات الماهرة التي يستخدمها في بناء النص، بما في ذلك الكفاءة اللغوية المتميِّزة، والجماليات التي تنجم عن هذه الكفاءة في النهاية، وهو لا ينكر، أيضًا، فردية المؤلف، وتميُّزه؛ إلا أن القضية عند إدوارد سعيد تتجاوز بكثير كون اللغة نظامًا يتطلب منا أن نكشف النقاب عنه كما اعتقد البنيويون، ومن قبلهم الشكلانيون، وهي، أيضًا، أوسع مدًى من تبرئة النص من كل ما هو خارج التركيب اللغوي من سيرة، وتاريخ، وسوسيولوجيا، كما أكّد لنا أصحاب النقد الجديد، وهي قضية تتعدى اهتمامات النقد العلمي، أو التطبيقي، الذي يحصر مهمة النقد في استخراج جماليات الأدب.

مـن الجانـي؟

من اللافت أنه لا يزال صدور الكتب عن إدوارد سعيد، وكذلك له، حادثًا، منذ وفاته. آخر ما صدر عنه كتاب «إدوارد سعيد .. رواية للأجيال»، لأستاذ الأدب الإنجليزى الأردني المعروف د. محمد شاهين[1]، مرصعًا بمقولة لمحمد حسنين هيكل، عن سعيد «إنه يبدو بوجهه المليء بمعاناته النبيلة شبيهًا باللوحات العظمى، التي تُجسِّد آلام السيد المسيح».

الفكرة الأساسية في الكتاب تقوم على الرد على كل المحاولات التي دأبت على التنكيل بإدوارد سعيد، والتشكيك في مواقفه السياسية، خاصة بعد ظهور كتابه التأسيسي «الاستشراق»، حيث أصبح إدوارد مستهدفًا، عندما قلب معايير المستشرقين التقليدية، وأسَّس مدرسة فكرية جديدة طوّرت مفهومًا جديدًا للعلاقة بين الشرق والغرب، بعد أن فندت مزاعم المستشرقين، التي كانت في أغلبها امتدادًا للاستعمار نفسه. ولا تغفل الذاكرة المناظرة الشرسة التي تلت ذلك، والتي ضمتها صفحات مجلة «نيويورك ريفيو» الأمريكية المشهورة، بين إدوارد سعيد من جهة، وكبير المستشرقين، برنارد لويس (صاحب كتاب «إنجيل برنابا» المهم)، من جهةٍ أخرى، والتي أدت، في النهاية، إلى بزوغ حجة إدوارد سعيد، وانتشارها في العالم الغربي، ومن ثم العربي، وأفول نجم برنارد، خاصة بعد أن قلب كتاب «الاستشراق» معايير المستشرقين المعروفة، وأسس مدرسة فكرية جديدة، طوّرت مفهومًا جديدًا للعلاقة بين الشرق والغرب، بعد أن فنَّدت مزاعم المستشرقين، التي كانت، في أغلبها، امتدادًا للاستعمار نفسه، منذ أن بات إدوارد سعيد يعيش في أمريكا، وهو يحمل هوية غير رسمية، يشار إليها في العالم الأنجلو - سكسوني، بحروف ثلاثة، تكون كلمة (Wog)، الحرف الأول منها يشير إلى غربي، والثاني شرقي، والثالث إلى جنتلمان، وهي هوية يتحلى بها عشرات الآلاف من المثقفين الشرقيين، الذين يفدون إلى أوروبا، ويحصلون على ثقافة مرموقة، ويظل الحرف الأوسط (Oriental) يدمغ هويتهم، تمَيِّزًا لهم عن الغربي (Western). أما الحرف الأخير، فهو الذي يُكوِّن حلقة الوصل الهشّة في هذه الهوية، ولكن دون أن يتساوى الجنتلمان الغربي الأصلي، مع الجنتلمان الشرقي، الذي يعد طارئًا على الثقافة. و(Wog) مصطلح نحته الاستعمار، ربما للمحافظة على النقاء العرقي الأوروبي، وإبعاد تهمة اللاسامية عن الغرب، وكأن هذه التسمية، أو هذا التصنيف، مصالحة بين العالمين.

عاش إدوارد سعيد في أمريكا، منذ أن وطأت قدماه في المدرسة الثانوية، هوية (Wog)، وهي كما عاشها إدوارد، بطريقته الخاصة المؤلمة، هوية منفى مُركّب، أو منفى في داخل منفى، وقد تحدث عنها، بمرارة، في مناسبات كثيرة، مشيرًا إلى أنه منفي عن هويته العربية الإسلامية، ومنفي، أيضًا، عن هوية اسمه، (إدوارد) الـ(Wog) (يظهر التناقض الواضح)، ومنفي عن الثقافة التي اكتسبها، على مدى السنوات، في أعرق جامعات العالم، والتي لم تؤهله في نظر المجتمع الأمريكي لأن يكون واحدًا من أفراد المجتمع، الذي يدخل الناس هويته أفواجًا. وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن قامت حرب عام ١٩٦٧ التي فجّرت داخل إدوارد سعيد طاقات الغضب، والشعور بالغبن، وهنا كانت نقطة التحول في حياته.

الإطار الفلسفي لنزعته الإنسانية

من أهم الأشياء التي يمكن أن تؤدِّى إلى الكاتب هي جمع شتات ما كتب قبل رحيله، وإصداره بعده؛ من ذلك كتاب «الأنسنية والنقد الديمقراطي» (ترجمة فواز طرابلسي - دار الآداب ـ ٢٠٠٦)، والكتاب يحوي ثلاث

محاضرات، ألقاها إدوارد سعيد في جامعة كولومبيا، في يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٠، ثم توسعت المحاضرات، فأضاف إليها سعيد محاضرة رابعة، خلال شهري أكتوبر/ تشرين الأول، ونوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢، وقد ساعد على ذلك تغير المناخ السياسي العالمي، بعد أحدث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، التي أطغت مناخًا سياسيًّا متغيرًا على الولايات المتحدة، وعلى سائر العالم، بنسب متفاوتة، فالحرب ضد الإرهاب والحملة العسكرية على أفغانستان، والغزو الأنجلو ـ أمريكي للعراق، كلها خلقت عالـمًـا من العداوات المتصاعدة، وموقفًا أمريكيًّا أكثر عدوانية تجاه سائر دول العالم، كما أورثت إدوارد سعيد ـ ذو الخلفية الثنائية الثقافية ـ نزاعًا أكثر احتدامًا بين ما يُسمّى «الغرب» و«الإسلام»، وهما عنوانان ـ حسب إدوارد سعيد ـ مضللان، ويصلحان لأغراض تعبئة الأهواء الجمعية، أكثر منهما للفهم الواضح، باستثناء إذا جرى تفكيكهما، تحليليًّا، ونقديًّا. ذلك أن الثقافات تتعايش، وتتفاعل، على نحوٍ مثمرٍ فيما بينها أكثر مما تتقاتل.

وقد اختار إدوارد سعيد تعبير «الأنسنية» للدلالة على المذهب الفكري الذي يقول ـ تبعًا لأفكار النهضة الإيطالية ـ إن الإنسان هو أعلى قيمة، وفقًا لقواعد، في مقابل أن «الإنسانيات» هي دراسة تعنى باللغات، والفنون، والآداب، والتاريخ. في معنًى أكثر حصرًا، فالإنسانيات هي دراسة المؤلفات الكلاسيكية، الإغريقية والرومانية، أما «الإنسانوية» فتُستخدم للدلالة على الميل، أو النزوع إلى الإنسانية، أو ادعائها، خاصة وأن أمريكا ـ بما أنها القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم ـ تطرح على المفكّر الأنسني (المفكر في مفهوم الأنسنة، كما أشار إليه) تحديات، ومطالب خاصة مختلفة عن تلك التي تطرحها أية أمة أخرى، على أن الواضح ـ مع ذلك ـ أن الولايات المتحدة، بما هي مجتمع يحتوي مهاجرين، ليست مكانًا منسجمًا، وذلك، أيضًا، من خليط الأسباب التي يتعين على المفكّر الأنسني الأمريكي أخذها في الاعتبار.

لقد جمع إدوارد سعيد ـ بذكاء شديد ـ بين دفّتي الكتاب تأملًا مستفيضًا للنزعة الأنسنية القابلة للاستخدام، كممارسة مستديمة، لا مجرد عملية استحواذ، كما تفعل أمريكا بزعامة بوش الابن، كما أنها تفكُّ في ماهية النشاط الأنسني، بديلًا عن تقديم لائحة بالصفات المرغوب توافرها في الملتزم بالحركة الأنسنوية، نظرًا لسلسلة متكاملة من الادعاءات المضادة، تقدمها السياسة الأمريكية باسم النزعة الأنسنية، ومادة الإنسانيات، التي يزعمون النطق بلسانها.

لقد جمع إدوارد سعيد مواد هذا الكتاب، ونقّحها، لكنه لم ير صدوره للنور؛ لأنه كان قد غادرنا، لكن الكتاب صورة متكاملة لرؤية ثاقبة لأبرز الشخصيات الفذَّة في عصرنا، حيث يعبر عن صوت إدوارد سعيد، الأستاذ الجامعي، الذي لا يفاخر إلا بالتعليم مهنة له، والناقد الثاقب، الذي لم يتوان عن قول الحق، في عقر دار الباطل، والمثقف الذي يجهر بالحقيقة، والحق، في وجه السلطة، والناشط السياسي الذي جاهد ـ حتى الرمق الأخير ـ لوضع حلول ووسائل من أجل انتصار قضايا الحرية، والعدالة في سائر العالم.

الوطن مُعادل المنفى

إدوارد سعيد شخصية اصطفائية، متحدية لمعرفتها، ولمعارف الآخر، بحثًا عن «الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة، والدين، والقومية، واللغة، أيضًا». قدم في سيرته الذاتية «خارج المكان»[٢] توجهًا فكريًّا يقوم

على عدم الفصل بين الخاص والعام، كأطروحة فكرية شمولية، ترى إلى الكائن في رمته بعيدًا عن تجزئته، أو تجزئة العوامل الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، التي أثرت فيه، وساهمت في تكوينه. إن إخراج الذات ومسرحتها mise en scène فعل ملاصق لكتابة السيرة الذاتية، يشير إلى رؤية الذات لذاتها، وللآخر، وللعالم. فما الذي عرضته ذاكرة إدوارد سعيد المعرفية، وذاكرته الشعرية على «مسرح الذاكرة»؟ وضع الكاتب إطارًا برهانيًا للاستدلال cadrage argumantatif، هو التوثيق بين الخاص والعام، وتعاضدهما في تكوين هويته. وقد قصدنا بالإطار، كمصطلح من مصطلحات تحليل الخطاب، إن إبراز أماكن وقيم معينة، واختيار معطيات، وتقديمها إلى القارئ، تشكل جميعها تحضيرًا للبرهنة، وهي أكثر من مجرد وضع عناصر، وتقديمها إلى القارئ، إذ يشكل استخدامها الخطوة الأولى من أجل الإقناع. فلو نظرنا، أولًا، إلى المبررات التي يقدمها الكاتب، والتي دفعته إلى كتابة سيرته، سيتبين لنا أنها مبررات تجمع ما بين السجل الشخصي، والسجل العام. إذ تتطابق سيرته مع محطات/ صدمات من التاريخ، العربي، والدولي، والفردي، كما ذكرنا سابقًا. والربط بين التجربة الفردية microhistoire، والتجربة الجماعية macrohistoire هو في صلب التساؤلات الراهنة للمؤرخين الذين يستخدمون الطرائق المتبعة في الإنثربولوجيا، التي تركز على الفاعل والفرد، وعلى الطريقة التي تنبني بها التجربة، حيث يتم الربط بين التاريخ والذاكرة، بين علاقة الفرد بالجماعة، وبناء الهويات وموقع الفرد فيها. لم يجد بدا إدوارد سعيد من استخدام العمل الميداني الإنثربولوجي في سيرته، الذي يقدم الدلائل على مدى تعرضه إلى عنف التاريخ، خلال المرحلة الاستعمارية ونكبة فلسطين. فلم يخضع الأفراد المتفردين في فرديتهم، وبشكل مباشر، إلى دائرة الجماعة، كما حدث خلال حروب هذا القرن، ونكبة فلسطين، وتفكك الاستعمار، والعولمة. هكذا، يمكننا فهم التلازم بين التاريخ الذاتي والجماعي، الخاص والعام، على أنه إبراز للأنا في التاريخ.

إثر أحداث ١٩٦٧ قرر إدوارد سعيد العودة السياسية إلى العالم العربي، لكن العالم العربي قد تغير في ذلك الوقت، ولم يعُد يمثل عالم طفولته، «التي دمرتها أحداث ١٩٤٨، والثورة المصرية، والاضطرابات الأهلية اللبنانية، التي بدأت عام ١٩٥٨». فيتبين لنا مدى التشابك بين ظروفه الخاصة، والظروف العامة، التي أحاطت عيشه، آنذاك، في المنطقة العربية. ومع وعيه النقدي بارتباطه بثقافتين متناقضتين، إلا أنه رفض تقييد نفسه بتناقضهما، فوضع لسرده السير ذاتي مهمة حياكة الجوامع بينهما: «كنتُ أشعر بوجود هوّة من سوء التفاهم تفصل بين عالمي الاثنيْن، عالم بيئتي الأصلية وعالم تربيتي، فإن مهمة تجسير تلك الهوة إنما تقع عليّ وحدي دون سواي» لقد كانت مهمته مضاعفة: التوثيق بين ثقافتيْن/ عالميْن/ هويتيْن، والتوفيق بين العالم العربي في طفولته، والعالم العربي فيما بعد، خصوصًا وأنه اختار استعادة هويته العربية، بوصفه «عربيًا بالاختيار». ولا يسعنا في هذا التصور إلا اعتبار عودته إلى الطفولة محاولة لإعادة بناء الذات وفق تصورها، وثقافتها المركبة المكتسبة: «أعدت قراءة حياتي المبكرة، بما هي حياة من البحث عن الانعتاق، والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة، والدين، والقومية، واللغة، أيضًا، قراءة تعيد إليّ ما كنت أرغب فيه من تكيُّف أفضل، وأكثر تناغمًا، بين ذاتي العربية، وذاتي الأمريكية» وعي «عربي لعبت ثقافته الغربية دورًا هامًّا في استعادته ثقافته العربية، وصولًا إلى فتح تخومهما، واستنهاض حوارهما». يقول: «عربي أدت ثقافته الغربية، ويا لسخرية الأمر، إلى توكيد أصوله العربية، وإن تلك الثقافة إذ تلقي ظلال الشك على الفكرة القائلة بالهوية الأحادية تفتح الآفاق الرحبة أمام الحوار بين الثقافات». هكذا استولد نفسه، من جديد، في خروجه على قيوده الخاصة، والقيود العامة. كما كان تغير حياته، وحياة أهله، وأقربائه، يعود إلى تغير هيئة فلسطين، ومعالمها، تدريجيًّا، مع تصاعد

شراسة الاحتلال. «اكتشفت، مجددًا، أن ما كان شبكة من البلدات والقرى عاش فيها أبناء عائلتي الموسعة ذات يوم ـ القدس، وحيفا، وطبريا، والناصرة، وعكا ـ أضحت، الآن، مطارح إسرائيلية، تعيش فيها الأقلية الفلسطينية، تحت السيادة الإسرائيلية، مع حلول ربيع ١٩٤٨، كانت عائلتي الموسعة، كلها، قد أُجليت عن المكان، وعاشت في المنفى، منذ ذلك الحين. على أني، في عام ١٩٩٢، تمكنت، للمرة الأولى منذ مغادرتنا عام ١٩٤٧، من زيارة المنزل الذي تملكه عائلتي في القدس الغربية، والمنزل الذي نشأت فيه أمي في الناصرة، ومنزل خالي في صفد، وإذا هي في زيارتي الثانية (١٩٩٨) يسكنها جميعها ساكنون جدد»[٣].

كما تدعو سيرة إدوارد سعيد إلى تجسيد التقابل بين الخاص والعام في تكوين الهويات الفردية والجماعية. وما توسل الماضي عبر التذكر إلا استدعاءً للعوامل الثقافية/ الاجتماعية/ السياسية، التي كان لها وقع جسيم على حياته، فهو أحس آثارها، ولمدة طويلة جدًا بعد حدوثها، مثل ثقافة الاستعمار وسياساته، واحتلال فلسطين، فالرهانات السياسية، والأخلاقية، والحقوقية لهذه الوقائع تبقى حية جدًا، مثل ردود فعل التيار الإسرائيلي اليميني في أمريكا، بعيد صدور هذه السيرة. لقد انبنت سيرته على مفهوم الغياب، غياب المكان/ الوطن، والحياة/ حياته المهددة بالغياب، بفعل المرض المميت. لذلك سأقلب التساؤل الكلاسيكي من: ماذا تعرفني سيرته عن حياته وحياة الآخرين، إلى ماذا يعرفني هذا الحدث الجلل، وهو خسران الوطن عن سيرته؟ إنه ينطلق من إبراز خطوط التصدع والانكسار في هويته faultline، تلك التي أحدثت اضطرابًا في ماهيته وصيرورته. فيبدأ من اضطراب المكان، الذي أدى إلى اضطرابه اللغوي والثقافي، ليصل بالنتيجة إلى اضطراب هويته. جعل إدوارد سعيد من المكان مفهومًا محوريًا، فهو مقياس الزمن، وقوانين العيش والعلاقة بالآخرين. هكذا يفنِّد إحساس العائلة بالوحدة في القاهرة، بالمقارنة مع عيشهم في فلسطين، حيث غابت الوحدة، وحيث «يلازمنا دائمًا سائر أفراد العشيرة». «كانت فلسطين مكانًا أسلِّم به تسليمًا، بما هو الوطن الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباء وأصدقاء، بطمأنينة، لا تحتاج إلى تفكُّر»، ومع غيابه «كعائلة، ازددنا التصاقًا بعضنا ببعض، بعد أن لم يعد من قدس إليها نعود». إن استدعاء زمن الوطن الغائب/ الحاضر، واستذكاره يخضع إلى ارتباطات مكانية، تتحكم بالسرد. فهو لا يشوِّش انتظارنا الدلالي، ولا يهدف إلى أن نشكل نظامًا لتعاقب الأحداث، بل إن الزمن يتوقف عند محطات مكانية، بمحولاتها الزمنية، والنفسية، والسياسية. ففي تقطيعه زمن الحكايات التي يرويها، ورواح هذا الزمن ومجيئه، بين تقدم وتأخر، وتجوال الكاتب في أماكن عديدة (فلسطين، لبنان، القاهرة، أمريكا) قد خلق إيقاعًا طباقيًا مكانيًا وليس زمنيًا. خصوصًا وأن السرد يتوقف عند حيِّز الأزمات الشخصية، ومحطات الانكسار.

يتوقف سعيد عند وصف تغيُّر هوية المكان/ الوطن بعد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فالمنزل العائلي، والحي، وأماكن اللعب فيه تغيرت معالمها «أضحت البورة حديقة عامة، والمنطقة المجاورة للبيت حيًا فخمًا، يسكنه أغنياء اليهود». وهنا من المفيد أن نذكر أن الكاتب يستخدم أسلوب التواتر، والتكرار narration répétitive، فتغير هوية الوطن، وتغير هويته الخاصة مترافقان، ومتكرران، على امتداد السيرة. فهوية بلده تعاني «تبدلًا، لا عودة عنه»، فلقد «أجليت أسرة عمتي، نبيهة، عن القدس على مراحل، بحيث لم يبق منها، مطلع ربيع العام ١٩٤٨، غير ابن عمتي الأكبر، يوسف، وقد هجر بيت الطالبية، عند سقوط الحيّ بأكمله، بيد الهاغاناه». وفي اتباعه أسلوب التواتر والتكرار، أراد سعيد استعادة المكان كحيِّز للمتعة، وقد انقلب إلى حيِّز للقهر، وأرض للانفعالات الخصبة «يغمرني،

الآن، إدراك لهول التفكك الذي عانته عائلتنا وأصدقاؤنا، وقد كنت بالجهد واعيًا له، أنا الشاهد الذي لم يشاهد شيئًا في العام ١٩٤٨. وحين كنت صبيًا في الثانية عشرة والنصف في القاهرة، غالبًا ما كنت ألاحظ أمارات الحزن والحرمان على وجوه، وفي حيوات أناس عرفتهم سابقًا، بما هم أبناء الطبقة الوسطى العاديون في فلسطين (...) وغالبًا ما كانت عمتي نبيهة تتحدث بكآبة، واستفظاع، وهي تصف أهوال أحداث دير ياسين «نقلوا الفتيات عاريات إلى معسكر (هم) على ظهور الشاحنات». ضمت سيرته أمثلة عديدة، تشير إلى ملاحظته التغيرات التي طرأت على أسرته الموسعة، بعد ضياع فلسطين، وهي تغيرات سلبية تنم عن الانتكاس المعنوي والمادي. الآن، ومن مسافة من الأحداث يتنبه إلى قمع التعبير السياسي في بيته، الذي يعود بالدرجة الأولى إلى تغيير المكان/ الوطن، فأي مكانٍ آخر، ومهما كان يجسِّد الهشاشة: «وما يستعصي عليّ تفسيره الآن، هو كيف أتفق أن مسألة فلسطين، وخسارتها الفاجعة، التي هيمنت على حياتنا أجيالًا، وأثرت عمليًا في جميع معارفنا، محدثة تغييرات عميقة في عالمنا، تعرضت لقمع نسبي من قبل والديّ: فلا هي مدار نقاش، ولا تستحق منهما تعليقًا». هكذا، فلسطين في حياتنا تمر كجزء من عملية لا تسييس واسعة النطاق من قِبَل والدَيْن لا يثقان بالسياسة، بل يكرهانها، لشعور بأن وضعهما في مصر على مقدار من الهشاشة لم يكن يسمح لهما بالمشاركة في السياسة، ولا بمجرد النقاش فيها». هكذا يوازي بين غياب الوطن، وتغييب التعبير السياسي، وقمعه، من خلال منظوره إلى هذا الحدث «كان ثمة نشاز خبرناه جميعًا، بوصفنا أجانب في القاهرة، لا نستطيع الاستعانة بوطن لنا». على أننا نستدرك للسؤال: هل إن تغير هوية وطنه، الذي أدى إلى تغير في أنماط تفكيره وعيشه، حيث عاش تجربة الاقتلاع، والنفي، وتجربة الاستعمار، كان دافعًا له لعبور الأمكنة، أي عبور الهويات، ورفض السجن في هوية واحدة؟ يتقاطع هذا الموقف السياسي القمعي الناجم عن فقدان الوطن مع موقف آخر أشد قسوة، يعود إلى عدم حصول والدة الكاتب على وثيقة أمريكية، كما هي حاله وحال أخواته: «لم يكن أحد يتجشم عناء أن يشرح لنا أن وجود أمي الشاذ بيننا، كما تدلّ عليه وثيقة سفر محرجة، إنما هو ناجم عن تجربة اقتلاع جماعية صاعقة». فكلما حاول الكاتب أن ينسى نفسه، أن ينسى هويته، وأن ينخرط في العيش، كلما وجد نفسه حاملًا دلالة أعمق لهويته الفلسطينية، وأكثر تراجيدية، إذ «لعبت فلسطين دورًا أكثر إشكالًا في النزاع النامي ببطء بين أبي وشركائه في العمل: عمتي نبيهة، وأبنائها». ذلك بعد اضطرارهم إلى ترك فلسطين، حيث فرع الشركة، والمجيء إلى القاهرة، «وعندما غادرت القاهرة، عام ١٩٥١، إلى ما اعتبرته منفاي الأمريكي، كانت مجمل العلاقات بين فرعي عائلتنا في القاهرة، والقدس قد أصيبت بصدوع غير قابلة للإصلاح، من الناحية التجارية. فشعرت، إذاك، أن اختفاء فلسطين هو المسؤول عما جرى».

هكذا تتجاور العلاقات العائلية، التي تصدعت حديثًا، مع صدوع فلسطين المستجدة، وفي هذا السياق اضطربت هويته، سواء في القاهرة، أم في أمريكا. فحين ذهب في الصيف إلى أمريكا، وهو لم يتجاوز عامه الثاني عشر، وشارك في التخييم بعيدًا عن أهله، سرعان ما أشعرته تجربته الجديدة بهويته الأجنبية «القلقة والمؤقتة جدًا». ليس ثمة أساليب رحيمة لإعادة صوغ ذاته، مع اضطراب مكان عيشه، وتناسله، إلى أمكنة عديدة، إذ أدى «عدد متزايد جدًا من المغادرات إلى زعزعة أركان حياتي، منذ بداياتها الأولى. وفي نظري أن ما من شيء يميِّز حياتي على نحو أشد إيلامًا ـ والمفارقة أنه هو ذاته ما أتوق إليه توقًا ـ أكثر من تنقلاتي العديدة عبر البلدان، والمدن، والمساكن، واللغات، والبيئات، وهي تنقلات ظلت تحركني خلال تلك السنوات (...) إضافة إلى ذلك الإحساس القويّ، والتكراريّ، والمتوقّع، بالنفي الذي ينتزعك من كل ما هو أليف ومريح....»، فما بقي من فلسطين في ذاكرته هو واقعها المعذب،

فيصور الطبيعة الترحالية التراجيدية للوجود الفلسطيني، وهو يشهد على مأزق الفلسطيني بين التوق إلى كسر الحدود الفيزيائية والثقافية، والشعور بالتهديد بالنفي. فالمكان/ الوطن يفترض حركة حرة باتجاهين: الدخول إليه، والخروج منه. غير أن مكان إدوارد يستبعد حرية الحركة، طالما أن الخارج منه هو، في حقيقة الأمر، مستبعد، ومقصي، ومنفي.

في مذكرات «خارج المكان» يمزج إدوارد سعيد بين التاريخ، وبين الذكريات الشخصية، فنجد امتزاج الذكريات الشخصية، من حيث علاقاته بأهله مثلًا، بمعلميه، بالمدرسة، جنبًا إلى جنب تاريخ فلسطين، القاهرة، لبنان، أمريكا، تلك الأماكن التي عاش فيها إثر ترك عائلته فلسطين. لكنه مرة يشير إلى موقفه السردي على أنه شاهد على الحدث، ومرات أُخرى على أنه ضحية له. وهذا ينطبق على مجمل السيرة، حيث يأخذ الحدث بُعْده الكامل، حين يرفد التاريخ الكبير بالتاريخ الصغير، وحين يدمج الحدث النفسي/ العائلي بالحدث السياسي. على أن وضعية الفاعل في الحدث نتبينها في فعل كتابة السيرة وروايتها من وجهة نظره، ومن موقف المتمرد والغاضب ضد الهيمنة الثقافية، والقهر الإيديولوجي، ومن كونه لا يخضع للسيطرة، فيقدم لنا معنى تحرير نفسه من هيمنة الآخر، والتماهي به: «أخذت أشق طريقي بالنضال، ساعيًا، بنجاح متزايد، إلى التمسك بحساسية خاصة، بل إلى تنميتها، حساسية غرضها مقاومة التسويد والسوس الإيديولوجي الأمريكيين، وقد فعلا فعلهما في العديد من زملائي في الصف». (خارج المكان).

إلى جانب تجربة النفي، عاش إدوارد سعيد تجربة الاستعمار، هو المفكر الذي عمَّق فهمنا للظاهرة الاستعمارية، إذ يعود إلى مرحلة تعليمه في القاهرة، وخصوصًا في «فيكتوريا كولدج»، فلقد اتسمت بالتشويه الكبير، و«بباتولوجيا القوة»، وفقًا لما يؤكده، إذ «كانت النظرة السائدة إلى التلامذة أنهم أعضاء، تمموا دفع اشتراكاتهم في نخبة كولونيالية مزعومة، يجري تعليمها فنونًا إمبريالية بريطانية، قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تمامًا. علمونا عن حياة إنكلترا، وآدابها، وعن النظام الملكي، والبرلمان (...)، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر، أو في أي مكانٍ آخر. ولما كان الانتماء العربي، وتكلم اللغة العربية يعدان بمثابة جنحة يعاقب عليها القانون (...)، فلا عجب أن لا نتلقى، أبدًا، التعليم المناسب عن لغتنا، وتاريخنا، وثقافتنا، وجغرافية بلادنا (...)، ثم إني أدركت في قلبي أن فيكتوريا كولدج قطعت، نهائيًا، الأواصر التي تشدني إلى حياتي السابقة، وأن ادعاء أهلي أني مواطن أمريكي قد تهافت، فقد بتنا ندرك جميعنا أننا دونيون، نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة، بل وقابلة لأن تؤذينا، ونحن مجبرون على تعلم لغتها، واستيعاب ثقافتها، لكونها هي الثقافة السائدة في مصر». تشير هذه الملاحظات الثاقبة عن النظام التربوي الاستعماري، الذي نشأ عليه صغيرًا، إلى إدوارد سعيد الناقد للحالة الاستعمارية، عبر تجربته الشخصية، فكشف سطوة الثقافة الاستعمارية، وأساليبها التطويعية اللانسانوية، الذي أوقع هويته في مآزق غياب حرية التعبير عن الذات، عن طريق إلغاء إمكانية معرفة الذات. إضافة إلى التباس علاقته باللغة . «فعلى الرغم من أن الإنكليزية أضحت لغتي الأساسية، وحصص اللغة الفرنسية في (فيكتوريا كولدج) ليست أكثر تنويرًا من حصص اللغة العربية، فقد وجدتني في وضع غريب، مفتقرًا إلى أي موقع طبيعي، أو قومي، يحدوني إلى استخدام الفرنسية. وأضحت اللغات الثلاث مسألة حساسة جدًّا بالنسبة إليّ، عند بلوغي الرابعة عشرة. فالعربية محرَّمة، ومن

شأن «الو وغز» والفرنسية لغتهم «هم»، لا لغتي أنا، أما الإنكليزية فمجازة، ولكنني أرفضها؛ لأنها لغة «البريطانيين المكروهين». نجد في هذه الإشارة صدى لدور المثقف الذي ارتآه إدوارد سعيد أن يكون «أداة لبعث الذاكرة المفقودة»، وأن يكون شاهدًا ضد إساءة استخدام التاريخ، ومظالم العصر، التي تصيب المقموعين (خارج المكان). ولن تقف التناقضات عند حد النظام التربوي المدرسي، وتعلم اللغات الأجنبية، واستبعاد اللغة الأم، بل أصابت في الصميم اسمه نفسه، وهو عنوان هويته، والمعلن عنها «إدوارد سعيد»: «هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على (إدوارد)، وأُخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنكليزي الأخرق، الذي وضع كالنير على عاتق (سعيد)، اسم العائلة العربيّ القحّ». كما لو أن قدر إدوارد سعيد في تسميته العربية والإنكليزية، وقدر فلسطين، التي دعيت زورًا بإسرائيل، يتطابقان.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦ .

(٢) خارج المكان ـ ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٤.

(٣) راجع فعاليات مؤتمر إدوارد سعيد مفارقة الهوية ـ د. نهى بيومي ـ قراءة طباقية لسيرة إدوارد سعيد الذاتية. كلية الآداب بجامعة البحرين، ٢٠٠٣.

* * *

obeikan.com

الفصل الرابع

القدس في نصوص جبرا إبراهيم جبرا

حسن هند

تقوم هذه الدراسة على تناول صورة القدس في نصوص الكاتب «جبرا إبراهيم جبرا»، الذي ولِد فيها، في ٢٨/٨/ ١٩٢٠، ودرس في مدرسة طائفة السريان بالقدس، ثم أكمل دراسته في إنجلترا وأمريكا، وعمل أستاذًا للأدب، كماعمل مترجمًا، ومؤلفًا، وروائيًّا، وفنانًا، تشكيليًّا[١].

أول ما يظهر في كتابات جبرا رصده الشامل لنكبة ١٩٤٨، ثم نكسة ١٩٦٧، بعين الفلسطيني، الذي عاش خارج الأرض المحتلة، وذلك خلافًا للرصد الذي قام به غسان كنفاني في روايته «**رجال تحت الشمس**»، الصادرة سنة ١٩٦٣، التي تحكي قصة هروب عدد من الفلسطينيين من البصرة بالعراق إلى الكويت من أجل لقمة العيش، فيتم تهريبهم في صهريج عربة نقل مغلق، وتصهرهم الشمس، ثم يموتون، ويكمل كنفاني مشروعه الروائي في رواية «**ما تبقى لكم**»، سنة ١٩٦٦، و«**أم سعد**»، ١٩٦٩، التي يتناول فيها فصلًا كاملًا بعنوان «**البنادق في المخيم**» النضال الفلسطيني في الأرض المحتلة، و«**عائد إلى حيفا**»، سنة ١٩٦٩، التي يقول فيها على لسان أحد أبطالها «لقد فتحوا الحدود فجأة وفورًا، لم يحدث ذلك في أي حرب في التاريخ، أتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث في نيسان ١٩٤٨، والآن بعد لماذا؟ لسواد عينك وعيني؟ لا. ذلك جزء من الحرب. إنهم يقولون لنا: تفضلوا انظروا كيف أننا أحسن منكم، وأكثر رقيًّا. عليكم أن تكونوا خدمًا لنا، معجبين بنا ...»[٢]. وفي تقديم القسم الثاني من الأعمال الكاملة لغسان كنفاني، يتم تناول المجموعات القصصية، وهي «**موت سرير رقم ١٣**»، «**عالم ليس لنا**» ١٩٦١، و«**عن الرجال والبنادق**»، ١٩٦٨، ويقدم لها يوسف إدريس، بعنوان «**عندما تستشهد الكلمات**»، فيقول: قيمة الكاتب الفنية تستمد من مقدار صدقه، فالأصالة هي من أصالة قضيتك...لن تجد عبقريًّا واحدًا إلا وهو مؤمن ومهووس الإيمان»، ويشبّه

كتابة غسان ككلام جيفارا، اللذين استشهدا من لحم ودم، ويعول على أن الكاتب يرصد بطلًا وقضية، لتصل به إلى الحد الذي أصبح القتال عمله من أجل حل قضيته، ونصل بالقضية إلى المدى الذي أصبحت فيه إيديولوجيةً كاملة، وفلسفةً، بل وكل الحياة»[٣]. أما الكاتب الأخير، الذي يتصل ـ بقدر ما ـ بالعالم الروائي لجبرا فهو الروائي الفلسطيني «إميل حبيبي»، في روايته «**الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل**»، الذي يرصد، بأسلوب ساخر، مرحلة نكبة ١٩٤٨، ثم قيام سلطة الاحتلال بإدارة البلاد، وما ينجم عن ذلك من مفارقات، ينسجها الكاتب في كوميديا سوداء.

إذن، يتفق الروائيون الثلاثة في الوجع الخارجي، وهو احتلال فلسطين، والرؤية السياسية، وهي ضرورة النضال ضد المحتل، بصوره، لتحرير الأرض كافة.

أما وجه الاختلاف في الرؤية الأدبية، وإن شئنا القول التقنية، والفنيات، ففي حين كان غسان مناضلًا حتى العظم، تجسَّد عظمًا ولحمًا، حتى استشهد، وكان إميل حبيبي ساخرًا، ويكتب كوميديا سوداء، فإن جبرا استخدم كل تقنيات الرواية الحديثة، باستخدام تيار الوعي الذي ابتدعه جيمس جويس، ورواية الأصوات، كما في «**الصخب والعنف**»، لوليم فوكنر، التي ترجمها جبرا نفسه، وظهرت لغته الشعرية المضفَّرة بأشعار القدامى، والشعراء الغربيين المترجمة، كما لم ينس أنه فنان تشكيلي؛ لذا، في كل عمل كان لا بد أن يتناول على لسان أبطاله شرحًا تفصيليًا للوحةٍ، أو أكثر من لوحات الفنانين التشكيليين العالميين. ونضيف أن فكرة الرحلة ظاهرة في كل الروايات «السفينة / البحث عن وليد مسعود / الغرف الأخرى». والتي **يظهر فيها المفهوم الغربيّ للرواية، الذي ينبع من منح الروائيّ صفة (الخالق)، وحقوقه وامتيازاته، فيسمح له بانتقاء الحوادث التي يؤمن بقدرتها على تمثيل (الواقع)، والتعبير عنه. كما يسمح له بخلق الشخصيات التي تتفاعل مع هذه الحوادث، وتقود حركتها إلى الخاتمة، حيث الدلالة النهائيّة المعبِّرة عن رؤيا محدَّدة، أو مغزى معيَّن، وتشترط الرواية على هذا الخالق الاتصاف (بالموضوعيّة)، و(الصدق)، في التعبير عن (الواقع). والموضوعية في عرفها لا تعني (الحياد)، أو منع الروائي من طرح رأيه الخاصّ، بل تعني (الصدق) في التعبير، وإشراف الروائي من علٍ على ساحة الرواية، دون تدخُّل مباشر يجعل المتلقي يرى الروائي، أو يشعر بوجوده. ومن ثَمَّ يبقى الروائي، والمتلقّي، معًا، في موقع الملاحظ، والمحلِّل، والحَكَم**[٤].

فراوي جبرا يبدأ رحلة من فلسطين إلى بغداد «**البحث عن وليد مسعود**»، أو يسافر في سفينة «**السفينة**»، أو يختفي من بغداد في رحلة عودة إلى فلسطين للدفاع عن أرضه، أو يسافر لإلقاء محاضرة في بلدٍ آخر، للدفاع عمن يقتلون نساءً وأطفالًا من أهل وطنه.

لذا، نتناول الرؤية السردية في روايات جبرا، ثم السمات المشتركة في التقنيات الروائية في روايات جبرا.

الرؤية السردية في روايات جبرا

أولًا: صراخ في ليل طويل، سنة ١٩٤٦

وهي رواية تحمل، في جوهرها، مشروعًا جديدًا، إذا ما قورنت بتلك المرحلة، ويرصد اكتشافه لصراع المصالح في المدينة، وعلاقاتها الاجتماعية، بضمير الراوي، الصوت الواحد «أمين» الكاتب والصحفي، الذي يرصد علاقات المدينة، الجديدة عليه، المتشابكة من علاقات السلطة، والزواج، والفوارق الاجتماعية، وكأنه يؤسس لثورة، وتعد مفتتحًا لكل روايات جبرا التالية.

ثانيا: صيادون في شارعٍ ضيق

يتناول بطل الرواية «جميل فران» حياته منذ هجرته من فلسطين إبان النكبة، سنة ١٩٤٨، والتي تعيش المخاض السياسي في العراق، وقد استخدم صوت الراوي «جميل» في معظم الرواية، مما مكّن رصده للواقع الفلسطيني، وتطور البنية الاجتماعية في عائلة حبيبته سلافة، وعائلتها، وسلمى، عمتها الهاربة من سلطة زوجها كبير السن، ذي السلطة، العنين، في إشارة لتساقط سلطة الملكية في العراق، ويرصد جيل الشتات الفلسطيني الأول. فيقول «قليلة هي البهجة التي شعرت بها، وأقل منها الآثام التي انتابتني، في ذلك اليوم، من قريته، سنة ١٩٤٨، حين وصلت إلى القرار، لقد تشتتت أسفاري، وما عدت أستطيع أن أذكر ملامح أية مدينة في العالم، سوى مدينة واحدة، أذكرها أذكرها طيلة الوقت، تركت جزءًا من حياتي تحت أنقاضها المهدمة، وقد أتيت إلى بغداد، وعيناي ما زالتا تتشبثان بالقدس».

ثالثا: السفينة

انتهج جبرا في رواية «**السفينة**» فكرة رواية الأصوات، أو الشخصيات، فكل شخصية تتحدث عن نفسها، والآخرين، في أحداث يحكيها كلٌ منهم من وجهة نظره، وتتبدى رؤية الفلسطيني في كل منها، عبر أكثر من شخص في الرواية، فلسطيني يحكي تجربته التي تتبدى في الشتات والحنين للأرض. أول الشخوص «عصام السلمان»، الفلسطيني المقيم بالعراق الذي يحب «لمى» ـ وهو بحث عن أنثى أخرى، غير فتيات القدس ـ التي تزوجت بالدكتور «فالح»، وتسافر معه على ذات السفينة، وللغرابة تأتي قمرتها بجوار قمرته، فيشعر بحركاتها الأنثوية مع زوجها، وفي كل حركة يزداد غيرة. يلجأ «عصام» إلى تقنية الرحلة في السفينة، ليتخلص من آلامه، فيقول: «البحر جسر الخلاص»[٥].

ولا يكتفي بالبحث عن وطنه في «لمى»، بل يلجأ حتى للإيطالية «إيمليا»، التي تقول: «أتفهم؟ الذكرى ذكرى منظر، لا ذكرى عاطفة، ذكرى بلد، لا ذكرى إنسان»»[٦].

هنا تتبدى عتبات النص، إنها رحلة في سفينةٍ للخلاص ـ وكأنها سفينة نوح ـ من ذكرى بلد، هي أجمل البلدان، كما قال الراحل العظيم محمود درويش «فلسطين».

«بغيابها كوَّنت صورتها: من الأرضي يبتدئ السماوي الخفي»[٧] ـ وكما يقول في القدس، أعني داخل السور القديم، أسير من زمنٍ إلى زمن، بلا ذكرى تصوبني، فإن الأنبياء، هنا، يقتسمون تاريخ المقدس»[٨] ـ هي البلد التي تناديها في صحوك، ونومك، «بلاد حين تنبذنا إلى المجهول ... تكبر، يكبر الصفصاف، والأوصاف، يكبر عشبها، وجبالها الزرقاء، تتسع البحيرة في شمال الروح»[٩].

وفي هروبه عبر رحلته، عندما يشعر أو يتخيل عصام أن «لمى» تتطارح الغرام مع زوجها «فالح» في القمرة المجاورة، وبنظرية المثير والاستجابة، أو نظرية بافلوف، يستدعي جرحه القديم، فيهرب لسطح السفينة، ليقول:

«بعض التجارب يحملها المرء في إهابه كالمرض. كقرحة لا تميت، ولا تندمل، ويجابه المر، الأيام، والتجارب الجديدة في أحشائه تستكين، وتهيج، وإذا هاجت، فلا بد من الدواء المخدر، الذي لا يقضي إلا على الألم المؤقت، ولكنه لا يقضي على إمكانية الألم، وتهديده المستمر، ويصبح الألم جزءًا من الكيان، يعايش القلب، والذهن، ويبدو أحيانًا على نحو يناقض المنطق، والعقل، كأنه فرح مقيم، كلنا عرضة لهذه الماسوكية العاطفية. ما دمنا نحمل التجربة، كالمرض على الإهاب، فلم لا نتحايل عليها، ونجعلها مصدرًا لأحلام اليقظة، مصدرًا للقصائد غير المنظومة، التي تهدر في النفس، على غير انتظار؟»[١٠].

وهذه العبارة مفتتح آخر لفهم النص، فهي هواية تعذيب النفس، أو الماسوكية، التي تحيل الشخص إلى مريض نفسي، يمارس أحلام اليقظة، في محاولة خلق حلم، يعادل موضوعيًّا ما يمور داخله من تعذيب للنفس، للفقد الدائم للحبيب، أو الواقع الأليم بفقد الوطن، فيحاول أن يستعيض عنه بنساء العالم، ولا يستطيع، فيستدعي «عصام السلمان» محاولته ممارسة الحب مع «لمى» التي أحبها حال دراستهما في إنجلترا، ثم يستكمل محاولة الحب في بغداد، فيصطحبها لجولة بالسيارة في الحقول، ليلًا، ولكن تفشل المحاولة، لسقوط السيارة في ساقية، وينقذهما عامل الحراسة، وبالطبع تفشل المحاولة، وتفشل علاقتهما، وتتزوج «لمى» بالطبيب «فالح». وفي محاولة أخرى مع «جاكلين» الفرنسية، التي تقص شعرها مثل «آلاغرسون»، وفي رحلته على السفينة يعاود الهرب، فيدور بينهما حوار غرائبي: «قالت: أتريد الصدق؟ قلت: الصدق أبدًا؟ قالت: كفى مزاحًا، فقلت لها: لا أريد الصدق أبدًا. أريدك أن تكذبي عليّ، اكذبي عليّ باستمرار. في هذه السفينة الصدق شحاذ، ناسك، كافر»[١١].

هنا لا بد أن يعيش في حالة كذب دائم، وسفر دائم، للهروب من حقيقة فَقْد الوطن، رغم عمله الكثير كتاجر في الكويت، وكسبه الدائم للمال، إلا أنه لا يستطيع الخلاص من محنته فيقول: «هذه سفرتي الثالثة إلى أوروبا، وسأمتص منها كل قطرة. في الليل، تنتابني ذكرياتٌ أليمة، أليمةٌ جدًّا، وتنتابني رغباتٌ أليمة، أيضًا، كنت فيما مضى أجد متنفسًا في تدوين الأفكار في كتابة الشعر. الفلسطينيون كلهم شعراء بالفطرة، قد لا يكتبون شعرًا، ولكنهم شعراء لأنهم عرفوا شيئين اثنين هامين، جمال الطبيعة، والمأساة، ومن يجمع بين هذين لا بد أن يكون شاعرًا»»[١٢].

ثم يعرج لوصف أجمل بقاع الدنيا، من وجهة نظره «القدس أجمل مدن الدنيا على الإطلاق، قيل إنها بنيت على سبعة تلال. لست أدري إن كانت تلالها سبعة، ولكنني ارتقيت كل ما فيها من تلال، وهبطت كل ما فيها من منحدرات، بين بيوتٍ من حجرٍ أبيض، وحجرٍ وردي، وحجرٍ أحمر، بيوتٌ كالقلاع، كأنها جواهر منثورة على ثوب الله، والجواهر تذكّرني بزهور وديانها، فأذكر الربيع، وأذكر التماع زرقة السماء، بعد أمطار الربيع، والربيع في القدس تراه يحل في البلد كأنه مشهد غيَّره المخرج على خشبة المسرح، فالجبل البلقع في الشتاء قد اخضوضر، فجأة، أمام عينيك، يحس الربيع؛ لأن زهورًا كعيون الأطفال قد نبتت بين الحجارة نفسها؛ ولذا فإن الليالي قد تأتيني بذكرياتٍ من القدس، فأحزن وأغضب، وأبكي. كنت مرةً في فندقٍ في الشام، عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات، فبكيت، ورآني رجلٌ أعرفه، فجاء يسألني ما الخبر؟ فقلت أبكي على أبي وأمي، وإخوتي، وما عدت أعرف الخجل»[١٣]، وكما يقول درويش: «أنا رجع الكمان، ولست عازفه، أنا في حضرة الذكرى صدى الأشياء، تنطق بي فأنطق»[١٤].

الشخصية الثانية في رواية «**السفينة**»، هي «وديع عساف»، فلسطيني، يبدأ الكلام عن نفسه بعبارة كتبت على باب

الجحيم، كما يروي دانتي: «عن كل أمل تخلُّوا أيها الداخلون هنا»، أعتقد أنه كان يقصد أن الحياة خارج فلسطين، في الشتات، هي الجحيم؛ لأنه يقول: «ليتني كنت ذاهبًا إلى بلدي، الذي لم يشطر أجزاؤه سيفٌ أحمق، وفي جيبي حصيلة أسفاري، فأحط الرحال في البلدة، وآخذ الكمان، وأبحث عن صديقين، أو ثلاثة، يعزفون على آلاتٍ أخرى، ونؤلف جوقة موسيقية، فنعزف، ويرقص الناس، ونرقص مع آلاتنا، وهم يرقصون مع نسائهم»[١٥].

إنه حلم الحنين والعودة إلى فلسطين، حيث يعود بنا، بالفلاش باك، أو الاسترجاع، عن حكايته مع أمه فلسطين، فيقول: «لم أقبل إخراجي من القدس بالرصاص والديناميت، رؤية فايز يتضرج بدمه بين يدي. لم أقبل رؤية الخيام تتشبث بجوانب التلال فوق رؤوس أهلي. لم أقبل التنقل من بلدٍ إلى بلد، بحثًا عن لقمة عيشٍ مزريةٍ، عن سقفٍ أُقيم تحته، لم أقبل أن ينظر إليَّ أحدٌ نظرة الشفقة أو التأفف ـ خساراتٍ كثيرة قامرت، وأقامر دائمًا، للتعويض عنها»[١٦].

تتبدى فلسطين دينا، فيحكي حكايته مع فايز، في حربها ضد عصابات اليهود... كالصخر، لقد جعلنا من الصخر سرًّا نتقاسمه فيما بيننا، قلنا إن الصخر يرمز إلى القدس: شكلها شكل الصخر، تضاريسها تضاريس الصخر، والصخر على حافة كل طريق في المدينة. أينما ذهبنا رأينا أناسًا يكسرون الصخر ـ أرصف الطريق، أو البناء مقالع الصخر حول المدينة. فلسطين صخرة تبنى عليها الحضارات؛ لأنها صلدة، عميقة الجذور، تتصل بمركز الأرض، والذين يصمدون كالصخر يبنون القدس، يبنون فلسطين كلها. والمسيح، من اختار من الناس ليكون خليفة له؟ سمعان الصخرة. والعرب، ما الذي ابتنوه، ليكون من أجمل ما ابتنى الإنسان من عمارة؟ قبّة الصخرة. وهؤلاء المزارعون المزروعون في المنحدر؟ في الليلة المقمرة ترى رؤوسهم وأكتافهم ناتئة من حفرها، وإذا هي صخر، وبركة السلطان، ما الذي نهواه فيها؟ الصخر الذي يحيط به الماء، كلما كان هناك ماء... فلنتغزل بالصخر»[١٧]. ويستطرد في حكايته مع صديقه فايز المناضل، واكتشافهم كهفًا «هل ثمة في العالم كهف يتفجر ماءً محببًا، أقدم من كهفنا هذا؟ قلنا ذلك وكأننا اكتشفنا قارةً جديدة، من تلك العين في ذلك الكهف، شرب أول بناة القدس في فجر التاريخ، واستمدوا حياة للمدينة، التي أقاموها على صخورها المتصاعدة تصاعد سلم حجري إلى ذرى الرابية التي أضحت قلبًا للقدس»[١٨].

هاتان الشخصيتان الرئيستان تبحثان عن الأم «الوطن»، في كل أنثى «عصام السلمان» مع «لمى»، و«وديع عساف»، مع صديقته الأجنبية، هو بحث عن الوطن، أو الأنثى الوطن المفقود، التي هي القدس، ففلسطين بالنسبة لهم دين، فيقول عصام السلمان: «كان يوحنا، كما تعلم، يعيش في البادية، عند البحر الميت، يعيش على الجراد، والعسل. شبه عارٍ، وجهه ضامر، برزت فيه العظام، عيناه في اتساع الصحراء، يرى رؤى، ويتحدث بالرموز، عن معمودية الماء، ومعمودية الروح القدس، ... أحيانًا أراني مثله، وجسده ينصهر بالنار التي تستعر في قلبه»[١٩].

رابعًا: البحث عن وليد مسعود

بالطريقة نفسها، وباستخدام تقنية الأصوات، وبطريقة ألف ليلة وليله، حيث الحكي الدائري، تبدأ الرواية بفقد بطلها «وليد مسعود»، ولا شك أن للاسم دلالة، إنهم يبحثون عن البراءة في داخلهم، عن حلم النضال، الذي يحرر الأرض، ويجلب السعادة، الشخص الذي يعمل في البنك، ويمسك في يده بالملايين، ولا يربح، بل يساعد أصدقاءه ليربحوا، رجل يبحث عن أمه، التي كانت فتاة، ثم سيدة، من القدس، يبحث في كل النساء عن صورتها، حتى يجد

«شهد». وذلك يبرهن على أنه من خصائص السرد في عملية تحوله مقدرته الفذة على التصدي لمعضلات الواقع، سواء جاءت الصيغة بصورة واقعية مباشرة، أو رمزية، أو تعميم الثورية الفنية/ الجمالية، فلا مفر للسرد من التصدي لهذا الواقع، ولا مهرب للسارد من معالجة ما يجري أمام عينيه .. وذلك يتطلب وقتًا لكي يسترد السارد الجاد أنفاسه، بل حتى الإنسان العادي ... إننا في البحث عن «وليد مسعود» أمام نص يتطلب أن نقرأ الواقع المروي، وتحولاته، وفق ما تقتضية الضرورات الفنية الفكرية معًا.

في اثني عشر فصلًا، تتناول كل شخصية حكايتها مع «وليد مسعود»، الفلسطيني المشتت، قبل فقده. فيبدأ د. جواد حسني، صديق وليد الصدوق، وهو يتسلم تركة صعبة، وهي شريط كاسيت سجَّله وليد، وتركه في سيارته، يحكي فيه شذرات عن حياته، وفي النهاية يذكر «شهد» حبيبته التي رأى فيها أمه، ووطنه، ويحاول د. جواد حسني أن يبحث بين كل المدعوات عن «شهد»؛ لأنه، بالطبع، اسم مستعار.

يرسم «جواد حسني» صورة مبدئية عن «وليد مسعود»، صورة جسدية، تتمثل في البنية المتينة القوية، وكأنه بدأ حياته بأعمال يدوية، وفي بُعد الشخصية النفسي، وصل إلى مرحلة التوازن «كيف؟ على أية نقطة من نقاط الخط المتعرج الرجراج بقيمه وعالمه زلق مقلق في صعود وهبوط مستمرين يتخطيان العقل والمنطق؟ كان يقول، أحيانًا، إنه لو عاش في عصر مضى لربما استطاع أن يتحدث عن إمكانية إيجاد التوازن في الفن، في الدين، في التوحد بالجمال، مثلًا، على طريقة بعض قدامى المتصوفين. التوحد بالجمال، بعبادته المبالغة في العبارة، يقول: «تبدو مضحكة أعبادة هو لا يعرفها حتي في الدين؟»[٢٠].

بالطبع، يبحث «وليد مسعود» عن التوازن بعيدًا عن معشوقته حتى الثمالة، فلسطين، وقلبها القدس، وشجاعته الوحيدة هي شجاعة مقابلة الموت «الشجاعة الوحيدة التي تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل. بالفعل العنيف حيث يكون الموت نفسه غلبة على الموت. موت الفدائي مثلًا ...»[٢١].

وكأنه يكرر عبارة درويش «لا تكتب الشعر شعرًا، فالسلاح هو المؤرخ... والتاريخ يوميات أسلحة مدونة على أجسادنا. إن الذكي هو القوي»[٢٢].

يريد وليد أن يحرر أرضه، وكأنه ينطح في الصخر؛ لذلك رصد صديقه جواد فعل العنف فيقول: «في الآونة الأخيرة كان عنفه في اشتداد ظاهر، لم أشك في شهوته، ونهمه للحياة والمستقبل، غير أني لحظت أنه غدا أميل إلى الصمت إزاء كلام الآخرين، وجعلت أحس أن البلوغ إليه، إلى جوهره، وسريرته غدا أمرًا عسيرًا: لقد جعل يمترس نفسه وراء جدار من الأسمنت كأنه يتمتع هناك بمعاقرة شرابٍ سري غامضٍ يرفض أن يشاركه فيه أحد»[٢٣].

هذا الشراب، فيما أعتقد، هو خمر حب الوطن، وقد وصل، فيما يبدو، لمعادلة سرية هي النضال السري، وإن أعلن أنه تاجر يربح، ويساعد كل من حوله، أو دنجوان، يكون على علاقة بأكثر من سيدة، في آنٍ واحد.

وقد كان فَقْد وليد مسعود أشبه بالكابوس، لم يصدقه الكثيرون، واعتبرها البعض خدعة، وقال عنها صديقه إبراهيم الحاج نوفل «وليد ضحية خدعة رهيبة».

في الشريط الذي سجله وليد يحكي حكايته «كيس للكتب الأخضر بلون الزيتون يمتلئ بالكتب، والدفاتر، والأقلام الرصاص، والأقلام الملون... بأسراره الطفلية، كتاب سير الأبطال أسماء غريبة: هرقل، ويولسيس، وأخيل

..... ورحنا، أنا وسليمان، وعبد، نقفز في الحواكير إلى أشجار الزيتون جداد .....الغدا لأبوي صرة صغيرة، فيها رغيف من خبز الطابون وبيضة مسلوقة، وزيتون، وخيار مخلل... أبي الذي قبل أن يموت كان ملقى على أرض الغرفة، كسنديانة ضخمة، أسقطتها الريح»[٢٤].

ثم يستعرض بعضًا من حياته، وينتهي في شريط التسجيل، بشهد «وهذا جوابي على سؤالك القديم، لم الحب يملأه الحزن كأنه بداية الفراق، وجاءتني رسالتها الطويلة، التقيت بابنك مروان، ما أجمل عينيه وهما تلتمعان، من خلال الكوفية الملتفَّة حول رأسه، وقلت له خذوني معكم، وعلموني ضرب النار، يبدأ الحب، وتتكرر البداية، والنهاية، في الأفق البعيد، حيث السماء تنطبق على الأرض، في الأيام الصباحية، والشمس كنار منهمرة، وأنا أبحث عن ظل، أريد أن أقرأ، أن أفكر، أن أبكي، لأحزانٍ أعرفها، ولا أعرفها، وكلها سأعرفها، يوم الأعزاء وتملأ البيوت بالضجيج... وشهد، تمر بي في سيارتها، وتعود، لتخطف أمني، واطمئناني، وتهدد بأنها لن تعيدهما إليَّ إلا إذا نقدتها ألف كلمة، تضعها في عبِّها، بين نهديها، أنا الغني، وأموالي الكلمات»[٢٥].

ولنا أن نتساءل: مَنْ الأنثى التي يريدها على وجه الدقة؟ «كيف تنقذين أولادك هذه المرة إلا بكبريائك، كان مملكتك الرائعة التي وزعتها عليهم جزافًا، لا تخشين الإسراف؛ لأن الكبرياء كان مملكتك الوحيدة، وعنادك يفتت الحجارة، ويجفف البحار، ويملأ الجبال ينابيع، مهما قلت، وكما قلته، وجواد يكتم دهشته، لكثرة ما عرفت من النساء، باحثًا عن تلك التي لها عناد أمي وكبرياؤها»[٢٦]. إنها الفكرة التقليدية عن عشق وليد مسعود لأرضه وأمه وهو ما سيجعل د. جواد يتناول فكرة أن وليد مصاب بعقدة الأم، التي وصفها يونج بأن هذه العقدة تحيل الشخص إلى دنجوان، وهو التحليل النفسي الذي قام به د. طارق رؤوف مع مريم الصفار إحدى عشيقات وليد مسعود، وهو يستعرض التحليل النفسي لشخصية وليد مسعود من خلال تركيبة برجه الجدي، وعقدته كدنجوان، ويمكننا القول إنه استخدم التحليل النفسي للبحث عن الروح، وروح وليد هي وطنه «فلسطين». .

وفي الفصل الثاني د. جواد حسني يبدأ البحث مستدلًا بشيء من منظور كاظم إسماعيل وإبراهيم الحاج نوفل، في هذا الفصل يقيم تأصيلًا لعمل وليد مسعود في مهنة المال ـ الصيرفة، جعله على اطلاع بأساليب التنمية الرقمية، ومن الناحية الأخرى هو مؤلف كتب، ومنها كتاب «الإنسان والحضارة»، فهو مفكر، بصورة ما يكفي ألا تؤمن بالإنسان، بما فيه من كوامن عقلية وإبداعية، وحس لضرورة الحرية، لأن تسمح لنفسك بتسليط أشنع ضروب الإرهاب عليه، بحجة أو بأخرى، أو لا تتهادن مع من يسلطها عليه، والعكس صحيح. تسليط الإرهاب أو التهادن مع من يسلطه دليل على عدم «إيمانك بالإنسان مهما ادعيت العكس»[٢٧].

حاول البعض من أصدقائه رؤيته من الخارج «برجوازيًا يجعل من الإنسانية قناعًا يخفي به خوف طبقته من الانهيار، نشأ في أحضان النعمة، ويرى الحضارة من منظور غائم، يخشى فيه على الحرية خشية أهل الترف، وينسى أن ضرورة الخبز تفوق كل الضرورات الأخرى»[٢٨].

وفي الفصل الثالث، عيسى ناصر يشهد موت مسعود الفرحان، بعد أن عاصر بعضًا من حياته، في هذا الفصل يبدأ السرد من الأب مسعود الذي كان يعمل حوذيًّا، ينقل السيدات من القرى إلى المدن الفلسطينية، يستعرض بنيته الجسدية، ويستعرض القدس وبيت لحم «كانت بيت لحم تبدو لي أنها اجتزئت من الفردوس، ولكننا ما عدنا نسمع فيها، تلك الأيام، إلا أخبار الوفيات. القديسين والموتى، وإذا جاء عيد الميلاد، بنواقيسه، وترانيمه الفرحة، لم يكن

أكثر من زخة مطر وجيزة فيها بضع بذور للحياة في شتاءٍ قاحلٍ أجر، يدوم طوال السنة، مليئًا بأناشيد الجنائز ـ في لغات عديدة، ومراسيم مختلفة»[٢٩].

أما عن تقنية الزمن، فقد بدأ بالنكبة سنة ١٩٤٨، ثم عرض لفترة مهمة من تاريخ النضال القومي العربي سنة ١٩٥٧، وكان العراق فيها ضمن «حلف بغداد»، وهي الفترة الزمنية التي توفي فيها الأب مسعود فرحان، ثم سافر ابنه وليد إلى إيطاليا ليلتحق بمدرسة الرهبان، ليكون راهبًا، لكن بالطبع لا يحدث ويبدأ في اكتشاف العالم، المرأة، الحلم، الوطن، فيصطحبه صديقه الإيطالي إلى إحدى علب الليل، فتفجعه صورة جسد المرأة، فيرد عليه صديقه الإيطالي «وليد أنت تريد مريم، ومريم صعدت للسماء».

كان الجيل الأول مسعود فرحان الذي عاصر النكبة، وعمل عملًا يدويًّا، وربى وليد، وإخوته «الجيل الثاني».

ويبدو وليد رومانسيًّا طوباويًّا في الشعر والفن، وحتى في نظرته للمرأة، حتى سافر للعراق، وأقام ببغداد، حال رغدها، وسقوط «حلف بغداد»، وانضوائها تحت مظلة التيار القومي، فعمل في مصرف، وترقى حتى صار مديرًا له، يقوم بخدمة كل من حوله، ويجعلهم يربحون، ويربحون، ولا يكتفي بذلك، بل يكون، أيضًا، مفكرًا له كتب في الفكر والسياسة، ويختلف مع أعز أصدقائه بصدد هذا الكتاب.

هنا تتبدى فكرة الجيل، فالجيل الأول هو جيل مسعود فرحان، أما وليد فكان بدينًا، رجلًا قويًّا، له عضلات، لم تهن حتى عندما أدرك الخمسين...»، يحكي عنه صديقه: «كنا نسبح في النادي معًا، فيدهشني ببناء جسمه المشدود ـ ولو أن شيئا من الكرش كان قد أخذ يشوه قوامه. وكثيرًا ما ألمح إلى أنه (جاء على أبيه)، الذي كان يحمل على ظهره كيسًا من الطحين من فئة المائة كيلو غرام، ويصعد به طابقين من الدرج، ولا يشكو، كان وليد من أهل الجبال في فلسطين، وكلهم على ما يبدو فلاحون أقوياء، يقارعون الأرض، فتمدهم الأرض بصلابتها ومقاومتها، وكان هو يتباهى بذلك، غير أن هذه القوة العضلية لم تكن إلا غلافًا لقوة من ضرب آخر، تجوهرت في دخيلته. لم أكن أعرف في الأيام الأولى لصداقتنا ما هي بالضبط تلك القوة حسبتها قوته العقلية، أو عناده الجبلي الذي يجذبك وينفرد في وقتٍ واحد، كأنه هو المحق دائمًا والآخرين على ضلال، غير أنني اكتشفت فيما بعد أنها قوته تلك التي كنت أود لو أنني لم أكتشفها، ولولا أنه هو الذي نبهني إليها: قوته الجنسية، لقد رضي لنفسه بعزيمة الكبش، وكأنه يقول إنها هبة من الله، وهو لن يرفض ما وهبه الخالق!»[٣٠].

أما عن المرأة فهي بحث دائم، تُجسِّد المعادل الموضوعي للوطن، من مريم الصفار وانتهاءً بشهد، وهو الاسم الرمزي لوصال، أخت الدكتور رؤوف، التي تسافر معه لبنان، وتزور مخيمات الفرنسيين، وتتعرف على ابنه مروان، المناضل الفلسطيني الذي يحارب المحتل ويقوم بعمليات فدائية داخل فلسطين.

يصفها صديقه الطبيب النفسي بأنها عقدة الأم فيقول: «لقد جازفت وسميت هذا يومًا بعقدة الأم، التي يقول كارل يونغ إنها تبدو في وجهها السلبي في الدنجوانية. وهي عقدة غريبة؛ لأنها تحمل أضدادًا مهمة. أصحاب الفعل الكبار في التاريخ هم أيضًا في الغالب عشاق نساء كثيرات. ويبدو أن هذا العشق اللحوح يزود أحيانًا الوجة الإيجابي من عقدة الأم هذه فتتبدى العقدة في أشكال من الرجولة، والعزم، والطموح، ومحاربة الظلم، والرغبة في التضحية بالنفس في سبيل الحق لدرجة البطولة، فهذه العقدة إذن التي يتمثل وجهها السلبي بحب امرأة بعد أخرى وجهها الإيجابي يتمثل في شهوة في استطلاع ألغاز الكون مشفوعة بتلك الروح الثورية التي تكافح لكي تعطي العالم وجهًا جديدًا»[٣١].

هوامش الفصل الرابع:

(١) في مجال الترجمة ترجم «جاتسبي العظيم»: تأليف سكوت فتزجرالد، سنة ٢٠٠٦. وترجم لشكسبير «هاملت» و«ماكبث»، و«الملك لير»، و«العاصفة والصخب والعنف»، لوليم فوكنر. و«في مجال التجربة» ـ الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ٢٠٠١ ـ «شارع الأميرات»، سنة ١٩٩٩ ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ للدراسات والنشر، سنة ١٩٩٢ ـ «عالم بلا خرائط» ـ بالاشتراك مع عبد الرحمن منيف ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ «عرق وبدايات من حرف الباء» ـ دار الآداب ـ ١٩٨٩، ويعتبر جبرا أستاذ الأدب، والفنان التشكيلي، والمترجم، وقبل وبعد، الروائي الكبير، الذي تناول، عن كثب، لرؤية الفلسطيني في مرحلة الشتات، التي تبدأ من نكبة عام ١٩٤٨، وقد بدأت برواية «صراخ في ليل طويل»، سنة ١٩٤٦، «صيادون في شارع ضيّق»، التي كتبها باللغة الإنجليزية، ثم ترجمت إلى اللغة العربية، سنة ١٩٦٠، ثم رواية «السفينة» التي نشرت، لأول مرة، سنة ١٩٧٠، ثم سنة ١٩٩٨، دار الآداب بيروت، ثم «سلسلة آفاق عربية» الهيئة العامة للثقافة سنة ٢٠٠٢، ورواية «البحث عن وليد مسعود»، التي نشرت، لأول مرة، سنة ١٩٧٨، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩، وأخيرًا «الغرف الأخرى»، سلسلة مختارات فصول، يوليو/ تموز ١٩٨٨. وقد قمت بترتيب هذه الروايات بترتيب غير تاريخي، يعتمد بصورة أساسية على تطور فنيات الكتابة عند جبرا.

(٢) غسان كنفاني، **الأعمال الكاملة**، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠٠١، ص ١٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٩٨.

(٤) راجع كتاب **الرواية العربية البناء والرُّؤيا**، د.سمر روحي الفيصل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٣.

(٥) رواية السفينة، ص٥.

(٦) رواية **السفينة**، ص٦.

(٧) **بغيابها كونت صورتها ـ لا تعتذر عما فعلت** ـ رياض الريس،٢٠٠٤، ص٤٩.

(٨) **في القدس** ـ المرجع السابق، ص ٤٧.

(٩) ولنا بلاد، **المرجع السابق**، ص ٤١.

(١٠) رواية السفينة، ص ١١.

(١١) رواية السفينة، ص ١٦.

(١٢) رواية السفينة، ص١٧.

(١٣) رواية السفينة، ص١٨.

(١٤) محمود درويش، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥.

(١٥) **السفينة**، ص ٤٣.

(١٦) **المصدر نفسه**، ٤٥.

(١٧) **السفينة**، ص ٥٧.

(١٨) **السفينة**، ص ٥٨.

(١٩) **السفينة**، ص ٥٣.

(٢٠) **البحث عن وليد مسعود**، ص ١٢.

(٢١) **البحث عن وليد مسعود**، ص ١٣.

(٢٢) درويش ـ لا تكتب التاريخ شعرًا، **المرجع السابق**، ص ٩٧.

(٢٣) **البحث عن وليد مسعود**، ص ١٣.

(٢٤) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٢٤.

(٢٥) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٢٥.

(٢٦) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٣٠.

(٢٧) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٣٩.

(٢٨) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٥٢.

(٢٩) **البحث عن وليد مسعود**، ص ٨١.

(٣٠) **البحث عن وليد مسعود**، ص ١٢١.

(٣١) **البحث عن وليد مسعود**، ص ١٢٣.

obeikan.com

الفصل الخامس

إسحاق موسى الحسيني
هذا المثقف الموسوعي

رضوى عبد القادر

من رحم المعاناة يولد الفكر والإبداع الخلّاق، وهذه فلسطين أكبر دليل على ذلك، فهي ولّادة للمفكرين، والمثقفين، والأدباء، الذين أثروا الحياة الثقافية الفلسطينية خاصة، والعربية عامة، وكانت القدس هي الرحم الفلسطيني الذي اختص الكثير من الشخصيات، ذات الأثر البارز في التاريخ العربي الفلسطيني، ولعل من أهم هذه الشخصيات الدكتور إسحاق موسى الحسيني، تلك الشخصية الثرية، الغنية بالكثير من المقومات.

نشأته

ولد إسحاق موسى صالح بن عمر الكبير بالقدس، في حارة السعدية، عام ١٩٠٦(*). وعمر الكبير، جده الأعلى، كان نقيب الأشراف في القدس، وله دور سياسي واجتماعي، واقتصادي ملحوظ في حياة المجتمع المقدسي، لانحدار أجداده ـ فيما رُوي ـ من العترة النبوية الشريفة، وهم الأشراف الحسينيون؛ لذلك امتلكوا حضورًا دينيًّا متميزًا منذ قرون. وبدءًا من ١٨٠٠م تولوا نقابة الأشراف في القدس، وظل هذا المنصب الديني المرموق منحصرًا في أفراد العائلة إلى عهدٍ قريب[١].

أما والده، فكان رجلًا ورعًا مستقيمًا، اشتهر بتصوفه، وقد انتمى إلى الفرقة الرفاعية الصوفية؛ ولذا رغب الوالد في أن يوجه ابنه، إسحاق، وجهة دينية صالحة ، فأدخله الكُتّاب ليتعلم القرآن، وكان أول كُتّاب دخله كتاب جامع الشيخ لولو، ومن بعده كتّاب الشيخ ريحان، ولم يمكث فيه سوى فترة قصيرة؛ لأن والده توفي سنة ١٩١١م، وآثرت

(*) ترى مراجع أخرى أن ولادته عام ١٩٠٤م، ولكن ١٩٠٦م هو الأقرب إلى الصواب.

والدته أن تنقله إلى المدارس النظامية، بعد ما عاناه من عصا الشيخ، وقسوة المعاملة[٢] وقال الحسيني في هذا الصدد: «كانت لشيخنا شخصية قوية، وعصا طويلة، فلم نستطع أن نسأله ... أحسب أنه كان المطلوب أن نحفظ إلى أن يأتي الفهم، لا أن نفهم إلى أن يأتي دور الحفظ»[٣].

في القدس ويافا ترعرع الفتى إسحاق، وفي كتاتيبها ومدارسها النظامية تعلم الابتدائية، أما دراسته الثانوية، فكانت في الرشيدية، التي التحق بها، وهو لم يتجاوز العشر سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة بلوز سلطان سليم، وتعلم فيها العربية والتركية، ثم التحق بالكلية الصلاحية، التي أعاد تأسيسها القائد التركي، أحمد جمال باشا، عام ١٩١٥م، وجعلها شبيهة بجامعة الأزهر، في القاهرة، وذلك بسعي من صديق والده، الشيخ عبد القادر المظفَّر، وقضى فيها الفتى سنتين، درس فيهما التربية الإسلامية، واللغة العربية، وبعض مبادئ الفارسية[٤]، إلى أن أغلقت بقرار من سلطات الاحتلال البريطاني، عام ١٩١٧م، فاضطر الحسيني إلى مواصلة تعليمه الثانوي، حيث التحق بمدرسة الفرير الفرنسية، وقضى فيها سنتين (١٩١٨ - ١٩٢٠م)، ثم ثانية بالرشيدية، وكان مديرها، آنذاك، أديب العربية المرموق، محمد إسعاف النشاشيبي، لكن الفتى تركها، بعد فترة وجيزة، ليلتحق بالكلية الإنجليزية (كلية الشباب)، وفيها التقى أستاذه، نخلة زريق، وتخرج منها الحسيني عام ١٩٢٢م. وبعدها توجه إلى القاهرة، فدرس الصحافة في الجامعة الأمريكية، من السنوات (١٩٢٣ ـ ١٩٢٦م)، قبل أن يعود إلى القدس ليعمل مدرسًا في الرشيدية، ثم عاد ثانية إلى القاهرة، ١٩٢٧م، ليدرس في جامعة فؤاد (القاهرة اليوم) آداب اللغة العربية والساميات، ونال ليسانس الآداب (١٩٣٠م). ومنها إلى لندن ليواصل دراسته في «معهد الدراسات الشرقية والأفريقية»، بجامعة لندن، في السنوات (١٩٣٠ـ ١٩٣٤م)، حيث حصل على درجة الدكتوراه، وكان موضوع أطروحته «ابن قتيبة»، وقد نقلها الدكتور هاشم ياغي إلى العربية. وبعد حصول الحسيني على الدكتوراه عاد إلى القدس للعمل في كل من الكلية الرشيدية، والكلية العربية، حيث عُين أستاذًا للأدب العربي في الكلية العربية حتى عام ١٩٤٦م، ثم مفتشًا للغة العربية، في دائرة المعارف العامة في فلسطين، حتى وقوع النكبة (١٩٤٨م)[٥].

الثقافة في مصر

كانت مصر في الفترة التي ذهب إليها الحسيني متأثرة بثورة ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول، والتي أدت إلى ظهور أحزاب سياسية في الساحة المصرية، فقد تحركت ثلاثة تيارات: حزب الوفد، بزعامة سعد باشا زغلول، حزب الأحرار الدستوريين، بزعامة عبد الخالق ثروت باشا، وعدلي يكن باشا، وأحمد لطفي السيد، والحزب الوطني، بزعامة حافظ رمضان، وقد مال الحسيني إلى حزب الأحرار؛ لأنهم، كما قال في ذكريات العمر: «يمثلون الصفوة المفكرة»[٦].

لقد أتيحت الفرصة للحسيني، وهو في مصر، فرصة الاستزادة من العلم، وتوسيع آفاق معرفته، عن طريق الدراسة النظرية المنتظمة من جهة، ومن خلال مجالسة الأدباء، والعلماء، وحضور ندواتهم من جهة ثانية. حيث فتحت هذه المجالس أمامه أبوابًا للتفكير، والرغبة الملحة في استكمال ثقافته، فضلًا عن فرصة الالتقاء برموز الثقافة المصرية، وبنفر من أئمة العلم والأدب في تلك الفترة، مثل عميد الأدب العربي، طه حسين، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمود عزمي، كما التقى نفرًا من كبار المستشرقين. دأب الحسيني على ترديد: «أنا مدين

لهؤلاء الأساتذة؛ لأنهم نمُّوا فيَّ روح العقلانية، التي نبتت فيّ منذ الصغر». ويستذكر الحسيني حياته في القاهرة ويقول: «عشنا في القاهرة نجمع بين الدراسة الجادة في الجامعة، وبين حضور الندوات السياسية، والمحاضرات العامة، واللقاءات الصغيرة، وفي دارة محمد علي الطاهر(*) الرجل الفذ في شكله، وأدبه، وعلاقته بالناس، وكفاحه المستمر في خدمة القضايا العربية والمشردين»[٧] لثراء ثقافة الحسيني، في تلك الفترة، عمل على تأليف «اللجنة الثقافية العربية» في فلسطين عام ١٩٤٥م ـ وعمل سكرتيرًا لها ـ لرصد الحياة الثقافية في أرض الوطن، كما عملت تلك اللجنة ما بوسعها في سبيل التعاون مع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية الأخرى. وقد أقامت تلك اللجنة المعرض الأول للكتاب الفلسطيني في نادي الاتحاد الأرثوذكسي العربي، في القدس، عام ١٩٤٦، وأصدرت كراسًا سجلت فيه أسماء الكتب، والمؤلفين الفلسطينيين والأردنيين، وسنوات طباعتها. فقد بذل الحسيني الجهود لكشف هذا الجانب من التراث العربي، وليبين للناس بأن «القطرات لم تنقطع، والأذهان لم تتوقف، حتى في أشد الظروف قساوة». وقال في هذا الصدد: «فنحن، إذن، لم نتكلف انتحال حياة مفقودة، ولا تجميل وجه بشع، وإنما نبرز حياة أصيلة، وننظمها على وجه يكفل لها الظهور أمام كل عين»[٨].

بعد نكبة ١٩٤٨ وفد الحسيني مدينة حلب، مخلفًا في بيته، ببيت المقدس، مكتبة غنية بأمهات المراجع الأدبية والتاريخية. وفي عام ١٩٤٩م نزح إلى بيروت، وعمل أستاذًا للأدب العربي في الجامعة الأمريكية هناك حتى عام ١٩٥٢. ثم ذهب إلى جامعة مكجيل، في كندا، معارًا من الجامعة الأمريكية ببيروت، وألقى محاضرات في الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، وفي عام ١٩٥٥ هبط القاهرة، وتولى تدريس الأدب العربي في الجامعة الأمريكية، وفي «معهد الدراسات العربية»، التابع لجامعة الدول العربية، ثم رئيسا لقسم اللغة العربية في المعهد نفسه. كما أسهم الحسيني في تأسيس «لجنة القدس» للأبحاث والدراسات، وأصبح رئيسًا لها[٩].

ثمرات تقدير مكانته

ظل الدكتور الحسيني مطوَّفا في ربوع مصر، ولبنان، وكندا، فكانت رحلة حافلة بالكشف، والبحث، والمحاضرة، وقد أعانه عليها ذهن متوقد، وبصيرة حاذقة، وصبر وجلد، وحب وتفان. من أجل ذلك حظي بمكانة مرموقة في الأوساط الجامعية الثقافية، في الأقطار العربية، والغربية، التي عمل بها، ومن ثمرات هذا التقدير انتخابه عضوًا عاملًا في «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف، سنة ١٩٦٣، وعضوا في المجمع العلمي العراقي ببغداد (١٩٧١)، وعضوًا في مؤسسة «آل البيت» لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، كما اشترك في العديد من المؤتمرات، والندوات، مثل مؤتمرات الأدباء العرب، ومؤتمر الكُتاب الآسيويين الأفريقيين، ومؤتمر تاريخ الأديان الدوري في

(*) ولد في نابلس، ١٨٩٦م. ولجأ في مطلع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ إلى القاهرة، هربًا من مظالم جمال باشا السفاح، لكن السلطات البريطانية سجنته، سنتين، في مصر (١٩١٥ـ ١٩١٧). عاد إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب الأولى، لكنه سرعان ما غادرها إلى القاهرة، ١٩٢٠، حيث ألف «اللجنة الفلسطينية»، وترأسها، ودأب على الكتابة في الصحف المصرية عن فلسطين، كما نسج علاقات وطيدة مع القوى السياسية المصرية، في السياق نفسه، وأصدر، ١٩٢٤، صحيفة «الشورى» لدعم الكفاح الوطني في الأقطار السورية الأربعة، وبعد مصادرة هذه الصحيفة أعاد إصدارها بأسماء مختلفة (الرقيب، المنهاج، الناس، الشباب، العَلَم المصري). وتعرض للاعتقال في مصر سنوات ١٩٢٥، ١٩٤٠، ١٩٤٩)، غادر القاهرة إلى بيروت، ١٩٥٥، حيث توفي، ودفن فيها.

أحمد عمر شاهين، **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**، ط ٢، الجزء الثاني، غزة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠، ص ٦٧٦ - ٦٧٨.

اليابان، كما قُدِّر الحسيني من بني عروبته حق قدره، وعرفوا ما له من فضل، فمنح «وسام العلوم والفنون» من الطبقة الأولى من جمهورية مصر العربية (١٩٨٣). أما أبناء شعبه الفلسطيني، فقد منحوه «قلادة الضاد»، و«درع فلسطين»، وبايعه الأدباء والكتاب الفلسطينيون عميدًا للأدب العربي الفلسطيني، في الحفل التكريمي، الذي بادر إلى إقامته «مركز إحياء التراث»، في طيبة بني صعب[١٠]. وبعد عودته إلى القدس، عام ١٩٧٣، أسهم د. إسحاق في دفع مسيرة الحركة الثقافية والتعليمية، وكان له نشاط ملحوظ، وإسهام رائد في مختلف الميادين، ومن ثمار ذلك تأسيس كلية جامعية، ومركز للأبحاث الإسلامية في بيت أستاذه، أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، كما أخذ يعمل على جمع الكتب العربية من المكتبتين العامة والخاصة، لتكون نواة لمكتبة إسلامية في بيت المقدس[١١].

بناء الشخصية

هذه الشخصية الثرية بأدبها، وفكرها، وعطائها، كانت نتيجة لعدة مؤثرات ثقافية، وعوامل، أسهمت في بناء تلك الشخصية، ونسجها، وتحديد ملامحها.

لعل أسرته أول تلك العوامل ـ كما ذكر الحسيني نفسه ـ التي غرست في نفسه، منذ الصغر، السلوك الحسن، والقيم الأخلاقية الرفيعة، ونمَّت فيه حب الخير، والتمسك بالمبادئ الإنسانية. فكان في تصوُّف والده ما بعث في الفتى عطفه على الفقراء. مما ترك أثرا في إسحاق جعله توسع في خدمة مجتمعه، بل خدمة الإنسانية جمعاء. أما والدته، فقد كانت من أسلم الناس فطرة، وأكرمهن أخلاقًا، وأحناهن على ولد، فضلًا على دقة فهمها، ورقة شعورها، واقتصادها، مع يسر أحوالهم المادية. واعترف الدكتور الحسيني بفضل والدته عليه في هذا المجال، فقد تعلَّم منها الصبر، وتحمل المشاق، كما تشرب التنظيم، والتدبير، والاقتصاد في العيش[١٢].

أما العامل الثاني في تكوين شخصية الحسيني فهو البيئة العلمية، والدراسية، التي نشأ فيها، وإلى المعلمين، والشيوخ الذين نمّوا استعداده، وتعهدوه بالرعاية والتوجيه، ولا سيما أستاذه النشاشيبي، الذي وجه تلميذه، الحسيني، صوب الأدب القديم، ودله على ما يجب مطالعته من كتب المتقدمين في اللغة، والأدب، والتاريخ، وكذلك فعل أستاذه، أستاذ اللغة العربية في الكلية الإنجليزية، نخلة زريق، الذي ما انفك الحسيني يثني عليه، ويحمد له أسلوبه في التدريس، وبث الروح الوطنية، والقومية، في نفس طلابه، كما كان لاتصاله المباشر بالأديب المجدد، خليل السكاكيني، أثر إيجابي ظاهر، خاصة في أساليب التدريس، فالمقصود من التعليم، كما قال السكاكيني: «توسيع المدارك، وتقوية العقل، لا حشوه بمعلومات الأولين والآخرين ليمتلئ، ولكن يبقى صغيرًا»، وقال الحسيني: «كان للسكاكيني دور كبير في إنشاء جيل قوي، يحمل المسؤولية، ويناضل من أجل الحرية، وكان يرى أن الغرض من التربية تنمية روح الاستقلال في الطلاب، وتنشئتهم على العزة والأنفة، والصدق»[١٣]. كما نوّه الحسيني بجهود بعض المستشرقين، وفضلهم في تحقيق، ونشر أمهات كتب التراث العربية، بمنهجية علمية، ارتكزت على الاستقصاء الدقيق، والإحاطة الشاملة، والعناية بجزئيات المباحث، وتقديمها على كلياتها، فضلًا على الشخصيات الأخرى التي تأثر بها، وأفاد منه بطريق غير مباشر، مثل عميد الأدب العربي، د. طه حسين، ومصطفى عبد الرازق، وغيرهم[١٤].

أما العوامل الثلاثة المتبقية، فلا تقل أهمية في تأثيرها عن العوامل السابقة، **وأولها**: نشأته في القدس الشريف،

المدينة المقدسة الخالدة، والوهج المشع على مر العصور، ومهبط الأنبياء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين، وميدان الصراع، ورمزه بين العرب والمسلمين من جهة، وموجات الغزو الخارجي من جهة أخرى.

ولقد كرَّس الحسيني للقدس من جهوده، ومؤلفاته الشيء الكثير، وعني بها عناية فائقة، لما كانت تمثله من هاجس مؤرِّق، ومصدر ألم مستديم له. **وثاني تلك العوامل**: انضمام الحسيني إلى مجمع اللغة العربية ، في القاهرة، مما أثر في مسيرته العلمية، ونمط تفكيره. فيما **تمثل العامل الثالث في**: السيدة الفاضلة قرينته، علوية الحسيني (أم حاتم)، فكان صاحبنا.. يذكرها في كل مناسبة، مشيدًا بفضلها، منوِّها بجهودها، ودأبها على توفير جو عائلي مفعم بالطمأنينة، والاستقرار النفسي، بل كان الحسيني نفسه يحجم عن نشر أي نتاج له دون أن يطلعها عليه لتبدي رأيها فيه، ثقة منه بذوقها العالي ، ورأيها السديد[١٥].

مواهب متعددة

اجتمعت تلك العوامل والمؤثرات لتنتج شخصية متعددة المواهب في مجالات شتى، فكان الحسيني ذلك الأديب، والشاعر، والناقد، والمربي، والباحث، فضلًا على غيرته على اللغة العربية، وشغفه بالعلم، واتصافه بالسماحة، والتواضع.

في الأدب، للحسيني رأيٌ مؤداه: «إن الأدب رسالة إنسانية، قوامها المشاعر النبيلة، والأحاسيس الصادقة، والأفكار السامية، والصياغة اللغوية المتأنقة، فهو بالنسبة للفرد ضرورة من ضرورات الحياة، وللأمة سجلها الذي يحف نبضات قلبها، وأشواق روحها، وإشراف عقلها[١٦]. والأدب الناجح في رأي الحسيني: «لا بد له من شرطين: **الأول**. أن تكون الكتابة إفراغًا بعد امتلاء، **والثاني**: أن يكون الأديب ملتزمًا، وأن يفتح قلبه لخفايا القلوب»[١٧]. ومعنى ذلك أن الأدب والقومية صنوان لا يفترقان، «فإذا قيل إن الأدب لا موطن له، فإننا نقول إن أدبنا موطنه وجدان الأمة العربية، ولسانها المبين في إطاره الخاص، ووجدان الإنسانية كلها في إطاره العام»[١٨]. وكانت دراساته، كما وصفها الدكتور عبد الرحمن ياغي، «مثلًا للنقاء من الحشو، أو من اللغو، أو من التكثر، الذي يزيد الحجم على حساب الحقيقة»[١٩].

أما شعر الحسيني، فامتاز بالبساطة، وصدق العاطفة، والبعد عن الغريب. كما أنه ناقد نصيف، شارك في مسيرة النقد العربي الحديث، بروح نقدية بعيدة عن التصنُّع، جافية عن التكلف، وله في تاريخ النقد جهود قيمة، تستحق الثناء والتقدير، فاستطاع بنقده أن يوجه الأدب الوجهة الصائبة، في الاتجاه الخصيب الأصيل، ليرقى إلى المستوى الإنساني النبيل. فيما تمرَّس الحسيني بقضايا اللغة العربية، وعلومها المتشعبة، وله في هذه العلوم مباحث شتى، دلت دلالة واضحة على ذهنيته الواعية، وعقليته المتحررة، التي نزعت إلى الاجتهاد، وأبت التقليد، كما أنه تبنى الدعوة إلى تجديد وتطوير اللغة، حتى تجاري الحضارة الحديثة، على أن للتجديد، في رأيه، حدودًا لا ينبغي تجاوزها؛ لئلا تسود الفوضى، ويشيع التعصب الذميم بين الناس[٢٠].

فضلًا على ذلك، فالحسيني، قبل كل شيء، مُربٍّ قدير، لجيل كامل، كرّس شطرًا كبيرًا من عمره للعمل في مجال التربية والتعليم، كما وضع للعاملين في قطاع التعليم، والمهتمين به، مؤلفات عدة، واختبارات في تدريس العربية

بجميع فروعها، وفق أحدث الأساليب التربوية، التي ارتكزت على التوجيه والإرشاد، ونبذت التلقين، حيث قال الحسيني: «العلم التلقيني يقتضي، في الغالب، الاعتماد على الذاكرة، يصيبه ما يصيب الذاكرة من ضعف واضطراب، ولهذا يقتضي أن يكون التوجيه من أول مرامي التعليم»[٢١].

ما أدى بالحسيني إلى أن يكون باحثًا مدققًا، ومفكرًا بعيد النظر، عميق التحليل، تحكي بالخلفية العلمية من اتزان، وتواضع، وحيوية، وصبر، وقد اختط لنفسه في أبحاثه ودراسته للظواهر، والقضايا الفكرية، التي مسَّت واقع أمته، منهجًا أصيلًا، اعتمد على العمق، والتدقيق، والاستنباط، والموازنة، والترجيح، وصولًا إلى النتائج، بطريقة جمعت في نسق واحد بين الموضوعية والجاذبية الفنية [٢٢].

وجملة القول: إن شخصية الحسيني حفلت بالعطاء، ولعل أبرز شمائل تلك الشخصية: شغفها بالعلم، وحرصها الشديد على الاستزادة والمعرفة، مع زهد في المظاهر الكاذبة، والمناصب الخادعة [٢٣]، فضلًا على اتصاف تلك الشخصية بالسماحة، والتواضع، والتفاؤل؛ لذا أُولي محبة في نفوس الكثيرين، خاصة طلابه[٢٤]، واكتملت دائرة شمائل تلك الشخصية بصفة التسامح، والمحبة، والنزعة الإنسانية، التي جعلت منه عاشقًا للحرية، وكان مرشده، في كل الآفاق التي ارتادها، الحديث الشريف: «**الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**»[٢٥].

من أهم مؤلفاته[٢٦]

بتعدد مواهبه وقدراته العلمية، تعددت مؤلفات الحسيني في مجالات شتى: العلمية، والإبداعية، والفكرية، والإسلامية، والتاريخية، والقومية، فضلًا على اللغوية.

أما مؤلفاته العلمية، وكتاباته الإبداعية، فله منها: «ابن قتيبة»، وعنها نال الحسيني درجة الدكتوراه من «معهد الدراسات الشرقية»، بجامعة لندن (١٩٣٤)، ونشرت في بيروت، عام ١٩٥٠م، وترجمها الدكتور هاشم ياغي إلى العربية، ونشرت في المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في بيروت (١٩٨٠)، وتعد هذه الدراسة إسهامًا رائدًا في الدراسات النقدية، كما قدمت صورة صادقة عن منهج الحسيني وأسلوبه في البحث العلمي. فيما كانت «مذكرات دجاجة» ألصق أعمال الحسيني به، وصدرت ضمن سلسلة (اقرأ)، في القاهرة (١٩٣٤)، وفازت بالجائزة الأولى، وترجمت إلى الفرنسية، فحققت انتشارها الجغرافي داخل الوطن العربي، وخارجه. وفي هذا العمل تجلى حب الخير، وحب الإنسانية، وطلب الحسيني، بكل حرارة ودماثة، من قراء «مذكرات دجاجة» أن يحسنوا الظن بهذه المخلوقات الوديعة، ويحلقوا معها لبعض الوقت، في عالم مثالي، وأن النعمة هي الحب وحده، وإن وجد تركزت جميع نعم الدنيا فيه، وإن فُقد عادت نعم الدنيا جميعها إلى العدم[٢٧]. كما طلب الحسيني من الأجيال الانتقال من حدود الأماني إلى العمل للمزيد. ولقد أحدثت «مذكرات دجاجة» ضجة وردود فعل واسعة من النقاد والمهتمين برصد الحركة الأدبية في فلسطين وتاريخها، ففي حين عدّها بعضهم من الأعمال الروائية الريادية، التي تعبر عن واقع مرحلة حرجة من تاريخ القضية الفلسطينية [٢٨]، وأنها لا تعدو كونها من الأدب الجميل، الذي حمل فكرة فلسفية، في قالب قصصي معبِّر[٢٩]. فيما أيد الحسيني نفسه هذا الرأي، ومال إليه، فقد كرر، في غير مناسبة، أن القضية لم تخطر بباله وهو يكتب تلك المذكرات، إلا أن البعض رأى بأنه من العسير قبول فكرة التجريد المثالية هذه، حيث إن الحسيني نفسه قد ألمح إلى شيء من ذلك، حين قال: «إن المذكرات كانت أكبر تحدٍّ يواجه به الانتداب البريطاني، حين كان موظفًا

في الحكومة». وقال، في موضع آخر: «إنها كانت ثمرة تأمل في مجتمعنا، في تلك الفترة التي شهدت صراعًا مريرًا بين القيم الخلقية والاجتماعية»[٣٠]. لذا عمد د. عبد الرحمن ياغي إلى التوفيق بين الرأيين السابقين، مبررًا ما أشار إليه بعضهم من تناقض في الرموز المستخدمة، فقد اتخذ فلسفته الوجدانية وسيلة لدرس شؤون مجتمعه، السياسية، والاجتماعية، وفي أسلوب شعري ممتع، صوَّر به كثيرًا من العواطف التي يرتبط بها أفراد المجتمع[٣١].

فيما قدَّم صاحبنا سلسلة الطرائف للأطفال، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ونشرت في القدس، عام ١٩٤٧، وهدفت إلى تقديم ثقافة متطورة للطفل، كمده بقيم تتفق مع عالمنا الجديد، وتنمي مداركه ووعيه، وتصله بماضيه المجيد. أما «**هل الأدباء بشر؟**»، فكتاب صغير الحجم، ضم خواطر ومقالات متفرقة كتبها الحسيني في أوقات مختلفة سبقت النكبة، ثم جمعها، وطبعها في بيروت، عام ١٩٥٠م. وأطلق عليها عنوان الموضوع الأول، وتحدث في بعض المقالات عن بعض الظواهر الاجتماعية، والنفسية في حياة الأدباء، وفي مقالات أخرى عن الحركة الأدبية في فلسطين. وكانت الفكرة التي انطلق منها في هذه المقالات أن تربة هذا الوطن لم تجدب يومًا، ولم ينقطع عطاؤها، رغم توالي المآسي، والنكبات، وخرج الحسيني بأسماء لامعة كثيرة، وآثارها، ردًّا منه على المشتغلين من الأجانب بالدراسات العربية، الذين توهموا بأن تربة هذا الوطن الغالي أقفرت من الأدب، والأدباء. كما حذر الحسيني، مرارًا، فنحن والله مستهدفون في مجال العلم، تمامًا، كما نحن مستهدفون في مجال السياسة، والاقتصاد، وهل يمكن أن ينتظم في هذه الدنيا عرف يزدري العقل، ويتحرر من الحياء؟ حاشا لله، فهذا العصر التلمودي الصهيوني لن يستطيع أن يقف في وجهه إلا من تحصَّن بالعقل والأصالة العربية، بعيدًا عن الخزعبلات، والتبريرات السياسية الاستسلامية [٣٢].

عن الأدب، أيضًا، كتب الحسيني «**المدخل إلى الأدب العربي المعاصر**» (١٩٦٣)، «**الأدب والقومية العربية**»، و«**النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين**» (١٩٦٧)، «**في الأدب العربي الحديث**» (١٩٨٢)، فضلًا على جملة من الأبحاث والمقالات منها: المسيح في القرآن، أثر المعري في الأدباء المعاصرين، قصيدتان توأمان[٣٣].

أما مؤلفات الحسيني في الفكر الإسلامي، فذات أثر بالغ في هذا المجال، أهمها: «**الإخوان المسلمون (كبرى الحركات الإسلامية)**»، صدرت منه ثلاث طبعات (١٩٥٢، ١٩٥٤، ١٩٥٥) عن دار بيروت، وفي الطبعة الثالثة، ألحق الحسيني الكتاب بمقدمة موجزة، قال فيها: «لم يكتب هذا الكتاب للإخوان، ولا عليهم، وإنما كتب لتأريخ الدعوة، تأريخًا علميًّا محضًا، منذ بدايتها، إلى الوقت الحاضر».

ورأى الحسيني بأن «دعوة الإخوان المسلمين تستحق هذا التأريخ، لأسباب ثلاثة: **الأول**: أوجدت الحركة أثرًا في التاريخ الحديث، لا يجوز أن يُهمل، **الثاني**: أنها جزء من التاريخ الحديث، **الثالث**: ظاهرة لها أصول في التاريخ الإسلامي، وهي متأثرة بالمدرسة السلفية الحديثة[٣٤]. كما ترجم الحسيني كتاب «**الإسلام في نظر الغرب**» (١٩٥٣) إلى العربية، ونشره في بيروت، وفيه تناول الحسيني أوجه الحضارة الإسلامية قديمًا، والسبل الكفيلة برفعة المسلمين، وارتقائهم، إلى كتابه «**أبحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم**» (١٩٦٦) بالقاهرة. فضلًا عن الأبحاث والمقالات التي تناولت الآثار الإسلامية في بيت المقدس، بعد الفتح العمري، والجانب الإسلامي في القضية الفلسطينية، وشخصية الرسول في القرآن الكريم. أما كتبه التربوية، فمنها: «**رأي في تدريس اللغة العربية**»، و«**فن إنشاد الشعر العربي**» وغيرها، بجانب الأبحاث في المجال التربوي، مثل: تعريب التعليم العالي الجامعي، التربية أولًا. فيما جاءت

كتبه في التاريخ، مثل: «**عروبة بيت المقدس**» (١٩٦٩)، «**أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي**» (١٩٨٧)، «**خليل السكاكيني الأديب المجدد**» (١٩٨٧)، كما كانت له أبحاث ومقالات عدة في هذا المجال، منها: «**أبو العلاء المعلم**»، و«**خليل السكاكيني**»، و«**إلياس طعمة**»، و«**فلسطين وإسرائيل**»، و«**من ذكريات العمر**»[٣٥] أما القومية، فقد أعطاها الحسيني مساحة واسعة من كتاباته، فهذه كتبه: «**علماء المشرفيات في إنجلترا**» (١٩٤٠)، و«**عودة السفينة**» (١٩٤٥)، و«**عروبة بيت المقدس**» (١٩٦٨)، و«**قضايا عربية معاصرة**» (١٩٧٨)، أما كتاب «**أزمة الفكر العربي**»، الذي صدر في بيروت عام ١٩٥٤، فبحث إلى جانب أزمة الفكر العربي العروبة والآراء المتضاربة حول استبدال حروف لاتينية بالحروف العربية، فضلًا على مشاكل وقضايا العالم العربي، وأنظمته، وقال الدكتور الحسيني: لهذه الأزمة مظاهر عدة، أهمها: «الحيرة، الارتجال، فقدان العقلانية، فقدان الجرأة والحرية الفكرية». كما وضع الحسيني فاصلًا بين ما نسميه أُمة عربية وبين ثقافة عربية، فالأولى، مظاهر لم تستكمل نموها، والثانية، حقائق راسخة تمخضت عنها القرون، وزادتها الأيام ثباتًا ورسوخًا، فلا بد من اتخاذ الخطوة العلمية، وهي التقريب بين الشعوب العربية، وتلك العناصر الخالدة في الحضارة العربية، وهذا ما عناه الحسيني بـ «**التعريب**»، فرأى أنه كما ابتعد المسلمون عن الإسلام، وروحه، ومُثُله الكريمة، ابتعد العرب عن الثقافة العربية، ومُثُلها، وأدبها. وفي الكتاب نفسه فرق الحسيني بين فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن المجتمع، فالدين لا ينفصل عن المجتمع، كما لا تفصل الروح عن الجسم الحي. فيما أكد الحسيني بأن الإسلام الذي يُتهم بالجمود، ظلمًا، قد مهَّد السبيل عن طريق القياس، والاجتهاد، والإجماع، والمصالح المرسلة إلى هذا التطور في كلتا الناحيتين في شؤون الدين والدنيا معًا، كما أكد الحسيني في كتابه هذا: «أن القومية لم تفرِّق بين المسلم والمسيحي (العربي)، لا في القديم، ولا في الحديث، فإسهام المسيحيين العرب في القومية العربية، والنهضة العربية، الحديثتين ظاهر ظهورًا يراه أبعد الناس، والإسلام، من حيث هو دين، اعتبر النصارى أقرب مودة إلى المسلمين من سائر أصحاب الأديان»[٣٦].

أشار الحسيني إلى تعريب العرب، في كتاب «**أزمة الفكر العربي**»، وكانت خير دراسة للحسيني، تعريب العرب (١٩٥٠)، وفيها قال الحسيني: «الحال في البلاد العربية، اليوم، تثبت إثباتًا قاطعًا؛ لأن عروبة العرب الحاضرة تدل على أن عروبتهم ليست متمكنة من نفوسهم، وأنها ليست متساوية في مختلف البيئات العربية».

كما حصر الحسيني القواعد التي نعوِّل عليها في اختيار سُمْك العروبة، أو رقتها في الشعوب العربية في خمس قواعد: **الأولى**: تمسك الشعب بمجموعه، بلغته، ومبلغ تذوّقه أدبه، **الثانية**: اعتزاز الشعب بالتاريخ العربي، وتفهمه أسراره وواقعه، **الثالثة**: تعلقه بتقاليد أمته، وسجاياها المتوارثة، المصفاة مما يشينها، **الرابعة**: حرصه على التراث القومي من نظم وسياسة ودين، **الخامسة**: الدفاع عن شرف العروبة، والذود عن الحِمى، وخرج الحسيني بنتيجة مؤداها: «أن الشعوب العربية تبدو شعوبًا عربية، اسمًا، مع اختلاف ظاهر في بعض البيئات العربية». ولذلك وجد الحسيني أن العرب بحاجة إلى تعريب أكثر ما هم بحاجة إلى توحيد، وخلص للدعوة إلى «ضرورة أن يعرف بعضنا بعضًا، معرفة حقيقية، وعقد المؤتمرات والأسواق الأدبية والعلمية، فضلًا على توسيع آفاق اللغة العربية، وتيسيرها، وتشذيبها، وإلى العناية بالكتاب العربي، حتى يصبح بمقام الرغيف عند كل فرد. غير أن الحسيني أكد على ضرورة التعاون الثقافي بين الأقطار العربية كافة، للاستفادة والتعاون، فقال: «إذا صدر كتاب في بغداد، يجب أن تُعنى به القدس»[٣٧].

من هذا المنطلق، كانت للحسيني بعض المؤلفات اللغوية الثرية، مثل كتاب «**الأساس في قواعد اللغة العربية**»، الصادر عن دار بيروت، عام ١٩٥٤، فضلاً على الأبحاث والمقالات، ومنها: «**معجم القرآن الكريم**» (١٩٤٣)، «**ألفا معربة**» (١٩٦٤)، «**أسماء بيت المقدس**» (١٩٦٨)، «**أسماء فلسطين**» (١٩٧١)، «**الزط**» (١٩٧٢)، «**تعريب الألفاظ العلمية**» (١٩٧٤)، «**اللغة الصامتة**» (١٩٨٠)، «**خطأ القياس**» (١٩٨١)، «حاشية علي كناشة» (١٩٨٢)[٣٨].

وبعد، فإن الدكتور إسحاق موسى الحسيني قد أعطى للأدب والثقافة العربية الكثير، كما أسهم في تطوير بعض المبادئ التربوية، لتنسجم مع متطلبات العصر الحديث، والحسيني شخصيته جمعت جوانب متعددة، فهو وطني، قومي، تربوي، أدبي، بمسحة إسلامية، ولكنه ابتعد قدر المستطاع عن السياسة؛ أغلب الظن لأنه رأى بأن لها حيثيات، ومبادئ يصعب اختراقها.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) **يوم القدس**، أبحاث الندوة الخامسة، القدس مدينة العلم ٩ - ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، عمان، قاعة المركز الثقافي الملكي، مديرية المكتبات والوثائق الوطنية (انظر: د. صالح الحمارنة، شخصيات مقدسية، د. إسحاق موسى الحسيني، ص ١٩٨ ـ ١٩٩).

ـ د. حسن عبد الحميد سلوادي، د. **إسحاق موسى الحسيني، عميد الأدب العربي الفلسطيني بين الوفاء والذكرى**، ط ١، القدس، مركز إحياء التراث العربي في الطيبة، ١٩٩١، ص ١٨.

(٢) د. إسحاق الحسيني، **تعلمت من الناس**، رام الله، مؤسسة اليرموك، د. ت، ص ٣٠.

ـ انظر أيضًا: يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨.

(٣) د. إسحاق الحسيني، حياتي المدرسية، **الفجر الأدبي (القدس)**، ع ٣٣، ص ١٥ (أورده: سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩).

(٤) الحسيني، تعلمت... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠

أورده: سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١.

(٥) للمزيد انظر: **المصدر نفسه**، ص ٢١.

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

- يعقوب العودات (البدوي الملثم)، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، عمان، ١٩٧٦، ص ١١٧.

(٦) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠١.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٠١.

سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٨) انظر: العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧ .

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٣ .

(٩) انظر: **المصدر نفسه**، ص ٢٠٠ .

-- العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

- سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٧

- العودات، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١١٧ .

- د. مهدي علام، **مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا**، القاهرة، مجمع اللغة العربية، د. ت، ص ٤٤ .

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠١.

(١١) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩.

- العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

(١٢) للمزيد، انظر: الحسيني، تعلمت... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤ .

- جميلة أبو لبن، **الدكتور إسحاق موسى الحسيني سيرته وآثاره**، عمان، رسالة ماجستير مخطوطة بالجامعة الأردنية، ص ١٥ ، ٢٤ .

(١٣) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢ .

(١٤) للمزيد انظر: الحسيني، تعلمت... **مصدر سبق ذكره**، ص ٦ .

- د. إسحاق الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، د. ت، ص٤.

(١٥) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣-٤٥.

(١٦) د. إسحاق الحسيني، **الأدب والقومية العربية**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية العالية، ١٩٦٦، ص ٢٠.

(١٧) د . إسحاق الحسيني، من الأديب الناجح، **الشراع** (بيروت)، ع٣٤، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١م، ص٧.

(١٨) الحسيني، الأدب ...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٥ .

(١٩) د. عبد الرحمن ياغي، **أكتب عن الدكتور إسحاق الحسيني**، من كتاب مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الأستاذ الدكتور إسحاق الحسيني، من بعض طلبته وعارفي فضله، ص ١٤١.

(٢٠) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١- ٥٣ .

(٢١) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠٢.

- د إسحاق الحسيني، **رأي في تدريس اللغة العربية**، القدس، المطبعة التجارية، ١٩٣٧، ص ٤٦-٤٨.

(٢٢) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤-٥٥.

(٢٣) د. الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢٤) ياغي، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٥) د. الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩.

(٢٦) العودات، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٢ .

(٢٧) أبو لبن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠ .

- د. محمد السعدي فرهود، **الدكتور إسحاق الحسيني والنقد المعاصر**، من مجموعة بحوث عربية.

- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤١-١٤٧.

-يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٠- ٢١٤.

(٢٨) ياغي، **مصر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

- د. أحمد أبو مطر، **الرواية في الأدب الفلسطيني**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ٣٦.

- د. تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين**، بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص٧٩.

(٢٩) د. جورج قنازع، **إسحاق الحسيني والوصايا العشر**، من مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الدكتور إسحاق الحسيني بمناسبة بلوغه الثمانين، القدس، مطبعة الشرق، د. ت.

(٣٠) الحسيني، تعلمت...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٧ ، ٧٣.

(٣١) ياغي، **مصر سبق ذكره**، ص ١٤٨.

(٣٢) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٧-٦٨.

- يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

(٣٣) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٨-٧٣.

(٣٤) د. إسحاق الحسيني، **الإخوان المسلمون، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٣، المقدمة.

(٣٥) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨-٨٣.

(٣٦) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٧- ٢٠٨، ٢١٠.

- الحسيني، **أزمة الفكر العربي**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٤، ص٢٠٥- ٢٠٦.

(٣٧) يوم القدس، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات نفسها.

(٣٨) سلوادي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩-٩٠ .

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السادس

نجاتي صدقي
المفكر والأديب المناضل

رضوى عبد القادر

إنه المفكر؛ والأديب؛ والقاص؛ والناقد؛ والمناضل؛ الذي لم ينل حقه مع من تبعهم وساندهم. هو محمد نجاتي بن بكر صدقي ألاي أميني. ولد في القدس، ١٥/ ٥/ ١٩٠٥، قبل أن تقوم «الاتحاد والترقي» بانقلابها العلماني المعهود في تركيا، صيف ١٩٠٨. وبدأ وعي صاحبنا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، عام ١٩١٤م، وشاهد بأم عينيه الإمبراطورية العثمانية وهي تنحسر عن بلاد الشام، لتحل محلها الإمبراطورية البريطانية، ويطل المشروع الصهيوني برأسه.

ولد نجاتي من والِدَيْن مقدسيين، والده كان مدرسًا للغة التركية، ومحبًّا للفنون الجميلة، والموسيقى، والمسرح، وإليه يعود الفضل في إدخال الحاكي (الغونغراف) إلى بيت المقدس، ووالدته نظيرة مراد. وقد تعلم نجاتي في المدرسة الصالحية، ثم الرشيدية، والمأمونية، والمكتب السلطاني. وفي الرابعة عشرة من عمره رافق والده إلى الحجاز، مع قوات الشريف فيصل بن الحسين العسكرية، الذاهبة لمحاربة الوهابيين. وتابع دراسته في الطائف، وبعد هزيمة قوات الشريف، غادرها نجاتي مع أسرته إلى سورية، ثم القاهرة، قبل أن يعود إلى القدس[١].

في تلك الفترة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٨)، واحتلال القوات البريطانية فلسطين في العام نفسه، واجتزائها من الجسم السوري، انحصر الكفاح الوطني في الإطار الفلسطيني هنا ولدت الحركة الوطنية الفلسطينية، بادئة مرحلتها الأولى، التي امتدت حتى أواخر العشرينيات، ومن سمات تلك المرحلة: احتكار كبار الملاك قيادة الحركة الوطنية؛ وحصر هذه القيادة معسكر الأعداء في اليهود، دون الصهيونية، أو الاستعمار البريطاني، وتقزيم القيادة الكفاح إلى مجرد مذكرات احتجاج، ومؤتمرات، فضلًا على رخاوة تلك القيادة التي عمدت إلى تشكيل

«الجمعيات الإسلامية المسيحية»، وفي المقابل ظهرت تنظيمات على يمين «الجمعيات»، وأخرى على يسارها. فإلى يسار «الجمعيات» تم تأسيس «الجمعية الفدائية»، و«الحزب الشيوعي الفلسطيني» ١٩٢٢م[٢].

عندما عاد صدقي إلى القدس عمل موظفًا بدائرة البريد والبرق، التي تقع عند الحد الفاصل بين المناطق العربية، والمناطق اليهودية، في ذلك الوقت. لذا، ضمت تلك الدائرة موظفين من العنصرين، وفيها التقى مختلف الأجناس والطوائف، مما أتاح لصدقي الفرصة للاحتكاك بالمهاجرين اليهود، فضلًا على ارتياده لمقهى صغير، قريب من الدائرة، وكان رواده من الأجانب، أيضًا. ودارت في هذا الوسط مناقشات في مواضيع شتى، كهجرة اليهود، ونضال العرب، وعصيان جابوتنسكي (*)، تخللت هذه المناقشات أبحاث عقائدية، ترجمها بعض المهاجرين، عرف منها صدقي وأصحابه بأن الاشتراكية تسعى إلى بسط سلطانها عن طريق المجالس النيابية، وأن البلشفية (**)، وقتئذٍ، أقامت في روسيا حكمًا اشتراكيًا، عن طريق الانقلاب والجيش الأحمر، وفي هذا الجو تعرف صدقي وأصحابه إلى جماعة من الشباب اليهود المهاجرين من روسيا، ومنتمين إلى «حزب العمال الاشتراكي» لفلسطين، وبثوا في صدقي وأصحابه دعاية، استهدفت عدة نقاط، منها: أن الصهيونية هي حركة برجوازية تفيد أغنياء اليهود فحسب، أما العمال اليهود، فمصلحتهم في الاشتراكية الدولية، وأن «الأفندية» العرب انتهازيون، متعاونون مع الاستعمار، ولا يرجى منهم خير؛ وأن «حزب العمال الاشتراكي» في فلسطين هو القادر على التوفيق بين مصالح الجماهير العاملة من الشعبين، وحل المشكلة الفلسطينية على أكمل وجه. وكان هذا من دواعي احتكاك صدقي بالحركة اليسارية في فلسطين، حيث انضم إلى «الحزب الشيوعي الفلسطيني» سنة ١٩٢٥، هذا الحزب المنتسب إلى الكومنترن (*). وكان صاحبنا ضمن أوائل العرب الذين انخرطوا في هذا الحزب[٣].

قال أديبنا صدقي في مذكراته: «استدرجنا الدعاة من المهاجرين إلى ناديهم، الواقع خلف المستشفى الألماني، في القدس، وتوالت الاجتماعات، إلى أن عرضوا عليّ، وكنت في التاسعة عشرة من عمري، السفر إلى موسكو، للدراسة في جامعتها (جامعة شعوب الشرق) في موسكو، (كوتف)، دون أن أتكلف نفقات السفر والتعليم، والإقامة، ولم أتردد في قبول عرضهم، وطلبوا مني أن أعدّ نفسي للسفر خلال ستة أشهر، كما انتخبوني عضوًا في اللجنة المركزية للشبيبة، وصرت، منذ ذلك الحين، أحضر كل الاجتماعات السرية، وأسهم في نشر الدعوة، وتوزيع النشرات»[٤]

(*) **زئيف جابوتنسكي** ١٨٨٠ - ١٩٤٠: كاتب وقائد صهيوني متطرف، ولد في أوديسا، درس الحقوق في سويسرا وإيطاليا. رسم الخطة الرئيسية للمنظمة الإرهابية «إتسل»، واقترح عليها، ١٩٣٩، القيام بتمرد، واحتلال مؤقت للأبنية المركزية لحكومة الانتداب، ورفع العَلَم العبري عليها، والإعلان عن إقامة حكومة مؤقتة للدولة العبرية.

انظر: حنا أبو حنا (تقديم وإعداد)، مذكرات نجاتي صدقي، ط١، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ٢٠٠١، ص ١٧٦.

(**) **البلشفية**: عن الكلمة الروسية «بولشنستفو»، ومعناها الغالبية، أو الأكثرية، في انتخاب الهيئات المركزية، في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الروسي، سنة ١٩٠٣، فاز الجناح الذي قاده لينين بالأكثرية، فتبنى هذه التسمية، وألحقت باسم «الحزب الشيوعي الروسي»، ثم السوفييتي. وأصبحت البلشفية تعني الشيوعية، بالرؤية التي تبناها الحزب الشيوعي السوفييتي.

انظر: **المصدر نفسه**، ص ١٧١.

(*) **الكومنترن**: هو المركز الذي قاد الشيوعية في العالم بعد ثورة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية في روسيا، وقد أسسه لينين، وعُرف باسم «الأممية الثالثة»، بعد «الأممية الأولى»، التي كان كارل ماركس قد أسسها، ثم ارتد عليها الاشتراكيون الديمقراطيون، وأسسوا «الأممية الثانية»، وقد حل «الكومنترن» نفسه، في ١٥/ ٥/ ١٩٤٣م.

من جهة أخرى، كان سفر ثلاثين عضوًا عربيًّا من «الحزب الشيوعي الفلسطيني» إلى موسكو لدراسة الماركسية ـ اللينينية، في جامعة «كوتف»، ومن بينهم صدقي، الأمر الذي لم يكن إلا تظاهرًا بالاستجابة من قبل قيادة الحزب لمطلب الكومنتيرن، بتعريب الحزب[٥].

يلاحظ، أيضًا، أنه، في غير موضع، ذُكر أن مصطفى صدقي، شقيق نجاتي صدقي، قد سافر معه إلى موسكو، في حين أن نجاتي لم يشر إلى ذلك في مذكراته التي قال فيها إنه سافر دون علم والده، إلا بعد سفره. فيما ذكر نجاتي أخاه أحمد، الذي يكبره، عندما شهد ضده في المحكمة، فيما بعد، موضحًا نجاتي أن أحمد ربما يكون مضغوطًا عليه، أو فهم خطأ، بأن ذلك قد يقلل من العقوبة على نجاتي.

كان اسم «كوتف» اختصارًا لأربع كلمات بالروسية معناها «الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق»، وتأسست في موسكو عام ١٩٢١م، وقامت على أساس أنها كلية واحدة، ولا تدرس أي موضوع آخر غير المواضيع التي لها علاقة بالسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، أي أنها جامعة علوم سياسية فحسب، والمتخرج منها يكون في مستوى زعيم حزبي، أو نقابي، أو إداري. وكان المتبع يقتضي أن تستبدل بالأسماء الحقيقية أسماء مستعارة، فتدخل الشاعر التركي، ناظم حكمت، واقترح اسم «مصطفى سعدي»[*]، بدلًا من الاسم الحقيقي لنجاتي صدقي، وفي بداية الأمر، لم يكن للفرقة العربية في الجامعة جريدة حائط، كغيرهم من الروس، بسبب قلة أفراد تلك الفرقة، لكن ما أن أطلت سنة ١٩٢٦ حتى توافد عدد من الطلاب العرب، فألحت الحاجة إلى تلك الجريدة، وأطلق عليها اسم «الحرية»، وكان صدقي عضو هيئة تحرير فيها، وهذه كانت بدايته الصحفية[٦].

في ١٩٢٩، حصل صدقي على البكالوريا في الاقتصاد السياسي، ودرس الآداب الروسية، اجتهادًا إضافيًّا، وقدم أطروحته الجامعية، وموضوعها «الحركة الوطنية العربية من الانقلاب الاتحادي حتى عهد الكتلة الوطنية»[٧].

اندلعت هبَّة وطنية في فلسطين صيف ١٩٢٩، عرفت بـ «هبَّة البُراق»، بعد أن كرر اليهود هتاف: «الحائط حائطنا» على «حائط البراق»، الذي ادعى اليهود، ولايزالون، أنه «حائط المبكى» الذي تبقى من هيكل سليمان بعد هدمه.

أنهت هذه الهبَّة المرحلة الأولى من حياة الحركة الوطنية الفلسطينية، التي بدأت عام ١٩١٨م، وبنهايتها لمس الشعب العربي الفلسطيني مدى تخاذل قيادته؛ وعقم أشكال الكفاح التي فرضتها على الشعب، وافتضاح أمر التحيُّز البريطاني للصهيونية؛ واشتداد عود البرجوازية العربية الفلسطينية التي كانت في عز ثوريتها، آنذاك[٨].

عاد نجاتي صدقي إلى فلسطين، بصحبة رفاقه الدارسين، صيف «البُراق»، الذي كان تعبيرًا عن مدى سخط العرب الفلسطينيين على المستوطنين اليهود، والمحتلين البريطانيين على السواء. فيما أدخلت هبَّة البُراق الوطنية الفلسطينية المجتمع العربي الفلسطيني برمته في أزمة عامة، فقد أدخلت الحزب الشيوعي في أزمة مماثلة، إذ وصفت قيادة الحزب الهبَّة بأنها مجرد «بوغروم» [**]، أي أنها مجرد مذابح نظمت لليهود. وقد نفر الكومنتيرن من هذا الوصف، فنحى قيادة الحزب، وعجَّل بانعقاد المؤتمر السابع للحزب، الذي انعقد، فعلًا، في أواسط كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٠،

(*) اسم شاعر فارسي.

(**) بوغروم: المذابح التي نظمها المائة السود لليهود في روسيا، عقب اغتيال قيصر روسيا، ألكسندر الثاني، سنة ١٨٨١، وكانت نسبة اليهود في المجموعة القاتلة مرتفعة.

وفيه تم تعريب قيادة الحزب، حيث تشكلت لجنة مركزية قوامها سبعة أعضاء، أربعة منهم عرب فلسطينيون، بينهم نجاتي صدقي، كما تشكل مكتب سياسي، من هذه اللجنة، ضم ثلاثة أعضاء، اثنان منهم من العرب الفلسطينيين، وهما: نجاتي صدقي، ومحمود الأطرش[٩].

أُثيرت في الفترة التي قضاها صدقي في العمل المسؤول في الحزب، في عام ١٩٢٩ حتى أواخر ١٩٣٠، خمس قضايا رئيسية، هي: التعريب؛ هبّة ١٩٢٩؛ الهجرة اليهودية؛ المسألة الزراعية (الأراضي)؛ الموقف من الحركة الوطنية العربية. وقد ضاعف كاتبنا نشاطه في تلك الفترة[١٠].

جاء تصحيح أوضاع الحزب الشيوعي في سياق تصحيح أوضاع الحركة الوطنية الفلسطينية، فشهدت تلك المرحلة حملة اعتقال واسعة ضد القوى الفلسطينية ومن ضمنها الشيوعيون الفلسطينيون، ومن بينهم نجاتي صدقي، ومعه محمود الأطرش المغربي، بعد أن وُشي بهما. وقد تم الاعتقال، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٠، وعُقدت المحكمة المركزية، أواخر آيار/ مايو ١٩٣١، ووُجِّهت إلى صدقي والأطرش تهم ثلاث: حيازة مناشير سرية؛ الانتماء إلى حزب غير قانوني؛ الدعوة إلى قلب النظام الاجتماعي، فضلًا على تهمة موجهة لصدقي، وحده، هي تزوير جواز السفر الخاص به. وحُكم عليهما بالسجن، سنتين كاملتين، ابتداء من تاريخ الاعتقال. وكان الخروج أواخر عام ١٩٣٢. وعشية «عيد العمال»، أول آيار/ مايو ١٩٣٣، أصدرت المحكمة الإدارية قرارًا إداريًّا قضى بخضوع صدقي لمراقبة البوليس البريطاني، سنة كاملة، على أن يثبت وجوده في دائرة البوليس تلك ثلاث مرات كل يوم![١١].

بعد الإقامة الجبرية نقلت اللجنة المركزية للحزب صدقي إلى حيفا، ثم جاءت تعليمات من «الكومنتيرن» بأن يسافر إلى باريس، وفيها أصدر صحيفة «الشرق العربي» الشهرية (أيلول/ سبتمبر ١٩٣٣)، وقد اتخذ اسمًا مستعارًا هو مصطفى العمري، وكانت توزع سرًّا في البلاد العربية، وتابعت الصدور، إلى أن عطلها رئيس الحكومة الفرنسية، آنذاك بيار لافال، في أوائل صيف ١٩٣٦، بمرسوم خاص. وكان نهج هذه الصحيفة العربية: الدعوة إلى مناهضة الاستعمار في العالم العربي، ومناصرة الحركات الوطنية الاستقلالية، وتأييد كل حركة ترمي إلى الإصلاح الاجتماعي في صفوف جمهرة الكادحين. وبعد تعطيل تلك الصحيفة توجه صدقي إلى موسكو، حيث التقى خالد بكداش، وكانت لهما مناظرات في مستقبل العالم العربي، فبكداش مؤيد لوجهة نظر ستالين القائلة برجعية شعار الوحدة العربية، فيما صدقي متمسك بوجهة نظر عملية تقول بوحدة أوضاع الشعوب العربية، ووحدة المصير والهدف. ومن هنا أوكل رئيس القسم الشرقي، في منظمة «الكومنتيرن» ـ حينئذ ـ مانولسكي، إلى صدقي السفر لطشقند، عاصمة أوزبكستان ليطلع على الطريقة التي اتبعها الاتحاد السوفييتي في حل المسألة القومية، كما طلب بكداش مرافقة صدقي، وقد كان. وتحدث صدقي عن هذه الرحلة مؤكدًا: «أنه لم يكن بوسعنا، في عشرة أيام، إجراء دراسات، ومقارنات... وكانت انطباعاتي الأولية عن طشقند أنها بلاد تحافظ على مقوماتها الوطنية، وهي الآن على مفترق الطريق بين القديم الموروث، والحديث المتقدم»[١٢].

الحرب الأهلية الإسبانية

نشطت داخل صدقي الرغبة في النضال ضد الدكتاتورية، والدفاع عن الحرية، خاصة بعد اندلاع نار الحرب الأهلية الإسبانية، فتوجه إلى سهول إسبانيا ليقف مع مواطنيها، وأبنائها المدنيين، وينخرط ضمن من قصدها في

مواجهة قوات الجنرال فرانكو الفاشية، ففهمه العميق للمسألة أن عدوه الحقيقي لا اسم، ولا موطن محدد له، إنه كل القوى الاستعمارية والإمبريالية الطاغية، عدوة الحرية، والديمقراطية، والتقدم. وهنالك، في الخطوط الأمامية، التقى بالأسرى المغاربة، من أتباع الزعيم المغربي، عبد الخالق الطريسي، «الضحايا الأبرياء»، كما أسماهم صدقي؛ لأنهم خُدعوا بفرانكو، وأعوانه السفاحين، فتحدث صدقي معهم، وحاول مساعدتهم في محنتهم. ومن نشاطه هناك إسهامه مع فريق من الإسبان في تأسيس «الجمعية الإسبانية ـ المغربية، في مدريد[١٣]. وهكذا، بعد أن سافر إلى إسبانيا، مراسلًا صحفيًا، وحل ضيفًا على رئيس الجمهورية الإسبانية ـ آنذاك ـ وقد رتب له الحزب الشيوعي الإسباني مقرًا ليحرر فيه المقالات، والنشرات بالعربية للجنود المغاربة، إلا أنه قد تجاوز نشاط الكتابة، فوصل إلى ساحة القتال. وفي أواخر كانون الثاني/ ديسمبر ١٩٣٦، قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسباني إيفاده مع مسؤول إسباني إلى الجزائر لإنشاء محطة إذاعة عربية، تبث إلى أفريقيا الشمالية عامة، والمغرب الإسباني خاصة، وبعد وصوله إلى الجزائر، تبين أن أسبابًا فنية قاهرة حالت دون تحقيق المشروع، فعاد إلى باريس. وهناك تأزمت علاقاته بالحزب الشيوعي الفرنسي[١٤].

دمشق

بعد إقامة في باريس دامت حتى شهر نيسان/ أبريل ١٩٣٧، وردت التعليمات من الكومنترن بتسديد كل ديون صدقي في باريس، وتزويده ببطاقة سفر إلى لبنان، مع مبلغ معين. ومنها سافر إلى دمشق، حيث قابله بكداش، هناك، بزعيم الكتلة الوطنية، ووزير المالية، آنذاك، شكري القوتلي، وأيضًا، وزير الاقتصاد، فارس الخوري، وصاحب جريدة «الإنشاء»، لسان حال الكتلة الوطنية، لطفي الحفّار، ورئيس تحريرها، رشيد الملوحي، وتلا ذلك تعارف مع معظم العاملين في الحقول السياسية، والأدبية، والصحافية، في دمشق. وكانت وجهات النظر متضاربة في مواضيع الساعة السياسية، غير أن الكل مجمع على مبدأ الاستقلال، والتحرر من السيطرة الفرنسية بأي وسيلة ممكنة، وبعد انقضاء أسبوع في دمشق، أبلغ بكداش نجاتي بأن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري قررت إسناد منظمة دمشق الحزبية له (أي صدقي)، بإشراف بكداش، وقد انحصرت الأعمال الحزبية لصدقي، في دمشق، في الناحيتين التثقيفية، والأدبية. أما الأعمال التنظيمية، والمسؤولة، فكان يتمسك بها بكداش، كليًا، والأخير كان شديد الحساسية في أمر الانفراد بالزعامة، على الطريقة الستالينية، المتلائمة مع عقلية حب السيطرة، والزعامة في بلاد الشرق. كما أدخل بكداش «تعديلات شرفية» على بعض المفاهيم الحزبية، منها استبدل بعبارة «أمين عام الحزب» «رئيس الحزب». وكانت علاقة بكداش بصدقي متأرجحة بين الثقة والغيرة. إلى أن تأزمت العلاقات بين السلطات في دمشق والحزب، كنتيجة لمحاولات الحزب المتواصلة «الدخول في الجماهير»، على حساب الكتلة الوطنية، ولحملات النقد الموجهة إلى الحكم الوطني، فكان أن اتخذت الحكومة الوطنية (٢٩/ ٥/ ١٩٣٧) بعض الإجراءات ضد الحزب[١٥].

في دمشق، صدر العدد الأول من صحيفة «صوت الشعب»، بتاريخ ١٥ آيار/ مايو ١٩٣٧، وقد نشر صدقي في طليعة أعدادها مقالًا عن الحرب الأهلية في إسبانيا، واستمرت الصحيفة في الصدور، أما بكداش، فقد استفاد منها في الدعاية لشخصه، وهو عمل تحظره الأحزاب الشيوعية في العالم. كما كان الحزب قد أصدر، عام ١٩٣٥، مجلة أدبية سياسية، في بيروت، أطلق عليها اسم «الطليعة»، وفي ١٩٣٧، وبعد الانفتاح على الحركة الوطنية السورية، نقل الحزب مقر مجلة «الطليعة» إلى دمشق، وأسند رئاسة تحريرها إلى رجا حوراني، ومع أن هذه المجلة حزبية المنتمى،

فهي عربية المشاعر، ووطنية المنهج، وتقدمية الأهداف». ولقد نشر فيها صدقي سلسلة من الأبحاث، منها أطروحته الجامعية، في الأعداد من ١١/ ١٩٣٧ حتى ٤/ ١٩٣٨، وقال حوراني، في تقديمه لها: «عرض صدقي التطورات التاريخية للحركة الوطنية هو أبلغ وأصدق درس لتاريخ أي بلاد، أو حركة ذات شأن». وقد فند صدقي هذا التاريخ، سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، ورأى بأن المرحلة الأولى من تاريخ الحركة الوطنية العربية (١٩٠٨ - ١٩١٢) اتسمت باكتفاء «العرب بالمطالبة بالمساواة مع الأتراك»، وكان ذلك أمرًا لا مفر منه؛ «لأن درجة تطورهم الرأسمالي، وإدراكهم الوطني، لم تمكنهم من المطالبة بأكثر». فيما كانت أهم معالم المرحلة الثانية (١٩١٢ - ١٩٢٤) - بحسب صدقي ـ حدوث انقلاب اصطناعي في حياة الغرب، فضعضعت حياتهم الإنتاجية، والاجتماعية، وعرقلت انقلابهم الطبيعي، وبذلك أبعدت العرب عن الوصول إلى أمنيتهم الوطنية التحررية[١٦].

منذ بداية عصور انحطاط المجتمع العربي، ظهرت رغبة صدقي في تحرير عقلية الإنسان العربي من العقائد الجامدة، المسيطرة عليه[١٧].

ومن المواضيع، التي نشرها صدقي في (الطليعة) «اضطهاد العلم والعلماء، إبان انحلال الدولة العربية العباسية». وقد اضطر صدقي إلى نشر تتمة هذا الموضوع، في صحيفة «المكشوف» الأسبوعية، الصادرة في بيروت، سنة ١٩٣٨، حيث طلب بكداش من حوراني عدم نشرها في «الطليعة»؛ لأن الموضوع يثير «حساسيات تاريخية» ـ حسب بكداش ـ وكان إيعاز بكداش بالكف عن نشر هذا البحث في (الطليعة) بداية لنهاية حياة مجلة. كما طلب بكداش من صدقي أن يروي له ما حدث في إسبانيا، ليضمِّنه بكداش في كتاب، وذلك حتى لا يحرج صدقي من ذكر بطولاته بنفسه، وقد كان، وصدر كتاب «عربي في إسبانيا»، وهنا ظن الجميع أن هذا العربي هو بكداش![١٨].

تجمد نشاط

بعد تأزم العلاقات السورية ـ الفرنسية، قررت اللجنة المركزية الدائمة للحزب الشيوعي السوري نقل ثقل النشاط الحزبي إلى بيروت، لكونها أكثر ملاءمة للعمل السياسي، وقد انتقل صدقي معهم، إلا أن بكداش انصاع، وزملاءه للوصاية الشيوعية الفرنسية، التي طالبت «بتجميد» نشاط صدقي «الحزبي» (أي لا طرد، ولا تعاون)، فانقطع عمله في «صوت الشعب»، واضطر للسعي إلى تدبير معاشه، إلى أن التقى برئيس تحرير صحيفة «النهار»، الكاتب والروائي المرموق، توفيق يوسف عواد، وعرض صدقي على عواد أن يستلم الصفحة الاقتصادية، في الجريدة.

كما أضاف إلى عمله هذا الإشراف على تحرير مجلة «الجمهور». وبعد اندلاع العالمية الثانية، عام ١٩٣٩م، انضم صدقي إلى أسرة مجلة «المراحل المصورة»، التابعة لجريدة «الأوريان الفرنسية». وقد تبين لصدقي، في تلك المرحلة، أن اتفاقية عدم الاعتداء المعقودة بين هتلر وستالين (٢١/ ٨/ ١٩٣٩) هي اتفاقية زائفة، القصد منها كسب الوقت. ومنها راح صدقي ينشر في «المراحل المصورة» مقالات في موضوع الإسلام والنازية بقصد تأليب العالم الإسلامي على النازية والفاشستية. وجمع هذه المقالات، فيما بعد، في كتاب بعنوان: «النازية والتقاليد الإسلامية» (بيروت، دار الكشاف، ١٩٤٠) وقد تُرجم إلى الإنجليزية، وطبعت ترجمته في لندن. وكان موقف صدقي هذا من النازية قد أثار «الرفاق» في لبنان، واعتبروا اعتماده على النصوص الإسلامية في مجابهة النازية خروجًا على سياسة الحزب، وقرروا

«طرده» من صفوف الحزب (عام ١٩٣٩)، ونشروا هذا القرار في صحيفة حزبية سرية، مطبوعة على الجلاتين[١٩].

عاد صدقي إلى القدس، عام ١٩٤٠، وبدأ العمل في محطة إذاعة «الشرق الأدنى»، مراقبًا للبرامج فيها، من ١٩٤٠ - ١٩٥٠، وصحب هذه الإذاعة لدى انتقالها إلى قبرص (١٩٤٨)، أي بعد وقوع النكبة، ثم استقر في بيروت، حيث عمل في حقل الإذاعة، والصحافة، والأدب، وتفرغ للكتابة، والترجمة، حتى سنة ١٩٧٦، ثم انتقل إلى أثينا، حيث أقام عند ابنته، ووافته المنية في ١٧/ ١١/ ١٩٧٩، بعد حياة زاخرة بالعطاء، واسعة الحركة، والتنقل بين العديد من عواصم العالم، مخلفًا وراءه ثروة أدبية، وفكرية، أغنت المكتبة العربية، عمومًا، فعدا عن ترجماته لكبار أعلام الأدب العالمي، أمثال أنطون تشيخوف (من الروس)، ودي موباسان (من الفرنسيين)، وإدجار ألن بو (من الأمريكيين)، ترك ما لا يقل عن اثنين وأربعين قصة قصيرة من إنتاجه، بالإضافة إلى الكثير من المقالات في الأدب والفكر، أغنى فيها أشهر المجلات العربية، آنذاك، منذ ١٩٣٣، غير المجلات المذكورة سابقًا (*)[٢٠].

مؤلفاته وإبداعاته

يسجَّل لصدقي أنه من أوائل الكتاب، الذين أتاحوا للجيل العربي، في ذلك الوقت، الاطلاع على الأدب الروسي، وقد تأثر صدقي كثيرًا بذلك الأدب، خاصة في فن القصة، كما أبدع في النقد.

عن الترجمة

فقد اهتم صدقي بالكتَّاب الروس الكبار، ودرس حياتهم، وأدبهم، من أمثال ألكسندر بوشكين، وأنطون تشيخرف، فنشر دراسة عن الأول، عام ١٩٤٥، وعن الثاني، عام ١٩٤٧، فضلًا على مكسيم جوركي عام ١٩٥٦ ضمن سلسلة (اقرأ) الصادرة في القاهرة، وقد أثار ذلك اهتمامًا كبيرًا؛ لأنها كانت من الدراسات المبكرة حول الأدب الروسي، وقد كتب إليه الأديب الكبير، ميخائيل نعيمة، في رسالة بتاريخ ٣/ ٨/ ١٩٤٥ قال فيها: «لَكَم تمنيت نقل بعض من الآداب الروسية إلى لغتنا، وها أنت تأخذ بوشكين، أعظم شعراء الروس، قمة باسقة ما بين قمم الشعر... ومما يزيد من قيمة عملك أنك تستقي معلوماتك من مصادرها الأصلية، كما انصرفت إلى نقل بعض المعالم الأدبية الروسية إلى العربية»[٢١].

عندما أعد صدقي دراسته عن تشيكوف، قال: «لقد انتقيت لكتابي هذا مجموعة من مسرحيات تشيكوف، من ذوات الفصل الواحد، كما انتقيت له طائفة من قصصه الروسية الصحيحة، ونقلتها إلى العربية، محافظًا على روح المؤلف، ومزاجه، وتعابيره، بحيث لا يتعذر على القارئ أن يلمس أنه يطالع أدبًا غير أدبه، ويشاهد مجتمعًا غير مجتمعه»[٢٢].

من ثم بدأ صدقي يتفرد بالقصة، فأصدر مجموعة من الترجمات لكبار المؤلفين الروس؛ والصينيين، والأمريكيين، والإسبان (*)[٢٣].

(*) مجلة «العرب» في القدس، جريدة «البشير»، مجلة «الأديب»، «الإذاعة»، «صوت المرأة»، «أهل النفط»، «الحوادث»، «هنا لندن»، وكلها مجلات لبنانية، كما نشر في القاهرة إلى مجلتي الرسالة، والكتاب. وفي بغداد، في مجلة «الهاتف»، وحرر في مجلة «الرائد العربي» الكويتية و«قافلة الزيت» الصادرة من الظهران.

(*) قصص مختارة من الأدب الإسباني (بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر. عام ١٩٥٣)، قصص مختارة من الأدب الصيني (بيروت، دار بيروت=

عن النقد

قدم صدقي دراسة عن «مقدمة ابن خلدون»، أكد فيها أن الذي يهمنا، بالدرجة الأولى، ليست نواحي ابن خلدون الأدبية، أو سلوكه الشخصي، أو تعريف فلسفته، بكلمة غامضة، لا تدل على شيء، بل دراسة فلسفته، والبحث عن الاتجاه الفلسفي العصري الذي ينتمي إليه. من هنا خلص صدقي إلى أن ابن خلدون عالم مادي، ومؤرِّخ واقعي، يضع الحياة الأرضية، والبيئة الاجتماعية، والوسط الذي يحيطنا أساسًا لتفسير كل أنواع المظاهر الاجتماعية، والأحداث التاريخية. كما انتقد صدقي كل المؤرخين العرب المثاليين، بالبراهين العلمية المقنعة، التي يعجز عن الوصول إليها، اليوم، الكثير من علماء أوروبا. وقد جلا في دراسته هذه الاتجاه الفلسفي المعاصر لابن خلدون، وبيّن التشابه القوي القريب بينه وبين إرنست هيجل من ناحية نظرية الفلسفة الجدلية، وبينه وبين كارل ماركس من ناحية المادية وصراع الطبقات. وأوضح نظرية ابن خلدون في تكوين العالم، وفي النشوء والارتقاء[٢٤].

في ضوء هذه الرؤية المادية التاريخية، درس صاحبنا حياة شارل داروين[٢٥]، وتتبعه في حياته، ونظرياته، وآراء خصومه فيه، كما درس صدقي ديكارت، والمادية الميكانيكية[٢٦] ثم تقدم بدراسة طويلة، نشرها في أعداد «الطليعة» في السنتين ١٩٣٧، ١٩٣٨ حول الحركة الوطنية العربية ـ كما سبق أن بيّنّا ـ ففسرها تفسيرًا ماديًا، ثم جمعها وطبعها في كتاب منفرد[٢٧].

كما نشر ناقدنا مقالًا عن بيتهوفن، وأرسله إلى مجلة «الطليعة الأدبية»، ونشرت في شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس ١٩٣٧ تحت عنوان «الإيقاع الموسيقي التاسع لبيتهوفن» وكتب فيها: «أعظم قطعة موسيقية كلاسيكية عرفها البشر، حتى الآن، وقد ألفها بيتهوفن سنة ١٨١٧، أيام كانت تتمخض بالنضال الطبقي الحاد، ليس بين الديمقراطية والفاشستية، ولا بين الطبقة العاملة والرأسمالية، بل بين الحكم الفردي الملكي الإقطاعي القديم، والحركة البرجوازية الصناعية التقدمية... وبيتهوفن ثار على النظام الملكي الإقطاعي، بما خطه براعة الموسيقى من نوتات عظيمة الشأن، نخص منها بالذكر الإيقاع التاسع»[٢٨].

كل هذه المقدمات تهيأ بها صاحبنا ليستقبل حياة النقد، ويحدد بها اتجاهه، ويطبق هذه القيم المادية على الآثار الأدبية، فتتضح له معالم «المدرسة المادية العربية» في النقد الأدبي، ويؤمن بأن الفن نتاج الحياة المادية. وينتج أدبًا، يقضي على الحيرة والتردد، وفي نقده لكتاب «وهل يخفى القمر؟»، للأستاذ رئيف خوري، اتضح إيمان الأستاذ صدقي بالأدب الهادف، وموقفه الحازم في وجه التيار الرمزي في الشعر، فأعلن بأن انتشار مرض الشعر الرمزي يشكل خطرًا عظيمًا، إذ يبتعد بصاحبه عن إدراك المحسوسات، ويجعله يهيم في عالم خيالي لا يعرف له رأسًا من ذنب. وبهذا، فقد اعتبر صدقي من أوائل الذين أسهموا في بلورة تيار نقدي طليعي متجدد، منذ منتصف الثلاثينيات، أصبح، فيما بعد من أهم أركان التيار الواقعي الاشتراكي في الأدب العربي المعاصر[٢٩].

كما انتقد صدقي الكُتاب المثاليين، أمثال تقي الدين الصلح، وجبران خليل جبران، الذين شَكَوْا من أن الناس لا

=للطباعة والنشر، عام ١٩٥٤)، **الخنفسة الذهبية** (ثلاث عشرة قصة) للكاتب الأمريكي إدجار ألن بو (بيروت، ١٩٥٤) كما ترجم أربع روايات عن الإنجليزية: والفرنسية، وترجم شعرًا عن الروسية، وأربع مسرحيات، بالإضافة إلى مجموعة **«الأرملة الملول»**، وقصص أخرى، صدرت في بيرت، عام ١٩٥٣[٢٣].

يفهمون كتاباتهم، وشبههم بالحجارة، لعجزهم عن التواصل مع جموع الناس، وأدان أدبهم الهادف إلى صرف اهتمام الناس إلى قصص الحب المغدور، وتأمل القمر! وفي مقال صدقي: «**المدرسة المادية العربية**» (عام ١٩٣٨)، دعا إلى ضرورة تأسيس المدرسة التي تُعنى بالتثقيف المادي، وتدرس فكر المبدعين الماديين، أمثال ابن خلدون، وحدد في المقالة ذاتها الخطوط العريضة لهذا الاتجاه، فقال[٣٠]:

١ـ الاتجاه الأدبي المادي، والاتجاه الأدبي الخيالي على طرفي نقيض، ونحن أتباع المدرسة المادية.

٢ـ الأدب ليس المتعة، والكتابة لا تكون من أجل الفن فحسب، بل الأدب رسالة، والكاتب رسول، يلمس الواقع، ويتنبأ بالمستقبل المشرق، من خلال رصد الظواهر الاجتماعية، وكشف أسبابها، لا أن يجلس في برجه العاجي، يحكم، ويكتب.

من هنا جاءت محاولات صدقي النقدية، في الأدب، تطبيقًا حازمًا لمنهجه المادي الواقعي، رغم أن النقد الأدبي في فلسطين كان ضعيف الحضور على الساحة الأدبية. فيما قدم صدقي في كتابيه، بوشكين، وتشيخوف، من خلال سياق تاريخي، اجتماعي، ثقافي مقنع، وربط إنتاجهما وطبيعة العصر، وبالتيارات الثقافية العالمية، كما بيَّن أثر اهتمامهما بالكتابة للشعب في طبيعة إنتاجهما الأدبي[٣١].

عن القصة

أخذت القصة القصيرة في فلسطين، قبل عام ١٩٤٨، وضعها الطبيعي بين فنون الأدب، على يد كل من خليل بيدس، ومحمود سيف الدين الإيراني، ونجاتي صدقي، وأصبحت في وضع يجعل منها أساسًا قويًا يصلح لبناء فن قصصي فلسطيني، يُسهم في تشييد صرح الأدب العربي الفلسطيني[٣٢].

كانت الفترة، التي امتدت منذ بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)، وحتى النكبة ١٩٤٨، هي المرحلة الأخيرة في حياة الأدب القصصي، وقد ظهر إنتاج قصصي، في تلك الفترة، للأساتذة: بيدس، الإيراني، صدقي، عارف العزوني، د. إسحاق موسى الحسيني، عبد الحميد ياسين، وجمال الحسيني. وامتازت هذه المرحلة بالنضج الفني في أدب القصة، وإتقان العمل القصصي، وبارتفاع مستوى الذوق الفني في بناء القصة، وبالتقاء المستويات الرفيعة في المضامين والأشكال، والانسجام الملحوظ بين الشكل والمضمون في أعمال تلك المرحلة. كما أن المدارس المختلفة اتخذت المرحلة المذكورة اتجاهًا واحدًا، تقريبًا، فاقتربت من بعضها في الأهداف، والغايات، وكان بينها اشتراك كبير في قيمها وسيرها. أما صدقي، فلم يبدأ إلا بعد أن اكتملت لديه ملكة القصة، فلم يطلع بتجاربه قبل نضجها، فوافانا بصور من هذا النضج؛ لهذا عددناه ضمن المرحلة الناضجة من حياة هذا الاتجاه[٣٣].

وضع قاصنا المجموعة القصصية، وهي «**الأخوات الحزينات**»، وتألفت من ثماني عشرة أقصوصة موضوعة سنة ١٩٥٣، وقد حرص الكاتب على تذييل كل قصة بتاريخ كتابتها، والمكان الذي كُتبت فيه، مما يجعل لكل واحدة من القصص مناسبتها، فوجد أن إحدى عشرة قصة قد كُتبت قبل عام ١٩٤٨، أو خلاله، فيما كُتبت سبع قصص في الفترة ما بين سنة ١٩٥٠، وسنة ١٩٥٢، وقصص تلك المجموعة أهمها: «**الأخوات الحزينات**»؛ «**أيام من العمر**»؛ «**الشهادة الابتدائية**» و«**كلوديت**»[٣٤].

قصة «**الأخوات الحزينات**» ـ العنوان الذي أُطلق على المجموعة كلها – تناولت موضوع النكبة، ومأساة يافا، حيث رسم فيها صدقي صورة لخمس شجرات جميز أخوات، يقفن صفًّا واحدًا، مقابل منشآت يهودية، كانت فيما سبق بيارات، ويجلس الكاتب عند إحداهن، وتأخذه غفوة، ويحلم حلمًا عجيبًا، الشجرات يتحولن، فجأة، إلى خمس أخوات، متشحات بالسواد، يجتمعن في حلقة. لا تخلو هذه القصة من رومانسية، وإن كانت تشي بإحساس الكاتب بالهزيمة، والعجز، والحزن العميق تجاه فداحة الحدث، إلا أن الكاتب المادي، المؤمن بالإنسان، وحركة المجتمع، عاد فأعلن تفاؤله بقدوم رياح التحرر، وستبقى الجميزات شامخة، كما عهدها. وهذه القصة غدت لدى صدقي قصيدة مؤثرة، غير تعابيره، التي حملت مواقف اجتماعية في ثنايا القصة، مثل: قلن: في كل حادث عبرة وفائدة، وإذا لم تكن هذه ولا تلك، فهناك المتعة! وقلن: في المرح ما يحيي النفس، ويشجعها، ويبعث فيها الأمل[٣٥].

أما في «**معركة صبيان**»، فتنبأ صاحبنا فيها، على لسان صبيان القدس، بما حدث، ولا يزال، بعدما يقارب الأربعين عامًا، بإقدام الأطفال والشبان على صنع تاريخ بلادهم، من خلال ثورة الحجارة المباركة. وفي قصة «**الشهادة الابتدائية**» شيء من السيرة الذاتية للكاتب، أما قصة «شمعون بوزاحلو»، فهي صورة ليهودي من جماعة (الحاسيد)، المعروفين بتعصبهم الديني، ورغم غناه، فإنه يتخفى، ويمارس عملية استعطاف المارة[٣٦].

فيما تناولت «**أيام من العمر**»، بيع العرب أرضهم لليهود، وإنفاق ثمنها على المومسات الشقراوات الأجانب، وبمنتهى الغباء والاستسلام. هنا أدان صدقي، **أولًا**: شخصية الإنسان العربي العاطفية، الذي ينساق بلا تفكير وراء أوهام اليقظة. **ثانيًا**: المجتمع العربي المنحل، والساعي، دومًا، وراء الكسب المادي، على حساب أي شيء. إلا أن الكاتب لم يوفق في توصيل أهدافه هذه للقارئ؛ لأنه وضعها في القالب الخطأ[٣٧].

أفرد صدقي للمرأة ست قصص، منها: «**كلوديت**»، تلك الفتاة الباريسية العابثة، الباحثة عن اللذة، واصطياد الشباب العربي. وقد رمزت «**كلوديت**» للعلاقة بين حضارتين، وعالمين مختلفين. المجتمع العربي، والمجتمع الغربي الأوروبي، فهامشية، ونفاق، وانتهازية، ومادية، وانحلال الأوروبي، تقابله صدق، ورومانسية، وتفاني، واندفاع، وأصالة من العربي. إلا أن كتابة هذه القصة في ذلك الوقت (١٩٣٥) لم تكن تحظى باهتمام الأدباء والنقاد، بل بقيت وكأنها مولود غير شرعي. رغم أنه اهتم بالصورة، بلا تصنُّع، ونجح في توظيفها، ضمن السياق العام للقصة[٣٨].

أما في «**حياة البلبيسي**»، نرى الفتاة الفلسطينية وقد صقلتها المعاناة، فشبَّت متفانية، متعلمة، طموحة، حملت على كاهلها أعباء أسرتها الصغيرة، وفي الوقت نفسه ناصرت وطنها، بقلمها وعلمها، وفي معركة «**دير ياسين**» اختارت «حياة» أن ترتبط بمصير ناسها، مما أدى إلى استشهادها. إنها قصة رومانسية وتوثيقية في آنٍ، فيها وثّق الكاتب علاقات المجتمع العربي الفلسطيني، في تلك الحقبة، من بساطة، وحب، وارتباط مصائر[٣٩].

فيما رسمت «**فتاة حائرة**»، صورة للمصير الذي يواجه الفتاة حينما ترغم على الزواج ممن تكره، والحل الذي تتخذه، وموقف الكنيسة، والأهل منها. وفي هذه القصة أراد صدقي أن يسلط الضوء على مشاكل الفتيان والفتيات، التي تعود في أصولها إلى تصلب وضيق أفق مجتمع الكبار (الأهل)[٤٠].

أما «**الجثة الحية**»، فهي عن امرأة عربية، مثقفة، ومتعلمة، وقعت ضحية زواجها برجل مثقف، ولكنه مزدوج الشخصية. وهنا أشار صدقي إلى كل آرائه، في الأدب، والفن، والثقافة، والاجتماع. وخلص منها إلى أن الأدب هو

«علم الإنسان»، يمكن مقارنته بعلم الطبيعيات، والشخصية في العمل الفني إنما هي مثل النوع، والشكل في الطبيعة، و«الأدب القومي» يستند إلى العادات، والتقاليد، والأمزجة المحلية. وأما الثقافة، فهي دستور العلوم، وعصارة الأدمغة البشرية الجبارة، ودليل وجود النوع البشري. و«الأدب الواقعي» إنما هو تصوير الحياة، بدقة، وصدق، ورزانة، وانتقاد الحقائق المحيطة به. و«الأدب الرومانتيكي» تصوير لكل ما لم تميّزه الحياة، بعد، وهو ما يطمح إليه الكاتب. و«الأدب الرمزي»، هو إنارة الحاضر بمصابيح الأبدية. وكل هذه الآراء نجدها في «**الجثة الحية**»، وهي أن تكون محشورة حشرًا، إلا أن الإطار الثقافي والشخصيات خففوا من حدة الأمر، وجعلوها مقبولة ومحتملة في قصة، وإن يكن في ذلك شيء من إضعاف المستوى الفني[٤١].

قصدت قصص صدقي من المرأة التأكيد على أن المرأة في المجتمع العربي أشبه بنبتة جميلة، قوية، لكنها ضحية التربة العفنة، التي لا تزال تعصف بها، وتهدم تقدمها. أما المرأة الحلم، في رأي صدقي، فنستطيع التقاطها من خلال ما كتبه عن مشاهداته، ومعايشته للمرأة المناضلة في إسبانيا، عندما قال: «أما إسبانيا الحقيقية، فهي هذه الفتاة الإسبانية، عضو الميليشيا، عنوان التقدم والمدنية»[٤٢].

موضوعات اجتماعية أُخرى تلك التي كتبها كاتبنا، بين عامي ١٩٤٦، ١٩٥٢. فكانت «**ليلة في القبر**»؛ و«**أسطورة قوقازية**»؛ و«**أصدقاء المصلحة**»؛ و«**من يوميات منسية**»؛ و«**سمكة العيد**»؛ و«**فتى من الديوانية**». وقد أبرز، من خلال تلك الموضوعات، مدى زيف العلاقات، وتنكر الإنسان للإنسان، والوصولية، والنفاق الاجتماعي. حينًا، نرى شخصيات صدقي ساخرة كاريكاتيرية، كما في «**من يوميات منسية**»؛ و«**حاميها حراميها**». و«**راح انجوزك**»، وحينًا آخر يضعنا أمام لوحات إنسانية، تثير دموع القارئ، كما في قصة «**دموع في العيد**»، وهي عن قصة امرأة فلسطينية نذرت شبابها لتنشئة ابنها الوحيد، اليتيم، والحفاظ على سلامته، لكنها تقابل بالجحود والنكران لمجرد أن تعارضت أغراضه الذاتية مع وجود أمه. ويمكن القول، بشكل عام، إن معظم حوارات صدقي كانت قصيرة، خدمت الهدف، وأغنت المضمون، وأظهرت الحدث بشكل تام ومتطور؛ والشخصية بشكل معقول ومبرر[٤٣].

فضلًا على ما ذُكر من مؤلفات، ثمة مؤلفات، وترجمات أُخرى لصدقي، منها[٤٤]:

- بيتر زينجر، مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد، بيروت، ١٩٥٥.
- تاريخ الحركة الوطنية العربية من الانقلاب العثماني حتى عهد الكتلة الوطنية، بيروت، ١٩٣٧.
- الشيوعي المليونير، (قصص)، بيروت، ١٩٦٣.
- الحصادون، ترجمة، بيروت، ١٩٥٧.
- مذكرات ليدي دوجلاس، (ترجمة).
- الخنفسة الذهبية، ١٩٥٤، القط الأسود، لإدجار ألن بو (ترجمة).
- رحلة إيرما، ترجمة، بيروت، ١٩٧٥.
- معركة شيلو، ترجمة، بيروت، ١٩٧٥.

ـ الغرائب، ترجمة، لإدجار ألن بو.

ـ كارمن، ترجمة، لروسبيرو ميريمه، بيروت، ١٩٦٤.

ومن أعماله الأخيرة التي لم يتم العثور عليها ترجمته لقصيده (الغراب) لإدجار ألن بو، وبحث جديد عن «**النظام الكنجوي**»، و«**مجنون ليلى**»، وكان يعد العدة لإصدار مجموعته القصصية التالية، وكتاب آخر يشتمل على المختار من أبحاثه، ودراساته.

هذا الإنسان الموسوعة، الشامل في فنه، وأدبه، وفكره، الواقعي والموضوعي في تحليلاته، استطاع أن يمثل منهجًا مستقلًّا، ومميَّزًا، كما أثرت في صور إبداعاته مراحل الحركة الوطنية الفلسطينية، التي عاشها، وإن لم يكن في داخل البلاد.

* * *

هوامش الفصل السادس:

(١) انظر:

- حنا أبو حنا (تقديم وإعداد)، **مذكرات نجاتي صدقي**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١، ص١٣.

- المحامية منى أسعد، **نجاتي صدقي، أديب ومفكر سياسي**، دمشق، المكتبة الوطنية، دار المبتدأ للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص ٤ – ٥.

(٢) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة**، ط١، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ص ٧ – ١٠.

(٣) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩ – ٢٠.

- أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥.

(٤) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠ – ٢١.

(٥) أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦.

(٦) للمزيد، انظر: أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩ – ٣٨.

(٧) أحمد عمر شاهين، **موسوعة كُتاب فلسطين في القرن العشرين**، الجزء الثاني، ط٢، غزة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠، ص ٨٠٠.

(٨) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢.

(٩) د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ – ١٩٤٨**، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٦٨، ص ٤٨-٥٩.

(١٠) للمزيد، انظر: أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٣ – ٩٢.

(١١) للمزيد، انظر:

- **المصدر نفسه**، ص ٩٦ – ١٠٨.

- أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧.

(١٢) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١١ - ١٢١.

(١٣) يعقوب - العودات (البدوي الملثم)، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، عمان، ١٩٧٦، ص ٣٥٢.

(١٤) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ - ١٥٣.

- شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠٠.

(١٥) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٤ - ١٥٧.

(١٦) نجاتي صدقي، آراء مادية، الحركة الوطنية العربية من الانقلاب الاتحادي إلى عهد الكتلة الوطنية، **الطليعة** (بيروت)، العدد ٩، السنة الثالثة، ١١/ ١٩٣٧، ص ٧٢٥ - ٧٣٤، العدد ١٠، السنة الثالثة، ١٢/ ١٩٣٧ ص ٨٥٦ - ٨٦٦.

(١٧) أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧.

(١٨) أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦١ - ١٦٣.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١٦٤ - ١٦٧.

(٢٠) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠٠ - ٨٠١.

- أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠ - ١١.

(٢١) «**بوشكين أمير شعراء روسيا**»، القاهرة، دار المعارف، سلسلة «اقرأ» (٢٨)، ١٩٤٥، أول الكتاب.

(٢٢) «**تشيكوف**»، القاهرة، دار المعارف، سلسلة «اقرأ» (٥٠)، ١٩٤٧، المقدمة ص ٨ - ٩.

(٢٣) للمزيد. انظر: إبراهيم محمد أبو هشهش، **نجاتي صدقي حياته وأدبه ١٩٠٥ - ١٩٧٩**، القدس، ١٩٩١.

(٢٤) انظر:

نجاتي صدقي، عبد الرحمن بن خلدون، أول فيلسوف عربي يحاول تفسير التاريخ ماديًا، **الطليعة** (بيروت)، العدد الأول/ السنة الثالثة، كانون الثاني/ يناير ١٩٣٧، ص ٦ - ١٣، والعدد الرابع/ السنة الثالثة، نيسان/ إبريل ١٩٣٧، ص ٢٨٩ - ٢٩٤.

(٢٥) **الطليعة** (بيروت)، عدد ٦ ، ٧، السنة الثالثة، ٦ ، ٧/ ١٩٣٧، ص ٥٠٤ ، ٥١٠.

(٢٦) **الطليعة** (بيروت)، عدد ٨، السنة الثالثة، ١٠/ ١٩٣٧، ص ٦٦٤، ٦٧٠.

(٢٧) **الطليعة** (بيروت)، عدد ٩ ، ١٠، السنة الثالثة، ١١ ، ١٢/ ١٩٣٧. عدد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥، السنة الرابعة، ١٩٣٨.

(٢٨) للمزيد، انظر: أبو حنا، **مصدر سبق ذكره**. ص ١٥١ - ١٥٢.

- د. عبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني الحديث، من أول النهضة... حتى النكبة**، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨، ص ٣٩٨ - ٣٩٩، ٥٦٩ - ٥٧٠.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٠ - ٥٧١.

- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني. الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، دراسات الحضارة، ط١، بيروت، ١٩٩٠. (انظر: د. واصف كمال أبو الشباب، القصة والرواية المسرحية في فلسطين، ١٩٠٠ - ١٩٤٨، ص١٣٨ - ١٣٩).

(٣٠) أسعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣ - ٢٤.

(٣١) **الموسوعة الفلسطينية**، مصدر سبق ذكره (انظر: حسام الخطيب، النقد الأدبي الفلسطيني الحديث ١٩٠٠ - ١٩٨٥، ص ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٣٢) **المصدر نفسه**، (انظر: أبو الشباب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٩ - ١٤٠).

(٣٣) ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩١ - ٤٩٧.

(٣٤) الموسوعة.... **مصدر سبق ذكره** (انظر: أبو الشباب، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨ - ١٣٩).

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٤.

ـ ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٠ – ٥٠١.

(٣٦) أسعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤ ، ١٥.

ـ ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٥.

(٣٧) أسعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.

- ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٢.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

ـ الموسوعة...، مصدر سبق ذكره (انظر: أبو الشباب، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨ – ١٣٩).

(٣٩) أسعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤ ، ١٥.

(٤٠) ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٤ – ٥٠٥.

ـ أسعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

(٤١) ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٣ – ٥٠٤.

(٤٢) أسعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ – ١٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٨ – ٢٠.

(٤٤) شاهين، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠١ – ٨٠٢.

- العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٣ – ٣٥٤.

* * *

obeikan.com

الفصل السابع

محمد إسعاف النشاشيبي فارس العربية وآدابها

عبد القادر ياسين

ثمة حدثان مهمان اجتاحا الوطن العربي سنة ١٨٨٢، انعطفا بقطرين عربيين، واعتبرا محطتين في حياة هذين القطرين. حيث احتلت القوات البريطانية مصر، فيما شيد اليهود أول مستعمرة لهم في فلسطين (ريشون لزيون). وفي السنة نفسها ولد في القدس محمد إسعاف النشاشيبي(*)، ومن بعده وُلد أخواه، درار، وكوثر. والأخيرة هي والدة الصحفي الفلسطيني المخضرم، ناصر الدين النشاشيبي.

(١) نشأته

فتّح الفتى عينيه في أسرة عريقة، ذات وجاهة مالية، واجتماعية، وقد وصل الجد الأكبر لعائلة النشاشيبي(**) أحمد بن رجب النشاشيبي من مصر، مع رجال السلطان، الملك الظاهر جقمق(***). أما والد محمد إسعاف فهو عثمان بن سليمان النشاشيبي، من أبرز رجالات عصره، والنائب في «المبعوثان»، وصاحب الثراء العريض، والملكيات العقارية الواسعة، فيما والدة إسعاف هي ابنة الملقب بملك البر، مصطفى أبو غوش. وكانت أصداء الفقه، واللغة تتردد في مجالس الوالد[١].

(*) لا نعرف السنة التي وُلدَ فيها: والمذكور في أوراق الحكومة سنة١٨٩٠، وهي دون ما يرويه معاصروه، وذكر أحدهم سنة ١٣٠٠هـ -١٨٨٢م.

د.إسحاق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠، ص٧٢.

(**) في الأصل، آل النشاشيبي هم آل الجارية، لكن جدهم، أحمد بن رجب، كان يعمل في مجال مناولة السلطان الظاهر جقمق، وعلية القوم من المماليك، النشّاب (السهام) في الحروب، ورحلات الصيد. فاكتسب الجد صفته من عمله (النشاشيبي).

جلسة مع ابنة القدس، هالة العوري، في منزلها بالقاهرة، ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٩.

(***) هو السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري، تقلد السلطنة في ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ -١٤٣٨م. تُوفي في ٣صفر ٨٥٧هـ- ١٤/ ٢/ ١٤٥٣م، وهو من المماليك البرجية.

أرسل الوالد محمد إسعاف، بناء على نصيحة الشيخ راغب الخالدي، إلى المدرسة البطريركية، في بيروت، وهو في الثانية عشرة من عمره، لشهرتها في علوم اللغة والأدب، حيث قضى أربع سنوات متصلة. عاد بعدها إلى مسقط رأسه، بعد أن درس على أيدي أساتذة كبار، أمثال عبد الله البستاني، والشيخ محمد محيي الدين الخياط، ومصطفى الغلاييني. وقد ألم إسعاف بالفرنسية، إلى جانب العربية [٢].

عانى صاحبنا معاناة مزدوجة، أولاهما من والده، المستاء من اتجاه ابنه إلى الأدب، الذي لا يُسمن ولا يُغني. وحكمت الخصومة المديدة علاقة إسعاف بوالده. أما المعاناة الأخرى فمن استبداد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي حرم النشاشيبي من نشر شعره في الصحف. ورغم هجران والد إسعاف لأمه، بعد زواجه من أخرى، ومنعه المصروف عن الأولى، فإن إسعاف لم يعانِ الفقر؛ لأن والد إسعاف سبق أن تنازل له عن الكثير من العقارات والأراضي، فضلًا عن أن عائلة «أبو غوش» التي تنتمي إليها والدة إسعاف كانت في بحبوحة من العيش، وأغلب الظن أن قسوة الوالد كانت وراء عزوف إسعاف عن الزواج [٣].

لقد انتظر الوالد من إسعاف أن يكون من رجال الأعمال، ليحافظ على أملاك أبيه، ويستثمرها، فوجد الابن وقد تعلق بالأدب، الذي «لا يُغني ولا يُسمن». وبلغت مسامع الوالد أن ابنه باع قطعة أرض في يافا، فثار جنون الأب، وطلب من البوليس أن يفتش عن الابن «العاق»، ويقبض عليه، إلى أن ظفر به البوليس، فعلًا، في باب الخليل بالقدس، إلا أن إسعاف أفلت من البوليس، وولى هاربًا، لكن الأب ورجال البوليس طاردوه، حتى أمسكوه في السوق الجديدة، فتجمع الناس، وذهب أصدقاء إسعاف إلى مكان الحادث، لعلهم ينقذون صاحبهم، أو يترضون الأب الهائج، ولكن على غير جدوى. وكان إسعاف يصيح «أتضرب يا عثمان فخر بلادك؟!». ثم ركب الوالد بغلته، وجعل يخاطب الأديب المرموق، خليل السكاكيني: «يا سكاكيني! هذه آخر مرة يقرأ مقدمة شمَّيِّل»! يعني مقدمة كتاب شبلي شميّل، على مذهب دارون. وقضى إسعاف أيامًا في السجن، وكان أصدقاؤه لا ينقطعون عن زيارته، ويطيِّبون خاطره. ولكن الحقد تمكن في صدره على أبيه [٤].

لقد وصل الأمر بأبي إسعاف حد محاولته تسليمه للجندية مع العثمانيين، إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، لكن صاحبنا نجح في الاختفاء، قبل أن ينضم إلى هيئة تدريس الكلية الصلاحية، المعفين من الجندية، بأمر السلطات العثمانية [٥].

في غمرة الحرب العالمية الأولى، عكف النشاشيبي على القراءة، بجلدٍ عجيب، وكان لا يبرح بيته أيامًا ولياليَ، مكرهًا. ومن آثاره قصيدةٌ قبَّح فيها سيرة الحكم العثماني الجائر، مطلعها:

لئن ساس أبناء المغول قبيلةً نأى الخير عنها والبلاء أقاما [٦]

بعد وفاة والده، ابتنى إسعاف دارًا من ثلاثة طوابق، خصص طابقها الثاني لمكتبته، الزاخرة بالكتب النادرة، وفتحها للأدباء والعلماء. وحين زار المحامي والسياسي المصري الشهير، سكرتير حزب «الوفد»، مكرم عبيد، القدس، عام ١٩٣١، فإن النشاشيبي استقبله على حدود لبنان، واصطحبه إلى القدس [٧].

عمل إسعاف، منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين، في حقل التعليم. حتى أصبح مفتشًا للغة العربية في إدارة

المعارف بفلسطين، حتى سنة ١٩٢٩. فأسهم في تنظيم المدارس، وفي إصلاح التعليم، وبخاصة في مجال تدريس لغة الضاد.

دأب أديبنا على زيارة القاهرة مرة كل عام منذ سنة ١٩٢٧ ليلتقي كبار كتابها، وأدبائها، ويسلّم للأديب المصري المرموق، صاحب مجلة «الرسالة» الأدبية ذائعة الصيت، أحمد حسن الزيات، مقالات أدبية، للنشر في «الرسالة». وفي زيارته الأخيرة لمصر، سنة ١٩٤٧، حمل ثلاث مخطوطات كتب، لطباعتها في القاهرة. هي: **«الأمة العربية»، «حماسة النشاشيبي»**، و«**جنة عدن**». ومع وفاته ضاعت مخطوطاته الثلاثة هذه. فقد كان بلا زوج أو ولد[٨] يحفظ له إرثه، بما يذكرنا بعباس محمود العقاد.

انتخب عضوًا في «المجمّع العلمي العربي» بدمشق منذ إنشائه سنة ١٩١٩، وقد ترك النشاشيبي أملاكه، ومكتبته لهذا المجمّع. وأهدته الجمهورية اللبنانية عام ١٩٤٧ «وسام الاستحقاق».

بعد قرار تقسيم فلسطين، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧)، اندلعت الاشتباكات بين المجاهدين العرب الفلسطينيين وبين العصابات الصهيونية المسلحة، فغادر صاحبنا القدس إلى القاهرة، في زيارته السنوية إياها، لكن المنية وافته هناك، فجر ٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، ودفن هناك.

(٢) تقديسه العربية

بلغ تقديس إسعاف اللغة العربية حد أن وصفها بأنها «اللغة المحمدية ... لغة القرآن ... إنها صنع الله، إنها لغة القرآن ... إنها الـحُسن رائعًا باهرًا ...». وفي مواجهة من ادعوا عجز العربية عن مجاراة العصر، وأداء معانيه، رد النشاشيبي متسائلًا: «أي علم من العلوم ناداها فما لبته؟ أي فن من الفنون دعاها فخذلته؟ ... هل تعجز لغة كتب بها الله كتابه عن أن يكتب بها البشر؟، فلو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي». مستطردًا، في ثقة تامة: «إنها اللغة العربية، لغة الباحثين، المحققين، المدققين ... لغة الخالدين»[٩]. لاحقًا، وصلت ثقة إسعاف بالعربية حد قوله: «إن العربي الأبي (وكل عربي ناطق بالضاد أبيّ) لا يرضى إلا بها العربية به ترضى».

في تـأبين فقـيد العـراق، عـبـد الـمحـسن السـعدون (٢٧/ ١٢/ ١٩٢٩)، قال إسعاف: «...وهل معتصمي، وشرفي، ومجدي في الوجود غير عربيتي؟ وهل سموتُ، وكُرِّمت عند العظام، وعند الملوك إلا بها؟...»[١٠]. على أن أديبنا ينعي العربية في وطنها[١١]. فيما اللغة العربية ـ عند النشاشيبي ـ «أبلغ لغات الكرة الأرضية»[١٢].

لذا كان طبيعيًّا أن يستهجن إسعاف النشاشيبي كيف «استبدل فريق بهذه اللغة الفصحى البليغة، الكريمة ... لغة هذا الوقت، وهي لغة تقصر براعة كل بليغ عن وصف سخفها، وركاكتها، وسماجتها، وعجمتها»[١٣].

يندب النشاشيبي حظ اللغة العربية، لما عانته من شقاء، فيبادر إلى إطلاق صفير الإنذار لدرء الخطر عن اللغة العربية، متقدمًا باقتراحات لإقالتها من عثرتها[١٤].

وقد وردت آراؤه الثلاثة الأخيرة في كتابه «**كلمة في اللغة العربية**»، الصادر في القدس، سنة ١٩٢٥، وقد وصف أحد تلامذته هذا الكتاب بأنه «دفاع عن العربية، لا يدانيه دفاع في الأدب العربي الحديث، مما أذاع صيته في البلاد

العربية عامة، والقطر المصري خاصة. إذ جهر به في جمعية (الرابطة الشرقية)، بالقاهرة، سنة ١٩٥٤، فتهافت الأدباء على لقائه، وتعظيمه. ورسالة عنوانها «**العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي**»، وهي خطبة في المهرجان الشرقي، و«**العربية والأستاذ الريحاني**»[١٥].

(٣) القرآن والرسول

من هنا نعرف سر مدى محبة إسعاف للقرآن الكريم، واعتزازه به. يقول النشاشيبي: «وجاء مع النبي العظيم كتاب كريم، بلاغة العرب الخلَّص، وفصاحة مصاقع الخطباء، وخناذيذ الشعراء، متماقرة، متضائلة، بين يدي بلاغته، وفصاحته...». ويندد النشاشيبي بكل من يشبِّه القرآن بأي كتاب. ويجمع صاحبنا بين كتاب الإسلام ونبيّه (نابغته)[١٦]. حتى يصل الأمر بإسعاف حد وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه «خالق الأمة العربية»[١٧]. حيث يرى النشاشيبي بأن «محمد والعرب والمسلمون هم هداة العالمين». وإليهم يعيد صاحبنا الفضل فيما وصل إليه الغرب من تقدم ورقي. فالنبي هو موحِّد أهواء أهل الجزيرة ... مُهَدِّم عروش الطغاة، والجبابرة من الأكاسرة، والقياصرة، فتبدلت الأرض ـ في ذلك الوقت ـ غير الأرض، وغدا آباؤنا إلى طلل العلم الدارس، والمدينة الطامسة، فشادوا في مكانه صرحًا لهما محررًا»[١٨].

لأن إسعاف ابن أُسرة أرستقراطية، فقد وجدناه يلوذ بلغة الأقدمين، حريصًا على ألا يتحدث لغة جمهرة اللغويين[١٩]. فلم يترنم صاحبنا بما يترنم به كل فم، رغم اكتسابه لقب «أديب العربية الأكبر».

لذا دخل إسعاف في معارك متواصلة مع المجددين في اللغة العربية، كما جيَّش أخصامًا له، حتى من بين أصدقائه المعروفين، مثل خليل السكاكيني.

في سنة ١٩٢٤ سافر النشاشيبي إلى القاهرة، كعادته كل عام، وألقى في مقر «الرابطة الشرقية» محاضرة، بعنوان «**كلمة في اللغة العربية**»، أعادت نشرها يومية «السياسة» القاهرية، في حينه، وفيها ندد النشاشيبي بالمجددين في اللغة العربية، ما أذكى نار الصراع بينهم وبين المحافظين. وكرر إسعاف الأمر نفسه، حين دُعي سنة ١٩٢٧ إلى مهرجان تكريم أمير الشعراء، أحمد شوقي[٢٠]، حيث توثقت عرى الصداقة بين النشاشيبي وشوقي.

تخلص صاحبنا من عبء الوظيفة الحكومية، بعد أن خدم فيها عشر سنوات متصلة، وأهَّلته ثروته للتفرغ للكتابة، وإلقاء المحاضرات.

منذ سنة ١٩٣٤، أخذ يتجه دينيًّا، وبعد أن قرأ نحو تسعمائة كتاب ديني، أصدر إسعاف كتابه «**الإسلام الصحيح**» في القدس، سنة١٩٣٦[٢١].

تجلى، أيضًا، صدام إسعاف مع المجددين في اللغة العربية في الفترة التي أشرف فيها على مناهج تدريس اللغة العربية في المدارس الثانوية العربية الفلسطينية، وهنا تمكن النشاشيبي من تنظيم هذه المدارس، وتطوير نظام التعليم، بتحبيذه الأدب القديم، والتشديد على القواعد، ما أدخل النشاشيبي في معارك متلاحقة مع المجددين، أمثال السكاكيني. وفي هذا السياق وضع إسعاف «**مجموعة النشاشيبي**»، التي ضمت مختارات من الأدب القديم، أقرتها إدارة المعارف للمدارس الثانوية، وأتبعها النشاشيبي بمختارات على غرارها، حملت عنوان «**البستان**»[٢٢].

لقد سلك النشاشيبي نهج قدامى اللغويين نفسه، متشبثًا بالقرون الإسلامية الثلاثة الأولى، لغةً وأسلوبًا.

آمن إسعاف بأرستقراطية الأدب، ملتزمًا بقول الأديب الفرنسي المعروف، فلوبير: «أن يضطر الفتى، ويسكن قصرًا بندقيًا، منجدًا، أهون عليه أن ينشئ صفحة واحدة جيدة». واللغة عند النشاشيبي غاية، وليست مجرد وسيلة؛ لذا فالأديب ملزم بالتجديد، الأمر الذي لا يتأتى إلا بدراسة القرآن، ومأثورات العرب في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام[٢٣].

لقد دارت بين إسعاف النشاشيبي وبين مصطفى صادق الرافعي رحى معركة لغوية حامية الوطيس على صفحات مجلة «الرسالة» الأدبية القاهرية، رغم كل أوجه الشبه بين النشاشيبي والرافعي، خاصة في التعصب للعربية، وغوصهما في المباحث الإسلامية. لقد أنكر الأول على الرافعي أسلوبه المفرط في التشبيه، والأخيلة، بشكل خارج عن مألوف العرب[٢٤].

غني عن القول، إن إسعاف لم يكتب من باب الترف، بل كان لا بد من حافز يدفعه للكتابة، وهكذا كل كتبه صدرت في قضايا تهمه هو بالدرجة الأولى[*].

(٤) النشاشيبي شاعرًا

حين تخرج النشاشيبي من المدرسة البطريركية، في بيروت، نظم قصيدة، كتبها بالذهب، وأهداها إلى المحيطين به. ثم نظم النشاشيبي قصيدة، استهلها، متأسيًا:

العرب مات شعورهم ... فاندبه دهرك باكيا
ولّى فولّى بعده ... أُنسي وساء مآليا
قد كنت أطمع أن أرى ... وطني بهيجًا زاهيا
فوجدته من كل علم ... أو علاء خاليا
فرثيته وندبته ... وسكبت دمعي غاليا

(*) أصدر النشاشيبي الكتب التالية:
- مجموعة النشاشيبي، القاهرة، ١٩٢٥.
- البستان، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٩٢٤.
- كلمة في اللغة العربية، القدس، ١٩٢٥.
- قلب عربي وعقل أوروبي، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٤٢هـ.
- كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٨م.
- اللغة العربية والأستاذ الريحاني، القاهرة، ١٩٢٨م.
- الإسلام الصحيح، القدس، مطبعة العرب، ١٣٥٤هـ.
- البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الأكبر أحمد شوقي، القدس، ١٩٣٢م.
- مقام إبراهيم، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٥٤هـ.
- شرح أمثال أبي تمام، القدس، مطبعة النفائس، ١٩١٢.
- نُقَل الأديب، بيروت، ١٩٥٦، (جمعها تلميذه، د. إسحاق موسى الحسيني)

فسعادتي يا ابن الكرام وبغيتي ومراميا
أن تصبح العرب الأذلة سادة ومواليا[٢٥]

حين نجح انقلاب «الاتحاد والترقي»، في إستانبول، وأصدر النظام الجديد دستورًا، دعا النشاشيبي إلى التخلص من آثار السلطان عبد الحميد الثاني، وحذَّر النشاشيبي من استخدام الدين أداة تفرقة وتضليل:

أنزلوه عن عرشه مستكينا وأذلوه في الورى إذلالًا
قوَّضوا من صروحه كل عال فغدت بعد نضرة أطلالًا

تنبه النشاشيبي، مبكرًا، للخطر الاستعماري، فنظم قصيدة «فلسطين والاستعمار الأجنبي»، وفيها خاطب إسعاف وطنه فلسطين:

سوف تشكين وتبكين دمًا يوم لا يُجدي ولا يُغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء وانبذوا البغضاء نبذًا والعداء
إن الاستعمار قد حاز المدى دون أن يعدوه عن سير عداء
إن هذا الداء قد أمسى عياء فتلافوه سريعًا بالدواء
إنها أوطانكم فاستيقظوا لا تبيعوها لقوم دخلاء[٢٦]

لأن النشاشيبي داعية عِلم نراه ينشد:

إن ذا العصر عصر علم وبحث ليس فيه لجاهل من هناء
إن ذا العصر عصر كدح ودأب ليس فيه لغافل من بقاء
تتبارى فيه البرايا وتسعى وتجارى والفوز للأقوياء[٢٧]

حين مات ليوتولستوي، شارك إسعاف حافظ وشوقي في رثاء ذاك الأديب الروسي الشهير:

يا رسول السلام مَن للسلام يوم تذكي نار الوغى في ضرام
من يجير الضعيف بعدك أو من يرتجيه في الكارثات الجسام
أظلم الكون حين بنت فبتنا حلفاء الأشجان والآلام[٢٨]

لقد دأبت النوادي الرياضية على الاحتفاء بمن يفد على فسطين من الأدباء وكبار الصحفيين، كتلك الحفلة التي أقامها النادي الرياضي بالقدس في بستان أنتيموس، في مارس/ آذار ١٩٢٠، للصحفي اللبناني الكبير، سليم سركيس، وفيها ألقى إسعاف النشاشيبي كلمة رائعة، كما ألقى الشاعر العراقي المبدع معروف الرصافي قصيدته السينية الشهيرة. وجرت الحفلة في مدرسة روضة المعارف[٢٩].

لقد نفر النشاشيبي من الوظيفة الحكومية، وشجع على التوجه للصناعة، والتجارة، والزراعة، فنظم قصيدة:

عشقوا الوظائف ضلة لهداهـو	ورأوا بها العلياء شاخة الذرى
خالوا السعادة عندها أوما دروا	أن الرزايا في الوظائف والشقا
لم يبغـها إلا الـذي هو جاهل	بحقائق الأكوان مأفون الحجى
نبذ الصناعة والتجارة والزرا	عة مؤثرًا يا ويله مر الجنى[٣٠]

حين توفي، في مصر، أمير الشعراء، أحمد شوقي بك، سنة ١٩٣٢، لم يتأخر النشاشيبي عن رثائه، وفاءً للصداقة الحميمة التي ربطت بينهما، وقد بيَّن النشاشيبي الخدمات الجليلة التي قدمها للغة العربية وللقضايا العربية، ودعا الأول إلى أن «يكرِّم لفظ شوقي في الشعر، كما كرَّم معنى»[٣١].

ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، حتى حط النشاشيبي الشاعر رحاله، ولم يشأ أن يشيع شعره، الذي نظمه قبلها، على كثرته. لقد أراد أن يكون أديبًا من الطراز الأول، ولم يحله شعره في هذه المرتبة فزهد فيه، غير آسف[٣٢].

(٥) إسعاف في الصحافة

جاء حين من الدهر عمل فيه النشاشيبي في الصحافة، وتولى رئاسة تحرير مجلة «الأصمعي»(*)، ومجلة «النفائس»(**)، كما أسهم في تحرير مجلة «المنهل»(***)، فضلًا على مواظبته على الكتابة في مجلات أدبية مختلفة، أهمها «الرسالة»، كما سبق وبيَّنا.

حمل انقلاب عسكري «الاتحاد والترقي» إلى سدة السلطة في إستانبول، صيف ١٩٠٨، وادعت تلك الجماعة بأنها تبغي تحقيق الإخاء العربي ـ العثماني، ما دفع بعض العرب إلى تشكيل جمعية حملت الاسم نفسه، توهُّمًا من هذا البعض أن الأمر جاد لا مزاح فيه.

أخذت الصحافة دفعة بالتوازي مع إشاعة الوهم بانفتاح «الاتحاد والترقي» على القومية العربية، فأصدر حنا العيسى مجلة «الأصمعي» في سنة الانقلاب ذاتها، وتولى إسعاف النشاشيبي رئاسة تحريرها، لفترة من الزمن، وأعطى نفسه اسمًا كتابيًّا، هو «أبو الفضل»، تيمنًا ببديع الزمان الهمذاني، فيما حمل زميله في تحرير المجلة، خليل السكاكيني، اسم «أبو الطيب»، لولعه بالمتنبي. ووقّع العيسى مقالاته بأبي السعيد، تيمنًا بالأصمعي، الذي حملت المجلة اسمه[٣٣].

(*) **الأصمعي**: أدبية، نصف شهرية، صاحب امتيازها هو حنا عبد الله العيسى، وقد صدر العدد الأول منها في ١/ ٩/ ١٩٠٨.
- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠. (انظر: عبد القادر ياسين، الصحافة العربية في فلسطين، ص٤٣١).

(**) **النفائس**: أدبية أسبوعية، صدرت في مدينة حيفا، وصاحب امتيازها هو خليل بيدس، وقد صدر العدد الأول منها في ١/ ١١/ ١٩٠٨، وعمّرت زهاء تسع سنوات، تغير اسمها، خلالها، إلى «النفائس العصرية».
- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٥.

(***) **المنهل**: شهرية صدرت في القدس، بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩١٣، صاحبها ورئيس تحريرها هو محمد موسى المغربي.
- **الموسوعة، مصدر سبق ذكره**، ص٤٣٢.

كما لم يخلُ عدد واحد من «النفائس» من شعر النشاشيبي، أو نثره. وفي سنة ١٩١٢، نشر إسعاف في «النفائس» سلسلة مقالات، تحت عنوان «أمثال أبي تمام»، سرعان ما جمعها إسعاف في كتاب حمل الاسم نفسه[٣٤].

كذلك نشر النشاشيبي مقالاته في «المنهل»، مستعينًا بما يكتبه شبلي شميِّل، في مصر، عن النشوء والارتقاء، وما ينشره فرح أنطون عن أفكار بيئته. ورغم إيمان النشاشيبي بالإسلام، واعتزازه بالسلف، فإن النشاشيبي ألح على ضرورة الأخذ بأسباب التقدم، «وإلا ظللنا لأهل الغرب أرقاء، أذلاء، والجاهل للعالم، في كل زمان، عبد وقن». حسب محاضرة ألقاها، في بيروت، قبل أن يصدرها في كتاب، هو «قلب عربي وعقل أوروبي».

في السياق نفسه، نشر إسعاف النشاشيبي مجموعة مقالات معظمها في جريدة «المهذب» عن أدباء أمثال هنريك أبسن، وإرنست هيجل[٣٥].

منذ سنة ١٩٣٧، بدأ إسعاف الكتابة في مجلة «الرسالة» الأدبية القاهرية ذائعة الصيت، التي ترأس أحمد حسن الزيات تحريرها. وفيها نشر النشاشيبي مقالاته في باب استحدثه، تحت عنوان «نُقُل الأديب»(*)، وهو الباب الذي استمر زهاء عشر سنوات متصلة، قبل أن يجمعها تلميذه، د. إسحاق موسى الحسيني في كتاب صدر، لاحقًا، في بيروت، بعد وفاة صاحبه بثماني سنوات[٣٦].

(٦) موقفه من التقدم الغربي

رغم أن إسعاف كان شديد التقديس للسلف، قوي الإيمان بالإسلام والمسلمين، فإن هذا كله لم يمنع النشاشيبي من تقدير التقدم الغربي، وإن اعتبره ثمرةً للتقدم العربي الإسلامي السالف. من هذا المنطلق وضع النشاشيبي كتابه «**قلب عربي وعقل أوروبي**»، سنة ١٩٢٤، داعيًا إلى الاستمساك بعروة عربيتنا الوثقى[٣٧].

رصد صاحبنا مآثر التقدم الغربي، المتمثلة ـ برأيه ـ في النظام، المقترن بالهيبة، وبالعلم، والفن، والـجَلَد في العمل، والابتداع، والوطنية، والحرية، والجامعات، والعصامية، والأخلاق[٣٨].

يؤكد النشاشيبي «... فليس ثمة عاصم، وآن أويت إلى المريخ....فالمدنية الغربية فيها معقلنا، وفيها سد الصين، وفيها المنجاة من كل فعل، شرقي أو غربي مقتحِم». ويستهجن النشاشيبي موقف ذلك العربي الذي يدير ظهره للتقدم الغربي. وينتهي صاحبنا إلى حث العرب على الاقتداء بالغرب في تقدمه ذاك[٣٩]. وتكررت دعوة النشاشيبي هذه في العديد من كتبه.

في السياق نفسه أخذ النشاشيبي على العرب المعاصرين تخلفهم في مجال الإيمان بالعقل والعلم، على عكس أسلافهم، الذين خلقوا العصر الذهبي للإسلام[٤٠].

(*) **نُقُل الأديب**: تضمنت عرضًا للثقافة العربية، على اختلاف قطوفها، وتباين ألوانها. وبلغ عدد ما نشره النشاشيبي منها ٩٦٩ نادرة. وكان آخر ما نُشرَ منها في عدد ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، قبل يومين من وفاة النشاشيبي. وقد اختارها من بين مئات أمهات الكتب. مثل: عيون الأخبار، الحيوان، شرح نهج البلاغة، معجم البلدان، خاص الخاص، اليتيمة، تاريخ الطبري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأغاني، سيرة ابن هشام، البيان والتبيين، نهاية الأدب، محاضرات الأدباء، النجوم الزاهرة، الاقتضاب في شرح الكتاب، تاريخ بغداد، عيون الأنباء، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، نفح الطيب، والكتابات.

الناشف، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

بعد أن انقشع غبار الحرب العالمية الأولى، سنة ١٩١٨، نم تعيين النشاشيبي مدرسًا للغة العربية في المدرسة الرشيدية بالقدس، ثم مديرًا للمدرسة نفسها، قبل أن يترقى إلى مفتش إداري لمنطقة القدس، في إدارة المعارف. وفي سنة ١٩٢٣ اختير عضوًا في «المجمع العلمي العربي»، في دمشق، وأخذ صاحبنا يكتب في مجلة المجمع، ابتداء من السنة التالية لنيله العضوية.

اللافت أن النشاشيبي حين عيِّن مفتشًا عامًّا للغة العربية في فلسطين، اختلف مع صديق عمره، خليل السكاكيني، المفتش الآخر للعربية. وتمحور الخلاف حول اللغة العربية، وأساليب تدريسها. وهو الخلاف الأزلي بين الأصالة والمعاصرة، حيث تحيَّز النشاشيبي للأولى، فيما أخذ السكاكيني بالمعاصرة. وأخذت شقة الخلاف بين الصديقين في الاتساع، حتى تطورت إلى ما يشبه القطيعة.

(٧) نسيج وحده

زهاء ستة وستون عامًا عاشها إسعاف النشاشيبي، راهبًا في محراب اللغة العربية، مقاتلًا في سبيل صون عفتها العريقة.

في اليوم التالي لوفاته، أملى السكاكيني على المذيع الفلسطيني، سبيرو العيسى، كلمة في الفقيد، لتذاع في «إذاعة القدس»، واعتبر السكاكيني إسعاف «إمامًا من أئمة الأدب، واللغة، وعلوم اللسان. عرف اللغة العربية، مألوفها وغريبها، فكان كأنه معجم لسان العرب يمشي على قدمين. عرف علوم اللسان، من صرف، ونحو، ومعان، وبيان، مما لم يلد أحد يدانيه فيه ... لم يقتنِ الكتب ليزيِّن بها قصره، ولكن ليبحث، وينقِّب. وقد كانت مجالسه أجمل المجالس، لم يلقه أحد إلا استفاد منه. لم يطلب العلم لاستثماره، والاستفادة منه، ولو فعل لكان من كبار الأغنياء ... [بل] لأجل العلم ... كان ... وافر المروءة ... كان بيته كعبة القُصَّاد، لا تزوره إلا وجدت فيه أهل العلم، والفضل، يتجاذبون البحث في هذا الموضوع، أو ذاك. وكان إذا تكلم كأنه يغرف من بحر ... كان أستاذ نفسه، وإن كان حريصًا على الاعتراف بفضل أساتذته.

«كان وهو صبي يحب الزعامة، وكان في ذلك يشبه أخي يوسف ... ولم يكن يمر يوم إلا عبأ الواحد فرقته، وجهَّزها بالعصي، وزحف إلى منطقة نفوذ الآخر. فيتلقاه بفرقته. ونشب القتال...»[٤١].

أما صاحب «الرسالة»، ورئيس تحريرها، فقال في رثاء إسعاف النشاشيبي: «...كان مجلسه ندوة علم، وأدب، وفكاهة. لا تُذكر مسألة إلا كان له عنها جواب، ولا تُثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي، ولا تُروى حادثة إلا ورد له عليها مَثَل، ولا يحضر ندوة أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد، وكان نسيج وحده، في الأسلوب، والخط، والحديث، والتحليل. أسلوبه عصبي، ناري...خطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق... وحديثه نبراتٌ قوية ... وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه، وأصابع يده، وتحصيله من العجب العجاب، لا تستطيع أن تذكر كتابًا من الكتب العربية لم يقرأه، ولا بيتًا من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبرًا من تاريخ العرب والإسلام لم يروِه، ولا شيئًا من قواعد اللغة، ونوادر التركيب، وطرائف الأمثال لم يعلمه، فهو من طراز (أبي عبيدة)، و(المبرد)؛ ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا، واختيارًا، وأمالي أنه كان خام طبقةٍ من الأدباء اللغويين المحققين، لا يستطيع الزمان الحاضر، بطبيعته، وثقافته، أن يجود بمثله»[٤٢].

نأتي إلى أديب ولغوي من القدس، تتلمذ على يدي إسعاف النشاشيبي، ورأى بأننا «نظلمه كثيرًا، إذا عددناه في مرتبة المعلمين، وأخذناه بالأحكام الحديثة، فقد كان أديبًا، قبل أن يكون معلمًا. وكان فهمه للأدب، على نحو خاص، يلتئم مع مزاجه، ودراسته الذاتية العميقة، وكان تعليمه أشبه بالتأديب المعروف في العصور العربية القديمة. ومع ذلك بلغ تأثيره في طلابه حدًّا لم يبلغه كثير من المعلمين المحدثين. وما زال طلابه، حتى اليوم، يروون الشواهد، والمختارات، التي كان يمليها عليهم، ذلك أنه كان صاحب مذهب في الأدب، آمن به، وأخلص له، مع غيرة متناهية، وحماسة عظيمة»[٤٣].

كان إسعاف النشاشيبي نسيج وحده، في ثقافته، ومجالسه، وأحاديثه، وأسلوبه، وطراز حياته. يقول الأديب واللغوي نفسه: «لا نعرف أديبًا عربيًّا معاصرًا أحاط بالأدب القديم إحاطته، فقد قرأه قراءة متفحص، مدقق، وروى عيونه عن ظهر قلب، ووقف على مواطن الإبداع فيه. فنراه يقف عند القرن الثالث الهجري... ويرى الإعجاز في القرآن، والحديث، والكامل للمبرد ... أما كلام ابن المقفّع، والجاحظ، والصابي، والهمزاني، والرضي، والمعرّي، والحريري، وأمثالهم، ففيه لين، وارتباك، وتخطيط، وإسهاب، وتعمُّل، وزخرفة، كما يرى الأدب الحديث فجًّا، ركيكًا، وكانت العبارة، في نظره، الحجر الذي يتكون منه الجدار، فالعبارة القديمة متينة السبك، محكمة، وأراد أن يحاكي القدامى، وأن يأتي بعبارة كعبارتهم، إحكامًا وإتقانًا، وراض نفسه طويلًا على هذه المحاكاة، حديثًا وكتابةً، وظل خمسين عامًا يهتدي بهدي القدامى، مؤتمًّا بإيمانهم». وعلى لسان المستشرق الشهير هـ. م. ر. جب ـ وقد التقى إسعاف النشاشيبي ـ يُردف الأديب واللغوي إياه: «من لا يعرف النشاشيبي يداخله الظن أنه رجل متقعِّر، متكلف، ثقيل الظل». حيث كان النشاشيبي يخاطب الخاصة والعامة على السواء بأسلوب عربي فصيح ... وكان أسلوبه في الكتابة عربيًّا قديمًا، يكثر فيه الغريب، والشواهد، والاستطراد، والعبارات الأنيقة، المتينة، المحكمة، والتعبير المستقيم، دون استعارة، أو كناية، أو تشبيه، أو صور خيالية، أو حتى إعمال الخيال، كما أن ألفاظه لا تجد فيها لفظة مولّدة، أو أعجمية، يُكثر من الاستشهاد بشعر القدامى، ونثرهم، وجمله قصار، وذات فواصل أشبه بفواصل القرآن، كما كان أسلوبه ناريًّا، يتفق ومزاجه الحاد.

«ربما لهذه الأسباب لم تكن هناك قيمة كبيرة للشعر القليل الذي نظمه النشاشيبي، فقد تناول موضوعات قومية اجتماعية، بمعان مسبوكة، وأسلوب تقريري، يكثر فيه التكرار، والتوكيد، والتهويل... وليس في شعره الأناقة، ولا قوة الديباجة، ولا الخيال الكبير المميَّز»[٤٤].

كان الأديب واللغوي نفسه قد قيَّم النشاشيبي، بأنه «كان أديبًا فذًّا، لا نظير له بين أدباء عصره. جاهد ليبدع في النثر، إبداع صاحبه أبي تمام في الشعر، فغاص في كثير من أقواله غوصه. وتأنَّق تأنقه، وتحلَّى تحليته، ورمى بتلك القرون الطوال وراء ظهره، ليظهر في ثوب القرن الثاني الهجري. ومهما قيل في أدبه، فإنه عاد بالإسلام إلى القرن الثاني، بل إلى القرن الأول، وكان ما أراد، دون أن يقصد ما كان. فقد بدأ شاعرًا، وأديبًا منشئًا، وناقدًا، وراوية، وانتهى فقيهًا مجتهدًا، قوي الحجة، ناصع البيان، وكأنه من فقهاء المسلمين، في صدر الإسلام، يتخذون اللغة وسيلة للتفقه في الدين، وفهم أسرار القرآن الكريم»[٤٥].

لذا حين نعاه الأديب واللغوي، تلميذه، إسحاق موسى الحسيني، قال: «وهكذا، انطفأت شعلة كان لها سنى البرق، وأريج المسك»[٤٦].

هوامش الفصل السابع:

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين**، نيوجرسي، الدار الأمريكية للنشر، ١٩٨١، ص ١٠.
- أحمد عمر شاهين، **محمد إسعاف النشاشيبي أديب العربية**، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٢، ص٨ - ٩.
- د.عبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني الحديث**، بيروت، المكتب التجاري، ١٩٦٨، ص١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٩.
- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٣.
- أدهم آل جندي، **أعلام الفن والأدب**، ج١، دمشق، ١٩٥٤، ص ٣٧٣.
- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٤، ١٦٠.

(٣) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢.

(٤) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ط٢، بيروت، الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨٢، ص ٣٨٢.

(٥) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦.

(٦) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٧.

(٧) الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠.

(٨) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٦.

(٩) محمد إسعاف النشاشيبي، **البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الأكبر أحمد شوقي**، القاهرة، ١٩٣٢، ص٢٠.

(١٠) محمد إسعاف النشاشيبي، **العراق في سبيل الحرية**، د.ت، ص ٧.

(١١) **مجموعة النشاشيبي**، الكتاب الأول، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ مقدمة الكتاب.

(١٢) محمد إسعاف النشاشيبي، **كلمة في اللغة العربية**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥، ص ٨.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٦ - ٧.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٥ - ٨.

(١٥) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨.

(١٦) النشاشيبي، كلمة...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥-١٦، ٦٦-٦٧، ٨٩ -٩٠.

(١٧) النشاشيبي، البطل...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٩-٨٠.

(١٨) إسعاف النشاشيبي، **مقام إبراهيم**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٥٤هـ ص٢٣- ٢٤.

(١٩) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١ - ٢٢.

(٢٠) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٩، ١٦، ١٧، ٢١ - ٢٢، ٢٥ - ٢٦.

- الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥.
- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٠ - ٣٥٤.

(٢١) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٢٣) **المصدر نفسه**،ص٢٢.

(٢٤) الناشف ، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- إسحاق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠، ص ٧٤ - ٧٥.

- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٤.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ١٦٧.

- **النفائس العصرية** (القدس)، الجزء١٢، المجلد الثاني، ١٩١٠، ص٥٧٦ - ٥٧٧.

(٢٧) **النفائس العصرية** (القدس)، الجزءالأول. السنة الثالثة، ١٩١١، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢٨) ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٨.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص ١٠٠.

- **النفائس العصرية** (القدس)، الجزء١٧، السنة السابعة، ١٩٢٠، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٣٠) ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣١) الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١.

(٣٢) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣٣) السكاكيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

(٣٤) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٤.

(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ١٩.

(٣٧) إسعاف النشاشيبي، **قلب عربي وعقل أوروبي**، القدس، ١٣٤٢هـ، ص ٣ - ٤، ١١.

(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ١٣.

(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١٣ - ١٨.

(٤٠) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥.

(٤١) السكاكيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٨١.

(٤٢) أحمد حسن الزَّيات، محمد إسعاف النشاشيبي، **الرسالة** (القاهرة)، العدد ٧٦١، فبراير/ شباط ١٩٤٨.

(٤٣) إسحاق موسى الحسيني، **أديب العربية: محمد إسعاف النشاشيبي**، القدس، مركز الأبحاث الإسلامية، مؤسسة دار الطفل العربي، ١٩٨٧، أورده شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠ - ٢١.

(٤٤) **المصدر نفسه**، الصفحتان نفساهما.

(٤٥) الحسيني، هل...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠.

(٤٦) **المصدر نفسه**،الصفحة نفسها.

obeikan.com

الباب الخامس

ساسة مناضلون



obeikan.com

الفصل الأول

الحاج أمين الحسينى
رائد كفاح، وبطل قضية

عصام الغريب محمد

يعتبر الحاج أمين الحسيني من الشخصيات الفلسطينية البارزة في تاريخ النضال الوطني الفلسطيني، خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وحتى تاريخ وفاته، في الرابع من يونيو/ حزيران ١٩٧٤، وهو من الشخصيات العربية القليلة التي كانت لها إسهاماتها، ليس على المستوى الوطني فحسب، بل على النطاق العربي، والإسلامي، أيضًا، فالحاج أمين هو شخصية جديرة، بالفعل، بالبحث، والدراسة، من كل المهتمين بالشأن الفلسطيني، والعربي، فالأجيال الناشئة تظل في حاجة ماسة لقراءة تاريخ قادتها، ومعرفة مواقفهم، ونهجهم، من أجل الاستفادة، والعبرة في قراءة الواقع، واستشراف المستقبل، فقد ارتبط اسم الحاج أمين، على الدوام، بأحداث القضية الفلسطينية، حتى انفردت شخصيته بمركز عظيم في وجدان الشعب الفلسطيني، وكان هتاف الشعب الفلسطيني في المواسم، والأفراح، والأعياد:

سيف الدين الحـــاج أمين　　بدنـــا　نحرر　فلسطين

حـاج أميـــن يـا مفتينـــا　　بدنـــا　نحرر　أراضينا

النشأة والتكوين

ولد محمد أمين الحسيني في القدس، سنة ١٨٩٧م، وهي السنة نفسها التي تصادف وعقد فيها أول مؤتمرات الحركة الصهيونية، بزعامة هرتزل، في بازل، بسويسرا، ووضع فيه الصهاينة برنامجهم لاستعمار فلسطين، ونشأ أمين في عائلة الحسيني العريقة، وتربى في بيت والده، الشيخ طاهر الحسيني، مفتي القدس، الذي عرف بعلمه الواسع في الشرع الإسلامي[1].

تلقى محمد أمين الحسيني علومه الابتدائية والثانوية في مدارس القدس، ثم التحق بكلية الفرير بالقدس لتعلم اللغة الفرنسية، بعدها التحق بالأزهر بمصر، لتلقي المزيد من العلوم الدينية، وكان يتردد على دار الدعوة والإرشاد، التي أنشأها محمد رشيد رضا داعية الإصلاح، حيث نهل الحسيني من علمه، وتأثر بتياره الفكري، الذي كان له تأثير كبير على الجماهير، في ذلك الوقت، ومن خلال ذلك، عرف الكثير عن الصهيونية، وأطماعها في فلسطين، إلا أن دراسته في الأزهر لم تطل أكثر من عامين، بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى، وفي أثناء الدراسة، في دار الدعوة والإرشاد، كان الحاج أمين يحضر الدروس، والمحاضرات في كلية الآداب، في الجامعة المصرية. ثم التحق بكلية الآستانة العسكرية، مع نشوب الحرب، وتخرج منها ضابطًا، والتحق بالجيش العثماني في ولاية أزمير، وعمل في مراكز عسكرية أُخرى على البحر الأسود[٢].

مع نشوب الثورة العربية، بقيادة الشريف حسين، انضم الحسيني إليها، واستطاع تدريب، وتجنيد، الكثير من المتطوعين الفلسطينيين للانضمام إلى الثورة ضد المعسكر التركي[٣].

بعد نهاية الحرب، عاد أمين الحسيني إلى القدس، وأصبح يعرف بين الناس بالحاج أمين الحسيني، إذ كان قد اكتسب لقب الحاج عندما حج برفقة والدته، وهكذا كانت تتلخص رؤية الناس تجاه أمين الحسيني إثر عودته إلى بلده في كونه شابًّا، عربيًّا، مؤمنًا، ومتعلمًا، وملمًّا بالفكر الإسلامي، والعلوم المفيدة، والخبرة العسكرية، ويعرف من اللغات الأجنبية الفرنسية، والتركية، بالإضافة إلى ذلك كله كان بحكم انتمائه إلى أسرة آل الحسيني، ذات النسب الشريف، مهيأً ليكون زعيمًا، وداعيةً، مسموع الكلمة، له تأثيره على قطاع عريض من الجماهير[٤].

نشاطه الوطني المبكر

عندما احتل الإنجليز القدس، في ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، رتب الحج أمين أمره، بحيث استطاع أن يأتي إلى القدس، وهو يعلم أن البلاد أمست تواجه مصيرًا جديدًا، مجهول العواقب، بظهور «وعد بلفور»، وعندما اكتمل احتلالهم لفلسطين، انصرف الحسيني إلى تنظيم الفلسطينيين في حركة وطنية شاملة ضد الاستعمار، والصهيونية، واستجاب له نفرٌ من أصدقائه، فكوَّنوا في القدس «النادي العربي» سنة ١٩١٨، وانتخب الحسيني رئيسًا له، وكان، يوم ذاك، في الحادية والعشرين من عمره، وقد أنشأه مع رفاقه على غرار «النادي العربي» الذي أسس في دمشق، زمن الحكومة الفيصلية، وكان الشيخ عبد القادر المظفر أبرز العاملين فيه[٥]، وتلخصت أهداف النادي في هدفين، هما: الوحدة مع سوريا، ومكافحة الصهيونية، وقد اكتسب النادي شعبية واسعة، عن طريق جريدة «سوريا الجنوبية»، لصاحبيها عارف العارف، وحسن البديري[٦]. وفي بداية سنة ١٩٢٠، كان النادي في ذروة نشاطه، فقد امتدت فروعه في أكثر من مدينة، وكان من أبرز العاملين فيه إسحاق درويش، والشيخ حسن أبو السعود، ويوسف ياسين، وعارف العارف، والشيخ موسى البديري، ومعين الماضي، وفخري الحسيني، وكان لهذا النادي أثر كبير في انطلاق الحركة الوطنية، وقيام المظاهرات العنيفة ضد الاحتلال الإنجليزي[٧].

في عام ١٩٢٠، قامت في القدس، وسائر المدن الفلسطينية، تظاهرات عنيفة، نجم عنها صدامات دامية بين العرب واليهود، فكان هذا أول صدام دام، عبَّر فيه العرب عن شعورهم ضد «وعد بلفور»، وجاء هذا الاحتكاك الدموي أثناء موسم النبي موسى، عليه السَّلام، بالقدس، في ربيع عام ١٩٢٠، وقد انقلبت تلك المظاهرات الوطنية

إلى اشتباكات بين العرب من جهة، والبوليس الإنجليزي، واليهود من جهةٍ أخرى، وذلك بعد أن مرت هذه المظاهرات أمام بناية بلدية القدس[٨]، وأثناء ذلك خطب أمين الحسيني في المتظاهرين، فاتهمه الإنجليز، وعارف العارف، وغيرهما، بإثارة الجماهير، وتحريضهم على العنف، فتألفت محكمة عسكرية لمحاكمته، وحكم على الشاب محمد أمين الحسيني بالسجن عشر سنوات، مع الأشغال الشاقة، وبحثت عنه السلطات في كل مكان، عبثًا، فقد استطاع الحسيني الخروج إلى دمشق، وبعدما احتل الفرنسيون دمشق، فذهب إلى شرق الأردن، في ضيافة الأمير عبد الله[٩]، وعندما زار هربرت صموئيل الأمير عبد الله، قرر المندوب السامي إصدار عفو عنه، والسماح بعودته إلى فلسطين[١٠].

في منصب الإفتاء والمجلس الإسلامي الأعلى

بعد أشهر من عودة أمين الحسيني إلى فلسطين توفي أخوه كامل الحسيني، مفتي فلسطين في أوائل سنة ١٩٢١، وكان هذا المنصب مركزًا في عائلة الحسيني منذ فترة بعيدة، كما تم ترشيح محمد أمين الحسيني لهذا المنصب، وبتأييدٍ، أيضًا، من المندوب السامي البريطاني[١١]. وقد واكب نجاحه في توليه هذا المنصب، بالإضافة إلى نجاحه في رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٢، كثير من اللغط والتنافس بين العائلات الفلسطينية، والذي لا شك كان لبريطانيا دور فيه، وإشعال جذوة ذلك التنافس، وإذكاء الخلافات[١٢]، ولا يخفى، أيضًا، أن تأييد بريطانيا لتولي الحسيني سواءً منصب الإفتاء، أو رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى كان بغرض إحداث نوع من التوازن والتنافس بين العائلات الفلسطينية، وخاصة عائلتي الحسيني، والنشاشيبي، ومحاولة من بريطانيا لشغل أمين الحسيني بهذه المناصب، ووضعه تحت السيطرة، واستمالته لسياستهم، بعد ما رأوا من نشاطه الوطني[١٣].

بعيدًا عن هذه الخلافات، وكيفية توليه منصب الإفتاء، ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وبالرغم من وجود بعض المواقف التي استخدم فيها أمين الحسيني زعامته ضد خصومه، وتنافسه الداخلي، وانشغاله بذلك عن استخدام تلك الزعامة ضد الخطر الصهيوني، والاحتلال البريطاني، فإنه كانت للحسيني كثير من الإنجازات، والأعمال، التي لا يمكن إغفالها، بأي حال من الأحوال، أثناء فترة رئاسته للمجلس الإسلامي الأعلى، وتوليه منصب الإفتاء. فأعاد تنظيم المحاكم الشرعية، واختار لها القضاة، ونظم الأوقاف، وعين فيها عددًا من الشبان المثقفين، وقام بعدد من الأعمال، والإنجازات الهامة، منها: إنشاء دار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس، وفتح عشرات المدارس في البلاد، وقام باسترجاع أراضي الوقف الإسلامي، التي كانت حكومة الانتداب تسيطر عليها، وتتولى إدارتها، وأنشأ العشرات من المحاكم الشرعية، وعين المئات من الوعَّاظ، والمرشدين، فضلًا على إنشائه فرق الجوالة، والكشافة الإسلامية، والجمعيات الخيرية، والنوادي الأدبية، والرياضية، وإصلاحه المسجد الأقصى المبارك، والصخرة المشرَّفة، وإنقاذها من الأخطار التي كانت تتهددها بالانهيار، وقد تم ذلك بأموال الأوقاف، وتبرعات العرب، والمسلمين في شتى أنحاء العالم[١٤]. وكان الحسيني قد سافر بنفسه إلى مصر، وتلقى التبرعات من الملك فؤاد، والمصريين، بالإضافة إلى سفره لكثير من البلدان العربية، والإسلامية، وذلك في فترة العشرينيات من القرن العشرين، وكان لذلك أثره في لفت انتباه العالم الإسلامي، والعربي، إلى فلسطين[١٥].

استطاع أمين الحسيني أن يجعل لنفسه، من خلال المجلس، نفوذًا سياسيًّا ساعده على مواصلة نشاطه الوطني،

بالرغم من المعارضة القوية التي كانت تواجهه، والحركة الوطنية، معًا، وقد قامت هذه المعارضة، في البداية، على التنافس العائلي على منصب رئيس بلدية القدس، وكانت ركائز هذه المعارضة البلديات، التي يسيطر عليها الإنجليز، وأركانها، رؤساء هذه البلديات، وأخذ الإنجليز يغذونها، وأطلق المعارضون على أنصار الحركة الوطنية اسم «المجلسيين»، نسبة إلى «المجلس الإسلامي الأعلى»، الذي ترأسه الحاج أمين، واختاروا لأنفسهم اسم «المعارضون»، ومن هؤلاء المعارضين عائلات النشاشيبي وطوقان والشقيري[١٦]، وهكذا انقسمت البلاد إلى فئتين، وكان لهذا الانقسام أثره في حياة فلسطين، وفي حركتها الوطنية، حيث أثارت المعارضة الفتن، وكانت تستعين على هذا بما تتمتع به من عون من الإنجليز، والصهاينة، تحقيقًا لسياسة «فرق ـ تسد»، فتستجيب لها، وتقع في مصيدتها بعض النفوس الضعيفة.

جهاده في الحركة الوطنية

مثل الحاج أمين الحسيني، في تلك الفترة، مركز الثقل في المقاومة الفلسطينية، والعنصر الفعَّال الموجه في المحيط العربي الفلسطيني، السياسي، والوطني، على السواء، بالإضافة إلى الدور الذي كان يقوم به في مضمار الشؤون الإسلامية، مما حفز الإنجليز والصهاينة إلى مقاومته، ومحاولة التخلص منه[١٧].

في أواخر يوليو/ تموز ١٩٢٩، كان قد وقع صدام عنيف بين الفلسطينيين والصهاينة في ساحة البراق الشريف، بسبب محاولة اليهود اقتحامه، وفرض سيطرتهم عليه، ووقف الإنجليز إلى جانب الصهاينة، وامتدت الاصطدامات، وأخذت تتوالى، حتى حصل الانفجار الكبير، في يوم الجمعة ٢٣ أغسطس/ آب، والذي يعرف بهبَّة البراق، حيث حدثت اشتباكات في جميع أنحاء المدينة، وغدت الشوارع مسرحًا لقتال العرب، والصهاينة، وكانت حصيلة هذه الاشتباكات، التي انتهت في ٣٠ أغسطس/ آب، مقتل وجرح ٤٥٠ من الصهاينة، و٣٤٨ من العرب[١٨]. وعيِّنت لجنة دولية للتحقيق في الأحداث، وانتهت في تحقيقاتها بأحقية العرب والمسلمين، وملكيتهم للحائط الغربي، وكان الصهاينة، ومحاموهم، قد حاولوا قبل إصدار اللجنة تقريرها النهائي إلصاق تهمة إثارة هذه الصدامات بأمين الحسيني، فعمدوا إلى التزوير، وأبرزوا للجنة رسائل ملفَّقة، زعموا بأن الحسيني بعث بها إلى بعض رجالات البلاد ليضرموا نار الثورة، لكن اللجنة آمنت بتزوير الرسائل، وأصدرت قرارها لصالح العرب[١٩].

سافر أمين الحسيني إلى لندن، عام ١٩٣٠، في وفد فلسطيني، تشكل من زعماء المجلسيين، والمعارضين، والمستقلين، وضم، بجانب المفتي، راغب النشاشيبي، وعوني عبد الهادي، وجمال الحسيني، وألفريد روك، وقابل هذا الوفد رئيس الوزارة البريطاني، المستر ماكدونالد، ووزير المستعمرات، ثم قدم مذكرة بمطالب العرب، وهي وقف الهجرة، وسن تشريع لمنع انتقال الأراضي التي في يد العرب إلى اليهود، وتأليف حكومة وطنية مسؤولة، أمام مجلس نيابي، يشترك فيه أهل البلاد، بنسبتهم العددية. ولكن الحكومة البريطانية رفضت هذه المطالب[٢٠]. ولما كان الحاج أمين في لندن مع الوفد الفلسطيني، وافق ذلك وجود وفد من الهند على رأسه مولاي محمد علي، شقيق شوكت علي، وهو من أبرز زعماء الهند كلها، يومِ ذاك، وحدث أن توفي محمد علي وهو في لندن، فعرض الحاج أمين أن يدفن في حرم المسجد الأقصى بالقدس، ربطًا للهند ومسلميها، بفلسطين. وقد قبل العرض، وشيعت جنازته بحشدٍ لم تشهد القدس مثله، وكان لذلك تأثير كبير على نفوس مسلمي الهند، ومساندتهم لقضية فلسطين[٢١]. وعندما رأى الحسيني

تعنت السياسة البريطانية تجاه المطالب الوطنية الفلسطينية لجأ إلى قوة العالم الإسلامي، مستندًا إلى مكانته الدينية، ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامي رسمي في القدس. وقد بذل الحسيني كثيرًا من الجهد من أجل الدعاية لعقد هذا المؤتمر، بالإضافة إلى مواجهته للدعاية المضادة، ضد انعقاده، ولا شك أن الحاج أمين كان ذكيًا في دعوة مثل هذا المؤتمر، فقد استطاع لفت أنظار المسلمين، في جميع أنحاء العالم، إلى خطر ما تتعرض له الأماكن الدينية المقدسة في القدس، ومن مخاطر الصهيونية، بل ومشاركة، وحضور زعماء العالم الإسلامي، في ذلك الوقت، مشاركة فعلية، وعملية، في هذا المؤتمر، بالإضافة إلى التأكيد على زعامة الحاج أمين للحركة الوطنية، وزيادة رصيده من الزعامة في مواجهة خصومه، ومنافسيه في الداخل[٢٢]. وافتتح المؤتمر الإسلامي العام، رسميًا، يوم الإسراء (٧/ ١٢/ ١٩٣١م)، وحضره حشد كبير من العلماء، والشخصيات السياسية، استنكروا فيه جميع أنواع الاستعمار، وفي أي قطر من الأقطار الإسلامية، كما وضع المؤتمر قرارات رئيسية، أهمها وضع نظام لعقد المؤتمر دوريًا، مرة كل سنتين، وإنشاء جامعة إسلامية في القدس، باسم «جامعة الأقصى»، والتعهد بالدفاع عن البراق، وإيجاد دائرة معارف إسلامية، وتأسيس شركة زراعية، لإنقاذ الأراضي، ومساعدة الفلاحين، والقرويين، وأرباب الحرف، وإيجاد شركات تعاونية للتسليف[٢٣].

عندما تدفقت الهجرة اليهودية على فلسطين، ازداد نشاط الحركة الوطنية، وقامت بعدة مظاهرات، ترأسها موسى كاظم الحسيني، والذي توفي نتيجة الإصابة في إحداها في سنة ١٩٣٤م[٢٤].

المفتي والثورة الفلسطينية (١٩٣٦ - ١٩٣٩)

تعاقبت المظاهرات، وأخذ الوضع يتأزم بمرور الزمن خاصة بعد قيام الصهاينة بتهريب الأسلحة والعتاد على نطاق واسع، وتوزيعها على المستعمرات اليهودية، وتشكيل عصابات سرية للإرهاب والتخريب، حتى كانت حركة عز الدين القسام في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٣٥م، والتي كانت الشرارة الحقيقية للثورة الفلسطينية (٣٦ـ ١٩٣٩)، والتي نبهت إلى الخطر الحقيقي الذي يكمن في الانتداب البريطاني، الذي يغذي ويساند الأطماع الصهيونية. ورغم اختلافات كثير من الروايات حول علاقة أمين الحسيني الحقيقية بهذه الحركة، فإنه من المؤكد بأن هذه الحركة جعلت المفتي، والزعماء السياسيين في وضع يجب فيه أن يتوحدوا مع شعبهم في أساليب المقاومة، ويتوافقوا فيه مع طموحات الجماهير[٢٥]. فتوالت الاشتباكات المسلحة بين العرب واليهود بسرعة فائقة، مما أدى إلى إعلان الإضراب العام، الذي شمل البلاد كلها، وهو ردة فعل فورية إزاء الأخطار المحدقة بالبلاد إثر الهجرة اليهودية المكثَّفة إلى فلسطين، وانتقال ملكية الأراضي لليهود، وحرمان العرب من أي نوع من أنواع الحكم الذاتي[٢٦]. واستمر الإضراب، في تصاعد مستمر، ودعا المفتي إلى الوحدة الوطنية بين الأحزاب الفلسطينية، وانتخبوا لجنة برئاسة الحاج أمين الحسيني، وعضوية ممثلي الأحزاب السادة: أحمد حلمي عبد الباقي، وعوني عبد الهادي، وراغب النشاشيبي، والدكتور حسين فخري الخالدي، وعبد اللطيف صلاح، ويعقوب الغصين، ويعقوب فراج، وألفريد روك، وجمال الحسيني، وفؤاد سابا، وأطلقوا عليها «اللجنة العربية» في ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٣٦م، حيث أعلنت هذه اللجنة قرارها بالاستمرار في الإضراب العام إلى أن تمنع الحكومة البريطانية الهجرة اليهودية، منعًا باتًا، وتمنع انتقال ملكية الأراضي لليهود، وتوافق على إنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي، إلا أن الحكومة البريطانية لم تأبه لمطالب «اللجنة»[٢٧]، ثم أخذ الموقف يزداد سوءًا، ففي شهري مايو/ آيار، ويونيو/ حزيران اشتد الإضراب، وازدادت أعمال العنف والتدمير، وظهرت جماعات مسلحة في الجبال، قادها تلاميذ القسَّام، وضمَّت، إلى جانب الفلسطينيين، متطوعين من

بلاد الشام، والعراق، وغيرها. ومن المتطوعين العرب الذين انضموا إلى المجاهدين الفلسطينيين زعماء تدربوا على حرب العصابات، ومن بينهم نذكر ثلاثة من أبطال الثورة السورية، وهم: الشيخ محمد الأشمر، وسعيد العاص، وفوزي القاوقجي، وكانت منطقة سعيد العاص: الخليل ـ بيت لحم ـ القدس، وساعده المجاهد الفلسطيني، عبد القادر الحسيني، ومنطقة الشيخ الأشمر: مثلث نابلس ـ طولكرم ـ جنين. ولما وصلت حملة القاوقجي من العراق كانت مجهَّزة بالأسلحة والعتاد، واتخذت من منطقة نابلس ـ جنين مركزًا لها. وعلى إثر وصول هؤلاء المجاهدين وزعت منشورات، دعت العرب إلى الالتفاف حول الثورة، والانضمام إليها، واتسمت الثورة، من بعد، بطابع النظام العسكري[٢٨].

مع اشتداد الثورة في فلسطين، بدا حرج الموقف البريطاني، فأوعزت لندن للملوك، والأمراء العرب بالتدخل لتهدئة الوضع في فلسطين، فبدأت المشاورات، والمباحثات، التي انتهت بإرسال نداء من ملوك، وأمراء العرب إلى العرب في فلسطين بالإخلاد للسكينة، «والاعتماد على حسن نوايا (صديقتنا) بريطانيا، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل»! وبناء عليه، تلقت «اللجنة العربية» هذا النداء، ووافقت عليه، وأذاعته على الشعب الفلسطيني لإنهاء الإضراب[٢٩]. وتبع ذلك، على الفور، قدوم «لجنة بيل» الملكية البريطانية، والتي أنهت تحقيقاتها في فلسطين بإصدار تقريرها في ٧ يوليو/ تموز ١٩٣٧م الذي أوصى بتقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق (منطقة عربية تنضم إلى شرق الأردن، منطقة يهودية تشمل أجود الأراضي الساحلية، وتمتد من حدود لبنان إلى المجدل، عبر سهل مرج بن عامر، وبيسان، والجليل، ومنطقة واقعة تحت الانتداب البريطاني[٣٠].

أعلنت «اللجنة العربية العليا»، برئاسة المفتي، رفضها قرار التقسيم؛ لذا، اعتبرت بريطانيا المفتي أحد العقبات الرئيسية أمام أية حلول للوضع القائم في فلسطين، والتفاهم مع اليهود، ورأت ألا تترك الساحة خالية لنشاطه، بل عليها أن تقيله من مناصبه، وخاصة رئاسة «المجلس الإسلامي الأعلى»، وأن تبطش به، وبالفريق المتصلب من (المتطرفين)، فاقتحمت القوات البريطانية مقر «اللجنة العربية» العليا لاعتقال المفتي، لكنه نظرًا للحراسة المشددة التي تحيط به تمكن من الإفلات والتواري في بيته، الواقع بين أروقة المسجد الأقصى، وتعذر على الإنجليز دخوله، تحسبًا من النتائج المحتملة المترتبة على انتهاك قواتها لحرمة المكان المقدس لدى المسلمين، ما قد يؤدي لإثارة الرأي العام العربي والإسلامي ضدها، فحاصرت المكان لمدة ثلاثة أشهر، قطعت خلالها عنه البريد، والتليفون، والكهرباء، فعاش المفتي في عزلة تامة عن العالم. وخوفًا من نشوب القتال في ساحة الحرم، قرر المفتي مغادرة البلاد، وقبل مغادرته كان قد أعد بيانًا دعا فيه الشعب لاستئناف حمل السلاح، في ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٧م[٣١].

استطاع المفتي الإفلات، بعد تعرضه لمشاق كبيرة، إلى لبنان، وعند وصوله قامت مظاهرات تأييد له، وفي هذه الأثناء حلت الحكومة البريطانية «اللجنة العليا»، ونفت أعضاءها إلى الخارج، لكن أمين الحسيني، قبل خروجه من فلسطين، أعد لاستئناف الثورة، فلما نجح في الإفلات تفجَّرت الثورة، مرة أخرى، وجعل يشرف على إدارتها من لبنان، ويتابع أخبار المجاهدين، ويتتبع أخبار، وتحركات الإنجليز، كما كوّن «اللجنة المركزية للجهاد»، من الشيخ حسن أبو السعود، ومنيف الحسيني، وإسحاق درويش، في لبنان، وعزة دروزة، ومعين الماضي، في دمشق، وقامت هذه اللجنة بتوجيه الثورة، وإمدادها، وإسعاف منكوبيها، كما أخذت تجهِّز بعض البارزين من المجاهدين، وتسيرهم إلى

فلسطين، ليتولوا قيادة الحركة الجهادية في مرحلتها الجديدة، وتنشئ الصلات بين من بقي منهم في فلسطين، وتمدهم بما تستطيعه من مال وسلاح، وتبذل جهودها في سبيل الحصول على التبرعات من مختلف البلاد العربية[٣٢].

مع تأزم الحالة الدولية، واشتداد الثورة الفلسطينية، لجأت بريطانيا إلى سياسة المؤتمرات، لجر العرب إلى التهدئة، فدعت إلى عقد مؤتمر في لندن، في فبراير/ شباط ١٩٣٩، لحل المشكلة الفلسطينية، ومع رفض الحسيني السفر لحضور المؤتمر، ومعارضة بريطانيا سفره إلى لندن، مثّل أعضاء «اللجنة العربية» فلسطين في المؤتمر، بعد إفراج البريطانيين عنهم، ولم ينته المؤتمر إلى شيء، وأصدرت بعده بريطانيا «الكتاب الأبيض»، في مايو/ آيا ر ١٩٣٩، فرفضه أمين الحسيني، وأعلن رفض اللجنة العربية الاعتراف به[٣٣].

نشاط أمين الحسيني في الخارج

مع تأزم الحال، في صيف ١٩٣٩، في أوروبا، بانطلاق شرارة الحرب العالمية الثانية، وزيادة التقارب البريطاني ـ الفرنسي، طلبت بريطانيا إلى فرنسا أن تضيِّق الخناق على المجاهدين الفلسطينيين في سوريا، ولبنان، ووضع المفتي تحت المراقبة الشديدة، وأمام هذا الوضع المتأزم، قام المفتي بالمغادرة إلى العراق، بعد أن مكث ما يقرب من السنتين في لبنان[٣٤].

كان العراق، في تلك الفترة، يتمتع باستقلال نسبي، وكان أكثر البلدان العربية ملاءمة لقبول لجوء المفتي إليه، وقد وصل إلى العراق، قبله، مائتا مجاهد فلسطيني، وبانتقال أمين الحسيني إلى بغداد أصبح العراق مركز الثقل للقضية الفلسطينية، وفي العام الأول من وجوده في بغداد قام بتأسيس (حزب الأمة العربية) ـ حزب سرى ـ وقد كان للحزب دستور، تلخصت أهدافه السياسية بالاستقلال للبلدان العربية من نير الاحتلال، والوحدة بينها، وقد تألفت النواة الأولى للحزب برئاسة المفتي، فانضم إلى هذا الحزب السري عدد من السياسيين، والعسكريين العراقيين، ومثلهم من العرب، الذين كانوا في العراق، في ذلك الوقت، حيث كان هذا الحزب القوة السياسية، والأساسية المحرِّكة للأحداث على الصعيدين السياسي، والعسكري، ومن هؤلاء العسكريين العراقيين: رشيد عالي الكيلاني، يونس السبعاوي، ناجي شوكت، وصلاح الدين الصباغ[٣٥].

وظَّف أمين الحسيني فرصة وجوده في بغداد بالطلب إلى السلطات العراقية أن تقوم بتدريب الفلسطينيين تدريبًا عسكريًّا، ودخل عدد كبير منهم في مدرسة ضباط الاحتياط، وحصلوا على شهاداتهم، وكذلك كلية الأركان، والمعاهد العسكرية، وأتموا تدريبهم فيها[٣٦].

كان الحاج أمين الحسيني يتمتع بسمعة وطنية كبيرة لدى جميع الأطراف في العراق، حيث قام بدور كبير في أحداث العراق، وعمد إلى إزالة أسباب الخلاف التي كادت تؤدى بالجيش إلى صدام داخلي، الرابح منه الإنجليز وحدهم، حيث قامت، في ذلك الوقت، معركة سياسية ضارية قسمت الجيش إلى معسكر يتجمع حول نوري السعيد، الذي يرى بأن التعاون مع الإنجليز في الحرب يوصل العراق إلى حقوقه الوطنية، ومعسكر آخر، يتجمع حول رشيد عالي الكيلاني، الذي يرى بأنه يستحيل الاعتماد على الإنجليز، وكان يميل إلى التنسيق مع الألمان. ازدادت نقمة الإنجليز على المفتي أمام هذا العمل، والنشاط الذي كان لصالح العراق، وقضية فلسطين[٣٧].

طلبت السلطات العراقية إلى المفتي الاتصال سرًّا مع الألمان، لطلب السلاح، والحصول على تصريح من الحكومة الألمانية بشأن استقلال الأمة العربية، وحريتها، وبالفعل تم ذلك، حيث أرسل أمين الحسيني سكرتيره الخاص، عثمان كمال حداد، لمقابلة المسؤولين الألمان في برلين، وبناء عليه، أرسلت الخارجية الألمانية رسالة إلى المفتي بينت فيها استعداد ألمانيا دعم الشعب العربي في حالة وقوع حرب مع الإنجليز، إذا مكنتها وسائل المواصلات من ذلك، وذكرت بأن الشعبين الألماني، والعربي متفقان على الكفاح ضد العدو المشترك، الإنجليز، واليهود، وطلبت بقاء هذه الرسالة سرية[٣٨].

قامت الثورة العراقية، في مايو/ آيا ر ١٩٤١م، والتي عرفت بحركة رشيد عالي الكيلاني، وكان للمفتي دور كبير في الحث عليها، ومساندته لتحرير العراق من براثن الاستعمار البريطاني، ليمارس سيادته، واستقلاله الوطني كاملًا غير منقوص، وصمد العراقيون على الدفاع عن حريتهم، واستقلالهم، في حين صمم الإنجليز على الاعتداء على العراق، وقامت هذه الثورة بقيادة رشيد عالي الكيلاني، ووقف المفتي إلى جانبه، فحشد المئات من المجاهدين الفلسطينيين، والعرب الملتفين حوله، وكان يتصل بكبار الضباط، ويقوم بتوجيههم، ويعمل على تقوية روح المقاومة عند أبناء الشعب العراقي، إلا أنه، ولأسباب عدة، لم يكتب لهذه الثورة النجاح[٣٩].

حاول الإنجليز اعتقال المفتي، لكنه استطاع الإفلات إلى إيران، ولم تطل إقامته هناك بسبب احتلال القوات الروسية، والبريطانية المشتركة للعاصمة طهران، حيث كان يقيم، واستطاع بعد جهد، ومشاق، السفر إلى إيطاليا، عبر تركيا، بمساعدة الإيطاليين، ومن إيطاليا توجه إلى ألمانيا، حيث حلَّ ضيفًا على الحكومة الألمانية[٤٠]. وأثناء إقامة المفتي في ألمانيا، وصل إليها رشيد عالي الكيلاني، فتقدم الاثنان بعدة مشاريع لتصريح رسمي، ومعاهدة بين العرب، والمحور، تضمن للعرب الاعتراف من قبل المحور بالحرية، والاستقلال للأقطار العربية، الواقعة تحت الحكم البريطاني، وبالعمل للقضاء على الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وبعد موافقة هتلر، تمكن من الحصول على تصريح رسمي من ألمانيا، وإيطاليا، موقَّعًا عليه من وزيري الخارجية الألماني، والإيطالي، ومؤيدًا لمطالبهم، وموضحًا استعداد الحكومة الألمانية للمشاركة مع العرب في الكفاح ضد العدو المشترك، الإنجليز، والصهاينة، حتى يتحقق النصر[٤١].

كما طلب المفتي إلى السلطات الألمانية أن توسِّع مجال عملها بشكل يتمكن فيه كل العرب المقيمين في بلاد المحور من الانضمام إلى الجيش الألماني للتدريب، وتكوين جيش عربي، وبالفعل قررت الحكومة الألمانية إنشاء جيش عربي، ومد هذا الجيش بالأسلحة اللازمة، ولتحقيق هذا، أنشأ الألمان مستودعًا كبيرًا تخزَّن فيه الأسلحة الخفيفة، ووضعوا تحت تصرف الجيش أربع طائرات لنقل العتاد، ووضعه في مخابئ سرية، لتدريب المجاهدين في فلسطين[٤٢].

وتواصلًا مع دوره على المستوى الإسلامي، كان للحسيني أثناء وجوده في ألمانيا دور واضح في مساندة الشعب البوسني المسلم، عندما تصارعت عليه القوميتان، الكرواتية، والصربية، حيث اجتمع الحسيني بزعماء البوسنة والهرسك، وبعد البحث معهم، ومع قيادة القوات الألمانية في كيفية المحافظة على حياة البشانقة، ومنع وقوع المذابح فيهم، وافقت الحكومة الألمانية على تجنيد الشبان منهم، وتسليحهم للدفاع عن أنفسهم، وعائلاتهم. كما اتفق المفتي مع السلطات الألمانية على إنشاء معهد للأئمة، لتوزيعهم على وحدات الفرق البوسنية، الذين زاد عددهم عن مائة

ألف مقاتل، وقد أنشئ المعهد، واختير له عدد من علماء البوشناق، لتوجيه أولئك الأئمة، وأنشأ المفتي، كذلك بالاتفاق مع الألمان، معهدًا آخر في مدينة درودسن، لتخريج الأئمة الأذربيجانيين، والقوقازيين، وغيرهم، وبذلك زاد عدد المجنَّدين من عرب، وبوسنيين، وأذربيجانيين، وغيرهم، على مائتي ألف مقاتل، استطاعوا أن يمنعوا، ويصدوا الكثير من المجازر عنهم، وعن جميع مسلمي البلقان، وشرق أوروبا[٤٣].

عودة الحسيني إلى الوطن العربي

في عام ١٩٤٣ اشتدت غارات الحلفاء على ألمانيا، وبدأ الموقف الحربي للألمان يتدهور، ولما شرع الحلفاء بالزحف على الأراضي الألمانية، في عام ١٩٤٥، انتقل أمين الحسيني إلى باريس، ومنها إلى مصر، حيث حل ضيفًا على الملك فاروق، بعد نجاحه في التخفي، والانتقال إلى مصر، وبمساعدة معروف الدواليبي، الذي تولى رئاسة وزراء سوريا في فترة لاحقة[٤٤].

في مصر، قام المفتي بتشكيل «الهيئة العربية العليا» لفلسطين، برئاسته، حيث نظَّم الحركة الوطنية الفلسطينية، لمواجهة المرحلة الحاسمة، التي كانت تمر بها القضية الفلسطينية، وقرر إعداد الشعب لخوض الكفاح المسلح ضد الصهيونيين، وألَّف لجنة من قادة المجاهدين الفلسطينيين، وبعض الضباط السوريين، والعراقيين، والمصريين لوضع الخطط، وتحديد المطلوب من الأسلحة، والمعدات للجهاد، الذي كان أوانه قد اقترب، بعد بروز فكرة تقسيم فلسطين من جديد في الأوساط الأمريكية، والبريطانية، والصهيونية، ومحيط الأمم المتحدة، كما أعاد تنظيم «قوات الجهاد المقدس»، وأسند قيادتها إلى عبد القادر الحسيني، وأنشأ المفتي كذلك «منظمة الشباب الفلسطيني»، التي انصهرت فيها منظمات «الفتوة»، و«الجوالة»، و«الكشافة»، وأسند قيادتها للصاغ محمود لبيب، وكلفه بمهمة تدريب الشباب على القتال[٤٥].

بالرغم من الاستعدادات العربية، فإن ميزان القوى بين العرب، والصهاينة في كل النواحي لم يكن متكافئًا، وحدثت نكبة ١٩٤٨م. وظل المفتي، بعدها، يعمل للدفاع عن قضية فلسطين، حيث ألف حكومة فلسطينية في منطقة غزة برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي، أطلق عليها «حكومة عموم فلسطين»؛ لتتولى شؤون الكفاح. لكن التواطؤ، والمؤامرات على القضية ظل مستمرًا، يجمد نشاط وعمل هذه الحكومة، بعد أن أرغمت على الانتقال إلى مصر، وكذلك حرمت «الهيئة العربية العليا» من حرية العمل، والنشاط، وأغلقت في وجهها الصحف، والمجلات، ومحطات الإذاعة، بينما واصل الأعداء مساعيهم لتصفية القضية[٤٦].

قامت في مصر ثورة ٢٣ يوليو تموز ١٩٥٢، وكان أمين الحسيني مقيمًا في مصر في ذلك الوقت، فأعلن ترحيبه، وتأييده للثورة، ومجلس قيادتها، وكانت علاقته بمجلس قيادة الثورة في بادئ الأمر جيدة، إلا أن روائح الحل السلمي للقضية بدأت تطل من جديد، فخمدت قضية فلسطين، وتحولت إلى قضية لاجئين، وبدأت تعرض كثير من المشاريع لتوطين اللاجئين في الدول العربية، مقابل إغراءات اقتصادية، ومالية، خاصة في فترة الخمسينيات من القرن العشرين، والغرض الأساسي من هذه المشاريع هو تصفية القضية الفلسطينية، وهو ما حذر منه أمين الحسيني في تلك الفترة، حيث أصدر الكثير من المذكرات، عن طريق «الهيئة العربية العليا»، محذرًا من خطورة هذه المشاريع، وعدم الانسياق وراءها[٤٧].

فجأة، وبدون سابق إنذار، هبَّت الصحف المصرية، الخاضعة لإشراف الحكومة، تشن حملة قاسية ضد «الهيئة العربية العليا» ورجالها. ونال، بالفعل في ذلك الوقت، محمد أمين الحسيني نصيبًا من هذه الحملة، ولا شك أنه كانت لهذه الحملة أهدافها، وأغراضها، من قبل النظام المصري، والذي طرح في سنة ١٩٥٩م إنشاء كيان فلسطيني، فكان ذلك إيذانًا، ورسالة إلى أمين الحسيني، و«الهيئة العربية العليا»، بانتهاء دورها، ودوره في هذه المرحلة، وعليه أن يترك قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية لقيادة «ثورية» جديدة، تناسب طبيعة هذه المرحلة[٤٨].

استأنف المفتي نشاطه في سبيل فلسطين من العاصمة اللبنانية، بيروت، التي اضطر للجوء إليها بعد رحيله من مصر في سنة ١٩٥٩، وظل ينبِّه الزعماء العرب إلى الخطر الصهيوني، والمطامع اليهودية التي ستتعدى فلسطين إلى الأقطار المجاورة، وعندما تأسست منظمة التحرير الفلسطينية، صيف سنة ١٩٦٤م، كان للحسيني موقفه المعارض لها، وفضَّل الاستمرار في العمل خارج إطارها[٤٩].

مد الحسيني نشاطه، خلال تلك الفترة، إلى الدائرة الإسلامية، حيث كان يرأس مؤتمرات إسلامية في مكة المكرمة، نشأت عنها مؤسسة دائمة باسم «مؤتمر العالم الإسلامي» برئاسته، وكان أمين الحسيني قد بدأ ذلك النشاط الإسلامي بصورة واضحة، من قبل، عندما رأس «المؤتمر الإسلامي»، سنة ١٩٥١م، في كراتشي، و«مؤتمر العلماء المسلمين»، أيضًا، في سنة ١٩٥٢، وفي عام ١٩٦٢ رأس «مؤتمر العالم الإسلامي» الذي انعقدت دورته الخامسة في بغداد، وحضره مندوبون عن ٣٧ قطرًا إسلاميًّا، وأُعيد انتخاب الحسيني رئيسًا لهذا المؤتمر، وكذلك اشترك في «مؤتمر الرابطة الإسلامية» المنعقدة في مكة المكرمة أثناء الحج لعام ١٩٦٢م، بوصف الحسيني أحد مؤسسي هذه «الرابطة». وخلال هذا العام زار الحسيني سوريا، والمملكة العربية السعودية، وقام برحلة إلى ماليزيا، بدعوة من حكومتها، ليرأس «المؤتمر الإسلامي لمسلمي الشرق الأوسط». وفي الفترة الواقعة بين أواخر عام ١٩٦٤م ومطلع عام ١٩٦٥م، ترأس «مؤتمر العالم الإسلامي»، الذي عقد دورته السادسة في مقديشيو، وفي شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٦٥م، رأس اجتماع المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي، المنعقد في مكة المكرمة، وفي عام ١٩٦٦م، استمر الحسيني متابعًا جهوده في سبيل قضية فلسطين، وتنبيه الرأي العام العربي والإسلامي إلى المؤامرة الصهيونية الاستعمارية لتصفيتها، وفي مستهل شهر مارس/ آذار ١٩٦٧م، استطاع أمين الحسيني أن يدخل القدس، ويصلي بالمسجد الأقصى، وكانت المرة الأخيرة التي زار فيها القدس، وقابل خلالها ملك الأردن، الحسين بن طلال، في وقت كان التوتر بين العرب وإسرائيل قد بلغ ذروته[٥٠]. وفي شهر أبريل/ نيسان ١٩٦٧ ترأس الحسيني اجتماع «المجلس التنفيذي للمؤتمر العلمي الإسلامي»، المنعقد في كراتشي، وفي شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧، ترأس الدورة الطارئة لمؤتمر العالم الإسلامي، المنعقدة في عمان، الخاصة بالقضية الفلسطينية، بسبب الكارثة التي حلت باحتلال القوات الإسرائيلية بقية فلسطين، وبيت المقدس، وفي شهر فبراير/ شباط ١٩٦٨، حضر مؤتمرًا دوليًّا إسلاميًّا، عقد في مدينة روالبندي بباكستان؛ احتفالًا بمرور أربعة عشر قرنًا على نزول القرآن الكريم. وظل الحاج أمين الحسيني يواصل نشاطه على المستوى الإسلامي حتى توفي في بيروت، يوم الخميس ٤/ ٧/ ١٩٧٤م، ودفن في مقبرة الشهداء بالحرج، بعد أن منعت السلطات الإسرائيلية دفنه بالقدس حسب وصيته[٥١].

وأخيرًا، فإن المسيرة الطويلة لأمين الحسيني، والتي قاربت على الثمانين عامًا، تخللتها كثير من المحطات، والقضايا،

التي لا بد أن تستوقفنا جميعًا، ونلقي عليها النظر باهتمام، إلا أن أبرز هـذه القضـايا كانت بـلا شك قضية الخلاف داخل العمل الوطني الفلسطيني، أيام الحاج أمين ـ فما أشبه الليلة بالبارحة ـ فقد كان هذا الخلاف هو أقوى أسلحة بريطانيا، والحركة الصهيونية في شق الصف الفلسطيني، والنفاذ إلى داخل البنية الفلسطينية، فهذا الداء هو أخطر ما يمكن أن يتعرض له العمل الوطني، بل هو أمضى من سلاح الأعداء، والذي يجب أن تخلص النوايا حتى نستطيع علاجه، وتلافي آثاره؛ لأن المستفيد الأول والأخير من هذا الخلاف هو العدو الصهيوني.

وفي تقديري أن الحاج أمين الحسيني، ومسيرته الحافلة، كل هذه المدة، بالأحداث، والتقلبات، لا يمكن أن تخلو من أخطاء، إلا أن هذه الأخطاء تم تضخيم بعضها، ويبقى أن المفتي إنسان له وعليه، له سجل حافل من أعمال وطنية، جديرة بالاحترام، والتقدير، وعليه ما لا يكاد يسلم منه زعيم قوي، في مثل موقفه، لقد كانت له أخطاء، وعليه مآخذ. وعلى أي حال، سيظل تاريخ الجهاد الفلسطيني، أيام الحكم البريطاني، مقترنًا باسمه، وسيظل تاريخه، إلى حدٍّ كبير، تاريخًا للحركة الوطنية الفلسطينية، بل والعربية، أيضًا.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) عوني جدوع العبيدي، **صفحات من حياة الحاج أمين الحسيني**، مكتبة المنار، عمان، ١٩٨٥، ص٢٣ .

(٢) عبد الكريم العمر، **مذكرات الحاج أمين الحسيني**، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٩، ص٣٠ .

(٣) حسني أدهم الجرار، **الحاج أمين الحسيني رائد جهاد وبطل قضية**، دار الضياء، عمان، ١٩٨٧ ، ص٣٩ .

(٤) **المرجع نفسه**، ص٤٠.

(٥) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٩ .

(٦) **المرجع نفسه**، ص٤٠ .

(٧) عجاج نويهض، **رجال من فلسطين ما بين بداية القرن حتى عام ١٩٤٨**، منشورات فلسطين المحتلة، بيروت، ١٩٨١، ص٣١٣.

(٨) صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، دار البيادر، د. ت، ص١٢١ .

(٩) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص٤١ .

(١٠) العبيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢ .

(11) www.qudsway.com/links/felisteenviat/7/amin-hosinybo3/06/1426

ـ تيسير جبارة، **الحاج أمين الحسيني مفتي القدس – رئيس المجلس الإسلامي الشرعي دراسة في نشاطاته الإسلامية ١٩٣١ – ١٩٣٧**.

(١٢) **مذكرات محمد عزة دروزة**، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤ ، ص٣٢١ .

(١٣) **المرجع نفسه**، ص٣٢٣ .

(١٤) المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، **بيان عن عمارة المسجد الأقصى**، د. ت .

(١٥) أحمد شفيق، **مذكراتي في نصف قرن**، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩ ، ص٣٣٥ .

(١٦) **مذكرات محمد عزة دروزة**، الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٢. ص٣٢٥ .

(١٧) الجرار، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٧ .

(١٨) **مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩ – ١٩٣٥**، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص٣٦.

(١٩) المصدر نفسه، ص٣٧ .

(٢٠) حسن صبري الخولي، **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣، ص٥٥٨ .

(٢١) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص١٧٣ .

(٢٢) المنار القاهرة، مجلد ٣٢، فبراير/ شباط ١٩٣٢ .

(٢٣) أبو يصير، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٠ .

(٢٤) **المرجع نفسه**، ص٢٦٢ .

(٢٥) غسان كنفاني، ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين، **شؤون فلسطينية** (بيروت)، عدد ٦، يناير/ كانون الثاني ١٩٧٢ ، ص٦٢.

(٢٦) عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية**، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٠، ص٣٥١.

(٢٧) **المرجع نفسه**، ص٣٥٢ .

(٢٨) أبو يصير، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦٣ .

(٢٩) غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٥٣ .

(٣٠) الخولي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٨٩ .

(٣١) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٤٣ .

(٣٢) **مذكرات محمد عزة دروزة**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثالث، ١٩٩٤، ص١١٣ ، ١١٤ .

(٣٣) أبو يصير، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧٥ .

(٣٤) الجرار، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٧ .

(٣٥) عثمان كمال حداد، **حركة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١** ، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٥٠، ص١٠٢ .

(٣٦) **المرجع نفسه**، ص١٠٤ .

(٣٧) صلاح العقاد، **العرب والحرب العالمية الثانية**، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٧٠، ٧١.

(٣٨) حداد، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٣ .

(٣٩) العقاد، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٥.

(٤٠) العبيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٦ .

(٤١) **مذكرات أكرم زعيتر** ١٩٣٩ - ١٩٤٦، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص٩٥ - ٩٧ .

(٤٢) مذكرات محمد أمين الحسيني أغسطس/ آب ١٩٧٢ - يناير/ كانون الثاني ١٩٧٣ ، **آخر ساعة** (القاهرة)، ١٧/ ١٠/ ١٩٧٢.

(٤٣) **المصدر نفسه**.

(٤٤) **المصري** (القاهرة)، ٢٢/ ٦/ ١٩٤٦ .

(٤٥) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٩٥ .

(٤٦) **المصدر نفسه**، ص٢٩٧ .

(٤٧) الهيئة العربية العليا، **مذكرة من الهيئة العربية العليا عن مشكلة اللاجئين**، القاهرة، ١٩٥٢؛ الهيئة العربية العليا، **مذكرة عن قضية فلسطين ومطالب الشعب الفلسطيني والعربي**.

(٤٨) **روزاليوسف** (القاهرة)، ١٤٧/ ٨/ ١٩٥٩، ص٥.

(٤٩) العمر، **مصدر سبق ذكره**، ص٣ ، ٤ .

(٥٠) العبيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٠ .

(٥١) **المرجع نفسه**، ص ١٨١.

الفصل الثاني

عبد القادر الحسيني
فارس ابن ذوات

عبد القادر ياسين

بينما قاعة الخريجين، في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تغص بالبشر، على اتساعها، وصوت عريف الحفل ينادي على الخريجين بالاسم، والحضور غارقون بالتصفيق لكل متخرج، وإذا بأحد هؤلاء الخريجين يتسلم شهادة التخرج من مدير الجامعة، قبل أن يستدير المتخرج صوب جمهور الحضور، ويمزِّق شهادة تخرجه، إربًا إربًا، ويقول، بأعلى صوته: «هذه الجامعة وكرٌ للتبشير، والتجسس للاستعماري»! ما أدى إلى أن تعاقبه حكومة الطاغية، إسماعيل صدقي باشا، بالقبض عليه، وترحيله إلى فلسطين مخفورًا.

وقعت الحادثة في أحد أيام صيف ١٩٣٢، أما المتخرج الجسور، فلم يكن إلا عبد القادر، ابن رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، موسى كاظم الحسيني باشا. وبهذه الحادثة دشَّن عبد القادر انخراطه في الحركة الوطنية الفلسطينية، ولم يغادرها إلا محمولًا على الأعناق.

ولد عبد القادر في مدينة القدس، سنة ١٩٠٨، وهي السنة التي وصلت فيها جماعة «الاتحاد والترقي» إلى الحكم في الدولة العثمانية، التي كانت القدس متصرفية ضمن البلاد المحكومة من قِبَل العثمانيين.

تحدَّر عبد القادر من أسرة تتمتع بالوجاهة المالية، والاجتماعية، والدينية. فعدا عن يسر حال تلك الأسرة، فإنها واحدة من مجموعة أُسر من عائلة «الأسود» التي وفدت من اليمن، وادعت نسبها إلى النبي ﷺ، وأحلَّت «الحسيني» محل «الأسود». والأهم من هذا كله أن صاحبنا تربى في بيت مشهود له بالوطنية الحقَّة.

تلقى صاحبنا دراسته الأولى في «مدرسة صهيون» الإنجليزية، ثم «مدرسة روضة المعارف» الأهلية. وفي العام

١٩٢٥، انتقل عبد القادر إلى القاهرة لاستكمال دراسته الثانوية هناك قبل أن ينتسب للجامعة الأمريكية في العاصمة المصرية، القاهرة، وأسهم بدور مجد في تأسيس أول «رابطة للطلبة الفلسطينيين» هناك، وتخرَّج في قسم العلوم لدراسة الرياضيات، سنة ١٩٣٢[١].

في النضال التحضيري

بعد أن عاد إلى مسقط رأسه، عمل موظفًا في «دائرة تسوية الأراضي»، منذ العام ١٩٣٣، وهناك تكشَّفت لعبد القادر أبعاد المؤامرة الاستعمارية الصهيونية على بلاده، أكثر فأكثر. وانخرط صاحبنا في النشاطين السياسي والصحفي في فلسطين، حتى أنه أدار مكتب «الحزب العربي»(*) في القدس، وكتب في صحيفة «اللواء» المقدسية، ومن قبلها في صحيفة «الجامعة الإسلامية». وكانت فلسطين تغلي، آنذاك، بفعل ارتفاع منسوب الهجرة اليهودية إليها، منذ وصول النازي، أدولف هتلر، إلى سدة الحكم في ألمانيا (يناير/ كانون الثاني ١٩٣٣)، فدب الرعب في نفوس اليهود الألمان، فضلًا على أن «الوكالة اليهودية» عقدت اتفاقًا اقتصاديًّا مع النازي للدفع باليهود الألمان إلى فلسطين، وعُرِفَ الاتفاق باسم «هعفراه»(**)[٢]. وبعد أن كانت الجماهير العربية الفلسطينية قد سئمت أشكال النضال السلبية، التي فرضتها عليها قيادة الحركة الوطنية، على مدى عشرينيات القرن العشرين (عريضة/ وفد/ مؤتمر!). فاندفعت تلك الجماهير تأخذ بالأشكال الهجومية من الكفاح. وقد تعزز هذا التوجه، بعد أن كسرت البرجوازية الفلسطينية احتكار كبار الملاّك لقيادة الحركة الوطنية مع نهاية العشرينيات، مع كل ما عُرِفَ عن البرجوازية الفلسطينية، في ذلك الوقت، من ثورية، **أولًا**: بسبب وقوعها تحت الضغط المزدوج (الإنجليزي والصهيوني)، **وثانيًا**: لرغبتها في الاستقلال بسوقها المحلية، **وثالثًا**: لانقطاع علاقتها بالسوق الرأسمالية العالمية، **ورابعًا**: لأن تلك البرجوازية كانت وليدة، وبالكاد شبَّت عن الطوق. لذا حفلت الثلاثينيات بنهوض وطني عارم، ما تجلّى بالمظاهرات الصدامية، والانتفاضات، وتُوِّج بحركة القسَّام الثورية(*) (١٩/ ١١/ ١٩٣٥)، التي كانت البروفة الأخيرة لثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، والتي امتدت لما يربو على الثلاث سنوات متصلة[٣].

مع وصول النقمة الشعبية على الاحتلال البريطاني إلى ذروتها، واشتداد قلق الشعب من المشروع الصهيوني،

(*) تأسس في القدس، في ٢٧/ ٣/ ١٩٣٥، وترأسه جمال الحسيني. وكان بمثابة واجهة سياسية لعائلة الحسيني، وإن كان صاحبنا متجاوزًا للروح العشائرية، فلم يُسجَّل عليه أي تصرف «حسيني» في يوم ما.

(**) تعدّت العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البنيوي، والتأثير، والتأثر الفكريين إلى علاقات فعلية، على مستويات عدة. وفي أغسطس/ آب ١٩٣١، وقّع الصهاينة مع النازي «معاهدة هعفراه»، التي تعني، بالعبرية، «النقل» أو «الترحيل الجماعي». وقضت هذه المعاهدة بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يهاجرون إلى فلسطين بـ«نقل» جزء من أموالهم إلى هناك، عبر بنكي «واسرمام» و«ووربورغ» الألمانيين. حيث يُشترى بتلك الأموال تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا، ليتم تصديرها إلى فلسطين، وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع، وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها. لاحقًا سُمِحَ لليهودي الألماني الراغب في مجرد بناء بيت في فلسطين بأن ينتفع بالهعفراه، التي حققت نجاحًا باهرًا للصهاينة والنازيين، في آن.

عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط١، م٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩، ص٤٦٢-٤٦٨.

(*) **حركة القسَّام**: وفد الشيخ عز الدين القسَّام من بلدة جبلة، شمال غربي سوريا، إلى حيفا، عام ١٩٢٢، مفلتًا من حكم بالإعدام أصدرته محكمة عسكرية للانتداب الفرنسي. ومنذ وصل إلى حيفا، عمد القسَّام إلى تأليف فرقة ثورية سرية، والتقط «اللحظة الثورية»، خريف ١٩٣٥، فانطلق إلى أحراش يعبد، مع مجموعة من قادة وكوادر فرقته، لكن حركة القسَّام اغتيلت في المهد (١٩/ ١١/ ١٩٣٥)، وإن مثَّلت البشارة بثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية المجيدة.

فضلًا على التفشي الوبائي للبطالة والفقر، وتزايد انتقال الأراضي إلى أيدي الصهاينة، ومؤسساتهم، وصل الوضع في فلسطين إلى «اللحظة الثورية».

هنا أخذ عبد القادر يطوف قرى القدس ـ تحت غطاء وظيفته في «تسوية الأراضي» ـ حاضًّا الفلاحين على التشبث بالأرض، ومقاومة الاحتلال البريطاني، والصهيونية، معًا.

بعد اغتيال حركة القسَّام في المهد، عمل عبد القادر على تأليف تنظيم ثوري مسلَّح، سرعان ما مدَّ جسوره إلى تنظيمات أخرى توالدت في اطراد.

الانخراط في الثورة

ما أن اندلعت الثورة الوطنية، في ٢٠ نيسان/ أبريل١٩٣٦، حتى انخرط فيها عبد القادر، ونزل فيها بكل قوته، وحين وصل المناضل القومي السوري المعروف، سعيد العاص، وثَّق صاحبنا علاقاته به، وتعاونا في خلق قوة ثورية مسلحة، اتخذت من جبال القدس، وبيت لحم، وما جاورهما مجالًا لنشاطها. وتركزت عمليات تلك القوة في نسف القطارات على خط يافا ـ القدس، والهجوم على دوريات الجيش البريطاني. فركزت القوات البريطانية هجومًا ساحقًا على فرقة العاص ـ الحسيني الثورية. قبل أن يشتد عودها. ويكتمل تنظيمها. ففي يوم ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦ طوَّقت قوة بريطانية قوامها نحو ثلاثة آلاف جندي فرقة العاص ـ الحسيني، وأحكمت القوة الطوق من حول الثوار في جبل الخضر، وحوسان، قرب مدينة بيت لحم. واشتبكت القوة البريطانية المهاجمة مع الثوار المحاصرين. وفي صباح ٦/ ١٠ دارت رحى معركة فاصلة بين الطرفين، استشهد فيها القائد سعيد العاص، وجُرِحَ عبد القادر، وأسرته القوة البريطانية، لكنه تمكن من الإفلات إلى خارج فلسطين، وكانت الثورة قد توقفت، في ١٣/ ١٠، استجابة لنداء الملوك والأمراء العرب الشهير، الذي طلب إلى الشعب الفلسطيني وقف إضرابه السياسي، الذي كان امتد لنحو ستة أشهر متصلة، وأن هذا التوقف «اعتمادًا على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا» بكلمات النداء الملوكي والأميري إياه[٤]!

في خريف ١٩٣٧، عاد عبد القادر إلى فلسطين من سوريا، بعد أن تجدد الكفاح المسلح، بمجرد إصدار «لجنة بيل» الملكية البريطانية تقريرها (٧/ ٧/ ١٩٣٧)، الذي أوصى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. ووصلت مع عبد القادر مجموعة من الثوار. واتخذ عبد القادر ورجاله من جبال القدس ميدانًا لنشاطهم العسكري. وتنقل عبد القادر من قرية إلى قرية، في سبيل إعادة تنظيم فصائل الثوار في الجبل. كما نظَّم عبد القادرعلاقاته مع الثوار السريين في مدينة القدس. ثم شن هجمات عدة على قوافل جيش الاحتلال البريطاني، والمستعمرات الصهيونية. واضطرت حكومة الانتداب إلى وقف سير قطار اللد ـ القدس، بعد تعرضه لعدة هجمات من فرقة عبد القادر. ولعل أشهر المعارك التي خاضها عبد القادر، في تلك الفترة، معركة عرطوف[٥].

كان في مقدمة قادة المرحلة الثانية من الثورة: عبد الرحيم الحاج محمد (القائد العام)، وعارف عبد الرازق (قائد منطقة المثلث)، وعبد القادر الحسيني (قائد منطقة القدس)، وعبد الحليم الجولاني (قائد منطقة الخليل)، والشيخ حسن سلامة (قائد منطقة اللد)، ويوسف أبو دُرَّة (منطقة جنين). أما الشيخ فرحان السعدي ـ الذي كان

من أبرز قادة منطقة جنين، ومن رفاق القسّام ـ فقد قُبض عليه يوم ٢٣/ ١١/ ١٩٣٧ ونُفِّذَ فيه حكم الإعدام يوم ٢٨/ ١٢/ ١٩٣٧ بعد محاكمة صورية قصيرة، وكان في الثمانين من عمره[٦].

اندلعت سلسلة معارك جبال القدس الغربية، في شهريْ آب/ أغسطس، وأيلول/ سبتمبر ١٩٣٨، بقيادة عبد القادر الحسيني. ففي آب/ أغسطس حاول عبد القادر العودة إلى القدس، من دمشق، مع مجاهدين آخرين. وقد حذّره المجاهد بهجت أبو غربية من مغبّة عودته بسبب تدهور الأوضاع في فلسطين عما كانت عليه في السنة السابقة، وأن جيش الاحتلال البريطاني يستعد لخوض معارك فاصلة في سبيل إنهاء الثورة، حتى تتفرغ بريطانيا لمواجهة الخطر النازي، الذي بدأ يُلمح في الأفق. لكن عبد القادر لم يُبالِ بالخطر، وقدم إلى القدس، ومعه عدد من الثوار، فيما انضم إليه عدد آخر من الثوار المقيمين. واتخذ القائد عبد القادر من قرية المالحة قاعدة، شن منها هجماته الجسورة على مواصلات الجيش البريطاني، وعلى المستعمرات اليهودية المجاورة. وانتهز الجيش البريطاني حلول العيد، وانصراف عدد كبير من المقاتلين إلى قراهم، فطوّق الجيش عبد القادر ومن تبقى معه من رفاقه بعدة آلاف من الجند البريطانيين، معززين بالطائرات الحربية. واعتقل الجند كل الذكور فوق الرابعة عشرة من أبناء قرى المالحة، والولجة، وبتير، وعين كارم، والجدرة، لكن الجند لم يظفروا بعبد القادر، أو أي من رفاقه، بعد أن تواروا في أحد أديرة عين كارم، رغم أن الجند البريطانيين فتشوا هذا الدير! فعاد عبد القادر إلى حشد قواته، من جديد، مستأنفًا نشاطه العسكري. وفي يوم ٤/ ١٠/ ١٩٣٨، كان عبد القادر ورجاله على موعد للقاء القائد عبد الحليم الجولاني ورجاله، في قرية بني نعيم. وفي اليوم نفسه، وجه مختار قرية يطا المجاورة دعوة إلى القائد العام للجيش البريطاني لتناول الغداء بصحبة رمز الثورة المضادة، فخري النشاشيبي، ما حدا بالإنجليز إلى الدفع بقوات عسكرية كبيرة (نحو ٣ آلاف جندي) معززين بالطائرات لتوفير الحماية للقائد البريطاني والنشاشيبي، في آن. واكتشف الجيش البريطاني تحشُّد المقاتلين الفلسطينيين في بني نعيم، وبدأ بمهاجمة القرية، بعد الظهر، جوًّا وبرًّا، حيث استخدم الجيش ٢٧ طائرة حربية، من طراز ولنغتن، القادرة على حمل عدد كبير من القنابل شديدة الانفجار، والتي لا تتأثر برصاص البنادق والرشاشات. وأمر عبد القادر رجاله بالخروج من القرية، فسقط العديد من الشهداء، وأصيب عبد القادر نفسه برصاصة في خاصرته، كادت أن تصل إلى رئته. فحمله ابن عمه، علي، وصبحي أبو غربية، لكن رصاصة أودت بحياة ابن عمه، فيما أصيب صبحي في ذراعه وكتفه. وحين انقشع غبار المعركة، تمكن الثوار من إنقاذ حياة عبد القادر، بعد أن نقلوه، سرًّا، إلى مستشفى بالخليل. فيما اعتُبِرَ صبحي في عداد المفقودين، لنحو أسبوعين، إذ لجأ إلى مضارب بدو، أسعفوه بكي جراحه بالسمن المغلي، وساعدوه على السفر إلى دمشق، حيث التقى عبد القادر من جديد، واستكملا علاجهما في العاصمة السورية[٧].

حين تأكدت لندن من اقتراب المواجهة مع النازي، دعت الحكومة البريطانية العرب والصهاينة إلى «مؤتمر لندن» (فبراير/ شباط ١٩٣٩)، الذي سرعان ما فشل، فعمدت حكومة لندن إلى إصدار «الكتاب الأبيض»، في مايو/ آيار من السنة نفسها، وفيه وعدت فلسطين بمنحها الاستقلال بعد عشر سنوات، يتم خلالها تقنين الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وفي موازاتها يتم الحد من انتقال الأراضي إلى المستوطنين اليهود ومؤسساتهم. ورفضت القيادتان العربية الفلسطينية والصهيونية هذا الكتاب.

عند هذا الحد كانت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية قد خفّضت راياتها، فما كان لهذه الثورة أن تنتصر، **أولًا**: لتردد قيادتها السياسية، **وثانيًا**: لضبابية رؤيتها السياسية، **وثالثًا**: لتفوق العدو في العدد، والعدة (السلاح، والذخيرة)،

ورابعًا: لبقاء العمق الإستراتيجي العربي للقضية الفلسطينية رهن الإمكانية النظرية فحسب، وخامسًا: فإن الحركة الوطنية الفلسطينية كانت تفتقر إلى سند دولي واحد. ناهيك عن ضعف البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطيني.

مناضل في كل مكان

ما أن توافقت باريس ولندن في مواجهة الخطر النازي، سنة ١٩٣٩، حتى طلبت سلطات الانتداب الفرنسي في كل من سوريا ولبنان إلى الثوار الفلسطينيين، الذين لاذوا بهذين القطرين الشقيقين، أن يغادروهما، إرضاءً للإنجليز، فغادر أولئك الثوار إلى العراق، القطر العربي الوحيد الذي كان نال استقلاله، وفق معاهدة مع الإنجليز سنة ١٩٣٢، وكان رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، الحاج أمين الحسيني في مقدمة من لاذوا بالعراق.

بيد أن الثوار اكتشفوا بأن استقلال العراق كان حبرًا على ورق، ذلك أن النفوذ الإنجليزي كان متغلغلًا في كل مناحي الحياة العراقية، وأن نوري السعيد، والوصي على العرش، عبد الإله، كانا يحكمان العراق بالحديد والنار، اعتمادًا على حراب المستعمرين الإنجليز. فجعل الحاج أمين الحسيني يحرِّض المؤسسة العسكرية العراقية ضد هذا النفوذ، ثم نجح الحاج أمين في استحداث تنسيق بين تلك المؤسسة وبين رئيس الوزراء العراقي الوطني، رشيد عالي الكيلاني، منذ مطلع ١٩٤١، فرزق العراق بثورة وطنية في ٣/ ٤/ ١٩٤١ عرفت باسم «ثورة رشيد عالي الكيلاني»[٨].

كان طبيعيًا أن ينخرط الثوار الفلسطينيون، اللائذون بالعراق، في ثورة الكيلاني، فالعدو واحد، والقضية واحدة، والأمة واحدة، ومن البديهي أن عبد القادر الحسيني كان في مقدمة أولئك الثوار الذين نزلوا بثقلهم إلى جانب الثورة، فحملوا أسلحتهم، وتقدموا الصفوف، دفاعًا عن الثورة (*). لكن ميزان القوى بين الثورة وبين الإنجليز لم يكن في مصلحة الأولى، ما سمح باغتيالها على أيدي الإنجليز، أساسًا.

لاحقت القوات الإنجليزية الثوار الفلسطينيين، فانسحب هؤلاء إلى إيران، إلا أن حكومتها أعادتهم إلى العراق، فتجمعوا في بيت عبد القادر الحسيني، ببغداد، وعدلت حكومة نوري السعيد عن اعتقالهم، بمجرد أن علمت بأنهم سيقاومون اعتقالهم بالسلاح. ثم جرت تسوية، تم بموجبها نفي عبد القادر ومعظم رجاله إلى بلدة زاخو، على الحدود التركية، في أقصى شمال العراق[٩].

في مفاجأة منتظرة، وصل رأس الثورة المضادة الفلسطينية إلى بغداد، في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤١، ليهنئ نوري السعيد، وعبد الإله باغتيال ثورة الكيلاني[١٠]. وهناك تم اغتيال النشاشيبي، وكان طبيعيًا أن توجه حكومة السعيد إصبع الاتهام إلى عبد القادر، ورفاقه، لكن ثمانية منهم نجحوا في الإفلات إلى سوريا، مشيًا على الأقدام، وانتقلوا إلى حلب، حيث قبضة الانتداب الفرنسي ضعيفة عنها في العاصمة، دمشق، وتهيّأوا للسفر إلى تركيا، لكن سلطات الانتداب الفرنسي كانت لهم بالمرصاد، فاعتقلتهم، وسلّمتهم لحليفتها سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، التي

(*) منهم صبحي أبو غربية، وجميل بركات، وخليل الجدع، وعيسى الحمزة، وجاد الله محمود الخطيب، وأحمد نسيبة، والشاعر عبد الرحيم محمود، وفؤاد نصار، وعبد اللطيف القدومي، وأبو محمود الصفوري، ومصطفى العصيري.

- أبو غربية، مصدر سبق ذكره، ص١٣٦.

أودعتهم معتقل المزرعة، قرب عكا، فيما اعتقل عبد القادر ومن بقي معه من رفاقه في أحد سجون بغداد إلى سنة ١٩٤٤، حين تدخل ملوك، ورؤساء عرب للإفراج عن عبد القادر، خاصةً بعد تدهور حالته الصحية. وحين أفرج عنه كان رئيس وزراء مصر، آنذاك، الزعيم الوطني المعروف، مصطفى النحاس باشا، فأرسل له، بالشفرة، تأشيرة دخول إلى مصر، ونصحه بالوصول إلى مصر عبر السعودية، التي ما أن وصلها، حتى استضافه عاهلها، المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، لمدة سنتين متتاليتين. فقد كانت تربط العاهل السعودي بوالد عبد القادر (موسى كاظم) صداقة حميمة، منذ كان الوالد متصرفًا لولاية نجد، في العهد العثماني، فضلًا على الخصومة المشتركة للهاشميين، آنذاك، بين آل سعود وآل الحسيني[١١].

مع فرز الأوراق

ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، صيف ١٩٤٥، حتى دخلت القضية الفلسطينية مرحلة فرز الأوراق، ونقلت الحركة الصهيونية مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن، كدأب تلك الحركة في الرهان على رأس المعسكر الاستعماري، وقد أخلت بريطانيا هذا الموقع للولايات المتحدة، بعد أن دفعت الحرب العالمية الثانية بريطانيا إلى الخلف خطوات غير قليلة، ودفعت تلك الحرب بالولايات المتحدة خطوات واسعة إلى الأمام داخل المعسكر المذكور، خاصة وقد نأت الولايات المتحدة بأراضي بلادها عن شرور الحرب، التي عانت من ويلاتها أراضي الجزر البريطانية. وبدأ عبد القادر تحركه النشط بمجرد أن رضخت حكومة لندن لنظيرتها في واشنطن، فتشكّلت، في أواخر ١٩٤٥، «اللجنة الأنغلو ـ أمريكية»، بهدف البحث في قدرة فلسطين على استيعاب المزيد من المهاجرين اليهود، وأصدرت هذه اللجنة توصياتها بإدخال مائة ألف يهودي جديد إلى فلسطين، وتجاهلت بريطانيا هذه التوصية، لعلمها بأن الولايات المتحدة إنما تريد استخدام هذه المائة ألف في التسريع بإقامة الكيان الصهيوني، في فلسطين، مخلب قط لها، في صراعها ضد الاتحاد السوفييتي، وحركة التحرر الوطني العربية، فضلًا على مزاحمتها لبريطانيا، من أجل أن ترث الأولى الثانية في مستعمراتها، ومناطق نفوذها. ولعل هذا ما يفسر فقدان لندن حماسها لإقامة الكيان الصهيوني، والصدامات المسلحة بين العصابات الصهيونية، والقوات البريطانية في فلسطين (١٩٤٥ - ١٩٤٧).

استمر التواصل بين تنظيم عبد القادر، وبقية التنظيمات الثورية الفلسطينية حتى أواخر ١٩٤٦، حين اندمجت جميعها في « قوات الجهاد المقدَّس»، سنة ١٩٤٧، بقيادة عبد القادر، في التزام تام بالسرية، في شراء الأسلحة والذخائر، من المال الخاص لعناصر القوات، والتدريب، وممارسة الرياضة، وجوْب أطراف البلاد للإلمام بطبيعة الأرض، فضلًا على دراسة القوانين، ناهيك عن تطوير مفهوم الثأر، ليتحول من المفهوم العشائري إلى المفهوم الوطني، فالاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية عدو مشترك للحركة الوطنية الفلسطينية. ووضع عبد القادر مع رفاقه مخططًا تنظيميًّا، وتسليحيًّا لمدينة القدس، حيث تحددت احتياجات كل حي من السلاح، والذخيرة، وسُمي قائد عسكري لكل حي. وتولى المجاهد إبراهيم أبو دية نقل السلاح من مصر إلى فلسطين، فيما تولى بهجت أبو غربية إخفاءه في القدس[١٢].

من مصر، واصل عبد القادر شراء السلاح، من مخلفات الحرب العالمية الثانية (إنجليزي/ إيطالي/ ألماني/ أمريكي)، وأخذ يخزِّنه، سرًّا، في القاهرة، وضواحيها، بعد ترميمه، وتصليحه. وساعد في هذا كله ثائر آخر، ابن لفتا، هو عبد الرحمن علي شحتة اللفتاوي (أبو علي)[١٣].

نضال تحضيري جديد

مع صدور تقرير اللجنة «الأنغلو ـ أمريكية» (*)، أواخر أبريل / نيسان ١٩٤٦، غادر عبد القادر مصر إلى السعودية، بعد أن استشعر بأن العد التنازلي لخروج المشروع الصهيوني إلى حيِّز التنفيذ قد بدأ، كما أن عبد القادر رأى التواري، مؤقتًا، عن أنظار الأمن المصري، خاصة وأن حكومة السعديين، برئاسة محمود فهمي النقراشي باشا، سعت إلى إخراج عبد القادر من مصر، الذي طلب مهلة، ليدبِّر قطرًا شقيقًا آخر ينتقل إليه، حتى لا يقع في أيدي سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، التي كانت أصدرت حكمًا بالإعدام عليه. إلا أن مسؤولًا في الجوازات المصرية رد على عبد القادر مشمئزًا: «إحنا مش عايزين قتَّالين قُتلى في بلادنا! يالَّا على بلدك!». وإن عاد هذا الموظف وأخلى سبيل عبد القادر، بعد أن تعهد الأخير له بمغادرة أرض الكنانة بعد أسبوع واحد. لكن الصحف الوطنية المصرية شنت حملة صحفية ـ بتدخُّل من الناشط الوطني الفلسطيني المعروف، المقيم في مصر، محمد علي الطاهر ـ وأفضت تلك الحملة إلى إسقاط قرار الطرد الجائر من مصر على عبد القادر[١٤].

في مصر، أيضًا، تعاون عبد القادر مع نشطاء من الحركة الوطنية الفلسطينية في تأسيس معسكر للتدريب العسكري في مرسى مطروح، شمال غربي المملكة المصرية، فضلًا على ورشة لصنع الألغام، وتجميع الأسلحة المتبقية من المتحاربين في الحرب العالمية الثانية، في المنطقة الموما إليها[١٥].

حين صدر قرار تقسيم فلسطين عن الجمعية العامة عن الأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، وضع عبد القادر خطة قضت بنسف كل دور حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين في لحظة واحدة في اليوم التالي لصدور قرار التقسيم، لكن الخطة لم تر النور، بسبب خروج المظاهرات الفلسطينية الحاشدة من المسجد الأقصى، مما كان يعني إزهاق أرواح الكثيرين من العرب في حال نُفِّذت خطة النسف. بينما هدف عبد القادر إلى نسف تلك الدور وهي خالية من البشر ما اضطره إلى التخلي عن خطته تلك[١٦].

ثائر إلى آخر مدى

بعد غياب نحو عشر سنوات، عاد عبد القادر الحسيني، سرًّا، من مصر إلى فلسطين، في ٢٢/ ١٢/ ١٩٤٧، فيما

(*) في ١٤/ ١١/ ١٩٤٥، ألقى وزير الخارجية البريطانية، إرنست بيفن، بيانًا تعمَّد فيه فصل القضية الفلسطينية عن المشكلة اليهودية، وإن أعلن بيفن إشراك الإدارة الأمريكية في تحمل مسؤولية القضية الفلسطينية، كما بشّر بإحلال الوصاية الدولية محل الانتداب البريطاني.

اعترضت الجامعة العربية على تضمين بيان بيفن وعدًا قضى بالسماح لألف وخمسمائة يهودي، شهريا، بالهجرة إلى فلسطين. وإن أعادت الجامعة هذا الوعد البريطاني إلى ما أسمته «الضغوط الصهيونية»!

أما «اللجنة العربية العليا» في فلسطين فرأت في الوصاية مجرد تغيير في الاسم. وإن شجبت السماح بهجرة اليهود المشار إليها.

لم تصغ أي من واشنطن أو لندن إلى أصوات العرب، بل عمدت العاصمتان الغربيتان إلى تشكيل «اللجنة الأنجلو ـ أمريكية»، في ١٠/ ١٢/ ١٩٤٥، بست أعضاء لكل من الطرفين.

بعد أن استمعت اللجنة إلى شهادات مسؤولين أمريكيين، وإنجليز، وصهاينة، وعرب ـ فلسطينيين، وغير فلسطينيين ـ أصدرت اللجنة تقريرها، الذي تضمن توصيات، أهمها: الإسراع بإدخال مائة ألف يهودي إلى فلسطين، مع استمرار الانتداب البريطاني عليها، فضلًا على إلغاء القوانين التي تحد من انتقال الأراضي لليهود.

غنيٌّ عن القول بأن تقرير اللجنة الأنجلو ـ أمريكية، وُجه بالشجب العربي، الفلسطيني وغير الفلسطيني.

د. فلاح خالد علي، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية، ١٩٨٠، ص ٢٠٣ـ ٢٢٥.

كانت اللجنة العسكرية العربية»(*) تعارض، بشدة، عودة عبد القادر هذه، وإن عادت اللجنة ورضخت لرغبة عبد القادر، وإن على مضض، إذ اشترطت اللجنة خضوع وجود عبد القادر ونشاطه العسكري لها، وأن لا يمد نشاطه إلى خارج منطقة القدس، وألا يجمع ـ هو أو أي من رجاله ـ تبرعات من الأهالي الفلسطينيين! رغم أن اللجنة المذكورة لم تقدم لعبد القادر ورجاله إلا القليل من السلاح القديم جدًّا، وغير الصالح للاستعمال[١٧]. على أن هذا كله لم يمنع عبد القادر من تحقيق نجاحات ملحوظة في ميدان القتال.

توجه عبد القادر إلى قرية صوريف، قضاء القدس، وبعد أن استطلع الموقف من رفاقه، وفي مقدمتهم بهجت أبو غربية، انطلق عبد القادر إلى منطقة رام الله، واستقر لبعض الوقت في عين سينيا، قبل أن يقيم مقره في بلدة بير زيت، (القيادة العامة للجهاد المقدس). وتتوسط بير زيت فلسطين، وتبتعد عن المستعمرات اليهودية، ومستعمرات الجيش البريطاني، فضلًا على أن جبالها حصينة، وعرة، ومشجَّرة، ناهيك عن أن رجال عبد القادر كانوا أشداء. وقد دفع وجود القائد عبد القادر في منطقة القدس ورام الله الطمأنينة إلى قلوب الناس، ورفع معنوياتهم[١٨].

تمتع عبد القادر بالمهارة والخبرة في المتفجرات، وتركيب الألغام، والعبوات الناسفة، فيما كان المناضل فوزي القطب ـ رئيس فرقة التدمير، التي شُكِّلت في ١٨/ ٣/ ١٩٤٨ـ خبيرًا بالمتفجرات والألغام ، وكيفية استخدامها. وحين توالت هجمات الصهاينة، وتفجيراتهم، نظَّم عبد القادر عمليات نسف، أشهرها نسف كل من: شارع هاسوليل، وجريدة «بالستين بوست» (٢٨/ ٢)، وشارع بن يهودا (٢٢/ ٢)، ودار الوكالة اليهودية، وحي المنتفيوري (١١/ ٢)[١٩].

توالت المعارك، وحمي وطيسها. وحدث أن كمن الثوار لقافلة يهودية، آتية من تل أبيب، قيل إن الزعيم الصهيوني المعروف، حاييم وايزمان، سيكون من ركابها. وزرع الثوار الألغام في الطريق العام، واصطدموا بالقافلة، فانسحب الصهاينة إلى مستعمرة الخمسة (معالية هاحمشاه) الحصينة، فتعقبهم الثوار ووصلت نجدة عسكرية (بالماخ) للصهاينة من خلف الثوار، تعززها مصفحتان بريطانيتان، فهاجمت بيت سوريك. وأبدى عبد القادر ومرافقه عوض الترمسعاوي بسالة فائقة، وتدفقت النجدات للثوار من القرى المجاورة، وطال أمد المعركة. وتستر الصهاينة بظلام الليل، وانسحبوا، تاركين ٣٤ قتيلًا في أرض المعركة، وقيل إن الثوار لم يخسروا سوى خمسة، بين شهيد وجريح[٢٠].

إثر نسف شارع بن يهودا، وبعد الهجوم العسكري الصهيوني على وادي الجوز (٢٦/ ٢)، الذي انطلق من مستشفى هداسا، والجامعة العبرية، عقد القائد عبد القادر مؤتمرًا صحافيًّا، في حي باب الساهرة، تولى المناضل بهجت أبو غربية أمنه وحمايته، ودُعي الصحافيون، العرب والأجانب، إلى بيت الشيخ إسحاق يونس الحسيني. وكان عدد الصحافيين كبيرًا، وتحدث إليهم القائد عبد القادر، مشيرًا إلى أن الصهاينة اتخذوا من مستشفى هداسا، والجامعة العبرية قواعد عسكرية، ينطلقون منها للهجوم على الأحياء العربية، على الرغم من أنها مراكز إنسانية، وعلمية. وانتهى القائد عبد القادر بتوجيه إنذار للصهاينة بأن يكفوا عن استخدام هذه المؤسسات للأغراض العسكرية[٢١].

مع قدوم آذار/ مارس١٩٤٨، اتسع نطاق الاشتباكات المسلحة، وازدادت شراسة في أنحاء شتى من فلسطين.

(*) هي اللجنة التي شكلتها جامعة الدول العربية، بهدف تنظيم عمل المتطوعين للقتال في فلسطين (٤٧-١٩٤٨)، وتسليحهم، وتدريبهم، وقد أُسنِدت رئاستها إلى طه الهاشمي، وساعده كل من إسماعيل صفوت، ومحمود الهندي.

ولطالما تدخل الإنجليز لصالح الصهاينة في محاباة مكشوفة. وأعلنت «الهاغاناه»، في ٦/ ٣، التجنيد العام لكل يهودي في سن الخدمة. وبدأت العصابة نفسها (١٠/ ٣) في تنفيذ خطة «دالت»، الرامية إلى احتلال القرى، ومواقع عربية معينة. ويمكن القول: إن يد العرب كانت العليا على مدى هذا الشهر، خصوصًا في القدس. ولعل من أهم معارك هذا الشهر في منطقة القدس: معركة جبل صهيون (١/ ٣)، نسف مقر «الوكالة اليهودية» (١١/ ٣)، مهاجمة ميكور حاييم (١٣/ ٣)، معركة شعفاط (٢٤/ ٣)[٢٢].

بيد أن ذخيرة الثوار أخذت في النفاد دون مدد يجددها، فيما الصهاينة غارقون في الذخائر، مدججين بأحدث الأسلحة. فقرر القائد عبد القادر مغادرة البلاد إلى دمشق، طلبًا لمدد من الأسلحة والذخائر من «اللجنة العربية العسكرية». وفي اليوم التالي لمغادرة القائد، خاض الثوار غمار معركتيْ الدهيشة، والمصرارة (٢٧/ ٣)[٢٣].

معروف بأن مجلس العموم البريطاني كان أصدر قراره (١٠/ ٣)، القاضي بانسحاب القوات البريطانية من فلسطين، في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨. فيما أعلن المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة، السيناتور وارِن أُوستن (١٩/ ٣) سحب بلاده تأييدها لقرار التقسيم، لصالح فرض الوصاية على فلسطين، وأيد المندوب الأمريكي كل من مندوب فرنسا، والصين، وبريطانيا، فضلًا على معظم أعضاء مجلس الأمن الدولي. في وقت كان ميزان القوى العسكري يميل لصالح العرب الفلسطينيين. فيما عارض الرئيس الأمريكي، آنذاك، هاري ترومان موقف وزارة خارجيته، وكذلك فعل الزعيمان الصهيونيان المعروفان، حاييم وايزمان، وديفيد بن جوريون. ووافقت جامعة الدول العربية على قرار مجلس الأمن بوقف القتال (٣/ ٤)[٢٤]. رغم أن جيوش الدول العربية لم تكن قد دخلت إلى فلسطين بعد!

أبلغ عبد القادر زميله في الكفاح بهجت أبو غربية بأن «دول العالم الكبرى وافقت على التقسيم، الذي هو ـ في حقيقته ـ قرار بإقامة دولة يهودية صهيونية توسعية على أرض فلسطين. والحكومات العربية وافقت على ذلك، سرًّا، لكنها تكذِّب علينا، وعلى شعوبها، وستعمل على تنفيذ ذلك. وإذا دخلت جيوشها إلى فلسطين فستقف عند حدود التقسيم، وستفرض السيطرة على جيوشها بالضبط والربط العسكريين، مع أن الضباط والجنود العرب على استعداد للموت، فداء فلسطين. أما نحن، فهم لايستطيعون السيطرة علينا؛ ولذلك يمنعون عنا السلاح، والعتاد...التقسيم سيمر، ولكن على أجسادنا... سأقاتل دفاعًا عن بلادنا حتى الموت، مهما قلَّ السلاح، والعتاد. نحمي أهلنا وبيوتنا بصدورنا، ونحمي مَنْ خلفنا من البلاد العربية، وننبههم إلى خطورة الهجمة الصهيونية الأمريكية عليهم[٢٥].

أوهمت اللجنة العسكرية العربية القائد عبد القادر بأنها ستلبي كل طلباته العسكرية، واستدعته إلى دمشق، فغادر القدس (٢٦/ ٣)، حاملًا معه تقريرًا عسكريًّا يؤكد بأن قوات العدو الصهيوني هي أربعة أمثال المجاهدين العرب من حيث العدد، مع تفوق كبير في العربات المصفحة، والمضادات للدروع، ما يعني عدم القدرة على استمرار فرض هيبة الثوار على الصهاينة، مع تناقص الذخيرة المطرد، وتواضع السلاح، مستوًى وعددًا. وبعد انسحاب القوات البريطانية، تمددت خطوط القتال إلى مدى أطول، وثمة احتمال تمكن الصهاينة من فك الحصار عن القدس. وانتهى عبد القادر إلى مطالبة اللجنة إياها بالعمل على احتلال مصانع شركة البوتاس المعزولة على شاطئ البحر الميت[٢٦].

أخذ تفوق العصابات الصهيونية العسكري يتجلى ـ تسليحًا، وعتادًا، وتدريبًا، فضلًا عليه حجم المقاتلين ـ منذ

مطلع نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وفي هذا السياق احتلت العصابات الصهيونية القسطل(*)، يوم السبت ٣/ ٤/ ١٩٤٨، وهي التي طالما رأى القائد عبد القادر بأن «القسطل هي القدس»، لفرط أهمية موقعها الإستراتيجي. فاستحث عبد القادر ـ بلا جدوى ـ اللجنة العسكرية العربية لمده بالسلاح والذخائر. وفي اليوم التالي لاحتلال القسطل، شن الثوار العرب الفلسطينيين هجومهم لاستردادها، لكنهم لم يتلقوا نجدة ألـحُّوا في طلبها من كل من «جيش الإنقاذ»، و«الفيلق العربي». ورغم تكدس الأسلحة والذخائر لدى «اللجنة العسكرية العربية»، فإنها رفضت مد القائد عبد القادر بأي قطعة سلاح، أو صندوق ذخائر واحد. ما جعل عبد القادر يخاطب أعضاء اللجنة وقد نفد صبره: «أنتم خونة! أنتم مجرمون! سيسجِّل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين»! ليقفل القائد عبد القادر عائدًا إلى القدس، فيصلها صباح الأربعاء (٧/ ٤). وصُعِقَ الثوار للموقف الرديء للجنة العسكرية، الذي يشي بتواطئها مع عدو الأمة. وفي مساء اليوم نفسه، قاد عبد القادر هجومًا مسلحًا على القسطل، وحين شحَّت الذخيرة، بقي القائد ومعه مقاتل واحد، في انتظار عودة بقية الثوار بالذخيرة المطلوبة. وشاغل عبد القادر ورفيقه قوات العدو الصهيوني، إلى أن أصيب الأخير فتوارى. ورفض القائد عبد القادر أن يتوارى معه، ويتوقف عن القتال، لحين عودة الثوار بالذخيرة، وظل يقاتل حتى استشهد، ولكن بعد أن عادت القسطل عربية، في آخر معركة عسكرية قادها عبد القادر، وإن عادت القسطل فسقطت من جديد في أيدي العصابات الصهيونية فيما كان جثمان القائد عبد القادر يُشيَّع إلى مثواه الأخير(٢٧). ولعله اختار ألا يرى النكبة الفلسطينية بأم عينيه، ولهذه النكبة قصة تُحكى.

أما لماذا لا يزال القائد عبد القادر محط إجماع؛ فربما لأنه خلع أصله الأرستقراطي، وشارك البسطاء معاناتهم، ونضالاتهم، وطموحاتهم الوطنية؛ لذا استحق ما احتله من موقع مميَّز في قلوب الجميع.

* * *

(*) القسطل: كلمة القسطل محرَّفة عن كلمة (kastle) الفرنسية، و(castelliem) اللاتينية، أي القلعة. وتقع القسطل على بُعد عشرة كيلومترات إلى الغرب من القدس، على قمة مرتفع إستراتيجي، يسيطر على طريق القدس ـ يافا، وعلى المنطقة المحيطة به. وترتفع القسطل ٧٥٠ مترًا عن سطح البحر، بينما ارتفاع الطريق العام، قرب القسطل، ٥٠٠ مترًا فقط. وتلتف الطريق حول القسطل على شكل نصف دائرة. والقسطل قرية صغيرة، لم يزد عدد أهلها، عام ١٩٤٨، على ٣٠٠ نسمة، وقد رابطت بها حامية صغيرة من أبنائها المسلحين.
أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٤-٢٠٥.

هوامش الفصل الثاني:

(١) د.خيرية قاسمة، عبد القادر الحسيني في ذكراه الخامسة والعشرين، **شؤون فلسطينية** (بيروت)، العدد ٢٠، نيسان/ أبريل ١٩٧٣، ص ٦-١٢.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذه المعاهدة: خلفياتها، دوافعها، ملابساتها، ومضمونها، يمكن الاستعانة بـ:

عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط١،م٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩، ص ٤٦٢-٥٦٨.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية: أسبابها، مسيرتها، إخفاقها، يمكن العودة إلى:

- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص ١١٣-١٨٧.

- د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٤، ص ٣٨٥-٤٨٠.

(٤) بهجت أبو غربية، **في خضم النضال العربي الفلسطيني**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٣، ص٨٤.

- **يوميات أكرم زعيتر/ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥- ١٩٣٩**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص ٢٠١-٢٠٢.

- صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين**، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ٢١٦- ٢١٧، ٢٢٣-٢٢٥.

(٥) أبو غربية، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠١.

(٦) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٧) **المرجع نفسه**، ص ١٢١- ١٢٥.

لمزيد من التفاصيل حول معركة بني نعيم، يمكن الرجوع إلى:

- يوميات...، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٥٢.

- صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢١٧، ٢٣٤- ٢٣٥.

(٨) للمزيد حول الدور المحوري للحاج أمين الحسيني في التحريض والتحضير لثورة الكيلاني، ولتفاصيل الثورة نفسها، يمكن الرجوع إلى:

- ناجي شوكت، **مسيرة وذكريات ثمانين عامًا**، بيروت ، دار الكتب، ١٩٧٥، ص ٤٥٦.

- زهير الماريني، **فلسطين والحاج أمين الحسيني**، بيروت، دار اقرأ، ١٩٨٦، ص ١٢١- ١٤١.

- بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧- ١٩٤٨**، ط٣، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦، ص ٤٤٨- ٤٥٤.

- مذكرات رشيد عالي الكيلاني، **آخر ساعة** (القاهرة) ٦/ ٣، ٢٠/ ٣، ٢٧/ ٣/ ١٩٥٧.

- سميح شبيب، الحاج أمين الحسيني ودوره القومي في العراق (١٩٣٩- ١٩٤١)، **شؤون فلسطينية** (نيقوسيا)، العدد ٢١٩-٢٢٠، حزيران (يونيو) - تموز (يوليو) ١٩٩١، ص١٤-٣٠.

- صلاح الدين الصبّاغ، **فرسان العروبة في العراق**، دمشق، الشباب العربي، ١٩٥٦.

(٩) أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص٣٦.

(10) Nsser eddin enashashibi, **Jarusalem's other Voice**, Ithaca, press exeter, 1990, p. 81.

(١١) قاسمية، مرجع سبق ذكره.

ـ محمد علي الطاهر، **معتقل هاكستب**، القاهرة، نشر خاص، ١٩٥٠، ص ٢٣٤ـ٢٣٧.

(١٢) أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٨ ـ ٤٩، ١٥٢.

(١٣) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(١٤) قاسمية، مرجع سبق ذكره.

(١٥) المرجع نفسه.

(١٦) المرجع نفسه.

(١٧) أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص١٦٢.

(١٨) المرجع نفسه، ص١٦٣.

ـ قاسمية، مرجع سبق ذكره.

(١٩) عارف العارف، **النكبة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢**، جـ١، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية،١٩٥٦، ص ٤٧، ٩٨ـ٩٩، ١١٣.

ـ أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص١٩٧.

ـ اللواء حسن البدري، **الحرب في أرض السلام**، القاهرة ـ بيروت، دار الوطن العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦، ص ١٨٣ـ١٨٩.

(٢٠) أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦ـ١٧٧.

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٩٤ـ١٩٧.

(٢٢) المرجع نفسه. ص ١٩٦ـ١٩٧.

لمزيد من التفاصيل حول المعارك المشار إليها يمكن الرجوع إلى:

ـ البدري، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٥ـ ١٩٠.

ـ العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤، ٩٨ـ٩٩، ١١٣، ١٤١ـ١٤٨.

(٢٣) أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠ـ٢٠٢.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٩١.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ١٩٩.

(٢٧) البدري، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٨ـ١٩٩.

ـ أبو غربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٥ـ٢٠٧.

ـ قاسمية، مرجع سبق ذكره.

ـ البدري، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٨ـ٢٠٠.

ـ حاييم هرزوج، **الحروب العربية ـ الإسرائيلية ١٩٤٨ـ ١٩٨٢**، ترجمة: بدر الرفاعي، القاهرة، دار سينا، ١٩٩٣، ص٣١.

obeikan.com

الفصل الثالث

خليل البديري
مناضل وطني ديمقراطي نموذجي

إلهام أحمد الشريف

كما تزخر مدينة القدس الشريفة بالآثار والمقدسات، فهي تزخر، أيضًا، بالرجال العظماء، المخلصين، الذين وهبوا حياتهم وأرواحهم في سبيل تحرير وطنهم، ونصرته. رجال لا تفخر بهم بلادهم فحسب، وإنما تفخر بهم أمتهم العربية كلها. ومن هؤلاء الرجال الذين عاشوا حياتهم حاملين هموم الوطن، باذلين الجهد والوقت في سبيله، الدكتور خليل البديري.

ولد البديري في مدينة القدس، أواخر عام ١٩٠٦م/ ٢٤ رمضان ١٣٣٢هـ وكان أبوه، الشيخ موسى، شيخًا، وعالمًا، شديد الإيمان، والتمسك بالإسلام، وتعاليمه، وأيضًا، شديد التسامح. وقد أثرت هذه البيئة في تكوين شخصية الدكتور خليل البديري منذ نعومة أظفاره. كما أثر في تكوين شخصية البديري، أيضًا، عامل هام آخر؛ فقد ولد قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى[1] بحوالي ثمانية أعوام، فنشأ كارها للحروب، وويلاتها، خاصة بعد تكشف نوايا الحلفاء في تقسيم الوطن العربي، فيما يسمى باتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦). وقد زاد من كراهية البديري لهؤلاء الحلفاء صدور «وعد بلفور» (٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧)، الذي قضى باستقطاع جزء هام من بلادنا، ومنحه للصهاينة، لإنشاء وطنهم القومي عليه، في فلسطين، وبذلك يتم تقسيم بلادنا العربية إلى قسمين، يتوسطهما كيان استعماري غريب، لتحقيق مصالح الحلفاء، وأطماعهم.

كان خليل البديري يتابع، وهو طفل صغير، الأحداث من حوله، ويتفاعل معها، فقد شعر بالابتهاج حينما أعلن شريف مكة، حسين بن علي، الثورة على العثمانيين في ١٩١٦، لتقرير العرب مصيرهم، وإقامة دولة عربية مستقلة، بالرغم من تخوفه من غدر الحلفاء. وفي ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، دخلت القوات البريطانية إلى القدس، وتعرض الشيخ موسى البديري إلى مضايقات، جعلته يفكر في الهجرة، وكذلك ابن أخيه، كامل البديري، الذي

رفض التعامل مع الإنجليز، فتم اعتقاله ونفيه إلى الزقازيق بمصر، وبعد عودته انضم في الحركة الوطنية الفلسطينية، مصطحبًا ابن عمه خليل البديري في جميع تنقلاته.

شهدت سنوات ١٩١٨ إلى ١٩٢٢ اتساع، ونمو الحركة الوطنية الفلسطينية في جميع البلاد، حيث تم تشكيل الجمعيات الإسلامية، والإسلامية ـ المسيحية، والنوادي، ومنها النادي العربي في القدس، وكان خليل البديري من الملازمين لهذا النادي، الذي عمل على تنمية الوعي القومي، والتوعية بالمخاطر التي تهدد العرب جميعًا، فضلًا على الحث على مقاومة الاحتلال، والانتداب، والهجرة اليهودية، وكان من بين المشرفين على هذا النادي: الحاج أمين الحسيني، وكامل البديري. وقد تم دعم هذا النادي من قبل الحركة الوطنية السورية، في دمشق، بزعامة الأمير فيصل بن الحسين، والذي كان بدوره مدعوما من الإنجليز، وقد أصدرت الحركة الوطنية عددا من الجرائد، التي حثت على الجهاد، والمقاومة، مثل صحيفة «سوريا الجنوبية»، والتي ترأس تحريرها كلٌ من عارف العارف، ومحمد حسن البدري[٢].

في مطلع عام ١٩٢٠، اندلعت مظاهرة جماهيرية عظيمة لرفض الانتداب، و«وعد بلفور» بالإضافة إلى رفض فصل فلسطين عن سوريا، وكان خليل البديري أحد أولئك المتظاهرين، وأحد خطباء المظاهرة، أيضًا، وقد ألقى في ذلك الوقت خطبة نددت بالاحتلال، وتجزئة البلاد العربية، وغدر الحلفاء، و«وعد بلفور»، مستثيرًا الحماسة في نفوس الناس من أجل التمسك بالمقاومة، وبالوطن، دون أن ينتقص منه شيئًا. كما شارك البديري في مظاهرة أخرى، في مارس/ آذار من العام نفسه، وبعد إعلان استقلال سوريا، ابتهاجًا بهذا القرار، مع إلقاء الخطابات الحماسية نفسها، وفي المرتين السابقتين تم اعتقال بعض المتظاهرين، ولصغر سنه لم يعتقل البديري[٣].

للمرة الثالثة، وفي أوائل أبريل/ نيسان ١٩٢٠، ألقى خليل البديري خطابًا في مظاهرة عارمة، في احتفالات موسم النبي موسى، محذرًا من أخطار الهجرة اليهودية، حاثًا الجماهير على التمسك بحرية البلاد، وقد وقع في هذه المظاهرة عدد من القتلى والجرحى، كما تم اعتقال عدد من الخطباء. وقد أدى ذلك إلى محاولة العرب تسليح أنفسهم، بدافع الحماية. وانتشرت المظاهرات لتعم جميع المدن الفلسطينية، واعتقد الإنجليز بأن ذلك يحدث بتدبير من سوريا، وكان، في الحقيقة، إعدادًا لقيام ثورة مسلحة، لتخليص البلاد من الإنجليز، واليهود في آنٍ، وكان يدبر لذلك بعض الرجال الوطنيين، مثل أحمد مريود، وكامل البديري.

تنبه الإنجليز إلى خطورة بعض رجال المقاومة، فرأوا بأن يقلدوهم مناصب هامة، حتى ينشغلوا بها عن الجهاد، وبالفعل فقد حدث ذلك، كما أرادوا، ومن أمثال هؤلاء عارف العارف، وأمين الحسيني وغيرهم.

أسهم خليل البديري في تحرير صحيفة «الصباح»، الناطقة باسم «اللجنة التنفيذية العربية»، برئاسة موسى كاظم الحسيني، المقال من نيابة بلدية القدس، وقام خليل البديري بكتابة بعض المقالات التي تم نشرها في هذه الصحيفة[٤].

سافر البديري إلى ألمانيا في أبريل/ نيسان ١٩٢٢ لإكمال تعليمه، ودراسة الطب هناك، حيث كانت ألمانيا، في ذلك الوقت، تعاني من آثار الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨)، وكان الغرباء هناك يعيشون في رخاء، في الوقت الذي كان فيه أهل البلد يعانون من الفقر المدقع، وهذا جعلهم يشعرون بالكراهية للأجانب.

في ذلك الوقت كانت في ألمانيا فئة تميل إلى المهادنة مع الحلفاء، وأخرى تدعو إلى الانتقام، وكانت هذه الفئة تنظم المظاهرات، التي كان البديري يشارك فيها، نكاية في الحلفاء، لما يفعلونه بالأقطار العربية. وكان يتابع أخبار الحركة الوطنية، من ابن عمه، كامل، وكتب مقالا من هناك أرسله إلى جريدة «الصباح» عندما أقرت «عصبة الأمم» «صك الانتداب»، لنشره فيها، يدين ذلك.

عاد البديري إلى القدس في ٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٣، لظروف صحية، وعلم بتوقف جريدة «الصباح» واختفاء ابن عمه كامل البديري، الذي قيل بأنه قتل، بتواطؤ بين حاكم عربي مع الإنجليز. وبقي البديري في أريحا حتى ١٩٢٤، والتقى في تلك الأثناء بالعديد من الشخصيات الوطنية، وكتب مقالا في جريدة «لسان العرب» عن «الإمام علي» كرَّم الله وجهه، ترد على محاضرة للأستاذ بندلي الجوزي، كان ألقاها في جمعية «الشبان المسيحية» عن «الحركات الفكرية في الإسلام»، وذلك في ٣١ أغسطس/ آب ١٩٢٤، وبعدها، وفي ٢٥ سبتمبر/ أيلول من العام نفسه، ذهب البديرى إلى مصر لإكمال دراسته في الجامعة الأمريكية. وهناك تعرَّف على العديد من الطلبة المصريين، ذوي انتماءات فكرية مختلفة، وكان البديري ممن يؤيد السلفيين، ويرى دعاة التجديد إنما هم انهزاميون، مستسلمون.

اهتم البديري بالثورة السورية الكبرى[٥]، والثورة الريفية[٦] في المغرب، وكتب مقالًا في جريدة «اللواء المصري» لمناصرتهما. وكان يهتم، أيضًا، بأي حركة ثورية في العالم بأسره، وليس في العالم العربي فحسب.

بعد تخرجه في الجامعة الأمريكية في القاهرة، سافر البديري، أواخر ١٩٢٥، إلى سويسرا لدراسة الطب، حيث حصل على شهادة الدكتوراه من جنيف، وعمل هناك في مستشفى العيون فترة قصيرة بعد تخرجه، انتقل بعدها إلى لندن ليتخصص في طب وجراحة العيون، في أواخر ١٩٢٩. ودأب البديري على متابعة أخبار الثورات العربية، وغير العربية، في تلك الفترة من خلال الجرائد. وبالمصادفة وقعت أمام عينيه جريدة تعد الوحيدة التي كانت تهاجم الاستعمار، وتندد به، وتفضح جرائمه، وهي جريدة «لومانتيه» وتعني الإنسانية، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي. وقد وجد بها تعاليم ديننا السمح الحنيف. وكان هذا أول احتكاك بين البديري وبين الشيوعية والاشتراكية، وبدأ منذ ذلك الحين في الاطلاع على الكتب الخاصة بهذا المذهب، فضلًا على حضور اجتماعات يعقدها مفكرون أحرار، شيوعيون ، أو اشتراكيون، وهناك تعرف على سيدتين، إحداهما فرنسية، والأخرى إنجليزية، تهتمان بالثورة الريفية بالمغرب. وقد أخبرته السيدة الفرنسية بوجود عصبة لمقاومة الاستعمار ومن أجل الاستقلال الوطني، ستعقد مؤتمرًا عالميًا في ألمانيا، في أواخر يوليو/ تموز ١٩٢٩ وقرر الاشتراك فيها، لفضح ممارسات الاستعمار الإنجليزي، والصهيوني في فلسطين والدول العربية. وكممثل للحركة الوطنية الفلسطينية، لإيضاح موقفها.

ألقى البديري خطابًا في إحدى جلسات المؤتمر بالفرنسية، شرح فيه حقيقة الاستعمار، والهدف من إصدار «وعد بلفور»، مع توضيح المعاناة التي يعيشها العرب تحت نير الاستعمار، مطالبًا رئيس حزب العمال المستقل في بريطانيا باتخاذ موقف تجاه ما يجري، مؤكدًا على إصرار جميع العرب الأشقاء على مواصلة الكفاح ضد الاستعمار، سياسيًا كان، أو اقتصاديا، حتى تحقيق النصر، والاستقلال.

أثناء إقامة البديري في جنيف، حاول اليهود الاستيلاء على حائط البراق، وحدث، نتيجة لذلك، هبة ضد حكومة الانتداب، والهجرة اليهودية، سقط خلالها العديد من الجرحى، والقتلى، من كلا الجانبين. وقام البديري بكتابة مقال،

تم نشره في جريدة «العمل»، في ٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٢٩، موضحًا حقيقة الأمر، حيث حاول الإنجليز تصوير ما جرى على أنه مذبحة لليهود، وسرد البديري الوقائع، منذ دخول الإنجليز إلى فلسطين والبلاد العربية عمومًا، «لتخليصها من الأتراك» ثم تكشفت نواياهم، بعد عقد الصلح، وإصدارهم «وعد بلفور»، القاضي بإقامة الدولة الصهيونية، فضلًا على تقسيم الدول العربية، وزرع الكيان الصهيوني، لكي لا يقوم بينها اتحاد، يؤثر على سيطرة بريطانيا على الهند، مدللًا على أن ما حدث لم يكن ضد السامية، فقد كان اليهود يجدون عند الدول العربية ملجأ لهم، عندما كانوا يضطهدون في أوروبا[٧].

أصدر البديري بعض النشرات، والكراسات لشرح القضية الفلسطينية، وأنها ليست تعصبية، أو ناتجة عن كراهية «الأغيار»، أو الأجانب، ولكنها حركة تحررية. وذلك بعد اتصاله بالفرع البريطاني «لعصبة مقاومة الاستعمار ومن أجل الاستقلال الوطني»، حيث كان من أعضاء اللجنة التنفيذية، كاتب سياسي، شيوعي شهير، يصدر مجلة «ليبر منثلي»، ويدعى «بالم دات».

التقى البديري ببعض الإنجليز، ممن اعتنقوا الإسلام، منهم رئيس جمعية تهتم بدراسة الإسلام، والمسلمين، لورد هيدلي، الذي طلب من البديري إلقاء محاضرة عن المرأة في الإسلام أمام جمعية نسائية، ففعل ذلك، موضحًا أن ما منحه الدين الإسلامي للمرأة من حقوق لم تكن ممنوحة لنساء الغرب، آنذاك، أردف البديري بأن الإسلام يحض على الخير، والتسامح، وأن ما يبدر عن بعض المسلمين إنما هو من أنفسهم، وليس من تعاليم الإسلام السمحة، كالتخلف، والرجعية، مثلًا، وقد كان حريصًا في علاقته بهؤلاء المسلمين الإنجليز، بحيث يتعاون معهم لكسب تأييدهم، دون أن يكون لهم أثر في تغيير طريقه، أو استغلاله لخدمة أطماعهم، فهو لا يعرف عنهم إلا الظاهر فحسب.

حضر إلى لندن الوفد الفلسطيني الرابع، بعد هبة ١٩٢٩، لمفاوضة الحكومة البريطانية، حول القضية الفلسطينية، طالبا وقف هجرة اليهود، ومنع انتقال الأراضي لهم، وكذا تأسيس حكومة نيابية وطنية، وهو ما أقره المؤتمر العربي الفلسطيني السابع، وإن أغفل الوفد المطالبة بالاستقلال، والوحدة العربية، كما تغافل عن «وعد بلفور». ومع ذلك رفضت الحكومة البريطانية. وخشية حدوث هبة ويقظة عربية، أصدرت وزارة المستعمرات بيانًا بتخفيض الهجرة، ومنح الفلسطينيين درجة من الحكم الذاتي، ووضع قيود على انتقال الأراضي لليهود. ما لبثت أن سحبته بعد شهر.

أثناء «مؤتمر الطاولة المستديرة»، الذي عقد في لندن، في الثلاثينيات، لبحث مشكلة الهند، فكر البديري في إرسال مذكرة إلى محمد علي، وشوكت علي، من ممثلي مسلمي الهند، لطرح قضية فلسطين، وتوضيح الخطر الذي يحيق بالمقدسات الإسلامية، والمسلمين في فلسطين، وفي تلك الأثناء حضر مبعوث من إدارة المعارف في فلسطين، هو رفيق التميمي، حاملًا مذكرة للغرض ذاته، غير موقعة منه، لكونه موظفًا حكوميًّا. وقام البديري هو بتوقيعها، وجمع توقيعات عليها.

عاد البديري إلى القدس في أوائل ١٩٣٢، وعمل بمستشفى العيون الإنجليزي بالقدس لمدة عام بدون أجر لاكتساب الخبرة، بعدها طلبت منه إدارة المستشفى أن يتعاقد معها، حتى يكون تحت إدارتها دائمًا، وحرصًا، أيضًا، منها على عدم استقلال البلاد، اقتصاديًّا، وطبيًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا. ونتيجة لانتشار مرض العيون، آنذاك، فقد تم إنشاء وحدة متنقلة، تابعة للمستشفى الإنجليزي، دعي البديري للعمل فيها، مما أتاح له أن يلتقي بالمعلمين، والموظفين والشباب العربي الفلسطيني، والتحدث إليهم عن الحركات التحررية في بلادنا العربية، ومتابعة المجلات،

ومنها مجلة «الدهور» اللبنانية، والتي كانت تعمل على نشر الفكر الماركسي والاشتراكي، ومن هنا تشكلت نواة حركة وطنية استقلالية، في أوساط المعلمين، والطلبة، وتشكيل حزب «الاستقلال العربي». وانتشرت المقالات الداعية إلى محاربة الإنجليز، والصهاينة، في آنٍ.

التحول إلى المرحلة الثانية في الحركة الوطنية

اشتدت المظاهرات في الفترة ما بين ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ نتيجة لازدياد الوعي، وعرفت الحركة الوطنية طريقها الصحيح، كما انتشرت العصابات التي نتجت عن الفقر، والبطالة، والتي أرعبت الاحتلال، وفي تلك الأثناء تواجد ثلاثة من اللبنانيين في القدس، هم: سليم خياطة، محرر جريدة «الدهور»، ورئيف خوري، الأديب، ورجا حوراني، المدرس. وتم الاتفاق بينهم وبين البديري على إعادة إصدار مجلة «الدهور» باسم «الطليعة»، ودعمها، وجمع التبرعات لها، وذلك عن طريق بعض الأصدقاء في دمشق. وكتب فيها البديري، واستمرت في الصدور حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، خريف ١٩٣٩، ومنعت بعد ذلك، بعد أن أدت دورًا كبيرًا في نشر الوعي القومي، والأفكار التقدمية بين كثير من الفقراء.

اشترك البديري وآخرون في تكوين رابطة أسموها «عصبة القلم» ومن مؤسسيها عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وحنا سويدة، وكانت لذات الهدف السابق: «نشر الوعي، والأفكار التقدمية». وتم الاتفاق من خلال هذه العصبة مع جريدة «الدفاع» على تخصيص صفحة أسبوعية لهم. وكتب فيها البديري، فاضحًا الفاشستية، حيث كانت تستهوي الكثير من الشباب. ثم كتب مقالًا آخر في ٢٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٦ بعنوان «سبيل التحرر»، لمعالجة قضية التحرر، والتخلص من الاحتلال، والانتداب. حيث كان هناك فريقان في الحركة الوطنية، أحدهما يطالب بالكفاح، والآخر يقول بالتعامل مع الاحتلال لاستخلاص ما يمكن استخلاصه منه، فالبلاد غير قادرة على مواجهة العدو. وضرب البديري المثل بمصر، وسوريا، مبينًا مدى خطأ سياسة الفريق الثاني، التي لا تحقق أهدافًا مرجوة. كما قام البديري بإلقاء محاضرة بعنوان «أمراضنا الوهمية» في جمعية الشبان المسلمين بيافا، نشرت في جريدة «اللواء» في ٢٥/ ٢/ ١٩٣٦، لبث روح المقاومة، والنضال لصد الاحتلال، رائيًا أنه ينقصنا الإيمان، والثقة في النفس، والاعتماد عليها. فنحن، دائمًا، نهول الصعاب، ونرى في العدو قوة لا نستطيع مقاومتها، وهذا قلب للحقيقة، إنما ينقصنا تنظيم صفوفنا وتوحيدها فحسب. والحق قوة تفوق قوة العدة، والعتاد، والعدد. والتاريخ يؤكد ذلك، كما في حرب العرب مع الرومان، والفرس، وغيرهم.

نشطت في الفترة ذاتها حركة تأسيس الجمعيات العمالية لصد هجمات العمال اليهود، وأدى ذلك إلى صدامات بين العمال العرب، واليهود. كما تم تشكيل ائتلاف فيما بين الأحزاب التي كانت موجودة، في ذلك الوقت، وقام ذلك الائتلاف بتقديم مذكرة للمندوب السامي البريطاني في القدس، لحكومة الانتداب، بها حد أدنى من المطالب الوطنية، لاقى مماطلة بقصد التهدئة، أتبعه رفض قاطع لتلك المطالب.

كان هذا الائتلاف حذر بريطانيا من مغبة تجدد حركات ثورية في فلسطين، على غرار حركة القسام[٨]! وبعدها بأعوام اندلعت ثورة ١٩٣٦ الوطنية، نتيجة لمماطلة الحكومة البريطانية، ورفضها لمطالب الشعب العربي، صدر أول بيان يطالب «اللجنة العربية العليا» بالامتناع عن دفع الضرائب، والعصيان المدني وعدم التعاون. وقد أصدر هذا

البيان، ووقع عليه ستة أشخاص من بينهم «البديري»، تلا هذا البيان بيانات أخرى، موقعة من المئات من أفراد الشعب.

استمرت محاولات حكومة الانتداب في خداع الفلسطينيين، الذين لم يقتنعوا بما يحدث، ونظموا الإضرابات، وأصبح الشعب هو الذي يحث الزعماء، ويدفعهم إلى المقاومة، فتم اعتقال الآلاف، فضلًا على عمليات القتل، والحرق، والتخريب، وقد نشر البديري، مع مجموعة كبيرة، نداء إلى الأمة العربية، بعنوان «لا ضرائب بلا تمثيل»، فتم اعتقاله ضمن آلاف المعتقلين، وكان قبل ذلك قد فرضت عليه الإقامة الجبرية في القدس لمدة سنة.

استمر الإضراب أكثر من ستة أشهر، فغدا أطول إضراب سياسي في التاريخ الإنساني، مما وضع الحكومة في ورطة، لم تستطع أن تفعل شيئا حيالها سوى أن تلجأ إلى الحكام، والأمراء، والملوك، والزعماء العرب، الذين لبوا النداء على الفور، مطالبين بإنهاء الإضراب دون وعد، أو شرط، تابع ذلك إعلان بريطانيا بأنها لا ترى سببًا لإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ولو بصفة مؤقتة، ناهيك عن حشد أكثر من ثلاثين ألف جندي مجهزين، ومدربين لكسر الثورة، والقضاء عليها، و استمر مسلسل الاعتقالات، واعتقل فيه، أيضًا، البديري، لتحريض الأفراد القلائل ممن لم يهتموا بالإضراب، وإقناعهم به. وكان ذلك في منتصف يونيو/ حزيران ١٩٣٧.

بعد إنهاء الإضراب، وصلت اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل)، التي أوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وإنهاء الانتداب، مما أثار احتجاجًا، وسخطا بين العرب، ومسلمي الهند، واعتصم بعض الثوار في القدس لمنع دخول الإنجليز. حيث وضعت الأماكن المقدسة تحت إشراف الانتداب للمحافظة على قدسيتها، وضمان حرية الوصول إليها[٩].

في عام ١٩٣٨، ذهب البديري إلى العراق لحضور مؤتمر الأطباء العرب، والتقى هناك ببعض الشخصيات الوطنية، وأدرك الجميع بأنه لا بد للخلاص لجميع الأقطار العربية من تضافر الجهود العربية في الأقطار المختلفة. وفي العام نفسه، أدركت بريطانيا استحالة التقسيم في ظل الظروف الراهنة، داعية إلى عقد مؤتمر عربي ـ إنجليزي ـ يهودي، انعقد فعلًا في لندن، في فبراير/ شباط ١٩٣٩، لكنه أخفق في التوصل إلى أي تسوية.

في مايو/ آيار ١٩٣٦، أصدرت الحكومة الإنجليزية الكتاب الأبيض، والقاضي بربط إنهاء الانتداب بعد اتفاق العرب واليهود معًا، وهو الأمر المستحيل، كما نشطت حركة طلابية حماسية واعية، أسست «رابطة الطلبة العرب»، طالبت بالعمل الجماعي، لا المصالح الفردية فحسب، واهتمت بالريف والأمية، وقد انبثق عنها «رابطة المثقفين العرب» في ١٩٤٥، وكانت الحركة الطلابية قد أصدرت مجلة «الغد»، أسهم في تحريرها العديد منهم، بينهم البديري نفسه، وقد استمرت المجلة حتى أواخر ١٩٤٧. وفي ١٩٤٥ تم نشر مقالة «رسالة الطب» للدكتور خليل البديري، والتي كان قد ألقاها كمحاضرة، في العام نفسه، في الجمعية الطبية الفلسطينية العربية[١٠].

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، تمنى «البديري» في بداياتها انتشار الثورات على الأنظمة التي أدت إلى إزهاق الأرواح، ونشر الخراب، لكن سرعان ما أيقن بهزيمة ألمانيا، عندما قامت بالعدوان على الاتحاد السوفييتي، فالغلبة، دائمًا، للحق، وقد كان. وكان «البديري» يتمنى، أيضًا، انتصار الثورات الاشتراكية في أوروبا كلها، وهو ما لم يتحقق بالكامل.

استاء الصهاينة من قرار بريطانيا القاضي بأن يكون عدد اليهود الذين يتم ترحيلهم إلى فلسطين ٧٥ ألفًا، وبدأوا في مضاعفة أعداد المهاجرين الصهاينة، هجرة منها السرية، بزعم حمايتهم من النازية، وعملوا على تهريب السلاح، وطالبوا الحكومة البريطانية بتدريب فرق يهودية في الجيش. فضلًا على آخرين يتدربون في فلسطين، وإنشاء مصانع سرية للأسلحة. مما دعا الحكومة البريطانية إلى اعتقال عدد من الزعماء الصهاينة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإنهاك بريطانيا فيها، حاولت الولايات المتحدة أن تحل محلها؛ لذا رأت بريطانيا الاستعانة بالولايات المتحدة في النفقات، والأعباء، فتم تشكيل «اللجنة الأنجلو ـ أمريكية»، والتي وصلت القدس في بداية ١٩٤٦، واقترح جمال الحسيني تشكيل لجنة عليا، تضم رؤساء الأحزاب العربية الخمسة (حزب الدفاع، وحزب الإصلاح، وحزب مؤتمر الشباب، وحزب الكتلة الوطنية، وحزب الاستقلال)، بالإضافة إلى الحزب العربي، ورأى الحسيني ضرورة إدخال عناصر جديدة في تلك اللجنة، حتى لا يكون هناك جمود. واقترح عشرة أسماء منهم «البديري». ودعا الحسيني جميع الأعضاء إلى اجتماع، يتم عقده في مقر «الحزب العربي»، الذي يرأسه، في الساعة العاشرة يوم ٢٧ مارس/ آذار ١٩٤٦، لانتخاب ممثلي فلسطين في جامعة الدول العربية، المنعقدة في القاهرة، والتي قد بدأ تكوينها في ١٩٤٣، باتفاق بين نوري السعيد، والإنجليز، فيما يسمى «مشروع الهلال الخصيب»، ووضع فلسطين، وسوريا، ولبنان كدولة واحدة، مع ضم العراق، وباقي الدول العربية فيما بعد، وكانت بريطانيا تريد ركوب موجة الوحدة العربية، لتحقيق أغراضها الخاصة في مواجهة «المعسكر الاشتراكي»، وللتصدي للمزاحمة الأمريكية، بعد أن لم تعد الإدارة الأمريكية تخفي رغبتها في الحلول محل بريطانيا، وفرنسا في مستعمراتهما.

تم الاعتراض على استئثار جمال الحسيني بالتعديلات من قبل جبهة الأحزاب، و«عصبة التحرر الوطني»، و«رابطة المثقفين العرب»، و«الجبهة العربية بيافا». ونشر البديري مقالًا في جريدة «فلسطين» بتاريخ ٣٠ مارس/ آذار ١٩٤٦، لشرح رأيه فيما حدث، موضحًا بأن ما دعا الحسيني إلى التعديلات السابقة هو حرصه على وطنه، ما يجب أن يكون موضع تقدير، غير ناكر حق الشعب في اختيار ممثليه. وخطورة تحمل الحسيني هذه المسؤولية الخطيرة بمفرده، وأنه، حرصا على تماسك تنظيمات النضال، يجب على الحسيني العدول عن رأيه، وأن يشاور جميع الأحزاب، والهيئات، والمنظمات. ونتيجة لرفض الأحزاب السابق، تشكلت جبهة معارضة تحت اسم «الجبهة العربية العليا» ضمت في قيادتها إميل توما، وحمدي الحسيني. وقد أصدرت هذه الجبهة بيانا عقب تشكيلها تم نشره في جريدة «فلسطين»، في ٥/ ٦/ ١٩٤٦، مفاده توحيد الجهود الوطنية حتى تكون مؤثرة، وفاعلة، وانتداب الأستاذ موسى العلمي لتمثيل فلسطين في المؤتمر التحضيري لتأسيس جامعة الدول العربية، كما عمل صاحب الدولة «السيد توفيق السويدي» على توحيد الكلمة، وتأليف جبهة وطنية عليا، رحبت بها الأحزاب الخمسة، فيما عدا «الحزب العربي»، حيث رأى أعضاؤه أن تكون لهم أكثرية، ونتيجة للخلافات غادر السيد السويدي فلسطين دون أن تتألف الجبهة الموحدة المرجوة.

حضر إلى فلسطين السيد جميل مردم بك، رئيس الدورة الثانية للجامعة العربية، وطلب منه رؤساء الأحزاب تأليف لجنة عربية عليا بها عضوان محايدان، فاختار موسى العلمي، وأحمد حلمي باشا، على أن يكون للجنة حق الإشراف على مكاتب الدعاية العربية، ومشاريع إنقاذ الأراضي، لتوحيد سياسة البلاد، خاصة وأن هناك غموضًا أثناء تأسيس مكاتب الدعاية. ولكن هذه اللجنة باءت بالفشل.

وضع رؤساء الأحزاب الخمسة أملا كبيرا، وكذا باقي الأمة، في عودة جمال الحسيني، على أن يعاونهم في توحيد الجهود، ومعالجة اللجنة العربية، ولكنه أرجأ هذا الأمر حتى تأتي لجنة التحقيق الأنجلو ـ أمريكية إلى البلاد، وأصر على اتصالهم بها. كما عمل على تعديل «اللجنة العربية العليا»، وفقا لرؤيته، مما أدى إلى نشوء اختلاف على طريقته هذه. فضلا على ترأسه وفدا ليسافر إلى مصر لتمثيل اللجنة في الدورة الثالثة لمجلس الجامعة العربية، وهنا قرر زعماء الأحزاب الخمسة عدم دستورية تصرفه، وانتدبوا وفدا آخر ليسافر إلى مصر.

نتيجة لكثرة الخلافات، والتي حاول جميل مردم بك حلها، ولم يتمكن، قرر مجلس الجامعة حل «الجبهة العربية العليا»، و«اللجنة العربية العليا» وانتخاب جبهة تمثل فلسطين باسم «الهيئة العربية العليا»، على أن يترأسها الحاج أمين الحسيني، المقيم في مصر.

أوصت اللجنة الأنجلو ـ أمريكية للتحقيق بإدخال مائة ألف يهودي، حالًا، وإلغاء القيود على انتقال الأراضي إليهم، وتسهيل الهجرة، وفرض وصاية أنجلو ـ أمريكية مشتركة، والتحول فيما بعد إلى إقامة دولة ثنائية القومية، وهو ما رفضه العرب، كما رفضه اليهود، لرغبتهم في إقامة دولتهم على كل أرض فلسطين.

حدث تضارب في الآراء داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، وهل يتم حصر القضية بين الفلسطينيين والإنجليز، أم يتم إدخال الأمريكان. فضلا على تضارب الآراء بخصوص عرض القضية على الأمم المتحدة، ومجلس الأمن. وكان البديري ضمن من دعوا إلى عرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وإخراجها من طوق أمريكا. وبريطانيا، وقد أرسل البديري برقية إلى الحكومات العربية بهذا الخصوص تم نشرها في جريدة «فلسطين» في ٢٣/ ٥/ ١٩٤٦، يحذر فيها الدول العربية من الإنجليز، والأمريكان، والصهاينة، وجعلهم فريقًا واحدًا، يقابله العرب كفريق، وصولا إلى الحرية والاستقلال. وقد ردت العراق بأنها تتفق معه، تمامًا، في ذلك.

كما كتب البديري، أيضًا، عدة مقالات نشرت في جريدة «فلسطين»، ومجلة «الغد»، داعيًا إلى عرض القضية الفلسطينية على هيئة الأمم، ومجلس الأمن، للاستفادة من تنافس الدول الكبرى، والدول المحايدة.

أوضح «البديري» في مقاله المنشور في جريدة «فلسطين» بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٤٦ بعنوان «هيئة الأمم المتحدة ـ سننتصر إذا عرضنا عليها قضية فلسطين العربية»، بأن الاستعمار يستخدم سياسة المماطلة، كما أنه يقول شيئًا، ويفعل شيئًا آخر، وأننا والاستعمار على طرفي نقيض، لا يمكننا مصادقته، ولا يمكنه حل قضيتنا؛ لأن ذلك يعني أن يقوم بتصفية نفسه. أردف «البديري»: إن التخوف من عرض القضية الفلسطينية على هيئة الأمم لا أساس له؛ لأنه إما أن يكون القرار بالوصاية، أو الاستقلال. والوصاية تعني خلع نير الاستعمار، ومنع الهجرة. وإننا على أي الحالات، سواء تم عرض القضية على هيئة الأمم المتحدة، أو مجلس الأمن، فإننا سنحصل على أكثرية في الأصوات.

في مقال آخر بعنوان «حول مقررات بلودان، لماذا نفاوض بريطانيا بعد أن خبرناها؟» والذي نشر في الجريدة نفسها (فلسطين) بتاريخ ١٦/ ٦/ ١٩٤٦ كتب البديري مؤكدًا بأن مفاوضة بريطانيا تعني التسليم بأن لها الحق في البلاد، كما تدلل، أيضًا، تلك المفاوضات على ثقة الجامعة العربية في بريطانيا، بالرغم من مواقفها السابقة، والتي لا تراعي فيها قرارات الجامعة. ومن جهة أخرى، تعني المفاوضات تسليما بالوضع الحاضر، مما يعني استمرار الهجرة، وبيع الأراضي لليهود، واستمرار الاستعمار والحكم الأجنبي للبلاد[١١].

كما كتب البديري، في الجريدة ذاتها، بتاريخ ٣/ ٨/ ١٩٤٦ مقالًا بعنوان «على هامش مشروع التقسيم، كفانا انخداعًا»، منوها بأن سياسة الاستعمار المماطلة إنما هي لتحقيق أغراض الاستعمار، فكلما طلب العرب تفاوضا مع بريطانيا، ترد هي إما بأعداد من المهاجرين اليهود إلى فلسطين، أو بالتقسيم، الذي أعلن البريطانيون أنه مشروع أمريكي، لا علاقة لهم به، ويرفضونه، أيضًا. واتضح فيما بعد أنه مشروع بريطاني، كذلك الحال في هجرة الأمريكان. فكل هذه ألاعيب يحاول الاستعمار بها كسب الوقت، وتنفيذ سياساته.

في مقال «من تفاوضون؟ وفيم تفاوضون؟» والمنشور بتاريخ ١٧ أغسطس/ آب ١٩٤٦ في جريدة «فلسطين» كتب صاحبنا: إن المفاوضة لعبة استعمارية مكشوفة، وإننا بها نعطي لبريطانيا صفة المشروعية، فهل نحن نقوم بذلك؟ وهل ذلك في مصلحتنا؟!

«والآن ماذا نحن فاعلون»، مقال جديد كتبه البديري في ٢٢ فبراير/ شباط ١٩٤٧ متسائلًا عما يجب علينا فعله، بعد وصول مؤتمر لندن إلى نتيجته المحتومة، والمتوقعة. فبريطانيا تلبس ثوب النزاهة المزيف، محاولة أن تظهر بصورة محايدة أمام العرب، والحقيقة أنها والصهيونية وجهان لورقة واحدة، ومصلحتهما واحدة. ولأن بريطانيا خصم في القضية، فهل يجوز لها أن تقوم بعرضها؟!، وهل ستقدم نفسها على أنها خصم؟! بطبيعة الحال سيكون عرض بريطانيا للقضية مختلفًا عن عرضنا لها. وأنه، نظرًا لإستيراتيجية موقع الدول العربية، وأثره في السلامة الدولية، فهي مركز قوة عظيمة، إذا جدت في طلب حق مشروع، تقره المبادئ الأساسية لمنظمات الدول. لذلك علينا الاعتراض على المناورات، والمفاوضات من جهة، والمبادرة بعرض القضية من جهة أخرى[١٢].

كان للمقالات السابقة كبير الأثر، حيث جاءت ردود الأفعال واضحة، ومؤيدة لها، متمثلة في صورة عدة برقيات تم نشرها في جريدة «فلسطين»، ومجلة «الغد» موقعة بأسماء الكثير من الأفراد، والجمعيات، في سائر الأراضي الفلسطينية. ومن بغداد، أيضًا، مثل لجنة الأحزاب العراقية للدفاع عن فلسطين (بغداد)، جمعية العمال العربية (بيت جالا)، اللجنة المركزية لرابطة المثقفين العرب (القدس).

عرضت بريطانيا قضية فلسطين على هيئة الأمم، في أبريل/ نيسان سنة ١٩٤٧، التي قررت بدورها إرسال القضية إلى لجنة تحقيق، بها دول محايدة، ورفضتها «الهيئة العربية العليا»، والتزم الجميع بقرار «الهيئة العربية العليا»، حتى من لا يقبلونه، حفاظًا على وحدة الصف، ومنهم البديري، وقاموا باتصالات سرية مع هذه الدول المحايدة، وشرح القضية، وفي النهاية جاء قرار الأمم المتحدة بإنهاء الانتداب وجلاء الإنجليز، وتقسيم فلسطين، في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧. وكان لقرار التقسيم أثره الصادم لكل من نادى بعرض القضية على هيئة الأمم، ومنهم «البديري». ولا يعفى من المسؤولية فيما حدث القيادة الفلسطينية، والحكومات العربية، لعدم قيامها بعرض القضية بنفسها بشكل صحيح وتركها لبريطانيا، التي عرضتها على أنها نزاع بين طرفين متساويين في الحقوق. لا نزاع بين شعب صاحب حق، واقع تحت احتلال غاشم، وبين ذلك المحتل.

يذكر أن البديري وراسم الخالدي كانا من بين أعضاء الوفد المنتدب من «الهيئة العربية العليا» لتمثيل فلسطين في هيئة الأمم، ولكن السفارة الأمريكية في القاهرة، والقنصلية في القدس لم تمنحهما تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة بالرغم من مراجعة الأمين العام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام باشا. وقد رفض العرب جميعًا، والفلسطينيون

منهم خاصة، قرار التقسيم، ومع ذلك لم يحاولوا الاحتشاد لمنعْ تنفيذه، وقد استشهد في محاولة لمنع تنفيذ القرار بعض الباسلين، وعلى رأسهم عبد القادر الحسيني.

نتج عن التقسيم تشريد المواطنين الفلسطينيين، وعدم إقامة الدولة الفلسطينية، وكانت الحلول تتمثل في: إما توطينهم في سيناء، أو الدول العربية التي لجأوا إليها، أو غور الأردن، ولكن تمسك هؤلاء المواطنون بحقهم في العودة. وقاد المقاومة ضد التوطين في سيناء الشيوعيون في قطاع غزة، ثم برزت «فتح» إلى الوجود، وكذلك اليساريون، ومن تبقى من «عصبة التحرر الوطني»، وجرت اعتقالات عديدة من قبل الصهاينة، والأردن، والسلطات المصرية في غزة، وكان البديري ضمن المعتقلين في ١٩٤٨ في غزة أيام الحكم المصري العسكري مع آخرين. وفي طريق عودته من مصر إلى القدس، مرورًا بعمان كاد يعتقل للمرة الثانية، لولا تعهد بعض الأصدقاء بعدم مكوثه في عمان[١٣].

في أواخر ١٩٤٨، بدأ التحرك لضم الصفة الغربية إلى الأردن، تحت حكم الملك عبد الله، الذي تلاقت مطامعه مع مصلحة بريطانيا، تمهيدا لإقامة «سوريا الكبرى»، وتوالت المؤتمرات بهذا الخصوص، منها مؤتمر عمان، في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٨. لقد كان هناك مؤتمران آخران، بعد مؤتمر أريحا، في رام الله، ونابلس، هدفهما تكريس مقررات «مؤتمر أريحا»، وتأييدها، ورحبت بذلك طبعا الحكومة الأردنية. وقد جرت تعديلات في الحكومة الأردنية، وأصبح عدد الفلسطينيين فيها خمسة.

في ١٩٥٠، أجريت انتخابات لتشكيل مجلس أمة موحد، عملت الحكومة الأردنية على إنجاح من رشحتهم، مما أدى إلى الاعتراض على الانتخابات، ومقاطعتها، وكان على رأس المعترضين، «بقايا عصبة التحرر الوطني»؛ لافتناعهم بأن ذلك سيضر بالقضية الفلسطينية، وتوالت المظاهرات بعد ذلك، وتم اعتقال المحرضين عليها. وأصدرت بريطانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، في مايو/ آيار ١٩٥٠ بيانًا ثلاثيًّا مشتركًا يحذر العرب من محاولة استرداد حقوقهم، وتحرير وطنهم!

منذ أواخر عام ١٩٤٦، وحتى منتصف ١٩٤٨ ظل البديري متنقلًا ما بين القدس، وغزة، والقاهرة، يجري مشاورات مع «الهيئة العربية العليا»، واضطر إلى تسكين أسرته في الإسكندرية، نتيجة لما تعرض له أعضاؤها من أعمال وحشية من قبل الصهاينة. وكان قد اتصل به الطبيب الإنجليزي المسؤول عن مستشفى العيون ليواصل العمل فيها ثانية، وقد كان حتى عام ١٩٧٠، حيث اعتزل البديري العمل.

في يوليو/ تموز ١٩٥١، اغتيل الملك عبد الله في القدس، ويرى البديري أنه إن لم يكن الاغتيال بتدبير بريطانيا، فإنه، على الأقل، بالتواطؤ معها، نتيجة لتعارض مصالحهما في ذلك الوقت، حيث انتوى الملك عبد الله عقد صلح مع إسرائيل، وهو ما لا تريده بريطانيا، واعترض البديري على عملية الاغتيال، وأعلن نبذه للإرهاب، ذلك أن مقتل شخص، أو أشخاص، لا يغير النظام.

في مجال استخلاص الدروس والخبرات، يرى البديري أننا أخطأنا في قبول التقسيم للبلاد العربية، وفي ترك بريطانيا تعرض قضية فلسطين، وتصديق وعود الإنجليز والأمريكان، فيما لم يكن أمامنا إلا أحد ثلاث طرق: إما التعامل معهم وكأنه لا يوجد في الميدان غيرنا وهم، والعمل على إبادتهم كلية، وهو غير ممكن الحدوث. أو قبول المساومات، وهذا طريق الخضوع والاستسلام، وأخيرًا لا يبقى أمامنا سوى طريق النضال، والسعي من أجل تحقيق الوحدة، وهذا الحل ليس سهلًا، وممكن التحقيق في يوم وليلة. بل يحتاج إلى نضال شاق، لمقاومة الاستعمار، ودحره.

فضلًا على مكافحة الأنظمة العربية المرتبطة بالاستعمار. ويجب أن يتم ذلك ضمن إطار الاشتراكية، فهي أقصر الطرق، وأسرعها للحاق بالعالم المتقدم، وتحقيق الرخاء. وعليه يجب وضع ميثاق وطني يقوم على أساس مقاطعة الاحتلال ومشاريعه مقاطعة تامة، ومقاومة أي إجراءات تمكنه من بسط سيطرته؛ لذلك علينا القيام بفتح مدارس، وتنشئة أولادنا تنشئة وطنية.

توالت الأحداث الجسام على الوطن العربي، إلى أن كانت هزيمة ١٩٦٧العربية المدوية، جاءت فكرة الكيان الفلسطيني نوعا من الحكم الذاتي، تحت سيادة إسرائيلية، والتي لاقت رفضا قاطعا، وكانت إسرائيل تحاول فرضه بموجب اتفاقيات كامب ديفيد، وأعد البديري مذكرة لعرضها على «اللجنة العليا للتوجيه الوطني» تحت عنوان «لا احتلال، ولا انفصال» مؤكدًا من خلالها، هو ومن وقّع معه، على التمسك بالوحدة بين الضفتين، ومقاومة الاحتلال، وجلاء العدو من سائر الأراضي العربية، وحق العودة. مردفا بأن ثمة حركتين تتصارعان، إحداهما تطلب تحرير الشعوب، والأخرى تريد أن يبقى الوضع على ما هو عليه. وطلب «البديري» من الأردن إعادة النظر في موقفه، والتأكيد على وجوب جمع القوى المعادية للاستعمار، وتوحيدها، وتشكيل حكومة ائتلاف وطني، تضم العناصر الواعية، وتطهير الجهاز الحكومي من الفساد، وإحباط أي مناورات من شأنها عرقلة المسيرة. بالإضافة إلى توطيد التعاون العربي، وتعزيز علاقات الصداقة مع من ثبت وفاؤهم، وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتي، والدول الاشتراكية، وإقامة علاقات مع الصين الشعبية، فضلا على بناء قواتنا العسكرية، وتسليحها على أعلى المستويات، وتطوير اقتصادنا الوطني.

وجه البديري كتابًا بالإنجليزية إلى وزير الخارجية البريطاني «جورج براون» أثناء زيارته للقدس، في ٢٣ يناير/ كانون الثاني سنة ١٩٧٠، تم نشره في جريدة «القدس» المقدسية، جاء فيه: إننا نتحيز للحق والسلام، وإننا ضحايا السياسة الغاشمة البريطانية، التي أرست قواعد دولة إسرائيل في بلادنا، نظرًا لكل ما ألم بنا، فنحن نعتبر السياسة البريطانية هي عدونا الأول، وردًا على قولك إن الزمن لا يعمل لصالحنا، فهو يعمل لصالحنا بالفعل، فنحن نكافح من أجل قضية عادلة، وإننا نطالب بالجلاء المشروط.

وفي كتاب آخر إلى اللورد كارادون، ممثل بريطانيا في مجلس الأمن، في ١٩٦٧، وما تلاها، في أثناء زيارته، أيضًا، للقدس، في ١٣ فبراير/ شباط ١٩٧٣، طالبًا البديري منه أن يستمع إلى رأيه بمحمل حسن النية، دون نية لتجريح. حيث إنه قام بدور كبير في العدوان الغاشم، والتهجير طيلة سنوات قضاها في فلسطين. كما وجه إليه سؤالًا: فقد جاء لينقل رغبات الشعب إلى العالم، وبريطانيا، والولايات المتحدة. سائلًا إياه: ألا تعرف، طيلة سنوات قضيتها هنا، في فترة الانتداب، مطالب الشعب، وموقفه من «وعد بلفور»؟! مطالبا إياه وبلاده بوضع حد لهذه الفاجعة، والتي هم سببها. وتساءل البديري لماذا لا يستخدمون الأساليب ذاتها التي استخدموها مع الفلسطينيين، عندما قطعوا «وعد بلفور»، لتنفيذ قرار مجلس الأمن؟!

بعد ستة أشهر، قدم إلى القدس د. كورت فالدهايم، السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة، لتقصي الحقائق، فنشر «البديري» كتابًا مفتوحا ثالثًا في «جريدة القدس» بتاريخ ٣٠ أغسطس/ آب ١٩٧٣، جاء فيه أنه لا فائدة مرجوة من هيئة الأمم. فما يحدث في العالم، تحت مرأى ومسمع منها وهي لا تبدي حراكًا، بل أكثر من ذلك، فهي التي أوجدت إسرائيل. وأكد في النهاية على رفض تسوية أساسها الإبقاء على إسرائيل كما هي. فقد تعلم العرب بأن الحقوق تؤخذ، لا تُعطى، وتنتزع ولا تُستجدَى، وأن مفتاح حل الأزمة في أيدي العرب، أنفسهم، خاصةً عرب فلسطين.

في أكتوبر/ تشرين الأول، حدثت المعجزة التي هزت إسرائيل، وتفوق الجيشان المصري والسوري على الصهاينة، بإمكانياتهم، ولكن توقفت مصر عن مطاردة العدو فجأة، وبدأت المكيدة لتفرقة العرب، وشق صفهم. وانعقد بعد ذلك مؤتمر القمة العربي في الجزائر، مقرًّا، بالإجماع، الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلًا وحيدًا للشعب الفلسطيني، وأصدر البديري بيانًا، منع من النشر رقابيًّا، في جريدة «الشعب» المقدسية، بعنوان «البيان والشعب» وكان البديري قد عرض أمر البيان على الشخصيات الفلسطينية في الضفة، لكنه لم يلق استجابة. وكان «البديري» يرى التوجه إلى منظمة التحرير، مطالبا تمثيلها للشعب في أية مفاوضات، وإقامة دولة فلسطينية ذات سيادة، وحكومة في الجزء المتحرر من الأرض، كخطوة، ولا تكون لها علاقة بإسرائيل، أو جسرا بينها وبين الدول العربية.

أعاد صاحبنا الكتابة في ١٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٣، فيما يخص المؤتمر المزمع عقده في جنيف للسلام، بعنوان «دورنا بإزاء التطورات الأخيرة» وتساءل: هل يشترك العرب أم يمتنعوا عن هذا المؤتمر؟، مع التأكيد على أن مصير أي قطر عربي مرتبط بمصير باقي الأقطار العربية الأخرى، ومن هنا لا يصح لأي قطر الانفراد بتقرير مصيره، أو مصير أي قطر، دون التشاور مع باقي الأقطار.

وجه البديري الكتاب المفتوح إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، بتاريخ ١٦ يونيو/ حزيران ١٩٧٤، لفت نظر نيكسون إلى مبادئ لحل المشكلة، حلًا عادلًا، وهي ألا تكون المنطقة العربية منطقة نفوذ لأحد غيرها، وأن الشعوب هي صاحبة الحل والربط، وأنها تصر على أن تكون سيدة نفسها. كما أن المنطقة من المحيط إلى الأطلسي غربًا، إلى الخليج العربي شرقًا، عربية خالصة، وأن الشعوب العربية لا يمكن المقايضة عليها، ففلسطين عربية، وجزء لا يتجزأ من الوطن العربي.

نشر البديري في جريدة «القدس» مقالًا بتاريخ ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٤، بعنوان «نحن الآن أقوى فلنحذر ضياع قضيتنا»، وفيها علق على محاضرة للأستاذ أنور نسيبة، وأكد البديري بأن الاتفاقات والمواثيق الدولية لا تلزم إلا الأطراف المتعاقدة، أو الدول التي تنضم إليها فيما بعد، وعليه فإن «وعد بلفور» يعد باطلًا، وكذلك الانتداب، فليست فلسطين طرفًا فيهما، بل إنها قد استنكرتهما أيضًا، وبالمثل قرار التقسيم، وقرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢). كما اختلف البديري مع نسيبة في أننا الآن في موقف ضعف بعد حرب ١٩٦٧، ولا يمكننا الحديث عن حل نهائي للمشكلة، فنحن، الآن، في موقف قوة.

كتب البديري مقالًا آخر لفضح مؤامرات وزير خارجية الولايات المتحدة كسينجر، وكيفية إحباطها، في ٢٥ مارس/ آذار ١٩٧٥، حيث قال: إن علينا تدارس الأمر، قبل الذهاب إلى جنيف. فهناك مبادئ أساسية، يجب العمل على تحقيقها، وهي الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة، والانسحاب الفعلي، والفوري، من جميع الأراضي العربية، خاصة القدس، وغزة، وهضبة الجولان، وسيناء. وسبيلنا لتحقيق ذلك وضع الولايات المتحدة في خيار بين دعمها لإسرائيل، ومصالحها في العالم العربي كله كوسيلة للضغط عليها. وهناك وسائل للضغط على الولايات المتحدة منها قطع البترول، وعدم استثمار أو توظيف الأموال العربية في الولايات المتحدة، فضلًا على مقاطعة بضائعها، وقطع العلاقات الدبلوماسية معها.

في يونيو/ حزيران ١٩٧٥ أجرى لويس مارتون صاحب مجلة «إسرائيل ـ فلسطين» حديثًا مع البديري لمعرفة

رأيه في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وطرق حله، وفيه شدد البديري على أن الحل يتم على ثلاث مراحل: **الأولى**: انسحاب إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وإقامة اتحاد فيدرالي يضم فلسطين، والأردن، وسوريا. **الثانية**: الانسحاب إلى حدود ١٩٤٧، والاعتراف بالشعب الفلسطيني، وحق اللاجئين في العودة، فضلًا على إقامة اتحاد يضم، بالإضافة إلى السابق، لبنان، والعراق، ومصر، وليبيا، والجزائر، واعتراف إسرائيل بإقامة حد أدنى من العلاقات. **وأخيرًا المرحلة الثالثة**: وفيها تتخلى إسرائيل عن الصهيونية، والعنصرية، مع دمجها في اتحاد شرق أوسطي عربي كعضو متساو في الحقوق والواجبات.

كما كتب البديري عارضًا المبادئ الأساسية لحل القضية في جريدة «القدس» في ٤ فبراير/ شباط ١٩٧٧، وهي ما ذكره مسبقًا، وزاد على أن الوسيلة لتحقيق ذلك هو تأكيد منظمة التحرير الفلسطينية على حقها، التي حاول الكثيرون طمسها، وأن تقوم المنظمة بالتنسيق مع الدول العربية المشتركة في مؤتمر جنيف، ورفض أية تسوية منفردة، وتعبئة طاقات الشعوب العربية لدعم الجبهه ومساندتها، فضلًا على القيام بحملة مكثفة لكسب تأييد القوى المحبة للحرية والسلام، في العالم أجمع.

جاء موعد زيارة الرئيس السادات البائسة للقدس، وكتب البديري معلقًا عليها بعنوان «مبادرة سلام أم مبادرة استسلام؟» في «القدس» في ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧ (يوم الزيارة نفسه)، وفيها استغرب قبول السادات هذه الزيارة تحت نير احتلال، وفي حراسته، أيضًا، خاصة بعد إعلان مناحم بيجن رفض التنازل عن أي جزء من أرض فلسطين المحتلة، واعتبارها «أرضًا إسرائيلية محررة»!، كما أكد البديري على المبادئ نفسها مرة أخيرة، لكي يدرك السادات عدم التنازل عنها. علق صاحبنا على خطاب السادات، وبيجن، قائلًا: إن مجيء السادات هو تنازل، وخروج على الإجماع العربي، وإن خطابه جاء مخيبًا للآمال، وكان خاليًا من المبادئ الأساسية، ومنها رفض الاستيلاء على أي أراض بالقوة، أو بغير القوة، وعدم تحديد الممثل الشرعي للفلسطينيين، «منظمة التحرير». وبتاريخ ١٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٧، كتب البديري مقالًا آخر، بعنوان «والآن ماذا؟» وفيها تساءل ماذا يمكن أن نفعل؟، ورأى بأن الحل هو عدم الاستسلام، وتوطيد أواصر الوحدة الوطنية، ناهيك عن سياسة الضغط على الولايات المتحدة. «فهذا هو البديل لاسترداد حقوقنا وكرامتنا».

رأى البعض بأن الحركة الفلسطينية دائمة الرفض لكل الحلول التي تعرض عليها، وكتب البديري موضحًا حقيقة الأمر، في ١١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٨، في جريدة «القدس»، حيث إن الرفض كان لعدم ملاءمة الحلول، وتحيزها لجانب إسرائيل، وأن أي تعديل فيها من قبل الحركة الفلسطينية كان يقابل بالرفض.

ألقى البديري محاضرة في «نادي الخريجين العرب»، بعد عقد «اتفاقية كامب ديفيد» محللًا إياها، في ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٨، ساردا لحقوق الشعب الفلسطيني، والعربي، وحقه في رفض كل ما يتعارض مع حقوقه، ثم بدأ يحلل اتفاقية كامب ديفيد الأولى المسماة «إطار للسلام في الشرق الأوسط» وهي لا تعترف بالشعب العربي الفلسطيني كله، كوحدة، وتحاول شق صفوفه، وتشريده أبناء الشعب الفلسطيني في أرجاء العالم، وتقصر حقه على الإدارة الذاتية، وعدم الاعتراف بالممثل الشرعي له، وإغفال موضوع القدس. وفرض إطار للمحادثات في ظل ما سبق[١٤].

أما اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل (سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨)، فهي تسمح باحتلال بعض أجزاء مصر ثلاث سنين بعد المعاهدة، وتنتقص من سيادة مصر، وتفرض عليها الاعتراف بإسرائيل، فضلًا على أنها تفرض على

مصر نزع السلاح من أجزاء كبيرة من سيناء، وتعزل مصر عن العالم العربي، كما تضعف مصر في مواجهة إسرائيل، وأخيرًا فهي تشكل طعنة في قلب القضية الفلسطينية، والقضايا العربية. والحل في هذا الوضع هو عدم الاستسلام، وإعادة وحدة الصف العربي، والهدف العربي، أيضًا، واستخدام وسائل الضغط التي في أيدي العرب.

كما علق البديري على إبرام المعاهدة المصرية الإسرائيلية، الموقعة في ربيع ١٩٧٩. فكتب صاحبنا في جريدة «القدس» بتاريخ ١ أبريل/ نيسان ١٩٧٩ مقالًا بعنوان «لا عذر بعد اليوم»، مسلمًا لقد وقع المحظور، وسددت الطعنة الغادرة إلى قلب الأمة العربية، دون جدوى من التحذيرات، أو الدعوات إلى التعقل والتبصر، حرصًا على وحدة الصف العربي. فالعرب جميعا يرون في هذه الاتفاقية خيانة للأمة العربية، ومؤامرة عليها. ويرى البديري بأنها بفعل الطرف الأمريكي، العدو الأساسي، مؤكدا على أنه يحق لكل أمة عزل ومقاطعة كل من يخرج على إجماعها، ويشق وحدتها، أو يخونها. فنحن لسنا ضعفاء، بل نحن الأقوى، حيث إننا على حق، وهم على باطل، كما أننا نملك أموالًا وطاقة تمدنا بأسباب القوة، فضلًا على اتساع رقعة بلادنا، وازدياد عزلة أعدائنا. ويجب أن يرتقي العرب إلى مستوى المسؤولية، موقعين عقوبات على الخارجين عليهم، ومدبري هذه المؤامرة، وقد سبق عرض وسائل الضغط التي يمكن توقيعها على الولايات المتحدة بهذا الشأن.

في حفل تكريمي، بمناسبة مرور خمسين عامًا على تخرج أطباء القدس، ألقى البديري كلمة عن رأيه في الطب، رابطًا بين مهنة الطب، وبين التمسك بالوطن، «فلا يمكن توفير حياة كريمة صحية للإنسان دون توفير الاستقلال، والسيادة. لذلك يجب أن يؤمن للطبيب مستوى عال للمعيشة، يعصمه من الاتجار بمهنته، ويمكنه، أيضًا، من تقديم الخدمات المجانية».

وجه البديري كلمة في جريدة «القدس»، بتاريخ ٢١ يوليو/ تموز ١٩٧٩، بعنوان «الأرض.. الأرض» بمناسبة عقد مؤتمر التنمية في القدس، قائلًا: إن مشكلتنا الحقيقية هي: إما أن نكون أو لا نكون؛ لذا علينا تكريس جهودنا للتشبث بالأرض، والحيلولة دون انتزاعها، وعدم النزوح عن الوطن.

في أوائل عام ١٩٨٠، وبمناسبة بحث الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قضية فلسطين، وتوصيات «لجنة العشرين»، كتب البديري «فذكّرْ إن نفعت الذكرى»، مؤكدًا على ما سبق، وكتب عدة مرات برفض المساومات، والشروط التي ينبغي أن نصر عليها، حتى نحقق طموحاتنا الوطنية.

في مؤتمر وزراء الخارجية العرب، الذي تم عقده في عمان، في صيف ١٩٨٠، تمهيدًا لمؤتمر القمة، كتب صاحبنا بخصوص فتح الجسور أو إغلاقها: «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم»، ويقصد به فتح الحدود بين الضفة الغربية المحتلة، وقطاع غزة من جهة، وبين الأردن وبقية الدول العربية من جهه أخرى. حيث يرى البديري هنا بأن إغلاق الجسور يؤدي إلى زيادة النقمة على الاحتلال، وتصعيد المقاومة، ويقلل الهجرة من البلاد، أما فتح الحدود فسيؤدي إلى زيادة الهجرة، و«التطبيع» مع الاحتلال، فضلا على تعزيز الاقتصاد الإسرائيلي، وانتعاشه.

تم قصف المفاعل النووي العراقي، صيف عام ١٩٨١، في يونيو/ حزيران، وبهذه المناسبة كتب البديري في ١٠ يونيو/ حزيران ١٩٨١: «رب ضارة نافعة» في جريدة «القدس»، أيضًا، ذاكرًا عدد المرات التي صدم فيها العرب،

من جراء أفعال أعدائهم، في حرب ١٩٥٦ في قناة السويس، ثم في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وثالثة في رمضان ١٩٧٣، وتحول الهزيمة إلى نصر، منتهيًا باتفاقية كامب ديفيد، وأخيرًا ضرب المفاعل النووي العراقي، ولعل في ذلك خيرًا في إفاقة العرب، وتفتيح أعينهم على ما يبيت لهم. وفي حينه أشار البديري إلى ضرورة وقف الحرب الإيرانية ـ العراقية، حيث إن المستفيد الوحيد منها هو الأعداء.

ينتهي صاحبنا إلى القطع بأن الخطأ الأساسي كان هو تجزئة الوطن العربي، وانفراد كل دولة في الدفاع عن نفسها، متناسية باقي الدول الشقيقة، فضلًا على عدم الاهتمام بالأصل، مع التركيز على الفرع، فالأصل في العداء هو الإنجليز، والأمريكان، والفرع هو الصهيونية، والتي تم زرعها في قلب الوطن العربي، كشوكة وعامل مساعد، ويد لذلك العدو، وحرص العرب لحل مشاكلهم كل على حدة، متوهمين أن بإمكانهم الاستفادة من الولايات المتحدة، أو إنجلترا، كل على حساب الأخرى، ناسين بأنهم وجهان لعملة واحدة، يختلفان، وسرعان ما يتحدان، إذا ما هبت ثورة حقيقية، لإخمادها؛ لأن في ذلك صالحهما. وتعامل العرب معهم بحسن نية، وكان الضروري، والصحيح مقاطعتهم، وعدم التعامل معهم، وغلق أسواقنا في وجوههم.

أما آن الوقت لأن يفيق العرب، ويستيقظوا، ويدركوا بأنهم منذ الأزل أمة واحدة غير مفتتة، وأن هذا التفتت إنما هو من صنع الاستعمار؛ لأن فيه مصلحته؟!

أما آن الأوان لأن يدرك زعماء العرب المخاطر المحيطة بأمتهم، وأن الحرص على الوطن أهم من الحرص على الكرسي، وأن المصلحة الخاصة لهم ترتبط بالمصالح العامة لشعوبهم؟!

أما آن الأوان لإدراك أن ما وصلنا إليه من تفكك هو لإضعافنا حتى لا نكون قوة في وجه أعدائنا، يفعلون بنا ما يشاءون؟!، قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، فأين نحن من هذا الاعتصام؟!

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) الحرب العالمية الأولى تسمى الحرب العظمى، أو الحرب التي أنهت جميع الحروب، وقد قامت في أوروبا ثم امتدت لباقي دول العالم خلال أعوام ١٩١٤: ١٩١٨ .

(٢) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية/ المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة**، القاهرة، دار الحكمة، ط١، ص٧، ص٨، ٢٠٠٠.
ـ هنري كتن، **القدس**، ط ١، دار كنعان للنشر، دمشق،١٩٩٧، ص ٢١ .

(٣) إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دار الجليل، ط٣، دمشق، ١٩٨٤، ص ٥٣ : ٦٥.
ـ نقولا الدر، **هكذا ضاعت وهكذا تعود/ دور النفط والمدفع في تحرير فلسطين**، بيروت، ط٢، ١٩٦٤، ص ١١ : ١٥.

(٤) اللجنة التنفيذية العربيه انبثقت عن المؤتمر الوطني الفلسطيني، الذي انعقد، دوريًا، مرة كل سنة، وقادت اللجنة الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى العشرينيات.

(٥) الثورة السورية الكبرى، انطلقت في سوريا عام ١٩٢٥ ضد الاستعمار الفرنسي، أو ما يسمى، دوليا، بالانتداب الفرنسي، وهي أعظم الثورات، والتحركات الشعبية الثورية التي حدثت في تاريخ سوريا أثناء فترة الانتداب الفرنسي.

(٦) الثورة الريفية، بقيادة الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهي كفاح مسلح ضد فرنسا وإسبانيا بسبب احتلالهما للمغرب، وبدافع تحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار.

(٧) **هبّة البراق**: هي شرارة فجرتها تظاهرة استفزازية، قام بها بعض اليهود، قرب الحرم القدسي الشريف، مطالبين بالحائط، هاتفين «الحائط لنا»، وفي صلاة الجمعة التالي تحولت الصلاة إلى تظاهرة خرج فيها المصلون خوفًا على مقدساتهم، وفي الجمعة التالية، كان المولد النبوي، فخرج المصلون مسلحين بالعصي والسكاكين، واشتبكوا مع جمهرة من اليهود، فتدخلت القوات البريطانية لفضها، مستخدمة المصفحات، والطائرات، ثم امتدت المظاهرة لتشمل كافة المدن الفلسطينية، وكانت الهبة بمثابة الثورة الفلسطينية الأولى.
ـ كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩**، ط٢، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الليبية الشعبية الاشتراكية ص ٣١٤، ٣١٥.
ـ عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

(٨) عز الدين القسام، باعث شرارة الثورة الفلسطينية، ولد في جبلة سوريا، سنة ١٨٧١، شارك في الثورات ضد الفرنسيين، فحكم عليه الديوان السوري بالإعدام، فأفلت منه إلى فلسطين، واستقر بحيفا، وكان إمامًا وخطيبًا ومأذونا، ومن خلال عمله، أخذ يحث الناس على الجهاد، حتى استشهد على أيدي قوات الانتداب، بعد حصاره رافضًا الاستسلام، داعيًا إلى الشهادة في سبيل الأرض.
عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث، بيروت، مايو/ آيار ١٩٧٥، ص١٤٨ : ١٥٩.

(٩) **المرجع نفسه**، ص ١٨ ، ١٩ .

(١٠) **المرجع نفسه**، ص ٢٠ .
ـ توما، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٧٧، ص ١٩٥.

(١١) مؤتمر بلودان الثاني (١٩٤٦): أعلنت بريطانيا استمرار الهجرة اليهودية رغم انتهاء المدة المحددة في الكتاب الأبيض، فاجتمع مجلس الجامعة العربية اجتماعًا استثنائيًا للنظر في تقرير لجنة التحقيق، والخطة العربية، إزاء الوضع الفلسطيني في مدينة بلودان، وكان الاجتماع على مستوى رؤساء حكومات، ووزراء خارجية، ودفاع لإسباغ مظهر القوة عليه، ومن أهم الشخصيات التي حضرت الاجتماع جمال الحسيني، أحمد الشقيري (فلسطين)، رياض الصلح، وصائب سلام، وحبيب أبو شهلة سعد الملة (لبنان)، سعدان الجابري، فارس الخوري، لطفي الحفار، جميل مردم بك (سورية)، حمدي الباجة جي (العراق)، محمود فهمي النقراشي، مكرم عبيد، محمد حسين هيكل، حافظ رمضان (مصر)، عبد الرحمن عزام أمين عام جامعة الدول العربية، من رجال الإعلام محمد حسنين هيكل، مندوبًا عن «أخبار اليوم».
ـ الدر، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢١٢ : ٢١٦ .

(١٢) مؤتمر لندن(١٩٤٧): دعت بريطانيا العرب واليهود إليه لامتصاص غضب العرب، نتيجة السماح لليهود بالهجرة بعد مدة الكتاب الأبيض، وكان عبارة عن دورتين، الأولى لم توجه دعوة إلى الهيئة العربية العليا بفلسطين، وبالتالي لم تحضر، ولم تكن فلسطين ممثلة، وتم تقديم مشروعين أحدهما عربي، والآخر صهيوني، أما الدورة الثانية ففيها حضر وفد من الهيئة العربية العليا، فيما رفض اليهود المشاركة، وفيها رفضت بريطانيا المشروعين العربي، والصهيوني، وقدمت ثالثًا عرف بمشروع بيفن، فرفضه العرب، وأحالت بريطانيا القضية إلى الأمم المتحدة.
ـ ياسين، الحركة الوطنية، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٧ .

(١٣) توما، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٩٧ : ٢١٥ .

(١٤) ياسين، الحركة... **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٥ : ٦٨.

ملاحظة: المعلومات الواردة في هذه الدراسة تم الاعتماد بشكل أساسي في جمعها على كتاب الدكتور: خليل البديري، **ستة وستون عامًا مع الحركة الوطنية الفلسطينية، وفيها**، منشورات صلاح الدين، القدس، ١٩٨٢.

الفصل الرابع

كابوتشي مطران العرب

أحمد زكريا

خلافًا للكثيرين من رجال الدين، بشكلٍ عام، المسيحيون منهم وغيرهم، من مختلف الديانات، لم يكن ترسيم هيلاريون كابوتشي مطرانًا لمدينة القدس لكنيسة الروم الكاثوليك، ليعزل الرجل، دينيًّا، عن الواقع العربي الفلسطيني، الآخذ في التردي، تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، وتدَرُّج تحول الأطماع الصهيونية في الوطن السليب، تصاعدًا، وتوحشًا، بل وضع على كاهل رجل الدين، العربي، الإنسان، مزيدًا من المسؤوليات، التي تحملها بأفق الوطني، المتديِّن، المناضل، ومن منطلق مسؤولية دينية، لا تنفصل عن مسؤوليته الوطنية، وضميره الأخلاقي.

هيلاريون كابوتشي من أكثر الشخصيات المناضلة إثارة للتقدير، والإعجاب، في آنٍ. ولد في ٢ مارس/ آذار ١٩٢٢، بمدينة حلب بسوريا، واختار أن يسلك طريق رجال الدين، فالتحق بالسلك الكهنوتي، ليسير في دربه، حتى أصبح مطرانًا لكنيسة الروم الكاثوليك، في القدس، عام ١٩٦٥. وبدأ هيلاريون كابوتشي عمله في القدس، كمطران للروم الكاثوليك، قبل عامين من حرب عام ١٩٦٧، فاختلط بأهلها، وباشر مهامه الكنسية بينهم، دون تمييز، واختلط لديه ما هو ديني، بحكم واجبه، وانتمائه الكنسي، بما هو إنساني، بحكم طبيعته، وانتمائه الإنساني، فقدم خدماته لأبناء القدس، ليس بوصفه خادمًا لكنيسته، وشعبها فحسب، وإنما بصفته خادمًا لأبناء القدس، وشعبها قاطبةً.

حين يدور الحديث عن واحد من أهم رجال الدين المسيحي العرب في النصف الثاني من القرن العشرين، فلا بد أن يتداعى للذهن الدور الهام الذي جسده الكثيرون من رجال الدين المسيحي العرب، في التواصل الفكري

والثقافي، بين مجتمعاتهم الشرقية العربية، والمجتمع الغربي، حيث تمثل شهادتهم نافذة صادقة، تطل عبرها الثقافة الغربية، على الثقافات الشرقية، والعربية، بثقة، فتتبلور، عبر تلك النافذة، صورة نقية، وصادقة، عن حقيقة الشراكة الأصيلة، بين المكوِّنات الدينية والثقافية الشرقية، التي تتضافر في توافق جدلي متناسق، لتشكل ثقافة المجتمعات العربية، التي يجتمع عليها أبناء المشرق العربي، دون تمييز ديني، ثقافة مشتركة، لا تعرف النظرة العنصرية الغربية بين المكوِّنات الاجتماعية المتباينة، عرقيًا، وقوميًا، ودينيًا، حيث يحتفظ كل مكوِّن بخصوصيته الثقافية، في إطار وحدة اجتماعية، ودون نمايز فئوي اجتماعي، فيكون التجانس والوحدة الاجتماعية هو القاعدة التي تسير عليها حياة تلك المجتمعات، دون طمس أو إمحاء لخصوصية الهوية الدينية، أو القومية، أو العرقية لمكوِّناتها. الأمر الذي يحطِّم الصورة الزائفة، التي تحاول أن تروِّج لها الجهات الاستعمارية، وفي المقدمة منها المشروع الصهيوني، حول انعزالية المكوِّنات القومية، والعرقية، والطائفية الدينية العربية، وحتمية الصدام الداخلي فيما بينها، من جهة، وحتمية الصدام ما بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية، هنا تبرز أهمية الدور الذي جسَّده المسيحيون العرب، وفي الصدارة منهم رجال الدين المسيحي، الواعون لحقيقة المؤامرة الاستعمارية، فيما يتعلق بهذا الأمر، فأفسدوها، وشكلوا صخرة صلبة عززت وحدة المحتمع العربي، في مواجهة ما يحيق به من مخاطر مفتعلة، ودخيلة، على بنيته الاجتماعية المتجانسة. لهذا السبب ناصبت المشاريع الاستعمارية المختلفة العداء لرجال الدين العرب، من المسيحيين والمسلمين على حد سواء، بسبب عدم رضوخهم لتحقيق السياسات الاستعمارية، الهادفة لتفتيت وحدة أبناء الوطن العربي.

أما مدينة القدس، فكما يعلم القاصي والداني، لها مكانة روحية عظيمة، وحالة من القدسية الفريدة، عند المسيحيين والمسلمين، على حدٍّ سواء، فضلًا على قيمتها التاريخية، الثقافية، والتراثية، والوطنية لأبناء فلسطين، والوطن العربي بأسره، فيما ليس للحركة الصهيونية سوى أهمية سياسية، فحسب، وتم إسباغ أهمية دينية يهودية عليها بمبالغات من الحركة الصهيونية، تتناقض حتى مع ما ورد في العهد القديم، وفقًا لما أورده الباحثون في الكتاب المقدس، عربًا وغربيين. فالمدينة بالنسبة للمسيحيين لها قداسة، وأهمية روحية، حيث عاش فيها السيد المسيح، وكرز فيها بالإيمان، والعقيدة المسيحية المجددة، لصحيح الدين اليهودي، الذي أفسده الكهنة، في زمان رسالة السيد المسيح، كما اضطُهد فيها السيد المسيح، وصُلِب، وقُبِر، وفقًا للمعتقد المسيحي، وقام، ثم رُفع، ولا يزال، ما يعتقد أنه قبره فيها حتى الآن مدينة القدس هي المدينة التي باركها دم أول شهيد مسيحي، وهو أسطفانوس، أول الشمامسة. هي المدينة التي بكى عليها السيد المسيح، وفيها ذكريات كثيرة عن معجزاته، فيها بستان جثماني، وجبل صهيون، وجبل الزيتون، وبركة سلوام، وبيت حسدا، وكنيسة المهد، ودرب الآلام، وهي أماكن عديدة، يجلها المسيحيون، ويقدسون ترابها، وذكرياتها الإيمانية العميقة، وربما غابت هذه الحقائق عن ذاكرة العديد من المسيحيين الغربيين، تحت التضليل العقائدي، والضغط السياسي، والإعلامي، الذي تمارسه الحركة الصهيونية، على مدار ما يزيد عن مائة عام، على المجتمع المسيحي الغربي.

كما وأن للمدينة عند المسلمين درجة الاحترام نفسها، والتقديس الروحي، فعلاوة على ما ذكر بالنسبة للسيد المسيح، الذي يقدسة المسلمون كنبي، ويجلون أمه البتول مريم كإحدى ثلاث نساء، فضلهن الله على نساء العالمين، واصطفاها، ونفخ فيها من روحه القدس، لتلد السيد المسيح، بمعجزة الله وإرادته، بنص القرآن، فالمدينة، أيضًا، هي مسرى محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم أجمعين، وفيها الصخرة التي عرج منها، بمعجزة

من الله، وفيها ثالث الحرمين الشريفين، التي لا يشد الرحال إلا إليها، وقدم إليها عمر بن الخطاب، خصيصًا، ليتعهد فيها بنفسه بالأمان لأهلها، وبالحفاظ عليهم، وممتلكاتهم، ومقدساتهم، ودور عبادتهم، بل، أيضًا، لأبناء الدين المسيحي، عمومًا، ممن يعيشون في كنف المسلمين الفاتحين.

هذه هي منزلة المدينة التي تولى هيلاريون كابوتشي مطرانيتها، راعيًا لأبناء الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، هذه هي قدسيتها لدى المسيحيين والمسلمين الشرقيين، تلك المنزلة التي لا يستطيع أن يتمثلها ويدركها، إلا مطران عربي، كغبطة هيلاريون كابوتشي.

يقول كابوتشي: «العيش ليس أكلًا وشربًا، الكرامة هي الحياة، والوطن عنوانها، الفلسطينيون ليسوا مجرد لاجئين، هم شعبٌ من ستة ملايين نسمة، من حقهم، إذًا، أسوة بشعوب العالم كلها، تقرير مصيرهم، وإقامة دولتهم المستقلة، على أراضيهم المغتصبة، نحن لا نستجدي، هذا حقنا». ويكمل المطران كابوتشي بناء الجسر، بين ثقافتين، شرقية مهضومة الحقوق، وغربية، تجهل حقيقة ما آلت إليه الأمور، بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية، وقطاع غزة، في ١٩٦٧، من خلال إطلاع الرأي العام الغربي، من مقره، وعبر كتاباته، على ما آلت إليه الأحوال في فلسطين عامة، والقدس خاصة، راسمًا صورًا مؤلمة، تعافها النفوس الحرة، من أي جنس، أو لون، أو دين، فيصف مشهد القدس، في التاسع من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، قائلًا: «فيما كنا، سماحة الشيخ سعد الدين العلمي، مفتي القدس، رحمه الله، ونحن، نتجول في شوارع القدس، الخالية، بسبب منع التجول، كي نتفقد أحوال أبنائنا، لنجدة الجرحى، ولتأمين الطعام للجياع، ولتعزية الحزانى، والثكالى، والأرامل، بلغ مسامعنا عبر المذياع صوت حاخام الجيش الإسرائيلي «شلومو غورين»، يصرخ مخاطبًا الجماهير الإسرائيلية الغفيرة، المحتشدة بالقرب من حائط المبكى: (ألا افرحوا، وتهللوا، حلم الأجيال قد تحقق، لقد عدنا إلى ديارنا، لقد حررنا قدسنا، عاصمتنا الأزلية، الأبدية، هي خاصتنا) يستطرد كابوتشي: «شعرت بالألم، والمرارة، بعد أن غابت عن القدس مسحتها القدسية، ورأيت بواكير اضمحلالها، إلى أن تحولت إلى مجرد بلد سياحي، هُوِّدَت، على أن التحدي، والتعدي، بلغا ذروتهما، بإعلانهم القدس عاصمة موحدة أبدية لدولة إسرائيل»[1].

أما ما يُدمي الفؤاد، ويبكي العين، فهو مشهد الشهداء المبعثرة جثثهم على الطرقات، إذ يقول كابوتشي عنهم: «كانوا قد أنتنوا؛ لأن المحتل أصر على تركهم أيامًا تحت الشمس المحرقة، فعملنا ـ سماحة الشيخ سعد الدين العلمي وأنا ـ مع شبان متطوعين، على لملمتهم، ومن ثم دفنّاهم في حفرة واحدة، سماحته تلا صلاته، راحة لنفسهم، وأنا، بعده كذلك، دون التمييز بين مسيحي ومسلم؛ لأن دينهم بعد استشهادهم هو شهادتهم». وقد كانت الشهادة العلنية التي شهدها المطران كابوتشي، ضمن أسباب أخرى، وراء الإصرار الفاتيكاني، إزاء إحقاق حقوق الشعب الفلسطيني، في عيون الأوروبيين، والأمريكيين، والعالم كله، فالفاتيكان يتبنى مبدأ عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم، باعتبار ذلك حقًا مشروعًا لهم، أقره القرار ١٩٥، الصادر عن هيئة الأمم المتحدة، كما أن شهادة كابوتشي نبهت إلى الظاهرة الخطيرة المتمثلة في السياسة الإسرائيلية المنتهجة بهدف إفراغ القدس من مسيحييها، ومسلميها، على حدٍّ سواء، فالمسيحية اليوم في فلسطين في خطر، وعدد المسيحيين في كل فلسطين، اليوم، لا يتعدى ١٥٠ ألف مسيحي. وتساءل كابوتشي لماذا هاجروا ورحلوا عن مهد المسيح؟ ويجيب: «لأن الحياة الكريمة تحت نيران الاحتلال أمرٌ شاق، وعسير، ولا تقبله غير أنفس رجال ذوي بأس وعزم شديدين، فالذل، والهوان تحت الاحتلال من جهة،

وبحث الأهل عن مستقبل كريم لأولادهم يدفعهم للذهاب بعيدًا، بينما يبقى مسيحيو العالم مجرد متفرجين على ما يجري»[٢].

كانت هذه من أوائل المواقف الواضحة والمعروفة دوليًا عن نشاط مطران القدس، هيلاريون كابوتشي، إلا أنه هو، أيضًا، الراعي، والراعي عندما يرى الذئب مقبلًا، يضحي بحياته، دفاعًا عن قطيعه. يصرح كابوتشي، ذات يوم: «قطيعي أنا، منذ سنة ١٩٦٥، يوم دخولي إلى القدس، هو الشعب الفلسطيني، شعبٌ رأيته بأم العين تحت الاحتلال، شعبٌ مغلوبٌ على أمره، حقوقه مهضومة، كرامته مداسة، فكيف تريدوني أن أقف مكتوف الأيدي، وأنا أعتبر نفسي أبًا، وراعيًا لهذا الشعب؟».

تتجلى عنده إنسانية الإنسان بأسمى معانيها في موقفين، **أولًا**: مناصرةٌ، بحزم، وبدون هوادة، للمظلومين، والمسحوقين، والمستضعفين، والمضطهدين. **ثانيا**: التصدي للظالمين الطغاة، أيًا كانوا، ومهما بلغ جبروتهم، ومهما كبَّده ذلك من ثمن، وأي نهجٍ آخر، أو سلوكٍ مغاير، هو تهرب من المسؤولية، وغسل للأيدي، بأسلوب بيلاطس.

يتساءل الأسقف كابوتشي: «لماذا وجب عليَّ أن أجنِّد نفسي لنجدة ومساعدة هذا الشعب، مدافعًا عن قضيته المأساوية العربية الفلسطينية؟». ويجيب قائلًا: «لأنني **أولًا**: عربي، أمي ولدتني عربيًا، بلاد العرب أوطاني؛ لذا في أعماقي أشعر بأني مواطن، ابن، وخادم في كل بلد عربي. عندما أسأل عن أصلي، وفصلي، عن حسبي، ونسبي، أجيب، بافتخار، أنا عربي، نحن العرب نؤلف أسرة واحدة؛ لذا نحن أعضاء في الجسم الواحد، وبالتالي عذاب عضو واحد هو، تلقائيًا، مبعث ألم لكل الأطراف، أي عجب، إذًا، بمشاطرتي الفلسطيني العربي عذابه؟، **ثانيًا**: لأنني مسيحي، والعلامة المميزة لي، هي المحبة لأي إنسان، وكل إنسان، وبالأخص المعذب، أيًا كان دينه، مذهبه، قوميته، لغته، هو شخص تعيس، من لا يفقه معنى الحياة، وسعادتها، ولذتها في العطاء، الذي فيه، وليس في الأخذ، كل الغبطة والهناء».

ويضيف غبطته معبرًا عن نهجه المتسامح تجاه الآخر، نهجٌ تغلفه مشاعر الأخوة، ويخلو من أي نزعة عنصرية، نهجٌ يناصر الحقوق الإنسانية في مواجهة الطغاة، قائلًا: «لذلك، إبان اضطهاد النازيين لليهود، قمنا بمظاهرات احتجاج، وكتبنا عرائض تنديد؛ لأن اليهودية دينٌ سماوي نحترمه، واليهودي، المخلوق على صورة الله، هو أخٌ لنا، كما أن الكثيرين من اليهود عاشوا في عالمنا العربي، كمواطنين، لهم كل الحقوق، وما نحارب هو الصهيونية، التي بنت نفسها، ولم تزل، على أنقاضنا، حالمة بقيام إسرائيل الكبرى. إن مدى فاعليتي مسيحيًا هو بمقدار تفاعلي إنسانيًا، وعربيًا، عندما يرى الناس أعمالي الصالحة، آنذاك فقط، يمجدون أبي الذي في السماوات. **ثالثًا**: إني رجل دين، تجسيد المبادئ، والقيم، والأخلاق، من واجباتي، من مقوماتي (أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض)، هل يُعقل، إذًا، أن أتغاضى عن نجدة المعذبين، متجاهلًا ماضيهم؟، ما كنت إذن رجلًا، والدين مني براء».

هكذا، ذَكَّر المطران كابوتشي العالم الغربي بالحقائق الإيمانية الأساسية، التي كثيرًا ما غابت عن ناظريه، بل طالب الحكام، والقيادات الدينية، والدنيوية، بمطالب، أوجَزَها في «تنفيذ القوانين الدولية، التي تحرِّم، **أولًا**: احتلال أراضي الغير بالقوة، وتحتم تحريرها، **ثانيًا**: وتأمر بعدم المساس بمعالمها، **ثالثًا**: وهذا ما تنص عليه قرارات هيئة الأمم، ومجلس الأمن، من جلاء إسرائيل، إذًا، عن كافة أراضينا العربية المحتلة، في فلسطين، وفي سورية، كي نضع حدًا لعذابنا،

ومعاناتنا». والمأرب الوحيد عند المطران كابوتشي للعرب، والفلسطينيين، هو أن «نعيش عيشًا كريمًا حرًّا»[٣].

إذًا، فهذه هي رؤية المطران هيلاريون كابوتشي، وفلسفته في الإيمان المسيحي، الإيمان بالله، هو خلاصٌ لكل الناس، وخاصة المضطَهَدين، والفقراء منهم، وإن تحرير الإنسان لا يتم من خلال ممارسة طقوس معينة، يقوم بها الفرد، ولكن يتم بربط هذه الطقوس، وهذه المعتقدات، بالواقع الذي يعيش فيه عالمنا، وذلك بالتضامن مع إخوتنا في الإنسانية، والوطن، قبل أن نتحدث عن أُخُوتنا في الدين، فالحرية لا تتجزأ، والعدالة لا تكتمل إذا حصرناها في شعبٍ معين، أو جنسٍ معين، فلقد تجاوز كابوتشي النظرة التقليدية للدين، التي كثيرًا ما تجعلنا ننسى أننا عائلة بشرية واحدة، فنتقوقع على مجرد خلاصنا الفردي، أو خلاص أهل ديننا فحسب.

بهذه الرؤية، والمنهج، ندرك أن كابوتشي، كرجل دين مسيحي، كان من أوائل الذين أخذوا بما يعرف بـ «لاهوت التحرير» (Liberation Theology)، بل يمكن تأكيد أنه قد سبق الآخرين، في أمريكا اللاتينية، من واضعي تلك الفلسفة الإيمانية[*]، في الأخذ بفلسفة لاهوت التحرير كمنهج للعمل، والكرازة الدينية، منذ أن تقلَّد كابوتشي مهام منصبه الديني في القدس، عام ١٩٦٥. فمن المعروف أن «لاهوت التحرير في المسيحية هو مدرسة لاهوتية، تركِّز على أن يسوع المسيح لم يكن فقط (الـمُخَـلِّص)، ولكن، أيضًا، مُحَرِّر الشعوب التي ترزح تحت وطأة الظلم. ظهرت هذه الحركة في النصف الثاني من القرن العشرين، في الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية، تطالب بأن تطبيق الإيمان المسيحي يتم بمساعدة الفقراء، والدفاع عن المظلومين»[٤]. وذلك عبر المزاوجة بين العمل الكهنوتي والعمل السياسي، والأعمال المدنية. كما يعتقد لاهوت التحرير بأن الله يتحدث للبشرية، بشكل خاص، عن طريق المعدمين، وبأن الكتاب المقدس لا يمكن فهمه إلا من منظور الفقراء. وترى هذه المدرسة بأن الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية تختلف، بشكلٍ جوهري، عن نظيرتها في أوروبا؛ لأن كنيسة أمريكا اللاتينية كانت دائمًا من، ولأجل الطبقة الفقيرة[٥]. ويمكن القول بأن «لاهوت التحرير» هو القراءة الثورية للمسيحية، التي من خلالها أعاد بعض آباء الكنيسة الكاثوليكية، في أمريكا اللاتينية، قراءة المسيحية، لمصلحة الفقراء، والمعدمين، والمظلومين، والمهمشين، في ضوء اتجاه الكنيسة لإعادة تكييف علاقتها مع المجتمع. وهي بذلك تمثل انقلابًا لاهوتيًّا، أدى إلى توسيع مجال الإيمان، بحيث يشمل المسؤولية تجاه الواقع، وتغييره، متجاوزًا تغيير وإصلاح الضمير، والنفس، وحسب، وذلك من خلال قراءة تؤكد على أن «الخلاص لا يكون بالتحرر من الخطايا فحسب، بل بكل أشكال التحرر الأخرى، بما فيها التحرر السياسي والاقتصادي». وهي قراءة تزاوج بين الخلاص، وتحرر الإنسان، وبين الإيمان، والعمل السياسي، وبين ملكوت الله، وبناء العالم، وقد ظهرت حركة (لاهوت التحرير) في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، حين كانت الأنظمة الشمولية، والعسكرية تسيطر على معظم دول أمريكا اللاتينية (بيرو/ شيلي/

(*) يؤرَّخ لولادة «لاهوت التحرير»، عادةً، مع بداية المؤتمر العام لأساقفة أمريكا اللاتينية، في كولومبيا، عام ١٩٦٨، حيث أصدر الأساقفة في هذا المؤتمر وثيقة أكدت على حقوق الفقراء، وقالت بأن الدول الصناعية الكبرى قد اغتنت على حساب دول العالم الثالث. وقد كتب النص الأساسي لهذه الحركة (لاهوت التحرير – liberación Teología de la)، عام ١٩٧١، بيد غوستاف غيتييرز، وهو قسيس ولاهوتي من البيرو. وكان من أبرز وجوه الحركة رئيس أساقفة السلفادور، أوسكار أرنولفو روميرو (اغتيل عام ١٩٨٠)، واللاهوتي البرازيلي ليوناردو بوف، والأب اليسوعي، جون سوبرينو، ورئيس الأساقفة هيلدر كامارا من البرازيل، وأوسكار روميرو، كبير أساقفة السلفادور، وأهم رموز حركة لاهوت التحرير على الإطلاق، فقد كان أكثر آباء الكنيسة انحيازًا للفقراء، وهو القائل: «فالإيمان الذي يكتفي بحضور قداس الأحد، ويرضى بالظلم باقي الأسبوع لا يقبله الله». وغيرهم كثيرون من رجال الدين المسيحي في أمريكا الجنوبية.

أوروجواي/ الأرجنتين/ البرازيل)، كما لم تكن دول أمريكا الوسطى، أيضًا، تختلف عنها كثيرًا، حيث كانت حروب العصابات، ومواجهات الحرب الباردة تعم كولومبيا، وفنزويلا، ونيكارجوا، فكانت هناك حالة من القهر، والاستبداد، تسيطر بها السلطات العسكرية الشمولية على شعوبها التي كانت ترزح تحت نير الجهل والفقر، وكان ثمة تحالف غير معلن يكرِّس هذه الأوضاع بين القوى الرئيسية المسيطرة على هذه البلاد، وهى: الطبقات الحاكمة التي ارتبطت، بشكلٍ سافر، بمصالح القوى الاستعمارية الإمبريالية المركزية في العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة، وكبار الملاك والإقطاعيين، الذين ارتبطت مصالحهم بالرأسمالية الأمريكية، بالإضافة إلى عددٍ من كبار رجال الكنيسة الذين كانوا بمثابة ضمان لاستمرار، وتكريس، هذه الأوضاع الظالمة، حتى صار الفقر، والظلم الاجتماعي كأنه قَدَر ينبغي للمؤمنين أن يحافظوا عليه![٦]. وانتشر دعاة «لاهوت التحرير»، من آباء الكنيسة الكاثوليكية في معظم مناطق أمريكا اللاتينية، فكان «ليوناردو بوف» في البرازيل، و«بابلو ريتشاردز» في شيلي، و«أوتومادور» في فنزويلا، و«خوان لويزسيجوندو» في أوروجواي، و«خافيير جورستياجا» في نيكاراجوا، لكن ثمة أعلام بارزة لحركة لاهوت التحرير، يُنسب إليها صياغة مبادئ الحركة وأفكارها الرئيسية، ويعتبرها الكثيرون بمثابة الآباء المؤسسين للاهوت التحرير، وعلى رأس هؤلاء يأتي القس الكولومبي «كاميللو توريس»، ورغم أنه كان ينتمي، في بدايته، لأسرة عريقة وثرية، في بوجوتا العاصمة، وتعلَّم في أوروبا، ونال من بلجيكا الدكتوراه في علم الاجتماع، فإنه انقلب فكريًّا، تمامًا، بعد الدراسات الميدانية التي أجراها لحياة الفقراء، خاصة في الريف الكولومبي، فأصبح ثوريًّا، راديكاليًّا، وشكَّل، سنة ١٩٦٥، «الجبهة الواسعة»، وهي تحالف سياسي يسعى للاستجابة لمتطلبات غالبية أهالي بلاده، فكانت النتيجة طرده من الحياة السياسية، والدينية، أيضًا، والأمر الذي دفعه للانضمام إلى جيش التحرير الوطني المسلح[٧]. وفي رأي الأب وليم سيدهم فإن:

- منهج لاهوت التحرير يعني التركيز على تضامن الله، وخلاصه لكل الناس، وخاصة الفقراء منهم.
- لاهوت التحرير مبنيٌّ على المسيح الذي نادى بتحرير الفقراء، وشفى منهم المرضى، والعميان.
- لاهوت التحرير مبنيٌّ على قراءة جديدة للإنجيل، مرتكزة على العلوم الاجتماعية، والدراسات اللغوية.
- لاهوت التحرير يدفع الإنسان، سواءً كان مسيحيًّا، أو مسلمًا، أو بوذيًّا، لكي يكون نموذجًا للإنسان الملتزم بقضايا المجتمع، كل فرد حسب إمكانياته، وجهده.
- لاهوت التحرير ينادي بأن الله موجودٌ، وحيٌّ في التاريخ، وموجودٌ من خلال أشخاصٍ آمنوا به.
- لاهوت التحرير ساعد على المناداة بحق الإنسان في التعليم، وممارسة حقوقه السياسية، والصحية، والاقتصادية، كاملة[٨].

إنها الأفكار نفسها التي يتبناها المطران كابوتشي، أفكار الإيماني المسيحي بالله، وبالحق الإنساني للبشر المحرومين، حين التقت بوجدان كابوتشي، وبانتمائه الوطني العربي، وخصومته المبدئية مع الظلم، والعدوان الصهيوني، تلك هي الأفكار التي وقفت دافعًا له، حين التقت إرادته بإرادة المقاومة الفلسطينية، باعتبارها مترجمًا حقيقيًّا لإرادة تحرير الإنسان، التي تعتمل داخل أبناء الشعب الفلسطيني، وبالقدر نفسه كانت تعتمل داخل نفس المطران الثائر كابوتشي،

وعبر السنوات من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٤، قدم كابوتشي لكنيسته، ولشعبها، وللشعب الفلسطيني، وللوطن المحتل، وللمقاومة الفلسطينية الكثير، ويقول عنه «يعقوب بيري»، رئيس جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي الأسبق، في كتابه الشهير «الآتي لقتلك، استبق واقتله»(*): «كان يجهر بالحديث ضد الاحتلال [الإسرائيلي] للمناطق [المحتلة]، وكثيرًا ما بادر إلى تنظيم مسيرات. وبعد موت الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر، وقّع على عرائض تدين الاحتلال [الإسرائيلي]، وكان يوزّع الأموال على أسر (المخرَّبين) الذين قتِلوا، وهو الذي اقترح فكرة تشكيل لجنة سريّة، تقوم بتنظيم المعارضة المكثّفة للاحتلال، وأيّد فكرة منع العمّال العرب من المناطق المحتلة من العمل في (إسرائيل)، وقال: «من الأفضل للعربيّ أن يأكل الخبز فقط، من قيامه بخدمة الإسرائيليين».

في شهر مايو/ آيار ١٩٧٤ اكتشف جهاز «الشين بيت» جهاز الأمن العام (الإسرائيلي)، ثلاثة صواريخ كاتيوشا، قرب حي أرمون هنتسيف، بجنوب شرق أورشليم ـ القدس، موجَّهة، وجاهزة للإطلاق، باتجاه وسط المدينة، وقبل ذلك بيوم، اكتُشفت في القدس، أيضًا، عبوة ناسفة، مكوَّنة من ثلاث قنابل «بازوكا»، وفي الشهر ذاته جرى اعتقال ثلاثة أشقاء من عائلة «ملاعبة»، كانوا وراء سلسلة عمليات مقاومة ضد الاحتلال، بينها قتل سائق سيارة أجرة، وتفخيخ سيارته. وتبين انتماؤهم إلى حركة «فتح»، وبحصولهم على وسائل قتالية عديدة، عبر مخبأ سري، في مدرسة تعود للكنيسة اليونانية الكاثوليكية، في حي بيت حنينا، قاموا، فيما بعد، بإخفائها في ثلاثة مواقع أخرى.

تعزز لدى «الشين بيت» جهاز الأمن العام (الإسرائيلي) الاعتقاد بأن نقل الأسلحة المستخدمة في العمليات الأخيرة يتم عبر معابر حدودية رسمية، وبواسطة أشخاص يحق لهم المرور دون الخضوع للتفتيش، مثل مستخدمي الأمم المتحدة، والدبلوماسيين، ورجال الدين من الكنائس المسيحية. غير أن هذا الاعتقاد لم يكن كافيًا؛ لذا واصل الجهاز عمله الاستخباري لتعقب مصدر الأسلحة، وآلية نقلها.

من جانب آخر استطاع جهاز «الشين بيت»، وفي فترات سابقة، دس أحد العملاء له على أحد القادة الفلسطينيين، حيث تقدم ذلك العميل بمعلومات خطيرة خلال تلك الفترة، ووفقًا لرواية «يعقوب بيري»، رئيس الشاباك (الأمن الداخلي الإسرائيلي) الأسبق، والذي كان يشغل، في تلك الفترة، منصب رئيس جهاز الشين بيت في القدس، والواردة في مذكراته، كان هذا العميل مدرسًا يسكن في جبل المكبِّر، بالقرب من قصر المندوب السامي. وتم تلفيق تهمتين له، هما أنه المسؤول عن حادثين وقعا في القدس: أحدهما حريق شبّ بالقرب من مصنع للورق في حيّ روميما بالقدس، والثاني انفجار عبوة ناسفة بالقرب من منزل نائب مأمور ضريبة الدخل. ثم تم إرسال العميل إلى بيروت، بعد أن تم تزويده بالمعلومات اللازمة، حيث اجتمع مع قائد منطقة القدس في القطاع الغربي من حركة «فتح»، (أبو فراس). وادعى العميل أنه، وبمبادرة شخصية، قام بتنفيذ العمليتين سالفتي الذكر. لم يكن من طبيعة أبي فراس تصديق قصص من هذا النوع، ولكنه صدّق ما رواه العميل، في هذه المرة، فدفعه أبو فراس إلى العمل في صفوف «فتح»، وفقًا لما أورده بيري في مذكراته، مفسرًا ذلك بوجود ضغط على مجموعات المقاومة الفلسطينية بالداخل، نتيجة نقص السلاح، الذي تسبب فيه تشديد جهاز «الشين بيت» لعملياته ضد المقاومة، ما أفقدها الجزء الأكبر من

(*) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله، عن الموقع الإليكتروني:
http://www.palestine-info.info/arabic/books/alkadem/kadem13.htm

مخزونها اللوجستي من السلاح والذخيرة. وطبقًا لما أورده بيري، كان «أبو فراس» هو الاسم الحركيّ لمصطفى عيسى اللفتاوي، وهو شخصية قوية، من مواليد القدس، وتولى منصب محافظ منطقة رام الله من قبل السلطة الفلسطينية، فيما بعد، وقد اشتهر عنه، في تلك الأيام، أنه من كبار قادة التنظيمات الفلسطينية، منضبط، ذكي، قويّ الشخصية. ويعزو إليه بيري تنظيم عدد كبير من عناصر المنظمة، وإدخال وسائل قتالية إلى المناطق المحتلة، من الأردن، وسورية، ولبنان، مستخدمًا وسائل مختلفة جيدة التمويه، والتخفي. كما حمَّله «بيري» مسؤولية عدد من العمليات المسلحة، والتفجيرات الشديدة، التي نفَّذتها المقاومة في إسرائيل. في السادس من يونيو/ حزيران ١٩٧٤، وبناء على مكالمة هاتفية، حضر يعقوب بيري، مدير جهاز «الشين بيت» في القدس إلى شقة (بيت آمن)، كان يستخدمها ضباط الجهاز للاجتماع بعملائهم وجواسيسهم على المقاومة الفلسطينية، وتعود تلك الشقة، الكائنة في مبنى قديم عند مداخل مدينة القدس، لوالد أحد عملاء جهاز الأمن العام «الشين بيت». حيث وجد العميل المشار إليه بصحبة ضابطين من «الشين بيت»، هما مركز اللواء «روني»، ومركز المنطقة «شلومو»، كان العميل قد عاد، لتوِّه، من دمشق، وروى أنه اجتمع مع أبي فراس، الذي اصطحبه إلى كراج، يقع في إحدى ضواحي دمشق، ودخلاه من فتحة جانبية. حيث كانت تقف سيارة مرسيدس حديثة، انشغل عددٌ من العمال بتفكيك قطعها. فطلب أبو فراس من العميل «أن يتعلّم التفاصيل الكاملة للعمل الذي يجري على السيارة». بعد ذلك قال أبو فراس للعميل، إن هذه السيارة ستتوجّه إلى القدس، وهي تحمل أسلحة، وذخيرة مخبأة بداخلها. وعند وصولها إلى القدس، سيكون عليه القيام بإخراج السلاح منها، وتسليمه إلى عناصر المقاومة هناك، وأنه سيتم تزويده بأوامر بهذا الخصوص، لاحقًا. مكث العميل لمدة ثلاثة أيام في الكراج، حيث تعلَّم، عن كثب، كيفية إخفاء السلاح في السيارة. كانت الأسلحة مكوَّنة من الرشاشات، والذخيرة، والقذائف، والمواد الناسفة البلاستيكية، وأصابع المتفجّرات، وأجهزة لتشغيل العبوات الناسفة. يضيف بيري: «وأصابتنا الدهشة، عندما علِمنا من العميل أن سيارة المرسيدس هي سيارة المطران كابوتشي، وأنها ستصل إلى القدس في اليوم التالي. جرت، على الفور، سلسلة من المشاورات العاجلة، شارك فيها عددٌ من كبار المسؤولين في رئاسة الأركان في تل أبيب. كما أسرع رئيس جهاز الأمن العام «الشين بيت»، يوسف هرملين، برفع تقرير مفصّل لرئيس الحكومة، إسحاق رابين، الذي أصرّ على معرفة مدى صحة المعلومات. وحذر رئيس الحكومة من أنه في حالة اعتقال كابوتشي، دون أسباب صحيحة، فإن ذلك سيؤدّي إلى أضرار سياسية خطيرة. ولكن هرملين أقنعه بأن المعلومات مؤكَّدة، وفي الحال استدعى رئيس الوزراء وزيرَ الخارجية يغئال آلون، ووزير الدفاع شمعون بيرس، ووزير العدل، حاييم تسادوك، لدراسة الأبعاد السياسية المحتملة بعد اعتقال أحد رجال الدين المسيحيين، من ذوي المناصب الرفيعة.

في نهاية الأمر، صدر الإذن باعتقال كابوتشي، شريطة أن يتم العثور عنده على وسائل قتالية[٩].

في السابع من أغسطس/ آب ١٩٧٤، عَبَر كابوتشي جسر اللنبي بسيارته، دون اعتراض من الإسرائيليين، وواصل طريقه إلى البلدة القديمة في القدس الشرقية، وأوقفَ سيارته إلى جانب الكنيسة الإغريقية الكاثوليكية. في هذه الأثناء أرسل جهاز الشين بيت عنصرين، رجلٌ وامرأة، متخفّيين في زيّ سائحين، حيث قام أحدهما بتصوير الآخر، على خلفية المبنى، مع حرصهما على أن تظهر سيارة المرسيدس في الصور. ولاحظ ضباط الجهاز انخفاض مؤخّرة السيارة باتجاه الأرض، مقارنةً بصورٍ سابقة، وكان الاستنتاج بأن السبب هو الحمولة الثقيلة التي

كانت محمَّلة في صندوق السيارة الخلفي، في مخابئ سرية. يضيف بيري: «وضعت رقابة حول الكنيسة. وفي اليوم التالي، في ساعات الصباح المبكرة، علِمنا من المراقبين أن كابوتشي استقل سيارته، وانطلق بسرعة باتجاه رام الله. قرّرنا المخاطرة، وإصدار الأمر بإلقاء القبض عليه. فقامت سيارة تابعة لجهاز الأمن العام بسدّ الطريق أمام سيارة كابوتشي، في طريق القدس ـ رام الله. وتوجّه رجالنا إلى المرسيدس، متخفّين في زي شرطة مدنية، واتهموا كابوتشي بأنه كان يسير بسرعة فائقة، وطلبوا منه فحص رخصة السواقة، ومستندات السيارة. وفي هذه الأثناء، قام أحدهم بفتح أبواب السيارة، وعاد وأغلقها، وانحرف إلى جانب الطريق، حيث أبلغنا، باللاسلكي، بأن أبواب السيارة ثقيلة أكثر من اللازم. وفي تلك الحالة، صدرت الأوامر باعتقاله». ثمَّ نُقِل كابوتشي، والسيارة، إلى كراج الشرطة في المسكوبية، وأحيط الكراج بحراسة مشدّدة، بعد تفريغه من السيارات الأخرى، وتم التعتيم، كي لا ينكشف أمر اعتقال كابوتشي في هذه المرحلة. وجرى تفكيك جميع أجزاء السيارة، وإخراج الأسلحة والذخائر المخبّأة بها، ومنها ٤ رشاشات كلاشينكوف، ومسدسان، وعدة طرود، تحتوي على متفجرات بلاستيكية، وصواعق كهربائية، وقنابل يدوية، وما إلى ذلك[١٠]. وفي تلك، الأثناء كان رئيس جهاز الأمن يجلس في مكاتب الشرطة، في مبنى مجاور، حيث كان في انتظار الانتهاء من العمل. في اليوم نفسه، تم إطلاق سراح كابوتشي، مع سيارته، بعدما تم إعادة تجميع أجزائها، دون ترك أية آثار. ثم تم الضغط الأمني على المطران، حيث تم وضع الحمولة (حقيبتي أسلحة زائفة)، في السيارة؛ لأنه وفقًا لتعليمات أبي فراس، كان من المقرّر أن يوقف المطران سيارته، وهي محمَّلة بالسلاح، في مكان معين، وكان من المقرّر أن يحضر العميل إلى ذلك المكان، ويأخذ السيارة، ويقوم بتفريغ الحمولة منها إلى الحقيبتين المذكورتين، وإرجاع السيارة بالحقيبتين إلى المطران، وفقًا لتعليمات مشغّليه من عناصر «فتح»، حيث يتسلم الحقيبتين فيما بعد، عناصر أخرى من «فتح». قام «الشين بيت» بمراقبة الشخص، الذي حضر لتسلم الحقيبتين، اللتين كانتا مليئتين بمواد مزيّفة. «وهكذا، تمكّنا من اكتشاف مجموعة كبيرة من (المخرِّبين) كانت الوسائل القتالية ستصل إليها»، طبقًا لرواية بيري[١١]. في الثامن عشر من أغسطس/ آب، قُدِّم المطران إلى المحكمة، لإصدار أمر باعتقاله، بتهمة تهريب السلاح، والمواد (التخريبية)، وبتهمة التعاون مع منظمات معادية (لإسرائيل). حُكِم على المطران بالسجن اثني عشر عامًا، ومنذ اللحظة التي دخل فيها إلى السّجن، بدأت موجة من الضغوط، من جهات مختلفة في العالم المسيحي. بالإضافة إلى وضع اسم المطران كابوتشي على رأس قائمة الذين طالبت المنظمات الفدائية بالإفراج عنها، كلما سنحت الفرصة، وأسر الفدائيون بعضًا من الإسرائيليين. إلا أن السلطات الإسرائيلية كانت ترفض باستمرار فكرة الإفراج عن كابوتشي، قبل انتهاء مدة محكوميته. يقول كابوتشي في هذا الصدد: «ضميري ووجداني فرضا عليَّ أن أهب لمساعدة هذا الشعب، ولقاء مساعدتي ودفاعي عن حقوقه، ألقيَ القبض عليَّ، وحُكم عليَّ باثنتي عشرة سنة سجن، قضيت منها ٤ سنوات، خرجت بعدها، بناءً على تدخل الفاتيكان، في شخص البابا بولس السادس، رحمه الله، تدخل البابا لأنني، آنذاك، كنت مضربًا عن الطعام، وقد مضى على إضرابي هذا ٣٧ يومًا، نزلت خلاله ٣٥ كيلو من وزني، وبالتالي كانت حياتي في خطر، فتدخل البابا لإنقاذ حياتي، وبعد أخذ وردٍّ طويلين بين الفاتيكان وإسرائيل، قبلت إسرائيل بإطلاق سراحي، بشرط أن أخرج دون أن أعود، وكان ذلك في ٢٠/ ٢/ ١٩٧٨م، ولم أزل، حتى هذه الساعة، أنتظر عودتي إلى وطني، إلى قدسي، وشعبي، أنتظر نهاية غربتي»[١٢]. اضطر مناحيم بيجن، رئيس وزراء الكيان الصهيوني، حين ذاك، للإفراج عن المطران كابوتشي، رضوخًا للضغوط التي مورست على الكيان الإسرائيلي

من جهاتٍ عدة، وسعيًا إلى تحسين العلاقات الإسرائيلية مع الفاتيكان، حيث تم إبعاد المطران إلى الفاتيكان. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح كابوتشي من أبرز دعاة القضية الفلسطينية في كافة أنحاء العالم. حيث عكف في منفاه على نشر الدعاية لصالح القضية الفلسطينية. وفي العام ١٩٨٨، كان من المقرّر أن ينضم إلى «سفينة العودة»، التي كانت بمثابة رمز للعودة الفلسطينية.

في فبراير/ شباط من العام ١٩٨٨، تم توجُّه ١٣٥ فلسطينيًّا إلى اليونان، الذين كانوا قد طرِدوا من المناطق المحتلة في العام ١٩٦٧. وكان بعضهم من الشخصيات الفلسطينية البارزة، مثل عبد الحميد السائح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني. وكان من المقرّر أن يصعدوا على ظهر السفينة، مع المئات من رجال الإعلام، من جميع أنحاء العالم، والوصول إلى شواطئ فلسطين المحتلة، ويطالبوا بالنزول من السفينة، ومواجهة معارضة إسرائيل، وفضح تعنتها أمام العالم، لإحراجها، إلا أن وقوع انفجار مشبوه، على سطح السفينة المذكورة، حال دون اكتمال تلك المحاولة.

في مارس/ آذار من العام ١٩٩٤، وأثناء وجوده في دمشق، اجتمع كابوتشي مع وفدٍ من عرب فلسطين المحتلة ١٩٤٨، كان يقوم بزيارة لسورية، وقد استقبله أعضاء الوفد بالأحضان، وبحفاوةٍ شديدة، حيث أكّد المطران لهم «أن العودة إلى الديار ستكون قريبة». في مقام آخر ناشد المطران كابوتشي العالم الحر وقْف إجراءات تهويد القدس، مذكِّرًا، بالإجراءات التي اتخذتها قوات الاحتلال، بعد عشرين يومًا من السابع من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، عندما اتخذ الكنيست القرار ٢٠٦٤، القاضي بضم القدس، وتوحيدها، وأتبعه بإجراءات متتالية، غيرت مع الأيام معالمها كليًّا، بغية تهويدها، ويذكر المطران من تلك الإجراءات:

١ ـ عزل القدس عن الضفة الغربية سياسيًّا، إذ منحت سلطات الاحتلال للمقدسيين هوية مقدسية، بعد إحصاءٍ دقيق.

٢ ـ حل مجلس أمانة القدس العربية، وإلحاق موظفيها بالبلدية الإسرائيلية.

٣ ـ نقل بعض المؤسسات الرسمية الحكومية الإسرائيلية إلى القدس، بهدف إلغاء قطاع الخدمات العربية، لاستيعابها.

٤ ـ المباشرة بتطبيق المناهج الإسرائيلية في الثقافة، والتعليم.

٥ ـ تصفية شركة كهرباء القدس، أهم مرفق اقتصادي عربي.

كما نبَّه المطران كافة المعنيين، وخاصة في المنظمات الدولية، والمسؤولين عن التراث الإنساني، إلى المحاولات الإسرائيلية للقضاء على التراثين، الإسلامي، والمسيحي، ذلك لمضيِّها في غيِّها تجاههما على قدمٍ وساق، ومن المحاولات الإسرائيلية التي فضحها المطران بهذا الخصوص:

١ ـ الحفريات الجارية حول، وتحت المسجد الأقصى، لتصديعه، وتخريبه.

٢ ـ محاولة أولى، وثانية، لإحراق أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

٣ ـ مصادرة أديرة، واعتداء على كنيسة القيامة، وسرقة تاج السيدة العذراء، إضافة إلى مصادرة عقارات إسلامية، ومتحف الآثار الفلسطينية.

٤ ـ تدمير أحياء عربية بكاملها: حي الشرف، حي الباشورة، حي المغاربة، فيقول: «رأيتهم بأم العين يهدمون مئات المنازل، ويهجِّرون آلاف السكان، لإحداث الباحة الكبيرة أمام (حائط المبكى)، لاستيعاب أكبر عدد من المصلين اليهود».

يردف غبطته بقوله: «إن إسرائيل فيما تخرِّب بيوتنا، وتستولي عليها، تقوم ببناء آلاف الوحدات السكنية، تنفيذًا لمخططها (القدس الكبرى)، ولفصل القدس نهائيًّا عن الضفة الغربية»[١٣].

عمد كابوتشي لإظهار موقف العرب عامةً، حين نطق باسمهم مجتمعين، مسيحيين ومسلمين، والفلسطينيين خاصة، من قضية السلام، للتأثير في نفوس مستمعيه من رجال دين، ودنيا في العالم، والعواصم الغربية، فيقول: «نحن طلاب سلام، والسلام هو إستراتيجيتنا، نحن نعشق السلام؛ لأننا نرى فيه طاقة، وكنزًا، وعندما نتكلم عن السلام، فنحن صادقون لأنه في السلام وحده الخلاص، وطالما لا ننعم بالسلام، نبقى معذبين، مشردين، تائهين، بدون كرامة، إذن السلام في مصلحتنا».

فيما يثير المطران في العقول تساؤلًا حول مدى جدية إسرائيل في السلام، حين يقول: «إسرائيل تتكلم عن السلام، وتعمل للحرب، ولعل تصريحات كبير الحاخامين، في السنوات الماضية هودي عودي، يكشف عن نواياهم، عندما وصف العرب بالأفاعي، قائلًا: إن الرب ندم لأنه خلق العرب من ذرية إبراهيم، هم، إذن، لا يريدون السلام، فهو، في نظرهم، العدو الأكبر؛ لأنه يعني الحدود الواضحة، وإسرائيل لا تزال تحلم بإسرائيل الكبرى، من النيل إلى الفرات، هي لا تريد السلام؛ لأنه لا يمكنها، بعد ذلك، أن تدعي بأنها محاطة ببلاد عربية، تريد أن تنقض عليها».

على الرغم من إبعاد المطران كابوتشي عن شعبه، وكنيسته، وموطن قلبه القدس، فإنه تمسك بالارتباط بتلك المقدسات، فلم يفوِّت فرصة للتواصل مع وطنه العربي الكبير، فتعددت زياراته للمنطقة العربية، فرغم أن قضية القدس قد استوعبت سني حياة المناضل العربي الكبير، فإن مواقفه، في واقع الأمر، قد تعدت القدس، وفلسطين المحتلة، ليشارك في عدد من المشاهد، التي عاشها العالم العربي، جريحًا، كسيرًا، فهذه زيارته البارزة للعراق، في أوائل ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٠، إبان محنة الشعب العراقي، وهو يخضع لحصار دولي شامل، لم يرحم احتياجات أبنائه، ومعاناتهم. فقد ترأس المطران كابوتشي وفدًا من رجال الدين، والمثقفين الإيطاليين، قادمين من دمشق إلى بغداد، على متن طائرة سورية، حيث قال المطران كابوتشي: إن زيارته لبغداد تستهدف التعبير عن التضامن مع الشعب العراقي، ضد الحصار الدولي المفروض عليه، والذي أدى إلى وفاة الآلاف من شعبه، جوعًا، ومرضًا. وقد جاءت رحلة كابوتشي لتعمِّق عند الكثير من الدول الأوروبية رفضًا واضحًا للهيمنة الأمريكية هناك، والتي كانت أيضًا، ولا تزال، سببًا رئيسيًّا فيما تقوم به إسرائيل من جرائم ضد الإنسانية في الأرض الفلسطينية المحتلة. كما شكر المطران كابوتشي العراق، وشعبه، لما كان يقدمه، آنذاك، من دعم مادي، ومعنوي للانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية، وقطاع غزة. ونلاحظ بأن فلسطين، والقدس لم تغب عن تفكير المطران، ولا وجدانه، حتى وهو في زيارة دعم معنوي لشعب العراق، في محنته تحت الحصار[١٤].

تعددت زيارات المطران للمنطقة العربية دعمًا لشعوبها في مواجهة الضغوط الاستعمارية، فكانت زيارته لوطنه سوريا، نهاية شهر مايو/ آيار ـ أوائل يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حيث التقى كبار رجال الدولة، للتعبير عن دعمه للشعب

السوري، فقد استقبل غبطته كلّا من السيد وليد المعلم، وزير الخارجية، والدكتور محسن بلال، وزير الإعلام، حيث بحثوا تطورات الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وما يعانيه الشعب الفلسطيني جراء الممارسات التعسفية لسلطات الاحتلال الإسرائيلي، وتم التأكيد على ضرورة رفع الحصار الجائر المفروض على الشعب الفلسطيني[١٥]. كما التقى غبطته بعد ذلك الدكتور محمود الأبرش رئيس مجلس الشعب، فضلًا على لقائه بالمهندس محمد ناجي عطري، رئيس مجلس الوزراء، حيث تحدث المطران كابوتشي مع مستقبليه عن معاناة الشعب الفلسطيني من الانتهاكات، والاعتداءات الإسرائيلية الخطيرة، التي ترتكبها قوات الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب، والمقدسات الدينية الإسلامية، والمسيحية في فلسطين، مؤكدًا بأن ما تتعرض له سورية من ضغوط ناجمة عن مواقفها القومية، والوطنية الثابتة، واحتضانها لأشقائها الفلسطينيين، ووقوفها إلى جانب مقاومتهم الباسلة[١٦].

وفي إطار نضالات المطران كابوتشي، فيما يتعلق بقضية اللاجئين، فقد شارك غبطته في فعاليات «الملتقى العربي الدولي لحق العودة»، والتي انطلقت في قصر المؤتمرات بدمشق، يومي ٢٣ – ٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٨، تحت شعار «العودة حقّ»، بحضور أكثر من ٤٥٠٠ شخصية دولية، وعربية، فلسطينية وغير فلسطينية، يمثلون ٥٤ بلدًا. وقد أكد كابوتشي، مطران القدس في المنفى، في كلمته التي ألقاها في المؤتمر، بأن حق العودة للاجئين الفلسطينيين حقٌّ غير قابل للنقاش، مشددًا على حق كل فلسطيني لاجئ في العودة إلى وطنه. وقال المطران كابوتشي: «علمتني سورية ألا أتقوقع، وأنا أعتبر أي بلدٍ عربي بلدي، ومن ثم فأنا أعتبر نفسي ابنًا، ومواطنًا فيه، كما علّمتني ألا أعتبر القضية الفلسطينية قضية فلسطينية فحسب، إنما قضية عربية»[١٧].

في خضم الهجمة الوحشية التي كان شنها الجيش الإسرائيلي على أهالي قطاع غزة من المدنيين العزل، والتي امتدت من ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨ وحتى ١٧/ ١/ ٢٠٠٩، عقابًا لهم على تمسكهم بحقهم في الاختيار، وحقهم في رفض الاحتلال، ورفض الحصار، وتمسكهم بنهج المقاومة في مواجهة نهج الخنوع والاستسلام لإرادة الكيان الصهيوني، وحلفائه من النظام الرسمي العربي، وفي خضم التعاطف الشعبي والرسمي، العالمي والعربي والإسلامي، مع الأهالي المحاصرين في القطاع، والمعرَّضين لأبشع هجمة عسكرية بربرية، شهدتها الإنسانية، على شعبٍ أعزل، وتحت أنظار، وتواطؤ مفضوح من المجتمع الرسمي الدولي، بادرت (لجنة حملة كسر الحصار على غزة) في لبنان، بالتعاون مع «حركة غزة الحرة»، التي تتخذ من الولايات المتحدة مقرًّا لها، بتجهيز حملة تتوجه إلى غزة، عن طريق البحر، لدعم جماهيرها، وباشرت اللجنة أنشطتها بجدية، على مدار عشرين يومًا، لتجهيز وجمع شحنات التبرعات، من جمعيات خيرية لبنانية وعربية، ليتم دفعها إلى القطاع، حيث وصلت كميتها إلى ستين طنًّا من الأدوية، والأغذية، ولعب الأطفال، بالإضافة إلى عشرة آلاف وحدة من بلازما الدم البشري[١٨]. كما تم الحصول على موافقة السلطات اللبنانية بمغادرة اثنين وثمانين متطوعًا، وختمت جوازات سفرهم، وأعطت الضوء الأخضر لانطلاق رحلتهم، وفي اللحظات الأخيرة من عصر يوم الثلاثاء ٣/ ٢/ ٢٠٠٩، وفي الساعة الرابعة عصرًا، تحديدًا، أعلن مسؤول حملة كسر الحصار على غزة أن سفينة (كاظم)، التي كان من المفترض أن تقل المتضامنين، ستبدَّل بأُخرى؛ لأنها لا تملك الإمكانات التي تحافظ على أرواح الركاب، طبقًا لرؤية السلطات الرسمية اللبنانية، وفعلًا حلَّت محلها سفينة (تالا)، وهي، أيضًا، غير مخصصة لنقل الركاب، حُمِّلت المواد الغذائية، والطبية لأهل غزة، على ظهر (تالا)، إلا أنه، وبعد خمس ساعات، أوضحت الحكومة اللبنانية عدم إمكانية إبحار المتطوعين على ظهر السفينة، كونها مخالفة لقوانين النقل البحري،

فهي مخصصة لنقل المعدات، وليس الركاب، ما يتيح لإسرائيل اعتراضها، بذريعة خرق القوانين، وبالفعل، وبعد صخبٍ، واعتراضٍ، واحتجاج من المتطوعين، الذين أسقط في أيديهم، وبعد ضغط من قوى الأمن اللبنانية، لتنفيذ تعليمات الحكومة، تم خفض عدد المتطوعين، بتعليماتٍ من الحكومة اللبنانية التي يبدو أن ضغطًا عنيفًا قد مورس عليها لمنع انطلاق الرحلة، فحُسِمَ القرار (المطران كابوتشي، والعلامة محمد الداعوق، سينطلقان إلى غزة، إضافة إلى أربعة صحفيين من محطتي «New T V» اللبنانية، و«الجزيرة»)، كونهما قادرتين على النقل المباشر[١٩]، وستضعان العالم في صورة ما سيحدث، إن اعترضهم أي طارئ، ثمانية متطوعين فقط استقلوا سفينة «الإخوة اللبنانية» التي يملكها فلسطيني، وترفع علم توجو (الدولة الأفريقية، على ساحل أفريقيا الغربي)، منطلقةً من ميناء طرابلس شمال لبنان، متجهةً إلى لارنَكا بقبرص، ومنها إلى شواطئ غزة، حيث اعترضتها البحرية الإسرائيلية، وأنذرتهم بعدم التوجه إلى غزة، فاستكملت السفينة رحلتها إلى المياه الإقليمية المصرية، إلا أنها عادت، فحاولت الدخول إلى غزة من الجهة الغربية، قبالة ساحل العريش، فاعترضها خمس وعشرون مسلحًا عسكريًّا إسرائيليًّا، على متن زورقين، تابعين للبحرية الإسرائيلية، يوم الخميس ٥/ ٢/ ٢٠٠٩، في عملية قرصنة عسكرية فجَّة، قلَّ نظيرها، على المستوى الرسمي الدولي، حيث أطلق الجنود الإسرائيليون النار على السفينة، لتحذيرها، ومع استمرار السفينة في تقدمها، باتجاه ساحل غزة اقتحمها الجنود الإسرائيليون، المدججون بالسلاح، في عملية قرصنة بحرية صريحة، تحت مرأى ومسمع من العالم أجمع، حيث نقلت سلام خضر، مراسلة «قناة الجزيرة»، عبر هاتفها الجوال، عملية الاقتحام على الهواء مباشرةً إلى فضائية «الجزيرة»، إلى أن انقطع البث، حين انتزع الجنود الصهاينة الهاتف من يدها، ثم تعرضت للضرب مرتين، على رأسها، عندما تمسكت بهاتفها[٢٠]، ثم طرحوها أرضًا، هي ومرافقها مصور «الجزيرة» محمد عليق، وباقي المتطوعين الموجودين على ظهر السفينة، مبتدئين بهاني سليمان، منسق الرحلة، حيث كان أول من تعرض لاعتداءات الجنود الإسرائيليين، الذين ضربوه، وطرحوه أرضًا، ثم رفسوه بأرجلهم، غير مبالين بإصابته بمرض في القلب، كما تم الاعتداء على جميع المتطوعين على ظهر السفينة بالضرب، والسب، والإهانة، حيث بلغ عددهم ثمانية عشر متطوعًا، عند انطلاقهم من سواحل لارنكا القبرصية، فأوثق الجنود أيدي جميع المحتجزين وعصبوا أعينهم، ومنعوهم من التحادث مع بعضهم البعض باللغة العربية، كما فصل جنود الاحتلال المحتجزين بعضهم عن بعض، والتقطوا لهم صورًا بآلات تصوير شخصية، وبواسطة كاميرات الجيش، ثم اقتادوهم إلى باطن السفينة حيث جرى استجوابهم، بعد مصادرة كافة معداتهم من كاميرات تصوير، وهواتف، وأشرطة التسجيل التي صوروها، وخلافه، كما تم قطع الاتصال اللاسلكي للسفينة بالعالم الخارجي، وباتت السفينة تحت سيطرة، وأسر الجيش الصهيوني، الذي اقتادها إلى ميناء «أسدود»، وأُعيد استجواب المحتجزين مرة أخرى، لمدة يوم كامل، في ظروف احتجاز مهينة للكرامة الإنسانية، في مقر أمني بالميناء العسكري، يعتقد أنه يتبع لجهاز الشاباك (الأمن الداخلي الإسرائيلي)، كما تم عزلهم عن أي اتصال بالعالم الخارجي، وحاول أحد الضباط إقناع الرهائن المحتجزين بالتوقيع على ورقةٍ يقرون فيها بأنه تم إطلاق سراحهم، وهم في أحسن حال، لكن هذا الطلب لم يلق استجابة، على الأقل، من سلام خضر، والمصور محمد عليق[٢١]. وفي يوم الجمعة، ٦/ ٢/ ٢٠٠٩، تم إبعاد ثمانية من المحتجزين إلى لبنان، عبر معبر الناقورة، مكبلي الأيدي، بينهم أربعة صحفيين لقناتي «الجزيرة»، و«الجديدة» اللبنانية، وعضو تجمع علماء المسلمين في لبنان، الشيخ صلاح الدين العلايلي، كما تم إبعاد المطران كابوتشي، وخمسة آخرين من الناشطين المتطوعين الذين كانوا على

متن السفينة، إلى الأراضي السورية، عبر الجولان[٢٢]، وكان في استقبالهم عدد من الوزراء السوريين، وقيادات من الفصائل الفلسطينية، فيما أبعد أربعة ناشطين أجانب إلى بريطانيا على متن طائرة أقلتهم إلى هناك[٢٣].

هذا هو المطران هيلاريون كابوتشي، امتلأ قلبه ووجدانه حبًّا لفلسطين، وإخلاصًا لقضيتها، التي هي قضيته الشخصية، من منطلق عروبي صرف، وعلى أسس إيمانية عميقة، بالله، وبحق البشر في الحياة الحرة الكريمة، لم ينفصل عن آلام ومحن شعبه، ومنها ما أرَّقَ ضميره، واعتصر قلبه ألمًا، بما أصاب رفاق الأمس من انقسام وتشرذم، يكتوي به أبناء شعبهم، اليوم، فها هو يوجه رسالة تهنئة لأبناء الشعب الفلسطيني بعيد الفطر، بتاريخ ١/ ١٠/ ٢٠٠٨، يبثهم فيها شوقه إليهم قائلًا: «إن منفاي لا يقل إطلاقًا قسوةً وحرمانًا من سجني. إنَّ الموت إن هو إلا فراق ما هو عزيز، وأنتم أعز ما أملك، يا إخوتي الكرام، يا أبناء فلسطين الحبيبة؛ لذا فراقي القسري عنكم هو موتي المعنوي. يموت الإنسان جسديًّا مرة واحدة. بينما المُبعَد عن وطنه، عن أهله، يموت مرات في النهار معنويًّا لأني أعيش جسمًا فقط، بعيدًا عنكم، فيما بقلبي، بفكري، بضميري، بصلاتي، خاصة، أنا دائمًا معكم، بينكم، حنيني إليكم، ذكرياتي الخالدة معكم، هي خبزي اليومي، هي قُوتي، وقوّتي، على أن الذكريات تولد الحنين، والحنين قتال. الغربة كربة، والهم فيها حتى الرقبة، يقول المثل». ثم يدعو عبر رسالته الشعب الفلسطيني لوحدة الصف قائلًا: «قم يا عبدي، لأقوم معك. اللهم اهدنا الصراط المستقيم، وحِّدنا كما أنت واحد. وحدة الصف، التضامن، هو حجر الزاوية، هو الأساس، هو المنطلق، هو السلاح الفتاك، لما إليه نصبو من تحرير وتحرر. كل بيت ينقسم على نفسه يخرب. إن الانقسام العميق القائم حاليًّا، بين إخوة البارحة، وأعداء اليوم، يدمي فؤادي. إنه سبب الضعف والضياع الذي منه نعاني حاليًّا، ولا يغيِّر الله ما في قوم حتى يغيِّروا ما في أنفسهم؛ لذا، باسم الله الواحد الأحد، بدم شهدائنا الأبرار، بدموع اليتامى، والأرامل، والثكالى، وبعذابات إخوتنا المساجين الأبطال، أستحلف الجميع أن يضعوا حدًّا لخلافاتهم، أن يوحدوا صفوفهم، أن يتحاوروا، ولا يتقاتلوا، كي نحقق ما إليه نصبو، من حرية، وعزة، وكرامة». ويختم رسالته داعيًا الله أن يعيد العيد «على أمتنا العربية بالتضامن، وعلى شعبنا الفلسطيني بوحدة الصف، كي نحقق ما إليه نصبو: قيام دولتنا الفلسطينية المستقلة الحرة السيدة، والقدس الشريف الحبيبة عاصمتها. إنه السميع المجيب، وعلى كل شيء قدير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٢٤].

وبعد، فلا يزال هذا المناضل القوي، الجريء، الشجاع، المؤمن بعدالة قضيته القومية، إيمانه بعقيدته الدينية، وقد جاوز السابعة والثمانين من عمره، يحارب معاركه بجسارة، دون ملل، ولا خوف، ولا رهبة، يقابل أعداءه، بقوة وحسم، فيخشاه أعداؤه، خشيتهم من حق شعب يستعصي على النسيان. وحين نفتِّش في قلبه، في وجدانه، لا نجد سوى قلب المحب، وعواطف طفل بريء، يدعو برقة، ووداعة وبراءة، دعاءً يجول ببساطته في نفوس كل البسطاء، من أبناء شعبه: «إلهي، أكلئ بعينك الساهرة حكامنا العرب أجمعين، ليعملوا لما فيه فلاح أمتنا الكريمة، ووحدتها، كي نحقق ما نحلم به، وإليه نصبو، جمع شملنا، كرامًا، مسيحيين، ومسلمين، في رحاب الجامع الأقصى، وكنيسة القيامة، فيما المآذن تصرخ (الله أكبر)، متناغمة مع أجراس الكنائس، وهي تقرع، مهللة لعودتنا، منتصرين، إلى ديارنا، إلى مقدساتنا، إلى قدسنا العربية المحررة، عاصمة دولة فلسطين». إنه، هيلاريون كابوتشي مطران العرب.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب: هيلاريون كابوتشي مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٣:

Ln=En&٥٣٥٤=SID&١=٢٠Arabic /index.asp?pageID٪http: / /www.tebayn.com /Tebayn

(٢) الموقع نفسه.

(٣) الموقع نفسه.

(٤) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مادة لاهوت التحرير:

http: / /ar.wikipedia.org /wiki /٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٧٪D٩٪٨٨٪D٨٪AA_٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪AA٪D٨٪AD٪D٨٪B١٪D٩٪٨A٪D٨٪B١

(٥) الموقع نفسه.

(٦) حسام تمام، لاهوت التحرير .. مسيحية المعدمين، موقع إسلام أون لاين، على الإنترنت:

http: / /www.islamonline.net /arabic /mafaheem /٢٠٠٢ /٠٢ /article١.shtml

(٧) المرجع نفسه.

(٨) عماد توماس، حوار منقول عن كتاب «حوارات وقضايا»، منشور على الموقع الإليكتروني:

http: / /www.qenshrin.com /details.php?id=٨٩٥٧

(٩) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله:

htm.http: / /www.palestine-info.info /arabic /books /alkadem /kadem١٣

يمكن الرجوع، أيضا، إلى:

- يعقوب بيري، مهنتي كرجل مخابرات/ ٢٩ عامًا من العمل في الشاباك، ترجمة بدر عقيلي، عمّان، دار الجليل، ٢٠٠١.

(١٠) موقع جهاز الشاباك (جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي)، قضية كابوتشي (١٩٧٤):

http: / /www.shabak.gov.il /arabic /history /affairs /Pages /kaputchi-ar.aspx

(١١) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله:

http: / /www.palestine-info.info /arabic /books /alkadem /kadem١٣.htm

(١٢) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب: هيلاريون كابوتشي... مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٢:

http: / /www.tebayn.com /Tebayn٪٢٠Arabic /index.asp?pageID=١&SID=٥٣٥٥&Ln=En

(١٣) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب : هيلاريون كابوتشي... مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٣.

http: / /www.tebayn.com /Tebayn٪٢٠Arabic /index.asp?pageID=١&SID=٥٣٥٤&Ln=En

(١٤) موقع البي بي سي على الإنترنت:

http: / /news.bbc.co.uk /hi /arabic /news /newsid_١٠٥٦٠٠٠ /١٠٥٦٠١٧.stm

(١٥) الموقع الإليكتروني لجريدة «الثورة» اليومية السياسية شبه الرسمية في سوريا، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٧:

http: / /thawra.alwehda.gov.sy /_print_veiw.asp?FileName=65261661120070531013306

(١٦) الجريدة نفسها، بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠٠٧.

(17) http://www.aljamaa.net/ar/document/24310.shtml.

(18) http: / /www.thisissyria.net /2009 /02 /05 /syriatoday /02.html

(19) http: / /www.addounia.tv /index.php?p=192&id=1449

(٢٠) موقع مركز المعلومات والتأهيل لحقوق الإنسان، على الإنترنت

http: / /hritc.net /jornalistshl.php?action=view&newsID=249

(٢١) الموقع نفسه.

(22) http: / /www.moheet.com /show_news.aspx?nid=219275&pg=35

(23) http: / /www.alssiyasi.com /default.asp?browser=view&EgyxpID=17329

(٢٤) رسالة الوحدة والتسامح للمطران هيلاريون كابوتشي:

http: / /fatehforums.com /showthread.php?t=151774

* * *

الفصل الخامس

بهجت أبو غربية
شيخ المجاهدين في فلسطين

رانية عبد الرحيم المدهون

هو بهجت عليان عبد العزيز عليان أبو غربية، ثائرٌ من فلسطين، تمخضت أحشاء الثورة لتنجب في درب النضال مجاهدًا، عنيدًا، مؤمنًا، قويًّا، مغرمًا بوطنه، ألِف الكفاح، ورنا، بكل عزةٍ، وفخرٍ، واقتناع، لكل مفرق، تَلُوحُ منه، على المدى شمس، تُبشِّر بالتحرير والعودة.

أبوه عليان عبد العزيز عليان، ابن كبير عائلة أبو غربية، وُلِدَ بالزقازيق(مصر)، وعاد مع أسرته إلى الخليل، وقد أجاد لغتين، العربية، والتركية، وسرعان ما سافر إلى تركيا، ومكث هناك عدة أشهر، حيث اشتغل مدير ناحية في بعض المدن الفلسطينية. أما أمه فكانت فكرية حسن، من صربيا، تركية الأصل، انتقلت مع أسرتها، إبان الحكم العثماني، واستوطنت في فلسطين، فتزوجت من والده، وأنجبَا خمسة أولاد، كان بهجت الرابع منهم[1].

ميلاد البطل

ولد أبو غربية سنة ١٩١٦، أثناء الحرب العالمية الثانية، في مدينة خان يونس، التي سقطت عام ١٩١٧، فانتقل مع أسرته إلى الخليل، التي سرعان ما تلتها بعد سقوط القدس. وسماه والده بهجت، على اسم صديقه الحميم، بهجت بك. عانت فلسطين من ويلات الحرب، والأوبئة، والفقر، لكن عائلة أبو غربية عاشت في البداية في يسر من الحال، بسبب صداقة والده لكبار الموظفين العثمانيين، بحكم عمله، كان ذلك اليسر في وجود أشقاء أبو غربية، الأكبر منه، لكن العائلة سرعان ما تعرضت إلى عسر مالي، بسبب زواج والده من أخرى، وزواج أخيه، وعمه، في العام نفسه، بالإضافة إلى إعالتهم لابن عمه، إبراهيم أبو غربية (الشهيد لاحقًا)، وعمته، وابنها؛ لأن زوجها كان يعاني من الفقر المدقع، والمرض المزمن[2].

عُدَّ مولد أبو غربية توأمًا للقضية الفلسطينية، تربيا معًا في كنف الهيمنة الاستعمارية، وتجاوُزاتها، فترعرعا على الجهاد، والمثابرة، والتضحية.

اتسم القرن التاسع عشر بالتوسع الاستعماري، وسرعان ما تلته بدايات القرن العشرين، فكانت مرحلة تثبيت هذا الاستعمار. فقد عُقِدَ في إنجلترا مؤتمر، سنة ١٩١٧، للدول الاستعمارية، عُرِفَ باسم رئيس وزراء إنجلترا، آنذاك، كامبل بانرمان، تدارست فيه المخاطر التي تهدد بقاءها في مستعمراتها، ووصَلت إلى مقترحات، منها، أن أكبر خطر يهدد بقاءها في مستعمراتها يكمن على الشواطئ الشرقية لحوض البحر المتوسط، حيث يعيش شعب واحد، له ماضٍ تاريخي عريق، ويتكلم لغة واحدة، ويتديَّن، تقريبًا، بدين واحد، وتكمُن في بلاده إمكانات الحضارة، والتقدم، ويجب أن تعمل هذه الدول الاستعمارية على تعميق تجزئة أقاليم ذلك الشعب، وأن يقام فاصل بشري غريب في مكان مناسب من هذه البلاد، يقطع الامتداد العربي، وهو أرض فلسطين. وكانت الحركة الصهيونية قد تأسست، قبل عشر سنوات من هذا التاريخ، ببرنامج يعمل على إقامة دولة يهودية في فلسطين، الأمر الذي يؤكد ارتباط تاريخ الصهيونية بالاستعمار، منذ البداية[٣].

طغى في ٢/ ١١/ ١٩١٧ «وعد بلفور» المشؤوم، الذي أُعطِيَ لمن لا يستحق، قبل إقرار الانتداب، وظل سرًّا، في البداية، فأفشاه تشرشل (١٩٢٢) في مذكراته، وكان قد سبقته اتفاقية «سايكس ـ بيكو»، بين بريطانيا، وفرنسا، وروسيا القيصرية، التي كانت سرية، أيضًا، في بادئ الأمر، تلتقم من الجسد العثماني المتهاوي، ففضحتها روسيا، بعد قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية (خريف ١٩١٧)، فقد قسمت تلك الاتفاقية أراضي الشعوب الضعيفة، إرث الإمبراطورية العثمانية الآخذة في التهاوي آنذاك، بين الدول الاستعمارية الغربية، قبل أن تحتلها بالفعل! وعلى هذا الأساس، نجد ما يجعلنا نفسر مساعدة إنجلترا للشريف حسين، والعرب، في ثورته ضد الأتراك، خلال الحرب العالمية الأولى، ومهما كانت نوايا العرب من الثورة، فقد عمل الاستعمار على تطويعها لخدمة المخططات الاستعمارية، فباتت الثورة العربية مُعِينة للحلفاء على احتلال فلسطين، وسوريا الكبرى كلها، والعراق. وعلى الرغم من المزاحمة بين بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى عدم عضوية الأخيرة في «عصبة الأمم»، فقد تقاطعت النوايا الاستعمارية، وتم إقرار «صك الانتداب» على فلسطين! وغدت الوكالة اليهودية تُمثل حكومة داخل حكومة الانتداب البريطاني. وبقي عرب فلسطين وحدهم، يواجهون المؤامرات الاستعمارية الصهيونية، حين عملت بريطانيا على عزل فلسطين عن امتدادها العربي، كتمهيد للصهاينة لإقامة «وطن قومي» لهم[٤].

ظل الـحُكم العسكري ـ الذي قسم كل مدينة، وقضائها إلى منطقة عسكرية منفصلة ـ حتى عام ١٩٢٢، حيث أقيمت إدارة مدنية. ولم يختلف شكل الانتداب عن حكم المستعمرات البريطانية الأخرى[٥].

ومض المسيرة

سرعان ما بدأ عقد المؤتمرات الوطنية الفلسطينية، منذ عام ١٩١٩، حيث نُظِّم المؤتمر الأول بالقدس (٢٧/ ٢/ ١٩١٩)، فتتابعت المؤتمرات، حتى كان المؤتمر الإسلامي بالقدس (١/ ١١/ ١٩٢٨). وكان من أهم نتائج تلك المؤتمرات إقرار انتخاب اللجنة التنفيذية العربية، التي قادت النضال الوطني الفلسطيني، من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٤، إلى ذلك، تعيين موسى كاظم الحسيني رئيسًا لتلك اللجنة، حتى وفاته ربيع ١٩٣٤، متأثرًا بجراح أصابته من هراوات الجند البريطانيين في مظاهرة بيافا، قبل عام من وفاته[٦].

تعاقبت تحركات شعبية عنيفة، منها صدامات موسم النبي موسى(١٩٢٠)، وهبة ١٩٢٩ بالقدس، التي مثّلت أوج حالات الثورة[٧]. كما تتابع تشكيل الأحزاب السياسية العربية الفلسطينية، رسميًّا، منذ أوائل الثلاثينيات، ما أنهى المرحلة الأولى من الحركة الوطنية الفلسطينية[٨].

تحلى أبو غربية بالتدين، الذي أضفاه عليه جو أسرته، فانعكس على شخصيته، من الناحية الأخلاقية، والنضالية. فقد اتخذ من النبي محمد ﷺ قدوة له، فانتهج به في حياته، واعتنق من أقواله «الدين المعاملة»، وسار على خطاه، منفذًا لصفاته «إنك لعلى خلق عظيم»، وشغف في شبابه بقراءة سيرته الكريمة، وكتب التصوف. وقد تزوَّد بالثقافة العامة، عن طريق المدرسة، والقراءات الذاتية، فقد كان محبًّا لقراءة التاريخ، والأدب، والشعر العربي، وتاريخ القومية العربية، وسِيَر الثورات، وقصص الكفاح. وتعد نشأته سياسية نضالية، بحكم المرحلة التي كان الشعب الفلسطيني يحياها، وقد عاصر محاكمة محمود جمجوم، وعطا الزير، وفؤاد حجازي (*)، وعمه إبراهيم أبو غربية، إلى جانب الروح الوطنية لأساتذته في المدارس الحكومية، ممن زرعوا في وجدانه حب الوطن، وتمجيد تاريخه، والانتماء له، والتمسك بالقومية. فضلًا على ما أعطاه البيت له، لا سيما والدته، من سمات الشجاعة، والتضحية، والوطنية. كما اهتم أبو غربية، منذ صغره، بالرياضة البدنية في المدرسة، حتى أنه انتسب إلى «النادي الرياضي الإسلامي» بالقدس، عام ١٩٣٤، بالإضافة إلى اهتمامه بالرحلات، والحياة الكشفية في المدرسة. ففي عام ١٩٣٥ شارك في مخيم بئر سالم التدريبي لإعداد وتدريب أساتذة الكشافة، وحصل على وسام الغاب (أدنى وسام يُمْنَح، ويُؤَهِّل لتأليف الفرق الكشفية، وقيادتها)، حتى غدا قائدًا، ومدربًا في المدرسة الإبراهيمية، والأندية الرياضية، إلى جانب التنظيمات شبه العسكرية، كحركة «النجادة»، و«الفتوة»، أواخر الأربعينيات. وأتاحت له الحياة الكشفية التعرف على بلاده، جيدًا، بدراسة طبيعتها، والولع بها، مما كان له زاد في حياته النضالية[٩].

المفترق

مثَّل العام الدراسي (٣١/ ١٩٣٢)، الصف الثاني الثانوي، مفترقًا رئيسيًّا لتغيير مجرى حياة مناضلنا التعليمية، والعامة، فقد ترك المدرسة، رغم نجاحه، وتفوقه، من أجل العمل ومساعدة الأسرة، بعد أن رفضت حكومة الانتداب توظيف شقيقه، نهاد، مدرسًا، لضعف بصره، واشتغل أبو غربية، في محل ساعاتي يهودي أشكنازي، بالقدس، المهنة التي احتكرها اليهود، تقريبًا، واكتشفت الأسرة، بعد عام ونصف، أن اختيار هذه المهنة كان خطأ ـ

(*) وهم الأبطال الثلاثة الذين نُفِّذ بهم حكم الإعدام في ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٣٠ جراء زعامتهم لهبة البراق (١٩٢٩)، حيث لم تُجْدِ محاولات إنقاذهم من الإعدام، فكتِبَ فيهم الكثير من الأشعار، كان أهمها قصيدة الثلاثاء الحمراء، للشاعر إبراهيم طوقان، التي خلدهم فيها، وختمها بالكلمات:

أجسادكم في تربة الأوطـــان ... أرواحكم في جنة الرضـــوان
وهناك لا شكوى من الطغيـــان ... وهناك فيض العفو والغفـــران
لا ترج عفوًا من سواه هو الإلـه ... وهو الذي كلمت يداه كل جاه
جبروته فوق الذين يغرُّهـــم ... جبروتهم في برهـم والأبحـــر

ـ علي مجاهد العشماوي، **الثلاثاء الحمراء في الحركة الوطنية الفلسطينية**، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٣، ص٨٧، ١٠١، ١٨٧-٢٠٠.

مثل تركه الدراسة ـ لأنه يعاني، هو الآخر، من فقد جزئي في النظر، بالعين اليمنى. سمع واستوعب في هذا المحل الكثير عن اليهود، فمنهم من كان يؤكد بأن قيام الدولة اليهودية ضروري، وحتمي، ومنهم من كان يهزأ من ذلك، كما كانوا يتحدثون عن موقف البرنامج الصهيوني من العرب، فلم يكونوا يعرفون بأنه يفهم كلامهم، ويستوعبه، واستشف أبو غربية هناك، وفَهِمَ طبيعة النفسية اليهودية، وخاصةً الصهيونية منها، فقد كانوا يرون بأنهم فوق كل البشر، باعتبارهم «شعب الله المختار»، وكان التمييز العنصري عقيدة يتمسكون بها بتعصب، حيث اعتبروا كل البشر خُلقوا لمجرد خدمتهم، ونظرة الاستعلاء هذه تفسر تاريخهم في أنحاء العالم، من حيث عداوتهم لكل شعب يعيشون بينه، رغم أنهم يعانون في عمق مجتمعاتهم من التفرقة العنصرية، فاليهودي الألماني (الأشكنازي) يحتقر اليهودي السفارديمي، واليهودي العربي، واليمني أيضًا! ويعتبرون اليهود الأكراد، والعجم، والكرجيين من أحط الأجناس اليهودية. فالتجمع الصهيوني تجمع ذو نزعة نازية عرقية، من قبل أن تنتشر فلسفة التمييز العنصري التي اعتنقها هتلر، وأتباعه. كما لمس أبو غربية بأن اليهود يكرهون النصارى، على أساس ديني، وتاريخي، أكثر من كرههم للمسلمين. تعرف أبو غربية من خلال عمله في ذلك المحل على حي ميئه شعاريم، وبيت يسرائيل جغرافيًّا معرفة دقيقة، تفصيلية، أفادته، بعد ذلك، في حرب النكبة، أثناء القتال، حيث تمددت مسؤوليته العسكرية في الدفاع عن الأحياء المواجهة لهذين الحيين[١٠].

صُحِّحَ الخطأ، وتوظف أبو غربية معلمًا (١٩٣٤) في المدرسة الإبراهيمية الأهلية، التي كان أخوه، نهاد، معلمًا فيها، ثم شريكًا فيها، ما أتاح له العودة للدراسة، فالتحق بالمدرسة الليلية لجمعية الشبان المسيحية، وأنهى دراسة مقرر امتحان «لندن مترك»، ولم يستطع التقدم للامتحان بسبب اندلاع ثورة ٣٦- ١٩٣٩ الوطنية في فلسطين[١١].

بدأت تتألف في البلاد خلايا ثورية سرية، وازداد السلاح، وبدأت الحياة النضالية المسلحة لأبي غربية تتطور، فمنذ عام ١٩٣٤ شكل برفقة آخرين مجموعة ثورية مسلحة، وقد كان استشهاد القسام (١٩/ ١١/ ١٩٣٥) حافزًا للثأر[١٢].

ثورة شعبية وطنية

عُدَّتْ حركة القسام من الأسباب التي مهدت لقيام ثورة ١٩٣٦، حيث نما التنظيم الثوري الشعبي، وبدأ أواسط عام ١٩٣٥ بعمليات سرية مسلحة، آذرها ممارسات حكومة الانتداب المتعسفة، وإصدارها وعد بلفور «سابق الذكر»، وسلب الأراضي الفلسطينية، بشتى الطرق، وتمليكها للصهاينة، إلى جانب وفود أعداد هائلة من اليهود، والأسلحة، إلى فلسطين، وتشكيل قوات مسلحة صهيونية، بمساعدة الانتداب، عوامل تكاتفت لتروي خضار الثورة، حيث كانت الفترة ما بين السنوات (٣٢- ١٩٣٥) فترة ازدهار لثورة ١٩٣٦، فبعد أن تأسست الحركة الوطنية الفلسطينية، من تقارير اللجان البريطانية، لاحت انتفاضة عام ١٩٣٣، فغدت من أبرز سنوات النضال الشعبي الفلسطيني[١٣].

عمل القائد عبد القادر الحسيني، أوائل ١٩٣٦، على تأليف تنظيم ثوري مسلح، ولم ينفتح تنظيم أبو غربية، والحسيني على بعض إلا بعد اندلاع ثورة ١٩٣٦. ولم يكن لتنظيم أبو غربية، في بدايته، اسم معين، ثم سُمِّيَ «الحرية»[١٤].

ارتطم أبو غربية بالسجن، لأول مرة، أوائل نيسان/ أبريل ١٩٣٦، جراء صدام قام بينه هو ورفيقه سامي الأنصاري ـ بعد إحراق مخزن أحذية كبير، في شارع يافا ـ وبين رجال من البوليس الإنجليزي. فساقوه لمخفر باب الخليل ، ثم إلى سجن القشلة، ولم تثبُت عليه التهمة، فحُكِمَ له بالبراءة، فقد كان قاضي الصلح عربيًّا[١٥].

وصل التوتر الشعبي لعنفوانه في العام ١٩٣٦، وبدأ الاستعداد لثورة لم يقم حزب معين بالتخطيط لها، إلا إرادة الشعب، وأداتُها الجماهير، التي قادت إلى صدامات في يافا (٢٠/ ٤/ ١٩٣٦) بين العرب واليهود. فتشكّلت اللجنة العربية العليا (٢٥/ ٤/ ١٩٣٦). وتمثلت العمليات العسكرية، في البداية، في قطع شبكات الهاتف، وخطوط المواصلات الحديدية، فجابهها الجيش الإنجليزي بكل ثقله العسكري، وعمل على عزل الثورة عن محيطها العربي، وتخريبها من الداخل، بالإشاعات، والحرب النفسية الـمُشكِّكة في القيادة الفلسطينية[١٦].

شارك تنظيم أبو غربية «الحرية» في مدينة القدس بالتشجيع على استمرار الثورة، والإضراب، الذي كان معينًا لأبي غربية ورفاقه على التدريب، إلى أن وجد التنظيم فرصة للقيام بهجمات مسلحة في القدس، فكانت أول عملية ثأرًا لاستشهاد أحد أعضاء فرقة الجوالة، التابعة لهم، وهي عملية نسف سينما أديسون، التي وقعت في صميم المنطقة اليهودية بالقدس، حيث نفّذها أبو غربية، والأنصاري، فأودت بحياة ثلاثة، وجرحت اثنين من الصهاينة، وأذيع الحادث في البلاغ الرسمي. وكان هذا أول حادث ثقيل منذ بداية الإضراب، وقد كان في عمق الأحياء اليهودية. ما أفقد الإنجليز صوابهم، فراحوا يُرهِبون العرب في شوارع القدس باستعراض السلاح[١٧].

تلاها عملية أخرى بالهجوم على قائد شرطة القدس الإنجليزي، المفتش آلن سيكرست، وقتله (١٢/ ٦/ ١٩٣٦)، سقط فيه ربيع، سامي الأنصاري. فكان ثأرٌ آخر بالهجوم على رجال الطيران البريطاني[١٨].

دخل أربعمائة مقاتل، على رأسهم فوزي القاوقجي، فلسطين، داعيًا الناس للالتحاق بالثورة، فسُكِبَت «الحرية» في دورقِهم، وسُلِّمَ لأبي غربية مسدس، وبندقية. وتركت هذه التجربة ـ رغم قصرها ـ تأثيرًا عميقًا في نفس، وخبرة المجاهد، حيث تنقّل في قرى «مثلث الرعب»، على غرار التسمية الإنجليزية للمثلث الفلسطيني، لكثرة الثوار في نطاقه. وتوسعت عمليات الثوار في المرحلة التالية للثورة، ودارت عدة معارك كبيرة. وكان لدخول قوات فوزي القاوقجي أثر في تطور مجرى العمليات الحربية[١٩].

تكاتف الحسيني مع المجاهد ابن سوريا سعيد العاص، منذ بداية اشتعال الثورة، على تشكيل قوة ثورية مسلحة، للعمل في جبال القدس، وبيت لحم، وجوارها. تزامن ذلك مع مضاعفة القمع الإنجليزي للثورة، فصدر مرسوم الأحكام العرفية (٣٠/ ٨/ ١٩٣٦). وتفاقمت حدة المعارك في المرحلة الأخيرة من الثورة، حتى توقفت تحت ضغط اللجنة الملكية، ووساطة اللجنة العربية العليا، يُتَوِّجها نداء الملوك، والأمراء العرب. وتم تصفية الثورة على أساس إلغاء الفرمانات، ووقف عمليات التفتيش، والعفو العام عن المتهمين بحوادث الثورة، إلى ذلك، إطلاق سراح المعتقلين[٢٠].

وصلت اللجنة الملكية، واقتصر استقبالها على الإنجليز واليهود، وبدأت في البحث عن أسباب الثورة، فتوصلت إلى تقرير يحوي توصيات، مغزاها إنهاء الانتداب لاحتواء الإضراب، مع تقسيم البلاد بين العرب واليهود، فاحتج الطرفان، بيد أن اليهود اعترضوا على الحدود التي رسمها المشروع، ووصفوها بأنها «غير مرضية»، حينئذ، رفض

العرب فكرة التقسيم، من جذورها، واستأنفوا الأعمال المسلحة للثورة، حتى في وجود اللجنة الملكية تلك! حيث تم اغتيال مسؤولين وعملاء بريطانيين[٢١].

واستمرت الثورة

وقع الانقسام الفلسطيني، عام ١٩٣٧، عشية صدور قرار لجنة بيل، وخروج «الدفاع» من اللجنة العربية العليا، واستؤنفت الثورة، فكانت أخطر حادثة ثورية تمت، في ذلك الوقت، حين هاجم الثوار في شوارع الناصرة «المستر آندروز»، حاكم لواء الخليل، و«المستر غوردن» مساعد حاكم اللواء، اللذين كانا يُعَدان أهم الشخصيات الإنجليزية، فقُتِلا مع حرَّاسِهِما[٢٢].

كانت ليلة ١٤- ١٥/ ١٠/ ١٩٣٧ بمثابة ساعة الصفر المحددة لهجوم مجموعات ثورية مسلحة لشن هجمات عسكرية واسعة النطاق، في منطقة القدس، على الدوريات الإنجليزية بالقرب من الخليل، إلى ذلك فك خطوط السكك الحديدية، والسيارات ومهاجمة المستعمرات الإنجليزية، كصرخة لرفض التقسيم، حتى أدركت بريطانيا عدم جدوى ذلك[٢٣].

عاد الحسيني إلى فلسطين، في خريف ١٩٣٧، متَّخِذًا من جبال القدس ميدانًا لنشاطه العسكري، ومنتقِلًا من قرية لقرية، لإعادة تنظيم فصائل الثوار في البلاد، كما نظَّم علاقاته مع الثوار السريين في مدينة القدس، وهاجم الإنجليز، والمستعمرات اليهودية[٢٤].

تجلى دور «الحرية» في المرحلة الثانية من الثورة، وبرز دور جيل جديد من فتيان مدينة القدس الأبطال، فقاموا مع الثوار بتنفيذ العمليات الفدائية الثورية. فقاموا بمهاجمة اثنين من حرس «الجامعة العبرية»، إلى ذلك، محاولة الهجوم الفاشل على مقهى يهودي بالقرب من (C.I.D)، «دائرة التحقيق الجنائية»، فقتلوا اثنين من رجال الجيش الإنجليزي، إلى الهجوم على العميل (هـ) بالقدس، ما قاد، كصدى لتلك العمليات، إلى تحرير مدينة القدس القديمة لأسبوع كامل[٢٥].

مارس أبو غربية الصحافة، واحتك بالمحاكم العسكرية البريطانية، في القدس، كممثل للصحافة العربية، فقد عاد بعد انتهاء الإضراب العام خريف (١٩٣٦) للتدريس، وسرعان ما استقال، ربيع ١٩٣٧، متجهًا للصحافة، فكان مراسلًا في القدس لجريدة «الجامعة الإسلامية»(*)، آنذاك[٢٦].

بلغت الثورة أوجها صيف ١٩٣٨، واتسع تنظيمها، واشتدَّ عنفوانها، فاحتل الثوار المدن، لا سيما القدس، وقامت العديد من المعارك الرئيسية، منها سلسلة معارك جبال القدس الغربية، لكن عام ١٩٣٩ مثَّل انحسارًا للثورة. وصدر «الكتاب الأبيض» (١٧/ ٥/ ١٩٣٩) عن حكومة لندن، وفيه دعت لندن بتقنين الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومنع

(*) الجامعة الإسلامية: جريدة يومية صدرت في يافا اعتبارًا من ١٨-٥-١٩٣٣، وامتلكها وترأس تحريرها الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، قبل أن يسلّم رئاسة التحرير إلى علي ناصر الدين، ثم سامي السرّاج. وقد حُسِبَت هذه الجريدة على الثورة المضادة في فلسطين، وإن أيدّت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية في مرحلتها الأولى.

ـ الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠.

(انظر: عبد القادر ياسين، **الصحافة العربية في فلسطين**، ص ٤٤١، ٤٤٧.

انتقال الأراضي إليهم، مع منح فلسطين الاستقلال بعد عشر سنوات. مع ذلك، أثار هذا الكتاب الخلافات في أوساط العرب، عامةً، والفلسطينيين على التحديد، فرفضوا ذلك الكتاب، وعلى رأسهم قادة الثورة، وبالذات الحاج أمين الحسيني[٢٧].

تفاقم عزل الثورة عن محيطها العربي، بتشديد الحراسات على الحدود، ومع جدية الإضراب العام، الذي استمر لمدة ستة أشهر متصلة، وإلى جانب حرب العصابات التي دامت ثلاث سنوات ضد الإنجليز، والصهاينة، لا سيما في العام ١٩٣٩، فقد حاولت السياسات البريطانية إرضاء العرب، فعملت على تهدئة العرب، وتوسيع الانقسام بينهم، ومحاولة احتوائهم في معسكرها في الحرب المتوقعة[٢٨].

وأد الثورة

بدت إنجلترا مصممة على إنهاء الثورة، وتهدئة العرب خلال الحرب، فجاء تقرير «لجنة وودهيد» (٩/ ١١/ ١٩٣٨)، لاغيًا مشروع لجنة بيل لتقسيم فلسطين، على أساس قابليته للتطبيق، ودعا التقرير للقيام بمحاولة جديدة لحل القضية الفلسطينية، مثل اقتراح عقد مؤتمر يحضره الزعماء العرب واليهود، الشيء الذي رحب به العرب، واستاء منه اليهود! وقَبِلَ المفاوضان إخماد الثورة، وأُفرِجَ عن العرب. واتجه نشاط «الحرية» منذ ذلك الحين (حتى انتهاء حرب النكبة) إلى تدعيم مقاطعة العرب لليهود تجاريًا، ومقاومة سمسرة بيع الأراضي[٢٩].

كانت ثورة رشيد عالي الكيلاني، في العراق ربيع ١٩٤١، من أبرز أحداث الحرب العالمية الثانية، فاحتلت بريطانيا العراق من جديد، حيث ساعد نوري السعيد، وغيره، على تسخير العراق لمصالح الإنجليز، وحلفائهم. وتم إنشاء «جامعة الدول العربية» أثناء الحرب بموافقة بريطانيا (١٠/ ١٩٤٤). تابع أبو غربية أخبار الحرب وهو في الكلية الإبراهيمية في القدس، وكان مؤمنًا بوقوف العرب مع الألمان، نهجًا لمبدأ «عدو عدوك صاحبك»، في حين كان رأي والده مناقضًا لذلك. وتطوّع أبو غربية في تشكيلات الدفاع المدني، بالقدس، أثناء الحرب[٣٠].

استهل، عام ١٩٤٦ - ١٩٤٧، واندمج التنظيم، بعد ذلك، في قوات «الجهاد المقدس» (١٩٤٧)، حين كان الحسيني قائدًا له، وكان من مبادئ هذا التنظيم السرية، واقتناء السلاح من حُر مال المناضلين، إلى جانب اقتنائه بسرية، وبقدر معين، مع القيام بالرحلات لمعرفة جغرافيا البلاد جيدًا، ما يخدم سُبُلَ أعمالهم النضالية، واعتمدوا إنجلترا عدوًا رئيسيًا لهم، وأخيرًا، فإن المناضل يجب ألا يتوقف عن النضال. حاول الشعب الفلسطيني في تلك المرحلة أن يتسلح بجهده الفردي، فمنذ أواخر ١٩٤٦ استعد القائد عبد القادر الحسيني، بالقاهرة، لشراء الأسلحة، وتوسيع نشاط منظمة «الحرية»، لا سيما أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي سنتي ١٩٤٦ - ١٩٤٧، فقد كانوا يشعرون بأنهم، تقريبًا، المنظمة العسكرية الوحيدة في القدس المسؤولة عن مواجهة العدو عسكريًا. فسافر أبو غربية إلى القاهرة للاجتماع مع عبد القادر الحسيني، حيث أعاد الحسيني تنظيم المقاتلين الثوريين في جيش الجهاد المقدس. وقام أبو غربية بصحبة رفاقه في التنظيم برحلة أسموها «رحلة الوداع»، كرسوا فيها تعميق حب الوطن. واجتاح البلاد إضراب عام (٢- ٤/ ١٢/ ١٩٤٧) احتجاجًا على قرار التقسيم، وقامت في القدس مظاهرة كبيرة في اليوم التالي للتقسيم، أدت إلى اصطدامات متفق عليها مسبقًا بين البريطانيين والعصابات الصهيونية المسلحة لإشعال نار القتال[٣١].

تكاملت حلقات المؤامرة الصهيونية على فلسطين مع نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم عُقِدَ مؤتمر لندن الثاني (٩/ ٢/ ١٩٤٧)، حيث رفض العرب واليهود مقترحات وزير الخارجية البريطاني، آنذاك، إرنست بيفن. فحوّلت لندن قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة، في نيسان/ أبريل ١٩٤٧، التي شكّلت لجنة دولية لجمع المزيد من حقائق الموقف في فلسطين، والتوجيه بما تراه معالجة لهذا الموقف، الأمر الذي أفضى ـ كما هو معروف ـ بتوجيه أغلبية أعضاء اللجنة الدولية بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وانتهى الأمر بصدور قرار تقسيم فلسطين عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧). واتخذت بريطانيا قرارها بإنهاء الانتداب، والانسحاب، وحظَرت الولايات المتحدة (٥/ ١٢/ ١٩٤٧) دخول السلاح إلى فلسطين، تمهيدًا لاحتلالها، في حين بدأ الصهاينة يستعدون لإقامة الدولة الصهيونية، فبدأ التسجيل في الخدمة العسكرية، ثاني يوم التقسيم، وتفاقم المجهود الحربي الصهيوني الأمريكي، كما ازداد إدخال السلاح لليهود، لا سيما من تشيكوسلوفاكيا، وأقام اليهود جبهة موحدة لهم.

اشتهرت منظمة «الحرية» في القدس، حتى كادت تُضاهي المنظمات الصهيونية قوةً وحضورًا. ونشطت الحركة الصهيونية، أثناء الحرب، للإفادة من ظروفها، وبالرغم من شبه انقطاع العلاقات اليهودية ـ البريطانية أثناء الحرب، فإن الصهاينة ساندوا بريطانيا، رغم استيائهم من «الكتاب الأبيض» الأخير، وقد عملت بريطانيا على محو سياسة «الكتاب الأبيض» أثناء الحرب، وبعدها، عن طريق استمرار هجرة اليهود، مع ممارسة النشاط الإرهابي، ومرونة النشاط السياسي، الذي أدى لتأييد الولايات المتحدة للخطط الصهيونية[٣٢].

عاد عبد القادرالحسيني إلى فلسطين (٢٢/ ١٢/ ١٩٤٧)، واشتدت المقاومة، فكانت إصابة أبو غربية الأولى، وسجنه، جراء محاولة الصهاينة الاعتداء على عمارة الأوقاف، حيث ظلَّ أبو غربية ورفاقه في حراستها حتى تم اعتقاله. واستشهد أخوه شفيق أثناء سجنه، فكان لا بد من الهرب لمواصلة القتال الذي تبناه المجاهد، وغيره، لمجابهة الغول الصهيوني، لكنه خرج هو وكثير من المقدسيين من السجن. فقابل عبد القادر الحسيني، في اليوم التالي، لخروجه، للتشاور في أمر المقاومة[٣٣].

ركَّز الصهاينة في عملياتهم، خلال تلك المرحلة، على هجمات ليلية ضد حي الشيخ جرَّاح خلال عامي ١٩٤٨/٤٧. وبعد اشتداد القتال في جميع أنحاء فلسطين، والقدس، مارس البوليس الإنجليزي مهمة إقامة مواقع عسكرية للجيش على طول خطوط المواجهة بين العرب واليهود. وشُنَّ في القدس عدة هجمات على المدنيين. فنظَّم الحسيني عدة عمليات نسف، كان أشهرها نسف دار «الوكالة اليهودية»، وحي المونتفيوري، وبعض الشوارع الخاصة بالصهاينة[٣٤].

وصلت الحالة النفسية لأهالي القدس إلى غاية السوء، وبادر أبو غربية بتقديم استقالته للحسيني، لقلة السلاح في منطقته، وخوفه من اللوم إذا تم احتلال تلك المنطقة من العدو. وكانت إصابته الثانية (١٦/ ٢/ ١٩٤٨) في مناورات مع العدو[٣٥].

مخاض النكبة

في ١٠/ ٣/ ١٩٤٨ بدأ الصهاينة بتنفيذ الخطة «دالت»، الرامية لاحتلال القرى الفلسطينية. وغادر الحسيني

فلسطين متجهًا إلى دمشق لاستكمال احتياجات المواجهة. وفي نيسان/ أبريل ١٩٤٨ بدأت آثار تفوق اليهود في السلاح والعدد تطفو، فكانت معركة القسطل، التي قام الصهاينة باحتلالها، في ٣/ ٤/ ١٩٤٨، فحاول المناضلون العرب استردادها، وتمت المواجهة في ٤/ ٤/ ١٩٤٨، وعاد الحسيني إلى القدس، بعد أيام، حيث وزَّع السلاح على المجاهدين. فحوصر، ورجاله، في القسطل، وسرعان ما تحرك أبو غربية ورجاله إلى القسطل، ووقع الحسيني شهيدًا، فسيطر بعدها الأبطال على القسطل، برفقة أبو غربية، لكنها عادت وسقطت ثانيةً[٣٦].

اشتدت المعارك، خلال نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وكانت مذبحة دير ياسين (٩/ ٤/ ١٩٤٨)، في حين تدفَّق السلاح على العصابات الصهيونية المسلحة، وقاموا «بخطة يبوسي» لاحتلال كامل القدس[٣٧].

كانت إصابة أبو غربية الثالثة (٣٠/ ٤/ ١٩٤٨) من شظايا مرتدة عن حائط قريب للمقاتلين، أثناء قيامهم بإطلاق النار على العدو. وسُلِّمَ لأبي غربية من جيش الجهاد المقدس مدفع مورتر، من عيار ١٢ إنش، صُنعَ في ورشة حدادة محلية![٣٨].

تهيأت الجيوش العربية لدخول فلسطين، حيث كانت الأوضاع في قطاع أبو غربية (القدس) مشحونة بالاستعداد للمواجهة التي ستحدث بعد انتهاء الانتداب على فلسطين[٣٩].

بدأت العصابات الصهيونية المسلحة في إرهاب العرب الفلسطينيين، بصورة موسَّعة، عن طريق مكبرات صوت (١٢/ ٥/ ١٩٤٨)، لإجلاء الأهالي العرب، وإلا قتلتهم. ولم تتجاوز القوات العربية في القدس ألفي مقاتل قبل انتهاء الانتداب، حيث كانت القوات الصهيونية، هناك، أضعاف أضعاف العرب وعلى أعلى مستوى من التدريب، والتسليح! لكن إصرار ومثابرة العرب جعلتهم يعملون على مجابهة حصار الصهاينة للقدس، فمنذ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ توقف سير القطارات، إلى ذلك الطريق الوحيد لنسيارات، بين القدس الغربية وتل أبيب، الذي كان يُغلق بين الحين والآخر. فقد أطلق الصهاينة على الأيام ١٤/ ٥- ١٩/ ٥/ ١٩٤٨ «بالأيام الحمراء في القدس»[٤٠].

في انتظار الإخوة

بات أبو غربية وقواته، وكل أهالي القدس، ليلة ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ في حماس في انتظار الجيوش العربية التي ستدخل فلسطين. وفي الصباح، انسحب الجيش الإنجليزي من القدس، وسرعان ما فتح الصهاينة النار على امتداد خطوط التماس، وشنوا هجومًا لاحتلال مواقع «Zone» الإستراتيجية التي أخلاها الإنجليز. حيث انسحب الإنجليز من ناحية العرب، تمهيدًا لدخول الصهاينة خلفهم، والاستحواذ على الأرض العربية، جزءًا تلو الآخر، شيئًا فشيئًا. ورغم صمود مواقع أبو غربية، ورفاقه في القدس، فإن معنوياتهم كانت محطَّمة. حيث علت ميكروفونات العدو للعرب في سبيل دفعهم إلى الانسحاب داخل أسوار البلدة القديمة، وإلا سيُقتلون. وقد جاءهم أمر خطي من القيادة بالانسحاب. فاتفق المجاهدون مع قوات البلدة القديمة على شن هجوم معاكس، واستمر القتال سجالًا بين الطرفين. وانهمرت قذائف المدافع على البنايات، والمقاتلين، فتحصَّنوا بالخط الثاني للمنازل. وهدأت الجبهة في قطاع أبو غربية، حتى فاجأهم الصهاينة بكارثة خفَّضَت من معنويات «جيش الإنقاذ»، وهي هجومهم على حي النبي داود، الذي يقع على تل حصين ملاصق لسور البلدة القديمة، فانسحبوا منه يائسين[٤١].

كانت الجبهة هادئة ليلة ١٨- ١٩/ ٥/ ١٩٤٨، إلا أن شعورًا بالخطر انتاب أبو غربية، وجاء مدد من «جيش الإنقاذ»، فاضطر أبو غربية للنوم بعد ٢٤ ساعة داوم فيها على القتال. ثم اتفق أبو غربية، ومناضلوه على التوجه إلى حي الشيخ جراح، الذي كان محررًا بالكامل. فاتجهوا إليه، حيث فُتِحَ عليهم النار من رشاش سيائدو، وأصيب أبو غربية إصابات بالغة، كان لها أثر ظاهر في جسده طوال حياته. ورقد في مستشفى نابلس التي تعرضت للقصف. وخرج منها (١٧/ ٦/ ١٩٤٨) قاصدًا القدس. وهيأ أبو غربية نفسه للسفر إلى بيروت حتى يستكمل علاجه أثناء فترة الهدنة. فواجهته مشكلة عدم حيازته جواز سفر، فتحايل عليها. حيث عاد ثانيةً إلى الميدان، فارتفعت معنويات رجاله بعد عودته. وقاموا بعمليات قنص حذِرة ناجحة. وحاول أبو غربية القيام بعملية عسكرية مميزة أواخر سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، حيث لاقت الفكرة تأييد الجميع، لكن مع تهديد قائد اللواء (الإنجليزي) تم العدول عن الفكرة بتعليمات عليا[٤٢].

على إثر التوتر الشعبي الذي انتاب القدس من خطر سقوط بيت لحم، والخليل قرر أبو غربية الانتقال إلى بيت لحم، حيث استطلع، ورجاله، المنطقة، فتأكدوا من ضعف احتمال نجاح استردادها، وتم تعزيزهم هناك بفصيل سوداني. ولم تشكِ قوات أبو غربية، طوال الحرب، من نقص الذخيرة، أو نفادها، لا في القدس، ولا في صوريف، التي استقروا بها، ذلك لشدة حرص أبو غربية، وإشرافه اليومي المباشر على المنطقة، وإصداره تعليمات صارمة، بعدم تبديد الذخيرة، والاحتفاظ باحتياطي كبير منها. انحصرت مهمة أبو غربية، ومقاتلوه، في صوريف في منع التقدم المحتمل للصهاينة إليها، ومنها إلى طريق القدس ـ الخليل. وازداد خوفهم من شن هجمات رئيسية على مواقعهم، لا سيما عندما رأوا ضخامة حجم القوات الصهيونية في القرى، فانخفضت معنويات المقاتلين[٤٣].

استهل الشتاء، ولم يتوقف رجال أبو غربية عن القيام بدوريات ليلية، لكنها تقلّصت أحيانًا بسبب الهدوء النسبي للمنطقة، وكانت أكبر معركة ميدان خاضوها في ليلة ٢٤-٢٥/ ١٢/ ١٩٤٨ حين اقترب أفراد العصابات الصهيونية المسلحة من مواقعهم، وشنوا هجومًا على خِربة علّين، والدير، حيث قصفوهما قصفًا ثقيلًا، فبدت معنويات المقاتلين في أسوأ حال. وجاءتهم النجدة من الجنوب، ملتفة حول الصهاينة، فبدأ العدو في الانسحاب. وسرعان ما قَبِلَ حكّام العرب الهدنة الدائمة (٧/ ١/ ١٩٤٩)، وحين كان أبو غربية يتردد على القدس، لاستطلاع الأخبار السياسية، لم يلتقِ برجال حزب البعث إلا عابرًا. منذ عهد الانتداب البريطاني كان لأبو غربية مخابئ للسلاح، على أساس أن السلاح لا بد حتمًا أن يلازمنا في المستقبل، ما يُلزمنا إخفاءه[٤٤].

كفاح سياسي

بعد النكبة، وابتداءً من الخمسينيات، اتجه أبو غربية إلى النشاط السياسي الثوري، مع رغبته واستعداده للمشاركة في أي كفاح مسلح يمكن أن يخوضه شعبنا العربي، عندما تتهيأ الظروف لذلك. وفي رأي أبو غربية، كانت هناك، في مواجهة الهجمات الاستعمارية الصهيونية، على طول القرن العشرين، مدرستان، الأولى: «مدرسة النوري»، والأخرى «مدرسة الشعوب». فقد جرَّت المدرسة الأولى، المهادِنة للاستعمار، إلى الويلات، دون تحقيق أي مكاسب تُذكر، بل استُخدِم رجالها كأدوات في يد الغرب الاستعماري لتنفيذ المخططات الاستعمارية. فظل بترول العراق، خلال حكم نوري السعيد، مهدورًا لصالح «شركة بترول العراق الوطنية» (I.P.C)، وغيرها، ولم يُحرِز أي تقدم طوال عقود

الثلاثينيات، والأربعينيات، والخمسينيات. وكاد «حلف بغداد» ـ لولا المقاومة العربية الشعبية الجبارة، التي شلته ـ أن يصبح الحلف الاستعماري المركزي الذي ينسق، وينفذ الخطط، والمشاريع الاستعمارية، في المنطقة، التي كانت ضد مصالح العرب. أما مدرسة الشعوب، فكانت مدرسة التحرر الوطني، الذي اعتنق العقيدة السياسية النضالية. فحدث الفصام بين الشعب وحكامه في النصف الثاني من القرن العشرين[٤٥].

كتب أبو غربية خواطره :«أنا تائه»، يُنَقِّب فيها عن أسباب النكبة الحقيقية. وحدد أهداف المناضلين الأولى في هذه المرحلة في استرداد ما ضاع من فلسطين، وكانت الأداة لذلك تشكيل تنظيم عسكري مسلح سري جدًّا يموَّل بالضغط على الحكّام والأثرياء العرب، ليقوموا بشن حرب على الدولة الصهيونية لإسقاطها، فقد كان حينئذ الأمل في استرداد عقل، ووطنية الأنظمة العربية لا يزال ينبض بالحياة! كان الاتصال الأول المباشر له بحزب البعث حين زاره في القدس بعض قادة الحزب، حيث وجَّهوا له دعوة أولية للانضمام إلى الحزب، فعكف على دراسة دستورهم، ومنشوراتهم، وكان أكثر ما شده لأفكار الحزب دعوته إلى القومية، والعمل على تنظيم حزب على المستوى القومي، بما يؤدي لحشد تنظيم عربي كبير، قادر على قيادة الأمة إلى أهدافها. فسافر إلى عمّان، أواسط تموز/ يوليو ١٩٤٧، والتقى بعدد من قادة «البعث»، وكانت عضوية الحزب حينئذٍ سرية. وانتسب أبو غربية له، وغدا البعثي الوحيد، رسميًّا، في الضفة الغربية، وحاول استقطاب أعداد من نادي الطلبة، وأشخاص من الخليل، مثل داود سنقرط، الذي أصبح نقطة انطلاق، هناك، لكسب عدد كبير من الأعضاء، فضلًا على أعضاء النادي الرياضي[٤٦].

عاد أبو غربية للعمل كمدرس، بالإضافة إلى فاعلياته في «نادي الشباب العربي»، ونشاطه الحزبي. وحضر أول دورة تدريب للحرس الوطني في القرى والمواقع الحدودية، التي أسستها قيادة الجيش العربي الأردني. في حين كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يعتبر هذا العمل «عملية موجَّهة ضد الاتحاد السوفييتي»! وعندما خلّفت حرب النكبة عددًا كبيرًا من الجرحى، والمعوقين، فكانت أكبر نسبة في القدس، مما حفَّز لإقامة مشروع في القدس لتشكيل «رابطة المناضل الجريح»[٤٧].

عُدَّ «الحزب القومي السوري الاجتماعي»، في لبنان، الحزب الوحيد الذي سبق «حزب البعث» في الانتشار خارج القطر، أما «حركة القوميين العرب»، فكانت لا تزال تيارًا فكريًّا، لا أكثر، وبالإضافة إلى ما ذُكِرَ، فقد كان في فلسطين الحزب الشيوعي، وعصبة التحرر الوطني، وجماعة الإخوان المسلمين[٤٨].

شعر مناضلنا، بعد فترة، بضرورة انضمام بعض الشخصيات، ممن يتمتعون بعلاقات اجتماعية مميزة. وفي أواخر عام ١٩٤٩ وأوائل عام ١٩٥٠ شهدت الضفة نشاطًا لتشكيل أحزاب سياسية، بعد أن فقدت الأحزاب السياسية الفلسطينية وجودها. فكان موسى بك العلمي يحاول أن يكون الأب الروحي لحزب جديد[٤٩].

أعلنت الجامعة العربية توصية في ١٥ آيار/ مايو ١٩٥٠ بفصل الأردن، وضم الضفة الغربية لها، ولم يبق غير «الهيئة العربية العليا»، غير معترفة بالضم، فقد باتت حكومة «عموم فلسطين» اسمية مفكّكة. وعلى الصعيد الشعبي، أعلنت «عصبة التحرر الوطني» عدم موافقتها على الضم، أو إجراء الانتخابات النيابية، وتمسكها بقرار التقسيم. كما رفضت مصر، وسوريا، ولبنان، والسعودية، واليمن الضم، واعترفت بحكومة عموم فلسطين، في حين اقتصر تحبيذ الضم على الأردن، والعراق[٥٠].

أمّا موقف أبو غربية، و«حزب البعث»، فوجد أنه لا مناص من الموافقة على الضم عمليًّا، وواقعيًّا، وبالتالي فلا بد من المشاركة النيابية لتوسيع رقعة النضال العربي، إلى جانب، الرغبة في التوحد فيما بين الدول العربية، كما أنه لا يمكن، عمليًّا، إقامة حكومة مستقلة في الضفة الغربية. ورغم شعبية أبو غربية، فإنه لم يحاول ترشيح نفسه في أول انتخابات نيابية، لعدم قناعته بجدوى النضال النيابي، وإيمانه بضرورة التغيير الجذري، فعمل على دعم غيره من المرشحين في القدس لجدوى ذلك مرحليًّا[٥١].

فليشهد التاريخ

اجتمع كبار الشخصيات العربية في أواسط شهر تموز/ يوليو (صيف ١٩٥٠) في المدرسة الرشيدية، بالقدس، تحت احتياطات أمنية موسَّعة، تخطاها أبو غربية، وبعض رجال الحزب، ودخلوا قاعة المؤتمر الذي كان يتدارس إمكانية قبول عرض ملك الأردن، عبد الله بن الحسين، بالتصالح مع الدولة الصهيونية! ومع تبادل الآراء، بين الحاضرين، أقر من يوافق، ومن يرفض مبدأ المصالحة، على رفض تلك الفكرة، وتخوين من ينادي بها[٥٢].

لم تكن القيادة القطرية لحزب البعث قد تبلورت في الأردن حتى عام ٤٩- ١٩٥٠، حين عقد الحزب في سوريا مؤتمرًا قطريًّا «مؤتمر اللاذقية»، حمل اهتمامًا بالغًا بالقضية الفلسطينية، ما سرَّ أبو غربية[٥٣].

يُعد اغتيال رياض الصلح، رئيس وزراء لبنان، الذي كان يزور الأردن (١٦ تموز/ يوليو ١٩٥١)، بمثابة إشعال الفتيل في القدس عندما اعتزم الملك عبد الله صلاة الجمعة هناك، وإلقاء خطبة بعدها في الناس، حيث سُمِعَ من إذاعة القدس، أثناء الصلاة، صوت الرصاص، وسرعان ما قُبِضَ على الكثير من الفدائيين، ومنهم أبو غربية، ولم يُفرَج عنهم إلا بعد اعتراف المشتركين في عملية الاغتيال[٥٤].

لعب المجلس النيابي الأردني الأول، في أوائل الخمسينيات، دورًا وطنيًّا مميزًا، معزَّزًا بالنشاط الشعبي والحزبي، في الشارع، لتحرير الأردن من النفوذ الأجنبي، وكان من أهم إنجازات ذلك المجلس إصدار الدستور الأردني، وقانون تشكيل الأحزاب السياسية، حيث حصل «البعث»، بعد جولات، على الترخيص[٥٥].

ظلّت السلطات الأردنية تكافح «تسلل» الفلسطينيين إلى وطنهم!! وتُوقع بالمتسللين أشد العقاب. قامت ثورة ٢٣/ ٧/ ١٩٥٢ الوطنية المصرية، وتم إسقاط الحكم الملكي عن مصر، فتعزز الوضع الداخلي، والعسكري، وبدأت مجابهة الأحلاف الاستعمارية. كان رد فعل حزب البعث على تلك الثورة مؤيدًا لإنهاء ذلك النظام الملكي الفاسد، مع الترقُّب بحذر من توجهات الثورة، خاصةً مع انطلاقها من انقلاب عسكري، وليس من قاعدة جماهيرية شعبية[٥٦].

برز صراع بين حلفاء الأمس، الأمريكان، والسوفييت، واجتمعت دول العالم الثالث، عاقدين مؤتمرًا، في باندونج (نيسان/ أبريل ١٩٥٥) بزعامة نهرو، وعبد الناصر، وتيتو، الذي كان من أبرز قراراته عدم انحياز دول العالم الثالث إلى أيٍّ من المعسكرين، كحيادٍ إيجابي. تزامن ذلك مع بروز «حلف بغداد»، بين تركيا، والعراق، ثم انضمت إيران، وباكستان للحلف. وكان نوري السعيد يرى ضرورة اشتراك الأردن في الحلف، وكميل شمعون. وملأ السعيد سجونه بمقاومي الحلف. فعقدت القيادة القطرية اجتماعًا، استثنائيًّا، في عمّان، وألقت بثقلها في معركة مقاومة الحلف، ومحاولات ضم الأردن إليه، وإسقاط وزارة «هزّاع المجالي»[٥٧].

سالت دماء الشعب في معارك دامية مع الجيش بقيادة الضباط الإنجيلز، وقيادة الجيش الأردني على حدٍّ سواء. ما قضى بعد مجابهات بطرد الجنرال جون باجوت جلوب عن الأراضي الأردنية، وكانت الأشهر الأولى من عام ١٩٥٦ بعد طرده مرحلة متحركة، تحولت إلى صراع مكشوف بين الحركة الوطنية الأردنية وأعدائها[٥٨].

ثم هجم العملاق ثلاثي الأبعاد على مصر، والذي أثار وحشيته اعتراف جمال عبد الناصر بالصين، وصفقة السلاح بين مصر والمعسكر الشرقي (أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦)، ثم تأميم شركة قناة السويس (٢٦/ ٧/ ١٩٥٦). الأمر الذي عارضه نوري السعيد، وكل من إنجلترا، وفرنسا، والصهاينة، كما أعلن الاتحاد السوفييتي تأييده لتلك الخطوة ـ رغم صمته ثمانية وأربعين ساعة ـ مؤكِّدًا أن القناة تقع في الأراضي المصرية، ولمصر حرية التصرف فيها. وما كان على الإسرائيليين إلا اللجوء للإرهاب ـ كما هو واقعهم دائمًا ـ فقامت بمذبحة كفر قاسم، وفي الوقت نفسه، أذاقتهم المقاومة الشعبية في مصر الأمرَّين. واستعد أبو غربية، ومعه أربعون من رفاقه الذين شاركوا في حرب عام ١٩٤٨، بقيادة الجيش العربي في القدس، للاشتراك مع الجيش المصري في الحرب. وفي اليوم التالي، دعت «لجنة التوجيه الوطني» للاجتماع في القدس، وتقرر تشكيل قوة مقاومة شعبية، بقيادة أبو غربية، وتم تشكيلها، بالفعل، في غضون ثلاثة أيام[٥٩].

تم التآمر على الحركة الوطنية الأردنية من قِبَل الولايات المتحدة، وبريطانيا، ساندهما موقف الملك حسين، فشُنَّت حملة إعلامية، وتمت إقالة وزارة النابلسي (الوزارة الوطنية ٢٩/ ١٠/ ٥٦- ١١/ ٤/ ١٩٥٧)، التي تكوَّنت من ائتلاف حزبي عقائدي، مع افتعال أزمة عسكرية، لتصفية حركة الضباط الأردنيين الأحرار، وإعلان الأحكام العرفية التي جرى تحت وطأتها حل الأحزاب السياسية[٦٠].

انكشف أبو غربية على العديد من المسؤوليات العسكرية، على صعيد القطر الأردني، خلال عضويته في تلك القيادة، مما أهَّلهُ لقيادة الحزب في مرحلة النضال السري، بدايةً من نيسان/ أبريل ١٩٥٧ - آب/ أغسطس ١٩٥٧، وكان عليه الاختفاء لتحريك فاعليات قيادة الحزب، فانتقل للضفة الشرقية (نيسان/ أبريل ١٩٥٧)، وكان قد أمضى الأشهر السبعة الأولى من مرحلة الاختفاء في قلب القدس حتى يكون قادرًا على الاتصال بالحزب، وكانت أسلحته مخبَّأة في الكلية الإبراهيمية. وحين يئس من هدوء التفتيش عنه في القدس قرر الانتقال إلى عمَّان، كي تُسهَّل سبل الاختفاء، ويكون الاتصال بالحزب أيسر، فاتصل بأعضاء الحزب هناك، ودبروا له إمكانية تهريبه إلى هناك، فكمُنَ عشرة أيام بمنطقة عرب السوامرة، وغادرها حين اشتد التفتيش، ليقيم في عمَّان[٦١].

قامت «الجمهورية العربية المتحدة»، في ٢٢/ ٢/ ١٩٥٨، وسَعِدَ لها «البعث»، واعتبروا أن برنامج الحزب يعبر عن آمال الشعب حين لمسوا فرحة الشعوب العربية بتلك الوحدة، فقد كانت بمثابة انتصار للحركة القومية الوحدوية[٦٢].

قامت ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ في العراق، بقيادة عبد الكريم قاسم، وانتهى الحكم الملكي المستبد، وقضى الشعب على معظم أركانه، وكان الأمل في انضمام العراق إلى دولة الوحدة، ما كان له أثر في لبنان، والأردن، ومع أن البعثيين كانوا في الأردن يعملون على الانضمام للجمهورية العربية المتحدة، إلا أنهم ترددوا في الإقدام على اتخاذ خطوة ثورية في طريق الوحدة لخوفهم من احتمال قيام إسرائيل باجتياح الأردن، وإعطائها فرصة يمكن اغتنامها،

في هذا الصدد، لاحتلال الضفة الغربية، كما خاف «البعث» من نظام عبد الإله، والسعيد في العراق، إذا حدث تغيير جذري في الأردن. وبعد الثورة تغيَّر الموقف، تغيُّرًا إستراتيجيًا، حيث زالت مخاوف «البعث» من ردود الفعل، وأصبح الأمل كبيرًا في ذلك[٦٣].

ففي أوائل شهر تموز/ يوليو ١٩٥٨ وصلتهم من قيادتهم الخلفية، في دمشق، معلومات عن احتمال قيام حركة في العراق يمكن أن تشل خُطى السعيد على أية حركة يقوم بها في الأردن، ويجب على البعثيين الاستعداد للتحرُّك عند قيام أحداث العراق، وأبلغوا، بالفعل، قيادتهم العسكرية بذلك. وفي صباح يوم ١٤/ ٧ طلبوا التحرك فورًا، ومع توقُّعهم تدخُّلًا عسكريًا من بريطانيا، كان يجب أن تسبق حركتهم مثل تلك الخطوة، فطلبوا من تنظيمهم الحزبي، في عمَّان، القيام بمظاهرة في اليوم التالي، فطلب مهلة ثمانية وأربعين ساعة للتحضير، ثم عجز عن تنظيمها، ما كان دليلًا على أنه ليس على مستوى التنفيذ المطلوب، لضعف إمكاناته التنظيمية[٦٤].

فكر البعثيون في خيارات أخرى، مثل اغتيال الإنجليز، وتشكيل عصابات ثورية مسلَّحة في جبال جرش، وعجلون، وإربد، وبدأوا بالاستعداد للتنفيذ، فواجهتهم الصعوبات، منها انحراف ثورة العراق عن اتجاه الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، لحق هذا انسحاب الجيش البريطاني من الأردن سنة ١٩٥٩[٦٥].

نُظِّمَ المؤتمر الثالث القومي لحزب البعث العربي الاشتراكي في آب/ أغسطس ١٩٥٩، وقد كان حدثًا هامًّا في تاريخ «البعث» على مستوى النضال القومي العربي الوحدوي[٦٦].

بدأ «الاتحاد القومي» الذي فرضه النظام المصري على مصر وسوريا تنظيمًا سياسيًّا وحيدًا، يتصف بالمركزية، وتضاءل دور قادة الحزب، فنشب الخلاف داخل صفوف الحزب جراء الأخطاء، والتجاوزات، والمشاكل الإقليمية، فتم الدعوة لعقد مؤتمر قومي في خضم الخلاف، لكن القيادة القطرية في العراق رفضت ذلك، وعلى منوالها نسجت قيادة القطر الأردني. وانعقد المؤتمر فعلًا في بيروت أواخر آب/ أغسطس ١٩٥٩، وتداولوا المشكلة، وتكونت لديهم قناعة من خطورة وقوع انفصال في الوحدة المصرية السورية، يسهم الحزب في إحداثه، فقرروا الانسحاب من المؤتمر. وقرر المؤتمر الموافقة على حل الحزب في سوريا على أساس الأمر الواقع، لكن صيغة الحل كانت غير مجدية، فقد ظهر أن ذلك تغطية على إعادة تنظيم الحزب، ما أكده استقالة وزراء الحزب في الجمهورية العربية المتحدة بعد ثلاثة أشهر، وعقد المؤتمر الرابع في آب/ أغسطس ١٩٦٠، الذي قرر إدانة حل الحزب في سوريا بشدة، وأبرز أهمية الديمقراطية، ودور الحزب العقائدي، واستقلاليته. وكان على أبو غربية، ورفاقه، تحديد وصفهم التنظيمي، وتم تشكيل «حزب البعث الثوري»، ودعوة العرب للالتفاف حوله، وقرروا التراجع، وإحلال التشكيل الجديد، إذا أُثبِتَ فشلُه[٦٧].

كان من المستحيل القيام بنشاط حزبي في حكم عبد الكريم قاسم في العراق، أما سوريا، فقد كان الحزب محلولًا فعلًا، فلم يبق أمام البعثيين غير لبنان، وقد كان السجن أهون من اللجوء السياسي للمناضل[٦٨].

لم يبق أمامهم سوى التفكير في ثورة مشكَّلة من الطليعة، والجماهير المكبوتة، وكان لا بد لها من سلاح، وتدريب لمعظم أعضاء الحزب اللاجئين في سوريا. وانتشر الجيش الأردني على طول المنطقة، من قرية كفر سوم شمال الأردن، مجندين، ومسلحين، ما أدى إلى عدم إمكانية دخول رجال الحزب، فوصل نشاطهم إلى حد الانهيار، وقُبِضَ على أبو غربية في ٧/ ٨/ ١٩٦٠ وهو مصاب، وقضى في السجن سنتين، حفلا بأشكال التعذيب الجسدي، والنفسي[٦٩].

الوجه الآخر

بعد شهرين من خروجه، بدأ يبحث عن شريكة العمر، الذي ضعف الأمل عنده من وجودها، لكبر سنه، وكانت سهام توفيق أبو زهرة (أم سامي)، فتزوّجا في تموز/ يوليو ١٩٦٢، وعمل أبو غربية في فندق، كما أنشأ مزرعة دجاج لقلة دخله. وعُرِضَ عليه من قِبَل رجال موسى العلمي مشروع تطوير قرى الحدود الفلسطينية الأمامية، التي أصبحت فقيرة، بتمويل أمريكي كبير، من أصدقاء العلمي، وكان موقفه الرفض، كما عرض كمال عدوان (الشهيد لاحقًا) الانضمام إلى تنظيم «فتح»، الذي ينوي القيام بأعمال فدائية، من أجل تحرير فلسطين، والقضاء على العدو الصهيوني، قبل أن ينجح في صنع القنبلة الذرية، لكنه رفض لعدم وضوح الرؤية[٧٠].

بحثت مصر في إمكانية تشكيل قيادة شعبية جديدة لشعب فلسطين، ودعا عبد الناصر إلى عقد مؤتمر القمة العربي الأول (٢٣/ ١٢/ ١٩٦٣)، داعيًا الشقيري ليمثل فلسطين في المؤتمر، فكان من الثاني أن أعلن في المؤتمر الثاني، في الإسكندرية (خريف ١٩٦٤)، قيام «منظمة التحرير الفلسطينية»، حيث وافقت الدول العربية على ذلك، تجنبًا لخطر العمليات الثورية الفلسطينية، واحتمال جرّهم إلى حرب جديدة[٧١].

عقد المؤتمر الفلسطيني الأول «المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الأولى» في ٢٨/ ٥/ ١٩٦٤، وكان اسم أبو غربية ضمن أربعة عشر اسمًا كوَّنوا اللجنة التنفيذية الأولى لمنظمة التحرير الفلسطينية، حيث كان مقرها الرئيسي في بناية داخل حي الشيخ جرَّاح بالقدس[٧٢].

طلب الشقيري من رجال المنظمة في عمّان اقتراح مُطالبة الحكومة الأردنية إقرار التجنيد الإجباري في الأردن، حيث رفض أبو غربية ذلك، لعدم تحملهم تبعاته في نطاق الدولة المضيفة[٧٣].

شنت حركة فتح هجومًا على المنظمة منذ بدأت، وتكوَّنت «قوات العاصفة» في ١/ ١/ ١٩٦٥، فكانت تمثل النشاط العسكري للحركة، حيث قامت، في اليوم نفسه، بأول عملية لبدء الثورة الفلسطينية. الأمر الذي أدى للخلاف، حيث كانت العمليات في نظر الناقدين مرتجلة عسكريًا، وبدأت في وقت غير مناسب، وغير مؤثِّرة على العدو[٧٤].

كان الشقيري يتعاطى الديمقراطية ظاهريًا، كما كان غير مقتنع بأن الإطار الشعبي يمكن أن يشكِّل قاعدة للمنظمة، ودأب على رفض أي مقترح للجنة التنفيذية بتوسيع دائرة التنظيم الشعبي[٧٥].

تم استدراج العرب إلى حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ التي كان لأبو غربية ورفاقه دور مأساوي فيها، من خلال اشتراكهم في معركة القدس، التي استُشهِد فيها شقيقه الأصغر صبحي[٧٦].

شارك أبو غربية في اللجنة التنفيذية الثالثة للمنظمة، وكان عليهم أن ينهضوا بها، بعد هزيمة حزيران/ يونيو، لمضاعفة نشاطها، وشعبيتها، ومعالجة شؤون النازحين، والشعب الفلسطيني تحت الاحتلال. وفُقِدَ مكتب المنظمة بالقدس، وانتقل المقر إلى عمّان. وعملوا على تشكيل قوات فدائية «قوات التحرير الشعبية»، وأُعيد تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني على أسس جديدة، بعد استقالة الشقيري. فتم شراء صفقة كبيرة من الأسلحة من بلغاريا، وعزَّزوا منظمة «أبطال العودة»، التي شكّلها قائد جيش التحرير الفلسطيني، اللواء وجيه المزني. وكانت معركة

الكرامة (٢١/ ٣/ ١٩٦٨)، التي صنعت من حركة «فتح» فاتحًا ثوريًّا، يبشر بالأمل في التحرير. وظلت بعدها أجواء التوتر السياسي والعسكري قائمة، وعُدَّ أخطر صدام عسكري في هذه الفترة، ما عُرِفَ بأحداث ٤/ ١١/ ١٩٦٨ العسكرية، حين دفع النظام الأردني الجيش العربي الأردني للتصادم والاقتتال مع الفدائيين الفلسطينيين في محاولة للقضاء على العمل الفدائي[٧٧].

سكون العاصفة

ثم حدث التحول في نهج المنظمة السياسي إلى نهج التسوية، رغم مصاحبة التوسع في الكفاح المسلح بهذه المرحلة، في حين أكّد الملك حسين التزام الأردن بالتسوية السياسية، وفق قرار مجلس الأمن (٢٤٢)، منتقدًا المعارضين للتسوية، وحفلت سنتا ١٩٦٩ و١٩٧٠ بالأحداث السياسية، والاشتباكات المسلحة بين الفدائيين والنظام الأردني، واستمر التحريض الإعلامي الأردني. وفي ٧/ ٦/ ١٩٧٠ شنَّ الجيش هجومًا واسعًا على مراكز الفدائيين في مدينة الزرقاء، لكنه جوبه بمقاومة عنيفة، وسقطت أعداد من الجرحى. وامتد الاشتباك إلى عمَّان، وانحنى الملك حسين للعاصفة، ولكن مؤقتًا [٧٨].

لاحت حرب الاستنزاف على طول امتداد قناة السويس في شكل قصف مدفعي وهجمات كوماندوز، واستمرت لمدة ثلاث سنوات، أدت إلى إجبار العدو على بناء خط التحصينات على شاطئ القناة (خط بارليف). ثم فوجئت حركة المقاومة بقبول مصر لمبادرة وليم روجرز (٢٢/ ٧/ ١٩٧٠)، وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك، التي تقوم على وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل لمدة تسعين يومًا لإعادة ترتيب دفاع مصر الجوي، وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، بهدف التوصل إلى اتفاق حول إقامة سلام عادل ودائم بالمنطقة[٧٩].

شارك أبو غربية في اجتماع اللجنة المركزية للمنظمة في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، وكان تقدير الحضور للموقف هو أن تلك الإجراءات من النظام الأردني مجرد حرب أعصاب للضغط على الطرف الفلسطيني. ومساء ١٧ أيلول/ سبتمبر استيقظ أبو غربية على صوت قصف مدفعي رهيب يغطي مدينة عمَّان، فقد كانت معركة أيلول الأسود. واستمر تبادل إطلاق النار، وتخلله اجتماع للرؤساء العرب في مصر، حضره أبو غربية، وطالب الطرف الفلسطيني بالتدخل العربي العسكري إلى جانبه لإيقاف تلك المذبحة. حتى كان يوم ٢٧ أيلول/ سبتمبر، الذي وقَّعَ فيه الرؤساء العرب على «اتفاق القاهرة» لوقف هذه المجزرة[٨٠].

انتُدِبَ أبو غربية للإشراف على تنفيذ الاتفاقيات في إربد، وكان المرض قد بدأ بمهاجمته، بصورة قوية، كما قرر أن يستقيل من عضوية اللجنة التنفيذية للمنظمة [٨١].

بعد إنهاء العمل الفدائي في الأردن قدَّرت عدة جهات أنه أصبح من السهل إجراء مفاوضات لتصفية القضية الفلسطينية على أساس قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢). وطرحت اللجنة التنفيذية على المجلس الوطني (١٩٧٤) البرنامج السياسي المرحلي «برنامج النقاط العشر». وبدأت الحرب اللبنانية الأهلية (ربيع ١٩٧٥)، وتطور الوضع عندما دخل الجيش السوري إلى لبنان (صيف ١٩٧٦)، حيث جرت بينه وبين الفدائيين اشتباكات واسعة، اغتيل خلالها كمال جنبلاط، رئيس الحزب الاشتراكي اللبناني (آذار/ مارس ١٩٧٧)[٨٢].

وقعت أحداث جسام، منها الحرب ضد المخيمات الفلسطينية، التي بدأتها «أمل»، في آيار/ مايو ١٩٨٥، ثم الانتفاضة الفلسطينية الأولى، أواخر عام ١٩٨٧، وطُرحت فكرة إقامة دولة فلسطينية على جزء من الأرض، فكان موقف أبو غربية الرفض المُعلن، إلا إذا فُرِضَت تلك الدولة على العدو الصهيوني، دون المفاوضات، والتسويات. في حين تم موافقة المجلس الوطني، لاحقًا، على إجراء تسوية سياسية مع دولة العدو الصهيوني تحت غطاء «مؤتمر السلام»، فاستقال أبو غربية، بعد أن اقتنع بأن المعارضة من داخل إطار منظمة التحرير الفلسطينية، ومجلسها الوطني، لم تعد ذات جدوى[٨٣].

سارت العملية السلمية في خط متتابع ابتداءً من مؤتمر مدريد (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١)، إلى اتفاق أوسلو (١٣/ ٩/ ١٩٩٣)، التي أدت بالقضية الفلسطينية إلى متاهة، وأدخلتها في مأزق لا يعلم أحد متى ستخرج منه. وظلَّ أبو غربية مناهضًا لكل عملية تفاوض تهدد عصب القضية الفلسطينية. ولا يزال شيخ المجاهدين يناضل في طريق التحرير والعودة بعضويته في عدد من الجمعيات والمنتديات، منها المؤتمر القومي العربي، المنتدى العربي بعمّان، المنظمة العربية لحقوق الإنسان في الأردن، لجنة التعبئة الوطنية للدفاع عن العراق، جمعية مناهضة الصهيونية والعنصرية، رابطة الكتَّاب الأردنيين، رابطة المناضل الجريح للعناية بمعاقي الحرب، جمعية رعاية المعتقلين والأسرى، وجمعية أصدقاء المعهد العربي بالقدس[٨٤].

كان مناضلًا، ولا يزال، منارةً نهتدي بها في طريق المقاومة، والتحرير، والعودة.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) بهجت أبو غربية، **مذكرات المناضل بهجت أبو غربية ١٩١٦ - ١٩٤٦، في خضم النضال العربي الفلسطيني**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣، ص٢-٣.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٣-٥.

(٣) د. حسن صبري الخولي، **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين**، المجلد الأول، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٣، ص ١١٢-١١٦.

(٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ٧٣-٧٤، ١٢٥-١٧٨.

- د. أميل توما، **جذور القصة الفلسطينية**، ط٣، دمشق، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دار الجليل، ١٩٨٤، ص٧٣-٧٧.

- نقولا الدُّر، **هكذا ضاعت .. وهكذا تعود**، ط٢، بيروت، إصدار خاص، أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣، ص١١-١٥، ٣٧- ٤١.

(٥) غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص١٣-٦٣، ٧٣- ١١٦.

(٦) أحمد صادق سعد وعبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٠**، ط١، بيروت، الاتحاد العام للكتَّاب والصحفيين الفلسطينيين، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥، ص ١٦.

(٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، سلسلة «دراسات فلسطينية»، رقم ١٠٢، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، آيار/ مايو ١٩٧٥، ص٥٢-٦٢، ٨٩-١٠٦.

- غنيم، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٩-٢٣٣.

(٨) ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٥-١٣١.

(٩) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨-٢٦، ٢٩-٣٠.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص٣٤-٣٦.

(١١) **المصدر نفسه**، ص٣٧.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص٣٨.

(١٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٩-١٦٣.

- عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية، الدروس المستفادة**، ط١، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ص١٧.

(١٤) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٨-٤٩.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٠.

(١٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- توما، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩- ١٦٠.

- ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨- ١٥٩.

(١٧) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٣- ٧٠.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص٧٢- ٧٩.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص٢٨- ٨٤.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص٨٤- ٩٢.

(٢١) ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨- ١٩.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٧- ٩٩.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩- ٢٠.

(٢٣) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٩-١٠٠.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ١٠١.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٠٢-١١١.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ١١٢.

(٢٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨-٢١.

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠-١٣٣.

(٢٨) ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨-٢١.

(٢٩) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٣، ١٢٦-١٢٧، ١٢٩، ١٣٨.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٣٥-١٣٧.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص ١٥٤-١٦٢.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٣-٢١٤.

- سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص١٣.

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٣٩-١٤٢.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧-٢٩.

- www.alsbah.net

(٣٣) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦٢، ١٦٧، ١٧٠، ١٨٠.

obeikan.com

(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ١٨٤-١٨٧.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨٩.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠.

أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩٦، ١٩٩، ٢٠٤-٢١٤.

(٣٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩.

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢٠، ٢٢٩-٢٤٣.

(٣٨) **المصدر نفسه**، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣٩) **المصدر نفسه**، ص٢٦١-٢٦٢.

(٤٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦.

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦٣-٢٦٥، ٢٦٧-٢٦٩.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩.

(٤١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧٠-٢٧٩، ٢٨١-٢٨٦.

- ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٤.

(٤٢) أبو غربية، مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٥-٢٩٦، ٣٢٢، ٣٢٣-٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٤ - ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٤.

(٤٣) **المصدر نفسه**، ص٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٧٩.

(٤٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص٣٧٦-٣٨٠، ٣٨٤-٣٨٥، ٣٩٠-٣٩١.

- (اتفاقية) الهدنة الدائمة بين الأردن وإسرائيل:

www.group194.net

(٤٥) بهجت أبو غربية، **من مذكرات المناضل، بهجت أبو غربية، من النكبة إلى الانتفاضة (١٩٤٩-٢٠٠٠)**، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ص٢، ٥-١١.

(٤٦) **المصدر نفسه**، ص ١٨-٢١.

(٤٧) **المصدر نفسه**، ص٢١-٢٣.

(٤٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة، حركة القوميين العرب:

www.ar-wikipedia.org

obeikan.com

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦.

أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣.

(٥٠) **مفكرة فلسطين:**

com.www.forums.ibbv

(٥١) أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩-٣٠.

(٥٢) **المصدر نفسه**، ص٣٣.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص٣٧.

(٥٤) رياض الصلح..أسباب وتداعيات اغتياله:

www.aljazeera.net

(٥٥) **الحياة البرلمانية في الأردن:**

www.intekhabat.org

(٥٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٦- ٣٨.

- سعد ، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٠.

(٥٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **مؤتمر باندونج:**

www.omanss.com

- عبد القادر ياسين (محررًا)، **أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية**، ط١، دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات، حزيران/ يونيو ٢٠٠٦، ص٢٩-٦٦.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٨، ١١٢- ١١٣ ، ١٣٣ - ١٣٩.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص١١٥، ١٢١.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٠-٤١.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٠- ١٦٠.

- سعد ، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٥.

(٦٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٩.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦١- ٢٠٤.

(٦١) **المصدر نفسه**، ص٢-٥- ٢٠٦، ٢٠٨- ٢١١.

obeikan.com

(٦٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٩.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١١-٢١٢.

(٦٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤١.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٢- ٢١٣.

- ياسين، أربعون...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦٩.

(٦٤) أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٣.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٧.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٣-٢١٤.

(٦٦) **المصدر نفسه**، ص٢١٥-٢١٦.

(٦٧) **الوحدة المصرية السورية..الإنجازات والإخفاقات:**

www.alquds.com

ـ أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١٧-٢٢٢، ٢٢٤-٢٢٦، ٢٢٨.

(٦٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، أربعون...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٩ .

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٧.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٣١.

(٦٩) **المصدر نفسه**، ص٢٣٥-٢٣٩.

(٧٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٠٥.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٢-٢٥٣، ٢٥٥.

(٧١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٢-٤٣.

- ياسين، أربعون...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩٩-٦٦.

(٧٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **منظمة التحرير الفلسطينية:**

www.zuhlool.org

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٩-٢٦٦.

obeikan.com

(٧٣) **المصدر نفسه**، ص٢٧٩.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص ٢٦٧-٢٧٦.

- **القضية الفلسطينية رؤية ثورية**، القاهرة، مركز الدراسات والبحوث الاشتراكية، د. ت، ص٤٦.

(٧٥) ياسين، أربعون...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٩-٧٤.

(٧٦) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٨.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٩١-٣١٧.

(٧٧) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٢-١٤٤.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣٣-٣٣٧، ٣٩٦-٤٠٤.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١.

(٧٨) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **موقع إليكتروني، دمشق أونلاين، قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢:**

www.damasus-online.com

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٩٤، ٤٠٥، ٤٠٩-٤١٠، ٤١٢.

(٧٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، حرب الاستنزاف:**

www.ar-wikipedia.org

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢.

(٨٠) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- بدون اسم مؤلف، القضية الفلسطينية رؤية ثورية، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٨.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢-٥٣.

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٣٠- ٤٤٦.

- **ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:**

www.ar-wikipedia.org

(٨١) أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٥٠، ٤٥٨، ٤٧٢.

(٨٢) موقع إليكتروني، د.بشير موسى نافع، **مجلة العصر**: الجماعة الوطنية والعقل السياسي الفلسطيني يعيشان أزمة مستحكمة:

www.ar.wikipedia.org

obeikan.com

(٨٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة، حرب المخيمات:

www.ar-wikipedia.org

- أبو غربية، من مذكرات...، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١١، ٥١٢، ٥٢٢، ٥٢٥.

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٧.

- بدون اسم مؤلف، القضية الفلسطينية رؤية ثورية، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٢.

(٨٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٥-٩٧.

- بدون اسم مؤلف، القضية الفلسطينية رؤية ثورية، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٦-٧٠.

- د. عماد جاد، **فلسطين الأرض والشعب من النكبة إلى أوسلو**، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، ٢٠٠٣، ص٢٧٤-٢٨٣.

- **المصدر نفسه**، ص٥٤٨.

* * *

obeikan.com

الفصل السادس

الأب عطا الله حنا
راعي الكنيسة ورمز الوطنية

هشام محمد عبد الرؤوف

تعوَّد الناس على أن يترجموا لأشخاص قد رحلوا عن عالمنا، فيبرزوا لنا ميلادهم، وظروف نشأتهم، وحياتهم، ودورهم، حتى وفاتهم، ورحيلهم عن عالمنا.

أما أن تترجم لِعَلَم لا يزال حيًّا، متصلًا بأكثر القضايا العربية سخونة، وأشدها اشتعالًا، فأمرٌ نادر؛ لأنك تمس الواقع، فهل يمكن أن نترجم لذلك الرجل، الذي جاب العالم ـ بثيابه الدينية السوداء، وقلنسوته البطريركية، وصليبه المتدلي على صدره ـ حاملًا رسالة العروبة من وطنه إلى الضمير الإنساني، مبينًا حقيقة معاناة شعبه أمام جرائم المحتل الصهيوني.

«وأشكر الله على أنني نجم إعلامي في الدفاع عن قضايا أمتي».

«هاجسنا الأول الحفاظ على المؤسسات، والمقدسات».

هذه كلماته انتي تحمل الدافع الأول للرجل في مواجهة كل المصاعب الدينية، والسياسية، في الداخل، والخارج، على حدٍّ سواء.

فلنتعرف على شيء من تاريخ هذا الرجل، الذي من واجبنا تجاهه، وتجاه الأجيال القادمة، أن نضع صورته في مقدمة المناضلين، الذين أجمعت عليهم الأمة، مثل: الشيخ عز الدين القسام، عبد القادر الحسيني، وخليل الوزير (أبو جهاد)، وأبو علي مصطفى، والشيخ أحمد ياسين، ود.عبد العزيز الرنتيسي، وخالد مشعل، وحسن نصر الله.

obeikan.com

المولد والنشأة

الاسم: الأرشمندريت الأب د. عطا الله حنا.

الناطق الرسمي باسم الكنيسة الأرثوذكسية في القدس، والأراضي المقدسة.

ولد في ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٦٥، في قرية الرامة (الجليل)، وفيها أنهى دراسته الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، ومن ثم التحق بالمدرسة البطريركية الإكليريكية بالقدس.

مسيرتة الكنسية

التحق عام ١٩٨٣ بكلية اللاهوت، التابعة لجامعة سالونيكي في اليونان، وبعد تخرجه، بامتياز، تابع دراساته الأكاديمية اللاهوتية، وحصل على الماجستير، والدكتوراه من الجامعة ذاتها.

عام ١٩٩١ رُسِّم شمَّاسًا وكاهنًا في «كنيسة القيامة» بالقدس.

منحه البطريرك الراحل، ذيوذوروس الأول درجة أرشمندريت.

عُيِّن مسؤولًا عن القسم العربي في البطريركية الأرثوذكسية في القدس، وناطقًا رسميًّا باسم الكنيسة الأرثوذكسية في القدس، والأراضي المقدسة، إضافة إلى كونه واعظًا في كنائس البطريركية.

تقلد منصب أمين سر، وسكرتير المجلس المختلط الإكليريكي العلماني لبطريركية الروم الأرثوذكس بالقدس.

انتدب أستاذًا للتربية الدينية المسيحية في مدرسة مارمتري في القدس، التي عمل فيها مدة خمسة أعوام متصلة.

عَلَّم موضوع التربية الدينية المسيحية مدة عشرة أعوام في المدرسة الأرثوذكسية، في الرملة، وفي الكلية العربية للتربية، في مدينة حيفا.

انتدب أستاذًا لموضوع تاريخ الكنيسة، والحضارة العربية، والتربية، في الكلية العربية للتربية، في حيفا، حيث عمل هناك سبعة أعوام [١].

انتخبه المجمَّع المقَّدس لبطريركية الروم الأرثوذكس في القدس برئاسة غبطة البطريرك ثيوفيلوس الثالث، صباح الخميس، الأول من ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥، بالإجماع، مطرانًا، وأعطي لقب (رئيس أساقفة سبسطيه)، وقد أُبلغ المطران المنتخب، رسميًّا، بهذا القرار، حيث تم استدعاؤه إلى جلسة المجمَّع المقدَّس. وفي كلمة وجهها البطريرك ثيوفيلوس، بهذه المناسبة، قال مخاطبًا المطران المنتخب: «بأنك اليوم دعيت لخدمة جديدة، وإلى الدرجة الأسقفية المباركة عن استحقاق؛ نظرًا لثقافتك الغزيرة، وما قدمته من خدمات للكنيسة، ولشعبها، فإننا نهنئك على هذه الثقة التي نلتها بجدارة».

أسس الأب حنا «حركة الشبيبة الأرثوذكسية» في الأراضي المقدسة، واعتبر، ولا يزال، الأب الروحي لكثير من الشبيبات المسيحية في فلسطين.

انتخب رئيسًا للجنة وضع وتأليف المنهاج المسيحي الموحَّد لموضوع التربية الدينية المسيحية في المدارس العربية في فلسطين المحتلة، كما انتدب عضوًا في مركز وضع المناهج الفلسطينية.

أشرف على الإذاعة الدينية الأرثوذكسية من إذاعة «صوت فلسطين» في رام الله.

وهو عضوٌ فاعلٌ، ونشيطٌ في الحركة المسكونية العالمية، والإقليمية، والمحلية، حيث أسهم في قضايا الحوار، والتقارب بين كافة الكنائس المسيحية، إضافة إلى مشاركته الفاعلة في الحوار الإسلامي ـ المسيحي.

فضلًا على كونه عضو مجلس أمناء مركز اللقاء للدراسات التراثية في الأراضي المقدسة، وعضوًا في مركز «السبيل» للدراسات المسيحية المسكونية، وممثلًا للكنيسة الأرثوذكسية في الأمانة العامة للمدارس المسيحية في الأراضي المقدسة.

كما أنه عضوٌ «فريق العمل الإسلامي ـ المسيحي» في «مجلس كنائس الشرق الأوسط»، ويمثل بطريركية القدس في «لجنة التراث» التابعة للمجلس نفسة.

بذا يكون الأب حنا قد ولف إلى العمل السياسي بقوة.

مسيرته الوطنية

مسح الأب حنا الحدود بين الديني، والوطني، فلم يلذ بكنيسته، تاركًا الخلق للخالق، بل انخرط في شؤون وطنه المحتل، وقد شهر الأب حنا هيبته الدينية في وجه المحتل، ووظفها في سبيل الوطن.

لذا انخرط عضوًا في «المؤتمر القومي العربي» حيث مثل فلسطين في مؤتمري بيروت في أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، والبحرين في مارس/ آذار ٢٠٠٢.

كما أنه عضو في «الأمانة العامة لمؤسسة القدس» التي تتخذ من بيروت مقرًّا لها، وعضو في «اللجنة السياسية الفلسطينية» في القدس.

إلى ذلك شارك في اجتماعات «لجنة القدس»، التي عقدت في المغرب، برئاسة العاهل المغربي.

مثَّل «مجلس الكنائس العالمي»، الذي يتخذ من جنيف مقرًّا له، في اجتماع لجنة حقوق الإنسان، التابعة للأمم المتحدة، والتي انعقدت في جنيف، للتداول في أوضاع الشعب الفلسطيني، والانتهاكات التي تمارس بحق الإنسان الفلسطيني، حيث وجه كلمة متضمنةً تقريرًا مفصلًا عن معاناة الشعب الفلسطيني تحت نير الاحتلال الصهيوني.

شارك في القمة الإسلامية التي عقدت في العاصمة القطرية، الدوحة، وألقى خطابًا تاريخيًّا باسم كنائس الأرض المقدسة أمام كافة الملوك، والأمراء، والرؤساء العرب، وتم اعتبار خطابه هذا أحد وثائق المؤتمر.

شارك في «اللقاء الإسلامي ـ المسيحي من أجل القدس»، والذي عقد في دولة الإمارات العربية المتحدة، كما كان له لقاءٌ هام على هامش هذه الاجتماعات.

زار الولايات المتحدة الأمريكية مرات عدة؛ بهدف توضيح أبعاد معاناة الشعب الفلسطيني، فزار عددًا من المؤسسات المسيحية، وعددًا من مؤسسات حقوق الإنسان هناك، وجال في عدد من الولايات الأمريكية مدافعًا عن الشعب الفلسطيني، وعن حقه المشروع في الحرية، والاستقلال، وألقى العديد من المحاضرات في عدد من الجامعات الأمريكية.

حضر القمة العربية التي عقدت في العاصمة الأردنية، عمان، كممثل عن الكنيسة الأرثوذكسية.

كما شارك في اجتماع وزراء خارجية «منظمة المؤتمر الإسلامي» الذي عقد في قطر في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦.

إضافةً إلى مشاركته في عدد من الاجتماعات التي عقدت برعاية جامعة الدول العربية حول القدس، في القاهرة.

زار العديد من الدول العربية والإسلامية لشرح قضيته الوطنية.

حاز على وسام، وجائزة فلسطين؛ تقديرًا لجهوده، ودوره الريادي في تعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية.

كُرِّم في الكثير من العواصم العربية، ومُنح العديد من الأوسمة التكريمية، كما كُرِّم في مدينة برشلونة الإسبانية، من قِبَل بلديتها، في احتفال مهيب، أُقيم هناك.

يعتبر من الرموز الوطنية، والروحية، المرموقة في الأراضي المقدسة.

رافق البطريرك الراحل ذيوذوروس الأول في كثيرٍ من زياراته الرسمية.

سعى، بشكل دائم ومستمر، من أجل إظهار الوجه الحضاري، والإنساني والتراثي الوطني للحضور المسيحي في الأراضي المقدسة.

فضلًا على عضويته في الكثير من اللجان، والمجالس، والمنتديات، مثل:

- اللجنة الوطنية الفلسطينية للقانون الدولي والإنساني.
- مجلس الأمناء، للاتحاد العام للمعاقين المقدسيين.
- الأمانة العامة لمؤسسة أجيال للعناية بالطفل الفلسطيني.
- لجنة أصدقاء الأسرة الفلسطينية في جامعة القدس.
- اللجنة الاستشارية لمؤسسة (world vision) العالمية، فرع القدس.
- مجلس أمناء مؤسسة دراسات اللغات الجميلة في القدس.
- منتدى الحوار الإسلامي / المسيحي في فلسطين.
- جمعية إحياء التراث المسيحي في القدس.
- اللجنة الوطنية الفلسطينية لمقاومة جدار الفصل العنصري.
- اللجنة الشعبية للتضامن مع المعتقلين الفلسطينيين في سجون الاحتلال.
- الأمانة العامة لمؤسسة الرازي الثقافية الاجتماعية في القدس.
- مجلس أمناء مؤسسة فيصل الحسيني في القدس.

ـ الأمانة العامة لمؤسسة بيالارا «الهيئة الفلسطينية للإعلام، وتفعيل دور الشباب».

ـ جمعية إيلياء لتنمية المجتمع في القدس.

ـ جمعية أصدقاء الطفولة والتجمع الوطني لأجل الطفولة.

لقد وظف غبطته هذا كله في سبيل وطنه، وأمته، وتعامل مع هذا الواقع باعتباره تكليفًا، لا تشريفًا، فضلًا على كونه الكاهن، والواعظ في كاتيدرائية ماريعقوب، البطريركية في القدس، والرئيس الروحي للطائفة العربية الأرثوذكسية في القدس.

وضع مؤلفات، ونشر مقالات، ودراسات في عدد من الصحف، والمجلات المحلية والعالمية.

علاوة على مشاركاته في كثير من المؤتمرات المحلية، والإقليمية، والعالمية، وفيها تحدث عن القدس، وعن معاناة الشعب الفلسطيني [٢].

> من خلال الهجمة التي تتعرض لها فلسطين، من عمليات المصادرة، والاستيلاء على الأراضي، وتشييد المستوطنات الإسرائيلية عليها، يواكبها في الجانب الآخر الشق الثاني من المؤامرة، والتي لا تقل في خطورتها عن استهداف الوطن بأكمله، القدس، والمحاولات الدؤوبة لأعداء الأمة في سبيل اقتلاع هذه المدينة المقدسة من الذاكرة التاريخية الفلسطينية، والعربية.

القدس

القدس، عند غبطة المطران عطا الله حنا هي ميلاد السيد المسيح (عليه السلام)، هي الأرض الروحية التي يحج إليها العالم المسيحي، هي بوابة السماء للأرض؛ لذا، لها مكانة غالية عند المؤمنين (مسلمين، ومسيحيين) من سكان الأرض. فلقد وجدناه يبرز أهميتها في كل مواقفه، وكلمات خطبه، وحواراته، فطاف بها أنحاء العالم، ذاكرًا القدس، ومكانتها الدينية، والتاريخية، ومؤكدًا على عروبتها، داعيًا إلى تغيير وضعها. يقول غبطته:

«... فالقدس مدينة، بالنسبة إلينا، هي جزء أساسي من تاريخنا، وهويتنا، وثقافتنا، فالقدس هي المدينة التي تحتضن أهم المقدسات، والتي تجسِّد محبة الله لنا نحن البشر، ففي الإسلام هي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وفي المسيحية هي القبلة الأولى، والوحيدة. فلا يوجد في المسيحية ما هو أهم من هذه المدينة المقدسة، التي تحتضن كنيسة القيامة، كما تحتضن المسجد الأقصى المبارك»[٣].

يقول، أيضًا: «... فالمطلوب منا هو عدم الاكتفاء ببيانات الشجب، والاستنكار، وإنما الانطلاق إلى آفاق عمل إستراتيجي حقيقي على الأرض». يسترسل قائلًا: «إنني أدق ناقوس الخطر، وأقول: أنقذوا القدس قبل فوات الأوان، وأدعو إلى حملة وطنية، وإلى هبَّة جماهيرية، وعمل وطني منظم من أجل إنقاذ القدس، والحفاظ على طابعها، ومعالمها، وتراثها، وهويتها العربية، الفلسطينية. إننا نقول هذه الكلمات، وهنالك في القلب غصَّة، فنحن لا نريد اتهام أحد بالتقصير، وإذا ما كان هنالك من هو مقصِّر تجاه القدس. فكلنا مقصِّرون، وكلنا نتحمل مسؤولية وطنية، وتاريخية تجاه ما يحدث في القدس. أعيدوا إلى القدس بهاءها، وصفاءها، ولتمحى الغشاوة عن الأبصار، لكي يرى

الناس القدس بصورتها الحقيقية، الواقعية، وإذا ما أغلقوا (بيت الشرق)(*)، وغيره من المؤسسات الوطنية، فلنجعل من كل بيت فلسطيني، ومن كل مقدساتنا، ومؤسساتنا بيت شرقٍ جديد. إنهم يريدون لنا أن نستسلم، وأن نخاف، ونتراجع، فنعتقد بأنه لا حول لنا ولا قوة تجاه ما يحدث، كلا، وألف كلا، فنحن قادرون على أن نعمل أشياء كثيرة، وعلى إنجاز عمل وطني كبير، ونحن لسنا ضعفاء كما يصورنا البعض، وشعبنا لم ولن يستسلم، في أي ظرفٍ من الظروف، وفي أي مكانٍ من الأمكنة، فلننظِّم بيتنا العربي الفلسطيني، ولننظِّم برنامجنا الهادف للدفاع عن القدس، هذا هو التحدي المطروح أمام الحكومة الجديدة، إننا لا نقلل من أهمية ما هو مطروح من قضايا للمعالجة أمام الحكومة الجديدة، ولكن القدس يجب أن تأخذ حيزًا أساسيًا، هامًا، يليق ومكانتها الروحية، والوطنية، لكي لا تبقى مقولة القدس عاصمتنا شعارًا نتغنى به، وإنما واقعًا نعيشه»(٤).

وعلى ذلك، يرى المطران بأن عروبة القدس هي الأساس الوطني، والمنطلق السياسي، الذي يفرض نفسه، من الواقعين، التاريخي والديني، على السواء.

فكوَّن بذلك، مطراننا، رؤيته الإستراتيجية في تحديد وسائل تحرير البلاد من أيدي المحتلين، متمثلةً في العمل الوحدوي بين الفصائل الفلسطينية، وتصعيد المقاومة بكافة أشكالها.

وتتضح محاور رؤيته هذه في:

■ حثُّه على التشبث بالوحدة الوطنية، التي تشمل كافة الفصائل. ويظهر ذلك في دعوته إلى العمل المتضامن، من خلال مفهوم عروبة القدس، وفلسطين، وشمولها (للمسلمين، والمسيحيين)، بالإضافة إلى دعوته إلى لم شمل كل المتعارضين من فصائل الشعب الفلسطيني.

■ دعمه للمقاومة، آملًا في تصعيدها، بكافة أشكالها. والذي يظهر في كلماته النضاليه، بل في كلماته عن النضال، وأعماله النضالية، ومواقفه مع المناضلين، ومن الأحداث الجارية في الساحة الفلسطينية، وفي صبره على المضايقات، ومعوقات هذا النضال.

■ آراؤه العامة، مثل رأيه في حقوق الإنسان، والسجناء السياسيين، ودور المرأة.

حثه على الوحدة الوطنية الشاملة

من خلال خطب غبطة المطران، وكلماته، في المؤتمرات، والندوات، والقمم، وأيضًا من خلال الحوارات التي أُجريت معه، ومن خلال مشاركاته في تأسيس هذا الكم المتنوع المتباين من الجمعيات، والحركات، والجماعات، يتأكد بأنه يدعو إلى توحيد الصفوف الوطنية المتفرقة، تحت أي مسمى، فالهدف الأساسي، الذي يأمل في الوصول إليه هو الجبهة الوطنية الفلسطينية في مواجهة عدو الأمة، ويتضح ذلك في:

(*) **بيت الشرق**: كان مقر قيادة «منظمة التحرير الفلسطينية» ما بين ١٩٨٠ و١٩٩٠ في القدس، تم بناؤه في سنة ١٨٩٧ من قبل إسماعيل موسى الحسيني، وتم وراثته من قبل عائلة الحسيني منذ ذلك الحين.

موقفه من الأديان السماوية

يرى غبطته أن الأديان تُوَحِّد، وتُقَرِّب بين الناس، إلا أن المشكلة لا تكمن في الديانات، بل في أتباعها. ويرى أن الذين يهاجمون الإسلام، باسم المسيحية، والذين يهاجمون المسيحية، باسم الإسلام، ليسوا أصحاب ديانة، فنجده دائمًا يردد:

«الأقصى والقيامة في القدس توأمان لا ينفصلان»[٥].

لما وقف أمام الإساءة إلى الرسول محمد ﷺ بالرسوم الكاريكاتورية، قال في ذلك:

«إننا نرفض، ونستنكر أي تطاول أو مساس بالرموز الدينية الإسلامية؛ ذلك لأننا مسلمون، ومسيحيون في هذا الشرق ننتمي إلى أمةٍ واحدة، ونحن بناة حضارة، وثقافة، وفكر واحد. وقد كانت العلاقة الإسلامية ـ المسيحية علاقة أولئك الذين ينتمون إلى اهوية القومية الواحدة، وهكذا يجب أن نكون» [٦].

وأوضح في تصريح خاص أدلى به لوكالة الأنباء الفلسطينية (لوفا):

«إن أية مواقف تصدر، من هنا وهناك، تحمل معاني إساءة للآخر، يجب ألا تؤثر على هذه العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، بل يجب أن تقويها».

أردف غبطة المطران:

«إننا نرفض التطاول على الإسلام، كما نعتقد أن إخوتنا المسلمين يرفضون التطاول على المسيحية؛ لأن الإسلام، والمسيحية، في هذا الشرق، من المكونات الأساسية لتراثنا الروحي، والطابع المقدس لهذه الأرض المباركة»[٧].

في المؤتمر الإسلامي السادس، الذي عقد جلساته في العاصمة القطرية بالدوحة في ٢٠٠٦/١٢/٢١ أكد غبطته:

«إن من يسيء للإسلام لا يحق له أن يتكلم باسم المسيحية» مشددًا على: «أن من يدافع عن الإسلام إنما يدافع عن هذه الأمة» مذكرًا بأن: «المسيحيين العرب جزء من هذه الأمة»[٨].

أما في الحديث عن انتشار الإسلام بالسيف نجده يرفض هذا القول معلقًا:

«إن من قال بأن الإسلام قد انتشر بالسيف عليه أن يعلم بأن العديد من الحملات الصليبية قد شُنَّت على البلاد الإسلامية، وغير الإسلامية، بغير وجه حق». أضاف بأن: «المستفيد الوحيد من توتير العلاقة بين المسلمين والمسيحيين هم اليهود»[٩].

ويستطرد البطريرك حنا مردفًا:

«أردنا، اليوم، أن نعبِّر عن تضامننا الأخوي مع أشقائنا المسلمين، شركائنا في الانتماء إلى هذا الوطن، وإلى هذا الشعب، وإلى هذه المدينة. ونحن اليوم نعبِّر عن تضامننا معهم، وهم يتعرضون إلى استفزازات خطيرة، إذ أن هنالك محاولات آثمة للاعتداء، والتطاول على المسجد الأقصى المبارك». أضاف غبطته: «إن المسيحيين، والمسلمين، في هذه الديار، ينتمون إلى شعب واحد، وقضية واحدة. ونحن نتطلع إلى ذلك اليوم الذي فيه تتحرر القدس، وتكون عاصمةً للدولة الفلسطينية المستقلة»[١٠].

رؤيته في العهدة العمرية(*)

أما بالنسبة للعهدة العمرية، وإعلان موقف غبطته منها، فهذا من صميم مبادئه للعمل الوحدوي ـ وكان ذلك وقت استقبال الإخوان المسلمين له بالأردن ـ حيث قال:

«العهدة العمرية ليست وثيقه تاريخية، كتبت قبل مئات السنين، وقدمت من الخليفة العادل، عمر بن الخطاب، إلى البطريرك الأرثوذكسي سفرونيس، إنما هي هوية، وأصالة، وانتماء، وثقافة، نحن نجسِّد (العهدة العمرية) في علاقتنا مع بعضنا البعض، وفي وحدتنا الإسلامية ـ المسيحية، وفي مقاومتنا للذين يسعون لتهويد مدينتنا المقدَّسة. العهدة العمرية ليست حدثًا نستذكره، إنما واقع نعيشه، كل يوم وكل ساعة؛ لأن مدينة القدس حاضنة المقدسات، وهي رمز من رموز وحدتنا، ولقاؤنا المسيحي الفلسطيني»[١١].

دعوة الفصائل (فتح وحماس) إلى الاتفاق على القواسم المشتركة

دأب غبطته على دعوة حركتي «حماس»، و«فتح» إلى الجلوس إلى مائدة الحوار، والاتفاق على القواسم المشتركة. حيث قال حنا، في تصريح خاص، قبل ساعات قليلة من لقاء مرتقب له، مع رئيس السلطة، آنذاك، محمود عباس، في رام الله: «إنني أتوجه بنداء حار إلى شعبنا الفلسطيني كافة، سواء كانوا (فتح)، أو (حماس)، أو غيرهما من الفصائل والأحزاب السياسية الفلسطينية، بضرورة العمل على وأد الفتنة، وإنهاء هذا الخلاف، لا سيما وأن عدونا واحد، وهو الذي يتربص بنا، ويقف لنا بالمرصاد»[١٢]. مؤكدًا بأن الاتفاق بين قيادتي «حماس» و«فتح» ممكن، في حالة إخلاص النوايا، حيث قال غبطته: «يجب أن يتفق الإخوة، وهذا ليس مستحيلًا، إذا خلصت النوايا، ذلك أن المتضرر بهذه الأحداث هو الشعب الفلسطيني، والمستفيد هو الاحتلال، الذي يريد أن نقتتل، ونعيش في صراعات، وخلافات جانبية، وأن تدخل إلى صفوفنا الفتنة، لكي لا نواجه العدو الحقيقي، الذي هو إسرائيل»[١٣].

بهذه النقاط لم نجد المطران يكتفي بالعمل على إلغاء أكبر تقسيم للشعب الفلسطيني (إسلامي ـ مسيحي)، واضعًا أسس العمل المشترك من الاحترام المتبادل، والتقدير، وعدم إلغاء مكانة الآخر، مع غض الطرف عن المنغِّصات، التي لا تؤدي إلا إلى إثارة الفتن، والإيقاع بالمجتمع الفلسطيني. بل يخاطب الفصائل المنبثقة عن هذا التقسيم، حاثًّا إياها على الاتفاق، وترك الاختلاف، والالتفات إلى العدو الحقيقي.

لم يتوقف عند هذه النقطة من الدعوة إلى لـمِّ الشمل الفلسطيني، بل توجه إلى دعم صور المقاومة، في هذه الفصائل، للتوافق مع الرؤية الإستراتيجية، فنجد دعمه للمقاومة، آملًا في تصعيدها، بكافة أشكالها وذلك كان خلال:

(*) كتب الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) عندما فتحها المسلمون عام ٦٣٨م كتابًا أمنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم، وقد اعتُبرت العهدة العمرية واحدة من أهم الوثائق في تاريخ القدس وفلسطين، وأقدم الوثائق في تنظيم العلاقة بين الأديان.

مواقفه النضالية

موقفه من جماعات المسيحية الصهيونية العنصرية(*)

في حواره بقناة «الجزيرة» تحدث غبطته عن المسيحية الصهيونية قائلًا:

«هناك جماعات تدعي المسيحية، ولكنها أبعد ما تكون عن المسيحية، إنها جماعات صهيونية، تخدم الاحتلال الإسرائيلي، وتخدم الأطماع الصهيونية، وتبرر الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية، وتفسِّر (الكتاب المقدس) كما يحلو لها، إنها جماعات لا علاقة لها بالمسيحية، لا من قريب ولا من بعيد. وقد أصدر رؤساء الكنائس المسيحية عدة بيانات، ومواقف، فأوضَحوا بأن هذه الجماعات، التي لها سفارة في القدس، هي السفارة المسيحية الصهيونية في القدس المحتلة، نحن لا نتعامل معهم، نحن لا نعترف بهم، ليسوا مسيحيين»(١٤).

موقفه من بيع أوقاف الكنيسة

أما بالنسبة للهجمة التي تتعرض لها فلسطين من خلال عمليات المصادرة، والاستيلاء على الأرض، وتشييد المستوطنات الإسرائيلية عليها، والتي يواكبها، في الجانب الآخر، الشق الثاني من المؤامرة، والذي لا يقل في خطورته عن استهداف الوطن بأكمله...القدس، واقتلاعها من الذاكرة الفلسطينية والعربية، وتدمير المقدسات، والمتاجرة بأملاك تاريخية للشعب الفلسطيني، وبامتلاك الكنسية الأرثوذكسية (١٨٪) من القدس الشرقية، و(١٧٪) من القدس الغربية، و(٣٪) من اللد، ويافا، وحيفا، والناصرة، دخلت هذه الأملاك ضمن اللعبة، وقد كان هناك استعداد من البعض، للمشاركة في جريمة طمس الحضارة والهوية حتى أن الكنيست الإسرائيلي بُني على أملاك الكنيسة الأرثوذكسية في القدس.

تصدى المطران حنا للذين شاركوا، والذين كانوا على استعداد للمشاركة، في هذه الجريمة، فنجده يدعو كافة رجال الدين الأرثوذكس، اليونان، والعرب على حدٍّ سواء، إلى التمرد على قيادة البطريرك أرينيوس الأول، راعي الكنيسة في القدس، معتبرًا ذلك واجبًا مسيحيًّا، وذلك حين تورط أرينيوس في بيع، وإيجار جزء من الأوقاف، وممتلكات الكنيسة في القدس للعدو الإسرائيلي.

قال غبطته في كلمة ألقاها أمام المحتفلين المسيحيين بأحد الشعانين، الذي يسبق (عيد الفصح) بأسبوع، وفق التقويم الشرقي: «إن التمرد على قيادة أرينيوس الفاسدة هو واجب مسيحي، أما الطاعة الكنسية فهي لاغية، لمن لا

(*) المبدأ الديني العام الذي عليه تقوم المسيحية الصهيونية هو ما يلي:
سيعود المسيح مرة ثانية، ولهذه العودة شروط لا بد من توافرها. فالمسيح لن يعود إلا إلى مجتمع يهودي، ولن يظهر إلا في صهيون (القدس). لذلك لا بد من تجميع اليهود في فلسطين، حتى يظهر المسيح بينهم. وهكذا نعجل في نهاية العالم.
وقد تم افتتاح السفارة المسيحية الدولية في القدس في ٣٠/ ٩/ ١٩٨٠ والتي قدمت نفسها على أنها مؤسسة مسيحية صهيونية، ولا رؤية عالمية فيما يتعلق بتطور هذه العقيدة (ما قبل الألفية). وتعتمد السفارة المسيحية الدولية على طريقة مسيحية أصولية لفهم الكتاب المقدس، وترى في إسرائيل تحقيقًا لنبوءة كتابية وعودة شعب الله المختار إلى أرض الميعاد. إنها اهتماماتها، فقد حددتها السفارة في النقاط التالية:
- الاهتمام بالشعب اليهودي وخاصة بدولة إسرائيل.
- حق إسرائيل في العيش بأمن وسلام.
- الاهتمام بالقدس من جميع نواحيها لتصبح درة في عين الدنيا وبشرى بعهد جديد للبشرية جمعاء.
- الاهتمام بمجيء الرب والإعداد له.
- ربط كنيسة المسيح المنتشرة في أنحاء العالم بإسرائيل ربطًا حقيقيًا.

يستحق الطاعة، ومخالفي الشريعة، والقوانين. لا تجوز طاعتهم؛ ذلك لأننا نعتقد بأن الطاعة لمن لا يستحقها تعني الاشتراك في الجرم»[١٥].

داعيًا الطائفة إلى مقاطعة البطريرك دينيًّا واجتماعيًّا، إذ إننا لا يمكن أن نقبل بقيادة دينية بهذا المستوى الخطير، على حد تعبيره.

وفي أبريل/ نيسان ٢٠٠٥ دعا الأب حنا البطريرك أرينيوس إلى أن يتواضع، ويتوب، ويعترف بخطئه، ويقدم استقالته، ويتنحى عن منصبه، منعًا للتصدع، والانشقاق داخل الكنيسة، مشيرًا إلى أن أرينيوس خالف القوانين الكنسية، ووجه لأبناء الكنيسة طعنة في الصميم، وارتكب خيانة عظمى بحق الكنيسة والقدس. وتابع قائلًا:

«نحن نقول له، ولمعاونيه القريبين، بأننا نرفض بأن تكون قيادة الكنيسة قيادة عميلة، وإدارتها بيد إسرائيل، (للتهويد)، و(الأسرلة)، من خلال التواطؤ مع الاحتلال، وإذا ما أراد البطريرك أن يجامل الإسرائيليين، فعليه أن يذهب إليهم، ويسكن معهم، غير مأسوف عليه، أما أن يكون قائدًا للكنيسة الأرثوذكسية العريقة، ويكون مع الإسرائيليين، فهذا نرفضه جملةً وتفصيلًا»[١٦].

زاد غبطته الأمر وضوحًا، حيث قال:

«هناك مؤامرة هادفة إلى اقتلاع وجودنا العربي، الإسلامي، والمسيحي، من هذه المدينة المقدسة، ستفشل كل هذه المؤامرات، بإذن الله تعالى، كما أحبطنا مؤامرة تسرب العقارات، والأوقاف، وعوقب كل من فعل هذا، وقام بهذا العمل. هكذا نحن نستمر بتأدية رسالتنا، وأعتقد بأننا مصممون على الدفاع عن مقدساتنا، ومؤسساتنا، ولا تراجع قيد أنملة عن هذا الهدف»[١٧].

استطرد في موقعٍ آخر:

«نحن لا نكتفي فقط بمعرفة من هو متورط، وما هي العقارات التي تم تسريبها، فهاجسنا، وهمنا إبطال هذه الصفقات، وإعادة هذه الأوقاف والممتلكات إلى الكنيسة، هناك لجنة تحقيق فلسطينية، ومحامون يعملون، لكننا لن نكتفي بالإعلان عن مَنْ المتورط فقط»[١٨].

لقد جرَّت هذه المواقف على مطراننا المتاعب، تلو المتاعب. فقد تعرض غبطته إلى اعتقالات، كان أولها في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١. وفي هذا قال:

«... وكان هذا الاعتقال في صبيحة يوم كنت أخرج من البطريركية، وبعد الخروج، فإذا بي أرى يحيط بي أكثر من عشرين أو ثلاثين من رجال المخابرات والشرطة الإسرائيلية، قال لي أحدهم (أنت عطا الله حنا؟) ... وجُلبت إلى المسكوبية(*) ... كانت أسئلة استفزازية ... كان هناك تجريح كلامي ... كان هناك إيحاءات بالضرب ... ولكن

(*) المسكوبية: مبنى يقع فى مدنية القدس، فى القسم الشمالى، ضمن ما يسمى المعسكر الروسى أو ساحة الروس، أقيم فى عهد سلطة الانتداب البريطانى، وكان يعرف بالسجن المركزى، المخصص للتوقيف والاعتقال.
يطلق على هذا السجن، الذى يستعمل فى الغالب للتحقيق «المسلخ» صممت زنازين السجن بطول متر ونصف وعرض ٨٠سم وارتفاع ٤م، النور الكهربائى ساطع بها طول اليوم كما أن هناك غرفًا أخرى للتعذيب والتوقيف الإدارى، وغرف معدة لاجراء الفحوصات الطبية، إضافة إلى الغرف التى تستعمل منامة للمعتقلين.

الأسوأ من الضرب، هو الكلام الذي قيل ... كلام أخجل من أن أفكر به ... وأن أقوله، وبعد سبع ساعات تحقيق، أخرجوني من المعتقل .. يمكن كانوا سبع سنين، أو أكثر»[١٩].

منع غبطته من السفر خارج فلسطين، لمدة ثلاث سنوات[٢٠].

في ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٧ بحث مجمَّع بطريركية الروم الأرثوذكس الرسالة الدفاعية للإكليريكيين الثلاثة (القبر المقدس)، (خريستوفوروس)، (الأرشمندريت ملاثيوس)، فأدين هؤلاء، واعتبر سلوكهم غير قانوني، ومغايرًا لقوانين الكنيسة. وفرض عقاب التأنيب الشديد نحو الأرشمندريتين، وإيقاف رئيس الأساقفة السيد ثيوذوسيوس (المطران عطا الله حنا) عن القيام بالخدمة الكنسية، مدة شهرين[٢١].

في ١٢/ ١/ ٢٠٠١ كشفت مصادر في بطريركية الروم الأرثوذوكس بالقدس المحتلة، في بيان صحفي، أن مكتب رئيس الوزراء الصهيوني، مجرم الحرب، آرييل شارون، أبلغ البطريركية رسميًّا مطالبة حكومة العصابات الصهيونية بمعاقبة، وإقصاء الأرشمندريت عطا الله حنا عن منصبه الكنسي، وإبعاده خارج القدس المحتلة.

أكد البيان أن حكومة العصابات الصهيونية ستتخذ إجراءات قانونية ضد حنا، ومنها تقديمه للقضاء الصهيوني، واعتقاله، بسبب ما أسمته تلك الحكومة «اتصالاته المشبوهة»، مع جهات معادية للكيان الصهيوني. وأن حكومة العصابات الصهيونية طالبت الكنيسة بمعاقبة الأرشمندريت حنا، وإلا فإن تلك الحكومة ستقوم بذلك. وأوضح البيان بأن حكومة العصابات الصهيونية زعمت في قرارها أن الأرشمندريت حنا هو من المحرضين الأساسيين ضدها، وبأنه السبب الرئيسي في عدم اعتراف إسرائيل بالبطريرك الجديد[٢٢].

موقفه من سياسة التهجير

لم يقصر مطراننا نضاله على فلسطين، والقدس، بل مده إلى أرجاء الوطن العربي. فقد أدان ما يتعرض له المسيحيون في العراق من قتل، وتنكيل، وعنف، وتهجير، وكأن هناك مؤامرة لتصفية المسيحيين من بلاد الرافدين، معربًا عن تعاطفه مع أبناء الشعب العراقي كافة[٢٣].

بخصوص سياسة التهجير من فلسطين، والقدس خاصة، قال مطراننا في حوار ببيروت، في أغسطس / آب ٢٠٠٢:

«ونحن، كمسيحيين شرقيين سنستمر في مقاومة هذه السياسات. لقد عمل الإسرائيليون دائمًا على تهجير المسيحيين من القدس. قبل عام ١٩٦٧ كان يعيش فيها أكثر من ٢٥ ألفًا من المسيحيين، الذين ينتمون إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، بالإضافة إلى غيرهم من المسيحيين، أما اليوم فيوجد فقط ٨ آلاف مسيحي، بشكل عام»[٢٤].

موقفه من صور التطبيع

رفض الأب عطا الله حنا استقبال الرئيس الأمريكي، جورج بوش، في (كنيسة المهد) في بيت لحم، وقد أشاع امتناعه ارتياحًا كبيرًا في أوساط الشعب الفلسطيني، ولا سيما المسيحية، التي شعر الكثيرون منها بالحرج من الاستقبال، والتزلف الذي قدمه الرؤساء الدينيون للضيف الأمريكي. وقال أحد المواطنين المسيحيين في بيت لحم:

«رفض استقبال مطران القدس لجورج بوش رفع من معنويتنا» وأضاف: «من العار استقبال صنَّاع الحروب، في مهد المسيح، صانع السلام». وكان المطران عطا الله حنا قد صرح في لقاء مع اللاجئين الفلسطينيين، في مخيم البقعة بالأردن، بأن: «الرئيس الأمريكي، جورج بوش، وما يقوم به لا علاقة له بالمسيحية، ولا علاقة له بالأخلاق المسيحية، ولا بالقيم المسيحية، وبالتالي نحن نرفض، أيضًا، السياسات الأمريكية، ودعمها المطلق لإسرائيل، واحتلالها للعراق»[٢٥].

عند استقباله لبابا الفاتيكان، بمناسبة زيارة الآخر للقدس، أثار تناقضًا ظاهرًا، ظهر في سؤال أحمد منصور، مذيع «قناة الجزيرة»، في برنامج «بلا حدود»: «زيارة البابا إلى حائط البراق ـ والذي يطلق عليه اليهود «حائط المبكى» ـ أما يعتبر ذلك تكريسًا لسيطرة اليهود على الحائط، وما قيل عن الزيارة، إنها صَبَّت في صالح الإسرائيليين؟ حينها رد المطران عطا الله قائلًا: «لست مطلعًا على تفاصيل الزيارة التي قام بها قداسة البابا إلى (حائط المبكى)، ولكن أنا أعتقد بأنني، كأرثوذكسي: ما يهمني من زيارة قداسة البابا الجانب الروحي»[٢٦].

موقفه من الانتفاضة

قال غبطته ردًّا على سؤال لأحمد منصور، بقناة «الجزيرة»، حول موقفة من «انتفاضة الأقصى والاستقلال» أواخر سنة ٢٠٠٠:

«نحن نقف قلبًا وقالبًا مع الانتفاضة، نحن لسنا متضامنين فحسب، نحن جزء من هذه الانتفاضة، التي تعبِّر عن انتفاضة شعبنا، وعن رغبة هذا الشعب في أن ينال حقوقه الوطنية»[٢٧].

موقفة من المناضلين

حين سئل عن سبب امتناعه عن التوقيع على بيان لإنكار العمليات الاستشهادية نجده يقول: «لا يمكن أن يتم التوقيع على بيان من هذا النوع، في ظل الضغط العسكري المعادي، وفي ظل المجازر التي ترتكب بحق المدنيين الفلسطينيين. أما موضوع العمليات الاستشهادية فهي قضية مطروحة للنقاش داخل أوساط المناضلين الفلسطينيين، بكل انتماءاتهم. وقد أعلنت، دائمًا، أنه إذا كان النضال في سبيل حرية الشعوب هو إرهاب، فليعتبروني أول إرهابي ... لقد تحولت القضية الفلسطينية إلى قضية عالمية، وأنا أوجه تحية إلى الناشطين العالميين، الذين جاءوا إلى فلسطين تحت شعار حماية الشعب الفلسطيني، وأدعو إلى تصعيد هذه الحملة، واستمرارها. كذلك فقد برزت مواقف من شخصيات عالمية تتفهم دوافع الاستشهاديين؛ لا يمكننا أن ندين الضحية، ونطلب منها إيقاف مقاومتها، في الوقت الذي يقوم فيه الجلاد بذبحها»[٢٨].

وقف إزاء الاتهامات التي تعرض لها رئيس التجمع الوطني الديمقراطي، في منطقته المحتلة عام ١٩٤٨، الدكتور عزمي بشارة، من قبل الحكومة الإسرائيلية، والتي في مجموعها تدفع باتجاه محاكمة الدكتور كمجرم، وهي كفيلة بزجه في السجن الإسرائيلي بأحكام مؤبدة. هنا قال بطريركنا لبشارة:

«نحن معك، ونرفض كل ما تتعرض له من محاولات للإساءة والتشهير، لا، بل أقول لك يا دكتور: هذا وسام آخر يؤكِّد صحة مواقفك، وما تنادي به»[٢٩].

في ١٣/ ٩/ ٢٠٠٢ قام المطران بزيارة الشيخ أحمد ياسين، مؤسس حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، في منزله، معللًا ذلك بقوله: «أنه جاء للاطمئنان على صحة الشيخ ياسين، بعد الوعكة التي ألـمَّت به، إلى جانب التباحث معه حول القضايا التي تهم الشعب الفلسطيني». وأضاف أنه وجد تطابقًا في وجهات النظر بينه وبين ياسين. ونوه بأن هناك كانت «محبة متبادلة من القلب»، حيث اتفقا على ضرورة تكريس وحدة المسيحيين، والمسلمين، في مواجهة التحديات التي يمر بها الشعب الفلسطيني[٣٠].

قام الأب عطا الله حنا بزيارة تضامنية إلى أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المعتقلين في سجن خاص في مدينة أريحا الفلسطينية، حيث التقى مع أحمد سعدات الأمين العام للجبهة، وفؤاد الشوبكي المتهم بقضية سفينة الأسلحة، وأربعة مقاومين معتقلين في قضية مقتل وزير السياحة الصهيوني المتطرف «رحبعام زئيفي».

وجرى لقاء خاص بين الأب حنا، وسعدات، وفؤاد الشوبكي، استمر نحو ساعة ونصف، أكد لهما فيه تضامن الكنيسة مع المعتقلين، ووقوفها إلى جانبهم، في هذه المرحلة الحرجة.

وفي تصريحات صحفية، بعد الزيارة، قال الأب حنا:

«نحن قلقون على سلامة المناضلين المسجونين في أريحا، بعد تهديدات الكيان الصهيوني التي تعد خطيرة»، وطالب بالإفراج الفوري، والسريع عنهم، مؤكدًا أن المناضل الفلسطيني يستحق التكريم، وليس السجن، وأن مكانهم في الساحة الفلسطينية، لكي يعملوا مع أبناء شعبهم من أجل بناء مجتمع فلسطيني ديمقراطي سليم. وأضاف يقول: «إن وطننا يحتاج إلى مساهماتهم وجهودهم، فهم جزء من هذا الوطن»، وأكد تضامنه معهم، ومساندته لهم[٣١].

في الجلسة الختامية للمؤتمر القومي الإسلامي السادس في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٦، الذي عقد جلساته بالعاصمة القطرية، الدوحة، تحدث المطران، مشيدًا بالدكتور يوسف القرضاوي، ومواقفه المعتدلة. وأعلن مطراننا عن منح «وسام القبر المقدس»، وسام كنيسة القيامة، للعلَّامة القرضاوي، مؤكدًا بأن كنيسة القيامة المشرقية ستظل كنيسة عربية، شرقية[٣٢].

موقفه من الجدار العازل

استنكر د. عطا الله حنا بشدة بناء الجدار الفاصل، الذي يعتبره عنصريًّا، وغير أخلاقي، ولا إنساني أيضًا. وقال:

«إن هذا الجدار يهدف إلى عزل الشعب الفلسطيني عن العالم، وجعل الإنسان الفلسطيني يعيش وكأنه في سجن كبير، ويجعل التنقل من مكان إلى آخر أشبه بالمعجزة، مشيرًا إلى أن بناء الجدار جعل التواصل بين المدن والبلدات الفلسطينية عسيرًا، كما أنه يُعرقِل الوصول إلى المقدسات الإسلامية، والمسيحية في القدس، إضافة إلى الكثير من مصادرة دونمات من الأراضي الوقفية، التي تم الاستيلاء عليها زورًا، وبُهتانًا». وأوضح «أن الكثير من الأديرة، والكنائس تضررت نتيجة مصادرة الكثير من الدونمات؛ لذلك قامت هذه الكنائس، والأديرة بالتحرك، والاتصالات ضد هذا الجدار الذي يُهدد الكنائس، والمدارس المسيحية، وغيرها من المؤسسات الكنائسية، بالإضافة إلى الأضرار الجسيمة التي يتكبدها الإنسان الفلسطيني، ومؤسساته الوطنية، نتيجة بناء هذا الجدار»[٣٣].

حصار غزة وحرب إبادتها

بعد أن ضُرب الحصار الجائر، وحرب الإبادة على قطاع غزة عِقابًا لشعبها على مواقفه الوطنية، وجه المطران عطا الله حنا، في ٢ مايو/ آيار ٢٠٠٩، نداءً عاجلًا إلى كافة الكنائس المسيحية في العالم، مطالبًا إياها «بالوقوف، والتضامن مع الشعب الفلسطيني، الذي يتعرض لأبشع جريمة أدت إلى سقوط مئات الشهداء والجرحى». وناشد المطران حنا كافة الكنائس المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية، وغيرها، بأن تخصص يوم غدٍ (الأحد)، لكي يكون يوم صلاة، من أجل غزة المنكوبة، وأن تعبِّر هذه الكنائس عن مساندتها، وتعاطفها مع آلاف الأُسر التي شُردت، ونُكبت، وفقدت أبناءها». وأضاف غبطته «إننا نتمنى من هذه الكنائس، أيضًا، بأن تقوم بجمع التبرعات، والعمل على إيصالها إلى قطاع غزة، وخاصةً إلى المستشفيات، والمستوصفات، التي تعاني من ضائقة كبيرة، فهي عاجزة عن تقديم المساعدة لآلاف الجرحى، الذين يصلون إليها»[٣٤].

رأيه في حقوق الإنسان

استقبل غبطته الدكتورة فيوليت داغر، «رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان»، ومقرها في العاصمة الفرنسية، باريس، وهي تزور القدس، حيث رحب بداغر، وأشاد بالدور الإنساني الرائع الذي تقوم به «اللجنة العربية لحقوق الإنسان». وقال: «إن مسألة الدفاع عن حقوق الإنسان نحن نقف إلى جانبها، قلبًا، وقالبًا، بدون تحفظ، لاعتبارات روحية، وإنسانية، ووطنية. فالدفاع عن حقوق الإنسان هو واجب على كل ملتزم بالقيم الروحية، والأخلاقية، والإنسانية». وأضاف بطريركنا بأن «انتهاكات حقوق الإنسان وصمة عار في جبين الإنسانية، لا سيما في فلسطين، حيث شعب بأكمله يتعرض للظلم، والإجحاف في الحقوق، ناهيك عن الممارسات غير الإنسانية بحقه». وقد وضع المطران الدكتورة في صورة انتهاكات حقوق الإنسان التي ترتكب في القدس بحق المقدسات، المؤسسات، والأشخاص[٣٥].

رأيه في السجناء السياسيين

حيث تحدث المطران عن السجناء السياسيين، وجعلهم أساس أي تقدم، فقال:

«يعني يا جماعة هناك واحد عميل، اسجنوه. هناك واحد خائن، اسجنوه. ولكن إنسان نظيف، ومناضل، وشريف، ولكن يتبنى موقفًا سياسيًّا آخر، يختلف عن موقف الحزب الحاكم، هل يجب أن يكون موقعه في السجن؟ لا يجوز إطلاقًا. التقيت قبل ٣ أو ٤ سنوات مع قائد عربي، لا أريد أن أسميه، وقال لي (قل لي ماذا تريد يا أبونا؟ أنا مستعد). قلت له: (أريد أن تفرج عن السجناء السياسيين، هذا ما أريده منك)، وبعد أن سافرت، سمعت أنه أفرج عن بعض السجناء السياسيين، إلا أنه أعادهم إلى السجن بعد ذلك ببضعة أيام».

«على كل حال، نحن موجودون في ألمانيا، وعندما نرى هذا التقدم، وهذا التطور الصناعي، والثقافي، والحضاري، فمن الطبيعي أن نغار. كل واحد منا عنده ذرَّة عروبة، وانتماء، عندما يرى دولًا متطورة، يقول ليت بلدي هكذا، ويا ليت بلدي فيه مثل هذا التطور، وفيه مثل هذه الصناعة...إخوتي... بلادنا يمكن أن تتطور، وتتطور أكثر بكثير مما نعتقد، عندما تكون دولًا فيها حرية التعبير، وفيها الديمقراطية، وفيها احترام حقوق الإنسان. لا يمكن أن يكون فيها تطور مع قمع على خلفية سياسية. لا يمكن أن يكون هنالك تطور مع انعدام الديمقراطية. الديمقراطية،

والحرية هي التي تجعل الشعوب تتقدم. والقمع هو الذي يجعل هذه الشعوب تسير إلى الخلف. نحن نتضامن مع كل السجناء السياسيين، وفي كل الأقطار العربية، ونطالب بأن يخرجوا من سجونهم، لكي يعملوا من أجل تقدم أوطانهم».

«الأنظمة التي تعتقد أن وجود مساجين سياسيين فيها سيحفظ لها بقاءها هي مخطئة، وكل نظام يريد أن يحفظ وجوده عليه أن يحترم الديمقراطيات، والحريات، وأن يتقبل الرأي، والرأي الآخر. هذه هي الضمانة من أجل تقدم دولنا العربية، وغير ذلك، لا يوجد أي حل آخر»[٣٦].

رأيه في الغرب

في لقائه بقناة «الجزيرة»، بتاريخ ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٠ تحفَّظ المطران على لفظ «الغرب المسيحي»، وعلى سياسات الغرب، وانتسابه إلى المسيحية .. قائلًا:

«عندي تحفظ كبير، هل هناك بالواقع ما يمكنني أن أسميه (غربًا مسيحيًّا)؟ هنالك عالم إسلامي، هنالك دول إسلامية، تطبِّق الشريعة الإسلامية، ولكن ليس هنالك دول مسيحية، بهذا المعنى، هنالك دول في الغرب يعتنق عدد كبير من سكانها الديانة المسيحية، ولكن لا يمكنني أن أقول بأنها دول مسيحية، بالمعنى الذي تتحدث عنه»[٣٧]. واستطرد: «ليس غربًا مسيحيًّا، لا بل، بالعكس، ما نراه، اليوم، في الغرب، من تيارات إلحادية، ومادية، خاصة في الولايات المتحدة، يمكنني أن أصف هذا الغرب بأنه العدو اللدود للمسيحية، وهنا أتذكر، قبل أعوام، عندما أراد قداسة البابا أن يزور فرنسا، عندها قامت الدنيا، ولم تقعد، هناك، ضد هذه الزيارة، هنالك تَفَتُّت في الغرب، هنالك ابتعاد عن الدين، وعن القيم الروحية، انحلال خلقي، هنالك مكانة مميزة وفريدة للفاتيكان، ولقداسة البابا، وللكنيسة الكاثوليكية، هناك، ولكن صوت هذه الكنيسة لا يسمع في كل المحافل»[٣٨].

رأيه في المرأة

في حفل اتحاد الأطباء والصيادلة الفلسطينيين في ألمانيا، بتاريخ ١٠/ ٥/ ٢٠٠٧، حيا مطراننا المرأة بمناسبة عيدها، قائلًا:

«أود، الآن، أن أُحَيِّي، بنوعٍ خاص، المرأة العربية، والمرأة الفلسطينية ... أُحيي أُم الشهيد، وزوجة الشهيد ... أُم الأسير، وزوجة الأسير ... أحيي المرأة الفلسطينية العربية، المناضلة، المكافحة، من أجل بناء الوطن، ومن أجل تحرير الوطن، لكي يبقى الوطن عظيمًا، وكبيرًا بأبنائه. وعندما نحيي النساء، نحيي، أيضًا، الرجال؛ لأنه ـ كما يقولون ـ (وراء كل رجلٍ عظيم هنالك امرأة). فالمرأة الناجحة هي التي تجعل بيتها مليئًا بالنجاحات؛ لذلك نريد للأُسرة الفلسطينية، والأُسرة العربية أن تكون أُسرة مباركة، مليئة بالنجاحات، ومليئة بكل القيم الأخلاقية، والروحية، والقومية العروبية»[٣٩].

وبعد، فنحن أمام رجل دين، تحدث كما يفكر، ومارس كما يتحدث، فأحرق المسافات بين القول والفعل، وضرب المثل للجميع على دور رجل الدين المستنير، الذي يرتبط بشعبه، وأمته، وقضيته الوطنية، بامتياز.

هوامش الفصل السادس:

(١) موقع إسلام أون لاين:

http://www.islamonline.net/livedialogue/arabic/Guestcv.asp?hGuestID=jrWJU٠

(٢) موقع أصدقاء المطران عطا الله حنا:

http://www.fatheratallahhanna.com/Main٢٠zPage.htm

(٣) كلمة المطران في مؤتمر القدس السنوي السادس، حركة المجتمع المدني التعبوي لنصرة القدس، الخميس ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٨

(٤) موقع بريد العرب :

«http://www.arabmail.de/Attallah_Hanna-Articles-Jerusalem.html»

(٥) موقع «عمان نت»، بتاريخ ١٤ آذار ٢٠٠٦:

http://www.ammannet.net/look/article.tpl?IdPublication=٣&NrIssue=٥&NrSection=١&NrArticle=٧٠٦٠&IdLanguage=١٨

(٦) موقع بيتنا، بتاريخ ١٥/ ٩/ ٢٠٠٦:

http://www.bettna.com/news٤/showArticlelocal١.ASP?aid=٤٨٩

(٧) المصدر نفسه.

(٨) موقع القرضاوي، بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٦:

http://www.qaradawi.net/site/topics/printArticle.asp?cu_no=٢&item_no=٤١١٩&version=١&template_id=١١٦&parent_id=١١٤

(٩) موقع الكتلة الإسلامية بجامعة القدس:

http://www.paldf.net/forum/showthread.php?p=٨٠٢٠١٧

(١٠) موقع وكالة «معًا» للأخبار:

http://www.maannews.net/arb/ViewDetails.aspx?ID=١٥٦٥٦٦

(١١) موقع «عمان نت»، مصدر سبق ذكره.

(١٢) الصباح، بتاريخ ١٧/ ١٢/ ١٤٢٧:

http://www.alsbah.net/mynews/modules.php?name=News&file=article&sid=٣٥٤٦

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) حوار، بقناة الجزيرة، برنامج «بلا حدود»، بتاريخ ٢٢ / ١١/ ٢٠٠٠.

(١٥) ملتقى حضرموت:

http://www.hdrmut.net/vb/t١٧٩٥٤٥.html

obeikan.com

(١٦) **المصدر نفسه.**

(١٧) حوار مع صحفي وكاتب فلسطيني ـ **مدير مكتب الحقائق في فلسطين**، بتاريخ ١٩/ ٦/ ٢٠٠٥.

(١٨) **المصدر نفسه.**

(١٩) حوار بقناة الجزيرة، برنامج «**زياره خاصة**»، بتاريخ ٢١ / ٦/ ٢٠٠٨.

(٢٠) موقع أصدقاء المطران، **مصدر سبق ذكره.**

(٢١) **موقع أخبار العرب:**

www.online.arab.co.il/view.php?sel=٠٠٠١٥١١٧

(٢٢) **موقع بريد العرب:**

.«http://www.arabmail.de/12.1pa_kirche.html»http://www.arabmail.de/12.1pa_kirche.html

(٢٣) **موقع دار الخليج**، أخبار وتقارير بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٨.

(٢٤) **موقع إسلام أون لاين**، بتاريخ ٥ أغسطس/ آب ٢٠٠٢.

(٢٥) **موقع الأخبار**، عدد السبت بتاريخ ١٢ كانون الثاني ٢٠٠٨:

WWW.AL-AKHBAR.COM/AR/NODE/59963

(٢٦) حوار الجزيرة، برنامج «بلا حدود» **مصدر سبق ذكره.**

(٢٧) **المصدر نفسه.**

(٢٨) حوار، في موقع إسلام أون لاين، **مصدر سبق ذكره.**

(٢٩) **موقع عرب ٤٨**، بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧:

http://www.arabs48.com/display.x?cid=50&sid=184&id=44517

(٣٠) **الشرق الأوسط**، لندن. عدد ٨٦٩٢، الأحد ١٥/ ٩/ ٢٠٠٢.

(٣١) **موقع بريد العرب**

: http://www.arabmail.de/23.5.02Attallah.html

(٣٢) موقع القرضاوي، **مصدر سبق ذكره.**

(٣٣) **موقع بريد العرب:**

«http://www.arabmail.de/Meldung_AttallahHanna26.07.04.html»http://www.arabmail.de/Meldung_AttallahHanna26.07.04.html

(٣٤) **منبر الرأي**، (عمّان) ٢ / ٥/ ٢٠٠٩.

(٣٥) **موقع اللجنة العربية لحقوق الإنسان**

: www.achr.nu/art526.htm

(٣٦) **خطاب غبطة المطران عطا الله حنا**، في حفل اتحاد الأطباء والصيادلة الفلسطينيين ـ ألمانيا، بتاريخ ١٠/ ٥/ ٢٠٠٧.

(٣٧) حوار، بقناة الجزيرة، **مصدر سبق ذكره.**

(٣٨) **المصدر السابق.**

(٣٩) غبطة المطران عطا الله حنا، في حفل اتحاد الأطباء والصيادلة الفلسطينيين، **مصدر سبق ذكره.**

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع

زليخة الشهابي
رائدة الحركة النسائية الفلسطينية

عبلة الدجاني

تفاعلت المرأة الفلسطينية مع النضال الوطني للشعب الفلسطيني منذ تكشّفت المؤامرة الإمبريالية ـ الصهيونية على فلسطين، حيث شاركت المرأة في كافة أشكال النضال، وتعرضت لمختلف أساليب القمع الصهيوني، من اعتقال، وتعذيب، وسقط العديد من النساء ما بين جريحات، وشهيدات.

فبعد صدور «وعد بلفور» الذي تعهدت بريطانيا بمقتضاه بإقامة «وطن قومي» لليهود على أرض فلسطين، هبَّ الشعب الفلسطيني ـ رجاله ونساؤه ـ لمقاومة هذا الوعد، والتصدي للمخططات البريطانية والصهيونية على وطنه فلسطين، حيث سارعت المرأة لتأخذ دورها في النضال الوطني، وتشارك الرجل في الدفاع عن الوطن، متجاوزة بذلك الإرث الاجتماعي، والثقافي السائد، حيث لم يعد عائقًا لحركة المرأة، فالضرورات الوطنية أباحت المحظورات الاجتماعية.

لتنظيم عمل المرأة، قامت السيدتان، زليخة الشهابي، وإميليا السكاكيني، بتشكيل أول اتحاد نسائي عربي فلسطيني عام (١٩٢١)، هدفه مناهضة الانتداب البريطاني، والوقوف في وجه الاستيطان الصهيوني، إضافةً إلى الإسهام في بناء المجتمع الفلسطيني. وضم الاتحاد عددًا من النساء المقدسيات، وكان أول عمل سياسي نسائي قام به هذا الثنائي المسيحي ـ الإسلامي توجيه رسائل إلى المندوب السامي البريطاني، احتجاجًا على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان الصهيوني على أرضها [١].

وترأست زليخة الشهابي هذا الاتحاد، لتكون رائدة الحركة النسائية الفلسطينية، ولتلعب دورًا بارزًا في النضال الوطني.

المناضلة زليخة إسحاق الشهابي من مواليد مدينة القدس. عام (١٩٠٠)، سليلة عائلة الشهابي، العريقة، والمعروفة بمواقفها، وثقافتها الوطنية، والقومية، وقد شغل والدها، إسحاق الشهابي، رئاسة بلدية القدس في عام (١٩٢٧)، وكانت زليخة أصغر أبنائه الخمسة، وأخوها جميل (أكبر الأبناء) مديرًا لمدرسة الروضة الثانوية في القدس، وأخوها صبحي مفتشًا زراعيًا، أما أختاها فكانتا متزوجتين، وغير معروف نشاطهما.

تعلمت زليخة في مدرسة «راهبات صهيون» في مدينة القدس، وكانت تتمتع بشخصية قوية، كما كانت محبوبة، بسبب أسلوب تعاملها، وتأثيرها على من حولها[٢].

كان لنشأة، ومكان دراسة زليخة تأثير كبير على تكوين شخصيتها، وتشكيل وعيها، واهتمامها السياسي في مرحلة الطفولة. بدأت إسهامها الفاعل منذ شبابها المبكر، وذلك بعد صدور «وعد بلفور» .

في عام ١٩٢٨ قامت زليخة بتأسيس «جمعية الاتحاد النسائي الفلسطيني» في مدينة القدس، بمشاركة عدد من سيدات الأسر العريقة، وزوجات الوجهاء المقدسيين، وكان الهدف من تشكيل هذه الجمعية هو ترسيخ أقدام المرأة في العمل الوطني، ومشاركة الرجل في نضاله، وبتشجيع من زليخة، تأسست جمعيات نسائية في يافا، وحيفا، ونابلس، وبعض المدن، والقرى، حيث قامت هذه الجمعيات بأدوار هامة، سواء بالاشتراك بالنشاطات الجماهيرية، أو مساعدة المجاهدين، وأسرهم [٣] .

وفي هبَّة البراق، التي تفجرت صيف عام ١٩٢٩، نهض العمل النسوي الفلسطيني المبادر، منددًا بالممارسات التعسفية البريطانية ضد المناضلين الفلسطينيين، واستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

كان الصهاينة في آب/ أغسطس ١٩٢٩ قد قاموا بمظاهرة ضخمة في تل أبيب، إحياءً لذكرى تدمير الهيكل، ثم قاموا، في اليوم التالي، بمظاهرة أخرى، متوجهين إلى «حائط البراق» (ويسميه الصهاينة «حائط المبكى»)، وهناك رفعوا العَلَم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم القومي (هاتكفا)، مما استفز الشعور الوطني، وأشعل شرارة هبَّة البراق، وقد شاركت النساء في هذه الهبَّة، إما بحمل السلاح، والقتال، أو بالإسعاف، ونقل الجرحى، وقد سقطت تسع شهيدات في الهبَّة المذكورة برصاص الجيش البريطاني [٤] .

بدأ صوت المرأة يعلو، وتنادت السيدات إلى عقد المؤتمر النسوي الأول في القدس عام ١٩٢٩، وفيه شاركت (٣٠٠) سيدة من مدن، وقرى فلسطين، وقد انتخبت رئيسة للمؤتمر، عقيلة السيد/ موسى كاظم الحسيني، رئيس للجنة التنفيذية العربية، التي قادت الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى عشرينيات القرن العشرين، وكان الوضع المأساوي في فلسطين هو المادة الرئيسية في مناقشات المؤتمر المذكور.

اتخذ المؤتمر عدة قرارات، وهي:

١ـ المطالبة بإلغاء «وعد بلفور» باعتباره السبب الوحيد لكل الحركات الثورية الفلسطينية.

٢ ـ توقيف الهجرة الصهيونية.

٣ ـ إلغاء قانون العقوبة الجماعية.

٤ ـ الاحتجاج على المعاملة السيئة للمعتقلين الفلسطينيين.

قبل انتهاء جلسات المؤتمر التاريخي انتخبت لجنة تنفيذية من (١٤) سيدة لتنفيذ قراراته، وإدارة نشاط الحركة النسائية في البلاد، وتشكلت اللجنة من عقيلة د. حسين فخري الخالدي رئيسة، وعقيلات السادة/ جمال الحسيني، موسى العلمي، عوني عبد الهادي، شكري ديب، بولس شهابي، صبحي الخضرة، والآنسات / زليخة الشهابي، زاهية النشاشيبي، فاطمة الحسيني، خديجة الحسيني، وماتيل مغنَّم.

تكونت اللجنة التنفيذية من عقيلات قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، ولكن زليخة الشهابي تمكَّنت من اختراق هذا الملمح، لتشارك في اللجنة التنفيذية، لنشاطها العريق في المجال النسائي، الذي لا يمكن التغاضي عنه.

من أهم أهداف المؤتمر العمل على تطوير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية للمرأة، وبذل الجهد لتعليمها[٥]، وكان هذا المؤتمر هو الخطوة الأولى لبدايات عمل المرأة ضمن أطر تنظيمية واضحة، فقد تأسس أول اتحاد نسائي في فلسطين، وأعقبه تأسيس فروع له في عدد من مدن، وقرى فلسطين.

بعد انتهاء المؤتمر سارت النساء في مظاهرة بالسيارات جابت شوارع مدينة القدس، متوجهة إلى مقر المندوب السامي البريطاني، حيث قدمن إليه عرائض طالبن فيها بإلغاء «وعد بلفور»، ووقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ومعاملة الاسرى الفلسطينيين معاملة المسجونين اليهود، وقد ضاعفت المرأة الفلسطينية في المدن، والقرى، نضالها ضد المؤامرة البريطانية ـ الصهيونية على فلسطين، وشملت نضالات الاتحاد، بفروعه، الأشكال التالية:

١ ـ النضال السلبي، من خلال توقيع عرائض، وإرسال برقيات احتجاج إلى المنظمات الدولية الإنسانية، لمواجهة مخططات العدو.

٢ ـ أشكال العمل الاجتماعي، وتمثل بفتح المستشفيات، وجمعيات لرعاية أسر الشهداء، والفدائيين.

٣ ـ أشكال النضال الجماهيري، بالقيام بالاعتصامات، وتسيير المظاهرات، وتنظيم الإضرابات.

٤ ـ أشكال النضال العسكري الذي تميَّزت به المرأة في القرى، حيث كانت تقوم بتوصيل المؤن والذخائر للفدائيين في الجبال، بل إن دور المرأة وصل إلى حد المشاركة في المعارك ضد قوات الانتداب البريطاني، وضد قوات «الهاجاناة» الصهيونية[٦].

في عام (١٩٣٢) انطلق الريف الفلسطيني بثورته ضد المخططات البريطانية الهادفة إلى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، وبناء مستوطنات للمهاجرين اليهود الجدد، وأصبح الفلاحون والملاَّك في مواجهة مع السياسات البريطانية، وكان للمرأة الفلسطينية دور متميز، حيث شاركت في المعارك ضد المحتل البريطاني، وسقطت الشهيدة فاطمة غزال، كَعَلم من أعلام ثورة الريف.

تصاعد الدور النضالي للمرأة الفلسطينية أثناء الإضراب الكبير الذي دام ستة أشهر (٢٠/ ٤ – ١٣/ ١٠/ ١٩٣٦) والثورة الكبرى التي امتدت ما بين عامي (١٩٣٦ – ١٩٣٩)، وأسهمت المرأة فيها بشكل أكثر وضوحًا وفاعلية، فقامت بجمع التبرعات، وتوزيعها على المحتاجين من أبناء الثوار، والأسرى، والشهداء، وحملت مسؤولية نقل المؤن،

والأسلحة، عبر نقاط التفتيش البريطانية، التي كانت تحد من تحركات المجاهدين، وقامت المرأة بدور استخباراتي فاعل لتبليغ المجاهدين بتحركات القوات البريطانية[٧].

لم يقتصر النضال السياسي للمرأة الفلسطينية على الساحة الفلسطينية فحسب، بل امتد ليشمل الساحة العربية، حيث دعت إلى عقد مؤتمر عربي في القاهرة في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ لنصرة الشعب الفلسطيني، وحضرته وفود من: سوريا، العراق، لبنان، مصر، وفلسطين. وحمل المؤتمر عنوان «مؤتمر نساء الشرق للدفاع عن فلسطين». وفي هذا المؤتمر، الذي عقد في القاهرة، وترأسته السيدة هدى شعراوي، رئيسة الاتحاد النسائي العربي في مصر، قد تميَّز الوفد الفلسطيني في عدد أعضائه وفاعليته، إذ شارك الوفد في الجانب التنظيمي، والإداري، إلى جانب مشاركته في النقاشات السياسية، وتقديم التوصيات.

كانت المرحومة زليخة الشهابي وكيلة للرئيسة، كما قام عدد من السيدات في الوفد بمهام كبيرة في المؤتمر، وألقت كلمة الوفد الفلسطيني السيدة طرب عبد الهادي (قرينة عوني عبد الهادي)، رئيس «حزب الاستقلال العربي الفلسطيني»، وأثبتت المرأة حضورًا سياسيًّا أثناء المؤتمر، وتميَّزت كلمات الوفد الفلسطيني بالوعي المبكر لأهمية النضال الفلسطيني للعروبة، والإسلام، والتأكيد على قيمة العمل النسوي العربي المشترك، وقد وجه الوفد الفلسطيني دعوة لمقاطعة البضائع الإنجليزية، ودعم الثورة الفلسطينية، والإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين[٨]. وكان هذا المؤتمر تظاهرة نسائية قومية رائعة.

بعد نكبة فلسطين عام (١٩٤٨)، وتشتت الشعب الفلسطيني، وجدت المرأة الفلسطينية نفسها أمام واقع جديد، يفرض عليها تحمل مسؤولية الأسرة المعيشية، وخاصة بعد فقدان الأسرة لمعيلها، فاقتحمت ميادين العمل، ولكنها، في الوقت نفسه، لم تنس واجبها الوطني والقومي، وأسهمت في ميادين الحياة السياسية، على مستوى الوطن العربي، حيث شاركت الرجل في المظاهرات الوطنية، والقومية. على المستوى الوطني، أكدت تمسكها بهويتها، وحق العودة إلى وطنها فلسطين.

كان الوضع داخل فلسطين مختلفًا، فقد ضمت الحكومة الأردنية إلى شرق الأردن، في مايو/ آيار ١٩٥٠، الجزء الملاصق لها من أرض فلسطين، غير المحتل من قبل إسرائيل، وأطلقت عليه تلك الحكومة اسم «الضفة الغربية»، ومن ثم تركَّز عمل المرأة الفلسطينية من خلال جمعيات الاتحاد النسائي على الأعمال الاجتماعية، والإنسانية.

فالاتحاد النسائي في القدس، برئاسة المرحومة زليخة الشهابي، قام بتأسيس مستوصف لمعالجة المحتاجين، والتطعيم ضد الأمراض، وتعيين ممرضة لاستقبال المرضى، وإحالة الحالات الصعبة إلى طبيب. وفي عام ١٩٥٠ تم إنشاء مركز لرعاية الأطفال، وآخر لرعاية الحوامل، وإرشاد الأمهات بكيفية الاعتناء بأطفالهن[٩].

وحتى لا يبقى الجهد النسائي الفلسطيني مبعثرًا، فقد ولدت في التجمعات الفلسطينية فكرة إيجاد تجمع نسائي فلسطيني واحد، يعمل على توجيه هذا الجهد ضمن هدف واحد، فبادرت السيدة وديعة خرطبيل، رئيسة «الاتحاد النسائي العربي» في لبنان، إلى عقد اجتماع في بيروت عام ١٩٦٣، حضرته ممثلات عن الاتحادات النسائية الفلسطينية في البلاد العربية، من أجل توحيد جهود المرأة الفلسطينية.

بعد تأسيس «منظمة التحرير الفلسطينية»، الصرح الوطني الذي قاد نضالنا الفلسطيني، وفجَّر طاقات شعبنا،

وانعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول عام ١٩٦٤ في مدينة القدس، والذي شاركت فيه المرأة الفلسطينية بشكل فعال، اتُّفق، وبتشجيع من اللجنة التنفيذية للمنظمة، على إحياء الفكرة السابقة بإيجاد تجمع نسائي فلسطيني واحد، من فعاليات الداخل والخارج، ليكون قاعدة من قواعد «منظمة التحرير الفلسطينية». وقد شجع هذا الاتجاه زليخة الشهابي، رئيسة الاتحاد النسائي العربي في القدس، على القيام بدعوة المنظمات النسائية في المدن الفلسطينية لعقد اجتماع في الثاني من شباط/ فبراير عام ١٩٦٥، لوضع الترتيبات اللازمة من أجل عقد مؤتمر يضم النساء الفلسطينيات في مختلف تجمعاتهن[١٠].

في ذلك الاجتماع، الذي عقد في مكتب الاتحاد النسائي في القدس، تم تشكيل لجنة تحضيرية، وانتخاب زليخة الشهابي لرئاستها، والسيدة سميرة أبو غزالة ـ رئيسة اتحاد المرأة الفلسطينية بالقاهرة ـ أمينة للسر، واتفقت المجتمِعات على أن يكون عقد المؤتمر في مدينة القدس في الفترة من ١٥ - ٢١/ ٧/ ١٩٦٥، وأن يكون على رأس أهدافه توحيد التنظيمات النسائية في اتحاد يسمى «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية»، لحشد جميع طاقات المرأة الفلسطينية، وتعبئة إمكاناتها، وتحديد دورها في معركة التحرير، وذلك تمشيًا مع القرار الذي أعده المجلس الوطني الفلسطيني، والذي نص على إشراك المرأة الفلسطينية في جميع مجالات العمل التنظيمي، والنضالي، على مختلف المستويات، ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات.

في أولى جلسات المؤتمر، تم انتخاب زليخة الشهابي رئيسة للمؤتمر، تعاونها السيدات وديعة خرطبيل، ويسرى البربري، وزينات عبد المجيد، ونهيل عويضة، وفي تلك الجلسة أقر مشروع اللائحة الداخلية للاتحاد، وسميت أعضاء اللجان، لدراسة التوصيات المختلفة.

تم في المؤتمر انتخاب أعضاء المجلس الإداري من الفعاليات داخل الوطن وخارجه، كما تم انتخاب الهيئة التنفيذية للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية من فعاليات الأردن؛ نظرًا لأن الدستور ينص على أن يكون المقر الدائم للاتحاد في البلد الذي يكون فيه المكتب الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان في ذلك الوقت في مدينة القدس، وقد جرت عملية الترشيح، والانتخاب، ففازت:

* السيدة/ عصام عبد الهادي	رئيسة.
* السيدة/ فريدة أرشيد	نائبة للرئيسة.
* السيدة/ سميحة قبَّج سلامة خليل	أمينة السر.
* السيدة/ أمينة الحسيني	سكرتيرة للعلاقات الخارجية.
* الآنسة/ نهيل عويضة	سكرتيرة للعلاقات الداخلية.
* السيدة/ ليديا الأعرج	أمينة للصندوق.

اتخذ المؤتمر قرارات هامة، مالية، واجتماعية، وسياسية، وإعلامية، وتنظيمية، وأصدر بيانًا أعلن فيه عن قيام «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية»، وناشد فيه النساء الفلسطينيات الالتفاف حوله في كل أماكن تواجدهن[١١].

هكذا أوجدت المرأة الفلسطينية إطارًا تنظيميًّا خاصًّا بها، مارست من خلاله نشاطها في مؤسسات «منظمة التحرير الفلسطينية»، وهو «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية».

لقد سارعت المرأة الفلسطينية إلى الالتفاف حول «منظمة التحرير الفلسطينية»، التي جسَّدت هويتها الفلسطينية، وبدأت المرأة خارج الوطن المحتل تنظيم نفسها، وتشكيل فروع لها في أماكن تجمعها، وفي المؤتمر الرابع للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، الذي عقد في عام ١٩٨٦، كان للاتحاد تسعة فروع في عدد من البلاد العربية وهي: مصر، الكويت، لبنان، العراق، تونس، الجزائر، الإمارات العربية، البحرين، واليمن، وقد أدت حربا الخليج الأولى والثانية إلى إغلاق الكثير من فروع الاتحاد.

بعد الاحتلال الصهيوني لباقي أراضي فلسطين، في حرب ١٩٦٧، اشتعلت الأرض المحتلة بكافة أشكال النضال، رفضًا للاحتلال الصهيوني، وممارساته الوحشية ضد الشعب الفلسطيني، وكان للمرأة دور بارز في شتى مجالات المقاومة، وقد حدث تطور نوعي آخر على عمل المرأة، فقد انضمت إلى منظمات المقاومة الفلسطينية، وشاركتها بكل أنشطة الثورة الفلسطينية، مما عرَّضها لمختلف أساليب القمع الصهيوني، وقد استشهد نتيجة لذلك عدد من النساء، وأصيبت الكثيرات، وتم اعتقال العديدات.

كان من الطبيعي أن تبادر زليخة الشهابي، وتشارك في المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني، والتي عمت الأراضي المحتلة، من مظاهرات، ومسيرات، وعقد ندوات، ومؤتمرات، وإقامة الاعتصامات، وكتابة النشرات، وغيرها .

في عام ١٩٦٨، وبعد مرور سنة على الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية، والقطاع، تشكلت «لجنة التوجيه الوطني» في الضفة، وضمت بين صفوفها زليخة الشهابي، لتنظيم عمليات تمرد وعصيان مدني ضد الاحتلال، وقادت زليخة الشهابي النساء الفلسطينيات في هذه العمليات، التي كان لها أثر كبير على العدو الصهيوني «وعلى إثرها قامت السلطات الصهيونية بإبعاد زليخة الشهابي، والشيخ عبد الحميد السايح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني لاحقًا، والسيد روحي الخطيب أمين القدس، وكانت زليخة الشهابي أولى السيدات المبعدات من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني».

لمكانتها، وكبر سنها، وتدخلات مختلفة لعودتها إلى وطنها، عادت المناضلة زليخة الشهابي إلى بلدها القدس، وإلى جمعيتها التي أسستها منذ شبابها المبكر.

بإصرار، واصلت زليخة الشهابي عطاءها، ونضالها، ولكن بأساليب مختلفة، حيث تداخل الدور الاجتماعي الخيري بالدور السياسي النضالي، فقد لعبت جمعيتها دورًا هامًّا في دعم صمود المرأة الفلسطينية، من خلال تحسين ظروفها المعيشية، بتقديم المساعدات المادية للمحتاجين، كما قامت بتأهيل المرأة مهنيًّا، كتعليم الخياطة، والتطريز، والآلة الكاتبة، إلى جانب القيام بدورات تثقيفية.

لقد استمرت المناضلة زليخة الشهابي في عطائها، وقيادتها لجمعية الاتحاد النسائي، في مدينة القدس، حتى انتقالها إلى رحمة الله تعالى في عام (١٩٩٢). مخلِّفة وراءها كل هذه الذكرى العطرة.

هوامش الفصل السابع:

(١) د. نجاة أبو بكر، «المرأة الفلسطينية تاريخ حافل بالنضال»:

www.awapp.org

(٢) اتصال هاتفي مع د. عاصم الشهابي (عمان) ٣١ / ٥ / ٢٠٠٩.

ـ اتصال هاتفي مع مليحة الشهابي (القاهرة) ١٣ / ٦ / ٢٠٠٩.

(٣) نشرة الحركة النسوية في فلسطين «رابطة المرأة العربية النمساوية» www.aawleague.org

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ألفت محمود فؤاد، الدور الوطني والاجتماعي للمرأة الفلسطينية، صامد الاقتصادي (عمان) العدد٨٦، تموز/ يوليو ١٩٨٦، ص ١١٣.

(٦) خديجة الحباشنة أبو علي، الدور السياسي للمرأة الفلسطينية على الصعيد الدولي، صامد الاقتصادي (عمان) العدد٨٦، تموز/ يوليو ١٩٨٦، ص ٩٢.

(٧) أبو بكر، مصدر سبق ذكره.

(٨) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى:

ـ المرأة العربية وقضية فلسطين، القاهرة، الاتحاد النسائي المصري، ١٩٣٨.

(٩) أحمد مروات، المرأة الفلسطينية ودورها في الكفاح الوطني:

www.diwanalarab.com

(١٠) أبو علي، مصدر سبق ذكره، ص٩٤.

(١١) من وثائق المؤتمر الأول للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، صامد الاقتصادي (عمان)، العدد ٨٦، تموز - آب (١٩٨٦)، ص ١٦٢-١٧٣.

* * *

obeikan.com

الفصل الثامن

ذو الكفل عبد اللطيف
مناضل انقطع به الحبل

أميمة الشريف

لعب القدر دوره في تغيير مسار حياة ابن مدينة القدس، ذو الكفل عبد اللطيف، فبعد أن تم ترشيحه من قبل الحاج محمد أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، في عام ١٩٢٢، بناء على طلب ملك العراق آنذاك فيصل الأول، للالتحاق بالمدرسة العسكرية العراقية، وأثناء استعداده مع زملائه للسفر إلى بغداد، انتقل الملك فيصل إلى الرفيق الأعلى، وعندما وصل ذو الكفل إلى العاصمة العراقية كان أنهى، لتوه، الدراسة الثانوية في فلسطين، ووجد نفسه أمام عائق الجنسية، الذي منعه من الحلم، الذي تحمل الغربة عن الوطن من أجله، فالتحق بالسنة النهائية لدار المعلمين الابتدائية، في بغداد.

في هذه الأثناء، تعالت في العراق الشقيق أصوات نخبة من الشباب العربي، المؤمن بالقومية العربية، تنادي بالوحدة العربية، عبر جيل من الكوادر، قادر على تحقيق هذه الوحدة، والاستقلال، دون التقيد بأقاليمهم التي ينتسبون إليها، وكان من بينهم الدكتور سامي شوكت، مدير المعارف العام، صاحب شعار **«اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم»**، الذي رفعه في المدارس الابتدائية، والثانوية العليا، والذي تأثر به ذو الكفل كثيرًا. وكان هؤلاء الشباب دعاة عروبة ووحدة بحق، وعملوا في سبيل عروبتهم بإيمان شديد، أفرز فئة من المؤمنين بعروبتهم، انتشروا يبشرون بيقظة عربية، وكان معظمهم معلمين وضباطًا، قاموا بتدريب النشء تدريبات رياضية شبه عسكرية، وشكلوا تنظيمات لذلك حملت اسم «الفتوة» وفرضوها على تلاميذ المدارس.

تخرج ذو الكفل في دار المعلمين الابتدائية، وعمل مدرسًا في إحدى مدارس مدينة الحلة، بالفرات الأوسط، يشقها فرع منه يسمى نهر النيل، ولقربها من النهر، وعدم تنظيم الري، في ذلك الوقت، كانت الحلة محاطة بالمستنقعات،

فانتشرت بين سكانها أمراض الملاريا، والبلهارسيا، وكان عبد اللطيف مسؤولًا عن الرياضة، وتنظيمات الفتيان، فشكل منهم فصائل تجوب مناطق ما حول الحلة، لمحاولة علاج المرض، وكان يقوم بحملات تفتيشية عليهم، فأصيب بالملاريا، وظلت الحمى تعاوده من وقت لآخر.

عاد في إجازة صيف إلى فلسطين، فهاجمته الحمى أثناء زيارته لأخيه، سعد الدين، في غزة، فأدخل مستشفى غزة الحكومي لمعالجته من الملاريا، وبرأ منها هناك، إلا أن أخاه رفض عودته مرة أخرى للعراق، فعمل مدرسًا في دار الأيتام الإسلامية في القدس، بادئا نضاله على أرض بلاده.

نقل خبراته الداعية إلى خشونة العيش، وأشرف على الأشبال، والجوالة، وتدريبهم مدفوعًا بتعليمات فتوة العراق، وكان يدرب تلاميذ دار الأيتام الإسلامية رياضيًا وعسكريًا، ويوزع الطلاب جماعات في أيام العطلات، على رأس كل جماعة عريف، ويزود كلًا منهم بخريطة طبوغرافية، ومدنية لإحدى المناطق أو القرى، ثم يرسلهم إليها، عند بداية ثورة ١٩٣٦[١]، ليختلطوا بأهلها، ويقوموا بتوعيتهم بما يدبر لهم ولبلادهم، كما حاول جمع شباب «الحزب العربي» في منظمات، أيضًا، على غرار «فتوة» العراق. وتشكلت لجنة تنفيذية أشرفت على تنظيمات الشباب، وكان هو أمين سر تلك اللجنة، التي ضمت بين أعضائها: علي محيي الدين الحسيني، إميل غوري، محمد نمر عودة، ورشاد التميمي.

ضمت دار الأيتام الإسلامية في القدس أبناء، وبنات الشهداء، والمصابين أثناء مقاومة قوات الانتداب البريطاني، وإلى جانب هؤلاء أيتام المسلمين، المحتاجين لرعاية عامة، يتلقون فيها جميعًا التعليم الابتدائي، ثم تهيئتهم صناعيًا، كلٌ حسب ميوله، وتربيتهم في جو وطني وديني، وقد أشرف على الدار المجلس الإسلامي الأعلى، وكانت تدربهم على النجارة، الطباعة، صناعة الأحذية، والخياطة، مستعينة بالحرفيين المحليين، كما كانت تستقدم الصناع المهرة لهذا الغرض من مصر، فنافست الصناعات الخارجية[٢].

عندما بدأ الإضراب السياسي العام في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦[٣] جند ذو الكفل تلاميذه بدار الأيتام الإسلامية، خاصة كبار الصناع منهم، للإسهام في إنجاح الإضراب، ثم التقى مع كل من الشهيد عبد القادر الحسيني، والمرحوم مصطفى الدردار، أمين صندوق الدار، والسيد صالح الريماوي، وكان مدرسًا بالدار، التقوا جميعًا في المطعم الوطني بالقدس لبحث توحيد العمل الوطني بالقدس، واستقروا على أن يعمل ذو الكفل والدردار داخل المدينة، فعمل مستعينًا بتلاميذه، وزملائه في «النادي الرياضي» بالقدس، وفي كل مكان، لصالح الإضراب والثورة.

كانت دار الأيتام في القدس القديمة، ومنافذها إلى الحرم الشريف، حيث تقع دار سماحة المفتي محمد أمين الحسيني، فكان ذو الكفل يتسلل من الدار، ليلًا، إلى بيت سماحة المفتي، فيتلقى منه التوجيه والإرشاد، ونشأت بينهما ثقة قوية، فبدأ المفتي يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا.

انخرط ذو الكفل في العمل الوطني، وأثناء ثورة ١٩٣٦ اتصل به هاتفيًا مأمور أوقاف القدس، السيد محمد عفيفي، وأخبره بأنه من الضروري أن يترك مدينة القدس، ويختفي بأي شكل، وأن المفتي يأمره بذلك؛ نظرًا لأن حكومة الانتداب البريطاني أصدرت أمرًا باعتقال ذي الكفل لنشاطه، فامتثل لأمر المفتي، ونقله زميله، فايز التاجي، بسيارته الصغيرة إلى بيت زميل صباه، وزميل دراسته في كلية روضة المعارف محمد توفيق الغصن، ابن توفيق بك،

رئيس حزب مؤتمر الشباب، والوطني الكبير. ومكث ذو الكفل في دارهم حوالي شهر، ثم غادر البلاد من ميناء حيفا متوجها إلى العراق في ذات اليوم الذي ناشد فيه ملوك، وأمراء العرب أبناءهم الفلسطينيين بوقف الثورة؛ لثقة الملوك والأمراء في صديقتهم بريطانيا، وأنها ستعمل على إنصاف العرب!

في بغداد تأججت روح القومية العربية، وتكوَّن «نادي المثنى» الذي ضم جميع القوميين العرب، وانبثق عنه «جمعية الدفاع عن فلسطين»[٤]، برئاسة سعيد الحاج، وأصدرت الجمعية جريدة حررتها نخبة من الشباب العربي باسم جريدة «الدفاع عن فلسطين».

التحق عبد اللطيف بدار المعلمين العالية، وكانت تضم نخبة من الأساتذة العرب، الفلسطينيين، السوريين، والمصريين، والعراقيين، حتى غدت بمثابة جامعة للثقافات العربية، ساعدت على تشكيل وعي صاحبنا، ورفاقه الدارسين. وأثناء دراسته، التي استمرت ثلاث سنوات، لم ينقطع عن عمله الوطني، بل كان على اتصال بالمفتي أمين الحسيني، في فلسطين، وخاصة في القدس.

شعر الملوك والرؤساء العرب بالخيبة، والخذلان نتيجة لعدم قيام بريطانيا بإنصاف العرب الفلسطينيين، فتأججت نيران الثورة، وعم الإضراب أرجاء فلسطين، فأرسلت بريطانيا لجنة للتحقيق في أسباب الثورة والإضراب، أسفر عن صدور توصية بتقسيم فلسطين، ولم تلتفت بريطانيا لمطالب العرب بوقف الهجرة اليهودية إلى البلاد، أو إعطاء الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم، فخاب أمل العرب، وخاصة الفلسطينيين، الذين ازدادوا ثورة، وفدائية، في ظل غياب الدعم، والمساعدة الرسمية العربية.

في سنة ١٩٣٩، عين عبد اللطيف مدرسًا للتاريخ بمدرسة الرمادي، حيث لا حياة اجتماعية بتلك المدينة الصغيرة، فانغمس صاحبنا في نظام الفتوة.

قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩، وضيقت حكومة الانتداب على زعماء حكومات سوريا، ولبنان، وعلى الفلسطينيين الذين يقيمون فيهما، ويساعدون الثورة، فاضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى العراق، وكان منهم شقيق صاحبنا، سعد الدين، فضلا على كل رجال أمين الحسيني.

سافر المفتي إلى بغداد مع بعض رجاله قبل انتهاء العام الدراسي، وأرسل في طلب ذي الكفل للحضور لمقابلته في أقرب وقت ممكن، وعند لقائه، أخبره أنه تمت الموافقه على التحاقه بدورة ضباط الاحتياط الخاصة بخريجي دار المعلمين العالية، وأن عددا من الإخوة الفلسطينيين سوف يلتحقون بدورة أخرى لضباط الاحتياط، منهم عبد القادر الحسيني، جميل بركات، عبد الرحيم محمود، فؤاد نصار، عبد اللطيف القدومي، وآخرون، وكان لكل منهم اسم حركي، وكان هو (كافل)، وقد تخرج من الدورة بعد ستة أشهر.

أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب العالمية على ألمانيا وحلفائها، وكانت بريطانيا تعلم جيدًا مدى البغض الذي يكنه العرب لها، ولفرنسا، خاصة وأنها ساعدت في اقتطاع جزء غال من جسد الأمة العربية، ومنحته للصهاينة، وكانت بريطانيا تعلم أيضًا مكمن الخطر الذي يهددها من تجمع أحرار وقوميي المشرق العربي في العراق، فعملت على إجهاض أي محاولة يمكن أن يشاغبوا لها على سير الحرب، فطلبت لندن من نوري السعيد عدة مطالب، أولها قطع العلاقات مع ألمانيا وحلفائها، ففعل دون الرجوع إلى السلطة التشريعية في بلاده، وكان من بين طلبات الإنجليز أن يوضع

الجيش العراقي تحت الإدارة الإنجليزية المباشرة، فرد الضباط الأحرار العرب الموجودون بالعراق بالاستهجان كيف يدخل العراق الحرب قبل أن تتعهد بريطانيا بحل قضيتي فلسطين وسوريا، ودون أن تمنح بريطانيا للعراق استقلالًا ناجزًا؟! فيما كان نوري السعيد يرى أن يترك تلك الأمور لما بعد الحرب!

في أول أبريل/ نيسان ١٩٤١ طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية السماح لها بإنزال قوات بريطانية في ميناء البصرة، وتعزيز بعض الحاميات في القواعد البريطانية، فرفض رئيس الوزراء، حينها، رشيد عالي الكيلاني، وإزاء رفضه أعلنت بريطانيا الحرب على العراق في الثاني من مايو/ آيار من العام نفسه، فهرع جميع مجاهدي ثورة فلسطين ١٩٣٦، الذين سبق أن لجأوا للعراق، وغيرهم من العرب الموجودين على أرض العراق، للانخراط في صفوف الجيش العراقي، وبينهم عبد اللطيف، وقد ساعد ذلك المناخ على أن يتلقى المجاهدون الفلسطينيون التدريب العسكري، كل حسب مؤهلاته، وتم توزيعهم على جبهات القتال.

بعد يومين من نشوب الثورة التي عرفت بثورة رشيد عالي الكيلاني[٥]، استدعى المفتي الحاج أمين الحسيني ذا الكفل، وكان، حينها، مشرفًا على الأمن الداخلي في المدرسة المتوسطة الشرقية في منطقة السنك ببغداد، وأبلغ المفتي ذا الكفل قرار انتدابه قائدًا للمتطوعين الفلسطينيين في قوة البادية، بدلًا من فوزي القاوقجي[٦]، الذي أثيرت حوله عدة شبهات جراء رفضه إرسال الأسلحة التي كان يشتريها بأموال «لجنة الدفاع عن فلسطين» إلى الثوار في فلسطين، وكلف المفتي عبد اللطيف بمهمتين في هذا الخصوص، الأولى هي إقناع القاوقجي بتسليمهم السلاح، إذا رفض أن يحضره بنفسه كما كان متفقًا عليه، والثانية تزويد الثورة بضباط صف مدربين لقيادة الفصائل وتدريبها، بعد أن استشهد من قادة التشكيلات الشبابية الكثير، فذهب ذو الكفل للقاء القاوقجي، واحتدم بينهما النقاش والخلاف، واستطاع ذو الكفل بمساعدة ثلاثة من ضباط كتيبة الهاشمي الخيالة إقناع حوالي ستة من ضباط صف الكتيبة بالالتحاق بالثورة في فلسطين، وتم تزويدهم بملابس مدنية، وتأمين سفرهم، إلا أن القاوقجي علم فثار، وأخبر رئيس الوزراء العراقي، آنذاك، جميل المدفعي، وكان ممالئًا للإنجليز، فقام المدفعي باستحضار محمود سلمان، قائد الكتيبة، وهدده إن لم يعد هؤلاء الضباط الستة بمحاكمته عسكريًا، فاضطروا لاستعادة ضباط الصف من الطريق، وكانوا قد وصلوا إلى سامراء، أما عن السلاح، فكان يعمل ذو الكفل ورفاقه على شرائه لحساب الثورة في فلسطين.

مرت الأحداث، وتأكد ذو الكفل من صحة الشائعات التي أثيرت حول القاوقجي، فقدم ذو الكفل تقريرًا لرئاسة الأركان في بغداد، وآخر لسماحة الحاج أمين الحسيني، أخبره فيها بخطورة الأمر، وبأن تصرفات القاوقجي سوف ينتج عنها سقوط بغداد خلال أيام قليلة، وبالفعل سقطت بغداد بعد يومين فقط، وظل هذا التقرير ضمن محفوظات الأركان الوثائقية، كما أخبر عبد اللطيف صديقه، أحمد محمود الجنابي، الذي كان يعمل بها.

خرج ذو الكفل من العراق إلى تركيا بعد سقوط ثورة الكيلاني، مستغرقًا في فكرة إعادة تنظيم الصفوف، والحصول على مزيد من التدريبات العسكرية، فضلًا على التسليح المناسب، بمساعدة الألمان، بصفتهم أعداء العدو البريطاني، ثم العودة للنضال على أرض فلسطين لتخليصها من الأعداء الإنجليز، والصهاينة، على حدٍّ سواء.

في ذلك الوقت كان كل من المفتي أمين الحسيني[٧]، ورشيد عالي الكيلاني في طهران، ولم يكن التفاهم مع الألمان قد تم، وفي هذه الأثناء أقام الألمان في ضواحي أثينا معسكرًا للتدريب العسكري، جمعوا فيه بعض شباب العرب ممن كانوا يدرسون في أوروبا، وخاصة في ألمانيا، وأيضًا، مَنْ فروا مع القوات الألمانية بعد انسحابها من سوريا ولبنان،

فضلًا على أن الألمان أرسلوا للبلدان الأوروبية، التي يوجد بها شباب عرب، وإلى إستانبول، مَنْ حض هؤلاء الشباب على الالتحاق بالمعسكر، واختير ذو الكفل للذهاب إلى أثينا في مهمة استكشافية للتعرف على ما إذا كان هذا المعسكر قائمًا بالفعل، بهدف إعداد هؤلاء الشباب، وتدريبهم للقيام بمهام تحررية؟ فإن كان ذلك هدفه التحق به، وأشرف عليه، وإن لم يكن عاد إلى إستانبول ليقدم تقريرًا عنه.

في أوائل ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١ سافر ذو الكفل إلى أثينا، التي وصلها بعد رحلة طويلة شاقة، واستقبله في أثينا شخص ألماني يتحدث اللغة العربية، اسمه «كاسمان»، وفي اليوم التالي اصطحبه كاسمان، لمقابلة المايور «فون بادن»، الذي اتضح فيما بعد أنه كان رئيسًا للاستخبارات الألمانية لشؤون الشرق الأوسط، وخاصة البلاد العربية، فرحب بذي الكفل، وطلب منه إخباره بحقيقة مهمته، التي يعلم إطارها العام، فأخبره عبد اللطيف بما طلب.

بعد يومين من لقاء المايور فون اجتمع مايور آخر يدعى «ركز» المشرف على المعسكر مع ذي الكفل بفندق جراند بريطانيا، وتحدث ثلاثتهم عن مهمة الشاب العربي، فوعده ركز بتسهيل مهمته بزيارة المعسكر، والتحدث إلى مَنْ فيه، إلا أنه عوق الزيارة، لكن ذا الكفل تمكن والتقى ببعض عناصر من الشباب العربي بالمعسكر، الذين كانوا من خيرة شباب العرب وطنية، وثقافة، وقومية، ومنهم الملازم فؤاد البيسار، الذي استشهد في إحدى الغارات الجوية على برلين، والسيد إبراهيم الميسقاوي، والسيد فوزي المدرس، والسيد ممدوح الميداني، والسيد رمزي الألجاتي، والسيد السعدي بصبوص. كما التقى عبد اللطيف، أيضًا، بعسكريّن كانا يقيمان إقامة جبرية فيها، بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني، إذ فشلت أثناء تواجدهما في إيطاليا للحصول على طائرات للجيش العراقي، كما التقى بالشاعر عبد اللطيف الكمالي، الذي كان يعمل مذيعًا في إذاعة بغداد أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني، وكان طالبا في كلية الحقوق ببغداد، وغادرها بعد فشل الحركة.

اكتشف ذو الكفل أن لا علاقة لما أشيع حول طبيعة المعسكر بحقيقته، وأن الشباب القومي العربي الذين التحقوا به خاب أملهم فيه، لكنه يحول دون فكاكهم منه طبيعته العسكرية، فاستمروا فيه حتى تخرجوا ضباطًا، عدا بصبوص، الذي تركه قبل التخرج، وعمل مذيعًا في إذاعة «العرب الأحرار».

أبلغ ذو الكفل الألمان بأن مهمته في أثينا انتهت، وأنه يرغب في العودة إلى إسنانبول، إلا أنهم رفضوا، وعرضوا عليه الإقامة الجبرية في أثينا على اعتبار أنه في ضيافة الألمان، لكنه رفض مقررًا أنه جاء إلى أثينا في مهمة محددة من قبل رؤسائه، وأنه إزاء ذلك مضطرٌ لرفض الضيافة شاكرًا، وبقي في أثينا عدة أيام عصيبة، ثم حصل على تأشيرة سفر إلى بلغاريا، وأثناء صعوده للطائرة استوقفه كاسمان، واثنان آخران من المخابرات الألمانية، طالبين منه عدم المقاومة، وأصدروا له أمرًا بعدم السفر، ومقابلة المايور فون بادن في الساعة العاشرة، وأجبر حينها ذو الكفل على العودة إلى الفندق، وعند لقائه فون أخبره الأخير أن برلين ترى إبقاءه في أثينا لحين إشعار آخر!

بعد بضعة أيام حضر إلى أثينا جورج كاسبر، الملحق الثقافي الألماني في بغداد قبل حركة الكيلاني، وكان متحمسًا للعرب، فاتصل بذي الكفل، وطلب منه التريث والانتظار في أثينا، وأبلغه بأن الأستاذ راسم الخالدي سوف يصل لأثينا بتعليمات من سماحة المفتي.

وصل الخالدي إلى أثينا بعد يومين، وأخبر ذا الكفل بأنه تم إنهاء الخلاف مع الألمان، والذي كان قائمًا على شعور

لعرب بخذلان الألمان لهم أثناء حركة الكيلاني، وأنه تم تشكيل مكتب عربي في برلين لخدمة الأغراض العربية، وكلف الخالدي ذا الكفل بالإشراف على محطة إذاعية عسكرية ناطقة باللغة العربية في أثينا لخدمة الأغراض العربية، وموجهة للوطن العربي باسم إذاعة «العرب الأحرار»، ليس للألمان أي سلطة عليها، إلا أن تذاع من خلالها بياناتهم لعسكرية دون تحريف، فقبل ذو الكفل بشكل مؤقت إلى أن تسنح الفرصة لتنفيذ حلم العودة للوطن بالسلاح، وبمن تم تدريبهم عسكريًا.

عمل ذو الكفل بمحطة إذاعة «العرب الأحرار»، وشغل جميع المناصب تقريبًا لمدة عام، حيث لم يصله أي حديث، أو مشاركة من العرب المقيمين في برلين، أو روما، كما وعده الخالدي، وكانت الإذاعة تبث إرسالها مرتين يوميًا لمدة نصف ساعة ظهرًا، وساعة في المساء، وكانت مسموعة في الوطن العربي إلى الحد الذي جعل المستعمرين يحظرون سماعها، واضعين لمستمعيها عقوبة الحبس والغرامة.

تكررت مطالبة ذي الكفل للمفتي بتنفيذ خطة العودة بالسلاح والمدربين إلى فلسطين، فاستدعاه إلى برلين في أوائل عام ١٩٤٣، وكانت إذاعة برلين (القسم العربي) في أسوأ أوضاعها، ووسط تزايد احتجاجات الأوساط العربية، عرض الألمان على المكتب العربي استلام القسم، وإدارته على نمط إدارة «إذاعة العرب الأحرار»، فقبل المكتب، وكلف ذا الكفل عبد اللطيف بإدارتها.

إثر الإلحاح على المفتي، وبعد عدة مرات، قرر فيها سماحته الاتصال بالألمان، وحدد له اسم الشخص الذي يتصل به في برلين لإتمام العملية، ففعل، وبدأ يتردد على برلين حسب خطة لتنفيذ عملية تسليح وتدريب الفلسطينيين، استعدادا لمعركة الاستقلال.

لم يكن يعلم عن التجهيز شيئا سوى المفتي، وكل من الدكتور فرحان الجندلي، والدكتور مصطفى الوكيل، حيث كانا حلقة الوصل بين كل من المفتي والألمان، إلى أن تساءل حسن سلامة عن سلامة الاشتراك في العملية، وقابل المفتي.

تدرب ذو الكفل، وحسن سلامة على الهبوط بالمظلات، وكان الأخير تلقى تدريبًا للمشاة في العراق، وآخر في إيطاليا، أما ذو الكفل فكان حاصلًا، كما أسلفنا، على دورة ضباط الاحتياط في الكلية العسكرية الملكية في العراق، بعد تخرجه في دار المعلمين العالية، وبعد الموافقة على العملية حصل على دورة كوماندوز.

تم التخطيط للعملية على أساس الهبوط، وتكوين رأس جسر في فلسطين، مكونًا من ذي الكفل، وحسن سلامة، وثلاثة آخرين من الضباط الألمان، ثم تأمين المقر، وإجراء الاتصالات الضرورية لسير العملية، والاتصال بالمقر في ألمانيا لوضع البرامج، والإمداد بالأسلحة، والرجال العرب المدربين، ولم يفت المفتي أن يوصي ذا الكفل مشددا في حالة حدوث أي اضطرار أن يتصل بثقته، وقريبه علي محيي الدين الحسيني.

بدأ تنفيذ العملية في أكتوبر/ تشرين الأول، وبنوع من الخطأ ترتب عليه النزول في منطقة مغايرة للمنطقة المتفق على الإنزال بها، فهبطوا في أرض منبتة، مليئة بمزارع الموز تابعة لآل الحسيني، وفيها ضاعت حمولة السلاح، فأسرع حسن سلامة حتى يهيئ للفرقة محطات انتقال، واتصل ذو الكفل، بعد وقت عصيب، بعلي محيي الدين الحسيني،

ثقة المفتي، الذي رفض مساعدتهم، وطلب منهم المغادرة، معللًا موقفه بأنه تم الاتفاق مع البريطانيين على إيقاف الهجرة، والحصول على الاستقلال بعد الحرب، وأن الإنجليز صادقون في وعدهم، بدليل السماح للفلسطينيين بحضور مشاورات الجامعة العربية، ممثلين بـ «موسى العلمي»، فحاول ذو الكفل تشكيكه في ذلك الوعد كغيره، وتذكيره بمواقفه الوطنية السابقة إلا أنه تمسك برأيه، فاضطروا للرحيل، إلا أنه وبعد عناء ومشقة تمكنوا من المغادرة في الجبال، وبعد ليلة طويلة من العذاب في الجبل تم تسليمهم لجنود الإنجليز، وتم التحقيق مطولًا معهم، وفي أبريل/ نيسان ١٩٤٥ أبلغتهم الحكومة البريطانية بأنه ليس لديها قضية تجاههم، وأنهم سوف يعاملون كأسرى حرب، وبعد مدة تم نقل الألمانيين فرانك، وفيلاند إلى معسكرات أسرى الحرب، أما الأخير وكان يدعى داينجر فلم يعثر له على أثر، وعلمت المجموعة فيما بعد بأنه عثر عليه تائهًا في جبال فلسطين مصابًا بلوثة.

لم ينقل ذو الكفل عبد اللطيف إلى معسكر أسرى الحرب، وإنما بقي قيد الحجز الانفرادي، غير أنهم بدلوا ثيابه بأخرى عسكرية قذرة، وحذاء عسكري قديم واسع جدًّا، من دون رباط.

في حوالي الثلث الأول من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦، استدعي ذو الكفل إلى غرفة الاستجواب، فوجد فيها أحد المحققين معه سابقًا، وبعد أن أسمعه عبارات مجاملة، بادر بسؤالين عن شخصين فلسطينيين، هما موسى الحسيني، أحد أقرباء المفتي، وموسى أبو السعود، وهو ابن السيد حسن أبو السعود، طالبين معرفة ثقافتهما الدينية، والعامة، ومدى تمتعهما بالحب والقبول لدى أبناء فلسطين، ففهم ذو الكفل على الفور أن بريطانيا تخطط للتخلص من المفتي، وتأثيره على الشارع الفلسطيني، وعمله النضالي، وأجاب على الفور بأن ما تخطط له بريطانيا سوف يجر عليها متاعب كثيرة، ونصحهم بأن يوفروها على أنفسهم.

بعد عناء البقاء في الحجز الانفرادي، والسجن الحربي، ومعسكر الترانزيت، ومعاناة ويلات كل منهم، وفي منتصف مارس/ آذار عام ١٩٤٦ نقل ذو الكفل عبد اللطيف إلى فلسطين، وتسلمته حكومة الانتداب البريطاني، التي اعتقلته بعد أن رفضت حكومة الانتداب المدنية في فلسطين تسلمه؛ ولذا تم تسليمه بإيصال مع مجندين آخرين من الفيلق اليهودي بالجيش البريطاني إلى حراس التوقيف بقشلاق القلعة في القدس، وكان أحد الحارسين عريف (شاويش) عربي، تعرف عليه ذو الكفل لحظة تسليمه، فعرفه بنفسه، فطار فرحًا، وأخبر عائلته بوجوده.

بعد إتمام إجراءات التسليم سلمه العريف البريطاني من الحرس برشًا، وأدخله بهوا واسعًا، ذا إضاءة خافته، غاصًّا بأشخاص نائمين يفترشون أبراشا مرصوصة. قضى فيه ليلته حتى الصباح، حيث استيقظ رفاقه، وبدأوا يشغلون أنفسهم بمن عساه أن يكون؟! وظنوه جميعهم أجنبيًّا لا يعرف العربية، وعندما حاول أحدهم الاحتكاك به تأكدوا من أنه عربي، فأثار دهشتهم، خاصة وأنه كان مرتديًا ملابس عسكرية، وحينها تعرف على أحدهم، وناداه باسمه، مما أثار دهشة الجميع، فانقضوا عليه يعانقونه، ويحيونه، فبعد أن انقطعت أخباره، ظن من يعرفونه أن البريطانيين قتلوه.

في التاسعة صباحًا، وعندما عاد الشاويش العربي الذي تسلمه لاستلام نوبته، والذي كان جارا لأهل ذي الكفل، وكان فور عودته من عمله توجه لدارهم، وأخبرهم بوجوده، حضر إخوته لرؤيته، وأحضروا موائد الطعام لكل المحتجزين معه، وقد بقي في ذلك المكان ٤٨ ساعة، غادره بعدها إلى سجن القدس المركزي بالمسكوبية، حيث تعرف

ذو الكفل على مجموعة من النزلاء الذين يقضون عقوبات عن تهم وطنية، ومنهم السيد محمود العنتبلي، الذي تزامل معه في كلية روضة المعارف الوطنية، وكان من أعضاء الفرقة الرياضية، التي كان ذو الكفل رئيسًا لها، فحيوا بعضهم بعضا من بعيد، ثم اقتيد عبد اللطيف لمقابلة مدير السجن، وكان معظم النزلاء من خيرة شباب فلسطين، ومثقفيها الذين صدرت عليهم أحكامًا بالمؤبد أو بالسجن لمدد طويلة عن تهم وطنية، وأثناء الثورة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩).

قضى ذو الكفل في سجن القدس أربعة أيام، فيما يشبه الاستجمام، فالملابس نظيفة، والمكان جيد، والطعام يأتي من بيوت عائلات النزلاء جميعًا، وكان سمرهم وأحاديثهم حول أوضاع البلاد السياسية، فضلًا على سهولة الاتصال بالخارج، إلا أن ما عكر صفوه هو أن أحدًا من أعضاء جماعته السياسية لم يزره، وأنه عندما طلب لقاء جمال الحسيني الذي سمح له بالعودة إلى فلسطين، أو إميل الغوري، لإطلاعهما على بعض ما يفيد «الحزب العربي» في المفاوضات التي كانت دائرة، حينها، على أمل إيجاد حل للقضية، لم يهتم أيهما بزيارته، غير أن صديق طفولته ودراسته، عادل النشاشيبي، كان يرسل كل يوم ليسأل ذا الكفل عن احتياجاته، فكان الأخير يرد شاكرًا ممتنًّا.

في صباح اليوم الخامس، نُقل ذو الكفل إلى معسكر اعتقال في صرفند، خاص بإرهابيي الصهاينة من عصابتي «الأرجون»، و«شتيرن»، اللتين كانتا تشنان حربًا تخريبية ضد السلطات البريطانية. وأدخل إلى زنزانة، قضى فيها حوالي أربع ساعات، نقل بعدها إلى سجن نابلس، حيث تم تسليمه، فتعرف على بعض القائمين على شؤون السجن، ووجد فيه بعض الذين اعتقلوا لصلتهم بقضيته، مثل المجاهد الباسل أبي الخير، وكانت تهمته أنه آوى أبا علي (حسن سلامة)، زميل ذي الكفل في العملية، ولم تثبت التهمة، فلم يحاكم أبو الخير، وأيضًا، أخبره أبو الخير عن دس الدكتور مهدي الحسيني عليهم، بهدف استدراجهم للاعتراف، وتنبهت إدارة السجن لذلك، فلم يبقوهم معه غير يوم واحد، أطلق سراحهم بعده.

كان سجن نابلس، كباقي سجون فلسطين، يضم إلى جانب المجرمين العاديين آخرين محكومًا عليهم بتُهم وطنية، أثناء الثورة الفلسطينية، فمحاكم الانتداب كانت تعتبرهم مجرمين كغيرهم، وتصدر ضدهم أحكاما ظالمة، وتزج بهم في السجون مع معتادي الإجرام، من القتلة واللصوص، وعلى الجانب الآخر ، كانت سلطات الانتداب تعامل إرهابيي الصهاينة معاملة مجاملة، حيث يتمتعون في معتقلاتهم بالحرية، وتزودهم بالمسليات، فتعتبر معسكرات اعتقالهم معسكرات رياضية، ترفيهية .

كان من بين نزلاء سجن نابلس بعض مجاهدي الثورة، ومنهم السيد سليمان العوام، من الخليل، وآخرون غيره. وقد لقي ذو الكفل في سجن نابلس معاملة طيبة من قبل الإدارة العامة للسجن، الذين أصبحوا جميعهم معه أصدقاء، بما فيهم المدير البريطاني، وامتدت بينهم جسور الثقة إلى حد أنه كان يصطحبه للجلوس معه في الحديقة خارج السجن، غير شاك في أنه سوف يؤذيه بمحاولة الفرار.

في مارس/ آذار ١٩٤٧ انتهت مدة السنة التي كانت محددة لاعتقال ذي الكفل، وفي نهايتها حضرت إلى معتقله لجنة لاستجوابه وكتابة تقرير عنه، واعتقد بأنه سوف يطلق سراحه، إلا أنه أبلغ بأنه تم تجديد اعتقاله لمدة ستة أشهر أخرى، وخلال هذه المدة جاءته رسائل عدة من شباب وطني من أهل مدينة نابلس يعرف بعضهم ولا يعرف

الآخر، اتفقوا جميعهم على استعدادهم لمساعدته على الفرار من المعتقل، لكنه رفض، معتقدًا بأنه سيتم خروجه في نهاية المدة الجديدة، لكن أمله خاب للمرة الثانية، حيث حضرت اللجنة واستجوبته بالأسئلة نفسها، تقريبًا، فكرر الإجابات نفسها، وكانت جميعها تدور حول رأيه في التقسيم، وموقفه من الثورة. فعرضت اللجنة عليه التعاون مع سلطات الانتداب، وكان يجيب بأن ما بني على باطل فهو باطل، وأن الانتداب بني على تصريح بلفور، الذي لا شأن له بفلسطين، ودون أخذ رأي أبنائها الذين يرفضونه جملة وتفصيلًا، وهو كبقية أبناء فلسطين يرى ذلك، وفي الوقت ذاته، كانت الحالة تنم عن تجاوب السلطات الحاكمة والوطنية العربية في وجه الإرهاب الصهيوني المستشري ضد المصالح البريطانية، فشعر بالتفاؤل تجاه قرار اللجنة التي صدمته بأن جددت مدة اعتقاله عامًا آخر. في الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية بأن حكومة الانتداب وقواتها ستخلي البلاد في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٨ ، أي قبل نهاية مدة اعتقاله! وسأل أصدقاءه في سجن نابلس، فبحثوا ملفه، وتوصلوا إلى أنه سيتم نقله إلى المستعمرة البريطانية في كينيا، فصمم على الهرب، واستجاب لعرض أحد الشباب الذي استشعر إخلاصه، وهو مأمون قطب، فاتفقوا على تنفيذ مخططهم، وفيه اصطنع ذو الكفل المرض، وساعده طبيب مستشفى السجن، وتم نقله إليها، واستكملوا خطة محكمة لتهريبه من المستشفى، رغم الحراسة المكثفة الذي كانت تحرسه أثناء تواجده بالمستشفى، ونجحت الخطة، وهرب في النصف الأخير من شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٧.

كان محظورًا على الشرطة البريطانية ورجال الجيش دخول مدينة نابلس مساء، فبقي ذو الكفل ومنفذو عملية هربه في الجبل حتى حل الظلام، فنزلوا إلى المدينة، حيث استقبلهم لفيف من رجال نابلس الوطنيين، ومنهم رئيس بلديتها آنذاك، سليمان طوقان، وذهبوا إلى بيته، واجتمع حشد من المهنئين، من بينهم الأستاذ قدري طوقان، وفي جو من الحب والتفاؤل دارت أحاديث وطنية، ملأها الأمل بحدوث التفاهم بين مختلف الأحزاب الفلسطينية، وتوحيد العمل الوطني، خاصة وأن سماحة المفتي وصل واستقر في القاهرة، والتفت حوله مختلف الشخصيات الفلسطينية، بينهم أشد خصومه، سليمان طوقان، الذي طلب من ذي الكفل البقاء في منطقة جبل نابلس ليشرف على تنظيم وقيادة المجاهدين، وأيده جميع الحضور في ذلك، فوافق ذو الكفل، على أن يمنحوه فترة عشرة أيام للراحة والاستجمام، بعد عناء السجن.

أقام عبد اللطيف بجبل نابلس أربعة أيام، رتب خلالها خروجه من فلسطين، مرورًا بعمان، ليصل إلى سوريا، ورافقه في رحلته أخوه عادل، وبعض من ساعده في هربه من السجن، ونزلوا في عمان على دار صديق لهم، الذي أصر ألا يتركهم إلا بعد تناول الغداء، إلا أنهم علموا بأن السلطات علمت بوجودهم في عمان، فأسرعوا بالخروج، وفعلًا تمكنوا من الوصول إلى الحدود السورية قبل وصول أي تعليمات بشأنهم إلى الحدود الأردنية.

دخل ذو الكفل ورفاقه إلى دمشق بأسلحتهم كاملة، وبقي فيها ثلاثة أيام، تلقى فيها تعليمات من المفتي قضت بضرورة الاتصال به تليفونيًا، ونظرًا لتعذر ذلك من دمشق ذهب إلى بيروت، ومنها أجرى اتصاله مع المفتي، الذي طلب منه سرعة القدوم إلى القاهرة للتفاهم على أسس العمل، وللاستجمام أيضًا، وساعده على السفر للقاهرة الأستاذ إميل الغوري، فدخلها في بدايات عام ١٩٤٨.

وصل ذو الكفل إلى القاهرة، واستقبله فيها بترحاب الحاج أمين الحسيني، وجميع من كانوا معه في أوروبا، وخاصة في ألمانيا، ثم انفرد به المفتي ليسمع منه تفاصيل الأحداث التي مرت به طوال الفترة السابقة على ذلك اللقاء، ومنذ

مغادرته برلين، وعندما أخبره بما فعله مجاهدو نابلس معه، خلال عملية تهريبه من المعتقل بسجن نابلس، حتى تأمين وصوله إلى سوريا، قرر المفتي لكل منهم جائزة مناسبة من السلاح، أرسلها لهم عن طريق شباب آل الحسيني، لكنهما علما، فيما بعد، بأن الأسلحة لم تصل لمن أرسلت لهم!

كان ذو الكفل متعجلًا العودة إلى نابلس، وفاءً بوعده لأهلها، إلا أن المفتي استمهله للتفاهم على أسس العمل، فظل الأول يلح حتى أخبره المفتي بأن نابلس، على أهميتها، ليست مطمعًا للصهاينة، بخلاف القدس؛ ولذلك فإن المفتي يرى بأن يكون ذو الكفل آمرًا لحامية القدس لتنظيم الدفاع عنها، خاصة وأنه من أبناء المدينة المقدسة، ويعرفها جيدًا، وتربطه بأهلها صلات جيدة، ووعد المفتي صاحبنا بأن يمده بالسلاح، والمعدات، والإمكانات اللازمة، وذكر له بأن أهالي نابلس سوف يتقبلون هذا العذر، وأن المفتي سوف يتكفل بإبلاغهم بذلك، وطلب منه دراسة الموقف والموقع.

حضر إلى القاهرة، بعد عدة أيام، أنور نسيبة، أمين سر اللجنة القومية في القدس، والدكتور عزة طنوس، عضو اللجنة، فقابلهما ذو الكفل عدة مرات أسفرت عن وضع تقرير بالاحتياجات التي وعد المفتي بتدبيرها.

تأخر السفر إلى القدس، فأخذ ذو الكفل يلح على المفتي، والأخير يستمهله، وعندما شعر عبد اللطيف بأنه سئم المماطلة، أخبره المفتي بأنه سيذهب للقدس، إلا أن هناك بعض الأمور التي يجب تسويتها، وأن الأسلحة لم يتم تدبيرها بعد، وطلب منه التريث بعض الوقت، وطلب منه إنشاء مكتب عسكري، وإعداد كادر له، وعينه مديرًا لهذا المكتب!

ظل المكتب العسكري للهيئة العربية العليا بعيدًا تمامًا عن مجريات الأمور العسكرية، وظل المفتي يصطحب ذا الكفل في جميع سفرياته إلى سوريا أو لبنان، واعدًا إياه بأن يسافر من هناك إلى القدس إذا تم توفير الأسلحة، لكن سرعان ما كان عبد اللطيف يكتشف مماطلة المفتي، ففهم بأن المفتي يبقيه تحت بصره فحسب! استمر الحال كذلك حتى استشهد عبد القادر الحسيني أثناء تواجدهما في دمشق في ٧/ ٤/ ١٩٤٨، وعلى إثر استشهاده تم تعيين ذي الكفل قائدا لمنطقة القدس خلفا للشهيد بإجماع قيادة الجيوش العربية: اللجنة العسكرية، والهيئة العربية العليا، وأبلغه المفتي بالقرار في اجتماع عقد في دمشق، في الواحدة بعد منتصف الليل، حضره كل من العميد طه الهاشمي، والعقيد محمود الهندي، أمين سر اللجنة العسكرية المنبثقة عن جامعة الدول العربية، وحسن سلامة، رفيقه في عملية الإنزال بالمظلات، والأستاذ إميل الغوري.

قابل شباب آل الحسيني خبر تعيين ذي الكفل خلفا للشهيد عبد القادر الحسيني بثورة عارمة، فهم يرون أن يتم تعيين آخر من آل الحسيني بصرف النظر عن كفاءته، وخبراته بالمجال! ولما فشل ذو الكفل في إقناعهم أشار عليه حسن سلامة بقتالهم، لكنه رفض، وسافر إلى بيروت، ومنها إلى القاهرة، محملًا برسالة للمفتي، سطرها الأستاذ إميل الغوري، بما شاهده من موقف شباب آل الحسيني.

استدعى المفتي شباب آل الحسيني إلى القاهرة، فحضروا، وحضر معهم قاسم الريماوي، وكان سكرتيرًا للشهيد عبد القادر الحسيني، وقد أطلق على نفسه سكرتير عام «الجهاد المقدس»، واجتمعوا بالمفتي لمدة ستة أيام، سقطت خلالها مدينة القسطل في أيدي العدو، بعد أن استشهد دونها عبد القادر الحسيني، وكان مطلوبًا أن يتوجه ذو الكفل

لإمداد مقاتليها بالسلاح فورًا، لولا موقف هؤلاء الشباب، وبذلك أصبح العدو يسيطر سيطرة كاملة على مدخل القدس من ناحية يافا.

حلًّا للموقف، خالف المفتي اتفاق دمشق، وعين خالد الحسيني قائدا عامًّا يساعده مساعدان، هما ذو الكفل عبد اللطيف، ومنير أبي فاضل، الذي كان نقيبا في مباحث الانتداب البريطاني! ولا علاقة له بالشأن العسكري، ثم تم توزيع باقي شباب آل الحسيني على بقية الوظائف، فامتعض ذو الكفل، وخالف أوامر المفتي للمرة الأولى، فطلب منه المفتي وعدًا بأن لا يذكر ما حدث في الشام لأحد فوعده وانصرف.

تلاقى المفتي وذو الكفل عدة مرات لفترات طويلة، تحدثوا فيها عن أمور كثيرة، فهم منها ذو الكفل بأن ثمة أمورًا عائلية داخل عائلة المفتي كانت سببًا فيما حدث، ووقفت وراء موقف المفتي، فثمة أناس من أفراد عائلته يستخدمون اسمه، وفي الوقت نفسه يعملون ضده، وبعد أن صرح له المفتي بمكنونات نفسه عاتبه ذو الكفل على تأخير تنفيذ قرار تعيينه آمرًا لحامية القدس فور نجاته من الأسر، وحينها كان يسهل أن يحول من آمر لحامية القدس إلى قائد للمنطقة، خاصة وأن الشهيد عبد القادر الحسيني كان صديقًا له، وزميلًا في مراحل النضال السابقة، وهنا صرح له المفتي بما أصابه بالدهشة، حيث أخبره بأن الشهيد كان يعارض ذلك، وكان يبرر ذلك بأنه لا يستطيع التعامل مع ذي الكفل، واصفًا إياه بأنه عسكريٌّ صلبٌ، وعنيفٌ، ونازيٌّ، فتساءل لماذا لم يخبره المفتي بذلك حينها، فأخبره بأنها كانت رغبة الشهيد عبد القادر الحسيني نفسه.

طلب المفتي من ذي الكفل أن يعود لإدارة «الجهاد المقدس» بصفته مديرًا لمكتب الهيئة العسكري، إلا أن ذا الكفل اعتذر، وأبلغ المفتي بأن المكتب اسم على غير مسمى، واقترح بأن يعفيه من مسؤولية الشؤون العسكرية، وطلب أن توكل إليه أعمال مدنية في الهيئة، معللًا ذلك بأنه ليس عسكريًّا محترفًا، وإنما هو بحسب الأصل مدرس للتاريخ، وأن دراسته العسكرية كانت عبارة عن دورات إعداد، ليكون جنديًّا مدربًا لخدمة وطنه، وطالما أن ذلك عز عليه، فليخدم بلاده مدنيًّا، فوعده المفتي بالعمل على تهيئة أسباب الخدمة العسكرية له، وإرساله للجبهة، وطلب منه أن يعود للعمل كمدير للمكتب العسكري للهيئة، ووعده أيضًا بأنه سيهيئ له كافة الأسباب والظروف الملائمة للإشراف الكلي والمباشر على كافة الشؤون العسكرية، وطلب منه استلام المقر الجديد الذي تم استئجاره للمكتب، والقيام بتأثيثه بكافة الإمكانات اللازمة لجعله اسما على مسمى.

تسلم ذو الكفل المكتب بحماس منقطع النظير، وأثثه لمواجهة المتطلبات العسكرية، وزوده بخرائط عسكرية طبوغرافية، ذات إحداثيات مفصلة لفلسطين، وساعده في الحصول عليها الضابطان في الجيش المصري رشاد مهنا، والملازم طيار محمد حسين خيري، وطلب من سماحة المفتي أن يصدر قرارًا موجها إلى كافة الجهات التي لها علاقة بالمجهود الحربي، وإلى قيادة «الجهاد المقدس»، وجميع فصائله في الميدان، يخبرهم بالتنظيم الجديد في المقر، وأن تكون صلة الجميع بالقيادة العليا ، الممثلة في شخص المفتي ـ بخصوص الشؤون العسكرية ـ عن طريق المكتب العسكري، فوافق المفتي.

استمر الحال لعدة أسابيع دون تغيير حتى منتصف سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، حيث يتم تصريف مختلف الشؤون العسكرية ارتجالًا من قبل سماحة المفتي.

كُلف ذو الكفل عبد اللطيف بالسفر إلى غزة، التي كانت اسميًا تحت إشراف «الجهاد المقدس» فيما هي، فعليًا، تحت الإشراف المصري، ليختار للمفتي سكنًا في موقع تكتيكي يشرف على مدينة غزة، ويسهل الهروب منه إذا اقتضت الظروف، كما كلف أمين عقل بالسفر لغزة، أيضًا، للاتصال برجالها والحصول منهم على وعد بالمؤازرة فيما سيتخذه المفتي من خطوات بالنسبة لغزة.

سافر المكلفان إلى غزة، وساعدهما محافظ سيناء العسكري، فأنجزا مهمتيهما، وعادا إلى القاهرة، فانهمك ذو الكفل مع جهاز الهيئة العربية في التحضير للمؤتمر الوطني الفلسطيني، وكان مقررًا له أن ينعقد في غزة في أول أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٤٨.

كان المقرر بأن تنبثق عن المؤتمر حكومة فلسطينية؛ لذلك اتفق على أن يدعى للحضور من سبق أن كان له صفة تمثيلية، مثل رؤساء البلديات، وأعضاء مجالسها، ورؤساء الغرف التجارية، وأعضاء اللجان القومية، والوفود، والبعثات السياسية، والأحزاب، والهيئات الأخرى. إلا أنه لم تراع الحيدة في توجيه الدعوات، بل تدخلت العوامل الشخصية في أمور كثيرة، وغابت الموضوعية كأساس للاختيار، مما جعل الحضور لا يمثل جميع فئات الفلسطينيين، مكتفين بالموالين للحزب العربي الفلسطيني الداعي للمؤتمر!

في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، توجه المفتي، والمدعوون لعقد المؤتمر الوطني إلى غزة، وأوكلت مهمة الحراسة، وتأمينها لكل من ذي الكفل عبد اللطيف، وعبد الحق الغزاوي، وأثناء مرور ذي الكفل لتفقد حال الأمن في القطار التقى بزملائه وأصدقائه: أكرم زعيتر، وواصف كمال، ورفيق التميمي. فدار بينه وبين التميمي حديث اتسم بنقد الذات فيما يتعلق بأداء «الحزب العربي الفلسطيني» الذي ينتمي كلاهما إليه، فيما يتعلق بإسباغ صفة التمثيل على بعض الموالين ممن لا تنطبق عليهم، وحجبها عن آخرين غير موالين تنطبق عليهم الصفة، وأن ذلك لا يصح، خاصة في الوقت الذي يتطلب أن يتكتل ويتحد جميع أبناء الوطن لمواجهة العدو الصهيوني.

غاب عن المؤتمر الكثير من العناصر الفلسطينية، لكنه انعقد بمن حضر، وترأسه الحاج أمين الحسيني، رئيس «الهيئة العربية العليا». وانتهى المؤتمر إلى قرارين هما:

١ - إعلان استقلال فلسطين استقلالًا تامًّا، موحدة، يحدها من الشمال سوريا، ولبنان، ومن الشرق سوريا وشرق الأردن، وغربًا البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب مصر.

٢ - تشكل «حكومة عموم فلسطين»، برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي باشا، وتضم جمال الحسيني وزيرًا للخارجية، ورجائي الحسيني للدفاع، وعوني عبد الهادي للشؤون الاجتماعية، وأكرم زعيتر للمعارف، وحسن فخري الخالدي للداخلية، وعلي حسنة للعدل، وميشيل أبكاريوس للمالية، ويوسف صهيون للدعاية والنشر، وأمين عقل للزراعة.

بعد الانتهاء من أعمال المؤتمر، عاد المفتي وبعض رجاله، وعاد ذو الكفل إلى القاهرة ليتولى مهام عمله كمدير للمكتب العسكري للهيئة، وبعد فترة قصيرة استدعاه المفتي ومعه وزير الدفاع رجائي الحسيني، وطلب المفتي من ذي الكفل أن يضع، في أسرع وقت، نظامًا وكادرًا لوزارة الدفاع، فعكف ذو الكفل على إعداده بالتعاون مع عبد الحق العزاوي.

سلم ذو الكفل إلى سماحة المفتي النظام الذي تم إعداده لوزارة الدفاع، والكادر الخاص بها، فوعده المفتي بتحويل

المكتب العسكري إلى وزارة دفاع، حينما يتم تجهيز الميزانية اللازمة لذلك، لكن الوعد ظل وعدًا لم يتحقق، وظل ذو الكفل يلح على تحقيقه.

الغريب في الأمر أن الوزارة التي تم تشكيلها، أثناء انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني في غزة، لم تجتمع بكامل تشكيلها قط، بل إن أعضاءها انسحبوا تباعًا، وكانت هيمنة المفتي، وانفراده بالإدارة في كل شيء، ومركزيته الشديدة سببًا لذلك.

لم يختلف الأمر كثيرًا على صعيد جبهات، ووحدات «الجهاد المقدس»، وكان المفتي على علم بكل ما يجري هناك، وكلما سأل عبد اللطيف عن التصرف يستمهله، فيما يكون المفتي عالجها عن طريق الاتصال المباشر بالطريقة السابقة. فعاد الوضع إلى ما كان عليه، وعاد المكتب العسكري اسمًا على غير مسمى، لا يقوم بدور، ولم يتحول إلى وزارة دفاع، وتكرست الفردية والمركزية في شخص أمين الحسيني.

اتسم أداء المفتي بكثيرٍ من الأمور السلبية التي لا يرضاها وطني وَهَبَ حياته للدفاع عن قضيته، مستعدًّا للتضحية بروحه في سبيلها، بل كان يحمله أمام فصائل المجاهدين نتيجة تصرفات المفتي، فالكل كان يعلم بوجود القيادة، ولكنهم لا يعلمون بأنها لا علاقة لها بتصريف الأمور العسكرية، وأنه حينما تصل برقيات طلب النجدة، من مال وسلاح، لا يتصل علم القيادة بها، والأغرب أن المفتي كان يراسلهم، طالبًا منهم الاستدانة لتدبير أمورهم إلى حين، ليتمكن من إرسال المال والسلاح لهم، في حين كان يخص الأسلحة لآل الحسيني، ويباطل غيرهم بذريعة ندرة السلاح!

إزاء تصرف المفتي هذا، تحامل المجاهدون وقادة الفصائل على ذي الكفل، وأرسلوا للمفتي رسائل حوت هجومًا شديدًا عليه، واتهمته بأفظع الاتهامات، وكان المفتي يُطلعه على هذه الرسائل، وكان ذو الكفل ينتهز الفرصة ليعاتب المفتي على أنه لم يُنفّذ ما اتفقا عليه، ليمكّنه من أداء عمله، فيتهرب المفتي من الإجابة، وبعدها انقطعت صلته بذي الكفل تمامًا.

استاء ذو الكفل من تصرف المفتي، ورأى بأن يسأل بعض رفقاء النضال المقربين إلى المفتي، ووقع اختياره على كل من إسحاق درويش، ابن شقيقة المفتي، وحسن أبي السعود، مفتي الشافعية في فلسطين، والذي لم يجب بأي رد، أما الأول فأخبره بأنه لم يعد يفكر بتفكيرهم السياسي متعلّلًا بالحديث الذي دار في القطار أثناء السفر إلى غزة مع رفيق التميمي أمام كل من أكرم زعيتر، وواصف كمال، فضلًا على أنه كلما زار الشام التقى بعزة دروزة، وبواصف، مما زاد امتعاضه أكثر من هؤلاء الناس، وطريقة تفكيرهم التي لا تتناسب مع تسيير أمور الوطن!

واجه ذو الكفل سماحة المفتي بما سمعه من إسحاق درويش، فطلب المفتي منه الصبر، فلم يطق ذو الكفل صبرًا، وأخرج ما كان في نفسه من ضيق وتبرم، فواجه المفتي بعيوب أدائه التي تتركز في شخصه، فضلًا على الاعتماد على نفر قليل غير أكفاء، بينما تزخر فلسطين بالشباب الوطني، المثقف، والمتمرس، والمتخصص، أيضًا، والذي يسعده التفاني والتعاون مع المفتي لمصلحة القضية، فعلل المفتي اعتماده على أولئك النفر بأنهم مخلصون له، أما الآخرون فإنهم انفصلوا عنه؛ لأنه لم يستطع الموافقة على مطالبهم، وأساليبهم! فأصر ذو الكفل على أن انفصالهم كان بسبب إصرار المفتي على تركيز كل شيء في شخصه، وبعد أن هدأ المفتي أخبر ذا الكفل أن الأمور ستعود إلى طبيعتها.

انصرف ذو الكفل عائدًا لمسكنه، وهناك سَطرَ رسالة للمفتي، ذكر فيها أهم نقاط جاءت في حديثه معه، وألح عليه في رسالته طالبًا إعفاءه من الشؤون العسكرية، وإعادته لأي عمل يراه المفتي في الهيئة، بعيدًا عن الشؤون العسكرية، التي تبين بأنها أمور خاصة جدًّا.

بعد أيام قليلة تدهورت أوضاع «الجهاد المقدس»، وبدأت بعض الدول العربية تصفي قواته، وتصادر أسلحته، فاستدعى المفتي ذا الكفل، وعاتبه على رسالته سالفة الذكر، التي أكد فيها مرة أخرى بأنه من الضروري جدًّا سرعة تغيير كل جهاز الجهاد المقدس، وأوضح بأنه ليس من الضروري أن يكون هو أحد عناصر التغيير. وبيّن للمفتي بالملموس كيف سيعمل المدسوسون عليه في «الجهاد المقدس» باستعانتة بالجهلة من أهله، ومحاسيبهم على تصفية «الجهاد المقدس» بكل فصائله، فطلب المفتي من ذي الكفل أن ينتظر تعليماته!

استمر ذو الكفل في عمله كمدير للمكتب العسكري، وفي تلك الأثناء كانت تصفية فصائل «الجهاد المقدس» تتم بيد الحكومات العربية، تعاونها في ذلك العناصر التي اختارها المفتي للإشراف على «الجهاد المقدس»، ولم يُحَلْ لعبد اللطيف أي عمل سوى بعض الأوراق للحفظ.

حضر للقاهرة بعض العاملين بالجهاد المقدس، وبعض قادة الفصائل، ودعا المفتي لاجتماع بقاعة الاستقبال في منزله، وكان بين الحضور كل من كامل عريقات، قاسم الريماوي، وعبد الحليم الجولاني، وبعض ممثلي المرحوم إبراهيم أبو دية. وبعد قليل حضر المفتي إلى الاجتماع، وبرفقته رجائي الحسيني، ابن شقيقته، وزير الدفاع في حكومة عموم فلسطين، وحيدر كامل الحسيني، ابن شقيقه، وزوج كريمته، ورئيس مخابرات الهيئة العربية العليا، والمشرف على الشبكة اللاسلكية، التي تربط مختلف جبهات القتال بالقائد، بالإضافة إلى سكرتيره الخاص، محمد منيف الحسيني، وهو ابن شقيقه، أيضًا!

بدأ الاجتماع، وبعد إطراء على دور الحضور، من قيادات، وعاملين في «الجهاد المقدس» واستعراض الدور المتخاذل الذي قامت به الدول العربية في تصفية فصائله، تحدث الحضور تباعًا، وانصب حديثهم على تشتت وحدات «الجهاد المقدس» وروتينية تصفيتها، التي تسير وفقًا لخطة منظمة، وما تعانيه القيادات من مطالبات مالية نتيجة للاستدانة لمواجهة المواقف الحاسمة في المعركة، وأحيانًا لشراء السلاح انصياعًا لأوامر المفتي المرسلة في البرقيات لهم، وهنا أنكر المفتي صدور مثل تلك البرقيات عنه، مستشهدًا بذي الكفل، ظنا منه أنه لا تتوافر لديه صور منها، وأنه لا علم له بها، فضلًا على تصور المفتي بأن عبد اللطيف سوف يؤيد كلامه تملقًا، وكانت صدمته مروعة، إذ خاب أمله، فرد ذو الكفل مؤيدًا ما ردده قادة الفصائل، وأخبر المفتي بأن لديه صورًا للبرقيات حصل عليها مصادفة، واستمهله لإحضارها.

قرر المفتي بأن الاجتماع سوف يتم تأجيله إلى موعد قادم لإحضار صور البرقيات التي جهزها ذو الكفل، إلا أن الاجتماع لم يتم، بل كان فارقًا وحاسمًا في علاقة ذي الكفل بالمفتي، وأصبح معظم العاملين بالهيئة يتحاشون لقاء عبد اللطيف، فيما بعض الحسينيين يناصبه العداء، لقد كان لهذا الموقف فعل الصدمة على وزير الدفاع رجائي الحسيني، الذي ظل يردد «عجيب» عندما رأى صور البرقيات، كما أسفر عن علاقة حميمة ربطت بين كل من ذي الكفل عبد اللطيف، وبين صلاح الدين الحسيني، ابن المفتي، الذي كان غير راض عن كثير من تصرفات والده، وأساليب معالجته للأمور، وأيضًا عن الفتة التي يحيط والده نفسه بها.

بكل تأكيد كان ذو الكفل عبد اللطيف أحد الرموز الوطنية الفلسطينية الفاعلة في مرحلة تاريخية حساسة من تاريخ فلسطين الحديث، وإن كان ذلك المناضل الوطني المخلص لم تحقق نضالاته الأهداف التي كان ينشدها، فليس أقل من أن يتم تخليده في ذاكرة الأمة، ليس أقل من أن يأخذ مكانه اللائق بين نجوم العمل الوطني الفلسطيني في فترة تميزت بوعورتها، وتلاحُق أحداثها المصيرية، فلم يكن مثل هؤلاء المناضلين ينشدون مَغنمًا شخصيًّا، ولا مركزًا وظيفيًّا متميزًا، بقدر ما كانوا يعملون على تأسيس مستقبل حر ومشرق لفلسطين، فتكبدوا في سبيل ذلك كل صنوف القهر والتنكيل.

* * *

هوامش الفصل الثامن:

المصدر الأساسي للمعلومات الواردة بهذه الدراسة مأخوذ عن كتاب ذي الكفل عبد اللطيف، **مذكراتي/ قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب ١٩٤٨**، عمان، دار سندباد للنشر، ٢٠٠٠.

بالإضافة إلى:

(١) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، مركز الأبحاث، بيروت، مايو/ آيار، ١٩٧٥، ص١٥٩ - ١٨٧.

- إميل توما، جذور **القضية الفلسطينية**، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دار الجليل، ط٣، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٤٩ - ١٩٠.

- عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية - الدروس المستفادة**، دار الحكمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٥ - ٢٢.

(٢) كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ص٣١٠.

(٣) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٤) هنري كتن، **القدس**، ط١، دار كنعان للنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص٢١.

(5) www.wikipedia.org.

(6) www.arabs.org.

(7) www.aljazeera.net.

obeikan.com

الباب السادس

الرؤية الصهيونية للقدس



obeikan.com

الفصـل الأول

القدس في الخطاب الصهيوني

محمد حسني

علاوة على المكانة الدينية للقدس، التي لا تزاحمها فيها أية مدينة أخرى، تحمل قدسية ومكانة قومية، وإن كنت لا أجد أية بقعة فلسطينية، وعربية، صامدة في وجه الصهيونية، بوجه خاص، أو أية بقعة صامدة في وجه الاستعمار والظلم، بوجه عام، أقل قدسية منها، إلا أنها تظل رمزًا لمصير الصراع العربي ـ الصهيوني، إنها بمثابة «أكون أو لا أكون»، إنها، وبالرغم من الممارسات والسياسات الصهيونية، الحثيثة، طويلة الأمد، لا تزال حية، شاهدة على الصمود. بالرغم من الدعاية الصهيونية الصاخبة، تعد عروبة القدس من البديهيات، ومن المسلمات، التي لا يتطلب إثباتها أكثر من إلقاء نظرة عليها، ولو عبر الصور، ولكن، في مقابل ذلك، وبالرغم من الدعاية الصهيونية الصاخبة، ذاتها، فما هي مكانة القدس بالنسبة للمشروع الصهيوني؟ هل كانت علاقة ثابتة، من حيث المبدأ، ومن حيث التكتيك؟ ما هي العوامل الداخلية والخارجية التي شكلت وأثرت على وضع القدس في المشروع الصهيوني؟ هذه الدراسة محاولة للوقوف على أبعاد وضع القدس في الخطاب الصهيوني، والعوامل التي أثرت فيه، ومدى ارتباطه بالواقع السياسي.

الخطاب

يجد مصطلح «الخطاب» رواجًا في الكتابات السياسية والنقدية المعاصرة، ولا يخلو الأمر من الالتباس في دلالته. و«الخطاب» في المعاجم العربية من «خطب»، وخطب القوم، أو في القوم، أي وعظهم، أو ألقى عليهم خطبة، والخطاب هو ما يكلم به الرجل صاحبه.[1] أما لفظ «Discourse» فيعرفه قاموس «أوكسفورد» بأنه التعامل عن طريق الحديث أو الكتابة، ويعرفه قاموس ويبستر بأنه: توصيل الأفكار والمعلومات.

وقد تعددت التعريفات الاصطلاحية للفظ «الخطاب»، فهناك من يُعرّفه بأنه: «مجموعة متماسكة من المقترحات

النظرية المجردة، وهي مقترحات مجردة؛ لأنه يتشكل من مفاهيم أولية عقلية، ينتجها الإنسان بهدف التعرف على الظواهر المحيطة به[٢]. كما أن هناك تعريفًا آخر: «الخطاب هو كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض نية التأثير على السامع، أو القارئ، مع الأخذ في الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها[٣] فعلم الخطاب يرى أن الفصل بين الخطاب، كنص لغوي، وبين السياق الاجتماعي الذي تم فيه يحول دون الفهم الصحيح[٤].

القدس- خلفية تاريخية

ترجع أولى الهجرات السامية إلى الموضع الذي سيعرف فيما بعد باسم القدس إلى عام٣٠٠٠ق.م، حيث أقام «اليبوسيون» حصن «يبوس»، ثم شيد «السلوقيون» محل هذا الحصن حصنًا آخر يسمى «عكرا» أو «أكرا»، وقد ورد ذكر «أورشليم»، أو «أورسالم» في النصوص المصرية القديمة، التي ترجع إلى الفترة ما بين ٢٠٠٠ ق.م، ١٨٠٠ ق.م، وذلك قبل العام١٧٥٠ ق.م، الذي يؤرخ هجرة «إبراهيم» إلى كنعان. وفي ٩٩٧ق.م غزا داود «أورشليم»، وجعلها عاصمته، حيث عُرفت باسم «مدينة داود»[٥]، لم تقتصر الإقامة في أورشليم على اليهود وحدهم، ولم يستقر الحكم السياسي لهم إلا في عهد الملك سليمان بن داود، الذي استجلب مَنْ يبنون له الهيكل بخشب الأرز، وما لبثت مملكة داود وسليمان أن انقسمت عام٩٢٣ ق.م، وفي ٥٩٨ ق.م حاصر الملك البابلي نبوخذ نصر أورشليم، وأسر ملكها، وبعض سكانها، ونَصَّبَ حاكمًا مواليًا له عليها، ثم عاد في ٥٨٦ ق.م وحاصرها وأحرقها، وسبى معظم أهلها، حتى سمح الملك الفارسي قورش لهم بالعودة، بعد ما يقرب من نصف قرن. في٣٣٢ ق.م. أصبحت أورشليم ضمن مملكة الإسكندر المقدوني، ومن بعده، تحت حكم السلوقيين ومن ورائهم الرومان. في ١٣٥م قام القيصر الروماني هدريانوس بتغيير اسم أورشليم إلى «إيليا كابيتولينا»، وقام بالتنكيل باليهود وإجلائهم عنها[٦].

في ٦٣٨م-١٧هـ ـ دخل الخليفة المسلم عمر بن الخطاب المدينة، التي عرفت باسم «إيلياء»، وفي ٦٩١م تم تشييد مسجد قبة الصخرة الشهير في عهد عبدالملك بن مروان. هذا خلاف عقود عدة وقعت فيها القدس تحت حكم الصليبيين، كانت القدس تحت حكم المسلمين، حتى إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، في مطلع القرن العشرين، وكانت الإقامة والحج والهجرة إلى المدينة غير مقيدة لأي ديانة [٧].

في مقابل ذلك، يزعم المؤرخون الصهاينة، أن المصادر العربية الإسلامية حول تاريخ القدس في الفترة الأولى التي تلت الفتح متناقضة متضاربة ومنمطة، وأنها ضرب من القَصص الشعبي، فدخول عمر بن الخطاب إلى القدس ولقاؤه البطريرك صوفرونيوس، مثلًا، هو مجرد أسطورة، الغاية منها إضفاء الاحترام والإجلال على غزو المسلمين للقدس، وكلها قصص ابتدعها خيال جيل لاحق من المؤرخين العرب، ولربما في أيام الحروب الصليبية، مثلما يقول بعض المستشرقين. كما أن الإشارة الواردة في القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج لا تدل على القدس تحديدًا، بل أراد فيها المسلمون التأكيد على أهمية القدس لأسباب سياسية، إذ لا ترد أية إشارة إلى الإسراء والمعراج في الآيات والكتابات الواردة على جدران قبة الصخرة مثلًا. وإن القدس لم تتمتع بأية مكانة خاصة لا على المستوى الديني، ولا على المستوى السياسي في العصور العربية الإسلامية الأولى، ولم تكتسب القدس مكانتها سوى بعد مضي قرون عديدة. أما في العصور الأولى، فقد كانت مدينة هامشية دينيًا وسياسيًا. ورغم أهمية قبة الصخرة والمسجد الأقصى في

ميدان العمارة، فإن هذين البناءين لا يدلان بوضوح على أية أهمية خاصة ترتبط بمكانة القدس. والمقولات السابقة، ليس هذا مجال تفنيدها، تنطلق من محاولة لتشويه عروبة القدس، وادعاء يهوديتها، وربما يلخصها ما قاله شمعون بيريز: «قد يكون لكم أيها العرب بعض الروابط التاريخية مع القدس لكن تاريخنا هو الأقدس» [٨].

القدس في التراث اليهودي

ورد اسم مدينة «القدس»، أو «أروشليم» في العهد القديم أكثر من ٦٨٠ مرة، وقد أطلق العهد القديم على المدينة عدة كنايات، مثل مدينة الرب، والمدينة المقدسة، ومدينة العدل، ومدينة السلام، وأحيانًا يذكر الاسم يبوس[٩]. ومع ذلك، تتسم صورة أورشليم في العهد القديم بالتناقض الشديد، فهي المدينة المقدسة التي فضلها الرب على سائر المدن، ولكنها أيضًا المدينة النجسة الزانية، ومدينة اللعنات والويلات التي غرقت في الوثنية معظم تاريخها [١٠].

هناك من يرى أن القدس ظلت لدى الأدباء اليهود، على مر العصور، رمزًا للشوق إلى الخلاص، وتعبيرًا عن كل الطموحات الروحانية، والدينية، والقومية، حيث ذُكرت في الكتابات العبرية، على اختلاف أنواعها، أكثر من أي مكان آخر. لقد تشكلت صورة القدس في أدب العصور الوسطى، ثم أدب «الهسكالاه» ـ حركة التنوير العبرية ـ ككيان رمزي تجريدي، من خلال مصادر مكتوبة، غارقة في الطابع الأسطوري والغيبي؛ لذا فقد احتفظت القدس حتى القرن التاسع عشر بصورتها المثالية الرومانسية [١١].

إلا أن موضع القدس في الأدب العبري، الحديث، والمعاصر، أي المرتبط بالمشروع الصهيوني، ثم بدولة إسرائيل، قد تغيّر، إذ نبعت صورة القدس من الانطباعات الحقيقية المباشرة، وقد أصبحت المستوطنات، ومدينة تل أبيب هي المهيمنة على الأعمال الأدبية. فبالرغم من وجود الجامعة العبرية، والكنيست، ومقار الوزارات الإسرائيلية في القدس، ظلت القدس بمثابة حجرة خلفية مظلمة مخنوقة. لم يتغير الوضع السابق حتى ١٩٦٧، حيث أعطى الوضع الجديد دفعة قوية لوضع القدس في بؤرة الوعي. ومع صعود اليمين الصهيوني، واليمين الصهيوني الديني، في السبعينيات، اعتمادًا على أصوات اليهود السفارديم، في الأحياء الفقيرة، زاد بروز القدس في النصوص الأدبية، واكتسبت هالة مسيحانية، واستعادت صورة القدس السماوية بكل دلالاتها الإيجابية [١٢].

القدس في فكر الصهاينة الأوائل

بعد الثورة الفرنسية، كان يهود الغرب بوجه عام يتمتعون بمستوى اجتماعي واقتصادي أفضل من يهود شرق أوروبا، وهو ما انعكس أيضًا على الفكر الديني اليهودي، ففي ١٨١٨م أوصى الحاخام ياكوبسن، في هامبورج، باستعمال الأرغن في المعبد، وترتيل الأناشيد بالألمانية، واستبعاد جميع الصلوات التي تُذكر اليهود بصهيون، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ اليهودي «لوسيان وولف ـ Wolf Lucien»، من أن اليهود أنفسهم لم يكونوا عابئين بحركة الإحياء القومي، ثم قرر مؤتمر الحاخامات في فرانكفورت عام ١٨٤٥م، رسميًا، إزالة كل الصلوات التي تتحدث عن العودة إلى صهيون، وارتفعت الشعارات التي تدعو إلى الاندماج في المجتمع، وترك خرافات صهيون، ومن تلك الشعارات: «شتوتجارت هي أورشليمنا» [١٣].

في مقابل ذلك، حفلت كتابات يهودا القلعي، وغيره، بنداءات العودة إلى صهيون، وكان الهدف من هذه الكتابات

هو البحث عن حجج وأسانيد دينية وروحانية لتبرير الفكر الصهيوني، خاصة بين الأنجلوسكسونيين الذين أبدوا حماسًا فاق حماس اليهود أنفسهم بفكرة العودة إلى صهيون، حتى ظهر تيار متشبع بالخيالات الدينية المتعلقة بالخلاص، وبصهيون، وفكرة القدس الجديدة الناتجة عن إعادة تفسير سفري دانيال ونبوءة يوحنا، وقد أطلق على هذا التيار «الأنجلو إسرائيلي». ولعل أبرز المواقف التي يتجلى فيها انتشار تلك الأفكار ما قاله القائد البريطاني لدى دخوله القدس عقب الحرب العالمية الأولى: «ها قد عدنا يا صلاح الدين، اليوم انتهت الحروب الصليبية» [١٤].

في كتابه «التحرر الذاتي ـ Auto Emancipation»، يقول «ليو بنسكر ـ Leo Pinsker»: «نحن لسنا بحاجة إلا إلى قطعة أرض كبيرة تأوي إخواننا التعساء...وسوف نأخذ معنا أقدس ما استطعنا إنقاذه، فكرة الله والتوراة، إن فكرة الله و«التوراة» هما اللتان خلعتا صفة القداسة على الأرض المقدسة، وليست أورشليم في الأردن. أما المفكر الصهيوني، أشير تسيفي جينزبرج (أحاد هاعام) فينطلق من منهج برجماتي، بمعزل عن الأفكار القديمة المتعلقة بصهيون، فهو يعارض إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين من الأساس [١٥].

نستطيع القول، إذًا، إن القدس، أو أورشليم، بل وفلسطين بوجه عام، لم تكن من المسلمات، أو المقدسات بالنسبة للصهاينة أنفسهم، وهو ما يتجلى بوضوح في طرح مشروعات استيطان، مثل مشروع الأرجنتين، الذي بدأ بفكرة مشروع نفذه الثري اليهودي الفرنسي «موريس دي هيرش»، وحاول «هرتزل» أن يقنعه بالتوسع في المشروع، ليصبح إنشاء دولة لليهود، وبالفعل أشار هرتزل إلى الأرجنتين في كتابه دولة اليهود، وفي المؤتمر الصهيوني الثالث، الذي انعقد في بازل ١٨٩٩، نادى المندوب الصهيوني تريتش بفكرة استعمار قبرص، وقام هرتزل، بالفعل، بمفاوضات بشأنها [١٦]. وكان من أهم مؤيدي هذا الاتجاه، إسرائيل زنجويل، مستشار هرتزل، الذي قاد الأقلية التي تدعو إلى الوطن البديل في المؤتمر التالي[١٧]، وقد تكرر الأمر في المؤتمر الصهيوني في ١٩٠٣، عندما دعا هرتزل إلى قبول العرض البريطاني بالاستيطان في أوغندا، رغم ما لاقاه ذلك من معارضة شديدة من جانب حاييم وايزمان ويهود شرق أوروبا المتشبعين بالأفكار التقليدية عن صهيون، حيث أخذوا ينشدون: «إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ، تَنْسَى يَمِينِي! لِيَلْتَصِقْ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكِ، إِنْ لَمْ أُفَضِّلْ أُورُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ فَرَحِي!» (مزامير ١٣٧: ٥، ٦). لكن مشروع أوغندا فشل، أساسًا، بعد أن سحبت بريطانيا عرضها، حيث تعاظمت الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية للمنطقة العربية، مما دفعها لترجيح فكرة إقامة المشروع الاستيطاني في فلسطين [١٨].

كان هرتزل، إذًا، يرى أن إنشاء وطن قومي لليهود لايجب أن يكون بالضرورة في فلسطين، وأن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لا يعني بالضرورة أن تكون القدس عاصمته، وفي زيارته لفلسطين في ١٨٩٨ كان لديه طموح محدود بأن تصبح القدس تحت الوصاية الدولية، وكان يحلم بتشييد مدينة يهودية وفقًا للطراز الأوروبي، ولكن خارج الأسوار [١٩].

القدس في المشروع الصهيوني، حتى حرب ١٩٤٨

يمكننا القول إن الحركة الصهيونية قد أهملت، وعن عمد، القدس التي ارتبطت بالطائفة اليهودية القديمة، التي تحمل كل سلبيات الماضي اليهودي، ولم يكن هناك فارق جوهري بين موقف رجال الهجرة الأولى، الأكثر محافظة، وبين رجال الهجرة الثانية العلمانيين، حيث لم ترتفع القدس على خارطة الاستيطان، وكان إنشاء بعض المؤسسات

الصهيونية، مثل معهد بتسلئيل للفنون، أمرًا استثنائيًا. ولم تطرح فكرة إنشاء مؤسسات مهمة إلا بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تم شراء قطعة أرض على جبل الزيتون لبناء الجامعة العبرية التي تم افتتاحها في ١٩٢٥. وبالرغم من تبني حاييم وايزمان للربط بين الصهيونية وبين القيم والتقاليد اليهودية، إلا أنه يذكر في رسالة إلى زوجته التي بقيت في لندن: «إن الوضع في القدس تعيس للغاية، والعين لا تقع ولو على مؤسسة عبرية واحدة... وبالمقابل ما أكثر الغرباء من أصحاب القوة... إن المساجد، وأبراج الكنائس والقباب ترتفع صارخة إلى السماء بأن القدس ليست مدينة عبرية...»، ثم يصف وايزامان وضع الطائفة اليهودية: «... أشخاص ضعاف، محطمون، يغلفهم عفن الأجيال، وأحياء القدس اليهودية ليست سوى أماكن ملوثة، تملأها الأمراض المعدية، وإن الكلمات لتعجز عن وصف التخلف والجهل المطلق والتعصب» [٢٠].

بالرغم من أن السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، وحتى أحداث هبة البراق، قد شهدت نشاطًا صهيونيًا في القدس، ظل هذا النشاط محافظًا على سقفٍ منخفض، فقد أعلنت الزعامة الصهيونية تمسكها بنهج هرتزل، وعدم اهتمامها بالأماكن المقدسة، ووجهت جل نشاطها إلى تل أبيب وليس القدس، بينما بقي الجزء الرئيسي من المؤسسات الصهيونية في أوروبا، وحتى عام ١٩٢٧ حرصت بريطانيا على أن يتكون مجلس البلدية من ممثلين للديانات الثلاثة، وقد ظل النشاط الصهيوني في القدس، وحتى ١٩٣٦، قاصرًا على الأشغال البلدية، مطالبين، في أفضل الأحوال، بنوعٍ من الإدارة الذاتية في القدس الغربية، ذات الأغلبية الصهيونية [٢١].

في أعقاب هبة البراق أعد بن غوريون مشروعًا بعنوان: «مبادئ أساسية لمستقبل نظام حكومي في فلسطين»، يقترح تكوين مجلس مشترك للحكم يضم عربًا، ويهودًا، وبريطانيين، إلى جانب هيئة تشريعية نيابية، أسماها الاتحاد الفيدرالي، اقترح أن تكون القدس مقرًا للحكومة وللهيئة التشريعية [٢٢].

عقب مصادمات ١٩٣٠-١٩٣١ بين العرب والصهاينة في القدس اقترح أهرون روزنبرج تقسيم القدس. كما بعث حاييم أورلوزوروف، رئيس الإدارة السياسية في الوكالة اليهودية، في ١٩يناير/ كانون الثاني ١٩٣٢ إلى ب.كامبل، حاكم المنطقة الجنوبية، مقترحًا تقسيم القدس إلى قسمين إداريين، يتمتعان بالحكم الذاتي. لكن بريطانيا كانت تعارض، وقتها، أي مقترحات بشأن تقسيم القدس، وكانت المادة الثالثة من صك الانتداب تنص على أن تضطلع الدولة المنتدبة بجميع المسئوليات المتعلقة بالأماكن المقدسة، وضمان الوصول إليها، وحرية العبادة[٢٣].

في أعقاب الثورة العربية الكبرى التي بلغت ذروتها في أبريل/ نيسان ١٩٣٦ طرح بروفيسير كوبلاند، وهو عضو في لجنة بيل، التي تفقدت الوضع في فلسطين عقب الثورة، فكرة تقسيم فلسطين، وهي المسألة التي احتلت ساحة النقاش طوال السنوات العشر التالية. وقد طرح كوبلاند الفكرة على وايزمان الذي نقلها، بدوره، إلى كل من دافيد بن غوريون، وموشيه شرتوك (شاريت)، وعلى عكس ما توقع، فقد تحمّس الأول بشدة، بينما أبدى الثاني تحفظًا[٢٤].

قبل صدور تقرير اللجنة في أبريل/ نيسان ١٩٣٧، كان بن غوريون قد صرح: «إنه من الواضح أن القدس، وبيت لحم، ينبغي أن تخرجا من الحساب، وأنه ينبغي أن تكون منطقة دولية، تحت سلطة إنجليزية عليا، وإدارة بلدية يهودية ـ عربية». لكن تصريحاته عقب صدور تقرير اللجنة كانت منافية لذلك تمامًا، حيث قال بن غوريون:

«لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون هيكل». وقد أيده حاييم وايزمان الذي كان مقتنعًا، في البداية، بعدم ضرورة الإصرار على القدس. ويبدو أن موقف بن غوريون قد تغير نتيجة للمعارضة التي لاقتها الفكرة في الأوساط الصهيونية، حيث إن مؤيدي التقسيم، مثل موشيه شرتوك ويتسحاق بن تسفي، ومعارضيه، مثل مناحم أوسكشين، وبيرل كتسنلسون، قد أجمعوا على رفض التخلي عن القدس. إلا أن عددًا ضئيلًا من الزعامة الصهيونية، أمثال بنحاس روتنبرج، وأفراهام كتسنلسون، كان يدعو إلى إقامة دولة يهودية حتى ولو بدون القدس [٢٥]. والموقف البرجماتي لزعامة مباي يتضح أكثر، عندما نعرف أن القدس المقصودة هي القدس الغربية.

استندت اللجنة الملكية، في تقريرها بشأن مشرع تقسيم فلسطين، الصادر في يوليو ١٩٣٧، على تلك المادة من صك الانتداب، فحرصت على وضع خاص للقدس وبيت لحم. وقد انتهى المؤتمر الصهيوني العشرون، الذي انعقد في أغسطس/ آب ١٩٣٧، بالموافقة على مشروع التقسيم، بأغلبية ثلاثمائة صوت، مقابل ثمانية وخمسين، وقد أوصى وايزمان بالمطالبة بأن تكون الأحياء اليهودية، وتضم نحو سبعين ألف نسمة، تابعة للدولة اليهودية. ولكن الصهاينة انتقدوا، بشدة، توصيات اللجنة بشأن القدس، التي وصفوها بأنها «المركز الروحي لليهود المشتتين على وجه الأرض»، ورمز «للحياة القومية اليهودية»، إلا أن تقرير لجنة وود هيد، عام ١٩٣٨، أكد على أن الرومان قد دمروا أورشليم عام ١٣٥م، وحرثوا الأرض التي كانت تقوم عليها، وأن المدينة الحالية من عمل الرومان والصليبيين والمسلمين [٢٦].

كانت الوكالة اليهودية قد تقدمت في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٧ بمذكرة إلى وزير المستعمرات البريطاني، أورمبي جور، تتضمن اقتراحات بتقسيم القدس، بحيث تظل القدس القديمة تحت الوصاية الانتدابية، وقالت المذكرة إن فصل «القدس الجديدة» عن الدولة اليهودية عمل غير عادل، فلو نُحّي البعد الروحاني للقدس جانبًا، فإن ما ستخسره الدولة اليهودية اقتصاديًّا سيؤثر على وضع السكان، وسيصعب تعويضه. وقد تقدمت الوكالة بمذكرة أخرى إلى لجنة وود هيد، في أغسطس/ آب ١٩٣٨، يركز، في مجمله، على أن تكون القدس الجديدة تابعة للدولة اليهودية [٢٧].

مع اتخاذ الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم، عام ١٩٤٧، شمل اقتراح تأسيس كيان خاص بالقدس، لا يخضع للعرب أو إلى اليهود، ولكن يخضع لحكم دولي خاص، تقوم الأمم المتحدة على إدارته. وشمل الاقتراح تفاصيل دقيقة لعملية التدويل تلك، وكان يفترض أن يطبق في أول أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٨ [٢٨].

وافق الصهاينة على قرار التدويل، من منطلق أنه أمر لا مفر منه، وعلى اعتبار أن الأحداث سوف تثبت، فيما بعد، أن هذا الوضع غير عملي، فيقول دوف جوزيف، المتحدث باسم يهود القدس: «كنا نأمل أن تكون القدس جزءًا من الدولة اليهودية، كنا نعتقد أننا نملك أغلبية سكانية واضحة فيها. غير أننا لم نفكر فيما سيحدث خلال العقد التالي، لقد كنا في بؤرة الصراع من أجل إبقاء القدس في وضع منفصل، وكانت النتيجة غير مؤكدة، كان من الممكن أن تتحول إلى وضع أفضل»[٢٩].

يقول زئيف شارف، سكرتير الحكومة الإسرائيلية المؤقتة، عقب إعلان الدولة، إن تأثير فصل القدس الشرقية عن الدولة اليهودية قد بدأ يتلاشى منذ يناير وفبراير ١٩٤٨، ولم يكن من الضروري، بالنسبة لبن غوريون، أن تقع

القدس الشرقية في حدود الدولة. ففي أعقاب العملية العسكرية الصهيونية في القدس، عملية نحشون(*)، قال بن غوريون، في حضور أفراد الدائرة السياسية بالوكالة اليهودية: «... القدس هي القدس، من الناحية السياسية والدولية، وربما أيضًا عاصمة الدولة» وهذه التصريحات التي كانت حبيسة الغرف المغلقة إنما تعبر عن طموح مستقبلي لبن غوريون [٣٠].

القدس بعد حرب ١٩٤٨

أدت حرب ١٩٤٨ إلى أن أصبحت القدس مقسمة؛ فالقدس الشرقية تحت سيطرة العرب، والغربية تحت سيطرة الصهاينة. وقد علق بن غوريون على موقف قيادة الاستيطان من قرار التدويل: «لقد كان الثمن الذي كان علينا دفعه من أجل قيام الدولة. لقد وافقنا على قرار الأمم المتحدة بكافة بنوده، ولو أن العرب وافقوا عليه لكان علينا أن ننفذه بشكل كامل». كان هذا التصريح في عام ١٩٦٦، بعد عشر سنوات من ترك بن غوريون للحكومة، وقد علق في وقت لاحق: «كنت على اعتقاد، في نوفمبر ١٩٤٧، بأن لنا الحق في كل أرض إسرائيل، ولو أن الأمم المتحدة وافقت بأغلبية كبيرة، ولو سلّم العرب باستقلال إسرائيل لتم حل المسألة نهائيًا...». ويقول موشيه شاريت، الذي كان مسئولًا عن عرض مسألة القدس أمام الأمم المتحدة: «أما عن القدس... فقد بات واضحًا أنه ليس بالإمكان حشد الأغلبية اللازمة للموافقة على مشروع التقسيم لو لم يشمل تدويل الأماكن المقدسة..»، في الخامس من مايو/ آيار ١٩٤٩ جاء في بيان مندوب إسرائيل أمام اللجنة السياسية الخاصة، التابعة للأمم المتحدة، بأن إسرائيل كانت ملتزمة بقرارات الأمم المتحدة بشأن القدس لولا موقف الدول العربية [٣١].

في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٩، أصدرت الأمم المتحدة قرارًا بوضع نظام دولي دائم لمنطقة القدس، أي مدينة القدس وما حولها، لكن إسرائيل، بدعم من بريطانيا والولايات المتحدة، وتسع دول غربية أخرى، عارضوا القرار. يعلق دوف جوزيف، الذي أصبح الحاكم العسكري على القدس: «لم نكن أقوياء بما يكفي لتوسيع قاعدة تواجدنا في القدس، وكنا نتجنب الدخول في مواجهة مع الأمم المتحدة، بينما كانت إسرائيل تعمل على قبول عضويتها في المنظمة الدولية»[٣٢].

مع اقتراب مناقشة قضية فلسطين في الأمم المتحدة، أكّد بن غريون أمام الكنيست أن القدس جزءٌ لا يتجزأ من الدولة اليهودية، وقد تحدث بن غوريون عن المكانة الروحانية، والقومية للقدس عند اليهود، وإنها لا تقل عن لندن لدى البريطانيين، ولا موسكو لدى الروس... وانتهت الجلسة بإعلان الكنيست: «القدس جزءٌ لا يتجزأ من إسرائيل، وأن قرارات الأمم المتحدة لم تعد لها قوة إلزامية»[٣٣]. وقد أكد أبا إيبان، ممثل إسرائيل في الأمم المتحدة، أنه لا يمكن التفكير في فصل القدس عن إسرائيل لأسباب اقتصادية وأمنية، وأنها لا تزال ترحب بوجود ممثل عن الأمم المتحدة للإشراف على مسألة حرية العبادة [٣٤].

وفي ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٩ أوصى بن غوريون وزراء الحكومة بأن يعملوا بأقصى سرعة كي تصبح القدس عاصمة إسرائيل، وفي ١١ ديسمبر/ كانون الأول من العام نفسه أعلنت القدس مقرًا للحكومة، وقد تم إصدار، وتنفيذ قرارات تصب في الهدف نفسه، حتى ١٢ يوليو/ تموز ١٩٥٢، حينما تم نقل مقر وزارة الخارجية[٣٥].

(*) **كلمة نحشون**: تعني الباسل، المغوار، وهو اسم كبير سبط يهوذا، الذي كان أول من خاض البحر الأحمر عند خروج بني إسرائيل من مصر.

القدس بعد حرب ١٩٦٧

عقب حرب ١٩٦٧، أصبحت القدس بأكملها تحت السيطرة الإسرائيلية، وفي ضوء الوضع الجديد اتخذت إسرائيل في الفترة ما بين ٧ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وحتى يوم ٢٨ من الشهر نفسه عدة قرارات، واستنّت قوانين بهدف ضم القدس الشرقية، حيث أعلنت في ٢٨يوليو/ تموز ١٩٦٧ القدس مدينة موحدة [٣٦].

وقد تم التصويت على قرار الضم بأغلبية ساحقة، وحتى الأحزاب اليسارية الراديكالية. ففيما عدا «ميئير فيلنر»، من حزب القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح)، صوَّت بقية الأعضاء لصالح الضم، ويعلق العضو اليساري «أوري أفنيري» على ذلك بقوله: «إن الشعب راغب في توحيد المدينة »، كما علق على ذلك «شموئيل ميكوفيس»، من الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي)، بأن «القدس هي عاصمة إسرائيل منذ القدم» [٣٧].

بعد أيام قلائل من حرب الأيام الستة، يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، أجرت الصحيفة اليابانية «أساهي شيمبون» مقابلة مع «ديفيد بن غوريون» تحدث فيها عن مستقبل المناطق التي احتلتها إسرائيل في هذه الحرب، فقال: «إن إسرائيل ستنسحب من شبه جزيرة سيناء بعد توقيع اتفاق مع مصر، والأمر ذاته سيحدُث مع سوريا، أما في الضفة الغربية فإنه ستقام دولة تتمتع بحكم ذاتي برعاية الأمم المتحدة، لكننا سنحتفظ بالقدس إلى الأبد، على الرغم من جميع القرارات التي ستتخذها الأمم المتحدة، فالقدس كانت عاصمة إسرائيل على امتداد ثلاثة آلاف سنة، وستبقى كذلك في المستقبل» [٣٨].

لقد تناول الخطاب الصهيوني احتلال القدس، وتشريعات وممارسات الضم والتهويد، وكأنها عملية إعادة وضع ما، إلى ما ينبغي أن يكون عليه، وأن الوضع الجديد لن يتغير أبدًا، حيث يقول وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشيه ديان، في ٧ يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، أمام حائط البراق: «لقد أعدنا توحيد المدينة المقدسة، وعدنا إلى أكثر أماكننا قدسية، ولن نبارحها أبدًا» [٣٩].

كما كتب إفرايم تاري، المسؤول في وزارة الخارجية الإسرائيلية، مبررًا سياسات الضم، وتوطين اليهود التي تمارسها إسرائيل: «... إن معنى إسرائيل، بالنسبة لي، هو السماح لهذا الطفل بأن يأتي إلى القدس..»[٤٠] أما موشيه سنيه، زعيم ما تبقى من الحزب الشيوعي الإسرائيلي (مكي)، بعد انفصال القائمة الشيوعية الجديدة (راكاح)، فهو يرى أن سياسات التوطين الحثيثة في مدن الضفة الغربية، وفي القدس، طبيعية ، لها ما يبررها، وأن أي حديث عن العودة إلى حدود قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ سوف يصطدم بمشكلة سكانية خطيرة [٤١].

في عام ١٩٦٨، اقترح الرئيس الأمريكي نيكسون عودة القدس الشرقية إلى الأردن، مع وضع الأماكن المقدسة كلها تحت سلطة دينية دولية مشتركة، تتكون من ممثلين عن الأديان الثلاثة. تكرر الاقتراح الأمريكي عام ١٩٦٩، لكن الاقتراحات الصهيونية، بشأن التسوية، تمركزت حول بقاء القدس موحدة، مع ضمان حرية العبادة في الأماكن المقدسة، كما طرحت اقتراحات تتحدث عن ضمان أوضاع بلدية خاصة بالمواطنين العرب في القدس، أو تكوين بلديات فرعية، يتمتع من خلالها الفلسطينيون باستقلال ذاتي اجتماعي وثقافي وتربوي [٤٢].

عبرت تصريحات الساسة الصهاينة، في فترة حكومة المعراخ (١٩٦٧-١٩٧٧)، عن موقفهم من قضية القدس، حيث تمت مناقشة ما سُمي بـ «وثيقة غاليلي»، وهي مشروع تداوله أعضاء الحكومة والكنيست بشأن الاستمرار

في «تطوير» القدس وضواحيها، لتصبح عاصمة لإسرائيل. وفي عام ١٩٧٣م، تمت صياغة «وثيقة المبادئ الأربعة عشر»، لتبلور ما آل إليه السجال حول وثيقة غاليلي، وتؤكد على أن «القدس عاصمة إسرائيل الموحدة» [٤٣].

وفقًا لاستطلاعات الرأي التي أجريت في الفترة ما بين ١٩٧٤: ١٩٧٧، كان أكثر من ٧٧٪ من الإسرائيليين مع إبقاء القدس تحت السيطرة الإسرائيلية، وعندما تم الإعلان، رسميًّا، عن تطبيق السيادة الإسرائيلية على المدينة، عارضت نسبة صغيرة من الإسرائيليين هذا القرار [٤٤].

ازداد الموقف الصهيوني تشددًا في فترة عهد حكومة الليكود ١٩٧٧م، والتي ابتدأت برئاسة «مناحيم بيجن» حيث أعلن سنة ١٩٧٩م لدى التوقيع على اتفاقيات «كامب ديفيد» أن أسعد ثاني لحظة في حياته هي عندما عانق الجنود الإسرائيليون جدار حائط المبكى لمسجد داود واسترجاع القدس بعد ١٨٠٠ عام [٤٥].

هذا وقد طُرحت في هذا الوقت، أكثر من أي وقتٍ آخر، تلك الأفكار المتعلقة بمملكة داود، والعودة إلى صهيون، فيقول تيدي كولك، عمدة القدس الأسبق، مبررًا السياسات الإسرائيلية نحو القدس: «المسيحيون لهم روما وكنتربري، والمسلمون لهم مكة والمدينة، ولكن اليهود لهم القدس فحسب، وقد جعلها اليهود عاصمتهم ... النبوءة القديمة قد تحققت، لقد كانت عاصمة اليهود منذ ألفي سنة، ومنذ الغزو الإسلامي لم تكن القدس عاصمة لفلسطين إلا في عهد الصليبيين والبريطانيين...» [٤٦] فالمسألة، وفقًا لطرحه، مسألة أديان ثلاثة، متغاضيًا عن قدسيّ القدس وحدها للأديان الثلاثة نفسها، كما أنه يقرن القدسية الدينية بحتمية السيطرة السياسية، المستندة إلى تواجد تاريخي، ليس له ما يثبته، وإن كان، فقد انقطع منذ ألفي سنة، وأخيرًا، يستشهد بمغالطات تاريخية حول منزلة القدس عند المسلمين. وفي عهد عمدة القدس هذا بدأت عمليات طمس عروبة القدس بشتى الوسائل، والتي لاقت استهجانًا دوليًّا، ما لبث أن خفت، بينما استمرت إسرائيل في فرض أمر واقع جديد على الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والسكانية.

يردد «تيدي كولك» أنه لا مجال لتقسيم القدس؛ لأن نسيجها غير قابل للتقسيم، ثم يقفز إلى أن وحدة القدس ومستقبلها المشرق سيكون تحت السيطرة الإسرائيلية، حيث يتحدث عن الخدمات التي تقدمها حكومته للعرب، والأنشطة الثقافية والفنية التي يشارك فيها شبان عرب ويهود، مقابل معاناة العرب من الإهمال خلال الحكم العثماني، ثم الأردني. ثم يردف كولك أن العرب لا يزالون يرفضون كل ذلك، حيث امتنعوا عن المشاركة في أي إحصاء سكاني، وأنه يشعر أن عرب القدس في وضع صعب، إذ على الكثيرين منهم أن يفخروا بعرفات وهو يعتلي منبر الأمم المتحدة، لكنهم لا ينظرون إلى مبادئ م.ت.ف على أنها مُرضية، أو أنها ستحل مشاكله [٤٧].

أقر الكنيست الإسرائيلي في ٣٠ يوليو/ تموز ١٩٨٠ «قانون أساسي» بشأن إعلان القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، ومقرًا لرئيس الدولة والحكومة الكنيست والمحكمة العليا. ومن ثم أصبح هذا القانون منطلقًا لسياسة ممارسات إسرائيل نحو القدس [٤٨]. وقد تقدم الأمير فهد بن عبد العزيز، نائب رئيس مجلس الوزراء السعودي آنذاك، بمبادرة لتسوية سلمية مع الفلسطينيين، مقابل الانسحاب لحدود ما قبل يونيو/ حزيران ١٩٦٧، بما في ذلك القدس، وقد لاقت المبادرة استحسان الولايات المتحدة، وواكبها ضغوط من مجلس الأمن، ومن بعض الجماعات الأوروبية، للانسحاب من الأراضي المحتلة، إلا أن مناحم بيجن قد أعلن أن إسرائيل لن تتخلى عن القدس الموحدة، واتهم مجلس الأمن بالتدخل في شؤون عاصمة إسرائيل الأبدية، غير القابلة للانقسام» [٤٩].

في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٣ كشفت صحيفة هآرتس النقاب عن مشروع «القدس الكبرى» الذي يضم مدن القدس، ورام الله، والبيرة، وبيت ساحور، وبيت جالا، وبيت لحم، علاوة على ستين قرية عربية، بأبعاد ٤٥كم من الشمال إلى الجنوب، ١٥كم من الشرق إلى الغرب. كما كشفت الصحيفة أن المدى الزماني للمشروع عشرون سنة، بدأت عام ١٩٨٢، ومن المتوقع أن تنتهي في ٢٠٠٢ (٥٠).

في انتخابات ١٩٨٨م، رفعت الأحزاب اليمينية «الليكود»، «هتحِيًّا»، «تسومت»، وكذلك الأحزاب الدينية: «حزب المفدال- الحزب الديني القومي»، و«حركة كاخ»، وإن كانت أكثر تطرفًا، شعارات «أرض إسرائيل الكاملة»، و«أرض إسرائيل الكبرى». بينما تضمنت برامج «العمل» و«مبام»، وحتى «شينوي» شعار: «القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل». وبالنظر إلى برامج الانتخابات للأحزاب الإسرائيلية في ١٩٩٦م، وفي خضم المفاوضات والمؤتمرات الرامية إلى التوصل لتسوية، لا نجد فرقًا، اللهم إلا في الصياغة، بين موقف الأحزاب الإسرائيلية على الاختلاف المزعوم في توجهاتها بشأن القدس، فموقف حزب العمل لا يختلف عن حزب الليكود، ولا الأحزاب الدينية! (٥١). ولا غرابة في ذلك، إذ إن الشريك الإسرائيلي في المفاوضات، إسحاق رابين، كان قد صرح في ١٩٩٢م: «لا يمكن لنا أن نعتبر القدس والمناطق المحيطة بها موضوعًا سياسيًّا أو أمنيًّا، إن القدس الموحدة الإسرائيلية ستبقى عاصمتنا إلى الأبد، وهي بالنسبة إلينا بمثابة القلب والروح للشعب اليهودي».

وحتى الانتخابات الأخيرة، في ٢٠٠٦، لم يحدث تغيير في رؤية الأحزاب الإسرائيلية لملف القدس، اللهم إلا في تكتيك العرض، فلم يعلن أحد، ولو من باب الدعاية، أية احتمالات للتفاوض بشأن القدس، ولكن الحديث دار حول القرى الفلسطينية في ضواحيها، وحتى الحديث عن حرية العبادة لم يصبح له مجال. يقول «عتنيئيل شنلر» من حزب «كديما»: «... البلدة القديمة، وجبل المشارف، وجبل الزيتون، ومدينة داود، والشيخ جراح ستبقى في أيدينا، لكن كفر عقب، والرام، وشعفاط، وحزما، والزعيم، والطور، وأبو ديس ستُعطى للفلسطينيين..» وقد أضاف شنلر أن كديما يرى «الفصل والتفريق بيننا وبين الفلسطينيين الذين لا يعيشون في وسط القدس». ومع ذلك، رفض شنلر أي تنازلات في البلدة القديمة. الموقف نفسه عبرت عنه «كوليت أفيطال»، باسم حزب العمل: «نحن نتحدث عن التقسيم لكننا لا نفعل ذلك صراحة. الواقع هو أن المدينة مقسمة وليس بيريس هو الذي قسّمها. يوجد حلم ويوجد واقع. نحن لا نتخلى عن جبل البيت ـ الحرم القدسي ـ ولا عن الأماكن المقدسة لليهود، على خلاف كامب ديفيد، لكننا بصراحة مستعدون للتنازل عن أحياء عربية كثيرة في شرقي القدس» (٥٢).

في الوقت نفسه، ونتيجة سياسات الضم والتوطين، من ناحية، والطرد والهدم، التي تعرض لها الفلسطينيون، أصبح الوضع الديموغرافي الذي آلت إليه المدينة هو مركز الثقل في أية تسوية، ويعبر عن ذلك المستشار السياسي لرئيس الحكومة الأسبق، بنيامين نتنياهو: «بالنسبة إلى أغلبية الإسرائيليين، فإن القدس هي الحدود البلدية الحالية التي رسمت عام ١٩٦٧م، وهي تشمل القدس الغربية، وأجزاء من الضفة الغربية ضمت إلى القدس ... على أية حال، يشكل الإسرائيليون الآن الأغلبية في المناطق التي ضمت بعد عام ١٩٦٧م، وهكذا فإن السيطرة السياسية الديموغرافية، التي تقلص بدورها الخيارات السياسية الممكنة في تسوية سياسية سلمية » (٥٣).

في أبريل/ نيسان ٢٠٠١، أسفرت مباحثات بين وفدين فلسطيني وإسرائيلي، جرت في طابا، عن الاتفاق على

تأجيل بحث موضوع السيادة على الحرم القدسي الشريف لمدة خمس سنوات، يخضع خلالها لإدارة مشتركة، تتم فيها المحافظة على الوضع القائم، بحيث يصبح حائط البراق تحت الإدارة الإسرائيلية، بينما تبقى المساجد تحت الإدارة الفلسطينية. أعقبت ذلك دعوة الرئيس الإسرائيلي موشيه كتساف بتقسيم الصلاة في الحرم القدسي على غرار ما حدث في الحرم الإبراهيمي في الخليل. وهو ما أعلن الفلسطينيون عن رفضه تمامًا. وقد تزامن اقتراح كتساف مع الكشف عن مخطط صهيوني جديد لتهويد مناطق أخرى في القدس، يتضمن إقامة وحدات استيطانية جديدة، على غرار أراضي سلوان، والسيطرة على قسم جديد من الحي الإسلامي داخل الأسوار، وتحويل سطح أسوار القدس إلى متنزه للزوار والسياح [٥٤].

المنظمات الدينية الصهيونية في القدس

تشكل مجموعة من المنظمات الدينية الصهيونية في القدس رأس الحربة في استيطان وتهويد القدس، وتركز نشاطها على البلدة القديمة، وأحياء المدينة التاريخية. من أشهر هذه المنظمات: عطاره ليوشنا: وهي أبرز تلك المنظمات، حيث بدأت نشاطها عقب حرب ١٩٦٧ مباشرة، قد حددت أهدافها بالاستيلاء على العقارات العربية في القدس، وإحلال مؤسسات توراتية، ومستوطنين يهود محل سكانها. وقد انشقت عن المنظمة السابقة منظمة تدعى عطيرات كوهانيم. وقد دأبت دائرة القيم العام التابعة لوزارة العدل الإسرائيلية المذكورة على تسليم العقارات العربية إلى الجماعتين المذكورتين إذا تم إخلاؤها. «شوفو بانيم ـ عودوا أيها الأبناء»، وهي تتألف من الشبان المتطرفين، وتقوم تلك الجماعات بمضايقة الفلسطينيين من أجل الاستيلاء على منازلهم، بدءًا من ممارسة طقوس غريبة وصاخبة، مرورًا بإلقاء القاذورات على المارة، وإفساد شبكات المياه والصرف، وانتهاءً بإضرام النار في البيوت العربية، والطرد القسري للسكان تحت سمع وبصر من الشرطة والإعلام في أغلب الأحوال. وهذه المنظمات ذات صلات وثيقة بمنظمتي «جوش إيمونيم»، و«كاخ» الصهيونيتين المتطرفتين، وهي تتلقى دعمًا من المؤسسات الصهيونية في إسرائيل، وفي الولايات المتحدة، وبعض الدول الأوروبية، كما تتلقى هذه المنظمات دعمًا كبيرًا من بعض المجموعات الأصولية المسيحية، المرتبطة بالصهيونية المسيحية [٥٥].

تصورات لمستقبل القدس

لقد طُرحت تصورات عديدة لمستقبل القدس، فقد تحدثت صحيفة هآرتس الإسرائيلية عام ١٩٨٨ عن مشروع تقسيم مدينة القدس إلى أحياء تتمتع بالحكم الذاتي، لكل منها بلديته، مع استمرار المدينة، في كل الأحوال، تحت السيادة الصهيونية. وفي ١٩٩١، اقترح أفيشاي مرجليت، الأستاذ بالجامعة العبرية، أن تصبح القدس عاصمة مشتركة، وعليها سيادة مشتركة، بقوانين خاصة. وفي ١٩٩٤، قال «يهوشفاط هركابي» الذي قاد جهاز الاستخبارات الصهيونية في الخمسينيات: «إن إسرائيل لن تتمكن من السيطرة إلى الأبد على القسم الشرقي من القدس». «ويصعب عليَّ أن أتصور أن العرب وليس الفلسطينيون وحدهم يمكن أن يقبلوا ألا يكون لهم شيء في القدس». كما ذكرت صحيفة يديعون أحرونوت، عام ١٩٩٦، أن إسرائيل تفكر في اقتراح إنشاء «قدس ثانية»، كعاصمة لكيانهم السياسي المستقل». في عام ٢٠٠٠، ذكرت صحيفة يديعوت أحرونوت، عقب زيارة الملك عبد الله لإسرائيل، أنه قد تم بحث إمكان وضع ثلاثة أرباع المدينة القديمة، التي تضم الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، وخصوصًا المسجد

الأقصى، وكنيسة القيامة تحت السيادة الفلسطينية، على أن يحتفظ الكيان الصهيوني بالسيطرة على الأحياء اليهودية، والأرمنية، وحائط البراق [٥٦].

علاوة على ما سبق، فقد طرحت رؤى متكاملة عديدة بشأن مستقبل القدس من قبل أفراد سياسيين وأكاديميين، ومن قبل مراكز بحثية، نذكر منها مشروع ميرون مينفتس، (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢) وهو يرى تقسيم القدس إلى بلدتين، الأولى يهودية، وتشمل الشطر الغربي من البلدة القديمة المقدسة وتسمى بلدية أورشليم، والثانية عربية فلسطينية، تشمل القرى الوطنية الواقعة خارج حدود البلدية الأولى، وتسمى بلدية القدس، وهو ما يتفق مع رأي «تيدي كوليك»، رئيس بلدية القدس، ويركز على إدارات الأحياء الموسعة فيما عرف بطريقة الفسيفساء. أما مشروع شمعون شامير، فيطرح فكرة القدس الموحدة، المفتوحة للجميع، ولا يرى مانعًا من قيام مؤسسات فلسطينية في الشطر الشرقي من المدينة، تتولى الإدارة الدينية للأماكن المقدسة، مع تأكيده على فكرة الحكم الذاتي للأحياء تحت بلدية واحدة للمدينة.

يطرح «مركز القدس للدراسات الإسرائيلية» فكرة إنشاء عاصمة بديلة للفلسطينيين، على أن تبقى القدس الكبرى إسرائيلية، مع إمكانية إعطاء سيادة خاصة للبلدة القديمة وحكم ذاتي للأحياء العربية، وإدارة فلسطينية للحرم. وهي الرؤية نفسها، تقريبًا، التي تطرحها وثيقة «بيلين ـ أبو مازن». يتبنى مشروع رعنان ويتز، أيضًا، فكرة إقامة قدس فلسطينية، شرقي قرية شعفاط، لتستوعب ٣٠٠ ألف فلسطيني، وإنشاء طريق يربط بينها وبين القدس الحالية، تحت إدارة مشتركة، مع ضم المستوطنات إلى القدس أما المدينة المقدسة داخل الأسوار، فيقترح أن تدار دوليًا، كما يقترح تخيير العرب المقيمين في القدس بين أن ينتقلوا إلى القدس الفلسطينية الجديدة، أو أن يبقوا في أماكن سكناهم الحالية [٥٧].

وهذه الأطروحات، على اختلافها، واقتران هذا الاختلاف بتوقيت طرحها، تجعل الحق الفلسطيني قاصرًا على حرية العبادة، ولا يزيد، في أفضل الأحوال، عن إدارة المواقع الدينية، أو إدارة بلدية محدودة، كما أن جميع هذه المشروعات طُرحت من جهات أو أفراد غير ذوي صفة، وحتى من حمل منهم صفة حزبية أو حكومية، في وقت ما، فإنه لا يُقدم أطروحته بهذه الصفة.

الخاتمة

ـ ظلت أورشليم تحت حكم اليهود، بفرض صحة الرواية التوراتية، لفترة قصيرة، ثم أصبحت تحت حكم الإغريق، ثم الرومان، ثم العرب منذ القرن السابع وحتى القرن العشرين.

ـ اتسمت صورة أورشليم في التراث اليهودي القديم بالتناقض، بين الإجلال، واللعن. وفي العصور الوسطى، وحتى القرن التاسع عشر، كانت صورة القدس رومانسية، خيالية، تمثل رمزًا لأحلام الخلاص، التي لم تقترن بأي نشاط فعلي.

ـ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سعى تيار اليهودية الإصلاحية إلى محو ذكر صهيون من الوعي اليهودي، بهدف مساعدته على الاندماج في المجتمع الغربي.

ـ في المقابل، كانت بعض الكتابات الصهيونية تستخدم حلم العودة إلى صهيون، بهدف اجتذاب يهود شرق

أوروبا، الذين غرقوا في الفقر والفكر الأسطوري. بينما كانت هناك اتجاهات صهيونية ترفض تبني فكرة العودة إلى صهيون.

ـ على الصعيد العملي، كانت الصهيونية السياسية والعملية لا تشترط أن يكون الوطن القومي لليهود في فلسطين، وإن كان لا يعني ذلك، بالضرورة، أن تكون القدس عاصمته.

ـ في السنوات الأولى للاستيطان كانت القدس مهمشة، سواء من حيث مشروعات الاستيطان، ثم في المطالبة بالسيادة البلدية، وبعد الثورة العربية الكبرى كان جل ما يحلم به الصهاينة هو السيادة على «القدس الغربية» لأسباب اقتصادية بحتة، وتدويل القدس الشرقية.

ـ كان الأمر الواقع، الذي أسفرت عنه حرب ١٩٤٨، هو الذي دفع اليهود إلى الشروع في سياسات، وممارسات، من أجل الاحتفاظ بالقدس، وهو السبب نفسه الذي دفعهم إلى إجراءات ضم القدس الشرقية عقب حرب ١٩٦٧.

ـ بعد حرب ١٩٧٣، وبخاصة بعد تولي حكومة الليكود ١٩٧٧، زادت النعرة الدينية فيما يتعلق بالقدس. وقد ظلت «القدس الموحدة»، كعاصمة لإسرائيل منذ ١٩٨٠، من الثوابت لدى جميع القوى السياسية في إسرائيل.

ـ القدس مستبعدة من أي تسوية محتملة مع الفلسطينيين، وحتى أكثر المشروعات النظرية كرمًا لا تمنح الفلسطينيين أكثر من حق ممارسة الشعائر، وبحد أقصى سيادة بلدية محدودة على قرى القدس العربية، وإدارة شؤون الأوقاف.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، دار المعارف، ص ١١٩٤.

(٢) عبد العليم محمد: الخطاب الساداتي، تحليل الحقل اللغوي للخطاب الساداتي، سلسلة «كتاب الأهالي»، ١٩٩٠، ص ١٤، ١٥.

(٣) محمد حافظ دياب: سيد قطب، الخطاب والأيديولوجيا، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٧، ص ٧.

(٤) جمال الرفاعي: الخطاب الديني في إسرائيل، بحث مقدم ضمن ندوة «التطرف الديني والسياسي في إسرائيل»، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، ب.ت.ن، ص٩.

(٥) أحمد الشحات: القدس في الرواية العبرية المعاصرة ١٩٦٧ - ١٩٩٢، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥، ص٢٣٧.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٧) المرجع نفسه، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٨) د. ظريف الخالدي: الصراع على تاريخ القدس تفكيك مقولات الاستشراق، مركز الإعلام الفلسطيني:

https: / /palestine-info.info /arabic /alquds /mukhtarat /tafkik.htm

(٩) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤، ص٥١٠.

(١٠) أحمد الشحات: مرجع سبق ذكره، ص٢.

(١١) المرجع نفسه، ص٥.

(١٢) المرجع نفسه، ص٣، ٤ .

(١٣) محمد ربيع: **أزمة الفكر الصهيوني**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٩، ٣٠.

(١٤) المرجع نفسه، ص٤٥: ٤٧.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٤٠.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٣٧، ٣٨.

(١٧) محمد عبد الرؤوف: موقع القدس في الفكر الصهيوني، التأصيل النظري للتخطيط، وديناميكية التنفيذ، **الندوة العالمية حول القدس**، الاتحاد البرلماني العربي، الرباط، ٢٦-٢٨نوفمبر١٩٩٨، ص٤٦ .

(١٨) ربيع: مرجع سبق ذكره، ص ٣٩.

(١٩) سمير جريس: **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٨١، ص١١ ، ١٢.

(٢٠) المرجع نفسه، ص١٧، ١٩.

(٢١) المرجع نفسه، ص٢١، ٢٣.

(٢٢) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٤٧ .

(٢٣) المرجع نفسه، ص٥٠، ٥١ .

(٢٤) سمير جريس: مرجع سبق ذكره، ص٢٥: ٢٧.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٢٩، ٣٠.

(٢٦) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٥٢ .

(٢٧) المرجع نفسه، ص٥٣ .

(٢٨) المرجع نفسه، ص٥٦ .

(٢٩) المرجع نفسه، ص٥٧ .

(٣٠) جريس: مرجع سبق ذكره، ص١٦٢.

(٣١) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٥٧، ٥٨ .

(٣٢) المرجع نفسه، ص٦٠ .

(٣٣) أرشيف القرارات بموقع الكنيست الإسرائيلي:

http: //www.knesset.gov.il /AllSite /QGenTxt.asp

(٣٤) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٦١، ٦٢ .

(٣٥) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٦٣.

(٣٦) أرشيف القرارات بموقع الكنيست الإسرائيلي:

http: //www.knesset.gov.il /AllSite /QGenTxt.asp

(٣٧) محمد خليل مصلح: **القدس في الخطاب السياسي الإسرائيلي**، الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية 21-08-2006: //:http
www.alasra.ps /news php?maa=View&id=56

obeikan.com

(٣٨) المرجع نفسه.

(٣٩) المرجع نفسه.

(٤٠) ربيع: مرجع سبق ذكره، ص ٦١، ٦٢.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٤٢) نافذ أبو حسنة: المشاريع اليهودية لتقسيم القدس، مركز الشرق العربي، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤.

http: / /www.asharqalarabi.org.uk /r-m /b-mushacat-m-y.htm

(٤٣) أرشيف القرارات بموقع الكنيست الإسرائيلي:

http: / /www.knesset.gov.il /AllSite /QGenTxt.asp

(٤٤) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص٦٦ .

(٤٥) مصلح: مرجع سبق ذكره.

(٤٦) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص ٦٣ .

(٤٧) المرجع نفسه، ص٦٦، ٦٧ .

(٤٨) أرشيف القرارات بموقع الكنيست الإسرائيلي:

http: / /www.knesset.gov.il /AllSite /QGenTxt.asp

(٤٩) عبد الرؤوف: مرجع سبق ذكره، ص ٧٠، ٧١.

(٥٠) هاني الحوراني: القدس في القرارات الدولية والسياسات الإسرائيلية- بين عهد الانتداب ومسيرة التسوية السلمية، ندوة «القدس:التاريخ والمستقبل» ٢٩-٣٠ أكتوبر١٩٩٦، مركز دراسات المستقبل، جامعة أسيوط. ص٤٩٧.

(٥١) أرشيف القرارات بموقع الكنيست الإسرائيلي:

http: / /www.knesset.gov.il /AllSite /QGenTxt.asp

(٥٢) مصلح: مرجع سبق ذكره.

(٥٣) المرجع نفسه.

(٥٤) أبو حسنة: مرجع سبق ذكره.

(٥٥) المرجع نفسه.

(٥٦) المرجع نفسه.

(٥٧) مصلح: مرجع سبق ذكره.

* * *

obeikan.com

الفصل الثاني

القدس وثقافة التزوير الإسرائيلية

خالد سعيد

تركز الدراسات التوراتية على اعتبار أن مملكة «إسرائيل القديمة» حقيقة تاريخية لا جدال فيها، وأن ثمة استمرارية تاريخية مباشرة بين هذه المملكة في بداية العصر الحديدي، وبين الكيان الصهيوني، ولا يقتصر الأمر على ذلك، وإنما توظف أحداث التاريخ القديم في خدمة الأطماع السياسية الصهيونية المعاصرة.

فعلى الرغم من أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا خيطًا رفيعًا في نسيج فلسطين الغني، فإن الكيان الصهيوني يتخذ ويتبع حزمة من سياسات التزوير المختلفة والمتعددة، ويبني من خلالها ثقافة جديدة، تكون نهجًا، ومدرسة، وسبيلًا يهتدي بها، تهدف إلى طمس الهوية العربية الفلسطينية في مدينة القدس، بحيث يصبح الفلسطينيون أقلية هامشية، ليس لها تأثير يذكر في إطار ما يدعي «بالقدس الكبرى العاصمة الأبدية لإسرائيل».

من هنا، نحاول في هذه الدراسة طرح وتقديم بعض ثقافات التزوير التي ابتدعها الإسرائيليون في طمس الهوية العربية للقدس، وتقديم بدائل صهيونية وعبرية بدلًا منها، تكون نبراسًا لأجيال قادمة من أبناء الكيان الصهيوني، ينهلون منها لاستمرارية حياتهم فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة، عبر مجموعة مختارة من المباحث.

خصخصة القدس لشعب إسرائيل

لا تتفق تلك المكانة المبالغ فيها لأورشليم في الفكر الإسرائيلي، وذلك التغاضي «المتعمد» عن ذكر مكانتها عند الرب ـ يهوه ـ إله بني إسرائيل. فقد ذكرت المدينة، منذ بدايات ظهور إبراهيم (عليه السلام) في سفر التكوين، لكن من الصعب أن نستخرج كلمة واحدة تدل على تفضيل لهذه المدينة من قبل إله إسرائيل، أو أمرًا بتقديسها.

كما أن الأسفار الخمسة لا تشير إلى أي «خاصية» تتمتع بها المدينة، ويمضي موسى إلى ربه دون أن يذكرها ولو بشطر كلمة. يشوع والقضاة لا يخبروننا في سفريهما عن أورشليم شيئًا يوحي بقداسة المدينة، أو خصوصيتها.

سفرا صموئيل، بما فيهما من أحداث، وما تضمناه من شخصيات، لا نشم رائحة المدينة من قريب أو بعيد في إصحاحاتهما، التي بلغت نحو خمسة وخمسين إصحاحًا؛ فصموئيل النبي لا يذكرها على الإطلاق، وربما لا يعرفها؛ وشاؤول الملك لا يخبرنا بشيء عنها، ولا تبدو على خارطة اهتماماته العسكرية والملكية؛ وداود، خلال صراعه مع شاؤول حميه، ومع الفلسطينيين في المنطقة، لا يبدي أدنى اهتمام بالمدينة، لا عسكريًّا، ولا سياسيًّا، ولا دينيًّا، وهو رجل الحرب والسياسة، والذي اعتمده الرب ـ يهوه ـ مخلصًا لبني إسرائيل ـ شعبه المدلل ـ من أيدي جميع أعدائهم (صموئيل الثاني ٣/ ١٨) [١].

فيموت داود، ويأتي سليمان ليرث ملك أبيه، ويرتكب سليمان ـ وفق رواية سفر الملوك الأول (١١/ ١ ـ ١٠) ـ كل الموبقات المهلكات في أورشليم، ولا يحرك الرب ـ يهوه ـ ساكنًا لقداسة المدينة. وفجأة، وبلا سابق إنذار، يحدث التحول الكبير الخطير، ويختار الرب أورشليم، هكذا في عبارة عارضة.

ثمة اختلاق في هذه الفقرة: «فغضب الرب مع سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل»، فقال الرب لسليمان: «من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها، على أني لا أمزق منك المملكة كلها، بل أعطي سبطًا واحدًا لابنك لأجل داود عبدي، ولأجل أورشليم التي اخترتها».(ملوك أول ١١/ ١٩- ١٣) [٢].

سنجد الفقرة الأخيرة من النص، وقد أقحمت فيها عبارة يظهر بوضوح انتحالها. فإكرام الرب لداود شيء له «سوابق» في النصوص، لكن اختيار الرب وتكريمها، أو «تشفيعها» في سليمان، أمر قفز فجأة إلى النص. ولم يسبق لإله إسرائيل أن اختار أورشليم. ولم يسبق له أن اختار لنا مكانتها وقدسيتها. ولم يبين لنا ـ كذلك ـ أسباب هذا الاختيار المفاجئ. ومن ثم نشكك، بيقين بالغ، في أصالة العبارة الأخيرة من النص السابق.

تتكرر تلك العبارة، تكرارًا، يوحي بأن واضعها قد أدرك إضافتها، فراح يحشرها ـ في نفس الإصحاح ـ حشرًا، لإقناع الناس بها، «وكان (الرب) يكاد يقول خذوني». «من أجل عبدي داود، ومن أجل أورشليم، المدينة التي اخترتها» (١١/ ٣٢). ولم يذكر لنا الرب، ولا واضع العبارة، متى تم الاختيار، ولا أسبابه. ومن هنا، يسعى واضع عبارة الاختيار إلى تزيين السفر بها، وتذكير الناس بعملية الاختيار، في محاولة واضحة منه لترسيخ هذه الصورة في الأذهان. ويتوالى ذكر عبارة «المدينة التي اخترتها»، أو«المدينة التي اخترت» في عملية «غسيل دماغ» لقارئ النصوص. وفي عملية «خصخصة» أخرى للإله «يهوه»، بعد أن تمت «خصخصة» لشعب إسرائيل، وحسب، نراه يصيح «إله أورشليم» (عزرا ٧/ ٢٠) [٣].

مما أخطأوا فيه، أيضًا، قولهم: إن داود فتح القدس، وهو خبر ذكرته التوراة الملفّقة، ليس له شاهد مما عندنا من الأخبار الصحيحة (القرآن، والحديث)، ولم تثبت الحفريات الأثرية شيئًا من هذه الأخبار [٤].

ففي القرآن، أن داود كان في جيش طالوت، لقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وجالوت هذا لم يكن في القدس، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، وليس

في القدس نهر. فالمعركة كانت في الساحل الفلسطيني، حيث توجد أودية جارية كأنها أنهار؛ لأن جالوت كان من ملوك الفلسطينيين، وكان هؤلاء يسكنون الساحل.

فدخل داود القدس، وسكن فيها بوصفه نبيًّا لا فاتحًا، بدليل أن سكان القدس الكنعانيين لم يغادروا منازلهم وأرضهم، وعاشت القلة المؤمنة التي رافقت داود مخلوطين بمن كان فيها. ذلك أن داود لم يكن مرسلًا إلى بني إسرائيل، وإنما كان نبيًّا هاديًا للناس كافة، في المحيط الذي يعيش فيه. وإنما يرسل الله النبي إلى القوم أو القبيلة إذا كانوا في بقعة لا يسكنها غيرهم. كما أرسل الله هودا إلى قوم عاد، وأرسل الله صالحًا إلى ثمود. أما بنو إسرائيل فلم يكن لهم في زمن داود موطن يستقلون بسكناه، ولم يكونوا مجموعين في بقعة واحدة، فالمنطقة التي نبئ فيها داود كان أكثر سكانها من الكنعانيين[٥].

القول بأن داود أنشأ مدينة (أورشليم) قول باطل، فمدينة أورشليم، أو القدس، أو بيت المقدس، قديمة قدم المسجد الأقصى. وقد أخبر الله أنه بارك فيما حول المسجد الأقصى منذ وُجدت الحياة على هذه الأرض، ومن معاني البركة كثرة الخيرات، التي تكون سببًا في حياة الناس، لم تكن بسبب إسراء النبي محمد ﷺ إلى المسجد الأقصى، وإنما كانت قديمة. وقد أثبتت الكتابات القديمة الأثرية المكتشفة في تل العمارنه في مصر، التي تعود إلى عهد الفرعون أمنوفيس الثالث (١٤١١ ـ ١٣٧٥ق.م)، أن القدس كان يحكمها ملوك من اليبوسيين الكنعانيين. ففي ذلك الوقت كانت القدس داخلة في حلف حماية مع الملك الفرعوني[٦].

الهيكل اليهودي

وجدت القيادات الصهيونية ضالتها المنشودة في جعل فكرة «الهيكل اليهودي في القدس»، باعثًا ومحرضًا على حشد الطاقات الذاتية والتحالفية لبناء المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين. ولهذا جرى بناء صيغة ذهنية جامحة حول الهيكل، عبر مطابقة حشرية أو مصطنعة بين نصوص التناخ (العهد القديم) وجغرافية القدس، واعتبرت هذه الصيغة أن الهيكل في نظر اليهود يشبه مكانة القلب في «العهد القديم»[٧].

في هذا المنحى راحوا ينظرون إلى الهيكل على أنه رمز ينطق، دومًا، بحضور «يهوه» حضورًا ملوكيًّا وسط شعبه، ومن ثم اعتبروه المكان المفضل للصلاة لاستقطاب الإسرائيليين، ولا سيما في أوقات المحن. والمذهل في الأمر أن المصادر اليهودية تتحدث بتفاصيل مثيرة عن بناء الهيكل وأجزائه، وتعرض أدق التفاصيل حوله، لدرجة يمكن أن ينساق العامة وراء ما تعرضه من أوهام وتصورات.

نظرًا للارتباط المصطنع يهوديًّا بـ «الحائط الغربي»، أو الهيكل، ينفرد هذا الحائط بمكانة خاصة لدى اليهود والصهيونيين، ضمن تركيزهم على إيجاد رموز دينية، أو تاريخية، للبرهنة على صلتهم المزعومة بأرض فلسطين، خاصة وأن لهذا الحائط تأثيرًا كبيرًا على الجموع اليهودية، بمثوله المادي، وبنيانه الرائع الأخّاذ[٨].

المسألة، إذن، غير معزولة عن أفكار مسبقة وغيبية، جرى ترتيبها وفق نمط ذهني مفرق في عنصريته، استنادًا إلى اعتبارات سياسية، تسعى لحيازة التفهم والتأييد العالمي لدعاوى «الحق التاريخي»، التي تنادي بها الحركة الصهيونية، خلافًا لكل القوانين والمواثيق والأعراف الدولية. وفي ضوء ذلك، يمكن القول إن موضوع الهيكل برمته لا يعدو أن

يكون واحدًا من الإنشاءات الأيديولوجية السياسية، حيث لم يعرف في الروايات المختلفة أن النبي موسى قد دخل فلسطين، ولم تذكر هذه الروايات أنه بنى هيكلًا. وحسب «معجم اللاهوت الكتابي» لم يكن للعبرانيين هيكل في زمن الآباء، أي في عهود ما يسمونهم أبرام وإسرائيل. ويشير المعجم إلى أن المعبد الأمثل، الذي كان في عهد داود، هو «خيمة الاجتماع» فحسب [٩].

الاعتراف الدولي

يحكي الكاتب الصهيوني موطي غولان، في كتابه المهم، حول رؤية الحركة الصهيونية لمدينة القدس التاريخية، والذي جاء تحت عنوان «القدس في نظر الصهيونية» أن الحركة الصهيونية، منذ بدايتها، وخاصة تلك التي تستند إلى أفكار تيودور هرتزل، كانت قد أصرت على الحاجة إلى ميثاق، وإلى اعتراف دولي بالمشروع اليهودي القومي في «أرض إسرائيل»، وأن التناقض بين الاعتراف الدولي، الذي كانت تتوق إليه الصهيونية، وبين السيادة اليهودية على الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين، كان جليًّا لزعماء الحركة الصهيونية، منذ نشأتها [١٠].

كان بنيامين زئيف هرتسل ـ أحد زعماء الحركة الصهيونية ـ يرى منذ عام ١٨٩٦ بأن السيادة اليهودية على «أرض إسرائيل» لا تعني، بصورة تلقائية، بأن القدس عاصمة لهذا الكيان المتمتع بالسيادة. وأن هرتسل، الذي كانت المسائل الإقليمية تافهة في نظره، مقابل فكرة السيادة اليهودية، والتي كانت شبكة المقتضيات التي عمل في إطارها تتمثل في السياسة الدولية، وليس التراث الثقافي ـ الديني اليهودي، لم يجد هرتسل صعوبة في أن يرى في القدس، وما حولها، إقليماً خارجيًّا، مقابل فرصة الحصول على اعتراف دولي بالسيادة اليهودية على بقية أجزاء «أرض إسرائيل»!

يقص الكاتب الصهيوني موطي، أيضًا، أن حاييم وايزمان، أول رئيس للكيان الصهيوني، قد كتب لزوجته، حينما زار القدس للمرة الأولى، قائلًا: «إن الوضع في القدس تعيس، وتعيس جدًّا، حيث يوجد هناك عدد قليل جدًّا من اليهود، وأن العين والقلب لا يصطدمان حتى بمؤسسة عبرية واحدة». مضيفًا، في فقرة أخرى، بأن المساجد، والكنائس، والقباب ترتفع صارخة إلى السماء بأن القدس ليست مدينة عبرية [١١]، ما يعني بأن ثمة اعترافًا إسرائيليًّا بأن القدس عربية من الألف إلى الياء، وأن سياسة التزوير الصهيونية تؤتي ثمارها بمرور الوقت.

يؤكد غولان ذلك، في فقرة أخرى من كتابه «القدس في نظر الصهيونية»، قائلًا: «إن الطريقة التي طرحت فيها فكرة التقسيم مثيرة للاهتمام، بحد ذاتها، ومع أن مصداقية الرواية غير واضحة، إلا أن فيها ما يشير إلى الموقف العفوي والإيجابي لزعامة الحركة الصهيونية، من هذه الفكرة؛ فعند زيارة (لجنة بيل)، وهي لجنة تحقيق في أحداث ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية، إلى مستعمرة نهلال، في مرج بني عامر، قام وايزمان بإنقاذ البروفيسور كوبلاند، رئيس اللجنة، من الوحل هناك، ودخل معه في محادثة داخل منزل خشبي، يستخدم كسكرتيرية للمستعمرة. وقد مكث الاثنان هناك، وقتًا طويلًا، وعندما خرجا كان وجه وايزمان يكاد يتفجر من الفرح. وحول سؤال المرافقين، بخصوص مضمون المحادثة، لم تقدم أي إجابة، وقد اتضح، بعد ذلك، أن كوبلاند طرح فكرة تقسيم «أرض إسرائيل» إلى دولتين، يهودية وعربية، على أن تبقى القدس خارج هاتين الدولتين. وعندما قام وايزمان بعرض الفكرة أمام ديفيد بن غوريون، قبلها، على الفور! [١٢] ويستمر غولان في الحديث، ليؤكد بأن زعماء الحركة الصهيونية وافقوا على أن استمرار سلطة الانتداب البريطانية على فلسطين ينطوي على فرصة، ولو ضئيلة، لسلطة يهودية في المدينة، في المستقبل!

قرار التقسيم

حول قرار التقسيم، في يوم ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، كانت المناقشات قد غطت جميع الجوانب المتصلة بمشروع التقسيم، وكان من المنتظر أن يتم التصويت عليه في الجلسة المسائية من ذاك اليوم، على أنه تبين للصهاينة بأن المشروع سيفشل إذا ما تم الاقتراع عليه في تلك الليلة. وقد وافق اليوم التالي لهذا التأجيل «عيد الشكر» عند الأمريكيين، وبالرغم من أنه ليس من الأعياد الرسمية التي تعطل فيها أعمال الأمم المتحدة، فإن رئيس الجمعية العامة آنذاك ، والمعروف بميوله الصهيونية، قرر، لأول مرة في تاريخ الأمم المتحدة، ألا يعقد اجتماعًا للجمعية العامة في ذاك اليوم، وأن يعقدها في مساء اليوم الذي يليه، وهكذا توفر للصهاينة ومؤيديهم ثمان وأربعون ساعة للمناورات، والضغوط، ومحاولات الإقناع، والتأثير، والابتزاز.

حينما استأنفت الجمعية العامة اجتماعها، بعد ظهر يوم ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، تم التصويت لصالح مشروع القرار، حيث استخدمت سياسة التهديد والوعيد، جنبًا إلى جنب مع سياسة الإغراء والوعود بالمعونات الاقتصادية، في سبيل تغيير مواقف الدول التي كانت تعارض التقسيم. فبالنسبة لحكومة ليبيريا، ذكر وزير البحرية الأمريكية السابق، في عهد ترومان، جيمس فورستال، أن «شركة فايرستون للمطاط قامت بالإبراق لشركتها في ليبيريا للضغط على الحكومة الليبيرية للتصويت لصالح التقسيم»؛ وتحولت ليبيريا من معارض للتصويت إلى مؤيد له في سرعة البرق.

حدث ذلك مع حكومة هاييتي التي اضطر مندوبها إلى أن يعلن، والدموع في عينيه، أنه تحول من معارض للتقسيم إلى مؤيد له، بعد أن قام الوسطاء، مثل تدولف بيرلي، الذي استغل وعد أمريكا لهاييتي بالمعونة الاقتصادية لهذا الغرض. كذلك الحال مع حكومة الفلبين، فبعد أن هاجم مندوبها، الجنرال كارلوس روميلو، مشروع التقسيم، وقال: «إن حل مشكلة تخلص أوروبا من اليهود يجب ألا يكون على حساب عرب فلسطين، وفي إقامة دولة يهودية في بلادهم». «وإنه لذلك سيقترع ضد التقسيم، وإذا بحكومة الفلبين تضطر إلى تغيير موقفها، وتبرق إلى الجنرال روميلو بالعودة، وتحل محله السفير الفلبيني في واشنطن، بعد أن تلقى رئيس جمهوريتها تهديدًا من السفير الأمريكي في مانيلا بأن الكونجرس الأمريكي لن يوافق على القوانين السبعة المعروضة عليه والمتعلقة بالفلبين إذا لم تبدل حكومتها موقفها من قرار التقسيم» [١٣]. بذلك استخدمت الحركة الصهيونية ومؤيدوها أسلحة مختلفة لتزوير الحقائق، حيث لعب المال دورًا مؤثرًا في استمرار هذه السياسة حتى الآن.

على الرغم من رفض العرب لقرار التقسيم، على اعتبار أن تدويل القدس يسلبهم حقهم التاريخي والشرعي في السيادة على المدينة، فإن الجانب الصهيوني قد تقبل القرار ـ في خبث ودهاء ـ حتى يتمكن، أولًا، من إعلان استقلال الدولة اليهودية، وبعدها يقوم بفرض وقائع جديدة على الأرض [١٤].

اختلف زعماء الحركة الصهيونية، فيما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٠، حول اختيار العاصمة بين ثلاث مدن، ليس من بينها القدس، حيث اقترح بن غوريون مستوطنة كورنوب في النقب، بينما فضلت غولدا مائير مدينة حيفا، وأخيرًا استقر رأي اللجنة الإسرائيلية المعنية باختيار العاصمة، في ١٣ مايو/ أيار ١٩٤٩، على اتخاذ إحدى ضواحي تل أبيب عاصمة لإسرائيل [١٥].

جاء اختيار تل أبيب كعاصمة، رغم قيام إسرائيل باحتلال القدس الغربية في غفلة من الزمن عندما استغلت إسرائيل فترة الهدنة الأولى، وتقدمت في ٢٩ مايو/ آيار ١٩٤٨، نحو جدار القدس، واحتلت المواقع المهمة، كاللد والرملة، وشقت طريقًا بين تل أبيب والقدس، واستمرت إسرائيل باستعداداتها العسكرية حتى الهدنة الثانية، حيث تحول الموقف العسكري لصالحها، مما دفع بالوسيط الدولي الكونت فولك برنادوت إلى تقديم تقرير إلى مجلس الأمن الدولي، جاء فيه أن القدس تقع في وسط الإقليم العربي، وأن أي محاولة لعزلها سياسيًّا، أو غير ذلك عن الإقليم العربي المحيط بها، تنطوي على مصاعب جمة، ودفع برنادوت حياته ثمنًا لهذا التقرير عندما اغتالته إسرائيل.

أما ملابسات إعلان القدس الغربية عاصمة لإسرائيل، بعد ذلك، فقد جاء في إطار سياسة فرض الأمر الواقع، التي أجادت إسرائيل استخدامها خطوة خطوة، وكانت بدايتها عندما شكلت إسرائيل محكمتها العليا في القدس، في الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، ومن قبلها إنشاء الجامعة العبرية بالقدس في عام ١٩٢٥!

حرب يونيو ١٩٦٧

اندلعت حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧، فاحتلت إسرائيل شرقي القدس، وبدأت سياسة الخطوة خطوة نحو تزوير وتهويد مدينة القدس، حيث اتفقت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، سواء حكومات العمل (المعراخ)، أو الليكود، على هذه السياسة، ووضعت البرامج الإستراتيجية والتكتيكية لبلوغ هذا الهدف، فبعد أن أعلن عن توسيع حدود بلدية القدس وتوحيدها، في الثامن والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وطبقًا للسيادة الإسرائيلية الهادفة إلى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأرض، مع أقل عدد ممكن من السكان العرب، رسم الوزير السابق، رحبعام زئيفي، حدود البلدية لتضم أراضي ٢٨ من القرى والمدن العربية، وتخرج جميع التجمعات السكانية العربية، ونتيجة ذلك أخذت هذه الحدود وضعًا غريبًا، فمرة مع خطوط التسوية (الطبوغرافية)، ومرة أخرى مع الشوارع، وهكذا بدأت حقبة أخرى من رسم حدود البلدية، لتزداد مساحة بلدية القدس، من ٥,٦ كم٢، إلى ٥,٧٠ كم٢، وتصبح مساحتها مجتمعة (الشرقية والغربية) ٥,١٠٨ كم٢، ثم وسعت، مرة أخرى، سنة ١٩٩٠، في اتجاه الغرب، لتصبح مساحتها، حاليًّا، ١٢٣ كم ٢ [١٦].

سرعان ما أصدرت الحكومة الإسرائيلية قرارها بضم القدس، وجعلها عاصمة أبدية لإسرائيل، حيث أصدر الكنيست الإسرائيلي قرارًا على هيئة إضافة فقرة إلى القانون الإسرائيلي «قانون الإدارة والنظام لعام ١٩٤٨» نصّت على تطبيق قانون إسرائيل الخاص بالقانون والإدارة على جميع مساحة (أرض إسرائيل)، التي حددتها الحكومة الإسرائيلية بالرسوم.

اتخذت سلسلة من الإجراءات، من بينها:

١- حل مجلس بلدية القدس، حيث أبلغ القائد العسكري للمدينة، في ٢٩ يونيو/ حزيران، أمين القدس الشرقية «روحي الخطيب»، قراره بقوله: «إنه يشرفني أن أبلغكم حل مجلس البلدية»!

٢- إغلاق المحاكم المدنية، والعربية، وفرض القانون الإسرائيلي على المدينة.

٣- تطبيق المناهج الدراسية على المدارس والمعاهد التعليمية في القدس.

٤ - إغلاق البنوك العربية، ومصادرة أموالها، مع فرض الضرائب الإسرائيلية على الأهالي العرب، وتداول العملة الإسرائيلية.

٥ - إلزام العرب بالحصول على تصاريح دخول القدس، وبذلك أصبحت المدينة معزولة عن باقي أجزاء الضفة الغربية.

هنا برعت السياسة الصهيونية في كيفية استخدام ثقافة التزوير، والتزييف، وخلط الأمور، واللعب بالألفاظ، حيث سعت إسرائيل إلى التخفيف من ردود الفعل العالمية ضدها، خاصة حيال قضية «الضم»، وذلك أثناء انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة، في دورتها الاستثنائية الخامسة، التي بدأت في ٤ يوليو/ تموز ١٩٦٧، ومحاولة الادعاء أمامها أن «عبارة» (الضم) غير واردة هنا (وأن) الإجراءات المتخذة تتعلق بالدمج، على الصعيدين الإداري والبلدي، لخلق قاعدة قانونية من أجل حماية الأماكن المقدسة. وجعلت السلطات الإسرائيلية تقوم بحل بلدية القدس العربية عن طريق أمر صادر عن الحكم العسكري قبل انسحابه من المدينة، وحلول الحكم المدني الإسرائيلي مكانه، حيث تلقى نائب الحكم العسكري للقدس، يعقوب سلمان، أمرًا بحل البلدية العربية، وذلك في السابع والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٦٧ [١٧].

قيل في الرواية الصهيونية، لتبرير هذه المسألة، إن الحكومة الإسرائيلية عملت بسرعة على تقليص الاحتكاكات التي يمكن أن تنجم عن عدم توضيح مكانة القدس، فتقرر العمل وفق قوانين «توحيد القدس»، وتطبيق قوانين إسرائيل على المدينة، وإعطاء هذا الأمر طابعًا عاديًا، دون أي إعلان احتفالي لعدم إثارة الانتباه. واعتبر آخرون بأن قانون القضاء والإدارة بدا وسيلة ضعيفة لتوحيد القدس، ومع ذلك، كانت له مكانة تشبه المكانة الدستورية في دولة لا يوجد فيها دستور [١٨].

أثارت عملية الضم مشاكل قانونية معقدة، على صعيد الحياة اليومية، والوضع القانوني للأهالي العرب في المدينة، وأخذت هذه المشاكل تتفاقم مع تعميق إجراءات الضم، مما استدعى إصدار عدد من التشريعات الأخرى بشأنها، واتخاذ الإجراءات التي تلائم أهداف الاحتلال الإسرائيلي. أما أولى تلك القضايا فكانت مشكلة علاقة عرب القدس بالقوانين الإسرائيلية، حيث اعتبر أهالي المدينة من سكان إسرائيل، لا من مواطنيها، فامتنعت السلطات عن منحهم الجنسية الإسرائيلية، ومنعتهم من الاشتراك في الانتخابات العامة، بينما سمحت لهم بالاشتراك في الانتخابات البلدية لمدينة القدس فحسب، ويبدو أن الهدف الرئيسي من وراء هذه السياسة هو عدم زيادة عدد العرب الذين يتمتعون بحقوق المواطنة في القدس للمحافظة على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية، وتسهيل عمليات نزوح العرب من أهالي المدينة إلى الدول العربية والأجنبية، مما ينسجم مع الأهداف الإسرائيلية بتقليل عدد الأهالي العرب فيها قدر الإمكان، وهي السياسة التي دأبت إسرائيل على استمرارها منذ احتلالها لمدينة القدس.

استنادًا إلى الدراسة التي أعدها دافيد كرافينكر (أحد الباحثين الإسرائيليين العاملين في شؤون تخطيط القدس)، كان الاعتبار الرئيسي، الذي وجه متخذي القرارات في إسرائيل، هو السعي للسيطرة على أكبر مساحة من الأرض، مع الحد الأدنى من السكان العرب، ومنع إمكانية تقسيم المدينة في المستقبل، وفي ضوء هذه الاعتبارات أخرجت من مجال الضم ضواح مأهولة بالعرب، مثل أبو ديس، والعيزرية، وأخذ شمالي القدس شكلًا طولانيًا، وبارزًا، وذلك من

خلال السعي إلى إدخال مطار عطروت (قلندية) في مجال المدينة. واتضح، بمرور السنين، أن الإجراءات التعسفية تسببت بالعديد من المشكلات، ومنها انشطار القرى والأراضي العربية بهذه الحدود بين القدس الموحدة، والضفة الغربية [١٩].

بيّن وزير الإسكان الإسرائيلي السابق، إبراهام عوفير، بأن الحكومة الإسرائيلية تعمل جاهدة لتوسيع رقعة الأراضي لتصل إلى البحر الميت شرقًا، وقد وضّح بن غوريون إلى أشكول قائلًا: «لا بد من إحضار اليهود إلى القدس الشرقية مهما كان الثمن، فلا بد من توطين عشرات الآلاف من اليهود في خلال فترة قصيرة من الزمن، ولو في الأكواخ، فلا يجب أن ننتظر حتى تبنى أحياء جديدة تم التخطيط لها، فأهم شيء أن يصبح لليهود وجود هناك» [٢٠].

وتعني هذه الخطوات أن الكيان الصهيوني كان، وما زال، يهدف إلى فرض سياسة الأمر الواقع على الأهالي الفلسطينيين بالتوطين تارة، وبشراء الأراضي تارة أخرى.

حريق المسجد الأقصى

استهلت غولدا مائير فترة حكمها بأبشع جريمة عرفتها القدس، وذلك بمحاولة إحراق المسجد الأقصى، في يوم ٢١ أغسطس/ آب ١٩٦٩، ولم يكن اختيار إسرائيل لهذا اليوم اختيارًا عشوائيًّا، فالتوقيت نفسه كان يدل دلالة واضحة على أن هناك مخططًا عاجلًا لطمس كل المقدسات الإسلامية، لقد وقعت الجريمة في اليوم التالي لإنجاز بعض الحفريات التي نفذتها الحكومة الإسرائيلية تحت أرضية المسجد الأقصى بزعم كشف الآثار المندثرة منذ ألفي سنة لهيكل سليمان، ومحاولة الإحراق كان إجراء متممًا لعمليات الحفر، وأكثر من هذا، فقد وقعت جريمة الحريق في غير الموسم السياحي الذي تنظمه إسرائيل للقدس، وفي يوم الخميس، حتى يجد المصلون المسلمون أنفسهم في يوم الجمعة التالي أمام الأمر الواقع الذي تتحكم به السلطات الإسرائيلية لإغلاق المسجد!

استمرارًا لسياسة التضليل والتزوير، بدأت مسرحية محاكمة الشاب الأسترالي، مايكل روهان، والذي اتهمته إسرائيل، وحده، بالجريمة، ثم ادعت بأنه مجنون، ومعتوه، وبدأت بعد أن أصدرت السلطات الإسرائيلية عدة بيانات متناقضة عن الحريق، تضمنت تصريحات رسمية، قالت ـ أولًا ـ بأن الحريق حدث عرضًا من احتكاك الأسلاك الكهربائية، ثم زعمت بأن الحريق وقع في الساعة السابعة والدقيقة العشرين صباحًا، والحقيقة أنه وقع قبل ذلك بساعة، على الأقل. كما أنه عندما بدأت المحاكمة بالغت إسرائيل في شكليات المحاكمة نفسها، حيث وضعت المتهم في قفص زجاج لا يخترقه الرصاص، ووضعت على أذنه سماعه لترجمة الإنجليزية لمدلولات المحاكمة التي تجري باللغة العبرية، غير أن المتهم نفى التهم الأربع الموجهة إليه، رغم أن الادعاء كان يعتمد على اعترافات كاملة لروهان كان قد أدلى بها تفيد إحراقه المسجد الأقصى وحده. وعادت المسرحية الإسرائيلية لتقدم فصلًا جديدًا فيها بادعاء أن المتهم أشعل النيران في المسجد بالفعل، ولكن في ظروف خاصة سيطر فيها عليه الجنون. وبالفعل، تمت تبرئة المتهم [٢١]!

عن حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧، أيضًا، يقول المفكر الإسرائيلي المعروف، أمنون روبنشتاين: لقد بدأت بحرب

الأيام الستة (المصطلح الذي يطلقه الإسرائيليون على حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧)، مرحلة جديدة في كل من الفكر والسياسة الإسرائيليين، إن تأثيراتها السياسية والأيديولوجية هائلة، لدرجة أنه من الممكن النظر إليها باعتبارها تحولًا حقيقيًا في التاريخ الإسرائيلي والصهيوني، فذلك اللقاء الذي مع حائط المبكى، ومع القدس، ومع يهودا والسامرة (الضفة الغربية). لقد تم دفعة واحدة اقتحام سور الانغلاق، وأصبحت كل تلك الأماكن، التي كانت غاية حنين اليهود لأجيال طويلة ، بؤرة لتدفق الجماهير. وقد حظي بشهرة كبيرة، بصفة خاصة، ذلك اللقاء بين المظليين والحائط، والذي بكى خلاله المقاتلون القساة»[٢٢] ما يعني أن (الحائط الغربي) كان حلمًا لليهود والحركة الصهيونية فحسب، وليس حقًا مشروعًا لهم.

ألقى الوزير البريطاني السابق، أنتوني ناتنغ، محاضرة في المجلس اليهودي الأمريكي، في يوم ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧، بمناسبة مرور خمسين عامًا على صدور «وعد بلفور»، وكان عنوانها «مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى اليوم ـ نوفمبر ١٩١٧ ـ نوفمبر ١٩٦٧»، وقد جاء فيها: «أن بريطانيا العظمى قررت أن تقيم فوق فلسطين قاعدة إستراتيجية تستطيع منها أن تدافع عن قناة السويس، تحت مظلة الصورة الإنسانية التي تبدو في تصريح بلفور». وقال، أيضًا: «إن الدعاية الصهيونية تريدنا أن نعتقد بأن اللاجئين الفلسطينيين جاءوا نتيجة للهجوم العربي على إسرائيل، عام ١٩٤٨، وأن قادتهم العرب أمروهم بالرحيل عن أراضيهم، بعد أن وعدوهم بإعادتهم إليها ، بعد تصفية إسرائيل، والحقيقة عكس ذلك، تمامًا، فالصهاينة أمروهم، بل أجبروهم على ترك الأراضي التي خصصت لإنشاء دولة إسرائيل»[٢٣].

نماذج حية لثقافة التزوير

من نماذج سياسة التزوير الإسرائيلية لمدينة القدس وأهلها: التعليم، والقضاء، والخدمات العامة، حيث أصبحت كافة المؤسسات التعليمية، على اختلاف مشاربها، هدفًا للحملة الصهيونية الرامية لتفريغ المدينة من أهلها، وتغيير الهوية العربية، من خلال فرض القيود الأمنية، مما يؤدي إلى تعطيل المدارس، وحرمان الطلاب من مدارسهم نتيجة لغياب المعلمين العرب، والذين أغلبيتهم من خارج دائرة القدس، بالإضافة إلى إدراج اللغة العبرية لغة رسمية في المدارس، إلى جانب اللغات الأوروبية الأخرى، فضلًا على إلغاء المناهج والكتب الدراسية، التي كان معمولًا بها في المدينة قبل الاحتلال عام ١٩٦٧، ناهيك عن فرض رسوم عالية في محاولة لإبعاد التلاميذ عن هدفهم الأصلي والمتمثل في التعليم، فيما منعت سلطات الاحتلال الإسرائيلي فتح مدارس جديدة إلا برخصة من وزير التعليم الإسرائيلي.

كما قامت السلطات الإسرائيلية بإلغاء الكتب الدراسية التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالوطن العربي، ووضعه وتاريخه، فقامت بطبع كتب ومذكرات فيها الكثير من المغالطات، وتشويه الحقائق التاريخية، وهو ما يعني صبغ التعليم الفلسطيني بالصبغة الصهيونية، والقضاء على الفكر الفلسطيني، وإجهاضه، بوضع العراقيل أمام التلاميذ والطلاب لنشر الجهل والأمية بين صفوفهم، وإزالة النزعة الوطنية من قلوبهم، والانتماء القومي لأرضهم[٢٤].

حول القضاء الفلسطيني في القدس، اتبعت السلطات الإسرائيلية سياسة دمج القضاء في القدس بالقضاء الإسرائيلي، من خلال إصدار قانون خاص بذلك (رقم ٣٩)، بنقل محكمة الاستئناف من القدس إلى مدينة رام

الله بالضفة الغربية، كما أصدرت سلطات الاحتلال قرارًا بإلغاء المحكمة الابتدائية بالقدس، وقامت بفصل جميع المحاكم النظامية في القدس عن النظام القضائي في الضفة الغربية [٢٥].

من المفردات الصهيونية، أيضًا، والتي اتخذتها الحركة الصهيونية العالمية لدعم أفكارها الاستعمارية، والترسيخ لتأسيس تجمع صهيوني، أو دولة احتلال غاصب، قائمة على مجموعة من الأوهام والأساطير، تحاول بشتى الطرق أن تصنع لها تاريخًا، بسرقة تاريخ وحضارة الآخرين، فالنجمة السداسية (نجمة داود)، الذي يتخذها الصهاينة شعارًا لهم، لا يوجد لها أثر في أسفار «العهد القديم»، ولم تصبح رمزًا لهم، بشكل ملموس، إلا في القرن التاسع عشر، وليس لليهود علاقة بها، من قريب أو بعيد، فهي زخرفة إسلامية وجدت على العمائر الإسلامية فحسب، ومنها قلعة الجندي برأس سدر بسيناء، التي تبعد ٢٣٠كم عن القاهرة، والتي أنشأها القائد صلاح الدين الأيوبي.

أما عن نقش الشمعدان أو «المينوراه» ذو السبعة أو التسعة أفرع، والذي اتخذه اليهود شعارًا لهم، فليس له أي أساس تاريخي، وأن وصف المينوراه الوارد في سفر الخروج (٢٥-٣٧) هو وصف لشمعدان روماني من أيام تيتوس (٧٠م)، وبرز كرمز يهودي منذ بدايات العصر الروماني، فهو رمز خاص بالحضارة الرومانية. أما المرجعية الدينية التي اعتمدوا عليها لربط هذا الرمز بتاريخ اليهود فليس لها أي أساس ديني صحيح، حيث اعتبروا الشمعدان السباعي رمزًا لخلق الله (سبحانه وتعالى) العالم في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، وهذا كذب وافتراء على المولى (عز وجل)، الذي خلق العالم في ستة أيام، دون تعب يحتاج إلى الراحة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (ق: ٣٨). كما جاء في سفر زكريا (٤:٢-٣، ١١- ١٢) تفسير لشعلاتها السبعة بأنها أعين الرب الحامية في الأرض، فإذا كانت أعين الرب فيجب أن تكون محددة، ولكن هذا الشمعدان مرة سباعي وأخرى تساعي!، كما استخدموا هذا الرم ز لتزوير تاريخ الشعوب، كما فعلوا في شبه جزيرة سيناء، أثناء احتلالها، بحفر هذا الشمعدان على هضبة شهيرة بها تسمى هضبة «حجاج»، وتقع على طريق الحج المسيحي بسيناء، ليثبتوا بأن هذا الطريق طريق حج لليهود فحسب، وتم كشف هذا الافتراء، وإثبات أن هذا الطريق خاص بالحج المسيحي فحسب. كما استغلوا لوحتين أثريتين، عرضهما الباحث الأردني أحمد الجوهري في مؤتمر الآثاريين العرب، عام ٢٠٠٦، على إحداهما نقش الشمعدان، وعرضوا على الباحث دراسة هذه اللوحة، ليصنعوا بها لأنفسهم تاريخًا حقيقيًّا[٢٦].

من الإجراءات الإسرائيلية لتزوير الواقع العربي على القدس، جمع الوثائق التي صادرتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي من مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية، وأكثر هذه الوثائق أهمية ما كان ببيت الشرق بالقدس المحتلة، والذي عثرت فيه على مسح شامل للبيوت والأراضي العربية بالقدس الشرقية، وبرامج متعددة لمواجهة مخططات التهويد، بما في ذلك كل عقار ينوي أصحابه بيعه، وضمان عدم وصوله إلى أيدي السماسرة الإسرائيليين أو الفلسطينيين الذين ينشطون في هذا المجال [٢٧].

لم تكتف السلطات الإسرائيلية بذلك، بل أخذت تضع لافتات داخل الحرم القدسي الشريف، تؤكد فيها بأنه المنطقة لمكان جبل الهيكل، كما أخذت في تشجيع السياحة الدينية، والرحلات المدرسية المنتظمة للحرم القدسي، بحجة التواجد اليهودي [٢٨].

بيد أن من بين آلاف المقالات، التي تنشر يوميًّا، طالب المحلل السياسي الإسرائيلي يارون لندن، بصحيفة «يديعوت أحرونوت» العبرية، باستعادة المدن الفلسطينية المحتلة لأسمائها الحقيقية ، باعتبار أن ذلك يعد نقطة في بحر كبير لجسر الهوَّة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ولاستمرار التعايش بينهما، واستمرار الحياة على الأرض الفلسطينية المحتلة (على حد زعمه)، ومن بين هذه الأسماء: القدس، ويافا، واللد، والرملة، وأسدود، وعسقلان، وبئر السبع، وغيرها من المدن والبلدات الفلسطينية التي لا تزال ترزح تحت نير الاحتلال. جاءت هذه المطالبة بعد اعتراف الكاتب الإسرائيلي بأن كيانه المحتل بدأ تكوين أركان دولته المزعومة باختلاق أسماء عبرية لأسماء البلدات والمدن، والوديان، والجبال، والجداول الفلسطينية العربية، وكان الهدف الصهيوني من وراء ذلك السيطرة على الأرض، والذاكرة التاريخية، وهي سياسة صهيونية اتبعت ثقافة التزوير التاريخية [٢٩].

من بين هذه المصطلحات والأدبيات، التي باتت أمرًا واضحًا في وسائل الإعلام الصهيونية، كثرة إطلاق لفظ «عمليات إرهابية»، و«انتحارية» على العمليات الفدائية، أو الاستشهادية، حيث استخدام لفظ «هتأفدوت»، وتعني بالعربية «انتحارية»، واستخدام لفظ «تيروريزم»، وتعني بالعربية كما الإنجليزية «إرهابية»، وهما اللفظان العبريان اللذان يلصقان بالعمليات التي يقوم بها الفلسطينيون ضد الكيان الصهيوني.

من هنا، وعلى الرغم من أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا خيطًا رفيعًا في نسيج فلسطين الغني، فإن كل هذه الإجراءات الصهيونية، وغيرها، تهدف إلى طمس الهوية العربية الفلسطينية في مدينة القدس، بحيث يصبح الفلسطينيون أقلية هامشية، ليس لها تأثير يذكر، في إطار ما يدعى «بالقدس الكبرى، العاصمة الأبدية لإسرائيل».

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) د. محمد جلاء إدريس، **أورشليم القدس في الفكر الإسرائيلي**، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٥٩.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٦١.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٦٦.

(٤) محمد محمد حسن شُرَّاب، **القول المبين في تأريخ القدس وفلسطين**، ط١، دار مؤسسة فلسطين الثقافية، دمشق، ٢٠٠٦، ص ٢١.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٧٦.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٧٧.

(٧) إبراهيم عبد الكريم، **حائط البراق ـ الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي**، ط١، القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، ٢٠٠١، ص ١٨.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ١٨.

(٩) **المصدر نفسه**. ص ٧٧.

(١٠) موطي غولان، **القدس في نظر الصهيونية**. ترجمة جواد سلمان الجعبري، ط١، منشورات وزارة الإعلام الفلسطينية، ١٩٩٦، ص١١.

(١١) **المصدر نفسه**. ص ١٥.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٧.

(١٣) اللواء أحمد عبد الوهاب، **رسالة من التوراة إلى مؤتمر السلام**، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٢٢.

(١٤) د. أحمد يوسف القرعي، **القدس من بن غوريون إلى نتانياهو**، ط١، مركز الدراسات العربي- الأوروبي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٨

(١٥) د. أحمد يوسف القرعي، تهويد القدس والكونجرس الأمريكي، **الأهرام** (القاهرة)، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٥.

(١٦) خليل توفكجي، الاستيطان في مدينة القدس: الأهداف والنتائج، **المركز الفلسطيني للإعلام**، ١٣/ ٨/ ٢٠٠٥.

ـ انظر الموقع الإلكتروني: www.palestine-info.net

(١٧) سمير جريس، **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٨.

(١٨) إبراهيم عبد الكريم، المخططات الهيكلية الإسرائيلية لتهويد القدس، **شؤون عربية** (القاهرة)، عدد ١٠٢، ٢٠٠٠، ص ١١٠ ـ ١٢٧.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٦.

(٢٠) **أبحاث الندوة الدولية «القدس التاريخ والمستقبل»**، مركز دراسات المستقبل، جامعة أسيوط، فبراير/ شباط ١٩٩٧ (انظر: د. سليمان محيي الدين سليمان فتوح، **سياسة التهويد الإسرائيلية لمدينة القدس منذ عام ١٩٦٧ حتى وقتنا الحاضر**). ص ٢٧٦.

(٢١) القرعي، القدس من ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٢٢) د. رشاد الشامي، **الحروب والدين في الواقع السياسي الإسرائيلي**، ط١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٥٦.

(٢٣) عبد الوهاب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠.

(٢٤) أبحاث الندوة الدولية «القدس التاريخ والمستقبل»، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٠.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ٢٩١.

(٢٦) عبد الرحيم ريحان، الصهاينة لصوص حضارة، **المصريون**، ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٨.

ـ انظر الموقع الإلكتروني: www. almesryoon.com

(٢٧) محمد بسيوني، القدس بين فرض الأمر الواقع والتهويد، **الأهرام** (القاهرة)، ٨/ ٥/ ٢٠٠٥.

(٢٨) أبحاث الندوة الدولية «القدس التاريخ والمستقبل»، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٧.

(٢٩) يارون لندن، الخيار العربي، **يديعوت أحرونوت**، ١٤/ ٧/ ٢٠٠٨.

* * *

الفصل الثالث

مراعي الحفريات في القدس

نظيمة سعد الدين

(١)

انتهجت إسرائيل منذ احتلالها فلسطين سياسات عدة، هدفت منها فرض أمر واقع، يقضي بسيطرتها التامة على الأراضي الفلسطينية المغتصبة. وضمن تلك السياسات قيامها بأعمال حفريات واسعة، خاصة في مدينة القدس، والأماكن المقدسة بها. وقامت سلطات الاحتلال بتلك العمليات تحت مسميات مختلفة، فتارة تتحدث عن اكتشافات أثرية، وتارة أخرى عن تجديد شبكات صرف صحي، أو ما إلى ذلك[١].

قامت إسرائيل بعمليات الحفريات لتحقيق أهداف عدة أهمها فرض أمر واقع يقضي بيهودية المدينة، عن طريق تزوير التاريخ، ومحاولة اختراع تاريخ يهودي مزور، في المدينة المقدسة، أو تدمير المقدسات. وقد تمثل هذا النهج في عدد من الإجراءات التي تمت في الأماكن المقدسة، الإسلامية والمسيحية، بهدف تدميرها، وتشويه الطابع الحضاري لمدينة القدس، وإزالة الأماكن المقدسة. ويمكن إيراد بعض الأمثلة في هذا المجال:

ـ الحفريات حول المسجد الأقصى المبارك، وتحته، بذريعة التفتيش على الهيكل الذي تدعي إسرائيل وجوده في منطقة المسجد الأقصى. وقد ابتدأت الحفريات في أواخر عام ١٩٦٧م ، ولا تزال مستمرة حتى الآن. وقد مرت هذه الحفريات بمراحل عدة، وأدت إلى تصديع الكثير من العقارات المجاورة للمسجد الأقصى.

وقد سبق الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين محاولات عدة للعبث بتاريخ المدينة، عن طريق علماء آثار يهود، حاولوا، بجهد، تلفيق تاريخ في المدينة، يعود إلى ملوك اليهود، مستندين إلى أساطير اليهود، وليس إلى الحقائق العلمية.

(٢)

الحفريات التي سبقت الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧:

بدأ البحث عن الآثار في فلسطين، لأول مرة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ورغم أن عددًا من الحفريات قد جرى خلال المائة عام التي سبقت الاحتلال الإسرائيلي، فإن النتائج كانت مرتبطة بفرضيات خيالية، وغير دقيقة، ومتضاربة بعضها مع بعض[٢].

بلغ عدد الحفريات في أنحاء فلسطين عشرين حفرية على الأقل، كانت برامجها وأهدافها واضحة وجلية للمتخصصين، وعندما كانت تكتشف أي طبقة من الآثار الإسلامية كانت تلقي الإهمال، والضياع، والتدمير أثناء البحث في طبقات أعمق وأقدم، ونادرًا ما توثق الحفريات الإسلامية، وإذا وثقت فبعيدًا عن النشر، والدراسة، والتعميم على المؤسسات العلمية.

لعل أول عملية تمت في القدس الشريف كانت سنة ١٨٦٣م من قبل بعثة فرنسية، برئاسة عالم الآثار (ديسولسي)، الذي اكتشف مقابر الملوك خارج بلدة القدس القديمة، وادعى بأنها ترجع إلى عصر الملك داود. وكان فيها مخطوط باللغة الآرامية، نقله ديسولسي إلى متحف اللوفر في باريس.

خلال الفترة ما بين (١٨٦٧ ـ ١٨٧٠)، قامت بعثة بريطانية باسم الصندوق البريطاني لاكتشاف آثار فلسطين، برئاسة المهندس الكولونيل تشارلز وارين، وانصب هدفه على منطقة الحرم القدسي الشريف. أما أهم مكتشفاته، فكانت آبار مائية متصلة بنبع جيحون.

ثم قام دارين بحفريات عمودية وأنفاق أفقية نحو جدران الحرم القدسي الشريف، والجنوبية، والعرضية بهدف اكتشاف طبيعة هذه الجدران، وأنواع حجارتها، التي كان يعتقد بأنها هيرودية. ومن تلك الحفريات النفق الذي يقع مدخله بين باب السلسلة، وباب القطانين، ويتعامد مع الجدار الغربي للحرم القدسي الشريف، بطول ٢٥م، وبعرض ٦م، ويصل إلى سبيل قايتباي، ولكن النفق لم يحقق لوارين آماله. فنشر نتائج حفرياته في كتابه «اكتشاف القدس» عام ١٨٧١، وفي كتابه الآخر «توثيق القدس» عام ١٨٨٤.

كما أن الأب فنسنت أجرى حفريات قرب نبع جيحون، واكتشف أروقة، ومغارات محفورة في الصخر، حوت أواني فخارية ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. ومن هذه المكتشفات استنتج الأب فنسنت بأن التل الجنوبي الشرقي كان الموقع الأصلي للقدس، وأن نبع جيحون لعب دورًا مهمًا في تشجيع إنشاء المساكن بهذا الموقع.

لقد تمت حفريات في العصور اللاحقة، لعل أهمها ما قام به الجنرال الألماني المعماري كونراد تشيك الذي تخيل ورسم الهيكل الذي حلم بإنشائه، ووصفه مزار (رئيس الجامعة العبرية سابقًا)، فيما بعد، في عام ١٩٧٥، بأنه «أسطوري». أما أهم مكتشفات هذا الجنرال، فهي القناة التي تبتدئ من أسفل المدرسة التنجكية (المجلس الإسلامي، حاليًا) وتصل إلى البرك الصخرية الرومانية الموجودة في دير راهبات صهيون، بطول حوالي ٨٠ مترًا، وارتفاع ٨ أمتار، وعرض ٥ , ١ متر وتقول دائرة الآثار الإسرائيلية إن تاريخ هذه القناة يرجع إلى الفترة (١٥٣ ـ ٣٧ق.م) وكانت تزود القدس، ومنطقة الحرم القدسي الشريف بالمياه.

في عهد الانتداب البريطاني في فلسطين (١٩٢١ ـ ١٩٤٨) تأسست بعض معاهد الآثار، وكان أولها «المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية» برئاسة و. أولبرايت، ثم جاء الصندوق البريطاني لاكتشاف آثار فلسطين، وتمت أهم حفرياتهم الأثرية، خلال الفترة من (١٩٢٣ ـ ١٩٢٨) في مناطق ملاصقة لبلدة القدس القديمة.

بعد ذلك، أمضى علما الآثار الفترة اللاحقة لاستيعاب، وهضم وفهم ما تم اكتشافه للوصول إلى مفاهيم أفضل حول تاريخ القدس، إلى أن بدأت فترة الحكم الأردني للضفة الغربية، وضمنها القدس (١٩٤٨ - ١٩٦٧)، فجاءت عالمة الآثار البريطانية، كاثلين كنيون، وترأست المدرسة البريطانية للآثار، ودرست ما تم التوصل إليه في أعمال من سبقها من علماء الآثار. وركزت اهتمامها على الحدود الشرقية للبلدة القديمة، ونقضت عددًا من الأفكار، والمعتقدات التي نشرها أولئك العلماء في كتابها الذي نشرته عام ١٩٦٧، بعنوان القدس ـ حفريات ٣٠٠٠ سنة، كما أنها لم تقدم شيئًا يدعم الإسرائيليين في دراستهم لآثار المنطقة الغربية من الأقصى المبارك، ويساعدهم على تحقيق هدفهم الرئيسي من تلك الحفريات، وهو تزوير التاريخ لإثبات ادعاءاتهم بوجود هيكل سليمان في مدينة القدس، ولعل ذلك ما دفعهم إلى القيام بتلك الحفريات دون الاستعانة بعلماء أوروبيين آخرين.

عقب حرب ١٩٦٧، فطنت إسرائيل إلى استحالة تمكنها من تزوير تاريخ المدينة العريقة، عبر علماء آثار أوروبيين، وحتى إن وجد بينهم من يساندهم فيما تحاول إثباته من خزعبلات، فبدأت بالقيام بذلك بنفسها، وقامت بحملات حفريات واسعة في أنحاء المدينة، مستغله بذلك تضاعف مساحة الأراضي التي اغتصبتها إسرائيل عقب هزيمة ١٩٦٧.

كان هدف السلطات الإسرائيلية، المتمثلة في سلطات الآثار، من كل هذه العمليات الحفرية هو طمس المعالم العربية والإسلامية، في محاولة لتزييف التاريخ، واستكمالًا لسياسة تهويد القدس القديمة وعبرنتها.

(٣)

● **المرحلة الأولى: من ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٠**: بدأت هذه الحفريات، في أواخر سنة ١٩٦٧، وهي مستمرة دون توقف، رغم قرارات مجلس الأمن، وهيئة الأمم المتحدة، واليونسكو، التي طالبت إسرائيل بإيقاف تلك الحفريات[٣].

لعل أهم تلك الحفريات التي أنجزت حتى الآن:

حفريات جنوبي المسجد الأقصى المبارك

بوشرت هذه الحفريات في أواخر سنة ١٩٦٧، وتمت سنة ١٩٦٨، على امتداد ٧٠ مترًا أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي، أي خلف المسجد الأقصى ومسجد النساء، والمتحف الإسلامي، والمئذنة الفخرية.

وقد وصل عمق هذه الحفريات إلى ١٤ مترًا، وهي تشكل، مع مرور الزمن، خطرًا يهدد بتصدع الجدار الجنوبي، ومبنى المسجد الأقصى المبارك الملاصق له. وقد مولت الجامعة العبرية هذه الحفريات، التي ترأس فريقها البروفيسور بنيامين مزار، ومساعده بئر بن دوف، ونشر أول تقرير عن نتائج التنقيب سنة ١٩٦٩. ويلاحظ خلال تلك الفترة

أن زيادة وتيرة الحفريات تزامنت مع تصاعد وتعملق المقاومة الفلسطينية، وهو ما يعتبر تصرفًا طبيعيًّا، للكيان الاستعماري لمواجهة خطر القضاء عليه من قبل المقاومة المتعاظمة. ومع بدء حرب الاستنزاف، بدأت حركة الحفريات في التراجع؛ لعل ذلك نتج عن قلق داخل الكيان الإسرائيلي، وترقب لغد غير واضح المعالم.

أما ما تم اكتشافه في هذه الحفريات فكان آثارًا إسلامية أموية (٦٦٠ ـ ٧٥٠م)، فضلًا على آثار رومانية، وثالثة بيزنطية، ولكن فرن أصر، في كتابه، على أن موقع الهيكل المزعوم هو نفس موقع المسجد الأقصى المبارك، وأن مدخله من الناحية الغربية، من جهة قوس روبنسون. وقد اختلف معه البروفيسور كوفمان فيما بعد، وقال إن مدخل الهيكل من الناحية الشرقية، في موقع الباب الذهبي [٤].

لقد جاء في التقرير المبدئي عن الحفائر في القدس القديمة، لبنيامين مزار، تركزت في المنطقة المفتوحة المعروفة بأرض «الخاتونية» التي يحدها من الشمال الجزء الغربي من السور الجنوبي لجبل الهيكل، ومن الشرق والجنوب الأسوار التركية، ومن الغرب البناء الذي يضم محكمة الاستئناف الحاخامية.

وقد تم تنظيف منطقة محدودة في الطرف الجنوبي من الحائط الغربي، من الحافة الشرقية لقوس روبنسون، إلى الحائط الشمالي، وكان الهدف من وراء ذلك هو حل المشاكل الطبوغرافية الأساسية في القدس القديمة، وتتبع النحو التاريخي للاستقرار في هذا الجزء من المدينة [٥].

تقع منطقة الحفائر المتعددة، كما يذكر الكاتب، تحديد أربعة عصور: الفترة العربية، الفترة الأموية، والفترة البيزنطية، والفترة من هيرود، إلى أن تم تدميره [٦].

ركز مزار اهتمامه على قاعدة إناء عثر عليه في هذه الحفائر كتب عليه بالعبرية كلمة «قربان»، وزود بصورتين لطائرين وحاول من خلالهم تزييف الواقع [٧].

تزامن مع إجراء تلك الحفريات بعض السياسات التي انتهجتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي من جهة، والمتطرفين اليهود من جهة أخرى، فعقب حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وبالتحديد في ٧/ ٦/ ١٩٦٧، قام الجنرال موردخاي غور في سيارة نصف مجنزرة بالاستيلاء على الحرم الشريف في اليوم الثالث من بداية الحرب. وفي اليوم نفسه صادرت السلطات الإسرائيلية مفاتيح باب المغاربة، ولم تعدها حتى الآن. وفي ١٥/ ٦، قام شلوموجورن (الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي) وخمسون من أتباعه بإقامة صلاة دينية في ساحة الحرم الشريف، وقال جورن: «إن بعض أقسام منطقة الحرم ليست من أقسام جبل الهيكل؛ ولذلك تحريم الشريعة اليهودية لا يشمل تلك المناطق» وأكد بأنه وصل إلى تلك النتائج، بعد القيام بقياسات وشهادات تستند على علم الحفريات، وفي ١٠/ ٩/ ١٩٧٦ قامت السلطات الإسرائيلية بإلغاء الرسوم المفروضة على زوار الحرم، وقد احتج المسلمون على هذا القرار، إلا أن وزارة الدفاع الإسرائيلية أشارت إلى أن إدارة الوقف الإسلامي تستطيع أن تجمع رسوم زيارة للمساجد[٨].

ومن الواضح أن إسرائيل كانت تريد من هذه الخطوة تحقيق هدفين، **الأول**: محاولة تقليص حجم الأموال التي تجمع لصالح إدارة الوقف الإسلامي، ومن ثم عدم توفير الأموال اللازمة لعمليات صيانة وترميم الحرم القدسي، **والثاني**: تمهيدًا لوضع يد إسرائيل على الحرم القدسي، ومن ثم تقليص المناطق التابعة للأوقاف الإسلامية، واقتصارها على المساجد، وذلك لتوفير مناخ لإجراء مزيد من عمليات الحفريات بعيدًا عن أعين المسلمين.

حفريات جنوب غرب الأقصى المبارك

تم هذا الجزء من الحفريات عام ١٩٦٩، وعلى امتداد ثمانين مترًا، مبتدئة من حيث انتهى الجزء الأول. ومتجهة شمالًا، حتى وصلت «باب المغاربة»، مارة تحت مجموعة من الأبنية الإسلامية، التابعة للزاوية الفخرية (مركز الإمام الشافعي، وعددها ١٤)، صدعتها جميعًا، ومن ثم أزالتها السلطات الإسرائيلية بالجارفات بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٦٩، وأجلي أهلها [٩].

يقول «مائير بن دوف»: إنه اكتشف أساسات ثلاثة قصور (أموية، اثنان منها متشابهان، والثالث يختلف قليلًا عن سابقيه). ويقول الأستاذ بنيامين مزار في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٥: إنه لا توجد أي بيانات عن آثار المدينة المقدسة، قبل هدم الهيكل الثاني، إلا في كتب المؤرخ اليهودي، جوسيفوس فلافيوس، الذي أرخ للفترة اليهودية، وكذلك في المشنة، والتوراة، والتلمود. وهذا يعني أن الأستاذ مزار قد استقى تخيلاته، التي نشرها عام ١٩٧٥، عن موقع الهيكل، في هذه المنطقة من هذه الكتب التي لا تتصف باستقلالية، بل تعبر عن آمال اليهود، دون الاستناد إلى حقائق تاريخية، موثقة علميًا، ويعترف مزار بأن مدينة القدس القديمة قد اختفت؛ لأن الأساس الصخري لتلك المدينة قد كشف بالحفريات الإسرائيلية الجديدة، ووجد هو نفسه أنه قطعت منه أحجار لأبنية حديثة [١٠].

إن هذا الاعتراف يتناقض،كليًا، مع الافتراضات والتخيلات التي نشرها عن موقع الهيكل الوهمي، والتي تفتقر إلى اللمسة العلمية، والحقيقة التاريخية.

لقد قامت السلطات الإسرائيلية، بالتزامن مع تلك الحفريات، بالاستيلاء على الزاوية الفخرية، التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية من ساحة المسجد، وذلك بعد أن تسببت الحفريات أسفلها بتصدعها، وقامت، بعد ذلك، بإزالتها. كما استولت تلك السلطات على المدرسة التنكزية، التي تعرف بالمحكمة، وتقع عند باب السلسلة، ويستخدمها جنود الاحتلال موقعًا عسكريًا لهم، ابتداء من ٢٤/ ٦/ ١٩٦٩، وبعد أقل من شهرين (٢١/ ٨/ ١٩٦٩)، اقتحم الإرهابي «دنيس دوهان» ساحات الحرم، وتمكن من الوصول إلى المحراب، وأضرم النار فيه في محاولة لتدمير المسجد، وأتت النيران على مساحة واسعة منه، إلا أن المواطنين العرب حالوا دون امتدادها إلى مختلف أنحاء المسجد [١١].

إلى جانب إعمال الحفر المختلفة التي قامت بها السلطات الإسرائيلية بالقدس وغيرها في المناطق المختلفة من فلسطين، ألحقت متحف الآثار الفلسطينية بمصلحة الآثار الإسرائيلية ووزعت مقتنيات المتحف المسجلة على المتاحف الأخرى، كما أن سلطات الاحتلال مسؤولة عن اختفاء ونقل مخطوطات البحر الميت من متحف فلسطين إلى أمكنة مجهولة [١٢].

بدأ الإسرائيليون بأعمال الحفر والتنقيب حول الحرم مدعين البحث عن الهيكل، فهذا الجيش الإسرائيلي يطالب بإقامة كنيس يهودي فوق ساحة المسجد الأقصى المبارك (١٩٦٩) وفي صبيحة اليوم التالي لاحتلالهم المدينة قاموا بهدم ١٣٥ منزلًا للمسلمين في حي المغاربة، بهدف توسعه منطقة حائط البراق «المبكى» توطئة إلى إعادة بناء الهيكل [١٣].

دمر الإسرائيليون الحي المغربي التاريخي تدميرًا كاملًا، والذي يرجع تاريخه إلى سنة ١٣٢٠م، ويؤكد ديفيد هوست مدمرون، والذي يقول:

«يدمرون سبعة قرون من تاريخ المسلمين ليقيموا منتزهًا أمام حائط المبكى» ومثل ذلك مقبرة ماميلا التاريخية التي تحتوي على عدد من قبور المسلمين الأنقياء والبارزين حيث جرفت البلدوزرات مساحة كبيرة منها، قلبت إلى موقف سيارات[١٤].

● **المرحلة الثانية**: من سنة ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٤: وقد تركزت تلك الحفريات في منطقة النفق الغربي[١٥]، وقد زادت في تلك المرحلة عملية الحفريات، ولعل أثر في ذلك عدة أسباب، أهمها: غياب جمال عبد الناصر، واندلاع حرب أكتوبر، ووقف إطلاق النار، وضرب المقاومة في غزة.

لقد أبدت «اليونسكو» قلقها من أعمال إسرائيل في القدس، منذ عام ١٩٦٨، ثم كرر المجتمع الدولي دعواه لإسرائيل بالتوقف عن الحفريات في القدس، وعن تغيير خصائص المدينة، أو شكلها التاريخي، والثقافي، ولكن دون جدوى[١٦].

لقد امتد النفق من أسفل المحكمة الشرعية (وهي من أقدم الأبنية التاريخية بالقدس)، ومر أسفل خمسة من أبواب الحرم الشريف هي: باب السلسلة، وباب المطهرة، وباب القطانين، وباب علاء الدين البصيري (المسمى بباب المجلس الإسلامي)، كما مر تحت مجموعة من الأبنية التاريخية، الدينية، والحضارية، ومنها أربعة مساجد، ومئذنة قايتباي الأثرية، وسوق القطانين (أقدم سوق أثري إسلامي في القدس)، وعدد من المدارس التاريخية، ومساكن يقطنها حوالي ٣٠٠٠ عربي مقدسي[١٧].

وصلت حفريات النفق إلى عمق تراوح بين (١١ - ١٤م) تحت الأرض، وطول حوالي (٤٥٠م)، وارتفاع وصل إلى ٢,٥٠ مترًا، ونتج عن هذه الحفريات تصدع عدد من الأبنية، منها الجامع العثماني، ورباط كرد، والمدرسة الجوهرية، والمدرسة المنجكية (مقر المجلس الإسلامي)، والزاوية الوقائية، وبيت الشهابي، ويمر النفق بآثار أموية، وبيزنطية، عبارة عن جدران وأقواس[١٨].

وحدثت اهتزازات مؤكدة للأرض فوق الأنفاق، كانت من المحتمل أن تضع العمارات بهذه المنطقة في خطر محقق[١٩].

● **المرحلة الثالثة : من حرب ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧**، بدأت تلك المرحلة بحرب أكتوبر، وانتهت بعقد اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، في ١٩/ ١١/ ١٩٧٧، كما شهدت توقيع اتفاقية فصل القوات الثانية في ٩/ ٥/ ١٩٧٧. وقد أخذت الحفريات الإسرائيلية بعدًا مختلفًا، فقد تسارعت معدلاته، واتسعت رقعته. فشهدت منطقة جنوب شرق الأقصى المبارك عملية حفريات بدأت في سنة ١٩٧٣، واستمرت حتى سنة ١٩٧٤، وامتدت إلى مسافة ٨٠ مترًا للشرق، واخترقت في شهر تموز/ يوليو ١٩٧٤ الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف، ودخلت إلى الأروقة السفلية للمسجد الأقصى المبارك، في أربعة مواقع:

(أ) أسفل محراب المسجد الأقصى المبارك، وبطول ٢٠م إلى الداخل.

(ب) أسفل جامع عمر (الجناح الجنوبي الشرقي للمسجد الأقصى).

(ج) أسفل الأبواب الثلاثة للأروقة، الواقعة أسفل المسجد الأقصى المبارك.

(د) أسفل الأروقة الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى.

لقد وصلت أعماق هذه الحفريات إلى أكثر من ١٣م، وأصبحت تعرض جدار الأقصى الجنوبي لخطر التصدع والانهيار، وبسبب العوامل التالية[٢٠]:

** قدم البناء.

** تفريغ التراب الملاصق للجدار من الخارج إلى عمق كبير، فأصبح هناك فرق كبير بين منسوبي الداخل والخارج.

** ارتفاع منسوب المياه الجوفية.

** ضجيج الطائرات الحربية، يوميًا، فوق المنطقة، واختراقها لحاجز الصوت، وهذه تؤثر على جميع المعالم الإسلامية الدينية، والتاريخية، بما في ذلك مبنى المسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة.

المرحلة الرابعة: من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٧: ولعل أهم ما شهدتة تلك المرحلة هو توقيع اتفاقية كامب ديفيد، والتي أعقبها حملة ضارية على المقدسات الإسلامية في مدينة القدس، مستندة إلى الالتزام بالاتفاقية من جهة واحدة، بعد أن أوهمت العالم بنيتها، ومساعيها للسلام.

● **الحفريات من (١٩٨١ إلى ١٩٨٤)**[٢١]:

٢٨/ ٨/ ١٩٨١ الإعلان عن اكتشاف نفق يمتد من أسفل الحرم القدسي، ويبدأ من حائط المبكى، وقد طلب كل من وزير الأديان السابق، أهارون أبو حصيرة، ووزير الدفاع، آرييل شارون، إحاطة الموضوع بسرية تامة، وأفادت التقارير أن السرداب قام بحفره حاخام حائط البراق (المبكى)، وعمال من وزارة الشؤون الدينية، وكان العمل قد بدأ قبل شهر، وكبير الحاخامات، شلوموغورن، يأمر بإغلاق الممر نظرًا لحساسية الموضوع.

● ٢٩/ ٨/ ١٩٨١: حذر البروفيسور يغئال ياديين، عالم الآثار الإسرائيلي، من الحفريات أسفل الحرم القدسي.

● ٣١/ ٨/ ١٩٨١: أدى استمرار الحفريات تحت المسجد الأقصى المبارك إلى تصدع خطير في الأبنية الإسلامية الملاصقة للسور الغربي.

● ١٢/ ٥/ ١٩٨٢: مراقب بلدية القدس الغربية يدخل المسجد الأقصى بمساعدة الشرطة للتأكد من ادعاءات عضو الكنيست غيئو لاكوهين حول وجود أبنية غير قانونية في المسجد الأقصى، حيث طالبت بناء على مزاعمها بفرض حظر على أعمال البناء والترميم في المسجد الأقصى.

● ١٢/ ٣/ ١٩٨٣: اكتشاف عدة فتحات جديدة تحت الحائط الجنوبي للمسجد، حيث يعتقد بأن المتطرفين اليهود قاموا بحفرها أثناء محاولتهم اقتحام الحرم الشريف.

● ٢٣/ ٤/ ١٩٨٤: الحفريات التي تجري بمحاذاة سور المسجد الأقصى الغربي قد أثرت على أساسات العمارات الإسلامية الأثرية الموجودة فوقها، مما أدى إلى تشقق العمارات وجدرانها، ومن ضمن هذه العمارات «دائرة الأوقاف الإسلامية»[٢٢].

● ٢/ ٣/ ١٩٨٧: أعلن الإسرائيليون بأنهم اكتشفوا القناة التي كان قد اكتشفها قبلهم الجنرال الألماني،

كونراد شيك، في القرن التاسع عشر بطول ٨٠م، ولم يكتف الإسرائيليون بإيصال النفق بالقناة، بل قاموا، بتاريخ ٧/ ٧/ ١٩٨٨، وتحت حماية الجيش، بحفريات جديدة عند ملتقى باب الغوانمة، مع طريق المجاهدين (أو طريق الآلام) واستخدموا فيها آلات الحفر الميكانيكية، بهدف حفر فتحة رأسية، ليدخلوا منها إلى القناة الرومانية، وإلى النفق، ولكن المواطنين المقدسين تصدوا لهم، ومنعوهم من الاستمرار، فاضطرت السلطات الإسرائيلية إلى إقفال الفتحة، وإعادة الوضع السابق[٢٣].

منذ ذلك الحين، والمعركة دائرة. وقد قامت سلطات السياحة الصهيونية بترتيب رحلات سياحية داخل هذه الأنفاق منذ عدة سنوات، وكانت تتقاضى عشرة دولارات للرحلة الواحدة، تبدأ من حائط البراق، وتنتهي عند الفتحة التي كانوا قد قاموا بفتحها مؤخرًا، والعودة عبر الطريق نفسه[٢٤].

أدت هذه الحفريات إلى زعزعة أساسات الأماكن الأثرية، وتصدعها، وهدمها فيما بعد.

لقد اعترف بذلك أحد مهندسي العملية ضمنيًّا عندما قال: إنهم يراقبون التشققات التي تحدث في الأبنية، ويعالجونها بطرق فنية[٢٥].

● **المرحلة الخامسة: من اتفاقية أوسلو ١٩٩٣: إلى الآن**، قد أخذت تداعيات أوسلو على مدينة القدس بشكل عام، وعلى الحفريات بشكل خاص، فقد تزايدت وتيرتها، وتصاعدت اعتداءاتها على المدينة المقدسة وسكانها، مستغلة الصمت الدولي حيال تلك السياسات الإسرائيلية.

● **الحفريات في المسجد الأقصى من (١٩٩٦ : ٢٠٠٠)**[٢٦]

● ٧/ ٧/ ١٩٩٦: حفريات إسرائيلية خطيرة تؤدي إلى اهتزازات في الحائط الغربي للمسجد الأقصى.

● ١٤/ ٩/ ١٩٩٦: فتح نفق تحت السور الغربي.

● ٢٨/ ١/ ١٩٩٧: استمرار الحفريات الإسرائيلية من الجنوب الغربي للمسجد الأقصى باتجاه الغرب، بارتفاع ٦- ٩ أمتار.

● ١٠/ ٨/ ١٩٩٩: قيام سلطات الاحتلال الإسرائيلي بإغلاق نافذة في جدار الأقصى القديم كانت قد فتحت ليتم عن طريقها التهوية، ومعالجة الرطوبة.

● ٣١/ ٨/ ١٩٩٩: الكشف عن مخططات إسرائيلية لهدم القصور الأموية المحاذية للمسجد الأقصى، وتوسيع حائط البراق، المبكى، بقصد تهويد المكان، وتخريب المعالم الإسلامية.

● ١٣/ ٩/ ١٩٩٩: الحكومة الإسرائيلية تبحث خططًا لفرض هيمنتها على الحرم القدسي الشريف، مثل استبدال حراسة الشرطة بوضع أبواب إلكترونية وسياج مكهرب.

● ٣/ ١٢/ ١٩٩٩: السلطات الإسرائيلية تهدد بقطع المياه عن الأوقاف الإسلامية بسبب أعمال الترميم في الحرم القدسي الشريف.

● ١١/ ١/ ٢٠٠٠: المحكمة العليا الإسرائيلية ترد التماسًا تقدمت به مجموعة ما يسمى «أمناء جبل الهيكل»، لوقف أعمال الترميم في المسجد الأقصى، وأكدت المحكمة في قرارها بأن المستوى السياسي هو المسؤول عن البت في قضايا المسجد الأقصى المبارك.

● ١٢/ ١/ ٢٠٠٤: «مؤسسة الأقصى» تكشف عن مخطط إسرائيلي بحفر نفق جديد يمر تحت ساحة البراق، وتحت باب المغاربة، ومنه إلى الحائط الجنوبي لحرم المسجد الأقصى، وسيشكل النفق امتدادًا للنفق الأول، الذي تم شقه عام ١٩٩٦، أسفل حائط البراق، وطريق الآلام بالمدينة المقدسة[٢٧].

● ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦: كشفت «مؤسسة الأقصى» عن نفق أرضي، يحفر تحت مسجد عين سلوان، والروضة المجاورة، بعمق أكثر من ١٢ مترًا، نفق يكشف أوله، أما امتداده فمخفي بحاجز خشبي. تشعُّب هذه الأنفاق وعمقها أدى إلى انهيار ترابي كبير تحت ساحة مسجد عين سلوان. كما رصدت المؤسسة عمليات الحفريات، تدعي إسرائيلي بأن أرضية النفق المذكور هو جزء من الطريق الهيروديانى، والذي تدعي إسرائيل بأن استمرار عملية الحفر فيه كشف عن آثار للتاريخ العبري المزعوم، من عهد الهيكل الأول والثاني [٢٨].

● ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٦: اكتشفت «مؤسسة الأقصى»، وجود تشققات خطيرة في الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى، من جانبي المدرسة الختنية. أكدت المؤسسة بدايات لانهيار ترابي أسفل المنطقة الوسطى للجدار الجنوبي للمسجد الأقصى، حيث المدرسة الختنية، وأضافت المؤسسة، ومن خلال رصدها خطورة الوضع، خاصة وأن السلطات الإسرائيلية التي تسيطر على الموقع قامت بنصب سياج حديدي في المنطقة، ونصبت لافتة منعت فيها الاقتراب من الموقع لخطورته [٢٩].

● ١٠/ ١/ ٢٠٠٧ : **تواصل الحفريات في منطقة حمام العين** :

رصدت «مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية» حفريات واسعة تجريها جمعية «عطرات كوهانيم» اليهودية، بواسطة سلطة الآثار، في منطقة حمام العين، وهي المنطقة الموجودة نهاية شارع الوادي في البلدة القديمة بالقدس، وتبعد أمتارًا عن مدخل حائط البراق، والجدار الغربي للمسجد الأقصى المبارك، وتتسع الحفريات يومًا بعد يوم [٣٠].

لقد لوحظ، في خلال زيارة ميدانية للموقع، بأن الحفريات الإسرائيلية عميقة جدًا، يتجاوز عمقها الـ٢٥ مترًا تحت الأرض، وبعرض يتجاوز ٣٠ مترًا، باتجاه جنوب شمال، وبطول لا يقل عن ٤٠ مترًا باتجاه باب المطهرة، وهذه الحفريات لا تبعد سوى أمتار قليلة عن باب المطهرة، وأسوار المسجد الغربية [٣١].

● ١٥/ ١/ ٢٠٠٧ : **حفريات إسرائيلية جديدة أقصى ساحة البراق «حارة المغاربة»**:.

لاحظ طاقم المؤسسة بأن السلطات الإسرائيلية، متمثلة بسلطات الآثار الإسرائيلية، تقوم بعملية حفريات واسعة بالمنطقة، وعلى مساحة واسعة، حيث ظهرت، وبشكل واضح، آثار لمبان عربية، وإسلامية كثيرة، من حقب تاريخية قريبة وبعيدة المدى، من الفترة العثمانية، والعهود الإسلامية التي سبقتها، كالفترة المملوكية، والأيوبية، وكان الموقع يزدحم بعشرات الحفارين. وخلال أيام معينة من عمليات الحفر شاركت آليات حفر ثقيلة، كالجارفات،

والشاحنات، بعمليه الحفر، وترافقت عمليه الحفر بإزالة، وتفريغ المنطقة من مئات، إن لم يكن الآلاف من أكوام الأتربة [٣٢].

● ٢٨/ ١/ ٢٠٠٧: قامت جمعية ألعاد الإسرائيلية، وبواسطة سلطة الآثار الإسرائيلية، بحفر نفق جديد بدأ من أسفل منطقه عين سلوان، يمر بمحاذاة مسجد سلوان، وتحت أرض وقفية مسيحية، واتجه النفق شمالاً باتجاه السور الجنوبي للمسجد الأقصى المبارك، ومن المفترض، حسب ما علمت «مؤسسة الأقصى»، أن يتواصل حفر هذا النفق مئات الأمتار حتى يصل إلى الزاوية الجنوبية الغربية من المسجد الأقصى، أسفل المتحف الإسلامي، الواقع داخل المسجد الأقصى المبارك[٣٣].

منذ بدء الحفريات الأثرية في المدينة المقدسة لاقت المعارضة الشديدة من أطراف إسلامية، ومنظمات دولية، ومن الذين لم يقبلوا أعمال الباحثين الإسرائيليين في القدس، بغض النظر عما وجدوا من الآثار. وفي كثير من الأحيان كانت هذه المعارضة شديدة، وصلت إلى مواجهات، عندما يشتد التحريض. كل هؤلاء المعارضين للحفريات أبدوا تخوفهم من هدم الأسوار، والمساجد في الأقصى.

لم تنته الحفريات الأثرية بهذه المنطقة، ففي العامين الأخيرين قامت سلطة الآثار بحفريات أثرية واسعة في ساحات البراق، وأنحاء المدينة المقدسة، والتي يتضح منها هدف تلك الحفريات الرئيسي، وهو فرض سياسة الأمر الواقع مستبقة أي اتفاق سياسي مستقبلي، قد يعطي للعرب الفلسطينيين أي حقوق في المدينة، بأن تصبح المناطق الأثرية المهمة بالمدينة قد خضعت بالفعل لعمليات إزالة وهدم، ومن ثم سهولة ادعاء يهوديتها.

وبعد، فهل يمكن حماية القدس ومقدساتها بالصدور العارية للمقدسيين وحدهم؟! وهل يستطيع الأخيرون رد الهجمة الإسرائيلية بصدورهم العارية، دون الرمح العربي، والدرع الإسلامي؟! وإلى أي مدى يمكننا الاعتماد على توعد بعض حكام العرب لإسرائيل، بالويل والثبور، وعظائم الأمور، إن هي أقدمت على هدم الأقصى؟ أم أننا سنسمعهم عندها، يقولون: «للأقصى ربٌّ يحميه»!

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة، مدينة التاريخ والمقدسات**، سلسلة «هوية المكان»، القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٢) المهندس رائف يوسف نجم، الحفريات الأثرية في القدس، مقدمة **لندوة القدس ٥٠٠٠ عام**، تموز/ يوليو ١٩٩٧ ص ١.

(٣) **تقارير مؤسسة إعمار الأقصى**، بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠٠٧.

(٤) دراسة الحفريات الأثرية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١ ، ٢.

(٥) عبد الحميد زايد، **القدس الخالدة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسله تاريخ المصريين، ٢٠٠٠، ص ٢٨٣.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٤.

(٨) **الأقصى في خطر/ الاعتداءات على المسجد الأقصى المبارك وباب المغاربة**، القدس المحتلة، مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، د.ت، ص ٤-١٥.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ١٥.

(١٠) يوسف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣.

(١١) **الأقصى في خطر**، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١.

(١٢) زايد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٦.

(١٤) هنري كتن، **القدس**، ترجمة إبراهيم الراهب، ط١، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص٦٩.

(١٥) نجم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣.

(١٦) كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩.

(١٧) نجم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤.

(١٨) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(١٩) كتن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٠.

(٢٠) نجم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤.

(٢١) مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، **تقرير عن الاعتداءات الإسرائيلية على المسجد الأقصى**، من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٨٤، د.ت.

(٢٢) نجم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥ -٦

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص٧.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص٨.

(٢٥) **القدس أمانة في عنق كل عربي ومسلم**، حقائق ومعلومات، إصدار لجنة القدس، الندوة السابعة، عمان، (٥ ـ ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦، ص ٧.

(٢٦) مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، **تقرير عن الاعتداءات على الحرم القدسي في الفترة من (١٩٩٦ إلى ٢٠٠٠)**، آذار/ مارس ٢٠٠١، القدس المحتلة.

(٢٧) **الأقصى في خطر**، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٣.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٤٤.

(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٤٥.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٤ -٤٥.

(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٤.

* * *

obeikan.com

الفصل الرابع

هيكل سليمان والبحث عن السراب

أحمد الدبش

لما كان داود وسليمان التوراة يشكلان مرتكزًا وأساسًا للمزاعم الصهيونية، ولما كان ينظر إليهما، كما هو الحال، كجدٍّ للصهيونية المعاصرة، فيجب توضيح أن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن المملكة الداودية ـ السليمانية ليست ذات أهمية تاريخية وأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك. فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب، في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، أشار إلى «إعادة بناء الدولة اليهودية ـ re-establishment of the Jewish state»، وما هذا التعبير إلا صياغة لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عامًا من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين».

إن الباحثين التوراتيين، وكذلك علماء الآثار، قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها داود وابنه سليمان وتصوروا أن هذه المملكة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك «الحقيقة» المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية، خلال معظم القرن العشرين، وأتاحت مجالًا لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه «الحقيقة» المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني وثقافته، مع إغفال التاريخ الذي بقي آلافًا من السنين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

في ذلك يقول أحد العلماء الغربيين: «إن علم الآثار في فلسطين شدد على مواقع العهد القديم. إن العهد القديم، وبالتالي التاريخ اليهودي القديم في فلسطين (كما هو مصور في التوراة) هو الذي سعى اللاهوتيون إلى إثبات صحته.

وحتى أولئك المسيحيون، الذين اعتبروا فلسطين وطنًا ليسوع، كانوا سيجدون أنفسهم، جراء اتباعهم تغطية علم الآثار في فلسطين، أنه قد تمت إعادة توجيههم نحو فلسطين الملكين داود وسليمان، وخلفائهم ما قبل المسيحية، رغم بقائها ذات أهمية دينية. ففيما سعى الصهاينة ماديًا إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي، ساهم عمل علماء الآثار في تحويل فلسطين ، على الصعيد النفسي، إلى أرض يهودية»[1].

شبح داود وعفريت سليمان

من القضايا المهمة، التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحيانًا كثيرة المغالاة فيها، موضوع «المملكة الداودية ـ السليمانية»، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين، وساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة الممتدة من (٩٦٠ ـ ٩٣٠ ق.م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب. وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان، واعتباره «العصر الذهبي الإسرائيلي»، والإشادة بما يقال عن إنجازات عصرهما، الثقافية، والعمرانية، والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور على أثر واحد، على الأقل، يعود إلى تلك المرحلة، عمرانيًا كان أم توثيقيًا، أو نقشًا، أو ما إلى ذلك. لكن الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، على المملكة الداودية ـ السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان، وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. مما يعطي الحق للباحث أن يطرح تساؤلات، في حالة انعدام الوثائق والبيانات. فالمملكة الداودية ـ السليمانية المزعومة التي قيل إنها تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين، كما يزعم بعض الباحثين الغربيين، ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، لا بد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة، وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن، آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الداودية ـ السليمانية ؟!

إذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان، فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علمًا بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفًا تاريخيًا للمرحلة نفسها.

يعلن أمنون بن ثور، عالم الآثار في الجامعة العبرية، أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان، إلا هنا[2].

في السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الداودية ـ السليمانية يتداعى تدريجيًا، وإن كانت هذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن وحراسه من بعض الأكاديميين العرب. فقد أصدر ليتش نقدًا معتدلًا في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية، من منظور أنثروبولوجي بنيوى. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصًا مقدسًا، لا يوفر مصدرًا تاريخيًا ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند ليتش تبريرًا للماضي، يكشف عن عالم القصّاصين، أكثر مما

يكشف عن أية حقيقة تاريخية. ويطرح أسئلة مهمة جدًّا، تثير شكوكًا حول التقديمات السائدة لحكميْ داود وسليمان، وتساءل عن تاريخية هذه المرحلة المهمة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ وهذا أمر غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين «البطلين»، أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضًا، بالتأكيد[٣].

ما قاله العالم روني ريك في هذا الصدد: «آسف، إن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة»[٤].

لعل السمة الأكثر إدهاشًا في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي أسهم، بشكل أساسي ضمن مشروع، وتحديدًا بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابة التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح «غاريبي»، و «ليتش»، و «فلاناغان» بأن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية، بوصفها تعبيرًا عن ثقافة حضارة نهضوية، ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع[٥].

يشير مِلَّر إلى أنه ليس هناك دليل على المملكة الداودية ـ السليمانية خارج التقاليد، والموروثات الكتابية، والمؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون، مسبقًا، صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري[٦].

شكك عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة «جيروساليم ريبورت» الإسرائيلية وفيه أوضحت وجهة نظر «فنكلشتاين»، الذي أكد أنه لا يوجد أساس، أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب، الذي اتخذ من القدس عاصمة له، والذي سيأتي (الميا) من صلبه، للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكدًا أن شخصية داود، كزعيم يحظى بتكريم كبير، لأنه وحَّد مملكتي يهودا وإسرائيل، هو مجرد وهم وخيال، لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل ـ وهو سليمان بن داود ـ مشكوك فيه أيضًا [٧].

يقول العلاّمة طمسن، عالم الآثار والتاريخ الأمريكي : «جرى تقديم [القرن العاشر ق.م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل، وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة، التي تضم السلطة السياسية لشاؤول، وداود، وسليمان، وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل، الذي بناه سليمان، بوصفه مركزًا لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها، فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاؤول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلًا على وجود هيكل في أورشليم، في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا، بوصفه فجوة في معرفتنا، ومعلوماتنا، حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع، ولا سياق، لا شيء مصطنع، أو أرشيف، يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم عن دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية [٨].

إذن، لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاؤول، وداود، وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها، هي عالم خيالي، من زمن غابر، لم يوجد على هذا النحو أبدًا. لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاؤول، أو لأي داود، ليكون ملكًا عليها، ببساطة، لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة، بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين، كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصاديات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحدًا بكثير مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن، تاريخيًا، عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقًا، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قرونًا عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية، المتمتعة بالحكم الذاتي[٩].

إن الصورة التقليدية التي تقدمها «أسفار العهد القديم» عن أورشليم، مطلع العصر الحديدي الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات، وقصور، ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. وفي المقابل، فإن مؤلفات صدرت حديثًا لطمسن، وديفيد جميسون درايك، ترى بأن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من بلدة صغيرة، لعبت دور السوق المحلي للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت، حتى الآن، لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة، تشغلها بصورة رئيسية، الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن ٣٠ أكرًا، ولم يسكن فيها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة، تحتوي على أبنية عامة، ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة؛ لأن بلدة عصر البرونز الوسيط، لم تكن قائمة، خلال عصر البرونز الأخير، وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة[١٠].

يقول عالم الآثار الإسرائيلي أ. فنكلشتاين والمؤرخ الأمريكي ن. سلبرمان: «وكما رأينا، فإنه لا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة، اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم»[١١].

لقد انزعجت مجلة bar الأمريكية من هذا الاتجاه؛ لأنها متخصصة في الدعاية لإسرائيل، خاصة في مجال الحفريات، فجمعت العلماء من الاتجاهين المختلفين. حيث كان يمثل مدرسة كوبنهاجن، شيفلد الأستاذان: طمسن، وليتش، وكلاهما من جامعة كوبنهاجن.وكان يمثل الطرف الثاني: الأستاذ وليم ديور، من جامعة أريزونا، وهو يعتبر ذا شهرة عالمية في مجال دراسة الآثار في فلسطين. والأستاذ كائل ميك آرثر، من جامعة جون هوبكنز. ونشرت المناقشات التي دارت بين الفريقين على صفحات مجلة bar نفسها في يوليو/ أغسطس ١٩٩٧.لقد نفى طمسن أن تكون أوروشليم عاصمة للمملكة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد ذكر الباحث الإسرائيلي إسيكشن، وثنى عليه فينكلشتاين، أيضًا، بأنه لا يوجد في الحفريات البقايا من الأواني الفخارية، من القرن العاشر قبل الميلاد، أي من عصر داود وسليمان، ولذلك استنتج ليتش بأن داود الملك، المذكور في العهد القديم، لا يمكن إثباته تاريخيًا.

فقال ديور، في مناقشته: لم لا تقول إنه من الممكن أن يكون، ومن الممكن كذلك أن لا يكون؟ رد ليتش: لأن العهد القديم يصوره إمبراطورًا، كان يحكم من الفرات إلى النيل، وقد أضاف سليمان إلى هذه الإمبراطورية مساحات أخرى؛ لذلك لا يمكن أن يكون داود شخصية تاريخية.ووافق ديور نفسه على هذا القول، واتفق مع ليتش بأنه لا يوجد داود وسليمان بهذا المفهوم [١٢].

في استعراض «غبريل باركاي ـ Gabriel Barkay» أستاذ الآثار في جامعة بار إيلان قرب تل أبيب لآثار فترة العصر الحديدي الثاني، يتوصل إلى الاستنتاج بأن «التحديد الدقيق لتاريخ طبقات التوطين، ومجموعات اللقى، العائدة للقرنين العاشر والتاسع قبل التاريخ الشائع محفوف بالمصاعب». كما اضطر باركارى لأن يستنتج بأن (فكرة المجد)، التي تنبثق من الروايات الكتابية، لا تتطابق مع «الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية»[١٣].

والخلاصة، أن الأثريين لم يتمكنوا من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني، وسفر الملوك الأول، بأن الملك داود أقام إمبراطورية امتدت بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود ٣٠٠ موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية ـ السليمانية ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين، أفلا ينجم عن ذلك القول بأن البحث عن المملكة الداودية ـ السليمانية قد تم في المكان الخاطئ؟ فهل كانت اليمن الموطن الأصلي لداود وسليمان أو ما يعرف بالمملكة الداودية ـ السليمانية؟[١٤].

البحث عن هيكل سليمان

يتحدث كاتبو سفر الملوك الأول (٦: ٢ ـ ٩) عن بناء هيكل سليمان، قائلين: «فأرسل سليمان إلى حيرام (ملك صور) يقول: أنت تعلم داود أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتًا لاسم الرب، إلهه، بسبب الحروب التي أحاطت به، حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه، والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا حادثة شر، وها أنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب إلهي. والآن، فأمر أن يقطعوا لي أرز لبنان، ويكون عبيدي مع عبيدك، وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول، لأنك تعلم أن ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب، مثل الصيدونيين. وأرسل حيرام إلى سليمان، قائلًا: قد سمعت ما أرسلت به إليَّ، وأنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو. وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعامًا لبيتي».

لكن، لنتوقف قليلًا أمام أبعاد هذا الهيكل (بيت الرب)، «والبيت الذي بناه سليمان للرب طوله ستون ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا، وسمكه ثلاثون ذراعًا» سفر الملوك الأول (٦:٢).

إذا علمنا أن الذراع الإسرائيلي القديم يساوي ٥٢ سم، فإن طول المعبد يصبح ٣١,٥ مترًا، وعرضه ١٠,٥ متر، وارتفاعه ١٥,٥ متر. وبعد أن تم بناء بيت الرب، «حينئذ، جمع سليمان شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط، رؤساء الآباء من بني إسرائيل إلى الملك سليمان في أورشليم، لإصعاد تابوت العهد الرب من مدينة داود، هي صهيون. وجاء جميع إسرائيل؛ وحمل الكهنة التابوت. وأدخل الكهنة التابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت

في قدس الأقداس، إلى تحت جناحي الكروبيين. ثم إن الملك، وجميع إسرائيل معه، ذبحوا ذبائح أمام الرب. وذبح سليمان ذبائح السلامة التي ذبحها للرب: من البقر اثنين وعشرين ألفًا، ومن الغنم مائة ألف وعشرين ألفًا، فدشن الملك جميع بني إسرائيل، بيت الرب» سفر الملوك الأول (١: ٨، ٣، ٦، ٦٢ ـ ٦٣).

غني عن القول بأن التفاصيل الواردة في سفر الملوك الأول تتسم بالحماقة والمبالغة. ولن يلبث هذا الوصف، المدعو بالإلهي، أن يتلاشى كالثلج تحت أشعة الشمس، إذا ما خضع لنقد يتمتع بهذا القدر من الجدية، أو ذاك. لقد عمل في بناء المعبد ١٨٣,٣٠٠ عامل، ما عدا الحجارين، والعمال الآخرين، الذين يظهرون، فيما بعد. وطول المعبد ليس أكثر من ٣١,٥ متر، وعرضه ١٠,٥ متر. وقد صرف هؤلاء البنائيون سبع سنوات على تشييد مبنى مؤلف من ثلاث غرف، ويشغل مساحة لا تزيد على ٣٢٥ مترًا مربعًا. إنها أرقام تجعلنا نصاب بالذهول، إذا ما كانت لدينا فكرة بدائية جدًّا عن أعمال البناء. فهل كان عمّال سليمان كسالى إلى هذا الحد؟!

مع ذلك فإن أبعاد البناء التي يذكرها سفر الملوك الأول، لا تتوافق مع تلك التي يذكرها سفر الأيام الثاني (٣ ـ ٤). ويكفي وجود مثل هذا الاختلاف في كتاب يُزعم أنه «مقدس»، ليخلق لدينا الشك، هذا إذا لم يكن النص كله مجرد هراء لا طائل منه. أضف إلى هذا، أن وصف البناء الداخلي يثير مزيدًا من السخرية، عدا أن الطابق السفلي أضيق من العلوي بمتر كامل، وهذا بحد ذاته أمر مذهل! وتلك النوافذ الجانبية، الواسعة من الداخل، والضيقة من الخارج، فيا له من اختلاق واسع رحب؟!

لنتوقف هنا قليلًا لدراسة هذه النصوص دراسة آثارية، وتاريخية، وجغرافية:

ـ إذا عدنا إلى النص التوراتي ذاته لوجدنا أن التوراة تتحدث عن (صور) أخرى، فقد جاء في سفر حزقيال: «وكان إلى كلام الرب قائلًا: وأنت يا ابن آدم، فارفع مرثاة على صور. وقل لصور أيتها الساكنة عند مدخل البحر، تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة» سفر حزقيال (١٧: ١ ـ ٣) ويذكر السفر من يتاجر مع (صور): العرب، وكل رؤساء قيدار، وحرَّان، وكنَّة، وعدن، وتجار شبا، وأشور، وكلمد. وهذه الأسماء تقع على ممر التجارة، بين بابل واليمن، بني قيدار في مكة، وحرَّان، وكنَّة، وشبوة، شمال عدن. إذًا، صور التوراتية ليس المقصود بها صور، المدينة اللبنانية الشهيرة، ولكن ماذا قُصد بـ (صور) في هذا النص ؟ لن نكرر ما قلناه من أن مسرح التوراة في اليمن.

ـ **فمن الناحية الآثارية**، ليس في آثار بلادنا فلسطين كلها أية إشارة إلى وجود مثل هذا الهيكل المزعوم، وهذا أمر معروف، تمامًا، لدى أهل الاختصاص من علماء الآثار، الذين طالما حاولوا العثور على أثر واحد في موقع الحرم الشريف بالقدس، حيث كان يقوم هيكل هيرودس الفلسطيني، فلم يفلحوا، ولن يفلحوا، لأبسط الأسباب، وهو أن سليمان لم يملك، يومًا، على بلادنا فلسطين، بل ليس هناك أقل دليل على أنه وطئ أرضها، في زمانه. وأعود لطرح هذه المعضلة على أهل الاختصاص، لماذا فشلت جميع المساعي للبحث عن دليل أثري واحد يثبت وجود هيكل سليمان المزعوم أسفل الحرم الشريف بالقدس، وبالتحديد تحت المسجد الأقصى؟! وباعتبار أننا نعثر في بلادنا فلسطين عامة على آثار من العصور الحجرية القديمة، تعود إلى نحو مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنة خلت، ونعثر في القدس على آثار تعود إلى اثني عشر ألف سنة خلت. فإننا نتعجب من عدم وجود أدلة أثرية على وجود هذه النفايات البشرية وهيكلهم المزعوم.

ـ **من الناحية الإسلامية**، لا نجد في كل سور القرآن الكريم، التي تتحدث عن داود وابنه سليمان، أقل دليل، أو حتى تلميح على وجود مثل هذا الهيكل المزعوم في بلادنا فلسطين، علاوة على ذلك عندما فتح المسلمون بيت المقدس (٦٣٦ ميلاديًا) لم يكن بها أي أثر لمعبد يهودي، بل حتى ليهودي مقيم، وهذا يبدو جليًا من وثيقة الأمان التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهل إيليا، فقد تضمنت الوثيقة نصًا على: [ألا يسكن بإيليا (القدس) معهم أحد من اليهود]. ويتضح جليًا من هذا النص أنه لم يكن هناك أي أثر يهودي في القدس؛ إضافةً إلى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وهو أكثر العادلين على وجه الأرض، لو علم أن هناك قدسية لمدينة القدس عند اليهود لما نص على ذلك في «العهدة الشهيرة»، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من عدم وجود هيكل سليمان المزعوم في بلادنا، فلسطين.

ـ **أما من الناحية التاريخية**، فإننا لم نعرف ملكًا حكم مدينة صور اللبنانية باسم «حيرام»، ولو أننا أشرنا إلى ذلك، لكننا نشير ههنا إلى أن المقصود بـ (صور) التوراتية منطقة ما في الجزيرة العربية، فعند التطلع للخارطة العربية تفاجئنا العديد من المناطق التي تسمى بـ (صور)، فهناك قلعة ومرفأ صور في عُمان على مدخل الخليج[١٥]: «صَور: (بفتح فكسر): قرية في جبل (ذَرى) أحد جبلي شهارة الواقع شرقي مديرية (صُوَيْرٌ) من بلاد حَجَّة» [١٦] ولكن أهم تلك المواقع المحتمل أنه هو المقصود بـ (صور)، هو (صور) التي في عُمان التي تقع على الخليج العربي.

ـ أما قصة بناء الهيكل التوراتية فإنها إن حدثت فعلًا، فقد حدثت في إطار الجغرافية اليمنية، قد يثير هذا الرأي استغراب البعض من أصحاب، وحراس الفكر الآسن في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا، لكنها الحقيقة، فقد ذكرت التوراة في أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثاني: أن سليمان شرع ببناء بيت الرب في أورشليم، في جبل المريا، فأين جبل المريا هذا؟! إنه، في الواقع، بقي لنا من الجزر الواقعة الآن بحذاء شاطئ اليمن من المحيط الهندي، هذه الجزر تسمى (جزر خوريا موريا) مجموعة جزر عائمة، الآن، في المحيط الهندي بالقرب من ظفار باليمن بحذاء الشاطئ اليمني، تشكل ما كان قديمًا يسمى (جبل موريا)، ويكفي أنها ما زالت تحمل الاسم نفسه (المريا). وهذا الجبل دك بفعل حادث زلزالي رهيب نثره في المحيط إلى قطع متناثرة، على ما نراه اليوم. المهم أن سليمان اختار جبل المريا لبناء بيت الرب، وكلفه الكثير، وأحضر له حزم الخشب، والعبيد، والصنَّاع المهرة من الفنيين، هذا عدا أساطير الجن، والأشباح التي اشتركت في عمل البيت، وليت سليمان ما استخدم الجن؛ لأنها كما شيدته خسفت به الأرض في ليلة من الليالي السوداء اكفهرت السماء ونزل البرد والحجارة والنار والدمار على جبل المريا ومنه البيت، وتفتت الجبل بالبيت الذي بناه سليمان إلى المحيط الهندي في شكل جزر منمنمة، ولكنها وقفت راسخة كعلامة تاريخية مهمة لتعلن لنا الخبر أخيرًا أن هنا كان هيكل سليمان؟![١٧].

هل كانت (أورشليم) في اليمن؟!

بعد أن استطعنا، إلى حد بعيد، تحديد مكان الهيكل السليماني المزعوم، نتساءل: هل كانت أورشليم في اليمن؟! أود أن أوضح، أولًا، أن اسم (أورشليم) الذي يطلق اليوم تعسفًا على القدس هو إطلاق غير تاريخي. قد ينتقدنا السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي، بقولهم: وماذا عن اسم (أورشليم) في نصوص مصر ـ وادي النيل؟! أقول: إن جميع الأسماء التي أطلقت على مدينة القدس، قد وردت، بصيغ متعددة، في مواد العهد القديم، فقالوا بأن اسمها الأول

كان (يبوس). ثم صار اسمها (أورشليم)، بصيغ متنوعة، ثم مدينة داود، صهيون، وهناك اتفاق بين الباحثين على أن أول ذكر لمدينتنا الخالدة القدس خارج التوراة قد ورد في «نصوص اللعنات المصرية »، وهي نصوص كانت تنقش على جرار فخارية، ويُذكر فيها أسماء البلدان المعادية وقادتها، ثم تكسر الجرار، بعد ذلك، في سياق طقس سحري، يهدف إلى جلب الأذى على الأسماء المذكورة. وترجع نصوص اللعنات بتاريخها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد كتبت هذه النصوص على آنية من الفخار، وعلى بعض الدمى، بالخط الهيراطيقي، ومثّلت هذه الدمى أسرى موثقين، كُشف عنها في سقارة وطيبة. وهي محفوظة في كثير من المتاحف في أنحاء العالم، ويوجد منها نماذج في متحف القاهرة، والأسماء التي وردت في هذه النصوص: مصرية، ونوبية، وسورية (آسيوية)، ويقول أحد النصوص، بعد ذكره لاسم الشخص الملعون وأسرته مع حلفائهم والمشتركين معهم، الذين يثورون، أو يتآمرون، أو يقومون بالحرب، أو يفكرون بالثورة في جميع أنحاء البلاد، أو جميع الرجال، وجميع الناس، وجميع الشعب، وجميع الذكور، وجميع الخصيان، وجميع الذين يحاولون الثورة، أو التآمر، ويفكرون بالحرب. وكل كلمة شر، وكل مقالة سوء، وكل مؤامرة. وبعد كتابة الأسماء والمطالب، كان المصريون القدماء يكسرون هذه القطع الفخارية، وكأنهم كانوا يعتقدون أنه يمكن بهذه الواسطة إحباط أي عمل عدواني ضد مصر. ورواسب هذه العادة ما تزال تمارس، حتى الآن، في مصر، وبلاد الشام، وكان لها مثل فعل السحر، وتأثيره، وذلك مع الاعتقاد بأن الحرف هو كائن حي.

إن الكلمة التي وجد فيها الباحثون إشارة إلى (أورشليم) هي (Rw'szmm) الهيروغليفية. فقد قرئت الكلمة على أنها اسم مكان، ورُجِّح أن طريقة لفظها هي الطريقة المصرية للفظ كلمة «أورشليم»، التي كانت بالنسبة إليهم اسمًا أجنبيًا لبلد أجنبي يُقرأ على نحو يشبه (أ) رو ـ شاليموم (Urushalimum)، وهي قراءة قريبة من قراءة وثائق تل العمارنة، اللاحقة للاسم، ولكن هذه القراءة لقيت معارضة من الباحث الإسرائيلي ناداف نعمان (N. Na'aman)، الذي رأى أن الشطر الأول من الكلمة يجب أن يقرأ روش (ros) ويعني رأس. أما الشطر الثاني فيقرأ راميم، لتصبح الكلمة «روش ـ راميم» (Roshramem)[١٨].

يلفت الباحث المرموق في التاريخ، الأستاذ سهيل زكار، في جامعة دمشق، إلى «أن الباحثين الغربيين أقدموا فورًا على القول بأن (أشام م) هي مدينة (أورشليم)، وفي هذا تدليس مكشوف؛ لأنه من الواضح أن الذي قصد بـ(أشام م) هو بلاد الشام، التي من خلالها غُزيت مصر، دومًا، متذكرين أن تاريخ نصوص اللعنة يتزامن مع بدايات ظهور الهكسوس في مصر» [١٩].

علينا البحث، إذًا، في الجغرافية اليمنية عن أورشليم، ووفق قناعتي فإن اسمها العربي مكون من اسمين: أور ـ شليم/ سليم، ومعناهما مقام، أو محبس سليم، أو شليم » سلم: فعل بفتح الفاء، وسكون العين بالتصغير، سليم حي من اليمن من جذام، بنو سلمة بطن من الأنصار، وبنو سلمة، أيضًا، بطن من خولان » [٢٠].

لقد روى «الهمداني» نقلًا عن «ابن لهيعة»، أنه: لما أصاب داود (عليه السلام) الخطيئة أعمل الاختلاف إلى غيران العباد، حتى وقع على حراء، جبل العباد، فأوحى إليه أن يدخل إلى غار بالقرب منه، فهبط إليه داود (عليه السلام)، فإذا فيه ميت مسجى، وإذا عند رأسه صفيحة من نحاس مكتوب فيها: أنا ذو شلم الملك ملكت ألف سنة، وافتتحت ألف مدينة، ونكحت ألف عاتق، ثم صرت إلى الأرض فراشي التراب، ووسادي الحجر، وجيراني الدود، فمن رآني فلا يغتر بالدنيا بعدي[٢١].

لقد ذكرت التوراة في العديد من المواضع اسمًا آخر لأورشليم، هو (يبوس): «فلم يرد الرجل أن يبيت، بل قام، وذهب، وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم. وفيما هم عند يبوس. تعالى نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه، ونبيت فيها» سفر القضاة (١٩: ١٠ ـ ١١)، ثم «.. ذهب داود، وكل إسرائيل إلى أورشليم، أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض. وقال سكان يبوس. وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين، أولًا، يكون رأسًا وقائدًا» سفر أخبار اليوم (١١: ٤ ـ ٦). ويرد هذا الاسم، أيضًا، اسمًا لقوم: «وأما اليبوسيون، الساكنون أورشليم». سفر يشوع (١٥: ٦٣) ثم «وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. أن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة..» سفر صموئيل الثاني (٥: ٨، ٦).

بالرغم من ذكر التوراة لهذا الاسم، فإن الوثائق الأثرية قد صمتت بخصوصه صمتًا مطلقًا. لكننا عندما نفتش في جغرافية اليمن يصادفنا فورًا هذا الاسم الذي لا يزال باسم (بيت بوس): «بوس: فعل بفتح الفاء، وسكون العين، ذُو بَوْس ذي سَحَر ملك من ملوك حمير، إليه يُنسَبُ بيت بوس حِصنٌ بالقُرْبِ من صَنْعاءَ»[٢٢].

في ذلك يقول المؤرخ اليمني المعروف محمد بن علي الأكوع، محقق كتاب «صفة جزيرة العرب»: «بيت بوس: بفتح الباء الموحدة، وسكون الواو، آخره سين معجمه: نسب إلى القيل ذي بواس بن شرحبيل بن بريل، وهو قرية، وحصن عامر، وواد فيه بعض الفواكه، ويقع إلى الغرب الجنوبي من صنعاء، بمسافة ساعتين، وفيه حبس أمير اليمن علي بن الحسين جفتم القادم من العراق، سنة ٢٩٠ هـ، وفيه حبس المرتضي محمد بن الهادي، سنة ٢٩٠، أيضًا، وقال فيه قصيدة منها:

يا بيت بوس حُبِسْنا في حواك على خذلان أمتنا من بعد ميثاق [٢٣]

قد ينتقدنا البعض، ولكننا نقول لهم: ليحكم بيننا وبينكم كتابكم (التوراة)، فالتوراة تقول في سفر يشوع (١٥ـ ٨): «وصعد التخم في وادي ابن هنوم إلى جانب اليبوسي من الجنوب، هي أورشليم»، ووادي ابن هنوم هو وادي هنومه، حدده المؤرخ اليمني العظيم، يحيى بن الحسين، من أعلام القرن الحادي عشر، أكثر من مرة في يومياته عن صنعاء[٢٤].

أما ما يخص (صهيون) المفردة لـ (أورشليم) و(يبوس)، والتي ترد بكثرة في التوراة، مثال سفر عاموس (٦: ١) حيث جاء: «ويل للمستريحين في صهيون». أليست (صهيون) هي (سيئون)، جنوب اليمن، حيث، يمنيًا، يتم التبادل بين لفظ الصاد والزين والسين؟! ويذكر العلامة السيد عبد الرحمن السقاف، صاحب معجم بلدان حضرموت، المسمى «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت» رواية نقلًا عن المؤرخ محمد بن عقيل بن يحيى تقول: إن سيئون [سيوون] اسم يهودي مُحَرف عن صهيون [٢٥].

فـ (سيئون) من مدن حضرموت، ذكرها كحالة، فقال: «ومن مدن حضرموت سيئون عاصمة الحكومة الكثيرية وتقع على حرف جبل سيئون». ولا تزال اليوم مدينة مهمة وهي مركز محافظة شبوة [٢٦].

ويقول «الأعشى» وهو شاعر شهير من همدان اليمن، في قصيدته، يخاطب فيها أساقفة نجران، وسادتها «يزيد وعبد المسيح ابني الديان». ومستعيدًا قصة الأخدود:

ألا سيدَي نجران لا يوصِينكما بنجران فيما نابها واعتراكما
فإن تفعلا خيرا وترتديا به فإنكما أهلٌ لذاك كلاكما
وإن تكفيا نجران أمر عظيمة فقبلكما ما سادها أبواكما
وإن أجلبت صِهيَونُ يوما عليكما فإن رحا الحرب الدكوك رحاكما[٢٧]

هنا يسجل الأعشى اسم صهيون، تمامًا، كما في الكتاب المزعوم بالمقدس، ومن المتعارف عليه بين المؤرخين أن قصة الأخدود كان مسرحها جزيرة العرب، وفي نجران بالتحديد، وكانت نتيجة صراع مرير وعنيف بين اليهودية والمسيحية. فقد كانت صهيون المذكورة في شعر الأعشى مدينة يمنية لا علاقة لها بالقدس، وفلسطين، من قريب أو بعيد.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) لورنس دفدسن، **الآثاريات الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب**، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، دراسات قدمس (٤)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠١، ص١٢٥.

(٢) فرج الله صالح ديب ، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٢.

(٣) كيث وايتلام ، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٢٢٣.

(٤) أحمد الدبش ، إسرائيل أمة مفتعلة، **العصور الجديدة**، (القاهرة) العدد ١٥، السنة الثانية، دار العصور الجديدة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٠.

(٥) كيث، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٤.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٥٦.

(٧) يسرائيل فنكلشتاين ، **القدس العربي** (لندن)، بتاريخ ١٩٩٨/ ٤/ ١٥.

(٨) تومس طمسن ، **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**، ترجمة: عدنان حسن، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(١٠) تومس طمسن، د. سلمى الخضراء الجيوش، **أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**، ترجمة: فراس سواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، انظر: مارغريت شتاينر، حدود متوسعة، تطور أورشليم في عصر الحديد ١٣١٣ ـ ١١٦).

(١١) **المصدر نفسه**. (انظر : إنغريد هيلم ، قتال الإخوة: النزعة الإثنية لدى اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية، ص ٢٩٢).

(١٢) د.محمد مصطفى الأعظمي، علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طمسن نموذجًا، **الجزيرة** (الرياض)، العدد ١٠٦٠٢ مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، رجب ١٤٢٢.

(١٣) كيث وايتلام ، **إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين**، الفصل الأول من كتاب الجديد في تاريخ فلسطين، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٤٢.

(١٤) لمزيد من التفاصيل عن مسرح التوراة والإنجيل في اليمن يراجع، أحمد الدبش:

- **موسى وفرعون في جزيرة العرب**، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤.
- **كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب**، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.
- **عورة نوح ولعنة كنعان وتلفيق الأصول**، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٧.
- **المسيح النبي المفقود**، هفن للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٩.

(١٥) كذبة السامية وحقيقة الفينيقية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٠.

(١٦) إبراهيم أحمد المقحفي، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، **الجزء الأول**، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع - صنعاء والمؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٢٠٠٢، ص ٩٢٤.

(١٧) د. ناديا سالم، حائط المبكى بالقدس .. **حائط من؟!**، **الأهرام**، القاهرة، ١٥/ ١٠/ ١٩٩٩.

(١٨) ليستر غراب، تومسون والخضراء، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٢-٢١٣.

(١٩) د. سهيل زكار ، **القدس بين حقائق التاريخ وزيف الإسرائيليات**، المحاضرة الشهرية السادسة، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، موقع على الإنترنت.

(٢٠) نشوان بن سعيدالحميري ، **منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلام**، ط٢، مصورة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١، ص ٥١.

(٢١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق: نبيه أمين فارس، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٦٩.

(٢٢) الحميري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠.

(٢٣) المقحطي، الجزء الأول، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٤.

(٢٤) سالم، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٥) **السيد عبد الرحمن عبيد الله السقاف ، معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت**، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي وعبد الرحمن، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٢، ص٣٦١.

(٢٦) مظهر علي الأرياني، **في تاريخ اليمن نقوش مسندية وتعليقات، ط٢**، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٠، ص ٢٠٤.

(٢٧) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان** الجزء الثالث، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٦٦.

* * *

obeikan.com

الفصل الخامس

تفنيد أسطورة الهيكل الثالث
(نقد الخطاب التوراتي حول القدس)

د. عبد التواب مصطفى

هناك كلمات هي (فصل الخطاب) في موضوعها. قد تجري على لسان مفكرٍ أو شاعرٍ أو حكيمٍ أو خبير. فما بالنا لو كانت هذه الكلمات هي بعض آيات الكتاب المقدس .. التوراة؟!

التوراة .. الكتاب المقدس الذي يتعبد به خصمنا، وعدونا اللدود ـ في قضية القدس وفلسطين ـ اليهود جملة، والصهاينة خاصة، بها كلمات (آيات) تفصل ـ قطعيًّا ـ الخطاب في عروبة القدس، بل عروبة فلسطين ـ جملة ـ وتقر التوراة بعروبة هذه الأرض قبل أن يكون هناك يهودية أو يهود، ومن قبل أن يكون هناك سليمان أو داود.

إن ما ورد في التوراة المتداولة من حديث عن تاريخ القدس وعروبتها، وعن سبق الوجود العربي فيها ـ بآماد طويلة ـ على الوجود اليهودي، لهو كفيل بدحض مزاعم الصهاينة بشأن الهيكل الثالث.

ولعل حديث التوراة، في هذا الشأن، هو أقوى حجة نقوض بها تلك المزاعم، فهذا الحديث بمثابة (شاهد من أهلها)، إذ إنه يُستقى من آيات التوراة، التي يتعبد بها المتدينون من اليهود، ويعتبرها العلمانيون منهم صك ملكيتهم لأرض فلسطين فيما يزعمون.

إن قراءة موضوعية لآيات التوراة ومقولاتها، في هذا الشأن، تكشف لنا أن هؤلاء لا يتعبدون بهذا الكتاب بقدر ما يتلاعبون به، ما دام التلاعب يخدم مخططاتهم وأطماعهم في أرض القدس وفلسطين. كما تكشف لنا القراءة الموضوعية لآيات التوراة أن الصهاينة العلمانيين يتعامون عمدًا عن الآيات الفاصلة في التوراة التي تؤكد عروبة القدس وفلسطين، بينما نجدهم في سياقات أخرى يعضون بنواجذهم على مقولات مزمورية، ليست من التوراة، فيتغنون أو ينوحون بهذه المزامير على أطلال بنايات أقاموها في هذه الأرض، بعد أن اغتصبوها، وطاردوا أهلها،

وأصحابها الأصليين .. أي العرب الكنعانيين اليبوسيين، الذين عمروا فلسطين، وشيدوا مدنها وقراها، منذ بداية تاريخها.

أرى أن قراءة النص التوراتي بموضوعية ستكون بمثابة مطاردة لخفافيش الظلام من اليهود والصهاينة، الذين احترفوا التلاعب والتحيز والتدليس، وليس لهم أقل نصيب من الأمانة والموضوعية، إذ إن هاتين الأداتين : الأمانة والموضوعية كفيلتان باستخراج أدلة الحق العربي في فلسطين والقدس، من بين آيات وسطور التوراة، وكفيلتان بنقض أو هدم كل زعم يهودي أو صهيوني بهيكل لهم في القدس.

والحقيقة التي تكشف عنها هذه الدراسة هي أن الخطاب التوراتي يأتي في جانب تأكيد الحق العربي في فلسطين، وأن المزاعم المتعلقة بـ (الهيكل الثالث) ليست إلا أسطورة صهيونية مختلقة حديثا، نفندها، بل نهدمها في هذه الدراسة بمعالجة المحاور التالية، استنادًا على الأدلة التوراتية:

١ ـ تأكيد سبق الوجود العربي في فلسطين على أي وجود آخر.

٢ ـ أن الوعد بأرض (ما بين النيل والفرات) ليس لبني إسرائيل.

٣ ـ على أن صخرة بيت المقدس لم تكن مذبحا لجد اليهود .. إسحاق.

٤ ـ انتقام الله من اليهود بسبب تدنيسهم بيت عبادته.

٥ ـ عدم أهلية اليهود لبناء (هيكل) وعدم أهليتهم لسدانته.

٦ـ أن محاولات اليهود لبناء هيكل في القدس تعد من كبائر المعاصي الدينية.

٧ـ على أن مفهوم (العودة إلى أرض الميعاد) قد تحقق قديما، وأن ما يقوم به اليهود/ الصهاينة حاليا بأرض فلسطين / القدس هو محض استعمار.

٨ ـ الهيكل .. لم يعد (بيت عبادة) ولكنه أصبح (دولة إسرائيل).

● **أولًا : الأدلة التوراتية في تأكيد سبق الوجود العربي في فلسطين على أي وجود آخر**

هذه النقطة على قدر كبير من الأهمية لتفنيد الزيف والكذب والتدليس، الذي يروج له اليهود والبروتستانت في الغرب، وينشئون عليه أبناءهم، وكل من تصله دعايتهم المضللة، أو يتربى ويتعلم في مدارسهم.

فحوى ذلك الكذب والتضليل أن اليهود هم أول من عمر أرض فلسطين، وأنه لم يكن لتلك الأرض أهل أو شعب يسكنها قبل اليهود.

وبالطبع ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

إن كلمات ومقولات الدعاية الصهيونية قد كبرت وعظمت في زيفها، وفي بهتانها، وفي تضليلها؛ لأنها لا تكذب على التاريخ فحسب، بل تكذب على الكتاب المقدس الذي يتعبد به هؤلاء في معابدهم، ويتاجرون به خارجها.

إن الكتاب المقدس ـ التوراة ـ الذي هو مرجعية كل الصهاينة من اليهود، وصنائعهم البروتستانت، يقرر أن الآباء

الأوائل لليهود نزلوا أرض فلسطين في أول الأمر كلاجئين أو غرباء، فقد كانت فلسطين أرضًا عامرة بأهلها وشعبها: العرب الكنعانيين اليبوس. وكان لأكبر مدن فلسطين آنذاك ـ القدس ـ ملك عربي اسمه (ملكي صادق)، أحسن استقبال الجد الأول ـ إبراهيم عليه السلام ـ ذلك الأب الذي ظل طيلة عيشه في أرض فلسطين مستشعرًا غربته بين أهلها، ولم يتملك من أرضها شبرًا واحدًا، لدرجة أنه، في آخر حياته، وحين توفيت زوجته، كان يسأل الفلسطينيين أن يعطوه قدر قبر يدفن فيه امرأته، أي أنه دفن امرأته ـ سارة ـ في «مقبرة صدقة» منحها إياه الفلسطينيون!

وبرغم كل ذلك نجد محترفي الكذب والتضليل هؤلاء ـ الصهاينة ـ يزيفون حقائق التاريخ، ويتنكرون لآيات الكتاب الذي يتعبدون به، ويزعمون أنهم أصحاب (أرض كانت بلا شعب)، ويدسون هذه الأكاذيب في عقول الأجيال من أبنائهم، أو قراء صحفهم، ومتلقي إعلامهم، في أطراف الأرض، وليس في أمريكا أو أوروبا أو إسرائيل فحسب.

ورد في التوراة (سفر التكوين / إصحاح ٢٣ / آية ٤) على لسان سيدنا إبراهيم، مخاطبًا أهل مدينة حبرون (الخليل حاليا): «أنا غريب نزيل عندكم، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن فيه ميتي».

وبينما يعود الوجود اليبوسي (العربي) بتلك المنطقة إلى ثلاثة آلاف عام ق. م، نجدنا لا نسمع بأي وجود للآراميين بها قبل عام ١٦٠٠ ق. م، فإن نزوح القبائل الآرامية من بلاد ما بين النهرين، واستيطانها في الأراضي السورية يعود إلى ما بين ١٦٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م.

إن المصادر اليهودية، قبل العربية والإسلامية، تشهد بعروبة فلسطين، ومدينة القدس، وأبرز ما انتهت إليه هذه المراجع هو اعترافها ـ خاصة دائرة المعارف اليهودية ـ بأن فلسطين لم تصبح بلادًا عربية بسبب الفتح (المحمدي) فحسب، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إليها منذ قرون بعيدة قبل ذلك الفتح. كذلك أثبتت تلك المراجع أن كل الأسماء التي عرفت بها هذه المدينة ـ باستثناء (إيليا) و (كوموديانا) ـ هي أسماء عربية، حتى أورشليم وصهيون، فقد اشتق العرب اسم (صهيون) من (الصوان) لشدة صلابة حجر جبل صهيون. و(أورشليم) تعني (مدينة سالم) وهو سالم اليبوسي العربي مؤسس القدس[١].

عندما هاجر سيدنا إبراهيم إلى هذه المنطقة، قادمًا من بلاد ما بين النهرين «كان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض» كما تذكر التوراة. وكانت (أورسالم) يسكنها هؤلاء الكنعانيون، وكانت لهم ديانتهم وعلاقاتهم الخارجية وملكهم. وتذكر التوراة أن أمير (يبوس) أو (أورسالم) في ذلك العهد هو (ملكي صادق)[٢].

لقد ورد اسم الرابية (صهيون) للمرة الأولى في العهد القديم علمًا على حصن يبوسي، فتحه النبي داود وسماه (مدينة داود)[٣].

برغم أن اسم (صهيون) قد ذكر أكثر من مائة مرة في العهد القديم، وتردد كثيرًا في سِفْرَيْ (إِشَعْياء) و (المزامير)، فهو اسم لمجرد جزء من يبوس أو أورشليم[٤].

وأحيانا يطلق هذا الاسم (صهيون) على المدينة كلها، من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، يقول أحد أنبياء اليهود (عاموس)، غاضبًا على ذوي الثراء منهم، المنغمسين في الترف: «ويل للمستريحين في صهيون» ويقصد أورشليم[٥].

والحقيقة أن الآية التوراتية (وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض) ليست هي الوحيدة الدالة على أن أرض فلسطين كانت أرضا عربية، قبل مجيء إبراهيم إليها، وقبل ظهور إسحاق ويعقوب وسليمان وداود.

هناك آيات أخريات في التوراة تؤكد عروبة أرض فلسطين، وسبق الوجود العربي بها على أي وجود آخر.

تقول التوراة (التكوين / ١٢ : ٥): «فأخذ إبرام ـ إبراهيم ـ ساراي امرأته ولوطًا ابن أخيه وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى أرض كنعان» . وتقول (تكوين / ٢١: ٢٢- ٢٤): «... ورجعا إلى أرض الفلسطينيين»، «وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياما كثيرة».

كذلك تذكر التوراة أن إسحاق بن إبراهيم لم يولد في فلسطين، وإنما ولد وأقام في (جرار)، التي شهدت غربة أبيه إبراهيم عن الأرض المقدسة.

تقول التوراة (تكوين / ٢٠ : ١-٢) «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ... وتغرب في جرار».

وتقول التوراة (تكوين / ٢٦ : ٦) : «فأقام إسحاق في جرار».

وكذلك كان شأن يعقوب من بعد.

فإن يعقوب ـ المسمى بإسرائيل فيما بعد ـ كان قد وُلد وعاش وتزوج خارج فلسطين. وأنجب جميع أبنائه خارجها.

تقول التوراة (تكوين / ٢٨: ١ ـ ٢): «فدعا إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه، وقال له: لا تأخذ زوجة من بنات كنعان: قم فاذهب إلى فَدَان أرام».

و (فدان أرام) هذه، على الحدود السورية التركية، كما توضح خريطة الشرق الأوسط في العهد القديم، المطبوعة على الغلاف الداخلي للكتاب المقدس.

ثم إن يعقوب وأولاده رحلوا ـ لاحقًا ـ إلى مصر. كما تؤكد المصادر الدينية والتاريخية.

تقول التوراة (تكوين/ ٤٧: ٧): «وجاءوا إلى مصر يعقوب وكل نسله معه». وتقول (خروج/ ١٢: ٤): «وأما إقامة بني إسرائيل ـ يعقوب ـ التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة».

حسب التوراة، في سياق عدة، كان رحيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى مصر عام ١٦٢٠ ق. م[٦]. وفي عهد ملك مصر، رمسيس الثاني ١٢٥٠ق.م[٧]، خرج موسى باليهود من مصر فارًّا بهم من مذلة المصريين لهم، ١٢٥٠ ق. م.

وبرغم أن النبي موسى خرج ببني إسرائيل من مصر قاصدًا فلسطين، فارًّا بهم من مذلة المصريين، طامعًا في جوار الفلسطينيين، فلم يشأ الله أن يصل موسى إلى فلسطين البتة.

تقول التوراة (خروج/ ١٧: ٣): «فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. إلى أرض تفيض لبنا وعسلا».

ثم تقول ـ في خطاب الله لموسى ـ (سفر التثنية / ٣٤ : ٤) «... قد أريتك إياها ـ الأرض المقدسة ـ ولكنك إلى هناك لا تعبر».

غير أن نبي بني إسرائيل (يوشع بن نون) تمكن من الدخول بهم إلى بيت المقدس، ونصب لهم قبة خشبية على صخرة بيت المقدس، يُصَلّون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلها ـ الصخرة ـ وظلت الصخرة قبلة الأنبياء حتى زمن النبي محمد[٨].

على مدى التاريخ العربي للقدس وفلسطين، الذي يمتد إلى خمسة آلاف عام، تمكن اليهود ـ الصهاينة منهم خاصة ـ من الانقضاض إلى السلطة السياسية في البلاد، بل حكموها عشرات من السنين المترامية على طول ذلك التاريخ، لكن ظلت القدس عربية، حتى آخر أنبياء بني إسرائيل ـ المسيح ـ وحتى أعاد المسلمون العرب فتحها وتكريس أو تأكيد عروبتها[٩].

ورد في الكتاب المقدس (أعمال الرسل/ الإصحاح الثاني) أن خطاب السماء ـ الوحي ـ النازل من السماء إلى المسيح وتلامذته المحتشدين في أورشليم/ القدس كان يتحدث إلى هؤلاء بالعربية، إلى جانب اللغات الأخرى لبقية قاطني المدينة من اليهود وغيرهم.

● **ثانيًا الأدلة التوراتية على أن الوعد بأرض (ما بين النيل والفرات) ليس لبني إسرائيل**

إن الآية التوراتية التي يزعم اليهود أن الله وعدهم فيها بأرض فلسطين، هي ـ الآية ـ محل شك ونظر، باعتبار ما ورد في آيات توراتية أخرى تناقضها.

تقول آية الوعد المزعوم تلك (تكوين / ١٧ : ٧ـ٨) : «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالها عهدًا أبديا لأكون إلـهًا لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكا أبديا، وأكون إلههم».

وأقول: كيف يكون إبراهيم قد أخذ كل أرض كنعان، كما ورد في الآية المذكورة، بينما تذكر التوراة ذاتها أن إبراهيم لم يكن يملك من تلك الأرض أية مساحة، ولو كانت «ملك قبر» يكفي لدفن امرأته، كما قرأنا في آية توراتية سابقة (تكوين/ ٢٣: ٤)، خاصة أن واقعة الدفن تلك كانت في نهاية مشوار حياته. ويفترض ـ حسب زعم اليهود ـ أنه آنذاك كان يملك كل أرض كنعان بموجب الوعد المزعوم؟!

ولو افترضنا ـ جدلا ـ صحة ذلك الادعاء ، بدرجة واحد في الألف، فلماذا يُختص بهذا الوعد أبناء إبراهيم من سارة فحسب؟! أليس أبناء إبراهيم ـ نسله ـ من زوجاته الأربع هم شركاء في ذلك الوعد الذي خاطب الله به إبراهيم، والد هؤلاء جميعا.

تذكر التوراة (تكوين / ١٦ : ٥) أن زوجة إبراهيم السيدة هاجر ولدت له (إسماعيل).

وتذكر التوراة (تكوين / ٣١: ٥) أن زوجة إبراهيم السيدة (سارة) ولدت له (إسحاق).

وتذكر التوراة (تكوين / ٢٥ : ١-٢) أن زوجة إبراهيم السيدة (قطورة) ولدت له ستة أبناء آخرين.

يضيف العلامة المسلم ابن كثير في موسوعته (قصص الأنبياء) أن هذه الزوجة الثالثة كانت كنعانية ـ عربية فلسطينية ـ وأن إبراهيم تزوج بعدها بزوجة رابعة هي (حجون بنت أمين) فولدت له خمسة أبناء.

إذن فنحن الآن أمام ثلاثة عشر رجلا، هم الأبناء المباشرون لإبراهيم، لم يكن إسحاق إلا واحدًا منهم.

ثم كان لإسحاق أبناء، أحدهم هو يعقوب المسمى لاحقًا بـ (إسرائيل).

والسؤال : لماذا يُختص بالوعد المزعوم ذلك الابن (يعقوب) دون إخوته، بقية أبناء إسحاق، ودون بقية أبناء عمومته، أي أبناء إخوة إسحاق الاثني عشر، الذين تشملهم جميعا أبوة إبراهيم، الذي خاطبته السماء ـ في زعم اليهود ـ بآية الوعد بالأرض، سابقة الذكر، هو ونسله هؤلاء جميعا، ومنهم ـ بالطبع ـ إسماعيل وأبناؤه.

كذلك ، بالنسبة لدعوى (من النيل إلى الفرات) نجد أنها جرت ضمن منظومة مزاعم اليهود والصهاينة بخصوص الأرض، واختصاصهم بملكيتها استنادًا إلى التوراة، بينما الحق أن التوراة تقرر أن الوعد ـ حال ثبوته ـ هو لإبراهيم وكل نسله.

وتقول التوراة (تكوين/ ١٨ :١٥) : «قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

وبعيدًا عن هذه الوعود أو تلك، ما يتحقق منها وما لا يتحقق، ومَنْ المختص بها دون غيره...إلخ فإن الأهم هو ما يتعلق بالواقع الذي كانت عليه حال الأرض، محل الوعد المزعوم، مَنْ كان يسكنها ويعمرها قبل ظهور إبراهيم، وقبل ظهور ملك اليهود الأول ... داود.

قبل ظهور هذا ـ إبراهيم ـ ، وذاك ـ داود ـ كان هناك العرب الكنعانيون اليبوسيون الفلسطينيون، كما تقرر التوراة ذاتها. وقد سبقت الإشارة إلى الآية التوراتية التي تنص على أن الكنعانيين كانوا في الأرض، أي فلسطين، يوم هاجر إليها إبراهيم من بلاد ما بين النهرين، أي العراق.

وها هي تلك التوراة مرة ثانية تقرر أن العرب اليبوسيين كانوا ـ أيضًا ـ في القدس/ يبوس، قبل أن يأتي إليها داود.

ورد في (سِفْر أخبار الأيام الأول) : «ذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم، أي يبوس. وهناك كان اليبوسيون سكان الأرض. وقال سكان يبوس لداود لا تدخل إلى ههنا. فأخذ داود حصن صهيون، اليبوسي الفلسطيني ... وأقام داود في الحصن، لذلك دعوه مدينة داود.

(الإصحاح ١١، الآيات ٤ ـ ٧)

● **ثالثًا : الأدلة التوراتية على أن صخرة بيت المقدس لم تكن مذبحًا لجد اليهود .. إسحاق**

هناك زعم يهودي صهيوني آخر يتعلق بصخرة بيت المقدس، والتي ترتفع عليها حاليا قبة مسجد الصخرة، بالحرم القدسي الشريف.

يزعم هؤلاء أن تلك الصخرة شهدت حادث الفداء الشهير، الذي ابتلى الله فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه البكر، ويزعمون أن ذلك الابن هو إسحاق والد يعقوب.

لم يكتف الصهاينة بسرقة الأرض الفلسطينية، والتراث والتاريخ الفلسطيني، بل يحاولون سرقة عقائد مسلمي فلسطين، وينسبونها إليهم، في إطار محاولاتهم المتواصلة لخلق روابط دينية بينهم وبين الأرض، ومعالمها الدينية. مما يؤكد أن هذه المزاعم هي صهيونية ذات بُعد استعماري، وأنها تتعارض مع نصوص التوراة.

إن آيات التوراة نفسها تفند هذه المزاعم، وتؤكد أن واقعة الفداء تلك لا علاقة لها بصخرة بيت المقدس، وأن الابن الذبيح ليس إسحاق.

آيات التوراة تقرر أن (إسماعيل) ولد قبل (إسحاق)، وتصف الابن الذبيح ـ محل الابتلاء أو الفداء ـ بأنه (الابن الوحيد)، وبالطبع، لا ينطبق هذا الوصف إلا على (إسماعيل) قبل أن يولد (إسحاق). وعليه فليس لإسحاق علاقة بموضوع الفداء، وليست له علاقة بالصخرة.

الأمر الذي يتوافق مع ما هو مشهور ومستقر في عقيدة المسلمين في أن الابن الذبيح ـ محل الابتلاء ـ هو إسماعيل، الابن البكر لإبراهيم ، الذي شهدت الأرض المقدسة في مكة ـ مِنًى ـ وقائع فدائه، بعد أن ذهب به والده إبراهيم إليها لينفذ فيه أمر الله ـ الرؤيا ـ بذبحه، غير أن الله فداه بذبح عظيم، كما هو معلوم ومشهور في عقيدة المسلمين .

تقول التوراة (تكوين) : الإصحاح ١٦ الآيات :

١٥ ـ فولدت هاجر لإبرام ابنا، ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل.

١٦ ـ كان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام.

الإصحاح ١٧ / الآيات:

٥ ـ فلا يُدعى اسمك بُعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم.

١٥ ـ وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعوا اسمها ساراي بل اسمها سارة.

١٦ ـ وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنا.

١٧ ـ فسقط إبراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يُولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين.

وهكذا تؤكد لنا التوراة أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وظل وحيدًا لا أخ له مدة أربعة عشر عاما، أي مبلغ سن الصبا الذي وقع فيه الابتلاء والفداء.

فقد أنجب إبراهيم إسماعيل وكان عمر إبراهيم ستًّا وثمانين سنة ، وعندما بشره الله بإسحاق، كان عمر إبراهيم قد وصل إلى مائة سنة.

الإصحاح ٢١ الآية ٥: «وكان إبراهيم ابن مائة سنة، عندما وُلد له إسحاق ابنه».

وبينما الأمر واضح جلي هكذا، نجد المتلاعبين بالتوراة يحرفون أو يدخلون فيها ما يتعارض مع هذه الحقائق.. هؤلاء المتلاعبون هم بعض اليهود، هم الصهاينة، هم هؤلاء الأحبار ذوو الميول الصهيونية، الذين أخذوا على عاتقهم اختلاق روابط عقدية دينية بين الحركة الصهيونية وبين المعالم الدينية بأرض فلسطين.

فماذا أدخلوا على التوراة من آيات مختلقة.

اقرأ الإصحاح ٢٢ من سفر التكوين، لتجد ما يلي من الآيات المختلقة :

١ - «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم».

٢ - «فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب به إلى أرض الـمُرِيَّا وأصْعِدْه هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك.

٩ ـ ١٣ : «فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم. فقال هأنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام. ولا تفعل به شيئا لأني الآن علمت أنك خائفٌ الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه».

هكذا يتجلى اختلاق الأحبار الصهاينة لهذه المتناقضات. ويتجلى هدفهم من ورائها، وهو اختلاق رابطة بينهم وبين جبل الموريا، وصخرة بيت المقدس، حيث تتجه مخططاتهم الشيطانية تجاه هذه القطعة من أرض فلسطين أو القدس تحديدًا ، لإقامة هيكلهم المزعوم.

«فنراهم يكذبون في هذه الآيات ويصفون إسحاق بأنه الابن الوحيد لإبراهيم بينما هذه الصفة (الوحيد) لا تخص ولا تنطبق إلا على إسماعيل، وظلت ملازمة لإسماعيل مدة أربع عشرة سنة قبل أن يولد إسحاق.

إذن لم يكن إسحاق يوما الابن (الوحيد) لإبراهيم.

ولم يكن إسحاق يومًا محلا للابتلاء أو الذبح أو الفداء.

ولم تكن صخرة بيت المقدس، ولم يكن جبل الموريا مذبحا للفداء.

● **رابعًا : الأدلة التوراتية على انتقام الله من اليهود بسبب تدنيسهم بيت عبادته**

منذ اتخذ الله من الإنسان خليفة له على الأرض، كانت عبادة الله من جانب هذا الخليفة وذريته في صدارة مهام هذا الخليفة وهذه الذرية، على الهيئة التي يرتضيها أو يقررها المعبود جل جلاله، هذه الهيئة التي تقتضي طهارة العابد بدنًا وروحًا وملبسًا ومكانًا.

مكان العبادة هذا، وعبر العصور المديدة، عُرف بأسماء عدة، لم تغير من طبيعته شيئا، فهو المكان الطاهر الذي يُعبد فيه اللهُ: سجودًا أو ركوعًا أو ذكرا ... إلخ. عُرف بـ : بيت الله، المسجد، المصلى، المعبد، الكنيس، الكنيسة أو الهيكل، إلخ.

مكـان بيـت عبادة الله هذا هو المكان الطاهر الذي يليق بلقاء العابد مع ربه، غير أن العُبَّاد ـ مع توالي العهود والعصور ـ لم يكتفوا بتعديل اسم المكان فحسب، وبدل أن يظل بيت عبادة أو مسجدًا، مكان سجود وركوع، صيره اليهود مكان تجارة ورذيلة، ولم يحفظوا له قداسته، فحل بهم من الله العذاب العظيم الكثير، وهو ما رصدته كتب تاريخية ودينية عدة.

١ـ التتبع التاريخي لدلالة لفظ (مسجد) في الخطاب الديني عامة:

يشير إلى هذا البعد شواهد عديدة ترجع إلى بدء تاريخ الإسلام. الإسلام بمفهومه العام: دين التوحيد الذي بُعث به كل الأنبياء، من آدم إلى محمد.

ـ أول هذه الشواهد، ما ورد في صحيحَيْ البخاري ومسلم، من حديث أبي ذر الغفاري، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة[١٠].

هذا، على اختلاف بين العلماء، فيمن بنى المسجدين. آدم وأبناؤه، أم إبراهيم وأبناؤه: إسماعيل في مكة ويعقوب في أورسالم، واتفاق بينهم ـ أي العلماء ـ على أن هؤلاء البناة جميعا هم مسلمون، أي موحدون.

ـ ثاني هذه الشواهد، ما ورد في القرآن الكريم بشأن أهل الكهف، أي منذ مدى تاريخي بعيد: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (الكهف: ٢١)[١١]. وكذلك ما ورد بشأن المرتين اللتين تم فيهما تدمير مسجد بيت المقدس، الذي اشتهر ـ خطأ ـ باهيكل: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١٢]. وكذلك ما جاء في حديث القرآن الكريم عن هذه البقعة الطاهرة من أرض القدس، مستخدما تعبير (المسجد الأقصى) في صدر سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء: ١).

ـ ثالث هذه الشواهد، ماورد في مقدمة ابن خلدون: «وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام. أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله. ودُفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليهم السلام حواليه ... وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة فلم يتم له ذلك. وعهد به إلى ابنه سليمان، فبناه لأربع سنين من ملكه، ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام .. فلما جاء طيطس ـ من ملوك الرومان ـ وغلبهم ـ بني إسرائيل ـ وملك أمرهم، خرب بيت المقدس، ومسجدها ٧٠م، وأمر أن يزرع مكانه»[١٣].

وفي حديثه عن «هيكل سليمان» قال أحمد بهجت: «وكان سليمان قد بنى لله مسجدًا أو معبدًا.. وكان مسجدًا للمؤمنين الموحدين»[١٤].

كذلك فيما نُسب إلى المسيح ـ آخر أنبياء بني إسرائيل ـ وحوارييه، أن الحواريين قالوا: «يا مسيح الله، انظر إلى مسجد الله ـ مسجد بيت المقدس المشهور بهيكل هيرودوس ـ ما أحسنه! فقال المسيح : آمين آمين. بحق ما أقول لكم، لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما إلا أهلكه بذنوب أهله»[١٥].

٢ـ المسجد / الهيكل .. هيكلنا .. بضاعة عربية إسلامية

تربط الروايات القديمة بين القدس ونبي الله آدم، الذي بنى بها مسجد بيت المقدس.

ورد عن الصحابي عبد الله بن عمر أنه قال: «بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته» ، ثم أقام اليبوسيون ـ مؤسسو القدس ـ هيكلا لإلههم (سالم)، واتخذوه بيتا للعبادة، وعرفت مدينتهم بـ(أورسالم)[١٦].

كما أن كلمة (هيكل) ذاتها مستوحاة من المفردات الكنعانية[١٧].

ثم أقام الصابئة ـ عبدة الكواكب من العرب في زمن سيدنا إبراهيم ـ هيكلًا لكوكب الزهرة على صخرة بيت المقدس. وكانوا يقربون إلى ذلك الهيكل زيتا، يصبونه على الصخرة، ثم دثر ذلك الهيكل ... ولعل سبب بناء الصابئة هيكلا على الصخرة أنها كانت مكانا للعبادة، كما كانت الكعبة التي أقام عرب الجزيرة حولها الأصنام والتماثيل [١٨].

ثم أقام إبراهيم في تلك البقعة المقدسة مسجدًا[١٩].

أي أنه ـ عليه السلام ـ فعل بمنطقة الصخرة كما فعل بمنطقة الكعبة، حيث طهر كلا منهما، وجعله بيتا طاهرا يليق بعبادة الإله الواحد، وعقيدة الموحدين، خلافا لما كان يفعل مشركو قريش حول الكعبة، أو الصابئة حول الصخرة.

يتضح لنا ـ حتى الآن ـ أن بيت العبادة القائم في هذه البقعة من مدينة (يبوس ـ أورسالم ـ أورشليم ـ القدس) والمشهور حاليا ببيت المقدس، أو المسجد الأقصى ، هو معلم حضاري عربي عريق، مهما تبدلت عقائد العرب الذين أسسوه من قبل، فهو مسجد أو بيت عبادة، حين تستقيم عقيدة هؤلاء العرب على التوحيد، وهو هيكل حين تفسد عقائدهم ويعبدون (الكواكب) أو يعبدون (سالم) مؤسس المدينة الأول.

كل ما طرأ أو أُدخل على هذا المعلم الديني لاحقا هو ـ إذن ـ بمثابة إعادة بناء أو توسعة، أو (رفْع قواعد) للبناء بعد ضياع معالمه أو اندثاره حينا من الدهر، وهكذا.

كل الأنبياء الذين شهدت تلك الأرض المقدسة بعثتهم هم موحدون ـ أو مسلمون حسب المفهوم العام لكلمة الإسلام ـ وما فعلوه بهذا المعلم الديني هو ـ مرارًا ـ العودة به إلى ما يجب أن يكون عليه، أي بيتًا لعبادة الله، وليس لعبادة البشر، مثل (سالم) وليس لعبادة الكواكب مثل (الزهرة).

فكل ما فعله الأنبياء: إبراهيم ثم يعقوب ثم داود، ثم سليمان ثم المسيح، بهذا البيت، هو تجديده أو إعادة بنائه، أو تطهيره من معالم الشرك التي كانت تلحق به أو بالمترددين عليه كلما تراجعت درجة التدين، أو كلما بعث الله واحدا من الأنبياء بتلك البقعة المباركة من القدس.

عندما جدد يعقوبُ أو أعاد بناء ذلك الـمَعلم في عهده، سماه (بيت إيل) أي بيت الله، إذ كانت (إيل) تعنى (الله أو المعبود) في لغتهم آنذاك. [٢٠].

وهو البيت نفسه الذي طوره سليمان من بعد.

في عهد النبي سليمان اتسعت دولته أو مملكته، وكان حريصًا على إبراز معالم هيبة تلك الدولة، وفي مقدمتها قصر الملك، ولم يكن اهتمامه بـ (بيت العبادة) على مستوى اهتمامه بقصره، حتى اشتهر أن ذلك البيت لم يكن أكثر من ملحق خاص بالقصر، وكانت مساحته لا تزيد على ربع مساحة جناح واحد من القصر . ومع ذلك فقد سمى بيت العبادة ذلك (هيكلًا) لمجرد إضفاء الهيبة عليه[٢١].

كانت زخارف ذلك الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية[٢٢].

وقد بُني على الطراز الذي نقله الفينيقيون عن مصر. وعلينا أن نلتمس العذر للعبرانيين، حين يعدون هذا الهيكل إحدى عجائب الدنيا، برغم صغر حجمه وبساطته، فهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى العظيمة، التي لا يعد هيكلهم ـ هيكل العبرانيين ـ شيئا إلى جانبها، كما يقول عميد المؤرخين ول ديورانت، صاحب قصة الحضارة[٢٣].

وكما ورد في الكتاب المقدس (أسفار: ملوك الأول ٨: ٦٤ وأخبار الأيام الثاني ٧: ٧) ... لضيق أو لصغر حجم الهيكل فإنه لم يستوعب كل ذبائح السلامة ـ القرابين ـ التي أحرقت يوم تدشينه، فتم ذبحها في الساحة أمامه، وترتب على ذلك تقديس تلك الساحة أيضًا[٢٤].

٣ ـ رسالة المسجد/ الهيكل التي دنسها اليهود :

ورد في التوراة: (لأن بيتي بيتُ صلاة يُدْعى لجميع الشعوب)

(سفر إشَعْياء إصحاح ٥٦: ٧)

فالله ـ كما تنسب إليه التوراة ـ يقرر أن أي بيت يبنى على اسمه يجب أن يكون للصلاة، ولكل الشعوب المؤمنة الموحدة.

ولذا، كان النبي سليمان قد جعل أحد أروقة بيت العبادة الذي بناه ـ جدد بناءه ـ لله، رمزا للتعايش السلمي مع سائر الشعوب، وسماه (رواق الأمم). ويعلق الأب متى المسكين في مؤلفه (تاريخ إسرائيل) على ذلك قائلا: إن رواق الأمم كان أهم ما في الهيكل، بالنسبة لله وللعالم. وكان الله قد أقام الهيكل ـ جدده ـ بواسطة اليهود، ليرثه العالم كله، ليس من حيث البناء، ولكن من حيث هدفه، وجوهر رسالته كبيت للصلاة[٢٥].

هذه هي الصورة المثلى للمسجد أو الهيكل الذي أقامه أو جدد بناءه الأنبياء في القدس:

فماذا فعل اليهود بهذا المسجد أو الهيكل ورسالته؟

لم يحفظ اليهود لهذا المسجد/ الهيكل قداسته، ولم يحفظوا لرسالته طهرها وسموها؛ ولذا فقد توالت انتقادات أنبيائهم الموجهة إليهم، ثم كانت اللعنات والدعوات الانتقامية في مرحلة تالية، حتى وقع انتقام الله بهم، وكان ذلك جزاءً وفاقًا لما اقترفوه في حق بيت الله/ المسجد/ الهيكل.

كان (إرميا) أشد أنبياء بني إسرائيل نقمة على قومه لفسادهم، متهما إياهم بأنهم بلهاء معاندون منافقون، يأتون الهيكل متظاهرين بالتقى والصلاح، معلنا أن ما حل باليهود من عذاب، من جانب مملكة بابل، هو في الواقع انتقام إلهي، ومعلنا أن بابل هي سوط عذاب في يد الله، وقائلا باسم الله: (الآن قد وقعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدي) وذلك إبان أزمة الأسر البابلي الشهير لليهود.

وظل إرميا يندد بما انتشر بين اليهود من فساد بألفاظ شديدة، وكم من مرة تنبأ لهم بتخريب أورشليم. ورَثَى لما سيحيق بهم وبالمدينة التي كان يسميها (بنت صهيون) من قضاء ـ مصير ـ محتوم[٢٦].

وكثيرًا ما استشهدت دراسات وبحوث بما ورد عن إرميا في هذا الصدد[٢٧]. كقوله ـ مخاطبًا قومه: لا تتكلموا على قول الكذب قائلين: هذا هيكل الرب. هيكل الرب. هيكل الرب. وقوله: أَفصارَ هذا البيت الذي دُعي باسمي مغارة لصوص أمام عيونكم؟!

في تلك الأثناء أيضا ظهر خطيب يهودي آخر في بابل هو (حزقيال)، الذي كان قد سُبي ضمن الكهنة اليهود، في أيام السبي الأول. وأخذ يندد ـ كما فعل إشعياء الأول وإرميا ـ بما شاع في أورشليم من وثنية في الدين وانحلال

في الأخلاق. وشبه أورشليم بالزانية. ووضع قائمة طويلة بمعاصي اليهود أو أورشليم. ثم قضى عليها ـ تنبأ لها ـ بالتخريب والسقوط والخروج من أيديهم [٢٨].

توالت إساءات اليهود لبيت عبادة الله (المسجد/ الهيكل)، وكثيرا ما أحالوه مغارة لصوص، وجعلوا منه مرتعا للباعة والصيارفة. كما شهد عليهم بذلك آخر أنبيائهم يسوع المسيح: «ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، وكراسي باعة الحمام. وقال لهم: مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص[٢٩].

وكما سبقت الإشارة، فقد تنبأ لهم المسيح بسقوط هيكلهم نتيجة لما يقترفونه من ذنوب:

فماذا حل باليهود نتيجة إساءتهم إلى بيت الله/ الهيكل؟

لقد حلت لعنة الله على الذين اقترفوا هذه الجرائم والمعاصي. كما قررت مصادر دينية إسلامية ويهودية.

ورد في القرآن الكريم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

(المائدة: ٧٨: ٧٩)[٣٠].

ثم سلط الله عليهم من الشعوب المجاورة مَنْ دمر عليهم المدينة كلها ـ القدس وبيت الله/ الهيكل، الذي لم يحفظوا له قداسته ولم يستفيدوا من رسالته فيهم.

ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ (الإسراء: ٤ ـ ٧) [٣١].

وذلك في إشارة إلى مرتي تدمير الهيكل/ المسجد الأقصى: كانت الأولى على أيدي ملك بابل نبوخذ نصر في ٥٨٦ ق. م، ثم كانت الثانية على أيدي الإمبراطور الروماني تيتس في ٧٠م.

وقد سبقت الإشارة إلى قول إرميا نبي بني إسر ائيل الذى خاطبهم فيه باسم ربه: (الآن قد وقعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدي).

● **خامسًا: الأدلة التوراتية على عدم أهلية اليهود لبناء (هيكل) حاليا وعدم أهليتهم لسدانته**

كما ورد في التوراة، في مواضع عدة، فقد نقض أنبياء بني إسرائيل أنفسهم شريعة أو عقيدة وحدة الهيكل، بمعنى أنهم قالوا إنه لا ضرورة لاجتماع اليهود على هيكل واحد، وذهبت جماعات اليهود المتناثرة في أرجاء الأرض مذاهب شتى، واتخذت كل منها هيكلا في البلدة التي تقيم فيها.

قرر ذلك أنبياء اليهود ـ مرارًا ـ في ضوء ما وقفوا عليه وتابعوه من مظاهر فساد عقيدي وأخلاقي وسلوكي من جانب قومهم، أي الجماعات اليهودية التي لم تتفق فيما بينها على ضرورة الهيكل في حياتهم كشعب أو أمة يهودية، ولم تنتفع به.

ومع تمادي الجماعات اليهودية في معاصيها، وعدم اقتدائها بدعوة رجال الهيكل، أي الحاخامات أو الأنبياء، توالت فتاوي الأنبياء والحاخامات بعدم أهلية اليهود لإقامة هيكل يُدعى بيتًا للرب، بينما هم غارقون في كل ألوان المعاصي، يقترفونها ويروجون لها وينشرون الفساد والرذيلة أينما حلوا أو أقاموا. وكلما مر الزمان تأكد هذا المعنى، بشهادة كل شعوب الأرض، بعد شهادة أنبياء اليهود في التوراة.

قبل هذه الأسباب الموضوعية، التي تؤكد عدم ضرورة وجود هيكل، أو بيت عبادة في قوم لا يقدرون لهذا البيت مكانته، هناك سبب شكلي، رأى بعض أنبياء اليهود ـ قديما ـ أنه يكفي لرفض بناء الهيكل.

تُمثل نبوءة النبي (ناتان) الواردة في الفصل السابع من سفر صمويل الثاني أساس معارضة بناء الهيكل من البداية، حيث كان ناتان يرى الاكتفاء بحفظ ألواح الشريعة في تابوت، كما كان متَّبعا منذ زمن موسى، دون بناء هيكل. مستندا إلى حجة أن الهيكل ـ بيت العبادة ـ الذي بناه اليهود بعد زمن موسى جاء على مثال ما كان من الهياكل ـ بيوت العبادة ـ في أرض كنعان.

لاحقًا .. استند أنبياء بني إسرائيل على أسباب موضوعية في رفضهم لبناء هيكل.

يرى النبي (إرميا) الذي شهد سقوط أورشليم ٥٨٧ ق.م أن الهيكل وحده غير كاف لإنقاذ الشعب؛ لأن الله يمكن أن يهجره، ويروي الإصحاح ٢٦ من سفر إرميا أن هذا النبي تعرض لتهديدات عديدة بسبب انتقاداته اللاذعة لليهود، في شأن عدم أهليتهم لإقامة الهيكل.

واستنكارًا لإعادة بناء الهيكل بعد العودة من السبي. يقول النبي (إشعياء) في سفره ـ الإصحاح ٦٦: «هكذا يقول الرب: السماء عرشي، والأرض موطئ قدمي، فأي بيت تبنون لي» بمعنى أن الله في غنى عن هيكلهم.

ثم انتقد النبي (إشعياء) اهتمام بني إسرائيل بالطقوس داخل المعبد ـ الهيكل ـ دون أن ينعكس ذلك على أسلوب حياتهم. فقال في سفره (الإصحاح الأول، الآيات ١٥ ـ ١٧): «فحين تبسطون أيديكم. أستر عيني عنكم وإن كثرتم الصلاة، لا أسمع لكم؛ لأن أيديكم ملآنة دماء. اغتسلوا وتنقوا واعزلوا شر أعمالكم من أمام عيني، وكفوا عن فعل الشر».

لذا، لم يكن غريبا أن يشارك بعض اليهود في هدم الهيكل الثاني ـ هيكل هيرودوس ـ عام ٧٠م. فقد كان في مقدمة من شاركوا في هدم ذلك المعبد قائد يهودي مشهور في عصره، هو (تيبريوس جوليوس ألكسندر) الذي كان رئيسا للأركان ومستشارا للإمبراطور الروماني تيتس، الذي هدم ذلك الهيكل، وشاركه ذلك اليهودي في حصار أورشليم وهدم الهيكل [٣٢].

● **سادسًا: الأدلة التوراتية على أن محاولات اليهود الحالية لبناء هيكل في القدس تعد من كبائر المعاصي الدينية**

من أبرز مرتكزات العقيدة الدينية اليهودية، مرتكز أو مفهوم (المسيحانية) وهو يعني (انتظار ظهور مسيح يهودي من نسل داود) يتحقق على يديه خلاص اليهود مما يحل بهم، وخلاص اليهودية مما يعلق بها من فساد، شريطة أن يكون بعثه أو ظهوره مرتبطا باستمرار التوبة والاستغفار من جانب اليهود حتى يبعث الله هذا المسيح.

هذا ما أكدته أسفار الأنبياء في التوراة، الذين تواتر وعْظُهم لليهود بالتزام طريق التوبة والاستغفار، كطريق سلمي إيماني، يتحقق لهم به ظهور المسيح اليهودي المنتظر، هذا المسيح الذي سترسله العناية الإلهية استجابة لدعوات اليهود واستغفارهم عن ذنوبهم.

غير أن مفهوم (المسيحانية) هذا، تعرض للتبديل والتحريف على أيدي أحبار التلمود، ولم يستمر مرتبطا بالتوبة والاستغفار (طريقا إلى الخلاص) بل تبدل إلى القول بمجيء (ملك يهودي) بقدرات حربية خاصة، يقود اليهود حتى يضعهم على قمة السلم البشري. وقد استغرق تحريف أو تبديل هذا المفهوم أو هذه العقيدة (المسيحانية) مدى زمنيًّا طويلا فيما عرف بعصر التلمود (من القرن الخامس ق.م: القرن الثاني الميلادي)[٣٣].

وبينما تتجه التوراة هذا الاتجاه السلمي، وتجعله منهجًا أو طريقًا يستدر به اليهود عطف العناية الإلهية لإرسال المسيح اليهودي المخلص، نجد الأحبار والمحرفين من اليهود ـ الذين وضعوا التلمود، وسائر الكتب الشارحة للتوراة ـ يتجهون اتجاها إرهابيا، ويزعمون أنهم ينتظرون مَلِكًا حربيًّا ذا قدرات خاصة في القيادة، يضعهم على قمة السلم البشري، أي يحكم بهم العالم.

ارتبط اليهود على اختلاف مشاربهم بجانب أو أكثر من مفهوم (المسيحانية) الـمُحَرَّف، وما يكرسه من توجه عنصري واستعلائي، لا يزال ملموسا في السلوك الإسرائيلي المعاصر. ولعب هذا المفهوم ـ بعد تحريفه على يد الأحبار ـ دورا في تمهيد الطريق أمام جهود الصهيونية الحديثة لتهجير اليهود إلى فلسطين، وذلك في تحريف جديد طرأ على المفهوم، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وجاء هذا التطوير / التحريف ضمن مجموعة فتاوي دينية يهودية تضع شرطا جديدا لظهور المسيح اليهودي، يتمثل هذا الشرط في ضرورة هجرة أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين، بزعم تهيئة أرض فلسطين كمسرح لظهور ذلك المسيح بها، وتحقيق مملكة الخلاص (المسيحانية)[٣٤].

وهكذا، جاءت هذه الفتاوي الحاخامية مشبعة بروح ونزعة المخالفة لجوهر التوجه التوراتي الأساسي بخصوص مفهوم (المسيحانية) ذلك التوجه الذي يعتمد الوسائل السلمية لانتظار أو لاستقدام المسيح اليهودي المنتظر، والذي لم يحدد وقتا لظهور ذلك المسيح اليهودي، ولا أرضًا أو مسرحا خاصًّا لاستقباله، ولا وسائل بشرية لتعجل ظهوره.

جاءت هذه الفتاوي لتتحدث عن مسيح حربي قتالي، وعن مسرح يُعد لاستقباله هو أرض فلسطين، وعن وسائل بشرية لإعداد المسرح، من خلال تهجير يهود العالم إلى فلسطين، ليكونوا ـ في زعم تلك الفتاوي ـ في استقبال المسيح حين ظهوره.

جدير بالذكر أن هذه الفتاوي الإرهابية، المخالفة للتوراة، صدرت عن قلة من الحاخامات ذوي الميول الصهيونية، الذين تم تجنيدهم من جانب عمداء الحركة الصهيونية الاستعمارية الحديثة، هؤلاء العمداء أو الزعماء الصهاينة من اليهود العلمانيين الذين برعوا في توظيف الدين، وفتاوي بعض أتباعهم من الحاخامات في خدمة مشروعهم الاستعماري الاستيطاني في أرض فلسطين.

للوقوف على مدى فداحة وشدة هذه المخالفة للتوجه التوراتي من جانب الحاخامات الصهاينة يمكن مراجعة البحوث والدراسات الخاصة بالصهيونية الدينية: مرتكزاتها وخططها ورجالها وإسهامها في بلورة وتنفيذ المخطط الصهيوني[٣٥].

كذلك، وعلى عكس التقاليد الدينية السلمية التي نادى بها الأنبياء اليهود في التوراة، فإن التحالف الصهيوني الحديث (اليهودي/ البروتستانتي)، قد أنشأ إسرائيل كدولة عسكرية عدوانية، على يد عمداء الحركة الاستعمارية الحديثة: بريطانيا، ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

بخصوص الهيكل ـ تحديدا ـ فإن الفهم الأصولي الأرثوذكسي لليهودية، المعتمد على ما يعرف بـ (الهلاخاة) أي السنة المدونة الشارحة للتوراة، يؤكد أن ظهور المسيح اليهودي المخلص هو إحدى علامات قيام الساعة ـ القيامة ـ وأن الحلم ببناء الهيكل مرتبط بظهور ذلك المسيح، وكل ذلك مرتبط بوعد إلهي تنفذه إرادة الله سلميا، دون تدخل بشري[٣٦].

أيضًا، فإن الأرثوذكسية اليهودية ـ الاتجاه الديني الغالب بين اليهود ـ لا تكف عن نقد (الصهيونية السياسية) التي تبناها العلمانيون وصنائعهم، من الحاخامات الذين حرفوا مفهوم (المسيحانية). ليس هذا فحسب بل إن الأرثوذكسية اليهودية تتهم رواد الصهيونية السياسية بأنهم استغلوا المفاهيم الدينية خطأً، وأنهم ركزوا على (واحد فقط) من واجبات الشريعة اليهودية الـ (٦١٣). فعطلوا ـ بهذا ـ جملة الشريعة اليهودية، وتعلقوا بما أسموه (واجب العودة) لأنه يحقق لهم أطماعهم الاستعمارية في أرض فلسطين ذات الموقع الإستراتيجي في قلب العالم[٣٧].

هذا، ولا تزال جماعات عدة من طائفة (الحسيديم) وهي من أقوى وأبرز الجماعات اليهودية الأرثوذكسية تعتبر الصهيونية السياسية/ العلمانية عقيدة شيطانية، ويعدون إنشاء دولة إسرائيل معوقا مؤخرا لظهور المسيح المخلص[٣٨].

كذلك، فإن طائفة (حراس المعبد) التي تقيم في حي خاص بالقدس تصلي من أجل زوال دولة إسرائيل الحالية، وتعتبر يوم قيامها (١٥/ ٥/ ١٩٤٨) يوم حداد. وهذا لأن إسرائيل حاليا تمثل خطيئة دينية كبيرة في حق التقاليد التوراتية التي لم تطالب اليهود بإقامة دولة، خاصة دولة عدوانية، وإنما طالبتهم بالدعاء والاستغفار عن خطاياهم السابقة، على أمل أن ترسل إليهم العناية الإلهية (مسيحًا مخلصًا).

يذكر أن بإسرائيل حاليا أكثر من جماعة تحمل اسم (نواطير) حراس المعبد أو حراس المدينة، تعيش في جيتو، تتخذ الموقف نفسه من دولة إسرائيل الحالية، انتظارا لإقامة مملكة القدس على يد المسيح المخلص، الذي سترسله العناية الإلهية[٣٩].

● **سابعًا : الأدلة التوراتية على أن مفهوم (العودة إلى أرض الميعاد) قد تحقق قديما، وأن ما يقوم به اليهود/ الصهاينة حاليا بأرض فلسطين هو محض استعمار**

عرفنا ـ سابقا ـ أن اليهود الصهاينة قد عطلوا جملة أحكام وواجبات الشريعة اليهودية، وركزوا على واحد فقط من واجباتها، وهو (واجب العودة)، وهذا الفضح والتشنيع باليهود الصهاينة لم يأت من جانبنا، وإنما من جانب اليهود المتدينين الأرثوذكس، ممثلي الاتجاه الغالب بين اليهود، والمحافظين على التراث اليهودي التوراتي السلمي تحديدا.

فما بالنا لو عرفنا أن هذا الواجب الوحيد ـ واجب العودة إلى أرض الميعاد ـ ليس له محل أساسًا في الشريعة

اليهودية حاليا، باعتباره قد سبق تطبيقه أو تحقيقه، وانتهى زمانه منذ ألفي عـام وخمسمائة تقريبًا. وأن اليهود الصهاينة ـ في إطار تلاعبهم المستمر بالتراث الديني اليهودي ـ أعادوا اختلاق ذلك الواجب لتوظيفه في تحقيق أطماعهم الاستعمارية في أرض فلسطين.

تؤكد المصادر الخاصة بالعقيدة المسيحية الكاثوليكية ـ العامة أو الأم ـ اعتقاد ملايين الكاثوليك في العالم بانتهاء ما يسمى (الأمة اليهودية) وأن النبوءات التوراتية التي تتحدث عن عودة اليهود إلى ما يزعمون أنه (أرض ميعاد) قد تحققت بالفعل، بعودة يهود السبي من بابل، وأن اعتقاد هؤلاء الملايين من المسيحيين الكاثوليك كان هو أول العقائد الكنسية التي تعرضت للتنكر من جانب ذوي الميول الاستعمارية (من اليهود والبروتستانت) الطامعين في أرض فلسطين، بل كان ذلك التنكر هو أساس العقيدة البروتستانتية أو الاتجاه المسيحي الجديد، الذي زعم إصلاح الكنيسة الكاثوليكية، وتنكر لعقائدها الراسخة تجاه اليهود[٤٠].

يذكر أن أحبار اليهود، وأولئك الذين سباهم ملك بابل إلى بلاده عام ٥٨٦ ق. م، بعد أن غزا القدس ودمرها،كانوا قد سُمح لهم بالعودة إلى القدس بعد خمسين عاما أمضوها في الأسر والعبودية في بابل، وعندما عادوا إلى القدس سمح لهم أهل القدس، من العرب اليبوسيين، بالعيش بينهم أحرارا وذابوا فيهم، كبعض أهلها.

تتناول أسفار الكتاب المقدس ـ التوراة ـ هذا الموضوع تفصيلًا، خاصة أسفار : (أخبار الملوك الثاني) و : (نحميا).

يتناول سفر (أخبار الملوك الثاني) غزو ملك بابل لأورشليم القدس، وتقويض أركان بيت المقدس/ هيكل سليمان، وسبي آلاف اليهود ٥٨٦ ق.م.

وبينما اليهود في المنفى حصل نبيهم (نحميا) على إذن من ملك الفرس (قورش) بالعودة، وترميم أو إعادة بناء بيت المقدس هيكل سليمان، كما ورد في سفر نحميا. وتم ذلك في عهد النبي (عُزَيْر) بإعانة ملك الفرس اللاحق (بهمن) الذي ألزمهم بحدود ما كان قائما دون توسعة. وكذلك فقد شهد بيت المقدس أو الهيكل ترميما لاحقا على يد هيرودوس حاكم أورشليم من قبل الرومان في ١١ ق.م ونسب إليه الهيكل.

وهكذا، وبرغم توالي مرات الترميم أو إعادة البناء للهيكل أو البيت المقدس، سواء أكان ذلك على أيدي بعض أنبياء اليهود أو حكام القدس من الغزاة والأجانب، يظل بيت المقدس/ الهيكل معلما عربيا في أرض عربية، في ضوء كل الأدلة التي سبق ذكرها متعلقة ببدء ظهور أو بناء ذلك الهيكل منذ الأيام الأولى لتأسيس يبوس/ أورشليم/ القدس على أيدي العرب الكنعانيين اليبوس الأوائل، ولم تنف عنه عروبيته، تلك الإصلاحات أو الترميمات التي قام بها اليهود في فترات وجودهم في القدس، قبل نفيهم منها إلى بابل، أو بعد السماح بعودتهم إليها، كبعض من أهلها[٤١].

يتناسى الصهاينة من اليهود والبروتستانت هذا كله، بل يتعامون عنه، ويتذرعون بأنهم يعملون من أجل (العودة إلى أرض الميعاد)، وما زعمهم هذا إلا ذريعة مختلقة يتغنون بها، أو يخدعون بها العالم ضمن مجموعة من الشعارات، أو المزاعم التي ينسبونها إلى التوراة، بينما التوراة منها براء.

● **ثامنًا: الهيكل .. لم يعد (بيت عبادة) ولكنه أصبح (دولة إسرائيل)**

بينما تسمى التوراة بيت المقدس (بيت الرب)، الذي يليق بعبادة الرب، وتقرر أنه بُني في أرض عربية يبوسية، نجد

اليهود الصهاينة يتنكرون لهذه الحقائق، ويبدلونها أو يحرفونها بما يحقق أطماعهم وأطماع شركائهم من البروتستانت في أرض فلسطين، وبما يبرر قيام الدولة الوظيفية صنيعة الاستعمار (إسرائيل) ويقولون إنها ـ إسرائيل ـ هي البديل العصري عن الهيكل، أي إنهم بدل أن يعبدوا الله في بيت عبادته (بيت الرب/ المقدس) باتوا يعبدون أطماعهم وهواهم في أرض مغتصبة، يستوطنونها أو يحتلونها أو يستعمرونها ويسمونها (إسرائيل).

ورد في التوراة / سفر أخبار الأيام الثاني / إصحاح ٣/ الآية الأولى: «وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم، في جبل الموريا، حيث تراءى لداود أبيه ـ من قبل ـ حيث هيأ داود مكانا في بيدر أرنان اليبوسي».

ثم كان ما كان من جانب اليهود في حق بيت الرب، فلم ينتفعوا به، ولم يقدسوه، بل أحالوه مغارة لصوص، ومتجرا للصيارفة وبيع الطيور، فتوالت انتقادات أنبيائهم لهم بسبب ذلك، ولما لم يرتدعوا وقتلوا ما استطاعوا من أنبيائهم حل بهم انتقام الرب على أيدي بعض الشعوب المجاورة وملوك بابل والفرس والروم كما سبق تفصيلاً.

ولما يئسوا من إمكانية أن يكونوا أهلا لسدانة بيت الرب وتقديسه والانتفاع به سلوكيا وأخلاقيا، اكتفت جماعاتهم المتناثرة في أطراف الأرض بأن تتخذ من أطلاله قبلة روحية تأتي للبكاء عندها، أو الصلاة باتجاهها، واثقين من أن هذه الأطلال توجد في أرض ليست أرضهم بشهادة التوراة والتاريخ.

وذهبت جماعات أخرى من اليهود مذاهب أبعد من ذلك، وهي ترجمة معنى الهيكل في حياتهم إلى أمور مادية ملموسة، استيطانيا واستعماريا، في الأرض التي لهم فيها تلك الأطلال، وقرروا أن يتذرعوا بدعاوي دينية لتحقيق أطماعهم الاستعمارية في أرض فلسطين، القلب الإستراتيجي للعالم.

نظرًا لأهمية الاستيطان في خلق وترسيخ وجود الكيان الصهيوني، شبه الحاخام الصهيوني (كوك) عملية الاستيطان في أرض فلسطين بعملية إعادة بناء الهيكل، وتشير بعض الصحف الإسرائيلية إلى دولة إسرائيل ذاتها باعتبارها الهيكل الثالث[٤٢].

يمكن الوقوف على هذه المعاني أيضا بمراجعة كل مصادر فكر الصهيونية السياسية ـ ناهيك عن مصادر الصهيونية الدينية ـ وفي مقدمتها:

١ ـ كتابات المفكرين اليهود الصهاينة العلمانيين، التي يتأكد منها أنها ـ جميعا ـ ترتكز على مقولات دينية تم توظيفها لخدمة الفكرة الصهيونية الاستعمارية[٤٣].

٢ ـ مؤلفات مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة (ت. هرتزل) الذي تبنى أفكار الحاخام يهودا القالي. خاصة ما يتعلق منها بالاستيطان[٤٤].

وبتحليل مضمون كتابه (الدولة اليهودية) وبرصد التكرارات اللفظية فيه، نجد هرتزل قد استخدم لفظ (دولة) عشرين مرة، بينما لم يستخدم لفظ (صهيون) أو (القدس) مرة واحدة[٤٥].

٣ ـ بروتوكولات حكماء صهيون، التي تضمنت المؤامرة الصهيونية لحكم العالم بحكومة استبدادية، مقرها أورشليم ثم روما[٤٦].

٤ ـ مقررات المؤتمرات الصهيونية، التي تجسد التحالف الصهيوني اليهودي/ البروتستانتي العالمي على القدس[٤٧].

وهكذا توارى الحديث عن الهيكل، وحل محله الحديث عن الدولة.

وكما سبقت الإشارة، فعلى عكس التقاليد التوراتية التي نادى بها الأنبياء في التوراة، والتي تقضي بأن القدس لا تبنى بالقوة العسكرية، وأن صهيون لا تبنى بالدم، ولكن بيد العناية الإلهية، أي بإرسال المسيح اليهودي المخلص ... على عكس كل ذلك، نجد التحالف الصهيوني اليهودي البروتستانتي قد أنشأ دولة إسرائيل كدولة عسكرية على أيدي كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، دون اهتمام يذكر بهيكل ما، بل انصب الاهتمام على تفوق الدولة عسكريا على كل جيرانها، حتى أصبحت الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تمتلك سلاحا نوويا[٤٨].

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) للمزيد من التفاصيل ، راجع :

- **الكتاب المقدس، العهد القديم**، طبعة دار المقدس بالشرق الأوسط، توزيع معهد الدراسات القبطية بالمقر البابوي بالقاهرة، أسفار (التكوين ـ الخروج ـ التثنية ـ يشوع ـ القضاة ـ صمويل الأول ـ عزرا).

- **دائرة المعارف اليهودية**، جـ ٨، ص ٣٥٨، نقلا عن : ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ط٦، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٢، ص ١٥٣.

- د. محمد خليفة حسن، **عروبة القدس في التاريخ القديم مع نقد تحليلي لصورة أورشليم في العهد القديم**، رسالة المشرق (الجيزة ـ مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة)، ١٩٩٥، ص ص ٩ ـ ٥٣.

- محمد أحمد أبو الفوارس، **هل لبني إسرائيل حقوق توراتية في فلسطين العربية**، ط٢، القاهرة، بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

- محمد سبعاوي، القدس عربية بنص التوراة، **سطور** (القاهرة)، أغسطس، ١٩٩٧، ص ٣٥.

- أحمد عبد الوهاب، القدس في الأسفار الإسرائيلية، **الأهرام** (القاهرة)، ٢٥/ ٨/ ١٩٩٨.

- د. محمد جلاء إدريس، **أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي**، ط١ (القاهرة)، مركز الإعلام العربي، سلسلة كتاب القدس، أبريل / نيسان ٢٠٠١، ص ص ١٤ ـ ٢٦.

(٢) **التوراة** ، سفر التكوين، إصحاح ١٢، آية ٥/ ٦.

(٣) أسعد السحمراني، **من اليهودية إلى الصهيونية ـ الفكر الديني اليهودي في خدمة المشروع الصهيوني**، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٣، ص ٢٧.

(٤) إدريس، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات نفسها.

ـ د. محمد عبد الله الشرقاوي، **الكنز المرصود في فضائح التلمود**، ط١، بيروت، دار عمران، ١٩٩٣، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٥) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مجلد ١، جـ ٢، ترجمة محمد بدران، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص ٣٥٠.

(٦) د. سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠، ص ٣١ ـ ٥٨.

(٧) **المرجع نفسه**، ص ٥٥.

(٨) ابن كثير، **قصص الأنبياء**، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ت، ص ٢٤٩.

(٩) د. عبد التواب مصطفى، **المخطط الصهيوني ـ تاريخ وأبعاد المؤامرة**، ط ١ ، القاهرة، دار الجمهورية للصحافة، سلسلة «كتاب الجمهورية»، عدد يونية / حزيران ٢٠٠٨.

(١٠) محمد فؤاد عبد الباقي، **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان** (البخاري ومسلم)، ط١، جـ١، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٨٧، ص ١٠٤، حديث رقم (٢٨٩).

(١١) سورة الكهف، آية : ٢١.

(١٢) سورة الإسراء، آية : ٧.

(١٣) ابن خلدون، **المقدمة**، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

(١٤) أحمد بهجت، **أنبياء الله**، ط ١٤، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧، ص ٢٧٧ ـ ٢٩١.

(١٥) ابن كثير، قصص الأنبياء، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٠٣.

(١٦) د. محمود حمدي زقزوق (إشراف)، **موسوعة المفاهيم الإسلامية**، القاهرة، إشراف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٨، ص ١٥.

(١٧) سامي محمد عبد الحميد، **القدس في اليهودية والمسيحية والإسلام**، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠١، ص ٩٠ ـ ٩١.

(١٨) ابن خلدون، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٣١٩- ٣٢١.

(١٩) د. إبراهيم بن ناصر الناصر، بنو إسرائيل والمسجد الأقصى- تاريخ ووقفات، **البيان** (لندن)، مايو/ آيار ٢٠٠٢، ص ٣٢ ـ ٤١.

(٢٠) ابن كثير،**مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥ ـ ١٩٨.

(٢١) بهجت، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات ذاتها. و: ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، مجلد ا، جـ٢، ص ٣٣٦.

(٢٢) عبد الحميد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢٣) ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

(٢٤) ناجي ونيس، البقرة الحمراء ـ **هل هي بداية الهيكل اليهودي ونهاية العالم**، ط٢، القاهرة، مطبعة الأنبارويس، ١٩٩٨، ص ٢٥ ـ ٢٨.

(٢٥) عبد الحميد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢، ٨٩.

(٢٦) ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠

(٢٧) عبد الحميد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٢٨) ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦١.

(٢٩) **إنجيل متى**، الإصحاح ٢١، الآيتان ١٢ ، ١٣.

(٣٠) **سورة المائدة**، الآيتان : ٧٨ ، ٧٩.

(٣١) **سورة الإسراء**، الآيات: ٤ ـ ٧.

(٣٢) عبد الحميد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٣.

(٣٣) د. منى كاظم، **المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية**، أبو ظبي، الاتحاد للصحافة والنشر، ١٩٨٦.

(٣٤) د. محمد خليفة حسن، **الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي**، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، د.ت، ص ٨٢.

(٣٥) مصطفى، **مصدر سبق ذكره**، ص : ١٣٣- ١٤٥ و : ١٤٩ ـ ١٦١.

(٣٦) سعود المولى، مفارقات الصهيونية الدينية والسياسية، **شؤون الأوسط** (بيروت)، يونيو/ حزيران ١٩٩٨، ص ١٩ ـ ٣٨.

(٣٧) حسن الرشيدي، جذور التيارات الفكرية في الحياة السياسية الإسرائيلية، **البيان** (لندن)، يونيو/ حزيران ٢٠٠١، ص ٨٢ ـ ٨٨.

(٣٨) د. جعفر هادي حسن، **اليهود الحسيديم**، ط١ ، دمشق، دار القلم، ١٩٩٤، ص : ٢ ـ ٥، ٩٤، ١٨٥ ـ ١٨٨، ٢٢٦ ـ ٢٥٩.

(٣٩) للمزيد ، انظر:

- د. رشاد عبد الله الشامي، **القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة**، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، يونيو/ حزيران ١٩٩٤.

- المولى، **مصدر سبق ذكره**.

- تقرير إخباري، **الوفد** (القاهرة)، ٢٨/ ١١/ ١٩٩٩).

(٤٠) محمد السماك، **الصهيونية المسيحية**، ط٢، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٣، ص ٣٥.

(٤١) مصطفى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢ ـ ٨٣.

د. عبد الوهاب المسيري (تأليف وإشراف)، **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية**، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٥، ص ٤٢٥.

(٤٢) د. المسيري، **المصدر نفسه**، ص ٤٥٠.

(٤٣) أنيس صايغ (إشراف)، **الفكرة الصهيونية ـ النصوص الأساسية**، ترجمة لطفي العابد، وموسى عنز، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، سلسلة «كتب فلسطينية»، عدد ٢١، يونيو/ حزيران ١٩٧٠.

(٤٤) **المرجع نفسه**، ص: ٦٧، ٦٨، ٧٩-٨٠.

(٤٥) تيودور هرتزل، **الدولة اليهودية**، ترجمة محمد يوسف عدس، القاهرة، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٤.

(٤٦) محمد خليفة التونسي (ترجمة)، **بروتوكولات حكماء صهيون**، القاهرة، مكتبة التراث، د.ت.

(٤٧) مصطفى، **مصدر سبق ذكره**، ص: ١٥٥-١٥٧، ٢٠٤.

(٤٨) **المرجع نفسه**، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧ ـ جريس هالسل، **النبوءة والسياسة**، ترجمة محمد السماك، ط٤، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ص ١٥٢ ـ ١٥٦.

* * *

الفصل السادس

الاستيطان في القدس

د. أمل خليفة

يعتبر الاستيلاء على الأرض، وطرد أهلها، ثم السكن مكانهم، هو الأساس الذي بني عليه المشروع الصهيوني، وبغير الاستناد إلى هذا المفهوم لم يكن من المستطاع، أبدًا، تحقيق أى خطوة من المشروع الصهيوني، ولا إقامة دولة لليهود.

بعبارة أُخرى، إذا كانت السيادة لا تتحقق على «أرض ما» إلا عن طريق التواجد عليها، فالسبيل الوحيد، وفق المفهوم الصهيوني، هو الاستيلاء على هذه الأرض، واستيطانها بعد إجلاء أهلها عنها.

إذا كان الاستيطان هو المضمون الأساسي للمشروع الصهيوني في أرض فلسطين، على وجه العموم، فكيف بالقدس؟ وكما يقول البعض فإن القدس عند الصهاينة هي مزيج متجانس من القداسة والسياسة، ودواعي الأمن.

وإذا كان المشروع الصهيوني يقوم على استغلال الرموز الدينية، وتوظيفها، فالقدس هي «مدينة داود»، والموضع الذي ذكرته التوراة، ومجَّدته، فلا غرابة أن تكون محط أنظار الصهاينة الفاتحين، الذين جاءوا ليعيدوا «مملكة اليهود».

بهذا الفهم لنا أن نتصور مدى شوق قادة المشروع الصهيوني لرؤية حلم «القدس اليهودية» يتحقق، وقدر اندفاعهم للقيام بهذه المهمة المقدسة، في نظرهم.

عندما تم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، في عام ١٩٤٨، كان من البديهي أن تتجه الأعين صوب مدينة القدس، وعلى الرغم من أن قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧) نص على تدويل مدينة القدس، فإن عصابات

الصهاينة استماتوا للحصول على القدس القديمة، وما حولها، لكنهم لم يتمكنوا من الظفر بالقدس القديمة، وتوقفوا عند الجانب الغربى من المدينة.

يقول مناحم بيجين عن حرب عام ١٩٤٨: «... وحارب فتياننا معركة بطولية في مدينة القدس القديمة ... صمد المدافعون عن المدينة القديمة في شجاعة مذهلة، واستمرت المعركة عدة أسابيع، وعندما سقطت مدينة داود المدينة القديمة في أيدي العدو (يقصدنا نحن بالطبع)، انتابنا جميعًا حزن عميق»[١].

لكنهم ـ بعد عشرين عامًا ـ نالوا ما أرادوه، عندما اندفع جنودهم نحو المدينة القديمة، عام ١٩٦٧، وبسطوا سطوتهم على كامل المدينة، بشقيها: الشرقي، والغربي. وقف موشيه دايان أمام الحائط، وأعلن أن «جيش الدفاع الإسرائيلي قد وحّد المدينة المقسمة مرة أخرى». أردف: «لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قداسة ... لقد عدنا، ولن نتركها أبدًا، مرة أخرى ...»[٢].

كانت فرحتهم غامرة، وكان شوقهم لتملك المدينة بكاملها كبيرًا، كما قالت جولدا مائير:

«لم يكن شعورًا بالنصر، بل موجًا عارمًا من الآمال بنشوة الانتصار، بسعادتنا بعودة العيش المطمئن الهادئ الذي عم الأحياء اليهودية .. أحسسنا به في كل نبض من حياتنا، لقد أخذت إسرائيل كلها نوعًا من العطلة استغرقت الصيف بكامله، ولا أظن أن عائلة واحدة لم تشعر بوجوب أخذ عطلة طويلة للذهاب إلى الأرض المقدسة، التي طُردنا منها مدة ٢٠ عامًا. لقد تجمهر الناس فى القدس القديمة بين الركام، وأمام المبكى، وراحوا يبكون ويصلون ...»[٣].

منذ تلك اللحظة، بدأ، فعليًّا مشروع استيطان القدس الشرقية، فبعد أن ملكوا الجانب الغربي من القدس عام ١٩٤٨ بدأ الماراثون الإسرائيلي للسيطرة على المدينة بكاملها، وتغيير معالمها، بهدف تهويدها، وإنهاء الوجود الفلسطيني فيها.

الاستيطان داخل المدينة القديمة

كان من المتفق عليه، منذ زمن، أن المدينة القديمة مقسمة إلى أربعة أقسام، يحددها خط طولي، يمتد من باب العمود شمالًا نحو باب النبى داود جنوبًا، وخط عرضي من بوابة الخليل حتى باب السلسلة، في سور الحرم القدسي.

على الرغم من هذا التقسيم، فإنه من المعروف أن الأهالي كانوا يختلطون فى الأحياء، وتتناثر الكنائس في الحي الإسلامي، كما نجد المساجد في باقي الأحياء بلا غضاضة.

أما الحي اليهودي، فلم يمثل سوى حوالي ١١٪ من مساحة المدينة، وإن لم يمتلك اليهود منها، قبل عام ١٩٤٨، إلا ١٠٥ بنايات، من مجموع ٧٠٠ بناية، وامتلك الفلسطينيون الباقي منها.

كنتيجة لحرب عام ١٩٤٨، خرج اليهود من المدينة القديمة، وأصبحت حارة اليهود فارغة تمامًا من السكان، وأودعت الأملاك اليهودية فى المدينة لدى «حارس أملاك الغائبين» الأردني، وبقيت على حالها دون تغييرات تذكر. وإن تم إسكان بعض اللاجئين المطرودين من سكان القدس الغربية في حارة اليهود الخالية من السكان.

المرحلة الأولى للاستيطان

ما إن أكملت قوات الصهاينة سيطرتها على مدينة القدس القديمة، في السابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، حتى تحركت الجرافات الإسرائيلية لتبدأ مخططها في القدس القديمة، واللافت أن السلطات الإسرائيلية لم تنتظر نهاية المعركة، أو حتى وقف إطلاق النار، وإنما سارعت بإتمام مهمتها على عجل، وكأنما كانت قد خططت للأمر من ذي قبل.

ففي الحادي عشر من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، أي بعد احتلال القدس بأربعة أيام فقط، صدر القرار الإسرائيلي بهدم حارة المغاربة الملاصقة للحرم القدسي عند «حائط البراق»، وأمهلت سلطات الاحتلال أهل حارة المغاربة ثلاث ساعات، فقط، للخروج من بيوتهم، قبل أن تسوي الجرافات حارتهم بالأرض. وبذلك تم طرد ٦٥٠ نسمة من المدينة القديمة (١٣٥ عائلة)، قبل أن يمر الأسبوع الأول من دخول القوات المحتلة إلى القدس.

كان الهدف من هدم حارة المغاربة التاريخية ـ التي ترجع نشأتها إلى الفترة الأيوبية ـ معروفًا، وهو توسيع الساحة التي تطل على حائط البراق. وبذلك صار حائط البراق حائطًا للمبكى، بينما تحولت حارة المغاربة إلى ساحة للبكاء أمام الحائط.

تسابقت العائلات اليهودية إلى وضع أيديها على بنايات الحي اليهودي في عشوائية، مما دفع سلطات الاحتلال إلى التصدي لها، لحين الاتفاق على آلية محددة، في سبيل تنظيم الاستيطان اليهودي في الحي.

في نيسان/ أبريل ١٩٦٨، بدأت سلطات الاحتلال مخطط إعادة تعمير الحي اليهودي، وكانت الخطوة الأولى هي مصادرة كامل بنايات الحي، على الرغم من أن غالبية سكانه كانوا ممن سكنوا الحارة قبل عام ١٩٤٨، ولديهم من الأوراق والمستندات ما يثبت ملكيتهم. وبذلك خرج الفوج الثاني من أهل المدينة القديمة، وعددهم ٥٥٠ فردًا، وأنهت «شركة تطوير حارة اليهود» مهمتها، لتظهر إلى الوجود حارة عنصرية، خالية من غير اليهود، استنادًا إلى قرار أصدرته محكمة العدل العليا الإسرائيلية، منع سكنى غير اليهود في حارة اليهود.

بدأت البلدية في تسجيل طلبات الإسكان في القدس القديمة، بينما أصدرت اللجنة التنفيذية للحزب الديني القومي «المفدال» نداء إلى أعضاء الحزب بالانتقال والسكن هناك، بحيث بلغ عدد سكان الحي، في نهاية سبعينيات القرن العشرين، ما يزيد على ١٥٠٠ يهودي.

من العجيب أن السلطات الإسرائيلية بعد أن أسكنت أعدادًا من اليهود في العقارات التى ثبَّتت ملكيتهم لها في الحي اليهودي، تبقى عدد من العقارات لم يتقدم أحد ليطالب بملكيته لها، فما كان من سلطات الاحتلال إلا أن شكلت لجنة خاصة، هدفها المساعدة في استرجاع هذه الأملاك الخاصة باليهود، بأسرع وقت، عن طريق مساعدتهم بتقديم المعلومات. وقد نشرت جريدة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية نداءً لهذه اللجنة المذكورة «تهيب بالمواطنين اليهود التعاون معها، من أجل المصلحة اليهودية المقدسة والمهمة ...، وأن إثبات الملكية ليس صعبًا...»[٤]. وبالطبع، هذا إذا كان المالك يهوديًّا!

المرحلة الثانية للاستيطان

ما إن تأكدت السلطات الإسرائيلية من فرض سيطرتها على كامل الربع اليهودي، حتى اتجهت الأنظار إلى

باقي أحياء المدينة داخل السور. وكانت عملية السطو على العقارات متعددة الأوجه، فالبيوت تم تصنيفها، وجمع المعلومات عنها، وتنوعت سبل الاستيلاء عليها بين أملاك للغائبين، أو الحجز على العقار للتورط في قروض بنكية، أو لتراكم الضرائب، مع عدم القدرة على السداد، وكذلك ثمة الأغراض الأمنية، والمنفعة العامة، انتهاء بالإغراءات المالية، والبيع عبر السماسرة.

لم يكن الأمر سرًّا، وإنما كان يتم بصورة مقنَّنة. «لقد خصصت الحكومة الإسرائيلية، في نهاية السبعينيات، ميزانيات حكومية معلنة للسيطرة على العقارات العربية في المدينة، ووضعت الأولويات الاستيطانية في قلب أحياء الحارات الإسلامية، وعلى درجة أقل في حارة النصارى... وتوالت السيطرة على العقارات، حتى بلغ مجموع العقارات التي استولى عليها المستوطنون خارج الربع اليهودي ٥٦ عقارًا، موزعة على الأحياء المختلفة ... هذا بالإضافة إلى مبانٍ متناثرة في حارة النصارى ...» [٥].

«(بيت بعد بيت، وتكون المدينة القديمة لنا) هذه العبارة أطلقها أحد المستوطنين القدامى في القدس، وتحولت إلى دليل عمل بالنسبة للصهاينة، الذين اندفعوا للتغلغل في أحياء القدس، ساعين إلى امتلاك كل شبر يتيسر لهم الاستيلاء عليه من أملاك العرب، وأوقافهم الإسلامية والمسيحية، مستخدمين في ذلك كل وسائل الترغيب والترهيب، بدءًا بعرض أموال طائلة، وصولًا إلى التهديد بالقتل، وما بين هذا وذاك عمليات الاحتيال والسرقة» [٦].

بمرور الوقت، ازداد طمعهم في المدينة، وتعالت الصيحات المنادية بتكوين «حي يهودي مصغّر» داخل الحي المسلم، ومما يدل على مدى خطورة الأمر، وأهميته في السياسة الإسرائيلية، قيام شارون، في منتصف ثمانينيات القرن العشرين ـ وكان وزيرًا للحرب وقتها ـ بالاستيلاء، بصفته الشخصية، على مبنى يقع بالقرب من باب العمود، على المحور الرئيسي، الذي يؤدي إلى الحرم القدسي، واختياره ليكون بيتًا له، ضاربًا بنفسه المثل، ليحتذي به الآخرون، ورفع شمعدانًا سباعيًّا ضخمًا فوق البيت، كما وضع علمًا لإسرائيل بطول البناية. ومن المعروف أن الشمعدان السباعي رمز توراتي.

جدير بالذكر أن الصهاينة قد ثبّتوا على أبواب البلدة القديمة، بعد احتلالها، ما يسمونه «المزوزاه»، وهي عبارة عن تميمة يهودية يعلقونها على بيوتهم، باعتبار أن هذا هو الإجراء النهائي الذي يدل على أن المدينة يهودية، تمامًا، وبها مقاطع من التوراة، بالإضافة إلى كلمة «شداي»، وهي الأحرف الأولى من الجملة العبرية «شومير دلاتوت يسرائيل»، ومعناها «حارس بوابات إسرائيل» [٧].

خارج المدينة القديمة

لم تكن أطماع اليهود محصورة فى المدينة القديمة داخل الأسوار فحسب، وإنما الهدف هو الاستيلاء على كامل المدينة؛ ولذا فقد سار مخطط الاستيطان خارج المدينة موازيًا للاستيطان داخلها. ففي الحادي عشر من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، وبينما كانت الجرافات تهدم حي المغاربة في داخل المدينة القديمة، كانت الحكومة الإسرائيلية، بكامل هيئتها، تعقد أول جلسة لها بعد الحرب، وفي هذه الجلسة المبكرة اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارها بالبدء باستيطان المدينة العربية. وطلب رئيس الحكومة من وزير المالية تخصيص ١٠ ملايين ليرة إسرائيلية، على الفور، لهذا الغرض [٨].

لسابع والعشرين من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ (بعد عشرين يومًا، فقط، من احتلال المدينة) اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارًا بضم القدس العربية إلى إسرائيل، بعد أن حصلت تلك الحكومة على موافقة الكنيست، وقد كان هذا القرار جماعيًا، اتفقت عليه الأحزاب العمالية واليمينية على السواء.

في اليوم التالي، تم الإعلان عن توسيع حدود القدس الشرقية، كما تم حل مجلس أمانة القدس المنتخب عام ١٩٦٣، ومصادرة أملاكها، وإبعاد أمين القدس، روحي الخطيب، إلى الأردن.

خطة الاستيطان الأولى

«وفي بداية تموز/ يوليو ١٩٦٧، عين رئيس الحكومة، ليفي أشكول، يهودا تمير، نائب المدير العام لوزارة الإسكان، مسئولًا عن توطين القدس الشرقية، وطلب منه وضع خطة تهدف إلى نقل أكبر عدد من اليهود إلى القدس... بأقصى سرعة ممكنة»[٩].

خلال أسبوعين، سلم تمير الخطة، وبذلك تم وضع أولى الخطط الاستيطانية المتعلقة بالمدينة موضع التنفيذ، وأصبحت هذه الوثيقة بمثابة المرشد، أو الدليل لسياسة البناء الإسرائيلية في القدس الشرقية. وكان مضمون هذه الخطة، التي تبنتها الحكومات الإسرائيلية المتتالية، هي السعي لإيجاد حالة من التواصل العمراني اليهودي بين شطري المدينة، من الشمال والجنوب، بهدف تحويل المدينة، بشطريها، إلى مدينة واحدة ذات أغلبية يهودية مطلقة.

إذا كان الاستيطان الصهيوني في فلسطين، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، قد مثّل الأداة الرئيسية للحركة الصهيونية في تحقيق برنامجها بإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، فقد اكتسبت، خلال تلك الفترة، الكثير من الخبرات والأساليب في هذا المجال؛ لذا فما أن بسط الصهاينة أيديهم على القدس، حتى وضعوا كافة خبراتهم الاستيطانية التوسعية موضع التطبيق.

خلال الأشهر الأولى من احتلال القدس الشرقية، وضعت الحكومة الإسرائيلية يدها على ممتلكات واسعة من أراض وعقارات، مسجلة باسم الحكومة الأردنية كأملاك دولة، باعتبار أن السلطات الإسرائيلية صارت وريثة للحكومة الأردنية، مما كان يتيح الفرصة للمسئولين الإسرائيليين أن يصرحوا، بثقة، بأن هذه المستوطنات إنما تم بناؤها على أملاك الدولة.

استندت السلطات الإسرائيلية في مساعيها لتصفية الأملاك العربية في القدس الشرقية وضواحيها إلى مجموعة من القوانين، ووفقًا لهذه القوانين المتداخلة، فإن صلاحيات المصادرة في إسرائيل صارت ممنوحة لعدد من الوزارات، كالمالية، والزراعة، والعمل، والداخلية، والمواصلات، والتطوير، والتربية والتعليم، ليصبح الأمر بمثابة ماراثون بين الوزارات لمصادرة أكبر قدر ممكن من الأراضي تحت مختلف المسميات والأغراض.

على أن غالبية المصادرة في القدس الشرقية قد جرت بناء على (قانون الاستملاك للمصلحة العامة)، ونظرًا لأن هذه «المصلحة العامة» التي تبيح الاستيلاء على الأراضي ما هي إلا مجرد اصطلاح بغير تعريف محدد؛ لذا فقد أصبحت تتسع لبناء ملاعب الرياضة والمتنزهات. وبذلك أصبحت مجالات استخدام هذا القانون كثيرة ومتنوعة، ولا عجب أن يصبح داخل نطاق المصلحة العامة الاستيطان اليهودي على أراضي العرب بعد طردهم منها.

لعل من المستهجن أن البعض ممن طردوا من مساكنهم حاولوا شراء، أو استئجار شقق من التي بنيت على أراضيهم السليبة، لكنهم لم يتمكنوا بذريعة أنها بنايات مخصصة لمن أدوا الخدمة العسكرية من اليهود، لكن الأعجب من ذلك أن هذه البنايات قد سكنها، بالفعل، بعد ذلك أعداد كبيرة من اليهود المتدينين، الذين يعفيهم القانون الإسرائيلي من أداء الخدمة العسكرية.

الأطواق الاستيطانية حول المدينة

بانتهاء حقبة الستينيات، كان البناء قد بدأ في ثلاث مستوطنات إسرائيلية دفعة واحدة: رامات أشكول، جعفات همفتار، التلة الفرنسية. ويمثل الثلاث معًا حلقة للربط بين الأحياء في القدس الغربية والقدس الشرقية من الجانب الشمالي فيما يشبه القوس.

شهدت سبعينيات القرن العشرين طفرة ملحوظة في النشاط الاستيطاني، وبخاصة في القدس، فقد ظهرت حركات يهودية متدينة تفسر ما حاق بالجيش الإسرائيلي في حرب عام ١٩٧٣ بأنه «غضب الرب»! وتنادي بالمضي قدمًا في المشروع الصهيوني إرضاءً للرب. وكانت جماعة «غوش إيمونيم» على رأس هذه الجماعات، كما تزامن ذلك مع صعود أحزاب أقصى اليمين الإسرائيلية (الليكود) لأول مرة إلى الحكم.

يقول ميرون بنفينيستى، نائب رئيس بلدية القدس السابق:

«وبعد اتفاقية فض الاشتباك، لعام ١٩٧٤، عكفت حكومة رابين الجديدة على تنفيذ برنامج استيطاني طموح . . . واقترح وزير الإسكان، إبراهام جوفز، تطويق القدس بعدد من المدن الصغيرة على امتداد دائري بعمق ١٥ كم حول حدود القدس الكبرى ... غير أن القوة السياسية المحركة للنشاطات الاستيطانية، فيما بين عامي ١٩٧٥و ١٩٧٧، كانت حركة (غوش إيمونيم)، التي تأسست عام ١٩٧٤، بهدف الاستيطان في جميع أجزاء (أرض إسرائيل)..»[١٠].

كل ذلك كان إيذانًا بفتح الباب أمام كل من يريد البناء والاستيطان من الإسرائيليين بصورة عشوائية، حتى ولو كان بغير تنسيق مع أجهزة الدولة، أو أخذ إذن من أي جهة، بغرض الشروع في بناء بؤرة استيطانية اليوم تكون نواة لمستوطنة كبيرة في الغد.

«وعد مناحم بيجن، ليلة الانتخاب عام ١٩٧٧ ... أنه سوف يكون هناك الكثير من (إيلون موريه) [كإشارة ضمنية إلى مستوطنة حركة غوش إيمونيم بالضفة، التي كثر الجدل حولها]،... وأثناء السبع سنوات التي قضاها بيجن في السلطة حافظ على وعده بالإكثار من إيلون موريه، صبّت الأموال في المستوطنات ... وعندما تقاعد بيجن أطلق خليفته، إسحاق شامير رئيس الوزراء، على شؤون الاستيطان في الضفة الغربية اسم (العمل المقدس الذي لا يمكن تأجيله)... »[١١].

كانت سياسة التطويق المقصودة واضحة، فالمطلوب من المستوطنات أن تتواصل على شكل أطواق تحيط بالمدينة القديمة، محققة الالتحام بينها وبين القدس الغربية، في الوقت الذي تمنع فيه التواصل بين التجمعات السكنية الفلسطينية، ويتم عزلها عن بعضها البعض، مع عدم ترك مساحة لتمددها الطبيعي.

كان الأمر حيويًا، مما دعا إلى إنشاء عدد من الوزارات واللجان الوزارية لشؤون القدس، هدفت جميعها إلى تغيير روح المدينة، وشكلها، وواقعها الديموغرافي.

ثم جاءت نقطة الذروة فى القوانين الإسرائيلية المتعلقة بالقدس، عندما أعلن الكنيست، في ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٨٠، أن القدس الموحدة «عاصمة إسرائيل الأبدية».

تحولت الوعود الاستيطانية في القدس إلى ورقة رابحة في يد الأحزاب المرشحة للانتخاب، وأخذت الأحزاب السياسية تدخل الاستيطان في برامجها الانتخابية. ففي عام ١٩٩٢ أعلن حزب العمل عن مبادئه التي جاء في بندها الخامس:

«القدس ومحيطها ليست قضية سياسية أو أمنية، ولكنها روح الشعب اليهودي. القدس عاصمة إسرائيل، وستبقى مدينة موحدة تحت السيادة الإسرائيلية، مع ضمان حرية العبادة لجميع الأديان، ومنح مكانة خاصة للأماكن المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين»[١٢].

الاستيطان في القدس واتفاقات التسوية

مما يدل على أن الاستيطان سياسة إسرائيلية مزمنة، لا علاقة له بالتطورات الخارجية في الصراع، أن الحركة الاستيطانية لم تتوقف ـ ولو حتى بغرض ذر الرماد في العيون ـ عقب «اتفاقات أوسلو».

«بعد سنوات على توقيع (أوسلو) عاد الصهاينة إلى استخدام ذات الخطاب الذي أعقب احتلالهم الضفة والقطاع، الحديث عن (أرض الوعد الإلهي)، وعن أن التخلى عن أراضي (يهودا والسامرة)، مخالفة لأوامر الرب، لتصبح (غوش إيمونيم) البرنامج السياسي الحقيقي للحكومات الصهيونية»[١٣].

قد نشرت صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية، بتاريخ ١٩/ ٢/ ١٩٩٦، أن مرشح الليكود لرئاسة الحكومة، بنيامين نتنياهو، أعلن: «أن الانتخابات سوف تكون عبارة عن استفتاء شعبي حول مستقبل القدس»[١٤].

كان قرار توسعة بلدية القدس، عام ١٩٦٧، من أول قرارات الحكومة الإسرائيلية الطامحة إلى توسعة حدود المدينة، لكن هذه التوسعة الأولى لم تكن كافية لاستيعاب طموح الصهاينة، ومع بداية سبعينيات القرن العشرين، ظهر مصطلح جديد، وهو (القدس الكبرى).

«قدم شوئيل نامير، عام ١٩٧١، مشروعًا إلى الكنيست سمي مشروع (القدس الكبرى)، ليشمل، بالإضافة إلى القدس، ثلاث مدن وسبعًا وعشرين قرية فلسطينية، والمدن هي: بيت لحم، وبيت جالا، وبيت ساحور. وقد عاد الإسرائيليون إلى الحديث عن هذا المشروع في عام ١٩٧٤. ويمكن باستقراء مؤشرات النشاط الاستيطاني القول إن هذا المشروع هو قيد التنفيذ عمليًا، فالاستيطان يتمدد في ضواحي القرى ومحيطها بوتيرة عالية ...»[١٥].

بيد أن عقبة كبيرة اعترضت طريق هذا المشروع تمثلت في الكتل السكانية داخل المدن الفلسطينية، مما شكل خطرًا ديموغرافيًا على مشروع القدس اليهودية الموحدة.

مع مطلع هذا القرن، ودخول الجدار العازل حيّز التنفيذ، كان للقدس وضعها الخاص، وجدارها الخاص بها، وهو ما أطلقوا عليه اسم (غلاف القدس)، وقد تكفل الجدار حول القدس بتقديم الحلول للمشكلة الديموغرافية؛ فهو ثعبان يتلوى من حول القدس، يلتف ليضم إليه التكتلات الصهيونية، طاردًا المدن الفلسطينية خارجه.

مع تخطيط غلاف القدس تغيرت حدود بلدية القدس المضمومة إلى إسرائيل بالقرار الأحادي الإسرائيلي، وبذلك تم ضم عدد من المستوطنات الإسرائيلية إلى القدس، وأهمها «كتلة أدوميم»، التي يسكنها أكثر من ٢٠ ألف نسمة، وفي المقابل يخرج الجدار من البلدية عددًا من المدن والقرى الفلسطينية، أهمها أبو ديس، وعناتا، والرام. وكلها قرى مقدسية منذ القدم.

مستوطنة معاليه أدوميم والخطة E١

على الرغم من أن مشاريع التسوية كانت كلها تشير إلى وقف الاستيطان، و«خارطة الطريق»، التي تعد مرجعًا للتسوية، نصَّت صراحة على ضرورة «تجميد الاستيطان»، فإن المشاريع الاستيطانية حول القدس لا تكاد تهدأ، صحيح أنه استيطان مصحوب بتأكيدات وتصريحات بأنه لا بناء لمستوطنات جديدة، بغرض تجنب الانتقادات الدولية، وإنما هي إقامة مرافق عامة، تتعلق بالمستوطنات القائمة، أو إنها لا تتعدى كونها عملية استصلاح لبعض الأراضي الوعرة، والأماكن المهجورة. إلا أنها كلها ذرائع ساذجة، تعجز عن تسويغ ما يسمى بسياسة «تسمين المستوطنات».

تظهر، بين الحين والآخر، تصريحات للمسؤولين الإسرائيليين، تبعث رسائل الاطمئنان للجميع، وتؤكد عدم التخلي أو التنازل عن القدس اليهودية، أو المستوطنات الإسرائيلية في القدس الشرقية. ومما يذكر أنه عند تشكيل «حزب كاديما»، صرح قادته بأن من أساسيات برنامجه (القدس الموحدة).

في مطلع عام ٢٠٠٥، أعلنت حكومة الاحتلال عن عطاءات في المنطقة التي تفصل مستوطنة «معاليه أدوميم» عن القدس القديمة، وذلك بغرض توسيع رقعة المستوطنة لخلق تواصل بينها وبين المدينة القديمة. لتصبح جزءًا منها، ولقد تسببت الضغوط الأمريكية في وقف العمل بالمشروع لفترة، وإن كانت الأعمال التمهيدية للبناء قد تواصلت.

جدير بالذكر أن مستوطنًا يهوديًّا أرسل إلى الرئيس جورج دبليو بوش، أثناء زيارته الأخيرة إلى الكنيست في ذكرى احتفالات الستين عامًا على قيام إسرائيل، ناشده فيها، ورجاه، رجاءً حارًّا، أن يبارك هذا المشروع الاستيطاني الوليد، وألا يقف أمام هذه المهمة المقدسة. لكن يبدو أن الإدارة الأمريكية ستستمر في الضغط على الحكومة الإسرائيلية حتى لا تتوسع بالاستيطان في القدس، وما حولها، وذلك بغرض الإبقاء على «شيء» يتفاوضون عليه في جلسات التفاوض التي لا نهاية لها.

وبعد، ما هو مدى نجاح الاستيطان في القدس؟ وهل نجحوا بالفعل، في تهويدها؟

صحيح أن كل المغتصبين الصهاينة قد تباروا في رفع الأعلام الإسرائيلية على البيوت السليبة داخل المدينة القديمة بصورة مكثَّفة، مما جعل البعض يقول إن أي زائر للمدينة له الحق في أن يظن أنها قد تم تهويدها بالكامل.

وصحيح أن القدس أصبحت محاطة من جميع الجهات بطوق استيطاني شبه مكتمل، بحيث لا نستطيع مغادرة المدينة بالاتجاهات الأربعة ـ ثلاثة منها باتجاه الضفة ـ من دون المرور بإحدى المستوطنات.

وصحيح أن البنايات الاستيطانية حول القدس تسد الأفق، أينما توجهت الأنظار.

وصحيح أن الحكومة الإسرائيلية لا تقف وحيدة في دعم الاستيطان، فالرعاة الرسميون للمشروع الاستيطاني في

القدس كثيرون، فعلى سبيل المثال «ساهمت شركة أمريكية، مثل (كوفي بن) للقهوة، و(أنتل) للحواسب، في العمل لتعزيز الوجود اليهودي في القدس فقد افتتحت الأولى فرعًا لها في المدينة، وقامت الثانية باعتماد خطة لتطوير مصانعها في القدس لاستيعاب ألف عامل جديد. ووجه اليهود أموالًا لشراء عقارات في القدس، فيما نشرت معطيات عن أن ٤٣ جمعية، ومركزًا، ومؤسسة دينية يهودية في الولايات المتحدة، وأوروبا، تجمع التبرعات لتعزيز الاستيطان داخل أسوار البلدة القديمة للقدس ...»[١٦].

كل هذه حقائق، لكنها ليست كل الحقائق. وبعبارة أخرى، فإنه يمكن القول إن للحقيقة وجهًا آخر.

فأهل القدس يقاومون مقاومة جسورة للتشبث بمدينتهم، ويرابطون في دورهم صامدين أمام صنوف الترغيب والترهيب، ويتحايلون على القوانين الإسرائيلية الجائرة، حتى أن بعض المصادر ذكر بأنهم [illegible]ون برشوة موظفي الضرائب الذين يلاحقونهم للحجز على بيوتهم.

أما اليهود، الذين تقدم لهم السلطات الإسرائيلية التسهيلات والإغراءات للقدوم، والسكنى في القدس، فإن أعداد الذين يغادرون المدينة منهم، مفضلين عليها أماكن أخرى، في ازدياد. ووصل الأمر عام ٢٠٠٥ أن أعداد النازحين عن القدس كانت أكبر من أعداد القادمين إليها، فقد قدم إليها حوالى ١١ ألفًا، في الوقت الذى هجرها حوالي ١٨ ألف يهودي، أي بفارق ٧ آلاف مهاجر سلبي[١٧].

إن القدس الشرقية، بعد كل هذه المحاولات المستميتة لتغليب أعداد اليهود عليها، لا تزال الغلبة فيها للعرب الفلسطينيين؛ فتعدادها لسنة ٢٠٠٦ قد بلغ ٤١٣ ألفًا، منهم ٢٣١ ألف فلسطيني (٥٦٪)، و١٨٢ ألف مستوطن يهودي (٤٤٪)، وإذا ما احتسبنا أعداد سكان القدس الشرقية والغربية معًا، فإن مجموع سكانها أوائل عام ٢٠٠٧ وصل إلى ٧٢٠ ألفًا، بينهم ٤٧٥ ألف يهودي (٦٦٪)، و٢٤٥ ألف عربي (٣٤٪)[١٨].

لقد توقع «معهد القدس للدراسات الإسرائيلية»، في دراسة أجراها عام ٢٠٠٧، أن تصل نسبة العرب في القدس إلى نصف مجموع سكان المدينة، في عام ٢٠٣٥، مما سيجعل من الصعب، وقتها، الادعاء بأن المدينة هي عاصمة للدولة اليهودية.

كل هذه الحقائق دفعت رئيس البلدية الإسرائيلي، أوري لوبوليانسكي، للتصريح، في ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٥، بأن «أورشليم في خطر، وأنه خلال عشرين عامًا لن تكون القدس عاصمة للشعب اليهودي»[١٩].

وأخيرًا، فإن الصليبيين طردوا أهالي القدس من مدينتهم منذ تسعة قرون، وسكنوا مكانهم مدة ثمانية وثمانين عامًا، وأمعنوا في محو الهوية العربية للقدس، وطمس آثار من عاشوا فيها قبلهم، لكنهم، في النهاية، ذهبوا، وذهبت معهم كل آثارهم، وبقيت المدينة لأهلها الذين عاشوا فيها، وعمروها. ونحن على يقين بأن ما يبنيه الصهاينة، اليوم، سيذهب بدوره، وأن المدينة ستبقى لأهلها، ليعيشوا فيها ويعمروها، وعندها سيحكي الآباء لأبنائهم قصة صمود أهل القدس أمام جبروت الاحتلال، وسيذكر الناس بالخير كل من وقف مع أهل القدس، المرابطين الصابرين، كى يدعمهم، ويشد من عزائمهم.

اللهم ثبِّت أهل القدس المرابطين المجاهدين، وانصرهم على أعدائهم.

آمين .. آمين!

هوامش الفصل السادس:

(١) مناحم بيجين، **التمرد ـ قصة الأرجون**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨، ص٤١٥.

(٢)كارين أرمسترونج، **القدس ـ مدينة واحدة وثلاث عقائد**، ترجمة د. فاطمة كامل، د. محمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص٦٤٢.

(٣)جولدا مائير ، «**الحقد**»، سلسلة «يوميات قادة العدو»، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٨، ص٢٦٧.

(٤) **يديعوت أحرونوت**، ١١/ ٢/ ١٩٧٧، نقلًا عن: سمير جريس، **القدس المخططات الصهيونية**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص٨٨.

(٥) **القدس: المدينة والناس**، مؤتمر اتحاد المهندسين العرب، ورقة د. نظمي الجعبة، بيروت، ١٩٩٩، ص٢١٣.

(٦) نافذ أبو حسنة، **جغرافيا الاستيطان ووهم الدولة**، دار النمير، بيروت ١٩٩٧، ص٤٠.

(٧) رشاد عبد الله الشامي، **الرموز الدينية في اليهودية**، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٨٠.

(٨) **دافار**، ١٢/ ٦/ ١٩٦٧، نقلًا عن : جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧.

(٩) عوزي بنزمان، **القدس مدينة بلا أسوار**، نقلًا عن: **المصدر نفسه**، ص ١١٧.

(١٠) ميرون بنفنيستي، **الضفة الغربية وقطاع غزة ـ بيانات وحقائق أساسية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٧، ص١٦٣.

(١١) د. إدوارد ويتن، **ندوة المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة**، منشورات جامعة الدول العربية، واشنطن، ١٩٨٥، ص٢٤٣.

(١٢) ملخص مبادئ حزب العمل، من قرارات مؤتمر الحزب الخامس عام١٩٩٢، نقلًا عن: **نحو إستراتيجية تجاه القدس**، د. صالح عبد الجواد، (تحرير)، منشورات مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، جامعة بيرزيت عمان، ١٩٩٨، ٥٧.

(١٣) أبو حسنة، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٦.

(١٤) نقلًا عن: عبد الجواد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨.

(١٥) أبو حسنة، مصدر سبق ذكره، ص٣٧.

(١٦) **كتاب القدس ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦**، منشورات مؤسسة القدس الدولية، ٢٠٠٧، ص٢٢.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص٢٠.

(١٨) **التقرير الإستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦**، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ٢٠٠٧، ص٢٣٧.

(١٩) كتاب القدس ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١.

* * *

الفصل السابع

تهويد القدس

مجدي السيد

اكتسبت القدس، عبر تاريخها المديد، أهمية إستراتيجية بالغة؛ نظرًا لبعدها الديني والسياسي شديد التأثير على المنطقة المحيطة بها. فقد كانت، ولا تزال، تمثل صراعًا جدليًا بين الكيان الصهيوني الاستيطاني الإحلالي، وبين أصحاب هذه الأرض، ومالكيها، وهم الفلسطينيون العرب.

إن المخططات الصهيونية، المتعلقة بتهويد مدينة القدس، ترجع إلى بدايات مؤتمر «بال» بسويسرا عام ١٨٩٧، الذي دعا إلى إقامة «وطن قومي يهودي»، وصولًا إلى ما يسمى «إسرائيل الكبرى».

مع قيام إسرائيل، عام ١٩٤٨، على أرض فلسطين، واحتلال تلك الدولة لأجزاء كبيرة من المدينة، وإعلانها القدس عاصمة لها، دخلت القدس مرحلة جديدة في هذا الصراع.

لقد شكلت حرب يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧ نقطة تحول كبرى في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، حيث قامت إسرائيل على إثره باحتلال مدينة القدس، ومنذ ذلك التوقيت عملت جاهدة على السيطرة عليها، وتغيير معالمها بهدف تهويدها، وإنهاء الوجود العربي فيها، وقامت دولة الاحتلال بالعديد من الإجراءات، والتدابير، وإصدار القوانين ضد المدينة وأهلها، والذي تمثل في مصادرة وإزالة الأراضي العربية، وتهجير أهلها، وبناء العديد من المستوطنات اليهودية في الجزء الشرقي من المدينة، والاستيلاء على (حائط البراق) فضلًا على العبث بالمقدسات الإسلامية والمسيحية، وانتهاك حرمتها، وتدميرها، بهدف تغيير المعالم الحضارية المميزة لمدينة القدس.

حتى يمكننا فهم عملية تهويد القدس، يجب أن نراها، ليس باعتبارها عملية عشوائية، وإنما باعتبارها مخططًا له أهدافه الواضحة، ويتمثل في تأسيس «القدس الكبرى الموسعة» اليهودية الخالصة، ككتلة استيطانية ضخمة، تمزق ـ

وإلى الأبد ـ الوحدة الجغرافية للضفة الغربية. وفي سياق ذلك، فإن أهداف الصهيونية، ومتطلبات الدولة جعلت من التهويد «judaization» أو الأسرلة للجغرافيا العربية لفلسطين، بهدف طمس المعالم العربية، وذلك إما عن طريق التفريغ الجسماني للأهالي العرب من هذه المنطقة، أو عن طريق غلق هذه المناطق، ومنع العرب من استعمالها فعليًا، أو عن طريق زيادة الاستيطان اليهودي[١].

عند الحديث عن الاتفاقيات والتسويات التي تجري بين الكيان الصهيوني، والحكومات العربية المتعاقبة، فلسطينية وغير فلسطينية، فإن أي طرح سياسي لإنهاء الصراع يستبعد عودة القدس للعرب كاملة لا يتوقع له أن يحظى بالاستقرار أو الاستمرار.

اغتصاب وتهويد القدس

«لماذا لا تعاد فلسطين إلى اليهود ثانية؟! فعلى أساس توزيع الله للأمم فلسطين هي وطنهم، إنها ملك لهم، طردوا منه بالقوة، وخلال وجودهم فيه كان وطنًا غزير الثمار، وكان يؤوي الملايين من اليهود، الذين أقاموا فوق تلاله ووديانه المصانع، والمزارع، وكانوا شعبًا صناعيًا وزراعيًا، كما كانوا تجارًا على درجة كبيرة من الأهمية، كانوا مرتكزًا للدين، والحضارة، فلماذا لا تبادر القوى الدولية، بموجب معاهدة «برلين» سنة ١٨٧٨، والتي أعطت بلغاريا للبلغار، وصربيا للصرب، أن تعيد فلسطين إلى اليهود؟!»[٢].

هكذا يتم تزييف التاريخ، ويتم الحديث عن فلسطين كوطن تاريخي لليهود، وذلك كما جاء بالمذكرة سابقة الذكر، والتي كتبها القس الأمريكي، وليم بلاكستون، عام ١٨٩١، وجمع عليها توقيعات ٤١٣ شخصية يهودية على مستوى العالم، ورفعت إلى الرئيس الأمريكي، بنجامين هاريسون، تطالب بعقد مؤتمر دولي من أجل «إعادة اليهود إلى فلسطين»[٣].

بالفعل، عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا في أغسطس/ آب ١٨٩٧، ومن ذلك التاريخ بدأت الخطوات العملية والحثيثة لإقامة الاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين، وتحويلها إلى قاعدة للهيمنة الغربية على الشرق العربي.

كانت الغزوة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية قد استهدفت القدس، في مرحلة تسللها، إبان الحكم العثماني الفلسطيني، بين عامي ١٨٨٢ - ١٩١٧، فبدأت بإحضار مهاجرين يهود أوروبيين للعيش فيها، إلى جانب أهلها من عرب فلسطين، الذين كان منهم أعداد قليلة من اليهود، بين كثرة من العرب مسلمين ونصارى[٤].

قررت الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية تفتيت، ووراثة، وتوزيع المشرق العربي، وذلك في اتفاقية «سيكس ـ بيكو» في مايو/ آيار عام ١٩١٦، وقد وقعت الاتفاقية بين فرنسا، وبريطانيا، حيث تم الاتفاق على تقسيم المنطقة العربية إلى مناطق سيطرة، حيث وضعت لبنان وسوريا تحت السيطرة الفرنسية، والأردن، والعراق تحت سيطرة بريطانيا، على أن تبقى فلسطين دولية[٥].

تعتبر الرسالة التي بعث بها وزير الخارجية البريطانية جيمس بلفور عام ١٩١٧ إلى اللورد روتشيلد، أحد زعماء الحركة الصهيونية في تلك الفترة، والتي عرفت، فيما بعد، باسم «وعد بلفور»، أول خطوة يتخذها الغرب لإقامة كيان اليهود على تراب فلسطين[٦].

اعترف في هذا الوعد من قبل حكومة الانتداب البريطاني باليهود شعبًا له كل حقوق الشعوب في أوطانها، وتم التأكيد على الحقوق السياسية لليهود، بينما أشير إلى الشعب الفلسطيني «بلفظ» الطوائف غير اليهودية، مع إغفال الإشارة إلى حقوقهم السياسية، والاكتفاء بالإشارة إلى حقوقهم المدنية والدينية فحسب[٧].

شرعت سلطات الانتداب البريطاني في تطبيق «وعد بلفور»، فسهلت عمليات الاستيطان اليهودي، كما أسهمت في إنشاء المؤسسات الثقافية، والدينية اليهودية في المدينة، وفي شراء الأراضي العربية، وغيرها في منطقة القدس، ومحيطها، وعلى الأخص غربي البلدة القديمة، واتجهت كذلك إلى تقسيم الأرض بين العرب واليهود، والذي تبلور بقرار الأمم المتحدة، رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧، وذلك بمنح العرب ٣, ١٢٢ كم٢، ومنح اليهود ١٧٧ كم٢، في الوقت الذي كان فيه ٣٣, ٩٤كم٢ من الأراضي الفلسطينية مملوكة للعرب حتى عام ١٩٤٨، غير أن القدس مثلت، عمليًا، العقدة الأساسية أمام هذا القرار؛ ولذلك اتخذ التعامل معها طابع المعالجة الخارجية، عبر فكرة تدويلها كمنطقة قائمة بذاتها[٨].

بدراسة قرار التقسيم السابق، يتبين لنا اختيار الأراضي الساحلية السهلية المميزة لتمنح للكيان الصهيوني، في حين خص قرار الأمم المتحدة العرب بالمناطق الجبلية الوعرة، فهناك تداخل بين أراضي الدولتين المقترحتين، وعزل للجزء الخاص بغزة وما حولها عن بقية الأراضي الفلسطينية، الأمر الذي يؤكد أهمية العوامل الجغرافية كخلفية لاختيار الأراضي التي تمنحها الأمم المتحدة للصهاينة، كي تساعدهم على تكوين دولة قوية آمنة، في حين تم اختيار أراض وعرة، منعزلة عن بعضها، متقطعة الأوصال، لتقوم عليها دولة عربية ضعيفة، تعتمد على العدو في كل مجالات الحياة، ولا تتحقق لها الوحدة العضوية، التي هي أهم شروط الدولة القوية [٩].

مع تراجع نفوذ الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، الإنجليزية، والفرنسية، في الشرق العربي، وحلول النفوذ الاستعماري الجديد (الأمريكي)، تولى الأخير الرعاية والقيادة للمشروع الصهيوني، وهو الاستعمار الذي يمتلك أصولًا فكرية، ودينية، وسياسية، جعلته يلعب الدور البارز في الصراع العربي ـ الإسرائيلي في الحقبة الأخيرة.

وفي سياق هذا التاريخ الأمريكي إزاء هذه القضية، كانت هناك العديد من المحطات والمواقف الاستعمارية التي من أهمها، على سبيل المثال لا الحصر، قرار الكونجرس الأمريكي، في ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٥، اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وشروع الحكومة الأمريكية في بناء سفارتها بالقدس على أرض هي في الأصل مملوكة للوقف الخيري الإسلامي!، ثم جدد الكونجرس هذا القرار في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، في ظل إدارة الرئيس جورج دبليو بوش، الذي وقع على هذا القرار، ملغيًا بذلك كل القرارات التي أصدرتها المنظمات الدولية بوضع الأراضي المحتلة [١٠].

إذا كانت الصهيونية ـ الإنجليزية قد بدأت أول تطبيقات مخطط اغتصاب القدس وفلسطين بوعد بلفور سنة ١٩١٧، فإن الصهيونية الأمريكية قد بلغت الذروة على هذا الطريق، وذلك بوعد «بوش» لشارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي، آنذاك، وكان ذلك في ١٤ أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، ذلك الوعد الذي كتبه بوش في «رسائل الضمانات»، التي تضمن لإسرائيل كل فلسطين، والتي تحرم اللاجئين الفلسطينيين، الذين يعيش منهم في المنافي أكثر من ستة ملايين نسمة، من حق العودة الذي قررته الشرعية الدولية، في قرار الأمم المتحدة، رقم ١٩٤، فحتى الحقوق المدنية والدينية التي ضمنها «وعد بلفور» لعرب فلسطين، جاء وعد «بوش» ليحرم اللاجئين الفلسطينيين من حق العودة [١١].

تهويد عمراني وديموغرافي

مع قيام إسرائيل، عام ١٩٤٨، على أرض فلسطين، واغتصابها لأجزاء كبيرة من مدينة القدس، إلى جانب أراض فلسطينية أخرى، وإعلان الدولة الإسرائيلية القدس عاصمة لها، دخلت القدس مرحلة جديدة من الصراع الديني والسياسي، على حد سواء، بين العرب والمسلمين من جهة، والكيان الإسرائيلي وحلفائه الغربيين من جهة أخرى [١٢].

تبنى ديفيد بن غوريون، مؤسس إسرائيل، توجهات تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية بخصوص تقسيم القدس، حيث سعى بن غوريون لإنشاء ما يسمى «القدس الغربية»، وأطلق على البلدة القديمة ومحيطها اسم «القدس الشرقية»، وقد حدد بن غوريون موقفه هذا في رسالة للحكومة البريطانية قبيل صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧، قائلًا: إنه لن يتنازل عن القدس، وإنه لا بد من الفصل بين الأماكن المقدسة في شرقي المدينة وغربها. كما دعا هذا الزعيم الصهيوني إلى وضع رقابة دولية على شرقي المدينة، وطالب باعتبار اليهود من سكان القدس مواطنين في الدولة اليهودية [١٣].

تأثر وضع أهالى فلسطين من نتائج الحرب العربية ـ الإسرائيلية التي نشبت في كل من عامي ١٩٤٨، ١٩٦٧، فنتج عن حرب ١٩٤٨ أن قسمت القدس إلى غربية وشرقية، حيث حكم الأردن المنطقة الشرقية بنسبة ٥ , ١١٪ ، واحتلت إسرائيل المنطقة الغربية ، بنسبة ١ , ٨٤٪ واقتطعت ٤ , ٤ ٪ منها كمنطقة دولية تتبع الأمم المتحدة، وحدد القرار حدود القدس الخاضعة للتدويل، حيث شملت عين كارم، وموتسا في الغرب، شعفاط في الشمال، وأبو ديس في الشرق، وبيت لحم في الجنوب، ونظرًا لضيق الأراضي، والزيادة السكانية، صودق على أول مخطط رسمت فيه حدود بلدية القدس عام ١٩٥٢، حيث ضمت إلى نفوذ البلدية ضواحي سلوان، رأس العامود، العوانة، أرض السماد، والجزء الجنوبي من شعفاط، وأصبحت مساحة البلدية ٥ , ٦ ك.م٢ .. وفي عام ١٩٥٩، أوصي بتوسيع حدود بلدية القدس وأمانة القدس، فقامت شركة بريطانية، برئاسة كاندل، بوضع مشروع لتوسيع حدود البلدية، ليصل إلى ٥ , ٧ ك.م٢، ولكن نشوب حرب ١٩٦٧ أوقفت المشروع، وإذا كانت مساحة القدس، قبل ١٩٦٧ قد بلغت ٥ , ٦ كم٢، فإنه بعد عام ١٩٦٧ بلغت ٥ , ٧٠كم٢، وبهذا الأسلوب استطاعت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن تخلق واقعًا جغرافيًا وسكانيًا في القدس الشرقية، وأخذ الصراع العربي ـ الإسرائيلي على منطقة القدس مظهرًا ديموغرافيًا، فقفز عدد السكان اليهود عام ١٩٦٧ إلى ١٦٠ ألفًا، شكلوا، لأول مرة، أغلبية يهودية في الشطر الشرقي من القدس المحتلة، وقد أقيمت ١٥ مستعمرة على هذه الأراضي، وتم بناء ٣٠ ألف وحدة سكنية لليهود، مقابل ٥٥٥ وحدة للعرب، وتم الاستيلاء على ٣٣ ٪ من مساحة القدس بشكل مباشر [١٤].

عن طريق الاحتلال والقوانين تفتقت العقلية الإسرائيلية عن أسلوب جديد هو أسلوب المصادرة، بالطرق غير المباشرة، عن طريق وضع الهياكل التنظيمية لتطوير أي قرية أو مدينة، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقرية العيسوية، والتي تبلغ مساحتها ١٠٤١٧ دونمًا، جاء المخطط الإسرائيلي ليختصر مساحتها إلى ٦٦٦ دونمًا، توزعت إلى ٨ , ٢٣٪ مساحات خضراء، ٥ , ٧ ٪ مبان عامة، ٤ , ٥٤٪ مناطق تحديد البناء، و ٣ , ١٤٪ للطرق. أما الهدف الثاني لهذه المخططات فهو تقسيم هذه القرى، وإحاطتها بالمستعمرات من جميع النواحي، بغرض السيطرة عليها، وإنهاء وجودها كقرية، وتحويلها إلى مجموعة من الأبنية، موزعة وبعيدة كل البعد عن جيرانها، وتدميرها اقتصاديًا واجتماعيًا[١٥].

تكمن الخطورة الحقيقية في المشروع الصهيوني ليس في اغتصاب الأرض فحسب، ولكن أيضًا، في مفهوم ما يسمى «بالحدود» بالنسبة للكيان الإسرائيلي، فهو مفهوم متحرك، يتطور مع تطور هذا الكيان، ونموه، كما يرافقه تطور المجال الحيوي الذي يعني الحيز، والمناخ، المنتظر أن يمتد إليه الكيان الصهيوني في المراحل القادمة؛ ولذا يحرص الكيان الإسرائيلي على بقاء مجاله الحيوي في حالة عجز وشلل، كي لا ينشأ عنه إعاقة مستقبلية لتمدده [١٦].

الأمر الواقع

أدى احتلال إسرائيل للقدس الشرقية، عام ١٩٦٧، إلى فرض سلطة الأمر الواقع على شطري المدينة، وقد ادعت إسرائيل السيادة القانونية على «القدس الموحدة»، وفرضت قوانينها عليها، باعتبار أنها عاصمة الدولة الصهيونية إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين، وإسرائيل تقوم بإحداث تغيير جوهري في واقع المدينة الديموغرافي، والتاريخي، والحضاري، ذلك لكي يلغي الاحتلال الإسرائيلي الطابع العربي للمدينة، سعيًا إلى أن يستبدل به الاحتلال الطابع اليهودي الاستيطاني [١٧].

اتفقت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، سواء حكومات «المعراخ»، أو«الليكود» على فرض سياسة الأمر الواقع، حيث وضعت البرامج الإستراتيجية، والتكتيكية لبلوغ هذا الهدف، فبعد الإعلان عن توسيع حدود بلدية القدس، وتوحيدها بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧، وطبقا للسياسة الإسرائيلية للسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأرض، مع أقل عدد ممكن من السكان العرب، رسم رحيعام زئيفي حدود البلدية لتضم أراضي ٢٨ قرية ومدينة عربية، وإخراج جميع التجمعات السكانية العربية، لتأخذ هذه الحدود وضعًا غريبًا، فمرة مع خطوط التسوية (الطبوغرافية) ومرة أخرى مع الشوارع. وهكذا بدأت حقبة أخرى من رسم حدود البلدية، لتتسع مساحة بلدية القدس من ٥ , ٦كم٢ إلى ٥ , ٧٠كم٢، وتصبح مساحتها مجتمعة، (الشرقية والغربية ٥ , ٨٠كم٢)، لتتوسع، مرة أخرى، عام ١٩٩٠ باتجاه الغرب، لتصبح مساحتها، الآن، ١٢٣كم٢ [١٨].

بدأت الجرافات الإسرائيلية في رسم المعالم لتهويد القدس، من أجل فرض الأمر الواقع، وخلق ظروف (جيوسياسية)، يصعب على السياسي أو الجغرافي إعادة تقسيمها مرة أخرى، فبدأت بوضع الأساسات لبناء الأحياء اليهودية في القدس الشرقية لتقام عليها سلسلة من المستوطنات، أحاطت بالقدس من جميع الجهات، وملأتها بالمستوطنين، لتخلق واقعا جغرافيًا، وديموغرافيًا، وخلخلة سكانية في القدس العربية، وبعد أن كان السكان الفلسطينيون يشكلون أغلبية عام ١٩٦٧، أصبحوا أقلية عام ١٩٩٥، وبعد أن كانوا يسيطرون على ١٠٠٪من الأراضي أصبحوا لا يسيطرون إلا على ٢١٪ من الأراضي، بعد عمليات المصادرة، وإقامة المشاريع الاستيطانية عليها وفتح الطرق، والبناء ضمن الأحياء العربية، لتأتي مرحلة أخرى من مراحل التهويد، ورسم الحدود، وهي حدود القدس الكبرى (المتروبوليتان) لتشمل أراضي تبلغ مساحتها ٨٤٠ كم٢، ولتبدأ حلقة أخرى من إقامة المستعمرات خارج حدود البلدية، ولكن هدفها هو التواصل الإقليمي والجغرافي ما بين المستعمرات، خارج حدود البلدية، والواقعة في الضفة الغربية [١٩].

تمكنت قوات الاحتلال الاسرائيلي إثر عدوان يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧ من احتلال الضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية (البلدة القديمة)، ومحيطها، حيث شرعت في تهويد المدينة، وفرض وجودها فيها، واتخذ من ذلك أربعة أشكال أساسية:

● **الأول**: هدمت سلطات الاحتلال الحي الإسلامي المعروف بحارة الشرف، في حي المغاربة، عقب الاحتلال، مباشرة، في ١١ يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧، حيث تم ضم أرضه إلى الساحة المقابلة لحائط البراق، التي يطلق عليها «ساحة المبكى».

وتم أثناء ذلك هدم مسجدي البراق والأفضلي، وهدم ١٣٥ منزلًا، وتهجير ٦٥٠ فلسطينيًا، علمًا بأن ممتلكات الحي كانت ملكًا للأوقاف الإسلامية.

● **الثاني**: توطين اليهود في حي المغاربة، وتسميته بالحي اليهودي، واستملاك الممتلكات الإسلامية، والوقف الإسلامي ما بين هذا الحي وحارة الأرمن، وذلك في الفترة ما بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٩.

● **الثالث**: منذ عام ١٩٧٩، تم تشكيل العديد من الجماعات الاستيطانية اليهودية بالقدس والتي ألفت بينها اتحادًا سُمي «عطر اليوشنا»، أي «جمعية تجديد الاستيطان» في مدينة القدس، ويهدف هذا الاتحاد إلى استملاك العقارات في الأحياء الإسلامية المجاورة للحرم، في قلب المناطق العربية، وذلك بتوطين أسر يهودية مختارة في وحدات سكنية يتم إنشاؤها.

● **الرابع**: احتلال مساكن العرب الفلسطينيين في الأحياء الإسلامية، وادعاء ملكيتها من قبل العديد من اليهود، وتوج ذلك بقيام أرييل شارون، رئيس الوزراء الأسبق (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٦) باحتلال أحد المنازل العربية الفلسطينية عام١٩٨٧، في الحي الإسلامي المجاور للحرم الشريف[٢٠].

ترافقت التغيرات، والإجراءات التي اتبعتها الحركة الصهيونية، سواء منها التغيرات السياسية، أو الدينية، أو القانونية، الهادفة للوصول إلى «أورشليم المقدسة»، مع تسارع محموم لإجراءات التهويد على الأرض، فقد قامت إسرائيل بمحاوله إحراق المسجد الأقصى، في ٢١/٨/١٩٦٩، والقيام بحفريات، وشق أنفاق تحت المقدسات الإسلامية، وهدم بعض الآثار ذات الأهمية التاريخية، ناهيك عن مصادرة أراض، ومعابد أثرية، تاريخية، موقوفة، وتحويل بعض المقابر، والمعابد الإسلامية، والمسيحية إلى معابد أو نواد لليهود [٢١].

توزعت الحفريات حول المسجد الأقصى، وتحته، بحثًا عن الهيكل، الذي تدعي إسرائيل وجوده أسفل الصخرة الشريفة، بهدف إنشاء مدينة يهودية تحت الأرض، ومن أهم هذه الحفريات حفريات الجهة الجنوبية للمسجد الأقصى، حيث يعمل المحتل على بناء ما يسمى (مدينة داود)، وأكبر هذه الحفريات، وأخطرها، على الإطلاق هو الطريق «الهيروديانى»، الذي يمتد لمسافة تزيد عن ٦٠٠م، ويربط ساحة البراق بالمدخل الجنوبي لمدينة داود. وثاني هذه الحفريات هي حفريات الجهة الغربية للمسجد، وتعد هذه الجهة العصب الرئيسي للمدينة اليهودية التي يبنيها الاحتلال تحت المسجد الأقصى، ومنها حفريات ساحة البراق، والتي اشتملت على هدم الكثير من الأبنية الإسلامية، والتاريخية،المهمة. أما ثالث هذه الحفريات، وهي الخاصة بالجهة الشمالية للمسجد، التي تتركز في منطقة (المدرسة العمرية)، وتشمل موقعًا واحدًا، تنشط فيه الحفريات، وهو موقع «بركة القبرة»، والتي يدعي الاحتلال بأنها كانت بركة تبلغ مساحتها ٨٢٥م٢، مما يعني أن الحفريات في هذه المنطقة سوف تستمر لفترة طويلة، وحتى كشف كل المساحة المدعاة للبركة [٢٢].

تقوم سلطات الاحتلال الصهيوني بتدخلات فظة في عمل دائرة الأوقاف الإسلامية، حيث تمنع حكومة الاحتلال دائرة الأوقاف من إجراء أي ترميم في المسجد الأقصى دون الحصول على إذن مسبق من سلطة الآثار الإسرائيلية. وهناك تدخلات سافرة في حركة المصلين، حيث تمنع سلطات الاحتلال المصلين من الوصول للمسجد، وتقيد حركتهم في محيط المسجد، وداخله، وتراقب جميع تحركاتهم فيه، من خلال شبكة من الكاميرات، والمجسات الحرارية، موزعة في أرجائه [٢٣].

ـ التمويل والتهويد

أدرك الجانب الصهيوني، مبكرًا، أهمية المال في تجسيد فكرة الاستيطان منذ أن قدم هرتزل عرضًا للخليفة العثماني، عبد الحميد الثاني، بأن يتولى اليهود حل مشكلة المديونية العثمانية نظير تسهيل حركتهم في فلسطين [٢٤].

وقفت الصناديق المالية، والبنوك، والمصارف الممولة للأنشطة الصهيونية، رأسا برأس، مع التنظيمات متعددة الأغراض، فما من تنظيم صهيوني، يهوديًا كان أم غير يهودي، صغر حجمه، أم كبر، إلا وتوفر على جناح مالي مناسب، يمول أشغاله، ومن جماع هذه الأجنحة تكون رأس مال المشروع الصهيوني، بحيث كان من النادر أن يجأر نشاط صهيوني بالشكوى من العوز المالي، مثلما يحدث باستمرار على الصعيد العربي الفلسطيني في القدس مثلًا [٢٥].

يتبوأ رجال المال والأعمال مركز الصدارة في شتى التنظيمات الصهيونية، وقد كانت منظمة «بيكا» أقدم مؤسسة صهيونية تضع الاستيطان على رأس أهدافها، من صنع وتمويل المليونير اليهودي إدموند روتشيلد منذ عام ١٨٨٢. ومما هو جدير بالذكر أن «بيكا» كانت تقدم المال للمستوطنين اليهود، والراغبين في الانتقال إلى فلسطين، آخذة في الاعتبار ما يلزم هؤلاء لحيازة الأرض، وتكوين بؤر التوسع، والانطلاق الاقتصادي، وبهذه الآلية تمكنت «بيكا» من إنشاء ٤٢ مستوطنة يهودية، هي الأقدم في فلسطين، كما قد تم إنشاء ما يسمى «صندوق الجباية اليهودي» عام ١٩٢٠، وكان له نفس الرؤية السابقة إزاء تمويل الراغبين في الانتقال لفلسطين. وبحلول عام ١٩٤٧ كان «الصندوق القومي اليهودي» امتلك نحو ٥٤٪ من الأراضي التابعة للوسط اليهودي في فلسطين. وعندما أعلنت الدولة طور الصندوق أهدافه، مضيفًا إليها عمليات استصلاح الأراضي، واستيعاب المهاجرين، وتوفير فرص العمل، والخدمات الصحية، وتمويل التعليم اليهودي. وبنظرة عامة، كان الجانب الصهيوني، إجمالًا، يحظى بتفوق في استحضار المال وتوظيفه، مقارنة بالجانب العربي الفلسطيني، وفي الوقت الذي يتحرك فيه سماسرة الأرض، زاحفين إلى أراضي القدس، مسلحين بالأموال، والتسهيلات الحكومية الإسرائيلية، فإن أبناء القدس يشكون مر الشكوى من العوز، وضيق ذات اليد [٢٦].

ـ تهويد المؤسسات الفلسطينية

كان استحواذ القدس على المؤسسات الأولى المركزية، بالنسبة للجانب الفلسطيني، أحد أهم مصادر احتفاظ المدينة بموقعها خلال حقبة ما قبل النكبة، والانتداب البريطاني، لكن السياسة الانتدابية المتحالفة مع الحركة الصهيونية كان لها رأي آخر، فقد سعت إلى ما يحجب هذا الموقع، فراحت الحركة الصهيونية تزاحم المجتمع الأصلي في القدس، ومثلما سعت لاصطناع مدينة تل أبيب، عملت على افتعال القدس عاصمة لكيانها، واتبعت منهجية

التدرج، والزحف، والاستيطان في القدس. وما أن أوشك الانتداب على الرحيل حتى كانت المؤسسات الصهيونية الاقتصادية هي الأعلى صوتًا وسطوة، نتيجة الدعم المالي، والحماية الانتدابية السابقة، بالإضافة إلى سن قوانين، ولوائح جمركية، وضرائب، تخدم الحركة الصهيونية من الناحية الاقتصادية، حتى أصبحت قوة اقتصادية كبيرة، قادرة على التواجد الفعال في القدس. عندما استكملت إسرائيل احتلال القدس عام ١٩٦٧، أصبحت المدينة في وضع شديد الخطورة، من حيث قدرة الجانب العربي الفلسطيني على الدفاع عن وجوده المؤسساتي بها، فقد أصدرت إسرائيل قرارًا بضم القدس إليها في ٢٧/ ٦/ ١٩٦٧، وقرارًا آخر بحسبانها عاصمتها الموحدة الأبدية في ٣٠/ ٧/ ١٩٨٠، وبين هذين التاريخين قامت إسرائيل بما لا حصر له من عمليات هدم المؤسسات الفلسطينية، وإحلال المؤسسات الإسرائيلية محلها، وقامت بغلق البنوك العربية، ودمجت البلدية العربية للمدينة في بلديتها، وفرضت قضاءها الخاص، وسيطرتها القانونية على مختلف الأنشطة والمؤسسات، وأصدرت عشرات القوانين التعسفية الجائرة لتأكيد تدمير البنية المؤسساتية العربية الفلسطينية في القدس [٢٧].

يمكن تصنيف عملية تدمير المؤسسات الفلسطينية في القدس ضمن أدوات تهويد فلسطين عمومًا، وهي ضمن إستراتيجية عامة، تتبعها الحركة الصهيونية لتهويد فلسطين عامة، والقدس خاصة.

من نماذج المجالات التي ترد في هذا السياق

١ ـ تهويد التعليم

كان إنشاء «الجامعة العبرية» في القدس مثلًا قويًا لزعزعة الحقائق المؤكدة لمركزية المدينة المقدسة في الحياة العربية الفلسطينية لصالح الجانب الصهيوني، وذلك عندما وضع رئيس اللجنة الصهيونية حاييم وايزمان حجر الأساس لها في ٢٤ يوليو/ تموز ١٩١٨، وتم توسيعها تدريجيًا حتى اكتملت في عام ١٩٢٥. وتعتبر الجامعة العبرية أحد أهم مشاريع الحركة الصهيونية في الفترة الانتدابية لتهويد مدينة القدس، وعندما تم احتلال القدس عام ١٩٦٧، سارعت السلطات الإسرائيلية بوضع يدها على جميع المدارس الحكومية، ومكاتب مدير التعليم الأردني في المدينة، وأعلنت بأن غرضها هو إخضاع التعليم في جميع المدارس الحكومية لبرامج التعليم التي تطبقها على المدارس العربية في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٤٨، كما أعلنت في الوقت ذاته عن إلغائها لبرامج التعليم الأردنية، فضلًا على أن سلطات الاحتلال عمدت إلى إصدار قانون الإشراف على المدارس لسنة ١٩٦٩، وتقرر العمل به اعتبارًا من ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٠. والقانون، في إجماله، حلقة جديدة من حلقات التهويد، واستهدف الإشراف الكامل على جميع المدارس الطائفية والأهلية، كما فرض على المدارس والجهاز التعليمي فيها الحصول على تراخيص إسرائيلية تجيز لهم ولها الاستمرار بممارسة المنهج، كما فرض عليها الإشراف الإسرائيلي الكامل، بالنسبة لبرامج التعليم، والمصادر التمويلية [٢٨].

نشأت ٤ كليات في سنوات مختلفة، وأماكن متفرقة بجهود عربية فلسطينية، وهي «كلية العلوم والتكنولوجيا» عام ١٩٧٧، و«كلية الدعوة وأصول الدين» عام ١٩٧٨، و«كلية الآداب للبنات» عام ١٩٨٢، على افتراض إداري بأنها جميعًا تشكل «جامعة القدس»، لكن لم تحظ تلك الجامعة، حتى الآن، باعتراف إسرائيل. فلا تزال إجراءات عرقلة مسيرة تلك الجامعة تشتد، كلما كان ذلك مجديًا للسياسة الإسرائيلية. ومن تلك الإجراءات، مراقبة علاقة الجامعة بالسلطة الفلسطينية، ومراقبة الدعم المالي الذي يصل إليها، وعرقلة حركة التعليم فيها [٢٩].

٢ ـ الشؤون البلدية

يبرز تعلق المشروع الصهيوني بهذا الهدف، خاصة بالنسبة لمدينة القدس، طوال مرحلة ممتدة من قيام السلطات الإسرائيلية، في ٢٩/ ٦/ ١٩٦٧، فور استكمال احتلال المدينة، بحل المجلس البلدي، المنتخب، للقدس الشرقية، وإلحاق البلدية العربية ببلدية القدس المحتلة منذ ١٩٤٨، وعرض العمل وفق هذا القرار الجبري على رئيس البلدية العربية نفسه (روحي الخطيب) وحين رفض، تم طرده من المدينة ومن فلسطين بأسرها.

هذا الإجراء القمعي لم يتبع مع أي بلدية فلسطينية في الضفة والقطاع، وتم تنفيذه بشدة، وصرامة، بعيدًا عن أي ترتيبات تدريجية. هكذا بضربة واحدة، استولت إسرائيل على جميع ممتلكات البلدية العربية، وسجلاتها، وأثاثها، وألحقتها بالدوائر الإسرائيلية، وألغت جميع القوانين، والأنظمة الأردنية المعمول بها، ثم أتبعت ذلك بإلحاق جميع الخدمات البلدية الفلسطينية، كشبكات المياه، والطرق، والصحة، والبيئة، إلى البلدية الموحدة الجديدة، وبالتالي انفردت السلطة الإسرائيلية بالسيطرة على هذه المؤسسة بكل ما تؤديه من خدمات حيوية، سمح لإسرائيل بمهمات كل ما من شأنه العمل على تطفيش الأهالي العرب الأصليين [٣٠].

٣ ـ تهويد الاقتصاد

بعد أن ت محاصرة القدس العربية من جميع الجهات بالمستعمرات اليهودية، ومصادرة ٣٤٪ من مساحة القدس، وإسكان الألوف من المستوطنين الإسرائيليين، بدأت مرحلة أخرى من عملية التهويد، وضرب العصب الاقتصادي العربي الفلسطيني، وذلك بالإعلان عن مخطط جديد لمركز مدينة القدس، بغرض تقييد النشاط التجاري العربي الفلسطيني بها، وطمس معالم التجارة، والصناعة العربية [٣١].

اتبعت قوات الاحتلال الإسرائيلي في هذا المجال سلسلة من الإجراءات استهدفت من ورائها تضييق الاقتصاد العربي الفلسطيني، وإذابته تدريجيًا، في بوتقة الاقتصاد الإسرائيلي، فقامت السلطات الإسرائيلية بغلق البنوك القائمة، آنذاك، مثل «البنك العربي»، «وبنك القاهرة ـ عمان» و«العقاري الأردني الأهلي»، وصادرت تلك السلطات أموالًا واستبدلت العملة الإسرائيلية بالعملة الأردنية، واستولت عليها، كما منعت السلطات الإسرائيلية إدخال أي إنتاج زراعي، أو صناعي من القدس، والمدن المحيطة بالقدس، والضفة الغربية، إلى أسواق مدينة القدس، فيما أدخلت جميع أنواع البضائع الإسرائيلية إليها. ولقد أدى هذا المنع إلى حرمان أهالي القدس من استهلاك الإنتاج، حتى ولو كان من مزارعه، وفتح باب التعامل الإجباري بين بعض التجار المقدسيين، وبين بعض التجار الإسرائيليين، وحرمان المنتج العربي الفلسطيني من أسواق كانت تستهلك قسما كبيرًا من إنتاجه. وأدى هذا الحرمان إلى تقليص الإنتاج، وبالتالي تخفيض الأيدي العاملة فيه، وإضافته إلى طائفة العاطلين عن العمل، أو إلحاق بعض هذه العمالة تحت ضغط العيش للعمل لدى السلطات المحتلة، أو إحدى مؤسساتها[٣٢].

٤ ـ تهويد القضاء

إثر الاحتلال الإسرائيلي للقدس في ٧/ ٦/ ١٩٦٧، أغلقت سلطات الاحتلال الإسرائيلي جميع المحاكم النظامية في المدينة، كما اتخذت الإجراءات التهويدية الآتية:

(أ) نقلت مقر محكمة الاستئناف العليا من القدس إلى رام الله.

(ب) أدمجت محاكم البلدية، والصلح في القدس بالمحاكم الإسرائيلية المماثلة القائمة في الجزء المحتل سابقًا من المدينة، ونقلت إليها جميع سجلاتها وأثاثها.

(ج) طلبت من القضاة، والموظفين العرب والفلسطينين تقديم طلبات للالتحاق بوزارة العدل الإسرائيلية.

(د) فصلت القضاء النظامي القائم بالقدس عن شؤون الضفة الغربية، وألحقته، كليًا، بالقضاء الإسرائيلي.

(هـ) أوعزت سلطات الاحتلال إلى أجهزتها بعدم تنفيذ أي حكم، أو قرار، صادر من المحاكم الإسلامية، كما تجاهلت كليًا أي شكاية ترفعها إليها دوائر الأوقاف أو رئيس الهيئة الإسلامية التي تألفت بعد الاحتلال في القدس، لترعى شؤون المسلمين في الضفة الغربية، بما فيها القدس، وقد شمل هذا التجاهل لقرارات المحاكم الإسلامية وأعمالها عدم الاعتراف بشهادات الزواج ، والطلاق، والإرث، والوصايا، والوقف، وغيرها مما له علاقة بالأصول الشخصية للأهالي الفلسطينين

(و) أقدمت سلطات الاحتلال على إصدار قانون أملاك الغائبين، وتطبيقه على جميع العرب الفلسطينين الغائبين عن القسم المحتل الجديد، وباشرت بتسجيل جميع الأموال المنقولة، وغير المنقولة التي تخص أولئك الغائبين، وكنتيجة لهذه الإجراءات وضعت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أيديها على مساحات واسعة من الأراضي الفلسطينية، وعلى قسم كبير مما تبقى من عقارات، كما حجزت، ولا تزال تحجز، ما يصل إلى علمها من أموال منقولة، وأسهم شركات تخص أولئك الغائبين [٣٣].

٥ ـ تهويد الأسماء

عمدت قوات الاحتلال الإسرائيلي، منذ احتلالها لمدينة القدس، إلى تغيير أسماء الشوارع، والساحات، والطرق العربية والتاريخية، واستبدالها بأخرى يهودية، وكجزء من خطة تهويدية تستهدف إزالة معالم الحضارة الإسلامية العربية عن المدينة المقدسة، وفيما يلي بعض هذه المناطق التي هودت:

- تل الشرفة أو المشارف	جيعات هفتار .
- طريق السواد	رحوب هقكاي .
- حارة الشرف	مشغاف لداخ .
- سوق الحصر	حباد.
- عقبة اغنيم	شونيه هالكوت.
- ساحة باب الخليل	ميدان عودة صهيون.
- باب المقار	رصوب بيتي محسيي.

ولكل اسم من الأسماء المستبدلة دلالة وتاريخ، ترتبط كلها بتاريخ العرب والإسلام في المدينة المقدسة، وبالتالي

فإن إزالة هذه الأسماء تعتبر إزالة وطمسًا للتاريخ العربي الإسلامي للمدينة المقدسة، واعتداء بيِّنًا على مدينة القدس العربية الأصل [٣٤].

حتى مدفع رمضان الذي يعد واحدًا من أبرز المعالم الرمضانية في مدينة القدس المحتلة لم يسلم من محاولات التهويد، إذ وضعت سلطات الاحتلال الإسرائيلية جملة شروط، وقيود لإطلاق قذائفه، التي تنبه الصائمين لمواعيد الإفطار والإمساك منذ عشرات السنين، فقد اشترطت بلدية القدس أن يحضر المسؤول عن المدفع دورة تدريبية لعملية إطلاق القذائف، بالإضافة إلى الحصول على تراخيص من ٧ جهات إسرائيلية، هي وزارتا، العمل، والداخلية، والشرطة، والموساد، وغيرها، على أن يشرف على عملية الإطلاق مرافق يهودي من البلدية[٣٥].

خـاتمـة:

تسمح لنا مقاطع هذه الدراسة باستنتاج مجموعة الخلاصات التالية:

١- نجح الاحتلال الصهيوني فى إجراء التهويد بنسبة كبيرة فى مدينة القدس، وذلك ضمن منظومة إستراتيجية متكاملة، قام الاحتلال الصهيوني بتخطيطها، وتنفيذها على أرض الواقع.

٢- نستطيع الآن تقدير حجم الضغوط التى مارستها الحركة الصهيونية لتهويد القدس، ونستطيع أيضًا تقدير حجم المقاومة الفلسطينية لذلك الاتجاه، فى ظل محددات غير مواتية وكيانات غير متكافئة، تحت مظلة الدعم الأمريكي الصارخ للاحتلال الصهيوني.

٣- جميع اتفاقيات السلام، التى وقعت منذ عام ١٩٧٩، وحتى اليوم حول القدس وفلسطين، كانت نتيجتها تهويد أكثر للقدس، فى حين أننا لا نعير المقاومة الشعبية اهتمامًا كبيرًا، ولا نزال ندير لها ظهورنا، فهى رصيد الأمة الحقيقي الذي لا ينضب أبدًا.

* * *

هوامش الفصل السابع:

(١) هند بطلموس، **تهويد القدس في زمن التراخي العربي والإسلامي**، مركز الشرق العربي للدراسات، ١/٨/٢٠٠٨ ـ انظر الموقع: www.asharqalarabi.org

(٢) د. محمد عمارة، **في فقه الصراع على القدس وفلسطين**، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٥ ، ص ٦٢ .

(٣) **المرجع نفسه**، ص ٦٢.

(٤) د. أحمد صدقي الدجاني، **الخطر يتهدد بيت المقدس**، مركز الإعلام العربي، سلسلة «كتاب القدس»، القاهرة، ٢٠٠٠ ، ص ١٥٣.

(٥) عمارة، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢.

(٦) بهاء فاروق، **فلسطين بالخرائط والوثائق**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص ٦٤ .

(٧) عمارة، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤.

(٨) فاروق، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٣ .

(٩) رشا حسني. النكبة ١٩٤٨ ـ ٢٠٠٨، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، عدد ١٥٣، السنة ٣٠، تموز/ (يوليو) ـ آب (أغسطس) ـ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٨، ص ١٨.

(١٠) عمارة، مرجع سبق ذكره، ص ٦٨.

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٦٩.

(١٢) فاروق، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٩.

(١٣) **المرجع نفسه**، ص ٢٧٤.

(١٤) د. فاروق أحمد مصطفى، الاستيطان الإسرائيلي في القدس، **الندوة الدولية، القدس التاريخ والمستقبل (٢٩ ـ ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦)**، مركز دراسات المستقبل ـ جامعة أسيوط، ١٩٩٦، ص ٣٩٢.

(١٥) **المرجع نفسه**، ص ٣٩٣.

(١٦) حسني، مرجع سبق ذكره، ص ١٨.

(١٧) الدجاني، مرجع سبق ذكره، ص٢٩.

(١٨) السيد خليل التفكجي، الاستيطان في مدينة القدس: الأهداف والنتائج. **(انظر: الندوة الدولية، القدس، التاريخ والمستقبل (٢٩ ـ ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦)**، مركز دراسات المستقبل ـ جامعة أسيوط ١٩٩٦، ص ٣٥٥.

(١٩) **المرجع نفسه**، ص ٣٥٦.

(٢٠) فاروق، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٧.

(٢١) مؤسسة القدس الدولية، **(عين على الأقصى ٢٠٠٨)**، انظر الموقع: www.aquds_online.org

(٢٢) **المرجع نفسه**.

(٢٣) **المرجع نفسه**.

(٢٤) د. محمد خالد الأزعر، **القدس ـ بين الانتفاضة والتفاوض**، مركز الإعلام العربي، «سلسلة كتاب القدس»، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٣٠.

(٢٥) **المرجع نفسه**، ص١٣١.

(٢٦) **المرجع نفسه**، ص ١٣٢.

(٢٧) **المرجع نفسه**، ص ٥٤، ٦٦.

(٢٨) **موقع رمش العين**، بوابة فلسطين، ٨/ ٩/ ٢٠٠٨، انظر الموقع: www.eyelash.psl.

(٢٩) الأزعر، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧، ٧٩.

(٣٠) **المرجع نفسه**، ص ٨٠، ٨١.

(٣١) التفكجي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٠.

(٣٢) موقع رمش العين، **مرجع سبق ذكره**، ٩/ ٩/ ٢٠٠٨، انظر الموقع: www.eyelash.psl.

(٣٣) **الموقع نفسه**، ١٠/ ٩/ ٢٠٠٨، انظر الموقع: www.eyelash.psl.

(٣٤) **الموقع نفسه**، ١١/ ٩/ ٢٠٠٨.

(٣٥) **إسلام أون لاين**، مدفع رمضان يقاوم التهويد، ٨/ ٨/ ٢٠٠٨، انظر الموقع: www.Islamonline.net.

الفصل الثامن

قرى القدس
المجزرة ـ المحو ـ الذاكرة

هدى فاروق

القدس عربية صامدة في وجه رياح الغزو، شامخة رغم رماح الغدر، تصرخ دماؤها في وجه الغزاة، أنا أرض السلام.

عقب صدور قرار الأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية، وأخرى يهودية. وجد الصهاينة أنفسهم أمام حقيقة أن ٥٤٪ من فلسطين المخصصة لليهود يسكن فيها نحو ٥٠٠ ألف يهودي، مقابل ٤٩٧ ألف عربي، وأن العرب، بافتراض أنه لن تكون هناك حروب، سيتجاوز عددهم عدد اليهود في بضع سنين. ولن تكون هناك فرصة لإنشاء دولة يهودية؛ لذلك قاموا بحل هذه المشكلة الديموغرافية عبر تنفيذ أحد أبشع عمليات التطهير العرقي، في القرن العشرين [١].

مسحوا ٤٧٨ قرية فلسطينية، من أصل ٥٨٥ قرية، وتجمعا، في حرب عام ١٩٤٨، وما بعدها مباشرة، ولم يبق سوى ١٠٧ قرى، وشردوا ٧٨٠ ألف فلسطيني، وحولوهم إلى لاجئين، وألحقوا بهم ٣٥٠ ألف لاجئ جديد بعد عدوان يونيو/ حزيران ١٩٦٧ [٢].

كان عدد قرى قضاء القدس التي دمرت ٣٨ قرية. ويتناول البحث هذه القرى.

قضاء القدس[٣]

القدس الغربية، مصطلح يعود إلى سنة ١٩٤٨، ويرسم الحدود المعينة في اتفاقية الهدنة، لسنة ١٩٤٩، للفصل بين ذلك الجزء الذي سيطرت عليه إسرائيل، وبين القسم الشرقي، الذي أصبح جزءًا من الضفة الغربية تحت الحكم

الأردني (١٩٤٨-١٩٦٧). وحتى قبل سنة ١٩٤٨ كان للقرى الواقعة إلى الغرب والجنوب من المدينة خصوصيتها، المستمدة من أهميتها الطبوغرافية والتجارية، ومن العوامل الحاسمة، التي أثرت في التغيرات التي طرأت على البنية الزراعية لهذه القرى هو قربها من المنحدرات الغربية للمدينة، ومن مستعمرات الضواحي اليهودية، تحديدًا، ويقترح الجغرافي عزيز دويك أربع حلقات متداخلة تتسع باطراد مركزها القدس:

١- القرى الواقعة في نطاق الحلقة الداخلية، الممثلة بالحدود البلدية (على بعد أقل من ٥كم من مركز المدينة) بما فيها العيسوية، الطور، أبو ديس، سلوان، وصور باهر، وبقيت هذه جميعًا في أيدي العرب، بعد الحرب.

٢- القرى الواقعة قريبًا من مركز المدينة (٥- ١٠كم)، وتشتمل، من الجهة الغربية، على: لفتا، المالحة، قالونيا، القسطل، دير ياسين، بيت صفافا، الولجة، الجورة، عين كارم. وهذه كانت في طريقها لأن تصبح ضواحي مدينة.

٣- القرى متوسطة البعد(١٠-٢٠كم)، وهي تشتمل على بيت نقوبا، أبو غوش، صوبا، خربة العمور، صطاف، ديرعمرو، بيت ثول، ساريس، عقور، دير الشيخ، ورأس أبوعمار. وباستثناء قرية أبو غوش التي اعتبرتها الدولة اليهودية تجمعًا متعاونًا، في حرب ١٩٤٨، فقد دمرت هذه القرى كلها عن بكرة أبيها.

٤- قرى الحلقة الخارجية (أكثرمن٢٠كم عن المركز) وتشتمل على: نطاف، بيت محاسير، دير الهوا، أشوع، عرطوف، عسلين، صرعة، خربة اسم الله، دير آبان، دير رفات، بيت عطاب، سفلى، جرش، بيت حمال، البريج. وهذه أيضًا محيت تمامًا عن وجه الأرض، وأنشئت مستعمرات إسرائيلية على أنقاضها.

بلغت مساحة قضاء القدس ١,٥٧ مليون دونم(*)، ٤,٨٨٪ يملكها عرب، و١,٢٪ يملكها يهود، ٥,٩٪ أراضي عامة. وبلغ عدد السكان ٢٧٤,٩٥٠ نسمة، ٥٩,٦٪ منهم عرب، و٤٠,٤٪ يهود (أرقام سنة ١٩٤٥). وكان مجموع مساحة قرى القدس الغربية التي دمرت ٢٥١,٩٤٥دونمًا، منها ٢٣١,٤٤٦دونمًا للعرب ٩١,٨٪، و٦٨٩٧ دونمًا لليهود ٢,٧٪ ، ١٤,٦٢٩ دونمًا أراضي عامة ٥,٨٪.

بحلول الأربعينيات، كانت الحياة اليومية في كل من لفتا، عين كارم، دير ياسين، والمالحة قد أصبحت متداخلة بصورة متزايدة مع النسيج الاجتماعي في الأحياء اليهودية المتنامية، بيت هكيرم، غفعات شاؤل، كريات موشيه، على الأغلب بصورة تعامل تجاري، وأنشطة بناء.

ملفات القرى[1]

استطاع الصهاينة إعداد ملفات خاصة بالقرى الفلسطينية بمجرد أن توقفت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، تم الاستعانة بها لتنفيذ المجازر في هذه القرى. أتى الاقتراح من مؤرخ في الجامعة العبرية، يدعى بن ـ تسيون لوريا، الذي كان، وقتئذ، موظفًا في الدائرة التعليمية للوكالة اليهودية. وقد أشار لوريا إلى أنه سيكون من المفيد جدًّا إعداد سجل مفصل للقرى العربية، واقترح أن يقوم «الصندوق القومي اليهودي» بإعداده.

لقد كان «الصندوق القومي اليهودي»، الذي أنشئ سنة ١٩٠١، الأداة الصهيونية الرئيسية لاستعمار فلسطين،

(*) الدونم = ألف متر مربع.

وكان بمثابة الوكالة التي استخدمتها الحركة الصهيونية لشراء الأراضي الفلسطينية التي جرى توطين المهاجرين اليهود فيها. ومنذ تدشينه في المؤتمر الصهيوني الخامس ١٩٠٣ صار رأس الحربة في صهينة فلسطين خلال أعوام الانتداب.

كانت المهمة الرئيسية رسم خرائط للقرى؛ ولذا تم تجنيد خبير طوبوغرافي من الجامعة العبرية يعمل في دائرة رسم الخرائط الانتدابية، وقد اقترح هذا الخبير القيام بمسح فوتوغرافي جوي للقرى، وأطلع باعتزاز ديفيد بن غوريون على خريطتين لقريتي السنديانة، صبارين. كانت المحصلة النهائية لجهود الطوبوغرافيين والمستشرقين ملفات مفصلة لجميع قرى فلسطين، عمل الخبراء الصهيونيون على استكمالها، بالتدريج، بحيث أصبح «الأرشيف مكتملاً»، تقريبًا، في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي.

تضمن ملف كل قرية تفصيلات دقيقة عنها، ومن فئات المعلومات المهمة كان هناك مؤشر يحدد درجة «العداء» للمشروع الصهيوني، بناءً على مشاركة القرية في ثورة ١٩٣٦. وكان هناك قائمة بأسماء كل شخص شارك في الثورة، والعائلات التي فقدت أشخاصًا في القتال ضد البريطانيين، وأعطى الأشخاص الذين زعم أنهم قتلوا يهودًا اهتمامًا خاصًا. وتضمنت الملفات، في فترة ما بعد سنة ١٩٤٣، «وصفًا مفصلًا للزراعة، وتربية الحيوانات... إلخ»، وفي وقت لاحق، أضيف إلى ذلك وصفًا تفصيليًا، ودقيقًا، عن كل حمولة (**) وانتماءاتها السياسية، والفوارق الطبقية بين الأعيان والعامة، وأسماء الموظفين العاملين في دوائر الحكومة الانتدابية.

مع حلول سنة ١٩٤٥ اكتسبت المعلومات قوة دفع تلقائية، ومزيدًا من التفاصيل، ومع اقتراب فترة الانتداب من نهايتها، أصبح جمع المعلومات موجهًا، بصراحة، نحو المعطيات ذات الطابع العسكري، مثل: عدد الحراس، ومعظم القرى لم يكن لديه أي حراس، وكمية الأسلحة الموجودة، ونوعيتها بصورة عامة قديمة، أو حتى لا وجود لها.

الخطة دالت

أدرك بن غوريون، مع نهاية سنة ١٩٤٦، أن البريطانيين كانوا في طريقهم إلى المغادرة، وأخذ يعمل مع مساعديه على وضع إستراتيجية عامة يمكن تطبيقها ضد الأهالي الفلسطينيين في اللحظة التي يغادر البريطانيون البلد. وتمثلت هذه الإستراتجية في الخطة (ج) «غيمل» بالعبرية. كانت الخطة (ج) نسخة مطورة من خطتين سابقتين، طمحت الخطة (ج) مثل الخطتين (أ)، (ب) إلى إعداد القوات المسلحة التابعة للمجتمع اليهودي من أجل القيام بحملات هجومية على مدن فلسطين وقراها فور خروج البريطانيين من البلد.

كان الغرض من تلك الحملات «ردع» الأهالي الفلسطينيين عن مهاجمة المستعمرات اليهودية، والرد الثأري على مهاجمة منازل يهودية، أو طرقات، أو حركة سير.

لكن خلال أشهر تم وضع خطة أخرى (د)، «دالت» بالعبرية. وكانت هذه الخطة التي حسمت مصير الفلسطينيين

(**) **الحمولة**: هي العائلة الكبيرة التي تعد بالمئات، أو حتى الآلاف.

داخل الأراضي التي أراد القادة الصهيونيون الاستيلاء عليها لإقامة الدولة الصهيونية. بغض النظر عما إذا كان من الممكن أن يتخذ هؤلاء الفلسطينيون قرارًا بالتعامل مع الدولة اليهودية، أو مقاومتها، فإن الخطة «دالت» قضت بطردهم من وطنهم بشكل منهجي وكلي.

حرب ١٩٤٨[٦]

تضمنت العمليات العسكرية، التي تلت خطة التقسيم في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، مواجهات عسكرية. قامت القوات الصهيونية بثلاث عشرة محاولة لاحتلال القدس. وكان هدف هذه العمليات مزدوجًا:

١- فتح طريق تل أبيب ـ يافا ـ القدس، الرئيسي، لتأمين حرية الحركة للعصابات الصهيونية المسلحة.

٢- إخلاء القرى العربية الواقعة في نواحي القدس الغربية من أهلها العرب الفلسطينيين، لتوفير عمق ديموغرافي، وتواصل بين الدولة الصهيونية المقترحة، وبين مدينة القدس، في إطار خطة «دالت».

في الفترة الفاصلة بين كانون الأول/ ديسمبر١٩٤٧، ويوم الانسحاب البريطاني (١٥آيار/ مايو ١٩٤٨)، قام المسلحون الصهيونيون بسبع عمليات عسكرية في القدس، وهي: براك، نحشون، هرئيل، مكابي، يبوسي، وشيطفون، وكلشون. وقد جرت هذه العمليات كلها داخل حدود الدولة العربية المقترحة من جانب الأمم المتحدة، وجرت العمليات الأخيرة، جزئيًا، داخل الحدود الدولية المقترحة للقدس.

استمرت السلسلة الثانية من الهجمات (عمليات بن ـ نون، يورام، كلشون)، وبعد انتهاء الانتداب (١٥آيار/ مايو١٩٤٨)، حتى الهدنة الأولى (١١حزيران/ يونيو ١٩٤٨).

وقع الهجوم الثالث، أيضًا، في المناطق المقترحة للدولة العربية (عمليتا داني وأن- فار) في الفترة ما بين الهدنتين، واستغرق عشرة أيام (٨ ـ ١٨تموز/ يوليو).

أما الهجوم الرابع، والأخير، والذي استمر فترة طويلة، ما بين ١٨ تموز/ يوليو حتى تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٤٨ ـ والمعروف باسم هھار ـ فكان حاسمًا في إجلاء وتهجير أهالي القرى العربية الواقعة غرب القدس.

المجازر[٧]

● مجزرة قالونيا (١٢/ ٤/ ١٩٤٨)

قالونيا قرية عربية فلسطينية تبعد عن القدس بحوالي ٧كم، كان عدد سكانها ٩١٠نسمة، ومساحتها ٧٢ دونما. وفي اليوم ١٢نيسان/ أبريل ١٩٤٨، هاجمت قوة «البالماخ»(*) الإرهابية الصهيونية القرية، ونسفت عددًا من بيوتها، فاستشهد، جراء ذلك، على الأقل ١٤ شخصًا من أهلها.

(*) البالماخ: تنظيم عسكري هو بمثابة «الجيش الدائم» لمنظمة «الهاغاناه»، والجناح العسكري لها. أنشئ البالماخ عام ١٩٤١، وفي عام ١٩٤٨، أصبحت ألوية البالماخ النواة العسكرية الضاربة لجيش العدو الصهيوني.

● **مجزرة نحالين (٢٨/ ٣/ ١٩٤٥)**

نحالين قرية عربية فلسطينية في قضاء القدس، كان عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٦٢٠ نسمة. في ٢٨ آذار/ مارس ١٩٤٥ هاجمت قوة من المظليين الصهاينة القرية، وقتلت تسعة من أهلها، وجرحت تسعة عشر شخصًا آخرين، وكان يقود القتلة في هذه المجزرة الإرهابي العريق أرئيل شارون. وفي ١٣/ ٤/ ١٩٨٩ ارتكب الغزاة الصهاينة مجزرة في نفس القرية ذهب ضحيتها ثلاثة شهداء.

● **مجزرة دير ياسين (٩-١٠/ ٤/ ١٩٤٨)**

دير ياسين قرية عربية فلسطينية تبعد حوالي ٦كم إلى الغرب من مدينة القدس، كان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قرابة ٦١٠ نسمة، ومساحة أراضيها ٢٨٥٧ دونمًا احتلها الغزاة الصهاينة في يوم المجزرة نفسه.

صباح يوم الجمعة ٩/ ٤/ ١٩٤٨، باغت الصهاينة من عصابتي «الأرغون»(**)، و«شتيرن»(***) الإرهابيتين أهالي دير ياسين، وفتكوا بهم دون تميز بين الأطفال، والنساء، والشيوخ، ومثلوا بجثث الضحايا منهم.كان قوام القوى التي هاجمت دير ياسين (٣٠٠٠) إرهابي صهيوني. رافقتهم المدرعات، تزعم عصابة «شتيرن» أو «ليحي» إسحاق شامير. وكان قائد الهجوم في هذه العصابة هو «يهوشع زطلر»، وكان قائد وحدة دفن الضحايا يدعى «ينشرين شيف». وقيل إن قائد الهجوم على دير ياسين هو «لابيدوت» واستمرت المجزرة (١٣) ساعة، أي حتى ساعات ظهر السبت «١٠/ ٤/ ١٩٤٨»، ولقد تضاربت الروايات حول عدد ضحايا دير ياسين، (سنوردها لاحقًا).

من بين أساليب تنفيذ هذه المجزرة، صف الرجال إلى الحائط، وإطلاق الرصاص عليهم، وكان القتلة كلما احتلوا بيتا فجروه.... إن عائلات كاملة تم إيقافها بجوار الحائط، ثم أطلقت عليها النيران من البنادق.. وأحال بعض عناصر «الأرغون» الجثث إلى قطع بسكاكينهم، وتم قطع أو جرح أيدي النساء، وأذانهن لسرقة أساورهن، أو خواتمهن، وقد قطعت أوصال الأطفال، ودمر القتلة مدرسة أطفال القرية بالكامل وقتلوا معلمة المدرسة.

مذبحة دير ياسين والإعلام

مما قاله مناحم بيغن، قائد «الأرغون» الإرهابية الصهيونية، التي نفذت مجزرة دير ياسين:

«قامت في البلاد العربية وفي جميع أنحاء العالم موجة من السخط على ماسموه (المذابح اليهودية)، وقد كانت هذه الدعاية العربية تقصد تشويه سمعتنا، ولكنها أنتجت لنا خيرًا كثيرًا، فقد دب الذعر في قلوب العرب... فقرية (قالونيا) التي كانت ترد هجمات (الهاغاناه) (*) الدائمة هجرها أهلها بين ليلة وضحاها. واستسلمت بدون قتال،

(*) **إتسل، أو الأرغون**: تأسست هذه المنظمة الإرهابية الصهيونية عام ١٩٣٧، بعد أن انفصلت عن «الهاغاناه»، وأصبحت إتسل تحت إمرة جابوتنسكي، وكان قائد إتسل هو «دافيد رازيال»، وبعد مقتله في العراق، حل مكانه «مناحيم بيغن»، وفي يونيو/ حزيران ١٩٤٨ تم حل هذه المنظمة، حيث انضم أفرادها إلى «جيش الدفاع الإسرائيلي».

(**) **ليحي، أو شتيرن**: تنظيم سري صهيوني، عمل في فلسطين أثناء الانتداب البريطاني، وأسسه الإرهابي الصهيوني إبراهام شتيرن، وقد انفصل تنظيم ليحي عن إتسل عام ١٩٤٠، وحمل بعد ذلك اسم مؤسسة شتيرن. وقد تم حل تنظيم ليحي عام ١٩٤٨، وانضم قسم من أفراده إلى «المنظمة العامة للعمال»، بينما انضم قسمٌ آخر إلى عدة أحزاب صهيونية متطرفة.

(***) **الهاغاناه**: هي الاسم المختصر للمنظمة العسكرية اليهودية السرية التي عملت في فلسطين، إبان فترة الانتداب البريطاني(١٩٢٢-١٩٤٨)،=

وهرب أهالي بيت إكسا أيضا، وقد كانت بيت إكسا وقالونيا تشرفان على الطريق العام، وبسقوطهما واحتلال القسطل استطاعت القوات اليهودية أن تحافظ على الطريق إلى القدس.. وفي أماكن كثيرة كان العرب يهربون دون أن يشتبكوا مع اليهود في أي معركة، وقد ساعدتنا أسطورة دير ياسين في المحافظة على احتلال حيفا» [٨].

إن أول من ذكر أن عدد شهداء دير ياسين هو ٢٤٥ شخصًا كان موردخاي رعنان، قائد إتسل «الأرغون» في القدس، وذلك في مؤتمر صحفي عقده مساء يوم الجمعة ٩ نيسان/ أبريل ١٩٤٨، بعد توقف القتال، واحتلال القرية مباشرة، وحضره الصحفيون ومراسلو وكالات الأنباء الأمريكيون واليهود. وأذاعت الـ «بي.بي.سي» اللندنية الرقم نفسه في نشرتها الإخبارية لتلك الليلة. كما ذكرته في الوقت نفسه محطة الإذاعة البريطانية الانتدابية في القدس. كما أن ممثل الصليب الأحمر الدولي زار دير ياسين يوم الأحد ١١ نيسان/ أبريل ١٩٤٨، ونقل إلى السلطات البريطانية، وإلى «الهيئة العربية العليا» (**) في القدس تقديره لعدد الضحايا، وعقد الدكتور حسين فخري الخالدي، أمين سر «الهيئة العربية العليا» مؤتمرًا صحفيًّا في إثر لقائه ممثل الصليب الأحمر، يوم الأحد١١ نيسان/ أبريل، واعتمد الرقم ٢٥٤. بيد أن نتيجة إحصاء وجهاء دير ياسين «الناجين» لشهدائها، في آخر نيسان/ أبريل ١٩٤٨هو ١٠٠ شهيد، معظمهم من الشيوخ، والنساء، والأطفال [٩].

غدا احتلال دير ياسين بحسب الرواية الصهيونية اليمينية نقطة تحول مفصلية في حرب ١٩٤٨ تساقطت بعدها القرى الفلسطينية المجاورة لها والبعيدة عنها أمام هجمات الهاغاناه، بفضل «إنجازات» «إتسل» و«ليحي» في دير ياسين. والواقع أنه على الرغم من الصدمة المعنويه التي أحدثتها واقعة «دير ياسين»، فإنه حتى أقرب القرى إليها (عين كارم، صوبا، صطاف، المالحة) لم تتساقط كأوراق الخريف كما يدعى، وإنما صمدت عدة أسابيع بعد احتلال دير ياسين، ولم تسقط إلا في أواسط تموز/ يوليو ١٩٤٨، عندما استؤنف القتال بعد الهدنة الأولى، وبعد أن عجزت جيوشٌ عربيةٌ نظاميةٌ عن الصمود أمام هجمات القوات الإسرائيلية.

كذلك الأمر بالنسبة إلى القرى الأخرى المجاورة لدير ياسين في قضاء القدس «بتير، القبو، الولجة، وبيت صطاف» التي صمدت إلى النهاية، عندما سلمت إلى إسرائيل بموجب اتفاقية الهدنة الإسرائيلية ـ الأردنية، في نيسان/ أبريل ١٩٤٩ [١٠].

وقد بلغ عدد قرى القدس المدمرة، خلال حرب ١٩٤٨، ٣٨ قرية. تم محوها من على الخريطة الفلسطينية، وفيما يلي استعراض لها:

=وتأسست في ١٢/ ٦/ ١٩٢٠، وقد بلغ عدد أفرادها العاملين ضمن الشرطة العبرية حوالي ٢٢ألف إرهابي، مسلحين، ومدربين من قبل الجيش البريطاني، وقد تولى قائد بريطاني يدعى تشارلز ونغت مهمة الإشراف على تسليح وتدريب «الهاغاناه». ولقد شكلت الهاغاناه العمود الفقري لجيش العدو لاحقا.

(**) الهيئة العربية العليا: هي المؤسسة التي ائتلفت فيها الأحزاب العربية الفلسطينية ربيع ١٩٤٦، بترتيب خاص من جامعة الدول العربية، التي حرصت على إبقاء كتلة «التحرير الوطني الماركسية الفلسطينية» خارج هذه «الهيئة». والأحزاب التيّ كونت «الهيئة» هي: العربي/ الدفاع/ الاستقلال/ الكتلة الوطنية/ الإصلاح/ ومؤتمر الشباب.

قرى القدس المدمرة

١ - قرية أشوع

تقع إلى الغرب من مدينة القدس، وتبعد عنها ٢٧كم، بلغت مساحة أراضيها المسلوبة نحو ٥٥٠٠ دونم، أقيم على أنقاضها مستوطنة هارتون وموشاف أشتاؤول اللتين تأسستا عام ١٩٤٩، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ نحو ٦٢٠ نسمة تقع على الطريق العام الذي يصل بيت جبرين بالطريق العام الممتد بين القدس ويافا.

٢ - قرية البريج

تقع إلى الجنوب الغربي من القدس على بعد ٢٥ كم منها، أزيلت القرية عام ١٩٤٨، وتم الاستيلاء على أراضيها، البالغ مساحتها ١٩١٠٠دونم، وبلغ عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٧٢٠ نسمة، اسم القرية تصغير لكلمة البرج، المشتق من كلمة بورغوس اليونانية التي تعني البرج، احتلت البريج على الأرجح في المرحلة الأولى من عملية هھار، وسقطت القرية بين ١٩ و ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨. وفي سنة ١٩٥٥ أنشئت مستعمرة ميخا إلى الجنوب من موقع القرية، أما أراضي القرية فقد أصبحت جزءًا من قاعدة عسكرية كبيرة اسمها كتافت شتايم (الجناح الثاني).

٣ - بيت ثول

تبعد عن القدس ٥ , ١٥كم، احتلت القرية أثناء عملية نحشون، التي بدأت في أول نيسان/ أبريل ١٩٤٨، إلى الجنوب الشرقي منها أسست مستعمرة نتاف التي كانت أنشئت سنة ١٩٤٦.

٤ - بيت عطاب

تقع إلى الجنوب الغربي من مدنية القدس وتبعد عنها ١٥كم، كانت تتبع لقضاء الرملة عام ١٩٣١، هدمتها سلطات الاحتلال عام ١٩٤٨، واستولت على أراضيها، البالغة ٨٨٠٠ دونم، وأقامت على أراضيها مستوطنة نيس هاريم، بارجيوريا، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ نحو ٥٤٠ نسمة احتلت في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، أثناء عملية ههار.

٥ - بيت محسير

تقع على بعد ٢٠كم إلى الغرب من مدينة القدس. هدمت القرية وطرد أهلها، وتم الاستيلاء على أراضيها، ومساحتها ١٦٣٠٠دولم، وأقيمت عليها مستوطنة موشاف بيت ميئير عام ١٩٥٠، قد بلغ عدد سكانها ٢٤٠٠نسمة عام ١٩٤٥، وسقطت بيت محسير خلال عملية مكابي، على يد لواء هرئيل الحديث التشكيل، في إطار البالماخ، ولم يتم احتلال القرية بسهولة، فقد هاجمها رجال البالماخ، ثلاث ليال متتالية ولم يتم احتلالها إلا في صباح ١١/ ٥/ ١٩٤٨.

٦ - بيت أم الميس

تقع إلى الغرب من مدينة القدس، وتبعد عنها ١٠كم، هدمت القرية عام ١٩٤٨، وصودرت أراضيها البالغ مساحتها ١٠١٠٠دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة موشاف رامات عام ١٩٤٨، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥، ٧٠ نسمة فقط.

٧- بيت نقوبا

تقع إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، تبعد عنها ١٣كم، هدمت القرية عام ١٩٤٨، وصودرت أراضيها البالغ مساحتها ٢٠١٠ دونمات، وأقيمت على أراضيها مستوطنة موشاف بيت نقوبا عام ١٩٤٩، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥، ٢٤٠ نسمة، احتلت في أوائل نيسان/ أبريل ١٩٤٨، معنى هذا أنها سقطت في سياق عملية نحشون، وهي كبرى عمليات الهاغاناه حتى ذلك التاريخ.

٨- قرية جرش

تقع إلى الغرب من القدس، وتبعد ٢٨كم عنها، ظلت تتبع لقضاء الرملة حتى عام ١٩٣١، دمرت عام ١٩٤٨ وسلبت أراضيها ٣٥٠٠ دونم، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ حوالي ١٩٠ نسمة، أغارت القوات الإسرائيلية على جرش في سياق عملية ههار، وكانت القوة الأساسية المشتركة في هذه العملية هي لواء هرئيل.

٩- قرية الجورة

تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة القدس، وتبعد عنها ١٩كم هدمت القرية عام ١٩٤٨، وشتت أهلها، وصودرت أراضيها البالغة ٤٢٠٠ دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة موشاف أدرة عام ١٩٥٠، وبلغ عدد سكانها، عام ١٩٤٥، قرابة ٤٢٠ نسمة، واحتلت القرية في إطار عملية داني.

١٠- خربة اسم الله

تبعد عن القدس ٢٦كم، بلغ عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٢٠نسمة، صودرت أراضيها البالغة ٥٦٨ دونمًا، وقد تعرضت للاجتياح في إطار عملية داني، حين قامت القوات الإسرائيلية بتوسيع الممر الذي كانت شقته من الساحل نحو القدس في سنة ١٩٤٤، أنشأ الصهاينة مستعمرة كفار آري على بعد نحو ١,٥ كم إلى الشمال الغربي من موقع القرية، قرب أراضي القرية لا عليها.

١١- خربة التنور (علار التنور)

تبتعد عن القدس ١٨,٥ كم، كانت تحمل اسم علار السفلى في أوائل العهد العثماني، وفي سنة ١٨٦٥، بلغ عدد سكانها ٣٩ نسمة فقط. وأصبح عام ١٨٧٥، ٤٠٠ نسمة. على الأرجح أنها احتلت في سياق عملية ههار، وسقطت تقريبًا في ١٢-٢٢تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، أي حين سقطت علار، وبيت عطاب.

وضمت أراضي القرية إلى أراضي علار المجاورة، ودمجت فيها، وثمة مستعمرتان إسرائيليتان على هذه الأراضي، والأقرب إلى خربة التنور، شمى مطاع، وقد بنيت سنة ١٩٥٠.

١٢- خربة العمور

تقع إلى الغرب من القدس، وتبعد عنها ١٦كم. بلغت مساحة أراضيها المسلوبة ٣,٩ كم٢، عدد سكانها عام ١٩٤٥، ٢٧٠نسمة، احتلت القرية في ١٢تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، ومعنى هذا أنها سقطت في قبضة

«لواء هرئيل» الإسرائيلي في سياق «عملية ههار». وقد أسست مستعمرة غفعت يعاريم على أراضي القرية في سنة ١٩٥٠.

١٣- خربة اللوز

بالقرب من القدس، وتبعد عنها ١٤كم، بلغت مساحة أراضيها المسلوبة ٤٥٠٠دونم، أما عدد سكنها فبلغ عام ١٩٤٥ حوالي ٤٥٠ نسمة. احتلت خربة اللوز في ١٣- ١٤ تموز/ يوليو في سياق «عملية داني» والتي قام بها «لواء هرئيل»، وقد غرس حول موقع القرية غابة كثيفة من أشجار السرو، والتنوب، وقد أقيمت الغابة تخليدًا لذكرى الجنرال الإسرائيلي المعروف موشيه ديان.

١٤- دير آبان

تقع إلى الغرب من مدينة القدس، وتبعد عنها ٢٠كم، صودرت أراضيها، وهدمت القرية عام ١٩٤٨، وبلغت مساحة أراضيها ٢٢٧٠٠دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة «موشاف محسيا» عام ١٩٥٠، عدد سكانها عام ١٩٤٥ بلغ ٢١٠٠ نسمة، في جوار القرية ثلاثة مواقع أثرية هي: خربة جنعر، خربة حرازة، وخربة الصياغ.

كانت دير آبان أول قرية في سياق «عملية ههار» وتفيد تقارير «الهاغاناه» أنه تم الاستيلاء على التل المشرف على دير آبان، في إثر مباغتة القوات المصرية التي صارت عرضة لنيران المدفعية، والقصف بمدافع الهاون، وفي ليلة ١٩- ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر احتلت القرية، وفي أواخر سنة ١٩٤٨ أنشئت مستعمرة تسرعا شمالي شرقي موقع القرية، عام ١٩٥٠ أيضًا أنشئت مستعمرتا بيت شميش، ويشعى، وتقع المستعمرات الأربع على أراضي القرية.

١٥- دير رافات

تبعد عن القدس ٢٦كم، بلغت مساحة أراضيها ١٣٢٤٢دونم، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ نحو ٤٣٠ نسمة، اجتيحت بتاريخ ١٧-١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ في أثناء المرحلة الثانية من «عملية داني» التي نفذها الجيش الإسرائيلي، حيث سقطت القرية في قبضة وحدات لواء هرئيل في نهاية العملية، ولم تدمر القرية إلا بعد عدة أسابيع، أي خلال الهدنة الثانية في الحرب التي دامت ثلاثة أشهر من ١٩ تموز/ يوليو حتى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، في سنة ١٩٥٤ أنشئت مستعمرة غفعت شيمش على أراضي القرية، غربي موقعها مباشرة.

١٦- دير الشيخ

تقع في الجنوب الغربي من القدس، تبعد عنها ١٨كم، هدمت عام ١٩٤٨، وطرد أهلها وسلبت أراضيها البالغة ٦٨٠٠دونم، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ نحو ٢٢٠ نسمة.

مع انتهاء الهدنة الثانية في ١٥تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، اندفعت القوات الإسرائيلية في ممر القدس إلى الجنوب، تمامًا من الطريق المؤدي إلى الساحل، وقد احتل «لواء هرئيل» دير الشيخ في سياق هذه العملية، التي عرفت بعملية ههار، وذلك يوم ٢١تشرين الأول/ أكتوبر.

١٧ - دير عمرو

تبعد عن القدس ١٢,٥كم، وبلغت مساحة أراضيها ٢٠٧٢ دونماً، كانت دير عمرو مركز مشروع تعليمي، واجتماعي فلسطيني. ففي سنة ١٩٤٢، أنشأت لجنة اليتيم العربية، وهي مؤسسة خاصة مركزها القدس، في دير عمرو مزرعة نموذجية للبنين، تجمع بين منهج المدرسة الثانوية العادية والتدريب الزراعي، وكان تلامذتها يختارون حصرًا من عائلات فقدت معيلها خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩. وكان الهدف من المزرعة تشجيع خريجيها على العودة إلى قراهم والإسهام في تنميتها، وفي سنة ١٩٤٦ كانت المزرعة تضم نحو ٦٠ تلميذًا داخليًّا، وفي السنة الثانية بدأ تشييد بناء لمزرعة بنات متاخمة تدار على نسق مزرعة البنين، وقد احتلت القرية في ١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٨ في المرحلة الثانية من «عملية داني» وفي سنة ١٩٥٢ حولت الأبنية الرئيسية لمزرعة البنين إلى مستشفى إسرائيلي للأمراض العقلية حمل اسم «تراتيانيم».

١٨ - دير الهوا

تقع بالاتجاه الجنوبي الغربي من القدس، وتبعد عنها ١٢كم، وقد هدمت عام ١٩٤٨ وطرد أهلها وسلبت أراضيها، البالغة ٥٩٠٠ دونم، وأقيمت عليها مستوطنة موشاف نيس هاريم.

وكان عدد سكانها يبلغ عام١٩٤٥ نحو ٦٠ نسمة. احتلت دير الهوا في بداية عملية هھار عند نهاية الهدنة الثانية. وقد سقطت القرية ليلة ١٨ - ١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ في قبضة الكتيبة الرابعة من «لواء هرئيل».

١٩ - رأس أبو عمار

تقع إلى الجنوب الغربي من القدس، وتبعد عنها ١٩كم، هدمت عام١٩٤٨، وطرد أهلها، وسلبت أراضيها البالغة ٨,٣ آلاف دونم، وبلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ حوالي ٦٢٠٠ نسمة.

وقعت القرية في أرجح الظن في قبضة لواء هرئيل التابع للجيش الإسرائيلي، وذلك في سياق عملية هھار، وفي سنة ١٩٦٠ أنشأت إسرائيل مستعمرة تسورهداسا على أراضي القرية، إلى الجنوب من موقعها.

٢٠ - ساريس

تقع إلى الغرب من القدس، وتبعد عنها ١٥كم، وثمة قرية بنفس الاسم في قضاء جنين، صودرت أراضيها، البالغة مساحتها ١٠,٧آلاف دونم، وأقيمت عليها مستوطنة موشاف شوريش عام ١٩٤٨ وكان عدد سكانها قد بلغ عام ١٩٤٥ حوالي ٥٦٠ نسمة.

دمرت ساريس في أواخر «عملية نحشون» ويفيد تاريخ «الهاغاناه» أن احتلال تلك القرية جرى في ١٣نيسان/ أبريل ١٩٤٨. كما أنشئت مستعمرة شو إيفا، سنة ١٩٥٠، على بعد ٥٠٠ متر إلى الشمال الشرقي على أراضي القرية.

٢١ - سفلى

تقع في الجنوب الغربي من القدس، وتبعد عنها ٢٤كم، وقد بلغت مساحة أراضيها المسلوبة نحو ٢١٠٠ دونم، فيما كان عدد سكانها قد وصل عام ١٩٤٥ إلى ٦٠ نسمة. كانت قرية سفلى من ضمن القرى التي احتلت ضمن عملية «ههار» واستولت عليها الكتيبة السادسة من لواء هرئيل ليلة ١٨ - ١٩تشرين الأول/ أكتوبر.

٢٢- صرعة

تقع إلى الغرب من القدس، وتبعد عنها ٣١ كم، هدمت القرية، وطرد أهلها عام ١٩٤٨، وصودرت أراضيها البالغة مساحتها ٥٠٠٠دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة كيبوتس تسورعة عام ١٩٤٩ وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٣٤٠ نسمة. وقعت صرعة تحت الاحتلال في ١٣- ١٤ تموز/ يوليو في أثناء اجتياح إسرائيل سهل اللد والرملة، الواقع إلى الغرب منها. وكانت القوات المصرية تدافع عنها، كما شيدت مستعمرة تروم في الجانب الشمالي الشرقي من الموقع على أراضي القرية سنة ١٩٥٠.

٢٣ - صطاف

تبعد ١٢كم إلى الغرب من القدس، وقد هدمت القرية وطرد أهلها عام ١٩٤٨، وصودرت أراضيها البالغة ٣,٨ آلاف دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة موشاف بيكورا عام ١٩٤٩، كان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٤٥٠ نسمة. هوجمت في ١٣ - ١٤ تموز/ يوليو ١٩٤٨، نفذ الهجوم «لواء هرئيل» الذي كان من جملة القوات التي حشدت لتنفيذ «عملية داني»، يعود معظم أهالي هذه القرية بأصولهم إلى قبيلة بني حسن (*).

وهذه القبيلة تسع قرى في منطقة القدس الشريف: (الوجة، المالحة، بتير، بيت صفافا، خربة اللوز، صطاف، الشرفات، بالإضافة إلى قرية صوبا) قبل رحيل آخر عائلات بني حسن منها في القرن الثامن عشر الميلادي (١٢).

٢٤- صوبا

تبعد ١٠كم إلى الغرب من القدس، وقد بلغ مساحة أراضيها المسلوبة ٤١٠٠ دونم، وأقيمت على أراضيها مستوطنة كيبوتس صوبا عام ١٩٤٨، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٦٢٠ نسمة. هوجمت صوبا في ٣ نيسان/ أبريل عام ١٩٤٨، بعد هجوم وقع على قرية القسطل، وظلت القرية خارج قبضة الاحتلال ثلاثة أشهر متصلة، كما جرت محاولتان أخريان للاستيلاء عليها في أواسط نيسان/ أبريل، لكنهما باءتا بالفشل، ثم إنها وقعت أخيرًا في قبضة «لواء هرئيل» بتاريخ ١٢- ١٣ تموز/ يوليو ١٩٤٨ في سياق عملية داني.

٢٥- عرتوف

تقع على بعد ٣٦كم غرب مدينة القدس، وقد بلغت مساحة أراضيها المسلوبة ٤٠٣ دونمات، أقيمت على أراضيها مستوطنة موشاف ناحام، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٢٥٠ نسمة. تم احتلالها في المرحلة الثانية من عملية داني على يد الكتيبة الرابعة التابعة للواء هرئيل ليلة ١٧- ١٨ تموز/ يوليو.

٢٦- عسلين

تقع على بعد ٢٨كم إلى الغرب من القدس، وقد صودرت أراضيها البالغة ٢١٥٩دونمًا، فيما أقيم على أراضيها مستوطنة عشتا عول عام ١٩٤٨.

(*) **قبيلة بني حسن**: هم من الأشراف الذين قام صلاح الدين الأيوبي بتوطينهم في الجبال الغربية لمدينة القدس، وذلك لحمايتها من الصليبيين. وقبيلة بني حسن في القدس تلتقي مع قبائل بني حسن في منطقة الليث في الحجاز، وقبيلة بني حسن في شرق الأردن، وكذلك قبيلة بني حسن في السودان، وفي صعيد مصر، وفي العراق، بالنسب والأصول.

أما سكانها فبلغ عددهم عام ١٩٤٥ حوالي ٢٦٠ نسمة. وقعت في قبضة الجيش الإسرائيلي في أثناء هجوم كان جزءًا من عملية داني، ولقد قصفت القوات الإسرائيلية عسلين، ومجموعة من القرى الأخرى، بمدافع الهاون، وسيطرت عليها في ١٧ - ١٨ تموز/ يوليو.

وأنشأ الصندوق القومي اليهودي مشتلًا في الطريق الجنوبي للقرية التي ضمت أيضًا مرآبًا لتصليح الباصات، تملكه شركة النقل العام الإسرائيلي.

٢٧- عقور

تقع إلى الجنوب الغربي من القدس، على بعد ٢٠كم، أما مساحة أراضيها المسلوبة فتقدر بحوالي ٥٥٠٠دونم، وكان عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٤٠ نسمة، احتلت في ١٣- ١٤ تموز/ يوليو ١٩٤٨ في إطار المرحلة الثانية من عملية داني.

٢٨-علار (علارالفوقا)

تبعد عن القدس، ٥ ,١٧كم، تبلغ مساحة أراضيها المسلوبة ١٢٣٥٦دونمًا، وقد احتلت في ٢٢تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٤٨، وكانت واحدة من مجموعة قرى احتلت في سياق عملية هھار، وهو الهجوم الذي شنه لواء هرئيل وعتسيوني في الجيش الإسرائيلي، بعد الهدنة الثانية. وكان الهدف من هذه العملية توسيع الممر المؤدي إلى القدس ووصله بالأراضي المحتلة في تلال الخليل.

في سنة ١٩٥٠، أنشأت إسرائيل مستعمرة مطاع، في الطريق الجنوبي من موقع القرية. كما أسست في السنة عينها مستعمرة بار ـ غيورا شمالي شرقي الموقع، وكلتا المستعمرتين تقعان على أراضي القرية.

٢٩- عين كارم

تقع إلى الغرب من القدس بثمانية كيلومترات، وقد طرد أهلها، وسلبت أراضيها عام ١٩٤٨، ومساحة تلك الأراضي نحو ١٥٠٢٩دونمًا. وقد أقيمت على أراضيها جامعة، ومستشفى هداسا، بالإضافة إلى مستوطنة عين كارم عام ١٩٥٣، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٣١٨ نسمة.

طوقت عين كارم على يد وحدة عسكرية تم تشكيلها من قوى صغيرة، منها أرغون تسفاي ليئومي والجدناع (وهي كتائب شبيبة الهاغاناه)، وقوة الحراسة، وذلك في الأيام العشرة التي فصلت بين هدنتي الحرب (٩- ١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨).

في سنة ١٩٤٩، أنشأ الإسرائيليون مستعمرتي بيت زايت وإيفن سابير على أراضي القرية. كما أنشئت عليها في سنة١٩٥٠ مدرسة عين كارم الزراعية، أما باقي الأراضي فقد ضمته بلدية القدس الغربية الإسرائيلية إليها، وعدا مستشفى هداسا. أنشئت شمالي شرقي القرية مرافق سياحية إسرائيلية ضمت فنادق وأحواض سباحة.

٣٠- قالونيا

تبعد عن القدس ٦كم ومساحة أراضيها ٤٨٤٤ دونمًا، فيما كان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ١٢٦٠ نسمة (٩١٠ عرب، ٣٥٠ يهوديًّا).

قالونيا هي أول موقع في الريف الفلسطيني امتلك المهاجرون اليهود فيه أراضي زراعية.

ولقد كانت قالونيا أحد الأهداف الرئيسية لعملية نحشون، وقد هاجمت قوات البالماخ القرية في ١١نيسان/ أبريل ١٩٤٨، وفي سنة ١٩٥٦ أنشئت مستعمرة مفسيروت يروشلايم على أراضي القرية. وقد ضمت إليها لاحقًا مستعمرة معوز تسيون، التي شيدت في سنة ١٩٥١ على أراضي القسطل، لتشكلا معا ضاحية القدس، المسماة مفسيرت تيسون، التي تقع شمالي شرقي الموقع، ومعظمها على أراضي القرية.

كما بنيت مستعمرة موتسا بالقرب من القرية، على أراض اشتراها مستعمرون يهود في خمسينيات القرن التاسع عشر. وقد حل الدمار بها في أثناء القتال بين الفلسطينيين والصهاينة في تموز/ يوليو ١٩٢٩ ثم أعيد بناؤها، وتسميتها باسم موتسا تحتيت، في سنة ١٩٣٠، وبعد ثلاثة أعوام، أنشئت مستعمرة موتسا عليت في جوار قالونيا. وقد هجرتا كلتاهما في حرب ١٩٤٨، ثم أهلتا من جديد وأضحتا اليوم ضاحيتين من ضواحي القدس.

٣١- القبو

تقع إلى الجنوب الغربي من القدس مسافة ١٨كم، ومساحة أراضيها المسلوبة ٣٨٠١دونم. وكان عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٢٦٠ نسمة.

دخلت الكتيبة السادسة من «لواء هرئيل» التابع للجيش الإسرائيلي القرية في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٤٨، وكانت القبو من جملة القرى التي تم التنازل عنها لإسرائيل بمقتضى اتفاقية الهدنة مع الأردن، وكانت عدد هذه القرى أربع قرى؛ وفي سنة ١٩٥٠ أنشئت مستعمرة مفوبيتار على أراضي القرية.

٣٢- القسطل

تقع إلى الغرب من القدس بعشرة كيلومترات، وهي أول قرية عربية احتلها الصهاينة عام ١٩٤٨ بعد معركة عنيفة بقيادة عبد القادر الحسيني الذي استشهد في هذه المعركة، وقد بلغت مساحة أراضيها المسلوبة ١٤٠٠٠ دونم، أقيمت على أراضيها مستعمرة مفسرت تسيون عام ١٩٥١، وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد بلغ ٩٠ نسمة.

٣٣- كسلا

تقع على موقع كسالون «قرية كنعانية»، إلى الغرب من القدس بستة عشر كيلومترًا، ومساحة أراضيها المسلوبة نحو ٨٠٠٠ دونم، وقد أقيم عليها مستوطنة موشاف كسالون عام ١٩٥٢. وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد وصل إلى ٢٨٠ نسمة.

احتلت في ١٦تموز/ يوليو ١٩٤٨، أما مصير أهلها فإما هجر القرية مسبقًا، وإما الفرار جراء ضغط القصف المدفعي الإسرائيلي، وإما الطرد على يد القوى المحتلة، وهي لواء هرئيل، واجتيحت القرية في إطار عملية داني.

٣٤- لفتا

تبعد كيلومتر واحد إلى الشمال الغربي من القدس، ومساحة أراضيها المسلوبة ٨٠٠٠ دونم، وهي الآن من ضواحي القدس الغربية، وعلى أراضيها حي مي تفتواح من أحياء القدس، وكان عدد سكانها، عام ١٩٤٥، ٢٥٥٠ نسمة.

أقيمت على أراضيها بعد عام ١٩٤٨ الكثير من المؤسسات الإسرائيلية، والأحياء السكنية الكثيفة، وقد أقيم مبنى البرلمان الإسرائيلي «الكنيست» على جزء من أرض الشيخ بدر، وتعود ملكية هذه الأرض لعائلة علي خلف، كما أقيمت وزارتا الداخلية والخارجية ومكتب رئاسة الوزراء الإسرائيلية، والبنك المركزي الإسرائيلي، ومحطة الباصات إيغد المركزية، كما أقيمت على أراضيها أيضًا أحياء سكنية يهودية كحي روميما حيث مبنى التليفزيون الإسرائيلي الرئيسي.

وكذلك حي نفتوح، وحي رمات أشكول وجبعات شابيرا، وجبعات همفتار، ومعلوت رفتا، وكل من مبنى الجامعة العبرية على أرض «جبل المحاجر» الذي سماه الإسرائيليون هارهتسوفيم، وقسم من مستشفى هداسا، كما بنيت عدة فنادق حديثة على أراضي قرية لفتا منها فندق الهوليداي إن، وفندق سونستا، وفنادق أخرى [١٣].

٣٥- المالحة

تبعد عن القدس ٥,٥كم، وقد بلغت مساحة أراضيها ٦٨٢٨دونمًا، أما عدد سكانها فبلغ، عام١٩٤٥، ١٩٤٠نسمة، وقعت القرية في قبضة الإسرائيلين بعد معركة ضارية استمرت بضعة أيام. ففي ليل ١٣- ١٤تموز/ يوليو، قامت وحدة من الأرغون وفرقة يونثان التابعة للغدناع (كتائب شباب البالماخ) بدخول المالحة متخذة لها بعض المواقع في القرية، وشنت القوات العربية هجومًا مضادًا في ١٥تموز/ يوليو فأجبرت وحدة الأرغون على الانسحاب وفي ١٦ تموز/ يوليو باتت القرية تحت السيطرة الإسرائيلية. في سنة ١٩٤٩ أنشأ الصهاينة ضاحية مناحت في موقع القرية.

٣٦- نطاف

تبعد عن القدس ١٧كم، وقد بلغت مساحة أراضيها المسلوبة ١٤١٠دونمات، وكان عدد سكانها قد وصل، عام ١٩٤٥، ٤٠ نسمة. وقعت في قبضة القوات الإسرائيلية خلال المرحلة الثانية من عملية داني.

٣٧- الولجة

تبعد عن القدس ٨,٥ كم. مساحة أراضيها المسلوبة ١٧٧٠٨ دونمًا. وكان عدد سكانها عام ١٩٤٥ قد وصل إلى ١٦٥٠نسمة.

سلمت القرية إلى إسرائيل بمقتضى شروط اتفاقية الهدنة التي وقعت مع الأردن في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٤٩، وقد دخل الجيش الإسرائيلي القرية، فضلًا على ثلاث قرى أخرى في منطقة القدس «بيت صفاف، وبتير، والقبو» في الأسابيع التي أعقبت توقيع اتفاقية الهدنة.

أنشئت مستعمرة عميناداف على أرض القرية في سنة ١٩٥٠.

كانت كل قرية عربية تعمل كوحدة مستقلة، القرية هي التي تقرر مقاومة الهاغاناة الإسرائيلية أو عدم مقاومتها، أو «العيش في سلام مع الجيران اليهود».

كان التضامن الداخلي في القرية يشكل مصدرًا لقوتها، وفي الوقت نفسه نقطة الضعف الرئيسية فيها، فكل قرية كانت تقرر بنفسها كيف تتصرف، دون تنسيق فيما بينها، ففي مناطق كثيرة لم يكن هناك تعاون بين القرى العربية فيما بينها، وذلك بسبب علاقات العداء غير المفهوم والخصومات والنزاعات حول الأرض [١٤].

في يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧ تم ضم ما مساحته ٧٠ كم٢ من أراضي الضفة الغربية المحتلة إلى حدود بلدية القدس. وفيما بين عام ١٩٦٧ و١٩٩٧ تم إجازة بناء ١٣٪، فقط، من المساكن الجديدة في الأحياء العربية (معظمها ملكية خاصة)، بينما قام القطاع الإسرائيلي ببناء ٤٠٠٠٠ وحدة سكنية على الأقل لليهود على الأراضي التي تمت مصادرتها من المواطنين العرب.

ارتفع هذا العدد كثيرًا، لقد تعالت الأصوات الإسرائيلية المحذرة من خطر الديموغرافيا في القدس. «نحن في حالة انهيار ديمغرافي»! بهذه العبارة أطلق البروفيسور الإسرائيلي أرنون سوفير، صرخته المحذرة من خطر الديموغرافيا، الذي يميل ميزانه لصالح الفلسطينيين، وبات يشكل تهديدًا حقيقيًّا لليهود.

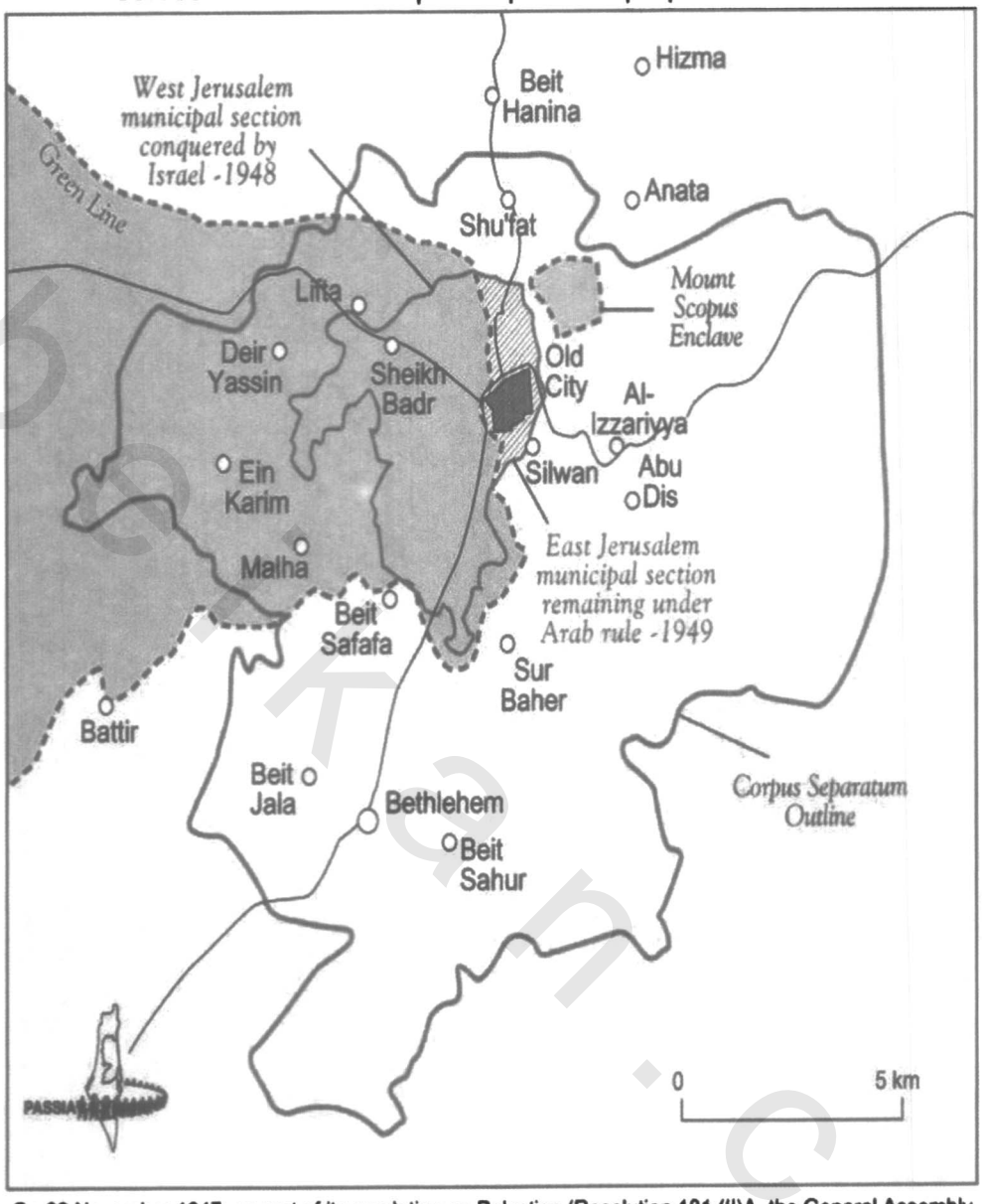
«خارطة الديموغرافيا في القدس، وفي النقب وفي الجليل تبين الخراب». يضيف سوفير ويوضح مخاوفه بأنه يعيش في النقب اليوم ١٤٠ ألف بدوي، والزيادة الطبيعية لديهم هي الأعلى في العالم ٥٪ في السنة، وفي الجليل ٧٥٪ من السكان هم عرب. كما أبدى سوفير مخاوفه من التواصل العربي الذي نشأ من الجليل حتى جنين، ومن هجرة جيل الشباب اليهود الذين يغادرون الجليل إلى تل أبيب، أو نيويورك[١٥].

وبعد، فلا يزال مسلسل المذابح والتهجير مستمرًّا، ولا يزال الشعب الفلسطيني صامدًا.

لكن هذا الصمود في أمس الحاجة إلى دعم عربي وإسلامي، وإلى وحدة وطنية حقيقية، تقوم على أساس برنامج الإجماع الوطني.

* * *

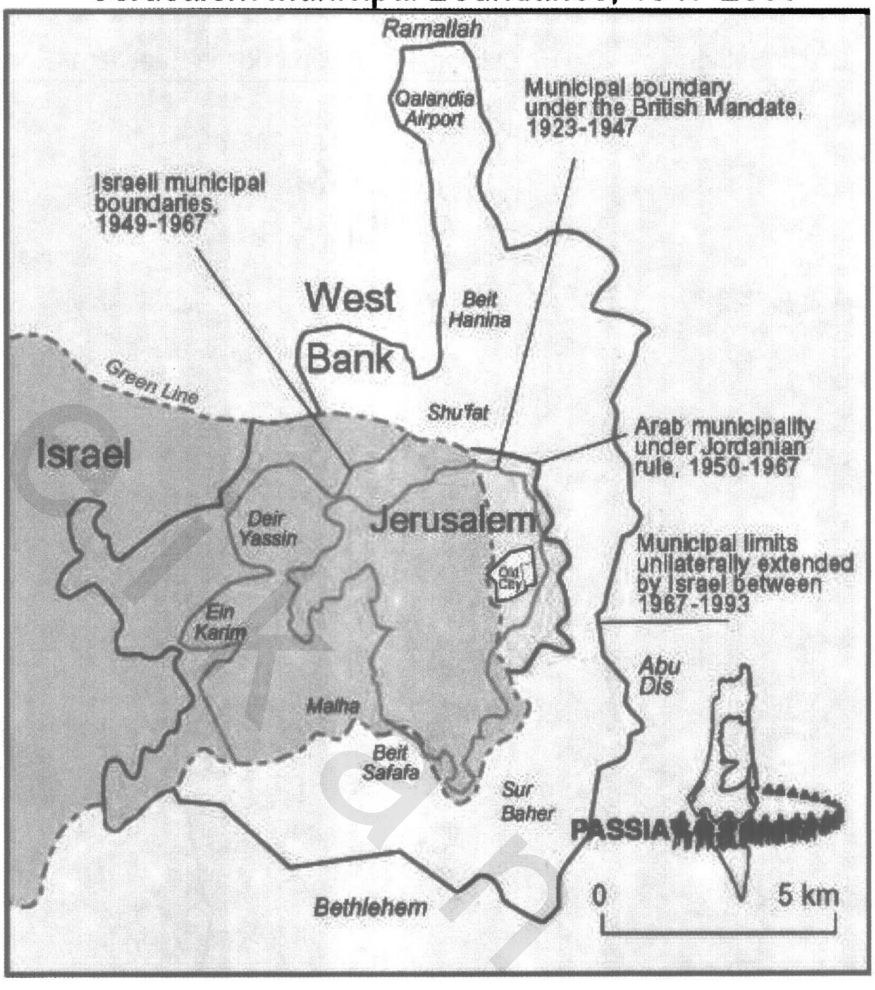
Jerusalem and the Corpus Separatum proposed in 1947



On 29 November 1947, as part of its resolution on Palestine (Resolution 181 (II)A, the General Assembly of the United Nations adopted the proposal that, "The City of Jerusalem shall be established as a *corpus separatum* under a special international regime and shall be administered by the United Nations". Under this plan a referendum was to be held after ten years to seek the views of the City's residents as to whether the international regime should continue, or be modified.

خريطة لتقسيم القدس المقترح عام ١٩٤٧

Jerusalem Municipal Boundaries, 1947-2000



The Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs (PASSIA)

الحدود البلدية لمدينة القدس بين عامي ١٩٤٧ ـ ٢٠٠٠

المستوطنات الإسرائيلية والأحياء الفلسطينية في القدس الشرقية عام ٢٠٠٠

Israeli Settlements and Palestinian Neighborhoods in East Jerusalem, 2000



هوامش الفصل الثامن:

(١) محمد جمعة، إشكالية الجغرافيا والديموجرافيا في إسرائيل، **السياسة الدولية**، (القاهرة)، العدد١٧٢، أبريل/ نيسان ٢٠٠٨، ص١٠٤- ص١١٥.

(٢) **المجازر الصهيونية المرتكبة بحق الشعب العربي الفلسطيني خلال القرن العشرين**، إصدار إدارة التوجيه المعنوي والسياسي في جيش التحرير الفلسطيني، دمشق، ٢٠٠١، ص٩.

(٣) سليم تماري، **القدس ١٩٤٨ -الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٢، بديل، القدس، ٢٠٠٣، ص٩٤- ٩٩.

(٤) إيلان بابية، **التطهير العرقي في فلسطين**، ترجمة أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٦- ٢٨.

(٥) **المرجع نفسه**، ص٣٧- ٣٨.

(٦) تماري، **مرجع سبق ذكره**، ص٩٨- ٩٩.

(٧) المجازر الصهيونية... **مرجع سبق ذكره**، ص٢٣- ٢٥.

(٨) **المرجع نفسه**، ص٢٥- ٢٦.

(٩) وليد الخالدي، دير ياسين: **الجمعة ٩/ ٤/ ١٩٤٨**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٩، ص١٢٥- ١٢٦.

(١٠) **المرجع نفسه**، ص١٢٨- ١٢٩.

(١١) لمزيد من المعلومات عن قرى القدس ومواقعها وما تبقى منها، الرجوع إلى:

- قرى فلسطين المدمرة، قرى قضاء القدس، **الحرية**، (دمشق)، العدد ١١٨٧ (٢٢٦١)، ١٨-٢٤/ ٥/ ٢٠٠٨.
- قرى فلسطين المدمرة، قرى قضاء القدس، **الحرية**، (دمشق)، العدد ١١٨٦(٢٢٦٠)، ١١-١٧/ ٥/ ٢٠٠٨، ص٩.
- **كي لا ننسى قرى القدس المدمرة**: www.group194.net

(١٢) د. محمد الفتياني، قرية صطاف بين الماضي العريق والحاضر: www.plissue.com

(١٣) روبي عنبتاوي، **كي لا ننسى بقايا ذكرى لفتا**: rubaanabtaw. Maktoob. com

(١٤) بني مورس، **طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين**، (وثيقة إسرائيلية)، دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، ١٩٩٣، ص ٢١.

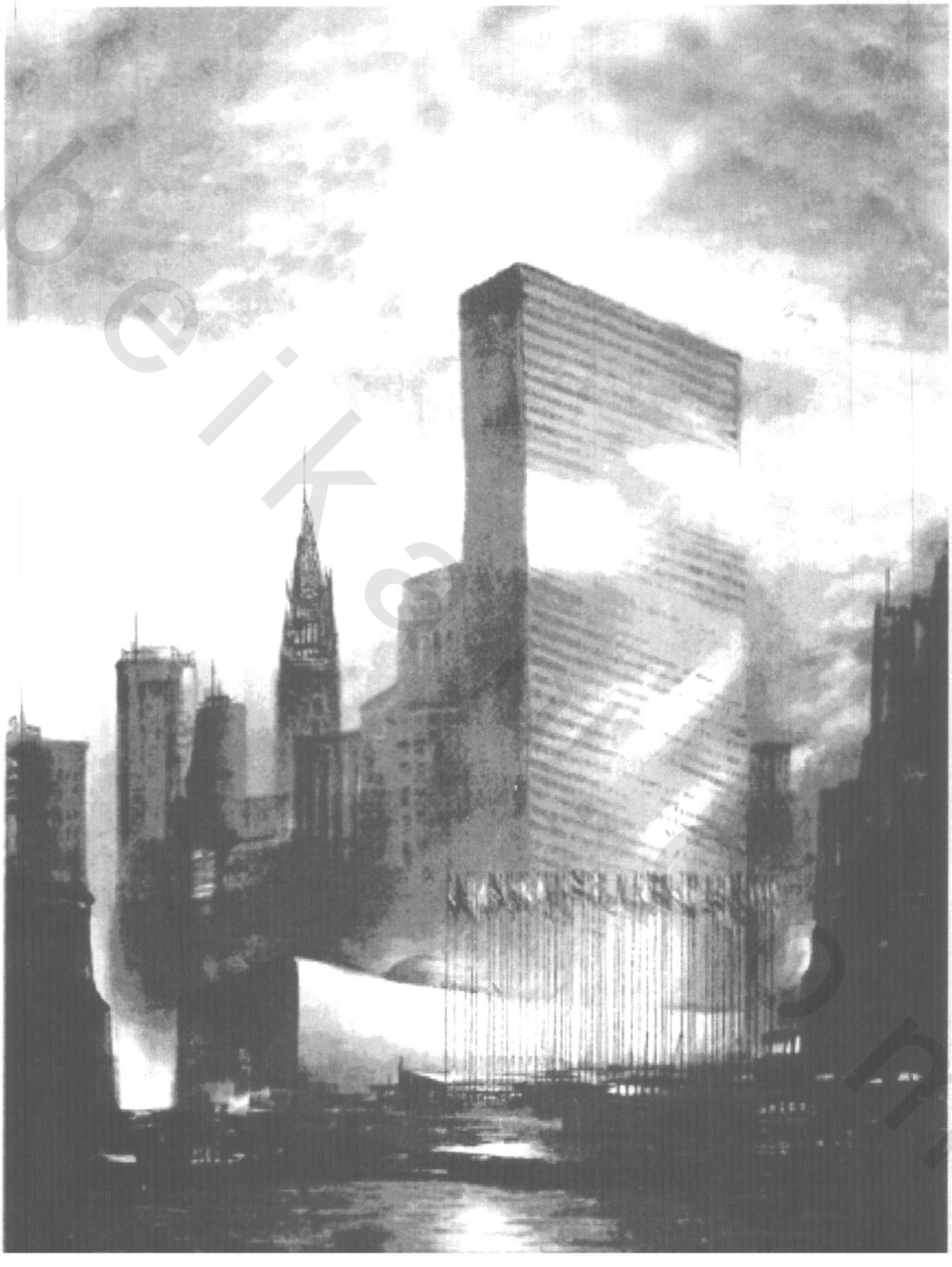
(١٥) نادي أبو زاهر، كي لا ننسى قرى القدس المدمرة، **التجديد العربي**: www.arabrenewal.net

* * *

obeikan.com

الباب السابع

الأبعاد الإقليمية والدولية



obeikan.com

الفصـل الأول

حقنا وباطلهم

عبد القادر ياسين

تاهت العنزة، فخلقت لليهود واليهودية أزمة.

طفق الراعي الفلسطيني يفتّش عن عنزته التائهة، وخلال جولته شاهد كُوَّة صغيرة مرتفعة، في واجهة سفح الجبل، فألقى حجرًا داخل الكُوَّة، اصطدم بمادة فخارية. أعاد الفتى الكرَّة، وتكرر سماعه للمادة الفخارية. تسلق الفتى الراعي سفح الجبل، وأطل داخل الكُوَّة، فشاهد أوعية فخارية، مصفوفة في أرض الكهف [1].

عاد الفتى في اليوم التالي ومعه صديق، ساعده على الدخول من الكُوَّة، فظفر بالأوعية الفخارية، وفي داخلها لفافات بها سبع مخطوطات. وبدأت كرة الثلج في التدحرج. حيث اشترى تاجر أنتيكات في بيت لحم، اسمه خليل إسكندر شاهين، وشهرته كاندو، أربع مخطوطات لرئيس دير سانت مارك، للكاثوليك السوريان، مارأثاناسيوس صموئيل، بينما اشترى المخطوطات الثلاث المتبقية البروفيسور إليعازر سوكينوك، لحساب الجامعة العبرية بالقدس.

جرت هذه الأحداث في منطقة الجبال الواقعة شمال شرقي البحر الميت، جنوبي مدينة أريحا، في مناطق قمران، ومربعات، وجزيرة ميرد، وعين جدي، والمسادة الإسرائيلية، في أحد أيام شتاء العام ١٩٤٦.

في أبريل/ نيسان ١٩٤٨، أعلنت «جامعة يل» الأمريكية اكتشاف مخطوطات باللغة العبرية في كهوف قمران، على ساحل البحر الميت، على أيدي بدو، واستمرت الاكتشافات حتى سنة ١٩٥٦. ولمدة سنتين، ظلت اللفائف تُباع بالسنتيمتر الواحد، واستغرقت عملية جمع هذه النُّتف بضع سنين، تحت إشراف المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية في القدس، التابعة للفاتيكان، وقد أشرفت تلك المدرسة على فريق دولي لدراسة هذه الأوراق؛ لهذا فإن أي مادة منها لن ترى النور إذا كانت تؤثر سلبًا على العقيدة الكاثوليكية الرومانية [2].

قبل حرب ١٩٦٧ العربية ـ الإسرائيلية، كانت المخطوطات في «متحف روكفلر» بالقدس، تحت إشراف إدارة الآثار الأردنية. ثم وضع الاحتلال الإسرائيلي يده على هذه المخطوطات بالكامل(*) [٣]. ما وفر لهذا الاحتلال سانحة ذهبية للتلاعب بهذه المخطوطات.

أنهى الاحتلال السيطرة الكاثوليكية على مخطوطات قمران منذ العام ١٩٩١، ونقلت السيطرة إلى «دائرة الآثار الإسرائيلية». واتهم كتاب لمايكل بيجنت، وريتشارد لي، صدر في لندن، الفاتيكان بتحريف ترجمة مخطوطات قمران، وإخفاء معلومات من المخطوطات. ثم صرح رئيس لجنة المخطوطات في إسرائيل، جون إستروغنل، بأن اليهودية «ديانة مرعبة»، مجرد «هرطقة» للديانة الصحيحة [٤].

لقد تأكد بأن هذه المخطوطات بقايا مكتبة عامرة، تعود إلى جماعة دينية غير معروفة للعالم، اتخذت من منحدرات قمران مقرًّا لها. والأهم أن تلك الجماعة قريبة العهد من الألفية الأولى الميلادية، مما أهلها للكشف عن خفايا القرن الأول للميلاد، الأقل توثيقًا، والأكثر غموضًا. وقد نسفت نصوص المخطوطات الكثير من الشائع والموروث، كما وضعت الشخصيات الدينية في سياقها التاريخي. وتوزعت المخطوطات إلى قسمين، **أولهما**: مجموعة نسخ من أسفار «العهد القديم»، تسبق النسخة المعروفة للعالم بنحو ألف سنة، وتتضمن رؤى وشروطًا مغايرة، تتفق مع النسخة السامرية للتوراة، التي يعتبرها الغرب مجرد هرطقة. فيما اشتمل القسم الثاني من المخطوطات على موضوعات غير توراتية، معارضة لمؤسستيْ الحكم، والهيكل، الموالتين للسلطة الأجنبية الوثنية المحتلة. امتد وجود «جماعة قمران» من الفترة المكابية (١٥٠ـ ٣٠ ق.م)، إلى ما بعد ظهور المسيحية في فلسطين، في القرن الأول للميلاد. ولقد احتدم النقاش، في ثمانينيات القرن العشرين، بين التيارين، اللاهوتي المتزمت، والليبرالي المنفتح، حول نقطتين أساسيتين: تاريخية المرحلة، وهوية الجماعة المسؤلة عن كتابة تلك الوثائق. اللاهوتيون يؤكدون بأن جماعة قمران ليست سوى الطائفة اليهودية القديمة المعروفة بالإيسينيين(**)، الذين ظهروا ما بين ١٥٠ ـ ٣٠ ق. م، رافضين فساد الملوك المكابيين، وكهنة الهيكل، فهجر الإيسينيون المجتمع إلى الصحراء، حتى داهمهم الرومان، وقضوا عليهم (٦٨ م). فيما يؤكد الباحثون الليبراليون بأن الوثائق تعود إلى القرن الأول الميلادي، وترتبط، حصريًّا، بالأسرة الهيرودية، والرومان[٥].

(*) حين شُن «العدوان الثلاثي» الاستعماري على مصر وقطاع غزة، خريف ١٩٥٦، أمر المشرف على المتحف ـ وكان إنجليزيًّا ـ بنقل المخطوطات إلى عمان، الأمر الذي لم يخطر ببال المسئول العربي عن المتحف عند وقوع عدوان ١٩٦٧، والذي لاحت نذره قبل نحو شهر من شن العدوان. وقد تصادف وجود مخطوطة واحدة منها في عمان!

(**) **الإيسينيون**: هم «المؤسسون» باللغة اليونانية، وفقًا للمؤرخين القدامى (فيلو/ يوسيفوس/ بليني) فرقة دينية منشقَّة، تكونت، في وقت ما من الفترة الحشمونية/ المكابية (١٥٠ ـ ٣٠ ق. م)، حوالي ١٥٠ ق. م؛ استياءً من فساد وتهاون مؤسسة الهيكل في أورشليم. فنأت تلك الفرقة بنفسها بعيدًا، وعاشت في البرية، حتى دمر الرومان موقعها (٦٨ م). وهي جماعة متدينة بعمق، ولدى أعضائها ثيابًا كتَّانية بيضاء، ويحيون معًا حياة مشتركة، في عزلة تامة عن الأحداث الدائرة من حولهم. يلتزمون، بدقة، بشعائر الطهارة، ويزدرون العبادة في هيكل أورشليم. ويتنازل الأعضاء، طواعية، عن أموالهم، وممتلكاتهم الخاصة لصالح الجماعة، ويمارس الأعضاء شعيرة العماد، وينكبُّون على دراسة التوراة، ويشتركون معًا في الوجبات الجماعية المقدسة.

بالبحث والتدقيق، برهن باحثون موضوعيون بأن الخلفية التاريخية للوثائق المسيحية لا تتفق مع مرحلة ما قبل المسيحية، بل تتزامن مع الثورة التي عمت البلاد (٦٦ ـ ٧٤ م)، ورأوا بأن الوثائق سوف تساعد على فتح مغاليق القرن الأول للميلاد، الحافل بالغموض، رغم أهميته القصوى.

العوري، مخطوطات .... ، **مرجع سبق ذكره**.

غني عن القول بأن حرص الصهاينة على إثبات الآراء والتوجهات اليهودية جاء كهدف تأكيد بأن ما اعتقده المسيحيون منزَّلاً، لا يعد يهودية متطرفة، وليس خروجًا على دين الآباء، وإنما مذهب من مذاهبهم[٦].

لقد أكد المؤرخ اليهودي المعروف يوسيفوس (٣٧ ـ ٩٦ م) بأن الإيسينيين مقاتلون أشداء، لا يهابون مواجهة الخطوب. وتخالف المخطوطات التي عُثر عليها ما أورده المؤرخون الثلاثة (يوسيفوس، وفيلو، وبليني). وتنطوي وثائق البحر الميت على ما هو أكثر حسمًا، باكتشاف استخدام الجماعة لعبارة «المحافظون على العهد»، في تعريف توجهها. وجاءت العبارة بالعبرية Nozrei ـ habrit (ناصريه هبريت)، ومنها اشتُق مصطلح (نصراني)، أحد الأسماء الأولى لما أصبح يُعرف، حوالي العام ٥٠ م، بالمسيحيين، الاسم الذي لا يعود إلى مدينة الناصرة، إذ لم تكن هذه المدينة قد وجدت بعد[٧].

لم تستسلم إسرائيل للمخطوطات، بل سخَّرتها ـ وقد غدت تحت سيطرة الدولة الصهيونية ـ لخدمة الأغراض الصهيونية، في محاولة لاعتبار المخطوطات التي عُثر عليها مكتبة للأصوليين اليهود، وليس لجماعة العيسويين المتمردين على سلطة الكهنة. وتُوِّجت محاولات إسرائيل هذه في مؤتمر عُقد في الجامعة العبرية بالقدس، في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٩[٨].

لقد تسترت إسرائيل ـ وعاونها في هذا الفاتيكان ـ على مخطوطات البحر الميت التي نسفت المزاعم الصهيونية بخصوص القدس وفلسطين.

لأهمية مخطوطات قمران، بدأنا بها فصلنا هذا، لكن لنعود، من جديد، إلى موضوعنا.

جذر المسألة

اجتاحت المياه جزيرة العرب في الألف السادس قبل الميلاد، فاندفع سكان الجزيرة يفتِّشون عن مناطق يلوذون بها، وانطلقوا إلى العراق، وسوريا، وإليهما نقلوا حضارتهم. في العراق حملوا اسم «السومريين»، وفي سوريا «العموريين». أما التزوير في هذه الحقائق التاريخية، فهدف إلى التحضير للاستعمار الصهيوني.

حسب مؤرخ مقدسي مرموق معاصر، العموريون هم بناة القدس. ذلك أن اسمها الأول (أوروسالم) اسم عموري، كما أن أول اسمين عُرفا لأول أميرين لمدينة القدس (باقر/ عمو، وسز ـ عمو) عموريان. فضلًا على أن تلة موريا ـ إحدى التلال الأربعة التي تقوم عليها مدينة القدس ـ اعتبرها المؤرخون «أرض العموريين». ولقد انبثق الكنعانيون من العموريين انبثاق اليبوسيين من الكنعانيين. ويذهب المؤرخون وعلماء الآثار إلى أن القدس بنيت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد على أربع تلال، إحداها تل الضهور (تل أوفل)، قرب عين ماء جيحون (سلوان أو أم الدرج، الآن). وقد وجد إبراهيم (عليه السلام)، عام ١٩٠٠ ق. م، ملكًا كنعانيًّا عربيًّا، هو ملكي صادق، يُقدِّس (المسجد الأقصى). ولقد استمر تغيير حدود القدس، بتأثير أعمال الهدم، وإعادة البناء، حتى استقرت على ما كانت عليه عند الاحتلال الإسرائيلي لها في حرب ١٩٦٧[٩].

نخلص من هذا إلى أن نشأة أي مدينة هي المحدد الأساسي لهويتها الأصلية، وأصحابها الحقيقيين.

احتل الفراعنة القدس(*)، وأطلقوا عليها اسميْ «يبوس»، و«أوبابيش»، وأحيانًا كانوا يتعاملون معها باسمها الكنعاني (أوروسالم).

حين غزا الآشوري سنحاريب فلسطين، عام ٧٠١ ق. م، فرض على اليهود الجزية، قبل أن ينقض البابلي نبوخذ نصَّر، عام ٥٨٧ ق. م، على القدس، ويهدم الهيكل(**)، ويسبي اليهود. واحتل الإسكندر المقدوني فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد. وفي عام ٦٣ ق. م، احتل الرومان القدس، بقيادة الملك بوميوس، وهدموا الكثير من مبانيها، بما فيها الهيكل.

ظلت القدس عرضة لغزوات الفرس والروم، ما عرَّض المدينة المقدسة للتدمير غير مرة، وإن أُعيد بناؤها، حتى ولد المسيح (عليه السلام) في عهد الحاكم الروماني على القدس، هيرودوس. وحين نظَّم اليهود اضطرابات ضد الحكم الروماني، قمعهم الملك تيطس، وهدم القدس والهيكل، سنة ٧٠ م. لكن الإمبراطور هدريان أعاد بناء المدينة دون الهيكل، سنة ١٣٧م، وأطلق عليها اسمًا جديدًا، هو «إيليا كابيتولينا»، وحرم هدريان اليهود من دخول القدس.

لقد انتشر الدين اليهودي في فلسطين إبان الحكم اليوناني، لكنه عاد وانحسر إبان الحكم البيزنطي لحساب المسيحية أولًا، ومن بعدها الإسلام. لذا لا تاريخ لليهود في فلسطين، بل إنهم ضمن دائرة التاريخ الفلسطيني في محطة عابرة، وكذلك تراثهم(١٠).

بانشقاق الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٩٥ م، غدت فلسطين ضمن الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية). وفي عام ٣١٢م اعتنق الإمبراطور البيزنطي، قسطنطين، المسيحية، وحذا رجال الدولة حذو إمبراطورهم، فالناس على دين ملوكهم! وحين زارت والدة الإمبراطور، هيلانة، القدس، أمر قسطنطين ببناء كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد ببيت لحم.

في عام ٦١١ م غزا الفرس فلسطين، بقيادة كسرى أبرديز (الظافر). ثم احتلوا قيسارية، فالقدس (٦١٤ م). حيث هدموا كنيسة القيامة لأول مرة، ودام احتلالهم للقدس أربعة عشر عامًا. إلا أن الإمبراطور هرقل هزمهم في معركة نينوى (٦٢٧ م). وقد انتقم هرقل من اليهود، بسبب عمالتهم للاحتلال الفارسي. وفي عام ٦٣٤ م، لاحت طلائع الفتح الإسلامي، الذي وصل إلى القدس ٦٣٨ م (١٦هـ). واشتمل فتح كل الأراضي السورية (٦٤٠م)، وطرد البيزنطيين الرومان منها. وظلت القدس عربية إلى سنة ١٠٩٩ م، حين أخلاها الفاطميون للفرنجة. الذين نظَّموا مذبحة رهيبة في المدينة المقدسة، قُتل فيها نحو سبعين ألفًا، عدا أعمال السلب والنهب. واتخذ الفرنجة من القدس عاصمة لمملكتهم اللاتينية، وأحلوا بطريركًا لاتينيًّا محل البطريرك العربي. إلى أن حرَّر صلاح الدين الأيوبي القدس عام ١١٨٧ م. وفي العام ١٥١٧ بدأ الحكم العثماني للقدس. إلى أن احتلتها القوات البريطانية أواخر الحرب العالمية الأولى (٩/ ١٢/ ١٩١٧)، وفي ٧/ ٦/ ١٩٦٧ أكملت القوات الصهيونية احتلال المدينة المقدسة، ولا تزال.

(*) احتلها تحتمس الثالث، ١٤٧٩ ق. م، وأمنحتب، ١٤١٣ ق. م، وأخناتون، ١٣٧٥ ق. م، وتوت عنخ آمون، ١٣٥١ ق. م، وبنحو، ٦١٠ق. م.

(**) قيل إن يوشع بن بتاه هو الذي بناه، وإن سليمان (عليه السلام) أكمل بناءه.

نخلص من هذا كله إلى أن العرب هم الذين بنوا القدس قبل نحو خمسة قرون، وقد تأكدت عروبتها، أولًا بظهور المسيحية فيها سنة ٣٠ م، ثم الفتح العربي سنة ٦٣٨ م. فيما جرى تسخير «الوعد الإلهي» المزعوم بمنح «شعب الله المختار» «أرض الميعاد»، عبر إبراهيم، فموسى (عليهما السلام)، ثم جرى توثيق ذلك «الوعد» في أسفار جوشوا، والقضاة، لتوفير الذرائع للغزوة الاستعمارية الصهيونية، التي بدأت بفلسطين، لوحة قفز إلى بقية أرجاء الأطماع الصهيونية في وطننا العربي «من النيل إلى الفرات».

فيما سقطت عن اليهود صفة «شعب الله المختار» ـ التي منحت لهم حين كانوا الأبناء الوحيدين لرسالة سماوية بمجرد أن عبدوا الأوثان، وخرجوا على العهد، ثم ظهرت المسيحية، فالإسلام. وإذا كان اليهود «شعب الله المختار»، فماذا يكون المسيحيون والمسلمون؟! أما «عودتهم إلى فلسطين»، فتمت بوعدٍ من بلفور، وليس بوعدٍ من الله، كما يؤكد بابا العرب[١١].

إن كل ما قيل عن وعد مقدس بفلسطين لليهود لم يثبت، علميًا، وهو ـ حسب تعبير البروفيسور نورمان كانتور، أكبر كُتَّاب اليهود في التاريخ ـ «شيء ينتمي إلى عالم الأدب، أكثر مما ينتمي إلى عالم الدين». ويعزز كانتور كلامه هذا برأي الأستاذ في جامعة كاليفورنيا الأمريكية، روبرت ألتر، وفيه جاء: «إن التوراة المتداولة يجب قراءتها بعيون الأدب، وليس بعيون التاريخ، أو الدين». ورصد وليم درايميل، في كتابه عن القدس، وعنوانه «المدينة المسحورة»، كل محاولات التنقيب الصهيونية المضنية، التي فشلت في العثور على «ماضٍ يُبنى عليه حاضر ومستقبل». وبذا فشل «علم الآثار اليهودي» في أن يكون أداة للحركة الصهيونية «تختلق به صلة بين التاريخ اليهودي القديم، وخنق التاريخ الفلسطيني كله»، حسب أستاذة الدراسات اليهودية في جامعة تل أبيب، د. شولاميت جيفا[١٢].

روايتان

قيل إن بني إسرائيل خرجوا من مصر في عهد رمسيس الثاني، وتوجهوا إلى فلسطين عبر سيناء، سنة ١٣٥٠ ق. م، مع موسى (عليه السلام)، فتاهوا في صحراء سيناء، زهاء أربعين عامًا، قبل أن يجتاحوا شرق فلسطين، بقيادة يوشع بن نون، فاستولوا على أريحا، دون القدس، التي احتلها داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م، لكنها لم تصبح مدينة يهودية خالصة، إذ استمر اليبوسيون يقيمون فيها، ولم يبارحوها.

في كتابه «إسرائيل»، اعتبر العالم لودز «يهوه» معبودًا في كنعان، حيث جمع الأنبياء صفات إديل وبعل، في «يهوه». أما العلاّمة روبير دي لانج فأكد بأن «العبريين اغترفوا من الكنعانيين». وقد نهلت التوراة من الإنتاج الأدبي في فلسطين. فالعبريون كانوا يعيشون في نصف بداوة، فيما تقدم الكنعانيون عليهم، خاصة في المجال الثقافي. وقد فسرت نصوص رأس شمرة نصوصًا توراتية، **أولًا**: اللغة والمصطلحات التوراتية، **وثانيًا**: أساليب التوراة، وآدابها، **وثالثًا**: التقاليد الدينية، والمعتقدات، والطقوس الدينية، **ورابعًا**: التقاليد التاريخية، والجغرافية، المنتشرة في التوراة[١٣].

على أن ثمة رواية أُخرى تقطع بأن اليهود لم يمروا حتى بفلسطين، وأن مملكتيْ «إسرائيل» و«يهودا» لم تقوما على أرض فلسطين، بل على ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية (عسير، والجزء الجنوبي من الحجاز، وفي قول آخر اليمن، تحديدًا). ويُستدل على هذا بذكر مئات المواقع، والمدن، والقرى، والجبال، والأنهار، التي لا تزال تحمل الأسماء نفسها، التي ذكرتها «التوراة». مما يجعل التاريخ الذي يلوِّح به الصهاينة محض أكذوبة تاريخية كبرى.

لقد أكدت نسبة كبيرة من الباحثين العرب، ممن تصدوا لدراسة التوراة، على صحة التاريخ بعموميته، وخطأ الجغرافيا[١٤]. أي سلموا بالحدث التاريخي، وإن أكدوا خطأ تحديد جغرافيته[١٥]. فثمة من أكد ـ عبر جملة لا تقبل الشك من الأدلة والبراهين ـ على أن عسير والجزء الجنوبي من الحجاز[١٦]، أو اليمن نفسها كانت هي مسرح الحوادث التاريخية للتوراة[١٧].

ما جعل أحد أولئك المتصدين يذهبون إلى التأكيد بأن كتاب التوراة لا يخرج ـ في مجمله ـ عن إطار التراث العربي، الذي كان يُحفظ مدوَّنًا في الذاكرة لعشائر عربية عاشت أحداثًا معينة، في منطقة بدوية، ضيقة من شبه جزيرة العرب[١٨].

ننتقل إلى العلماء الغربيين، حيث زار المستشرق النمساوي «آلويس موسيل ـ Alois Musil» مواقع التاريخ التوراتي، فتوصل إلى أن سيناء التوراتية ليست سيناء الحالية. وبالتالي فإن الآراء الشائعة حول موسى، وحول الديانة اليهودية ليست صحيحة[١٩].

من خلال العادات، والأخلاق الاجتماعية المشتركة للإسرائيليين مع أهل سبأ بالجزيرة العربية، فضلًا على الألفاظ المشتركة بين اللغتين (السبئية والعبرية)، وتشابه بعض أسماء الأعلام، توصل ولفنسون (إسرائيل) إلى أن الموطن الأصلي لبني إسرائيل لم يكن سيناء، بل بلاد اليمن[٢٠].

فيما أثبت المستشرق الألماني «هوغو ونكلر ـ Hogo Winckler» بأن «مصري» هي أرض شمال الجزيرة العربية، وأن مصر المذكورة في التوراة هي في جزيرة العرب، وليست في أفريقيا[٢١]. كما تنتمي هاجر المصرية إلى مصر إحدى مقاطعات الجزيرة العربية (معن مصرن)، وبالتالي فإن القصص الواردة في التوراة عن مصر وفرعون تخص تلك المقاطعة، وملكها العربي[٢٢].

الأمر الذي يعززه المؤرخ العالمي الشهير، هـ. ج. ويلز، حين رجَّح أن تكون (مسريم) في شمال جزيرة العرب هي المقصودة بـ «مصر»[٢٣]. ما جعل باحثًا عربيًّا فلسطينيًّا يستند إلى هذه البيِّنات كلها، ويضيف بأن الأبحاث الأثرية في وادي النيل، التي امتدت على مدى عقود، لم تؤكد الأحداث التوراتية[٢٤].

ليت الأمر اقتصر على الباحثين العرب والغربيين، بل إنه امتد إلى الإسرائيليين أنفسهم، بما فيهم «دائرة الآثار» الحكومية في إسرائيل[٢٥]. وهذا عالم آثار إسرائيلي معتمد يؤكد أنه «بعد سبعين عامًا من الحفريات المكثَّفة في (أرض إسرائيل)، توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة: لم يكن ثمة أي شيء على الإطلاق! حكايات الآباء مجرد أساطير! لم نهبط إلى مصر! ولم نصعد من هناك! لم نحتل البلاد(*)! ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان! الباحثون والمهتمون يعرفون هذه الحقائق منذ زمن، أما المجتمع [الإسرائيلي] فلا ... ففي العشرين سنة الأخيرة، هناك ثورة حقيقية في نظرة الباحثين الإسرائيليين للتوراة، كمصدر تاريخي ... [إن] مراحل تشكل (شعب إسرائيل) كانت مختلفة، تمامًا، عما ورد في التوراة ... المملكة المتحدة لداود وسليمان ـ التي توصف في التوراة باعتبارها دولة إقليمية عظمى ـ كانت، على أقصى تقدير، مملكة قبلية صغيرة ... ففي (أرض إسرائيل) لم تكن ثمة ظروف مواتية لقيام مملكة واسعة

(*) يقصد فلسطين.

... مدرسة نقد التوراة ـ التي ازدهرت في ألمانيا ـ بدأت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شككت في تاريخية قصص التوراة ... [التي] تمت صياغتها، وفبركتها، إبان السبي البابلي ... [أما] تاريخ (شعب إسرائيل) ... فليس سوى إعادة صياغة متأخرة للماضي، هدفها (لاهوتي) ... علم الآثار في (أرض إسرائيل) حقق هدفه: خلق صورة متناسقة للماضي، تستند إلى التوفيق بين المصادر الأدبية وبين الآثار المكتشفة على الأرض»[٢٦].

مع هذا كله لا يزال بين ظهرانينا من يعتبر «التوراة» أقدم مرجع تاريخي!

حتى لو لم نأخذ بحقيقة أن اليهود لم يخرجوا من مصر، ولم يتجهوا إلى فلسطين، بل وُجدوا على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، فلا حق لغاز، فضلًا على أن الحقوق التاريخية للشعوب تسقط مع زوال هذه الشعوب. ناهيك عن أن يهود اليوم ليسوا ورثة قدماء اليهود، بل إن ٩٥ في المائة من يهود اليوم ينحدرون من دولة الخزر التي تهوّد ملكها سنة ٧٤٠ م، وتبعته رعيته[٢٧]. والأنكى أن العرقية لم يعد يؤخذ بها في عالم اليوم، والأهم: هل يمكن لشعب ما أن يزعم نقاءه العرقي على مر التاريخ؟!

الاستنتاجات

تتصدى أسماء القدس، ومواقعها الجغرافية لكل محاولي تزوير تاريخها. فلغويًا كان العموريون العرب أول من قطن القدس، منذ ما قبل التاريخ، وقد تجلت لغتهم، وأسماء آلهتهم في أسماء مدنهم. فأور تعني بالكنعانية «مدينة»، و«سليم» إله كنعاني، يرمز للسلام والكمال. هكذا «جاء الغزاة، وذهبوا، وبقيت البلاد تحمل أسماءها الكنعانية القديمة»، حسب مسز فن، زوجة القنصل البريطاني في القدس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢٨].

لقد ورد اسم القدس في نصوص «اللعن» المصرية، التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية (١٩٩١ ق. م). وكان حاكم المدينة المقدَّسة عربيًا، كنعانيًا، أو عموريًا. فضلًا على أن اسم القدس تردد في رسائل «تل العمارنة»(*) غير مرة في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أي أن العموريين هم بناة القدس، منذ العصور الحجرية القديمة، قبل ظهور اليهود بمئات السنين. حتى أن التوراة نفسها أشارت إلى القدس باعتبارها عاصمة لليبوسيين (سفر القضاة ٩ : ١١ ـ ١٢).

خمسة آلاف سنة قضتها القدس على وجه الأرض، تعرضت خلالها لأكثر من عشرين حصارًا، وخمسة وعشرين احتلالًا، دُمِّرت خلالها، وذُبحت النسبة الأكبر من أهلها. في الوقت الذي تمسك أحد أولئك الغزاة بحق الغزو والاحتلال، في جرأة غير مسبوقة على الحق والتاريخ.

قيل إن هذا الطرف الغازي إنما عبر لمدة سبعين سنة فقط في حياة القدس، منذ ما يربو على الثلاثة آلاف سنة، واعتبر الطرف إياه عبوره الاحتلالي هذا بمثابة صك ملكية! متغافلًا عن كون العموريين العرب هم الذين بنوا هذه المدينة، قبل خمسة آلاف سنة، وظلوا منزرعين فيها حتى اليوم.

(*) ألواح تل العمارنة: هي لوحات مسمارية، تضمنت ست رسائل، بعث بها عبد ـ خيبا، ملك أوروسالم، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى فرعون مصر (إخناتون)، شكا فيها الملك من هجمات الخابيرو، أو العبيرو، على القدس. وقد تم اكتشاف تلك الألواح في مصر، بدءًا من العام ١٨٨٧، مكتوبة باللغة الأكادية المحرَّفة. وأحيانًا الكنعانية. وتضمنت معاناة مندوبي فرعون مصر في المدن الكنعانية، فيما تطابقت أسماء تلك المدن مع مدن في فلسطين والجزيرة العربية في آن.

العسلي، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩٩.

لافتقارهم إلى مسوِّغات ملكية هذه المدينة المقدَّسة، لاذ الصهاينة بالدين اليهودي، علَّه يسعفهم، ويمدهم بما يقطع الطريق على أصحاب الملكية الحقيقيين. فزعم الصهاينة بأن الله وعدهم بأرض فلسطين كلها، ما دفع بعضنا إلى نفي صفة سمسار أراضٍ عن الله سبحانه وتعالى. فيما كان بابا العرب، شنودة الثالث، رد بأن الصهاينة إنما «عادوا» إلى فلسطين بوعد من بلفور، وليس بوعد من الله. وإذا كان ثمة وعد إلهي في هذا الصدد، فإنه قد سقط لخروج اليهود على شروط ذاك الوعد بعبادتهم الأوثان(*).

بذا يقود تتبع تاريخ القدس إلى تأكيد الـهُوِّية العربية لهذه المدينة المقدَّسة، عبر شتى مراحل التاريخ، وحقبه. وقد ظلت القدس مدينة موحدة عبر تاريخها الطويل، فيما تأكدت عروبتها، وتكرَّست مرتين، **أولاهما**: بظهور المسيحية فيها (٣٠ م). **والمرة الثانية**: بالفتح الإسلامي لها (٦٣٨ م)، كما سبق وبيَّنا.

حين ضمت إسرائيل القدس إليها، عمدت دولة الاحتلال إلى توسيع حدود بلدية القدس من حوالي ٦ كيلومترات مربعة، إلى ٧٢ كيلومتر مربع.

نأتي إلى الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس، الذي لم يكتفِ بمصادرة الأراضي، وتهويدها، بل عمد، أيضًا، إلى تغييب العنصر البشري العربي الفلسطيني، وتشويهه، ولعل في هذا ما يفسر كل أشكال التمييز والقمع ضد التعليم، التي يمارسها المحتل الإسرائيلي في القدس.

لقد اعتبر المحتلون الإسرائيليون أهالي القدس، بعد احتلال مدينتهم، أجانب يحملون إقامة دائمة. ثم عاد الصهاينة وضموا المقدسيين إلى «إسرائيل» (٣٠/ ٧/ ١٩٨٠)، ومن رفض الانضمام اعتبر أجنبيًّا في وطنه!

لقد دفع تمسك الكيان الصهيوني بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لذاك الكيان إلى تصعيد اعتداءات المحتلين على الحقوق العربية في المدينة المقدسة، من مقدسات، وممتلكات، وعقارات، وأراضٍ؛ بالتشريعات الجائرة، والإجراءات التعسفية.

في حين يؤثِّم القانون الدولي أي مساس بحرمة أماكن العبادة، ما جعل انتهاك أي من هذه الأماكن جريمة دولية. وقد جرَّمت المادة ٥٣ من اتفاقية جنيف للعام ١٩٤٩ قيام الاحتلال بتدمير أي متعلقات ثابتة خاصة بالأفراد، أو الجماعات، أو السلطات العامة. كما حظرت «اتفاقية لاهاي» للعام ١٩٥٤ أي انتهاك لحرمة أماكن العبادة، واستقر الفقه الدولي على إدانة انتهاك حرمة دور العبادة، أو التعرض لها بالتدمير، أو السلب، أو النهب، أو الإغلاق، أو إلحاق الضرر.

بيد أن افتقار الصهاينة لصك ملكية المدينة المقدسة لم يمنعهم من بذل جهود مضنية لخلق وقائع عنيدة على

(*) حين زار قداسة بابا وبطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، البابا شنودة الثالث، الولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٧٨، سأله الرئيس الأمريكي، حينذاك، جيمي كارتر، عما إذا كان صحيحًا ما نُسب إلى البابا من إنكاره أن يكون اليهود هم «شعب الله المختار»، فرد قداسته بالإيجاب، وعلل ذلك بأنهم كانوا «شعب الله المختار»، حين كانوا الموحدين، دون غيرهم من البشر، فلما أتت المسيحية، ومن بعدها الإسلام سقطت عنهم هذه الصفة، وإلا إذا كان اليهود لا يزالون يحملون هذه الصفة، فهل يكون كارتر والبابا خارجها؟! ناهيك عن أن اليهود عبدوا الأوثان منذ وقت مبكر، ففقدوا تلك الصفة، وبالتالي إذا كان ثمة وعد إلهي لهم فقد سقط!

جلسة مع قداسة البابا، في مكتبة بالقاهرة، ٢١/ ٢/ ١٩٩٧.

الأرض، مستقوية بالقوة الغاشمة التي تنهب الأرض، والمنازل، وتتوسع في الاستيطان، وتضيِّق الخناق على أهل البلاد الأصليين، لإرغامهم على مغادرة مسقط رأسهم، ولإحلال شذّاذ الآفاق محلهم. فهل يستطيعون هضم القدس بعد أن قضموها، وأخذوا في مضغها؟!

كل هذا بينما نتوزع نحن ما بين النواح، والشجب، والتغني بماضينا التليد، والتلويح ـ ليل نهار ـ بحقنا المؤكد في القدس، وإدانة الطرف الصهيوني بتزوير التاريخ، وانتهاك القانون الدولي، وإدارة الظهر للمحافل الدولية، وتغيير الوقائع على الأرض، فيما المطلوب أن يرتقي فعلنا إلى مستوى التحدي. فالقدس التي تحتاج إلى صونها بالعلم والمعرفة، هي أحوج ما تكون إلى تحريرها بالعمل. فصحيح أنه في البدء كان الكلمة، لكنها مجرد البداية، والمطلوب هو العمل الثوري السليم. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩) صدق الله العظيم.

* * *

هوامش الفصل الأول:

(١) للمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى :

ـ أحمد عثمان، «إسرائيل» تزيِّف دلالة مخطوطات قمران، **العصور الحديثة** (القاهرة)، العدد الأول، الإصدار الثاني، سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩، ص ٤٤ ـ ٥١.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الاستعانة بـ :

هالة العوري، **أهل الكهف/ قراءة في مخطوطات البحر الميت**، بيروت، دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠.

(٣) **المرجع نفسه.**

(٤) عثمان، **مرجع سبق ذكره.**

(٥) هالة العوري، مخطوطات البحر الميت تكشف المسكوت عنه ، **العصور الحديثة** (القاهرة)، العدد الأول، الإصدار الثاني، سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩، ص ٥٢ ـ ٥٧.

(٦) **المرجع نفسه.**

(٧) **المرجع نفسه.**

(٨) عثمان، **مرجع سبق ذكره.**

(٩) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني ، المجلد السادس، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: كامل العسلي، مكانة القدس عربيًا وإسلاميًا عبر التاريخ، ص ٧٩٨ ـ ٨٠٣).

ـ محمد أديب العامري، **القدس العربية**، عمان، دار الطباعة والنشر، ١٩٧١، ص١٩.

ـ محمود العابدي، **قدسنا**، القاهرة، مطبعة الجبلاوي، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(١٠) د. أحمد صدقي الدجاني، القدس تاريخًا وفكرًا، **القدس** (بيروت)، العدد ١٩، يونيو/ حزيران ١٩٨١، ص ١٦ ـ ١٧ .

(١١) بطريركية الأقباط الأرثوذكس، المركز الإعلامي، **الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وقضية القدس، الالتزام بالقضية والثبات على المبدأ**، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٢ ـ ٦٣.

(١٢) أوردها: محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**. ط ٩، الجزء الأول، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٦، حاشية ص ٦٧.

(١٣) د. نسيب الخازن، **أوغاريت**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦١، ص ٥٣، ٧٨ ـ ٧٩، ٨٣.

(١٤) د. زياد منى، **جغرافية التوراة، مصر وبنو إسرائيل في عسير**، ط١، لندن، دار رياض نجيب الريس، ١٩٩٤.

(١٥) أحمد الدبش، **موسى وفرعون في جزيرة العرب**، دمشق، خطوات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ١٠.

(١٦) د. كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، ط١، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.

ـ منى، **مرجع سبق ذكره**.

(١٧) فرج الله صالح ديب، **اليمن هي الأصل**، ط١، بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.

(١٨) د. أحمد داود، **العرب والساميُّون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دمشق، دار المستقبل، ١٩٩١.

(١٩) أورده:

د. توفيق سليمان، **نقد النظرية الساميَّة**، جـ١، ط١، دمشق، ١٩٨٢، ص ٩٨.

(٢٠) ولفنسون (إسرائيل)، **تاريخ اللغات الساميَّة**، ط١، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٢٩، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢١) د. جواد علي، **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج١، بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٦، ص ٥٥٧.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٢١.

(٢٣) هـ. ج. ويلز، **معالم تاريخ الإنسانية**، المجلد الثاني، تعريب عبد العزيز جاويد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨، ص ٢٤٥.

(٢٤) الدبش، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(٢٥) يديعوت أحرونوت، ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٠.

ـ د. رشاد الشامي، **الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الادعاءات الدينية التاريخة لليهود في فلسطين**، الهلال (القاهرة)، نوفمبر/ تشرين الثاني، ٢٠٠٠، ص ٨ ـ ١٣.

(٢٦) زئيف هيرتزوغ، التوراة، لا إثباتات على الأرض، **هآرتس**، ٣/ ١٠/ ١٩٩٩.

(٢٧) لمزيد من التفاصيل حول هذه الواقعة يمكن الرجوع إلى:

-آرثر كستلر، **القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم**، ترجمة، أحمد نجيب هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ساسلة الألف كتاب الثاني، ١٩٩١.

-د. م. دنلوب، **تاريخ يهود الخزر**، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ١٩٩٠، ص ١٣٥ ـ ٢٣٢.

(٢٨) العسلي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٩٩.

* * *

الفصل الثاني

القدس في قرارات جامعة الدول العربية

مروة أديب جبر

تقديم

إن المكانة التي تتمتع بها مدينة القدس تجعل منها مدينة متُفردة على مدن العالم، روحيًا وتاريخيًا، فهي متحف حضارات العالم، تجمع تراث الديانات السماوية وآثارها، ويشكل موقعها أهمية خاصة لتلاقح الحضارات على مر العصور؛ لذلك كانت مطمعًا لكثير من الغزوات على مدى تاريخها الطويل، لكن أخطر تلك الغزوات هي الغزوة الصهيونية، حيث استفادت من تجارب الغزوات السابقة، فكانت غزوة استيطانية إحلالية، تعتمد العنف سبيلًا للاستيلاء على فلسطين بما فيها القدس، وبعد الاستيلاء على فلسطين والجزء الأكبر من القدس عام ١٩٤٨ بعمليات قتل وتدمير، ترقى إلى جرائم التطهير العرقي، استكملت إسرائيل السيطرة على ما تبقى من أرض فلسطين التاريخية عام ١٩٦٧، بالإضافة إلى كامل سيناء، ومرتفعات الجولان، ومزارع شبعا، وعمدت سلطات الاحتلال إلى تنفيذ مخطط مرحلي لتهويد مدينة القدس عن طريق تغيير طبيعة المدينة، ديموغرافيًا وطبوغرافيًا، وفرض أمر واقع يصعب تغييره، متجاهلة بذلك حقوق المواطنين الفلسطينيين، وكذلك حقوق أتباع الديانتين، المسيحية والإسلامية، والعمل على إفراغ المدينة من أصحابها الأصليين، وإحلال اليهود محلهم، باستعمال كل الوسائل والإجراءات السياسية والإدارية، والاجتماعية، والاقتصادية.

وعودة إلى عام ١٩١٧، و«وعد بلفور» في ٢ نوفمبر واحتلال القوات البريطانية فلسطين في العام نفسه، نجد تهيئة لمرحلة هامة، تلاها فرض الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٢، والذي نصت الفقرة الثانية من صكه على «وضع البلاد في ظروف سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي». ونصت المادتان السادسة والسابعة على «تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين ...»[١].

فرضت قضية فلسطين نفسها على الأعمال التحضيرية لإنشاء جامعة الدول العربية، وإذا كانت الدورة الأولى لمجلس الجامعة دورة خاصة لبحث العدوان الفرنسي على سورية، فقد كانت الدورة الثانية (أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٤٥) لبحث القضية الفلسطينية، وكان أول عمل يشغل الجامعة هو «لجنة التحقيق الأنجلو ـ أمريكية»، التي بدأت عملها، في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦، وكان السبب في إرسال تلك اللجنة هو ازدياد النشاط الصهيوني في الضغط على الحكومتين البريطانية والأمريكية لرفع القيود عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتسهيل انتقال الأراضي لليهود[٢].

أصدرت اللجنة تقريرها في ٢٠ أبريل ١٩٤٦، وكان من أهم توصياتها إعطاء مائة ألف رخصة لليهود لدخول فلسطين خلال عام ١٩٤٦، واستبدال قوانين انتقال ملكية الأراضي بقوانين تستند إلى سياسة حرة في بيع الأراضي[٣].

وكانت تلك بداية الطريق لتغلغل الولايات المتحدة في المنطقة، وإلغاء عزلتها التي كسرت طوقها في أواخر الحرب العالمية الثانية بانضمامها إلى الحلفاء.

أول مؤتمر قمة عربي

عندما نشرت «اللجنة الأنحلو ـ أمريكية» تقريرها وتوصياتها، تفجرت مشاعر الغضب في أنحاء الوطن العربي، وعم الإضراب فلسطين، وعلى إثر ذلك دعا الملك فاروق، ملك مصر، (وصاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور) إلى عقد مؤتمر قمة عربي، فالتأم المؤتمر في ٢٧ـ٢٨ / ٥/ ١٩٤٦ في أنشاص، وأصدر بيانًا أوضح بأن قضية فلسطين ليست قضية خاصة بعرب فلسطين، بل هي قضية العرب جميعًا، وأنه ليس بالإمكان الموافقة على أية هجرة جديدة، وأن ذلك نقض صريح للكتاب الأبيض (١٩٣٩) الذي ارتبط به الشرف البريطاني. وكُلِّف الأمين العام بنقل نتائج مداولاتهم، وتوجيهات حكام العرب إلى مجلس الجامعة.

وتنفيذًا لتوجيهات حكام العرب، عقد اجتماع مجلس الجامعة في بلودان في دورة استثنائية لاتخاذ الموقف المناسب من توصيات «اللجنة الأنجلو ـ أمريكية»، والرد عليها، وذلك في ٨ يونيو / حزيران ١٩٤٦، وتم اتخاذ عدد من القرارات، بإرسال رسائل إلى الحكومتين، الأمريكية والبريطانية ودعوة الفلسطينيين إلى جمع كلمتهم، واتخاذ قرارات لتنظيم التحرك، أما القرارات السرية فتنفذ في حال قبول توصيات لجنة التحقيق وهي:

ـ عدم السماح بأي امتياز اقتصادي جديد لبريطانيا والولايات المتحدة أو رعاياهما.

ـ عدم تأييد مصالحهما في أي هيئة دولية.

ـ مقاطعتهما مقاطعة أدبية.

ـ إلغاء امتيازاتهما في البلاد العربية.

ـ شكواهما إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة[٤].

وبالرغم من أن القدس لم يكن لها ذكر، سواء في تقرير اللجنة، أو في قرارات قمة أنشاص، أو بلودان، فإن هذه الخلفية تمثل خلفية هامة لتلك المرحلة. وكانت القدس قد ذكرت في «مشروع موريسون»، الذي عرض في

المؤتمر الذي حضره ممثلو الدول العربية، في لندن في سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦، حيث عرض الجانب البريطاني تصوره لحل المشكلة على أساس توصيات «اللجنة الأنجلو- أمريكية»، والاتجاه السريع نحو إقامة الحكم الذاتي، وصياغة دستور للبلاد: منطقة عربية، ومنطقة يهودية، ومنطقة القدس، ومنطقة النقب. وكانت الفقرة الثالثة منه تتعلق بوضع القدس، ونصها ما يلي:

- تشمل مقاطعة القدس: مدينة القدس، وبيت لحم، وضواحيهما المباشرة.

وبما أن المشروع يوقع بالمصالح العربية أضرارًا كفرض التقسيم، ويحرم العرب من النقب، ويسمح بهجرة ١٠٠ ألف يهودي فورًا، ويسلب العرب خيرة أراضيهم، وهو بمثابة تراجع بريطانيا عن سياستها في «الكتاب الأبيض» لعام ١٩٣٩ فقد رفض العرب المشروع، رفضًا قاطعًا كما رفضه اليهود، وأعلنت بريطانيا إخفاقها في الوصول إلى حل في ١٤ فبراير/ شباط ١٩٤٧، محيلة الأمر إلى الأمم المتحدة.

لم تختلف الممارسات البريطانية تجاه القدس عن ممارساتها تجاه القضية الفلسطينية ككل، فقد تميزت بتسهيل سيطرة الصهاينة على المدينة، والحكم البلدي فيها، فقد تلاعبت الإدارة البريطانية بحدود مسطح البلدية، وبقوائم الناخبين، بحيث تستثني الأحياء العربية منها مثل الطور، سلوان، العيسوية، شعفاط، وبيت صفافا العربية، بينما الأحياء اليهودية، مهما بعدت، تدخل في مسطح البلدية، فسهلت على اليهود الادعاء بتحقيق أكثرية في المدينة، والمطالبة برئاسة بلديتها[٥].

وضع القدس في قرار تقسيم فلسطين

قضى قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة في ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧ باستبعاد القدس من الدولتين العربية واليهودية، على أن تكون تحت إشراف مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة، بوصفها كيانًا منفصلًا.

وعلى الرغم من موافقة الصهيونيين على قرار التقسيم، كمرحلة مكنتهم من إعلان دولتهم، مساء يوم ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، إلا أن القدس كانت محط أنظارهم، وازدادت هجماتهم الوحشية خلال الثلث الأول من عام ١٩٤٨ على المدن، والقرى العربية، ووقعت ضمن منطقة القدس المذبحة المروِّعة في دير ياسين في ٩/ ٤/ ١٩٤٨، التي راح ضحيتها ٢٥٠ من المواطنين الفلسطينيين العرب بين رجل، وامرأة، وطفل، معظمهم ذُبح ذبحًا[٦].

واصلت القوات الصهيونية هجماتها على محيط القدس، فاحتلت القدس الغربية (الجديدة) كلها بما في ذلك حي القطمون العربي في ٢٩/ ٤/ ١٩٤٨.

وفي ٧/ ٥/ ١٩٤٨ رتب الأمين العام لجامعة الدول العربية مع المندوب السامي البريطاني في أريحا هدنة، وافق عليها الصهيونيون، وما لبثوا أن خرقوا الهدنة بمجرد خروج البريطانيين في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ وأخذوا يحتلون ما بأيدي العرب، وبوصول قوات «الجيش العربي» لإنقاذ المدينة المقدسة ليلة ١٧- ١٨/ ٥/ ١٩٤٨، أمكن صد كل محاولة لاقتحام المدينة القديمة، كما أمكن تطهير الحي اليهودي داخل السور، واحتلاله في ٢٨/ ٥/ ١٩٤٨. لكن توقيع الهدنة الأولى أضعف الموقف العربي في مدينة القدس.

عين الكونت فولك برنادوت وسيطًا للأمم المتحدة في ٢٠/ ٥/ ١٩٤٨ الذي اقترح ضم القدس إلى الإقليم العربي، مع منح الطائفة اليهودية حق الاستقلال بشؤونها البلدية، ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة[٧]. ورد موشى شارتوك (شاريت) وزير خارجية الحكومة المؤقتة لإسرائيل على هذا الاقتراح في ١/ ٧/ ١٩٤٨ بالرفض التام[٨].

في الأسبوع الأخير من يوليو/ تموز ١٩٤٨ وصل برنادوت إلى بيروت بدعوة من أمين عام جامعة الدول العربية، عبد الرحمن عزام، حيث توالت الاجتماعات، وانضم إليهما رجال الحكومتين السورية واللبنانية، ودار البحث حول تجريد القدس من السلاح، ومراقبة الهدنة، ومنع اليهود من خرقها، وافق الجانب العربي على تجريد القدس من السلاح، بينما رفضت «الهيئة العربية العليا» ذلك رفضًا باتًّا، كما رفض الصهيونيون تجريد القدس، وسحب «الهاجاناه» قائلين: إن القدس عاصمتهم الخالدة.

وإذا كان رفض الصهيونيين مدعومًا بقوة حمته وثبتته، فإن رفض الهيئة العربية العليا لم يتعد تسجيل موقف، إذ أنه لم يكن لدى الهيئة العربية العليا من القوة لكي تفرض ذلك الرفض.

استمر برنادوت بمساعيه ومقترحاته الخاصة بفلسطين والقدس التي لم ترض العرب، ولم ترض الصهيونيين، وقد دفع برنادوت حياته ثمنًا لتلك المقترحات، فقد اغتالته مجموعة من الصهيونيين تنتمي إلى منظمة ليحي (شتيرن).

وبعد قرار مجلس الأمن، رقم ٦٢، في ١٦/ ١١/ ١٩٤٨ برسم خطوط هدنة دائمة، وسحب وتخفيض القوات المسلحة من الأطراف المعنية، وقع موسى ديان باسم إسرائيل، وعبد الله التل عن القوات الأردنية، والقوات العربية الأخرى كافة، في منطقة القدس [أي القوات المصرية والقوات غير النظامية].

باغتيال برنادوت توقفت الجهود لإيجاد تسوية، فانتهزت الدول العربية فرصة تكوين «لجنة التوفيق»، بقرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٤٨، التي كان من مهامها وضع نظام دائم لتدويل منطقة القدس بدلًا من النظام الذي وضعه مجلس الوصاية، ووافقت وفود معظم الدول العربية خلال اجتماعاتها باللجنة عام ١٩٤٩ على فكرة التدويل التام لمنطقة القدس، على أساس وحدتها، أما الجانب الصهيوني، فقد قامت اقتراحاته على أساس الأخذ بالوضع الراهن للمدينة، التي كان يسيطر على معظمها، ويقتصر التدويل على الأماكن المقدسة في الأحياء القديمة، التي كانت تحت سيطرة الجيش العربي الأردني[٩].

انتهت «لجنة التوفيق» إلى مشروع أقرب إلى وجهة النظر الصهيونية لكنه رفض من الجميع، العرب والصهيونيين، كما رفضته الجمعية العامة لخروجه عن فكرة التدويل الشامل لمنطقة القدس.

وفي ٢٩/ ١٢/ ١٩٤٩ اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار ٣٠٣، الذى أكد عزمها على وضع القدس تحت نظام دولي دائم، يضمن حماية الأماكن المقدسة داخل القدس وخارجها، حسبما نص عليه قرار التقسيم بالنسبة لمدينة القدس.

ورأت الوفود العربية في هيئة الأمم المتحدة أن تؤيد تدويل القدس لعدة أسباب[١٠]:

١ـ الظهور بمظهر متحد في الأمم المتحدة.

٢ـ كسب عدد غير قليل من دول العالم المسيحي وتأييدها للقضايا العربية.

٣ـ إن التدويل لن يتحقق عمليًا.

٤ـ تدويل القدس يعطي الفرصة لآلاف اللاجئين الفلسطينيين للعودة إلى الجزء المحتل من القدس.

٥ـ إظهار إسرائيل على حقيقتها التوسعية، وعدم الالتزام أمام الرأي العام العالمي.

عندما أقر مجلس الوصاية النظام الذي أعده لمدينة القدس في ٤/ ٤/ ١٩٥٠ كانت إسرائيل قد أعلنت رسميًا قبل ذلك وفي ١١/ ١٢/ ١٩٤٩ نقل عاصمتها إلى القدس، كما قامت الأردن في اليوم التالي ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩ بإعلان ضمها ما تبقى من أراضي فلسطين تحت سيطرتها، بما فيها منطقة القدس، وقد اعترفت بريطانيا في الوقت نفسه اعترافًا قانونيًا بإسرائيل، كما اعترفت بضم الأراضي الفلسطينية إلى الأردن، وفي أبريل/ نيسان ١٩٥٠ وافق البرلمان الأردني رسميًا على الضم.

كان أداء الجامعة العربية حتى هذا التاريخ ليس على مستوى الحدث، ولم تول قضية القدس الاهتمام اللازم، وكان تركيزها على القضية الفلسطينية بشكل عام، وربما ذلك يعود إلى أنه لم تكن هناك خطة إستراتيجية تعمل على أساسها، فدول الجامعة إما تحت الاحتلال الأجنبي، أو حديثة الاستقلال، ولديها مشكلاتها الخاصة، فكانت القرارات العربية مجرد ردود أفعال على ما يجري على أرض الواقع من وقائع.

بحثت جامعة الدول العربية موضوع ضم الضفة الغربية إلى الأردن، وبعد مناقشات تم التوصل إلى صيغة توفيقية « ....فإن المملكة الأردنية الهاشمية تعلن أن ضم الجزء الفلسطيني إليها إنما هو إجراء اقتضته الضرورة، وأنها تحتفظ به وديعة تحت يدها على أن يكون تابعًا للتسوية النهائية لقضية فلسطين ....»[١١].

ولم يعد من اليسير تطبيق النظام الذي وضعه مجلس الوصاية، أو تدويل المدينة؛ لذلك رأت الوفود العربية في الأمم المتحدة في دورتها الخامسة (شتاء ١٩٥٠) أن تبقى الأوضاع عند المرحلة التي بلغها التدويل، دون التقدم بمشروعات جديدة.

وهكذا فرضت إسرائيل واقع تقسيم القدس مرحليًا، مع احتفاظها بحوالي ٨٠٪ من منطقة القدس.

وفي دورة مجلس جامعة الدول العربية التالي لقرار الكنيست إعلان القدس عاصمة لإسرائيل خلت قرارات المجلس من أي تعليق، واكتفى المجلس ببحث ملاحظات الدول العربية على نظام التدويل، وقرارات مجلس الوصاية.

وتابعت إسرائيل إجراءاتها لتهويد المدينة، فسنَّت قانون أموال الغائبين بتاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٥٠، الذي يقضي بمصادرة أموال وأملاك كل من هو غائب عن فلسطين، وعن القدس، في الوقت الذي امتنعت فيه عن تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤، الذي نص في فقرته الحادية عشرة على العودة أو التعويض للاجئين الفلسطينيين، واستطاعت بتطبيق هذا القانون أن تضع يدها على كل الممتلكات المنقولة، وغير المنقولة التي تخص العرب في القدس، ويقدر عددهم بنحو ستين ألفًا، ويمتلكون ٨٠٪ من الأراضي والمباني في المنطقة التي احتلتها من القدس، تم ذلك دون أي اعتراض أو مشاكل[١٢]

وفي عام ١٩٥٢ قامت إسرائيل بنقل وزارة خارجيتها إلى مدينة القدس، وكان طبيعيًّا أن تستنكر هذا الإجراء غالبية الدول، حتى تلك التي أقامت علاقات مع إسرائيل، وذلك احترامًا منها للأمم المتحدة ومشروعها لتدويل القدس.

وجاء قرار مجلس الجامعة رقم ٤٢٧ الدورة ١٦ بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٥٢، ردًّا على نقل وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى القدس، فقد نص على مواصلة المساعي الدبلوماسية لمعارضة نقل وزارة الخارجية الإسرائيلية، وتكليف الوفود العربية في الأمم المتحدة بإثارة الموضوع عند عرض قضية فلسطين[١٣].

أما الجزء الشرقي المتبقي من القدس بعد عام ١٩٤٨ فكان بحاجة ماسة إلى دعم مالي ومعنوي كبيرين، حيث تقلصت مساحة القدس، بينما زادت الكثافة السكانية بسبب هجرة فلسطينيي القدس الغربية، وهم حوالي ٦٠,٠٠٠ مواطن فلسطيني، نصفهم سكن البلدة القديمة، مع قلة الإمكانات، لذلك كان بحاجة ماسة إلى التطوير، والدعم، والمشاريع الإسكانية، ومشاريع الحفاظ على تراثها التاريخي، ولكن ذلك لم يكن متوفرًا لدولة ناشئة محدودة الموارد، كالمملكة الأردنية الهاشمية، وكان ذلك واجب الدول العربية والإسلامية، لكن ما كشفت عنه قرارات مجلس الجامعة في تلك الفترة لا يوفر المطلوب، وفي أواخر الخمسينيات في عام (١٩٥٨) بدأ التعمير في الحرم الشريف على أساس قرار مجلس الجامعة رقم ١٣٩٠ بتاريخ ١٧/ ١١/ ١٩٥٧، بدعوة الحكومات العربية ومنظمات إسلامية، وجرى تطوير منطقة تجارية جديدة في الشمال والشرق من المدينة القديمة.

واقتصر دور الجامعة العربية على الحد الأدنى، وهو اتخاذ قرارات بإصلاح مسجد الصخرة الشريف، ومساهمات الدول العربية في ذلك، ودعوة الحكومات العربية للتعاون في تشكيل لجنة تنظيم التبرعات، وتقديم مساعدة لدار الطفل العربي بالقدس، وفي أبريل/ نيسان ١٩٦٢ اتخذ مجلس الجامعة قرارًا بإنشاء مكتب للجامعة في القدس.

إنشاء مبنى الكنيست الإسرائيلي في القدس

بدأ العمل في بناء مبنى الكنيست الإسرائيلي في عام ١٩٦١، واستمر ستين شهرًا، أرادت إسرائيل بهذا العمل أن تجعل من القدس عاصمة فعلية للدولة الصهيونية، وأن تجعلها مقرًّا لهيئتها التشريعية ولجانها[١٤].

وبقيام «منظمة التحرير الفلسطينية» تقدم رئيس لجنتها التنفيذية، السيد أحمد الشقيري، بمقترحات إلى مجلس الجامعة، في دورته السادسة والأربعين، حول محاولة إسرائيل تهويد مدينة القدس، بنقل مؤسسات الحكم إليها، فاتخذ المجلس القرار رقم ٢٢٤٢ بتاريخ ١٢/ ٩/ ١٩٦٦، وهو عبارة عن خطة عمل متكاملة للتحرك العربي في الأمم المتحدة، وعلى الصعيد الدولي، وفي المجال العربي، وأحال القرار المقترحات المقدمة من رئيس «منظمة التحرير الفلسطينية» إلى الحكومة الأردنية وسائر حكومات الدول الأعضاء، و«القيادة العربية الموحدة»، لتنظر فيها، كل فيما يخصه، وتلك المقترحات هي[١٥]:

١ـ يقترح على الحكومة الأردنية كواجب قومي أسمى، أن تبادر إلى إعلان القدس عاصمة للبلاد بأسرها، من جملتها فلسطين المحتلة، باعتبار أن الأردن هي فلسطين، وأن فلسطين هي الأردن، وأن تنقل الوزارات ومؤسسات الدولة الرئيسية إلى القدس.

٢ـ نظرًا للخطر الإسرائيلي المحدق بمدينة القدس، التي تعتبر تراثًا دينيًّا، ومضاربًا في المقام الأول، ولأن الدفاع عن هذه المدينة العربية يعد مسؤولية عربية مشتركة، تكلف «القيادة العربية الموحدة» بأن تضع خطة كاملة تلتزم الدول العربية كلها بتنفيذها، و«منظمة التحرير الفلسطينية» مستعدة لأن تشترك بقوات «جيش التحرير» في هذا الواجب المقدس، باعتبار أن الأردن، ومنها القدس، وطن المنظمة.

٣ـ تنظر الدول العربية الأخرى في القيام بمشروعات إنشائية وعمرانية في مدينة القدس للعمل على تنشيط المدينة، وأهلها، والقرى العربية التي حولها.

لم يقدر لهذه المقترحات، أو خطة التحرك العربي، الخروج إلى حيز التنفيذ، فقد أجهضت إسرائيل أي تحرك، سواء كان عمليًّا أو نظريًّا، وذلك باعتدائها في يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧ على الدول العربية، واحتلالها لأراضٍ عربية، خارج حدود فلسطين الطبيعية، بالإضافة إلى احتلال قطاع غزة، والضفة الفلسطينية، وهي الأراضي التي بقيت من فلسطين بعد حرب العام ١٩٤٨.

التحرك العربي بعد حرب ١٩٦٧

بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ووقف إطلاق النار بقرارات مجلس الأمن ٢٣٥ بتاريخ ٩/ ٦/ ١٩٦٧، ورقم ٢٣٦ بتاريخ ١١/ ٦/ ١٩٦٧، ورقم ٢٣٧ بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٦٧ توجه العرب للعمل الدبلوماسي من خلال الوفود العربية في الأمم المتحدة، فقد عملت المجموعة العربية لدعوة الجمعية العامة لدورة استثنائية طارئة عقدت في يوليو/ تموز ١٩٦٧، واتخذت القرار رقم د إ ط ٣٢٥٣ بتاريخ ٤/ ٧/ ١٩٦٧، والقرار رقم د إ ط ٣٢٥٤ بتاريخ ١٤/ ٧/ ١٩٦٧ دعت فيهما إسرائيل «لإلغاء التدابير التي صار اتخاذها، والامتناع فورًا عن إتيان أي عمل من شأنه تغيير مركز القدس»، وأبدت الأسف في القرار الثاني للتدابير التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس[١٦].

كما عملت المجموعة العربية، وبطلب من الأردن، الذي كان يمثل المجموعة العربية في مجلس الأمن، حينذاك، على عقد مجلس الأمن لاتخاذ قرار بشأن القدس، واستطاعت المجموعة العمل على اتخاذ القرار رقم ٢٥٢ بتاريخ ٢١/ ٥/ ١٩٦٨، الذي يدعو إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي من شأنها تغيير وضع القدس، وكذلك القرار رقم ٢٦٧ بتاريخ ٣/ ٧/ ١٩٦٩ الذي اتخذ عدة فقرات عاملة منها، يأسف، ويشجب، أما الفقرة الرابعة، فقد أكدت على أن جميع الإجراءات التشريعية والإدارية، والأعمال التي اتخذتها إسرائيل من أجل تغيير وضع القدس، بما في ذلك مصادرة الأراضي، والممتلكات، هي أعمال باطلة، ولا يمكن أن تغير وضع القدس. ونصت الفقرة السابعة على أنه «يقرر، إذا أجابت إسرائيل سلبًا، أو لم تجب على الإطلاق فإن مجلس الأمن سيعود إلى الاجتماع، دون تأخير، للنظر في الخطوات التي يمكن أن يتخذها بهذا الشأن».

لكن إسرائيل مضت في تنفيذ مخططها، من مصادرة أراضٍ، وممتلكات، وتغيير وضع القدس، ولم يجتمع مجلس الأمن لاتخاذ الخطوات التي نص عليها القرار؛ وذلك لأن قرارات مجلس الأمن التي اتخذت بشأن القضية الفلسطينية، والقدس كانت تحت البند السادس الذي لا يتيح للمجلس استعمال القوة لتنفيذ تلك القرارات مثلما لو اتخذت تحت البند السابع من الميثاق.

حريق المسجد الأقصى[١٧]

بعد عامين من الاحتلال الصهيوني للقدس، أقدم سائح يهودي أسترالي، يدعى مايكل دينيس روهان، على تنفيذ خطة إحراق المسجد الأقصى يوم ٢١/ ٨/ ١٩٦٩ وهو التاريخ الذي يرتبط عند اليهود بدعوى تدمير الهيكل؛ لهذا أرادوا أن يكون نفس التاريخ لإحراق المسجد الأقصى المبارك، أتى الحريق على ثلث مساحة المسجد تقريبًا (١٥٠٠) متر وأتت النيران على كامل محتويات الجناح الشرقي للمسجد، بما في ذلك منبر صلاح الدين، وأحدثت هذه الجريمة المدبَّرة دويًّا في العالم، وفجَّرت ثورة غاضبة في العالم الإسلامي، وعمَّت المظاهرات القدس.

وعلى إثر ذلك عقد مجلس وزراء الخارجية العرب (اللجنة السياسية) اجتماعًا طارئًا، يومي ٢٥ـ٢٦/ ٨/ ١٩٦٩، وتبين للمجلس «أن إسرائيل المعتدية قدمت الدليل القاطع على ما تدبره ضد المقدسات الإسلامية والمسيحية والوجود العربي في الأراضي التي تحتلها بقوة السلاح». «ورأى المجلس أن طريق القوة والتنظيم والإعداد هو طريق التحرير»، وقرر:

ـ أن يوجه الأمين العام الدعوة إلى اجتماع لمجلس الدفاع المشترك.

ـ على ضوء نتائج اجتماع مجلس الدفاع المشترك ينظر مجلس الجامعة في موضوع اجتماع مؤتمر القمة العربي.

ـ تأكيد أهمية عقد مؤتمر إسلامي.

ـ ضرورة العمل من أجل توفير كافة الإمكانات المادية والسلاح اللازم للثورة الفلسطينية وتحقيق حرية العمل الفلسطيني ودعم قدرة الشعب الفلسطيني على الصمود في الأرض المحتلة[١٨]. ووافق مجلس الجامعة على ذلك بالقرار رقم ٢٥٤٦ بتاريخ ١١/ ٩/ ١٩٦٩.

في ٢٥/ ٩/ ١٩٦٩ التأم في الرباط، عاصمة المملكة المغربية، الاجتماع الأول لزعماء العالم الإسلامي حيث طرحت مبادئ الدفاع عن شرف وكرامة المسلمين، متمثلة بالقدس، وقبة الصخرة، وبعد ستة أشهر، وفي مارس/ آذار ١٩٧٠ تبنى المؤتمر الإسلامي الأول لوزراء الخارجية في جدة إنشاء أمانة عامة للمنظمة واختيرت جدة مقرًّا لها[١٩].

لجنة القدس

بتوصية من المؤتمر السادس لوزراء خارجية الدول الأعضاء في المؤتمر الإسلامي، المنعقد في جدة عام ١٩٧٥، أنشئت «لجنة القدس»، وأسندت رئاستها إلى الملك الحسن الثاني خلال المؤتمر العاشر لمنظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في فاس بالمغرب.

بإنشاء «لجنة القدس» أصبح نشاط الأمانة العامة بهذا الشأن محدودًا للغاية، وأثر إنشاء اللجنة سلبًا على عمل الأمانة العامة، فأي نشاطات، أو فعاليات خاصة بالقدس كانت تنقل إلى لجنة القدس.

لم تقم «لجنة القدس» بالجهد المطلوب، وما تتطلبه الأوضاع في القدس، سواء لجهة دعم المواطنين المقدسيين، أو إنشاء مشاريع إنمائية، أو إسكانية، أو حتى وضع خطة عمل لذلك، واقتصر العمل على بعض المراسلات من رئيس اللجنة، الملك الحسن الثاني، إلى دول العالم، وخاصة الدول ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن للاحتجاج على الانتهاكات الإسرائيلية.

وقد أنشئ مركز توثيق، وصيانة، وترميم آثار القدس، بقرار من وزراء الإسكان والتعمير العرب عام ١٩٨١، وأقر مجلس الجامعة نظامه الأساسي بالقرار رقم ٦١٤٤، ومقره عمان، عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، لكن العقبات المالية كانت، دائمًا، تحول دون تنفيذ أية مشروعات، ونظرًا لتعثر المركز، ماليًا، رأى مجلس الإدارة ربط المركز بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، واستمر الموضوع يتنقل من دورة إلى أخرى، إلى أن استجاب الأمين العام لجامعة الدول العربية لنداءات بعض الدول، وخاصة المملكة المغربية، بتحويل الموضوع برمته إلى بيت المال التابع للجنة القدس في منتصف التسعينيات.

وتكررت قرارات مجلس الجامعة بشأن الوضع في مدينة القدس، كما تكررت الإدانات للإجراءات، والممارسات الإسرائيلية، والمناشدة بتقديم الدعم المادي للمدينة المقدسة لتمكين المواطنين الفلسطينيين فيها من المحافظة على ممتلكاتهم العقارية؛ لذلك دعت القرارات إلى إنشاء صندوق خاص لهذا الغرض[٢٠]، وفي قرار، بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٩٩٣، جاء نص بنقل ما يتعلق بإنشاء صندوق خاص لتلقي الدعم المالي لمدينة القدس إلى الملك الحسن الثاني ملك المغرب، ورئيس «لجنة القدس».

وفي اجتماع وزراء خارجية المؤتمر الإسلامي، في غينيا، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٥ تمت الموافقة على إنشاء بيت مال القدس.

ووضع القرار موضع التنفيذ عام ١٩٩٨، حيث تأسست «وكالة بيت مال القدس الشريف»، كمؤسسة عربية إسلامية.

وبدأت تنتعش الآمال بعمل «لجنة القدس» و«بيت مال القدس» على أرض الواقع، فوضعت خطة عمل على مراحل للإعمار، والصحة، والتعليم، والشباب، ومجالات أخرى[٢١]، غير أن هذا الجهد المتأخر لم يكن يفي بالغرض، وليس له تأثير في الوضع الذي وصلت إليه مدينة القدس، الذي لا يعاني أهلها من شح المال فحسب، بل أصبح وجودهم في مدينتهم مهددًا، وقد فقد كثير منهم بيوتهم، ونصبوا خيامًا يعيشون فيها، وعلى مرمى البصر يرون المستوطنين يدخلون، ويخرجون إلى منازلهم التي طردوا منها.

التخطيط الإسرائيلي لمحاصرة القدس وتهويدها

بدأ الإعداد للمخطط الرئيسي للقدس قبل الاستيلاء على المدينة عام ١٩٦٧، في عام ١٩٦٤ كلفت اللجنة القطرية للتخطيط والبناء الإسرائيلية ثلاثة من مخططي المدن بوضع مخطط للمدينة يستهدف تحديد اتجاهات تطورها السكاني والاقتصادي والعمراني لفترة الخمسين سنة المقبلة. وانتهى العمل في هذا المخطط عام ١٩٦٨، وتمت المصادقة عليه، ونشر في الجريدة الرسمية الإسرائيلية في ١٨/ ٧/ ١٩٧٠، وتضمن خطة هيكلية للمدينة بكاملها، ومسطحًا هيكليًا للقدس القديمة، وضواحيها، ومخططا لشبكة المواصلات داخل المدينة، ولمركزها التجاري[٢٢].

ورغم المعارضة الدولية، ممثلة في قرار مجلس الأمن رقم ٢٩٨ في ٢٥/ ٩/ ١٩٧١، الذي «يدعو إسرائيل، بإلحاح، إلى إلغاء جميع الإجراءات، والأعمال السابقة، وإلى عدم اتخاذ خطوات أخرى في القطاع المحتل من القدس، الذي قد يُفهم منه تغيير وضع المدينة أو بالسلام العادل والدائم».

نظر مجلس جامعة الدول العربية الإجراءات المتلاحقة التي تقوم بها سلطات الاحتلال الصهيوني في مدينة القدس

للقضاء على عروبتها، فقد أكد المجلس بقراره رقم ٢٧١٧ تاريخ ٢٤/ ٣/ ١٩٧١ على قراراته السابقة، مع العمل على جعل قضية القدس حية، دائمًا، في جميع الأوساط، وكافة المستويات، المحلية والدولية، وإثارة الموضوع (إجراءات التهويد، والاستيطان والحفريات، مصادرة الأراضي) في المحافل الدولية، وبيان الأخطار المترتبة عليه[٢٣].

إلا أن إسرائيل مضت في تنفيذ مخططها بوتيرة أسرع ثمانية أضعاف عما كانت عليه عام ١٩٦٩، إلى أن أحاطت القدس بثلاثة أطواق من مشروعات الإسكان الاستيطانية على الأراضي المغتصبة من القدس والضفة الغربية[٢٤]:

ـ **الطوق الأول**: يهدف إلى محاصرة التجمع العربي داخل أسوار القدس العربية، والعمل على تفتيته، وترحيل سكانه.

ـ **الطوق الثاني**: يعزل المدينة العربية عن التجمعات السكانية العربية الواقعة في الجهتين الشمالية والجنوبية منها، ويتخذ شكل القوس، ويمنعها من النمو الطبيعي كمرحلة أولى لإخلائها.

ـ **الطوق الثالث**: للامتداد شرقًا وجنوبًا، والاستيلاء على المزيد من الأراضي الفلسطينية، ويقسِّم الضفة الغربية إلى قسمين، شمالي وجنوبي.

وفي خط مواز لهذا المخطط، هناك مخطط صهيوني آخر لتفريغ القدس من الأهالي العرب بحلول عام ٢٠٢٠.

فقد فتحت إسرائيل حاليًّا معركة الأحياء في القدس، فهناك هجمة منظمة على أحياء المدينة القديمة: سلوان، رأس خميس، العيسوية، الطور، وهذه الخطة هي دمار للبلدة القديمة تدمير البنيان، وتشريد الإنسان.

إعلان إسرائيل القدس عاصمة لها

مضت إسرائيل في تنفيذ مخططها، ففي ٣٠/ ٧/ ١٩٨٠ أقر الكنيست الإسرائيلي «قانون أساسي» نص على أن القدس الكاملة والموحدة، هي عاصمة إسرائيل. وقد أثار هذا القرار موجة غضب عربية وإسلامية، وتحركت المجموعتان العربية والإسلامية في الأمم المتحدة، فعقد مجلس الأمن اجتماعًا اتخذ فيه القرار رقم ٤٧٨ بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٩٨٠[٢٥]، ونص على عدم الاعتراف بـ «القانون الأساسي» بشأن القدس، ودعا الدول إلى سحب بعثاتها الدبلوماسية منها، استجابة لقرار مجلس الأمن، وكانت معظم الدول التي تقيم علاقات مع إسرائيل قد امتنعت عن نقل بعثاتها إلى القدس. وحتى عام ١٩٦٧ لم يكن هناك سوى تسع عشرة دولة تتخذ القدس مقرًّا لبعثاتها، وبعد قرار مجلس الأمن آنف الذكر عادت جميعها إلى سحب بعثاتها من القدس[٢٦]، ما عدا دولتين هما: كوستاريكا والسلفادور، اللتين قامتا حديثًا بنقل سفارتيهما من القدس إلى تل أبيب، فكان ذلك موضع ترحيب من مجلس الجامعة الذي دعا الدول العربية لإعادة فتح سفاراتها في هذين البلدين، وذلك بالقرار رقم ٦٦٦٩ بتاريخ ٦/ ٩/ ٢٠٠٦.

أما قرار مجلس الجامعة، فقد جاء في دورة مجلس الجامعة العادية (سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠، ونص على التأكيد على التزام الدول العربية بتحرير القدس لتكون عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة، وتعتبر هذا الالتزام واجبًا عربيًّا وإسلاميًّا.

كما قرر فرض المقاطعة السياسية والاقتصادية على الدول التي لها سفارات، أو ممثليات في القدس، والدول التي تنقل، أو تعلن عن نقل سفاراتها أو ممثلياتها إلى القدس، والدول التي تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل.

ولم يمض وقت طويل حتى نقلت إسرائيل وزارة الحرب إلى القدس، فقرر مجلس الجامعة في دورته الثمانين[٢٧]، أن يحيل الموضوع إلى المجموعة العربية لدى الأمم المتحدة لتعمل بالتنسيق مع «لجنة القدس» ودول عدم الانحياز، على النظر في إمكانية بحث الموضوع في ضوء قرارات مجلس الأمن السابقة، ولم تشر قرارات مجلس الأمن أن المجلس بحث الموضوع. كما نص القرار أيضًا على عقد ندوات سياسية وروحية في العواصم الكبرى لشرح أهمية القدس، وانتهاك إسرائيل لقرارات مجلس الأمن، والقانون الدولي والأعراف الدولية.

ولطالما حالت قلة الاعتمادات المالية دون عقد الندوات واللقاءات.

وفي محاولة للتغلب على رصد الأموال لدعم القدس والمقدسيين، فقد اتخذ مجلس الجامعة في دور انعقاده العادي التاسع والسبعين قرارًا برقم ٤٢٤٤ بتاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٨٣ ينص على:

قيام الجهات المختصة في الدول العربية بالتعاون مع «منظمة التحرير الفلسطينية» بتحقيق التوأمة بين العواصم العربية من جهة، والقدس الشريف من جهة أخرى، وأن تكون هذه التوأمة على أساس برامج محددة تهدف مساعدة المؤسسات الدينية، والثقافية، والاجتماعية، والصحية، لتتمكن من تقديم خدماتها، كما دعا القرار «منظمة المدن العربية» إلى المساهمة في تكثيف هذه التوأمة.

أهم دورات مجلس الجامعة الطارئة بشأن القدس

يعقد مجلس جامعة الدول العربية، سواء على مستوى المندوبين، أو على مستوى وزراء الخارجية، اجتماعات طارئة، تفاعلًا مع المستجدات.

العدوان الإسرائيلي على المسجد الأقصى وقبة الصخرة

فقد عقد مجلس الجامعة على المستوى الوزاري دورة طارئة في ١٨/ ١٠/ ١٩٩٠ لمناقشة العدوان الإسرائيلي على المسجد الأقصى، وقبة الصخرة المشرَّفة، وما نتج عنها من مجزرة دموية ضد أبناء الشعب الفلسطيني، حضره الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات الذي ألقى بيانًا حول الموضوع، واتخذ المجلس القرار رقم ٥٠٤٥ بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٩٩٠. ومن أهم فقراته: «الإعراب عن استيائه، وإدانته لمواقف التسويف والمراوغة التي اتخذتها الحكومة الأمريكية أثناء مناقشات مجلس الأمن، مما يؤكد انحياز الموقف الأمريكي... ويشكل غطاء للعدوان الإسرائيلي، ومطالبة الحكومة الأمريكية بالتوقف عن هذه الممارسات، وإنهاء الازدواجية في مواقفها الانتقائية ....».

«تكليف اللجنة الوزارية العربية لدعم الانتفاضة متابعة تطورات الأوضاع بالغة الخطورة... على أن تواصل اللجنة تحركها واتصالاتها... بغية الوصول إلى ضمان توفير الحماية الدولية ... السعي لوضع الأراضي المحتلة تحت إشراف دولي مؤقت لحين تحقيق السلام ....».

«تشكيل هيئة إسلامية موسَّعة من علماء المسلمين للإشراف على الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس، والسعي لإيفادها هناك لترابط مع المرابطين ....».

«العمل على عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، في إطار مجلس الأمن بغية تنفيذ قراري مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨، وكافة قرارات الشرعية الدولية ...».

وفقرات أخرى، خاصة بالدعم المالي، والشكر، والاعتزاز.

وكانت المجموعة العربية طلبت عقد جلسة لمجلس الأمن، الذي اجتمع، واتخذ القرار رقم ٦٧٢ بتاريخ ١٢/ ١٠/ ١٩٩٠، الذي أدان أعمال العنف، ورحب بقرار الأمين العام، إيفاد بعثة إلى المنطقة، لكن إسرائيل رفضت استقبال بعثة الأمين العام، فاتخذ مجلس الأمن قرارًا شجب رفض الحكومة الإسرائيلية استقبال بعثة الأمين العام، وذلك بالقرار رقم ٦٧٣ بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٠[٢٨].

مصادرة الأراضي الفلسطينية في القدس

وعلى إثر قرار الحكومة الإسرائيلية مصادرة أراضٍ فلسطينية لإقامة مستوطنات عليها عقد مجلس جامعة الدول العربية دورة غير عادية يوم ٦/ ٥/ ١٩٩٥ بشأن القدس، واتخذ القرار رقم ٥٤٨٧ في ٦/ ٥/ ١٩٩٥، وتضمن إدانة جماعية لقرار مصادرة الأراضي في القدس وخارجها، وعدم الاعتراف بأية تعديلات تجريها إسرائيل، ورفض ادعاء إسرائيل بأن القدس عاصمتها الأبدية، وإجراء الاتصالات، وطلب عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن، والتأكيد على ضرورة اتخاذ تدابير أمنية لحماية الأراضي الفلسطينية دون استثناء، وأن يضع مجلس الأمن في اعتباره الوضع الخاص لمدينة القدس.

قرار الكونجرس الأمريكي بشأن القدس

دورة أخرى طارئة على المستوى الوزاري ١٠/ ١١/ ٢٠٠٢ بصدد قرار الكونجرس الأمريكي بشأن القدس، وهو القانون رقم HR ١٦٤٦، الذي صدر بتاريخ ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٢، ووقعه الرئيس الأمريكي، جورج دبليو بوش، بتاريخ ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢، يتعلق بميزانية وزارة الخارجية، وموضوع القدس، وفي إحدى فقرات ذلك القانون وتحمل رقم ٢١٤. وبالرغم من أن القانون يبدو معنيًّا بالشؤون المالية، إلا أنه ينطوي على معنى سياسي يؤثر تأثيرًا مباشرًا على وضع القدس، بحيث يتجاوز القانون السابق لعام ١٩٩٥ الذي لم يوقعه كلينتون بنقل السفارة. وذلك من خلال وضع القنصلية الأمريكية في القدس تحت إشراف مباشر للسفير الأمريكي في تل أبيب بعد أن كانت وزارة الخارجية هي المرجع المالي والسياسي، ويحظر صرف أية موارد مالية لأغراض نشر يتطرق إلى ذكر عواصم ما لم تذكر القدس عاصمة لإسرائيل، كذلك يصبح من حق الرعايا الأمريكيين المولودين في القدس أن يصروا على ذكر إسرائيل كمكان للولادة في الوثائق الرسمية، وبالتالي كرَّس هذا القانون القدس عاصمة لإسرائيل.

اتخذ مجلس الجامعة في دورته الطارئة القرار رقم ٦٢٥٩ بتاريخ ١٠/ ١١/ ٢٠٠٢:

- أكد أن القدس جزء لا يتجزأ من الأراضي العربية المحتلة.
- رفض رفضًا مطلقًا قرار الكونجرس الأمريكي، واعتبره خروجًا عن أحكام القانون الدولي.
- تأييد قرار الرئيس عرفات باعتبار القدس عاصمة لدولة فلسطين المستقلة.
- الطلب من الإدارة الأمريكية اتخاذ الخطوات اللازمة التي تكفل عدم الالتزام بالفقرة ٢١٤ من مشروع الميزانية.

ـ تفعيل قرارات مؤتمرات القمة التي طالبت دول العالم بعدم نقل سفاراتها إلى القدس، وقطع العلاقات مع الدول التي تقوم بذلك.

ـ دعوة الاتحاد البرلماني العربي والبرلمانات العربية لاتخاذ ما يلزم حيال القرار.

ـ دعوة مجلس الأمن لتحمل مسؤولياته، ووضع قراراته موضع التنفيذ، ومطالبة الأمين العام للأمم المتحدة بتوجيه رسالة إلى الولايات المتحدة يبين فيها أن قرار الكونجرس مخالفة صريحة لقرارات الشرعية الدولية التي صادقت عليها الولايات المتحدة.

التداعيات الخطيرة جراء استمرار بناء جدار الفصل العنصري في القدس الشريف

اجتمع مجلس جامعة الدول العربية بتاريخ ١٤/ ٧/ ٢٠٠٥ لبحث التداعيات الخطيرة جراء بناء جدار الفصل العنصري، خاصة في القدس الشريف، وأصدر بيانًا أكد فيه على عدم شرعية الجدار، وما يترتب عليه من نتائج، والعمل على عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن، والجمعية العامة، لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بوقف بناء الجدار الذي تستمر إسرائيل في بنائه رغم فتوى «محكمة العدل الدولية»، وقرار الجمعية العامة في دورتها الطارئة الاستثنائية (د ط إ ١٠/ ١٥) بتاريخ ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٤، وقرارات مجلس الأمن، والطلب من الأمين العام توجيه رسائل إلى وزراء خارجية الدول العربية للتحرك مع الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن لتوضيح خطورة الإجراءات الإسرائيلية، وتوجيه رسائل إلى رئيس مجلس الأمن والجمعية العامة، وأعضاء اللجنة الرباعية، ورئيس محكمة العدل الدولية، والمنسِّق الأوروبي للسياسة الخارجية بهذا الشأن، ودعوة «لجنة القدس» لبحث الموضوع، وإجراء الاتصالات مع المجموعات الدولية، و«منظمة المؤتمر الإسلامي»، ومجموعة عدم الانحياز لتوحيد التحرك.

اتفاقات أوسلو

وبتوقيع اتفاقات أوسلو في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣، وقبول الجانب الفلسطيني تأخير بحث قضية القدس مع مواضيع أخرى مهمة إلى مفاوضات الوضع النهائي، أعطيت الفرصة كاملة لإسرائيل للاستمرار بإجراءات التهويد والاستيطان، ومصادرة الأراضي، والتطهير العرقي بطرد الأهالي، وهدم منازلهم، معتمدة بذلك على مساندة الولايات المتحدة، وتجاهل المجتمع الدولي للتجاوزات الإسرائيلية، وكانت تلك الاتفاقية نقطة تحول في قرارات جامعة الدول العربية، فأصبحت القرارات الاقتصادية، ودعم موازنة السلطة تحتل مكانًا بارزًا في القرارات.

وبالموافقة على «مبادرة السلام العربية»، في مؤتمر قمة بيروت/ ربيع عام ٢٠٠٢ [٢٩] أصبح «خيار السلام الشامل والعادل هو خيار إستراتيجي للدول العربية يتحقق في ظل الشرعية الدولية ويستوجب التزامًا مقابلًا تؤكده إسرائيل في هذا الصدد..».

استحوذت مبادرة السلام، ودعم موازنة السلطة الوطنية الفلسطينية مساحة واسعة من قرارات مؤتمرات القمة، ودورات مجلس الجامعة، وانصب الاهتمام على تسويقها عالميًا، وسافرت الوفود المكونة من وزراء الخارجية وأمين عام الجامعة إلى الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن لشرح المبادرة، وإبداء المرونة العربية اللازمة تسهيلًا لإحلال السلام في المنطقة، وانعكس ذلك على قضية القدس التي أصبحت على هامش الاتصالات التي يجريها المسؤولون العرب.

القدس في قرارات مؤتمرات القمة العربية

نجد على مؤتمرات القمة الأول والثاني والثالث الاهتمام بالكيان الفلسطيني، وإنشاء «منظمة التحرير الفلسطينية»، ومؤسساتها، وخصصت قمة الخرطوم ـ التي عقدت بعيد حرب عام ١٩٦٧ ـ لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي، حيث اتخذت اللاءات الشهيرة، «لا صلح، لا تفاوض مع إسرائيل، ولا اعتراف بها...» والخامس في الرباط، لم يتخذ قرارات، ولم يصدر بيانًا.

المؤتمر السادس للقمة العربية، المنعقد في الجزائر، وضعت خطة، صدرت الهدف المرحلي للأمة العربية، وفيما يتعلق بقضية القدس جاء ما يلي:

١ـ التحرير الكامل لجميع الأراضي العربية المحتلة، وعدم التفريط في أي جزء من هذه الأراضي، أو المساس بالسيادة الوطنية عليها.

٢ـ تحرير مدينة القدس العربية، وعدم القبول بأي وضع من شأنه المساس بسيادة العرب الكاملة على المدينة المقدسة.

٣ـ .....

٤ـ .....« (قرار رقم ٤٦ بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٩٧٣)[٣٠].

وتكرر هذا القرار في الدورة السابعة للقمة في الرباط برقم ٦٤، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٧٤. وهو المؤتمر الذي تم فيه اعتماد منظمة التحرير «ممثلًا وحيدًا للشعب الفلسطيني».

- مؤتمر القمة الثامن، خصص لبحث الوضع في لبنان (أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٦).
- مؤتمر القمة التاسع في بغداد، عقب اتفاقات كامب ديفيد (نوفمبر ١٩٧٨).
- مؤتمر القمة العاشر في تونس (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩) وضع إستراتيجية العمل العربي المشترك، واتخذ القرار رقم ١٢٠ بتاريخ ٢٢/ ١١/ ١٩٧٩ الخاص بالقدس، ونص على ما يلي:

«يعبِّر عن قلقه تجاه المحاولات الرامية لإعادة علاقات بعض الدول مع العدو الصهيوني، أو للاعتراف بالقدس عاصمة له، ويعلن أن الدول العربية ستتخذ، عند الاقتضاء، التدابير اللازمة لحماية الحق العربي».

وجاء في بيانه الختامي أن المؤتمر «إذ يسجل بارتياح تزايد عزلة إسرائيل في الساحة الدولية، وتقلص علاقاتها الدولية، وتنامي الوعي بعدالة القضية الفلسطينية ... يحذِّر من المحاولات الرامية لإعادة علاقات بعض الدول مع العدو الصهيوني، أو الاعتراف بالقدس عاصمة له، ويعلن أن الدول العربية ستتخذ التدابير اللازمة لحماية الحق العربي».

وقد صادق مؤتمر القمة الحادي عشر عمان ـ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٠) على برنامج العمل العربي المشترك بالقرار رقم ١٤٢، بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٨٠، وتضمن فقرة نصت على التصدي للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل:

«تقطع جميع العلاقات مع أية دولة تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، أو تنقل سفارتها إليها...».

أما بيان المؤتمر الختامي، فقد «شدد على أن تحرير القدس العربية هو واجب والتزام قومي»، وأعلن رفض جميع الإجراءات التي قامت بها إسرائيل، وطالب كافة دول العالم باتخاذ مواقف واضحة ومحددة من مقاومة الإجراءات الإسرائيلية، وقرر قطع جميع العلاقات مع أية دولة تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، أو تنقل سفارتها إليها.

يعتبر مؤتمر القمة الثاني عشر في فاس (سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢) نقطة تحول في معالجة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، حيث اتخذ القرار رقم ١٥٤ بتاريخ ٩/ ٩/ ١٩٨٢، الذي اعتمد، ولأول مرة، مبادئ السلم التالية:

١ـ انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية.

٢ـ إزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية عام ١٩٦٧.

٣ـ ضمان حرية السيادة، وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان بالأماكن المقدسة.

٤ـ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ...

٥ـ تخضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة أشهر.

٦ـ قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

٧ـ يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات السلام بين جميع دول المنطقة، بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

٨ ـ يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

في مؤتمر القمة العربي غير العادي (أغسطس/ آذار ١٩٨٥) في الدار البيضاء، صدر بيان ختامي، تطرق إلى الاتفاق الأردني ـ الفلسطيني، الذي وُقِّع في عمان في ١١/ ٢/ ١٩٨٥، «وسجل، بكل تقدير، عن انسجام خطة التحرك الأردني ـ الفلسطيني، مع مخطط فاس، واعتبارها خطة عمل لتنفيذ مشروع السلام العربي من أجل تحقيق تسوية سلمية عادلة وشاملة، تضمن انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة، وفي مقدمتها القدس الشريف...».

ركز مؤتمر قمة عمّان غير العادي (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٧) على الحرب العراقية ـ الإيرانية، وعلى حشد طاقات وإمكانات الدول العربية، وإقامة التوازن الإستراتيجي، وتقديم الدعم والمساعدة للنضال ضد الاحتلال الإسرائيلي، كما خصص قرارًا حول المؤتمر الدولي للسلام.

أما مؤتمر قمة الجزائر غير العادي (يونيو/ حزيران ١٩٨٨)، فقد ركز على دعم الانتفاضة وتقديم الدعم المالي، وأكد المؤتمر أسس مشروع السلام العربي، كما طالب بعقد المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط.

ومؤتمر قمة عربي غير عادي (مايو/ آيار ١٩٨٩) في الدار البيضاء، اقتصر على استمرار العمل من أجل تحقيق الأهداف التي أقرتها المؤتمرات السابقة، وتقديم الدعم المادي والمعنوي للانتفاضة، وتأييد عقد المؤتمر الدولي للسلام، ووجوب أن تكون التسوية طبقًا لقرارات مؤتمرات القمة، وخاصة قمة فاس.

وفي مؤتمر القمة غير العادي (مايو/ آيار ١٩٩٠)، في بغداد، تم تخصيص بند من القرار رقم ٤، ١٨ بتاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٩٠ بتأكيد مكانة القدس، على النحو التالي:

١ـ تأكيد مكانة القدس، التاريخية، والوطنية، والروحية، عربيًّا وإسلاميًّا ومسيحيًّا، وأن القدس هي جزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة وعاصمة دولة فلسطين، وأن أي مساس بوضعها الديني، والقانوني، والحضاري هو انتهاك صارخ للمواثيق والقرارات الدولية.

٢ـ إدانة قراري الكونجرس الأمريكي الخاصين باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، ودعوته إلى إلغاء هذين القرارين غير الشرعيين المخالفين للقانون الدولي، ولقرارات الأمم المتحدة، وللمواقف الرسمية الأمريكية الخاصة بالمدينة المقدسة.

٣ـ اتخاذ إجراءات اقتصادية وسياسية ضد أية دولة تعتبر القدس عاصمة لإسرائيل.

٤ـ تأييد قرار لجنة القدس الخاص بعقد المؤتمر الإسلامي ـ المسيحي لحماية القدس الشريف، والأماكن المقدسة، الإسلامية والمسيحية.

٥ـ دعوة جميع وسائل الإعلام، العربية والإسلامية، إلى القيام بدورها في كشف مخاطر الهجرة الاستيطانية على المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين والقدس الشريف.

وفي الاجتماع غير العادي لمؤتمر القمة العربي، بالقاهرة (٢٠ـ ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠)، اتخذ قرارًا مهمًّا، برقم ١٩٩ بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠ بما يلي:

١ـ إنشاء صندوق باسم «صندوق الانتفاضة» بموارد تبلغ ٢٠٠ مليون دولار، تخصص للإنفاق على عوائل وأسر شهداء الانتفاضة، وتهيئة السبل لرعاية، وتعليم أبنائهم، ولتأهيل الجرحى، والمصابين.

٢ـ إنشاء صندوق باسم «صندوق الأقصى»، بموارد تبلغ ٨٠٠ مليون دولار أمريكي، تخصص لتمويل مشاريع تحافظ على الهوية العربية والإسلامية للقدس، وتمكين الاقتصاد الفلسطيني من تطوير قدراته الذاتية، وفك الارتباط بالاقتصاد الإسرائيلي، لمواجهة سياسة العزل.

٣ـ عقد اجتماع لوزراء المالية العرب، في جامعة الدول العربية، خلال فترة أقصاها شهر من تاريخه للاتفاق على ما يلي:

١ـ المساهمات في الصندوقين.

٢ـ استخدامات موارد الصندوقين.

٣ـ إدارة الصندوقين، وآلية الإشراف عليهما بما يضمن فعاليتهما، واستمرارهما.

٤ـ الاستفادة من الخبرة الفنية للصناديق العربية، و«البنك الإسلامي للتنمية»، في عمل الصندوقين.

أنشئ الصندوقان، وفي مؤتمر القمة العادي في دورته ١٣، في عمان (٢٧ـ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠١) اتخذ القرار رقم ٢٠١، بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠١. الذي تضمن الترحيب بقرار المجلس الأعلى لصندوقي الأقصى وانتفاضة القدس للاستجابة العاجلة لدعم ميزانية السلطة الوطنية الفلسطينية، بصرف مبلغ ١٥ مليون دولار من القرض الحسن الذي اعتمده بقيمة ٦٠ مليون دولار تدفع على أربعة أشهر بناء على اقتراح تقدمت به المملكة العربية السعودية.

ولا يزال الصندوقان يتعثران في جمع المبلغ المطلوب لتمكينهما من أداء المهمة الموكلة إليهما.

مؤتمر القمة الثالث عشر، في (عمان) مارس/ آذار ٢٠٠١ اتخذ القرار رقم ٢٠١ بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠١ تضمن دعم انتفاضة الشعب الفلسطيني وصموده، وتضمن بنودًا مهمة تشكل آلية عمل، وذلك بتكليف لجنة من الخبراء القانونيين العرب للبدء بتوثيق جرائم الحرب الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، وجمع الأدلة والتحري حولها تمهيدًا نحو إنشاء محكمة دولية خاصة لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين، وتحرك الرأي العام الدولي عن طريق منظمات المجتمع المدني الدولي.

أما مؤتمر القمة الرابع عشر، في بيروت، مارس/ آذار ٢٠٠٢) فقد طغت «مبادرة السلام العربية»، والدعم المالي لموازنة السلطة وصندوقي الأقصى وانتفاضة القدس على أعماله، ولم تخصص فقرة خاصة للقدس.

مؤتمرات القمة الخامس عشر في شرم الشيخ (مارس/ آذار ٢٠٠٣)، والسادس عشر، في (تونس مايو/ آيار ٢٠٠٤، والسابع عشر في الجزائر (مارس/ آذار ٢٠٠٥) اتخذت فقرة تكاد تكون متكررة، ونصت على:

التأكيد على عروبة القدس، وعدم شرعية الإجراءات الإسرائيلية لضمها، وتهويدها، وتغيير طبيعتها وتركيبتها السكانية والجغرافية وإدانة إقامة الحائط المسمى «غلاف القدس»، الذي يستهدف تقطيع أوصال القدس، وعزل سكانها الفلسطينيين عن امتدادهم الطبيعي في الضفة الغربية، وكذلك إدانة الحفريات التي أدت إلى انهيار مقطع من الجسر المؤدي إلى باب المغاربة، والتي تهدد أساسات المسجد الأقصى.

أما القمة الثامنة عشرة في الخرطوم، (مارس/ آذار ٢٠٠٦) فقد أضاف القرار إلى الفقرة السابقة فقرتين، تضمنت إحداهما إدانة مشروع إقامة مترو، يقسِّم القدس إلى شطرين، ودعوة الشركتين الفرنسيتين للانسحاب فورًا، واتخاذ إجراءات بحقهما في حالة عدم الاستجابة، وإدانة شديدة لاستمرار إسرائيل في بناء جدار الفصل العنصري، بما في ذلك القدس الشرقية، ومطالبة الأمم المتحدة باتخاذ ما يلزم لتنفيذ التزاماتها القانونية كما ورد في الفتوى الصادرة عن «محكمة العدل الدولية»...

بحث مؤتمر القمة العربي، في دورته التاسعة عشرة، في الرياض، (مارس/ آذار ٢٠٠٧)، موضوع إدراج إسرائيل موقع القدس على قائمتها التمهيدية في قائمة التراث العالمي في منظمة «اليونسكو»، واتخذ بشأنه القرار رقم ٣٧٢ بتاريخ ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٧ ونص على:

١ـ إدانة ما قامت به إسرائيل من إجراءات تتعارض مع قواعد القانون الدولي، وأحكام القانون الدولي الإنساني.

٢ـ قيام الدول العربية، وخاصة الأعضاء في لجنة التراث العالمي، بالاتصال بالدول الأعضاء في اللجنة لحثها على عدم إدراج موقع القدس في القائمة الإسرائيلية التمهيدية في قائمة التراث العالمي لتعارضه مع القانون الدولي، وقرارات الشرعية الدولية.

٣ـ تشكيل مجموعة عمل من الدول الأعضاء في اللجنة (تونس - الكويت ـ المغرب)، والأمانة العامة لجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لمتابعة تطورات الوضع لحين انعقاد اللجنة في نيوزيلاندا في ٢٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧.

وقد استطاعت الجهود العربية، باتصالاتها المكثَّفة وجهودها المتواصلة، منع إدراج إسرائيل موقع القدس على قائمتها التمهيدية، وكذلك إبقاء القدس على قائمة التراث المعرض للخطر في «اليونسكو».

وكذلك مؤتمرا القمة العشرون، في دمشق، (مارس/ آذار ٢٠٠٨) والحادي والعشرون المنعقد في الدوحة (مارس/ آذار ٢٠٠٩) حيث تضمن قرار تطورات القضية الفلسطينية فقرة خاصة بالقدس أكدت على عروبتها، ورفضت محل الإجراءات غير الشرعية التي تستهدف تهويد المدينة وضمها... وإدانة مصادرة الأراضي ... وإدانة أعمال الحفريات ... ودعوة المنظمات والمؤسسات المعنية، ولا سيما اليونسكو، إلى تحمل مسؤولياتها في الحفاظ على المقدسات الإسلامية، والمسيحية.

وفي سياق هذا العرض، لا يمكن تجاهل جهود الأمين العام للجامعة، في كل المراحل، واتصالاته. ففلسطين والقدس استحوذت على الكثير من وقت وجهد الأمناء العامين للجامعة، واتصالاتهم، وباستعراض قرارات مجلس الجامعة بشأن القدس، نرى أن المجلس أولاها اهتمامًا، وقدمت الأمانة العامة مذكرات وافية حول أوضاع القدس ومتابعة دقيقة للأحداث المتلاحقة، لكن القرارات نادرًا ما كانت تنفذ؛ لذلك نرى كثيرًا من القرارات تؤكد على قرارات سابقة عدة مرات، بالإضافة إلى أنها افتقرت إلى إستراتيجية بعيدة المدى، فمعظم القرارات مجرد ردود فعل على ما تقوم به إسرائيل من انتهاكات، ومصادرات، فإسرائيل تعتمد أسلوب فرض الأمر الواقع على الأرض في مدينة القدس، ومخططاتها بعيدة المدى، لكن أمام التخطيط البعيد المدى للصهيونية، وقوى الاستكبار العالمي المتحالف معها يبقى أي جهد يبذل ليس في مستوى خطورة هذه القضية المستمرة قرابة قرن من الزمان.

أهم سلبيات قرارات الجامعة

١ـ إن كثيرًا من القرارات لا تجد طريقها إلى التنفيذ؛ لأنها تفتقر إلى خطة عمل أو آلية لتنفيذها، أو لعدم الرغبة في تنفيذها.

٢ـ ما يمكن تنفيذه من القرارات لا يجد طريقه إلى التنفيذ إلا بعد سنين، فقرار إنشاء «صندوق القدس» اتخذ في ١٧/ ٩/ ١٩٩٢ (قرار رقم ٥٢١٦)، وبقي يراوح بين التأكيد والجهة المختصة بالتنفيذ إلى أن أنشئ عام ١٩٩٨، سنوات ست كانت القدس في أمس الحاجة لكل جهد يبذل لمواجهة الهجمة اليومية الشرسة التي تنهش قلب المدينة ومواطنيها... والأمثلة كثيرة.

٣ـ اتخذت عدة قرارات بفرض سنت واحد على كل برميل نفط يباع للشركات الأجنبية، يرصد ريعه لدعم ميزانية الوكالة، لسد العجز في ميزانيتها، لكن ذلك لم يجد طريقه للتنفيذ حتى الآن.

٤ـ هناك قرارات تقليدية تتخذ، وقلما تنفَّذ، مثل إصدار طابع بريد لغرض ما، مثل القدس، يوم فلسطين، وغير ذلك، وكثير من الدول يتطلب الأمر لديها موافقة البرلمان، وكذلك إقامة يوم تضامني، أو حصة لفلسطين يوم ٢٧/ نوفمبر/ تشرين الثاني من كل عام، أو إقامة معارض، أو مباريات رياضية، ترصد ريعها لغرض فلسطيني، وقلما وجدت طريقها للتنفيذ.

الخاتمة

عذرًا إذا قلت إن الصورة قاتمة، كنت أود أن أرى نورًا في آخر النفق، لكني في الحقيقة لم أره، ولا أدري إن كان نفقًا أم سردابًا، في ضوء الخيار الإستراتيجي للعرب. فهذا الخيار أصبح كأنه سراب. وما لم يتغير الخيار الإستراتيجي إلى بناء القوة الذاتية، والبحث العلمي، والاعتماد على النفس، وعدم الاعتماد على القوى الخارجية، التي لا تريد سوى تحقيق مصالحها الذاتية، فالمستقبل مجهول.

ستة عشر عامًا من المفاوضات منذ أوسلو لم نحصد خلالها سوى المزيد من ضياع الأرض، والتفكك والتشرذم، والدخول في متاهات، وتقييدنا باتفاقات أضرت بالقضية أكثر مما أفادتها، أضاعت القدس، وتركت أهلها منفردين يواجهون عدوًا شرسًا مدمرًا ليس لهم حيلة أمامه.

لا بد أن يواجه العرب أنفسهم بالحقيقة التي أمامهم، قدس محاصرة، أماكن مقدسة مهددة، بين لحظة وأخرى بالانهيار، بعد أربعين عامًا من الحفر أسفلها، وأسفل المدينة القديمة، مواطنون مقدسيون مضطهدون، مهددون بالطرد، وهدم البيوت، وسحب الهويات، والاستيلاء بالقوة على مساكنهم، أو الحفر أسفلها حتى تقع على رؤوس أصحابها، والعرب لا حول لديهم ولا قوة تكتفي بالإدانة والاستغاثة بالمجتمع الدولي.

ليس هكذا تبنى الأمم، ولا كذلك تكون الحياة، وكما يقول أبو القاسم الشابي:

ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

وصعود الجبال هو العمل الشاق، بناء الإنسان، بناء القدرة، الدفاع عن الحقوق، فالحقوق إن لم تكن هناك قوة لحمايتها، تصبح عقوقًا للوطن والمواطن.

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) جامعة الدول العربية، **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين**، المجموعة الأولى ١٩١٥ـ ١٩٤٦.ص ١٣٠ .
(٢) مروة جبر : **جامعة الدول العربية وقضية فلسطين (١٩٤٥ـ ١٩٦٥)**، مركز الأبحاث،منظمة التحرير الفلسطينية، نيقوسيا، ١٩٨٩. ص١٧.
(٣) جامعة الدول العربية: **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ١٩١٥ـ ١٩٤٦**، المجموعة الأولى.٣٦٣.
(٤) أحمد الشقيري: **الجامعة العربية، كيف تكون جامعة، وكيف تصبح عربية**، تونس، دار بوسلامة للنشر، ١٩٧٩.
(٥) سمير جريس: **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨١.ص ٣٠.
(٦) جبر: **مرجع سبق ذكره**. ص٩٧.
(٧) جامعة الدول العربية:**بعثة وسيط الأمم المتحدة لحل مشكلة فلسطين،المكاتبات المتبادلة بين الوسيط والأمين العام**، المطبعة الأميرية بالقاهرة،١٩٤٨.ص٢٥،٣٢،٣٤.
(٨) محمد عزة دروزه: **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، الجزء الثاني، بيروت وصيدا، الطبعة العصرية ١٩٦٥.ص ٢٠٠.
(٩) عز الدين فودة: **قضية فلسطين في محيط العلاقات الدولية**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٩.ص١٧٠.
(١٠) فاضل الجمالي: **ذكريات وعبر**، تونس، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية ١٩٦٥.
(١١) **محاضر جلسات دور الاجتماع العادي ١٢ لمجلس الجامعة**، القاهرة. ٢٩٣ـ ٢٩٤
(١٢) جبر: **مرجع سبق ذكره**.ص ١٠٧.
(١٣) جامعة الدول العربية: **قرارات مجلس الجامعة الخاص بقضية فلسطين، يونيو/ حزيران ١٩٤٥ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٨**. ص١٠٣
(١٤) فودة، **مرجع سبق ذكره**.ص١٠٨.
(١٥) جامعة الدول العربية: **قرارات مجلس جامعة الدول العربية** ـ المجلد الرابع، ١٩٨٨. ص ١٦٩.
(١٦) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي**، المجلد الأول، ١٩٤٧ـ ١٩٧٤. ص١٩٦ـ ١٩٧.
(١٧) **القدس** www.wikipedia.org/wiki/ .
(١٨) جامعة الدول العربية: **قرارات مجلس جامعة الدول العربية**، المجلد الرابع، ١٩٨٨. ص ٥٨٦.
(١٩) ويكيبيديا : **مرجع سبق ذكره**.
(٢٠) قرار رقم ٥٢١٦ بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٩٢.موقع www.arableagueonline.org
(٢١) موقع بيت مال القدس www.baytmalalquds.org
(٢٢) جرجس، **مصدر سبق ذكره**. ص٧٦.
(٢٣) الأمانة العامة: الإدارة العامة لشؤون فلسطين: **القرارات السياسية الخاصة بقضية فلسطين**، ١/ ٧/ ١٩٨٥، (ملف داخلي). ص ٩٦.
(٢٤) جريس: **مرجع سبق ذكره**.ص ١٣٣ـ ١٤٦.
(٢٥) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي**، المجلد الثاني، بيروت ١٩٩٤. ص٢٨٨.
(٢٦) جريس: **مرجع سبق ذكره** . ص٤٦.
(٢٧) ملف داخلي، **مرجع سبق ذكره** .ص١٠٨.
(٢٨) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي**، ١٩٨٧ـ ١٩٩١، المجلد الرابع، ص ٣٤٠.
(٢٩) جامعة الدول العربية : **قرارات مؤتمر القمة العربي في دورته الرابعة عشرة**، بيروت ٢٧و ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٢ ص ٩ـ ١١.
(٣٠) جامعة الدول العربية، الأمانة العامة : **مؤتمرات القمة العربية، قراراتها وبياناتها ١٩٤٦، ١٩٩٠** ص ٥٧.

الفصل الثالث

منظمة المؤتمر الإسلامي وضياع القدس

د. عبد التواب مصطفى

على مدى العقود الأربعة الماضية (١٩٦٩/ ٢٠٠٩) انعقدت إحدى عشرة قمة إسلامية دورية تضم (ملوك، ورؤساء، وسلاطين، وأمراء، وأئمة) الدول الإسلامية السبع والخمسين في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، وذلك منذ القمة الأولى (الرباط ١٩٦٩) حتى الأخيرة (داكار بالسنغال ٢٠٠٨) إلى جانب قمم أخرى وصفت بـ (طارئة)، في هذا المدى الزمني نفسه.

في إطار المنظمة نفسها ـ المؤتمر الإسلامي ـ وفي مايو دمشق/ ٢٠٠٩ انعقدت الدورة السادسة والثلاثون لمؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، وكانت الدورة الأولى في جدة عام ١٩٧٠.

كذلك، فإن (لجنة القدس) المنبثقة عن المنظمة ذاتها، والمشكَّلة على مستوى القمة، إذ تضم ملوك ورؤساء خمس عشرة دولة إسلامية برئاسة ملك المغرب بصفته، قد عقدت تسع عشرة دورة انعقاد منذ تشكلت عام ١٩٧٥. وعن هذه اللجنة وعن تلك المنظمة انبثق أو ظهر عام ١٩٩٨ ما يسمى بوكالة بيت مال القدس، ليدور في الدائرة المفرغة ذاتها.

وبينما تتواصل اجتماعات ومؤتمرات هذه المنظمة بأجهزتها المختلفة هكذا، فليست هناك أية جدوى يمكن أن نلمسها ـ نحن شعوب الأمة الإسلامية ـ من وجود هذه المنظمة التي تعد أكبر منظمة دولية إقليمية، وتأسست أو قامت لترعى مصالح شعوب هذه الأمة، ولتصون مقدساتها، وفي مقدمتها المسجد الأقصى المبارك.

ظهرت منظمة المؤتمر الإسلامي منذ أربعين سنة بدعوى حماية القدس، وتحرير الشعب الفلسطيني، غير أن أمر

القدس، وأمر الشعب الفلسطيني لم يزدد إلا سوءًا، وتدهورًا، أو ضياعًا منذ ظهور المنظمة حتى اليوم، وذلك في ضوء قراءة واقع القدس اليوم، من أي منظور، وعلى أي مستوى تحليلي.

فماذا ـ إذن ـ وراء هذا الفشل الذريع للمنظمة المذكورة، في دورها، أو مهمتها، تجاه القدس تحديدًا؟!. هذا بعد أن تأكدنا ـ حاليًا ـ أن بحث قضية القدس بات مرجأ إلى أجل غير مسمى، وأن إسرائيل تخط حاليًا سطور (الفصل الأخير في سيناريو تهويد القدس)، بحيث يصبح مستحيلًا الحديث عن تقسيمها بين العرب وإسرائيل، ناهيك من الحديث عن استعادتها إلى السيادة العربية، فإن إسرائيل آخذة في تنفيذ خطط استيطان، وتهويد، ترمي إلى أن يصبح اليهود الأغلبية الساحقة، بنسبة تصل إلى ٨٨٪ بحلول العام ٢٠٢٠، من جملة قاطني المدينة المقدسة[١].

ومن قبل، كنا قد انتهينا إلى نتيجة مقاربة، إذ كانت القراءة الواعية لجملة الوعود الوهمية الفضفاضة التي تضمنتها خطة (خارطة الطريق)، الصادرة عن الإرادة الدولية ـ اللجنة الرباعية الدولية ـ في (٢٠٠٣)، قد أكدت ـ أيضًا ـ أن نصيب القدس من جملة هذه الوعود، لم يزد على الإشارة إلى إمكانية بحثها مستقبلًا[٢].

لقد أدى الانقسام الفلسطيني، السياسي والجغرافي، منذ منتصف صيف ٢٠٠٧، إلى إضعاف الصف الفلسطيني أكثر فأكثر.

مَنْ للقدس ـ إذن ـ بعد أن اقترف في حقها جريمة القتل والإضاعة أو التضييع، هذان الطرفان :

ـ **أولًا**: منظمة المؤتمر الإسلامي، التي أوهمتنا طويلًا أنها تدافع عن القدس.

ـ **ثانيًا**: الشعب الفلسطيني، الذي أجهز انشقاق قواه السياسية الرئيسية، على وحدته وتماسكه.

* * *

المبحث الأول

ظهور منظمة المؤتمر الإسلامي

كانت نشأة منظمة المؤتمر الإسلامي بمثابة عملية بناء كبرى، ذات أبعاد متعددة، ومراحل مترادفة، أفضت في ـ أوائل السبعينيات من القرن العشرين ـ إلى ظهور هذا الكيان الكبير الذي يعد ـ في بعض صفاته أو معانيه، أو تكييفاته الشرعية والقانونية ـ بديلًا عن مؤسسة الخلافة الإسلامية.

فمنذ سقوط الخلافة، ثم إلغائها قانونا، منتصف العقد الثالث من القرن الماضي، تبلورت ـ تباعا ـ جملة من الأسباب، العقائدية والسياسية والقانونية، أوجبت وجود مؤسسة إسلامية كبرى، ترعى قضايا العالم الإسلامي، خاصة الكبرى أو المصيرية منها، وفي مقدمتها حماية مقدسات الأمة الإسلامية، وتحرير المحتل من شعوبها وأراضيها.

كانت قضية القدس (تحريرها وحماية المقدسات الإسلامية بها) محل إجماع شعوب العالم الإسلامي، وأبرز القضايا التي تجتمع لمعالجتها القيادات الدينية والفكرية والشعبية والسياسية، على امتداد العالم الإسلامي، وكم

من مؤتمر إسلامي انعقد لبحث هموم هذا العالم ـ وفي صدارتها قضية المقدسات الإسلامية ـ قبل ظهور منظمة المؤتمر الإسلامي، حتى كانت المحاولة الصهيونية الإسرائيلية لإحراق المسجد الأقصى المبارك في ٢١/ ٨/ ١٩٦٩، فوفرت تلك الواقعة أبرز الأسباب وأكثرها إلحاحا، لتتويج الجهود العديدة السابقة، نحو وحدة وتضامن العالم الإسلامي وتأسيس منظمة إقليمية، تجسد وحدة هذا العالم، لمواجهة قضاياه وتحدياته الكبرى، فكانت منظمة المؤتمر الإسلامي.

استمرت الأعمال التحضيرية لتأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي نحو أربع سنوات، منذ ٢١/ ٨/ ١٩٦٩ وحتى إعلان قيام المنظمة المذكورة فى ٤/ ٣/ ١٩٧٢ في ختام أعمال مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الثالث.

استنادا إلى مكانة القدس في التاريخ العربي وفي المرجعية الإسلامية (عقائديا وتاريخيا وسياسيا)، وإلى الجهود المكثفة السابقة للعالم الإسلامي إزاء قضية القدس، ووقوفا على محورية القدس، وسط جملة قضايا العالم الإسلامي المعاصرة، كان لقضية هذه المدينة المقدسة الدور المركزي في نشأة منظمة المؤتمر الإسلامي كما تؤكد مداولات تأسيسها، وما ورد في ميثاقها ومقرراتها التنظيمية.

* * *

المطلب الأول

موقع قضية القدس
في مداولات تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي

كان مؤتمر القمة الإسلامي الأول موجها أساسًا لبحث العمل الإجرامي، المتمثل في إحراق المسجد الأقصى، غير أن ممثلي الدول الإسلامية أعلنوا حرصهم على توثيق الروابط الأخوية والروحية بين شعوبهم، وعزمهم على توحيد جهودهم لصيانة السلام والأمن الدوليين، كما أعلنوا أن حكوماتهم ستتشاور بهدف توثيق التعاون، والمساعدة المتبادلة في الميادين المختلفة الاقتصادية والثقافية والعلمية والروحية، تحقيقا للتعاليم الإسلامية الخالدة، الأمر الذي انعكس في عمومية رسالة أو طبيعة هذه المنظمة، وانتهى إلى جعل القضية الفلسطينية، وقضية القدس، واحدة ضمن اهتمامات وقضايا عديدة تبدد جهود المنظمة، ومجرد واحد من (مائة وتسعين) بندًا وقضية، تبحثها اجتماعات القمة، ووزراء الخارجية الإسلامية.

بل إن الغريب واللافت للنظر أن قرار مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الثالث، الذي وافق على ميثاق المنظمة قد سماه «ميثاق المؤتمر الإسلامي» مستخدما لفظ «مؤتمر» إرضاءً لوفود الدول التي تعارض في إنشاء منظمة إسلامية، أو تعارض في استعمال كلمة «منظمة». ثم إن القرار أشار إلى التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية، وتجاهل كل إشارة إلى الأمور السياسية، ووضع بدلًا منها عبارة «المجالات الأخرى»[٣].

وهكذا امتدت التحفظات والاعتراضات التي واجهتها فكرة إنشاء المنظمة، وفكرة التضامن الإسلامي، لتنال من الاسم المقترح للمنظمة، ولتعمل على تأخير صدور ميثاقها إلى ثلاث سنوات بعد أول قمة إسلامية، وكان الإصرار في النهاية على أن يشمل اسم المنظمة كلمة (المؤتمر) لدلالاتها الفضفاضة المرنة، التي توحي بضعف أو وهن التزامات الأعضاء نحو هذا الكيان[٤].

لم تتعلق التحفظات بـ (فكرة التضامن) أو لفظ (منظمة) أو (الأمور السياسية) فحسب، بل امتدت لتنال من القضية المحورية، أو المحرك الأساسي نحو تأسيس هذه المنظمة، أي قضية القدس وقضية فلسطين، إذ في الجلسة الختامية لمؤتمر القمة الإسلامي الأول كانت المناقشات حادة بسبب الأزمة التي أثارتها كل من إيران وتركيا والسنغال، التي عارضت اتخاذ أي قرار فيه تأييد للمقاومة الفلسطينية، أو فيه التزام موقف ضد إسرائيل. وقد وجه رئيس الوفد المصري ـ أنور السادات ـ كلامه إلى رئيس الوفد التركي : «لماذا التحفظ ؟ هل نحن في محفل دولي، نحن إخوة في أمة إسلامية. وإني لأشعر بخيبة أمل كبيرة إزاء ما حققنا. إن الأمم المتحدة لها قرارات أقوى مما وصل إليه هذا المؤتمر، وإنني لا أدري لماذا هذه التحفظات وهذا الموقف». كما وجه السادات إلى شاه إيران كلمات يحضه على المساعدة والصمود من أجل قضية فلسطين، وذكره بشجاعة أبيه ومكافحته الاستعمار[٥] .

وبرغم أن حادث حريق المسجد الأقصى في ٢١ / ٨ / ١٩٦٩ هز أنحاء العالم الإسلامي شعوبًا وحكومات، وتسارعت الخطى لاتخاذ إجراءات رادعة للعدوان الصهيوني تتم باسم الأمة أو العالم الإسلامي صيانة لمقدساته، فقد كانت لا تزال هناك تصورات أو أوهام، لدى بعض أبناء الأمة، بأن تعارضا أو تضادا بين الوجهتين (الإسلامية) و(العربية) فكريا وحركيا، سيحول دون نجاح تحركات العالم الإسلامي؛ ولذا لم تكن تلك القلة من أبناء الأمة متحمسة للتحرك الإسلامي لتبنيهم الاتجاه القومي العربي وحده.

لم تحضر كل من سوريا والعراق مؤتمر القمة الإسلامي الأول[٦]، وحضرته مصر بصفة مراقب[٧]، ويبدو أنها لو لم تكن خارجة من نكسة ١٩٦٧ جريحة (بل مكسورة) لـحَذَت حذو هاتين الدولتين.

وقد بدأ حضور سوريا في مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الثالث (جدة ـ المحرم ١٣٩٢هـ/ مارس ١٩٧٢)، ثم تلتها العراق، وكذلك فإن جامعة الدول العربية لم تمثل في القمة الإسلامية الأولى، لما سبق ذكره من وجود تصور خاطئ عن وجود تعارض بين الاتجاهين الإسلامي والعربي، ثم بدأت مشاركة الجامعة ـ الأمين العام ـ في أنشطة منظمة المؤتمر الإسلامي اعتبارًا من المؤتمر الثاني للخارجية الإسلامية (كراتشي ـ شوال ١٣٩٠ هـ/ ديسمبر ١٩٧٠)[٨].

ولم يكن التغيب عن هذه الخطوات الإسلامية الأولى مقصورًا على بعض الدول العربية، بل إن دولا إسلامية أخرى لم تحضر، مع تباين أسباب ذلك، فإنه من بين إحدى وأربعين دولة إسلامية كانت آنذاك، لم يحضر سوى ثلاث وعشرين دولة [٩].

نالت منظمة التحرير الفلسطينية العضوية الكاملة بمنظمة المؤتمر الإسلامي بقرار القمة الإسلامية الثانية في لاهور ـ باكستان / فبراير ١٩٧٤. وكانت قبل ذلك تحضر اجتماعات وزراء الخارجية الإسلامية بصفة مراقب، وحضر مندوب عنها القمة الإسلامية الأولى في سبتمبر ١٩٦٩[١٠].

* * *

المطلب الثانى

موقع قضية القدس في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي

برغم أن العقيدة الإسلامية قد شكلت الأساس الذي تنهض عليه منظمة المؤتمر الإسلامي، فإن هذه الطبيعة الخاصة لم يعبر عنها بوضوح من خلال الإطار القانوني الحاكم لهذه المنظمة، وغلب الطابع التقليدي على صياغة

ميثاق المنظمة، حيث تم تغليب اعتبارات السيادة الوطنية والمصالح الضيقة، لكل دولة عضو، على مقتضيات الصالح الإسلامي العام[١١].

وبينما تعد المبادئ المنصوص عليها في ميثاق منظمة المؤتمر الاسلامي هي مبادئ عامة أساسية في القانون الدولي، فإن أهداف هذه المنظمة هي أهداف خاصة بها؛ ولذا نجد ميثاقها يصف أهدافها وحدها بأنها أهداف إسلامية، كما ورد في المادة (٩) من الميثاق[١٢].

بل كان الهدف الرئيسي لهذه المنظمة هو تعزيز التضامن بين الدول الإسلامية، لدرجة أنه كان هناك اقتراح ـ تم العدول عنه ـ بتسميتها منظمة التضامن الإسلامي [١٣].

تتأكد هذه الخصوصية لبعض أهداف منظمة المؤتمر الإسلامي بنظرة مقارنة بين مواثيق عدد من المنظمات الإقليمية، وأهداف كل منها، وما بينهما من تماثل أو تفاوت في الأولويات، حيث نجد الهدف الرئيسي والخاص أيضًا، لمنظمة المؤتمر الإسلامي، هو (تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة في القدس، وتحريرها، ودعم كفاح الشعب الفلسطيني، ومساعدته على استرجاع حقوقه، وتحرير أراضيه)[١٤]، غير أن ذلك الهدف جاء ترتيبه (الخامس) بين الأهداف السبعة للمنظمة المذكورة، برغم أن قضية المقدسات ـ حريق المسجد الأقصى ـ كانت السبب المباشر لظهور هذه المنظمة.

ثم زيادة في التأكيد على خصوصية قضية القدس، قرر الميثاق في المادة : ٦ فقرة : ٥ على أن يكون مقر منظمة المؤتمر الإسلامي في مدينة القدس، وإن اتخذت المنظمة المذكورة من جدة مقرًا مؤقتا في الوقت الحاضر حتى يتم تحرير المدينة المذكورة.

كذلك، يؤكد هذه الأهمية التعديل الذي أحدثه مؤتمر القمة الإسلامي الثالث، المنعقد بالطائف في يناير ١٩٨١، على ميثاق المنظمة، إذ أضيفت إلى المادة الخامسة فقرة ٢ / هـ عبارة يستحدث منصب أمين عام مساعد رابع لقضية القدس الشريف وفلسطين[١٥].

* * *

المطلب الثالث

موقع قضية القدس في المقررات التنظيمية لمنظمة المؤتمر الإسلامي

اتخذت المنظمة المذكورة عددًا من القرارات والتوصيات بإنشاء أجهزة فرعية توجه اهتمامها ـ المباشر وغير المباشر ـ صوب قضية القدس، واستحدثت مناصب جديدة للهدف نفسه، الأمر الذي يعد أحد المؤشرات المهمة على إيلاء هذه المنظمة قضية القدس عناية خاصة. وأهم هذه الأجهزة:

١ ـ لجنة القدس.

٢ ـ صندوق القدس.

٣ ـ إدارة شؤون القدس الشريف وفلسطين بالأمانة العامة للمنظمة .

٤ ـ اللجنة السداسية حول فلسطين .

٥ ـ المكتب الإسلامي للتنسيق العسكري مع فلسطين .

٦ ـ صندوق التضامن الإسلامي .

٧ ـ المكتب الإسلامي لمقاطعة إسرائيل .

٨ ـ المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم .

٩ ـ منظمة المدن الإسلامية.

* * *

المبحث الثانى

حدود فعالية منظمة المؤتمر الإسلامي بشأن قضية القدس

يأتي هذا المبحث فى ثلاثة مطالب: يقف المطلب الأول على درجة فعالية الأجهزة الرئيسية لمنظمة المؤتمر الإسلامي إزاء قضية القدس. والمطلب الثاني يقف على درجة فعالية لجنة القدس ذات الاختصاص المباشر لهذه القضية، ثم في المطلب الثالث نقدم نموذجا لأسلوب العمل السائد بين أجهزة المنظمة المذكورة، والذي يمثل المحدد أو العامل الرئيسي الضابط لدرجة تلك الفعالية.

* * *

المطلب الأول

فعالية الأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي في معالجة قضية القدس

يتم قياس فعالية هذه الأجهزة من خلال توظيف أو تطبيق الأداتين التحليليتين التاليتين:

١ ـ **أداة «دراسة السلوك اللاحق»** ؛ فبها يتم الوقوف على مدى التزام منظمة المؤتمر الإسلامي ـ في سلوكها اللاحق ـ بموقفها الثابت والمعلن بميثاقها، بشأن قضية القدس تحديدًا. وذلك من خلال بيان مدى توافق هذه المقررات ـ إصدارًا وتنفيذًا ـ مع الموقف المعلن ـ بداية ـ من جانب المنظمة، بشأن القضية محل الدراسة.

٢ ـ **أداة قياس الفعالية وفق معيار «مدى بلوغ أو تحقق الأهداف المنشودة»** من جانب منظمة المؤتمر الإسلامي، بشأن قضية القدس: هل تحققت كلها أو بعضها، أم لم يتحقق شيء. وعندئذ تجب الإشارة إلى ما وراء ذلك.

أولًا: دراسة «السلوك اللاحق» للأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي بشأن قضية القدس

حسب هذه الأداة التحليلية ـ دراسة السلوك اللاحق ـ فإن سلوك، الأجهزة الرئيسية لمنظمة المؤتمر الإسلامي بشأن قضية القدس يعد سلوكا متوافقا نظريا مع الالتزام / الموقف المعلن مسبقًا، من جانب منظمة المؤتمر الإسلامي في هذا الشأن، غير أن هذا السلوك لم يكن متوافقا ميدانيا مع الالتزام / الموقف نفسه.

لعل هذا التوافق النظري ـ على كونه نسبيًا أو غير تام ـ يتمثل فيما صدر عن تلك الأجهزة الرئيسية من قرارات وتوصيات تؤكد مسؤولية العالم الإسلامي إزاء قضية القدس، وتؤكد مركزية هذه القضية بين الاهتمامات المتعددة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وأن العالم الإسلامي لا يقبل بتدويل القدس، ولا يقبل حلا لهذه القضية بغير عودة السيادة العربية الإسلامية عليها، واتخاذها عاصمة لدولة فلسطين، مع حماية المقدسات الإسلامية بها، واستنكار كل ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي، التي تستهدف طمس هوية المدينة العربية الإسلامية المقدسة، واتخاذها عاصمة لدولة إسرائيل، والتهديد بإجراءات حاسمة ـ تتمثل فى قطع العلاقات الدبلوماسية ـ تجاه أي دولة تقر إسرائيل على هذه الممارسات العدوانية، وهو ما تم بالفعل من جانب كل دول المنظمة، مع دولتي كوستاريكا والسلفادور.

لقد أسهم هذا التوافق النظري بين السلوك اللاحق للأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي، وبين الموقف المعلن والثابت لمنظمة المؤتمر الإسلامي إزاء قضية القدس، في تأكيد المرجعية الإسلامية (عقائديًا وسياسيًا) التي تكرس التزام العالم الإسلامي المتواصل تجاه القضية المذكورة بقطع النظر عن إمكانية تنفيذ هذا الالتزام في الوقت الراهن؟

بدوره، أسهم تأكيد هذه المرجعية، في حفظ المركز القانوني الدولي لمدينة القدس، وردع أي انتهاك له من جانب أي دولة صديقة لإسرائيل.

بقيت نقطة (نسبية أو عدم تمام) هذا التوافق النظري؛ إذ إنه ينصب على شرق القدس فحسب، وهو ما تطالب منظمة المؤتمر الإسلامي بعودته منذ بدء تحركها، غاضةً بصرها عن غرب المدينة، برغم كونه حتى الآن، فى المرجعية القانونية الدولية، أرضا عربية محتلة من جانب السلطات الإسرائيلية.

لا شك أن صمت الأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي عن المطالبة بهذا الحق في الشطر الغربي من القدس، يعد نقطة سلبية في موقفها تجاه قضية القدس، يجب تداركها، خاصة مع تنامي الاهتمام الفلسطيني بهذا الجزء من الأرض، وحرص الفلسطينيين الملموس على توثيق هذا الحق، قانونيا وسياسيا وتاريخيا وعقائديا [١٦].

أما على الصعيد الميداني، فلم يكن السلوك اللاحق للأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي متوافقا مع الموقف الثابت والمعلن للمنظمة المذكورة بشأن قضية القدس؛ إذ لم تلتزم هذه الأجهزة بـ (العمل على محو التفرقة العنصرية والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله). ولم تلتزم بـ (تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أرضه) ولم تلتزم بـ (اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل) [١٧] بل لم تعمل المنظمة على تطبيق قراراتها وتوصياتها الصادرة في إطار الموقف المعلن والثابت لها بشأن قضية القدس.

ثانيًا: فعالية الأجهزة الرئيسية وفق معيار (بلوغ الأهداف)

إن التداخل الواضح بين الالتزامات المعلنة عن منظمة المؤتمر الإسلامي تجاه القدس، وبين الأهداف التي أخذت

هذه المنظمة على عاتقها مسؤولية تحقيقها بشأن القدس، هذا التداخل يؤكد تكامل أداتي قياس الفعالية المستخدمتين في هذه الدراسة.

بقياس الفعالية وفق معيار بلوغ / تحقق الأهداف يتبين ـ أيضًا ـ أن منظمة المؤتمر الإسلامي أخفقت بدرجة كبيرة في تحقيق أهدافها بشأن قضية القدس، حيث:

ـ لا تزال القدس محتلة، ولا يزال شعبها غير محرر.

ـ لا تزال المقدسات الإسلامية بها منتهكة غير مصونة.

ـ لم يتم القضاء على الاستعمار الإسرائيلي في القدس.

ـ لا يزال أبناء مدينة القدس يعانون التفرقة العنصرية، في أسوأ صورها.

ـ لم يتم اتخاذ أي إجراء (عملي) من جانب الأجهزة الرئيسية بمنظمة المؤتمر الإسلامي يدعم السلم والأمن في هذه المنطقة، الأمر الذي يعني ضعف فعالية المنظمة؛ لإخفاقها في بلوغ/ تحقيق أهدافها.

يمكن التعبير بيانيا عن هذه الحقائق، وفق أداتي التحليل والقياس المذكورتين:

ـ دراسة السلوك اللاحق.

ـ معيار تحقق الأهداف.

وفق أداة (دراسة السلوك اللاحق) يمكن القول بأن حدود فعالية الأجهزة الرئيسية، بمنظمة المؤتمر الإسلامي، بشأن قضية القدس، لا تتجاوز نسبة ٢٥٪.

ذلك، على فرض أن درجة التوافق المثلى بين السلوك اللاحق والالتزام / الموقف المعلن هي ١٠٠٪، وأن لكل من شقي هذا التوافق (نظريا ـ ميدانيا) نسبة ٥٠٪.

تترادف وتتواتر الأدلة، السابق عرضها تفصيلا، على تخلف (انعدام) الشق الميداني من التوافق المذكور؛ إذ (لم تعمل) المنظمة وفق ما التزمت به مسبقا، وإنما (تكلمت) فحسب وفق ذلك الالتزام.

إذن، بتخلف هذا التوافق ميدانيا (عمليا) تسقط نسبة ٥٠٪ وتبقى النسبة الخاصة بالتوافق النظري (الكلامي). وحيث إن هذا الأخير ينصب على شطر القدس الشرقي فحسب ؛ إذ لم تتحدث مقررات الأجهزة الرئيسية لمنظمة المؤتمر الإسلامي عن ضرورة عودة الشطر الغربي من المدينة، يسقط شطر هذه النسبة أيضًا، أي تبقى نسبة ٢٥٪ فقط، وهي الخاصة بـ (كلام) الأجهزة المذكورة عن الشطر الشرقي من المدينة، أي ما احتُل منها عام ١٩٦٧، وهو الذي لا تتحدث المنظمة إلا عنه.

كذلك، وفق معيار (تحقق الأهداف)، يلاحظ ـ في ضوء ما سبق بيانه ـ أن الأجهزة الرئيسية لمنظمة المؤتمر الإسلامي لم تحقق شيئا إيجابيا كان مستهدفا، ولم تَحُلْ دون وقوع شيء سلبي، من جانب سلطات الاحتلال الإسرائيلي، ينال من هوية المدينة المقدسة: جغرافيا، سكانيا، ثقافيا.

المطلب الثاني

فعالية لجنة القدس

بينما لم يزدد وضع مدينة القدس ـ على مدى الأعوام الأربعين الماضية ـ إلا سوءًا وتدهورًا: مصادرةً واستيطانًا وطردًا وتدميرًا وطمسًا للهوية.....إلخ، فإن لجنة القدس لم تكتف بألا تفعل شيئًا إيجابيًّا ملموسًا، (يحفظ) القدس عربيةً / إسلامية، بل أسهمت في إضاعة القدس.

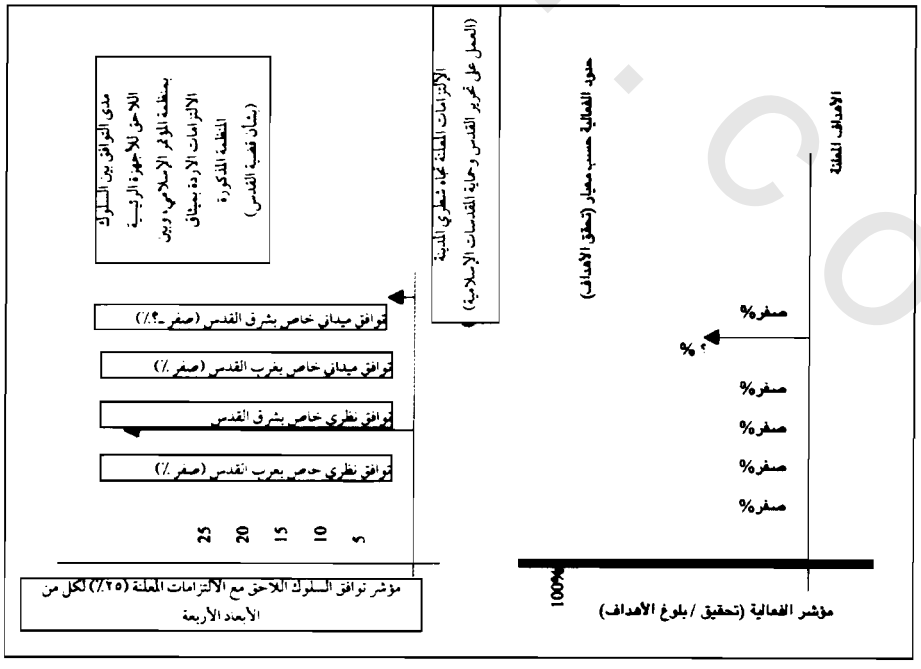
الصفحات التالية تحقق في هذه الفرضية . بالإجابة عن السؤالين البحثيين التاليين:

١ ـ إلى أي مدى جاء «السلوك اللاحق» للجنة القدس متوافقًا مع التزام منظمة المؤتمر الإسلامي، والتزام لجنة القدس إزاء قضية القدس؟

٢ ـ ما مدى فعالية لجنة القدس وفق معيار «تحقق / بلوغ الأهداف» ؟

أولًا: دراسة « السلوك اللاحق» للجنة القدس

بتتبع دور أو جهود لجنة القدس فى سبيل تحقيق الأهداف أو المهام المنوطة بها يتضح أنه ليس هناك أكثر من بيانات الإدانة والشجب والاستنكار والدعوة والحث والمطالبة، والتوصية بإنشاء أجهزة فرعية أخرى[٨]، تكون ـ فى الغالب ـ أكثر ضعفًا، أو أضعف فعاليةً، بمعنى أنه لو حاول الباحث أن يلتمس (إنجازًا) يمكن أن يُسند إلى هذه اللجنة، فلن يجد غير (الكلام)، الذي لم يترجم قط إلى إجراءات عملية أو ميدانية، بينما هذه الأخيرة، هي ما يبرر وجود لجنة القدس، فرعا على منظمة المؤتمر الإسلامي، نيط به هذا النوع من الجهد أو الدور، أو كان هذا الدور الإجرائي الميداني هو الـمُنْتَج أو الـمُخْرَج، المتوقع صدوره عن هذا الجهاز الفرعي للمنظمة، ذي الصلة المباشرة بقضية القدس.



بتطبيق أداة التحليل «دراسة السلوك اللاحق» لمتابعة أداء لجنة القدس، يتضح أنه أداءٌ (سلوك) غير متوافق مع الالتزام / الموقف المعلن لمنظمة المؤتمر الإسلامي تجاه قضية القدس، والذي تعمل في إطاره لجنة القدس، فرعا عن المنظمة الأم، وغير متوافق ـ أيضا ـ مع الالتزام المعلن أو (التكليفات المنوطة) بلجنة القدس.

يتمثل التزام / موقف منظمة المؤتمر الإسلامي في (تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها، ودعم كفاح الشعب الفلسطيني ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أرضه). هذا الالتزام تجاه فلسطين وشعبها ومقدساتها. وهناك التزام آخر للمنظمة يشمل فلسطين وشعبها وكل بلاد و شعوب العالم الإسلامي، وهو (العمل على محو التفرقة العنصرية، والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله) و (اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلم والأمن الدوليين القائمين على العدل)[١٩].

ويتمثل التزام لجنة القدس في[٢٠] (متابعة تنفيذ القرارات التي اتخذها ويتخذها المؤتمر الإسلامي، ومتابعة قرارات الهيئات الدولية الأخرى، التي تؤيد قرارات المؤتمر أو تتمشى معه، والاتصال مع أية هيئات أخرى، واقتراح ما تراه مناسبا على الأعضاء لتنفيذ المقررات وتحقيق أهدافها، واتخاذ ما تراه من إجراءات تجاه المواقف التي تستجد ضمن حدود هذه الصلاحيات، ووضع وتنفيذ برنامج سياسي وإعلامي خارج العالم الإسلامي، يسهم في إنجاز مهام اللجنة وإعادة مدينة القدس إلى السيادة العربية الإسلامية).

كما سبق، جاء سلوك منظمة المؤتمر الإسلامي ـ من خلال أجهزتها الرئيسية، خاصة مؤتمر ملوك ورؤساء الدول الإسلامية ـ متوافقًا، توافقًا نظريا فحسب، مع التزام هذه المنظمة تجاه قضية القدس. ومع ذلك يمكن اعتبار هذا التوافق النسبي إنجازًا يحسب لتلك الأجهزة الرئيسية في المنظمة؛ فالمنظمة لها مرجعية عقائدية وسياسية، تعمل في إطارها، ومطلوب من أجهزتها الرئيسية أن تؤكد ـ تباعا ـ ما تمليه عليها هذه المرجعية، إزاء القضايا التي تعالجها هذه المنظمة، أي الموقف العقائدي والسياسي الثابت للمنظمة المذكورة، من هذه القضايا.

أما لجنة القدس، كجهاز فرعي، فقد كان منوطًا به جملة من المهام الإجرائية، دون أن يوجه جزءًا من جهده للتأكيد على المرجعية المذكورة ؛ باعتبارها من المسلمات المعلومة ـ بالنسبة لهذا الجهاز ولمن يراقبون أداءه ـ عن المنظمة الأم، التي يتفرع عنها هذا الجهاز.

وبالتالي، فإن ذلك الجهد، أو تلك المساحة الكبيرة من الوقت والجهد، التي بذلتها لجنة القدس، في تأكيد المرجعية المذكورة، لا يمكن أن يعد أو يعتبر إنجازا يسند إلى هذه اللجنة، بل ـ على العكس ـ يصح القول بأن هذه اللجنة تشاغلت بذلك عن دورها الميداني / الإجرائي الأساسي، خاصة أنها لم تقف عند حد الحديث عن هذه المرجعية فيما يخص قضية القدس، بل إنها راحت تتحدث عما لا يعنيها (إقامة الدولة الفلسطينية وتحرير بقية الأراضي العربية المحتلة الأخرى، وفي مقدمتها الجولان وجنوب لبنان!) وظلت لجنة القدس تردد الكلام نفسه. والمواقف الثابتة ذاتها، دون أن تسعى إلى تفعيل أي من هذه المواقف[٢١].

كذلك فعلت لجنة القمة الثلاثية، التي انبثقت عن لجنة القدس في دورتها الطارئة (الرباط ـ أغسطس ١٩٨٠) بمناسبة إعلان إسرائيل قانونها الأساسي بضم مدينة القدس واتخاذها عاصمة لها (١٩٨٠)، إذ عندما اجتمعت لجنة القمة الثلاثية هذه في الرباط (٧/ ١١/ ١٩٨٠) كان متوقعا أنها ستأتي بجديد يناسب ما أقدمت عليه إسرائيل بضمها

مدينة القدس، لكنها لم تفعل، إذ جاء في بيانها الختامي أنها «أقرت خطة للتحرك السياسي (تؤكد) المواقف الإسلامية السياسية بخصوص القدس وقضية فلسطين [٢٢].

على المستوى الميداني ـ حيث الاختصاص الأساسي للجنة القدس ـ لم يشر أي من البيانات الختامية الصادرة عن دورات انعقاد هذه اللجنة إلى أنها أدت التكليفات المنوطة بها، في الوقت الذى أتخمت فيه تلك البيانات بالحديث عن جهود أخرى عديدة، غير ذات صلة مباشرة بقضية القدس، أو غير ذات جدوى ميدانية ؛ إذ إنها جهود (كلامية).

فهذه البيانات لم تسجل أن اللجنة تابعت تنفيذ هذا أو ذاك من قرارات المؤتمر الإسلامي، أو أي محفل دولي مهتم بقضية القدس، ولم تسجل أن اللجنة اقترحت إجراءً ميدانيًا لتنفيذ أي من تلك المقررات، ولم تسجل أنها اتخذت إجراءات ميدانية تجاه مستجدات الأحداث في القدس، ولم تسجل أنها نفذت برامج سياسية وإعلامية لصالح قضية القدس خارج العالم الإسلامي، بينما كانت هذه هي التكليفات المنوطة بلجنة القدس، وفق قرار إنشائها.

والتساؤل الآن: ما جدوى أن تظل لجنة القدس، على مدى أربعين عاما تقريبًا، تؤدي دورا يتمثل في :

١ ـ إدانة واستنكار الممارسات الإسرائيلية في القدس.

٢ ـ الإعراب عن القلق و (الاستغراب) تجاه الدعم الأمريكي لإسرائيل.

٣ ـ دعوة الدول الإسلامية لتقديم الدعم والتمويل.

٤ ـ مطالبة دول العالم باتخاذ موقف داعم للحق العربي الإسلامي في القدس.

٥ ـ الاتصال بحاضرة الفاتيكان لطلب دعمها والتنسيق بين موقفيهما.

٦ ـ مطالبة مؤتمر القمة الإسلامية، ومؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بوضع الخطط والبرامج والإستراتيجيات الشاملة لإنقاذ القدس.

إن تحليل مضمون الخطاب الافتتاحي لرئيس لجنة القدس ـ الملك الحسن الثاني ملك المغرب الراحل ـ أمام الدورة الرابعة لهذه اللجنة، وكذا البيان الختامي الصادر عن تلك الدورة (الرباط ـ ديسمبر ١٩٨٠) يكشف عن أن هذه اللجنة سلكت ـ مبكرا ـ التحرك خارج حدود دائرة اختصاصها، والتحدث عما لا يعنيها، وذلك يعد قرينةً على نية اللجنة عدم التحرك الجاد، المثمر، لحل قضية القدس.

فهل كانت مهمة هذه اللجنة هي (وضع برنامج أو خطة شاملة لاستعادة جميع الأراضي العربية المحتلة، وجميع الأراضي الفلسطينية المحتلة، وإعادة جميع الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني، وإقامة الدولة الفلسطينية) كما ورد في الكلمة الافتتاحية، والبيان الختامي المشار إليهما في الفقرة السابقة ؟! ثم لماذا لم يشر هذا البيان الختامي إلى ملامح وأهم بنود ذلك (البرنامج أو الخطة الشاملة....) كما نص ـ تفصيلا ـ البيان الختامي الصادر عن الدورة الأولى للجنة القدس على بنود الخطة الإعلامية المعلن عنها آنذاك ! الأمر الذي يفهم منه أنه ليس هناك برنامج من الأساس، وأنه ليس بإمكان اللجنة التي نسيت هدفها الأساسى، أو قفزت عليه إلى أهداف هلامية فضفاضة أخرى، أن تضع برنامجا يحقق هذا الهدف.

لجنة القدس ومفاوضات الوضع النهائي لمدينة القدس

بعد أن خاض الفلسطينيون معركتهم التفاوضية بنزاهة وشرف في محادثات كامب ديفيد ٢ (يوليو ٢٠٠٠). و أبَوْا التخلي عن القدس والمسجد الأقصى، وتصدوا للضغوط (الأمريكية الإسرائيلية) التي تستهدف المدينة المقدسة، جاء اجتماع لجنة القدس، في دورتها الثامنة عشرة (٢٨/ ٨/ ٢٠٠٠)، في تحرك لاحق، لتجتر في بيانها الختامي ما قاتل من أجله الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، في مواجهة الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك، في كامب ديفيد.

هذا، بينما كان من المفترض ـ بداية ـ ألا يذهب عرفات إلى كامب ديفيد إلا بخطاب أو وثيقة تأييد عربية إسلامية، ومدعوما بموقف مُبادر للأحداث، لا ليخفف عن عرفات عبء المواجهة فحسب، بل ليدعمه تفاوضيا. لكن عرفات ذهب وحده إلى تلك المواجهة، (ليقاتل هو وربه) بينما الأشقاء العرب والمسلمون (ها هنا قاعدون).

لقد تكررت نداءات عرفات، ومطالباته بمثل ذلك الموقف الإسلامي المبادر، ليذهب مدعوما به إلى كامب ديفيد، ولم يجبه أحد. وبعد انتهاء المعركة، جاءت بيانات التأييد والمباركة وتأكيد الثوابت من جانب الأشقاء[٢٣].

وبينما يترقب الطرف الآخر ـ الصهيوني (الأمريكي/ الإسرائيلي) ـ أعمال وتوصيات لجنة القدس، نجد هذه اللجنة آخذةً في التواري والانسحاب التدريجي من المواجهة، ثم التخلي عن الدور.

يذكر أن مساعد وزير الخارجية الأمريكي (إدوارد ووكر) دعا ـ إبان انعقاد الدورة الثامنة عشرة للجنة القدس، في أغسطس ٢٠٠٠ ـ إلى التحلي بضبط النفس، وقال «إننا نأمل بألا تقوم لجنة القدس بأي تحرك يعرقل المفاوضات الجارية». في الوقت نفسه تخلف وزير الخارجية المصرى (عمرو موسى) عن حضور اجتماعات تلك الدورة، وذهب عنه وزير التعليم العالى (د. مفيد شهاب) [٢٤] وتردد أن ذلك جاء بعد أن طالبت واشنطن القاهرة بالقيام بجهود مكثفة لإلغاء ما أسمته (طابع الحدة) في القرارات المتوقعة من لجنة القدس[٢٥].

ثم تغيب عن اجتماعات الدورة التاسعة عشرة للجنة القدس (٢٥ يناير ٢٠٠٢) كل وزراء الخارجية الأعضاء باللجنة، باستثناء فاروق قدومي وزير خارجية فلسطين، ولم يتمكن الرئيس الفلسطيني عرفات من الحضور بسبب حصاره في رام الله [٢٦].

وبينما كانت خريطة الطريق في صدارة القضايا المطروحة على القمة العربية / الأمريكية، التي دعت إليها مصر في شرم الشيخ (٣/ ٦/ ٢٠٠٣) أعلن عشية انعقاد تلك القمة أن الدولة الداعية إليها وجهت الدعوة إلى الملك محمد السادس، ملك المغرب، للحضور بصفته رئيس لجنة القدس، غير أن وزير خارجية المغرب لم يحضر الاجتماعات التحضيرية التي عقدها وزراء خارجية الدول المشاركة في تلك القمة، وتردد أن الملك محمد السادس سيرسل مسؤولا مغربيا نائبا عنه، قيل إنه شقيقه مولاي رشيد، لكن هذه الفكرة لم تلق قبولًا، وتغيبت المغرب / الملك محمد السادس رئيس لجنة القدس عن تلك القمة [٢٧].

الخلاصة:

أولًا: وفق أداة (دراسة السلوك اللاحق) يمكن القول بأن حدود فعالية لجنة القدس لم تتجاوز الصفر٪ إلا بقليل.

ذلك، على فرض أن درجة التوافق المثلى بين السلوك اللاحق والالتزام المعلن هي ١٠٠٪، وأن لكل من شقي هذا التوافق (نظريا ـ ميدانيا) نسبة ٥٠٪.

تترادف الأدلة ـ السابق عرضها تفصيلا ـ على تخلف أو (انعدام) الشق الميداني من التوافق المذكور؛ إذ لم (تعمل) اللجنة وفق ما التزمت به أو كلفت به، وإنما (تكلمت) فحسب.

بتخلف هذا التوافق ميدانيا (عمليا) تسقط نسبة ٥٠٪. وتبقى النسبة الخاصة بالتوافق نظريا (كلاميا). وحيث إن الأخير انصب على شطر القدس فحسب، إذ لم تتحدث مقررات اللجنة ـ مطلقا ـ عن الشطر الغربي من مدينة القدس، يسقط ـ إذن ـ شطر هذه النسبة أيضا. أي تبقى نسبة ٢٥٪ فقط، وهي الخاصة بـ (كلام) اللجنة عن الشطر الشرقي من المدينة. وحيث إنه لم يكن من مهام اللجنة أن (تتكلم) وإنما كان عليها أن (تعمل ميدانيا وإجرائيا) ـ حيث إن (الكلام) أو تأكيد المرجعية للحق الإسلامي فى القدس تتولاه الأجهزة الأعلى بالمنظمة ـ فإني أراها ـ لجنة القدس ـ غير جديرة بهذه النسبة أيضًا، بل إن ذلك يملي مساءلتها، حيث تشاغلت، بل أسرفت في التشاغل بـ (الكلام) عن العمل.

ثانيًا: فعالية لجنة القدس وفق معيار «تحقق / بلوغ الأهداف»

نيط بهذه اللجنة ـ منذ إنشائها بقرار مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية السادس في يوليو ١٩٧٥ ـ عدة مهام تتمحور حول تفعيل المقررات الصادرة عن المحافل العربية والإسلامية المختلفة، والخاصة بقضية القدس، ووضع الخطط والبرامج التفصيلية لترجمة تلك المقررات إلى فعاليات ميدانية تحفظ الهوية العربية الإسلامية لمدينة القدس، وتسهم في إعادتها إلى السيادة العربية الإسلامية .

وحيث لم تقم اللجنة المذكورة بـ (عمل ميداني إجرائي) كما كان منوطًا بها، فإن المحصلة أو النتيجة هي عدم تحقق أهداف منظمة المؤتمر الإسلامي بشأن قضية القدس، تلك الأهداف التي كانت مرجوة من وراء (العمل الميداني الإجرائي) الذي نيط باللجنة المذكورة.

فبعد مرور خمسة وثلاثين عاما تقريبًا على إنشاء لجنة القدس لا تزال القدس محتلة، ولا يزال شعبها غير محرر، ويعاني أسوأ أشكال التفرقة العنصرية، ولا تزال المقدسات الإسلامية بها منتهكة غير مصونة، ولم يتم اتخاذ أي إجراء عملي يدعم السلام والأمن في هذه المنطقة... بينما كان كل ذلك مستهدفا (أهدافًا معلنة) يوم أنشئت منظمة المؤتمر الإسلامي، ثم كلفت بالعمل من أجله لجنة القدس.. فرعا عن المنظمة الأم.

إذن، وفق معيار (تحقق الأهداف) يلاحظ ـ في ضوء ما سبق بيانه في متن الرسالة ـ أن لجنة القدس لم تحقق شيئا إيجابيا كان مستهدفا، ولم تَحُلْ دون وقوع شيء سلبي، من جانب سلطات الاحتلال الإسرائيلي، ينال من هوية المدينة المقدسة: جغرافيا، سكانيا، ثقافيا.

المطلب الثالث

أسلوب عمل أجهزة منظمة المؤتمر الإسلامي بشأن قضية القدس

هذه صورة تفصيلية ـ كنموذج فحسب ـ لأسلوب (**الدوران في حلقة مفرغة**) أو (**التواكل المتبادل**) الذي تتبعه أجهزة منظمة المؤتمر الإسلامي في التحرك بشأن قضية القدس.

تم تجميع أبعاد هذه الصورة من مقررات الأجهزة المذكورة [٢٨]، إبان واحد من أدق منعطفات قضية القدس، أي إبان إصدار إسرائيل ما سمي لديها بـ (القانون الأساسي) بشأن القدس ١٩٨٠، والذي أعلن عشية انعقاد مـؤتمر وزراء الخـارجية الإسلامي الحادي عشر (إسلام آباد ـ مايو ١٩٨٠).

فماذا تم، أو كان، من جانب الأجهزة المختلفة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، آنذاك ؟

ـ قرر مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامية، في دورته الحادية عشرة الآتية: «... يطلب المؤتمر من الأمانة العامة تسخير كافة إمكانياتها وطاقاتها لمعاونة لجنة القدس في أدائها لمهامها».

ـ عقدت لجنة القدس دورتها الثالثة ـ وُصفت بدورة طارئة ـ في الدار البيضاء في شهر أغسطس ١٩٨٠. وقررت:

* التوصية بعقد دورة طارئة لمؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي، في المغرب ـ فاس سبتمبر ١٩٨٠.



* تشكيل لجنة قمة ثلاثية تنبثق عن لجنة القدس، للقيام بما تراه من اتصالات لدعم قضية القدس.

انعقدت الدورة الطارئة لمؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي.

وتم تشكيل لجنة القمة الثلاثية.

فماذا فعلا ؟

ـ قرر مؤتمر وزراء الخارجية: تكليف لجنة القدس بإعداد مخطط شامل يتناول تهيئة كافة إمكانيات الدول الإسلامية، لمجابهة العدوان الإسرائيلي، وتقديم هذا المخطط إلى مؤتمر القمة الإسلامية القادم.

ـ عقدت لجنة القمة الثلاثية اجتماعا في الرباط نوفمبر ١٩٨٠، جاء في بيانه الختامي:

«أقرت اللجنة خطة للتحرك السياسي تؤكد المواقف الإسلامية الأساسية بخصوص القدس وقضية فلسطين» و «العمل على زيادة تفهم الدول الكبرى والرأي العام العالمي لعدالة المواقف الإسلامية الأساسية»، وأنه «سيتم خلال الاجتماع المقبل للجنة القدس في ديسمبر ١٩٨٠، والذي سيشارك فيه أعضاء لجنة القمة، بحث الإستراتيجية الشاملة لمجابهة التحرك الإسرائيلي، وإعداد برنامج عمل شامل يعرض على مؤتمر القمة الإسلامية القادم المزمع عقده بالمملكة السعودية، للمصادقة عليه».

ـ انعقدت لجنة القدس في دورتها الرابعة (الرباط ـ ديسمبر ١٩٨٠)، وفي خطابه الافتتاحي، أعلن الملك الحسن الثاني أنها ستضع خطة شاملة تحقق الأهداف الثلاثة التالية:

ـ تحرير القدس الشريف.

ـ الإعانة على تحرير الأراضي العربية المحتلة.

ـ قيام الدولة العربية الفلسطينية.

ثم جاء في البيان الختامي لتلك الدورة أن اللجنة «أقرت برنامج عمل إسلامي شامل لمواجهة التحدي الإسرائيلي، ولتحرير القدس الشريف، واستعادة الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة، وتحقيق جميع الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني، سيتم رفعه إلى مؤتمر القمة الإسلامي القادم، للمصادقة عليه».

ـ صادقت القمة الإسلامية الثالثة (الطائف / يناير ١٩٨١) في قرارها [١ / ٣ ـ س (ق أ)] على البرنامج المذكور، والذي **كان بمثابة (فأر) تمخضت عنه جملة هذه الجبال**، أي (مؤتمر ملوك ورؤساء الدول الإسلامية ـ مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ لجنة القمة الثلاثية ـ لجنة القدس)؛ إذ لم يتضمن ذلك البرنامج غير عدة توصيات سبق تقريرها / تكريرها، **ولم ير أي منها النور حتى اليوم**.

* * *

الخاتمة:

تتناول النتائج و التوصيات، كما يلى :

١ ـ النتائج

بينما تجب مساءلة منظمة المؤتمر الإسلامي عن تقصيرها، أو ضعف دورها وهامشيته بشأن قضية القدس، فالمساءلة يجب أن تتضاعف بالنسبة للجنة القدس، إذ إنها الجهاز الذي نيط به هذه القضية تحديدًا، لكنها ـ اللجنة ـ كانت أشد تراخيًا وتقصيرًا من المنظمة الأم، ولم تنجز شيئًا في هذا الشأن، بل أسهمت في قتل قضية القدس، ببياناتها الهزيلة، التي كانت تصدر عن اجتماعاتها المنعقدة عرضًا، بغير دورية منتظمة، وعلى فترات متباعدة، ولم تكن تلك البيانات ـ إلى جانب إنشائيتها وخطابيتها ـ تأتي بجديد غير ما تكرر قوله تباعًا، في بيانات اجتماعات وزراء الخارجية أو اجتماعات القمة.

بل إن تلك اللجنة كانت تتناسى ـ أحيانًا ـ أن لها مهمة محددة، وقضية بعينها، يجب أن تكثف جهودها من أجلها، ثم تذهب مذاهب شتى متشاغلة بقضايا أخرى، فتتحدث في بياناتها عن الجولان وجنوب لبنان وعموم قضية الشرق الأوسط، بالقدر أو (الاهتمام) نفسه الذي تتحدث به عن قضية القدس.

وهذه بإيجاز شديد، أبرز المؤشرات الدالة على **غياب دور ملموس لمنظمة المؤتمر الإسلامي ولجنة القدس بشأن قضية القدس**:

١ ـ **دليل كمي**، إذ أصبحت قضية القدس تعالج (يشار إليها) في بند (واحد) ضمن (عشرات تصل إلى المائتين) بندا يضمها البيان الختامي للقمة الإسلامية.

٢ ـ **دليل كيفي**، إذ لا تزيد مضامين البيانات المتلاحقة الصادرة عن دورات القمة ولجنة القدس على تسجيل موقف سابق للمنظمة (هو الإدانة والمناشدة) سبق إعلانه، في دورة أسبق، وهكذا، تباعًا.

٣ ـ **دليل استنتاجي**، فإذا كان مؤتمر القمة الإسلامي ولجنة القدس يهبطان إلى مستوى الحديث في بياناتهما الختامية عن إصدار طابع بريد، يعود ريعه إلى صندوق القدس، ويعدان ذلك (إنجازًا) كان الأولى بهما أن يتحدثا عن (كبريات) الإنجازات ـ لو أن هناك إنجازات ـ بشأن قضية القدس، ويسجلا ذلك فى بياناتهما، من باب تسجيل الإنجازات أو الاعتزاز بها...

كان الأولى بهما أن يسجلا ـ على سبيل المثال ـ في بياناتهما:

ـ أنهما تمكنا من منع مصادرة أراضي القدس، أو على الأقل تمكنا من خفض معدلها.

ـ أنهما تمكنا من إيقاف الهجرة اليهودية، أو على الأقل خفض معدلها.

ـ أنهما تمكنا من مواجهة عمليات التهويد، أو على الأقل خفض معدلها.

ـ أنهما تمكنا من مواجهة عمليات الاستيطان أو تعطيل بعض مراحله. وهكذا ... إلخ.

لكنهما ـ مؤتمر القمة الإسلامية ولجنة القدس ـ لم يسجلا شيئًا من ذلك في بياناتهما؛ لأنهما لم يفعلا شيئًا من الأساس.

٤ ـ **دليل وثائقي تحليلي**: إذ تبين أن المواقف التي تزعم منظمة المؤتمر الإسلامي تبنيها بشأن قضية القدس ليست أكثر من مسايرة أو مجاراة أو (ركوب موجة) المواقف المعلنة عن محافل دولية أخرى، ليست أوثق صلة بالقضية من منظمة المؤتمر الإسلامي، مثل الأمم المتحدة. ولا تمثل مواقف المنظمة الإسلامية مبادرات متميزة، ولم تطالب بأكثر مما طالبت الأممُ المتحدة به لصالح هذه القضية، بل إن سقف مطالب منظمة المؤتمر الإسلامي يكون ـ أحيانًا ـ أقل مما تقرره الشرعية الدولية!

٥ ـ **دليل ميداني**: إذ إن الشواهد الناطقة على أرض الواقع تشهد بأنه تم اغتيال مدينة القدس، وأن حالها لم يزدد إلا سوءًا منذ إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي حتى اليوم.

٢ ـ التوصيات

ينصب غالب هذه التوصيات على الجانبين التنظيمي والقانوني اللذين يمكن التحكم في معطياتهما، وتنفيذ التوصيات فيهما، كإصلاحات ممكنة .

والقليل من هذه التوصيات يتعلق بالجانب السياسي الذي يقلل من جدوى التوصية فيه عاملان رئيسيان هما:

ـ غياب الإرادة السياسية لدى قادة الدول الإسلامية.

ـ غلبة توجهات السيادة الوطنية والمصالح القطرية على الشأن أو الصالح الإسلامي العام.

أهم التوصيات على الجانب التنظيمي والقانوني

١ ـ توصي الدراسة **بسحب رئاسة لجنة القدس من دولة المغرب** لثبوت عدم أهلية هذه الدولة لرئاسة اللجنة، ولعدم تفعيلها دور اللجنة المذكورة على مدى خمسة وثلاثين عامًا تقريبًا. وتوصي الدراسة بأن تسند رئاسة اللجنة إلى الطرف الإسلامي المباشر في قضية القدس، وهو دولة فلسطين، التي يمثل شعبها طليعة الأمة في المواجهة مع الطرف الصهيوني، ثم إنها دولة الإقليم الذي تقع به المدينة المقدسة.

٢ ـ توصي الدراسة **بحل لجنة القدس القائمة حاليًّا. وبأن تحال إلى المساءلة القانونية** أمام الجهاز الأعلى بالمنظمة ـ مؤتمر القمة ـ لتقصيرها الجلي في حق قضية القدس.

٣ ـ توصي الدراسة **بإسناد رئاسة لجنة القدس إلى مستوى أقل من القمة**، بحيث تكون محلًّا للمراجعة والمساءلة الآنية، من جانب مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ الذي ينعقد سنويًّا ـ فربما كانت رئاسة اللجنة على المستوى الحالي ـ ملك أو رئيس دولة ـ حائلًا دون مساءلتها أو مراجعتها من جانب مؤتمر القمة، بحكم غلبة المجاملة السياسية بين الملوك والرؤساء.

كما أن سحب رياستها من مستوى القمة، وإسنادها إلى مستوى أقل ـ وزاري ـ يزيد من معدل متابعة نشاطها، سنويا على الأقل، مع الانعقاد الدوري لمؤتمر وزراء الخارجية الإسلامية، بدلا من الانتظار ثلاث سنوات؛ إذ إن مستوى رياستها الحالي ـ رئيس دولة ـ يمل الانتظار تلك السنوات حتى تنعقد القمة الإسلامية، ويعرض عليها رئيس اللجنة تقريره، الأمر الذي يضعف من جدوى النظر في تلك الأنشطة تقييما ومساءلة .

٤ ـ توصي الدراسة **بأن تكون اجتماعات اللجنة دورية**، ليست عرضًا كما هي الحال الآن، وعلى فترات قريبة، ترفع

معدل الملاحقة الميدانية والمتابعة من جانب اللجنة، لما يقع من ممارسات يومية من جانب الطرف الصهيوني ـ إسرائيل ـ في حق المدينة المقدسة، وبما يسرع أو يعجل باقتراح وتنفيذ خطط المواجهة.

٧ ـ توصي الدراسة بأن **ينشأ نظام رقابة ومتابعة لأعمال اللجنة**، يغلب عليه الطابع الشعبي والديني، الممثل لضمير العالم الإسلامي إزاء هذه القضية، ويتم التمثيل فيه على الهيئة التالية:

ـ دينيا (الأزهر والمجامع الفقهية بدول العالم الإسلامي).

ـ برلمانيا (اتحاد برلمانات الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي).

ـ أهليًّا (مراكز البحوث، واللجان المعنية بقضية القدس، والتي لا تخلو منها منظمة إسلامية شعبية، بحيث يتم التنسيق وتتكامل الأدوار بين كل هذه اللجان)، في اتجاه خدمة قضية القدس.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) د.أحمد يوسف القرعي، القدس على أجندة القمة الإسلامية، **الأهرام**، (القاهرة)، ١٣/ ٣/ ٢٠٠٨.

و: _____، خطورة تأجيل قضية القدس إلى أجل غير مسمى، **الأهرام**، (القاهرة)، ١٢/ ٦/ ٢٠٠٨.

و: _____، ماذا بين تدمير غزة وتهويد القدس، **الأهرام**، (القاهرة)، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٩.

و: _____، أولمرت يقر خطة الاستيطان في القدس قبل وصوله إلى واشنطن (تقرير)، **الأهرام**، (القاهرة)، ٤/ ٦/ ٢٠٠٨.

و: _____ ٤٠ ألف وحدة استيطانية بالقدس عقب زيارة رايس (تقرير)، **الجمهورية**، (القاهرة)، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٨.

(٢) نص خريطة الطريق، ملحق الوثائق في: **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، صيف ٢٠٠٣.

(٣) د. توفيق الشاوي، **فقه الشورى والاستشارة**، ط١، مصر ـ المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص ٢١٦ .

(٤) **المرجع نفسه**، ص ٢١٤ ـ ٢١٩ .

(٥) د. محمد فتح الله الخطيب، **محاضرات في المشكلات السياسية المعاصرة**، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٨٤ ص ٢٦ ـ ٢٧

(٦) كانت غالبية الدول العربية مدركة عمق البعد الإسلامي للقضية، وعدم وجود مثل ذلك التعارض الـمُتوهَّم بين (الإسلامية) و (العروبية).

فقد دعا الأمين العام للجامعة العربية إلى دورة طارئة لمجلس وزراء الخارجية العرب في ٢٥ ـ ٢٦ / ٨ / ١٩٦٩، وأصدر ذلك المجلس بيانا أكد فيه أهمية عقد قمة إسلامية، وأن يعهد إلى كل من المغرب والسعودية، بإجراء الاتصالات اللازمة لعقد هذه القمة.

المرجع نفسه، ص ٢٥

(٧) هناك ما يؤكد تردد مصر في حضور تلك القمة، فقد روى محمد حسن التهامي، مستشار الرئيس عبد الناصر آنذاك، أن عبد الناصر استشاره وقت تسلم الدعوة «وهو متردد في قبولها» فأجابه التهامي: «إن لم تحضر مصر خرجت عن دورها التاريخي، ولن تغفر لها الأجيال القادمة ذلك»، وواصل التهامي محاولة إقناع عبد الناصر بحضور مصر حتى وافق، غير أن فعالية المشاركة المصرية في تلك القمة تؤكد أنها لم تكن مجرد مراقب فحسب، فقد كان لرئيس الوفد المصري السيد أنور السادات، نائب الرئيس المصري آنذاك، دفاع واضح عن ضرورة مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في أعمال القمة، إذ كانت تركيا ترفض ذلك، وترى المؤتمر خاصا بالحكومات،

ثم كان له رد آخر على موقف إيران وتركيا والسنغال الذين كانوا يطالبون بألا يتخذ المؤتمر قرارات تأييد للمقاومة الفلسطينية، أو مواقف مضادة لإسرائيل.

المرجع نفسه، ص ٢٦ .

(٨) د. رأفت الشيخ، **المسلمون في العالم**، ط ٢، مصر ـ الجيزة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٩) **المرجع نفسه**، ص ١١٠ .

ـ د. الخطيب، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦ .

(١٠) د. أحمد الرشيدي، **منظمة المؤتمر الإسلامي ـ دراسة قانونية سياسية في ضوء قانون المنظمات الدولية**، ط١، مصر ـ الجيزة، جامعة القاهرة ـ مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩٧، صفحات ٢٤ ـ ٢٨، ٦٦ .

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٣١ ـ ٣٢.

(١٢) د. وائل أحمد علام، **منظمة المؤتمر الإسلامي ـ دراسة قانونية لنظام ونشاط المنظمة**، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦ ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٣) **المرجع نفسه**، ص ٥٣ .

(١٤) د. عبد الله الاشعل، **أصول التنظيم الإسلامي الدولي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ٨٣ ـ ٨٥ .

(١٥) د. صلاح عبد البديع شلبي، **التضامن ومنظمة المؤتمر الإسلامي**، ط١، مصر ـ دمنهور، كلية الشريعة والقانون، ١٩٨٧، ص ٥٢ ـ ٥٦.

(١٦) للمزيد، راجع:

A survey of Polesting ـ prepared in December 1945 and January 1946 for the information of the Anglo ـ American committee of inquiry primted by the government printer, Palestine february 1946 Volume 182.

(١٧) هذه الالتزامات المعلنة، أو المثبتة في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي، بشأن قضية القدس، تتضمن ـ في الوقت نفسه ـ جملة الأهداف التي تسعى المنظمة إلى تحقيقها، بشأن القضية ذاتها، كما وردت في بند: أولا (الأهداف)، من المادة الثانية، في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي.

(١٨) انظر:

ـ **البيانات الختامية والتوصيات، الصادرة عن دورات لجنة القدس**، إعداد: إدارة القدس الشريف وفلسطين بمنظمة المؤتمر الإسلامي، طبعة خاصة، الجماهيرية العظمى، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٩٧ .

ـ **القدس: وثائق أساسية وقرارات دولية**، بيروت، مجلس كنائس الشرق الأوسط، يونيو ١٩٩٦، ملف (نشاط ومقررات لجنة القدس من ١٩٧٥ ـ ١٩٩٥) .

ـ فضل الطحان، **منظمة المؤتمر الإسلامي ـ لجنة القدس**، معلومات دولية (دمشق)، صيف ٢٠٠٠، ص: ٧٨ ـ ٨٥.

(١٩) **ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي**، المادة الثانية، بند: أولا (الأهداف).

(٢٠) راجع قرار مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامية السادس (يوليو ١٩٧٥) بإنشاء هذه اللجنة، وقرار مؤتمر وزراء الخارجية العاشر (١٩٧٩)، بإسناد مهام أخرى إلى هذه اللجنة. في: البيانات الختامية والتوصيات...، **مرجع سبق ذكره**. والتكليفات اللاحقة.

(٢١) يعد البيان الختامي للدورة الخامسة عشرة للجنة القدس (يناير ١٩٩٥) أبرز نماذج هذا الترديد.

(٢٢) البيان الختامي لاجتماع لجنة القمة الثلاثية، في: البيانات والتوصيات...، **مرجع سبق ذكره**.

(٢٣) للمزيد، راجع:

ـ حسن دوح، أين التمثيل الإسلامي في قضية القدس؟ **الأخبار** (القاهرة)، ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٠.

ـ أحمد نافع، اجتماع الرباط وترابط الموقفين الفلسطيني والإسلامي، **الأهرام** (القاهرة)، ٢٥/ ٨/ ٢٠٠٠.

ـ **الأهرام** (القاهرة)، ٢٦ ـ ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٠.

ـ **الأمة** (غزة)، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠، ص ٢٠ ـ ٢١.

ـ عبد اللطيف ملين، تطابق الموقفين العربي والإسلامي في قضية القدس، **الأهرام** (القاهرة)، ١٦/ ٩/ ٢٠٠٠.

(٢٤) الأمة، **مرجع سبق ذكره**، ص٢١.

(٢٥) **الأسبوع** (القاهرة)، ٤/ ٩/ ٢٠٠٠.

(٢٦) كما ذكرت تقارير إخبارية عديدة غطت أعمال هذه الدورة ٢٦/ ١/ ٢٠٠٢.

(٢٧) حسين عبد الغني، رسالة إخبارية من مقر انعقاد القمة إلى **قناة الجزيرة الفضائية**، ٣/ ٦/ ٢٠٠٣.

(٢٨) راجع هذه المقررات، في :

ـ **القرارات الخاصة بالقدس الشريف وفلسطين الصادرة عن مؤتمرات القمة الإسلامية**، منظمة المؤتمر الإسلامي ـ الأمانة العامة، د.ت .

ـ البيانات الختامية والتوصيات ...، **مرجع سبق ذكره**.

ـ عرفان نظام الدين، **القدس ـ إيمان وجهاد**، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧، ص ١٨١ ـ ٢٣٩ .

* * *

الفصل الرابع

الدول الاشتراكية والقدس

عطا السيد فتوح الشعراوي

يلحظ المتابع للقضية الفلسطينية دون عناء التأثير الكبير للمتغيِّر الدولي عليها، في مختلف مراحل تطورها، للدرجة التي يمكن معها القول بأنها ربما تكون انعكاسًا للعلاقات الدولية.

اللافت، أيضًا، أن موازين القوى الدولية كانت، ولا تزال، تصب في صالح إسرائيل، حيث أسهمت في قيامها، والحفاظ على بقائها، ونموها، وتوسعها، كي تكون إحدى الأدوات الرئيسية لحماية المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى، المتحكمة، والمؤثِّرة، في مسار العلاقات الدولية. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، والذي شهد البداية الحقيقية للمسألة اليهودية، حدث التلاقي بين أهداف الحركة الصهيونية، ومصالح الدول الاستعمارية، آنذاك، وعلى رأسها بريطانيا، التي ورثت الدولة العثمانية، في فلسطين، وعملت على إبعاد المسألة اليهودية عن دولها، ومجتمعاتها، وكانت فلسطين هي الأرض التي تم اختيارها لتقوم عليها الدولة الصهيونية، وجاء «وعد بلفور» ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧ ليصبغ إرادة دولية على هذا الاختيار، الذي تأكد بوضع فلسطين تحت نظام الانتداب البريطاني. وفي ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٨ أصدرت الأمم المتحدة، وبفعل موازين القوى الدولية، أيضًا، وفي سابقة هي الأولى من نوعها، قرارها الشهير رقم ١٨١، الذي أقر تقسيم فلسطين وسمح بقيام «إسرائيل» على ما نسبته نحو ٥٥٪ من مساحتها.

أسهم النظام الدولي، وتغيراته، في عدم التوصل إلى حل لقضية «القدس»، التي مثلت، ولا تزال، واحدة من أهم معضلات عملية التسوية للصراع العربي ـ الإسرائيلي، رغم أنها كانت حاضرة في كل الصيغ، والأطروحات الخاصة بالتسوية، منذ ما قبل قيام إسرائيل إلى الآن.

بالرغم من أنها كانت من أوائل الدول التي اعترفت بإسرائيل، منذ قيامها عام ١٩٤٨، وأيدت وجود وطن

قومي لليهود، فإن «الاتحاد السوفييتي» (السابق)، والدول الاشتراكية الأخرى كان لها موقف مميَّز، مؤيد للحقوق الفلسطينية، تجلى في بيان صادر عن الكرملين، على لسان الزعيم السوفييتي الراحل، ليونيد بريجنيف، في عام ١٩٨٢، أعلن فيه أن للفلسطينيين الحق الكامل في الأرض وإقامة دولة مستقلة عاصمتها القدس، وظل هذا الموقف ثابتًا، دون تغيير، أو تعديل، حتى انهيار الكتلة الشرقية، وانتهاء العهد السوفييتي.

ونعرض هنا لمواقف الدول الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي، من قضية القدس، عبر المراحل المختلفة من تطور القضية الفلسطينية، وذلك على النحو التالي:

أولًا: الدول الاشتراكية وقيام دولة إسرائيل.

ثانيًا: فترة الحرب الباردة (١٩٤٨ـ ١٩٩١).

ثالثًا: منذ نهاية الحرب الباردة إلى الآن.

أولًا: الدول الاشتراكية وقيام دولة إسرائيل

استفادت الحركة الصهيونية من توازن القوى في الساحة العالمية، إبان سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، في إطار ما جرى وضعه من مخططات، تهدف إلى تنفيذ إستراتيجيتهم المعروفة، وخاصة استقطاب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والحيلولة دون «إذابة» اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها منذ القدم. كان الاتحاد السوفييتي هدفًا رئيسيًّا، خاصة أنه كان يتخذ موقفًا مناهضًا لتوجهاتهم، وأقام العديد من العراقيل على طريق انتشار الأفكار الصهيونية، ومحاولات تشجيع الهجرة إلى فلسطين[١].

برغم معاداة الاتحاد السوفييتي للصهيونية، بشكل منهجي، فقد نجحت المحاولات الصهيونية في تحقيق أهدافها، حيث شهدت العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وإسرائيل تحسنًا كبيرًا خلال الفترة الأكثر مصيرية في تاريخ القضية الفلسطينية برمتها، أي في النصف الثاني من العام ١٩٤٧، وحتى أواخر العام ١٩٤٨، وذلك إبان قيادة جوزيف ستالين للحزب الشيوعي السوفييتي في حكم البلاد، وكانت النتيجة هي إسهام «الدولة الاشتراكية العظمى» في إقامة دولة إسرائيل، حين وافقت على قرار التقسيم.

كانت هناك دوافع عدة لهذا الموقف السوفييتي المؤيد لقرار تقسيم فلسطين، منها: رغبة موسكو في أن يكون لها دور في الشرق الأوسط، تقويض الوجود البريطاني، توتير العلاقة بين لندن وواشنطن، كما أنها ربما رأت في هجرة اليهود إلى إسرائيل حلًّا لمشاكل سوفييتية داخلية، نشأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، على خلفية عودة اللاجئين اليهود إلى أماكن إقامتهم الأصلية، كما رأوا في هذه الهجرة وسيلة لزعزعة سلطة الانتداب البريطانية، فضلًا على أن الاتحاد السوفييتي كان ينظر إلى إسرائيل باعتبارها عنصر تحريك لشعوب المنطقة ضد الإمبريالية العالمية، وتصور بأنها سوف تكون ذات توجهات اشتراكية [٢].

عبر أندريه جروميكو، مندوب الاتحاد السوفييتي لدى الأمم المتحدة في ذلك الوقت، عن هذا الدعم لإسرائيل في مناسبتين: الأولى يوم ١٤ مايو/ آيار ١٩٤٧، والثانية يوم ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني من العام نفسه، أي قبل ثلاثة أيام من اتخاذ الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين «القرار رقم ١٨١، الصادر في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧.

عبر الخطابان عن تغيير جوهري في موقف الاتحاد السوفييتي والمجموعة الاشتراكيةعمومًا، والذي كان على مدار أعوام طويلة موقفًا مناهضًا للفكرة الصهيونية بشأن إقامة دولة يهودية في فلسطين.

في الخطاب الأول، طرح جروميكو على الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة خيارات بشأن مستقبل فلسطين، وأشار إلى أنّ الأفضلية الأولى، في نظر الاتحاد السوفييتي، هي إقامة دولة مشتركة يهودية ـ عربية، لكن إذا ما تبين استحالة ذلك، فيتم النظر في تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين: يهودية وعربية. أي أن الاتحاد السوفييتي أقرّ، لأول مرّة، بإمكان إقامة دولة يهودية في فلسطين، وجاء في خطاب جروميكو[٣]:

«إنّ واقع عدم نجاح أي دولة أوروبية غربية في تأمين حماية الحقوق الأساسية للشعب اليهودي، وفي الحفاظ عليه من عنف الجلادين الفاشيين، من شأنه أن يفسّر تطلع الشعب اليهوديّ إلى إقامة دولته. وسيعتبر عدم أخذ ذلك في الاعتبار، وسلب الشعب اليهودي هذا الحق، سلوكًا غير عادل. إنّ واقع أن سكان فلسطين يتألفون من شعبين، يهودي وعربي هو واقع غير قابل للنقض، ولكل شعب منهما جذور تاريخية في فلسطين».

كان الخطاب صادمًا ومغايرًا للخطّ الأيديولوجي والسياسي، الذي ميّز على مدار عشرات الأعوام، الاتحاد السوفييتي، والحركة الاشتراكية، في كفاحهما ضد الحركة الصهيونية، وأصبح هذا الخطاب هو الموقف الرسميّ للحكومة السوفييتية، ويقوم على تأييد إمكان إقامة دولتين في فلسطين، وأيضًا، إمكان إتاحة هجرة مائة ألف يهودي إلى إسرائيل.

في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٧ صادقت الجمعية العامة على أعضاء ووظائف وصلاحيات لجنة دراسة القضية الفلسطينية، وانتخب لعضوية اللجنة مندوبو أستراليا وكندا وتشيكوسلوفاكيا وجواتيمالا والهند وإيران وهولندا وبيرو والسويد وأوروجواي ويوغوسلافيا. وفي أول سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧، قدمت اللجنة الخاصة تقريرها إلى هيئة الأمم المتحدة. وتضمن التقرير عددًا من التوصيات التي صادقت عليها اللجنة الخاصة بالإجماع، ومنها: إلغاء انتداب فلسطين، ومنح الاستقلال إلى فلسطين في أقرب وقت ممكن، وتحديد فترة انتقالية، وضمان حرية الأديان الثلاثة، والأماكن المقدسة. وخلصت غالبية أعضاء اللجنة إلى استنتاج مفاده، أن من الضروري تقسيم فلسطين إلى دولتين. وقدمت اللجنة خطتين لبناء فلسطين في المستقبل هما[٤]:

١ ـ خطة الأغلبية (صادق عليها مندوبو كندا وتشيكوسلوفاكيا وجواتيمالا وهولندا وبيرو والسويد وأوروجواي)، ونصت على ما يلي:

ـ تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، عربية ـ ويهودية، موحدتين في اتحاد اقتصادي.

ـ توضع القدس تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة.

ـ يعلن استقلال الدولتين بعد انتهاء فترة انتقالية أمدها عامان.

ـ تتولى الإدارة في الفترة الانتقالية بريطانيا تحت رقابة هيئة الأمم المتحدة.

ـ يسمح في الفترة الانتقالية بهجرة ١٥٠ ألف يهودي إلى الدولة اليهودية.

فيما يخص الأرض، يجب أن تضم الدولة اليهودية شرق الجليل، والسهل الإسرائيلي، وقسمًا كبيرًا من السهل

الساحلي، وجميع منطقة بئر سبع، ومن ضمنها النقب. ويجب أن تضم الدولة العربية غرب الجليل، والمثلث (نابلس ـ طولكرم ـ قلقيلية)، كذلك السهل الساحلي الممتد من أسدود إلى الحدود المصرية.

٢ ـ خطة الأقلية «صادقت عليها يوغوسلافيا والهند وإيران»، وقضت بالآتي:

ـ تأسيس دولة فلسطين الاتحادية الموحدة المستقلة، المؤلفة من ولايتين عربية، ويهودية، وعاصمتها القدس.

ـ تعطى مسؤولية إدارة فلسطين في الفترة الانتقالية، التي يجب أن تستمر لفترة ٣ أعوام، هيئة خاصة، تعينها الجمعية العامة.

ـ بالنسبة لموضوع الهجرة اليهودية، في الفترة الانتقالية، فتتكلف به لجنة خاصة في هيئة الأمم المتحدة، يجب أن تضم ثلاثة مندوبين، عن العرب، واليهود.

في ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧، أصدر وزير الخارجية السوفييتي، في ذلك الوقت، فاشيسلاف مولوتوف، تعليمات إلى نائبه، أندريه فيشينسكي، الذي كان موجودًا في نيويورك، حينذاك، طالبه فيها بعدم معارضة موقف الأغلبية، بشأن تقسيم فلسطين، ووجه له رسالة جاء فيها ما يلي: «عندما وجهنا جروميكو للحديث عن إمكان إقامة دولة ثنائية القومية، في فلسطين، باعتبار ذلك أفضلية أولى، فقد كان هذا الأمر راجعًا إلى عوامل تكتيكية. لم نرغب في أن نأخذ على عاتقنا المبادرة إلى إقامة دولة يهودية. بيد أن موقفنا الحقيقي يعبر أكثر عن الإمكانية الثانية بشأن إقامة دولة يهودية مستقلة، ينبغي عليكم ـ البعثة السوفييتية في الأمم المتحدة ـ أن تؤيدوا موقف الأغلبية، الذي يعتبر الأكثر ملاءمة، لموقفنا الأساسي في هذه المسألة».

في ١٥ أكتوبر ١٩٤٧ أرسل مولوتوف إلى نائبه تعليمات أخرى اشتملت على نقاط مثيرة للجدل، هي [٥]:

١ـ ينبغي الاستفسار عن رأي اليهود في جميع قضايا فلسطين المهمة، ويجب، ضمنًا، القيام بهذا فيما يتعلق بالقدس، التي يجب أن يكون لها وضع خاص، يضمن مصالح الأديان الثلاثة.

٢ ـ يجب عدم الخوف من وجود أقلية عربية أكبر في الدولة اليهودية، بشرط أن تكون نسبة العرب أقل من ٥٠ في المائة. ومثل هذا الوضع لا يمكن أن يهدد وجود الدولة اليهودية المستقلة، فيزداد القسم اليهودي في سكان هذه الدولة حتمًا.

٣ـ يجب السعي إلى تقليص الفترة الانتقالية، ولا يجوز إبقاء السلطة الإدارية بيد بريطانيا، في هذه الفترة. والأفضل السير في طريق تسليم إدارة فلسطين إلى مجلس الأمن الدولي.

في خطابه الثاني أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، رفض جروميكو الآراء العربية، التي قالت بأن تقسيم فلسطين هو بمنزلة غبن تاريخي، بقوله: «لا يجوز أن نقبل هذه المقاربة العربية؛ لأن الشعب اليهودي كان مرتبطًا بفلسطين على مدار فترة تاريخية طويلة. إنّ حلّ مشكلة فلسطين على أساس إقامة دولتين مستقلتين سيكون ذا أهمية تاريخية كبرى، وهو يلائم المطالب القانونية للشعب اليهوديّ، الذي لا يزال مئات الآلاف من أبنائه دون مأوى، ودون مصدر رزق».

من الواضح أن الاتحاد السوفييتي لم يكن يؤيد المشروع الصهيوني؛ لأنه كان يمس الشرعية السوفييتية القائمة على

مبدأ وحدة الطبقة العاملة، فيما تقوم الحركة الصهيونية على تجميع اليهود في أرض واحدة؛ ولأن الاتحاد السوفييتي كان يضم قطاعًا مهمًا من اليهود، فقد بدا حساسًا للغاية من نجاح مشروع الدولة الصهيونية، التي يمكن أن تجتذب يهوده، وتمس من ثم شرعيته، وعليه ظل الموقف السوفييتي من المشكلة الفلسطينية، حتى قبيل صدور قرار التقسيم، قائمًا على فكرة الدولة الواحدة، التي تضم جميع سكان فلسطين، غير أن الصهيونية استطاعت اختراق صنع القرار في موسكو، وأقنعت القيادة السوفييتية بأهمية قيام دولة «تقدمية متحررة» على جزء من أرض فلسطين، بدلًا من أن تؤيد دولة واحدة ينتهي بها المآل إلى أن تكون على شاكلة النظم العربية الإقطاعية، التابعة للاستعمار، وكانت النتيجة، هي موافقة الاتحاد السوفييتي، والمجموعة الاشتراكية، على قرار التقسيم، الذي ما كان أن يكتب له النجاح لولا هذا الدعم من الدول الاشتراكية [٦].

كان هناك إصرار صهيوني على استقطاب دعم الدول العظمى، وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة، بعيدًا عن الخلافات العقائدية، والتوجهات الإستراتيجية، فقد أرسل موسى شاريت وزير خارجية إسرائيل، في ذلك الوقت، إلى نظيره السوفييتي مولوتوف، برقية في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٨، جاء فيها:

«يشرفني إبلاغكم، وأرجو إبلاغ حكومتكم، بأن المجلس الوطني للدولة اليهودية، الذي يتألف من أعضاء المندوبين المنتخبين للمنظمات اليهودية في فلسطين، قد اجتمع أمس، ١٤ مايو/ آيار، بعد انتهاء الانتداب البريطاني، وأعلن، على أساس قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الصادر في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، قيام الدولة اليهودية المستقلة، في فلسطين، التي ستسمى بدولة إسرائيل. وأعلن المجلس أن دولة إسرائيل ستكون مفتوحة لهجرة اليهود من جميع البلدان التي يقطنون فيها، وستساعد على تطوير البلاد، من أجل خير ساكنيها، جميعًا، وستكون قائمة على أساس مبادئ الحرية، والعدالة، والسلام، وستؤيد المساواة الاجتماعية، والسياسية، الكاملة لجميع مواطنيها، بغض النظر عن العرق، والمعتقدات، والجنس، وستضمن حرية الضمير، والدين، والتعليم، والثقافة، واللغة، بصورة كاملة، وستحافظ على قدسية، وسلامة المعابد، والأماكن المقدسة، لجميع الأديان، وستكرس نفسها لصيانة المبادئ الواردة في ميثاق هيئة الأمم المتحدة. وأرجو باسم الحكومة المؤقتة لإسرائيل، أن يعترف رسميًا بدولة إسرائيل، وحكومتها المؤقتة، من قبل حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. وأنا أعرب عن الأمل في أن يصدر هذا الاعتراف، قريبًا، وتخالجني الثقة، في أنه سيعزز علاقات الصداقة بين الاتحاد السوفييتي، وشعوبه، من جهة، ودولة إسرائيل، والشعب العبري في فلسطين، من جهة أخرى. كما سيخدم قضية السلام، والعدالة في العلاقات الدولية عمومًا».

بالفعل في ١٨ مايو/ آيار ١٩٤٨ قررت حكومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الاعتراف رسميًا بدولة إسرائيل، وحكومتها المؤقتة[٧] وبات واضحًا أن موقف موسكو قام في تلك الفترة على تأييد إقامة الدولة اليهودية، المنفصلة في فلسطين، وإن حرص على ضمان وضعية خاصة للقدس، تضمن حماية مصالح الأديان الثلاثة تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة[٨].

انعكس هذا الموقف السوفييتي على باقي المجموعة الاشتراكية، وبدرجة أكبر الأحزاب الشيوعية الأوروبية، فكانت الأكثر تحمسًا للدولة الإسرائيلية، وأكبر داعية للاعتراف بها. إلا أن هذا لم يمنع من استمرار بعض المعارضة للمشروع الصهيوني، والذي أظهرته بعض الدوائر الاشتراكية الأوروبية، وخاصة «الحزب الاشتراكي المسيحي» في

بلجيكا، حيث أعلن رئيس وزرائها، آنذاك، بول هنري شباك، معارضته لقرار تقسيم فلسطين، وصرح في مناقشات البرلمان البلجيكي: «إن إنشاء دولة يهودية في المنطقة يشكل مشكلة جدية، وخطرًا على العالم العربي. فهذه الدولة ستكون على حساب الفلسطينيين في البدء، ثم على حساب البلدان العربية فيما بعد».

رغم أن بلجيكا اضطرت للاعتراف بإسرائيل، كأمر واقع، في ٢٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، إلا أنها أعلنت أن هذا الاعتراف لا يعني الاعتراف بالحدود التي تمارس عليها سيادتها الوطنية، ولا موقفها من وضع الأراضي المقدسة، إضافة إلى أنها انسحبت من التصويت على انضمام إسرائيل للأمم المتحدة، في ١١ مايو/ آيار ١٩٤٩، وأعلن المندوب البلجيكي بأن وضع الأراضي المقدسة، ووضع اللاجئين الفلسطينيين، وحدود الدولة اليهودية، هي أمور لا تزال بدون حلول عملية [٩].

عمومًا، جاء استهجان تأييد الاتحاد السوفييتي للتقسيم؛ لأن الاتحاد السوفييتي يعتمد الأيديولوجية الماركسية اللينينية، التي لا تعتبر اليهود أمة، أو قومية، بل مجرد ملّة. كما أن الحكومة السوفييتية خصصت (بيروبيدجان) ـ ذات الأغلبية اليهودية ـ جمهوريةً لليهود السوفييت، ممن يرغبون في الإقامة في «وطن قومي» خاص باليهود، وباعتبارها واحدة من الجمهوريات السوفييتية الستة عشر، المكوِّنة للاتحاد السوفييتي، في سبيل إجهاض المشروع الصهيوني، بخلق بديل اشتراكي له. وحرمانه من جمهرة اليهود. ذلك أن السوفييت اعتبروا ـ لمرجعيات أيديولوجية، وسوسيولوجية ـ أن الصهيونية «فكرة رجعية بشكل مطلق»، بكلمات زعيم الشيوعيين الروس، المؤسس للدولة السوفييتية، فلاديمير إيليتش لينين؛ لذا دأب السوفييت على المناداة بانسحاب القوات البريطانية من فلسطين، وقيام دولة ديمقراطية هناك.

غني عن القول بأن السوفييت لم ينعطفوا هذه الانعطافة الحادة لمجرد أن كبار المسؤولين العرب أبلغوا اللجنة الدولية، صيف ١٩٤٧، استحالة التعايش بين العرب واليهود في فلسطين، بل لأن السوفييت ـ أساسًا ـ رأوا، **أولًا**: بأن ميزان القوى لم يكن يسمح بغير ذلك، **وثانيًا**: فلأن السوفييت رأوا في التقسيم ما يحقق انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، **وثالثًا**: فإن مآل الدولتين ـ العربية واليهودية، في فلسطين ـ إلى الاتحاد السياسي، اعتمادًا على الاتحاد الاقتصادي بينهما، ناهيك، **رابعًا**: عن أن المندوبين العرب كانوا قد رفضوا «مشروع جروميكو» الأفضل بمراحل من مشروع التقسيم، بل إن أولئك المندوبين قاطعوا، بالإجماع، حفل شاي أقامه على شرفهم وكيل الخارجية السوفييتي، في الأمم المتحدة، فيشينسكي، عشية التصويت على مشروع التقسيم، لترتيب المواقف العربية والسوفييتية بخصوص التصويت، ولضمان عدم تضارب مواقف الطرفين، وقد فزع المندوبون العرب من مجرد فكرة الاتصال بالسوفييت، خشية أن يضر ذلك بعلاقات حكومات بلادهم بالدول الغربية، وفي المقدمة منها بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، فيما كانت بريطانيا هي المسؤولة عن زرع المشروع الصهيوني في فلسطين، فيما انشغلت الولايات المتحدة الأمريكية، في ليلة التصويت، بحشد الأصوات لصالح التصويت للتقسيم، بينما دأب الصهاينة على التحرك كبندول الساعة بين الوفدين السوفييتي والأمريكي، ما أكد للسوفييت مدى خضوع الحكومات العربية للاستعمار، وارتباط مصالح تلك الحكومات بالأطماع الاستعمارية في الوطن العربي. دون أن ينفي هذا كله تأثر السوفييت العابر بما تعرض له اليهود من اضطهاد على يدي النازي، خلال سني الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥). أخذًا في الاعتبار أن كل ما سبق من ملابسات لا ينفي الخطأ المنهجي الذي سقط فيه السوفييت، بتأييدهم لقرار التقسيم،

حيث انتهجوا في ذلك نهجًا براجماتيًا منبت الصلة بالمبدئية، فضلًا على انزلاقهم إلى التجريبية السطحية، ناهيك عن خطئهم في تطبيق حق تقرير المصير لأناس فوق أرض شعب آخر[١٠].

ثانيًا: فترة الحرب الباردة (١٩٤٨-١٩٩١)

كانت القضية الفلسطينية من ضمن أولى القضايا الدولية التي طرحت داخل أروقة منظمة الأمم المتحدة، منذ تأسيسها سنة ١٩٤٥، باعتبارها تحديًا، واختبارًا، كبيرين لمصداقية هذه المنظمة، ومبادئها، وأهدافها، حيث أصدرت العديد من القرارات، والتوصيات، سواءً من قبل مجلس الأمن، أو الجمعية العامة، أبرزها قرارا مجلس الأمن رقما: ٢٤٢، و ٣٣٨، وقرارات الجمعية العامة أرقام: ٣٠٨٩، و٣٢٣٦، و٢٦٤٦، و٢٦٧٢، وكلها تدعم الحقوق الفلسطينية المشروعة، وتؤكد عدم شرعية احتلال القدس وضمها، وتطالب إسرائيل بالانسحاب من القدس، والتوقف عن جميع الإجراءات، التي تقوم بها إسرائيل، بهدف تغيير وضع القدس.

غير أن هذه القرارات، وغيرها، أضحت بلا فاعلية؛ لأنها لم تكن، في أغلب الأحوال، مصحوبة بآليات ميدانية ضامنة لتنفيذها، وقادرة على إلزام إسرائيل بتفعيلها، هذا زيادة على تداعيات استعمال حق الاعتراض، «الفيتو» الأمريكي، داخل مجلس الأمن، في ظل الحرب الباردة، التي انتقلت مظاهرها إلى داخل هذا المنظمة، المسؤولة عن حفظ السلم والأمن الدوليين، ما أدى إلى شل حركة تلك المنظمة، وضعف فاعلية قراراتها.

خلال تلك الفترة، حدث تغير في مواقف الاتحاد السوفييتي، من مؤيد متحمس للدولة الصهيونية، إلى مؤيد متحمس لحركة التحرر العربي، في ضوء الصراع مع الكتلة الرأسمالية، التي رأت في إسرائيل استجابة ضرورية لطموحات الحركة الصهيونية، وحلًا عمليًا للمسألة اليهودية في أوروبا، التي تفاقمت قبل، وخلال الحرب العالمية الثانية، ولمشكلة من تبقى من اليهود، الذين اضطهدوا على يد النازية الألمانية، وأرادت الكتلة الرأسمالية توظيف إسرائيل، في ذات الوقت، كعنصر حماية لأطماعها، وبخاصة النفطية، المتزايدة في الشرق الأوسط، وعامل ضبط، واستقرار، لأوضاعه، في صالحها، وقاعدة متقدمة تعتمد عليها في قمع حركة التحرر الوطنية العربية، المناهضة لتوجهاتها، وأهدافها الاستعمارية. من هنا أيدت إسرائيل «مشروع أيزنهاور»، نظرية لملء «الفراغ في الشرق الأوسط»، وتحالفت عسكريًا مع فرنسا، وتعاونت مع ألمانيا الغربية، واشتركت مع بريطانيا، وفرنسا، في «العدوان الثلاثي» على مصر، وغزة[١١].

إلا أن الموقف السوفييتي تجاه إسرائيل تبدل، منذ عام ١٩٥٤، عندما استخدم الاتحاد السوفييتي «الفيتو» ضد قرار كاد أن يصدر لصالح إسرائيل، كامتنان من السوفييت، لمواقف سوريا، ومصر ضد الغرب.

تزايد التقارب السوفييتي مع الموقف العربي باطراد تدريجي، نتيجة نمو الثقة السوفييتية، بمواقف القيادة المصرية، آنذاك، في مؤتمر باندونج لعدم الانحياز (١٨ أبريل/ نيسان ١٩٥٥، ثم تأكد مع إنجاز صفقة السلاح التشيكي (اسمًا)، السوفييتي (فعلًا)، لمصر، بناءً على طلبها، في ١٩٥٦.

لكن التحول الأبرز كان عام ١٩٥٦، فقد تدهورت العلاقات السوفييتية الإسرائيلية، نتيجة التقارب الأمريكي الإسرائيلي، وبدا واضحًا للسوفييت أن إسرائيل تلعب دورًا وظيفيًا حارسًا للمصالح الغربية في المنطقة العربية، وبناءً

عليه، فقد تصاعد الموقف السوفييتي الداعم بشكل كامل للعرب، فمع اشتداد المعارك في «حرب السويس»، وتنامي حدتها وضراوتها بين رجال المقاومة الشعبية المصرية، وقوات الغزو، وتنامي المساندة الشعبية لمصر من شعوب كثير من بلدان العالم، في المحيط العربي، والأفريقي، والإسلامي، وحتى الأوروبي، تضافرت جهود عدد من الدول الأوروبية لدعم «العدوان الثلاثي»، ومساندته، للتسريع بالقضاء على حكم عبد الناصر، الذي تزايدت قوته ونفوذه على الساحتين العربية، والأفريقية، مما شكل خطرًا على مستقبل مستعمرات تلك الدول بهاتين الساحتين. ومع تصاعد خطورة الأوضاع، وتهديد أمن المنطقة، وازدياد حدة المعارك، اضطر الاتحاد السوفييتي، وبعد أن كان يراقب المنطقة من بعد، أن يعجل بحسم موقفه، وأن يتدخل في سير الأحداث، فوجه رئيس الوزراء السوفييتي ـ بولجانين ـ في ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٦ برقية إلى رئيس مجلس الأمن الدولي، طالبًا وقف النار، خلال ٢٤ ساعة، وانسحاب القوات المعتدية من مصر، خلال ثلاثة أيام، وأن روسيا ستقوم، أيضًا، بتوجيه إنذار إلى الدول المعتدية، والتلويح بإمكانية استخدام الصواريخ بعيدة المدى (النووية). وهو ما أطلق عليه فيما بعد (الإنذار السوفييتي) أو (إنذار بولجانين)، الذي أدركت الدول الغربية، تمامًا، مدى جديته، فبادرت إلى إنهاء الموقف، بموجب قرار مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة في ٦/ ١١/ ١٩٥٦، بوقف إطلاق النار. وبعد انتهاء حرب ١٩٥٦ اتضح الأمر، أكثر، وتزايد الدعم السوفييتي للعرب، وتوج ذلك باعتراض الاتحاد السوفييتي على لسان خروتشوف، أثناء زيارته لمصر عام ١٩٦٤، بالحقوق الثابتة، والمشروعة، للشعب الفلسطيني، لكن هذا بقي في إطار اعتبار قضية الشعب الفلسطيني قضية لاجئين.

لهذا، تبدلت السياسة السوفييتية تجاه القضية الفلسطينية من تأييد التقسيم، وإنشاء دولة إسرائيل، وشجب دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، إلى التحرك، وإن كان محدودًا، تجاه القضية الفلسطينية، على أساس أنها مشكلة لاجئين، والتأييد الكامل للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، في تقرير مصيره، وإقامة دولته، وانسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية، والعربية المحتلة عام ١٩٦٧، ومن بينها القدس الشرقية، خاصة بعد أن اتبعت مصر سياسة إيجابية بعد ثورة عام ١٩٥٢، تمثلت في مقاومة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لسياسة الأحلاف، وقيامه بزيارة لموسكو، رافقه فيها الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات عام ١٩٦٨، والذي قام بزيارة ثانية في إطار «اللجنة السوفييتية لتضامن الشعوب الأفرو ـ آسيوية»، في ١٦/ ٧/ ١٩٧٢[١٢].

ظهرت خلال تلك الفترة مؤشرات عدة على هذا التغير في الموقف السوفييتي، والدول الاشتراكية، من بينها :

(أ) اعتراف موسكو على لسان الرئيس نيكيتا خروتشوف، أثناء زيارته مصر عام ١٩٦٤، بالحقوق الثابتة، والمشروعة للشعب الفلسطيني، رغم أن هذا بقي في إطار اعتبار قضية الشعب الفلسطيني قضية لاجئين.

(ب) في ١٥/ ١١/ ١٩٧٣ صدر البيان السوفييتي ـ اليوغوسلافي، الذي وصف الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، ومن بينها القدس الشرقية، التي احتلتها إسرائيل، في حرب ١٩٦٧، بأنها «حقوق وطنية»[١٣].

(ج) ترأس الاتحاد السوفييتي، إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية، مؤتمر جينيف، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٣، والذي تبين فيه موقف موسكو تجاه الوضع في الشرق الأوسط، وقد تبلور هذا الموقف في النقاط التالية[١٤]:

١ ـ ضرورة التزام إسرائيل بسحب قواتها من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ومن بينها القدس الشرقية.

٢ ـ الحفاظ على حق الدول في أن تحيا بسلام، بما فيها إسرائيل.

٣ ـ ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

٤ ـ رغبة الاتحاد السوفييتي في أن يكون له دور في عملية التسوية.

(د) مبادرة «بريجينيف» للسلام في الشرق الأوسط، في ١٥ سبتمبر/ أيلول عام ١٩٨٢، والتي تمثل التصور السوفييتي للتسوية، وقد طرحها الزعيم السوفييتي آنذاك، ليونيد بريجينيف، في ظل ظروف بالغة التعقيد، خاصة بعد خروج قوات الثورة الفلسطينية من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وبعد مشروع «الرئيس الأمريكى رونالد ريجان» الذي عرف باسم «مبادرة سلام أمريكية لشعوب الشرق الأوسط»، في ١/ ٩/ ١٩٨٢، ومشروع الأمير «فهد»، الذي عرف باسم «مشروع السلام العربي»، الذي تبناه مؤتمر القمة العربي الثاني عشر في فاس في ٩/ ٩/ ١٩٨٢.

قال «بريجينيف» إن السلام العادل، والراسخ في الشرق الأوسط، يجب أن يقوم على مبادئ تنسجم مع المبادئ العامة للقانون الدولي، وقرارات مجلس الأمن، والجمعية العامة للأمم المتحدة، ومن هذه المبادئ[١٥]:

١ ـ تطبيق مبدأ عدم جواز الاستيلاء على أراضي الآخرين عن طريق العدوان، وهذا يعني عودة الأراضي العربية المحتلة، في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، أي الجولان، والضفة، والأراضي اللبنانية المحتلة عام ١٩٧٨، مع تحديد حدود ثابتة بين إسرائيل وجيرانها العرب.

٢ ـ وجوب تأمين الحق الثابت للشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته، في الضفة، وقطاع غزة، وعودة، أو تعويض اللاجئين الفلسطينيين عن ممتلكاتهم، وفقًا لقرارات الأمم المتحدة، لمن لا يرغب في العودة.

٣ ـ عودة القدس الشرقية المحتلة عام ١٩٦٧ إلى العرب، والذي يجب أن يصبح جزءًا لا يتجزأ من الدولة الفلسطينية، ويجب أن تؤمن حرية العبادة للأديان الثلاثة.

(هـ) لعب الحزب الاشتراكي الحاكم في السويد، بزعامة رئيس الوزراء في ذلك الوقت أولوف بالمه، دورًا مهمًا في الثمانينيات، لفتح قنوات اتصال بين الجانب الفلسطيني، والجانب الإسرائيلي، كما كان أول من أشار إلى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وندد بالاحتلال الإسرائيلي للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ومن ضمنها القدس الشرقية[١٦].

في عام ١٩٨٥، تولى ميخائيل جورباتشوف الحكم في الاتحاد السوفييتي، وأدخل تغييرات داخلية كثيرة، ولم تكن الطموحات الخارجية تحتل المرتبة الأولى في سلم الأولويات السوفييتية، وحلت محلها الأولويات الداخلية، من إعادة للبناء، والإصلاح، وهي الحقبة التي أطلق عليها «البيريسترويكا»، وقادها جورباتشوف، على أمل تخفيف الأعباء الخارجية، التي قد تعرقل البناء الداخلي. وهو ما أثر على دور الدولة السوفييتية في القضية الفلسطينية، **أولًا**: لأنها لم تعد معنية بإشغال نفسها في القضايا العالمية، **وثانيًا**: لأنها لا ترغب في توتير علاقاتها مع الغرب، وإسرائيل، خاصة

أن عملية «البيريسترويكا» كانت بحاجة إلى التكنولوجيا الغربية، والمساعدات المالية، والدعم السياسي الغربي، والتعاون في هذا المجال.

استمر هذا النهج في تنمية العلاقات السوفييتية الإسرائيلية، والسوفييتية الغربية، حتى مع مجيء الرئيس بوريس يلتسن، والذي لم يغير، إلى حدٍّ كبير، الخطوط العامة، التي وضعها جورباتشوف [١٧].

اقترنت تلك التغييرات، أيضًا، بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل من جانب المجر أواخر عام ١٩٨٩، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا في عام ١٩٩٠، وذلك دون ضمانات، أو حتى تأكيدات، من جانب الحكومة الإسرائيلية، بتلبية مطالب الشعب العربي الفلسطيني العادلة والمشروعة [١٨].

ثالثًا: من نهاية الحرب الباردة إلى الآن

لم يكن انهيار الاتحاد السوفييتي، في بداية تسعينيات القرن العشرين، تفكك دولة، بقدر ما كان سقوط تجربة، ونهايته دوليًّا، وعالميًّا، هكذا على الأقل بدا الأمر لعامة الناس، وحتى للكثير من المفكرين السياسيين، والاقتصاديين، ذلك أن الصراع الذي نشب بعد الحرب العالمية الثانية بين المعسكر الغربي، بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الشرقي، بقيادة الاتحاد السوفييتي، والذي أطلق عليه «الحرب الباردة»، لم يكن صراعًا دوليًّا بين كتلتين سياسيتين واقتصاديتين وعسكريتين فحسب، وإنما كان صراعًا بين مبدأين، هما: الرأسمالية، والاشتراكية، على النموذج السوفييتي النمطي. ولم تقتصر ساحة هذا الصراع على أوروبا، وحدها وإنما تجاوزها إلى العالم بأسره. وقد انتهى هذا الصراع بانهيار الاتحاد السوفييتي، وتفككه إلى دول، وبسقوط التجربة الاشتراكية، على النمط السوفييتي، كنظام، وكطريقة للعيش، والإدارة المجتمعية، بالنسبة لهذه الدول، وشعوبها، وهو ما اعتبره الفيلسوف الياباني فوكوياما نهايةً للتاريخ، محذرًا من أن الدول التي كان يربطها علاقات مع المعسكر الاشتراكي سوف تدفع الثمن.

شهدت البيئة الدولية، بعد نهاية الحرب الباردة، تغيرات جذرية، في أنظمة الحكم الاشتراكية التقليدية، في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفييتي، وتحول أغلبها إلى الديمقراطية الليبرالية، على النمط الغربي، وانفك الارتباط بين الأحزاب الاشتراكية في العالم، وبين الاتحاد السوفييتي، حيث بدأت هذه الأحزاب في إعادة تكييف لعملها، وعقيدتها، تبعًا للظروف الاجتماعية، ولتجاربها الخاصة، في إطار بيئتها الداخلية، والإقليمية، والدولية، ومحاولتها التكيف مع هذه التغيرات الجديدة، وانفردت الولايات المتحدة بهيمنة شبه مطلقة على العالم[١٩].

كانت القضية الفلسطينية أبرز المتأثرين بالتغيرات التي شهدها النظام الدولي، والتي صبَّت تمامًا في صالح إسرائيل على النحو التالي:

(أ) بالنسبة لروسيا، أصبح هناك واقع جديد لعلاقتها مع إسرائيل، أبرز ملامحه هو:

١ ـ وجود نسبة كبيرة من اليهود، وعلى ما لهم من ارتباطات، متفاوتة في درجتها، بالمشروع الصهيوني، كمواطنين في روسيا، ودول الكومونولث، وبات الرأسماليون منهم في النمو المتسارع، اعتمادًا على أنشطة طفيلية، وسمسرة واستثمارات مالية متنامية، يسيطرون على أهم المرافق الاقتصادية، من شركات عملاقة، وبنوك، وبورصات [٢٠].

٢ ـ وجود مواطنين إسرائيليين، من أصل روسي، يشكلون شريحة واسعة في إسرائيل، إلى الحد الذي اعتبر فيه الرئيس الروسي السابق، فلاديمير بوتين، إسرائيل، إحدى الدول الناطقة بالروسية، لوجود أكثر من مليون ناطق بالروسية في إسرائيل، من مجموع السكان البالغ ٦,٢ مليون نسمة، أي نسبة ١٦٪، وهم أعضاء في حزب للناطقين بالروسية، هو حزب «إسرائيل بيتنا»، الذي يرأسه وزير الخارجية الحالي أفيجدور ليبرمان، كما أن لديهم العديد من الصحف، والبرامج التليفزيونية، باللغة الروسية [٢١].

(ب) لم يختلف الحال بالنسبة لدول أوروبا الشرقية، حيث تغلغلت إسرائيل في تلك الدول من خلال القوى، والمنظمات اليهودية الموالية للمشروع الصهيوني، عبر محاور أساسية، هي:

١ ـ **محور اقتصادي**، تمثل في اختراق النظم السياسية، لتلك الدول، عبر قدرة المنظمات اليهودية على تمويل بعض هذه الحكومات، وذلك بتسهيل مهمة إقراضها من المؤسسات المالية الدولية، وأيضًا شراء المرافق العامة، والحكومية، في إطار عمليات الخصخصة التي قامت بها تلك الدول.

٢ ـ **محور سياسي، ودبلوماسي**، حيث سخَّرت المنظمات اليهودية حضورها السياسي، والدبلوماسي الدولي لدى الدول المؤثرة في خدمة هذه الحكومات، وضمها إلى المنظمات الدولية الإقليمية، مثل «حلف الناتو»، و«الاتحاد الأوروبي».

٣ ـ **محور إعلامي**، عن طريق إعادة توزيع الصحف واسعة الانتشار في أوروبا الغربية، في أوروبا الشرقية، وخصوصًا في بولندا، وسلوفاكيا، وتشيكيا، وأصبحت هذه الصحف هي المهيمنة على الخبر، والتحليل السياسي في تلك الدول. وقد ذكر العديد من المسؤولين الرسميين، والصحفيين، أن صحيفة مثل «دير شبيجل» الألمانية أصبحت واحدة من الصحف المهيمنة في بولندا، وأنه لا يمكن طرح موضوع عن الشرق الأوسط، والصراع العربي ـ الإسرائيلي، إلا عبر رغبات منظمات صهيونية، خصوصًا وأن هذه الصحيفة معروفة بتعاطفها مع التوجهات الصهيونية.

المحصلة النهائية إذن هي حضور اقتصادي، وسياسي، وإستراتيجي إسرائيلي بشكل كبير في تلك الدول [٢٢]، أدى إلى تأييد تلك الدول للمواقف والسياسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وفي المفاوضات، وعدم قدرة تلك الدول على اتخاذ موقف جاد، وملموس، سواء من خلال الاتحاد الأوروبي، الذي انضمت إليه معظم دول أوروبا الشرقية، التي كانت تتبنى النظام الاشتراكي، أو من قبل روسيا الاتحادية، وريث الاتحاد السوفييتي السابق، (والاكتفاء بالتصريحات الإعلامية، وبعض المساعدات المالية المتواضعة، في ظل انفراد أمريكي بالسياسات المؤثرة في منطقة الشرق الأوسط، وإن حدث خروج، في بعض الأحيان، عن الخط المرسوم، أمريكيًا، فإنه لا يكون في القضايا الجوهرية، كالقدس، وإنما في أمور إعلامية، أو دبلوماسية، كما حدث على سبيل المثال من خلاف روسي أمريكي بشأن التعامل مع الرئيس ياسر عرفات، في آخر شهور حكمه [٢٣].

من الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة، أن الضغوط الأمريكية، والإسرائيلية أدت إلى تخلي دول الاتحاد الأوروبي عن تبني مسودة تقرير أعده رؤساء بعثات دول الاتحاد في القدس المحتلة، وتل أبيب، ورام الله، في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥، حول ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي في مدينة القدس، ومحيطها. واتسمت المسودة، بمجملها، بتوجيه الانتقاد الشديد لإسرائيل، وممارساتها، بدءًا من هدم منازل الفلسطينيين في القدس الشرقية،

وتخفيض عدد تصاريح العمل للفلسطينيين، وفرض نظام ضرائب، خاص، تمييزي على العرب. ووصف التقرير إجراءات إسرائيل، في القدس المحتلة، بأنها «انتهاك لخطة خريطة الطريق، والقانون الدولي». واعتبر التقرير الأحياء الإسرائيلية في القدس الشرقية المحتلة، مثل التلة الفرنسية، وراموت، وبيسغات زئييف، وهار حوما، مستوطنات غير شرعية [٢٤].

مرة أخرى، نجحت الضغوط الأمريكية، والإسرائيلية في عدم نشر تقرير سري آخر، في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، اتهم فيه الاتحاد الأوروبي الحكومة الإسرائيلية باستخدام التوسع الاستيطاني، وهدم المنازل، والسياسات الإسكانية العنصرية، وبناء الجدار، وسيلة للعمل المكثف على استيلاء غير قانوني على القدس الشرقية، وأشار التقرير إلى أن إسرائيل تعجل في خططها، التي تستهدف القدس الشرقية، وبذلك تقوض مصداقية السلطة الفلسطينية، ودعم محادثات السلام. ولفت إلى أنه بالرغم من أن الفلسطينيين يمثلون ٣٤٪ من سكان القدس، فإن ٥٪ إلى ١٠٪ فقط من ميزانية البلدية تصرف على مناطقهم، مما يجعلهم يفتقرون إلى الخدمات، والبنى التحتية المناسبة. وبسبب التشديد على منح تراخيص البناء للفلسطينيين، في القدس، يضطر بعضهم إلى تشييد منازلهم بدونها، ما أعطى سلطات الاحتلال الإسرائيلية مبررًا لهدم أكثر من ٤٠٠ منزل منذ ٢٠٠٤، وهناك ألف أخرى على قائمة تنفيذ أوامر الهدم. وأن الهدف من التوسع الاستيطاني، خاصة داخل المدينة القديمة، هو «إيجاد منطقة تربط مستوطنات القدس الشرقية بالمدينة القديمة، وفصل القدس الشرقية، ومستوطناتها عن الضفة الغربية»[٢٥].

المواقف الروسية، هي الأخرى، في طابعها العام، تحاول أن تكون أكثر حيادية، وموضوعية، دون أن يكون ذلك على حساب مصالحها مع إسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية، وهي إلى جانبِ الفلسطينيين، والعرب، ما دام ذلك لا يشكل إزعاجًا للولايات المتحدة الأمريكية، وإسرائيل [٢٦]، وطالما لا يعكر العلاقة بين الطرفين.

في هذا الإطار، كان لأول رئيس روسي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، بوريس يلتسن، موقفه بشأن الصراع العربي الإسرائيلي، والذي تبلور في الآتي [٢٧]:

١ ـ تأييد المفاوضات، وتشجيع العملية السلمية.

٢ ـ تنشيط المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية، وفق مبدأ «الأرض مقابل السلام».

٣ ـ رفض الإجراءات الإسرائيلية، من إغلاق، ومصادرة للأرضي، وزيادة الاستيطان، وتهويد القدس.

٤ ـ عدم تحميل الرئيس ياسر عرفات مسؤولية الإرهاب، والمطالبة بمشاركة أطراف عربية، وأوروبية في دعم «عملية السلام».

اليوم، ترى روسيا، التي هي جزء من «اللجنة الرباعية الدولية للسلام في الشرق الأوسط»، وثاني راعي لعملية السلام في المنطقة، بعد الولايات المتحدة، أن التسوية في منطقة الشرق الأوسط يتوجب أن تستند على :

ـ مرجعية قرارات مجلس الأمن الدولي، والتي تقضي، بين أشياء أخرى، بإنهاء الاحتلال، والعودة إلى حدود ما قبل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧.

ـ إقامة الدولة الفلسطينية.

ـ حل عادل لمسألة اللاجئين.

ـ خارطة الطريق، التي تتضمن التزامات، ينبغي على طرفي الصراع الوفاء بها، فعلى الفلسطينيين الانتهاء من عملية نزع سلاح المقاتلين، كي تكون هناك سلطة واحدة، وقانون واحد، وألا تقع أية أعمال «إرهابية» ضد الإسرائيليين، بينما على الجانب الإسرائيلي أن يوقف النشاط الاستيطاني، وأن يسحب قواته من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ومن ضمنها القدس الشرقية.

ـ حق العرب في القدس الشرقية، حيث تؤكد روسيا، دومًا، آن القدس جزء من الأراضي المحتلة[٢٨].

أخيرًا، تؤكد روسيا بأن ثمة أخطاء في التعامل السياسي الأمريكي مع الصراع الدائر في منطقة الشرق الأوسط؛ لأنها أرادت تسريع المفاوضات بين الفلسطينيين، والإسرائيليين، قبل نضج نقاط معينة وأهمها القدس، حيث لم يتوفر حل وسط لهذه المدينة، وبالتالي فمن الصعب إيجاد حل سريع للقضية الفلسطينية بمنأى عن حل قضية القدس، فمن الخطأ، من وجهة النظر الروسية، تكثيف المفاوضات، وتسريعها دون النظر في تلك المسألة، وحلها؛ لأن إبقاء قضية القدس معلقة سوف يؤدي إلى مزيد من اندلاع العنف، وهذا ما يحدث على أرض الواقع، حاليا[٢٩].

خـاتمـة

من غير الممكن، الآن، العودة إلى الماضي، كما من غير المعقول، أو المقبول، الوقوف عنده، وإبداء الحسرات على ما فات، وما كان، فنحن الآن أمام حقيقة واضحة للعيان، ولا تحتاج إلى برهان، وهي تغيير الأنظمة في أوروبا الشرقية، وزوال الاتحاد السوفييتي، وهو المعسكر الذي كان يتبنى الفكر، والنظام الاشتراكي، واقترب في بعض الأحيان من الرؤى، والمصالح العربية، وأحدث توازنًا في السياسات الدولية، وأعطى لدول العالم الثالث حرية حركة، وهامشًا من المناورة، استطاعت بها تحقيق بعض أهدافها، باستغلال الصراع، والتناقس على قمة النظام الدولي. أما الآن وقد اختلت موازين القوى على الصعيد الدولي لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، التي تملي سياساتها المنحازة، تمامًا، لإسرائيل على الأوروبيين، وعلى روسيا، وغيرها من دول العالم، فمن غير المتصور التوصل إلى حل لقضية القدس، في ظل الإصرار الإسرائيلي على التمسك بها، وعدم التفريط فيها، مهما كان الثمن، وإن افترضنا إمكانية حدوث حل لهذه القضية المصيرية، فلن يكون في صالح العرب، على الإطلاق، فالهوة واسعة بين ما تريده إسرائيل، وما تسمح به، وبين الحقوق المشروعة، والقانونية، والتاريخية، والسياسية، للشعب الفلسطيني، في القدس.

في ظل انهيار البنية الجيو- ستراتيجية، التي قام عليها ميزان القوى التقليدي، على ساحة الصراع الرئيسية، بين الشرق، والغرب، يبقى الأمل معقودًا على استمرار الانتفاضة الفلسطينية، وصمودها المشرف في وجه التحديات الفلسطينية، والإقليمية، والدولية، فلن يحل قضايانا سوانا، الأمر الذي يتطلب الإسراع في تقديم الدعم العربي، والإسلامي، المادي، والمعنوي لها، بالتزامن مع الاستمرار في عملية التفاوض، من أجل قطع الطريق على إسرائيل، التي تريد أن تظهر بمظهر الحريص على التسوية، بينما الفلسطينيون هم الذين يشكلون عقبة برفضهم عملية التسوية السلمية، رغم ما في تلك العملية من زيف، وخداع، ومماطلات، وانحياز فاضح لصالح الطرف الإسرائيلي.

لا شك أن الظرف الدولي الآن يجعل من الوحدة الفلسطينية خيارًا حتميًا، فالقضية ليست في حاجة إلى ضغوط، وعقبات أخرى، يضعها الفلسطينيون، أنفسهم، بتمزقهم، وانقسامهم فيما بينهم، على الجميع اليوم إعلاء المصلحة الوطنية، إذا أردنا حقنا، واستعادة حقوقنا المشروعة، وأهمها القدس الشريف.

هوامش الفصل الرابع:

(١) أنطوان شلحت، ستالين والدولة اليهودية: قراءة في كشوف جديدة، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٧.
http://www.arabs48.com/print.x?cid=19&id=50813

(٢) ا.هـ هانتز، التورط السوفييتي في الشرق الأوسط، مركز الدراسات الإستراتيجية، لندن، تعريب: مروان خير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١، ص ص ٧ـ ١٠.

(٣) الشرق الأوسط، (لندن) ٧/ ٣/ ٢٠٠١.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الشرق الأوسط، ٤/ ٣/ ٢٠٠١.

(٦) د. أحمد يوسف أحمد، ستون عامًا على نشأة إسرائيل: محاولة لاستخلاص بعض الدروس، مقال منشور على موقع مركز الإمارات للدراسات والبحوث السياسية على الإنترنت، ١٥/ ٥/ ٢٠٠٨.
/ www.ecssr.ac.ae

(٧) الشرق الأوسط، ١٨/ ٣/ ٢٠٠١.

(٨) عمر حليق، موسكو وإسرائيل: عرض مدعم بالوثائق لجهود موسكو في خلق إسرائيل وإبقائها، (الدار السعودية للنشر، جدة، ١٩٦٧)، ص ٢٢٢.

(٩) بشارة خضر، أوروبا وفلسطين: من الحروب الصليبية إلى العصر الحديث، (منشورات لاهرماتان، سلسلة فهم الشرق الأوسط)، عرض دكتور صفوت حاتم، منشور على الرابط:
http: / /www.nasseryounfalastin.com /doc /Ouropa٪٢٠wa٪٢٠falastin.doc

(١٠) عبد القادر ياسين، السوفييت وحركة التحرر العربية: محطات سوء فهم، رؤية (غزة)، العدد ٢٤، السنة الثانية، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣، ص ١٧٦ ـ ١٨٣.

(١١) إدريس التكريتي، القضية الفلسطينية والمحيط الدولي، الحوار المتمدن، ٧/ ٦/ ٢٠٠٦ العدد: ١٥٧٤
www.ahewar.org

(١٢) د.أحمد محمد الساعاتي، الاتحاد السوفييتي يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، فلسطين (غزة)، ٤/ ٨/ ٢٠٠٨، العدد ٣٩٤٨ .www.fe-lesteen.ps

(١٣) يوسف حجازي، لا لثقافة النسيان .. الاتحاد السوفييتي يعترف بإسرائيل، التجديد العربي، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٧.

(١٤) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس: دراسات القضية الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٢.

(١٥) فلسطين (غزة)، ١٣/ ٩/ ٢٠٠٨، العدد

(١٦) الشرق الأوسط (لندن)، ١٠/ ٨/ ٢٠٠١، العدد ٨٢٩١.

(١٧) التكريتي، مرجع سبق ذكره.

(١٨) مقابلة مع الكاتب العربي، والباحث الماركسي عبد الحسين شعبان، أجراها هاني الريّس، في شهر آيار (مايو) ١٩٩٠، ونُشر في صحيفة «أنوال» اليسارية المغربية، في عددها الصادر يوم ١٤ اغسطس/ آب ١٩٩٠.

(١٩) سامر نصر، انهيار الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية، وأثرها على عملية الإصلاح السياسي داخل سوريا، الحوار المتمدن، ١/ ٨/ ٢٠٠٨، العدد: ٢٣٦٠ .www.ahewar.org

(٢٠) محمد علي سرحان، اللوبي الصهيوني العالمي والحلف الاستعماري، (اتحاد الكتاب العرب، دمشق، الطبعة الأولى٢٠٠٢، ص ١١٤).

(٢١) د. عاطف معتمد عبد الحميد، روسيا تضع فلسطين والشيشان في سلة واحدة، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٢، موقع إسلام أون لاين الإليكتروني:
http: / /www.islamonline.net /Arabic /politics /2002 /04 /article21.shtml

(٢٢) الرياض (الرياض)، ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٧، العدد ٢٦٦١٩.

(٢٣) بلال الشوبكي، سياسة روسيا الخارجية تجاه القضية الفلسطينية، دراسات شرق أوسطية، العدد (٣٤ـ ٣٥)، على الرابط:
http: / /www.mesj.com

(٢٤) الشرق الأوسط (لندن)، ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٥.

(٢٥) الشرق الأوسط، الجارديان (لندن)، ٧/ ٣/ ٢٠٠٩م.

(٢٦) ياسر الزعاترة، خريطة الطريق: مواقف الأطراف المختلفة وآفاق التطبيع، موقع الجزيرة الإليكتروني:
http: / /www.aljazeera.net /NR /exeres /C22E5E48126049CE98C71A1E3ED688D4.htm

(٢٧) الشوبكي، مرجع سبق ذكره.

(٢٨). د. نورهان الشيخ، كيف ترى قيادات الكرملين علاقات روسيا بالدول العربية؟، على الرابط: http: / /www.ru4arab.ru /cp /eng.php

(٢٩) محمد الصويغ، الموقف الروسي من الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، اليوم الإليكتروني، ٣/ ٩/ ٢٠٠٣، العدد ١١٠٣٧.

الفصل الخامس

الفاتيكان والقدس

محمد حسني

«الفاتيكان»، «والقدس» بقعتان تحملان تاريخًا خاصًا، يختلط فيه الديني والسياسي، مع فروق كثيرة، بالقطع، وبالتالي فإن علاقة الفاتيكان بالقدس هي بالتأكيد علاقة لا يمكن النظر إليها إلا من المنطلق سالف الذكر.

تتمسك الفاتيكان بالتأويل النصي للكتاب المقدس، بعهديه، القديم والجديد، وفقًا للدلالة الكاثوليكية، من ناحية، كما تتمسك بموقعها السياسي، كدولة منخرطة في المجتمع الدولي، وبالمثل، فإن موقفها من فلسطين، ككل، وبالقدس، بوجه خاص، يتأثر بهذه الثنائية. ويتمسك الفاتيكان بالنص المدوَّن، دون النظر إلى واقعيته التاريخية، أو حتى التطورات التاريخية، التي أعقبت تدوينه[1]. ويذكر أن الرهبان الكاثوليك كانوا من أوائل من استشعر بالخطر الصهيوني، فقد نشر هنري لامنس اليسوعي مقالًا في مجلّة «المشرق»، عام ١٨٩٩م، بعنوان «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم»، تحدّث فيها عما ذكرته صحف الآستانة عن انتشار اليهود في فلسطين، وحثّ السلطات العثمانية على مواجهة النشاط الصهيوني. كان انتشار الرهبان والمبشّرين اليسوعيين الكاثوليك مكثّفًا، في تلك الفترة، ورغم عدم استفحال النشاط الصهيوني، وقتها، فإنه كان يتناقض تناقضًا حادًّا مع المخطّط الكنسي. فقد جاء ردّ البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ ـ ١٩١٤م)، في الخامس والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٠٤، على تيودور هرتزل، برفض حاسم بشأن توطين اليهود في فلسطين، بقول البابا: «إن اليهود لم يعترفوا بربّنا يسوع المسيح، ولأجل ذلك ليس بوسعنا الاعتراف بالشعب اليهودي»، فنلاحظ أن البابا يتحدث من منطلق لاهوتي، وبالطبع، يخضع المسلم للمعيار نفسه[2].

بين الانتداب ونكبة ١٩٤٨

عقب الحرب العالمية الأولى، عبر البابا، بندكتوس الخامس عشر (١٩١٤ـ ١٩٢٢)، عن فرحته باحتلال جيوش

الحلفاء للأماكن المقدسة: «وبعد أن استعاد المسيحيون الأماكن المقدسة، على يد جيوش الحلفاء، شاركنا نحن من كل قلبنا في الابتهاج العام الذي غمر نفوس الخيرين»، لكن البابا عبر عن قلقه: «أما الآن، وفي غمرة الابتهاج العظيم الذي يشمل جميع الخيرين وفيما تعود هذه الأماكن إلى يد المسيحيين، فإن قلقنا يشتد مع اقتراب ما سوف يقرره بشأنها مؤتمر السلام، الذي سينعقد، قريبًا، في باريس، إذ من المؤكد أنه سيؤلمنا جدًّا، كما سيؤلم جميع أبنائنا المسيحيين، أن يصبح لغير المسيحيين وضع مميز في فلسطين، لا بل أكثر من ذلك أن يعهد بأمر تلك المعابد المقدسة العائدة للمسيحيين إلى سواهم»[٣].

مع تقسيم تركة الدولة العثمانية، رجل أوروبا المريض، سعى الفاتيكان إلى تدويل القدس وجوارها، أبو ديس وبيت لحم وعين كارم وشعفاط، وهو يعني عمليًّا، بنظر الفاتيكان، الإشراف على المقدسات المسيحية؛ لأن نسبة الكاثوليك هي الأكثر بين المذاهب المسيحية. وظل مطلب تدويل القدس يطرح، من آن لآخر، حتى بعد النكبة، وخضوع القدس الشرقية للسيادة الأردنية[٤]!

كان الفاتيكان مؤيدًا، بل ومرحبًا بالانتداب البريطاني: «لا يعارض الكرسي الرسولي، مطلقًا، القرار الذي اتخذته هيئة الأمم بشأن تكليف إنكلترا مهمة الانتداب في فلسطين. لقد سبق له أن أشاد، مرارًا، بروح العدالة، وعدم التحيّز، التي تتحلى بها هذه الأمة»[٥]. وقبل ذلك أعلن البابا قبوله لتصريح بلفور: «إن الكرسي الرسولي لا يرى مانعًا أن يكون لليهود حقوق مدنية في فلسطين، مساوية لتلك التي تتمتع بها القوميات والطوائف الأخرى هناك»[٦].

لم يبد الفاتيكان معارضة لتبني بريطانيا للمشروع الصهيوني، ولكنه كان يخشى على حقوق الكاثوليك في القدس من الصهاينة، ومن البروتستانت، ومن ميل بريطانيا إلى الأرثوذكس، كما أنه لم يكن يثق، تمامًا، بالمسلمين!. بعد أن عبر أ. مسينابو اليسوعي عن فرح الكاثوليكية والمسيحيين بـ «تحرير فلسطين من النير العثماني»، ذكر بأنه «ظهرت غيوم سوداء في سماء الأرض المقدسة»، فالغيمة الأولى «وعد بلفور»: «هذا الخط السياسي المعادي لحقوق الشعب العربي، الذي استبيحت أرضه، من دون استشارته، أو الوقوف على مشاعره، أملته بريطانيا على القوى الحليفة، معتبرة إياه قاعدة مشتركة، للتحرك من أجل التنظيم الجديد في فلسطين». أما «الغيمة الثانية» فتمثلت فيما قامت به بريطانيا في نهاية الحرب بإدخال إصلاحات إدارية على نظام الانتداب، و«اتضحت نوايا بريطانيا في إقامة محمية لها، ذات طابع بروتستانتي في الأماكن المقدسة في فلسطين»، والقضية هي حقوق الكاثوليك في القدس: «لا بد من التنبيه إلى أن سياسة الانتداب في إدارة فلسطين انتهجت توجهًا مزدوجًا، بهدف قضم حقوق الكاثوليك وتقليصها، فمن جهة كانت تمالئ الحركة الصهيونية، مُطلِقة يدها في اجتياح المنطقة، تحت رعاية الحاكم العبري هربرت صمويل. ومن جهة أخرى، كانت تساند الجانب «الأرثوذكسي»، على حساب الجانب الكاثوليكي»[٧]. وقد عبر الفاتيكان عن موقفه السلبي من الصهيونية، سياسيًّا وأخلاقيًّا: «الصهيونية، استنادًا إلى مصادر موثوقة، ترمي إلى اغتصاب أملاك المسيحيين والعرب، تدريجيًّا، وتسليمها إلى الصهاينة أنفسهم. ولكي يرفعوا عدد اليهود في البلاد، قاموا بتنظيم الهجرة اليهودية من روسيا إلى فلسطين، وكان معظم الوافدين إليها، تقريبًا، من البولشيفيين...هذا، ولم يكن العمل الصهيوني أقل سوءًا، على الصعيد الأخلاقي، بسبب تشجيعه على تفشي المفاسد بشكل رهيب، واستشرائه في الأمكنة التي سيطر عليها الصهاينة من الأرض التي ارتوت بدماء السيد المسيح. ففتحت بيوت الدعارة في كل من القدس ويافا والناصرة..»[٨].

في الوقت نفسه، أدى تطور الوعي العربي بالخطر المحدق، لا سيما بعد صدور تصريح بلفور، إلى تكاتف المسلمين والمسيحيين في جبهة قومية، داخل ما عرف بالمؤتمر الوطني الفلسطيني، المعبر عن التضامن الإسلامي المسيحي، عبر الجمعيات الإسلامية المسيحية التي انتشرت في كل المدن الفلسطينية، والتي تطوّرت إلى انتظام حزبي في الثلاثينيات. فسعت الوفود العربية إلى تعريف الفاتيكان بالمخاطر المحدقة بفلسطين، فاستقبلهم البابا بنديكتوس الخامس عشر(١٩١٤ ـ ١٩٢٢م)، سنة ١٩٢١، حيث اقترح تدويل القدس وفلسطين، وهو ما لم يلقَ ترحيبًا، لا من الطرف العربي، ولا من سلطة الانتداب البريطاني، التي كانت تتهيأ لإنشاء «وطن قومي لليهود»، ولم تشفع المشاركة المسيحية العربية للتأثير في مجريات الأمور بشأن فلسطين. وهناك من يرى أن الفاتيكان نظر بريبة وقلق للثورة الوطنية الفلسطينية(١٩٣٦ـ ١٩٣٩)، وكذا المد القومي، باعتباره لا يخلو من مكوّن إسلامي، وأن تعامل الفاتيكان مع المسيحيين العرب لم يكن من أجل مصالحهم، بل من أجل بسط نفوذه[٩].

كان الهدف من وراء طلب التدويل هو عدم خضوع القدس لأية سيطرة، إسلامية كانت أو يهودية، بل وحتى مسيحية بروتستانتية؛ ولذلك، فإنه خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ١٩٢٠ـ ١٩٤٨، كان الفاتيكان يرفض فكرة دولة يهودية[١٠]. وقد كشف المجلد التاسع من وثائق الفاتيكان، المتعلقة بفترة الحرب العالمية الثانية، أن المونسينيور أنجيلو رونكالي، مندوب الفاتيكان في تركيا، وقتئذ، الذي أصبح، فيما بعد، البابا يوحنا الثالث والعشرين(١٩٥٨ـ ١٩٦٣)، قد كتب، في ١٩٤٣، عن اعتراض الفاتيكان التام على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، واعتبر فكرة إعادة بناء يهودا محض وهم. وقد تضمنت الوثائق، أيضًا، بيانات من المسؤولين عن الشؤون الخارجية، توضح أن البابا لم يوافق، أبدًا، على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وأنهم، لو أرداوا ذلك، فمن اليسير العثور على أرض أخرى أفضل لهم. وأن وقوع فلسطين تحت سيطرة اليهود سيؤدي إلى مشكلات عالمية، ويثير استياء الكاثوليك في العالم[١١].

حول قرار التقسيم

يمكن تلخيص موقف الفاتيكان من قرار تقسيم فلسطين ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، في القلق، من نشوب صراع حتمي، بين العرب واليهود، وأن العرب سيتعرضون للقهر، بسبب تلقي إسرائيل دعما غير مشروط من الولايات المتحدة، وروسيا، لكن الفاتيكان يؤكد أيضا على فكرة «إقرار الأمر الواقع!». كذلك التأكيد على ما يعني الفاتيكان من القضية، برمتها: «أما ما يهمنا، بالأخص، نحن المسيحيين، ولا سيما الكاثوليك، بشأن القضية الفلسطينية الشائكة، فليس تسويتها من الناحية السياسية فقط، بل تنظيمها النهائي والقانوني، وفق اتفاقات دولية محددة، خاصة بوجهها الديني»[١٢].

١٩٤٨-١٩٦٧

كرر البابا، بيوس الثاني عشر(١٩٣٩ـ ١٩٥٨)مجددًا، المطالبة بـ: «إضفاء الطابع الدولي على منطقة القدس وجوارها»[١٣]. وفي مناسبة أخرى قال البابا بيوس الثاني عشر: «لقد سبق لنا في العام الماضي أن وجهنا رسالتين عامتين طالبنا فيهما، أيها الإخوة الأجلاء، إقامة الصلوات العامة والرسمية لاستعجال وقف النزاع الذي يدمي الأرض المقدسة، وللحصول على إقامة النظام العادل فيها بما يضمن الحرية الكاملة للكاثوليك، ويكفل حماية تلك الأرض المقدسة والمحافظة عليها».

لم يعترف الفاتيكان بإسرائيل، كما لم يعترف بسيادتها على القدس، أو اعتبارها عاصمة لإسرائيل. ومنذ ذلك الحين، فإن الفاتيكان تطالب بـ «تدويل القدس»، بشطريها، مع وجود إدارة عربية في القدس العربية، وإدارة يهودية في الشطر المحتل عام ١٩٤٨، على أن يوضع دستور خاص بالمدينة، بشطريها، تشرف الأمم المتحدة على تطبيقه. كما أن الفاتيكان اعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وحق عودة اللاجئين[١٤].

بعد إعلان دولة إسرائيل، حدث ما يطلق عليه البعض، تحوّل جذري، على المستويين اللاّهوتي، والسياسي، للفاتيكان، فخلال العقد ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠، بدأ الحديث عن طرح مستجدّ يتلخّص في الحديث عن التراث اليهودي المسيحي المشترك، باعتبار إسرائيل هي «الجذر» والكنيسة هي «الشجرة»، يمثل فيها المسيح «التوراة المجسّدة». إضافة إلى التأكيد على الأصل اليهودي للمسيح، وإبراز ذلك، والإلحاح عليه، فأنتجت المسألة أطروحة تأويلية جديدة للعهدين القديم والجديد، والتي ستتجلّى مؤثّراتها لاحقًا في رسالة ـ Nostra Aetate ـ ١٩٦٥، التي ستلغي مقولة «الشعب قاتل الإله» (أي المسيح)، وما سيتبعها من مساع لتنقية التراث المسيحي وتصفيته من أي شيء معادٍ لليهود، اشتغل به رهبان متنصّرون من أصل يهودي. فالمتابع لتاريخ اللاهوت المسيحي الأوروبي يدرك، بيُسر، الخط الاتباعي للمنطلقات الربّانية[*] اليهودية الكبرى: الشعب المختار، الماشيح، العهد، الأرض المقدّسة، جغرافية التوراة.

فالفاتيكان في إرثه السالف العائد لحقبة الآباء، وخصوصا أثناء الهيمنة الرومانية، شهد أخطر التحويرات اللاهوتية، بما خلّفته من غياب هوية لاهوتية مستقلّة للكنيسة، متحرّرة عن السلطة السياسية. الأمر نفسه يتكرر في العصر الحديث، فالكنيسة، التي اعتبرتها الثورتين الفرنسية والبلشفية أخطر المؤسّسات الدغمائية على الكينونة البشرية، عادت للوعي الأوروبي، ليس بسبب تحوير طروحاتها أو إصلاحها، ولكن بفعل الدور الوظيفي لها داخل الكتلة الرأسمالية، التي لا تتوانى عن توظيف اللاّمعقول والأسطورة والغيبية لمواجهة المد الشيوعي الزاحف حينئذ. ولعل تنصيب البابا الراحل يوحنا بولس الثاني (١٩٧٨ـ ٢٠٠٥)، ذي الأصل البولوني، إحدى العلامات التي باتت جلية في إستراتيجية الرأسمالية لمواجهة الكتلة الاشتراكية السابقة. وقد تطلب صهر المؤسّسة الكنسيّة ضمن الجهاز الأيديولوجي الرأسمالي نزع كل الألبسة التقليدية والبالية عنها، و استلزم إنتاج خطاب لاهوتي معدّل، بشأن «الأعداء الأبديين، قاتلي الرب، اليهود». فالكنيسة المرسملة مستعدّة لإنتاج أي خطاب تجاه أي قضية أو أيديولوجيا بحسب متطلّبات قوى النفوذ المتحكّمة بالساحة. فما عاد للخطاب اللاّهوتي الفاتيكاني استقلاله عن الواقع السياسي والاقتصادي؛ ولذلك كان مصير اللهاويت التحرّرية، والثورية، والنقدية التي تواجدت في الأطراف، العزل والتهميش، والتأثيم والحرمان لقادتها، داخل هذ المناخ تولّد الخطاب الفاتيكاني تجاه اليهودية وإسرائيل، وبالبديهة، تجاه قضية القدس، والقضية الفلسطينية ككل[١٥].

على خلفية ما سبق، حدث التقارب بين الصهاينة وبين الأوساط الدينية الكاثوليكية في الغرب، وقد كلف البابا، يوحنا الثالث والعشرون، الكاردينال اليسوعي الألماني أوغسطين بيا بوضع مسودة عن العلاقات الكاثوليكية ـ اليهودية، وقد صدر تصريح الفاتيكان في ١٩٦٤، الذي يقضي بتبرئة اليهود من تهمة «قتل الرب»، ومنح اليهودية اعترافا بتساويها مع الديانة المسيحية، وحذف المقاطع والنصوص التي يراها اليهود مساسًا بهم من كتب الصلوات الكاثوليكية[١٦]. وقد استغلت الصهيونية عقد الذنب التي نشأت نتيجة سكوت الفاتيكان على جرائم النازية، وكانت

(*) نسبة إلى الربانيين، أو الربانيم اليهود.

لمحاكمة أدولف أيخمان، التي تزامنت مع اللجان التحضيرية للمجمع المسكوني العام،١٩٦٠، أثر على مناقشات اللجان. من ناحية أخرى، شعرت الكنيسة بخطر على نفوذها في أوروبا إثر انتشار الماركسية، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد تبلورت، إثر ذلك، حركات مثل «حركة التجديد الإنجيلي»، التي عملت على إبراز التلازم والتكامل الروحي والتاريخي بين العهدين القديم والجديد، وتأسست الجمعيات المسيحية- اليهودية في ألمانيا، وفرنسا، وهولندا، وبلجيكا.

أما على الصعيد الصهيوني، فكان لقيام إسرائيل، وزيادة النفوذ الصهيوني أثر في الحصول على وثيقة التبرئة، التي كانت بمثابة كسر لآخر حاجز لقبول اليهود على قدم المساواة في العالم الغربي. وقد اعتمدت إسرائيل في مساعيها على شخصية الكاردينال أوغسطين بيا، الذي نعتته بالشخصية الفذة، لا سيما وأنه قضى نحوثلاثة وخمسين عاما في الدراسات العبرية[١٧].

في المقابل، حاولت الكنيسة الكاثوليكية، في البلدان العربية، التخفيف بقدر المستطاع من موقفها، لكن رعاياها من العرب كان لهم موقف حاسم باعتبار الوثيقة خروج عن الكتاب المقدس، والأهم، اعتبارها وثيقة سياسية، أكثر منها دينية. وقد أعلنت كنائس الديار المقدسة تحذيرها للمجمع المسكوني، ودقت أجراس الكنائس، الكاثوليكية والأرثوذكسية، في القدس ورام الله، في صباح ١٦ سبتمبر / أيلول١٩٦٥ . أما كنيسة اللاتين الكاثوليك، فقد أعلنت اعتزامها التحول إلى الكنيسة الشرقية، في حال إقرار الوثيقة، كما أرسل السيد روحي خطيب، أمين القدس، رسالة إلى الفاتيكان، باسم أمانة القدس، التي تضم ممثلين عن كل الطوائف، طالب فيها بإعادة النظر في الوثيقة[١٨].

أعلن البابا، بولس السادس، في الاجتماع الثاني للمجمع المسكوني، في نهاية ١٩٦٣، عقب توليه مهام منصبه، أنه يعتزم زيارة الديار المقدسة. وقبل زيارته، قام وفد من المطارنه بزيارة إسرائيل، وقد استقبلهم رئيس دولة إسرائيل، زلمان شازار، وقام الوفد بزيارة الأماكن المقدسة، والجامعة العبرية، ومُنحوا هدايا تذكارية. وقد تكهنت الصحف الإسرائيلية بأن للزيارة مغزًى سياسيًا، محذّرة من موقف الفاتيكان الطامح لتدويل القدس[١٩].

في مطلع عام١٩٦٤، قام البابا بزيارة الأراضي المقدسة، فقام ليفي إشكول، رئيس الحكومة الإسرائيلية، آنذاك، بإصدار بيان ترحاب بزيارة البابا للمنطقة، وإلى مغزاها التاريخي، وفي الخامس من يناير/ كانون ثان١٩٦٤، دخل البابا «إسرائيل»، واستقبله رئيس الدولة، آنذاك، زلمان شازار، الذي حاول استغلال الزيارة سياسيًا، لكن البابا أكد على أن الزيارة بهدف الحج فحسب، وقد رفض الاعتراف بأن القدس عاصمة إسرائيل، بل تحاشى ذكر اسم «دولة إسرائيل»[٢٠]. حتى إن رسالة الشكر، التي بعث بها البابا إلى الرئيس شازار، كانت معنونة «إلى السيد زلمان شازار، رئيس إسرائيل، تل أبيب»، فقامت الدنيا ولم تقعد، ولكن الواضح أن البابا تعمد عدم ذكر القدس، رغم أنها مقر رئيس الدولة[٢١]. وبالرغم من ذلك، لا يمكن أن نرى الزيارة، والزيارة التمهيدية، بكل التفاصيل المذكورة، زيارة دينية فحسب، فرائحتها السياسية تزكم الأنوف.

وقد تباينت الآراء في إسرائيل حول زيارة البابا، فبينما حذر البعض من أن الاحتفاء الزائد بالبابا قد يقلل من هيبة الدولة، رأى البعض الآخر فوائد جمة من الزيارة، حتى في مجال السياحة الدينية. وقد ذكرت الإذاعة الإسرائيلية في٢٤يناير/ كانون ثان١٩٦٤ خبر زيارة السيناتور الإيطالي لودفيكو مونتيني، لمؤسسة «ياد فا شيم»، التي تخلد ذكرى ضحايا النازية، وأشارت الإذاعة أن السيناتور لودفيكو بأنه أخو البابا بولس السادس. كما أعلن زلمان شازار

أنه سوف يقوم برد الزيارة للبابا في الفاتيكان، وبدأ على الفور في الترتيب لبروتوكولات الزيارة[٢٢]. وقد انتقدت الصحف عدم إشراك الحاخامات في استقبال البابا، كما أن حزب «حيروت» الإسرائيلي، اليميني القومي، وجه انتقادًا حادًّا لمراسم الاستقبال، خاصة استقبال الرئيس شازار للبابا في مجدو وليس القدس، واعتبر حيروت ذلك انتقاصًا من سيادة الدولة[٢٣].

بعد ١٩٦٧

بعد حرب١٩٦٧، زار القاصد الرسولي في القدس، رئيس الأساقفة، بيولاغي، مخيمات اللاجئين في الأردن، وقال: عندما يغادر العرب القدس فستغادر المسيحية كذلك معهم، وإذا رحل هؤلاء، فسيبقى الأساقفة والكهنة، الكاثوليك والأرثوذكس، حراسًا على أماكن تاريخية، ومتاحف فارغة[٢٤].

في التاسع من يونيو/ حزيران١٩٦٧، ذكرت مصادر في الفاتيكان أن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة، القاضية بتدويل القدس، تنسجم ورغبات البابا، كما انتقد البيان إسرائيل؛ لأنها بدأت القتال[٢٥]. وفي٢٠آب/ أغسطس١٩٦٧، وزعت السفارة البابوية في بيروت بيانًا شرحت فيه موقف البابا، بولس السادس، يُذْكَر أن هدف الكرسي الرسولي هو الحفاظ على الأماكن المقدسة، وأنه يسعى من أجل قيام أعضاء لجنة الهدنة التابعة للأمم المتحدة، وقناصل الدول لكي يقوموا بهذه المهمة. وقال البابا: «إن المصلحة العليا لذرية إبراهيم الروحية: يهود، مسيحيون، مسلمون، أن تعلن القدس مدينة مفتوحة، وأن تبقى في مأمن من الأعمال الحربية، وكان البابا قد ذكر في اجتماع الكرادلة بعد أسابيع من العدوان الإسرائيلي «يجب أن تبقى القدس...مدينة الله...فتنعم بدستور خاص، مكفول دوليًّا»[٢٦].

في أواخر يوليو/ تموز١٩٦٧، التقى سفير إسرائيل في روما، ووزير خارجية الفاتيكان، وأبلغ الأول وزير الخارجية بأن إسرائيل تحافظ عل الأماكن المقدسة، وكان جواب الفاتيكان «إن من حق أصحاب تلك الأماكن أن يحددوا مطالبهم بشأنها»[٢٧]. في ٥يوليو/ تموز١٩٦٧، استقبل البابا، بولس السادس(١٩٦٣ـ١٩٧٨) سفيرَ إسرائيل في إيطاليا، الذي سافر إلى إسرائيل، في اليوم نفسه، لإطلاع حكومته على الحوار الذي دار بشأن الأماكن المقدسة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستقبل فيها البابا السفير الإسرائيلي، وتكررت الزيارة في١٧يوليو/ تموز من العام التالي، تبادل الطرفان خلالها الهدايا التذكارية. وفي ٦يوليو/ تموز١٩٦٧، وأثناء جولة مكوكية في العواصم الأوروبية، رد نائب وزير الدفاع الإسرائيلي، شمعون بيريس، في سؤال عن طلب الفاتيكان تدويل القدس، «الفاتيكان لم ينفك عن تقديم هذا الطلب، إلا أنه قبل عمليا بالسيطرة الأردنية على الأماكن المقدسة، وآمل ألا يفكر الفاتيكان بأننا أقل قدرة من الأردن على حماية مصالحه»[٢٨]. وفي المقابل دعت إسرائيل البابا إلى إعلان اعترافه بدولة إسرائيل، وبالقدس، وهو ما رفضه الفاتيكان بشكل قاطع[٢٩]. في منتصف ديسمبر/ كانون أول١٩٦٧، جرت محادثات بين إسرائيل والفاتيكان حول مصير الأماكن المقدسة، وكذلك اعتراف الفاتيكان بإسرائيل، التي لم تعترف بها في١٩٤٨، وقبولها بضم القدس[٣٠].

ذكرت صحيفة الفاتيكان «أوبسرفاتوري رومانو»، في ٢فبراير/ شباط١٩٦٨، أنه منذ أن أصبحت الأماكن المقدسة في يد إسرائيل، فإن إقامة الحجاج المسيحيين أصبحت أكثر سهولة، ومستحبة[٣١]. كما أن الأب فلانيري،

رئيس اللجنة الدينية من أجل التقارب المسيحي ـ اليهودي، جاء في زيارة لإسرائيل، بدعوة من خارجيتها، وصرح بأن إسرائيل تحافظ على الأماكن المقدسة أكثر مما كانت في عهد السلطات الأردنية.

في ٥سبتمبر/ أيلول ١٩٦٨ أعلن ممثل الفاتيكان في إسرائيل، كاساروللي، خلال اجتماعة مع موظفي المجلس الأوروبي في روما، اهتمام الفاتيكان بالحفاظ على الوضع الراهن للأماكن المقدسة بالقدس. وفي ٢٥مايو/ آيار ١٩٦٩أعلنت صحيفة «دافار» الإسرائيلية أن الفاتيكان قد عيّن، رسميًا المونسينيور فيولاجي ممثلًا له في القدس وفلسطين، ورغم عدم اعتراف الفاتيكان، وقتئذ، بإسرائيل، إلا أنه تمتع بمركز السفير الرسمي الكامل. وقد علقت صحيفة «جيروزاليم بوست»، على اجتماع وزير الخارجية الإسرائيلي آنذاك، آبا إيبان، الذي تم استقباله بصفته الرسمية، في مكتب البابا، وكان هناك تقارب في وجهات النظر، بشأن الأماكن المقدسة، والأهم أن كلمة «تدويل القدس» لم تطرح البتة، ويذكر في الصدد نفسه أن سفير المغرب بالأمم المتحدة عندما قابل البابا، قبيل عقد المؤتمر الإسلامي في الرباط، أعرب عن عدم تفاؤله من المقابلة[٣٢].

في غضون ذلك، وقع حادث حريق الأقصى، في ٢١ أغسطس/ آب عام ١٩٦٩م، على يد متطرف يهودي، وقد عبر البابا، بولس السادس، عن أسفه لما حدث، لكنه لم يوجه أية إدانة للمجرم الذي ارتكب الجريمة: «هناك حدث نأسف له أشد الأسف، يضاف إلى سلسلة الاضطرابات القائمة في تلك المنطقة، وهو ـ كما تعلمون ـ الحريق الذي شب وأحدث أضرارًا في الجامع الأقصى، في القدس، المدينة المقدسة، حيث الأماكن التي تكرمها الأديان التوحيدية الثلاثة، وألحق به أضرارًا فادحة.... ونتمنى ألا يتفاقم الوضع الشديد التوتر والحساسية في الشرق الأوسط، آملين ألا تتردى الحالة، وتؤدي إلى أعمال عنف جديدة، أو إلى مزيد من الأحقاد الشرسة التي قد تسيء إلى قضية هي في نظر الجميع قضية عادلة، تستحق العدل والسلام»[٣٣].

لم يمر وقت طويل على الحادث، حتى ظهرت وثيقة، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٩، وزعها الفاتيكان على الكنائس الكاثوليكية، بشأن اتخاذ التدابير اللازمة لتحسين العلاقات باليهود وبإسرائيل، وهي الوثيقة الأولى التي تستند إلى وثيقة ١٩٦٥، المذكورة آنفًا، والأهم، أنها أول وثيقة تذكر اسم «إسرائيل»[٣٤].

كثيرا ما عبر البابا عن ألمه الشخصي لما يعانيه الشعب الفلسطيني، بينما لم يكن للفاتيكان موقف واضح من المقاومة الفلسطينية، إلا أن انطلاق الثورة الفلسطينية كان له الأثر البالغ في تحول موقف البابا من القدس. فقد شهد عام١٩٧١ أزمة حادة بين إسرائيل والفاتيكان، حيث وجه البابا بولس السادس، في ١٣مارس/ آذار ١٩٧١، نداءً، طالب فيه، مجددًا، بنظام دولي خاص لمدينة القدس. كما نشرت الصحيفة الرسمية للفاتيكان مقالًا ينتقد بشدة سياسات تهويد المدينة، رغم عدم إبداء اعتراض قبل ذلك، وأدان كذلك عمليات الطرد الجماعي للأهالي العرب[٣٥].

جاء الرد الإسرائيلي سريعًا وحادًا، إذ اتهمت «جيروزاليم بوست» البابا بأنه يردد آراء تصدر من الدول العربية، كما أن آبا إيبان وجه نقده للبابا نفسه، واتهمه بالصمت على ما تعرضت له المقدسات اليهودية من تدنيس وتدمير، حسب ادعاء إيبان، خلال عشرين سنة. لكن الفاتيكان لم يتراجع عن موقفه، وفشلت كل محاولات إسرائيل للحصول على اعتراف البابا بإسرائيل، حتى طالب متطرفون صهاينة، من أتباع مئير كهانا، بمنع المبشرين المسيحيين من مزاولة نشاطهم ردا على ذلك[٣٦].

في عام ١٩٧٤، قال البابا بولس السادس: «إن استمرار أوضاع تفتقر إلى أساس قانوني ومعترف به، وتتوافر له الضمانات الدولية، ويراعي حقوق الجميع، لن يؤدي إلا إلى أن يصبح ذلك الحل أكثر صعوبة. ودعا إلى المزيد من الحماية الدولية للمقدسات، وذكر بأن زوال الجالية المسيحية في القدس سيجعل الأماكن المقدسة كالمتاحف[٣٧]. وقد قابلت الفاتيكان الممارسات والإجراءات الإسرائيلية لتغيير معالم المدينة، أي تهويدها، بالرفض، حيث ذكر المتحدث الرسمي للفاتيكان، ردًا على ما ذكرته صحيفة إيطالية، عن مبادرة جديدة للفاتيكان، بشأن القدس، «مجرد خيال» وكانت المبادرة، حسب الصحيفة، تطالب الأمم المتحدة بجعل القدس مدينة حرة ودينية، تديرها هيئة دولية، تضم مسيحيين، ومسلمين، ويهود.

تراجع موقف الفاتيكان المعلن بشأن تدويل القدس، ففي ٥ فبراير/ شباط ١٩٧٤ صدر تصريح رسمي عن الفاتيكان جاء فيه أن الكنيسة الكاثوليكية في روما لم تعد تتطلع إلى تدويل القدس؛ لأن هذا الإجراء غير واقعي، وأن الكنيسة ترغب في حرية الإشراف على الأماكن المقدسة، وتنادي بحرية الأديان[٣٨].

كامب ديفيد

حينما بدأت محادثات كامب ديفيد قال البابا: «... إنني أرجو أن يكون السلام عادلًا، فيُرضي جميع الفرقاء، وأن يكون كاملًا، فلا يترك ناحية بدون حل، بما في ذلك مشكلة الشعب الفلسطيني، وأمن إسرائيل، وكذلك القدس». ولكن، في الخطاب الذي ألقاه البابا أمام الأمم المتحدة في تشرين أول ١٩٧٩، عبر عن قلقه من عدم التوصل إلى سلام حقيقي، رغم كامب ديفيد، ودعا مجددًا إلى تدويل القدس، وتسوية عادلة لقضية الشعب الفلسطيني[٣٩]. وقد ظهر، في تلك الآونة، مشروع، نسبته صحيفة فرنسية إلى هنري كسينجر، وزير الخارجية الأمريكي، رمى إلى تقسيم القدس الشرقية إلى أحياء، من بينها الحي المسيحي من باب العمود، وباب الخليل تحت إدارة الفاتيكان[٤٠].

في أول لقاء عام له بعد انتخابه، صلى البابا، يوحنا بولس الأول (١٩٧٨)، من أجل نجاح مفاوضات كامب ديفيد: «لذلك أود أن نصلي معًا من أجل نجاح اجتماعات كامب ديفيد، لكيما تمهد هذه المحادثات الطريق نحو إقامة سلام عادل وكامل... ونعني بـ(عادل) تلبية مطالب جميع أطراف النزاع. ونعني بـ(كامل) الاهتمام بكل قضية وعدم تركها من دون حل: قضية الفلسطينيين، وقضية أمن إسرائيل، وقضية المدينة المقدسة»[٤١]. وحول القدس قال: «فإني أتمنى قيام نظام خاص، على ضمانة دولية، كما سبق أن أشار إليه سَلَفي بولس السادس، نظام يراعي الطبيعة الخاصة بالقدس...»[٤٢].

بصدور قرار الكنيست بضم القدس العربية في يوليو/ تموز ١٩٨٠، أدان الفاتيكان الإجراءات الإسرائيلية، كما أكد الارتباط الحميم للدين الإسلامي بالقدس[٤٣]. وفي ١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٨، أعلن البابا يوحنا بولس الثاني، في مقر جمعية الصحفيين الأجانب برومانيا، أن الكرسي البابوي يساند حق اليهود في الحصول على وطن لهم، وأيضًا يساند الشعب الفلسطيني في الحصول على وطن لهم. ومع بدء عملية السلام في مدريد عام ١٩٩١، تمكنت إسرائيل من حصولها على اعتراف الفاتيكان بها في ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٣. وإذا كان الفاتيكان قد أقام علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، إلا أنه اختار تل أبيب موقعًا لسفارته، ومن ثم يكون ذلك اعترافًا صريحًا بأن الفاتيكان لا يعتد بما تتخذه إسرائيل حيال مدينة القدس[٤٤].

في مايو/ آيار ١٩٩٦، أدان البابا يوحنا بولس الثاني الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل، والممارسات الإسرائيلية

التي تتخذها إسرائيل، وأكد أن أي قوانين تسن بهذا الشأن تعد باطلة[٤٥]. وجدير بالذكر أن اليهود ادعوا بحقهم التاريخي في فلسطين وبوجود الهيكل تحت مسجد الصخرة والأقصى، وأن سور «حائط البراق» هو من بقايا سور هيكل سليمان، لكنهم لم يدّعوا أي حق في المقدسات المسيحية، عدا كنيسة العشاء السري، «العلية»[٤٦]!

في تلك الآونة، كتب الحاخام، بنيامين بليخ، من نيويورك، تحت عنوان «سر البابا» عن التحولات اللاهوتية التي شهدتها المسيحية في القرن العشرين، وذكر أن البابا معني بمسألة القدس، ربما أكثر من الفلسطينيين، ورأى بليخ أن المسألة في جوهرها، وهي كذلك في رؤية الفاتيكان، حسب زعمه، هي صراع بين الأديان، وبالتالي، فهو يرى أمرًا واقعًا، هو انتصار إحدى الديانات، أي اليهودية[٤٧].

خلال زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للقدس، في ربيع عام ٢٠٠٠، تحدث البابا عن مسيرة الود والتفاهم بين المسيحيين واليهود، كما تحدث عن تواصل تاريخ اليهود، الذي تكلل بدولة إسرائيل[٤٨]. بينما اتسمت كلمته، خلال زيارته للحرم الشريف، بحضور الشيخ عكرمة صبري، باقتصار الحديث على التفاهم والتسامح، وما إلى ذلك[٤٩].

لقيت زيارة البابا، يوحنا بولس الثاني، أصداءا واسعة، على الأصعدة الدولية والعربية، والإسرائيلية، وقد صرح، مسبقا، البابا ميشيل صباح، بطريرك اللاتين بالقدس، بأن زيارة البابا روحية، وليست سياسية، بالمرة[٥٠]. ركز خطاب الرئيس الإسرائيلي، عزرا وايزمان، على أن القدس عاصمة إسرائيل، وعرج على التذكير بأحداث النازية التي تعرض لها اليهود[٥١]. أما الحاخام ميخائيل ملكيئور، ففي خطاب طويل أمام البابا، تحدث فيه عن تاريخ اليهود، وآثار الهيكل، حسب زعمه، المدفونة تحت الجبل، وتاريخ اليهود الممتد، وارتباطهم الأبدي بـ «العودة» إلى صهيون، ثم عرج، مثل رئيسه، على تعذيب اليهود على يد النازيين[٥٢]. كذلك أكد خطاب يسرائيل مئير لاو، الحاخام الأكبر للأشكناز، والحاخام إلياهو بكشي دورون، الحاخام الأكبر للسفاراد، على أن القدس عاصمة إسرائيل، والأكثر، أنهم طالبوا البابا بأي اعتذار يراه مناسبًا عما اقترفته أوروبا المسيحية تجاه اليهود[٥٣]!.

كان خطاب رئيس الحكومة الإسرائيلية، وقتئذ، إيهود باراك، طويلا جدا، بدأه بالحديث عن اليهودية باعتبارها جذور للمسيحية، ولم يفته أن يتحدث عن تعذيب «أوروبا المسيحية» لليهود، كذلك عن المسيرة الشاقة التي مرت بها «دولتهم»..[٥٤].

خلال مؤتمر عقد في جامعة حيفا الإسرائيلية، في ١/ ٤/ ٢٠٠٦، صرح دافيد جايجر، مبعوث الفاتيكان في القدس، أن إسرائيل، وكذلك السلطة الفلسطينية، لا يمكن الوثوق بهما في الحفاظ على المقدسات، وأن أي حل لوضع القدس يحتاج إلى موافقة من المجتمع الدولي. أضاف جايجر بأن هناك تناقضًا بين الاتفاقات الموقعة بين إسرائيل والفاتيكان على الحفاظ على المواقع المسيحية المقدسة، والقوانين الإسرائيلية التي يرجع تاريخها إلى الانتداب البريطاني في فلسطين، وأن الحكومة الإسرائيلية اتخذت إجراءات بشأن الأراضي والأموال التي تخص الكنيسة الكاثوليكية الرومانية[٥٥].

في مايو/ آيار/ ٢٠٠٩، قام البابا، بنديكتوس السادس عشر، بزيارة للأراضي المقدسة، وأقام قداسا احتشد له خمسة آلاف مصلٍ. وقد قام البابا بزيارة الحرم الشريف. ورغم أنه صرح، على غرار من سبقوه من بابوات، خلال زياراتهم للقدس، أن سبب الزيارة ديني فحسب، فإن الخلفية السياسية واضحة للعيان، والأهم هنا، أنه بينما يواسي اليهود في ضحايا المحرقة، أو «هشوآه»، كما نطقها بالعبرية، وقد قام البابا بمواساة عائلة الجندي، جلعاد شاليط، الأسير لدى حماس، مما حدا بمصادر فلسطينية، للمطالبة، بأن يكون للبابا موقف مشابه، على الأقل تجاه «محرقة» غزة التي لم يمر عليها شهور، وأسر الضحايا الذين لم تجف دماؤهم[٥٦].

في حوار، أُجري في عمان، مع رئيس أساقفة سبسطية، المطران عطا الله حنا، قبيل زيارة البابا للقدس المحتلة، قال حنا: «إسرائيل كيان عنصري حاقد لا تحترم الآخر ولا تقبل العيش معه، والاحتلال الإسرائيلي يستهدفنا كمسيحيين، كما يستهدف إخوتنا المسلمين، كما ذكر أن إسرائيل قررت مؤخرًا هدم جزء من دير في القدس»، وقد وصف حنا الوضع بالقدس بأنه كارثي، وأضاف: «أن المسيحي الذي يدعم إسرائيل ليس مسيحيًّا، أو مشكوك في هويته على الأقل»[٥٧].

الخلاصة:

ـ يتمسك الفاتيكان بالتأويل الكاثوليكي للكتاب المقدس من ناحية، وبموقعها السياسي من ناحية أخرى.

ـ رفض الفاتيكان الاستيطان اليهودي من منطلق ديني، لكنه قبله فيما بعد كأمر واقع.

ـ رحب البابا بالاحتلال، والانتداب البريطانيين، لكنه استاء من محاباة اليهود، والطوائف غير الكاثوليكية، فطالب بتدويل القدس.

ـ نظر الفاتيكان بريبة للحركة الوطنية الفلسطينية، لكنه رفض إقامة دولة يهودية، ولم يعترف بها، وبالتالي بسيادتها على القدس المحتلة في ١٩٤٨.

ـ شهد عقد الخمسينيات تحولا لاهوتيًّا ـ سياسيًّا للفاتيكان، في إطار دمجها في المنظومة الرأسمالية، وبالتالي تحول سياستها تجاه الصهيونية.

ـ انعكس التحول في إصدار وثيقة تبرئة اليهود من «قتل الرب»، وبعدة زيارات من البابوات لإسرائيل، وتبادل المباحثات.

ـ بعد احتلال الصهاينة للقدس بأكملها، في يونيو١٩٦٧، استسلم الفاتيكان للأمر الواقع، كما أصبح له ممثل دبلوماسي في القدس.

ـ كان انطلاق الثورة الفلسطينية عاملًا إيجابيًّا، حيث عاد الفاتيكان للمطالبة بتدويل القدس، وتوترت علاقته بإسرائيل، لكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك، ثم عاد للمطالبة بالتدويل عقب كامب ديفيد.

ـ أدان الفاتيكان قرار الكنيست بضم القدس ١٩٨٠.

ـ عقب مباحثات مدريد، سنحت الفرصة لاعتراف الفاتيكان بإسرائيل، وفتح سفارة بتل أبيب، في ١٩٩٣.

ـ برغم من إعلان البابوات أن زياراتهم للديار المقدسة، خلال العقد الأخير، كانت دينية وحسب، فإن الموقف السياسي واضح، وهو يعبر عن الدور الوظيفي للمؤسسة الدينية في المنظومة الرأسمالية.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) د. عز الدين عناية، الفاتيكان وفلسطين، **موقع التجديد العربي**، بتاريخ: ٠٤/ ١٢/ ٢٠٠٩.

http://www.arabrenewal.org/articles/25273/1/CaYCEiBCa_aeYaOOia/OYIE1.html

(٢) **المرجع نفسه.**

(٣) أدمون فرحات: **القدس في الوثائق الفاتيكانية**، دار النهار، بيروت، ١٩٩١، ص ٦١، ٦٢. نقلا عن: جميل خرطبيل، **موقف الفاتيكان من القدس وفلسطين**، موقع مؤسسة القدس الدولية.

http://www.alquds-online.org/index.php?s=10&ss=4&id=431

(٤) **المرجع نفسه.**

(٥) (مذكرة إلى هيئة الأمم) في ٤/ ٦/ ١٩٢٢: فرحات: **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨٤. نقلا عن: خرطبيل، **مرجع سبق ذكره.**

(٦) رد الكاردينال د. غاسباري، أمين سر دولة الفاتيكان، على مشروع الانتداب الذي قدمه بلفور إلى أمين عام الأمم المتحدة بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٢٠. (فرحات، **مرجع سبق ذكره** ص١٨١. نقلا عن: خرطبيل، **مرجع سبق ذكره.**

(٧) فرحات: **مرجع سبق ذكره** ص ٢٣٢، ٢٣٣.. نقلا عن: خرطبيل، **مرجع سبق ذكره.**

(٨) محاضرة ألقاها بطريرك القدس للاتين المنسيور برلاسينا في مدرسة القديس يوسف في روما في ١١/ ٥/ ١٩٢١. فرحات: **مرجع سبق ذكره** ص ٢٥٢. نقلا عن: خرطبيل، **مرجع سبق ذكره.**

(٩) **مرجع سبق ذكره.**

(١٠) المواقف الإقليمية من القدس موقف العالم المسيحي من قضية القدس الفاتيكان، **موسوعة مقاتل**:

http://www.moqatel.com /openshare /Behoth /Siasia21 /AlKods /sec10.doc_cvt.htm:

(١١) سالم الكسواني، وضع القدس في المحافل العربية والإسلامية والدولية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني(دراسات خاصة)، المجلد السادس(دراسات القضية الفلسطينية)،ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩٣٤.

(١٢) مقال أ. مسينايو اليسوعي (المسؤولية الدولية حيال القضية الفلسطينية) : فرحات: **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٣٢. نقلا عن: خرطبيل، مرجع سبق ذكره.

(١٣) فرحات: مرجع سبق ذكره، ص ٧٠. نقلا عن: خرطبيل، **مرجع سبق ذكره.**

(١٤) الكسواني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣٣.

(١٥) عناية، مرجع سبق ذكره.

(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث،ط١، دمشق، ١٩٨٤، ص٤١٧ .

(١٧) **المرجع نفسه**، ص ٤١٨.

(١٨) أنيس القاسم، **نحن والفاتيكان وإسرائيل**، سلسلة كتب فلسطينية٢، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، حزيران/ يونيو١٩٦٦، ص ٦١: ٦٦.

(١٩) نعناعة، الصهيونية في الستينيات ـ الفاتيكان واليهود، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص٦٦، ٦٨.

(٢٠) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤، ص ٤١٩.

(٢١) نعناعة، مرجع سبق ذكره، ص٧٠.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٢٩٤.

(٢٣) المرجع نفسه، ص٦٩.

(٢٤) الكسواني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣٣.

(٢٥) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق ١٩٨٤، ص٤٢١ .

(٢٦) شحاتة موسى، علاقات إسرائيل مع دول العالم ١٩٦٧ـ ١٩٧٠، سلسلة كتب فلسطينية (٣٣)، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، آيار/ مايو/ ١٩٧١، ص٢٢٥ .

(٢٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٨) المرجع نفسه: ص٢٢٦ .

(٢٩) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤، ص٤٢١ .

(٣٠) موسى، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٦ .

(٣١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٢٢٨، ٢٢٧ .

(٣٣) فرحات: مرجع سبق ذكره ص ١٢٣ . نقلا عن: خرطبيل، مرجع سبق ذكره.

(٣٤) موسى، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٨ .

(35) Observatory Romano March 22.1971

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(٣٦) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث،ط١، دمشق، ١٩٨٤، ص٤٢١ .

(٣٧) الكسواني، مرجع سبق ذكره ص ٩٣٤.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٩٣٥.

(٣٩) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث ص٤٢٢ .

(٤٠) الكسواني، مرجع سبق ذكره ص ٩٤٩.

(٤١) فرحات: مرجع سبق ذكره ص ١٥٦ . نقلا عن: خرطبيل، مرجع سبق ذكره.

(٤٢) فرحات: مرجع سبق ذكره ص ١٥٩، نقلا عن: خرطبيل، مرجع سبق ذكره.

(٤٣) موسوعة مقاتل :القدس، سياسيًا، وتاريخيًا، ودينيًا، المبحث التاسع، المواقف الإقليمية من القدس موقف العالم المسيحي من قضية القدس، الفاتيكان، نسخة إليكترونية:

http: //www.moqatel.com /openshare /Behoth /Siasia21 /AlKods /sec10.doc_cvt.htm:

(٤٤) المرجع نفسه.

(45) May. 1996 (Jerusalemconsideration of the secretariate of State

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(٤٦) فرحات: مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣ وما بعد. نقلا عن: خرطبيل. مرجع سبق ذكره.

(47) Rabbi Benjamin BlechTHE SECRET OF the POPE and JERUSALEM. VIEWPOINT. SUMMER. 1996:3132 ..

http://www.freeman.org/m_online/apr97/blech.htm

(48) The Pope at the President of Israel,Jerusalem, March 23, 2000.

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/54/230320017.html

(49) Greeting to Great Mufti Sheikh Akram Sabri,March 26, 2000

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/57/260320021.html

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(50) JERUSALEM PATRIARCH STRESSES POPE'S VISIT SPIRITUAL, NOT POLITICAL. ,March 14, 2000

http://www.al_ bushra.org/vatican/sabbah.htm

(51) The President of Israel to the Pope,Jerusalem, March 23, 2000

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/54/230320022.html

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(52) Rabbi Michael Melchior's speech at Western Wall,March 26, 2000

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/57/260320024.html

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(53) The Chief Rabbis of Israel to the Pope,Jerusalem, March 23, 2000

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/54/230320021.html

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(54) Prime Minister Ehud Barak's speech at Yad Vashem,23.03.2000

http://198.62.75.1/www1/ofm/pope/50/54/230320019.html

http://www.al_ bushra.org/jerus/stand.htm

(55) Ahiya Raved Vatican also wants Jerusalem? 01.04.06

http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3194646,00 _.html

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_8047000/8047067.stm

(٥٦) الأربعاء ١٣ مايو/ أيلول ٢٠٠٩ ٢١:٠٣

(57) http://www.alarabalyawm.net/pages.php?news_id=159364 9/5/2009.

obeikan.com

الفصل السادس

الولايات المتحدة الأمريكية والقدس

نظيمة سعد الدين

شكلت القدس جوهر القضية الفلسطينية، والأخيرة هي محور الصراع العربي ـ الإسرائيلي، هذا الصراع الذي جذب اهتمامًا، ومشاركة فعالة، من قبل أطراف دولية عديدة، ومن ضمنها القوتان العظميان، بسبب وقوعه في منطقة هامة، من الناحية الإستراتيجية، والاقتصادية، مما حدا بهما للبحث عن حل لهذا الصراع، استأثرت به الولايات المتحدة، بسبب انهيار الاتحاد السوفييتي، وهذا يدفعنا لتتبع موقف الولايات المتحدة من قضية القدس، وأثر هذا الموقف على ما تقوم به «إسرائيل» بالمدينة، وعلى مصيرها في «مفاوضات السلام»، التي تعتبر الولايات المتحدة الراعي الحقيقي لها، ولمستقبلها، بحكم فرض الأمر الواقع، ورضوخ النظام السياسي العربي لذلك.

قبل واحد وستين عامًا، وفي الرابع عشر من مايو/ آيار ١٩٤٨، اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بدولة برزت إلى الوجود، تنفيذًا، كما يفترض، لقرار التقسيم رقم ١٨١، الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧. وفي الأشهر الأولى التي أعقبت صدور ذلك القرار، كان الموقف الأمريكي المعلن يرى بأنه لا يمكن تنفيذ التقسيم سلميًا، واقترحت الولايات المتحدة وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية المؤقتة، «ريثما يصل الطرفان إلى تسوية بينهما». ومع اقتراب موعد انتهاء الانتداب البريطاني، تحركت الولايات المتحدة ليصل الأمر إلى الاعتراف بالدولة اليهودية، بكل ما في ذلك من دلالات، لا تزال المنطقة تعيش على وقعها حتى اليوم.

بعد صدور قرار التقسيم، مباشرة، كتب هاري ترومان، الرئيس الأمريكي، آنذاك، إلى حاييم وايزمان، رئيس «الوكالة اليهودية»، و«المنظمة الصهيونية العالمية»، بأنه من الضروري إبداء ضبط النفس، والتسامح من قبل كل

الأطراف للتوصل إلى السلام بالشرق الأوسط. وفي تصريح لافت لوزير الدفاع الأمريكي، أدلى به في فبراير/ شباط ١٩٤٨، أمام «مجلس الأمن القومي»، قال: إن أي محاولة جدية لتنفيذ التقسيم، في فلسطين، ستحرك أحداثًا قد تؤدي، على الأقل، إلى إعلان الولايات المتحدة، استنفارًا جزئيًّا لقواتها المسلحة.

لا شك أن الإدارة الأمريكية، كانت على علم بما تقوم به القوات الصهيونية، في هذه الأثناء، بفلسطين، وربما، أيضًا، وافقت عليها «من القلب». ففي يوم الرابع عشر من مايو/ آيار، وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر، كان ديفيد بن غوريون يقرأ من تل أبيب «إعلان الاستقلال»، الذي تضمن تأسيس دولة تسمى «إسرائيل»، تبرز إلى الوجود في منتصف ليل الخامس عشر من مايو/ آيار، حسب توقيت فلسطين، أي يوم انتهاء الانتداب البريطاني. وفي واشنطن، بدا أن كل شيء قد رتب بدقة، حتى يمكن إصدار الاعتراف بالدولة الجديدة «على الفور». فهناك الانتظار حتى منتصف الليل، أي بداية يوم الخامس عشر، حسب توقيت فلسطين، والذي يطابق الساعة السادسة من بعد ظهر الرابع عشر من مايو/ آيار، بحسب توقيت الساحل الشرقي في الولايات المتحدة.

مقابلة التوقيتين، توقيت فلسطين، والتوقيت الأمريكي، حتى لا يكون هناك أي مجال للخطأ، وليأتي الاعتراف مباشرة بعد ولادة الدولة الجديدة، يشير إلى تنسيق مسبق بشأن الاعتراف بالدولة الجديدة. وكذلك، فإن نص وثيقة الاعتراف كان مقتضبًا جدًّا: «أعلمت هذه الحكومة أن دولة يهودية قد أعلنت في فلسطين، وبناء على ذلك طلب الاعتراف بها من قبل الحكومة. تعترف الولايات المتحدة بالحكومة المؤقتة، كسلطة على أرض الواقع، للدولة اليهودية الجديدة».

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالدولة الجديدة بسرعة فائقة، وهو ما ينسجم مع الـ «فورًا»، التي جاءت في رسالة وايزمان، الزعيم الصهيوني. ووقت الاعتراف بـ «دولة إسرائيل»، كتب بخط اليد، تحت عبارة «مع الموافقة» والتاريخ، وقريبًا من أسفل الرسالة، وكان «١١, ٦». إحدى عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، اعترفت الولايات المتحدة بالكيان الجديد، بالرغم من مواقفها السابقة من قرار التقسيم! وبعد دقائق معدودة، وقفت بكل ثقلها مع التقسيم من قبل طرف واحد، وخرج الفلسطينيون صفر اليدين ... وما يزالون كذلك حتى اليوم!

المرحلة الأولى (١٩٤٧-١٩٦٧)

بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، مارست الولايات المتحدة الأمريكية ضغوطات على بريطانيا، بصفتها جهة الانتداب في فلسطين، لعرض مشروع تقسيم فلسطين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وليس أمام أعضاء مجلس الأمن، لقد كان هناك تخوف أمريكي حقيقي من أن بعض الدول الأعضاء داخل مجلس الأمن ستستخدم حق النقض، (الفيتو)، ضد قرار تقسيم فلسطين، في السياق نفسه، قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم كل الدعم، والتأييد، والمساندة لهذا القرار، الذي عرض على الأمم المتحدة، خلال المناقشات الحادة في أروقة الأمم المتحدة، والتي دارت حول طبيعة هذا القرار، وجوانبه السياسية، والقانونية، والإنسانية، أظهر الأمريكان حماسًا منقطع النظير، لدرجة أنهم مارسوا ضغوطات، وكل أشكال التأثير الأخرى، على بعض الدول الأعضاء، في سبيل التصويت لصالح هذا القرار[1].

لقد أسهمت الولايات المتحدة إسهامًا كبيرًا في استصدار قرار الأمم المتحدة رقم (١٨١/ د ـ ٢)، المؤرخ في

٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، والمعنون بـ (حكومة فلسطين المقبلة)، وذلك من خلال الضغط على العديد من الدول من أجل تأييد القرار، وقد صوتت الولايات المتحدة إلى جانب القرار، والذي حدد مدينة القدس ككيان منفصل، خاضع لنظام دولي خاص، تتولى الأمم المتحدة الإشراف عليه، وذلك من خلال مجلس وصاية، يقوم بإدارته. ولكن تطور الأحداث عام ١٩٤٨م، وما نتج عنها من احتلال العصابات الصهيونية، لما يقارب ٧٧,٤٪ من مساحة فلسطين، واحتلال الجزء الغربي الجديد من مدينة القدس، قد فرض واقعًا جديدًا على المدينة. وأدى إلى توجه جديد للولايات المتحدة تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام، والقدس بشكل خاص، حيث صوتت إلى جانب قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤، في ١١/ ١٢/ ١٩٤٨، والذي يدعو إلى وحدة المدينة، وتدويلها، وتشكيل (لجنة التوفيق) الدولية. وقد تقدمت الولايات المتحدة، باعتبارها عضوًا في «لجنة التوفيق الدولية»، سبتمبر/ أيلول ١٩٤٩، باقتراح طالب بإنشاء مجلس عربي ـ إسرائيلي مشترك لإدارة المدينة، وتعيين مفوض عام من قبل الأمم المتحدة لإدارة الأماكن المقدسة[٢].

لقد هدفت الولايات المتحدة، من خلال تبنّيها، ودعمها القوي لقرار التقسيم، إلى إضفاء الشرعية الدولية على الدولة الإسرائيلية، وتثبيتها سياسيًّا، وقانونيًّا، وجغرافيًّا في المنطقة. كان قرار التقسيم هو المدخل الشرعي، في إطار القانون الدولي، لقيام دولة إسرائيل، وبالتالي قبولها عضوًا في هيئة الأمم[٣].

بعد صدور قرار التقسيم، وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، اعتبرت الكثير من دول العالم، بما فيها الولايات المتحدة، نفسها أن القضية الفلسطينية تمت تصفيتها، وأنها أصبحت قضية إنسانية، تخص آلاف اللاجئين، والمشردين الذين تركوا أوطانهم بفعل النزاعات المسلحة، كما انصبت الجهود الدولية، والأمريكية، على التخفيف من معاناة اللاجئين الفلسطينيين، من خلال الإسهام في تقديم المساعدات المادية، لمخيمات اللاجئين، في إطار «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين»[٤]، التي أُنشئت خصيصًا لذلك.

هنا نلاحظ تراجع الولايات المتحدة عن فكرة تدويل المدينة، والدعوة إلى إبقائها موحدة، والاكتفاء بتدويل الأماكن المقدسة فقط، حيث قامت في ٩/ ١٢/ ١٩٤٩ بالتصويت ضد قرار الجمعية العامة رقم (٣٠٣)، الذي أكد على وضع القدس تحت نظام دولي دائم، وإعادة التأكيد على ما ورد في قرار التقسيم (١٨١/ د ـ ٢) بشأن إقامة كيان منفصل للقدس تحت حكم دولي خاص، تقوم على إدارته الأمم المتحدة، في حينه كانت إسرائيل تقوم بنقل مؤسساتها إلى «القدس الغربية»، وهذا يعني موافقة ضمنية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية على ذلك[٥].

لقد حاولت الولايات المتحدة، بعد ذلك، استقطاب البلدان العربية إلى جانب المعسكر الغربي بأحلاف عسكرية، بدأت بمشروع «حلف بغداد»، مع تقييد للتأييد الأمريكي لإسرائيل. إلا أن ذلك سرعان ما انهار مع ثورة عام ١٩٥٨في العراق. وهذا أدى إلى تقارب أمريكي ـ إسرائيلي بشكل أكبر، وخصوصًا بعد هدوء الصراع على جبهة القتال بعد «العدوان الثلاثي» على مصر عام ١٩٥٦، حيث فقد كل من الرئيس الأمريكي، دوايت أيزنهاور، ووزير خارجيته جون فوستر دالاس، الاهتمام بإيجاد حل للصراع، وأخذا بالتركيز على ملء الفراغ في الشرق الأوسط عن طريق «مبدأ أيزنهاور»[٦].

فيما ارتكز موقف إدارة الرئيس جون كندي، وخَلَفه ليندون جونسون، في الفترة ١٩٦١ـ ١٩٦٧م، من تسوية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، على أساس حل مشكلة اللاجئين، وحقهم في العودة، والتعويض (مشروع جونسون)،

مع ازدياد مكانة إسرائيل، وأهميتها للولايات المتحدة، في إطار سياستها الأخيرة تجاه المنطقة العربية، حيث قامت إدارة جونسون بتزويد إسرائيل بأحدث أنواع الأسلحة الهجومية، فيما قامت حكومة كندي بتزويدها بأحدث أنواع الأسلحة الدفاعية[٧].

فالمكاسب الإقليمية، من جراء الحرب، لا يمكن التخلي عنها، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، لكن الأمم المتحدة أصدرت القرارين، رقم ٢٢٥٣ و٢٢٥٤، في ١٤/ ٧/ ١٩٦٧، اللذين طالبا إسرائيل بالتوقف عن أي إجراء يغير من وضع مدينة القدس، وإلغاء جميع ما قامت به من إجراءات، فما كان من سفير الولايات المتحدة في المنظمة إلا أن امتنع عن التصويت على القرارين [٨].

لقد عبّر عن الموقف الأمريكي، بعد عدوان يونية/ حزيران ١٩٦٧، واحتلال الضفة الغربية، بما فيها القدس، من قبل إسرائيل، مندوب الولايات المتحدة الدائم في الأمم المتحدة، السيد آرثر جولدبرج، وذلك في ١٤/ ٧/ ١٩٦٧، حيث جاء في خطابه بالجمعية العمومية، لتوضيح التصويت حول القدس، ما يلي[٩]:

«بالنسبة للإجراءات المحددة، التي اتخذتها حكومة إسرائيل في ٢٨/ ٦، أحب أن أوضح أن الولايات المتحدة لا تقبل، ولا تعترف بهذه الإجراءات التي تمس وضع القدس. وأن حكومتي لا تعترف بأن الإجراءات الإدارية التي اتخذتها الحكومة الإسرائيلية في ٢٨ يونية حزيران يمكن اعتبارها الفصل في الموضوع، ونحن نأسف لاتخاذ هذه الإجراءات، وإننا نصر على أن الإجراءات التي تم اتخاذها لا يمكن اعتبارها سوى إجراءات مؤقتة، ولا تفرض حكمًا مسبقًا على الوضع النهائي للقدس».

عندما طرحت قضية القدس على طاولة المفاوضات في كامب ديفيد، كان رد الرئيس جيمي كارتر على رسالة الرئيس المصري أنور السادات على الشكل التالي: «لقد تسلمت رسالتكم، المؤرخة ١٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٧، والتي تحدد الموقف المصيري من القدس. وقد حوّلت نسخة من تلك الرسالة إلى رئيس الوزراء، بيجن، لإطلاعه»[١٠].

تقريبًا كل الرؤساء الأمريكيين، الذين وصلوا إلى البيت الأبيض، دشّنوا حملاتهم الانتخابية على منصة التأييد الشامل، والكامل لإسرائيل، ولسياساتها في الشرق الأوسط، وأظهروا، صراحة، كل أشكال الدعم الكامل لها، ولرفاهية وأمن سكانها من الصهاينة. فعلى سبيل المثال، دشّن الرئيس الأمريكي جون كيندي في بداية الستينيات المرتكزات القوية لصداقة حميمة متينة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكرر كيندي، في أكثر من مناسبة، القول: «إن هناك ارتباطًا عاطفيًا، ووجدانيًا، أمريكيًا، مع الدولة الإسرائيلية». في العام ١٩٦٠، حصل كيندي على ما يقارب ٨٠٪ من أصوات اليهود في الولايات المتحدة، الذين دعموا برنامجه الديمقراطي الليبرالي، وبعد أن رفع شعار «الصداقة مع إسرائيل»[١١].

أما على صعيد السياسة الداخلية، فقد احتلت القضية الفلسطينية، وارتباطاتها مع «إسرائيل»، مكانًا خاصًا في الحسابات الداخلية الأمريكية، وذلك بحسب الحضور القوي للوبي اليهودي، والجماعات المؤيدة لإسرائيل[*]،

(*) تعتبر (American_Israeli Public Affairs Committee (AIPAC)) من أكثر المنظمات اليهودية الأمريكية دعمًا لإسرائيل، وتأثيرًا على صنّاع القرار والمشرّعين في الولايات المتحدة، لدرجة أن العديد من الشخصيات القيادية الأمريكية يستشيرون أعضاء «إيباك» قبل اتخاذ القرارات الحاسمة.

والتي تلعب دورًا قويًا في صنع القرار في الولايات المتحدة، وتؤثر على صنّاع القرار في مختلف الأجهزة، والوزارات، والمؤسسات[١٢].

المرحلة الثانية (١٩٦٧-١٩٩٣)

لم تبد الإدارة الأمريكية موقفًا واضحًا عشية الاحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس، حيث غيب الرئيس الأمريكي، في ذلك الوقت، ليندون جونسون (١٩٦٣-١٩٦٨)، في خطابه بتاريخ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وضع القدس، الذي عرض فيه مشروعًا للسلام، مؤلفًا من خمس نقاط، ومكتفيًا بالإشارة للقدس، قائلًا: «يجب أن يكون هناك إدراك كاف بالمصالح الخاصة للأديان العظيمة في الأماكن المقدسة». وفقًا لهذا المشروع، فإن الرئيس الأمريكي، جونسون، حدد السياسة الخارجية لهذا الصراع، بمطالبة الدول المعنية به بالاعتراف ببعضها البعض، ضمن حدود معترف بها، بدل خطوط الهدنة المعرضة للحرب، وترتيبات خاصة بالقدس، تعترف بالمصالح الخاصة للأديان السماوية في الأمكنة المقدسة بها[١٣].

أما ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، آرثر جولدبرج، فقد كرر مبادئ «مشروع جونسون» للتسوية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في اجتماعها المنعقد بتاريخ ٢٠ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، كما أن مشروع القرار الذي طرحه للجمعية العامة، للتصويت عليه، كان خاليًا من أي إشارة لمستقبل المدينة المقدسة[١٤].

مما يدل على أن الولايات المتحدة ترفض عودة «إسرائيل» إلى حدود ما قبل الخامس من يونية/ حزيران ١٩٦٧، فالمكاسب التي حققتها إسرائيل جراء الحرب لا يمكن التخلي عنها، وهذا يتوافق مع التصور الإسرائيلي.

لقد بدا الموقف الأمريكي جليًا تجاه القدس في الاحتجاج الذي سجلته الإدارة الأمريكية، حينما صدر إعلان عن وزارة الخارجية الأمريكية في صبيحة اليوم نفسه الذي أعلنت فيه السلطات الإسرائيلية ضمها للجزء الشرقي من مدينة القدس، بتاريخ ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، جاء فيه «إن العمل الإداري المتسرع، الذي اتخذ اليوم، لا يمكن اعتباره على أنه يتحكم بمستقبل الأماكن المقدسة، أو بوضع القدس. إن الولايات المتحدة لم تعتبر، قط، إن مثل هذه الأعمال، أحادية الجانب، من قبل أي من دول المنطقة، على أنها تتحكم، أو تلغي موضوع تدويل القدس...»[١٥].

في الوقت نفسه، سعت الحكومة الأمريكية لمنع صدور قرارات عن الأمم المتحدة تدين مواقف إسرائيل؛ ولذلك امتنعت عن التصويت على القرارين رقم ٢٢٥٣، ورقم ٢٢٥٤ الصادرين عن الدورة الطارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة، بتاريخ ٤/ ٧، و١٤/ ٧/ ١٩٦٧، اللذين طالبا إسرائيل بإلغاء كل ما قامت به من إجراءات في القدس، والتوقف عن أي إجراء يغيّر من وضعها. ولتوضيح موقف بلاده، وفي محاولة للتخفيف من الانتقادات التي تعرضت لها الولايات المتحدة بسبب امتناعها عن التصويت على القرارين السابقين، صرح ممثلها في الأمم المتحدة، غولدبرغ، ببيان ألقاه أمام الجمعية العامة، في دورتها الخامسة، بتاريخ١٤ يوليو/ تموز١٩٦٧، قائلًا[١٦]: «بالنسبة لما يتعلق بالأساليب الخاصة التي اتبعتها حكومة إسرائيل، في ٢٨ يونيو/ حزيران، أود أن أوضح بأن الولايات المتحدة لا تقبل، ولا تعترف بهذه الأساليب في تغيير وضع القدس. إن حكومتي لا تعترف بأن الأساليب الإدارية التي اتبعتها حكومة إسرائيل، في ٢٨ يونيو/ حزيران، يمكن اعتبارها كلمة أخيرة بهذا الشأن، ونحن نأسف لاتخاذ

إسرائيل مثل هذه الإجراءات. ونحن نصر على أن الأساليب المتبعة لا يمكن اعتبارها أكثر من مجرد أوضاع مؤقتة، ولا تحدد الوضع النهائي والدائم لمدينة القدس.... نحن نؤمن بأن الأسلوب الأكثر فائدة لمناقشة مستقبل القدس إنما هو بالتعامل مع المشكلة ككل، كجزء من الترتيبات التي يجب اتخاذها لإقامة سلام عادل ودائم في المنطقة».

قبل انتهاء فترة رئاسة الرئيس الأمريكي جونسون بفترة قصيرة، في العام ١٩٦٨، وكان برنامج الاستيطان الصهيوني بالقدس، في مراحله الأولى، صرح الرئيس جونسون قائلًا[١٧]: «على الحكومات العربية أن تقنع إسرائيل والمجتمع الدولي، أنها قد تخلت عن فكرة تدمير إسرائيل. ولكن، بالمقابل، فإن على إسرائيل أن تقنع جيرانها العرب، والمجتمع الدولي، بأنه ليس لدى إسرائيل مخططات توسعية في مناطقهم». ومن الملاحظ، أيضًا، بأن موقف الإدارة الأمريكية من ضم إسرائيل لمدينة القدس بدأ يتغير لصالح هذا الضم، عندما صرح الرئيس جونسون في خطاب له، بتاريخ ١٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٨، قائلًا[١٨]: «إن أحدًا لا يرغب أن يرى المدينة المقدسة مقسمة مرة أخرى، وعلى الأطراف أن يفكروا في حلٍ يضمن مصالحهم، ومصالح العالم كله في القدس».

لقد كانت الولايات المتحدة قد وافقت على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧، والداعي إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، في حين امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت على قرار مجلس الأمن رقم ٢٥٢، بتاريخ ٢١ مايو/ آيار ١٩٦٨، الذي أكد على ما جاء في قراري الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣، ورقم ٢٢٥٤، واللذين دعيا إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذتها، والامتناع عن اتخاذ أي إجراء يعمل على تغيير وضع القدس[١٩].

استمر الموقف الأمريكي في عهد إدارة نيكسون (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢) كامتداد لمواقف حكومة جونسون، الذي أكد عليها وزير الخارجية الأمريكي، آنذاك، وليم روجرز، مبينًا وضع القدس في خطته التي أطلق عليها «مشروع روجرز»، في خطاب له بتاريخ ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٩، قائلًا[٢٠]: «إن وضع القدس يمكن أن يتحدد فحسب، من خلال اتفاق الأطراف المعنية، وعلى وجه الخصوص إسرائيل، والأردن أساسًا، آخذين بالاعتبار مصالح دول أخرى في المنطقة، والمجتمع الدولي. ومع ذلك، فنحن نؤيد مبادئ معينة، نعتقد بأنها سوف تقدم إطارًا عادلًا لتسوية القدس. فنحن نؤمن، بالذات، بأن القدس يجب أن تكون مدينة موحدة، ولا تكون فيها أي قيود على حركة الأفراد، والسلع، بحيث تكون المدينة موحدة، مفتوحة لكل الأشخاص، من كل الأديان والجنسيات. كما أن الترتيبات الإدارية للمدينة الموحدة يجب أن تأخذ باعتبارها مصالح كل سكانها، والجماعات اليهودية، والإسلامية، والمسيحية، مع وجود دور لكل من إسرائيل، والأردن في الحياة المدنية، والاقتصادية، والدينية للمدينة». وقد وافقت بعض الدول العربية على هذا المشروع، مما أدى إلى نتائج سلبية على الواقع العربي، خصوصًا لأن هذا المشروع ربط وضع القدس بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ المثير للجدل، وذلك لاختلاف أطراف الصراع في تفسيره.

من الملاحظ أن هذا الطرح يشكل تناقضًا جوهريًا مع المواقف الأمريكية السابقة التي كانت ترفض الإجراءات الإسرائيلية الفردية، إذ كانت النظرة إلى القدس مشابهة لأوضاع كافة المناطق المحتلة الأخرى، في حين أن هذه التصريحات لروجرز أقرت بضرورة بقاء القدس موحدة، ما أوحى بأن الولايات المتحدة تعترف بالقرار الإسرائيلي بضم القدس. وخصوصًا بأن هذا الطرح جاء مناقضًا لما صوتت إلى جانبه الولايات المتحدة، في مجلس الأمن، لصالح القرار رقم ٢٦٧، الصادر بتاريخ ٣يوليو/ تموز ١٩٦٩، الداعي إلى عدم جواز الحصول على الأرض بالاستيلاء

العسكري، واعتبار جميع الإجراءات التشريعية، والإدارية، والأعمال الأخرى، بما فيها مصادرة الأرض، باطلة، ويدعو إسرائيل لإبطال كل الإجراءات التي اتخذتها، والامتناع عن اتخاذ أي إجراء يهدف إلى تغيير وضع القدس[٢١]. وكذلك جاء متناقضًا مع ما صرح به ممثل الولايات المتحدة بالأمم المتحدة، في ذلك الوقت، شارلز يوست، بتاريخ ١ يوليو/ تموز ١٩٦٩ أمام مجلس الأمن، قائلًا[٢٢]: «إن مصادرة الأراضي، وبناء البيوت على هذه الأراضي، وهدم أو مصادرة المباني، منها المباني ذات الأهمية التاريخية، والدينية، وتطبيق القانون الإسرائيلي على الأجزاء المحتلة من مدينة القدس، أعمال ضارة بمصالحنا المشتركة بمدينة القدس. وتعتبر الولايات المتحدة الجزء الشرقي من مدينة القدس، الذي خضع للسيطرة الإسرائيلية في حرب يونيو/ حزيران مثله مثل أي منطقة أخرى احتلتها إسرائيل، ويعتبر جزءًا محتلًا. ومن بين بنود القانون الدولي التي تقيّد إسرائيل، كما تقيّد كل محتل، هي الفقرات التي تبين بأن المحتل ليس له الحق لإجراء تغييرات في القوانين، والإدارة، والتركيبة السكانية في المناطق المحتلة، إلا ما تتطلبه مصالح الأمن المؤقتة، وأن المحتل يجب أن لا يصادر، أو يدمر، الممتلكات الخاصة. وما تنص عليه اتفاقية جنيف، والقانون الدولي، واضحٌ جدًّا: فإن المحتل يجب أن يحافظ على المنطقة المحتلة متماسكة، ودون تغيير في معالمها بقدر الإمكان، دون أن يتدخل بالحياة الاعتيادية في المنطقة، ولا يمكن إجراء أي تغييرات إلا نتيجة للحاجات الملحّة للاحتلال. وآسف أن أقول إن أعمال إسرائيل في الجزء المحتل من القدس يخالف ذلك، وهي أعمال قد تؤثر على مستقبل القدس، كما وأن الحقوق، النشاطات الخاصة للسكان العرب قد تأثرت، وتغيرت. إن حكومتي تأسف لهذا العمل، وتستنكره، وقد أخبرت حكومة إسرائيل في العديد من المناسبات منذ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ لذلك. لقد رفضنا باستمرار الاعتراف بهذه الأعمال، إلا بكونها ذات صبغة مؤقتة، ولم نقبلها على أنها أمر واقع يؤثر على الوضع النهائي للقدس ....».

خلال فترة رئاسة كارتر، الذي أبرم اتفاقية كامب ديفيد مع الرئيس السادات، ولم تتمكن الاتفاقية الشهيرة من الوصول إلى حل بخصوص القدس، ولكن بصفة عامة، اتصفت إدارة كارتر بالثبات، بالنسبة لهذه القضية، وأكدت فصل القدس عن بقية الأراضي المحتلة، والتعامل معها على نحو منفصل، وضمان حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة لجميع السكان، وبغض النظر عن طوائفهم[٢٣].

كما أيدت الولايات المتحدة قرار مجلس الأمن رقم ٢٩٨، الصادر بتاريخ ٢٥سبتمبر/ أيلول ١٩٧١، بشأن وضع القدس، الذي أكد بطلان التصرفات التي قامت بها إسرائيل لتغيير وضع القدس، ومطالبًا إياها بإلغاء كل الإجراءات التي اتخذتها في المدينة[٢٤]. واجتمع مجلس الأمن بناء على طلب من الأردن بسبب إقدام إسرائيل على سلسلة من المصادرات لأراض بالقدس، وشروعها في إنشاء مستوطنات عليها. وكان موقف ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة آنذاك، جورج بوش، بأن صرح أمام مجلس الأمن قائلًا[٢٥]: «إننا نأسف لفشل إسرائيل في احترام التزامها بميثاق جنيف الرابع، وكذلك لأعمالها المخالفة لمضمون وروح هذا الميثاق». وقد أكد هذا الموقف، مرة أخري، المستشار القانوني للولايات المتحدة، جورج هـ.الدريك، في أبريل/ نيسان ١٩٧٣، عندما صرح قائلًا[٢٦]: «إن إسرائيل، كدولة محتلة للمناطق عام ١٩٦٧، ملتزمة بتطبيق ميثاق جنيف الرابع ـ الذي ينص على حماية المدنيين ـ ولكن إسرائيل ترفض تطبيق الميثاق». واستمر موقف الولايات المتحدة هذا أيضًا في عهد الرئيس هنري فورد (١٩٧٢ ـ ١٩٧٦)، والرافض للاستيطان في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، بما فيها القدس. وقد اشتملت رسالة الضمانات الموجهة للجانب الفلسطيني، قبل انعقاد مؤتمر مدريد، على موقف أمريكي من القدس، نص كما يلي:

«إن الولايات المتحدة تعارض ضم إسرائيل للقدس الشرقية. وبسط القانون الإسرائيلي عليها، وكذلك توسيع الحدود البلدية للقدس. إننا نشجع جميع الأطراف على تجنب الأعمال أحادية الجانب، والتي من شأنها تأجيج التوتر، والتي تجعل المفاوضات أكثر صعوبة، وتجهض نتائجها النهائية»، كما أكدت «رسالة الضمانات» على حق الجانب الفلسطيني بطرح أية قضية على طاولة المفاوضات، بما في ذلك قضية القدس الشرقية.

مع مجيء الرئيس نيكسون إلى الحكم، في ١٩٦٨، قدم مبادرة بدت أكثر تعاونًا مع الجانب العربي عن سلفه جونسون، حيث شملت المبادرة الجديدة تعديلات على ما يتعلق بقضية القدس، منها عدم الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وعدم نقل السفارة الأمريكية إليها.

لقد عبر عن هذا الموقف ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وليم سكرنتون، في اجتماع مجلس الأمن، مارس/ آذار ١٩٧٦، عندما اجتمع لمناقشة بناء مستوطنة يهودية جديدة في الضفة الغربية، وقد صرح سكرنتون، قائلًا[٢٧]: «إن استيطان إسرائيل في المناطق المدنية في المناطق المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية، غير قانوني، وفقًا لميثاق جنيف الرابع، ولا يمكن اعتبار هذه المستوطنات على أنها تتحكم بمفاوضات المستقبل ما بين الأطراف على مواقع حدود دول الشرق الأوسط. وفي الحقيقة فإن وجود هذه المستوطنات إنما تعتبره الحكومة الأمريكية عائقًا في نجاح مفاوضات السلام النهائي، والعادل، ما بين إسرائيل، وجاراتها».

بالرغم من عدم اعتراف كل الدول ـ تقريبًا ـ بالقرار الإسرائيلي بضم القدس، وتوحيدها، وجعلها عاصمة موحدة لها. فإنه، مع مرور الزمن، توالت عملية نقل السفارات والبعثات الدبلوماسية من تل أبيب إلى القدس، إلى أن جاء اليوم الذي ذهبت فيه أدراج الرياح رسالة الرئيس المصري أنور السادات إلى «عزيزه» الرئيس الأمريكي، جيمي كارتر، بشأن القدس. ثم طمأنة كارتر له، في خطاب وجهه كارتر للسادات[٢٨].

جاء في هذا الخطاب (٢٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨) بأن: «الموقف الأمريكي من القدس هو عدم الاعتراف بالإجراءات التي تهدف لتغيير موقع مدينة القدس». لكن موقف الولايات المتحدة قد تغير. وذلك حينما اتخذ مجلس الشيوخ الأمريكي قرارًا نص على: «اعتراف رسمي بالقدس عاصمة لإسرائيل. مع إلزام الحكومة الأمريكية بنقل سفارتها إلى القدس». وأيًا كان الأمر، فإن التساؤل الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كانت كافة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل قد تمت بالمخالفة مع الأحكام العامة للقانون الدولي، بل بمخالفة صريحة لقرارات صادرة من مجلس الأمن، وكذا بالمخالفة مع قرارات صادرة من الجمعية العامة للأمم المتحدة، إذا كان ذلك كذلك، فما هي إمكانات التحرك العربي استنادًا إلى القانون الدولي؟! وإذا كانت جميع هذه القرارات الصادرة عن المنظمة الدولية هي ـ في حقيقتها ـ غير ملزمة، فهل من المفيد، مثلًا، اللجوء إلى محكمة العدل الدولية لطلب فتوى قانونية دولية حول عدم شرعية الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل؟ [٢٩].

ثم هل من المضمون أن تكون هذه الفتوى القانونية واضحة وحاسمة؟ وهل لها صفة ملزمة؟ أم أنها مجرد رأي استشاري من قبل المحكمة الدولية؟ وإذا كانت ملزمة، ما هي آليات تطبيقها الطوعي، على أرض الوقع، في حال قبول الطرف الإسرائيلي؟ وما الآليات الكافية لتطبيقها قسريًا في حال رفض الطرف الإسرائيلي لها؟

ثم من الذي يستطيع أن يطلب مثل هذا الرأي الاستشاري؟ إذ إن الدولة لا يمكن بحكم النظام الأساسي أن

تطلب فتوى، لايمكن للدولة أن تكون طرفًا في نزاع، ولا يمكن عرض الصراع بين العرب وإسرائيل على محكمة العدل إلا في الجوانب القانونية وحدها، وبموافقة الطرفين [٣٠].

استمر الموقف السياسي تجاه القدس مشابهًا في عهد الرئيس جيمي كارتر أيضًا (١٩٧٦ـ ١٩٨٠)، ويتضح ذلك من خلال السؤال الذي وجهه السيناتور بول ساربنس إلى وزير الخارجية الأمريكي، سايروس فانس، أمام لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي، قائلا[٣١]: «هل موقف حكومتنا الحالي من (القدس الشرقية) يعتبرها منطقة محتلة»؟ فرد عليه فانس: «نعم هذا هو موقفنا». ولكن مع اقتراب نهاية عهد إدارة كارتر، تحولت السياسة الأمريكية تجاه القدس إلى موقف مشابه للموقف الإسرائيلي، حيث ركزت واشنطن على إبقاء مدينة القدس موحدة، دون تقسيم، إذ عبر عن ذلك الرئيس كارتر بتاريخ ٣ مارس/ آذار ١٩٨٠:

»القدس يجب أن تبقى موحدة، مع توفير حرية الوصول للأماكن المقدسة لجميع الأديان، وأن وضع القدس يجب أن يتم تحديده من خلال المفاوضات لإحلال سلام دائم وشامل». لقد جاء هذا الموقف بناء على ضعف الموقف العربي في تلك الفترة، وخصوصًا بعد أن استطاعت إسرائيل تغييب قضية القدس عن المناقشات، والمفاوضات، الجارية في كامب ديفيد.

لقد طرأ تغير واضح على السياسة الأمريكية تجاه القدس، عندما أعلن المرشح للرئاسة، وقتئذ، «رونالد ريجان» (١٩٨٠ـ ١٩٨٨)، أثناء حملته الانتخابية عام ١٩٨٠[٣٢] «أن مدينة القدس غير المجزأة تعني السيادة (الإسرائيلية) لهذه المدينة» كما طرأ تغير، أيضًا، على السياسة الأمريكية تجاه الاستيطان في عهد رئاسته للولايات المتحدة، عندما صرح، في العام ١٩٨١، قائلًا[٣٣]: «إن المستوطنات غير ضرورية، ولكنها ليست غير شرعية».

فيما يخص وضع القدس، عندما تسلم الرئيس ريجان الإدارة الأمريكية، رسميًا، لم يتغير موقفه عن موقف أسلافه، حيث صرح، في الأول من سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢، حول ذلك قائلًا[٣٤]: «ما نزال مقتنعين من أن القدس يجب أن تبقى موحدة، وأن وضعها النهائي سيتم تحديده من خلال المفاوضات». كذلك صرح نائب رئيس الوفد الأمريكي لدى الأمم المتحدة أمام مجلس الأمن، عام ١٩٨٦، بأن[٣٥] «موقف الولايات المتحدة، وتطبيق اتفاقية جنيف الرابعة على المناطق التي احتلتها (إسرائيل)، ومسؤولية إسرائيل، بموجب تلك الاتفاقية، هذا الموقف لم يتغير».

غير أنه إذا كان مبدأ بقاء القدس موحدة بقي غائمًا، وغير صريح في أهدافه، فقد كان توقيع رونالد ريغان، في آخر يوم من أيام ولايته، الموافق ١٨/ ١/ ١٩٨٩، على عقد شراء ـ استئجار لمدة ٩٩ عامًا ـ قطعة أرض تقع في المنطقة، التي كانت منطقة حرام بين القدس الغربية، والقدس الشرقية، قبل عام ١٩٦٧، لأجل بناء سفارة أمريكية عليها، أول وأجرأ قرار يتخذه رئيس إدارة أمريكية في تاريخ مسألة القدس، معززًا بذلك المحاولات الحثيثة الجارية في أروقة الكونجرس الأمريكية، منذ عدة سنوات، للدفع باتجاه نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، والاعتراف الأمريكي الواقعي بالقدس الموحدة، إسرائيليًا، عاصمة لإسرائيل [٣٦].

على الرغم من الادعاء الإسرائيلي، والأمريكي، بأن قطعة الأرض تقع في القدس الغربية، فإن مجرد نقل السفارة الأمريكية إلى القدس الغربية، أو إلى المنطقة الحرام، من شأنه أن يوفر مثل هذا الاعتراف، الذي لم تقدم عليه أية دولة في العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها، منذ عام ١٩٤٨. وكانت عملية التوقيع على عقد الشراء المذكور بمثابة

رافعة لمحاولات الكونجرس الدفع بهذا الاتجاه، حيث ما لبث الكونجرس، بمجلسيه، أن أقر، عام ١٩٩٥، لائحة تنفيذية مختلفة عن كل ما سبق، من توصيات في هذا الشأن، أصبحت تعرف، لاحقًا، بقانون القدس، نصت على إلزام الإدارة بالمباشرة في بناء السفارة، في موعد لا يتجاوز ٣١/ ١٢/ ١٩٩٦، ونقل السفارة إلى المبنى في القدس، في موعد لا يتجاوز ١٣/ ٩/ ١٩٩٩، وهو التاريخ المقرر في «اتفاق أوسلو» لإنجاز المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية النهائية [٣٧].

أما موقف الإدارة الأمريكية من قضية القدس، في عهد الرئيس جورج بوش (١٩٨٨ـ ١٩٩٢)، فقد انطلق من البحث عن تسوية للصراع العربي ـ الإسرائيلي، حيث عبر عنه الرئيس بوش، في ٣١/ ٣/ ١٩٩٠، برسالة بعثها إلى رئيس «بلدية القدس اليهودي»، تيدي كوليك، جاء فيها[٣٨]: «يجب أن تقسم القدس، ثانية، هكذا كانت، وما تزال سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وتلك سياستي». وقد جاء موقف الرئيس بوش هذا بعد تقدم السيناتور الأمريكي، دانيال باتريك مونيهان، وعدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في خطوة تصعيدية بمشروع قرار دعا الكونجرس الأمريكي بالاعتراف بالقدس عاصمة لـ «إسرائيل»[٣٩]. وقد استصدر مجلس الشيوخ الأمريكي، في ٢٢/ ٣/ ١٩٩٠، قرارًا نص على: بقاء القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، مع حفظ حقوق «الآخرين»! وفي ٢٤/ ٣/ ١٩٩٠ أصدر الكونجرس الأمريكي قرارًا مماثلًا للقرار المذكور. أما موقف الإدارة الأمريكية اتجاه الاستيطان، فقد عبر عنه الرئيس بوش بالقول[٤٠]: «إن موقفي هو أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة تقول إننا لا نؤمن بإقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية، أو في (القدس الشرقية)، وسأدين هذه السياسة، وسأتخذ القرارات الملائمة، لأرى إذا ما التزم الإسرائيليون بهذه السياسة. وهذا هو موقفنا الثابت، ونرى أنه موقف بنّاء لإحلال السلام، إذا ما كانت إسرائيل تريد السير فيها». ومع تسلم إسحاق شامير رئاسة الحكومة الإسرائيلية سنة ١٩٩٠، قامت الحكومة الإسرائيلية بتكثيف عملية الاستيطان اليهودي في «القدس الشرقية»، متجاهلة بذلك دعوة وزير الخارجية الأمريكية لها، بصورة علنية، للمرة الأولى، للإعلان، بوضوح، على أنها لن تقيم مستوطنات جديدة في المناطق المحتلة، ولن توطن المهاجرين الجدد في المستوطنات القائمة هناك، وتجاهلت، أيضًا، تصريح الرئيس الأمريكي بوش بصدد استمرار إدارته في موقفها من القدس، القائل بأن وضعها النهائي يتقرر في مفاوضات مستقبلية فحسب[٤١].

نلاحظ بأن هذا الموقف الجديد من قبل الرئيس بوش يظهر بأنه ضد الاستيطان، ولكنه ـ في جوهره ـ يحمل الاعتراف بالمستوطنات القائمة كأمر واقع. وهنا يكمن الخطر في موقف إدارة بوش الأب وسرعان ما تبين بأنه موقف مؤقت، إذ قامت الولايات المتحدة باستخدام حق النقض «الفيتو»، في مايو/ آيار ١٩٩٠، لإسقاط مشروع قرار لمجلس الأمن، اعتبر المستوطنات في الأراضي المحتلة، بما فيها القدس، غير شرعية [٤٢]. وتبين ذلك، أيضا، فيما بعد، حين صرح الرئيس بوش، مرة أخرى، تجاه وضع القدس، بتاريخ ١١ أغسطس / آب ١٩٩٢، قائلًا[٤٣]: «دعني أقول: إن القدس تبقى دون تغيير، يجب عدم تقسيمها أبدًا، وتحديد وضعها النهائي عن طريق المفاوضات».

من الملاحظ، ومن خلال الاستعراض السابق لمواقف الحكومات الأمريكية من وضع القدس بأنها قد تركزت في محورين أساسيين، هما :

١ ـ تأكيد جميع الحكومات الأمريكية على إبقاء القدس موحدة.

٢ ـ عدم اعتراف الحكومات الأمريكية بحق الشعب الفلسطيني في «القدس الشرقية»، التي احتلت عام ١٩٦٧، ولا بحق اليهود فيها، وترك مناقشة هذا الحق لتقرره المفاوضات لاحقًا.

لقد شارك الفلسطينيون ضمن الوفد الأردنى في مؤتمر مدريد الدولي للسلام، آخر أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩١، حيث كانت الولايات المتحدة أحد راعيين لهذا المؤتمر. وذلك بعد أن طمأنت الولايات المتحدة الفلسطينيين بأنها لن تعترف بضم إسرائيل لـ «القدس الشرقية»، ولا بحدود «بلدية القدس الشرقية» الجديدة. وفي رسالة التطمينات تجنبت الولايات المتحدة البحث في قضية القدس طيلة الفترة الانتقالية، وهذا بدوره سمح لإسرائيل في خلق واقع جديد في المدينة، من خلال تكثيف عملية الاستيطان فيها، وتهويدها. هذا إلى جانب عدم إشارتها إلى مرجعية قضيةً القدس عند التفاوض، ما عدا قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ للعام ١٩٦٧. وهذا الأمر، بدوره، أمر خطير جدا، إذ حصرت مطالب الفلسطينيين بـ «القدس الشرقية»، تحديدا، علمًا بأن قضية القدس، بشقيها، كانت موضوع نقاش. مما يسمح لإسرائيل بحصر مطالب الفلسطينيين في أجزاء من «القدس الشرقية» فحسب، تتمثل في المدينة القديمة، والأحياء العربية منها [٤٤].

المرحلة الثالثة (١٩٩٣ ـ ٢٠٠٠)

طرأ تطور خطير على الموقف من قضية القدس خلال إدارة الرئيس الأمريكى بيل كلينتون، الذي تولى السلطة في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٣ ـ ٢٠٠٠، إذ وعد، خلال حملته الانتخابية بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، والاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وقال، في تصريح له خلال مقابلة إعلامية أثناء حملته الانتخابية[٤٥]: إنه ما يزال يعتبر «أن القدس هي عاصمة إسرائيل، وأنها يجب أن تظل مدينة غير مجزأة، لكنني أعتقد بأن التوقيت هو العنصر الحقيقي. إن نقل سفارتنا إلى هناك، بينما المفاوضات جارية، قد يخل بتقدم العملية السلمية، بطريقة تهزم الهدف الذي نسعى إليه». كما طرأ، أيضاً، موقف خطير من الاستيطان، زمن هذه الإدارة، حيث لم تول إدارة كلينتون أية معارضة لمصادرة الأراضي، والنشاطات الاستيطانية في «القدس الشرقية». ورفضت أن تصف الاستمرار ببناء المستوطنات في «القدس الشرقية» على أنه عمل أحادي الجانب، كما كانت تصفه الإدارات الأمريكية السابقة[٤٦].

في اجتماعه مع المنظمات اليهودية في أمريكا، في مارس/ آذار ١٩٩٤، أكد نائب الرئيس الأمريكي «آل جور» موقف إدارة كلينتون، والتي تعترف «بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل». وأوضح جور موقف الولايات المتحدة، من عدم استعمالها للفيتو في قرار مجلس الأمن، الذي يدين إسرائيل بالمذبحة الإسرائيلية في الحرم الإبراهيمي، ٢٥ فبراير/ شباط من العام نفسه. وقد امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت على «جزء» من قرار مجلس الأمن، وهو الذي أشار إلى أن «القدس الشرقية» هي «أرض محتلة»؛ لأن ذلك كان قد يعيق استئناف المفاوضات، وأنه لو كان ذلك الجزء من القرار الذي أشار إلى «القدس الشرقية» في «صلب القرار»، وليس جزءًا من «مقدمته»، لاستعملت الولايات المتحدة في هذه الحالة (الفيتو)، بدلًا من «الامتناع» عن التصويت [٤٧]. وقد بررت الإدارة الأمريكية موقفها هذا، وموقف أغلبية مجلس الشيوخ، لاتخاذ مثل هذا الموقف من قرار مجلس الأمن بدعوى أن اتفاق المبادئ (أوسلو) ١٩٩٣ أرجأ موضوع النظر في قضية القدس، والمستوطنات، وغيرها، حتى بداية العام الثالث من الفترة الانتقالية،

وعليه، فقد أكد وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر أن موضوع القدس هو: «أمر مؤجل للمرحلة النهائية... فإن استباق الحكم حوله في قرار للأمم المتحدة سيلاقي الرفض من الولايات المتحدة»[٤٨].

بل ذهب الموقف الأمريكي إلى أبعد من ذلك، بتأييده لتوسيع المستوطنات القائمة، لتتوافق مع النمو الطبيعي للمستوطنين، حسب ادعاء الإدارة الأمريكية، الذي عبر عنه مساعد وزير الخارجية، إدوارد جرجيان، أمام اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية في الكونجرس بقوله[٤٩]: «يوجد سماح في سياسة الولايات المتحدة ليس (للتوسع)، بل لاستمرار النشاطات الاستيطانية في المستوطنات القائمة. وهذا، بطبيعة الحال، وفقًا للنمو الطبيعي للسكان، ووفقًا للحاجات الضرورية الفورية في تلك المستوطنات».

هذا «الضوء الأخضر» لإسرائيل في سياسة الضم الفعلي لمدينة القدس ازدادت حدته في أعقاب «اتفاق أوسلو» بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣. وقد صرح مسؤولون في الإدارة الأمريكية بأن بناء المستوطنات، وما يتصل بها من مصادرة الأراضي في «القدس الشرقية» لا ينبغي أن تعالج من قبل مجلس الأمن، وإنما ضمن الاهتمامات الثنائية بين إسرائيل، والسلطة الفلسطينية. وجددت إدارة كلينتون دفاعها عن سياسة دعم «النمو الطبيعي» لسكان المستوطنات، ولكن المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية أشار إلى أن[٥٠] «النشاط الاستيطاني في الماضي أوجد قدرا كبيرًا من التوتر، ولقد كان عامل تعقيد في الشرق الأوسط، وفي العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين، وغيرهم. ونحن نعتقد، يقينًا أن هذا صحيح. وأعتقد أنه من الصحيح، أيضا، أن إسرائيل والفلسطينيين قد قرروا حل هذه القضية، وكان من الممكن، في إطار محادثات الوضع النهائي، . . . حتى إنه متروك لهم، الآن، حل هذه المشكلة، لكنّه كان مسألة توتّر وتعقيد في الماضي».

نبع الموقف الأمريكي نتيجة غياب الاتحاد السوفييتي كقطب دولي عن الساحة الدولية، بحيث أصبحت الولايات المتحدة القطب الوحيد في العالم، وتستطيع فرض سياستها العالمية دون منازع، هذا إلى جانب تفريغ القضية الفلسطينية من محتواها القومي في مفاوضات السلام، وتحويلها إلى قضية قطرية، تهم الفلسطينيين وحدهم، وذلك حين نقضت الدول العربية التزامها الأدبي تجاه القضية الفلسطينية، حيث لم يكن هذا الالتزام، منذ كامب ديفيد، أكثر من دعم معنوي للفلسطينيين، وبالتالي جاءت مفاوضات السلام، واتفاق أوسلو لتحرر الدول العربية، أكثر، من «عبء» القضية الفلسطينية.

هذا الموقف الأمريكي الداعم لإسرائيل، سياسيًّا، رافقه دعم مادي أيضًا، كان له دور في بناء دولة إسرائيل، وفي احتلالها لبقية فلسطين والأراضي العربية عام ١٩٦٧. ومثال على ذلك، فقد بلغ حجم ما حصلت عليه إسرائيل من معونات أمريكية في الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٨٥ ما مجموعه (٤, ٣٢) مليار دولار، في الحين الذي حصلت فيه دول قارة أمريكا الجنوبية مجتمعة على معونات أمريكية بلغت في مجموعها (٣, ٢١) مليار دولار، ودول قارة أفريقيا ما مجموعه (٣, ١٦)، مليار دولار خلال تلك الفترة[٥١].

مع حفظ حقوق «الآخرين»، لكن يحسب للرئيس بوش الأب أنه جمد صرف ضمانات قروض للحكومة الإسرائيلية، بقيمة ٤٠٠ مليون دولار، وربط صرفها بوقف الاستيطان في الأراضي الفلسطينية، بما فيها القدس، هذه النقطة، بالذات، انتقدها الرئيس كلينتون، في إطار حملته الانتخابية، منافسًا لبوش، كما تضمن برنامج كلينتون

الانتخابي التأكيد على أن القدس هي العاصمة الموحدة الأبدية لإسرائيل. ولدعم هذا التوجه، وافقت إدارة كلينتون، فيما بعد، على نقل سفارتها في تل أبيب إلى القدس المحتلة، شرط ألا يكون ذلك قبل عام ١٩٩٩، وبحيث يرتبط ذلك بمفاوضات الوضع النهائي بين الطرفين ـ الفلسطيني والإسرائيلي، والاتفاق على مستقبل الضفة الغربية، وقطاع غزة، والقدس الشرقية [٥٢].

أما بالنسبة للرئيس كلينتون، الذي وصل إلى البيت الأبيض في ظل مسيرة سلام منطلقة من مؤتمر مدريد، ففي عهده تم كسر التابو الإسرائيلي ـ الفلسطيني، من خلال الاعتراف المتبادل واتفاق أوسلو، قد كان أول سؤال وجه لكلينتون عشية تنصيبه، يقول: تحت أية ظروف، يمكنك اعتماد نقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس؟ كان جواب كلينتون كما يلي:

«إنني أعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وأن القدس يجب أن تبقى مدينة غير مقسمة. ولكنني أعتقد أن التوقيت هو القضية الحقيقية. إن نقل سفارتنا في الوقت الذي تتقدم فيه المفاوضات يمكن أن يعطل مسيرة السلام، بطريقة قد تنسف الإيجابيات التي نتطلع إلى تحقيقها» [٥٣].

لقد جاء التوصل إلى «اتفاق أوسلو»، بين م. ت. ف. والحكومة الإسرائيلية، بعيدًا عن الوساطة الأمريكية، التي كان يقودها في واشنطن دينس روس، ومارتن إنديك. وقد اشتمل اتفاق «أوسلو» على نصوص تفرض النقاش، والحوار، والمفاوضات حول القدس. حيث تم تحديد مرحلتين خلال خمس سنوات، المرحلة الأولى الانتقالية، ثم المرحلة النهائية، وتشمل الدخول في المفاوضات حول الوضع النهائي، بما لا يتجاوز بداية العام الثالث. وقد نص اتفاق «أوسلو» على اعتبار القدس إحدى قضايا الوضع النهائي. كما تمت الإشارة إليها في الملحق الأول المتعلق بالانتخابات، حيث تضمن ما يلي: «فلسطينيو القدس، الذين يعيشون هناك، لهم الحق بالمشاركة في عملية الانتخابات، حسب الاتفاقية بين الطرفين». وقد تضمنت الرسائل الجانبية المساندة للاتفاق رسالة كان المفروض أن تبقى سرية، ولا تنشر، إلا باتفاق الطرفين، وتحت ضغط المعارضة الإسرائيلية بالكنيست، اضطر بيريز إلى الاعتراف بالوثيقة، التي كانت رسالة موجهة من بيريز إلى هولست، تتضمن الموقف من القدس، وتنص كما يلي: «أود أن أؤكد بأن المؤسسات الفلسطينية في القدس الشرقية، والمصالح الفلسطينية بالقدس الشرقية هي ذات أهمية قصوى، ويجب أن تُصان. وبناء عليه، فإن جميع المؤسسات الفلسطينية في القدس الشرقية، والتي تشمل المؤسسات الاقتصادية، والاجتماعية، والتربية، والثقافة، والأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية، تشكل عملًا أساسيًا بالنسبة للشعب الفلسطيني» [٥٤].

لقد تميزت سياسة كلينتون بتطابقها الأشد مع الكيان الصهيوني، على الرغم من قيامها بدور الوسيط. وعلى الرغم من بعض العواطف التي أظهرها كلينتون تجاه الشعب الفلسطيني، وحقوقه الشرعية، فإنه لم يصل إلى حد الاعتراف لهذا الشعب بحقه في تقرير مصيره. ولا تزال الصهيونية تلعب في البيت الأبيض دورها في صياغة القرار المركزي المتعلق بالقدس. وقد كان أكثر المواقف وضوحًا ما جرى في كامب ديفيد الثانية (يوليو/ تموز ٢٠٠٠).

لقد حاول الرئيس كلينتون ممارسة الضغوط الأكثر قسوة على الأخ أبو عمار، والوفد المفاوض، خلال مباحثات كامب ديفيد الثانية، وكان معظم الضغط ينصب حول موضوع القدس، التي كانت بالنسبة للأخ أبو عمار نقطة غير قابلة للاجتهاد بالنسبة للموقف الفلسطيني والعربي، فهي أرض محتلة، ولا بد من الانسحاب منها، وعودتها للسيادة

الفلسطينية، وخاصة الأماكن المقدسة، دون مشاركة، أو اقتسام وظيفي مع الكيان الصهيوني. ولا يزال الموقف الأمريكي يمارس الضغوط، ويهدد بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وهو بذلك يعلن انتهاء دوره كوسيط، ولا يزال الموقف الوطنى الفلسطيني يقاوم [٥٥].

وحول القول بأن القدس الموحدة عاصمة إسرائيل، الذي دشَّنه بيل كلينتون ونائبه، آل جور، أثناء حملته الانتخابية للوصول إلى الرئاسة، في عام ١٩٩٢، وهو مكوّن غير رسمي؛ نظرًا لامتناع كلينتون، بعد فوزه، في الانتخابات وتسلمه الرئاسة، إلى تكرار هذا القول، وتمسكه، خلال فترتي رئاسته، بالموقف الأمريكي الرسمي، القائل بأن وضع القدس يجب أن يتقرر في المفاوضات النهائية، الفلسطينية ـ الإسرائيلية. وقد عمد كلينتون، في عام ١٩٩٥، إلى مقاومة مشروع قانون القدس، الذي تبناه الكونجرس، وهدد باستخدام حق النقض (الفيتو) ضده ما لم يتم تعديله. ففي ٢٠/ ٦/ ١٩٩٥ بعث وزير خارجيته، وارن كريستوفر برسالة إلى الكونجرس قال فيها: «إن معارضتي لهذا المشروع متجذرة في المبادئ الدستورية». واستطرد قائلًا: «لقد أصدر مكتب الاستشارات القانونية في وزارة العدل رأيًا، أرسله إلى محامي البيت الأبيض يقول فيه بأن هذا التشريع يمثل اعتداء غير دستوري على سلطات الرئيس الحصرية في مجال الشؤون الخارجية، ويتعارض مع مبدأ فصل السلطات، من خلال محاولة إجبار الرئيس على بناء وفتح سفارة في مكان معين، لأسباب تتعلق بالسياسة الخارجية ... ما لم تتم معالجة المسائل الدستورية، فسوف أقترح على الرئيس استخدام (الفيتو) ضد المشروع المذكور، إذا عرض عليه للموافقة»[٥٦].

لقد انصاع الكونجرس لتهديد البيت الأبيض، وأدخل تعديلًا على القانون، نص على منح الرئيس حق تأجيل تنفيذ القانون، كل ستة أشهر، إذا ما رأى بأن التنفيذ يشكل تهديدًا للمصلحة القومية الأمريكية. ومنذ ذلك الحين، واظب الرئيس على إصدار أمر، قضى بتأجيل العمل بالقانون، كل ستة أشهر، وصدر آخر أمر في هذا الشأن في ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٠، وجاء على شكل رسالة موجهةً إلى وزيرة الخارجية، مادلين أولبرايت، ونصت على ما يلي:

«... بموجب الصلاحية التي يخولني إياها الدستور وقوانين الولايات المتحدة، بصفتي رئيسًا، بما في ذلك القسم رقم ٧ (أ) من قانون القدس لعام ١٩٩٥، فإنني أقرر هنا بأن من الضروري حماية مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة، بتعليق القيود المنصوص عليها في القسمين ٣ (ب) و٧ (ب) من القانون؛ ولذلك فإنك مخولة ومصرح لك بنقل هذا القرار إلى الكونجرس، وعليه يجب أن يدخل هذا التعليق حيّز التنفيذ بعد نقل القرار، والتقرير إلى الكونجرس»[٥٧]. «وليم جيفرسون كلينتون».

لاحظ في رسالة كريستوفر السابقة، وفي رسالة الرئيس اللاحقة، أن الرئيس ووزير خارجيته قد اعترضا على ما جاء في القانون من إلزام للرئيس، واعتداء على سلطاته في مجال السياسة الخارجية، وليس على القانون نفسه. فالقانون لا يتناقض مع السياسة الأمريكية الرسمية فحسب، القائلة بأن وضع القدس إنما يتقرر في المفاوضات بين الطرفين المعنيين، ولا يشكل تدخلًا مسبقًا في نتائج هذه المفاوضات لصالح إسرائيل فحسب، وإنما، وكما يقول الخبير القانوني، فرانسيس بويل، «يمثل خرقًا فاضحًا للقانون الدولي، وبخاصة اتفاقية لاهاي، المتعلقة بالقانون الحربي، التي تشكل الولايات المتحدة أحد أطرافها»، وبأن هذا القانون واتفاقية الاستئجار «يخرقان الدستور الأمريكي نفسه، وفقًا للمادة الخاصة بأولوية القوانين الواردة في الدستور، والتي تكرس أولوية الاتفاقات والقوانين الدولية على القوانين المحلية» [٥٨].

قبيل انتهاء فترة ولاية كلينتون الثانية، عام ٢٠٠٠، عقدت جولة من المفاوضات بين الجانب الفلسطيني والاحتلال «الإسرائيلي» في كامب ديفيد، برعاية أمريكية، استمرت لأسابيع، وبضغوط أمريكية و«إسرائيلية» شديدة على المفاوض الفلسطيني، رفض الجانب الفلسطيني التنازل عن «القدس الشرقية»، واعتبار بعض توسعات القدس عاصمة للدولة الفلسطينية المنشودة على كامل مساحة الضفة وقطاع غزة. وكان ذلك من المقدمات التي هيأت لشرارة انتفاضة الأقصى، والتي اندلعت شرارتها الأولى من ساحات الأقصى الشريف في ٢١/ ٩/ ٢٠٠٠[٥٩].

المرحلة الرابعة (٢٠٠١ ــ ٢٠٠٩)

لقد دشنت الإدارة الأمريكية الجديدة، برئاسة بوش الابن، ولايتها بتصريح وزير الخارجية، كولن باول، في ٨/ ٢/ ٢٠٠١، ثم أتبعته باستخدام (الفيتو) ضد مشروع قرار توفير الحماية الدولية للشعب الفلسطيني، وهما أمران لا يدعوان إلى التفاؤل، ويتطلبان جهودًا فلسطينية وعربية فائقة للتأثير في مواقف هذه الإدارة، التي ترث إرثًا مضطربًا ومتناقضًا، إلى حدٍّ كبير. وفي ضوء ما سبق، فإن تحديًا قريبًا مهمًّا كان ينتظر الرئيس بوش الابن، وهو الموعد الذي يتحتم عليه فيه اتخاذ قرار بشأن قانون القدس، الذي أقره الكونجرس في عام ١٩٩٥. وفي ضوء أن أهم مكون من مكونات إرث القدس، على الصعيد الأمريكي، هو الامتناع، حتى الوقت الراهن، عن الاعتراف، رسميًّا، بالقدس عاصمة لإسرائيل، أو الاعتراف، واقعيًّا، بها كعاصمة لإسرائيل، من خلال نقل السفارة الأمريكية إليها، فهل سيصدر بوش الابن في ١٩/ ٦/ ٢٠٠١ أمرًا جديدًا بتأجيل العمل بقانون القدس لستة أشهر أخرى، أم سينفذ القانون، أم سيرفض القانون جملة وتفصيلًا على أساس أنه غير قانوني ومخالف للدستور الأمريكي؟ فالإرث الذي أمام الرئيس الأمريكي، على الرغم من كل ما يحتويه من اضطراب وتناقضات، هو إرث واسع، إلى حد يتيح للرئيس اتخاذ قرارات عادلة أو ظالمة، وفقا لما يحيط به من ظروف داخلية، وإقليمية، وعربية، ودولية، وما يتعرض له من مؤثرات ذات مساس بالمصلحة القومية الأمريكية[٦٠].

بعيد ذلك بأشهر قليلة، وصل جورج بوش الابن إلى السلطة، بالولايات المتحدة، الذي عبر وزير خارجيته، كولن باول، عن موقف الإدارة الأمريكية الجديدة في خطاب له أمام لجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب، بتاريخ ٨/ ٣/ ٢٠٠١، حيث رد على سؤال أحد الأعضاء، فيما إذا كانت الإدارة الجديدة ستفي بتعهد بوش الابن، خلال حملته الانتخابية، بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، بقوله: «إن الالتزام بنقل السفارة إلى عاصمة (إسرائيل)، التي هي القدس، ما يزال قائمًا». واستطرد قائلًا بأن الإدارة لم تبدأ، بعد، بعملية نقل السفارة، «على النحو الذي تعهد به بوش، خلال الحملة الانتخابية، بأن ينقل السفارة فور تسلمه الحكم»، وأضاف بأن الوضع المتأزم الراهن قد يؤجل ذلك، «فنحن لم نتخذ أية خطوات، حتى الآن، وذلك في ضوء الوضع الصعب، القائم حاليًّا، وسنواصل البحث عن الطريقة التي سنقوم بنقل السفارة بها»[٦١].

على الفور، سادت في وزارة الخارجية حالة من الارتباك الكبير، وبدأ التساؤل فيما إذا كان باول ينوي تغيير السياسة الأمريكية المعتمدة إزاء القدس، أم أن ما حدث لم يكن غير زلة لسان. وقد استقر الرأي كما يبدو على الاحتمال الثاني، وخرج الناطق باسم الخارجية الأمريكية، ريتشارد باوتشر، ليقول أمام الصحفيين بأنه لم يحدث أي تغيير في السياسة الأمريكية المعتمدة إزاء القدس، وبأن واشنطن لا تزال تعتقد بأن وضع القدس هو موضوع تعهد

الطرفان بالتفاوض عليه. وحاول باوتشر تبرير ما بدر من وزير الخارجية في الكونجرس، بأنه «قول غير مقصود»، وبأنه جاء نتيجة ضغط الكونجرس عليه، وبأن ذلك لم يكن غير وصف للوضع الفعلي القائم حاليًا [٦٢].

تواصلت التبريرات الأمريكية، حيث عقدت عدة مؤتمرات صحفية، منذ ذلك الحين، وتحدث باول، في مناسبات عديدة أخرى، إما معتذرًا، أو ممتنعًا عن الإشارة إلى موضوع القدس. ففي لقائه مع العرب الأمريكيين، في ١٣/ ٣/ ٢٠٠١، قال باول بأنه أساء الحديث أمام الكونجرس، وبأن السياسة الأمريكية لم تتغير بشأن القدس. وفي لقاء آخر له بالكونجرس، في ١٤/ ٣/ ٢٠٠١، تحدث باول عن الموقف الأمريكي التقليدي المتمثل في أن وضع القدس «يجب أن يتقرر في المفاوضات». وأضاف: «حتى لو كان هذا الجانب، أو الآخر، يدعي شيئًا آخر». أما في شأن نقل السفارة، فقال بأن الإدارة الأمريكية تدرس الوضع، ولكنها لم تحدد أي تاريخ لذلك بسبب حالة عدم الاستقرار «وعلينا التحرك بحذر». ولم يشر في خطابه أمام مؤتمر الأيباك في ١٩/ ٣/ ٢٠٠١ إلى القدس، وإنما أكد على أنه «يجب تجنب الأحداث الأحادية الجانب، التي من المؤكد أنها ستستفز الجانب الآخر» [٦٣].

أحدثت هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ تغييرًا في الموقف الأمريكي إزاء الفلسطينيين والعرب بعامة، وإن اقتصر ذلك، في بداية الأمر، على ما كان يتسرب في الإعلام الأمريكي من هجوم على عدد من الدول العربية، والمجتمعات العربية، والإسلام. ولكن حاجة الإدارة الأمريكية لحشد موقف عربي من أجل إنجاح العدوان على أفغانستان، وحاجتها إلى تهدئة فلسطينية دفعها إلى المناورة من أجل خدمة الغرض نفسه. وقد عبرت عن ذلك إشارة الرئيس الأمريكي بوش الابن إلى أنه يفكر بإقامة دولة فلسطينية، أو في حل بوجود دولتين، فلسطينية وإسرائيلية. وقد ذهبت عدة تحليلات إلى تضخيم هذه الإشارة العابرة أو الإشارة «الطُعُم» (لا جديد فيها، حتى بالنسبة لسياسات إدارة كلينتون، أو سياسات حزب العمل الإسرائيلي)، فاعتبرت أن موقف إدارة بوش الجديد، مهم جدًّا، وسيفتح آفاقًا عريضة أمام الفلسطينيين، وذلك بالرغم من أن الغرض كان واضحًا، وهو كسب الموقف العربي والفلسطيني من أجل تمرير الحرب على أفغانستان [٦٤].

لقد أثبتت التجربة، بعد «النجاح» الذي حققته الإدارة الأمريكية في أفغانستان، بأن الحديث عن الدولة الفلسطينية كان مجرد طُعم، أو إيهام، وخداع، فما أن تمكن الجيش الأمريكي من تحقيق ما اعتبر «نجاحًا هائلًا» في حربه على أفغانستان، حتى رأينا السياسة الأمريكية تنتقل إلى مواصلة الحرب على الفلسطينيين والعرب، ولتحقيق التماهي بينها وبين قيادتي «الليكود» و«العمل»، تماهيًا، لم يسبق له مثيل، ولا سيما من جهة العمل العسكري، سواء أكان ذاك الذي يقوم به الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين، أم كان من جهة الإعداد للحرب على العراق، وحكمه بنظام أمريكي متصهين، كمقدمة لإحداث تغييرات بالقوة، أو تحت التهديد باستخدام القوة، في كل الأقطار العربية والإسلامية، ابتداءً من منطقة الخليج والمشرق بعد العراق، ووصولًا إلى أقصى المغرب.

عندما أصدر الرئيس الأمريكي قراره بتجميد أرصدة «جمعية الأرض المقدسة» الأمريكية في الولايات المتحدة، أعلن بأنه وسع الحرب العالمية التي بدأها في أفغانستان إلى فلسطين. وقد صحب ذلك إدراج حركتي «حماس»، و«الجهاد» في قائمة الإرهاب. وكذلك «حزب الله»، الأمر الذي يعني بأن السياسة الأمريكية انتقلت من الانحياز للموقف «الإسرائيلي»، ودعم عمليات الجيش «الإسرائيلي» لتصبح طرفًا مباشرًا في الصراع ضد الفلسطينيين،

والعرب عمومًا، وإلاّ فما معنى الإعلان عن توسيع الحرب إلى فلسطين، أو إدراج منظمات المقاومة في قوائم الإرهاب، الذي أعلنت أمريكا الحرب العالمية عليه؟![٦٥].

إن شهر أبريل/ نيسان ٢٠٠٢ الذي شهد تلك المواجهات المسلحة في مخيم جنين ومناطق أخرى، وشملت التظاهرات فيه أغلب مدن العالم، أعاد المبادرة إلى الشعب الفلسطيني، ووضع كلا من الولايات المتحدة، والكيان الصهيوني، في المأزق، خصوصًا بعد أن صدر قرار مجلس الأمن القاضي بتشكيل لجنة تقصي حقائق عن جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي في جنين، الأمر الذي جعل قادة الجيش «الإسرائيلي» يهددون باستقالة جماعية إذا جاءت اللجنة إلى المخيم. وهنا تحركت الإدارة الأمريكية للمناورة، بالضغط على بعض الدول العربية، ومساومتها من أجل إقناع الرئيس الفلسطيني بالموافقة على «اتفاق فك الحصار» عنه، والذي تضمن وضع الأمين العام للجبهة الشعبية، وخمسة آخرين من القيادات، تحت إشراف أمريكي ـ بريطاني في سجن أريحا، وكان مطلب زيني في السابق تسليمهم، بلا قيد أو شرط، لحكومة شارون. كان القبول الفلسطيني العربي بهذا الاتفاق، وما تبعه من اتفاق «سيئ آخر»، لحل «مشكلة» المحاصرين في كنيسة المهد، مع المناداة بوقف العنف، بمثابة النكسة لوضع فلسطيني عربي عالمي، كان في حالة الهجوم الأمر الذي أفشل الشارع، ودفعه إلى البقاء بالبيوت، ما دام باب المواجهات قد أغلق، وفتح باب المفاوضات. عندما وجدت الإدارة الأمريكية أن ضغط المواجهات من نمط مواجهة مخيم جنين، عادت إلى الحرب على الفلسطينيين فورًا، وإذا بها تطالب على لسان الرئيس الأمريكي بعزل عرفات، والمجيء بسلطة أو قيادة فلسطينية أخرى[٦٦].

لقد توّج انحياز هذه الإدارة إلى جانب إسرائيل عندما قام بوش الابن بالتوقيع على قرار للكونجرس الأمريكي، باعتبار القدس الموحدة، بشقيها، المحتل عام ١٩٤٨، والمحتل عام ١٩٦٧، العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل، وذلك يوم الاثنين في ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢. ولتخفيف حدة رد الفعل العربي على هذا الإجراء غير المسبوق، قال الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش: إن البند ٢١٤، المتعلق بالقدس، في قانون العلاقات الخارجية الجديد، الذي قام بتوقيعه «يتعارض، بطريقة غير مقبولة، مع سلطات الرئيس الدستورية، بشأن السياسة الخارجية للأمة، والإشراف على الشق التنفيذي». وأكد بأن سياسة بلاده بشأن القدس لم تتغير، رغم توقيعه على القانون المشار إليه. وركز على أن قضية القدس حلها يتم في إطار مفاوضات السلام بين الفلسطينيين و«الإسرائيليين»، كما أكد، في رسالة للنواب الأمريكيين، أرفقها بنص القانون، بأنه يحتفظ بحق تجاهل بعض بنوده، التي تخالف مسؤوليته في السياسة الخارجية[٦٧].

ركزت إدارة بوش الابن على الشق الأمني من الصراع العربي «الإسرائيلي»، ولإخماد الانتفاضة الفلسطينية، فقد أرسل رئيس جهاز المخابرات الأمريكية (CIA) إلى المنطقة، لإقامة اتفاقات أمنية إسرائيلية ـ فلسطينية، وتأجيل التفاوض السياسي إلى ما بعد وقف الانتفاضة، وفرض الأمر الواقع الإسرائيلي. وقد كانت «خريطة الطريق»، التي قامت إدارة بوش بإعلانها في نيسان ٢٠٠٣، قد حددت فيها الأسس لاتفاق الوضع النهائي، وإقامة دولتين. وتطالب الخطة الحكومة «الإسرائيلية» بوقف التوسع الاستيطاني، بما في ذلك النمو الطبيعي للسكان[٦٨].

جاء التوقيع على «وثيقة جنيف من أجل السلام في الشرق الأوسط»، في أول ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٣، ليواكب «خريطة الطريق» الأمريكية، وهي الوثيقة التي ظل وزير الإعلام الفلسطيني، ياسر عبد ربه ووزير العدل

الإسرائيلي الأسبق يوسي بيلين، يتفاوضان حولها على مدى ثلاث سنوات، حتى تم التوقيع عليها، بحضور مئات الشخصيات الدولية. وتدعو هذه الوثيقة إلى إنهاء الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وإحلال السلام بين الطرفين وقيام علاقات دبلوماسية، وطبيعية كاملة، بين دولتي فلسطين وإسرائيل، وتضع هذه الوثيقة ـ غير الرسمية ـ برنامجًا زمنيًّا لتسويةالصراع، وتشكل بديلًا لقرارات الأمم المتحدة، ذات الصلة بالصراع، في حالة إقرارها، رسميًّا، من الحكومتين الفلسطينية، والإسرائيلية [٦٩].

أكدت الوثيقة على ضرورة وضع حد لنزيف الدماء بين الطرفين، الفلسطيني و«اليهودي»، واحترام حق الجانبين في العيش داخل حدود آمنة، ومعترف بها، دوليًّا، وفيما يلي أبرز النقاط التي تضمنتها الوثيقة [٧٠]:

* اعتراف دولة إسرائيل بدولة فلسطين، فور قيامها، وعلى معظم أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، وقيام علاقات دبلوماسية وقنصلية كاملة، فورًا، وتبادل السفراء، في مدة أقصاها شهر من دخول الاتفاق حيّز التنفيذ.

* تحتفظ الدولتان بعاصمتيهما، في مدينة القدس، على أن يكون ذلك في المناطق الخاضعة لكل طرف، ويسيطر الفلسطينيون على القدس العتيقة (الشرقية)، باستثناء الحي اليهودي، وحائط البراق (المبكى)، وسوف يخضع المسجد الأقصى للسيادة الفلسطينية، على أن تكون حرية الوصول إليه مكفولة للجميع، تحت إشراف قوة دولية للمراقبة.

* يمنع اليهود من الصلاة في المسجد الأقصى، وتمنع جميع الحفائر الأثرية، تمامًا، فيه، ويتخذ الطرفان إجراءات لضمان حرية وصول اليهود إلى مزاراتهم الدينية المقدسة، ومنها بئر راحيل، في بيت لحم، ومقبرة إبراهيم، في مدينة الخليل.

* تحتفظ «إسرائيل» بحق تمركز قوات أمنية في تكتل مستعمرات حوش عتصيون، بجنوب الضفة الغربية، والمستعمرات الواقعة في ضواحي القدس.

* تنتقل السيادة إلى الجانب الفلسطيني في مستعمرات آرييل، وعفرات، وجبل أبي غنيم (هارحوما).

* يتبادل الجانبان السيادة في عدة مناطق، منها مناطق في صحراء النقب تتاخم قطاع غزة، وسوف يتسلمها الفلسطينيون مقابل مناطق بالضفة الغربية، تحتفظ إسرائيل بها، بدلًا من إعادتها للفلسطينيين.

ولم تنص الوثيقة، في أي من بنودها، على عبارة «حق العودة للاجئين الفلسطينيين»، وسوف يتم السماح بدلًا من ذلك بعودة عدد رمزي من الفلسطينيين إلى إسرائيل، وتعويض اللاجئين عن ممتلكات فقدوها، من جراء الاحتلال، من خلال صندوق خاص تتبرع إسرائيل برأسماله.

* ويقر الطرفان، الفلسطيني والإسرائيلي، بعدم المطالبة بأي تعويضات، أو رفع دعاوى قضائية عن أحداث وقعت قبل توقيع الاتفاق.

ويمكن القول إن «وثيقة جنيف» قد تناولت مشروع التسوية الدائمة لقضية القدس، بتفصيلات أكثر من أية وثيقة، أو اتفاقية، أو إعلان مبادئ سابق، ذلك في سياق تسوية المسار الفلسطيني من الصراع العربى ـ الإسرائيلي بكافة جوانبه، على أن ثمة ملاحظات حول ما ورد بشأن القدس فى الوثيقة [٧١]:

● **أولًا**: يشكل الحل المقترح بشأن القدس في «وثيقة جنيف» حدًا أدنى بكثير من مقترحات الرئيس الأمريكي الأسبق، كلينتون. فالأحياء العربية بالقدس المحتلة، عام ١٩٦٧، ستكون تحت سيادة فلسطينية، دون تحديد لشكل ومضمون تلك السيادة، سيادة كاملة، ناقصة، إدارية. والأحياء اليهودية، التي باتت تمثل من خلال عمليات الضم، والتهويد، غالبية القدس، وغلاف القدس، يخضع للسيادة «الإسرائيلية»، وأن تكون منطقة الحوض المقدس (الأماكن الدينية، أي الحرم وكنيسة القيامة) بدون سيادة لأحد عليها، وتحت رقابة دولية.

● **ثانيًا**: أيًا كان شكل ومضمون التسوية التي أوردتها «وثيقة جنيف» بشأن مستقبل القدس في سياق التسوية الإسرائيلية ـ الفلسطينية، فإن القدس ـ محل التفاوض ـ لم تعد، بموقعها، أو مساحتها، أو حدودها، أو عمرانها، أو سكانها، هي قدس ١٩٦٧، حيث تعرضت المدينة المقدسة، خلال السنوات العشر الأخيرة، وتحديدًا منذ اتفاق «أوسلو» ١٩٩٣، إلى مخطط تهويد مرحلي مبرمج، استهدف فرض الأمر الواقع الإسرائيلي، مما يشكل صعوبة بالغة، في تنفيذ ما تضمنته «وثيقة جنيف».

● **ثالثًا**: تشكل وضعية القدس في «وثيقة جنيف»، التراجع الإسرائيلي الثاني بعد «اتفاق أوسلو»، بشأن المطالب الإسرائيلية بخصوص القدس، التي أحاطتها إسرائيل، منذ احتلال المدينة عام ١٩٦٧، بمجموعة من التشريعات، والقوانين، التي أصدرها الكنيست، أو الأحكام التي أصدرتها المحكمة الإسرائيلية العليا، للتأكيد على أنها العاصمة الموحدة (الغربية والشرقية) والأبدية لإسرائيل. ويعد هذا التراجع الإسرائيلي، وإن كان محدودًا بشأن وضعية القدس نجاحًا للمفاوض الفلسطيني، الذي تمرس على فن المفاوضات الصعبة مع المفاوض الإسرائيلي.

في ١٤ أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، وفي رسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي، آرئيل شارون، من بوش، جاء: «في ضوء الحقائق الجديدة على الأرض، وضمن ذلك مراكز السكان الإسرائيلية الرئيسية الحالية، من غير الواقعي، والمتوقع، بأن نتيجة مفاوضات الوضع النهائي ستكون عودة كاملة وتامة إلى خط الهدنة لعام ١٩٤٩، وجميع الجهود السابقة للتفاوض على حل الدولتين قد توصلت إلى الاستنتاج نفسه»[٧٢].

تنبع خطورة هذه التفاهمات بين الولايات المتحدة وإسرائيل، والتي لم يسبق لها مثيل، في موافقة الولايات المتحدة لسياسة التوسع الاستيطاني الإسرائيلي بـ «القدس الشرقية»، وفي أماكن أخرى. وهذا التواطؤ، وانخراطه في هذه السياسة، علامات أخرى على تحول كبير في سياسة الولايات المتحدة، التي كانت حتى إدارة كارتر ترى بأن جميع الأنشطة الاستيطانية، بما في ذلك بـ «القدس الشرقية»، غير شرعية، وتشكل انتهاكًا لاتفاقيه جنيف الرابعة[٧٣].

في إطار الدعم الأمريكي لدولة الاحتلال الإسرائيلي، حاول الأمريكان، جاهدين، فرض سياسة الأمر الواقع على مدينة القدس، كعاصمة موحدة لدولة الكيان الإسرائيلي، ويتبين ذلك من خلال جملة من الخطوات التي تم اتخاذها، وأهمها[٧٤]:

١ ـ نجحت لجنة العلاقات العامة الأمريكية ـ الإسرائيلية (إيباك)، إحدى جماعات الضغط الإسرائيلية في بالولايات المتحدة، في دفع أحد رجال الكونجرس إلى تقديم مسودة مشروع قرار، طالب بالاعتراف بالقدس كعاصمة لإسرائيل، لا تقبل التقسيم.

٢ـ شمل مشروع القانون، الذي تقدم به السيناتور برونادنباك، في ١٩/ ٤/ ٢٠٠٥، الآتي:

(أ) يجري تداول مشروع في مجلس الشيوخ والكونجرس يدعو للاعتراف بالقدس كعاصمة غير مقسمة لإسرائيل قبل ١٨٠ يومًا من اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الفلسطينية.

(ب) تشريع مشترك: من أجل توفير الاعتراف بالقدس، كعاصمة غير مقسمة لإسرائيل، قبل اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الفلسطينية، ولغايات أخرى، فإن الكونجرس الأمريكي، يقرر:

* الجزء الأول : هذا التشريع المشترك يمكن تسميته بتشريع القدس .

* الجزء الثاني : توصل الكونجرس إلى النتائج المغلوطة التالية:

١ ـ لقد كانت القدس عاصمة الشعب اليهودي لأكثر من ٣ آلاف عام.

٢ ـ لم تكن القدس أبدًا عاصمة لأي دولة أخرى غير الشعب اليهودي.

٣ ـ القدس مركزية لليهودية، وقد ذكرت في التوراة ـ إنجيل اليهود ـ ٧٦٦ مرة.

٤ ـ لم تذكر، بالاسم، في القرآن.

٥ ـ القدس هي مقر الحكومة الإسرائيلية، بما فيها الرئيس، والبرلمان، والمحكمة العليا.

٦ ـ ينص قانون الولايات المتحدة الأمريكية على أن سياسة الولايات المتحدة هي أن القدس يجب أن تكون العاصمة غير المقسمة لإسرائيل.

٧ـ لكل دولة سيادية الحق في تحديد عاصمتها.

٨ ـ إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي لا تقيم فيها الولايات المتحدة سفارة بالمدينة المعلنة كعاصمة، ولا تعترف بالمدينة كعاصمة.

٩ ـ يجب السماح لمواطني إسرائيل بحرية العبادة، طبقًا لتقاليدهم.

١٠ـ تدعم إسرائيل الحرية الدينية لجميع المعتقدات.

١١ـ يعبِّر نقل السفارة الأمريكية في إسرائيل من تل أبيب إلى القدس عن دعم الولايات المتحدة المتواصل لإسرائيل، وللقدس غير المقسمة.

* الجزء الثالث: يتم نقل موقع سفارة الولايات المتحدة، في إسرائيل، من تل أبيب إلى القدس في مدة لا تزيد عن ١٨٠ يومًا قبل الاعتراف بالدولة الفلسطينية.

* الجزء الرابع: الاعتراف بالقدس غير المقسَّمة عاصمة لإسرائيل، ولن تعترف الولايات المتحدة بالدولة الفلسطينية حتى قيام المجتمع الدولي بحل وضع القدس، بالاعتراف بالمدينة على أنها العاصمة غير المقسَّمة لإسرائيل.

* الجزء الخامس: موقف الكونجرس من حرية العبادة يتمثل في وجوب السماح لمواطني (إسرائيل)، كحق أساسي من حقوق الإنسان المعترف بها من الولايات المتحدة، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، رقم ١٨١، الصادر في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٤٧، بالعبادة بحرية، وطبقًا لتقاليدهم.

صرح أوباما، أثناء تواجده في سديروت بأن القدس ستبقى عاصمة لإسرائيل، منوهًا، في الوقت نفسه، بأن الوضع النهائي للقدس سيتحدد خلال المفاوضات. ويذكر أن أوباما، أثناء لقائه باللوبي اليهودي بالولايات المتحدة أشار إلى أن القدس يجب أن تكون عاصمة «موحدة» لإسرائيل. وأكد أوباما بأن الأدارة الأمريكية تتفهم أن من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها، وأنها تملك حق الرد على أي خطر يتهددها. وذكر المرشح الديمقراطي، آنذاك، أيضًا، أنه يدعم التوصل إلى سلام بين فلسطين وإسرائيل، ولكنه يرى بأنه سيكون من الصعب التفاوض مع «حماس» التي لا تعترف «بإسرائيل» [٧٥].

منذ دخول الرئيس باراك أوباما البيت الأبيض، وبقوة أكبر منذ ترسيم الحكومة الجديدة في إسرائيل، طرأ تراجع حاد في مستوى التنسيق، والمشاورات السياسية ـ الأمنية بين إسرائيل والولايات المتحدة. هكذا، يحذر موظفون كبار في القدس، ينشغلون بالاتصالات مع الولايات المتحدة. وبالتوازي، فإن مسؤولين في البيت الأبيض شددوا أمام محافل إسرائيلية بأن أوباما سيطلب من رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو التجميد المطلق لبناء المستوطنات [٧٦].

حسب أقوال الموظفين الكبار، ففي الأشهر الأخيرة، ولاسيما منذ ترسيم الحكومة الجديدة في إسرائيل، وقعت سلسلة من «إحداث الخلل»، بالتنسيق بين إسرائيل والولايات المتحدة. وخلافًا لإدارة بوش، فإن رجال أوباما يقللون من وضع نظرائهم في إسرائيل، مسبقًا، في صورة النشاطات السياسية ـ الأمنية المتعلقة بالشرق الأوسط، وعندما تجري عملية إطلاعهم على ذلك، فإنها لا تتضمن مشاورات مسبقة، أو تنسيقًا للرسائل [٧٧].

منذ أعلن الرئيس الرابع والأربعون، في تاريخ الولايات المتحدة، باراك حسين أوباما في مقابلته التليفزيونية الرسمية الأولى، منذ استلامه إدارة البيت الأبيض، متحدثًا إلى قناة «العربية» ومقرها دبي، بأنه يمدّ يده إلى العالم الإسلامي. وفيما يخص إيران، فقد كرر أوباما القول بأن أمريكا تمد يد الصداقة لإيران، لو غيّرت هذه الأخيرة قبضتها. واستمر يقول: «مهمتي تجاه العالم الإسلامي هي إبلاغه بأن الأمريكيين ليسوا أعداءهم»[٧٨].

ما فتئ أوباما يروّج للتغيير في كل ما يتعلق بشؤون الأمريكيين.على أن ما لم يذكره هو أن أهداف أمريكا ستبقى نفسها، وأن مصالحها لن تتغير. الاختلاف البسيط الوحيد هو كيفية تحقيق هذه الأهداف. ومراجعة دقيقة لكل تصريحاته، ومواقفه، تكشف بأن أوباما هو المنتج، نفسه، للنظام، نفسه، الذي أتى ببوش، إنه نظام الاحتكارات الأمريكية.

منذ الاحتلال الإسرائيلي، والولايات المتحدة الأمريكية تضغط على الأمة العربية، بكافة الوسائل، والأساليب، لإجبارها على التخلي عن الأرض لدولة إسرائيل. لقد دأبت الإدارات الأمريكية المتوالية على السعي لحل دولتين تتعايشان جنبًا إلى جنب بحكم افتراضي ذاتي. هذا الحل يعزل إسرائيل عن بقية المنطقة، ويحجّمها، ويقلل دورها في الشرق الأوسط. أي أن الإدارة الأمريكية تسعى لإقامة دولة فلسطينية، كأداة لاحتواء الفلسطينيين، وهذا لن يتحقق إلا بضمانات دولية، وبجلب قوات دولية تنتشر على طول الحدود بين إسرائيل والدولة الفلسطينية المستقبلية. سياسة أمريكا في المنطقة ترتكز، أيضًا، على العمل على عولمة القدس، كحل لأزمة القدس الحسّاسة، حل يضمن تواجد وحضور قويّ من خلال حضور الأمم المتحدة. كل ما يتطلبه ذلك هو أن تقرر الولايات المتحدة الأمريكية الحدود النهائية، ثم فرضها على إسرائيل، وما تبقى من فلسطين [٧٩].

لقد أكدت الولايات المتحدة، يوم ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٩، أن قضية القدس المحتلة هي من قضايا الحل النهائي، التي يتعين إيجاد حل لها خلال المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية. وقالت وزارة الخارجية الأمريكية، في بيان لها، إن «قضية القدس هي من قضايا الحل النهائي، حيث اتفق الجانبان، الإسرائيلي والفلسطيني، في مرحلة سابقة على حل هذه المشكلة عبر المفاوضات». وأكدت الخارجية الأمريكية على أن الولايات المتحدة «ستقدم كل الدعم للجهود الإسرائيلية والفلسطينية للتوصل إلى اتفاق حول كافة قضايا الحل النهائي». يأتي بيان الخارجية الأمريكية ردًّا على تصريحات رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، الذي أعلن، في وقت سابق، أن «جميع أجزاء مدينة القدس المحتلة ستبقى تحت السلطة الإسرائيلية، ولن يتم تقسيمها، أو تجزئتها» (٨٠).

حكومة بوش، وفي الجزء الأكبر، غرقت في حربها بالعراق، وأفغانستان، وصارت قضية فلسطين أمرًا ثانويًّا بالنسبة للحرب الأمريكية. إثر هزيمة الكيان الصهيوني في لبنان (٢٠٠٦)، فقد رئيس الوزراء الإسرائيلي، إيهود أولمرت، شعبيته، وتفككت الحكومة الائتلافية الإسرائيلية. ما تطلّب إجراء انتخابات مبكرة. كل هذا جعل أي تقدم بحل الدولتين مستحيل، عمليًّا. لهذه الأسباب كانت إدارة بوش غير قادرة على التقدم في مشروعها بحل الدولتين، ولهذا السبب، أقر الكثيرون بفشل، وإخفاق سياسة بوش في الشرق الأوسط. خلال السنتين الماضيتين، اتخذ أوباما المواقف المساندة للحكومة الإسرائيلية المتشددة، مقرًّا بذلك، عدم تميّز مواقفه عن مواقف سابقه. لقد انحصر نقد أوباما لسياسة بوش، فيما يخص الصراع فى محورعدم اهتمام إدراة بوش، بما فيه الكفاية، بعملية السلام. وليس لأنها دعّمت الحكومة الإسرائيلية اليمينية. فأوباما يتعهد بالمحافظة على العلاقة الأمريكية ـ الإسرائيلية قوية (المساعدات، والإمدادات العسكرية، والاقتصادية). ويؤكد استمرار دعم حكومته لحل الدولتين، وصرّح بأن القدس يجب أن تكون عاصمة لإسرائيل. أوباما أكد في حوراه لفضائية «العربية»، وكرّر، دعم حكومته لإسرائيل، وللأهمية الأساسية لأمن دولة الصهاينة، متجاهلًا بذلك معاناة الفلسطينيين، وحرب الإبادة التي شنتها إسرائيل على غزّة (نهاية ٢٠٠٨ وحتى ١٩ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩)، والحصار المستمرّ عليها.

قبل شهور من تركه البيت الأبيض، أجرى الرئيس الأمريكي، جورج دبليو بوش، مداولات مع الكونجرس بشأن نقل السفارة من «تل أبيب» إلى القدس المحتلة، فيما يعد ضربة جديدة للعرب، خاصّة أن هذه المداولات تأتي بعد أيام من تصريحات المرشح، الأوفر حظا للرئاسة الأمريكية، باراك أوباما، والذي قال فيها إن القدس ستظل «عاصمة إسرائيل الأبدية».

لقد أكد محللون أن هذا القرار بمثابة «صب الزيت على النار»، في موضوع «مفاوضات السلام» المتعثرة، حتى الآن، فدلالاته السياسية أكثر تعقيدًا من مجرد نقل مبنى السفارة من مدينة لأخرى؛ لأنه يزيد الاحتقان لدى الجانب الفلسطيني، والعربي. يُذكر أن «قانون السفارة الأمريكية بالقدس» الذي أصدره الكونجرس، في عام ١٩٩٥، نص على أنه ينبغي الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة إسرائيل، كما يتعين نقل السفارة الأمريكية إليها في موعد أقصاه ٣١ مايو/ آيار ١٩٩٩.

لكن الرؤساء الأمريكيين، بداية من بيل كلينتون، وحتى أوباما، دأبوا على تأجيل نقل السفارة من تل أبيب للقدس، بموجب قرار رئاسي، يصدر كل ستة أشهر، بدعوى أن التأجيل يخدم مصلحة الأمن الأمريكي، ويستخدم الرئيس في ذلك حقه الدستوري، حيث إن رسم السياسة الخارجية جزء لا يتجزأ من سلطاته التي لا ينازعه فيها

أحد، حتى الكونجرس، الذي يملك، في الوقت نفسه، سلطة حجب أي تمويل لأي سفارة أمريكية في الخارج، إلا أنه لم يستخدم هذه السلطة حتى الآن لوقف ميزانية سفارة أمريكا بتل أبيب للضغط على الإدارة في سبيل تنفيذ قرار نقل السفارة.

من الواضح جليًّا أن الولايات المتحدة تتبع، منذ نشأت القضية الفلسطينية وحتى الآن، مواقف سلبًا لصالح إسرائيل. ورغم تباين مواقف الإدارات الأمريكية المختلفة، فإنها جميعها صبَّت في مصلحة السياسة الإسرائيلية. وقد تظهر تلك مواقف الإدارات الأمريكية، أحيانًا، بالحياد، وأنها ضد الإجراءات الإسرائيلية في قضية القدس، إلا أنها، عمليا، عززت الإجراءات الإسرائيلية العملية لتهويد مدينة القدس. وقد عملت الولايات المتحدة، في كثير من الأحيان، على تعطيل إصدار قرارات للأمم المتحدة بخصوص قضية القدس، من خلال (الفيتو) الأمريكي، إذا تعارضت تلك القرارات مع احتياجات السياسة الإسرائيلية. وفي النهاية، قامت بتحييد الأمم المتحدة، نهائيًّا، في تقرير مستقبل مدينة القدس. كما أسهمت الولايات المتحدة في تأجيل التفاوض حول مدينة القدس حتى المفاوضات النهائية، والمؤجلة. مساهمة بذلك إسهامًا كبيرًا في حصر المفاوضات، بشأن قضية القدس، في أجزاء من الجزء الشرقي للمدينة، بعد أن قلصته، قبل ذلك، بالشق الشرقي للمدينة، بعد أن كانت تطرح قضية القدس في المفاوضات بشقيها الشرقي والغربي. ومتوافقة في ذلك مع المواقف الإسرائيلية.

وبعد فقد دفعت الاحتكارات الأمريكية برئيس جديدٍ إلى البيت الأبيض، بدأ بممارسة مهامة في ١٩/ ١/ ٢٠٠٩، وبعد أن اطلع على كل الملفات، واستمع إلى كل مستشاريه، بدأ جولته الخاصة بما أسماه «العالم الإسلامي»، موجهًا خطابة من جامعة القاهرة، في العاصمة المصرية، في ٤/ ٦/ ٢٠٠٩، متأسيًا على ما عاناه اليهود في الهولوكوست على أيدي النازي، فيما بنى معاناة الفلسطينيين للمجهول، ودعا مجددًا إلى حل الدولتين، وحين أتى إلى القدس لم يرفض اعتبارها عاصمة أبدية موحدة للكيان الصهيوني، بل اكتفى بالدعوة بإبقائها مفتوحة لأصحاب الديانات الثلاثة، ما يعني التسليم بكونها عاصمة للكيان الصهيوني، والتمني على هذا الكيان بأن يسمح لأصحاب الديانات السماوية بالذهاب إلى هناك، وحين انتقل إلى ألمانيا، صرح أوباما، من هناك، بأنه قرر تأجيل نقل السفارة الأمريكية إلى القدس ستة أشهر أخرى. وما كان منه إلا أن يؤجل هذا النقل، وإلا دمر كل خططه لتهدئة الموقف، وإيهام العرب بقرب تسوية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، ما يزيد فى إحراج أصدقاء أمريكا من الحكام العرب. باختصار التوقيت غير مناسب بعد، خاصة وأن مجموع من نقل سفاراتة إلى القدس لم يتعد ثلاث دول، لا ترى بالعين المجردة على الخريطة، ولا تكاد أسماؤها تتردد في الأخبار، وهي: السلفادور، والدومينيكان، فضلًا على كوستاريكا، التي راجعت موقفها، لاحقًا، فقامت بإعادة نقل سفارتها من القدس إلى تل أبيب في ١٨/ ٨/ ٢٠٠٦.

* * *

هوامش الفصل السادس:

(١) محمد شديد، **الولايات المتحدة والفلسطينيون بين الاستيعاب والتصفية**، ط ٢، ترجمة كوكب الريس، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥، ص ٧٠ـ ٧١.

(٢) فؤاد سعد، الموقف الأمريكي وقضية القدس (انظر: مجموعة محاضرين، **دفاعًا عن عروبة القدس**، سلسلة «مطبوعات التضامن»، منظمة تضامن الشعوب الأفرو آسيوية، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٤٩).

(٣) د. أيمن يوسف، **القدس والأماكن المقدّسة في السياسة الأمريكية**. الجامعة العربية ـ الأمريكية. جنين .http: //www.bahethcenter. net

(٤) أسعد عبد الرحمن، **منظمة التحرير الفلسطينية.. جذورها، تأسيسها**، مساراتها، نيقوسيا، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٧، ص ١١٨.

(٥) انتصار الشنطي، الولايات المتحدة الأمريكية وقضية القدس، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد١٠٧، يناير/ كانون الثاني، فبراير/ شباط، مارس/ آذار١٩٩٧، ص١٧٠.

(٦) محمد رشيد عناب حسين، موقف الولايات المتحدة من قضية القدس، المصدر: **القدس أون لاين** www.alquds_ online.org.

(٧) نبيل محمد السهلي، حول تاريخ القدس وعروبتها، **شؤون عربية**، (القاهرة)، عدد ١١٦، شتاء ٢٠٠٣.

(٨) حسين، **مصدر سبق ذكره**.

(٩) السهلي، **مصدر سبق ذكره**.

(١٠) **المصدر نفسه**.

(١١) القدس والأماكن المقدّسة في السياسة الأمريكية، **مصدر سبق ذكره**.

(١٢) **المصدر نفسه**.

(١٣) حسين، **مصدر سبق ذكره**.

(١٥) **المصدر نفسه**.

(١٦) **المصدر نفسه**.

(١٧) أ.د. مصطفى رجب، موقع القدس على خريطة اهتمامات الرؤساء الأمريكيين، **الشرق** (الدوحة)، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٥.

(١٨) **المصدر نفسه**.

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) **المصدر نفسه**.

(٢١) حسين، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٢) **المصدر نفسه**.

(٢٣) موقع القدس على خريطة اهتمامات الرؤساء الأمريكيين، **مصدر سبق ذكره**.

obeikan.com

(٢٤) حسين معلوم، ماذا يقول القانون الدولي عن القدس؟، **الوطن** (الدوحة)٣٠ / ١٠/ ٢٠٠٣.

(٢٥) **المصدر نفسه.**

(٢٦) **المصدر نفسه.**

(٢٧) **المصدر نفسه.**

(٢٨) **المصدر نفسه.**

(٢٩) **المصدر نفسه.**

(٣٠) **المصدر نفسه.**

(٣١) موقع القدس على خريطة اهتمامات الرؤساء الأمريكيين، **مصدر سبق ذكره.**

(٣٢) **المصدر نفسه.**

(٣٣) **المصدر نفسه.**

(٣٤) **المصدر نفسه.**

(٣٥) **المصدر نفسه.**

(٣٦) سلافة حجاوي، القدس في السياسة الأمريكية، **مجلة مركز التخطيط الفلسطيني** (غزة)، السنة الأولى ـ العدد الأول ٢٠٠١ ص٦٣

(٣٧) **المصدر نفسه.**

(٣٨)عبده الأسدي، المشاريع الأمريكية حول القدس، **صامد الاقتصادي** (عمان)، السنة الرابعة عشرة، عدد ١٠١، يوليو/ تموز ـ أغسطس/ آب ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٥، ص١٥٨.

(٣٩) حسين، **مصدر سبق ذكره.**

(٤٠) **المصدر نفسه.**

(٤١) **المصدر نفسه.**

(٤٢) الشنطي، **مصدر سبق ذكره.**

(٤٣) موقع القدس على خريطة اهتمامات الرؤساء الأمريكيين، **مصدر سبق ذكره.**

(٤٤) حسين، **مصدر سبق ذكره.**

(٤٥) **المصدر نفسه.**

(٤٦) **المصدر نفسه.**

(٤٧) حجاوي، **مصدر سبق ذكره.**

(٤٨) **المصدر نفسه.**

(٤٩) **المصدر نفسه.**

(٥٠) **المصدر نفسه.**

(٥١) حسين، **مصدر سبق ذكره.**

(٥٢) السهلي، **مصدر سبق ذكره.**

obeikan.com

(٥٣) حسين، مصدر سبق ذكره.

(٥٤) **المصدر نفسه**.

(٥٥) **المصدر نفسه**.

(٥٦) **المصدر نفسه**.

(٥٧) حجاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٥٨) **المصدر نفسه**.

(٥٩) حجاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٦٠) **المصدر نفسه**.

(٦١) **المصدر نفسه**.

(٦٢) **المصدر نفسه**.

(٦٣) منير شفيق، الموقف الأمريكي من القضية الفلسطينية، **أقصانا** (عمان)، ٦/ ٦/ ٢٠٠٣.

..Aqsa4Us www

(٦٤) **المصدر نفسه**.

(٦٥)**المصدر نفسه**.

(٦٦) السهلي، **مصدر سبق ذكره**.

(٦٧) **المصدر نفسه**.

(٦٨) حجاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٦٩) د. أحمد يوسف القرعي، سيناريو القدس في وثيقة جنيف (٢)، **الأهرام** (القاهرة)، ٨/ ١/ ٢٠٠٤.

(٧٠) **المصدر نفسه**.

(٧١) **المصدر نفسه**.

(٧٢) حجاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٧٣) د.أحمد يوسف القرعي، سيناريو القدس في وثيقة جنيف (١)، **الأهرام** (القاهرة)، ١/ ١/ ٢٠٠٤.

(٧٤) د. هيثم الكيلاني، المساندة الدولية لإسرائيل، الموقف الأمريكي نموذجًا، **الاتحاد** (أبو ظبي)، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٥.

(٧٥) **روسيا اليوم**، أوباما ضد برنامج إيران النووي ومع القدس عاصمة لإسرائيل ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٩ .

www.RTArabic.com .

(٧٦) في القدس قلقون: الولايات المتحدة قلصت بشكل كبير التنسيق الأمني معها، **هآرتس**، ٨/ ٥/ ٢٠٠٩.

(٧٧) **المصدر نفسه**.

(٧٨) **المصدر نفسه**.

(٧٩) **المصدر نفسه**.

(٨٠) انتقادات أمريكية لتصريحات نتنياهو حول القدس، ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٩، **فلسطين اليوم**.

الفصل السابع

الاتحاد الأوروبي والقدس

نهال قاسم

اشتد اهتمام الأوروبيين بفلسطين في أواخر القرن الثامن عشر، أوائل القرن التاسع عشر، منذ اقتراب الرأسمالية الأوروبية من مرحلة الإمبريالية، بالتوازي مع النهم الإمبريالي إلى الفتوحات، واحتلال المستعمرات، تأكد ذلك من حملة نابليون في مصر والشرق، في الفترة المذكورة، والصراع الذي احتدم بين الدول الاستعمارية الأوروبية لوراثة «الرجل المريض»، وهو الاسم الذي حملته الدولة العثمانية، منذ وهنت، في أواخر القرن الثامن عشر، وحتى سقطت، بعد عقدين من بدء القرن العشرين.

يرى أنصار الوحدة الأوروبية أن التوجه الوحدوي الأوروبي راسخٌ في القدم، وأن أوروبا، رغم الحروب التي اشتعلت بين دولها، كانت، دومًا، تظهرعلى شكل مدينة موحدة ثقافيًا، ودينيًا، واقتصاديًا، وكان من جراء انقسام أوروبا، بعد الحرب العالمية الثانية، إلى شرق اشتراكي، وغرب رأسمالي، أن بدأت فكرة وحدة أوروبا الغربية تأخذ أبعادا جديدة، كنتيجة سياسية، واقتصادية للحرب، التي أزاحت أوروبا عن طريق السيادة العالمية، لصالح القوتين العظميين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، فضلًا على الاهتمام بقضايا الأمن الأوروبي لاتساع رقعة الدول الاشتراكية، والرغبة في امتصاص الطاقة القومية الألمانية، التي كثيرًا ما تسببت في دخول القارة في حروب شرسة[1].

لقد بدأ النشاط الجماعي الأوروبي، عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، وقبل توقيع «معاهدة روما»، في آذار/ مارس ١٩٥٧، التي أنشأت الجماعة الأوروبية، في واقع تاريخي، له أبعاده الفكرية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية الأمنية، حيث سعت أوروبا إلى خلق قوة دولية ثالثة تسمح بالتوازن الدولي بين السيادتين، الأمريكية، والسوفييتية، ووضع حدًا للتمزق الداخلي، الذي أصاب وسط أوروبا، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ومواجهة

المشكلة الألمانية، بصفة خاصة، وتحقيق نوع من الاندماج السياسي بين مختلف شعوب دول أوروبا الغربية، والتعايش السلمي بين المعسكرين، الاشتراكي، والرأسمالي، ووضع حد للصراع الأيديولوجي بينهما[٢].

لقد استثمرت إسرائيل فرصة انقسام أوروبا على نفسها، فاستصدرت إسرائيل قرارًا، من الكنيست في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠، قضى بنقل العاصمة إلى القدس، بدلًا من تل أبيب، في مخالفة صريحة لقرار مجلس الأمن رقم ٦٩/ ١٩٤٩، الذي أوصى بقبول إسرائيل عضوًا في الأمم المتحدة، بناء على بقاء القدس على حالها (١٩٤٨)، وكانت هولندا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي قامت بنقل سفارتها إلى القدس، الأمر الذي يؤكد رفض أوروبا اتخاذ القدس عاصمة للكيان الصهيوني[٣].

كان التعاون السياسي بين دول المجموعة الأوروبية قد تأخر، عمليًا، حتى قمة لاهاي، في أواخر عام (١٩٦٩)، التي اتفق فيها رؤساء دول وحكومات «المجموعة» على ضرورة الانتقال من مرحلة التعاون، والوحدة الاقتصادية، إلى الوحدة السياسية. وبعد قمة باريس (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٢)، أصبح التعاون السياسي حقيقة قائمة، لها آلياتها، التي تقوم على اجتماعات وزراء خارجية دول المجموعة، دوريًا، أربع مرات في العام، بدلًا من مرتين، للتداول في أمور السياسة الخارجية، وخاصة فيما يتعلق بالمصالح الأوروبية، بالتعاون، والتنسيق مع سفارات دول «المجموعة» لدى الدول الأخرى، والبعثات الدائمة لدى المنظمات الدولية، بالإضافة إلى الاعتماد الدبلوماسي لدى كل سفارة من السفارات، على أن تقوم الدولة التي تشغل رئاسة مجلس وزراء الجماعة، بمتابعة الأمور التنظيمية[٤].

لقد بدا عجز الموقف الأوروبي عن فهم ما يجري في منطقة الشرق الأوسط، وانحيازه للعدو الصهيوني في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، حتى تفجَّرت المنطقة، في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وشعرت أوروبا الغربية بخطورة البعد الدولي للصراع. ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية، واستمرار حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية، بدأ التحول تجاه القضية الفلسطينية بين قطاعات من الرأي العام العربي، وكذا في الموقف الأوروبي الموحد تجاه الصراع[٥]. حيث بدأ انشغال المجتمع الدولي، والجماعة الأوروبية بأوضاع مدينة القدس، ومصيرها، منذ مطلع الاحتلال، فقد صدر قرار الجمعية العامة، رقم ٢٢٥٣، في ٤ تموز/ يوليو١٩٦٧، الذي دعا إسرائيل إلى إلغاء كافة التدابير الرامية إلى تغيير ملامح القدس، التاريخية، والسكانية، والامتناع عنها، مستقبلًا. وحينما صدر القرار ٢٤٢، أبدت فرنسا اهتمامها بالقدس، وأعربت عن قلقها، لعدم وجود فقرة خاصة بالقدس في مشروع القرار، الصادر عن مجلس الأمن، ولم تقتنع باريس بفاعليته، إلا عندما أورد مندوب بريطانيا إشارة إلى قرار الجمعية العامة، في ٤ تموز/ يوليو[٦].

يذكر أن الاهتمام الأوروبي بفلسطين لم يكن وليد القرن الماضي، بل إنه يعود إلى قرون طويلة من الزمان، حيث اختلطت الأهمية السياسية، مع العوامل الدينية، والاقتصادية، والأمنية مع العالم العربي، الذي يشكل بعدًا جغرافيًا، وإستراتيجيًا مهمًا للقارة الأوروبية، والذي بدأ يتخذ طابعًا عمليًا، مع بداية حملات الفرنجة، في القرن الحادي عشر، كما تركزت توجهات كل من روسيا، وفرنسا، وإنجلترا نحو الأماكن المقدسة بصورة مكثفة منذ منتصف القرن التاسع عشر، وظهر اهتمام هذه الدول بالمركز الإستراتيجي الحيوي لفلسطين، التي تقع في قلب المنطقة العربية المؤدية إلى الشرق، على طريق التجارة والاتصال بين الشرق، والغرب، فشرعت تلك الدول في إنشاء قنصليات في القدس لرعاية مصالحها في المنطقة، وتحت ذريعة حماية اليهود الموجودين في فلسطين[٧]. فضلًا على التوجه البريطاني

لتأسيس إمبراطورية كبرى، متوسطية، أو شرقية، أو غربية في الشرق، للسيطرة على موارده، لكن وجود السلطة العثمانية، آنذاك، حال دون تحقيق ذاك الطموح الاستعماري. ومن هنا يمكن فهم مقولة «بونابرت» التي ذكر فيها «لو كنت حصلت على عكا لكنت وصلت القسطنطينية، والهند، كنت سأغير العالم»، وكذا الدعوة الفرنسية المبكرة، على يد بونابرت، لتوطين اليهود في فلسطين، أو مملكة القدس القديمة، وتشابه الرؤية الفرنسية الاستعمارية مع ما طرحته، لاحقًا، بقية القوى الأوروبية، حيث اعتبر الساسة البريطانيون أكثر من روَّج لها، منهم، على سبيل المثال، الكولونيل تشارلز هنري تشرشل، في خمسينيات القرن التاسع عشر، الذي نادى بسرعة الانقضاض على سوريا عامة، وفلسطين خاصة، بعد إخراج محمد علي باشا من سوريا (١٨٤٠)، حفاظًا على المصالح الاستعمارية البريطانية في المنطقة، واللورد ميتفورد الذي عدد مميزات توطين اليهود في فلسطين، تحت الحماية البريطانية، منذ عام ١٨٤٥، التي توجت بكل من «وعد بلفور» للصهاينة (١٩١٧)، بعد الحرب العالمية الأولى، والانتداب البريطاني على فلسطين، ما بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٤٨، وهي المرحلة التي شهدت نهايتها قيام إسرائيل على أشلاء من الكيان الفلسطيني[٨]!

لقد كانت الأعوام التي واكبت الخروج المصري من سورية (١٨٤٠) من أكثر المراحل التي تأثرت بالنشاط البريطاني الاستعماري تجاه فلسطين، فكانت القنصلية البريطانية في القدس أول من رعى المشروعات الاستيطانية اليهودية في فلسطين، وقد مارست بريطانيا ضغوطًا على السلطان العثماني لفتح أبواب فلسطين أمام المهاجرين اليهود. كما سعى القائد الألماني، مولتكه، عام ١٨٧٠، لجعل فلسطين مستعمرة ألمانية وفي سبيل ذلك تأسست عدة مستعمرات ألمانية بجوار بعض المدن الفلسطينية الكبيرة (حيفا، والقدس، ويافا)، كما قام المموِّل الألماني اليهودي، موريس دي هيرش، ما بين عامي ١٨٣١ ـ ١٨٩٦، بجهد كبير في تأسيس «الاتحاد الإسرائيلي العالمي»، وأصبحت برلين، آنذاك، العاصمة المالية للصهيونية الأوروبية، كما كان الكتَّاب اليهود الألمان من أبرز زعماء الحركة الصهيونية، وغدت الألمانية لغة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧)، وقد رحب تيودورهرتزل بالحماية الألمانية للمشروع الصهيوني الاستيطاني بفلسطين، وتفضيلها عن الحماية البريطانية، نظرًا للعلاقة القوية بين ألمانيا، والإمبراطورية العثمانية، صاحبة اليد العليا في فلسطين، في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

لقد تواكبت مساعي هؤلاء الاستعماريين مع تصاعد الأهمية الإستراتيجية لفلسطين، على الجناح الشرقي لقناة السويس، وتعقد المصالح، والأطماع البريطانية في المنطقة العربية، وتلمس الأهمية البترولية لهذه المنطقة؛ لذا سعت بريطانيا، أثناء الحرب العالمية الأولى لكي تختص باستعمار فلسطين بعد الحرب، وإصدار «وعد بلفور» عام ١٩١٧، الذي لم يأت على ذكر فلسطين، وأصحابها التاريخيين، وبعد أربعين يومًا على إصداره دخل القائد البريطاني، اللنبي، القدس، في ١٩/ ١٢/ ١٩١٧، لتضع قواته نهاية للحكم العثماني فيها[٩].

منذ ظهور التعاون السياسي الأوروبي، لعبت فرنسا دورًا بارزًا في تحريك مجموعة الدول المترددة باتخاذ خطوات أكثر فاعلية، وإيجابية تجاه أزمة الشرق الأوسط، كما بدأت فرنسا في إجراء تعديل كبير في سياستها الخارجية من الصراع العربي ـ الإسرائيلي أثناء، وبعد عدوان ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧[١٠]، التي تمكنت إسرائيل فيها من الاستيلاء على القدس الشرقية، وشرعت، على الفور، في اتخاذ الإجراءات القانونية، والإدارية، والمادية، لتغيير طابع المدينة العربي، والإسلامي، وإضفاء الطابع اليهودي عليها، فأعلنت، رسميًا في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ضم القدس

إليها، وقد اتخذ المجتمع الدولي موقفًا شبه موحد، دعا فيه إسرائيل إلى إلغاء كافة التدابيرالتي اتخذتها لتغيير وضع القدس، والامتناع عنها، مستقبلًا، في القرار رقم ٢٢٥٣، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٤ تموز/ يوليو ١٩٦٧، والقرار ٢٢٥٤، لتؤكد دول الجماعة من جديد موقفها من ضم القدس، والإعراب عن أسفها لعدم الامتثال للقرارالسابق، مطالبة إسرائيل بالتراجع عن تدابيرها تجاه المدينة المقدسة، وهو القرار الذي قامت كل الدول بالتصويت لصالحه، فيما عدا إيطاليا، التي امتنعت عن التصويت عليه [١١].

لقد كان الموقف الفرنسي أكثر جدية، وصراحة، وميلًا تجاه عودة الحق لأصحابه، خاصة مع وصول الجنرال شارل ديجول إلى سدة الرئاسة الفرنسية، الذي طالب إسرائيل، في المؤتمر الصحفي، الذي عقده في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٦٧، بالانسحاب إلى ما وراء خطوط ٤ حزيران/ يونيو١٩٦٧، مشيرًا إلى ميول إسرائيل التوسعية، منذ حملة السويس، عام ١٩٥٦، وإنه لن يقبل بسياسة الأمر الواقع[١٢] التي تمارسها إسرائيل في القدس، وإنها لا تملك أي سيادة على أي جزء فيها، وإن فرنسا ستدافع عن هذا الأمر الواقع، لا لسبب سوى المحافظة على السلام في المنطقة، وإن كل ما تدعيه إسرائيل من شرعية ترجع إلى عهد التوراة، فهو ليس إلا وهمًا يناقض كل تاريخ، وقانون، كما أعلن «ديجول»، عن وقف شحن الأسلحة إلى إسرائيل، وتمسك بالقرار ٢٤٢، الصادرمن مجلس الأمن، ونص على انسحاب إسرائيل من «الأراضي» ـ وليس «أراضٍ» ـ التي احتلتها عام ١٩٦٧ [١٣].

لقد كان الموقف الفرنسي بداية لتوتر العلاقات الفرنسية ـ الإسرائيلية، بعد اقتناع ديجول بأطماع إسرائيل الاستعمارية، ورفضه التعليل الإسرائيلي للحرب بأنها «دفاعية»، ثم قراره بحظر بيع الأسلحة لها، والموقف الفرنسي من تهويد القدس الذي كان له أثره في تدهور العلاقات الثنائية إلى أدنى مستوياتها، عام ١٩٧٢، في أعقاب نشوب أزمة حادة بين البلدين، نتيجة رفض فرنسا إقامة عروض أسبوع إسرائيل الثقافي في القدس، على مسرح يهودي، ومطالبتها بإقامة العروض على مسرح مستأجر، حتى لا تتورط في اعتراف ضمني بشرعية الاحتلال الإسرائيلي، ودعوة الرئيس الفرنسي الأسبق، فرنسوا ميتران، لإسرائيل، في آذار/ مارس ١٩٨٢، في الكنيست إلى الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، ومنح الشعب الفلسطيني حقوقه الكاملة، المتمثلة في إقامة دولته المستقلة فوق الأراضي التي احتلتها في عدوان ١٩٦٧، بما فيها القدس. وكذا في زيارة الرئيس الفرنسي الأسبق، جاك شيراك إلى القدس المحتلة عام ١٩٩٦، التي أكد فيها على الموقف الفرنسي من القدس [١٤].

أما الموقف الإيطالي من حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، والذي تحدد في ضوء علاقات إيطاليا القوية مع العالم العربي، ووجودها الجغرافي الممتد في البحر المتوسط، وارتباطاتها بالتحالف الأطلسي، وطغيان المصالح الذاتية التجارية، والنفطية بوجه خاص على شعور التعاطف التاريخي مع إسرائيل، حيث إنها كانت من الدول التي تضررت مصالحها الاقتصادية، إلى حدٍّ بالغ، بإغلاق قناة السويس في إثر الحرب، فضلًا على تحمسها للدور الأوروبي في حل المشكلة الدولية، ولدور الأمم المتحدة، وعدم انفراد الدولتين العظميين بذلك الدور؛ لذا بدأت السياسة الإيطالية، منذ عام ١٩٦٩، تربط بين محاولة إقرار السلام في البحر المتوسط، وضرورة تسوية مأساة الشعب الفلسطيني، وضمان حقوقه بالقدر الذي يستوجب ضمان أمن إسرائيل، كما انشغلت إيطاليا بمستقبل مدينة القدس، وما يحدث فيها، متأثرة في ذلك بموقف الفاتيكان المعارض لضم المدينة المقدسة لإسرائيل!

لقد لعبت القوى اليسارية دورًا في إشعال الاهتمام بالقضية، خاصة الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي يعتبر من

أكبر الأحزاب الشيوعية في غرب أوروبا، واعترافه، منذ فترة مبكرة، بحقوق الشعب الفلسطيني، والترويج لاقتراح «الدولة الديمقراطية»، اللاطائفية، لحل المشكلة الفلسطينية، في تفهم لهدف، وطبيعة الصراع في الشرق الأوسط[١٥].

تشابه الموقف البريطاني مع الأمريكي، حيث أعطت بريطانيا الضوء الأخضر للاحتلال الإسرائيلي، حتى لا ينسحب من كامل الأراضي العربية، ومن ناحية أخرى فقد عملت على تخدير الرأي العام العربي، الذي كان يحملها مسؤولية اغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني، وتمكين الحركة الصهيونية من تثبيت أقدامها في فلسطين، أثناء انتداب بريطانيا عليها؛ لذا أعلنت بريطانيا بأنها لا تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، أو بالقدس العربية جزءًا من الأراضي التي تشملها السيادة الإسرائيلية، مؤكدة بأن سفارتها في إسرائيل لن تنقل إلى القدس حتى تتم تسوية قضية الشرق الأوسط.

لعل تتبع التصريحات، والمواقف البريطانية، تجاه القدس، يعطي إيحاءً بربط نقل سفارتها، في إسرائيل، إلى القدس بالتوصل إلى تسوية، وهو ما قد يعني موافقة، ضمنية، بالقدس، عاصمة للكيان الصهيوني، وأن تأكيداتها بعدم الاعتراف بضم القدس هو اعتراض وقتي.

كما تشابه الموقف الألماني، مع الإيطالي في إعلان الحياد السياسي، والعسكري، تجاه طرفي الصراع، الأمر الذي عزز موقف إسرائيل استمرارها في احتلال الأرضي العربية [١٦].

يمكن التأريخ لبداية الموقف الأوروبي الجماعي من قضية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، التي كانت من أهم، وأول الموضوعات المطروحة على جدول أعمال التعاون السياسي الأوروبي، ففي اجتماع وزراء خارجية دول السوق الأوروبية، في ميونيخ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠)، الذي انتهى بالاتفاق بأن تلك القضية (الأزمة) هي أخطر ما يمس المصالح الأوروبية، على أساس الروابط الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، مع منطقة «الشرق الأوسط»، واعترافهم بأن هناك حدودًا لما يمكن أن تقوم به الدول الأعضاء إلى جوار الدول الأربع الكبرى (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا)، ولكن بإمكانها الاتفاق على عدد من المبادئ التي يمكن أن تمثل قوة ضغط تعجِّل بحل الأزمة، طبقًا لقرار مجلس الأمن ٢٤٢، الصادر في ٢٢ تشرين/ نوفمبر ١٩٦٧[١٧]، حول الكيفية التي يتم بها حل «قضية اللاجئين»، وكيفية توطينهم، وتمويلهم، ومصير القدس إذا كان يتم تدويلها كليًا (موقف فرنسا)، أو يجري الاستفتاء حول مصيرها بين السكان (موقف بلجيكا)، أو أن يؤجل موضوعها إلى ما بعد التسوية النهائية بين الفلسطينيين، والإسرائيليين [١٨].

لقد تلقت فكرة تدويل القدس، في عام ١٩٦٩، تحديدًا ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، ضربة قاصمة، حين تنازل الفاتيكان عن قيادته للمجتمع الكاثوليكي في تبني هذا المشروع الذي كان الفاتيكان من أشد المؤيدين له، وأصدرت أمانة سر دولة الفاتيكان بيانًا، طالب فيه البابا، لأول مرة، بعدم تدويل القدس، مكتفيًا بالدعوة إلى إقامة وضع خاص، مع ما أسماه أمانة دولية لمدينة القدس، وتوفير الحماية المناسبة للأماكن المقدسة فيها. ولقد جاء هذا التغيير في الموقف نتيجة طبيعية لفشل جهود الفاتيكان، منذ أقدم على إرسال بعثات لتقصي الحقائق إلى القدس، وتعيين مندوب للبابا عام ١٩٦٩ في المدينة المقدسة، وهي الخطوة التي قابلتها إسرائيل بوضع العراقيل أمامها، لتعطيله عن أداء مهامه البابوية [١٩].

مع مطلع عام ١٩٧١، بدأت المساعي لتوحيد سياسات دول الجماعة الأوروبية، تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي، تأخذ طابعًا عمليًا في ضوء الجهود التي تصدت لها فرنسا، ووزير خارجيتها، موريس شومان، فتمكنت من إقناع شركائها الأوروبيين بالتوصل إلى اتفاق بشأن رؤية أوروبية موحدة لتسوية أزمة الشرق الأوسط، التي حملت اسم «بيان شومان»، الذي كان أهم بنوده، فيما يختص بالقدس، التدويل الإداري للمدينة العربية القديمة، التي احتلتها إسرائيل، وكذا سائر الأماكن المقدسة، بموافقة الدول العربية المعنية، وبما يضمن لجميع الأطراف حرية الحركة، بينما أغفل القرار الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨)، الحديث عن كامل المدينة المقدسة. وقد مارست إسرائيل جهودًا مضنية من أجل الحيلولة دون إصدار هذا البيان، مستخدمة في ذلك نفوذها، وعلاقاتها الدولية القوية مع «الأصدقاء الأوروبيين»، وفي مقدمتها هولندا، وألمانيا الاتحادية، ولكنها فشلت في التأثير على التوجه الأوروبي، الذي استمر في التحول نحو الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني [٢٠].

لقد تعرضت «وثيقة شومان»، إلى عملية المساومة، التي تمر بها معظم قرارات المجموعة الأوروبية، فبينما اعتبرتها الحكومة الفرنسية ملزمة، وجدت ألمانيا فيها مجرد ورقة عمل، أو توصية غير ملزمة، وعملت كل من هولندا، وبلجيكا على إبطال مفعولها [٢١]. وخلال الاجتماع المقرر في باريس في ١٤ آيار/ مايو ١٩٧١، تمت مناقشة حمل اسم «وثيقة باريس»، الذي أعلن فيه عن التوصل إلى اتفاق أوروبي بشأن تسوية أزمة الشرق الأوسط. وقد اصطدمت الجهود الرامية لإخراج هذه الوثيقة إلى العلن، بتحفظات من جانب بعض دول الجماعة (ألمانيا الاتحادية، هولندا، إيطاليا)، ورفض كل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، وإسرائيل، التي أنكرت تدخل دول الجماعة في تسوية النزاع، ولم تلق الوثيقة سوى ترحيب من الحكومات العربية، وفي أعقاب تلك الخطوة لم تتوقف محاولات دول المجموعة للخروج بموقف موحد مشترك لحل الصراع في الشرق الأوسط [٢٢].

يذكر أن المحتوى الكامل للوثيقة لم يعرف إلا عندما نشرته صحيفة «دي فيلت»، الألمانية، بعد الاجتماع الوزاري بأكثر من شهر، حيث لم يمثل هذا الاتفاق وجهة النظر الفلسطينية، كما أنه لم يتبنَ وجهة النظر الإسرائيلية في الدعوة للمباحثات المباشرة بين الجانبين المعنيين بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، فضلًا على أنه لم يعبرعن موقفهم تجاه الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل بشأن القدس من طرف واحد، مخالفة بذلك الموقف الدولي عمومًا، والأوروبي على وجه الخصوص، نصت الوثيقة على ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود ٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، الأمر الذي جعل إسرائيل تسعى إلى ممارسة الضغوط لمنع خروج تلك الوثيقة إلى النور [٢٣].

بعد اندلاع حرب تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣، والموقف العربي الموحد فيها، واشتداد أزمة الطاقة، بدأت أوروبا تستيقظ من سباتها العميق، فسعت إلى اتخاذ موقف جديد من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، تضمنه بيان ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٧٣، الذي دعا فيه الاتحاد الأوروبى إلى بدء الحوار العربي ـ الأوروبي [٢٤].

في النصف الثاني من عام ١٩٧٥، بينما كان الحوار العربي ـ الأوروبي يحاول على الصعيد الفني شق طريق له، وقبل الاجتماع الثاني، الذي عقد في روما، تلبدت الغيوم في سماء الحوار، حين تحرك بعض الصهاينة من يهود أوروبا الغربية، إثر عملية «صهيون» الفدائية بالقدس، ونجحوا في استصدار قرارمن البرلمان الأوروبي، في ١٠ تموز/ يوليو ١٩٧٥، سجل فيه القلق الشديد تجاه ما أسماه «أعمال العنف» داعيًا مجلس الوزراء، واللجنة الأوروبية، إلى التعبير

عن هذا الشعور، في إطار الحوار العربي ـ الأوروبي، وتلا ذلك، مباشرة، عدة تصريحات عربية من «منظمة التحرير الفلسطينية»، والأمانة العامة للجامعة العربية التي ردت بشدة على هذا القرار، كما حرص الجانب العربي، في افتتاح اجتماع روما، في كلمته الافتتاحية، أن يتحدث، صراحة، عن «محاولات بعض الأطراف، والقوى، عرقلة الحوار، وإيقافه، ونشاط هذه المحاولات، التي تركزت على أوروبا، واستطاعت أن تلبِّد بعض الغيوم في سماء الحوار». وأشار الجانب العربي صراحة إلى قرار البرلمان الأوروبي، والرد عليه، بوضوح، مذكِّرًا بظاهرة تكرار محاولات عرقلة الحوار قبيل أي اجتماع له [٢٥].

يذكر أنه لولا جهود البعض، من الطرفين المؤمنين بالحوار، وأهميته، لأمكن لهذا التحرك الصهيوني أن يعرقل سيره نظرًا لأهمية الدورالأوروبي تجاه قضية فلسطين، والصراع الدائر في المنطقة، وقد كانت تلك الجهود عاملا أساسيًا في تهيئة المناخ السياسي المحيط بالحوار، إما بتقدمه، أو تراجعه. من ناحية أخرى بدا واضحًا، في اجتماع أبو ظبي، مدى تأثيرالموقف الأوروبي، وموقفه المعارض لإدانة الصهيونية، كحركة عنصرية استيطانية، اغتصبت أرض فلسطين، وأراضي أخرى عربية، سورية ومصرية، في قلب الوطن العربي، من أثر سيئ على الجانب العربي.

لقد وقعت المجموعة الأوروبية في تناقض وحيرة واضحين بعد زيارة الرئيس المصري السابق، محمد أنور السادات، للقدس في (١٩/ ١١/ ١٩٧٧)، وتوقيع اتفاقية كامب دايفيد (١٩٧٨)، مع الكيان الصهيوني، فقد فوجئت المجموعة التى دأبت على الدعوة إلى مفاوضات سلام، تشترك فيها كل الأطراف المعنية، منذ عام ١٩٧٣، بما فيها ممثلو الشعب الفلسطيني، بمبادرة السادات ـ التي رحبت بها ـ تدخل في مفاوضات ثنائية، بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية تحديدًا، والتي لم تطفئ فتيل الصراع في المنطقة، بل احتدم بصورة أشد على الجبهات الأخرى، وخاصة الجبهة الفلسطينية ـ الإسرائيلية؛ لذا لم يتقدم الموقف الأوروبي خطوة واحدة في القضية، بعد توقيع «اتفاقية كامب ديفيد» (١٩٧٨)، و«اتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية» (١٩٧٩)، وقد جاءت البيانات اللاحقة للمجموعة وقد غلب عليها طابع التأييد المشروط، أو التأييد الحذر، في أعقاب توقيع «معاهدة الصلح المصرية ـ الإسرائيلية» (آذار/ مارس ١٩٧٩)، كخطوة أولى في اتجاه تسوية شاملة، وليس سلام منفرد، كما جاءت في «بيان لندن»، (٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٧٧)، كما أصدرت المجموعة، في ١٨/ ٦/ ١٩٧٩، بيانًا أدانت فيه كافة السياسات الاستيطانية الإسرائيلية، خاصة بعد أن بدأت المصاعب، والعراقيل الكبيرة تواجه مسيرة السلام المصرية ـ الإسرائيلية [٢٦].

جدير بالذكر أن المجموعة لم تتمكن، آنذاك، من أن تلعب دورًا مشاركًا في عملية التسوية، أو في توجيهها، بما يتناسب مع مصالح تلك المجموعة، وأهدافها، واقتصرت جهودها على مجرد «إعلان مبادئ»، ومحاولة البحث عن تسوية سلمية، وهو ما يعكس موقعها، وموقفها، في تلك الفترة على الصعيد العالمي.

لقد حدثت جملة من المتغيرات الأوروبية، والأمريكية، جعلت التحرك الأوروبي، منذ عام ١٩٨٠، تابعًا، وليس بديلًا، أو مستقلًا عن التحرك الأمريكي، فقد سجل الموقف الأوروبي من القضية الفلسطينية التزامًا ملحوظًا بالموقف الأمريكي، مقارنة بالمرحلة السابقة (١٩٧٣ ـ ١٩٨٠)، من الإصرار على ضرورة الاعتراف الفلسطيني بقراريْ مجلس الأمن (رقمي ٢٤٢، ٣٣٨)، بحق إسرائيل في الوجود، والتخلي عن الكفاح المسلح، وإعادة النظر في «الميثاق الوطني» الفلسطيني، وهي شروط لا تختلف عما وضعته المجموعة الأوروبية، في سبيل فتح حوار مع «منظمة التحرير الفلسطينية» [٢٧].

بدأت عودة القدس إلى دائرة اهتمام الجماعة الأوروبية، مع «بيان البندقية»، عام ١٩٨٠، الذي اعترف بالأهمية الخاصة للمدينة المقدسة، بالنسبة إلى جميع الأطراف المعنية، وأكدت الجماعة على عدم قبول أي مبادرة خاصة تهدف إلى تغيير وضع القدس ـ وهو ما يعني رفض الجماعة الأوروبية اعتبارها عاصمة للكيان الصهيوني ـ وكذا رفضها أي اتفاق لا يتضمن حق حرية الدخول إلى جميع الأماكن المقدسة فيها. كما تناول البيان، للمرة الأولى، قضية الاستيطان في الأراضي المحتلة، بما فيها القدس، التي اعتبرتها الجماعة عقبة تقف أمام «مسيرة السلام في الشرق الأوسط». وقد حذرت كل من فرنسا، وبريطانيا، بصفتهما عضوين في مجلس الأمن الدولي، إسرائيل عام ١٩٨٠، من الاستمرار في خططها، لإعلان القدس عاصمة لها؛ لأنها بذلك «تكون قد تجاهلت إرادة المجتمع الدولي»، بحسب تعبير المندوب الفرنسي. لكن قضية القدس عادت إلى زاوية الإهمال في الفترة اللاحقة؛ لأن أوروبا لم تسع وراء تنفيذ، وتطبيق ما ورد في البيان، فلم يأت بيان (آذار/ مارس١٩٨٤)، وبيان اللوكسمبورج (نيسان/ أبريل ١٩٨٥) بذكرالمدينة المقدسة، في الوقت الذي كانت تتعرض فيه منذ عام ١٩٨٠ لمخططات صهيونية بالغة الخطورة تستهدف إضفاء الطابع اليهودي على المدينة، وتقليص الطابعين الإسلامي، والمسيحي [٢٨].

جدير بالذكربأن إسرائيل قد هاجمت «بيان البندقية»، ورفضت استقبال البعثة الأوروبية التي كان من المزمع وصولها إلى الشرق الأوسط، عقب صدور هذا البيان، الذي اعتبرته إسرائيل خضوعًا «للابتزاز النفطي العربي». لذا حرصت دول الجماعة على استخدام «الزعم» الإسرائيلي، نفسه، حيث صرح وزير خارجية ألمانيا الاتحادية، فالترشيل، بأن قرار الجماعة الأوروبية لم يتخذ تحت ضغط دول النفط العربي، وإنما كان من أجل توحيد الموقف الأوروبي في هذا المجال، والذي يرجع إلى عام ١٩٧١، وأنه ليس من الصحة، في شيء، التحدث عن الضغط العربي النفطي، بينما أكثر دول أوروبا كانت خارج نطاق المقاطعة العربية.

يذكر أن هذا الموقف الأوروبي، المتوازن، نسبيًا، هو الذي أخرجها من مجال الحظر النفطي، الذي تعرضت له هولندا، بسبب تحيُّزها الشديد لإسرائيل، الأمر الذي دفعها إلى مراجعة سياساتها تجاه القضية، وتعديل مواقفها بالموافقة على بيان تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٧٣، حتى تخفي دعمها للسياسات الإسرائيلية.

لقد تصاعدت المقاومة الفلسطينية في فترة زمنية معينة، من جانب بعض القوى السياسية الفلسطينية، واستهدفت مخاطبة السياسة الدولية، ولفت انتباهها إلى ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من ظلم، وعدوان، وذلك بطريقة غير مباشرة، أحيانًا، من خلال تصعيد النضال الثوري داخل فلسطين، أو بالمشاركة الفلسطينية المنظمة في الحروب العربية ـ الإسرائيلية، أو بخوض حروب فلسطينية ذاتية، تقريبًا، ضد إسرائيل (معركة الكرامة عام ١٩٦٨، ومواجهة الغزو الإسرائيلي للبنان، في أعوام (١٩٧٨، ١٩٨١، ١٩٨٢)، أو من خلال العمليات الفدائية الخارجية التي استهدفت بعض المصالح الأوروبية، والأمريكية، بعد تجاهل المجتمع الدولي كافة النداءات، والاستجداءات الفلسطينية، والقرارات الدولية التي اتخذت لصالح الحقوق الفلسطينية، مما كان يستوجب طرق الأبواب الغربية بالعنف، الذي أدى غرضه، وحقق أهدافه، في توقيت محدد، في مسار القضية الفلسطينية، ووضعها على خارطة الاهتمامات الدولية، والتراجع عنها، ووقف هذه العمليات حين بدأت تأتي بنتائج غيرمرضية [٢٩].

لقد حدث تطور مهم، وملموس في الموقف الأوروبي، الذي أصدر «بيان مدريد»، في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٩،

ونص البند الخامس من البيان على اقتراح إجراء الانتخابات في الأراضي المحتلة، بما فيها القدس الشرقية، لما يمكن أن تسهم فيه من دفع «عملية السلام»، وأن لا يستبعد أي حل، وأن تقوم المفاوضات النهائية على قاعدة قراريْ (٢٤٢، ٣٣٨) اللذين يقومان على مبدأ «الأرض مقابل السلام»، هذا الموقف الذي يبدو أكثر اقترابًا من موقف «منظمة التحرير الفلسطينية»، رغم أن القرار لم يذكر دور المنظمة فيه [٣٠].

كما اختفى الموقف الأوروبي من التعنت الإسرائيلي، تجاه ضم ممثلين للقدس العربية إلى الوفد الأردني ـ الفلسطيني؛ نظرًا لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تسمح لأوروبا بلعب أي دور سياسي حتى يتمكنا من فرض «التسوية» التي تريدها هي وإسرائيل، واكتفت بإعطاء أوروبا دور الممول للمساعدات، والمشروعات الاقتصادية.

منذ عام ١٩٩٣، استبعدت القدس من جميع الاجتماعات الأوروبية، والدولية، إيثارًا لعدم الانغماس في الشؤون العربية، وقضايا الصراع في «الشرق الأوسط»، ثم الانشغال باتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني في غزة، وأريحا، وتأجيل قضية القدس إلى المفاوضات النهائية ما بين الجانبين الفلسطيني، والإسرائيلي، وهو ما تريده إسرائيل، في المرحلة الراهنة، حتى تكون قد استكملت تهويد القدس، وتغيير الواقع على الأرض.

لقد حاول الوطن العربي تنشيط، وتفعيل الدورالأوروبي؛ لما له من تأثير كبير في حلبة الصراع الدولي، مؤهل للتعاظم تجاه قضية القدس، والصراع العربي ـ الإسرائيلي، ومحاولة للتغلب على الرفض، والتعنت الأمريكي المستمر، لقيام دور آخر مواز، أو متقاطع مع دورها. لذا عمد العرب إلى تذكير الجانب الأوروبي، وعلى رأسها الفاتيكان، بأن المحافظة على مصالحه في المنطقة تقتضي منه إعادة النظر في موقفه من القدس، وفلسطين؛ لأنه من غير المقبول أن تدفع الدول العربية ضريبة الخضوع الأوروبي للسياسات الأمريكية، أو تتحمل ما تدعيه من عذاب الضمير إزاء اليهود. لذا رحب العرب ببعض المواقف الأوروبية الجماعية، والقومية التي اتخذتها، في الفترة الأخيرة، ومنها التصويت السنوي لقرارات الجمعية العامة، الرافضة لضم القدس العربية إلى إسرائيل، وسياسة تهويدها عبر الاستيطان، وتفريغها من السكان العرب [٣١]، وكذا رفض الجانب الأوروبي قرار الكونجرس الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وقرارالجماعة، في نهاية عام ١٩٩٦، بتعيين مبعوث أوروبي لها في منطقة الشرق الأوسط، وقد اعتبر العرب ذلك بداية إيجابية لدور أوروبي نشط في المنطقة.

من ناحية أخرى، استمر الرفض الإسرائيلي ـ بمساندة أمريكية ـ للتدخل الأوروبي في المنطقة، ويجيء في هذا الصدد تصريح وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق، أبا إيبان، الذي ذكر فيه «إنه لا توجد دولة في العالم، بما فيها الولايات المتحدة، يحق لها التدخل، والاحتجاج على الأعمال التي تقوم بها إسرائيل في القدس العربية...». كذا تأكيد أحد رؤساء وزراء إسرائيل السابقين، إيهود باراك في انتخابات الكنيست عام ١٩٩٩، ما نصه: «إن الحزب (العمل) سوف يحافظ على القدس موحدة إلى الأبد، وإنه لن يوافق أبدًا على العودة إلى حدود عام ١٩٦٧»، وهو ما أكده رئيس وزراء إسرائيل الأسبق إسحاق رابين، في احتفالية توقيع اتفاق أوسلو في واشنطن في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣، ما نصه: «إن إبقاء القدس عاصمة موحدة لإسرائيل تحت سيادتها من القضايا الرئيسية لإسرائيل»، وصولا إلى إيهود أولمرت وقوله عندما كان رئيسًا لبلدية القدس: «إن المجلس البلدي وضع نفسه في سباق مع الزمن، وذلك على قاعدة قطع الشك باليقين على وحدة القدس، والسيادة الأبدية لدولة إسرائيل عليها»، ومن بعدها بدأت تتصاعد وتيرة تهويد المدينة المقدسة، في منهجية مبرمجة، لطمس هويتها العربية، ومعالمها الأثرية التاريخية [٣٢].

لقد استغلت إسرائيل الضعف الأوروبي تجاهها، وتقديم إسرائيل ذاتها إلى دول الجماعة كجزء من الغرب الأوروبي، بمستوطنيها، وتاريخها، وممارستها السياسية، وقيمها الحضارية، والذي تمت ترجمته من خلال اتفاقيات التعاون التي أبرمتها الجماعة مع إسرائيل في المجالات المختلفة ما بين عامي (١٩٦٤ و١٩٧٥)، حتى بلغت العلاقة الإسرائيلية بالجماعة الأوروبية مرتبة تالية مباشرة للعلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية، من حيث ما تحققه إسرائيل من مكاسب، كما لجأت إسرائيل إلى ابتزاز الجماعة، وخاصة ألمانيا، التي حصلت منها على ما يقارب (٨٦٢,٥ مليون دولار)، حتى عام ١٩٦٤، كتعويضات عن المحرقة النازية ضد اليهود، التي ظلت إسرائيل تلوِّح بها، كلما حاولت أوروبا مساندة القضية الفلسطينية، أو حتى اتخاذ موقف متوازن منها، واتهام أوروبا بمعاداة السامية، وهو ما دفع أوروبا إلى اتباع الحذر منذ بدء الصراع العربي ـ الإسرائيلي في تعاملها مع الطرفين [٣٣].

لقد اتسم الموقف الأوروبي، خلال الستين عامًا الماضية، بمراعاة علاقاتها مع إسرائيل، أثناء اقترابها من القضية الفلسطينية، سواء على صعيد البيانات الصادرة عن التعاون السياسي الأوروبي، أو مواقفها في اجتماعات الحوار العربي ـ الأوروبي، أو أسلوبها في التصويت على قرارات الأمم المتحدة، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية عمومًا، والقدس خصوصًا، والتي اقتصرت على شجب الممارسات، والإجراءات الإسرائيلية لتهويد القدس منذ بداية عام ١٩٦٧، وصولًا إلى منتصف كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨، حيث أشار تقرير «سري»، صدر عن الاتحاد الأوروبي، وكشفته صحيفة «الغارديان»، اللندنية، تحت عنوان «تقرير رؤساء بعثات الاتحاد الأوروبي بشأن القدس الشرقية»، إلى ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي، في المدينة المقدسة، ومحيطها، واستمرارها في «تنفيذ» خطة ضم غير قانونية للقدس الشرقية، من أجل منع الفلسطينيين من جعلها عاصمة لدولتهم المستقلة، وذلك عبر «توسيع المستوطنات»، لتكرس الوجود الإسرائيلي اليهودي في القدس الشرقية، وتخفيض تصاريح العمل للفلسطينيين، وفرض نظام ضرائب خاص (تمييزي على العرب) [٣٤]، فضلًا على سياسة هدم المنازل العربية المقامة في قرية سلوان القريبة من القدس، واعتماد نظام مشدد لإصدار تصاريح البناء، وبناء الجدار العازل، من أجل ضم مناطق فلسطينية في البلدة القديمة، وضواحيها [٣٥]، وكذا فصل القدس الشرقية عن الغربية. ومع استكمال بناء ذاك الجدار سوف تسيطر إسرائيل على كل الطرق المؤدية إلى القدس الشرقية.

كما أن استمرار إغلاق المؤسسات الفلسطينية أضعف الاقتصاد الفلسطيني في المدينة، وعطَّل التنمية في بقية المدن الفلسطينية [٣٦].

كما أوضح التقرير مجموعة من الحقائق المرتبطة بالمشروع الاستيطاني الإسرائيلي، أن بلدية القدس لا تنفق أكثر من ٥ ـ ١٠ ٪ من ميزانيتها على مناطق العرب الفلسطينيين شرق المدينة، والذين يشكلون ثلث سكان القدس، تاركة إياهم يفتقدون الخدمات، والبنية التحتية المتهالكة، لافتًا إلى أن سلطات الاحتلال لا تصدر أكثر من (٢٠٠) ترخيص للبناء، سنويًّا، للمساكن الفلسطينية، ولا تخصص لهم سوى ١٢ ٪، فقط، في القدس الشرقية لأغراض السكن، الأمر الذي أدى إلى بناء العديد من المنازل دون ترخيص، هُدم منها نحو (٤٠٠)، فيما بين عامي ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٨، وهناك أوامر بهدم ألف منزل لم تنفذ بعد. كما أوضح التقرير بأن الاستيطان في شرق المدينة يتم بتسارع كبير، منذ بدء محادثات «أنابوليس» للسلام، في أواخر عام ٢٠٠٧، وقد قدمت طلبات لبناء نحو ٥,٥٠٠ وحدة سكنية في مستوطنات جديدة، تم الترخيص لثلاثة آلاف منها حتى الآن، وأن هناك نحو ٤٧٠ ألف مستوطن في الأراضي المحتلة، بينهم ١٩٠ ألف في القدس الشرقية وحدها [٣٧].

كما أن هناك مخططًا لبناء ٣٥٠٠ وحدة استيطانية جديدة، وحديقة صناعية، ومركزين للشرطة، وبعض المنشآت الأخرى، فضلا على أن لدى إسرائيل خططًا للتوسع في سلوان، خارج المدينة المقدسة [٣٨].

يصف التقرير إجراءات إسرائيل في القدس الشرقية المحتلة بأنها «انتهاك لـ(خارطة الطريق) الأمريكية، والقانون الدولي، وأن ذلك يقلص من فرص التوصل إلى حل دائم بشأن القدس، ويهدد بجعل فرصة التوصل لأى اتفاق على أساس التعايش السلمي غير ممكنة بين الطرفين». ونتيجة للضغوط الأمريكية، والإسرائيلية، في ظل التقارب، الذي حدث مؤخرًا، في العلاقات بين إسرائيل، وأوروبا، قرر الاتحاد الأوروبي عدم تبني التقرير، أو حتى الموافقة على نشره، مكتفيًا بالتنديد بالمشروع الاستيطاني الإسرائيلي في القدس المحتلة، والضفة الغربية، وتحت دعوى أن أوروبا تشارك، بشكل فعال، في «المسيرة السياسية»، من جهة إرسال مراقبين حدوديين، أوروبيين إلى معبر رفح، وتشكيل بعثة أوروبية لتطوير الشرطة الفلسطينية [٣٩]. وغابت الإرادة السياسية الأوروبية لتحقيق، وتنفيذ القرارات الدولية، سعيًا للوصول إلى تسوية عادلة تعيد القدس العربية إلى أصحابها الشرعيين.

غنيٌّ عن القول بأن الجماعة الأوروبية لن تعنى بتسوية الصراع العربى ـ الإسرائيلي، والقضية الفلسطينية، إلا في حالة شعورها بقدرة الجانب العربي على تهديد المصالح الأوروبية في المنطقة. فإذا كانت دول أوروبا قد طوت صفحة الاضطهاد الديني داخل أقطارها، وكذا الاستعمار الأوروبي الاستيطاني، فضلًا على الاستعمار بأشكاله الأخرى خارج القارة، وأدانت كل ما اقترن بتلك السياسات من مفاهيم عنصرية، فلا بد لها من إعادة النظر في موقفها من الكيان الصهيوني، ومشروعه الاستعماري العنصري الإقصائي، والموقف الأوروبي المؤيد له، كحل عنصري، يقوم باستلاب حقوق أصحاب فلسطين الشرعيين، عبر حملات تهجير يهود أوروبا إليها، بدلًا من العمل على حلها، وفقًا لقيم، ومفاهيم العصر، بتوفير حق المواطنة الكاملة لكل يهودي في وطنه الأصلي، وضمن قوميته، وليس اصطناع قومية زائفة ـ غير ممكنة عمليًّا ـ لليهود تحت اسم «الصهيونية».

* * *

هوامش الفصل السابع:

(١) محمد خالد الأزعر، **الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية**، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، ١٩٩٠، ص ١٩، ٢٠، ٣٩، ٥٦.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٦٥.

(٣) جوزيف حبيب، الرؤية الأوروبية لقضية القدس، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١١٠، تشرين الأول/ أكتوبر ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧، ص ١١٧.

(٤) عوض خليل، **الصراع العربي ـ الإسرائيلي، في إطار الحوار العربي ـ الأوروبي**، سلسلة «دفاتر عربية»، شرق برس، نيقوسيا، ١٩٩٠، ص ١٤.

(٥) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٦) د. أحمد صدقي الدجاني، **الحوار العربي ـ الأوروبي، وجهة نظر عربية**، ووثائق، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٩.

(٧) حبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٣.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ١١٣.

(٩) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩، ٥٤، ٥٦.

(١٠) خليل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧.

(١١) حبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٨.

(١٢) تيسير النابلسي، **المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية**، سلسلة «كتب فلسطينية»، العدد ٦٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١١٩.

(١٣) خليل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧.

(١٤) النابلسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٠.

(١٥) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.

(١٦) نابلسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٩، ١٢٦.

(١٧) خليل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥.

(١٨) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٢.

(١٩) النابلسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٧، ١١٨.

(٢٠) حبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٢، ١٣٢.

(٢١) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٤.

(٢٢) الدجاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠.

(٢٣) خليل، مصدر سبق ذكره، ص ١٥، ١٦.

(٢٤) الأزعر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣، ١٣٥.

(٢٥) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠، ١٠٠.

(٢٦) خليل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩، ٥٠، ٥١، ٦٨.

(٢٧) الأزعر، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢٨) حبيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.

(٢٩) النابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦، ١٤٠، ١٤١.

(٣٠) خليل، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨، ٦٩.

(٣١) حبيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٣٢) **الجزيرة**، الموقف الأمريكي من دور الاتحاد الأوروبي في الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٨:

.www.aljazeera.net

(٣٣) الشرق الأوسط، **تقرير الاتحاد الأوروبي المحظور ـ ممارسات إسرائيل في القدس الشرقية**، العدد ٩٨٨٠، ٢٠٠٥ . .aawsat com

(٣٤) **موقع عرب ٤٨**، خارجية الاتحاد الأوروبي تؤجل مناقشة تقرير يتناول الاستيطان في القدس المحتلة، ٢٠٠٥ . .www.alquds com

(٣٥) **محمد سعيد**، الاتحاد الأوروبي: إسرائيل تسرع تهويد القدس، **الأخبار**، (القاهرة)، ١٣أبريل/ نيسان، ٢٠٠٩. www.al_ akhbar.com

(٣٦) **مركز إعلام القدس**، الاتحاد الأوروبي: ممارسات إسرائيل في القدس المحتلة، ٢٠٠٩.

www.qudsmedia.net

(٣٧) **القدس، الاتحاد الأوروبي**: إسرائيل تعمل على ضم القدس الشرقية، ٧ مارس، ٢٠٠٩.

www.alquds.com

(٣٨) موقع عرب ٤٨، **مصدر سبق ذكره**.

(٣٩) الشرق الأوسط، **مصدر سبق ذكره**.

* * *

obeikan.com

الفصل الثامن

القدس في قرارات الأمم المتحدة

دينا العشري

مثلت قضية القدس في الماضي، وما تزال، أحد أهم محاور القضية الفلسطينية، بشكل خاص، والصراع العربي الإسرائيلي بشكل عام وتعتبر أحد الملفات الساخنة، التي حظيت باهتمام التنظيم الدولي العالمي، ونعني الأمم المتحدة، نظرًا لأهميتها التاريخية، ولارتباطها بالأديان السماوية الثلاثة، وبشكل محدد، ارتبط صدور قرارات أو توصيات تتضمن معالجة مشكلة القدس عن الأمم المتحدة، سواء عبر جهازها التنفيذي (مجلس الأمن)، أو جهازها التشريعي (الجمعية العامة)، بشكل أو بآخر بالقضية الفلسطينية ولا تزال تلقي بتداعياتها حتي يومنا هذا[1].

وفيما يلي نتناول القرارات الصادرة عن جهازي الأمم المتحدة، بشيء من التفصيل.

ـ قرارات الجمعية العامة المتعلقة بالقدس

يعتبر القرار رقم (١٨١) أول القرارات، وأهمها، التي صدرت عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وعرف بقرار التقسيم، أصدرته الجمعية في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م، وقضى هذا القرار بتقسيم فلسطين إلى دولتين، إحداهما صهيونية، والأخرى عربية، وعلى أساس هذا القرار، قامت دولة إسرائيل، بل مثّل شهادة ميلاد حقيقية للدولة الصهيونية.

بعد ذلك، وبالرغم من مرور عدة عقود على صدور هذا القرار، إلا أن الدولة الفلسطينية لم تقم بعد. وقد كان صدور القرار ١٨١ نتيجة عمل اللجنة التي شكلتها الأمم المتحدة في ٢/ ٤/ ١٩٤٧م، وسميت هذه اللجنة باسم «أنسكوب» nation Special Committee on Unscop Palestine United، وتكونت من ممثلي إحدى عشرة دولة، انقسمت مواقف هذه الدول إلى قسمين[2]:

القسم الأول: أغلبية اللجنة، وقدمت مشروعًا نص على تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، عربية وصهيونية، ٤٣ بالمائة من مجموع مساحة البلاد، لإقامة دولة عربية، ونسبة ٥٦ بالمائة من مجموع مساحة البلاد، لإقامة دولة صهيونية. أما القدس فخضعت تحت إدارة دولية تابعة للأمم المتحدة، وحددت مدة الإدارة بعامين فقط، وبعدها تحصل كل دولة على استقلالها. وارتأت هذه اللجنة بأنه يجب أن تسود الأقلية اليهودية الأغلبية الفلسطينية.

القسم الثاني: فمثّل أقلية اللجنة، التي رأت أن اليهود، الذين يؤلفون ثلث سكان فلسطين، لا بد أن تتساوى حصتهم مع العرب في كل أرض فلسطين. ويحتوي مشروع تلك الأقلية على خضوع الطرفين لفترة انتقالية، مدتها ثلاث سنوات، وبعد ذلك، تتكون دولة اتحادية، عاصمتها القدس، ولها حكومتان مستقلتان، ما يجعل للدولة الفلسطينية مساحة أكبر مما خصص لها في القسم الأول.

وبالطبع، كان الترجيح للموقف الأول. وسادت الأقلية اليهودية الأغلبية الفلسطينية حتي وقتنا هذا.

من ثم، نال قرار التقسيم ٣٣ صوتًا، داخل الأمم المتحدة، ضد ١٣ صوتًا مع امتناع عشرة أعضاء عن التصويت، وأصبح القرار هو السند الأساسي لقيام دولة فلسطين المستقلة وما أحوج الحركة الوطنية الفلسطينية، الآن، إلى هذا القرار، لتثبت به حقها في دولة فلسطينية عربية، ويعدّ كذلك، أيضًا، الأساس القانوني لقيام دولة إسرائيل، واشترط القرار تعيين لجنة عرفت «بلجنة فلسطين» تكون مهمتها تحمل الإدارة المؤقتة في فلسطين، بعد الانسحاب البريطاني، بالإضافة لوضع خطة تدويل القدس موضع التنفيذ[٣].

لكن العرب و«الهيئة العربية العليا»، رفضوا هذا القرار، لكونه يمثل خطرًا حقيقيًّا على سلامة فلسطين، ووحدتها، بل ويهدد كيانها، ووجود شعبها، في حين نجد أن الصهيونية تظاهرت بقبولها لهذا القرار، واعتبرته السند القانوني الدولي الوحيد الذي سيدعم كيانها، ويحقق أطماعها داخل فلسطين، هذا ما جعل الجمعية العامة تصدر قرارًا آخر برقم (١٨٥) في (الدورة الاستثنائية ـ ٢)، بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٤٨م، نص على «أن حفظ الأمن والنظام في القدس مسألة ملحة لدى الأمم المتحدة؛ لذا تقرر قيام مجلس الوصاية بوضع دراسة، مع سلطات الانتداب، والأطراف الأخرى المعنية، لتشمل الإجراءات الملائمة لحماية القدس، وسكانها، وأن ترفع إلى الجمعية العامة ما تم الوصول إليه في أقرب وقت»، ونال هذا القرار موافقة ٤٤ صوتًا، مقابل ثلاثة أصوات، وامتناع ستة عن التصويت[٤].

لكن الضربة القاسية غير المتوقعة إلى القدس، بأحيائها المختلفة، كان قيام القوات البريطانية، في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨، بالانسحاب النهائي من فلسطين، وفي اليوم نفسه، أعلنت الحركة الصهيونية، على لسان ديفيد بن جوريون، قيام الدولة اليهودية، مما أدى إلى تدخل الجيوش العربية لإنقاذها من أيدي الصهاينة، فاندلعت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، لكن القوات العربية فشلت في طرد العدو الصهيوني، واحتلت إسرائيل غرب القدس، بكل أحيائه العربية، وكل ما حدث لم يمنع الجمعية العامة للأمم المتحدة من أن تصدر قرارين، أكدت فيهما على ضرورة إقامة نظام دولي للقدس[٥].

القرار الأول: رقم (١٩٤) الصادر بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٤٨م، نص على التمسك بوحدة القدس، وتدويلها، ونزع سلاحها، وعدم الربط بينها وبين أي من الدولتين، الموصى بهما في قرار التقسيم (١٨١)، وتشكيل «لجنة التوفيق»، لتقدم اقتراحًا مفصلًا عن كيفية تطبيق النظام الدولي في القدس، وتوضيح صورة إدارة كل من إسرائيل، والأردن

للمناطق التي قامت هاتان «الدولتان» بضمها، وتعيين وسيط للأمم المتحدة، يكون مسؤولًا عن الأماكن المقدسة، لكن خرجت اللجنة عن القواعد الرئيسية التي أعطتها إياها الأمم المتحدة، فاختلفت عن قرار تدويل القدس[٦]. حيث جاء في تقرير اللجنة في الفقرة (٦):

١ ـ أقامت إسرائيل خدمات وزارية، وخدمات عامة في منطقة القدس، وأعطت اللجنة بعض الاعتبارات لإقامة هذه الخدمات الوزارية، بل تبادلت الرسائل بشأنها مع رئيس وزراء إسرائيل.

٢ ـ تقدمت الولايات المتحدة، باعتبارها عضوًا في «لجنة التوفيق»، في سبتمبر/ أيلول ١٩٤٩م، باقتراح نيابة عن اللجنة، طالبت فيه إنشاء مجلس عربي ـ إسرائيلي مشترك لإدارة المدينة المقدسة، وتعيين مفوض عام من الأمم المتحدة لإدارة الأماكن المقدسة، مما يجعل التدويل الذي فرضته الأمم المتحدة يختص بالأماكن المقدسة فيه، وذلك نتيجة لسيطرة كل من الأردن، وإسرائيل، على شطري القدس، سياسيًا، وعسكريًا[٧].

وافقت الدول العربية على هذا القرار؛ لأنها لم تجد بديلًا آخر، تحت نير الهزيمة التي تعرضت لها، ولكن إسرائيل رفضت هذا القرار.

القرار الثاني: فأصدرت الجمعية العامة قرارًا آخر رقم (٣٠٣) في ٤/ ١٢/ ١٩٤٩م، وتبنته في ٩/ ١٢/ ١٩٤٩م، وفيه أوضحت تصميمها على وضع القدس تحت إدارة دولية، تضع ضمانات كافية لحماية الأماكن المقدسة داخل وخارج القدس، ووضع دستور لهذه المدينة[٨].

لكن السياسة الإسرائيلية لم تلق بالًا لهذه القرارات، فمع توقيع معاهدة وقف إطلاق النار بين العرب واليهود، التي تحولت إلى اتفاقية هدنة مع «دول الطوق»، في ربيع ١٩٤٩م، احتلت إسرائيل القدس الغربية، بينما حافظت القوات الأردنية على القدس الشرقية بعيدة عن الاحتلال، وبقي جزء صغير تحت إشراف الأمم المتحدة، وهذا جعل القدس الواحدة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأكبر منها تحت السيطرة الإسرائيلية، وقامت بنقل محكمة العدل العليا «الإسرائيلية» إلى القدس، متجاوزة بذلك قرار التقسيم، أضف إلى ذلك فبراير/ شباط ١٩٤٩م، بعقد اجتماع الكنست في القدس، وقام رئيسه بتأدية القسم، وعمدت إسرائيل إلى نقل عدد من وزاراتها من تل أبيب إلى القدس لتجعل القدس عاصمتها بقوة الأمر الواقع، وأعلنت بالفعل أن القدس عاصمة أبدية لها، ونقلت باقي الوزارات إليها في يوليو/ تموز ١٩٥٠م، ضاربةً بقرارات الأمم المتحدة عرض الحائط، وباتت إسرائيل قادرة ـ بحماية المظلة الأمريكية ـ على ضم الأراضي الفلسطينية، والقدس ذاتها[٩].

وتميزت المرحلة (١٩٥٦ ـ ١٩٦٧) بإعادة التوازن على الساحة الدولية، وذلك بمساندة الدول الاشتراكية والاتحاد السوفييتي للقضية الفلسطينية وطرح في المنابر الدولية والإعلامية، وفي هذه الفترة لم يتم طرح قضية القدس على هيئة الأمم المتحدة على الإطلاق[١٠].

إلا أن الأمر لم يدم طويلًا، ففي الخامس من يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، شنت إسرائيل الحرب على الدول العربية المحيطة، وعقب هذه الحرب، مباشرة، أعلنت أن مدينة القدس «عاصمة موحدة لها»، مما أثار مشاعر الغضب لدى العالمين العربي والإسلامي، فضلًا على استهجان المجتمع الدولي، فقامت الأمم المتحدة، على الفور، بإصدار العديد من القرارات التي أدانت فيها التصرف الإسرائيلي، الذي يستهدف ضم القدس، وتغيير هويتها، وتكوينها الديموغرافي، ومن أهم هذه القرارات، قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٢٢٥٣)، والقرار رقم (٢٢٥٤)[١١].

فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم (٢٢٥٣)، في ٤ يوليو/ تموز ١٩٦٧م، وقدمته باكستان، في الدورة الطارئة، الخامسة الخاصة بالشرق الأوسط، ونص على «أن الجمعية العامة تشعر بقلقٍ شديد من أجل الموقف السائد في القدس نتيجة للإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس، وتعتبر هذه الإجراءات غير شرعية، وندعو إسرائيل إلى إلغاء الإجراءات التي أُتخذت، والامتناع عن اتخاذ أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس»[١٢].

صوت لصالح هذا القرار ٩٩ دولة، فيما امتنعت عن التصويت ٢٠ دولة، وطالبت الجمعية العامة من السكرتير العام للأمم المتحدة تقديم تقرير إليها، وإلى مجلس الأمن، حول الموقف الإسرائيلي من هذا القرار، في موعدٍ لا يتجاوز أسبوعًا واحدًا من تاريخ صدور القرار، وسرعان ما جاء الرد الإسرائيلي في شكل رسالة من وزير خارجية إسرائيل في ١٢ يوليو/ تموز ١٩٦٧م، بتأكيد اعتزام إسرائيل القيام ببعض الإجراءات، ولكن لم يشرح طبيعتها، كما لم يوضح الامتثال للقرار رقم (٢٢٥٣)؛ لذلك أصدرت الجمعية العامة قرارًا آخر، برقم (٢٢٥٤)، في ١٤/ ٧/ ١٩٦٧م، نص على «أن الجمعية العامة تستعيد قرارها رقم ٢٢٥٣ الصادر في ٤/ ٧/ ١٩٦٧م، وقد تلقت التقرير، المقدم من السكرتير العام، وتأخذ علمًا مع الأسف والقلق الشديدين بعدم الالتزام من جانب إسرائيل بهذا القرار، ونكرر، في القرار رقم ٢٢٥٤، دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التي اتخذت، والامتناع عن أي عمل من شأنه أن يغيير وضع القدس»[١٣].

صوت على هذا القرار ١٠٠ دولة، وامتنعت ١٨ دولة، وكالعادة لم تلق إسرائيل بالًا لهذا القرار، واستمرت في تحدي الإرادة الدولية، بل عندما جاء الممثل الشخصي للسكرتير العام للأمم المتحدة «أرنستو نالمان»، في ٢١/ ٨/ ١٩٦٧م، في مهمة لكتابة تقرير عن وضع القدس، وتنفيذ قرارات الجمعية العامة، جاء رد إسرائيل، بأن هدفها توحيد القدس، وتسهيل الخدمات، والممارسات، وخاصة ممارسة العبادات، وأن كافة الإجراءات التي قامت بها لا تؤثر من قريب أو بعيد على حقوق الناس، ولا على المصالح الدولية في القدس، وبينت إسرائيل بأن قرار ضمها للقدس لا رجعة فيه[١٤]، مما أثار مشاعر الفلسطينيين الذين رفضوا هذه السياسة، مؤكدين بأن هذا الضم يعتبر انتهاكًا لحقوق الإنسان، ولكافة المواثيق الدولية. ما جعل الجمعية العامة تعتنق مبدأ «عدم الاعتراف»، الذي تقدمت به لجنة القانون الدولي، ونص على أن تلتزم كل دولة بالامتناع عن الاعتراف بأي مكاسب إقليمية تحصل عليها دولة أخرى؛ لأن ذلك يمثل انتهاكًا لأحكام المادة التاسعة، التي تؤكد القواعد العامة للقانون الدولي، بضمان السلامة الإقليمية لكافة الدول، وعليه فقد كان إعلان الجمعية العامة متعلقًا بالعلاقات الودية، والتعاون بين الدول الصادر في ٢٤/ ١٠/ ١٩٧٠م، حيث حرص على أن «تكون أي مكاسب إقليمية، تم الحصول عليها عن طريق استخدام القوة، أو التهديد باستخدامها، لا يمكن الاعتراف بشرعيتها»[١٥].

لكن إسرائيل أعلنت للعالم أجمع، في ١٧/ ٧/ ١٩٨٠م، ما يسمى «بالقانون الأساسي»، وهذا القانون يعتبر جزءًا من الدستور غير المعلن لإسرائيل في القدس، منذ قيامها، وبموجب هذا القانون أعلنت إسرائيل تغيير وضع القدس، واعتبارها عاصمة أبدية موحدة لها[١٦]، فقامت الجمعية العامة بإصدار العديد من التوصيات، خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات، أكدت جميعها على ضرورة تطبيق كافة الإجراءات التي اتخذتها في هذه التوصيات، خاصة المقامة بجلستها رقم (٩)، بتاريخ ٤/ ١٢/ ١٩٩٥م، والتشريعات الإدارية، والتصرفات، الصادرة عن إسرائيل،

وقوات الاحتلال، التي تسعى لطمس الهوية العربية، ونظام المدينة المقدسة، وبصفة خصة ما تسميه بالقانون الإساسي للقدس، وهي باطلة وخالية من أي قيمة دولية، ويجب اعتبارها كأن لم تكن، وتتلخص هذا التوصيات في الآتي[١٧]:

١ـ التوصية رقم ٢٦/ ١٢٠هـ، بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٩٨١م.

٢ـ التوصية رقم ٣٧/ ١٢٣جـ، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٨٢م.

٣ـ التوصية رقم ٣٨/ ١٢٣جـ، بتاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٨٣م.

٤ـ التوصية رقم ٣٩/ ١٤٦جـ، بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٨٤م.

٥ـ التوصية رقم ٤٠/ ١٦٨جـ، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٨٥م.

٦ـ التوصية رقم ٤١/ ١٦٢جـ، بتاريخ ٤/ ١٢/ ١٩٨٦م.

٧ـ التوصية رقم ٤٢/ ٢٠٩د، بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٨٧م.

٨ ـ التوصية رقم ٤٣/ ٥٤جـ، بتاريخ ٦/ ١٢/ ١٩٨٨م.

٩ ـ التوصية رقم ٤٤/ ٤٠جـ، بتاريخ ٤/ ١٢/ ١٩٨٩م.

١٠ ـ التوصية رقم ٤٥/ ٨٣جـ، بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٩٠م.

١١ـ التوصية رقم ٤٦/ ٨٢ب، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٩١م.

١٢ـ التوصية رقم ٤٧/ ٦٣ب، بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٩٢م.

١٣ـ التوصية رقم ٤٨/ ٥٩أ، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٩٣م.

١٤ـ التوصية رقم ٤٩/ ٨٧أ، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٩٤م.

فضلًا على هذه التوصيات، قامت الجمعية العامة، في عام ٢٠٠٠م، بالتصويت، بأغلبية ١٤٥ صوتًا، مقابل صوت واحد، هو صوت الكيان الصهيوني، على قرار إدانة محاولات الكيان الصهيوني فرض قانونه، وولايته القضائية على القدس، وأن هذه المحاولات باطلة، وجددت الجمعية العامة هذا التصويت بأغلبية ١٤٠ صوتًا، في ٧/ ٥/ ٢٠٠٤م، حيث اتخذت الجمعية مجددًا قرارًا أكدت فيه على أن الوضع القانوني للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، بما فيها القدس الشرقية، حقًّا للشعب الفلسطيني، في أن يفرض السيادة عليها، بعد انتهاء وضع الاحتلال[١٨].

بالرغم من كل الإجراءات التي اتخذتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن القدس، وإدانتها لكافة الإجراءات الإسرائيلية، إلا أنها لا تزال حبرًا على ورق؛ نظرًا لافتقادها آلية التنفيذ المناسبة لقراراتها، وهذا ما حدث، أيضًا، بالنسبة لقرارات مجلس الأمن، الذي يعتبر الأداة المنفذة في الأمم المتحدة، لكن «الفيتو» الأمريكي قد أفقده هذه الشرعية، بل عرقل عمل هذه الأداة، وهو ما يتضح من خلال قرارات الأمم المتحدة، الخاصة بالقدس، في مجلس الأمن.

ـ قرارات مجلس الأمن المتعلقة بالقدس

أصدر مجلس الأمن العديد من القرارات التي أدانت الاعتداءات الإسرائيلية على الأراضي المقدسة، وأكدت تلك القرارات عروبة القدس، وضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلي لها، وإبطال كافة الإجراءات الإسرائيلية التي تغير نظام القدس القانوني، وهويتها أيضًا. ولكن هذه القرارات لم تلق صدى لدى سلطات الاحتلال الإسرائيلي، بل لم تقم إسرائيل بتطبيقها واعتبرتها كأنها لم تتَّخذ[١٩].

نتيجة لقرار التقسيم رقم (١٨١)، ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م، الذي قضت به الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، لم تستطع الإدارة البريطانية الاستمرار داخل القدس، فتم تشكيل «لجنة فلسطين» من قبل الأمم المتحدة، التي لم تضطلع بمسؤولياتها عمليًّا بعد انتهاء الانتداب البريطاني، نتيجة للأوضاع غير المستقرة التي شهدتها فلسطين، وقتذاك، مما جعلها ترسل تقريرًا إلى الأمم المتحدة، تحثها فيه على إرسال قوة بوليسية دولية لمنع تدهور الوضع في فلسطين، خاصة بعد انهيار القانون، والنظام داخلها، فأصدر مجلس الأمن بعض القرارات، لكن لم تظهر، ومنها القرار رقم (٤٤)، الصادر في ٤/ ١٩٤٨م، نص على وقف العمل بخطة التقسيم، ووضع وصاية دولية مؤقتة على فلسطين، فرفض الصهاينة هذا الاقتراح؛ لذلك لم يظهر القرار[٢٠].

ثم تبنى مجلس الأمن قرارًا آخر في ٢٣/ ٤/ ١٩٤٨م برقم (٤٨)، ناشد من خلاله «بضرورة وقف الأعمال الحربية، وشبه الحربية في القدس»، وتشكلت «لجنة الهدنة»، من قناصل الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا، بلجيكا، والقدس، وتم اتخاذ قرار في ١٣/ ٥/ ١٩٤٨م، نص على تعيين وسيط دولي بين العرب والإسرائيليين، في ظل الأوضاع غير المستقرة بالقدس، فقامت الحكومة البريطانية في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م بسحب قواتها، تاركة فلسطين دون سلطة منظمة، ما أتاح للحركة الصهيونية إعلان قيام «دولة إسرائيل»، استنادًا إلى قرار التقسيم (١٨١)، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة[٢١]، هذا ما جعل الوضع داخل القدس يزداد سوءًا.

فاستندت الأمم المتحدة للوسيط الدولي، الأمير السويدي «الكونت فولك برنادوت»، رئيس الصليب الأحمر في السويد، ومنحته صلاحيات يستخدمها للتأكد من سلامة السكان في فلسطين، وحماية الأماكن المقدسة، بالإضافة إلى قيامه بتسوية سلمية، فيما يخص وضع القدس في المستقبل[٢٢]، وبعد اندلاع الحرب العربية ـ الإسرائيلية ١٦/ ٥/ ١٩٤٨م، أصدر مجلس الأمن قرارًا برقم (٥٦) في ١٩/ ٨/ ١٩٤٨، حذر فيه كلًّا من الطرفين المتحاربين (العربي، والإسرائيلي)، بأنهما يتحملان مسؤولية ما يقع من ضرر، وأنه لا يحق لأي من الفريقين، أن يجني ربحًا مهما يكن نوعه عن طريق خرق الهدنة المقامة بينهم، وطلب مجلس الأمن من الوسيط الدولي تجريد القدس من أسلحة الدمار لحمايتها، فقام برنادوت بتأمين كل فريق ومحاولة سد حاجته من الطعام، والشراب، دون أن يدخر شيئًا منه، خاصة اليهود، لكن اليهود كانت غايتهم قبل الهدنة الأولى أن تقوم بفتح الطريق المؤدي إلى القدس[٢٣].

وفور توقف القتال على جميع الجبهات قام برنادوت بتقديم مشروع من أجل وضع حلٍّ نهائي، للقضية الفلسطينية، حتى يحقق أمورًا ثلاثة هي:

١ ـ ضم المناطق العربية من فلسطين إلى المملكة الأردنية.

٢ ـ اتحاد المملكة الجديدة مع الدولة اليهودية في مجال الاقتصاد، والسياسة، والدفاع.

٣ ـ ضرورة ترك أمر السياسة الداخلية لكل دولة على حدة.

من هنا، نجد أن برنادوت حاول من خلال تقديمه لهذا المشروع أن يؤكد على أن القدس جزء من الدولة العربية؛ نظرًا لكون الدولة العربية، هي المحيط الطبيعي لها، وأن إسرائيل لا يكون لها في القدس سوى الإدارة غير المركزية. وكان الرد الإسرائيلي على هذا المشروع أن قامت باغتيال الكونت برنادوت في ١٧/ ٩/ ١٩٤٨م[٢٤]، أي قبل أن ينفذ مشروعه المقترح. كما جاء رد الفعل من قبل الأمم المتحدة بإصدار مجلس الأمن قرارًا برقم (٥٧)، في ١٨/ ٣/ ١٩٤٨م، نص على تجريم اغتيال وسيط الأمم المتحدة في فلسطين، الكونت برنادوت، ولكن لم يكن لهذا القرار أي فاعلية لدى إسرائيل، فأصدر مجلس الأمن قرارًا آخر برقم (٥٩)، في ١٩/ ١٠/ ١٩٤٨م، يعرب فيه عن قلقه إزاء عدم تقديم إسرائيل تقريرًا مفصلًا عن وقائع اغتيال برنادوت، وإقرار يوجب فيه الحكومة الإسرائيلية، بالتعاون مع موظفي هيئة الرقابة في هذا العمل[٢٥].

توالت بعد ذلك العديد من القرارات، التي أصدرها مجلس الأمن، بسبب الانتهاكات الإسرائيلية، داخل القدس الشريف، والاعتداءات المباشرة على حقوق المدنيين الفلسطينيين، وهذه القرارات توضح موقف المجتمع الدولي من هذه الاعتداءات، خاصة بعد حرب حزيران/ يونيو١٩٦٧م:

١ ـ القرار رقم (٢٤٢)، الصادر في ٢٢/ ١١/ ١٩٦٧م، تم إصدار هذا القرار نتيجة لاحتلال إسرائيل للضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، وغزة، وسيناء، ونص على ضرورة انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، وأقر على مبدأ الأرض مقابل السلام[٢٦].

٢ ـ القرار رقم (٢٥٠)، في ٢٧/ ٤/ ١٩٦٨م، الذي حث إسرائيل على عدم إقامة عرض عسكري، في القدس؛ لأنه سيزيد من التوتر هناك، وسيكون له انعكاس سلبي على التسوية السلمية لمشكلات المنطقة، ودعا القرار إلى عدم قيام إسرائيل بإقامة العرض العسكري في ٢/ ٥/ ١٩٦٨م، فقام الأمين العام للأمم المتحدة بتقديم التقرير إلى مجلس الأمن بشأن تنفيذ القرار، ولكن إسرائيل لم تمتثل لهذا القرار[٢٧]، وأعلن مندوب الأمم المتحدة في القدس عدم تنفيذ إسرائيل للقرار رقم (٢٥٠)، معللًا ذلك بأن إقامة العرض العسكري في القدس شأن من الشؤون الداخلية لإسرائيل، وأن الشعب اليهودي انتظر هذا العرض أكثر من عشرين عامًا نتيجة للاحتلال الأجنبي، والنفي والاضطهاد والتمييز العنصري الذي تعرض له الشعب اليهودي، ولم تسمح بأي إجراء يمنع إقامة العرض العسكري؛ لأنه يمثل إعادة ميلاد لدولة إسرائيل[٢٨].

٣ ـ القرار رقم (٢٥١) اتخذ عقب إقامة إسرائيل للعرض العسكرى في ٢٦/ ٥/ ١٩٦٨م، أبدى فيه المجلس أسفه العميق على إقامة إسرائيل للعرض العسكري في القدس، وتجاهل إسرائيل للقرارات الصادرة في هذا الشأن[٢٩]، وبالرغم من عدم احترام إسرائيل لقرار مجلس الأمن، فإن المجلس لم يفعل شيئًا، واكتفى بإصدار القرارات فحسب، لتبقى دائمًا بالنسبة لإسرائيل حبرًا على ورق.

٤ ـ القرار رقم (٢٥٢)، في ٢١/ ٥/ ١٩٦٨م، نص على عدم امتثال إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة رقم (٢٢٥٣)، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٤/ ٧/ ١٩٦٧م، وكذلك القرار رقم (٢٢٥٤)، حيث نظر المجلس في الكتاب الدائم لممثل الأردن بشأن الوضع في القدس، وفي تقرير الأمين العام، ولاحظ أن إسرائيل اتخذت منذ تبني

القرارات آنفة الذكر المزيد من الإجراءات، والأعمال التي تتنافى مع تلك القرارات؛ لذلك أكد القرار (٢٥٢) على الحاجة للعمل من أجل تحقيق السلام الدائم في القدس، وعدم الاستيلاء على الأراضي بالغزو العسكري، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تصوت على هذا القرار، رغم تصويت ١٣ عضوًا نتيجة لقناعتهم بعدم وجود حق لإسرائيل في احتلال القدس[٣٠].

٥ ـ القرار رقم (٢٧١)، الصادر في ١٥/ ٩/ ١٩٦٩م، تناول الحريق الذي لحق بالمسجد الأقصى، ونص على أن أي تدنيس، أو تدمير للأماكن المقدسة، أو المواقع الدينية في القدس، من جانب إسرائيل، يعتبر خرقًا للقانون الدولي، واتفاقية «جنيف الرابعة»، الذي ينظم سلطات دولة الاحتلال، لكي تقتصر على حق الإدارة اليومية للإقليم المحتل، دون القيام بأي عمل يؤدي إلى التغيير الجغرافي، أو القانوني، أو الإداري للإقليم المحتل، كما يدعو هذا القرار إلى الامتناع عن إعاقة المجلس الإسلامي الأعلى للقدس عن القيام بمهامه التي تتعلق بخططها في إصلاح الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس[٣١].

٦ ـ القرار رقم (٢٩٨)، في ٢٥/ ٩/ ١٩٧١م، عبر مجلس الأمن، من خلال هذا القرار، عن قلقه إزاء الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في تغيير وضع القدس، ومن ضمنها مصادرة الأراضي، والممتلكات، ونقل السكان والتشريع الهادف إلى ضم القطاع المحتل، الذي يؤدي إلى تغيير وضع القدس، الذي يجحف حق السكان الفلسطينيين في القطاع، كذلك بمصالح المجموعة الدولية، وجاء رد الاحتلال الإسرائيلي، على هذا القرار بإجراء مزيد من عمليات التهجير، والتهويد، خاصة في القدس[٣٢].

٧ ـ القرار رقم (٤٥٢)، في ٢٠/ ٧/ ١٩٧٩م، طالب فيه المجلس السلطات الإسرائيلية وقف أنشطة الاستيطان في الأراضي المحتلة، خاصة القدس، كما أكد هذا القرار على القرارات السابقة المتعلقة بالقدس، إلا أن إسرائيل استمرت في سياسة طرد الفلسطينيين من القدس، وإقامة المستوطنات اليهودية، مما جعل مجلس الأمن، يصدر قرارًا آخر برقم (٤٦١)، في ١/ ٣/ ١٩٨٠م، بإدانة استمرار إسرائيل في تنفيذ سياسات الاستيطان، كما طالب من إسرائيل حل جميع المستوطنات التي أقامتها داخل القدس، حيث إن نقل المهاجرين الإسرائيليين الجدد إلى الأراضي الفلسطينية يعتبر خرقًا للقرارات الدولية، ولاتفاقية جنيف الرابعة.

فكانت الصاعقة، التي لم تدم طويلًا، لإسرائيل، وهي تصويت الولايات المتحدة الأمريكية على القرار (٤٦١)، فقامت السلطات الإسرائيلية واللوبي الصهيوني على الفور بالضغط على الإدارة الأمريكية حتى تتراجع عن الفقرة الخاصة بالقدس، وإزالة المستوطنات، وبالفعل تنازلت الولايات المتحدة عن التصويت، بل وأعاقت أي قرار يغير من السياسة الإسرائيلية الاستيطانية في القدس[٣٣].

كما لم تمنع هيمنة الولايات المتحدة على جهازي الأمم المتحدة من إصدار مجلس الأمن القرار رقم (٤٧٦)، في ٣٠/ ٦/ ١٩٨٠م، القاضي بعدم قبول المجتمع الدولي لمبدأ الاستيلاء على الأرض المقدسة بالغزو، أو بالقوة، وأكد القرار، أيضًا، بطلان الإجراءات الإسرائيلية كافة، التي تغير طابع القدس، وردَّت إسرائيل على هذا القرار في ١٧/ ٧/ ١٩٨٠م، بإعلان «القانون الأساسي» الذي أعلنت بموجبه تغيير وضع القدس، وجعلها عاصمة أبدية لها، فأصدر مجلس الأمن قرارًا (٤٧٨)، في ٢٠/ ٨/ ١٩٨٠م، كرد على موقف إسرائيل المتعنت، حيث نص القرار على أن

القانون الأساسي الذي أعلنته إسرائيل، ما هو إلا انتهاكًا للقانون الدولي، ولا يؤثر على التطبيق المثمر لاتفاقية جنيف الرابعة، ولا بد من اتخاذ الإجراءات اللازمة في حالة عدم استجابة إسرائيل، كما ناشد القرار ٤٧٨ كل الدول التي أقامت بعثاتها في القدس إلى سحب البعثات من المدينة المقدسة، وفقًا للمادة الخامسة من القرار (٤٧٦)[٣٤].

بالرغم من كل هذه الإجراءات، استمرت إسرائيل في ترحيل المدنيين الفلسطينيين عن الأراضي المحتلة، وأصدر المجلس قرارًا رقم (٦٠٧)، في ٥/ ١/ ١٩٨٨م، حتى تمتنع إسرائيل عن القيام بعمليات التهجير إلى القدس، علاوة على قرارٍ آخر في العام نفسه برقم (٦٠٨)، طلب مجلس الأمن فيه من إسرائيل إلغاء ترحيل المدنيين، وضرورة عودة الفلسطينيين الذين تم ترحيلهم، فعليًا، لكن إسرائيل استمرت في ممارسة سياسة تنتهك من خلالها كل الحقوق المشروعة، والمنصوص عليها دينيًا، وعالميًا، حيث قامت قوات الأمن الإسرائيلية بارتكاب أعمال عنف في الحرم القدسي الشريف، منتهكة بذلك الشرعية الدينية للقدس، مما أسفر عن مقتل ما يزيد عن ٢٠ فلسطينيًا، وإصابة ما لا يقل عن ١٥٠ شخصًا (من المصلين الأبرياء)[٣٥].

فأصدر مجلس الأمن عدة قرارات متتالية[٣٦]:

ـ القرار رقم (٦٧٢)، في ١٢/ ١٠/ ١٩٩٠م، بإدانة الاعتداءات الإسرائيلية على المدنيين داخل الحرم الشريف بالقدس.

ـ القرار رقم (٦٧٣)، في ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٠م، شجب مجلس الأمن فيه رفض الحكومة الإسرائيلية استقبال بعثة الأمين العام للأمم المتحدة، وتنفيذ القرار ٦٧٢ لسنة ١٩٩٠.

ـ القرار رقم رقم (٦٨١)، في ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٠م، شجب فيه استئناف الإسرائيليين لإبعاد المدنيين الفلسطينيين من الأراضي المحتلة.

ـ القرار رقم (٦٩٤)، في ٢٤/ ٥/ ١٩٩١م، يدين فيه مجلس الأمن إسرائيل لإبعادها المدنيين الفلسطينيين مما يمثل انتهاكًا لاتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب.

ـ القرار رقم (٧٢٦)، صدر في ١٩/ ١/ ١٩٩٢م، يدين فيه، أيضًا، إسرائيل لقيامها بإبعاد ٤١٨ فلسطينيًا إلى جنوب لبنان، منتهكة التزاماتها بالاتفاقية الدولية لعام ١٩٤٨م، وطالب المجلس من إسرائيل أن تكف عن إرسال اليهود إلى القدس، وتهجير الفلسطينيين منها، وحتى مطلع ٢٠٠١م أصدرت الأمم المتحدة ما يزيد على ١٧٦ قرارًا دوليًا[٣٧] تدين فيها الاعتداءات الإسرائيلية على الأراضي المقدسة، إلى أن صدر القرار رقم (١٨٦٠)، في ٨/ ١/ ٢٠٠٩م، يطالب إسرائيل بوقف إطلاق النار على المدنيين الفلسطينيين، بعد اندلاع الاعتداء الوحشي على غزة ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨ـ ١٩/ ١/ ٢٠٠٩.

بالإضافة لقيام منظمة «اليونسكو» بإصدار قرار أدانت فيه الممارسات الإسرائيلية ضد التراث الثقافي، والديني، والحضاري، والإسلامي، والعربي في القدس، ومحاولات إسرائيل تغيير طابع المدينة، وتهويدها[٣٨].

رغم تعدد القرارات الصادرة عن المنظمات الدولية باستنكار وإدانة الاعتداءات الإسرائيلية الوحشية ضد المدنيين الفلسطينيين، ولكن دون جدوى، خاصة مع افتقاد تلك القرارات لآليات ملزمة لتفعيل آثارها على الكيان

الإسرائيلي، ما أفضى بإسرائيل إلى الاستخفاف بقرارات المنظمات الدولية، وعدم الاكتراث بها، وهذا ما أكده رئيس وزراء إسرائيل «إسحاق شامير»، عندما علق على أحد القرارات الصادرة من مجلس الأمن، حيث قال: «إن هذا القرار لن يكون أكثر من ملف يضاف إلى أرشيف الأمم المتحدة»[٣٩].

ـ الأمم المتحدة وتدويل القدس

نظرًا لارتباط منطقة القدس بديانات عالمية ثلاث (الإسلامية، المسيحية، اليهودية)، فإن هذه المنطقة، بالإضافة إلى بلدية القدس الحالية، وجميع القرى والمراكز المجاورة، التي أبعدها شرقًا أبو ديس، وأبعدها جنوبًا بيت لحم، وغربًا عين كارم، وشمالًا شعفاط، فجميعها لا بد أن تتمتع بمعاملة خاصة، منفصلة عن باقي مناطق فلسطين الأخرى[٤٠].

فبعد أن قامت الأمم المتحدة بوضع قرار التقسيم (١٨١)، من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة، فرضت القوات الصهيونية واقعًا آخر على الفلسطينيين، نتيجة لاحتلالها حي القطمون العربي، وفرضت إسرائيل، أيضًا، تقسيمًا فعليًا ظهر في اتفاقية الهدنة الموقعة بين الأردن وإسرائيل، في ٣/ ٤/ ١٩٤٩م، وتم إعلان تدويل القدس الذي رفضته الدول العربية، لكن في نهاية الأمر وافق مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة، في اجتماعه ١٤/ ٤/ ١٩٥٠م، على مشروع تدويل القدس، وأقر في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م بأن القدس ستعامل ككيان منفصل تحت نظام دولي خاص تقوم بإدارته الأمم المتحدة، وحددت الأمم المتحدة في ميثاقها وضع القدس تحت الإدارة الدولية، ويتبين وضع القدس في مواد الميثاق بالآتي[٤١]:

ـ المادة ٤ من الميثاق:

في هذه المادة تم تحديد حدود المدينة المقدسة التي تشمل بلدية القدس، كما حددها قرار التقسيم في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م، مع القرى المجاورة، التي أقصى غربها أبو ديس، وجنوبها بيت لحم، وشرقها عين كارم، وشمالها شعفاط، ويتم تحديد حدود المدينة فوق الأرض من قبل لجنة يعينها مجلس الوصاية.

ـ المادة ٦ من الميثاق:

تحدد المادة أن سلامة منطقة القدس تكفلها الأمم المتحدة، كما أن الحاكم المعين من قبل مجلس الوصاية الدولية، وفق أحكام المادة ١٢ من الميثاق، يبلغ مجلس الوصاية عن كل وضع يتعلق بالمدينة، أو أي اعتداء تتعرض له.

ـ المادة ٧ من الميثاق:

تكون لمدينة القدس حيادية وتبقى محرمة، ولا بد أن تكون المدينة منزوعة السلاح، ولا يسمح فيها بالمنظمات العسكرية، أو شبه العسكرية، كذلك لا يسمح فيها بوجود قوى مسلحة باستثناء ما تنص عليه المادة ١٥ من الميثاق.

ـ المادة ١٢ من الميثاق:

يعين مجلس الوصاية، على مسؤوليته، حاكم المدينة.

ـ المادة ١٣ من الميثاق:

يمارس الحاكم سلطاته وفقًا للصلاحيات التي أعطتها له الأمم المتحدة في المدينة المقدسة، وعليه، فالحاكم يمارس سلطاته باسم الأمم المتحدة، وبالصفة الحالية التي يملكها، وليس بصفته الخاصة.

ـ المادة ٤٣ من الميثاق:

أن يرفع علم الأمم المتحدة على جميع المباني الرسمية، ما لم تنص مدينة القدس على غير ذلك، وعلى الحاكم، أيضًا، أن يسهل عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم، وإعادة الاعتبار إليهم اقتصاديًا، وسياسيًا، خاصة للأشخاص الذين كانوا يقيمون في المدينة المقدسة حتى ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م، مع الأخذ في الاعتبار القرارت التي أصدرتها هيئات الأمم المتحدة.

كما تحددت مدة التدويل، حسب توصية الأمم المتحدة، بالنسبة لمدينة القدس، بألا تزيد عن عشر سنوات، وبعدها تخضع خطة التدويل لإعادة تقييم من خلال مجلس الوصاية الدولية، أما عن موقف كلٍّ من إسرائيل، والأردن، من تدويل القدس، يتبين أن حكومة إسرائيل كانت تتظاهر في بداية الأمر بأنها ضد قرار التدويل، لكنها قبلت هذا القرار بعد ذلك بدون تحفظات النظام الدولي، وعلى العكس تمامًا من موقف إسرائيل، كان موقف الأردن، كانت رافضة لقبول وضع القدس تحت نظام دولي[٤٢].

منذ توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣م، حتى البدء في مفاوضات الوضع النهائي عام ١٩٩٨م، التي طرحت مشروعات، وتصورات عديدة لحل قضية القدس، وكان بعضها يتأسس على فكرة التدويل، ما جعل كل من الساسة والمفكرين يتبنون فكرة التدويل باعتبارها الحل الأنسب للمدينة المقدسة، فضلًا على أن قضية القدس كانت السبب الرئيسي في فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية التي عقدت بين الفلسطينيين والإسرائيليين، في يوليو/ تموز ٢٠٠٠م، حيث حاول الطرفان الإسرائيلي والأمريكي فرض تدويل القدس، وتقسيمها، واعتبار القدس الموحدة عاصمة أبدية للدولة الإسرائيلية، ما أدى إلى تفجر «انتفاضة الأقصى والاستقلال»، بعد ثلاثة أشهر فقط من فشل تلك المفاوضات[٤٣].

تقييم قرارات الأمم المتحدة والموقف الأمريكي

«لا تصدق أن هناك إدارة أمريكية، في المستقبل، تضغط على إسرائيل»[٤٤]. هذه العبارة تحمل في ثناياها حقيقة الموقف الأمريكي تجاه السياسة الإسرائيلية، وأكد ذلك وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس جونسون، بتصريحه بالعبارة آنفة الذكر، وفي حقيقة الأمر، نجد أن الموقف الأمريكي من إسرائيل لا يتغير إستراتيجيًا عبر الزمن، وستظل الولايات المتحدة الأمريكية هي الراعي الخفي، بل والحامي الأول لسياسة إسرائيل العدوانية، فقد كان موقف الولايات المتحدة من القدس ربما اختلف عن أية دولة أخرى في العالم؛ نتيجة لانحيازها الشديد لإسرائيل، ويؤكد هذا الانحياز تراجعها عن موقفها الرافض لتدويل القدس في بداية الأمر، حيث تراجعت عن موقفها بعد ضغط اللوبي الصهيوني، وتمسكت بوحدة المدينة تحت السيادة الإسرائيلية بموجب سياسة الأمر الواقع الذي فرضته إسرائيل، باحتلالها القسم الشرقي من القدس[٤٥].

كما تبين أيضًا، منذ قرار التقسيم الصادرعن الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٨١)، وحتى الآن، أن جميع القرارت التي اتخذتها الأمم المتحدة تتصف بعدم الجدوى، وفقدان القدرة التنفيذية، خاصة في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، وفرض سياساتها بالقوة العسكرية، حيث نلاحظ أن جميع قرارات الأمم المتحدة كانت توفر بشكل ما الحماية لإسرائيل، خاصة في ظل الفيتو الأمريكي الذي تم توظيفه لخدمة إسرائيل أكثر من «ستين مرة»[٤٦] لمنع اتخاذ أي إجراء يحد من أطماع إسرائيل داخل القدس، في مقابل حصول العرب على جزء من حقهم المشروع في فلسطين والقدس، بل وتحافظ أمريكا لإسرائيل على وضع الدولة المحمية عن طريق الإخلال بقواعد القانون الدولي، نتيجة لتحكم الولايات المتحدة في جهازي الأمم المتحدة، بل وتمتلك السيطرة عليه أيضًا، فبعد اشتداد عود الدولة الصهيونية، سواء من الناحية المادية أو المعنوية، من خلال الدول ذات النفوذ، والسيطرة العالمية (الولايات المتحدة)، ونتيجة لعدم القدرة العربية على مواجهة هذا التحالف الإستراتيجي القوي، فإن قرارات المنظمة العالمية جاءت دائمًا لتكريس الوضع القائم دون حدوث أي تغيير له[٤٧].

بل لم تستطع أن تغير من ظروف الاحتلال، ولا حتى معاملة الأفراد الخاضعين للقانون الدولي، على حد قولهم، ما ظهر بصورة جلية إبان العدوان الإسرائيلي على الدول العربية في يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، الذي نتج عنه احتلال إسرائيل لكامل مدينة القدس. فتدهور الوضع، حتى أصبح الفلسطينيون، والعرب يصارعون من أجل التمسك بمجرد حكم ذاتي للسلطة الفلسطينية، تتوقف عند حدود كل من غزة، والضفة الغربية، دون أن تشمل غيرها من أراضي فلسطين، وتكون هذه السلطة تحت مظلة السيادة الإسرائيلية[٤٨].

بعد هذا كله، يتضح لنا بأن المظلة الدولية (الأمم المتحدة)، التي تتصور القدس بأنها ستحميها من العدو الصهيوني، هي نفسها تحتاج لمن يحميها!

* * *

هوامش الفصل الثامن:

(١) **ندوة يوم القدس**، أبحاث الندوة السابعة للحقوق العربية الثابتة في القدس من ٥ ـ ٨/ ١٠/ ١٩٩٧، عمان، ١٩٩٧م (انظر: مصطفى أحمد عفيفي، الحقوق العربية في القدس رؤية تاريخية وقانونية في ضوء قرارات منظمة الأمم المتحدة، ص ٣٤٣).

(٢) عبد الناصر الفرا، **القدس في القرارات الدولية والأمم المتحدة**:

http://www.alquds-online.org/index.php?s=10&ss=4&id=670

(٣) هنري كتن، **القدس**، ترجمة: إبراهيم الراهب، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٧، ص ٣٤، ٣٥.

(٤) منى أسعد، القدس في الأمم المتحدة، **صامد الاقتصادي**، (عمان): العدد ١٠٧، كانون الثاني (يناير)، شباط (فبراير)، آذار (مارس) ١٩٩٧، الصفحات من ص ٢٩: ٤٣.

(٥) عبد التواب مصطفى، **قضية القدس/ دراسة في أبعادها التاريخية والدينية والسياسية والقانونية**، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد ١٣٩، ٢٠٠٦م، ص٩٢.

(٦) انتصار الشنطي، الولايات المتحدة الأمريكية وقضية القدس، **صامد الاقتصادي**، (عمان): العدد ١٠٧، كانون الثاني (يناير)، شباط (فبراير)، آذار (مارس)، ١٩٩٧، ص ١٦٨: ١٩٥.

(٧) **المرجع نفسه**.

(٨) كتن، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٠.

ولمزيد من التفصيل انظر: أسعد، **مرجع سبق ذكره**.

(٩) إياد محمد جابر، **قرارات دولية بشأن القدس**:

http://www.angelfire.com/biz/kha98/alqwds/voit.htm

(١٠) أسعد، مرجع سبق ذكره.

(١١) ندوة يوم القدس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٦.

(١٢) الفرا، **مرجع سبق ذكره**.

(١٣) **المرجع نفسه**.

(١٤) كتن، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

(١٥) مفيد شهاب، دراسة حول **القانون الدولي وقضية القدس**، مخطوط، القاهرة، د.ت، ص ٨، ٩.

(١٦) أسعد، مرجع سبق ذكره.

(١٧) ندوة يوم القدس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٧، ٣٤٨.

(١٨) مصطفى، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٢.

ولمزيد من التفصيل انظر الموقع الإليكتروني:

http://palestine-info.info/arabic/books/beet_maqdes/maqdes127.htm.

(١٩) **موسوعة ويكيبيديا**:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%

(٢٠) كتن، مرجع سبق ذكره، ص٣٦.

(٢١) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٢٢) عبد القادر ياسين، كيف قوّضت إسرائيل مشروع تدويل القدس، **صامد الاقتصادي**، (عمان): العدد ١٠٧، كانون الثاني (يناير)، شباط (فبراير)، آذار (مارس)، ١٩٩٧، ص ١٣٤ : ١٤٩.

(٢٣) جابر، مرجع سبق ذكره.

(٢٤) ياسين، مرجع سبق ذكره.

(٢٥) ويكيبيديا، مرجع سبق ذكره.

(٢٦) مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص٩٦.

(٢٧) الفرا، مرجع سبق ذكره.

(٢٨) جابر، مرجع سبق ذكره.

(٢٩) الفرا، مرجع سبق ذكره.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) شهاب، مرجع سبق ذكره، ص١٠،

ولمزيد من التفصيل انظر: قرارات الأمم المتحدة:

http: / /www.bahethcenter.net /A.W /oldsite /malafat /UN /index.htm

(٣٢) أسعد، مرجع سبق ذكره.

(٣٣) المرجع نفسه.

(٣٤) الفرا، مرجع سبق ذكره.

(٣٥) ويكيبيديا، مرجع سبق ذكره.

(٣٦) المرجع نفسه.

(٣٧) رائد فوزي داود، **فكرة التدويل في القانون الدولي وتطبيقاتها في ضوء قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بمدينة القدس**، ترجمة مي زكري:
http: / /www.siironline.org /alabwab /motamarat /011.html

(٣٨) قرارات الأمم المتحدة:

http: / /www.rcja.org.jo /international2.htm

(٣٩) أسعد، مرجع سبق ذكره.

(٤٠) قرارات الأمم المتحدة:

http: / /www.badil.org /Arabic_Web /Documents /Durable_Solutions /GA /GA_Res194_.htm.

(٤١) جابر، مرجع سبق ذكره.

(٤٢) المرجع نفسه.

(٤٣) كتن، مرجع سبق ذكره، ص ٥١، ٥٣.

(٤٤) مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

(٤٥) الشنطي، مرجع سبق ذكره.

(٤٦) أسعد، مرجع سبق ذكره.

(٤٧) ندوة يوم القدس، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٥.

(٤٨) المرجع نفسه، ص٣٥٠.

obeikan.com

الباب الثامن

الكفاح



obeikan.com

الفصل الأول

القدس وثقافة مقاومة عبر التاريخ

عصام الغريب محمد

تعتبر مدينة القدس من أشهر المدن، ليس على المستوى العربي فحسب، بل على المستوى الكوني أيضًا؛ وذلك لاعتبارات عديدة، فعلى المستوى القطري تعتبر أهم مدن فلسطين، قاطبة، وقد حباها الله بموقعها الإستراتيجي المحصن ـ فمن يملك القدس، يملك فلسطين ـ هذا الموقع المقاوم، والمحصَّن، بطبيعته، والذي ترك أثره، حتى على أهلها، الذين جبلوا على ثقافة المقاومة، منذ فجر تاريخ إنشائها، وحتى وقتنا المعاصر، فمدينة القدس واجهت الكثير من التحديات منذ العصور القديمة، ونشأة الحضارات، والتي اعتُبر مدينة القدس ذات بعد إستراتيجي وجغرافي مهم لها، وحتى الفتح الإسلامي للمدينة، ومواجهة الغزو الصليبي، ثم قدوم العثمانيين إليها، وأخيرًا مواجهتها لخطر المطامع الصهيونية، والانتداب البريطاني، والذي انتهى بقيام الكيان الصهيوني، وخلال هذه الفترة العصيبة، لعبت القدس الدور الرئيسي في المقاومة، والذي، دائمًا، ما كانت تبدأ عندها شرارة أي مظاهرة، أو حركة مقاومة، على اختلاف صورها، ولن نكون مبالغين إذا ما قلنا إن القدس كانت المحرك الرئيسي لبث ثقافة المقاومة في أنحاء العروبة، بل لفت أنظار العالم العربي، والإسلامي لما تتعرض له فلسطين، ككل، من مخاطر. وكما يقول المفكر الكبير، المستشار طارق البشري: «ليست القدس مدينة في وطن، هو فلسطين، ولكن فلسطين، وطن في مدينة، هي القدس.. القدس لا يمكن أن تستحيل إلى أنها محض موقع، وعاصمة، فهي ليست برلين، يمكن أن تحل محلها بون في الضمير الألماني، وهي ليست إستانبول يمكن أن تحل محلها أنقرة في الضمير التركي، ولكنها القدس، بغير بديل».

جغرافية المدينة ونشأتها

سكن القدس اليبوسيون ـ أقدم سكانها ـ وأطلق عليها يبوس، نسبة إلى اليبوس، أحد أولاد كنعان، ويرجع

تاريخ وجودهم في المدينة المقدسة إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. واليبوسيون بطن من بطون العرب الأوائل، نشأوا في الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع القبائل الكنعانية، ومن ملوكهم مِلكي صادق، وكان أول من خطط لبناء مدينة يبوس (القدس)، ثم قام بتحصينها. واختيار اليبوسيين هذا الموقع (القدس) اختيارًا موفقًا، فهو موقع استراتيجي منيع، حصين، طبيعيًّا، لا يغري أحدًا بالذهاب إليه، أو الإغارة عليه، فهو على ربوة مثلثة الشكل (أي تل مرتفع)، يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ـ ٢٤٦٩ قدمًا، ويحيط بهذه الهضبة الربوة من جميع أطرافها أودية عميقة، وادي قدرون في الشرق، ووادي هنَّم في الغرب، ويلتقي الواديان عند الطرف الجنوبي، تاركين الجهة الشمالية بغير حماية طبيعية[١].

لكن هذه النواة تغيرت مع الزمن، وحلَّت محلها نواة رئيسية، تقوم على تلال أخرى، مثل مرتفع بيت الزيتون (بزيتا) في الشمال الشرقي للمدينة، بين باب الساهرة، وباب حطة، ومرتفع ساحة الحرم (مدريا) في الشرق، ومرتفع صهيون في الجنوب الغربي، وهي المرتفعات التي تقع داخل السور، فيما يعرف اليوم بالقدس القديمة، وتمتد القدس، الآن، بين كتلتي جبال نابلس في الشمال وجبال الخليل في الجنوب، وتقع إلى الشرق من البحر المتوسط، وتبعد عنه ٥٢كم، وتبعد عن البحر الميت ٢٢كم، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٧٧٥م، ونحو ١١٥٠م عن سطح البحر الميت، وهذا الموقع الجغرافي، والمكانة المقدسة للمدينة أسهما في جعل القدس المدينة المركزية في فلسطين[٢].

كانت القدس، لمكانتها، موضع أطماع الغزاة، فقد تناوب على غزوها وحكمها في «العهد القديم» العبرانيون، والفارسيون، والسلوقيون، والرومانيون، ثم الصليبيون، والعثمانيون، في العصور الوسطى، أما في العهد الحديث، فكان البريطانيون، كلهم رحلوا، وبقيت القدس صامدة في وجه الغزاة، وسيأتي الدور ليرحل الصهاينة، وتبقى القدس مشرقة بوجهها العربي.

القدس في العصور القديمة

خضعت يبوس (القدس) لفراعنة مصر في عهد تحتمس الثالث (١٤٧٩ ق.م)، وأقام عليها حاكمًا من مصر، وكانت القدس في عهد إخناتون (١٣٧٥ ق.م) من ممتلكات مصر المهمة، وكان قصد مصر في احتلالها حماية طريق التجارة. وكانت القدس على عهدهم مليئة بالغابات الكثيفة، التي كان المصريون يأخذون منها الأخشاب، والحطب اللازم لصناعاتهم[٣].

وقد احتدم الصراع حول مدينة القدس منذ القدم لأسباب متعددة: دينية، وسياسية، وتاريخية، وإثنية، وقد ابتدأت أولى مراحل الصراع عندما دخل يوشع بن نون إلى فلسطين، يقود أتباع موسى، واستمر صراعهم مع اليبوسيين، والكنعانيين، ١٤٠ عامًا، إلى أن تمكن النبي داود من السيطرة عليها، وإقامة مملكته فيها عام ١٠٤٦ ق.م، واستمرت مملكة داود، وابنه سليمان، قرابة السبعين عامًا[٤].

وبعد موت سليمان (٩٧٥ ق.م) تولى ابنه رحبعام، واقتتل مع أخيه يربعام، فانقسمت المملكة إلى شطرين، يهوذا، وعاصمتها أورشليم، وإسرائيل، وعاصمتها شكيم (نابلس)، وظلت أورشليم أربعة قرون يحكمها اليهود، فلم تسلم خلال هذه الفترة من ثورة، أو مؤامرة، أو قتال، أو شغب، ثم غزاها الآشوريون على أيدي سرجون، ملك

آشور، الذي أجرى أعمال التخريب والدمار في القدس، ثم تبعهم البابليون، حيث غزاها نبوخذ نصر، وسبى من فيها، وأرسلهم إلى بابل، ودمر الهيكل[٥].

وفي سنة ٥٣٨ ق. م، دخلت المدينة تحت سيادة الفرس، في عهد ملكهم كورش، والذي سمح لليهود بالعودة إلى أورشليم، وتجديد الهيكل، ثم دخلت المدينة، بعد ذلك، تحت السيادة اليونانية، عندما استطاع الإسكندر الأكبر احتلال المدينة، ودخلها دون سفك دماء، واستقبله سكانها بالرضا والارتياح، وبعد موت الإسكندر، وانقسام مملكته، دخلت القدس تحت سيطرة السلوقيين، وكثيرًا ما كانت تقوم الثورات في المدينة ضد ظلم المحتلين، وفرض الضرائب الباهظة، حتى نجح الرومان في احتلال المدينة، وأصبحت القدس تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية، وقد أصاب اليهود كثيرٌ من الذل والهوان على أيدي الرومان، خاصة على عهد تيطس، والقائد الروماني بومبي، واستمرت المدينة تحت حكم الدولة البيزنطية، بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين، حتى الفتح الإسلامي لها[٦].

القدس في العصر الإسلامي

دب الضعف في مملكة هرقل الروم، فلم يستطع مقاومة المسلمين الذي جاءوا ففتحوا البلاد منه، وفتح المسلمون المدينة، في السنة الخامسة عشرة للهجرة، ٦٣٦م، وبدأت المدينة صفحة جديدة لا مثيل لها، وهكذا دخلت القدس كسائر مدن بلاد الشام في نطاق الخلافة الإسلامية الرشيدة، ثم الدولة الأموية، التي بني في عهدها المسجدان: الصخرة والأقصى، وهما من أعظم آثار بني أمية في فلسطين، ثم جاءت الدولة العباسية[٧].

استمرت القدس تحت حكم الدولة العباسية حتى سنة ٨٣٣م، وفي مدة خلافتها تمتعت المدينة باستقرار كبير، حتى أن سفراء الدول كانوا يأتون إليها من مختلف أنحاء العالم، ويوزعون الإحسان على المحتاجين، وينعمون فيها بالراحة. وفي سنة ٨٣٣م، دخلت المدينة تحت حكم بني طولون حكام مصر من طرف الدولة العباسية، وبقيت تحت حكمهم إلى سنة ٩٠٥، حيث قامت مكانها الدولة الفاطمية، فدخلت القدس تحت حكمها، وفي مدة حكم هذه الدولة أتت الجيوش الصليبية، وحاصرت القدس، حيث غشيتها الحملات الصليبية من ١٠٦٩ـ ١٢٩١م[٨].

بعد احتلال الصليبيين القدس، في حرب خاضوها ظلمًا تحت اسم الصليب، وأعطوها رموزًا دينية زائفة، تعطل دور القدس الشريف الإيماني والإنساني، إلا أنه، منذ ذلك الوقت، بدأت حركة المقاومة لاسترداد المدينة، وإعادتها مرة أخرى للسيطرة العربية الإسلامية، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي محررًا للمدينة في سنة ١١٨٧م، بعد نجاحه في هزيمة الصليبيين في موقعة حطين[٩].

لعبت القدس، بعد قليل، دورًا كبيرًا في مقاومة الخطر المغولي، وكأن القدر قد كتب على هذه المدينة أن تلعب ذلك الدور المقاوِم، عبر التاريخ، حتى تزداد مكانتها رسوخًا داخل وجدان كل عربي، ومسلم، حيث أسهمت المدينة، وأهلها، في دفع هذا الخطر عن العالم الإسلامي، في موقعة عين جالوت (١٢٦٠م)، ثم استقرت المدينة بعد ذلك في أيدي سلاطين المماليك، حتى قدوم العثمانيين إليها.

القدس تحت الحكم العثماني

نجح العثمانيون في دخول القدس سنة ١٥١٦م، حيث ظلت في إطار الدولة العثمانية، لمدة أربعة قرون متصلة،

حتى صبيحة يوم ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧م، حين دخلها البريطانيون، إبان الحرب العالمية الأولى، بقواتهم العسكرية، تحت قيادة اللنبي.

خضعت القدس ـ كسائر المدن والولايات ـ للتنظيمات الإدارية والقوانين العثمانية، إلا أنه لم يخل وقت إلا وكان أهل القدس يقاومون، ويثورون كلما أحسوا، أو تعرضوا للظلم، والاضطهاد من جانب الدولة العثمانية ذاتها، وولاتها عليها.

فعلى سبيل المثال، في عام ١٧٠٢م، قام شعب القدس بثورة ضد الضرائب القاسية التى فرضها جورجى محمد باشا حاكم المدينة، وقادهم محمد بن مصطفى الحسيني في هجوم على القلعة، وقام الثوار بالإفراج عن جميع السجناء، وأجبروا الباشا على الفرار، وأصبح الحسيني حاكمًا بدلًا منه، ولم يستطع الأتراك السيطرة على المدينة مرة أخرى إلا بعد عامين، وفي النهاية هاجم جورجي محمد، وكان قد أصبح والي دمشق، القدس، بواسطة ألفين من الإنكشارية، ولم يتمكن الأتراك من احتلال القدس بسهولة، فقد حدثت معارك ضارية يائسة، استمرت عدة ساعات، وبشكل متزايد أصبح الولاة الأتراك قليلي الحيلة، ولم يكن بإمكانهم حتى جباية الضرائب من الأهالي المتمردين، فكان على والي دمشق الحضور كل عام، ومعه جنده، لإجبار الناس على دفع الضرائب، ورغم ذلك لم يكن النجاح حليفهم دائمًا[١٠].

نتيجة لضعف الولاة، قامت العائلات المقدسية الأساسية بملء الفراغ، وبشكل متزايد، أخذت عائلات الحسيني، والخالدي، وأبو اللطيف، تشارك في شؤون إدارة المدينة، وكان هؤلاء غالبًا حلقة الاتصال بين الأهالي، والقوة الحاكمة، وذلك لحرصهم، منذ ثورة ١٧٠٣م، على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع ذوي النفوذ في دمشق، وإستانبول، وكمكافأة لهم، منحتهم السلطات الحاكمة ملكية مساحات كبيرة من الأراضي، ومناصب مهمة.

وخلال القرن الثامن عشر، كان منصب المفتي يشغله أفراد من عائلة أبي اللطيف، بينما كان يشغل منصب رئاسة المحكمة الشرعية أفراد من عائلة الحسيني، كما احتل أفراد من عائلة الخالدي، لأجيال عديدة، مناصب نواب القاضي، ورؤساء المكتبة في المحكمة الشرعية، وحظي موسى الخالدي ١٧٦٧م ـ ١٨٣٢م، وهو عالم شريعة إسلامية مرموق، باحترام كبير في إستانبول وأصبح قاضي الأناضول، وكان ذلك أحد أعلى ثلاثة مراكز قضائية في الإمبراطورية العثمانية[١١].

مع بداية القرن التاسع عشر، الذي بدأ بداية سيئة في القدس، حيث كانت المدينة تعاني من الفقر والتوتر، والنظام العثماني ما تزال تسوده الفوضى، بحيث كان الناس يعانون من سوء الحكم، وأصبح والي صيدا، هو حاكم القدس الفعلي، خلال السنوات الأولى، من القرن التاسع عشر، رغم أنها كانت رسميًّا تتبع متصرفية دمشق، وذلك على الرغم من أن المدينة كانت خارجة، للتو، من نجاح كبير، بتصديها للحملة النابليونية على الشام، حيث ادعى نابليون في خطاب وجهه من رام الله، إلى اليهود، والمسيحيين، والمسلمين، كي يتخلصوا من أسر العثمانيين، ويقبلوا حرية الثورة الفرنسية، غير أن الأهالي لم يؤثر فيهم «وعد الحرية»، إذ كانوا يعلمون بأن المعنى الحقيقي لها هو الخضوع لتلك القوة الغربية، ومن ثم ساد الذعر، والغضب في القدس، فهاجم المسلمون كنيسة المخلص، وأخذوا بعضًا من الفرنسيسكان عملاء الفرنسيين رهائن، غير أن السلطان العثماني أصر على توفير الحماية لكنائسهم، وممتلكاتهم، طالما

كانوا يدفعون الجزية، في حين وجه الشيخ موسى الخالدي، قاضي الأناضول المقدسي المولد، نداءه إلى أهل فلسطين، مطالبًا إياهم بالدفاع عن بلدهم في مواجهة الفرنسيين، وتم تجنيد كل شبان القدس العرب، ذوي المقدرة الجسمانية في جيش العثمانيين، بواسطة والي دمشق، وأصاب الطاعون جيش نابليون، غير أنه استمر في مسيرته نحو عكا، حيث تم صده على النحو المعروف[١٢].

مع تولي محمد علي حكم مصر، في سنة ١٨٠٥م، وفي إطار سعيه لتأسيس مشروعه التحديثي الوطني النهضوي لمصر، على حساب الدولة العثمانية الضعيفة، في مصر والشام، أعلن تمرده على سلطة الباب العالي في إستانبول، في عهد السلطان محمود الثاني، وأرسل ولده إبراهيم باشا قائدًا على رأس الجيش المصري لقتال قوات السلطان محمود الثاني في بر الشام، فاحتل إبراهيم باشا القدس (١٨٣١م)، وسائر أعمال فلسطين، كما احتل سوريا، حتى وصل إلى كوتاهيه بالأناضول، وتم الصلح، في ٢٥ أبريل/ نيسان سنة ١٨٣١م، واتفق الطرفان على أن تكون البلاد الواقعة بين أضنة وغزة ولاية تابعة للحكم المصري، وهكذا دخلت القدس ضمن النطاق السياسي للدولة المصرية إبان حكم محمد علي باشا، ولم يمض على الحكم المصري بضعة أشهر حتى قامت ثورة في فلسطين، كان مركزها القدس تحت الحكم المصري، ويرجع البعض أسباب الثورة إلى أسباب مختلفة، سواءً النظر إلى الجيش المصري بأنه محتل! أو للإجراءات الصارمة التي تمت بجمع السلاح من الأهالي، وفرض التجنيد، واستمرت ثورة أهل القدس ضد الحكم المصري طوال السنوات العشر التالية، تعلو حينًا، وتخبو أحيانًا، حتى انسحب الجيش المصري من القدس بعد تدهور الأوضاع[١٣].

لكن من الملاحظ أنه بعد خروج القدس من نطاق الحكم المصري نشط اليهود من أجل كسب امتيازات جديدة في القدس، على وجه الخصوص، وبدأ الصهيونيون في معاودة تحقيق أهدافهم في المدينة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن القوانين العثمانية كانت تنص، بصراحة ووضوح، على منع بيع الأراضي، والعقارات في القدس، وضواحيها لليهود؛ ولذا فقد مارست بريطانيا ضغطا شديدًا على الدولة العثمانية لتعديل تلك القوانين بحيث تصبح القدس مفتوحة لليهود، يحق لهم استملاك الأراضي، والعقارات فيها.

نتيجة لتدخل بريطانيا تمكن موسى مونتيفيوري، في عام ١٨٥٥م، من الحصول على فرمان من السلطان عبد المجيد، تسنى له بموجبه شراء أول قطعة أرض في القدس، خارج سور المدينة القديمة، وبدلًا من أن يقيم عليها مستشفى كما ورد في الفرمان، أقام عليها أول حي سكني يهودي، عرف فيما بعد باسمه «حي مونتيفيوري»[١٤].

مع ازدياد ضعف الدولة العثمانية، في نهايات القرن التاسع عشر، ونمو النشاط الصهيوني، بدأت فلسطين، ومدينة القدس على وجه الخصوص، تعاني من الخطر الصهيوني، حيث تراخت قبضة الدولة على زمام الأمور، مما أدى إلى سعي اليهود إلى تهويد مدينة القدس، وتركزت هجراتهم إليها، لاعتقادهم بأهميتها الدينية بالنسبة لهم، فعقب المذابح الروسية لليهود، عامي ١٨٨١م ـ ١٨٨٢م، هاجر عدد من اليهود إلى فلسطين، واستقروا بصفة خاصة في طبرية، والقدس، وصفد[١٥].

نتيجة لذلك بدأ يسود شعورٌ بالاستياء بين أهالي القدس، العرب، من الوجود التركي، كما سيطر عليهم شعور بتهديد المستوطنين الصهاينة لهم، وفي عام ١٨٩١م، أرسل عدد من أهل القدس المرموقين التماسًا إلى إستانبول، طلبوا فيه من الحكومة العثمانية منع أي هجرة إضافية لليهود، وأيضًا منع بيع الأراضي للصهاينة[١٦].

والحقيقة أن هذه الالتماسات، والاعتراضات من جانب أهل القدس لم تكن تلقى الاهتمام الكافي من السلطات العثمانية، غير أننا لا يمكن أن نغفل، في الوقت نفسه، الدور الواضح الذي قام به السلطان العثماني عبد الحميد الثاني في مواجهته للحركة الصهيونية، وإغراءات زعمائها، خاصة هرتسل، من أجل جعل فلسطين، وطنًا قوميًّا لليهود، حتى نجحت حركة «تركيا الفتاة» في انقلابها ضد السلطان عبد الحميد الثاني، في سنة ١٩٠٨م، ما جعل الصهيونيون يعاودون نشاطهم بصورة مكثفة، وعانت مدينة القدس من هذا النشاط، أكثر مما عانت منه أي مدينة فلسطينية أخرى، حتى بدأت الحرب العالمية الأولى، وخرجت فلسطين من تحت السيطرة العثمانية، بدخول الجنرال اللنبي مدينة القدس في ٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧م، لتبدأ مدينة القدس طورًا جديدًا في طريق المقاومة، مقاومة طمس هويتها من قبل الصهاينة، ومقاومة الاستعمار البريطاني.

القدس ومقاومتها للخطر الصهيوني تحت الانتداب البريطاني

قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين، عام ١٩١٧م، لم تكن هناك سوى قدس واحدة، هي تلك التي تحيط بها أسوار سليمان القانوني، التي بناها السلطان الكبير، في منتصف القرن العاشر الهجري، إضافة إلى مجموعة من الأحياء، أقامها العثمانيون خارج سور القدس في الشمال، والشرق، والجنوب، مثل حي الشيخ جرَّاح في الشرق، وحي المسعودية في الشمال. وفي أثناء الاحتلال البريطاني، تلاعب المندوبون الساميون بالحدود البلدية للمدينة، فركز رسمهم لحدود بلدية القدس على التوسع جهة الغرب عدة كيلو مترات، حيث الكثافة السكانية لليهود أعلى، أما في الجنوب والشرق، حيث الأهالي العرب، فلم يتجاوز الامتداد بضع مئات من الأمتار، فمنعت قرى عربية كبيرة من الدخول ضمن الحدود البلدية للقدس، وهي قرى الطور، ودير ياسين، وسلوان، والعيسوية، والمالحة، وبيت صفافا، وشعفاط، ولفتا، وعين كارم، هنا ظهرت القدس كمدن عدة، لا كمدينة مسلمة واحدة، كما هو المعتاد.

على أي حال، فإن القدس، بقديمها، وجديدها، شرقها وغربها، مدينة عربية إسلامية. فاليهود، حينما وسعوها، لم يأتوا بأرضٍ من عندهم، وإنما اقتطعوا التوسع من مناطق أخرى في فلسطين المحتلة[١٧].

مع اتضاح حقيقة الموقف، وخاصة بعد تأكد الحركة الوطنية الفلسطينية من حقيقة «وعد بلفور»، وما يخطط له الصهيونيون، من جعل فلسطين «وطن قومي» لهم، يكون لمدينة القدس وضع خاص في هذا المخطط، جاء أول مؤتمر وطني فلسطيني في القدس في مارس/ آذار ١٩١٩م، عقده زعماء الحركة الوطنية، لتكون القدس هي المحطة الأولى التي تبدأ من عندها حركة المقاومة، وإن أخذت في ذلك الوقت الشكل السياسي وطابع المظاهرات.

مع بداية إقرار «صك الانتداب» في سنة ١٩٢٢م، لم تفد المحاولات الصهيونية، بالاشتراك مع حكومة الانتداب، في أن تفقد القدس، وفلسطين طابعهما العربي، فنحن إذا أخذنا السنوات الخمس الأولى من عهد الانتداب برئاسة المندوب السامي البريطاني الأول، السير هربرت صموئيل، وهو يهودي، ومن أقطاب الحركة الصهيونية، على سبيل المثال، نجد أن فلسطين قد دخلها، في تلك الحقبة القصيرة، ٥٠,٠٠٠ يهودي، اختار معظمهم الإقامة في منطقة القدس، كذلك لجأت الإدارة البريطانية إلى كافة وسائل العنف والعسف، وإجراءات الضغط الاقتصادية، حتى قيض لليهود زيادة ممتلكاتهم في فلسطين بحوالي ٧٪ من مجموع أراضيها، معظمها في منطقة القدس، ومنذئذٍ استمرت السياسة البريطانية الرسمية زحفها لتهويد فلسطين، وإعطاء منطقة القدس طابعًا غير عربي، ومع ذلك فلم

تنجح هذه السياسة البريطانية الرسمية في تجميد حركة المقاومة العربية، التي اتخذت مركزها الرئيسي في القدس، كما فشلت في أن تفرض حلًا للمشكلة الفلسطينية، التي استشرت، خلال ثلاثين عامًا من الإدارة البريطانية[١٨].

لعبت القدس دورًا مؤثرًا في المقاومة، وإيقاظ الحركة الوطنية من سباتها، في سنة ١٩٢٨م، عندما هُددت الأماكن الإسلامية المقدسة من قبل اليهود، بادعاء ملكيتهم لحائط البراق، وزادت وتيرة الصدام بين اليهود والعرب في القدس صيف ١٩٢٩م، ومن أجل استثمار هذه الأحداث في لفت نظر العالم الإسلامي والعربي، لما تتعرض له فلسطين عامة، والقدس على وجه الخصوص، دعا الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، إلى عقد مؤتمر إسلامي بالقدس، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣١م، حيث وفد إلى هذا المؤتمر زعماء ووجهاء العالم الإسلامي من مختلف الأقطار[١٩].

كان الحاج أمين الحسيني قد عين مفتيًا للقدس من قبل هربرت صموئيل، وكان قد قام بدور في أعمال الثورة عام ١٩٢٠م، وربما هدف إلى تحييد الحسيني بوضعه شريكًا معه في الحكم، وفي العام التالي، تم تعيين الحسيني رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى، وكانت تلك هيئة جديدة لرعاية جميع المؤسسات الإسلامية في فلسطين، وبدأ برنامجًا للبناء والتجديد للمسجد الأقصى، موَّله عن طريق حملة دعائية واسعة المدى[٢٠].

مع استمرار تدهور الأوضاع، واندلاع المظاهرات، بصورة مستمرة، خاصة في مدينة القدس، حتى توفي في إحداها موسى كاظم الحسيني، زعيم الحركة الوطنية، في مارس/ آذار ١٩٣٤م، بالإضافة إلى حركة عز الدين القسام المسلحة في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٥، والتي كان لها صدى كبير بين الفلسطينيين، بدأ الفلسطينيون يدركون حقيقة المؤامرة الاستعمارية، التي تقودها بريطانيا، بالتعاون مع الصهيونيين، فكان إضراب الشعب الفلسطيني في أبريل/ نيسان ١٩٣٦م.

نتيجة للضغط الشعبي المتواصل، اجتمع قادة الأحزاب العربية في القدس (٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٣٦م)، وقرروا تشكيل «اللجنة العربية العليا»، للإشراف على الحركات الوطنية، واتخذت اللجنة قرارًا بالاستمرار في الإضراب العام، إلى أن تبدل الحكومة البريطانية من سياستها، تبديلًا أساسيًا، تظهر بوادره في وقف الهجرة، منع انتقال الأراضي العربية لليهود، وتشكيل حكومة وطنية، تكون مسؤولة أمام مجلس نيابي، ورحب الشعب العربي في فلسطين بتكوين اللجنة، وعمت المظاهرات المدن الكبرى، وشمل الإضراب جميع مرافق الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، فأغلقت المخازن، والمقاهي، والملاهي.

سرعان ما تحول الإضراب إلى ثورة شعبية مسلحة في سائر أنحاء فلسطين، وخاصة طولكرم، ونابلس، ويافا، وحيفا، وجنين، وقام الثوار بالضغط على بعض القرى التي لم تقدم للثورة ما تحتاجه من المال، والرجال، كما عمت الثورة والتمرد أنحاء القدس[٢١].

تدخل ملوك وأمراء العرب، بضغط من الاستعمار، من أجل تهدئة الثورة، حيث تقرر تشكيل «لجنة بيل» الملكية البريطانية، لإيجاد حل للوضع في فلسطين! ورغم ذلك فلم تكن الأحوال هادئة خلال النصف الأول من عام ١٩٣٧، بل كانت مضطربة، إلى حد ما، في القدس فقد أخذت شكل اعتداءات فردية، أو اعتداءات محدودة متبادلة، بين العرب واليهود، فقد شهدت القدس خلال شهر مارس/ آذار من عام ١٩٣٧م انفجارين خطيرين، كما وقعت خلال تلك الفترة أحداث فردية من العرب ضد البريطانيين، مثل محاولة اغتيال مدير الأمن العام البريطاني[٢٢].

مع اندلاع العنف، حاول البريطانيون إيجاد حل للقضية الفلسطينية، فأوصت «لجنة بيل» في صيف عام ١٩٣٧م بتقسيم البلاد، وبإنشاء دولة يهودية في الجليل والسهل الساحلي، بينما تبقى بقية الأراضي بما فيها النقب ملكًا للعرب. كما قرر أعضاء اللجنة أن تشكل بلدية القدس كيانًا منفصلًا، يخضع للسلطة الدائمة للانتداب البريطاني، ومنذ ذلك الحين، اهتمت كل الخطط التي فكر فيها المجتمع الدولي لحل مشكلة فلسطين بإبقاء القدس خارج نطاق الصراع، للتأكد من بقاء الأماكن المقدسة، التي هي وديعة حضارية مقدسة، وفقًا لتعبير أعضاء اللجنة، في متناول الجميع. وبعد جدل كثير، قدم الصهاينة خطتهم الخاصة للتقسيم، واقترحت الخطة الصهيونية تقسيم القدس، بحيث يستأثر اليهود بضواحي غرب القدس الجديدة، بينما تبقى القدس الشرقية، والبلدة القديمة تحت سلطة الانتداب البريطاني[٢٣].

رفض العرب خطة التقسيم، واندلعت الثورة مرة أخرى، وتمكن العرب من الإمساك بزمام الأمور في المدينة لفترة وجيزة عام ١٩٣٨م، وخلال تلك الأزمة، استمرت القيادة الصهيونية في الحث على سياسة ضبط النفس، إلا أن العصابات الصهيونية المسلحة قامت بهجمات بالمتفجرات، وأخرى إرهابية، قتل أثناءها ثمانية وأربعون عربيًا، وخلال الثورة فقدت القدس مكانتها، كمركز قائد لمقاومة الصهيونية، فقد تم خروج المفتي، ونفي أعضاء «اللجنة العربية العليا»، بواسطة السلطات البريطانية، إلى خارج فلسطين[٢٤].

حاولت بريطانيا تهدئة الأمور، مرة أخرى، بإرسال «لجنة وودهيد» الفنية، للبحث في إمكانية تنفيذ حل التقسيم، وفور وصول اللجنة إلى القدس، في ٢٧/ ٤/ ١٩٣٨م، نشرت بلاغًا، أعلنت فيه «أن الأشخاص الذين يؤدون الحضور أمامنا، يملكون مطلق الحرية في أداء شهادتهم، بصورة علنية، أو سرية»، وعقدت اللجنة، في مدينة القدس، خمسًا وخمسين جلسة، لسماع الشهادات التي كانت جميعها سرية، باستثناء جلستين كانتا علنيتين، ولم يتقدم أي شاهد عربي لتأدية الشهادة أمام هذه اللجنة[٢٥].

سارت الأمور هادئة في مدينة القدس في فترة الحرب العالمية الثانية، ومع انتهائها، ونشأة «جامعة الدول العربية»، بدأت القضية الفلسطينية تدخل في أخطر مراحلها، وبدا أن أي تسوية سوف تتم، سيكون التدويل هو مصير القدس في هذه الفترة التاريخية.

لقد نشأت قضية تدويل مدينة القدس نتيجة للاعتبارات الضرورية التي أوحت بوجوب حمايتها من الاعتداء، وحفظ المؤسسات الدينية فيها من أن تكون مركزًا، أو تصبح هدفًا للأعمال العسكرية في النزاع بين العرب والصهيونية، وأن لا يؤدي تغيير الأوضاع بالنسبة لما كانت تسير إليه القضية الفلسطينية نحو التقسيم إلى تغيير في النظرة الإنسانية العامة، والروح العالمية الصحيحة التي نظر بها العالم إلى هذه المدينة المقدسة، وهي نفس الحالة التي درجت عليها القدس تحت الحماية العربية أحقابًا طويلة، فلا يؤدي الأمر إلى فرض سيادة إسرائيلية عليها تعبث بمقدسات، ومصالح العالمين الإسلامي والمسيحي.

كانت هذه هي الاعتبارات التي أوحت بالتدويل كحل لقضية القدس، وهي التي ربطت بين موضوع التدويل، وإنشاء نظام خاص به، وبين تقسيم فلسطين، في صلب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الصادر في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧م.

لقد عين قرار التقسيم حدود منطقة القدس المدولة هذه كالآتي:

١ـ بلدية القدس، وهي تشمل مدينة القدس بكاملها، وما فيها من الأحياء القديمة، والحديثة، عربية، ويهودية.

٢ـ القرى والمدن المحيطة بمدينة القدس، والتي تشكل معها منطقة واحدة، حددت بخريطة شملت: أبو ديس، والعزيرية، وعينطور، والعيسوية، وسلوان، وسور باهر، وأم شوبة، والشنعات، ولفتا، وموتسا، ودير ياسين، وعين كارم، والمليحة، وشرافات، وبيت صفافا، ورامات راحيل، وبيت لحم، وبيت ساحور، وبيت جالا. ولما كان الوضع الاقتصادي لهذه المنطقة المدوَّلة لا يسمح لها بالاستقلال بمواردها عن المنطقتين العربية واليهودية المجاورتين لها، فقد قضى القرار بربط هذه المناطق الثلاث في اتحاد اقتصادي واضح[٢٦].

قبل رحيل البريطانيين عن فلسطين في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٨م، هاجمت عصابات «الأرغون» يافا، وتسبب الرعب نتيجة مذبحة دير ياسين في هروب أهالي يافا جميعًا، وكانوا سبعين ألفًا، وهذه هي بداية نزوح الفلسطينيين من مواطنهم، وبحث بعض اللاجئين عن ملاذ في القدس، وفي ٢٦ أبريل/ نيسان بدأت الهاجاناه الهجوم على ضواحي الطبقة الوسطى المتسعة من القدس الغربية، وسارت عربات في شوارع المدينة، مرددة الإنذار التالي، بمكبرات الصوت: «ستلقون مصير أهل دير ياسين، إن أنتم لم تغادروا منازلكم»، وأخيرا أجبر الأهالي على ترك منازلهم، آخر مايو/ آيار، فلجأ الكثيرون منهم إلى المدينة القديمة، ووصل ممثلو الأمم المتحدة إلى القدس في أوائل مايو/ آيار لإقامة إدارة دولية للمدينة، غير أنه تم تجاهلهم من قبل البريطانيين، والأطراف المتحاربة، وفي ١٤ مايو/ آيار أقام بن جوريون احتفالًا في متحف تل أبيب لإعلان قيام دولة إسرائيل، وحين مغادرة القوات البريطانية النهائية، في اليوم التالي، كانت القوات اليهودية في وضع استعداد للهجوم على المدينة القديمة، إلا أن وصول الفيلق العربي، الذي أقام إدارة عسكرية في مدينة القدس القديمة المسورة، منع الهجوم اليهودي في آخر لحظة[٢٧].

حينما ترتبت الهدنة في يوليو/ تموز ١٩٤٨م عن طريق الأمم المتحدة، كانت القدس قد تم تقسيمها بين إسرائيل والأردن، وظلت المدينة منقسمة إلى شطرين، بطول الحائط الغربي، ثم وجود منطقة مشاع، عبارة عن حزام آمن، مكون من جزء مهدم مهجور، ثم غادر الألفان من يهود المدينة إلى القدس الغربية، التي أصبحت تحت سيطرة الإسرائيليين، الأمر الذي نجم عنه فقدان أهالي القدس الغربية العرب، وكانوا ثلاثين ألفًا، لمنازلهم، التي استولت عليها دولة إسرائيل، وتكدست المدينة القديمة باللاجئين من يافا، وحيفا، والضواحي، والقرى الواقعة حول القدس، ولم توافق أي من إسرائيل، أو الأردن على ترك منطقة القدس، كما رفضتا الالتفات إلى قرار الأمم المتحدة رقم ٣٠٣، الذي طالبها بالجلاء عن القدس وضواحيها، لكي تصبح كيانًا كما كان مخططًا لها، وأعلنت القدس الشرقية والضفة الغربية أراضٍ أردنية[٢٨].

على العموم، يعتبر الفلسطينيون البلدة القديمة هي قلب مدينة القدس المحتلة، وهي ليست مجرد قطعة أرض من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧م، لكنها تعبير حي عن الميراث الثقافي العربي في المدينة، وتعتبر مركز النضال الوطني المقدسي.

القدس ومقاومة الاحتلال الصهيوني

مع قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨م على أرض فلسطين، واغتصابها لأجزاء كبيرة من مدينة القدس، إلى

جانب أراض فلسطينية أخرى، وإعلان الدولة العبرية القدس عاصمة لها، دخلت القدس مرحلة جديدة من الصراع الديني والسياسي، على حدٍّ سواء، بين العرب والمسلمين من جهة، والكيان الصهيوني وحلفائه الغربيين من جهة أخرى[٢٩].

كانت القدس الشرقية قد أصابتها الجراح الخطيرة عام ١٩٤٨، بالإضافة إلى تشجيع الملك عبد الله أهالي الخليل، الذين كانوا من مؤيدي الأردن على سكنى القدس، وفي تلك الأثناء كانت المدينة تعاني من مشكلة اللاجئين الضخمة، بالإضافة إلى الدمار الذي أصابها أثناء الحرب، وعمد الأردن، أيضًا، إلى نقل الدوائر الحكومية من القدس إلى عمان، وحينما تم اغتيال الملك عبد الله في مدخل المسجد الأقصى، في يوليو/ تموز ١٩٥١م، لم يعد هناك احتمال لتحسن علاقة المدينة بالحكومة الأردنية[٣٠].

ومضيًّا من إسرائيل في فرض العدوان بالأمر الواقع، فقد سعت في صيف عام ١٩٥٤ إلى أن يقدم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم بالقدس الإسرائيلية، وقدم السفير البريطاني الجديد أوراق اعتماده إلى بن تسفي رئيس دولة إسرائيل، حينذاك، في مدينة القدس، يوم ١٠/ ١١/ ١٩٥٤م، وبعده بيومين قدم سفير الولايات المتحدة الجديد، مستر لوسون، أوراق اعتماده في مدينة القدس، وبعد ذلك تقدمت إسرائيل بخطوة عدوانية جديدة، لم تحفل باستنكار مجلس الأمن، وهي إقامة العرض العسكري بمدينة القدس، في منتصف مايو/ آيار من كل عام، لمناسبة الاحتفال بما أسمته إسرائيل «عيد الاستقلال»[٣١].

شكلت حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧م نقطة تحول كبرى في هذا الصراع، بعدما استولت إسرائيل على البلدة القديمة، واحتلت الحرم القدسي الشريف، وأخذ الصراع يتمحور في مظهرين أساسيين: **الأول**: تزايد بناء المستوطنات اليهودية في الجزء الشرقي من القدس، مع مزيد من مصادرة الأراضي العربية فيها، **والثاني**: تزايد أعداد المهاجرين اليهود إليها، وتراجع نسبة الوجود العربي هناك[٣٢].

مع تولي حاييم هيرتزرج مهام الحاكم العسكري للقدس، مع عدد كبير من القوات، وضعت تحت قيادته، بدأت عملية الضم الفعلية للقدس الشرقية في خلال ثلاثة أسابيع من الاحتلال، على الرغم من انسحاب القوات العربية، فإن الجانب الإسرائيلي قام بقصف المدينة داخل وخارج الأسوار، مما أدى إلى مصرع ٣٦٠ من المدنيين، وتم تدمير المباني السكنية والتجارية، وإتلاف عدد كبير من المستشفيات، ونهبت المدارس، والفنادق، وتم الاستيلاء عليها، ودكت الجرافات الإسرائيلية حي المغاربة، المجاور للمسجد الأقصى، في أقل من أسبوع، وأجبرت الأهالي على الهجرة، وحولته إلى أرض فضاء، واسعة ممهدة، بحيث يصبح امتدادًا للحي اليهودي، وكرر الصهاينة أسلوبهم التقليدي في الاحتلال عن طريق تدمير منطقة اللطرون، القريبة من القدس، والقرى الفلسطينية: يالو، عمواس، وبين نوبة، في عام ١٩٦٧م، وإجبار أهلها على الهجرة، وتم ضمها إلى جزئي القدس، عن طريق إزالة السور الجديد، الذي قسم المدينة، وعن طريق إزالة بوابة ماندل، والتي كانت بمثابة نقطة عبور بين القدس الشرقية، والقدس الغربية، منذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٧م، وتم كذلك مد خطوط الأتوبيس من الجزء الغربي للمدينة، إلى الجزء الشرقي، وكذلك أنابيب المياه، وشبكات الهاتف، التي تم توحيدها، وأضيفت الأسماء العبرية إلى الشوارع، واللافتات في القدس الشرقية[٣٣].

تشير المصادر إلى أن ما بين ٤ آلاف إلى ٦,٥ آلاف فلسطيني طردوا من البلدة القديمة في ١٩٦٧م، من بينهم ١٣٥ عائلة فلسطينية كانت تعيش في حارة المغاربة بالكامل، كما نسف الجيش الإسرائيلي ١٤ بيتًا، بذريعة الانتقام من أعمال المقاومة، بالإضافة إلى ١٤ دارًا أخرى، بذريعة توسيع، وكشف امتداد (الحائط الغربي)، الذي يسمونه «حائط المبكى»، في خطة ممنهجة تهدف إلى تهويد القدس، تمامًا، ولكن بأساليب مختلفة، فقد تم إرساء الإطار القانوني، والإداري للسياسة الإسرائيلية في يومي ٢٧، ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، أي بعد مرور ثلاثة أسابيع، تقريبًا، على قيام القوات الإسرائيلية بعبور خطوط الهدنة إلى القدس، ففي ٢٧ يونيو/ حزيران تمت إضافة فقرة إلى قانون الإدارة بالنظام الإسرائيلي، لسنة ١٩٤٨م، وتلك الفقرة تخول حكومة إسرائيل ضم القدس إلى «أرض إسرائيل»، كما تخول وزير الداخلية، صلاحية إعلان التوسع في حدود البلدية، وتطبيق السيادة القانونية، والإدارية، التي يسري مفعولها في إسرائيل، نفسها، على أقسام معينة من المناطق المحتلة، وفي اليوم التالي اتخذ وزير الداخلية الإسرائيلي مثل هذه الخطوة بالنسبة للقدس العربية، والمناطق المحيطة بها، مما أدى إلى دمجها تحت إدارة رئيس بلدية القدس الغربية، تيدي كوليك[٣٤].

حينما وجد العرب أنفسهم يجبرون على ترك المدينة، كان عليهم تنظيم دفاعهم الخاص، ورغم عدم استطاعتهم فعل شيء لمجابهة تلك الهجمات البنائية، فقد تمكنوا من انتزاع بعض التنازلات المهمة من سلطات الاحتلال، فمثلًا رفض عرب المدينة تغيير أحكامهم لتتوافق مع القوانين الإسرائيلية في أمور مثل الزواج، والطلاق، والأوقاف، ووضع المرأة، وأعلن العلماء في ٢٤ يوليو/ تموز عام ١٩٦٧ أنهم سيقومون بإحياء «المجلس الإسلامي الأعلى»، حيث إن الشرع يحظر تحكيم غير المسلمين في أمور المسلمين الدينية، وكان رد الحكومة الإسرائيلية هو فصل بعض المعارضين المسلمين، الأكثر تطرفًا! غير أنها، في النهاية، أجبرت على الاعتراف غير المعلن بالمجلس الإسلامي الأعلى. كما قاوم العرب، أيضًا، من أجل إذكاء حملة ضد فرض النظام التعليمي الإسرائيلي في القدس؛ لأنه لا يراعي تطلعات العرب القومية، أو لغتهم، أو تاريخهم، فمثلًا كانت تخصص ثلاثين ساعة سنويًّا، لتدريس القرآن الكريم، في مقابل ١٥٦ ساعة لتدريس الإنجيل، والكتب الدينية اليهودية، وكان من الطبيعي ألا يقبل الطلبة الذين يتخرجون من المدارس الإسرائيلية في الجامعات العربية، وفي النهاية أجبرت الحكومة على تقديم التنازلات، والموافقة على منهج دراسي أردني مواز في المدينة. وتدريجيًّا، اكتشفت الحكومة الإسرائيلية أن عرب القدس مستعصون لحمل الخضوع فقد بدأت حملة عصيان مدني، ودعوة إلى الإضراب في شهر أغسطس/ آب ١٩٦٧، ثم أغلقت جميع المحال، والمكاتب، والمطاعم لمدة يوم واحد (١٧/ ٨/ ١٩٦٧م)، وقام أعضاء «فتح» بإقامة خلايا لهم في المدينة، وبدأوا في شن عمليات المقاومة، وفي ٨ أكتوبر/ تشرين الأول من العام نفسه، حاولت ثلاث من تلك الخلايا تفجير سينما صهيون، وفي ذكرى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، الذي وافق يوم ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٦٨م، قتل انفجار سيارة مفخخة، في سوق محاني يهودا، اثني عشر شخصًا، وأصيب أربعة وخمسون، وحدثت، أيضًا، هجمات أخرى بالقنابل في فبراير/ شباط، ومارس/ آذار عام ١٩٦٩م، كانت إحداها في كافتيريا المكتبة القومية بالجامعة العبرية. وأصيب ستة وعشرون شخصًا في الحادث، ولحق المبنى دمار شامل، كما تعرضت القدس لهجمات المقاومة أكثر من أي مدينة أخرى، وكان من المحتم أن يؤدي ذلك إلى أعمال قمع إسرائيلية[٣٥].

منذ الأيام الأولى للاحتلال الإسرائيلي تميزت السياسة الإسرائيلية حول القدس عن سياستها تجاه باقي الأراضي

المحتلة، حين عمدت سلطات الاحتلال إلى ضم الجزء الشرقي من المدينة إلى الكيان الصهيوني، بالقرار الذي أصدرته الحكومة الإسرائيلية، في الثامن والعشرين من يونيه/ حزيران ١٩٦٧م، وقد أطلق على هذا القرار أمر القانون والنظام، رقم ١ لسنة ١٩٦٧م، جاء فيه أن مساحة «أرض إسرائيل» خاضعة لمرسوم قانون وإدارة الدولة الإسرائيلية، الصادر عن الكنيست، قبل ذلك بيوم واحد (٢٧/ ٦/ ١٩٦٧)، على شكل إضافة لقانون إسرائيل، اسمه مرسوم القانون والإدارة لسنة ١٩٤٨، وقد خول القرار الجديد الحكومة تطبيق ذلك القانون على أي مساحة من الأرض، ترى الحكومة ضمها إلى إسرائيل[٣٦].

من الجدير بالذكر، أن الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أعربت عن قلقها الشديد نتيجةً للحالة السائدة في القدس، نتيجة للتدابير التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة. تعتبر هيئة الأمم أن تلك التدابير غير صحيحة. وتطلب إلى إسرائيل إلغاء جميع التدابير التي صار اتخاذها، والامتناع فورًا من إتيان أي عمل مماثل، وقد جاء ذلك بقرارا الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ (خلال الدورة الاستثنائية الطارئة ـ٥)، الصادر بتاريخ ٤/ ٧/ ١٩٦٧، فيما يعتبر إدانة دولية، ورفض دولي، لعملية الضم الإسرائيلية لمدينة القدس، وقد دافع المندوب الإسرائيلي، في الأمم المتحدة، عن قرار الضم، بأنه لم يعلن مثل هذا القرار، وأن ما قامت به سلطات الاحتلال ليس أكثر من توحيد المدينة في النواحي الإدارية، والبلدية، ووضع أساس قانوني لحماية الأماكن المقدسة، على حد زعمه، بالرغم من أن قرار الضم لم يستخدم، حصرًا، اصطلاح «ضم» فإن الواضح، الذي لا يحتاج إلى نقاش كبير، هو أن ما قامت به سلطات الاحتلال، بخصوص القدس، يعتبر من أعمال السيادة، لا يصدر إلا عن سلطة تمارس السيادة على أراضيها، ولم تخضع القدس، كما هو الأمر بالنسبة لباقي الأراضي المحتلة، للحكم العسكري، وهو ما يعني عمليًّا ضم القدس إلى الكيان الصهيوني، حتى وإن لم يستخدم هذا التعبير في قرارات سلطات الاحتلال[٣٧].

منذ إعلان الضم الرسمي للقدس، في الأيام الأولى للاحتلال، ورفض سلطات الكيان الصهيوني الانصياع لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، المشار إليه، تحدد الموقف الرسمي للحكومة الإسرائيلية، بل ولغالبية الأحزاب، والقوى السياسية الإسرائيلية، فإن القدس عادت من جديد مدينة موحدة، بعد أن ظلت مدينة مجزأة منذ عام ١٩٤٨، وأنه لا يمكن القبول بإعادة تجزئتها، من جديد، في أي تسوية سياسية، بل إن الموقف الرسمي الإسرائيلي أخذ يعتبر القدس الموحدة «عاصمة أبدية لإسرائيل»، يستوي في ذلك مواقف الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، سواء في ذلك حكومات «العمل»، أو حكومات «الليكود»[٣٨].

لقد شجع الوضع الدولي الإسرائيليين على الاستمرار في سياساتهم العنصرية، والعدوانية، تجاه القدس، فقد قامت حكومة «العمل» خلال السنوات العشر التالية لاحتلال القدس الشرقية (١٩٦٧ـ ١٩٧٧م) بمصادرة ١٧ ألف دونم في منطقة القدس، وبذلك وضعت الأساسات اللازمة لاستيطان القدس، وتهويدها، ولصيغة القدس الكبرى، عن طريق فرض الأمر الواقع، وحتى عندما عاد «العمل» إلى السلطة (عام ١٩٩٢)، فإن حكومته الجديدة استثنت القدس، ومناطق محتلة أخرى، من قرار تجميد الاستيطان الذي اتخذته في يوليو/ تموز العام نفسه[٣٩].

مع هذه التحولات الأساسية اعتبرت القدس محور الصراع، ورمزيته، ومكونه الحضاري، والديني، والسياسي، ورغم استمرار العدوان الصهيوني على الأماكن المقدسة، وعلى الأرض، والأهالي في القدس، وسعيه المستمر، منذ

الأسبوع الأول لاحتلال القطاع الشرقي منها (البلدة القديمة)، عام ١٩٦٧، لتهويدها، ومحو معالم الحضارة العربية الإسلامية فيها. فإن النضال العربي الإسلامي السياسي والمقاوم، استمر لتحريرها، وتوحدت مواقف الأمة العربية والإسلامية على ذلك، بل لقد تأسست «منظمة المؤتمر الإسلامي» أساسًا للقيام بهذا الدور، إثر إحراق المسجد الأقصى من قبل أحد الصهاينة في ٢١/ ٨/ ١٩٦٩م[٤٠].

وعلى الصعيد السياسي والدبلوماسي، بعد محاولات مستمرة، للتوصل إلى حل سياسي، للصراع حول القدس منذ عام ١٩٦٧م، سواء على صعيد المشاريع والقرارات الدولية، أو طروحات الجانبين، بقيت القدس مشكلة أساسية أمام أي حل سياسي للصراع العربي الإسرائيلي، وحتى في اتفاقية كامب ديفيد، التي وقعت بين مصر وإسرائيل في عام ١٩٧٩، كانت القدس مشكلة أساسية عند تناول الموضوع الفلسطيني[٤١].

في ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٨٧م، وتحديدًا بعد مرور سبعين عامًا على احتلال اللنبي لمدينة القدس، اشتعلت الانتفاضة الفلسطينية وبدءًا من غزة، وبعد أيام قليلة، انتقل الجنرال آرييل شارون، المتشدد، إلى شقته الجديدة، في حي للعرب، في المدينة القديمة، وكان ذلك إلماحًا رمزيًا، يعبر عن تصميم أقصى اليمين الصهيوني على البقاء في القدس. ورغم أن الانتفاضة كانت أقل كثافة في القدس منها في بقية الأراضي المحتلة، فإن المدينة شهدت صراعات وإضرابات، وأصبح على الإسرائيليين استيعاب واقع الوفاق التام بين أهالي القدس من الفلسطينيين، والثوار، في الأرض المحتلة، رغم مرور عشرين عامًا على ضم القدس، وكانت إحدى النتائج العملية للانتفاضة هي أن القدس أصبحت مدينة مرة ثانية. وفي تلك المرة، لم تكن هناك أسلاك شائكة، أو منطقة ملغمة، منزوعة السلاح بين القدس بشطريها الشرقي والغربي، إلا أن القدس العربية صارت منطقة لا يستطيع الإسرائيليون دخولها وهم آمنون، فلو حدث وعبر الحاجز غير المرئي، لتعرضوا لاحتمال رميهم، أو قذف عرباتهم بحجارة الصبية الفلسطينية، مع احتمال وقوع إصابات، وبذا أصبحت القدس الشرقية أرضًا معادية، وحققت الانتفاضة نتائج لافتة على المستوى الدولي، وأصبح الرأي العام العالمي يعي، بأسلوب جديد، الطبيعة العدوانية للاحتلال الإسرائيلي للقدس، والمناطق المحتلة، وذلك خلال مشاهد الجنود الإسرائيليين المسلحين وهم يطاردون «أطفال الحجارة» ويهاجمونهم بالقنابل، ويكسرون عظام أيديهم، وأرجلهم[٤٢].

مع انهيار النظام العربي، بعد حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ـ ١٩٩١)، وعلى أصداء تصاعد الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، التي استمرت منذ أواخر عام ١٩٨٧م ضد الاحتلال الإسرائيلي، بادرت الولايات المتحدة الأمريكية بفكرة عقد مؤتمر للسلام في الشرق الأوسط، بهدف تسوية القضية الفلسطينية، نهائيًا، وقد عقد المؤتمر بالفعل في مدريد، عام ١٩٩١م بحضور الطرف الفلسطيني. وبعد مفاوضات ثنائية، ومتعددة الأطراف، منبثقة عن المؤتمر لم يتوصل الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي إلى أي اتفاق، وإن جاء اتفاق أوسلو، سمي بإعلان مبادئ عام ١٩٩٣م، تبعته عدة اتفاقيات مرحلية، أعوام ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦م، على مشارف الوصول إلى المفاوضات النهائية، حسب ما ورد في إعلان المبادئ المذكورة.

في مطلع عام ٢٠٠٠م، أخذت جهود البدء بالمفاوضات النهائية منحى أكثر جدية، حيث عقدت مفاوضات استمرت لحوالي أسبوعين في منتجع كامب ديفيد في الولايات المتحدة الأمريكية، سميت مفاوضات كامب ديفيد

الثانية، في أواسط العام، وانتهت بالفشل في ٢٥ يوليو/ تموز من العام نفسه، وكانت القدس، كما أعلن رسميًّا، العقبة الأساسية أمام التوصل لأي اتفاق بين الجانبين[٤٣].

صحيح أن بحث مسألة القدس لم يتم بشكل جاد، في مختلف مراحل التفاوض الثنائي ومتعددة الأطراف المنبثقة عن مؤتمر مدريد (١٩٩١م). وأصر الجانب الإسرائيلي على موقف محدد بأن القدس الكبرى، والشرقية، والغربية تعتبر «عاصمة إسرائيل الموحدة والأبدية»، وأن السيادة عليها ستبقى إسرائيلية كاملة، مع حفظ حقوق الأديان الأخرى في أداء شعائرها، بأماكنها المقدسة؛ ولذلك سادت التوجهات نحو تأجيل بحث مسألة القدس، بوصفها قضية معقدة. وبقبول الجانب العربي، والفلسطيني لهذا الأمر الواقع، تم تقديم التنازل الأول عن الحق، والسيادة المطلقة للفلسطينيين، على مدينة القدس، بشطريها، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية، قد أشارت في رسالة الضمانات للفلسطينيين، أنه سيجري تحديد مكانة القدس النهائية في المفاوضات. ورغم رفض إسرائيل اشتراك ممثلين من شرقي القدس في الوفد الفلسطيني المفاوض، في المراحل الأولى، فإنها عادت وقبلت في الجولة التاسعة من المفاوضات مشاركة فيصل الحسيني، في الوفد الفلسطيني، مع أنه من القدس الشرقية.

كما تم، في مؤتمر مدريد، الاتفاق على تأجيل قضايا جوهرية أخرى، يتعلق بعضها بالقدس، أيضًا، ومنها المستوطنات اليهودية في الأراضي المحتلة، وعودة اللاجئين الفلسطينيين، والترتيبات الأمنية، والحدود، وهو ما أعطى إسرائيل فرصة كافية للتوسع في فرض الأمر الواقع، ديموغرافيًّا، واستيطانيًّا، على الأخص فيما يتعلق بمصادرة الأراضي، وبناء المستوطنات، وشق الطرق الالتفافية، وفصل القدس عن بقية المناطق الفلسطينية.

تم الاتفاق في إعلان المبادئ الإسرائيلي الفلسطيني على تأجيل البت في وضع القدس النهائي، حيث أخرجت القدس من مجال نفوذ الحاكم الذاتي الفلسطيني.

من جهة أخرى، لم ينص الاتفاق المذكور على إبقاء الوضع القائم للمسائل المؤجلة، مثل القدس، على ما هو عليه، ما سمح لإسرائيل بالاستمرار في إجراءات التهويد المختلفة، بين يدي المفاوضات النهائية، التي ستشمل الوضع النهائي للقدس[٤٤].

لكن يبقى السؤال مطروحًا، ما معنى سلام يترك المشاكل الكبرى الأساسية كلها معلقة، وخاصة مشكلة القدس، ولا تبحث إلا في نهاية المفاوضات؟! ولم يسأل أحد، وإذا لم نتفق عليها، في النهاية، فماذا يكون الموقف؟ والحقيقة أن هذه المشاكل معلقة ومؤجلة عند العرب، ولم تكن مؤجلة أو معلقة عند إسرائيل، فقد أعلن إسحاق رابين، عشية توقيع اتفاق أوسلو، قائلًا: «جئتكم من أورشليم القدس التاريخية، الأبدية، الموحدة لشعب إسرائيل»[٤٥].

واستثمرت إسرائيل هذا التأجيل في الاستمرار في إجراءاتها العدائية، تجاه المدينة، وأهلها، حيث استمرت في إجراء حفرياتها تحت المسجد الأقصى، فكان افتتاحها لنفق الأقصى في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٦م، ما أثار احتجاجات فلسطينية عنيفة.

خلافًا لما تصوره البعض، فإن توقيع «اتفاق أوسلو»، فتح الشهية الاستيطانية في الأراضي المحتلة، خاصة في القدس، والضفة الغربية، وذلك استمرارًا لسياسة فرض الأمر الواقع الإسرائيلية، التي قلصت منذ عام ١٩٦٧م الوجود الفلسطيني في القدس الشرقية[٤٦].

في ظل تداعيات سياسية مختلفة، على الصعيدين الفلسطيني والإسرائيلي، شهد منتصف شهر يوليو/ تموز من عام ٢٠٠٠م محاولة حاسمة لدفع الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي، إلى توقيع اتفاق إطار بشأن الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وأطلق على هذه القمة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي، إيهود باراك، ورئيس السلطة الفلسطينية، ياسر عرفات، وبرعاية الرئيس الأمريكي، بيل كلينتون، قمة كامب ديفيد، غير أن الأطراف لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق محدد، وأعلن عن فشل القمة، رسميًّا، بسبب عدم القدرة على الاتفاق على مسألة وضع القدس، والأماكن المقدسة فيها، في حين أعلن الجانب الفلسطيني أنه رفض التنازل عن السيادة الفلسطينية على القدس الشرقية[٤٧].

كشفت مفاوضات ما سمي بالوضع النهائي، في عمليات التسوية، لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي عن المخططات الصهيونية تجاه القدس، والمقدسات الإسلامية والمسيحية فيها، وكذلك عن الدعم الأمريكي المطلق لهذه المخططات، بالإضافة إلى كشفها أن بالإمكان الصمود أمام هذه الضغوط، بفضل دعم عربي إسلامي للطرف الفلسطيني[٤٨].

رغم هذا الفشل، دخلت عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية مرحلة حاسمة؛ لأن القضايا الجوهرية في الصراع ـ وعلى رأسها القدس ـ أصبحت محط بحث على طاولة المفاوضات. واستمر الاتجاه الإعلامي يتبادل الاتهامات بالمسؤولية عن فشل المفاوضات بين الجانبين إلى أن قامت السلطات الإسرائيلية باستفزاز المشاعر الدينية الإسلامية لدى العرب، حين اقتحم شارون، وتحت حماية ثلاثة آلاف جندي إسرائيلي، ساحات الحرم الأقصى، مدنسًا حرمته، في استعراض استفزازي للقوة، ما استنفر المصلين فيه للتصدي لهذا الاقتحام، فدار اشتباك بينهم وبين المقتحمين الصهاينة، استخدم فيه المصلون الكراسي، والأحجار، والعصي، والأحذية، دفاعًا عن الحرم، فيما رد المقتحمون بالرصاص الحي، فسقط على الفور في لحظات الاقتحام تسعة شهداء عرب، وخمسون مصابًا، ما استنفر أهالي القدس الذين تدفقوا على الحرم مدافعين عنه، ففر منه شارون وعساكره، دارت هذه الوقائع يوم ٢٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠، ومن ثم اندلعت انتفاضة الأقصى والاستقلال، فقامت قوات الاحتلال، في اليوم التالي بمجزرة دامية في الحرم القدسي، عقب انتهاء صلاة الجمعة، ومن ثم ممارسة شتى أنواع العنف، والإرهاب المنظم ضد الفلسطينيين في جميع أنحاء الأراضي المحتلة. وعلى إثر ذلك تحركت الدبلوماسية، الأمريكية، والأوروبية، والأمم المتحدة، وبعض حلفائها في المنطقة، بالضغط على الجانب الفلسطيني لوقف الانتفاضة.

ويمكن لنا تحديد أسس ومكونات الموقف العربي الدولي بشأن القدس بما يلي:

ـ إن القدس الغربية (المحتلة عام ١٩٤٨م)، أصبحت جزءًا من الدولة الإسرائيلية.

ـ إن القدس الشرقية، بما فيها البلدة القديمة المقدسة، والأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية، تعتبر أراضي محتلة، بالقوة، من قبل إسرائيل، ويجب الانسحاب الكامل منها، وفق قرار مجلس الأمن ٢٤٢ عام ١٩٦٧م.

ـ إن الإجراءات الإسرائيلية بالمصادرة، والهدم، والاستيطان، وخلافه في القدس الشرقية، وفق حدود ٤ يونيو/ حزيران ١٩٦٧م تعد باطلة، وغير قانونية[٤٩].

وأخيرًا، فإن أي عملية تفاوضية تتم خارج نطاق الضغط العملي على الاحتلال، عبر الانتفاضة والمقاومة الفاعلة، لن تتمكن من استرجاع حتى الفتات من الحق العربي، السياسي السيادي، والديني والإنساني، في مدينة القدس. وستبقى قضية القدس أساس الصراع على مدى الأجيال القادمة.

هوامش الفصل الأول:

(١) خالد عمار، **القدس عبر العصور**، مركز فجر، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤، ٥.

(٢) بهاء فاروق، فلسطين **بالخرائط والوثائق**، دار هلا، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٣٩.

(٣) عمار، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦.

(٤) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٧١.

(٥) عمار، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧.

(٦) **المرجع نفسه**، ص ٨.

(٧) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٨) خليل سركيس، **تاريخ القدس**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٠٧ـ ١٠٩.

(٩) محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس**، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٦٦، ١٦٧.

(١٠) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، ط١، ترجمة فاطمة نصر، محمد عناني، سطور، القاهرة ١٩٩٨، ص ٦٦٥، ٦٦٦.

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٥٥٢، ٥٥٣.

(١٢) **المرجع نفسه**، ص ٥٥٢، ٥٥٣.

(١٣) عارف العارف، **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف، ص ١١٥ـ١١٧.

(١٤) عمار، **مرجع سبق ذكره**، صـ ٢٦.

(١٥) خالد عزب، **القدس المدينة، التهويد**، ط١، مركز التوثيق والدراسات والتربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٨.

(١٦) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٥٩ـ٥٩٢.

(١٧) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦.

(١٨) عز الدين فودة، **قضية القدس**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤١، ٤٢.

(١٩) عبد العزيز الثعالبي، **خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس**، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢٠) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٠٦.

(٢١) عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩٣٦م حتى الحرب العالمية الثانية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٢ـ٥٠.

(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ١٤٢ـ ١٤٥.

(٢٣) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦١٩.

(٢٤) **المرجع نفسه**، ص ٦١٧.

obeikan.com

(٢٥) الهيئة العامة للاستعلامات، **وثائق فلسطين** (مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية)، الجزء الأول، منشورات وزارة الإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٤١.

(٢٦) فودة، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠ ـ٦٥.

(٢٧) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٢١.

(٢٨) **المرجع نفسه**، ص ٦٢٢، ٦٢٣.

(٢٩) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٦٨.

(٣٠) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٢٨، ٦٢٧.

(٣١) فودة، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٢، ٧٣.

(٣٢) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٦٩.

(٣٣) عزب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٦، ٣٧.

(٣٤) حسين إمام، **القدس ١٩٤٧ـ ١٩٦٧**، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ٢٠٠٥م، ص ٢١١.

(٣٥) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٥٦، ٦٥٧.

(٣٦) فايز فهد جابر، **القدس ماضيها وحاضرها ومستقبلها**، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٥م، ص ٢٠٤.

(٣٧) الهيئة العامة للاستعلامات، **ملف قضية القدس**، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٢٩.

(٣٨) جابر، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٠٥.

(٣٩) هشام جعفر، أحمد تهامي، **الاستيطان الصهيوني في القدس**، رام الله، دائرة الثقافة في السلطة الفلسطينية، ١٩٩٧م، ص ١٣.

(٤٠) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٧٠.

(٤١) **المرجع نفسه**، ص ٢٧٨.

(٤٢) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٦٥، ٦٦٦.

(٤٣) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٧٨.

(٤٤) **المرجع نفسه**، ص ٢٧٩.

(٤٥) يوسف قرضاوي، **القدس قضية كل مسلم**، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٣.

(٤٦) جعفر، تهامي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٦.

(٤٧) فاروق، **مرجع سابق**، ص ٢٨٠.

(٤٨) أحمد صدقي الدجاني، **القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة**، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٣.

(٤٩) فاروق، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٨٣.

* * *

obeikan.com

الفصل الثاني

الاقتلاع الصامت للعرب المقدسيين

عبد القادر ياسين

بالتشريعات الجائرة، والإجراءات التعسفية، بذل الاحتلال الإسرائيلي، ولا يزال، قصارى جهده لإخلاء القدس من أصحابها الحقيقيين، العرب الفلسطينيين، ليحل محلهم شذّاذ الآفاق، ممن يستجلبهم العدو الإسرائيلي من أركان الأرض الأربعة، وهذا سلوك منطقي من الصهيونية، الحركة الاستيطانية الاستعمارية، الإجلائية، الإحلالية. فيما تستشرس الصهيونية في القدس، أكثر من غيرها؛ لما للقدس من موقع متفرد لدى جمهرة اليهود، مقابل موقعها الروحي الأكثر أهمية لدى العرب، مسيحيين ومسلمين، على حدٍّ سواء.

منذ احتل عدونا الإسرائيلي القدس، سنة ١٩٦٧، وهو يضع نصب عينيه تقليص حقوق العرب المقدسيين، وتعطيل جمع شمل الأسر العربية المقدسية، وقد تفتق ذهن الاحتلال عن سياسات تشتيت مبرمجة.

ثمة إجراءات شتى اتخذها المحتل الإسرائيلي ضد القدس، وقد تم التحضير لهذه الإجراءات بتشكيل إدارة عسكرية للقدس، وقد أصدر الحاكم العسكري الإسرائيلي للقدس مرسومًا، في اليوم التالي لاحتلال القدس (٧/ ٦/ ١٩٦٧)، قضى بفصل القدس عن الضفة الغربية، وفي ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧ قررت إسرائيل ضم القدس الشرقية إليها، وغدت الأخيرة ضمن اختصاص بلدية القدس، وأخضعت لوزارة الداخلية الإسرائيلية، وفي اليوم التالي، حلت الحكومة الإسرائيلية أمانة القدس العربية المنتخبة، وألحقت موظفي الأمانة ببلدية القدس (الصهيونية)، بعد أن نحّت إسرائيل أمين القدس، روحي الخطيب، عن منصبه، قبل أن تأمر بترحيله إلى الضفة الشرقية، ومنذ ٢٥/ ٧/ ١٩٦٧، أخذ العدو الإسرائيلي يطبّق على أهالي القدس «قانون أملاك الغائبين» الإسرائيلي، الذي كان صدر في ٢١/ ٣/ ١٩٥٠. ووضعت خطة إسرائيلية هدفت إلى[1]:

ـ خلق أغلبية يهودية في القدس.

ـ استحداث وقائع على الأرض تحول دون تقسيم القدس.

ـ تطويق القدس الشرقية، وإغراق محيطها بمستوطنات، تتضمن كثافة بشرية يهودية عالية، فضلًا على اختراق القدس الشرقية بمستوطنين يهود.

ـ عزل القدس الشرقية عن محيطها العربي الفلسطيني.

ـ تطفيش العرب المقدسيين بأساليب مختلفة.

هذا كله في سبيل خلق وقائع عنيدة، من شأنها تعزيز موقف المفاوض الإسرائيلي في أي مفاوضات تسوية مع الطرف الفلسطيني.

تم البدء بإخراج بعض الأحياء العربية من حدود بلدية القدس للتخلص من نسبة غير قليلة من أهالي القدس العرب، فيما اعتبر من كان خارج القدس، عند احتلالها، خارج قائمة أهاليها، وبذا تخلص الاحتلال الإسرائيلي من نحو ٢٠ في المائة من مجموع أهالي القدس العرب (٨٠ ألفًا)، ومنعهم المحتل من العودة إلى القدس، فيما ضيَّق المحتل فرص زيارة القدس لغير المقدسيين ومن باب أولى حظر المحتل الإقامة في المدينة المقدسة لغير من كان مقيمًا فيها عند احتلالها، وقد بذل المحتل قصارى جهده للحيلولة دون جمع شمل الأسر العربية المقدسية[٢] ما أبقى معدل الزيادة في أهالي القدس الشرقية أقل منه في أي تجمع عربي فلسطيني آخر، فقد زاد عدد العرب المقدسيين سنة ١٩٩٩ بنسبة ٥٪ عن سنة ١٩٩٨، فبلغ ٣٤٨ ألفًا، بعد أن كان في السنة السابقة ٣٣١ ألفًا، فيما زعمت إسرائيل بأن عددهم لا يتجاوز ١٨٠ ألفًا، والتقدير أن يصل عددهم إلى نصف مليون سنة ٢٠١٠[٣]. وقد بلغ عدد المستوطنين اليهود في القدس الشرقية، أواسط ١٩٩٣، زهاء ١٥٥ ألفًا، نصفهم وفد إليها بعد اندلاع الانتفاضة الشعبية الفلسطينية، في ديسمبر / كانون الأول ١٩٨٧. فيما لم يكن عدد العرب هناك قد وصل إلى هذا الرقم[٤].

توالت خطط الاستيطان في القدس، ومحيطها[٥]

الخطة الخمسية: التي قدمها وزير الإسكان، سنة ١٩٩٠، آرييل شارون، وهدفت إلى الوصول إلى «القدس الكبرى»، وتعزيزها كعاصمة موحدة أبدية لإسرائيل، وسرعان ما اعتمدت حكومة «الليكود» هذه الخطة.

خطة بوابات القدس: وهي خطة سرية، من إعداد وزارة الإسكان الإسرائيلية، ومجموعة، «عطيرت كوهانيم»، وقضت ببناء ٢٦ نقطة استيطانية جديدة في القدس، تتضمن إقامة أربعة آلاف وحدة سكنية، على ٣٣٤٥ دونمًا[*].

ثم عمدت حكومة الاحتلال (١٤/ ١٠/ ١٩٩٠) إلى رفع منسوب بناء الوحدات السكنية في القدس من ألفيْ وحدة إلى خمسة آلاف وحدة.

كما قضمت دولة الاحتلال أراضي من أطراف مدن: البيرة، وبيت لحم، وبيت جالا، وضمتها تلك الدولة إلى منطقة القدس، بهدف توسيعها، بأقل عدد ممكن من العرب الفلسطينيين، مما جعل «القدس الكبرى» تلتهم قرابة ٢٨ في المائة من إجمالي مساحة الضفة الغربية.

(*) **الدونم**: وحدة مساحية لقياس الأراضي الزراعية، مقدارها ألف متر مسطح.

بمجرد أن أصدر العدو الإسرائيلي قراره بضم القدس إلى الكيان الصهيوني، حتى أشهر سيف «قانون أملاك الغائبين»، الذي مكّن العدو من مصادرة مساحات واسعة من أراضي العرب المقدسيين، ومنازلهم[٦](*). وفي قرية العيسوية ـ من ضواحي القدس ـ صادرت سلطات الاحتلال ١٠,٢٥٠ دونمًا، ولم تترك لأهالي هذه القرية سوى ٣٦٢ دونمًا، فقط[٧].

تشكل المناطق السكنية الفلسطينية في القدس الشرقية ١٠,٧٪ من المساحة الكلية للمدينة، وتشكل المستوطنات ٢,٧٪، وقد صادرت سلطات الاحتلال ٨٥٪ من أراضي القدس الشرقية، البالغة ٣٣٨ ألف دونم، وحظرت على الفلسطينيين الإقامة فيها. إن ٦٦٪ من أراضي القدس الحالية، هي أراض تم الاستيلاء عليها بالقوة، منها ٥٪ من القدس الشرقية، و٦١٪ من أراضي الضفة الغربية. واستوعبت هذه المستوطنات ١٨٠ ألف مستوطن[٨].

مؤخرًا، أشار المستشار في رئاسة السلطة الفلسطينية، حاتم عبد القادر بأن السياسة الإسرائيلية القاضية بعدم السماح لحوالي ٢٥٠ ألف فلسطيني في القدس الشرقية ببناء منازل تؤويهم، قاد إلى تصنيف ٢٠ ألف منزل، بصفة منازل عشوائية، غير شرعية، منذ احتلال ١٩٦٧. وفي العام ٢٠٠٨ نشرت بلدية القدس قائمة بألف إنذار هدم لمنازل عشوائية. علمًا بأن منزلًا واحدًا من كل أربعة منازل في القدس الشرقية مبني بدون ترخيص. وقد تمت تسوية ٢٧٠ منزلًا بالأرض «لدواع أمنية»، خلال الأعوام الأولى من الانتفاضة. وبذا بلغ عدد المنازل التي دمرت في القدس الشرقية ١٨ ألف منزل، خلال العقود الأربعة من الاحتلال الإسرائيلي[٩].

منذ مطلع سنة ٢٠٠٩ تجاوز عدد إخطارات الهدم لمائتي منزل، ٨٨ منها في سلوان، يقطنها قرابة الألف وخمسمائة نسمة، إلى خمسة وخمسين منزلًا في رأس خميس، من أراضي مخيم شعفاط، يقطنها ما يربو على الخمسمائة نسمة، فضلًا على نحو ٣٥ مسكنًا لعائلات بدوية، تقطن على امتداد طريق القدس ـ أريحا. وفي منطقة وكر الديك من أراضي بلدة عناتا، شمال شرقي القدس، لتضاف إلى نحو ٦٦ شقة سكنية في بلدة العيساوية[١٠].

يوم ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٩ صدر أمر إسرائيلي، قضى بتدمير ألف وخمسمائة منزل في القدس الشرقية. ما دعا الأمم المتحدة إلى التدخل، والطلب إلى إسرائيل تجميد أوامر الهدم (٦٠ ألف عربي مقدسي). ولأن بلدية القدس لا تصدر إلا تراخيص محدودة للبناء باسم العرب، فإن العدو الإسرائيلي قد يهدم ٦٠ ألف منزل عربي مقدسي، من أصل ٢٢٥ ألفًا يقيمون في القدس الشرقية، ما سيقضي إلى نزوح تسعة آلاف عربي، نصفهم من الأطفال. فيما تخصص السلطات الإسرائيلية ١٣ في المائة من مساحة القدس الشرقية لبناء منازل للعرب المقدسيين، في حين أن ثلث أراضي القدس الشرقية صودر لتنفيذ مشاريع استيطانية، يقيم فيها أكثر من ١٩٥ ألف مستوطن. لقد دُمِّرَ نحو ألفي منزل فلسطيني في القدس الشرقية منذ احتلال ١٩٦٧، بينها أكثر من ٦٧٠ بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٨، فيما تتسبب السياسة الإسرائيلية في مجال البناء في القدس الشرقية بعجز قدره ألف ومائة مسكن للعرب المقدسيين، سنويًّا[١١].

لقد وصف تقرير سري للاتحاد الأوربي، بتاريخ ٧/ ٣/ ٢٠٠٩، الهدم بأنه «غير قانوني، وفقًا للقانون الدولي، ولا يخدم أي هدف، وأن معاهدة جنيف تحظر على القوة المحتلة توسيع نطاق سلطتها على الأراضي المحتلة». وقد حذر التقرير نفسه من أن التوسع الاستيطاني «يجري بخطى متسارعة»، رغم أن الفلسطينيين يمثلون ٣٤٪ من مجموع

(*) حتى ١٤/ ٤/ ١٩٦٨ فحسب، صادر العدو المحتل ٣٤٦١ دونمًا، و٥٩٥ عقارًا.

سكان القدس، فإن ٥ ـ ١٠٪، فقط، من ميزانية البلدية تُصرف على مناطقهم، مما يجعلهم يفتقرون إلى الخدمات، والبنى التحتية المناسبة. وبسبب التشديد على منح تراخيص البناء للفلسطينيين في القدس، يضطر بعضهم إلى تشييد منازلهم بدون تراخيص، مما دفع الحكومة الإسرائيلية إلى هدم أكثر من ٤٠٠ منزل منذ ٢٠٠٤، وهناك ألف منزل آخر لم تنفذ ضدها أوامر الهدم بعد[١٢].

بعد مصادرة الأراضي، وهدم البيوت، شيَّدت سلطات الاحتلال حيًّا سكنيًّا يهوديًّا في القدس الشرقية، فعمدت إلى ترميم العقارات المصادرة، كما شيّدت وحدات سكنية جديدة، فضلًا على سوق تجارية ، وكنيس يهودي، ومنذ عام ١٩٦٨ بدأت رحلة تطويق القدس الشرقية بكتل استيطانية، مقابل تقييد منح العرب المقدسيين رخص بناء مساكن، بما يحول دون تخطي العرب المقدسيين نسبة ربع مجموع المقيمين في «القدس الكبرى». وفيما بين سنتي ١٩٧٧ و١٩٨٣، خص المستوطنون اليهود، سنويًّا، ما متوسطه ٢١٧٠ شقة (٨٨٪) ، مقابل ٢٣٠ شقة فقط للعرب المقدسيين (١٢٪)[١٣].

في هذا السياق، شهر المحتل في وجه العرب المقدسيين «قانون طرد الغرباء من أراضي الدولة»، الصادر في ٢٤/ ٢/ ١٩٨١، بغرض السطو على أراضي المقدسيين العرب، فضلًا على «قانون البناء والتخطيط»، الرامي إلى تدمير منازل أولئك المقدسيين، لتطفيشهم من مسقط رأسهم.

على مدى تسعينيات القرن العشرين، اجتهد العدو الإسرائيلي لسد الثغرات بين المستوطنات المحدقة بالقدس الشرقية، فضلًا على بناء مستوطنتين تضمنتا خمسمائة وحدة سكنية داخل القدس الشرقية نفسها[١٤].

هذا كله من أجل ضم «القدس الكبرى»، أوتوماتيكيًّا، إلى إسرائيل، ومع القدس كل المستوطنات المتاخمة لإسرائيل.

أجانب في وطنهم

تحت ضغط حرب ١٩٦٧، غادر القدس زهاء ١٥ ألفًا من أهلها، تبعهم آلاف أخرى للعمل في الخارج، وطلبت وزارة الداخلية الإسرائيلية إلى الذين بقوا تقديم طلبات «جمع شمل». فيما أعطت الوزارة نفسها حق رفض أي من هذه الطلبات دون تقديم المبرر[١٥].

لقد رفضت الغالبية العظمى من العرب المقدسيين حمل بطاقة هوية إسرائيلية، حتى لا يُعتبر ذلك اعترافًا بالضم الإسرائيلي لمدينتهم المقدسة. ومع كل المقاومة التي أبداها العرب المقدسيون، فإن المحتل خلق واقعًا قانونيًّا منفصلًا للمقدسيين عن باقي أشقائهم العرب الفلسطينيين، خاصة بعد إغلاق المحتل القدس الشرقية، وفصلها عن الضفة الغربية. وغدت الأغلبية التي رفضت الجنسية الإسرائيلية مهددة بالإبعاد، والطرد التعسفي من القدس، بعد إلغاء بطاقات الإقامة الدائمة لأفرادها، حتى غدوا أجانب في وطنهم! أما الذين حملوا الجنسية الإسرائيلية، فلم يتمتعوا بالحقوق القانونية للمواطنين، برغم أن الإدارة، والقوانين، والضرائب الإسرائيلية تسري عليهم، كما لا يحق لهم الاقتراع في الانتخابات النيابية الإسرائيلية، أو العمل في المواقع الحكومية المهمة. وتعترض حصولهم على مزايا «التأمين» الصحي والاجتماعي، عقبات كأداء[١٦].

فيما يخص إشكالات المواطنة، وجمع الشمل، فإنهما مناطان بوزارة الداخلية الإسرائيلية، حيث يضطر طالبو السفر، أو جمع الشمل، إلى الوقوف في صفوف الانتظار الطويل، لساعات ممتدة أمام مكتب وزارة الداخلية المختص، يتحملون فظاظة الموظفين، ووقاحتهم، ومماطلاتهم في الاستجابة للمطالب المشروعة، فضلًا على زهاء ١١٥ دولارًا، يدفعها الطالب رسومًا لجمع الشمل، ولا يستردها في حال رفض طلبه! شأن أغلب الطالبين، الذين يتدخل الأمن الداخلي الإسرائيلي (الشاباك)، لرفضها، وغالبًا ما يُستغل الطلب في محاولة ابتزاز صاحبه، وتوريطه في التعاون مع «الشاباك»[١٧].

حين وصل الليكود إلى سدة الحكم، لأول مرة في إسرائيل (١٩٧٧)، تشدد في شروط منح بطاقة هوية «مقدسي»، إذ اشترط شهادة ميلاد في القدس، وقسيمة زواج في القدس، أو إسرائيل، ووالدان يعملان في القدس، أو إسرائيل، وفواتير خدمات منزل (كهرباء/ ماء/ هاتف) في القدس[١٨].

بذلت دولة الاحتلال، ولا تزال، قصارى جهدها لإبناء عدد العرب المقدسيين في حده الأدنى (حوالي ربع مجموع سكان القدس). ومن أسلحة الاحتلال هنا البطاقات الشخصية(*). وفي سنة ١٩٩٦، وحدها، سحب المحتل هويات خمسمائة عربي مقدسي، فيما بلغ مجموع من جُردوا من حقهم بي الإقامة في القدس، حتى سنة ٢٠٠٤، أربعة آلاف، كما سحبت هويات ٨٣٠ عربيًا مقدسيًا،حتى ٢٠٠٦ [١٩]. وتعنت الاحتلال في أمر السماح للعرب المقدسيين بالعودة إلى مدينتهم الأصلية. وفي هذا خرق صارخ للفقرة ٧٤ من المادة الأولى من «اتفاقية جنيف الرابعة»، للعام ١٩٧٧، فضلًا على أن إسرائيل تُسقط ـ بموجب الأمر رقم ١١ ـ حق العودة عن أي عربي مقدسي يقيم خارج القدس لمدة تزيد عن سبع سنوات، أو يحصل على جنسية أخرى[٢٠].

زواج مع وقف التنفيذ

بل إن الاحتلال الإسرائيلي يحرم المواطن العربي المقدسي من العيش في مكان سكن شريك حياته. فيما يسمح الاحتلال بتقديم طلبات جمع الشمل ليحصد الاحتلال ٢٥ دولارًا عن كل طلب دخول شريك الحياة إلى القدس لمدة ثلاثة أشهر فقط، على أن تنظر وزارة الداخلية الإسرائيلية في أمر تحسين شروط الإقامة بعد حصول «الوافد» على عمل في القدس، مما يستدعي طلبًا آخر للداخلية بمائة دولار هذه المرة. وإن عاد الاحتلال فحرم أهالي الضفة الغربية وقطاع غزة من التمتع بهذه الميزة، اعتبارًا من أول مايو / آيار ١٩٩٤، تاريخ دخول عناصر وقيادات أجهزة أمن سلطة الحكم الإداري الذاتي المحدودة إلى قطاع غزة، بموجب «اتفاق أوسلو». وإن سُمح لأهالي الضفة والقطاع بتقديم طلبات للسماح لهم بدخول القدس، ما بين الخامسة صباحًا وحتى السابعة مساءً كل يوم، وعلى مدى ثلاثة أشهر متصلة[٢١].

المفارقة هنا أن العدو الإسرائيلي رفض إعطاء أزواج تصاريح للالتقاء بزوجاتهم العربيات المقدسيات، وقد تذرع العدو بأن العادات العربية تقضي بانتقال الزوجة للعيش حيث يقيم زوجها! وعليه، فلا حق لأزواج العربيات المقدسيات للحصول على مواطنة دائمة حسب حكم المحكمة العليا الإسرائيلية (١٩٩٣). وهذه التفرقة الظالمة بين الجنسين إنما قصد بها الاحتلال تقليص عدد المقدسيين العرب من جهة، وإلى المحافظة على صورة الذكر الفلسطيني

(*) الهوية الزرقاء لحاملي الجنسية الإسرائيلية، والهوية البرتقالية لمن عداهم، أما الهوية الخضراء فللخطرين أمنيًا.

«الخطير أمنيًّا» في مخيلة الإسرائيلي من جهة أخرى. وإن عادت إسرائيل واستجابت، جزئيًّا، لضغوط مراكز حقوق الإنسان، فأسقطت هذا التمييز ، منذ يونيو/ حزيران ١٩٩٤، ولم تغضب التقاليد العربية العريقة! وإن اشترط الاحتلال أن تثبت الزوجة بأن مركز حياتها لا يزال في القدس. بيد أن هذا التعديل تم بعد أن كانت الأغلبية العظمى من الزوجات العربيات المقدسيات قد انتقلن إلى خارج القدس، فعلًا، حيث يقيم أزواجهن. هذا المنع انتهاك للبند الثالث من المادة الأولى من القانون الدولي. أما إذا تأخر العرب المقدسيون عن تسجيل مولودهم لأكثر من ثلاث سنوات، فإن عليهم تقديم طلب جمع شمل لطفلهم هذا بهم! بتكاليف تصل إلى زهاء ١١٠ دولارات، عدا الوقت المهدر، وسماجات الموظفين الإسرائيليين إياها [٢٢].

نأتي إلى الطفل المولود لأم مقدسية، وأب غير مقدسي، إذ لا يمكن تسجيله في القدس، بل يسجل على بطاقة والده، حتى يحرما سويًّا من الإقامة في القدس. إلا إذا أثبتت أمه بأن القدس مركز حياتها، ويتم الإثبات بالدولار، أيضًا. فيما لا تمنح وزارة الداخلية الإسرائيلية الجنسية للطفل المولود لأبوين عربيين مقدسيين وُلد خارج القدس. وعلى الوالدين التقدم بطلب جمع شمل لطفلهما هذا معهما. وفي حرمان الطفل من والديه ـ على هذا النحو ـ انتهاك صارخ للبندين التاسع والعاشر من وثيقة الأمم المتحدة حول حقوق الطفل. فيما لا يمنح الأقرباء من الدرجة الأولى (إخوة، أبناء) حق الإقامة في القدس، إلا ما ندر، ولمن تجاوزوا الستين منهم، أيْ لكل من أصبح على حافة قبره. ويتجلى الحنان الإسرائيلي في السماح للعربي المقدسي في أن يُدفن في مسقط رأسه![٢٣].

الحرمان من الخدمات

ثمة قضايا أخرى ذات علاقة، مثل العمل على تحويل القدس إلى مركز طرد للعرب المقدسيين، بسلاح الحرمان من الخدمات الأساسية، والسكن، بهدم المنازل، ومصادرة الأراضي، وحرمان المقدسيين العرب من البناء، حتى أن أكثر من ٢٢ ألف عائلة عربية ومقدسية تعيش بلا مأوى (١٩٩٥)، أو في ظروف سكنية سيئة، ولم يُستثمر سوى أقل من ١٠ في المائة من موازنة بلدية القدس في مجال البنية التحتية للقدس الشرقية، فيما نصف أحيائها بلا شبكة مجاري، والنصف الآخر بلا ترميم، أو صيانة، وكذا نصف شبكة المياه متهالك، في أمس الحاجة للتغيير [٢٤].

لقد هبطت الخدمات المقدمة إلى القدس الشرقية إلى مجرد تجديد نظام المجاري، خشية انتشار الأوبئة بين العرب المقدسيين، وانتقال الأوبئة إلى المستوطنين اليهود، حسب رئيس بلدية القدس الأسبق، تيدي كوليك [٢٥].

بالنسبة للأراضي المسموح للعرب المقدسيين البناء عليها، فإنها لا تزيد عن ١٤ في المائة من مساحة القدس الشرقية، ومعظم هذه النسبة من أراض مشغولة بالأبنية، أصلًا، مما رفع ثمن الأراضي غير المشغولة إلى أرقام فلكية. ويهدم العدو الإسرائيلي خمسين منزلًا عربيًّا مقدسيًّا، في المتوسط، سنويًّا، مقابل إطلاق العنان للمشاريع الاستيطانية الصهيونية، التي توحشت كثيرًا، منذ «اتفاق أوسلو» سيئ الصيت. ومنذ عام ١٩٦٧، وحتى مطلع ١٩٩٥، صادرت دولة الاحتلال قرابة ٤٠ في المائة من أراضي القدس الشرقية، فضلا على أملاك «الغائبين» ، التي استحوذت عليها تلك الدولة، فيما تعتبر نصف مساحة أراضي القدس الشرقية «أراضي تنظيم»[٢٦].

ثمة سلاح آخر لتهجير العرب المقدسيين من مدينتهم، يتمثل في «ضريبة البلدية»، فيما تحرِّم القوانين الدولية على المحتل فرض ضريبة جديدة، وتحتِّم «اتفاقية جنيف الرابعة» صرف الضرائب المحصَّلة من منطقة محتلة في المنطقة

عينها، في شكل خدمات. ويدفع العرب المقدسيون ٦٪، مقابل الخدمات البلدية المقدمة إليهم، والتي لا تزيد عن ٥ـ ١٠٪، بينما تعفي بلدية القدس المستوطنين اليهود من «ضريبة البلدية» هذه لمدة خمس سنوات متصلة، يدفعون بعدها نسبة ضئيلة من هذه الضريبة، كما يدفع المقدسيون العرب مستحقات «التأمين الوطني»، لكن من ينتقل من القدس، أو قراها، أو ضواحيها، لا يتلقى مخصصات هذا التأمين حين يستحقه. وثمة مدة طويلة تسبق بدء الحصول على التأمين للمحظوظين القلائل منهم. كما نقلت سلطات العدو الإسرائيلي ملفات ضريبة الدخل المستردة إلى الضفة الغربية من القدس، لكل من انتقل بإقامته إلى الضفة من العرب المقدسيين [٢٧].

لقد توسعت إسرائيل في استخدام الإغلاق العسكري، فحظرت دخول من اعتبرتهم «خطرين أمنيًا» إلى القدس. ومنذ اندلاع حرب الخليج الثانية (١٩٩٠)، مُنع الفلسطينيون من دخول القدس. وتجدد هذا الإغلاق، في ٣٠ مارس/ آذار ١٩٩٣، مما هبط بنسبة العاملين العرب الفلسطينيين في القدس وإسرائيل إلى قرابة ٥٠ في المائة، من بين نحو ١٢٠ ألف يد عاملة هناك، مما باعد بين أفراد الأسرة الواحدة، فأثر، سلبًا، على وحدة الأسرة. وبعد مذبحة الحرم الإبراهيمي(*) فرضت إسرائيل إغلاقًا عسكريًا آخر، مما فاقم مشاكل إقامة العرب المقدسيين، وتنقلهم، وأعاق الخدمات التي تقدمها مراكز حقوق الإنسان العاملة في مجال المواطنة، وجمع الشمل. أما الغرض من وراء هذه الإغلاقات، فهو فصل القدس عن محيطها، وروحها [٢٨].

يحدثونك عن الرشاوى الباهظة، التي يضطر العرب المقدسيون إلى دفعها «لتسليك» أمورهم، ناهيك عن الأجور المنخفضة التي يتقاضونها ، في الوقت الذي أرجأ «اتفاق أوسلو» البحث في قضية القدس إلى المفاوضات النهائية، التي انقضى على موعد إجرائها ـ حتى كتابة هذه السطور ـ عشر سنوات. ما أفسح في المجال للمحتلين الإسرائيليين كي يشغّلوا غدتهم التشريعية الجائرة، وينشّطوا إجراءاتهم التعسفية في المدينة المقدسة، حتى «أن سياسات إسرائيل العدوانية، واللامشروعة، والمتمثلة في تدمير وحدة الأسرة، وتسريع عجلة المستوطنات، والإغلاقات العسكرية، التي تُفرض عليها، تدفع المزيد من الفلسطينيين للعيش خارجها، ويهيئ العديد منهم لطلب الجنسية الإسرائيلية، للاستقواء بها في العيش في المناطق الإسرائيلية. وفي المدى المنظور سيظل من الصعب ضمان جمع شمل العرب المقدسيين، وستبقى وزارة الداخلية الإسرائيلية مستأثرة بسائر شؤون العرب المقدسيين، ضحايا الحرب الديموغرافية التي تشنها إسرائيل على بيوتهم»[٢٩].

بعد أوسلو

استحدث «اتفاق أُوسلو» فئة عربية فلسطينية رابعة، هي فلسطينيي القدس، بعد فلسطينيي الضفة والقطاع، وفلسطينيي ١٩٤٨، وفلسطينيي الخارج. وبدأت الفئة الأولى معاناة من نوع جديد، ببركات «اتفاق أوسلو».

(*) **مذبحة الحرم الإبراهيمي**: وقعت في الحرم الإبراهيمي بالخليل، فجر يوم الجمعة، الموافق ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤، والذي صادف «عيد المساخر» (إستر عند اليهود). وقد اقترف المذبحة الطبيب الأمريكي الجنسية، اليهودي الديانة، باروخ غولدشتاين، وقد توجه من مستوطنة «كريات أربع، قرب الخليل، إلى الحرم المذكور، وفتح النار على المصلين هناك. واللافت أن جنود الاحتلال فصلوا بين الرجال والنساء قبيل وصول غولدشتاين في إجراء مستهجن! كما تخلى الحراس الصهاينة عن موقعهم عند بوابة الحرم، ناهيك عن أن عددهم عند اقتراف الجريمة هبط من عشرين حارسًا إلى مجرد ٤ حراس! وحين هرع الفلسطينيون إلى نجدة أشقائهم المصابين في الحرم، فتح جنود الاحتلال عليهم النار، فاستشهد اثنان وجرح ١٤ مواطنًا، قبل أن يسقط ٤ شهداء آخرين ويجرح ١٥ جدد. أما في الحرم نفسه فقد استشهد عشرون فلسطينيًا، وجرح ثمانون.
راجع في هذا الصدد: رحلة إلى الخليل: روايات شهود عيان على أحداث ٢٥ فبراير/ شباط ١٩٩٤، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٧، شتاء ١٩٩٤، ص ٣٨ ـ ٤٦.

صحيح أن الفئة الموماً إليها لا ترزح تحت نير الحكم العسكري الشرس، وفرماناته الجائرة، بل تخضع للقانون المدني الإسرائيلي، لكن أبناء الفئة المذكورة يعانون الأمرَّين من التعسف الإسرائيلي في المواطنة، والإقامة الدائمة. فالعربي المقدسي غدا مواطنًا، ولكن بحقوق أقل [٣٠].

لقد أعطى «اتفاق أُوسلو»، وتوابعه دفعة قوية للعدو الإسرائيلي، كي يمعن في قمعه للعرب المقدسيين، والتخلص من أكبر عدد منهم. إذ أجّل «اتفاق أُوسلو» قضية القدس ضمن قضايا المرحلة النهائية، ربيع ١٩٩٩، وهي المرحلة التي لم تأت بعد! والأنكى أن القيادة المتنفذة في «منظمة التحرير الفلسطينية» ـ التي وافقت على «اتفاق أُوسلو» ـ لم تضمن تجميد الوضع على ما كان عليه عند توقيع هذا الاتفاق، بالنسبة للقدس والمستوطنات، كما أن القدس استبعدت من بحث قضية النازحين عنها من قبل اللجنة الرباعية (السلطة الفلسطينية/ إسرائيل/ الأردن/ مصر)[٣١].

نخلص من هذا كله بأن التضييق، ثم الخنق، فضلًا على عمليات التهجير القسري؛ بهدم منازل العرب المقدسيين، وعدم السماح بإعادة بنائها، والتضييق على رخص البناء، وسحب الهويات بالجملة، وفرض الضرائب الظالمة، التي لا قبل للعربي المقدسي بها، مع خدمات أساسية دون الحد الأدنى، كل هذا أوهم العدو الإسرائيلي بأنه سيقتلع العرب المقدسيين من أرض الآباء والأجداد، المنزرعين فيها منذ آلاف السنين.

يبقى الحل الوحيد لهذا كله، متمثلًا في تحرير فلسطين، وفي القلب منها القدس، حتى يسترد العرب المقدسيون حقوقهم المسلوبة، وفي مقدمتها المواطنة، وجمع الشمل، حيث لم يعد الترقيع مجديًا، فيما اتسع الخرق على الراتق.

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) عبد الرحمن أبو عرفة، **الاستيطان/ التطبيق العملي للصهيونية**، ط٢، عمان، دار الجليل ١٩٨٦، ص١٥٢.

(٢) حمد موعد، الحرب الإسرائيلية على الـهُوِّية الفلسطينية، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد (١٠)، نيسان/ أبريل ـ آيار/ مايو ـ حزيران/ يونيو ١٩٩٧، ص ٩٤ ـ ١٠٦.

(٣) مؤسسة الوحدة للصحافة الطباعة والنشر، **الثورة**. WWW.thawra.com

(٤) موعد، **مرجع سبق ذكره**.

(٥) خالد عايد، القدس الكبرى في إسار الأمر الواقع الصهيوني، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٥، صيف ١٩٩٣، ص ١٠١ـ١٠٧.

(٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد السادس، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: روحي الخطيب، تهويد القدس، ص ٨٧٧ ـ ٨٧٨).

(٧) ميخال سيلغ، بلفاست أوبروكسل: القدس تنتظر قرار الحكم، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٩، صيف ١٩٩٤، ص١٢٧ـ١٤٠.

(٨) **القدس**: مسلسل هدم مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، **الثورة** WWW.thawra.com

(٩) **القرية**: تحرير خاص بالمخططات لطمس معالم القدس kassem.com_WWW.kufur

(١٠) **مركز القدس للحقوق الاجتماعية والاقتصادية**، ٥/ ٣/ ٢٠٠٩.

(١١) **أنباء الأمم المتحدة**، ١/ ٥/ ٢٠٠٩. WWW.unorg /arabic /new.

(١٢) مركز القدس للحقوق .... **مرجع سبق ذكره**.

(١٣) جيفري أورنسون، إسرائيل تبني القدس الكبرى في موقع المدينة الخالدة، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، عدد ١٩، صيف ١٩٩٤، ص١١٢ـ١١٦.

(١٤) سارة هيليم، سكين كبيرة تعمل في القدس تشريحًا، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٩، صيف ١٩٩٤، ص١٢٣ ـ ١٢٦.

(١٥) ناثان كريستال، **فلسطينيو القدس ومخاطر الطرد الصامت**، ط ٣، القدس ـ بيت خم، نيسان/ أبريل ١٩٩٥، ص١٠.

(١٦) **المرجع نفسه**، ص ١١.

(١٧) **المرجع نفسه**، ص ١٣.

(١٨) موعد، **مرجع سبق ذكره**.

(١٩) ماجد الشيخ، من مصادرة الأراضي إلى مصادرة الهوية، **المستقبل** (بيروت)، ٥/ ٤/ ٢٠٠٩.

(٢٠) كريستال، **مرجع سبق ذكره**، ص١٥.

(٢١) **المرجع نفسه**، ص ١٦.

(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ١٧ ـ ١٨.

(٢٣) **المرجع نفسه**، ص ١٩ ـ ٢١.

(٢٤) **المرجع نفسه**، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٢٥) هيلينا كوبان، زيارة للقدس، **الحياة** (القدس) ١٤/ ٩/ ١٩٩٥.

أورده: سمير الزبن، القدس مدينة الصراع المفتوح: الإجراءات الإسرائيلية بعد احتلال القدس الشرقية، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد ١٠٨، نيسان/ أبريل ـ آيار/ مايو ـ حزيران/ يونيو ١٩٩٧، ص ١٠٧ ـ ١١٨.

(٢٦) كريستال، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢٧) **المرجع نفسه**، ص ٣٠ ـ ٣٢.

(٢٨) **المرجع نفسه**، ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٢٩) **المرجع نفسه**، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣١) موعد، **مرجع سبق ذكره**.

* * *

obeikan.com

الفصل الثالث

المقاومة الوطنية في القدس

محمود أحمد محمد إبراهيم

جرَّت مكانة القدس عليها الويلات، إذ غدت المدينة المقدسة هدفًا لأطماع الغزاة على مَرّ التاريخ، فقد تناوب على غزوها، وحكمها، في العهد القديم، العبرانيون، والفارسيون، والسلوقيون، والرومانيون، والصليبيون، أما في العهد الحديث، فكان البريطانيون كلهم رحلوا، وبقيت القدس صامدة في وجه الغزاة، وسيأتي الدور ليرحل الصهاينة، وتبقى القدس مشرقة بوجهها العربي[1].

لقد كان هناك وعي مبكر بخطورة المشروع الصهيوني، ومقاومة لهذا المشروع، سياسيًّا، أو عسكريًّا، قديمة قِدَم هذا الوعي، وقِدَم المشروع الصهيوني نفسه.

تدرجت مقاومة المشروع الصهيوني قوة (في أثناء الاحتلال البريطاني ١٩١٧ ـ ١٩٤٨)، بحسب ازدياد الخطورة العملية لهذا المشروع، من هجرةٍ يهودية، واستيطان، وبناءٍ للمؤسسات.

أثبت شعب فلسطين استعداده للتضحية، المبادرة، العطاء، بل، في أحيان عدة، كانت المبادرة الشعبية تفرض نفسها على القيادة السياسية، وتدفعها للجهاد، وبعبارة أخرى، لطالما قاد شعب فلسطين قيادته نحو الثورة، والمقاومة.

إن جذوة المقاومة المسلحة لم تنقطع، على الإطلاق، منذ البداية، وحتى الآن، وإن اتخذت أشكالًا، وحركاتٍ، واتجاهاتٍ مختلفة. وكان هناك، دائمًا، من يصوب البندقية على المشروع الصهيوني، أو على الأقل، من بعد بندقيته لذلك[2].

القدس هي مركز قيادة الحركة الوطنية، ومنبع إفراز مؤسستها الكبرى، اجتماعيًا، واقتصاديًا، وفكريًا. ولقد

حدث ذلك في ظروف غير مواتية، ورغمًا عن محددات شديدة القسوة. فكانت القدس مقر المجلس الإسلامي الأعلى، ودار الإفتاء، و«اللجنة التنفيذية العربية»، ممثلة الشعب الفلسطيني (١٩١٩ـ ١٩٣٤)، و«اللجنة العربية العليا» وريثة اللجنة التنفيذية (١٩٣٦ـ ١٩٤٦) و«الهيئة العربية العليا» (حتى قيام حرب ١٩٤٨).

وحين تـأسست الأحزاب العربية الفلسطنيية، بدءًا من عام ١٩٣٤، كانت القدس المقر الرئيسي لثلاثة منها، حيث أقام رؤساء هذه الأحزاب (العربي، بزعامة جمال الحسيني، والدفاع، بزعامة راغب النشاشيبي، والإصلاح، بزعامة حسين فخري الخالدي) [٣].

● أولًا: المقاومة في أثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨

ترجع أولى علامات المقاومة الفلسطينية المسلّحة إلى سنة ١٨٨٦ (أي قبل الاحتلال البريطاني بـ٣١ عامًا)، عندما هاجم الفلاحون المطرودون من الخضيرة، وملبّس (بتاح تكفا) اليهود في القرى العربية المغتصبة، التي أُجْلُوا عنها رغمًا عنهم، بعد أن اشتراها المستوطنون اليهود من ملاكٍ كبار. وقد دفع ذلك السلطات العثمانية إلى فرض قيود مشددة على الهجرة، والاستيطان اليهودي. وتزايد بعد ذلك الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني، فقد احتج وجهاء القدس المسلمين ضد رشاد باشا، متصرف القدس، في مايو/ آيار ١٨٩٠، عندما أبدى محاباة للصهاينة، وقدموا عريضة لرئيس وزراء الدولة العثمانية، في ٢٤ يونيو/ حزيران ١٨٩١، طالبوا فيها بوقف هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأراضي فيها. وكان لكتابات وأنشطة المصلح الإسلامي، الشيخ محمد رشيد رضا، والسياسي الفلسطيني يوسف الخالدي، ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني، وممثلي مناطق فلسطين في البرلمان العثماني أمثال روحي الخالدي، وسعيد الحسيني، وصحف «الكرمل»، و«فلسطين»، و«المنادي»، وغيرها، دورٌ مجدٍ في زيادة الوعي، وتعبئة الجماهير ضد المشروع الصهيوني، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ [٤].

شهدت القدس بداية معظم أعمال المقاومة الوطنية في فلسطين، فقبيل نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت فلسطين قد خضعت للاحتلال البريطاني، وما أن استولى الجنرال اللنبي على القدس، حتى وصلت لجنة صهيونية، ضمت عددًا من الخبراء، الذين أوفدهم مكتب «المنظمة الصهيونية العالمية» في لندن، وكانت مهمتها القيام بدور استشاري للقيادة العسكرية البريطانية في كل الأمور المتعلقة باليهود، وبإقامة «الوطن القومي اليهودي»، وتمثيل المنظمة الصهيونية في فلسطين [٥].

احتل البريطانيون سنجق القدس (جنوب ووسط فلسطين)، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧، وأكملوا احتلال شمال فلسطين في سبتمبر/ أيلول ١٩١٨. ولكنهم دخلوا فلسطين، كقوة حليفة للثورة العربية، التي قادها الشريف حسين بن علي؛ ولذلك لم يَلْقوا مقاومةً من أبناء فلسطين، على اعتبار وعودهم للعرب بالحرية، والاستقلال. لكن تَنكّر بريطانيا لعهودها، وإعطاءها «وعد بلفور» لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فَتحَ الباب واسعًا لمقاومة المشروع الصهيوني، والاستعمار البريطاني. غير أن الفترة الممتدة من ١٩١٧ ـ ١٩٢٩ اتسمت بتبنّي قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية للمقاومة السياسية السلمية، لأن المشروع الصهيوني لم يكن قد أخذ أبعادًا خطيرةً بَعدُ، علاوة على عدم تبلور ونضج القوى السياسية الفلسطينية[*].

(*) كان المستوطنون اليهود ٨٪ من السكان سنة ١٩١٨، يمتلكون ٢٪، فقط، من أرض فلسطين.

ولأنه كان لا يزال هناك أمل، بأن تَعدِل بريطانيا عن موقفها[٥]، فضلًا على ضعف الفلسطينيين، وقلة خبرتهم في مواجهة بريطانيا العظمى، التي كانت أكبر قوة استعمارية في العالم، آنذاك.

كانت أولى بوادر مقاومة المشروع الصهيوني، إنشاء جمعية «الفدائية» أوائل ١٩١٩، وقد تكونت لها فروع في كل من يافا، والقدس، وغزة، ونابلس، وطولكرم، والرملة، والخليل، وتولى زعامتها، في البداية، محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكالٍ مختلفةٍ حتى سنة ١٩٢٣. وكان من الشخصيات المُوَجِّهة لها، في الخفاء، الشيخ سعيد الخطيب، والحاج أمين الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي. ونشطت في تجنيد الأعضاء، وسط الجندرمة والشرطة الفلسطينية. ورغم أنه تم القبض على الكثير من عناصرها؛ لأنه ظهر أن أفرادها شكّلوا عناصر تحريض مهمة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس ٤/ ٤/ ١٩٢٠، وخلال الفترة من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٩ـ مارس/ آذار ١٩٢٠، وقعت هجمات عربية عديدة على المستعمرات اليهودية في الجليل الأعلى، حيث دُمِّرت مستعمرات المطلة، وتل حي، وكفر جلعادي، واضطر المستوطنون الصهاينة للفرار[٦].

في ٢٧/ ٢/ ١٩٢٠، جرت مظاهرة ضخمة في القدس، اشترك فيها أكثر من ٤٠ ألف مواطن، وقام وفد، باسم المتظاهرين، بمقابلة قناصل الدول في القدس، والحاكم العسكري البريطاني، وقدموا احتجاجاتهم، ومذكراتهم ضد الهجرة اليهودية، و«وعد بلفور»، والصهيونية.

في ١/ ٣/ ١٩٢٠ هاجمت مجموعتان مسلحتان فلسطينيتان مستوطنتي المطلة، وتل حي، شمال فلسطين، وقتلت سبعة من الصهاينة، من بينهم الكابتن اليهودي، جوزيف ترامبلدور.

في ٨/ ٣/ ١٩٢٠ قامت مظاهرة في القدس وهتف المتظاهرون «لا صهيونية ولا هجرة يهودية، لا استيطان، ولا كيان، حرية واستقلال، وحدة عربية»، وتحرش بعض الشباب الصهاينة مستفزين المتظاهرين، وهتفوا للصهيونية، فوقع اشتباك بين العرب واليهود، أدى إلى جرح عشرة من الصهاينة، وقامت القوات البريطانية بتفريق المظاهرة، واعتقال عدد من العرب.

في ١٢/ ٣/ ١٩٢٠ ذهب وفد برئاسة رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، موسى كاظم الحسيني، لمقابلة ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات البريطاني، الذي كان قادمًا للقاهرة من لندن، لبحث القضية الفلسطينية. قابلهم تشرتشل بفتورٍ ملحوظ، وقال: «لا أريد أن أبحث معكم هنا في السياسة، سأقابلكم في القدس في ٢٨/ ٣/ ١٩٢٠» و قد استقبل تشرتشل الوفد الفلسطيني، في ذلك اليوم، حيث قدم موسى كاظم الحسيني مذكرة، طالب فيها بإلغاء «وعد بلفور»، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان فيها، وإقامة حكومة فلسطينية وطنية، مسؤولة أمام مجلس نواب منتخب من الشعب الفلسطيني، واتهمت المذكرة بريطانيا بالتحيز للصهاينة. وأجاب تشرتشل بأن بريطانيا ملزمة بتنفيذ «وعد بلفور»، وقد وافقت عليه دول العالم الحليف، وهي ملزمة، أيضًا، بتنفيذ البند الثاني من الوعد نفسه، الذي نص على عدم المساس بحقوق أهالي البلاد المدنية، والدينية[٧].

(*) أقرت عصبة الأمم، رسميًا الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٢.

انتفاضة موسم النبي موسى

تعد هذه الانتفاضة أولى الانتفاضات الشعبية في فلسطين، تحت الاحتلال البريطاني، وقد حدثت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضة بينما كانت وفود القرى محتشدة، في القدس، يوم ٤/ ٤/ ١٩٢٠، للمشاركة في هذا الموسم الديني السنوي. وقد خطب في هذه الحشود عدد من رجالات فلسطين، مثل موسى كاظم الحسيني، والحاج أمين الحسيني، وعارف العارف، فألهبوا حماس الجماهير. وفي هذه الأثناء، ظهر أن أحد اليهود قد أهان العَلَم الإسلامي لأهل الخليل، وقام بتلويثه، فهاجمه المتظاهرون وأوسعوه ضربًا. ثم تفجَّر الموقف، واتسعت الاشتباكات، لتشمل مدينة القدس بكاملها، ففرضت السلطات البريطانية الأحكام العرفية، وحاولت السيطرة على الوضع، لكن ذيول الأحداث استمرت حتى ١٠/ ٤/ ١٩٢٠، وأسفرت هذه الانتفاضة عن مقتل خمسة صهاينة، وجرح ٢١١ آخرين، بينهم ١٨ إصابة خطيرة. أما العرب، فقد استشهد منهم أربعة، وجرح ٢٤ آخرون، كما جرح سبعة جنود بريطانيين[٨].

تبعها عصيان مدني، في يافا، في ١/ ٥/ ١٩٢٠، سرعان ما امتدت نيرانه لتشمل مدن وقرى أخرى[٩].

لقد جاءت هاتان الحركتان الثوريتان قبل وغداة زيارة وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل إلى فلسطين في ٢٨/ ٣/ ١٩٢١، والذي أكد، بشكلٍ قاطع، دعم بريطانيا للوطن القومي اليهودي، وكان لقاؤه بالوفد العربي الفلسطيني، في القاهرة، في ٢٢/ ٣، وفي القدس في ٢٨/ ٣ مخيبًا للآمال. كما قمعت الشرطة، بعنف، مظاهرة قامت في حيفا في ٢٨/ ٣، وقتلت اثنين من العرب، ومنعت المظاهرات، مما أثار جوًّا من التوتر[١٠].

وكان يمكن لهذه الانتفاضة «موسم النبي موسى» أن تتفاعل، وتتسع، لولا أن موقف الزعامات السياسية الفلسطينية مال إلى تهدئة الوضع. وقام عدد من الوجهاء، ورؤساء البلديات بتهدئة الجماهير. وقدَّرت السلطات البريطانية «خدمات» رؤساء بلديات القدس، وطولكرم، ويافا، وقاضي القدس، ومفتيا عكا، وصفد، فمنحتهم وسام عضو الإمبراطورية M.B.E، وحتى موسى كاظم ـ رئيس «اللجنة التنفيذية العربية»، التي تُمثل قيادة الحركة الوطنية ـ قام بنفسه بجولة لتهدئة الوضع؛ لأن القيادة كانت لا تزال تأمل بحل سياسي، ولم تكن في وضع يؤهلها لأي عمل ثوري، ومن جهتها، قامت السلطات بعمل استرضائي، إذ أوقفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين مؤقتًا، اعتبارًا من ١٤/ ٥/ ١٩٢١. وألقى المندوب السامي، هربرت صمويل، بيانًا، في ٣/ ٦/ ١٩٢١، ذكر فيه أن بريطانيا لن تفرض على شعب فلسطين سياسة تجعلهم يعتقدون بأنها مناقضة لمصالحهم الدينية، والسياسية، والاقتصادية. وقد نشر هذا جوًّا من الارتياح في الوسط العربي، غير أنه لم يكن، عمليًّا، سوى وسيلة لتهدئة الأمور، وترتيب الأوضاع، ليمضي المشروع الصهيوني، بوسائل أكثر احترافًا ونجاحًا. وقد اعترف السكرتير العام للحكومة، ديدز، أن الغالبية العربية شعرت، بعد ذلك بأشهر، بأن الحكومة البريطانية «مقيدة اليد والقدم»، وأن هذا البيان مجرد ذرٍّ للرماد في العيون، وأن الشقة قد اتسعت بين العرب والإدارة البريطانية، التي أصبحوا يرونها والصهيونية شيئًا واحدًا[١١].

وفي ٢٠/ ٣/ ١٩٢٤، كان الصهاينة يحتفلون بعيد المساخر، وأشركوا في مساخرهم زي العلماء المسلمين، مما أثار حفيظة المسلمين، فقُتل يهودي، وآخر مسلم، وجرح يهودي، واثنان من المسلمين[١٢].

وفي ٢٥/ ٣/ ١٩٢٥ أضربت فلسطين، إضرابًا شاملًا، بمناسبة زيارة بلفور إلى فلسطين[١٣]. ثم انفجرت

مرة أخرى، في القدس، في ٢٣/ ٨/ ١٩٢٨، حيث هتف المستوطنون اليهود، أثناء احتفالهم بعيد الغفران، قرب حائط البراق، بامتلاك الحائط، وكادت تحدث المواجهة بين المستوطنين والفلسطينيين، لولا تدخل قوت الاحتلال البريطاني، آنذاك[١٤].

حدث تصعيد يهودي آخر، في ١٥/ ٨/ ١٩٢٩، حيث نظَّم اليهود مظاهرات في القدس، اتجهت إلى «حائط البراق»، وهناك رفعوا العلم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم الوطني، وشتم خطباؤهم رسول الله ﷺ، والإسلام، والمسلمين. وقام المسلمون، في اليوم التالي، بمظاهرة مضادة، من المسجد الأقصى. وحدث شجار بين العرب واليهود، في ١٧/ ٨، زاد الأوضاع توترًا. ثم وقعت صدامات واسعة، بعد صلاة الجمعة يوم ٢٢/ ٨، في القدس[١٥]. حتى اشتعلت الحركة الوطنية، واستمرت المواجهات، التي لم تستطع القوات البريطانية منعها، هذه المرة، وعرفت باسم «هبَّة البراق»[١٦].

مرحلة الثلاثينيات

ظلت القدس، طوال فترة الاحتلال البريطاني، مركز قيادة الحركة الوطنية، و(اللجنة التنفيذية العربية)، التي كانت تنبثق عن المؤتمرات الوطنية العربية، وتأخذ على عاتقها قيادة الحركة الوطنية، إلى مطلع الثلاثينيات، وحين تأسست الأحزاب السياسية الفلسطينية الستة، على مدى النصف الأول من الثلاثينيات، كان المقر الرئيسي لثلاثة منها يقع في القدس، وهي أحزاب: العربي (جمال الحسيني)، والدفاع (راغب النشاشيبي)، والإصلاح (حسين فخري الخالدي)[١٧].

أخذت الهجرة اليهودية تتزايد، بشكل خطير، منذ مطلع الثلاثينيات، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية، وتزايد الوعي بأن بريطانيا هي «أصل الداء وسبب البلاء»، حيث تأكد للفلسطينيين، أن مشكلتهم هي، أساسًا، مع بريطانيا، وركّزت على ذلك حملات «حزب الاستقلال»، و«جمعيات الشبان المسلمين»، على نحوٍ خاص. وطالبت «اللجنة التنفيذية العربية» ـ التي تمثل العرب الفلسطينيين، سياسيًّا ـ بوقف الهجرة، وهدّدت بتبنيٍ سياسة اللاتعاون مع السلطات. وعندما رفضت السلطات البريطانية الطلب، قررت اللجنة تصعيد الموقف، بتسيير المظاهرات، دون إذن السلطات. وقررت الإضراب العام في فلسطين، يوم ١٣/ ١٠/ ١٩٣٣، وإقامة مظاهرة كبرى في القدس، بحيث تتوالى بعد ذلك المظاهرات في مدن وقرى فلسطين، وتضرب البلاد، في كل مرة تحدث فيها المظاهرات. وألزمت اللجنة التنفيذية، أعضاءها، بتقدم المسيرات، وأصدرت بيانًا، أكدت فيه أن «عرب فلسطين قد يئسوا، يأسًا تامًّا، من الحكومة، فهم لا يخاطبونها في شيء، ولا يطلبون منها شيئًا»[١٨].

أضربت فلسطين، وخرجت مظاهرة كبيرة من المسجد الأقصى، بقيادة اللجنة التنفيذية، وقامت الشرطة بتفريق المتظاهرين، بالقوة، مما أدى إلى وقوع ١١ جريحًا، بينهم خمسة من الشرطة[١٩].

حركة القسَّام

لن نتحدث عن جماعة القسام «الجهادية»، ودورها، غير أننا نكتفي هنا بالتركيز على إعلان الشيخ عز الدين القسام الثورة في فلسطين. فبعد نحو عشر سنوات من التنظيم، والإعداد السري، قرر الشيخ القسام إعلان الثورة،

في١٥/ ١١/ ١٩٣٥. وقد توافق ذلك مع الازدياد الهائل في الهجرة اليهودية، والاستيطان، وتهريب اليهود للسلاح بكمياتٍ ضخمة، فضلًا على ازدياد الرقابة على القسَّامَ، ورفاقه. وتلخصت خطة القسام في الخروج إلى القرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة. وقد خرج القسَّام، مجاهدًا في الجبال، في شمال فلسطين، مع نفرٍ من أصحابه، بعد أن باع بيته، وباع أصحابه حلي زوجاتهم، وبعض أثاث بيوتهم، ليشتروا بها البنادق والرصاص.

وقد فقد القسَّامَ وإخوانه عنصر المباغتة، عندما كُشف أمرهم ومكانهم، قبل أوانه، حيث كانوا يخططون للهجوم على إحدى المستعمرات الصهيونية (بيت ألفا). وبعد فجر يوم ١٩/ ١١/ ١٩٣٥، طَوّقت قوات كبيرة من الشرطة، تقدر بـ٤٠٠ رجل ـ مُعظمُهم من الإنجليز ـ القسّامَ، وعشرةً من رفاقه، في أحراش بلدة يعبُد، دارت معركة استمرت أربع ساعات ونصف. وحسب المصادر العربية فإن البريطانيين خسروا خمسة عشر رجلًا، لكن التقارير البريطانية تشير إلى مقتل شرطي واحد، وجرح آخر. وقد استشهد في هذه المعركة الشيخ القسام نفسه، واثنان من رفاقه، فيما قُبض على ستة آخرين[٢٠].

ولا تنبع أهمية الحادثة من الاشتباك نفسه، أو من عدد القتلى، والجرحى، وإنما من أن استشهاد القسام قدم نموذجًا عمليًّا في التضحية، والفداء، كأحد كبار العلماء في فلسطين. وكان استشهاده علامة فارقة، في تاريخ فلسطين الحديث، وأحدث تَغيّرًا أساسيًّا، في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية. إذ إنه كرَّس البديل الجهادى، المستند لقوة الجماهير المنظمة، بعد سنوات من العمل السياسي السلبي المقتصر على العرائض، والتظلمات، والخطب، فحسب، فيما بدا أنه أسلوب غير مجد، لو ظل منفردًا، دون تنظيم المقاومة المسلحة، وتنظيم الجماهير في حركة عصيان واسعة، ضد القوى الاستعمارية، والصهيونية. فألهبت حركته، وتضحيته الحماس، «وصارت مثلًا رائعًا للجرأة، والجهاد العلني، ضد الإنجليز»[٢١].

قامت البلاد، واهتزت، أيما اهتزاز، فأطلق شعب فلسطين على القسام لقب «أبو الوطنية»[٢٢].

وكان القسام محقًّا، قبل استشهاده، عندما قال، قبل ابتداء المعركة، إنه ورفاقه كعود ثقاب، سيشعل الثورة في البلاد. فلم يكن استشهاد القسام نهاية حركته، بل بداية الثورة[٢٣].

الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ـ ١٩٣٩)

تعد هذه الثورة من أعظم الثورات في تاريخ فلسطين، في القرن العشرين، وقد عبّرت عن روح التضحية والفداء والمثابرة والإصرار على الحقوق، التي تميَّز بها أبناء فلسطين. وتمكنت هذه الثورة، في بعض مراحلها، من السيطرة على كل الريف الفلسطيني، بل على عدد من المدن، بينما انكفأت السلطات البريطانية في بعض المدن المهمة. وقدّمت هذه الثورة نموذجًا عالميًّا، هو أطول إضراب سياسي يقوم به شعب كامل، عبر التاريخ، حيث استمر ١٧٨ يومًا. وربما لو كان الأمر مقتصرًا على الصراع بين شعب فلسطين وبين الاستعمار البريطاني لنالت فلسطين حريتها واستقلالها، منذ تلك الثورة، إذا ما قارنا هذه الثورة بثورات الشعوب التي نالت استقلالها. ولكن وجود العامل الصهيوني، وتأثيره القوي داخل فلسطين، وفي بريطانيا، والدول الكبرى، جعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيدًا، وفرض أن تتسع دائرة مشروع التحرير إلى الدائرة العربية والإسلامية.

وانقسمت الثورة إلى مرحلتين، كانت بينهما مرحلة توقف، أشبه «بالهدنة المسلحة»، المشوبة بالتوتر.

المرحلة الأولى من الثورة

لم يلق القساميون السلاح، بعد استشهاد قائدها، فقاموا باختيار قائد جديد، هو الشيخ فرحان السعدي، وعلى الرغم من كونه في الخامسة والسبعين من عمره، فإنه كان لا يزال مقاتلًا صلبًا، نشطًا، مشهورًا بدقته في إصابة الهدف. وقد عملت هذه الجماعة على تهيئة الظروف لانطلاقة أقوى وأوسع [٢٤].

ففي ١٥/ ٤/ ١٩٣٦، هاجمت مجموعة قسامية مسلحة قافلة سيارات يهودية، في منطقة المثلث الفلسطيني (نابلس/ جنين/ طولكرم)، وقتلت بعض ركابها[٢٥].

وفي أعقاب إعلان الإضراب العام الشامل، الذي بدأته يافا، فالقدس، في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦، قامت الثورة في فلسطين، واستمرت زهاء ثلاث سنوات متصلة، وبمجرد انفجار الثورة، سارعت الأحزاب السياسية العربية الستة، في القدس، من ٢٥/ ٤/ ١٩٣٦، للحاق بالمبادرة الشعبية، حيث شكلت هذه الأحزاب جبهة فيما بينها، حملت اسم «اللجنة العربية العليا»، وقررت استمرار الإضراب السياسي، الذي امتد زهاء ستة أشهر متصلة، كانت القدس خلالها تمتلك زمام المبادرة، وانتهى الإضراب ببيان أصدره الملوك والأمراء العرب، دعوا فيه الشعب الفلسطيني إلى وقف الإضراب «اعتمادًا على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا» [٢٦]!

مرحلة التوقف المؤقت للثورة: أكتوبر ١٩٣٦ ـ سبتمبر ١٩٣٧

دخلت فلسطين، بعد توقف الإضراب، في شبه هدنة مؤقتة، بانتظار نتائج توصيات اللجنة الملكية «لجنة بيل»، التي أرسلت للتحقيق في مطالب أهل فلسطين. وقد حافظ الثوار على درجة من الجاهزية، يسهل معها انتقال البلاد إلى الوضع الثوري السابق، في حالة عدم تحقيق المطالب العربية. ولذلك، فقد استمرت عمليات المجاهدين ذات الطابع الفردي، كالنسف، والقنص، والاغتيالات السياسية. وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمقتل ٩٧ شخصًا، بينهم ٩ جنود بريطانيين، وجرح ١٤٩ بينهم ١٣ من رجال الشرطة، والجيش، خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٣٧ [٢٧].

المرحلة الثانية من الثورة (سبتمبر/ أيلول ١٩٣٧ ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩)

في صيف ١٩٣٧، عاد الفلسطينيون إلى حمل السلاح، إثر صدور تقرير «لجنة بيل» الإنجليزية (٧/ ٧/ ١٩٣٧)، التي اقترحت تقسيم فلسطين، وامتدت الثورة حتى الربع الأول من عام ١٩٣٩، وتمركزت قيادتها في القدس، حيث مقر «اللجنة العربية العليا»، والقيادة الفعلية للثورة، ولم تتوقف الثورة بإلقاء السلطات البريطانية القبض على أعضاء «اللجنة العربية العليا»، خريف ١٩٣٧ [٢٨].

مرحلة الأربعينيات

شهدت الفترة من (١٩٤٠ـ ١٩٤٥) تدهورًا حادًّا، وصل إلى حد السكتة القلبية، ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية (صيف ١٩٤٥)، عادت الحركة الوطنية إلى الحياة، مرة أخرى، حيث سمحت قوات الانتداب البريطاني بعودة

الزعماء المنفيين، أمثال رئيس الحزب العربي، جمال الحسيني، كما تم الإفراج عن جميع المعتقلين، وتم تشكيل «الهيئة العربية العليا»، وفي القدس تشكلت قيادة «الجهاد المقدس»، للدفاع عن التراب الوطني، والتصدي لقرار التقسيم، الصادر عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧[٢٩].

● ثانيًا: ما بين النكبة والانتفاضة الأولى (١٩٤٨-١٩٨٧)

تمثل حرب ١٩٤٨ أحد أكبر مآسي التاريخ الفلسطيني، والعربي، والإسلامي الحديث، والمعاصر، على حدٍّ سواء، إذ إنها الحرب التي أدت إلى سقوط ٧٧٪ من أرض فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني، وأدت نتائجها إلى تثبيت كيانه «الإسرائيلي» حديث التأسيس عليها، وتشريد نحو ثلثي شعب فلسطين[٣٠].

مع قيام الدولة الصهيونية، عام ١٩٤٨، على أرض فلسطين، واغتصابها لأجزاء كبيرة من مدينة القدس، إلى جانب أراضي فلسطينية أخرى، وإعلان الدولة الصهيونية القدس عاصمة لها، دخلت القدس مرحلة جديدة من الصراع الديني، والسياسي، على حدٍّ سواء، بين العرب، من جهة، والكيان الصهيوني، وحلفائه الغربيين، من جهةٍ أخرى.

ومضيًّا من إسرائيل في فرض العدوان بالأمر الواقع، فقد سعت، في صيف عام ١٩٥٤، إلى أن يقدم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم في القدس (الإسرائيلية)، وقدم السفير البريطاني الجديد أوراق اعتماده، إلى بن تسفي، رئيس دولة إسرائيل، حينذاك، في مدينة القدس، يوم ١٠/ ١١/ ١٩٥٤، وبعده بيومين قدم سفير الولايات المتحدة الجديد، مستر لوسون أوراق اعتماده، في مدينة القدس، وبعد ذلك تقدمت إسرائيل بخطوة عدوانية جديدة، لم تحفل باستنكار مجلس الامن الدولي، وهي إقامة العرض العسكري بمدينة القدس، في منتصف مايو/ آيار من كل عام، لمناسبة الاحتفال بما أسمته إسرائيل «عيد الاستقلال»[٣١].

وتعد الفترة ما بين ١٩٥٧ـ ١٩٦٤، فترة مخاض في تاريخ المقاومة الفلسطينية، إذ أخذت تظهر العديد من المنظمات الفدائية الفلسطينية، لعل أبرزها «فتح»، التي أنشأها، ابتداءً، وانحاز إليها، رجال الإخوان المسلمين، الراغبين في تفجير الثورة، ضمن مشروع وطني فلسطيني، و«الجبهة القومية لتحرير فلسطين»، المعروفة باسم «شباب الثأر»، وهي تنظيم إقليم فلسطين التابع لحركة القوميين العرب، والتي بدأت عملياتها في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٤، «وجبهة التحرير الفلسطينية»، بزعامة أحمد جبريل، التي بدأت عملياتها، حوالي ١٩٦٥. ومنذ انطلاقة العمليات المسلحة لحركة «فتح»، وحتى حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧، قام جناحها العسكري (العاصفة)، بشنِّ ٢٠٠ عملية مسلحة[٣٢].

شكلت حرب يونيو/ حزيران١٩٦٧، نقطة تحول كبرى في الصراع العربي ـ الصهيوني، بعدما استولت «إسرائيل» على القدس القديمة، واحتلت الحرم القدسي الشريف، وأخذ الصراع يتمحور في مظهرين أساسيين، **الأول**: تزايد بناء المستوطنات اليهودية، في الجزء الشرقي من القدس، مع مزيد من مصادرة الأراضي العربية فيها، **والثاني**: تزايد أعداد المهاجرين اليهود، إليها، وتراجع نسبة الوجود العربي هناك[٣٣].

في ٧ يونيو/ حزيران كان الكيان الإسرائيلي قد أكمل احتلاله للضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية. ودخل

جنوده حرم المسجد الأقصى، وهم يهزجون «محمد مات ... خلف بنات» ! أي يقصدون رسول الله ﷺ، ويصرخون «يالثارات خيبر»، معلنين انتقامهم لهزيمة اليهود على يد رسول الله ﷺ، في خيبر، سنة ٦٢٩م ـ ٧هـ، قبل نحو ١٣٤٠ سنة [٣٤].

تجلى صمود المقاومة الوطنية الفلسطينية، في وجه تهويد المؤسسات الفلسطينية، في عدة أحداث، ففي عام ١٩٦٧، عرض على أمين القدس الشرقية، روحي الخطيب، أن ينضم إلى بلدية القدس الموحدة (الإسرائيلية)، وهو ما رفضه الخطيب وأعضاء الأمانة، إلا أن الأمر انتهى بصدور أمر إسرائيلي، قضى بحل أمانة القدس الشرقية، في ١٩٦٧/٦/٢٩. وفي أعقاب هذا القرار، تم دمج معظم الموظفين في البلدية (الإسرائيلية)، كما جرت محاولة من وزارة الأديان (الإسرائيلية)، للسيطرة على الشؤون الدينية، والإسلامية في القدس الشرقية، والضفة الغربية. وعلى إثر ذلك، تم تشكيل «الهيئة الإسلامية»، وفي الاتجاه نفسه، رفضت الغرفة التجارية، في القدس الشرقية، عروضًا ثلاثة، تقدمت بها ثلاث روابط محلية إسرائيلية، لضم الغرفة إلى الهيكل التنظيمي لتلك الروابط، إضافة إلى «شركة كهرباء القدس»، التي قاومت السيطرة (الإسرائيلية)، حتى عام ١٩٨٦، كما تصدت المدارس الفلسطينية، في القدس، لفرض منهج دراسي عربي ـ إسرائيلي، واستمرت المعركة، لسنوات طويلة، اضطرت الحكومة الإسرائيلية، خلالها، للوصول إلى تسوية، حيث فرضت السلطات الإسرائيلية المنهج العربي ـ الإسرائيلي على المدارس الحكومية، ولم تفرضه على مدارس وكالة الغوث، أو المؤسسات التعليمية الخاصة، ثم سمحت بإدخال المنهج الأردني، إلى جانب المنهج العربي ـ الإسرائيلي. أما الجمعيات المهنية المختلفة، كالمحامين، والأطباء، والمهندسين، فقد رفضت تسجيل مؤسساتها لدى السلطات (الإسرائيلية)، إلى أن تسمح لهذه الجمعيات بالعمل، بموجب التسجيل الأردني القائم. وترافقت المقاومة السابقة، مع إنشاء مؤسسات وطنية جديدة، تم تشكيل «لجنة التوجيه الوطني»، برئاسة الشيخ عبد الحميد السائح، وقد أدت هذه اللجنة، إلى جانب «الاتحاد النسائي العربي»، دورًا مقاومًا مهمًا داخل المدينة.

اتسمت الفترة السابقة على الانتفاضة، وبالتحديد منذ ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٧، باتباع إستراتيجيتين أساسيتين، إحداهما المقاومة السلبية، التي كانت امتدادًا للفترة السابقة، وشكلًا من أشكال التكيُّف تحت الاحتلال للبقاء، كما كانت شكلًا من أشكال تأكيد الهوية الوطنية. وبينما جري تأكيد الصمود بالمقاومة السلبية، باعتبارها الإستراتيجية الرئيسية للنخبة، ومنظمة التحرير، ومؤيديها، في المناطق المحتلة، مع تلقي الدعم من الدول العربية، لمواصلة هذا الصمود، فإن المناضلين والشباب، في الحركة الطلابية الفلسطينية، كانوا يطوّرون إستراتيجية المقاومة النشطة، في مواجهة التنظيم السلبي للصمود، وقد بدأ الشباب بإقامة بنية تحتية بادية، في ميادين الصحة، والتعليم، والزراعة، ضمن إطار المقاومة الجماهيرية، وقد أقيم الكثير من هذه المجموعات المجتمعية، واللجان في القدس الشرقية.

وخلال الفترة ما بين ١٩٧٥ـ ١٩٨٧، تركزت المنظمات الاجتماعية، والثقافية، في القدس، مما أدى إلى اعتبارها مركزًا للنشاطات الفلسطينية، وقد كان لهذه المؤسسات تأثيرها على المدينة، كما ساعد اختيار الصحف، والمسارح، وغيرها، القدس الشرقية مركزًا لنشاطاتها، في الحفاظ على الهوية الفلسطينية هناك[٣٥].

الانتفاضة الأولى

كانت أبرز مظاهر المقاومة المسلحة للمشروع الصهيوني، في تلك المرحلة، الانتفاضة الأولى، التي اشتهرت باسم

«انتفاضة الحجارة»، و«انتفاضة الأقصى والاستقلال»، وهزيمة الكيان الإسرائيلي، في جنوب لبنان، واضطراره للانسحاب من هناك. وتميزت تلك المرحلة بأن القوى الفلسطينية الأساسية، التي تبنت المقاومة المسلحة، طوال العشرين سنة السابقة، ممثلة في قيادة م.ت.ف، و«فتح»، قد جنحت إلى خط التسوية السلمية. بينما ظهرت فصائل فلسطينية جديدة، تبنت العمل العسكري وفق منظور إسلامي «جهادي»، وبرعت في تنفيذ العمليات العسكرية في الداخل. فتولت «حماس» قيادة الفعاليات «الجهادية»، وإلى جانبها ـ وإن بدرجةٍ أقل في عدد العمليات ـ «حركة الجهاد الإسلامي»!

قد حدثت شرارة الانتفاضة الأولى، في يوم ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧، إثر استشهاد أربعة عمال فلسطينيين، في حادث دهس متعمد، في اليوم الذي سبقه. وقد قررت حركة الإخوان المسلمين المشاركة في الانتفاضة، وتوجيهها، فبدأت بترتيبها المظاهرات العارمة، بعد صلاة الفجر (٩ ديسمبر/ كانون الأول) من مسجد مخيم جباليا، وسقط الشهيد حاتم السيسي، ثم سقط الشهيد رائد شحادة، في مظاهرة أخرى، قرب مستشفى الشفاء(*).

وتوالى سقوط الشهداء، واتسعت المظاهرات، لتعم أرجاء الضفة، والقطاع، وليشارك فيها كافة أبناء الشعب[٣٦].

وتميزت المرحلة الأولى، من الانتفاضة، بالمواجهات الشعبية الواسعة، والإضرابات، والمظاهرات، ومقاطعة الإدارة المدنية الصهيونية، وتنظيف المجتمع من العملاء، ومروجي الفساد، والمخدرات. وبعد نحو أربع سنوات، أخذت تبرز المرحلة الثانية، التي شهدت تنامي العمليات المسلحة، ضد القوات الصهيونية، مع تراجع الأنشطة الجماهيرية الواسعة. وقد عدّت أغلبية قيادة «فتح»، «اتفاق أوسلو» (سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣)، نهاية للانتفاضة، فأوقفت فاعلياتها، أما المنظمات الأخرى، وخصوصًا «حماس»، و«الجهاد الإسلامي»، فقد استمرتا في فاعلياتهما، بل صعّدتا من عملياتهما الجهادية. غير أن تشكيل السلطة الفلسطينية، في الأرض المحتلة في ٤/ ٧/ ١٩٩٤، أفقد الانتفاضة الكثير من وهجها، كما أفقدها المشاركة الشعبية الجماهيرية اليومية، فاقتصر الأمر، بشكل أكبر، على أعضاء الحركات والتنظيمات.

ومن جهة أخرى، عدّت القيادة المتنفذة في الانتفاضة، رافعة لها من محاولات العزل، والتهميش، والتجاوز، فسعت لتوظيف الانتفاضة، في تحقيق إستراتيجية تلك القيادة، للوصول إلى تسوية سلمية، مع الكيان الصهيوني، تؤدي إلى انسحابه، وإقامة الدولة الفلسطينية على أراضيها. فبعد أسبوعين من بدء الانتفاضة الأولى، دعت م.ت.ف إلى إضراب عام يوم ٢١/ ١٢/ ١٩٨٧، وبدأت صور ياسر عرفات، وشعارات المنظمة في الظهور. وشكلت م.ت.ف «القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة»، التي شاركت فيها «فتح»، و«الجبهة الشعبية»، و«الديمقراطية»، و«الحزب الشيوعي»، وصدر بيانها الأول في ٨/ ١/ ١٩٨٨[٣٧].

وهكذا بدأ يتنازع قيادة الانتفاضة تياران، هما التيار الإسلامي، وتيار م.ت.ف، بإستراتيجيات مختلفة، وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات جهادية نضالية، متشابهة، تقريبًا، ضد العدو، تمثلت في المظاهرات، والإضرابات، وقذف

(*) (وأصدر الإخوان المسلمون، بيانهم الأول، باسم حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، في ١٣/ ١٢/ ١٩٨٧، التي عدّوها امتدادًا لهم، وجناحهم الضارب).

الصهاينة بالحجارة، وقنابل المولوتوف الحارقة، وغيرها. وكانت الجماهير تستجيب لكلا التيارين، وتلتزم بالإضرابات، التي يدعوان إليها.

وقد قام الاحتلال الصهيوني بإجراءات لا مثيل لها لقمع الانتفاضة، فاستخدم الرصاص الحي، ورصاص الدمدم، المحرم دوليًا، وأساليب تكسير عظام المتظاهرين، ومختلف أشكال تعذيب الأسرى، ومنع السفر، وقطع المواصلات، والاتصالات الهاتفية، ومصادرة الهويات، وهدم المنازل. وشملت إجراءات الاحتلال الحصار التمويني، وإغلاق الأسواق، وإتلاف المحاصيل الزراعية، ومحاولات كسر الإضرابات التجارية. وتعرضت المؤسسات التعليمية والصحية الفلسطينية لعمليات الإغلاق، والمداهمة، فضلًا على انتهاك حرمة المساجد[٣٨].

وتعد الانتفاضة المباركة، من أروع وأنبل ما شهده تاريخ فلسطين، بل التاريخ الإنساني، عندما واجه شعب أعزل، بأطفاله، ونسائه، وشيوخه، إحدى أعتى، وأقسى، القوى في العالم، والمدججة بأحدث أسلحة البطش، والدمار. وانشَدَّ العالم إلى ذاك الشعب، مُعجبًا، ومبهورًا، بـ «العين التي تحدَّت المخرز»، وبالحجر الذي واجه الرصاصة، والدبابة. وكان من أبرز إنجازات الانتفاضة:

ـ أثبتت للكيان الإسرائيلي فشل كافة أساليبه في تركيع وإذلال الشعب الفلسطيني. وأثبتت للعالم أن هناك شعبًا مظلومًا، أرضه محتلة، ويريد أن يعيش حرًا مستقلًا.

ـ فضحت الوجه القبيح للكيان الإسرائيلي، وأظهرته قوة اغتصاب، وإجرام، وقهر للآخرين.

ـ وجهت الانتفاضة ضربة قوية لمظاهر الاحتلال، ومؤسساته، وخصوصًا الجواسيس، والعملاء، المتعاونين مع جهاز المخابرات الإسرائيلي، وتمت تصفية نحو ٩٠٠ منهم.

ـ عالجت الانتفاضة، بكثير من النجاح، مظاهر الفساد الـخُلقي، والاجتماعي، وتضاعفت مظاهر التدين، وظهر جيل جديد من الشباب، والفتيان، يمتاز بالشجاعة، والثقة بالنفس، والاستعداد للتضحية، والاستشهاد.

ـ عادت القضية الفلسطينية لتتصدر قائمة الاهتمامات الدولية.

ـ أظهرت الانتفاضة قوى جديدة، أصبحت ذات تأثير فاعل في الساحة الفلسطينية، ممثلة في «حماس»، و«الجهاد الإسلامي».

كما من نتائج الانتفاضة أن عاد الوهج والألق لـ م.ت.ف، وقيادتها، مرة أخرى، وفرضت نفسها على الساحة من جديد.

انتهت الانتفاضة المباركة الأولى، بتوقيع قيادة م.ت.ف، اتفاق أوسلو (١٣/ ٩/ ١٩٩٣)، وبدء مرحلة الحكم الذاتي، في أجزاء من الضفة، والقطاع (٤/ ٧/ ١٩٤٤). غير أن «حماس»، و«الجهاد الإسلامي»، استمرتا في فعالياتهما الجهادية، وعملياتهما العسكرية النوعية، وخصوصًا الاستشهادية. فقد ردَّت حماس على مذبحة الحرم الإبراهيمي (٢/ ١٩٩٤) بخمس عمليات عنيفة. وردت على استشهاد يحيى عياش[*] عبر عدة عمليات في الفترة الواقعة بين ٢٥/ ٢ ـ ٤ / ٣/ ١٩٩٦، هزت الكيان الصهيوني وأفقدته صوابه، واستدعت عقد مؤتمر دولي بمشاركة الدول الكبرى، بهدف ما أسموه «محاربة الإرهاب»![٣٩].

(*) كان مهندسًا لعمليات عسكرية مقاومة، أدت لمقتل ٧٠ صهيونيًا، وجرح ٣٤٠ آخرين.

● ثالثًا: الدفاع عن الأقصى (١٩٩٠-٢٠٠٣)

يقوم المسلمون في فلسطين بالسهر على حماية المسجد الأقصى، ورعايته، إذ إن ضمن أهداف الاحتلال الصهيوني، تدمير المسجد الأقصى، وبناء الهيكل مكانه. وهناك ٢٥ منظمة يهودية ـ صهيونية، متطرفة، تسعى لتحقيق هذا الغرض. وعادة ما يجتمع المسلمون، بالآلاف، للدفاع عن حرمة الأقصى (وهم لا يملكون إلاّ حجارتهم، ولحوم أجسادهم)، كلما حاول الصهاينة انتهاك حرمته.

في ٨ / ١٠/ ١٩٩٠ حاولت جماعة «أبناء الهيكل»، اليهودية ـ الصهيونية، وضع حجر الأساس لبناء «الهيكل اليهودي» في ساحة المسجد الأقصى، فهبَّ المسلمون، يدافعون عن حرمته، مما أدى لاستشهاد ٣٤، وجرح ١١٥ آخرين، بعد أن تمكنوا من إفشال المخطط الصهيوني. وفي ٢٤ / ٩/ ١٩٩٦، قامت سلطات الاحتلال الصهيوني، بافتتاح نفق أسفل المسجد الأقصى، مما أدى إلى انتفاضة غضبٍ عارمة، شملت مدن وقرى فلسطين، ووقعت اشتباكات واسعة، مع الشرطة، والجيش الإسرائيليين، اللذين استخدما الأسلحة المختلفة، وطائرات الهيلوكبتر، لقمع الانتفاضة. وتدخلت الشرطة الفلسطينية، للدفاع عن الفلسطينيين، ضد الهجمات الإسرائيلية، واستمرت الأحداث ثلاثة أيام متصلة (٢٥ ـ ٢٧/ ٩/ ١٩٩٦)، مما أدى لاستشهاد ٦٢ فلسطينيًّا، وجرح ١٦٠٠ آخرين، وقتل ١٤ جنديًّا إسرائيليًّا، وجرح ٥٠ آخرين.

لقد كانت زيارة الإرهابي آرييل شارون، زعيم حزب «الليكود»، الاستفزازية، إلى حرم المسجد الأقصى، في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠، الشرارة التي فجرت الانتفاضة الثانية، وكان واضحًا أن ثمة مباركة، وتأييدًا، من رئيس الحكومة الصهيونية، آنذاك، إيهود باراك للزيارة، حيث زوده بستمائة جندي لمرافقته، واستنفر ٣٠٠٠ جندي، وشرطي في القدس وأحيائها. وصمم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مائة. وكانت عناصر اشتعال الوضع، وأسباب تفجره جاهزة، فقد وصلت مفاوضات التسوية السلمية، إلى طريق مسدود، وتأكدت الأطماع الصهيونية اليهودية في القدس، والمسجد الأقصى، وظهر التعنت الإسرائيلي، في قضايا اللاجئين، والمستوطنات، واستمر الصهاينة في مصادرة الأراضي، وتوسيع المستوطنات. ولم يكونوا مستعدين للتنازل، أو لتنفيذ القرارات الدولية، عندما يتعلق الأمر بالقضايا الجوهرية الحاسمة.

وبدا لباراك أن «الحل الوحيد الذي لاح في الأفق، كان دفع الوضع إلى الانفجار»، كما قال بنفسه في اجتماع سري، في ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٠، ولعله أراد إظهار مزيد من التصلب، وتوسيع دائرة شعبيته، واستثمار ذلك في وقف عملية التسوية، أو إدخالها في أزمات متتالية، في الوقت الذي تزداد فيه عمليات الهجرة اليهودية، ومصادرة الأراضي، والاستيطان، ليتسنى تحقيق مزيد من الضغط على السلطة الفلسطينية، التي أثبتت السنوات الماضية قابليتها للتنازل، والتراجع، وتخفيض سقف مطالبها.

أفرزت الانتفاضة عددًا من الحقائق والمؤشرات أهمها:

● **الأولى**: أن الأمة العربية، والشعوب الإسلامية، لا تزال حية، رغم الجراح التي أثخنتها، وأن روح المقاومة، والصمود، والاستعداد للبذل، والتضحية، لم تخمد. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف، بل بمئات الآلاف، في

أقطار الوطن العربي، وبلدان العالم الإسلامي، من الرباط، في أقصى المغرب العربي، وحتى جاكرتا، في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى، والقدس، وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات مالية، ودعم سياسي، وعسكري. فكانت لحظات رائعة من أخوة العروبة، والإسلام. وظهرت تجليات الإمكانات الكبرى، لهذه الأمة، لتحقيق النصر، عبر المقاومة.

● **الثانية**: وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية، والتطبيع مع العدو، وبرز خيار المقاومة كخيار أمثل.

● **الثالثة**: أن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس، وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، والإمبريالية، وتكرست روح المقاومة، وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غيّر الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم، ووسائل تنقلهم، واتصالاتهم، وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات، للوصول إلى مثل نتائجها.

● **الرابعة**: أن التسوية السلمية قائمة على الظلم والغصب، وأن الجماهير الفلسطينية، والعربية، والإسلامية، ترفض التنازل عن حقوقها في الأرض المقدسة، وأنها لا تأمل من الغاصب الصهيوني سلامًا، أو خيرًا، وأنها ترى في الجهاد الوسيلة لاسترداد الحقوق.

● **الخامسة**: برزت أهمية الإعلام، ودوره في التعبئة، إذ تمكنت الجماهير المنتفضة من كسر الطوق الإعلامي الغربي الخاضع للهيمنة الصهيونية، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الإنترنت، والبريد الإليكتروني، وخصوصًا في المراحل الأولى من الانتفاضة.

ومن جهة أخرى، تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة، في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت نفسه، بشدة القمع الصهيوني، الذي تمادى في قتل المدنيين العزل، وخاصة الشيوخ، والأطفال، واستخدام الأسلحة المحرمة دوليًا، وانكشفت سوءات أدعياء السلام «الصهاينة»، الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة بكل وحشية، ونزعة عنصرية.

لقد ثبت أبناء فلسطين، ثباتًا بطوليًا، طوال سنين الانتفاضة، ولا يزالون. وعلى الرغم من اختلاف المصادر في التحديد الدقيق لخسائر الانتفاضة، وأعداد الضحايا، فإننا نختار هنا أرقام «مركز المعلومات الوطني الفلسطيني»، التابع للسلطة الفلسطينية، وهي تميل إلى التوسط والاعتدال. وتشير إحصاءات هذا المركز، إلى أن عدد شهداء الانتفاضة منذ اندلاعها في ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠، وحتى ٣١/ ١/ ٢٠٠٣، كان ٢٢٧١ شهيدًا، بينهم ٤٠١ تحت سن الثامنة عشرة. أما عدد الجرحى فبلغ خلال الفترة نفسها ٣٣٦٣٧ جريحًا.

كما تبنى العدو الصهيوني سياسة الاغتيال السياسي لنشطاء الانتفاضة، حيث استشهد من جراء ذلك حتى نهاية ١٢/ ٢٠٠٢، نحو ١٩١ فلسطينيًا، من مختلف الفصائل الفلسطينية[٤٠].

إن كافة الأساليب القمعية، لم تفلح في قمع الانتفاضة، التي أخذت طابعًا عسكريًّا مقاومًا، زاد قوة، مع تطور الأحداث. واعتمد الكيان الصهيوني، أسلوب التعتيم الإعلامي، وإخفاء خسائره الحقيقية، وعدم الإعلان، إلا عمَّا لا يمكن إخفاؤه، وإعطاء أرقام أقل للحفاظ على معنويات التجمع الصهيوني، وجنوده، وعلى الثقة بالقيادة الصهيونية، وإشعار المجاهدين والمقاومين، أن فعالياتهم، وعملياتهم، غير مؤثرة، فضلًا على إضعاف روح التفاعل الجماهيري العربي، والإسلامي، والشعبي الدولي، مع القضية.

وقد شاركت الفصائل الفلسطينية، كافة، في العمليات العسكرية. وتميزت «حماس»، بدورها البارز، وبعملياتها الاستشهادية، التي أحدثت دويًّا هائلًا، وزعزعت الأمن في الكيان الإسرائيلي، حيث نفذ معظمها في أراضي فلسطين التي احتلت سنة ١٩٤٨. وحتى نهاية ١/ ٢٠٠٣، تم تنفيذ نحو ٩٠ عملية استشهادية، نفذت «حماس»، أغلبها، وأقواها أثرًا. كما نفذت كل من «كتائب شهداء الأقصى» التابعة لحركة «فتح»، و«سرايا القدس» التابعة لحركة «الجهاد الإسلامي»، مجموعة من هذه العمليات. وقد بلغ عدد قتلى الكيان الإسرائيلي، نتيجةً للعمليات الاستشهادية ٢٩٧ قتيلًا، من أصل ٧٢٤ قتلوا في الفترة من ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠، وحتى ٣١/ ١/ ٢٠٠٣.

● رابعًا: يوميات القدس (٢٠٠٤-٢٠٠٨)

في عام ٢٠٠٤ نفذت عملية استشهادية بالقدس الغربية، أعلنت كتائب «شهداء الأقصى» مسؤوليتها عنها، ومن نتائجها إصابة العشرات، فيما لقيَ ثمانية إسرائيليين مصرعهم.

كذلك قامت قوات الاحتلال باقتحام المسجد الأقصى، وأطلقت القنابل الصوتية، وقنابل الغاز على المصلين[٤١].

ثم قامت المظاهرات في الأراضي الفلسطينية، وفي العواصم العربية، احتجاجًا على اغتيال الشيخ المجاهد الشهيد أحمد ياسين، القيادي لحركة «حماس»، وذلك في ذكرى يوم الأرض الثامن والعشرين[٤٢].

وجهت مؤسسة «الأقصى»، لإعمار المقدسات الإسلامية، نداءً للعالمين العربي والإسلامي، للتحرك بهدف إنقاذ الأقصى، حيث أكدت بوجود مخطط، صهيوني، لنسف المسجد.

قوات الاحتلال تمنع المصلين الفلسطينيين، ممن لم يتجاوز أعمارهم ٤٥ عامًا، وغير الحاصلين عن الهوية (الإسرائيلية)، من الدخول إلى منطقة الحرم، وأداء صلاة الجمعة. في صباح يوم السبت، اغتيل الدكتور الشهيد عبد العزيز الرنتيسي، الذي خلف المجاهد أحمد ياسين في قيادة حماس[٤٣].

الآلاف من فلسطينيي ١٩٤٨ يتوافدون على الحرم، القدسي، للمشاركة في مهرجان الحركة الإسلامية، ردًّا على التهديدات الصهيونية للحرم. ثم قامت المظاهرات، والإضرابات، تضامنًا مع الآلاف من الأسرى، في سجون الاحتلال[٤٤].

شهدت القدس في عام ٢٠٠٥، عدة أحداث، حيث جرت مواجهات بين شرطة الاحتلال، وآلاف الفلسطينيين، الذين احتشدوا في المناطق المحيطة بالحرم القدسي الشريف، واستخدمت شرطة الاحتلال، الغاز المسيل للدموع،

لتفريق تلك الحشود[٤٥]. كما تم هدم ٨ منازل فلسطينية، ومحطة بنزين، بشرق القدس ضمن خطة مجلس المدينة الإسرائيلي لهدم ٩٠ منزلاً، لإقامة متحف للحفريات[٤٦].

مفتي القدس والديار الفلسطينية، الشيخ «عكرمة صبري»، حذر من خطورة الممارسات الإسرائيلية على المسجد الأقصى المبارك، داعيًا إلى شد الرحال إلى المسجد الأقصى، رغم الحواجز العسكرية.

قام مواطن فلسطيني بطعن جندي إسرائيلي بسكين (لقي مصرعه في الحال)، عند حاجز للجيش الإسرائيلي، شمال القدس[٤٧].

قامت قوات الاحتلال الصهيوني في ٤/ ١/ ٢٠٠٦، بمنع مرشحي دائرة القدس، من إطلاق حملتهم الدعائية في المدينة، خلال الانتخابات التشريعية، واعتقلت عددًا منهم، واعتدت على آخرين بالضرب المبرح[٤٨].

أغلقت الأوقاف الإسلامية في القدس المحتلة، أبواب المسجد الأقصى، في وجه غير المسلمين، وذلك لإحباط محاولات اقتحامه، وتدنيسه[٤٩].

في ٢١/ ١/ ٢٠٠٧ قاضي قضاة فلسطين يدعو العالم العربي، والإسلامي، إلى قمة إسلامية طارئة، لمواجهة التهديدات الإسرائيلية في القدس. ثم احتج آلاف الفلسطينيين في الأقصى، على أعمال الحفر الإسرائيلية قرب الأقصى[٥٠].

كذلك توعدت بعض الفصائل الفلسطينية، إسرائيل، برد مزلزل على اعتداءاتها على الأقصى، وندد نوابٌ عرب، في الكنيست، بالحفريات قرب الأقصى، ومواجهات، وتظاهرات حاشدة، عند مدخل القدس، وفي الناصرة، وآلاف الفلسطينيين يلبون نداء نصرة الأقصى، والشرطة الإسرائيلية اقتحمت ساحة المسجد، وتواصل الحفريات عند الأقصى[٥١].

الآلاف من الفلسطينيين، يشاركون في مهرجان دعم الأقصى، ويصلون في المسجد، في الجمعة الأولى من رمضان[٥٢].

إعلان حالة التأهب القصوى، وإغلاق تام، لكافة الأراضي الفلسطينية، من قبل قوات الاحتلال، بمناسبة عيد الغفران عند اليهود، وتمنع كذلك الصلاة في الأقصى، ثم تستأنف أعمال الحفر بالحرم القدسي[٥٣].

في مطلع عام ٢٠٠٨، مقتل ٨ إسرائيليين، وإصابة ٣٥ آخرين، في هجوم على مدرسة دينية بالقدس، و«حماس» تعلن مسؤوليتها عن العملية، وصدمة، وقلق في إسرائيل جراء هذه العملية، وخروج الآلاف من الفلسطينيين من قطاع غزة في مسيرة احتفالية بهذه العملية، ثم أطلقت وزارة الأوقاف في حكومة غزة، حملة شعبية عالمية لنصرة المدينة المقدسة، بالتزامن مع ذكرى حريق الأقصى، و«إسماعيل هنية» يجدد رفض حكومته المُقالة، أي اتفاق يتنازل عن القدس، وحق اللاجئين في العودة إلى ديارهم[٥٤].

قام مستوطن صهيوني في ١٦/ ١٠/ ٢٠٠١، باقتحام المسجد الأقصى، للمرة الثانية، وقام آخر بفتح معبد على بعد أمتار من المسجد الأقصى.

مظاهرات حاشدة، واحتجاجات على هدم مقبرة إسلامية، من قِبَل قوات الاحتلال، وبناء معبد عليها، ورئيس البلدية الإسرائيلي، بالقدس، يتعهد ببناء مزيد من المنازل للإسرائيليين، في شرق المدينة المقدسة[٥٥].

هكذا وُوجه الصهاينة، ببركان غضب عارم، ليس في فلسطين وحدها، وإنما في الوطن العربي، والعالم الإسلامي، وحيثما وجدت الجاليات الإسلامية، وأبطل الله، سبحانه وتعالى، حسابات الصهاينة، ومكرهم، وبرز الأقصى عصيًّا على الخضوع، والاغتصاب، عندما استعدّت الملايين أن تفديه ـ والأرض المباركة ـ بأرواحها.

إن قضية فلسطين ـ بأرضها المباركة، وبقدسها، وأقصاها ـ قضية تجمع المسلمين، وتوحدهم، بل تكون سببًا، في تجاوز خلافاتهم، والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. لقد غدت فلسطين، القضية المركزية للوطن العربي، وللعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم، كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده، كهذا العدو.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) عصام الغريب، القدس وثقافة المقاومة (الدفاع عن القدس عبر التاريخ)، صامد **الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٥٥ـ١٥٦، يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩، ص ٤١.

(٢) محسن محمد صالح، **المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني في فلسطين ١٩٢٠ـ٢٠٠١**، سلسلة دراسات منهجية في القضية الفلسطينية ج٣، المركز الفلسطيني للإعلام، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٣) محمد خالد الأزعر، **القدس بين الانتفاضة والتفاوض**، ط ١، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠١، ص٤٩

(٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط٩، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، ص ٤١ـ٦٧.

(٥) هاني الهندي، **المقاطعة العربية لإسرائيل**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٥ــ ٥٦

(٦) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٧) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، **أعمال شغب فلسطين ١٩٢٠**، انظر الرابط:

http: / /ar.wikipedia.org /wiki/ أعمال ـ شغب ـ فلسطين ـ ١٩٢٠

(٨) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٩) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص ٩٧.

(١٠) الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٢ .

(١١) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(١٢) عمر أبو النصر، إبراهيم نجم، وأمين عقل، **جهاد فلسطين العربية: فصول تبحث في تاريخ القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الأول وحتى الثورة الحاضرة**، يافا، د.ن، ١٩٣٦، ص ٢٦٠.

ـ إحسان النمر، **قضية فلسطين في دورها البلدي**، نابلس، جمعية عمال المطابع التعاونية، د.ن.، ص ١١٢

(١٣) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(١٤) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(١٥) عبد الوهاب الكيالي، **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ـ١٩٣٩**، ط٢، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١٤١ـ١٤١.

ـ الكيالي، تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢.

ـ إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عامًا**، ج ٢، بيروت، دار النهار، ١٩٧٤، ص ١١٥.

(١٦) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩.

(١٧) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩ .

(١٨) الكيالي، وثائق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٨ـ٢٣٩.

ـ محمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين**، د.ن، ص ٣٠.

(١٩) الكيالي وثائق...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧٨.

(٢٠) محسن صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين**، د.ن، ص ٢٣١ـ ٣١٧.

(٢١) محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الإسرائيلي الحديث على فلسطين وما جاورها**، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٠، ج٢، ص ٥٢.

(٢٢) محمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة**، دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١، ص ٨٨.

(٢٣) عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**، بيروت، دار الأمة للنشر، ١٩٨٤، ص ١٠٦.

(٢٤) «**يوميات أكرم زعيتر**»، ط٣، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص ٥٣ـ٥٦.

(٢٥) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية (المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة)**، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ط١، ص ١٨.

(٢٦) ياسين، كفاح...، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠ـ١٧٢ .

(٢٧) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٢٨) منى أسعد، موقع القدس في الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ـ١٩٨٤، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ٨٥، ١٩٩١، ص ٤٧ .

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٩.

(٣٠) صالح، مصدر سبق ذكره، انظر الرابط:

http://www.palestine_info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٣١) الغريب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١ـ٥٢ .

(٣٢) رياض نجيب الريس، ودينا حبيب نحاس، **المسار الصعب :المقاومة الفلسطينية، منظماتها، أشخاصها، علاقاتها**)، بيروت، دار النهار، ١٩٩٦، ص ٣٧، ٤٩، ٢٤١.

(٣٣) الغريب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢.

(٣٤) محمد بن عبد الغني النواوي، **رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي**، ج١: مؤامرة الدويلات الطائفية، د.ن، د.ت، ١٩٨٣، ص ٣٩٧ .

(٣٥) هالة منصور، المقاومة الوطنية في القدس ١٩١٨ ـ ١٩٩٧، **صامدالاقتصادي**، (عمان)، العدد ١١، ١٩٩٧، ص ١٤٣ـ ١٤٤.

(٣٦) غسان حمدان، **الانتفاضة المباركة (وقائع وأبعاد)**، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩، ص ٣٦ـ٣٨.

(٣٧) أسعد عبد الرحمن، ونواف الزرو، **الانتفاضة، مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق**، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩، ص ١٩٤ـ١٩٥.

(٣٨) جواد الحمد، الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية، في: **المدخل إلى القضية الفلسطينية**، ص٤٠٧ـ٤١٣.

(٣٩) صالح، **مصدر سبق ذكره**، انظر الرابط

: http://www.palestine-info.info/arabic/books/almoqawamah/index.htm

(٤٠) **المصدر نفسه**.

(٤١) **القدس**، (القاهرة)، عدد ٦٤، أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، ص١١٠.

(٤٢) **المصدر نفسه**، عدد ٦٥، مايو/ آيار ٢٠٠٤، ص١١٢ .

(٤٣) **المصدر نفسه**، عدد ٦٦، يونيو ٢٠٠٤، ص١١٢ .

(٤٤) **المصدر نفسه**، عدد ٦٩، سبتمبر ٢٠٠٤، ص١١٣ .

(٤٥) **المصدر نفسه**، عدد ٧٨، يونيو ٢٠٠٥، ص١١١.

(٤٦) **المصدر نفسه**، عدد ٨٠، أغسطس ٢٠٠٥، ص١١٢.

(٤٧) **المصدر نفسه**، عدد ٨٥، يناير ٢٠٠٦، ص١١٢ .

(٤٨) **المصدر نفسه**، عدد ٨٦، فبراير ٢٠٠٦، ص١١٢.

(٤٩) **المصدر نفسه**، عدد ٩١، يوليو ٢٠٠٦، ص١١٢ .

(٥٠) **المصدر نفسه**، عدد ٩٩، مارس ٢٠٠٧، ص١١٣.

(٥١) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٥، سبتمبر ٢٠٠٧، ص١١١.

(٥٢) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٦، أكتوبر ٢٠٠٧، ص١١٣.

(٥٣) **المصدر نفسه**، عدد ١٠٧، نوفمبر ٢٠٠٧، ص ١١١ـ١١٣.

(٥٤) **المصدر نفسه**، عدد ١١٢، أبريل ٢٠٠٨، ص ١١٣.

(٥٥) **المصدر نفسه**، عدد ١٢٠، ديسمبر ٢٠٠٨، ص ١١٣.

* * *

obeikan.com

الفصل الرابع

المعارك العسكرية حول القدس

منى محروس

في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، قررت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، تقسيم فلسطين، ووضع القدس، ومناطقها، التي تمتد من شعفاط شمالًا، والعيزرية شرقًا، وبيت لحم جنوبًا، وقالونيا غربًا، تحت إشراف دولي، ووافق الصهاينة على المشروع كله، مع الاعترض على تدويل القدس، ورفض العرب المشروع كله، بما في ذلك دولية القدس، وضرب المناضلون العرب الحصار على القدس، حيث سيطروا على طريق باب الواد، وقدمت، آنذاك، مشاريع عدة، لتجنيب القدس ويلات الحرب، أظهر العرب رغبة في ذلك، ووافقوا على تعيين رئيس مشترك لبلدية القدس[١].

كان القتال قد نشب، بين المواطنين العرب، والمستوطنين اليهود، منذ ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، نشب القتال، وأعادت الحركة الوطنية تشكيل «اللجان القومية»، ونظمت فصائل المقاتلين الفلسطينيين، تحت اسم «الجهاد المقدس»، الذي قاده عبد القادر الحسيني، لحق به «جيش الإنقاذ»، المكوَّن من المتطوعين العرب، بقيادة المناضل اللبناني فوزي القاوقجي[٢].

بداية القتال الحقيقي في القدس

تأسست «قوات الجهاد المقدس»، وتكونت من عدد من المجندين، يمثلون القوى الضاربة، و«المجاهدون المرابطون»، وتكونت تنظيماتهم من المجاهدين المقيمين في القرى، كانت الهيئه العربية العليا[*]، أو رجال «الجهاد المقدس»، مدعومين للدفاع عن مدينة القدس، وكان عبد القادر الحسيني المسؤول الأول عن الدفاع[٣].

(*) **الهيئة العربية العليا**: حين استعصى إحياء «اللجنة العربية العليا»، ١٩٤٦، تدخلت الجامعة العربية، استبعدت اليسار، وأعادت تشكيلها باسم جديد هذه المرة «الهيئة العربية العليا».

كان الصهاينة من بدأوا باستعمال أنواع مختلفة، من الأسلحة، ضد الفلسطينيين، دون تمييز، وقاموا بهدم الأبنية، وكبدوا العرب خسائر مادية جسيمة، مستخدمين، في ذلك، أساليب المكر والخداع، المعروفة عنهم، وكثيرًا ما كانوا يرتدون الزي العسكري للجنود الإنكليز، أو الزي العربي، ونجحوا في تنفيذ مخططاتهم. وعقب قرار التقسيم، نفذوا جريمة باب العمود، في ٢٩/ ١٢/ ١٩٤٧، فقد رموا صفيحة مليئة بالمتفجرات، تلك العملية، التي استشهد فيها ١٤عربيًّا، وجرح ٣٠، ولكن العرب ردوا على تلك العملية بأخرى تشبهها. حيث كانوا قد أتقنوا استعمال الألغام، والمتفجرات، على اختلاف أنواعها، ودمروا شارع بن يهودا، وعمارة جريدة «البالستين بوست»، في القدس، وفي ١/ ٢/ ١٩٤٨، تمكن الفدائيون العرب من وضع سيارة لوري، مملوءة، بالمتفجرات، في شارع يهودي مزدحم، وقتل إثر تلك العملية عشرات من اليهود، وجرح الكثيرون، وهدمت أبنية كثيرة، منها عمارة جريدة «البالستين بوست»[٤].

في صباح ١١/ ٣/ ١٩٤٨، استطاع أحد الفدائيين الوصول إلى عمارة الوكالة اليهودية بالقدس، بسيارة مفخخة، وعندما انفجرت قتل عدد كبير من الشخصيات اليهودية، منهم يافة مؤسس الكارين هايسود[*]، وبن زفي، وشمويل دوك، ويؤل مكس، وغيرهم من زعماء الصهاينة، وارتفعت، آنذاك معنويات العرب، نتيجه هذه العملية، وبدأ العرب في الفتك بالسيارات اليهودية، التي كانت تسير على طريق تل أبيب ـ القدس، الذي يعتبر أهم الطرق، التي تسلكها القوافل اليهودية، وتأثرت العصابات الصهيانة بذلك كثيرًا، وقد خسروا على هذه الطرق مئات القتلى، وعشرات الألوف من الجنيهات، ونشبت العديد من المعارك، بين المناضلين، والقوافل اليهودية، وكان النصر فيها حليف المناضلين، وعلى رأس هذه المعارك، معركة على طريق تل أبيب ـ القدس، في ١/ ٣/ ١٩٤٨، معركة قافلة كفارعصيون، وهي أقوى المستعمرات اليهودية في فلسطين[٥].

كان الاستعداد الصهيوني لخوض عدة معارك ضد العرب بدأت، بمجرد صدور قرار التقسيم، ثم تحول، اعتبارًا من أول ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧، إلى حالة حرب غير معلنة، سرعان ما انتشرت، في كل أرجاء فلسطين، وتركزت بصفة خاصة حول القدس، وأعلنت «الهاجاناه»، وباقي المنظمات الصهيونية المسلحة حالة التأهب، حتى يتم حشد قوى أخرى، ويصل المهاجرون الجدد، ويتمكنون من استيعاب الأسلحة، والمعدات العسكرية الجديدة، التي بدأت تتدفق من الخارج، وحتى تتراخى قبضة الانتداب البريطاني على زمام الأمور، فانتهزت المؤسسة العسكرية الصهيونية، الفرصة لتوجيه ضربتها الكبرى، وأصدر ديفيد بن جوريون أمره إلى قادة «الهاجاناة» في ٢٥/ ٣/ ١٩٤٨، بتعبئة أكبر قدر من القوات، لاحتلال القدس، كان ذلك بداية للتحول إلى الهجوم العام، ذلك لأن القدس هي قلب الدولة، و«عاصمتها الأبدية»، وأخذت الحرب غير المعلنه صورتها الجادة في مطلع أبريل/ نيسان ١٩٤٨، وبدأ الصهاينة ذلك، قبل انتهاء الانتداب البريطاني بشهرٍ ونصف، حتى تأتي الفرصة أمام حكومة إسرائيل المؤقتة، للهيمنة على الموقف، وساعد في ذلك إسراع الحكومة البريطانية بسحب قواتها، قبل الموعد الذي حدده قرار الأمم المتحدة، وترك الإنجليز الحبل على الغارب للصهاينة، لفعل ما يشاءون في فلسطين، وشعبها[٦].

في نهاية يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، اشتد القتال بين العرب والعصابات الصهيونية، وشن العرب عددًا من الغارات الخاطفة على المستعمرات اليهودية، كما نصبوا كمائن مختلفة على الطرق، كما ذكرنا، فيما بين يناير/ كانون

(*) **الكارين هايسود**، شركة لتسجيل الأراضي الصهيونية.

الثاني، ومارس/ آذار ١٩٤٨، فقاموا بقطع خطوط المواصلات اليهودية، طريق تل أبيب ـ القدس، حيفا ـ الجليل الغربي طبرية الجبل الشرقي، وكل الطرق المؤدية إلى صحراء النقب. ويذكر الحاج أمين الحسيني، رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، بأن قيادة «الجهاد المقدس»، قد أعدت، وبمعاونة بعض الضباط السوريين، والمصريين، والعراقيين، برنامجًا دقيقًا، احتوى على أكثر من ٣,٦٠٠ هدفًا، ووضعت، لكل منها خريطة، وتفصيلات تنفيذية، وبرنامجًا للاحتياجات البشرية واللوجستية من رجال، وأسلحة، ونفقات، كان توزيع هذه القوات، كالتالي: ٤ سرايا متحركة، ٤ سرايا تدمير، وحدة طبية، عدة مفارز مدفعية، في أحياء القدس، للدفاع عنها، وضواحيها[٧].

أهم معارك القدس

تعد معركة القسطل من أهم المعارك التي دارت في القدس. تقع القسطل على تلٍّ عالٍ، على طريق القدس ـ تل أبيب. كما تبعد عن القدس ستة كيلومترات، تقريبًا، ولمن يحاول احتلال تلك التلال عليه التحكم في طرقها الحيوية. كان لذلك التل دور كبير في معركة فلسطين، واعتبر الباب الحديدي الذي أغلق منه المجاهدون العرب باب القدس، وحاصروا فيها مائة ألف يهودي، وهددوهم بالفناء أو التسليم، وكان اليهود يهاجمون تلك التلة بشكل جنوني يائس، وبجموع كبيرة، ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة، إلا أنهم لم ييأسوا، وقاموا بحشد قواهم مرة أخرى، مع تزويدها بالأسلحة السريعة، ومدافع الهاون، وهاجموا القسطل، وتمكنوا من احتلالها في أوائل أبريل/ نيسان ١٩٤٨، وكان عبد القادر الحسيني قائد منطقة القدس، في زيارة خاطفة إلى سوريا، حين تلقى نبأ احتلال القسطل، وكان قد ذهب إليها مطالبًا اللجنة العسكرية العربية بمد القوات التي يقودها بالإمدادات العسكرية، تلك اللجنة التي ترأسها كل من اللواءين طه الهاشمي، وإسماعيل صفوت، والتي أناطت بها جامعة الدول العربية، تقديم الأسلحة والذخيرة، لقوات المتطوعين العرب، من فلسطينيين وغيرهم، فطالب الحسيني، مسؤول تلك اللجنة اللواء طه الهاشمي، تزويده بالمعدات الحربية الحديثة، وحين قوبل مطلب الحسيني بالرفض، بذريعة نقص المخزون اللوجستي، أعلن الحسيني بأنه ذاهب إلى القسطل، ليستشهد هناك، ثم جمع عددًا من المقاتلين المخلصين، وتوجه بهم قافلا نحو القسطل، حاملين معهم أسلحة خفيفة، وقنابل يدوية، ولم يزد عدد من اصطحبهم معه عن خمسين مجاهدًا، وهاجم بهم القسطل المحتلة، فهاجم تلًا عاليًا حصينًا، وحقق نجاحًا عسكريًا ساحقًا على العصابات الصهيونية، وتمكن من طردهم عن القسطل كلها، ومن ثم دخلها المجاهدون الفلسطينيون، وتم تحريرها من قوات «البالماخ» الصهيونية [٨].

وفي اليوم التالي استشهد قائد معركة القسطل، عبد القادر الحسيني، ومن ثم نفذ الصهاينة مذبحة دير ياسين الشهيرة، تلك القرية العربية التي تقع في إحدى ضواحي القدس الغربية، نفذت عصابتي الأرجون، وشتيرن، تلك المذبحة ضد أهالي القرية، وألقوا بهم في بئر القرية، وبلغ عددهم ٣٠٠، معظمهم نساء وشيوخ وأطفال، تم قتلهم بأبشع الطرق، ووقع الهجوم بخطة مسبقة من قبل الوكالة اليهودية [٩].

في صباح ١٣/ ٤/ ١٩٤٨، وانتقامًا لشهداء دير ياسين، هاجم المناضلون العرب قافلة جبل سكوبس، التي كانت تنقل المؤن والذخيرة من الأحياء اليهودية في القدس إلى مستشفى هداسا، والجامعة العبرية، وفتك العرب بالقافلة، وأحرقوا سياراتها، واستنجدت القوات اليهودية، آنذاك، بالقوات الإنجليزية، التي انتقلت إلى مكان المعركة، لحماية القافلة، ولكن المعركة كانت قد حسمت، وتم قتل مائة شخصية صهيونية بارزة، وهم من أعلام الطب عند الحركة

الصهيونية. يذكر قائد معركة القدس في الجيش الأردني، أنه قد شارك، مشاركة جزئية، في الانتقام، في ١١/ ٤/ ١٩٤٨، استخدم بعض المدرعات ضد مستعمرة كفار عصيون، بين الخليل والقدس، ردًّا على الاعتداء، الذي كانت تقوم به هذه المستعمرة[١٠] على السيارات العربية، التي تسافر بين الخليل والقدس، كان ذلك الهجوم مقدمة للهجوم الرئيسي، الذي قام به قائد القدس في ١٣/ ٥/ ١٩٤٨، واستولى به على مجموعة مستعمرات كفار عصيون كلها. تلا ذلك الهجوم على مستعمرة النبي يعقوب، على بعد أربعة كيلو مترات شمالي القدس، في مكان إستراتيجي يتحكم بالطرق الرئيسية ما بين القدس، وشمالي فلسطين.

معركة القطمون

في أواخر أبريل/ نيسان ١٩٤٨، اشتدت هجمات الصهاينة على القطمون، وذلك لقيمتها الإستراتيجية العسكرية، وأهميتها الحربية، كانت تدافع عن تلك البلدة سرية المجاهد إبراهيم أبو دية، وهو ضابط «الجهاد المقدس»، وبالاتفاق مع قائد سرية «الجيش العربي»، في معسكر العلمين بالقدس، الرئيس سليمان مسعود، تم استغلال وجود حرس «الجيش العربي» في القنصلية العراقية، بالقطمون، وتم تزويد قوة الحرس بثلاث مدرعات، لحماية القنصلية في الظاهر، والدفاع عن القطمون، في الحقيقة، وتم تنفيذ الخطة بنجاح، تم تأخير احتلال الصهاينة للقطمون[١١]. الأمر الذي أكد بسالة المقاومة العربية في الدفاع عن القدس، تلك المقاومة التي برزت في معارك عدة، سواء أثناء الدفاع عن المدينة المقدسة، أو غيرها من المدن الفلسطينية الأخرى، أثناء معارك ١٩٤٨.

سارت الخطة التي رسمها القائد الأردني للقدس ورفاقه بنجاح، تلك الخطة التي بعد أن نفذت، اختفى ذاك القائد، بعد استدعائه من قبل قائد القوات البريطانية.

هجوم الشيخ جرّاح

كانت القدس العربية في حالة ضيق شديد، في أيام ١٥، ١٦، ١٧ مارس/ آذار ١٩٤٨، كان تهديد العدو باحتلال منطقة الشيخ جرَّاح، واتصاله بهداسا، والمرتفعات المحيطة بالقدس القديمة، على وشك التنفيذ، وتمكنت العصابات الصهيونية من الوصول إلى مركز الشرطة، والعمارات المحيطة بفندق الإمباسدور (الآن)، وجامع الشيخ جرَّاح، وغيرها من الأماكن التي تسيطر على طريق رام الله ـ القدس، من داخل المدينة، وكانت إحدى الكتائب العربية (الثانية)، في ذلك الوقت، قد اتخذت موقعًا من منطقة مرتفعات القدس الغربية، وتمركزت السرية الأولى مشاة في قبية، بقيادة الملازم عباطة عيد، والثانية مشاة في منطقة النبي صموئيل، بقيادة الملازم محمد كساب، وقد تمركزت ثالثة في مرتفع بدو[١٢].

اشتد الاشتباك بين حي الشيخ جرَّاح العربي، ومياشورم الصهيوني، بعد محاولة الصهاينة نسف عمارة الوقف العربية، من بوابة مندلبوم، واستمر الاشتباك ٢٤ ساعة، وبلغت القوات الصهيونية، في تلك الاشتباكات، ما يزيد عن مائتي يهودي من «الهاجاناة»، في مواجهة ما يقاربهم في العدد من العرب، وتدخلت القوات البريطانية، لفض هذه الاشتباكات، التي تكررت مرات عدة، في مناطق مختلفة من القدس[١٣].

استمرار القتال وتجاهل قرارات الأمم المتحدة

في ٢٩ آيار/ مايو، أصدرت الأمم المتحدة قرارها، بإعلان الهدنة بين العرب والصهاينة، تلك الهدنة التي كان رتبها المندوب السامي، بعد فشل مساعي وفد «الصليب الأحمر الدولي»، لاعتبار القدس مدينة مفتوحة، واتفق الفريقان، مع لجنة الهدنة، على أن يحتل الصهاينة ما كان يعرف بمنطقة السلام (س)، حول العمارة الروسية (المسكوبية)، على أن يحتل العرب منطقتي السلام (أ)، (ب)، أو ما يعرف بمنطقة الكولونية الألمانية، وما حولها، واستمرت الهدنة أربعة أسابيع، لم تكد تنعقد الهدنة الجديدة، حيث غادر البريطانيون القدس، في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، وخرق الصهاينة الهدنة، واحتلوا ما كان للعرب، وما خصص لهم من مناطق، وكان الدفاع آنذاك مهمة «جيش الإنقاذ»، و«الجهاد المقدس»، في الوقت الذي لم يكن فيه الفريقان على استعداد عسكري كافٍ، ولم يكن هناك معرفة بخطة الجيش العربي الأردني، أو القيادة العربية العامة، تجنب احتلال القدس، وهكذا احتل الصهاينة، تحت ستار الهدنة، أهم المناطق الإستراتيجية، وكان رد القيادة الصهيونية بأن هناك جماعات يهودية منشقة، هي التي قامت بذلك، ولا حول لتلك القيادة في منعها[١٤].

لم يكتف اليهود بذلك، بل بدأوا يهاجمون البوابة الرئيسية للقدس القديمة، عند باب العمود، باب الخليل، الباب الجديد، باب النبي داود، ولكن جنود «الإنقاذ» و«الجهاد المقدس»، وشرطة القدس استطاعت، بقيادة المجاهد الكبير أحمد باشا حلمي، والقائد خالد الحسيني، والرئيس فاضل عبد الله، في صد الصهاينة عند الأسوار، في تلك الفترة، بالرغم من نقص الذخيرة، وسوء التدريب، والفوضى التي أحدثتها هجمات الصهاينة المتواصلة في صفوف العرب[١٥].

كانت منطقة مسوارة في القدس بيد المجاهدين العرب، إلى قبيل انتهاء الانتداب البريطاني، فلما انسحبت القوات البريطانية، ليلة ١٤ـ ١٥ / ٥/ ١٩٤٨، احتلتها قوات صهيونية من «البالماخ»، التي كانت مرابطة على جبل صهيون، قبل أن يتخذ الجيش العربي الموجود في القدس مواقعه، وحاولت إحدى وحدات الجيش الأردني استعادة المنطقة، لكنها تفرقت بين شوارعها الضيقة، وضاعت بين باب دمشق، والناحية الجنوبية من القدس، وقاتلت الصهاينة المتمركزين في الشوارع، خلف الجدران، والبنايات، واتخذت القوة الأردنية مواقع جديدة لها، وأقامت خطًا دفاعيًا عن القدس، حتى منطقة الشيخ جرّاح.

من يوم ٢٣/ ٥/ ١٩٤٨، تحركت تجاة مواضع الصهاينة، لكنها جوبهت بنيران شديدة، فاضطرت إلى التوقف، واستمر القتال موضعيًا، حتى صباح يوم ٢٤/ ٥/ ١٩٤٨، ثم توقف القتال، ونجحت القوة الأردنية المحاصرة في الخليل فك الحصار، والتحقت بالمجاهدين العرب، في المناطق المجاورة، ونجحت في احتلال (رامات راحيل)، واستمر القتال في القدس، وكانت هناك مجموعة تقاتل على جبهة، تبدأ من باب صهيون، ونتردام، حتى بوابة دمشق، وأخرى تقاتل المتمركزين في البنايات العالية، واستمرت القوات العربية، في عملياتها داخل المدينة، وشرعت بتطهيرها حتى يوم ٢٨/ ٥/ ١٩٤٨، فرفع الصهاينة، العَلَم الأبيض، واستسلموا للقوات العربية، ونجحت قوة أخرى في احتلال قرية الرادار، ثم انتقل القتال إلى اللطرون[١٦].

في١٥ مايو/ آيار افترض القاوقجي بأن المهمة في اللطرون قد انتهت، بإغلاق الطريق إلى القدس، وانسحب القاوقجي، بهدف «إعادة تنظيم قواته»، كان ذلك دون تنسيق مع «الفيلق العربي»، ولم يعرف الصهاينة بأن تلك

المنطقة ظلت بعيدة عن يد العرب، ليومين، الأمر الذي لم يكتشفه الصهاينة، وإلا كانوا بادروا باحتلالها. بالإضافة إلى ذلك لم تستغل «الهاجاناة» الموقف للاستيلاء عليها[١٧].

شدد العرب الحصار على الصهاينة داخل المدينة القديمة، وكانوا يقومون بمحاولات كثيرة لاقتحام أبوابها، وخاصة باب النبي داود، من أجل إنقاذ يهود القدس القديمة، التي حاصرها المجاهدون أولًا، ثم أحكم الحصار عليهم بدخول القوات الأردنية إلى القدس، وشهدت أبواب المدينة معارك طاحنة، كانت المسافة بين الصهاينة في النوتردام، والجيش العربي في الباب الجديد لا تزيد عن خمسين مترًا، واحتشد الصهاينة، آنذاك، في مراكزهم، وقاموا بهجمات، في الأوقات التي يختارونها أمام باب الخليل، فكانت تحدث عنده مناوشات، على مسافات بعيدة؛ ذلك لأن تلك المنطقة كانت مكشوفة، مع صعوبة اقتحامها، وشهد باب النبي داود أكثر هجمات الصهاينة، التي فشلت كلها، وفشل الصهاينة في الوصول إلى الحي اليهودي، المحاصر من قبل المجاهدين العرب، وقد يسر العرب، ليلة ١٧ـ ١٨/ ٥/ ١٩٤٨، دخول ٨٥ جنديًا من «الهاجاناه»، كان ذلك فخًا للإيقاع بهم، ومن ثم تم الهجوم عليهم، يوم ١٨ـ ١٩/ ٥/ ١٩٤٨، ولم يخرج فرد واحد من قوات «الهاجاناه»، و«الأرغون»، الذين تمكنوا من دخول الحي اليهودي، ولم ينجُ أحد من صهاينة الحي القديم، كما لم يدخل أحد إلى الحي من يهود القدس الجديدة[١٨].

كان الشيخ جرَّاح، وباب الساهرة، ووادي الخور، وباب العمود، ميمنة القدس، وجرت فيها كلها معركة واحدة، لا تتجزأ، وقد نجح العرب في احتلال مستعمرة قلندية، والنبي يعقوب، يوم ١٧/ ٥، بعد انسحاب المقاتلين الصهاينة منها، واستقرت سريتان، هما التاسعة والعاشرة من الكتيبة الخامسة في قلنديا، والنبي يعقوب، وكان هناك هدف ثان، هو الشيخ جرَّاح، الذي كان يفصل به الصهاينة القدس عن الشمال، وهجمت السريتان التاسعة والعاشرة على المكان، يوم ١٨/ ٥/ ١٩٤٨، وانسحب الصهاينة إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، واحتل الجيش العربي الشيخ جرَّاح بأكملها، كما استولت قوات «الجهاد المقدس»، و«جيش الإنقاذ» على وادي الجوز، وباب الساهرة[١٩].

كانت معركة القدس من أهم المعارك، التي خاضتها الجيوش العربية في حرب فلسطين الأولى؛ لأنها حققت نصرًا عظيمًا، لا تنمحي آثاره.

أهم ما تحقق في معركة القدس

إذا ما تم تقييم معركة القدس، وحدها، فيمكن اعتبار أن العرب قد حققوا نصرًا كبيرًا فيها، فقد قتل ما يزيد على ٣٠٠ صهيوني، بينهم ١٣٦ من عصابة «الأرغون»، وجُرح ٨٠، وتم أسر ٣٤٠ صهيوني، في معركتيْ كفار عصيون، والقدس، بالإضافة إلى تدمير الحي اليهودي، وتم تطهير القدس من كافة الصهاينة، وإذلالهم، وكسرهم، معنويًا، كما يمكن إرجاع ثلث أسباب النصر الذي حققه العرب، جزئيًا، آنذاك، لتلك المعركة، لولا السياسة العليا للإنجليز، المساندة للصهاينة، وكان الفوز الأكبر، آنذاك، متمثلًا في رفع معنويات العرب، وتعرفهم على أسلحة الصهاينة، التي كان معظمها من الرشاشات، والبنادق الألمانية، وحفظت تلك المعركة عروبة القدس، ولولا تلك المعركة لما بقيت القدس الشرقية في أيدي العرب، كانت الخسائر العربية في معركة الحي اليهودي طفيفة، لا تتجاوز الـ١٥ شهيدًا من «جيش الإنقاذ»، و١٠ مناضلين، وجرح ٢٥ [٢٠]. الأمر الذي يوضح القدرة القتالية العالية للقوات العربية التي نجحت في تحقيق مكاسب كبيرة في تلك المعركة.

الهدف الإسرائيلي من المعارك

التصفية الحضارية للقدس، وتهويدها، هذا ما أكد عليه منظِّرو الحركة الصهيونية، منذ منتصف القرن الماضي، وكان هناك هدف رئيسي، هو احتلال القدس، وجعلها عاصمة لإسرائيل، وكان الاستيطان في القدس من أهم ركائز الدعوة الصهيونية، مع انتهاء الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، تمكنت القوات الإسرائيلية من تحقيق هذا الحلم، حيث احتلت ٨٤٪ من المساحة الكلية لمدينة القدس، فيما بقيت البلدة القديمة في أيدي العرب، وفقدت أحياء عربية كاملة، وارتفع عدد المستعمرات ليصل إلى ٦٤ مستعمرة عام ١٩٦٧، التي مكنت القوات الإسرائيلية من إحكام قبضتها على الجزء العربي المتبقي من المدينة، وبعد أربعة أيام فقط، من احتلال المدينة المقدسة، بدأ الصهاينة تغيير التركيب الداخلي والخارجي للمدينة، حيث هدموا، ونسفوا أملاكًا عربية داخل السور وخارجه، وبدأت الحفريات حول المسجد الأقصى، عقب حرب ١٩٦٧، مباشرة، ولا تزال تلك الأعمال مستمرة[٢١].

معركة القدس في حزيران/ يونيو ١٩٦٧

تقول الرواية الإسرائيلية عن معركة القدس ١٩٦٧: إنه في الحادية عشرة في صباح ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، فتح الجيش الأردني سدًّا من نيران المدفعية، والأسلحة الصغيرة، في مواقعها الممتدة بطول خط الهدنة ضد أهداف داخل إسرائيل، ومنها تل أبيب، والقدس، واستولت القوات الأردنية على مقر قيادة مراقب الأمم المتحدة بدار المعتمدية، كان المسؤول عن القيادة الوسطى، آنذاك، الميجور عوزي ناركيس، والميجور دافيد داود أليعازر يقود السرية التي قامت بالاقتحام الفعلي، وأصدر الجنرال ناركيس أوامره إلى المدفعية الإسرائيلية بالرد على القصف الأردني، وتحركت قوة من لواء القدس السادس عشر، لطرد جنود لواء حطين من «دار المعتمدية»، واقتحمت وحدات اللواء ١٦ المنطقة، وأخلت رجال الأمم المتحدة، الذين كانوا قد انعزلوا داخل المدينة، وتقدم الهجوم نحو قرية صور باهر، الواقعة على طريق الخليل ـ القدس الرئيسي، الذي يربط في الواقع جبال الخليل ومنطقة الجليل بباقي المملكة الأردنية، وتم عزل تحرك لواء القدس في منطقة جبال الخليل، الأمر الذي خلف صعوبة في التقاء القوات الأردنية بشقيقتها المصرية. وعندما أصبحت القدس هدفًا لمدافع «الفيلق العربي»، صدرت أوامر لقيادة الأركان الإسرائيلية، الجنرال ناركيس، بالانتقال إلى الهجوم[٢٢] ونجحت خطة ناركيس وتم اكتساح مواقع «الفيلق العربي»، وتدمير الخنادق العربية، وفي التوقيت ذاته، نجحت وحدات لواء «يوتفات» مشاة من احتلال مجمع اللطرون، وإجبار القوات المصرية على مغادرة المنطقة، وللمرة الأولى بعد معارك عدة، كما دمر الطيران الإسرائيلي كافة خطوط المواصلات الأردنية، وكان ذلك ظهر يوم ٥ يونيو/ حزيران، وفي المساء تم تعطيل محطة الإرسال برام الله، وانسحبت قيادات قوات الضفة الغربية، إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وأخذ العميد عطا علي، الذي كان يقود لواء ٢٧ الأردني، في منطقة عموم القدس، يلح، وينشر بعض قواته بالضواحي الشمالية للمدينة، وعندما تلقى ناركيس تعليمات ببدء القتال، تأهب لتنفيذ خطط طوارئ «جيش الدفاع الإسرائيلي»، واستدعى ذلك تحرك لواء القدس، بقيادة لواء عميتاي، للاستيلاء على جنوب المدينة، وكان على لواء بن آرى الميكانيكي أن يستولي على المرتفعات، والقمة الواقعة بين القدس ورام الله، وكان المجهود الرئيسي على الجزء الشرقي من المدينة والمدينة القديمة، منوطًا بلواء الكولونيل جور المظلي. وقبل ساعة من حلول منتصف ليل ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ بدأت المعركة التاريخية من أجل الاستيلاء على القدس، وتم تنفيذ

خطة، معدة مسبقًا، للمدفعية والهاونات، وكانت الأضواء الكاشفة، في الجزء الغربي من القدس، وجبل سكوبس تسلط أضواءها على الهدف تلو الآخر، حيث تقوم تجمعات النيران الإسرائيلية بصب نيرانها عن قرب، وتدمير المواقع العربية، وبعد الثانية صباحًا بقليل، تحرك مظليو جور، عبر منطقة منزوعة السلاح، بين بوابة مندلباوم، ومدرسة البوليس، وقامت وحدات الكتائب بمهاجمة مجموعة التحصينات القوية لمدرسة البوليس، وتل الذخيرة، بينما قامت كتيبة إسرائيلية أخرى، من جهة الشمال، بالتقدم نحو الشيخ جراح، ونجحت قوات جور في التغلب على حقول الألغام، التي زرعها الأردنيون أمام مداخل مواقعهم، ونشبت سلسلة من الاشتباكات من مسافات قريبة، عند بدء تقدم القوات الإسرائيلية، وعلى مدى أربع ساعات، دارت الحروب سجالًا بين الطرفين، وأبدى كل منهما شجاعة واستبسالًا في القتال، فيما نجحت القوات الإسرائيلية في السيطرة على المنطقة الواقعة بين سور المدينة القديمة وجبل سكوبس، وثبَّت المظليون مواقعهم في الوادي، أسفل جبل سكوبس، وتل أوجستا فيكتوريا، المواجهة لسور المدينة القديمة، كما نجح لواء هارئيل، بقيادة بن آري في الاستيلاء على النبي صموئيل، وتعزيز تواجده على طريق القدس ـ رام الله، ونشبت معركة شرسة بالقرب من تل الغول، انسحب منها الأردنيون، وواصلت قوات بن آري تقدمها، نحو جبل شعفاط، شمال القدس. في صباح ٦ يونيو/ حزيران، كانت وحدات لواء القدس تسيطر على صور باهر جنوبي القدس، بالإضافة إلى السيطرة على المداخل الشمالية للمدينة، وأظهرت القوات الأردنية بسالة دفاعية عالية، بقيادة اللواء عطا علي، وفي تلك الأثناء بدأ لواء القادسية/ مشاة، التحرك نحو القدس، عبر الطريق الجبلي والدروب، لكن القوات الإسرائيلية أعاقته، وأنزلت به إصابات كبيرة، وتأخر بالتالي طابور الإنقاذ في الوصول إلى القدس، في صباح ٧ يونيو/ حزيران نجحت كتائب جور الثلاثة في الاستيلاء على بيت لحم، وعتسيون، والخليل، والقدس[٢٣] التي سقطت، منذ تعطيل وصول «جيش الإنقاذ»، سنة ١٩٤٨، وهكذا وقعت المدينة المقدسة في أيدي الصهاينة.

بالرغم من كل المزاعم الإسرائيلية، الرامية إلى ضم المدينة المقدسة، فإن القدس لا تزال متمسكة بعروبتها، صامدة في وجه غاصبيها.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) **مذكرات عبد الله التل، كارثة فلسطين**، الجزء الأول، ط٢، دار القلم، القاهرة، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٩، ص٩٧.

(٢) آمال دياب، المعارك العسكرية حول القدس (١٩٤٧ـ ١٩٤٨)، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد ١٠٨، نيسان، آيار، حزيران ١٩٩٧، ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢١.

(٤) التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦، ٧.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٨، ٩.

(٦) حسن البدري، **الحرب في أرض السلام، الجولة العربية الإسرائيلية ١٩٤٧ـ١٩٤٨**، دار الوطن العربي، بيروت، ١٩٧٦، ص ٣٠: ٣٣.

(٧) دياب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٨) التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠، ١٥.

(٩) دياب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣١.

(١٠) التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨، ١٩.

(١١) **المصدر نفسه**، ص٢٠، ٢١.

(١٢) سعن أبو نوار، **في سبيل القدس**، مطبعة القوات المسلحة الأردنية، عمان، ١٩٦٨، ص ٣٢، ٣٣.

(١٣) دياب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠.

(١٤) التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩.

(١٥) **المصدر نفسه**، الصفحات ذاتها.

(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، م.٣، العسكرية الصهيونية، الحروب العربية الإسرائيلية، الدار العربية للموسوعات، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٨١٤.

(١٧) دياب، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٢.

(١٨) التل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٤، ١٠٥.

(١٩) **المصدر نفسه**، ١٤٣: ١٤٩.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٤٠.

(٢١) **موسوعة المدن الفلسطينية**، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، تونس، ١٩٩٠، ص ٦٣٢: ٦٣٩.

(٢٢) جاييم هرزوج، **الحروب العربية ـ الإسرائيلية ١٩٤٧ـ ١٩٤٨**، ترجمة بدر الرفاعي، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٩٧: ٢٠٢.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٣: ٢٠٦.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الخامس

قُطبة ثوب القدس ثقافة ومقاومة

منال فاروق

تنقل المرأة الفلسطينية، كغيرها من نساء العالم، فولكلور شعبها، الذي يشمل مناحي الحياة المختلفة، اجتماعية، وفنية، وفكرية. فهي الناقل لكل معارفه، وفنونه، وأشغاله اليدوية، ومأثوراته الشعبية، من ممارسات، وعادات، وتقاليد، ومعتقدات، توارثتها عن الأجيال السابقة، لتنقلها إلى الخلف من شعبها.

هي نصف المجتمع، وأنجبت وربَّت نصفه الثاني، حملت الكثير من ثقافة المجتمع، الذي تعيش فيه، وعلى عاتقها، حملت موروث شعبها، لتنقله إلى الجيل الجديد، خاصة إذا ما تعرض شعبها للإبادة والاحتلال، فهي أكثر من يحافظ على التراث، وينقله، بأمانة وصدق «ولقد أعطت المرأة الفلسطينية الكثير في الماضي البعيد والقريب، وما زالت تعطي... وهي مرآة تعكس ما عليه هذا المجتمع من قوة وضعف، من تقدم أو تأخر، ولا شك أنَّ المرأة الفلسطينية اليوم تُخَلِّد بطولات كفاحها لأجيالها القادمة»[1].

مرّ الشعب الفلسطيني، كغيره من الشعوب، بمراحل من التطوُّر والتغيُّر، وكانت المرأة هي العاكسة لهذا التغير، خاصة وهي تحمل الجزء الأكبر من العبء، فما بين عملها في منزلها وفي حقلها تنقل ثقافة شعبها إلى أطفالها، وأحفادها، فثقافتها هي «العناصر المكوِّنة لطريقة حياة بأكملها، أو هي عملية إنتاج (اجتماعية ومادية)، تخص ممارسة، وتخص إنتاج الفنون، باعتبارها استخدامات اجتماعية لأدوات الإنتاج المادية[2].

تحتَّم على المرأة في قطر كفلسطين، وخاصة في الريف، أن تكون منتجة، ومساهمة في العملية الإنتاجية، سواء في منزلها أو في الحقل، ولا يحق لها الإهمال في أحد هذين الأمرين، وقبل الحديث عن دورها في هذا المجتمع، وخاصة فيما يخص الثوب، لا بد من الحديث عن الطبيعة الجغرافية، والأيكولوجية للمنطقة.

جغرافية فلسطين

الحدود التي سيعتمدها الموضوع «هي الحدود التي وضعت زمن الانتداب البريطاني، ما بين خطيْ عرض ٣٠ و٣٣ شمالًا، وخطيْ طول ١٥, ٣٤ و٤٠, ٣٥، شرقي غرينتش»[٣].

مع هذه المساحة الصغيرة، تتنوع التضاريس، مما أضفى نوعًا من التنوع على المناخ، وإن تميزت أغلب المناطق بأنها جبلية، أو صخرية، مع وجود أنهار صغيرة، منها ما يصب في نهر الأردن، ومنها ما يصب في البحر المتوسط. فلسطين تتبع مناخ البحر المتوسط، وإن تأثر مناخها بطبيعة المنطقة الجبلية، من هنا «نتبين مدى تنوع التضاريس، واختلاف الغطاء النباتي، من حيث كثافته، وأنواعه، اختلاف المناخ وكمية الأمطار الساقطة، وطول فترة الشمس، ووجود الأنهار، ووفرة المياه الجوفية، ومدى الجفاف والخصوبة، وينعكس كل هذا على الحياة البشرية، من حيث تجمعات السكان، وكثافتهم وأنماط حياتهم»[٤].

هذه الجغرافيا الصعبة فرضت على المرأة نوعًا من التعامل معها، فيما يخص ملبسها، وزيها، الذي ترتديه. لقد تميَّز ثوب المرأة الفلسطينية بالجمال، المنسجم مع طبيعة المنطقة الجغرافية، فقد كان الثوب الذي ترتديه خادمًا لها في كافة مناحي حياتها، ومعبِّرًا عن طبيعة الحياة التي تعيشها، وخادمًا للوظائف التي تؤديها، في البيت أو الحقل على حد سواء.

الثوب الشعبي الفلسطيني

الملابس، أحد أهم مظاهر الثقافة؛ لدى بني البشر، حيث تحمل تاريخ، وثقافة هذا الشعب.

إن الوظيفة الاجتماعية هي التي تشكل ملامح الزي الشعبي الفلسطيني، فهو لغة صامتة، تحدد الفئة الاجتماعية، والانتماء الطبقي، وهو يفسر المشاعر الإنسانية الداخلية، التي يحملها من يرتدي هذه الملابس، كما أن زخرفة الثوب، ومظهره، يعبِّران عن الحالة المعيشية، وموقع الفرد داخل مجتمعه. «والزي الفلسطيني يجمع ما بين الزي الوطني، والشعبي، والزي الغربي... وأغلبية النساء يلبسن الأثواب المطرزة الطويلة، والمعاطف القصيرة المطرزة، وأيضًا شالات ملوَّنة بأجمل الألوان الخلّابة، وبعض النساء يلبسن الجلاليب، مع الإيشارب الطويل، في حين تلبس بعضهن الزي الغربي»[٥].

هذه الأثواب حدث فيها تطورٌ كبير، على مر العصور، وكان أهم هذه التطورات، ما حدث في العصر الإسلامي، والذي أسهم بنصيب وافر في تطوير الثوب الفلسطيني، ليصل كما وصلنا الآن، حيث «أسهم في تطوير الأثواب الكنعانية القديمة إلى الأثواب الفلسطينية الحديثة»[٦].

مع مرحلة العشرينيات، إبان الانتداب البريطاني على فلسطين، كانت هناك «فروق بارزة بين منطقة وأخرى، في أسلوب تطريز الثياب، وفي نوعها، أيضًا، وكانت هناك مناطق معروفة بتميُّزها في موتيفات التطريز، وعرفت بقدرتها على تزعم القرى المجاورة في مجال الموضة، ومن هذه الأماكن : «بيت دجن، رام الله، بيت لحم، وبئر السبع»[٧].

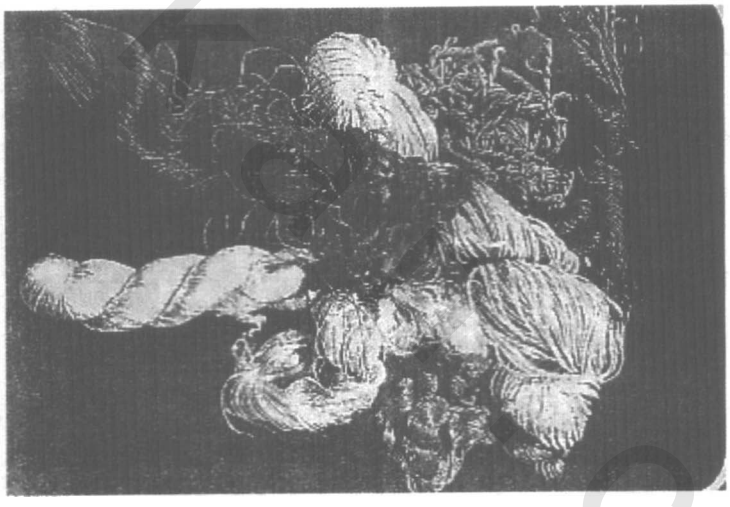
أحدثت النكبة والتهجير لمليون فلسطيني، إلى المخيمات، أو إلى أحياء شعبية في المدن العربية في الضفة، والقطاع،

والأردن، ولبنان، حالة من التشويش، واختلاط الموتيفات في التطريز للقرية الواحدة، وأضحى الأمر اختيار للوحدات التي تعجب من تطرز، أو تقليد لوحدات قديمة، مما أوجد ما عرف بالزي الشعبي الجديد، في عصر المخيم[٨].

الخامات المستخدمة

أول ما يطالعنا عند الحديث عن الثوب هو القماش المستخدم، وقد استخدم الفلسطينيون خامات القطن، والصوف، والحرير، وكان لها أسماء كثيرة مثل: أبو حز أحمر، وهو نسيج مجدلاوي، وأبو سفرتي، وهو من نسيج الكريب الأسود، وأطلس، وهو قماش من الحرير اللامع يستعمل في عمل بدلات العرائس، والبديستا، وهو قماش قطني يستعمل في خياطة الملابس الداخلية لنساء من شلحات، وسراويل، وكما يستعمل لعمل ملابس للأطفال .. إلخ[٩].

هذه الأقمشة كانت تغزل على أنوال محلية، حتى وقت قريب، حيث يتم تجهيز البالات التي سيتم غزلها. أو يتم استيراد القماش الجاهز من سوريا (الحرير)، فيما يتم استيراد القطن والكتان من مصر.



أنواع من الخيوط المستخدمة

استخدم الفلسطينيون الألوان المستخرجة من الطبيعة، حيث برع الكنعانيون في عمل الأصباغ، والتي ورثها عنهم أحفادهم، وخاصة الأصباغ الأرجوانية، والقرمزية، وقد «أعطى دلمان في سنة ١٩٣٧م، كمية من المعلومات عن الأصباغ الفلسطينية التي تستخدم، حيث ذكر عددًا من الأصباغ المنتجة والتي تستخرج من نباتات تنمو بكثرة في فلسطين، فاللون الأحمر يتم استخراجه من «الصبار القرموزي»، واللون الأصفر يتم استخراجه من «الزعفران»، واللون البني المحمَّر يتم استخراجه من «الكرمة»، واللون النيلي كاللون الأزرق[١٠].

أما عن الخيوط المستخدمة في التطريز، فكانت نوعين من حيث سُمك الخيط ، وكان سمك الأول أربعة أضعاف سمك الثاني، حيث يستخدم الخيط السميك في التطريز اليدوي، كما تنوعت الخيوط، فمنها ما أطلق عليه «الصادق»، وهو الحرير الأصلي، والحرير النباتي، إلى جانب الخيوط القطنية، والخيوط المقصبة، وخيط الماكينة.

كل خيط من هذه الخيوط لها استخدامها الخاص بها، ونوع من القماش والغُرز «القطبة» المناسبة له، فمثلًا يستخدم الخيط الحرير في تطريز ملابس المناسبات والأعياد، وهو خيط غالي الثمن، أما الخيط القطني فيستخدم لجميع الأزياء، والأقمشة، ويستخدم الخيط المقصَّب على المخمل، ومع الثوب الدجاني على كلٍّ من الصدر والذراعين[١١].

جمالية الثوب الفلسطيني

امتازت فلسطين بنوع من الجمال، جمع بين عناصر الطبيعة كلها؛ سهول، جبال، منخفضات، وصحراء تقع في الجزء الجنوبي من البلاد. مع مناخ وطقس جمع بين الاعتدال والبرودة في انتظام، ومواسم محددة، مضافًا إلى كل هذا مجموعة من الأنهار. كل هذا نقلته المرأة الفلسطينية على ثوبها، فهي تعيش في جو مفتوح تملأه الشمس، وبيت يرحِّب بزائريه؛ لهذا كان ثوبها قطعة من هذا الجمال، الذي حولها، هذا الجمال تم نقله على أجزاء ثوبها، وجميع القطع التي تريديها، ابتداءً من السراويل المطرزة، التي ترتديها تحت الثوب، مرورًا بالشلحه، فالثوب، ثم المنديل، والشال. هذه الجماليات التي أضافتها المرأة على ما ترتدي خدمت مجموعة من الوظائف، وتأثرت بالكثير من العوامل.

إن الثوب الفلسطيني «خارطة تضاريسها مطرَّزة وثقافتها الفكرة، والخبرة، واليد الماهرة، وهي مجموعة من القطع التي تُخاط مع بعضها، فيما يسمى الشّل، أو الشّلالة، أي ضم طاق من الثوب إلى طاق آخر لوصله»[١٢].

حمل الثوب، ضمن ما حمل من جماليات، مجموعة من الأشكال الهندسية، التي عبرت عن رموز مختلفة فمثلًا عبَّر المثلث عن الحجاب، والتضاريس المرتفعة من جبال، كما عبَّر المربع عن مجموعة من الرموز، مثل المعين، فيما عرف بتطريزة الدوام، أو خيمة الباشة، كما ظهرت النجوم، وخاصة النجمة الثمانية، التي ترمز إلى كوكب الزهرة، كما ظهرت الدائرة لتطريز القوس والورود، والأزهير .. إلخ.

«من المعروف أن لكل نوع هندسي وظيفته في الثوب فالمثلث مقدَّس، يرمز إلى السماء، أما الدائرة فهي لتبيان القدسية، وزرع الأمان ... فالدائرة تعني قدسية الشيء، وعبادته، والطواف حوله. وإدخاله الحماية» [١٣].

● أولا: العوامل التي أثرت في الثوب

أثرت في الثوب الفلسطيني مجموعة من العوامل البيئية، والتاريخية، والاقتصادية، والثقافية، منها استقلال الشخصية الفنية لأسلوب التطريز، برغم تأثرها بعوامل خارجية، ذلك أن الملابس نتاج ثقافة المجتمع، وهذه الثقافة تحددها عوامل البيئة، فطبيعة المنطقة هي التي فرضت على الثوب أن يكون واسعًا، حتى يجلب الهواء، وهو يتوافق مع المناخ المحيط به، فألوان الثوب تفرضها طبيعة المنطقة المناخية.

كما تأثر الثوب بما مر على فلسطين من شعوب، وحضارات كنعانية، وعربية، وإسلامية، وعثمانية، فحمل الثوب كل هذه الخبرات، فثوب القدس متأثر بالفترة العثمانية على نحوٍ خاص، وما حملته من ثقافة.

لقد ساعدت طبيعة الثوب في الجانب الاقتصادي، فاتساع الثوب ساعد المرأة على نقل الحطب والخضر من الحقل، وذلك عندما تجمع أطراف ثوبها في الحزم، على شكل بوجة، وأيضًا في جمع المحصول مع زوجها، أو حمل الأعشاب الضارة من الأرض، كما كان الاتساع الذي يحدث فوق الحزام يساعد على أن تحمل المرأة نقودها، وحاجاتها.

ثقافة الشعب الفلسطيني ثقافة محافظة، متأثرة بالدين، لهذا كان الثوب متسعًا كي لا يظهر جسد المرأة، كما وأن

تنوع التطريزات جاء تأثرًا بالجانب الديني، فوحدات التطريز نباتية، وهندسية، مع وجود حالات قليلة، وجدت فيها تطريزات تحمل حيوانات، مثل الطيور، هذه الموتيفات الحيوانية حدث لها نوع من التجريد، تماشيًا مع روح الدين.

كما تأثر الثوب أيضًا في ألوانه وتطريزاته من حيث الكثافة، أو القلة في مساحات التطريز، بسن مرتدية الثوب، والحالة الاجتماعية، فالسيدة المسنَّه لها ألوانها، وتطريزاتها الخاصة، التي تجمع ما بين الوقار، والحشمة، والجمال، كما للصبيَّة ألوانها المبهجة، التي تحض على العفاف، وهي غير أثواب تطريزات المتزوِّجة، أو العروس.

● ثانيا: وظائف الثوب

جمع الثوب عند المرأة الفلسطينية ما بين الجمال ومجموعة من الوظائف المختلفة منها الوقاية فهو يحمى من البرد ومن الشمس، كما أنه يمتاز بالعملية، فهو يساعد على سهولة الحركة وسهولة نقل الأشياء من الحقل إلى المنزل، وثوب أيضًا يحافظ على القيم الدينية .. إلخ.



ثوب أبو وردة بيت لحم

أجزاء الثوب

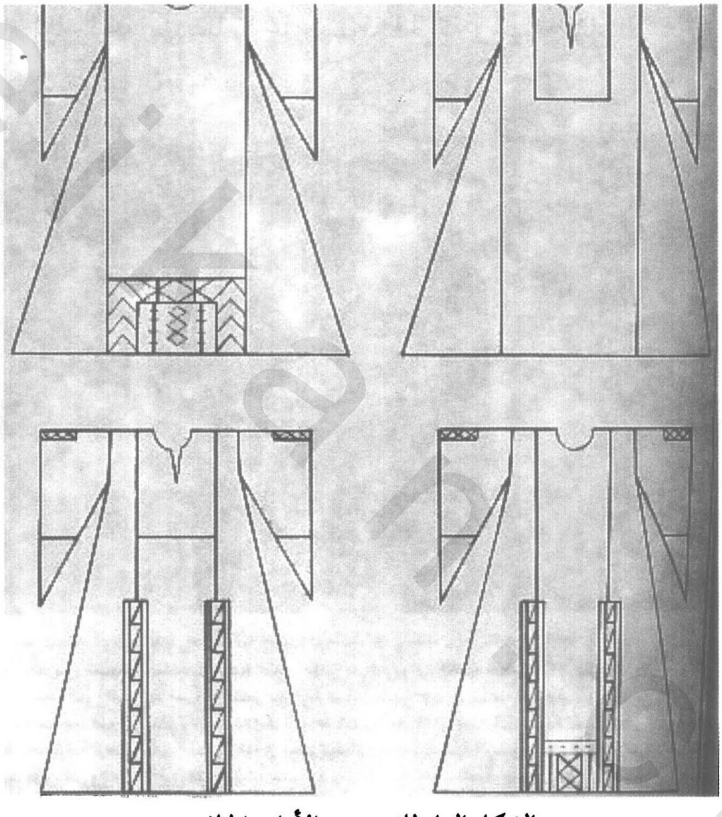
وزعت التطريزات المتنوعة والمختلفة القديم منها والحديث، والتي نقلتها المرأة، على أقسام الثوب الفلسطيني، بمختلف أنواعه، من شمال فلسطين إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وقد تنوع التطريز، ما بين الكثافة الشديدة والندرة، على أجزاء الثوب والذي ينقسم إلى خمسة أقسام، هي:

١ـ البدن الأمامي.　　٢ـ البدن الخلفي.

٣ـ البيانق، وهي من ٣ إلى ٦ أجزاء.　　٤ـ الكمام.

٥ـ القبة، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة، طولها ٦٠سم، وعرضها ٣٥سم، تمتد من فوق الخصر حتى نهاية الكتف، ويحتاج الثوب أيضًا إلى قطعة قماش تخاط في أسفل الثوب من الداخل للمحافظة عليه من الاهتراء بسبب احتكاكه بالأرض [١٤].

ويكون القص أولاً، حيث يتكون الثوب من٤م من القماش العادي، و ٢٠ , ٢م أو أقل من القماش ذي العرضين، وبعد قص القماش إلى هذه الأجزاء السابق ذكرها، يتم التطريز، وفي العادة تبدأ المرأة بتطريز البيانق أولًا.



الشكل العام للثوب من الأمام والخلف

الوحدات الزخرفية

نقلت المرأة الفلسطينية مستخدمة الخيوط المتاحة لها وكذلك الأقمشة الرموز التي حوتها الطبيعة من حولها وكذلك كل مستجد على حياتها، وقد برعت فيها المرأة الفلسطينية، وصار عملها علما على براعتها، في نقل رموز الطبيعة المحيطة بها على ثوبها في نوع من التوافق بينها وبين أرضها، التي تربت عليها، فقد حمل الثوب حزمًا من الرموز المتوارثة، مضافًا إليها كل ما يطرأ من جديد على واقع المرأة الفلسطينية المعاش، في عناقيد من التطريز الجميل على كافة أجزاء الثوب، سواء كان ثوبًا للأفراح، أو لكبار السن من النساء، أو للصبيَّة في مقتبل العمر.

اختلفت هذه الوحدات والزخرفات من منطقة إلى أخرى، كما اختلفت كثافتها على أجزاء الثوب، تبعًا لاستخدامه، ونوع القماش المستخدم. هذه الوحدات والزخارف اختلفت في تحديد بدء نشأتها، وإن كانت هناك آراء كثيرة حولها، من هذه الآراء من يرى أن الوحدات الزخرفية «هي رموز عقائدية (دينية)، وتذهب هذه الآراء إلى أن الجماعات الإنسانية استخدمت زخارف تحمل رموزها الطوطمية، التي كانت تقدسها أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تستخدمها كي تخيف بها القوى المعادية لها، أو كي تستجلب نفع القوى الإنسانية الأولى، ومحاولتها تفسير كثير من الظواهر التي تحيط بها، والسيطرة عليها» [١٥].

حمل ثوب المرأة الفلسطينية كل هذه الرموز، فقد حمل الخصب، في رمز الديك، والقوة في الحصان، والأرض والسماء في مثلثين متعاكسين، في شكل معين، معبِّرًا عن التزاوج والتناسل. «الثوب هو متحف، بل هو الكون، بداية من القبَّة ونهاية بالشليل ـ أسفل الثوب ـ فهو السماوات المرصَّعة بالنجوم، تصعد إلى الإله مع الخط العامودي، فيه الأرض، الطبيعة والجمال، والألوان، الربيع الجميل، والمياه الرقراقة، وعلى جسد الثوب بهاء الشمس، والجهات الأصلية والفرعية، الثوب حضارة فيه الأشكال الهندسية والتطريزات، والفواكه، تجد سنبلة القمح، وغصن الزيتون، والدوائر السماوية التي تعطي الحماية والكمال»[١٦].

القُطبة أو الغُرزة

«يطلق اسم القُطبة أو الغُرزة على شيء واحد، في المفهوم الشعبي، في بعض المناطق، وبعض المناطق تستعمل مفهوم الغُرزة على أنه كيفية غرز الإبرة في القماش، أما القُطبة فهي الناتج عن الغُرزة، أو عن أكثر من غرزة» [١٧].

نتج عن هذا ما عرف بتطريز القماش، وهو «العملية التي يتم بها غرز خيوط الحرير بواسطة الإبرة اليدوية، أو إبرة الماكينة على القماش، بكيفيات مختلفة، بغرض إنتاج نماذج زخرفية، توصف بأنها قطع مزخرفة» [١٨].

امتازت القُطبة في الثوب، والتي نقلتها المرأة، بتأثرها بما ينتجه الحقل، وما حوته الطبيعة حولها، فقد نقلت السنبلة، وشجرة الزيتون، وكذلك شجرة السرو، والأنهار على ثوبها، لتجردها، بعد ذلك، من كل عناصرها وتصبح رموزًا، قد لا تستوعبها الأجيال الجديدة، وخاصة مع ما يحاوله الاستعمار من طمس للهوية الفلسطينية، والتي بدأها بالموروث الشعبي، وخاصة الثوب محاولًا تشويهه، لصالح إثبات أحقيته بالأرض التي اغتصبها.

يحكي الثوب الشعبي الفلسطيني قصة الإنسان الذي عاش على هذه الأرض، في مجموعة من القُطبات «الغُرز»، تبدأ المرأة بغرزة، تُعرف بالبدوة، وهي «من البداية أو البدء، وهي أول وحدة زخرفية كاملة، تطرزها المرأة على الثوب، أو بعض أجزائه» [١٩].

استخدمت المرأة في الأراضي الفلسطينية مجموعة من القطبات أشهرها [٢٠]:

١ـ **الفلاحية**: تتسم بالضيق، أو الاتساع، وتتم عملية التطريز بغرز الإبرة، لتشكل شارة الصليب(+) على أربع زوايا متجاورة، لأربعة عيون متجاورة، وتسمى القطبة الواحدة «حبة»، أما في حال اجتماع أكثر من قُطبة فأنها تسمى «القمعة».

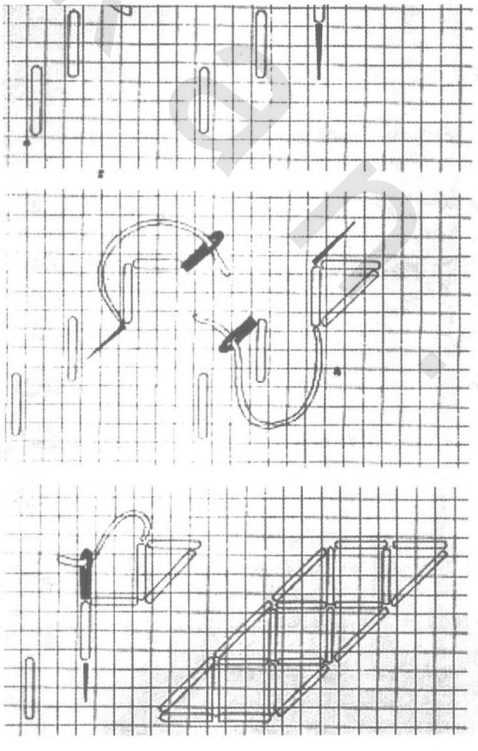
٢ـ **القطبة المثمَّنة**: تتشكل بغرز الإبرة في الماركة، على خمس حبات، أفقيًّا، ثم غرزة عمودية، بخمس حبات أخرى، وتتكرر العملية.

٣ـ **قطبة الحبكة**: تستخدم فيها الإبرة أو السنارة، والخيوط الحريرية، ولها أشكال كثيرة، أهمها أجر الحمامة، وعرف الديك، السنبلة، وحبكة الروب، وحبكة اللف.

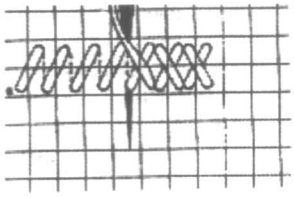
٤ـ **قطبة الخياطة العادية**: هي القطبة المستعملة لجمع أجزاء الثوب، وقد تكون القُطبة غُرزة عادية، أو بإبرة الماكينة، أو بالإبرة اليدوية، ويتوقف طول القُطبة هنا في القسم الظاهر منها، على رغبة المرأة، وهدفها من هذه القطبة. .. إلخ.

مع هذه القطبات استخدمت طرق مختلفة في ملئها، من هذه الطرق ما عرف بالتحشاية «وهي تعبئة النماذج الزخرفية بالتطريز، بعد تحديد هيكلها العام، ولا تكون التحشاية إلا في النموذج المزخرفة».

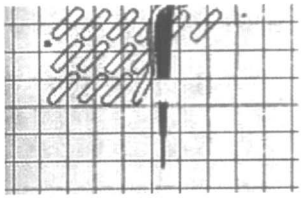
كما تُستخدم ما عرف بترماية، حيث توضح به الشكل العام للزخرفة، أو العرق برسمه، كما تعتبر غُرزة التسريجة، وهي قطبة يدوية طويلة، تجمع بها أجزاء الثوب، من أشهر القطبات[٢١].



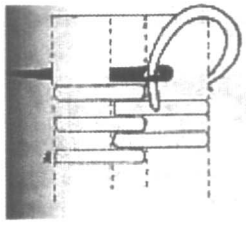
الغُرزة التركية، وتعطي الانطباع بأنها تشبه القماش المطبوع



(١)



(٢)



(٣)(*)

هذه القطب يتم جمعها على الثوب في شكل عروق، تختلف باختلاف الخامات المستخدمة، كما تختلف تلك العروق باختلاف أماكنها، فمثلًا القُطبات المتبعة في تطريز القبة هي على الترتيب «حبكة، عرق النجوم، ريشة، سنسال، عرق الشقحات، سنسال، عرق الشقحات، سنسال، شكلة، قمر الريش، لعبة، قمر النجوم، سنسال، عرق الفراتة» [٢٢].

تعتبر غرزة التحريرة، والرشق، من أهم الغُرز التي تستعل في تطريز ثوب، في منطقة بيت لحم، وبعض القرى التابعة للقدس، وتُعتبر الخيوط الحريرية المذهبة والمفضضة هي الأكثر استخدامًا، وكذلك الخيوط الحريرية [٢٣].

نوع العروق

تختلف أنواع العروق، من مكان إلى آخر كما تختلف أماكن توزيعها، ولكل من التطريز باليد عروق خاصة به، وكذلك التطريز على الماكينة، له عروقه الخاصة. وتتنوع كثافة التطريز على الثوب في المناطق المختلفة، من ثوب إلى آخر، فالقُبة تتميز بالتطريز المكثف وبمجموعة من العروق الخاصة بها، والتي تتكرر، وكذلك بالكثافة الشديدة التطريز على الصدر.

تتميز العروق بالتنوع، من حيث عرضها وطولها، كما وأن ثمة قوانين، أو أصول تتبع في وضع العرق، كما أن لكل عرق وظيفته، التي يستخدم فيها، كما أن له مكانه في الثوب، ولكن هذا لا يمنع من وجود تجاوزات؛ «فمن الأصول المتعارف، عليها، مثلا أن العرق الفاصل يمكن أن يظهر على جميع أجزاء الثوب، و بعض عروق الردفة لا يجوز أن تطرَّز على الجوانب، وعروق القبة، رفيعة وقصيرة، أما عروق الجوانب فعريضة وطويلة، وقد يطرَّز على القبة عناصر زخرفية منفردة، ولا تتكرر لتكون عرقًا، بينما لا يمكن أن تجد ذلك على الجوانب» [٢٤].

يتم تحديد طول العروق، بعدد مرات تكرار العنصر الزخرفي، أما عرض العرق، فيعتمد على عرض العنصر

(*) أنواع من القطبات المستخدمة (١ ـ غرزة الصليب، ٢ ـ غرزة الصليب تعمل عادة على الخيش، ٣ ـ الغرزة المنبسطة وتشبه غرزة عظم السمكة تستعمل للوصل).

الزخرفي، كما يعود إلى مفهوم العرق؛ «إذ جمع عدة عروق متجاورة على الأبدان البيانق، تأخذ اسم عرق، أيضًا، وهكذا فالعرق على القبة، والأكمام، والردفة يتكون من تكرار عنصر واحد، في العادة، أما على الجوانب (البيانق، والأبدان) فهو إما بعرض عرق بسيط واحد، أو بعرض أكثر من عرق واحد، وهنا يصبح العرق مركبًا»[٢٥].

تتنوع العروق ـ كما أشرت ـ إلى عروق بسيطة، وعروق مركبة، فمنها السناسل، والتفنيف، ولكل منهما وظيفته، وهناك العروق العريضة، والتي تتنوع فيها وحدة الزخارف، وتستخدم على جميع أجزاء الثوب، على حدٍّ سواء، فتوضع على البيانق، والأبدان، أو على الأكمام، والقبة، والردفة، ومن نماذج هذه العروق:

١ـ **عرق الكرز**: يتكون من أشكال وأوراق شجر الكرز.

٢ـ **عرق الوردة**: يتكون من ملوي يشكل وردة تظهر بالتناوب على جانبيه.

٣ـ **عرق عين الشمس**: ملوي يحمل أزهار عباد الشمس.

٤ـ **عرق القرنفل**: ملوي رفيع، يحمل أزهار القرنفل، ومن شكلين القرنفل العادي والقرنفل المعلوج.

٥ـ **عرق موج البحر**: مربع في وسطه نوزيعة.

٦ـ **عرق الصروخ**.

٧ـ **عرق خط بارليف**.

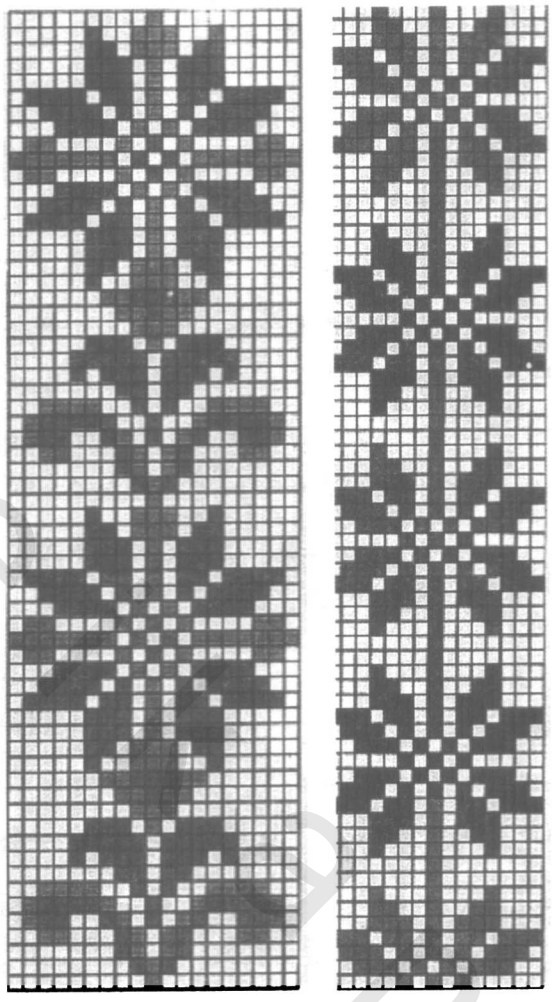
٨ ـ **عرق بيجن والسادات**

العروق الثلاثة الأخير مضافًا إليها مجموعة أخرى مثل الأسد، الأرنب، قصور وعلالي، الكراسي، الخواتم، الصلبان، الشمعدان. .. إلخ عروق جديدة، وغير مستعملة بشكل كبير[٢٦].

من الملاحظ أنه ما قبل ١٩٤٨ كانت القُطبة تتم بشكل تلقائي، وموروث ولم يكن هناك ما يحكم التطريز، سوى مهارات المرأة، وما تتعلمه ممن حولها، وهذا ظاهر على الأثواب القديمة، التي كان تطريزها يتم بفن تلقائي، وإبداع فطري، نابع من صاحبة الثوب، سواء كانت صبية، تجهِّز لعرسها، أو سيده متزوجة، أو امرأة مسنَّة. أما بعد ١٩٤٨، وما حدث من محاولة لطمس هوية فن التطريز على القماش، من قبل المستعمر الصهيوني، فقد قامت جمعيات أهلية كثيرة، تشرف عليها سيدات فلسطينيات، بنقل تطريزات معينة وطلب تطريزات، وعروق معينة، على ما ينتج من الثوب، ولم يعد الإبداع هنا تلقائيًا، كما في السابق.

الثوب في القدس

تنوع الثوب في كل منطقة من مناطق فلسطين، فكل منطقة لها قُطبتها، التي تميِّزها، وكذلك عروقها، لدرجة أن كل سيدة تعرف بلدة وقرية السيدة التي تتحدث معها من القُطبة التي تزيِّن بها ثوبها، ومع الاحتفال بالقدس، كعاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٩، كان لا بد من أن يتم الحديث عن الثوب، والقُطبة في المدينة، وما يتميزان به.



نجوم نجوم

يمكن تقسيم فلسطين بخط وهمي، إلى ثلاثة أقسام متميزة، من حيث نوع الثوب، والتطريز عليه، وعلى الملابس الداخلية، ومن هذه المناطق: وسط الساحل، ومنطقة القدس، وهي منطقة مستقلة ثقافيًّا ومتميزة، وتشمل هذه المنطقة القدس، بيت لحم، رام الله ، والساحل الفلسطيني الأوسط، حيث توجد مدن يافا، واللد والرملة [٢٧].

تمتاز القدس عن غيرها من المدن الفلسطينية بوجود المقدسات مثل المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، ومجموعة من الكنائس، مثل كنيسة القيامة، وكنيسة المهد وغيرها، مما أضفى على المدينة طابعًا مميزًا، عكس على الثوب وقُطبته فيها. و تقع القدس شرق البحر المتوسط، وتمتاز بكونها مدينة ذات طابع جبلي، قليل السهول.

تتنوع أثواب مدينة القدس بشكل ملحوظ، ومتميز، منها [٢٨]:

ثوب مدينة القدس: وهو معروف بثوب الملك، مصنوع من المخمل الليلكي المطرَّز بخيوط من الذهب، على شكل زهور، إضافة لزخارف إسلامية متنوعة، كما أنه متأثر بطراز تركي، مسمى (الصِّرمة) أو (السيرما).

ثوب العرس في مدينة القدس: وهو زي قديم، كان يلبس في عهد الدولة العثمانية، قبل سنة ١٩٢٠، وقد تأثر بالتطريز التركي، المسمى (الصرمة)، وهو عبارة عن جاكيت، وتنورة، مصنوعين من المخمل الليلكي، المطرَّز بخيوط

ذهبية وفضية، على شكل أزهار وعروق، أما الشال فهو عبارة عن غطاء للرأس، مصنوع من الحرير المثبت عليه قطع فضية صغيرة.

ثوب غيانة: وهو زي العرس لقرى سلوان ودير ياسين والمالحي ولبعض قرى القدس، مصنوع من القطن المطرَّز بالحرير الذهبي، على شكل زهور، وهو مطرَّز بقطبة التحريرة، ويظهر التطريز على الأكمام، والجوانب (البيانق)، أما الشال، والحزام فمصنوعان من القطن الأبيض الطبيعي.

ثوب أبو قُطبه، المعروف (بجنة ونار): سمي بذلك لأنه مصنوع من قماش الحرير الأحمر، والأخضر، ويلبس كزي للأفراح والمناسبات، في بعض قرى القدس، والخليل، وهو مصنوع من شرائط الحرير، الأحمر والأخضر، المخيطة باليد، والمطرَّزة على طريقة بيت لحم، بخيوط الحرير الأحمر، والأصفر، والبرتقالي، والليلكى الأزرق، أما الشال فهو مصنوع من القطن الأبيض، وبالنسبة للحزام فهو مصنوع من قماش غباني.

أخيرًا، كان التطريز على الثوب عند المرأة الفلسطينية يظهر ثراء البيئة، حيث تحمل التطريزات رموزًا مرتبطة بالأرض، كما تحمل بعض أنواع التطريزات أثر المكان، الذي رسمت فيه.

إن هذه التطريزات، بدلالاتها المختلفة، والتي ورثتها المرأة الفلسطينية عن جدتها الكنعانية، والتي طوَّرتها، وجددت فيها، وأضافت عليها من روحها، تعبِّر عن مدى اتصال الإنسان الفلسطيني بأرضه وتجذر مناخها، وعاداتها، وقيمها في طباعه، ليظهره على ملابسه، فمنطقة الصدر، وخاصة في أزياء القدس، تحمل بعض الرموز المعبرة عن طبيعة المنطقة، والحيوانات، الموجودة فيها، من جمال، وخيول، وحمام.

إن علاقة الغُرزة بالبيئة واضحة، فالثوب هو تعبير عن ذات الإنسان، وما التطريز على الثوب إلا مجموعة من الأشكال المعرفية، والثقافية المتوارثة، والتي نقلتها المرأة على ثوبها، في تواصل حميمي مع أرضها، بكل ما في هذه الأرض من مميزات وعيوب، مخرجة فنًّا تلقائيًّا، معبِّرًا عن طبيعة المكان والزمان، الذي استخدم فيه. لهذا ظل الثوب الشعبي الفلسطيني، ولا يزال رمزًا على تلك الثقافة، والموروث الذي حملته المرأة، على عاتقها لتحارب به، بغير سلاح، سواء بضع خيوط، وإبرة، وقطعة من قماش، تثبت بها أن هذه الأرض المغتصبة هي أرضها، وأرض أولادها، وأحفادها من بعدها، ولو كره المغتصبون ذلك وحاربوه.

* * *

هوامش الفصل الخامس:

(١) عابد عبيد الزريعي، **المرأة في الأدب الشعبي**، طبعة ثانية، دمشق، منشورات الهدف، ١٩٨٦، ص٥.

(٢) جون داركاكيس، **المادية الثقافية**، ترجمة: هاني حلمي حنفي، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي القرن العشرين المداخل التاريخية، والفلسفية والنفسية، تحرير ك. بلووف وآخرون، مراجعة رضوى عاشور، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص٧٣ـ٧٤.

(٣) شريف كناعنة وآخرون، **الملابس الشعبية الفلسطينية**، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، د. ت، ص٢٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٥) عبد السميع أبو عمر، **التراث الشعبي الفلسطيني: تطريز وحلي**، طبعة ثانية، القدس: حزيران/ يونيو، ١٩٨٧، ص٥.

(٦) حنان غوشة الحسن، **الأثواب الشعبية الفلسطينية بين القديم والحديث**، عمان: الجمعية الخيرية لرعاية الأسرة، ١٩٩٦، ص٩.

(٧) نمر سرحان، **موسوعة الفولكلور الفلسطيني**، طبعة ثانية، عمان: دار الثقافة، د.ت، ص٩.

(٨) **المصدر نفسه**، ص٦٥٨.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٤ وما بعده.

(١٠) عبد الرحمن المزيِّن، **موسوعة التراث الفلسطيني/ الأزياء الشعبية الفلسطينية** بيروت منشورات فلسطين المحتلة وصامد، ١٩٨١، ص ٤٢ وما قبلها.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٣١.

وانظر كتاب: كناعنة، **مصدر سبق ذكره**، ص١١١ ص١١٢.

(١٢) عوض سعود عوض، **تغيرات الفولكلور الفلسطيني**، دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ص١٠.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١١.

(١٤) كناعنة وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨ ،١١٠.

(١٥) إبراهيم عبد الشافي، **الوحدات التشكيلية الشعبية**، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ص١٠.

(١٦) عوض، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٠.

(١٧) غوشة الحسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤.

(١٨) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨٣.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٨.

(٢٠) كناعنة وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٢.

(٢١) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٨، ٥٨٣ ، ٦٣١.

(٢٢) كناعنة وآخرون، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٢ وما بعدها.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢٣.

(٢٤) الحسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨.

(٢٥) كناعنة آخرون، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٩.

(٢٦) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٢٧) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥٩.

(٢٨) أبو عمر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥ ـ ١٩.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السادس

القدس في المفاوضات

عطا السيد فتوح الشعراوي

قضية القدس هي مفتاح السلام في الشرق الأوسط، وهي من أكثر القضايا استعصاءً وتعقيدًا، إذ لا يمكن التوصل إلى حلول سياسية، سواء دائمة، أو مؤقتة، للصراع العربي ـ الإسرائيلي، دون حل تلك القضية التي تمثل معالم القضية الفلسطينية مجتمعة، فهي، **أولًا**: قضية وطنية على صعيد الأرض والاحتلال بمعناه الواسع، **وثانيًا**: قضية إنسانية، على صعيد التهجير والاضطهاد للسكان، وحرمانهم من حق تقرير مصيرهم، **وثالثًا**: قضية دينية، على صعيد المقدسات وحمايتها، وحق الوصول إليها والحريات الدينية، **ورابعًا**: قضية قانونية، على صعيد السيادة القانونية والولاية العامة للدولة على الأرض والسكان، **وخامسًا**: قضية إستراتيجية، إذ للقدس اعتبارات جيو ـ سياسية، وجيو ـ اقتصادية، كونها تتوسط فلسطين، وتربط شمالها بجنوبها، وتسهّل علاقة انسيابية مرنة بين الساحل الفلسطيني، ومرتفعاته الداخلية، وهو ما يجعل مسألة القدس حاسمة في رسم معالم مستقبل الصراع.

احتلت «إسرائيل» منطقة القدس الشرقية، خلال حرب عام ١٩٦٧، ومضت في تطبيق تصوّرها لتهويد المدينة بالكامل، وأعلنتها «عاصمة أبدية موحدة» لها، معتبرة أن القرار ٢٤٢ لا يشمل القدس، ثم شرعت في تغيير معالم المدينة الجغرافية، والديموغرافية، والاقتصادية، بهدف خلق واقع جديد على الأرض، يستحيل معه التفاوض حول القدس.

اليوم، القدس مدينة مطوَّقة بغلاف أسمنتي، طوله ١٨١ كلم، يتخلله ٢٦ حاجزًا عسكريًّا، من بينها حاجز قلنديا، الذي بات معبرًا حدوديًّا بين الضفة والقدس، ويتعين على من يعبره من الاتجاهين أن يحصل على تصاريح عبور، اعتبارًا من آذار/ مارس ٢٠٠٦، وبلغت مساحة الاستيطان في محافظة القدس ٤٤ كلم٢، أي ما نسبته ١٣٪ من أراضي المحافظة موزعة على ٢٦ مستوطنة. أما داخل القدس، فإن السلطات البلدية تصنِّف أكثر من ٢٠,٠٠٠ منزل فلسطيني على أنها غير شرعية، وهي قابلة للهدم.

بات التوصل إلى اتفاق عادل، يضمن الحقوق الفلسطينية أمرًا صعبًا، تحت وطأة الإجماع والإصرار الإسرائيلي على احتلال القدس، والسيطرة عليها، بشكل أو بآخر، ومع سطوة استمرار الاستيطان، والمصادرة، والاستيلاء والحرمان من الخدمات، وسحب الهويات المقدّسية من أهلها، وفي ظل تأييد أمريكي مطلق لما تقوم به إسرائيل من فرض للأمر الواقع بالقدس على الصعيدين الديني، والسياسي.

إن صعوبة ملف القدس تتبدى لنا من خلال التعرف على مواقف الأطراف المختلفة من قضية القدس، ومدى التباين في تلك المواقف، ومن خلال استعراض المسيرة التفاوضية حول القدس، وذلك على النحو التالي:

أولًا: المواقف المختلفة من قضية القدس

(أ) الموقف الفلسطيني.

(ب) الموقف الإسرائيلي.

(ج) الموقف العربي والإسلامي.

(د) المواقف الدولية.

● **(أ) الموقف الفلسطيني[١٣]:**

وهو ليس موحدًا حيث إن تباينًا بين الموقفين الشعبي والرسمي، فالموقف الشعبي يتمسك بفلسطين وطنًا لشعب فلسطين، كما كانت عبر العصور، وبالقدس كاملةً، بكل أكنافها، عاصمةً لفلسطين، وقلبها النابض، وهو الأمر الذي طالبت به «تحالف الفصائل الفلسطينية» المقيمة في دمشق، في مارس/ آذار ٢٠٠١، مؤتمر القمة العربي، المنعقد في عمان، حيث أكدت على ضرورة «توفير كل ما يمكّن الشعب الفلسطيني من تحقيق هدفه الوطني، ألا وهو طرد، وكنس الاحتلال من الضفة، وقطاع غزة، وأن القدس عاصمة فلسطين، دون قيد أو شرط».

بينما جاءت بداية الموقف الرسمي الفلسطيني، الذي أعطى الضوء الأخضر لكيفية معالجة قضية القدس في مشاريع السلام العربية عام ١٩٧٤، حيث أقر المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته الثانية عشرة، المنعقدة في القاهرة، برنامج النقاط العشرة، كبرنامج سياسي مرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذي لم يحدد مفهومه للأرض الفلسطينية المحتلة، ولا الوسائل الممكنة لتحرير هذه الأرض، وتم التأكيد عليه في بيان المجلس الوطني، في دورته التاسعة عشرة، في الجزائر في ١٥/ ١١/ ١٩٨٨، الذي نص على «ضرورة تحقيق تسوية عادلة للقضية الفلسطينية على قاعدة قراريْ مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨، وقيام دولة فلسطينية فوق أرضنا الفلسطينية، وعاصمتها القدس الشريف»[١٤]. وهو ما تم التأكيد عليه بوضوح، أكثر في بيان المجلس الوطني الفلسطيني، في دورته العشرين، في الجزائر في ٢٢/ ٩/ ١٩٩١ «أن من أسس ومنطلقات السلام، الانسحاب الإسرائيلي التام من الأراضي الفلسطينية المحتلة، عام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشريف» وهو ما اعتبر تراجعًا وتنازلًا من قبل «منظمة التحرير الفلسطينية» عن مواقفها السابقة، التي كانت تؤكد، كما في البند السابع عشر من «الميثاق الوطني الفلسطيني»، الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة في القاهرة في ١٧/ ٧/ ١٩٦٨. على «أن تقسيم فلسطين الذي جرى عام ١٩٤٧،

وقيام إسرائيل باطل من أساسه، مهما طال الزمن، لمغايرته لإرادة الشعب الفلسطيني، وحقه الطبيعي في العيش في وطنه[٢].

استمر مسلسل التراجع، والتنازلات في قضية القدس، رغم التمسك بالحقوق العامة للشعب الفلسطيني، ومن ذلك الموافقة على مشاركة أهالى القدس في الانتخابات التشريعية لسلطة الحكم الذاتي، عبر صناديق البريد، وليس ميدانيًا، في دوائر انتخابية في القدس الشريف (القدس الشرقية)، والأفكار التي قدمت من جانب السلطة الفلسطينية، وتتضمن مشاريع تقاسم وظيفي وسلطوي، وسياسي، مقابل المطالبة بتنازلات ـ لم تتحقق ـ من الطرف الإسرائيلي.

كما طرح الفلسطينيون، أو شاركوا في صياغة عدد من الأطروحات، والمبادرات الرسمية، أو غير الرسمية لدفع عملية التسوية، تضمنت مقترحات، وتصورات، بشأن قضية القدس، ومن ذلك:

١ـ نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية، في ٢٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٠، مشروعًا فلسطينيًا للتسوية النهائية، على أساس ما أسمته «قائمة مطالب عرفات للسلام»، وقد تضمن عدة نقاط، من بينها أن توضع القدس العربية (الشرقية) تحت السيادة الفلسطينية الكاملة، وتكون عاصمة فلسطين، مع بقاء الحي اليهودي وحائط البراق «حائط المبكى»، وحي المغاربة، تحت السيادة الإسرائيلية، فضلًا على القدس الغربية، ومستوطنات معاليه أدوميم وجيلو وراموت[٣].

٢ـ وثيقة «إيلون ـ نسيبة»، التي توصل إليها رئيس المخابرات الإسرائيلي السابق «عامي إيلون»، و«سري نسيبة»، رئيس جامعة القدس في ٦ أغسطس/ آب ٢٠٠٢، ونصت الوثيقة على اعتبار القدس مدينة مفتوحة وعاصمة للدولتين.

● (ب) الموقف الإسرائيلي، سواء الرسمي أو الشعبي يجمع على أن إبقاء القدس عاصمةً موحدةً لإسرائيل تحت سيادتها، من القضايا الرئيسة لإسرائيل[٤].

لقد لخص وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشيه دايان، في العام ١٩٦٨، الموقف الإسرائيلي في قضية القدس، في ثلاث نقاط[٥]:

- القدس لن تعود مجزأة.
- توفير حرية الوصول للأماكن المقدسة لجميع الأديان.
- تحكم كل ديانة أماكنها المقدسة.

وقد سار على منهج دايان جميع المسؤولين في إسرائيل، ابتداءً من إسحاق رابين، وشمعون بيرس، منذ «أوسلو» ١٩٩٣. فقد كان رابين يرى أن هناك «القدس العليا»، وهي المدينة المقدسة القديمة، داخل حدود السور العثماني التاريخي، وأن هناك «القدس الصغرى»، وهي أحياء القدس الشرقية المحتلة، في جغرافية البلدية العربية (١٩٦٧)، أما «القدس الكبرى» فهي ما يجمع بين القدس الغربية، والشرقية، بما فيها المدينة المقدسة القديمة. أما شمعون بيرس، فكان يتحدث عن أربعة ملفات في قضية القدس، **الملف السياسي** المغلق، ويسجل بأنها عاصمة أبدية موحدة

لإسرائيل، وملف ديني، لإدارة الأماكن المقدسة، بين الأديان الثلاثة مع حرية الوصول إليها، **وملف بلدية**، تؤدى من خلاله وظائف وخدمات مشتركة، تحت مظلة بلدية واحدة، تجمع تحت جناحها فرعين لبلديتين اثنتين، فلسطينية وإسرائيلية، أما عن الملف الرابع فهو **ملف اقتصادي ـ سياحي**، ولكن باعتبارها «مدينة إسرائيلية»!

بينما قال إيهود أولمرت، عندما كان رئيسًا لبلدية القدس: إن المجلس البلدي وضع نفسه في سباق مع الزمن السياسي، وذلك على قاعدة قطع الشك باليقين، على أن وحدة القدس، والسيادة أبدية لدولة إسرائيل عليها. أما رئيس وزراء إسرائيل السابق، إيهود باراك، فقد أكد، في انتخابات الكنيست عام ١٩٩٩، «بأن الحزب سيحافظ على القدس، موحدة إلى الأبد، وأنه لن يوافق أبدًا، على العودة إلى حدود عام ١٩٦٧».

ـ إيهود أولمرت نفسه قال في ٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٧، حين كان رئيسًا للوزراء: «إن القدس عاصمة موحدة، وغير مقسَّمة، وهي عاصمة إسرائيل، إلى الأبد، وليس من قوةٍ قادرةٍ على تغيير هذا الواقع». إن رؤية «أولمرت» تقوم على إبقاء القدس موحدة، على أن تكون بلدة «أبو ديس»، القريبة من القدس، عاصمة الدولة الفلسطينية الموعودة، وبالمقابل يتعهد أولمرت بأن تبقى البلدة القديمة للقدس ـ مساحتها أقل من كيلو متر مربع ـ التي تضم المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة، وحائط البراق (المبكى)، في متناول المؤمنين تحت السيادة الإسرائيلية[٦].

لقد تعددت النماذج، والمقترحات الإسرائيلية، لكن دونما خروج عن الخطوط الرئيسية للإستراتيجية، التي سبق أن طرحها «دايان» في العام ١٩٦٨، وكان من أبرز هذه النماذج، نموذج الفاتيكان داخل الدولة الإيطالية، بمعنى وضع إطار خاص للتعامل مع المدينة المقدسة القديمة (كيلومتر مربع واحد)، داخل إطار المدينة الإسرائيلية، بالإضافة إلى توسيع حدود المدينة، وتوزيع «الحصص الجغرافية»[٧].

● **(ج) الموقف العربي والإسلامي**

هنا نجد التباين، أيضًا بين المواقف الشعبية، والمواقف الرسمية، فالشعوب العربية والإسلامية تؤكد أن القدس عاصمة فلسطين، ولها أهمية إسلامية خاصة، وأن فلسطين أرض إسلامية لا يحق لأحد أن يتنازل عنها أو يساوم عليها. ومن القوى، والمؤتمرات، والروابط، التي أكدت على خصوصية القدس، وعدم المساومة عليها، ما يلي[٨]:

ـ فتوى مؤتمر علماء فلسطين الأول المنعقد في القدس عام ١٩٣٥.

ـ فتوى علماء العراق عام ١٩٣٧.

ـ فتوى علماء نجد عام ١٩٣٧ .

ـ فتاوى علماء الأزهر الشريف، في الأعوام ١٩٤٧، ١٩٥٦، ١٩٧٩ .

ـ فتوى المؤتمر الدولي الإسلامي، المنعقد في باكستان، عام ١٩٦٨ .

ـ فتوى علماء المسلمين، في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٨.

كل تلك الفتاوى تؤكد على عدم التفريط في أي ذرَّة من أرض فلسطين، وعلى خصوصية مدينة القدس في الصراع، وحرمة التنازل عنها، أو الإقرار بسيادة إسرائيل عليها.

ـ تشكيل **المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس**، الذي تأسس عام ١٩٥٣، في مدينة القدس من علماء ومفكرين، من مختلف أنحاء العالم، وأصبح مقره في عمان، في أعقاب الاحتلال الصهيوني للقدس، وهو يرفض أي مشروع لتدويل القدس، أو إلغاء هويتها الإسلامية.

ـ **المؤتمر القومي ـ الإسلامي**، الذي عقد في بيروت في ١٠/ ١٠/ ١٩٩٤، رفض «التسويات المطروحة لإنهاء الصراع العربي الصهيوني، وإغلاق ملف القضية على نحوٍ يهدر حقوق شعب فلسطين، وضرورة متابعة تحرير فلسطين، والجولان، وجنوب لبنان».

ـ **المؤتمر العام للأحزاب العربية**، الذي تأسس، في عمان، ١٩٩٦، وضم (٧٦) حزبًا عربيًّا، ورأى في بيانه، في مؤتمره الثاني، في بيروت عام ١٩٩٩ بأن «الإجراءات التي يقدم عليها العدو الصهيوني في القدس هي إجراءات باطلة، وغير شرعية»، وأكد «حق الشعب الفلسطيني التاريخي في العودة إلى وطنه، وإقامة دولته على تراب الوطن، وعاصمتها القدس».

ـ **المؤتمر الشعبي للدفاع عن القدس**، الذي تأسس، في عمان، عام ١٩٩٦، حيث دعا في البيان الختامي للمؤتمر الثاني، الذي عقد في عمان، في ٢٢/ ١١/ ٢٠٠١، الحكومات العربية والإسلامية إلى «إعادة القدس وفلسطين إلى الموقع الذي تحتله في عقيدة الأمة، باعتبارها الأرض المقدسة والمباركة، أولى القبلتين، ومسرى النبي ﷺ، ومعراجه، وموطن الرسالات السماوية، والحضارات الإنسانية»[٩].

أما المواقف الرسمية العربية والإسلامية، فهي متوافقة، وداعمة للموقف الرسمي الفلسطيني المتراجع في قضية القدس، كما جاء في قرارات القمم العربية والإسلامية المختلفة التي صدرت بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، حيث وافقت هذه الدول على قرار (٢٤٢)، وبدأت تطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، ومنها القدس الشرقية، وقيام دولة فلسطينية مستقلة، عاصمتها القدس الشريف[١٠].

بعد خروج قوات «منظمة التحرير الفلسطينية» من بيروت، عقد مؤتمر ملوك ورؤساء الدول العربية، مؤتمر قمة في فاس، وأصدروا في ٩/ ٩/ ١٩٨٢ مشروعًا عربيًّا للسلام، وبالنسبة إلى وضع القدس، فقد أكد مشروع السلام العربي على:

(أ) ضرورة انسحاب «إسرائيل» من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية.

(ب) قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

(ج) ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان.

كما نص البيان الختامي، الصادر عن القمة العربية غير العادية في القاهرة، بتاريخ ٢١/ ١١/ ٢٠٠٠، على «دعم موقف دولة فلسطين، الذي يستند إلى التمسك بالسيادة على القدس الشرقية، بما فيها الحرم القدسي الشريف، وجميع الأماكن المقدسة، الإسلامية والمسيحية، التي تشكل جزءًا من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبالقدس الشريف عاصمة لدولة فلسطين المستقلة».

في عام ٢٠٠٢ أجازت قمة بيروت «المبادرة العربية للسلام»، التي قدمها الملك عبد الله بن عبد العزيز، ونصَّت على قبول قيام دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة على الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٦٧، في الضفة الغربية، وقطاع غزة، وتكون عاصمتها القدس الشرقية. ولا تزال هذه المبادرة هي الخيار الذي تؤكد عليه القمم العربية، إلى الآن دون كلل، أو ملل[١١].

● **(د) المواقف الدولية**

يمكن تصنيف المواقف الدولية إلى ثلاثة مواقف رئيسية[١٢]:

الأولى: مواقف منسجمة مع الموقف الرسمي العربي، كموقف «منظمة الوحدة الأفريقية»، والموقف الروسي، فهما يؤكدان على حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية.

في ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢، طرح الزعيم السوفييتي آنذاك، ليونيد بريجينيف، مبادرة نصَّت على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، بما في ذلك «القدس الشرقية». وقد رحبت «منظمة التحرير الفلسطينية»، والدول العربية بهذا المشروع، الذي لا يختلف في جوهره مع مشروع السلام العربي.

الثانية: مواقف خاصة، كالموقف الأوروبي، الذي أعلنته الدول التسع الأعضاء في المجموعة الأوروبية، عام ١٩٨٠، (إعلان البندقية) الذي نص على أن «تعترف الدول الموقعة بالأهمية الخاصة التي تكتسبها قضية القدس، بالنسبة لكل الأطراف المعنية، وأنها لا تقبل أي مبادرة تتخذ من جانب واحد، وتستهدف تغيير وضعية القدس، وأن أي اتفاق يخص وضعية المدينة ينبغي أن يضمن للجميع حق حرية الدخول إلى الأماكن المقدسة».

في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، أعد الاتحاد الأوروبي وثيقة داخلية جديدة، تضمنت برنامج عمل يتعلق بمسيرة السلام، هدفها وقف عمليات فرض الأمر الواقع التي تنفذها إسرائيل في القدس والضفة الغربية، وتوجه الاتحاد إلى دول العالم لممارسة الضغط على إسرائيل كي توقف الاستيطان وتعيد فتح «بيت الشرق» الفلسطيني في القدس الشرقية المحتلة، وتعمل على إنجاز اتفاق سلام مع الفلسطينيين، في سنة ٢٠٠٩، وأكدت الوثيقة على أن التسوية بشأن القدس ينبغي أن تجعل منها عاصمة للدولتين، كأساس لفكرة قيام الدولة الفلسطينية[١٣].

كذلك موقف الفاتيكان، الذي لم يعترف بإسرائيل إلا في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٣، وذلك بعد توقيع «اتفاق أوسلو»، في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣، وقد جاء في الاتفاق بين إسرائيل والفاتيكان ما نصه: «يرى الفاتيكان وإسرائيل في مدينة القدس أهمية خاصة»، وعليه فلم يضمن الاتفاق أي تأكيدات على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في مدينة القدس، ولا أي اعتراف بالسيادة العربية على الأماكن المقدسة الإسلامية.

يطالب الفاتيكان بتدويل المدينة، مع وجود إدارة عربية على القسم الشرقي منها، وإدارة إسرائيلية على الجانب الغربي منها، على أن يتم وضع دستور خاص للمدينة من قبل الأمم المتحدة، وأن تؤلف هيئة دولية للإشراف على هذا التطبيق.

الثالثة: الموقف الأمريكي المؤيد لإسرائيل، والذي تجسد بوضوح حين صوت أعضاء الكونجرس الأمريكي

في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٩٥، على قرار نقل السفارة الأمريكية في إسرائيل إلى القدس، باعتبارها عاصمة الدولة العبرية، الذي يجب أن تتواجد فيها السفارات والهيئات الدبلوماسية، وذلك في مدة لا تتعدى عام ١٩٩٩، على نحو غير مسبوق في التوافق إذ وافق نحو (٣٧٤) صوتًا، مقابل (٢٧) فقط رفضوا ذلك، وحصل هذا القرار نفسه في مجلس الشيوخ الأمريكي على موافقة مشابهة إذ وافق نحو (٩٣) صوتًا مقابل (٥) أصوات فقط، رفضوا القرار[١٤].

تتبنى واشنطن فكرة «التدويل»، كحلٍّ ملائم لقضية القدس، على أن يتم ذلك من خلال مفاوضات الحل النهائي، لتحديد مستقبل مدينة القدس، وطرحت العديد من المقترحات بشأن القدس من أبرزها ما يلي:

(أ) في نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٩، قدم وزير الخارجية وليم روجرز مشروعًا أمريكيًا دعا فيه كلًّا من الأردن و«إسرائيل» إلى الاتفاق حول القدس، وفق المبادئ التالية[١٥]:

١ـ بقاء القدس موحدة، وعدم وجود قيود على حرية تنقل الأشخاص، والبضائع.

٢ـ عدم وجود قيود على حرية الوصول للمدينة، من أية ديانة، أو جنسية.

٣ـ تراعي الترتيبات الإدارية للمدينة الموحدة مصالح جميع السكان، ومصالح اليهود والمسلمين، والمسيحيين.

(ب) في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٥، قدمت مجموعة دراسة الشرق الأوسط في «معهد بروكنجر» الأمريكي للسلام، في واشنطن، مشروعًا شاملًا لحل مشكلة الشرق الأوسط، وفيما يتعلق بالقدس دعا المشروع إلى:

١ ـ الوصول الحر لجميع الأماكن المقدسة، ويكون كل مكان مقدس تحت وصاية من دينه.

٢ ـ إلغاء الحواجز التي تقسِّم المدينة، وتمنع الانتقال من أي جزء منها.

٣ ـ الحكم السياسي الذاتي الواسع في القدس، لكل مجموعة وطنية، إذا أرادت، ضمن المساحة التي تكون فيها أكثرية.

٤ ـ دعا الرئيس الأمريكي، رونالد ريجان، في مبادرته، التي أعلنها في ١/ ٩/ ١٩٨٢، إلى أن تبقى مدينة القدس غير مجزَّأة، وأن يتقرر وضعها النهائي عن طريق التفاوض.

كانت تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها رئيس أمريكي عن استثناء أراض محتلة عام ١٩٦٧م من المفاوضات، الأمر الذي يؤكد التوافق الأمريكي مع الرغبات والسياسات الإسرائيلية، لاعتبار «القدس الموحدة» عاصمة أبدية لدولة «إسرائيل»، طبقًا لقرار ضم القدس، الذي أصدره رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت، مناحيم بيجين، في يونيو/ حزيران ١٩٨١.

(ج) في ٢٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٠ نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية نص وثيقة أمريكية، تكشف استعداد «إسرائيل» للانسحاب من ٩٠٪ من الضفة والقطاع، ونقلها للسيادة الفلسطينية الكاملة. والموافقة على أن يخضع نهر الأردن، والجسور المقامة عليه، والأحياء العربية في القدس، في النهاية، لسيطرة الفلسطينيين، على أن تقوم «إسرائيل» بضم مناطق وتجمعات الاستيطان اليهودي الرئيسية في الضفة، ومن ضمنها تلك القائمة في محيط منطقة القدس[١٦].

ثانيًا: المسيرة التفاوضية حول القدس

(أ) القدس في مفاوضات كامب ديفيد (١٩٧٨).

(ب) القدس في اتفاقيات أوسلو.

(ج) القدس في معاهدة وادي عربة ١٩٩٤.

(د) «القدس» في مفاوضات كامب ديفيد ـ ٢ عام ٢٠٠٠.

(هـ) «القدس» في «وثيقة جنيف».. ديسمبر ٢٠٠٣م.

● (أ) القدس في مفاوضات كامب ديفيد (١٩٧٨)

بدأت القدس تأخذ خصوصية معيَّنة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، منذ صدور قرار التقسيم رقم ١٨١، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، الذي اقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين، عربية ويهودية، وهو أول قرار دولي يصدر عن الأمم المتحدة، يتناول القضية الفلسطينية. وعالج الجزء الثالث من القرار قضية القدس، وجعل منها كيانا منفصلاً (Corpus Sepratum)، خاضعًا لنظام دولي خاص، وتابعًا لإدارة الأمم المتحدة، وعين مجلس وصاية دوليا، ليقوم بأعمال السلطة الإدارية، نيابة عن الأمم المتحدة. وقدم مجلس الوصاية مشروعًا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٣/ ٤/ ١٩٥٠، من أجل إدارة شؤون الأماكن المقدسة، التي أصبحت تحت السيادة الجماعية للأمم المتحدة، ويقوم بإدارتها مندوب تابع للمنظمة الدولية، ويساعده مجلس تشريعي، مكوَّن من ٤٠ عضوًا، لمدة ٣ سنوات[١٧].

لم تحصل أي مفاوضات رسمية بين العرب وإسرائيل، قبل عام ١٩٦٧، لإيجاد تسوية بين الطرفين، وكان قرار التقسيم، هو الفارقة الوحيدة، في هذا الشأن، إذا ما اعتبر في أحد وجوهه قرارًا أمميًّا بفتح باب التفاوض[١٨].

أثيرت قضية القدس في «مفاوضات كامب ديفيد» المصرية ـ الإسرائيلية بمداخلة أمريكية قوية في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٨، وقد استهدف الطرفان، وخاصة المصري، التوصل إلى مبادئ عامة لحل القضية، ضمن ما عرف بالشق الفلسطيني من المفاوضات.

طرحت مصر أن تنسحب «إسرائيل» من القدس إلى حدود الهدنة لعام ١٩٤٩، وفقًا لمبدأ عدم جواز احتلال الأرض بالقوة، وتعاد القدس الشرقية إلى السيادة العربية، على أن يقام مجلس بلدي مشترك من عدد متساوٍ من الفلسطينيين والإسرائيليين. بذلك وافقت مصر على ألا يؤدي الانسحاب الإسرائيلي لإعادة تقسيم المدينة، وشفعت ذلك بعرض ترتيبات خاصة للأماكن المقدسة، وكفالة حرية المرور إليها، وضرورة التعبير عن السيادة الإسلامية عليها بشكل بارز، كرفع الأعلام مثلاً[١٩].

من جانبها، رفضت «إسرائيل» المطلب المصري، معلنةً بأن القدس الموحدة، تحت السيادة الإسرائيلية، غير قابلة للتفاوض، ومضت إلى أن أقصى ما توافق عليه هو ضمان حرية العبادة، والزيارة، بالنسبة لأصحاب الديانات المختلفة.

كمحاولة للتوفيق، تقدمت الولايات المتحدة بصيغ عائمة، غير محددة، تركز على حرية العبادة، والتنقل في القدس، وخضوع الأماكن المقدسة فيها إلى كل المعنيين، عن طرّيق ممثلين لهم، ولم تتطرق واشنطن إلى مسائل السيادة، والمصير النهائي للمدينة، وكان هذا الموقف قريبًا من الطرح الإسرائيلي، وقد رفضته مصر.

انتهى المفاوضون في كامب ديفيد إلى صيغة «اللاتسوية» بالنسبة لمصير المدينة، واستُعيض عن الاتفاق بتبادل الرسائل بين الأطراف الثلاثة حول القدس. فقد أرسل الرئيس المصري رسالة إلى نظيره الأمريكي، في ١٧/ ٩/ ١٩٧٨، كرر فيها موقف مصر من المدينة، وجاءت الرسالة بما نصه: «تعتبر مصر أن القدس العربية هي جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، ويجب إعادة الحقوق العربية، والتاريخية، والشرعية على المدينة، وذلك بتطبيق قرارات مجلس الأمن (٢٤٢، ٢٦٧)، فيما يتعلق بالقدس، بما يكفل لجميع الشعوب حرية الوصول إلى المدينة، وممارسة شعائرهم، وأن إدارة الأماكن المقدسة لكل ديانة يمكن أن توضع تحت إدارة ممثليها، وسلطتهم».

رد رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن برسالة إلى الرئيس الأمريكي، جاء فيها ما نصه: «إن الحكومة الإسرائيلية تؤكد أن القدس هي مدينة واحدة، غير قابلة للتقسيم، وهي عاصمة دولة إسرائيل الخالدة»[٢٠].

جاء رد الرئيس الأمريكي على الرسالتين، فيما يشبه «علم الوصول» حيث جاء على النحو التالي[٢١]:

١ـ القدس جزء من الضفة الغربية، ويجب احترام الحقوق العربية التاريخية فيها.

٢ـ يجب أن تكون القدس تحت السيطرة والسيادة العربيين، في مفاوضات سياسية مستقبلية.

٣ـ من حق السكان الفلسطينيين في القدس ممارسة جميع حقوقهم الوطنية المشروعة بوصفهم جزءًا من الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية.

٤ـ يجب تطبيق القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة، الخاصة بقضية القدس مثل القرارات ٢٤٢ و٢٦٧، والتي تعتبر كافة الإجراءات التي اتخذتها «إسرائيل» لتغيير وضع المدينة لاغية وغير قانونية، ويجب إبطال آثارها.

٥ـ يجب أن تتوفر لكل الشعوب حرية الوصول إلى القدس، وممارسة الشعائر الدينية، وحق زيارة الأماكن المقدسة، بدون أي شكل من أشكال التمييز.

٦ـ يجب وضع الأماكن المقدسة لكل دين من الأديان الثلاثة تحت إشراف وإدارة ممثل الدين.

من الناحية القانونية، ليس لهذه الرسائل طبيعة إلزامية، ولا تعبّر عن أي اتفاق سياسي، وبدا فيها استهتار بالشرعية الدولية تجاه القدس، ومن اللافت أنها طرحت القضية بالاقتصار على شرقي المدينة، المحتل ١٩٦٧، بينما نظرت إلى القسم المحتل منذ ١٩٤٨، وكأن الأمر قد تقادم عليه، وهو ما يخالف حقيقة الوضع القانوني والسياسي للقضية.

لأن اتفاقات كامب ديفيد لم تتعرض للقدس في الشق الفلسطيني منها، فقد أصرت مصر على تناول مستقبل المدينة، فيما عرف «بمفاوضات الحكم الذاتي الفلسطيني» (بين آيار/ مايو ١٩٧٩، وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١)، وأكدت بأن شرقي القدس أرض محتلة، منذ عام ١٩٦٧، ينطبق عليها القرار رقم ٢٤٢، وعرضت، بإصرار، أن تكون القدس مقر سلطة الحكم الذاتي المقترحة، ورفضت، مجددًا، الموقف الإسرائيلي، الذي يطالب السيادة على القدس الموحدة.

إلا أن «إسرائيل» لم تغير موقفها، الذي أعلنته في كامب ديفيد، فتم تأجيل قضية القدس إلى إشعار آخر[٢٢].

● **(ب) القدس في اتفاق أوسلو:**

غابت القدس عن رسائل الدعوة إلى «مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط»، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، ولم تتعرض لها كلمات رُعاة المؤتمر، وأصرت «إسرائيل» على رفض مشاركين من القدس، في إطار الوفد الأردني ـ الفلسطيني المفاوض، وكذا في أية ترتيبات محتملة للقضية الفلسطينية.

لطمأنة الجانب الفلسطيني، بعثت الدبلوماسية الأمريكية برسالة إلى «منظمة التحرير الفلسطينية» مفادها: «إن كل ما يفعله الفلسطينيون، في هذه المرحلة، لن يؤثر في مطالبهم إزاء القدس الشرقية. ومن حق سكان القدس المشاركة في مفاوضات المرحلة النهائية». لهذا تم تأجيل النظر في قضية القدس، مرة أخرى.

في مفاوضات واشنطن الفلسطينية ـ الإسرائيلية (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ ـ آب/ أغسطس ١٩٩٣)، عبَّر الوفد الفلسطيني (برئاسة حيدر عبد الشافي) عن رغبته في فتح ملف القدس عاجلًا؛ لأن «إسرائيل» مستمرة في سياسة الاستيطان بالمدينة، وفرض الأمر الواقع عليها، وقد لا يجد الفلسطينيون ما يفاوضون عليه، مستقبلًا، ودفع الوفد بأن القدس الشرقية تنطبق عليها ولاية الحكم الذاتي الانتقالي، بل هي المقر المزمع لهذه الولاية. غير أن المفاوض الإسرائيلي رفض هذا الطرح، وتمسك بمواقفه التقليدية من وحدة المدينة، ورفض أي مظهر سيادي فلسطيني عليها، كما لم يتعهد بوقف عمليات الاستيطان فيها، مؤكدًا أنها العاصمة الموحدة الأبدية «لإسرائيل»[٢٣].

يعتبر «اتفاق» أوسلو ـ ١ أو «اتفاق إعلان المبادئ»، الموقع، في واشنطن، في ١٣ سبتمبر/ أيلول من العام ١٩٩٣م، هو الخطوة الأولى على طريق التسوية الفلسطينية ـ الإسرائيلية، وهو الأساس القانوني والسياسي لكل ما تلاه من اتفاقيات، ومذكرات لاحقة بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي. وقام بالتوقيع عليه كل من محمود عباس «أبو مازن»، الذي كان في ذلك الوقت، يشغل منصب سكرتير اللجنة التنفيذية لـ «منظمة التحرير الفلسطينية» كممثل للشعب الفلسطيني، وشيمون بيريز الذي كان يشغل في ذلك الحين منصب وزير الخارجية في حكومة إسحاق رابين العمالية الثانية، ممثلًا عن «إسرائيل» وبحضور وزيريْ خارجية كل من الولايات المتحدة وارين كريستوفر، وروسيا أيضا، أندريه كوزيريف[٢٤].

فيما يتصل بملف «القدس» فقد نصت المادة الخامسة من هذا الاتفاق على أن تبدأ فترة انتقالية من خمس سنوات، فور الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة ومنطقة أريحا، وأن تبدأ مفاوضات الوضع الدائم بين إسرائيل وبين ممثلي الشعب الفلسطيني، في أقرب وقت ممكن، ولكن بما لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية، وأوضحت هذه المادة، أيضًا أن هذه المفاوضات سوف تغطي مجموعة من الموضوعات والقضايا الخلافية بين الجانبين وهي تحديدًا: «القدس، اللاجئين، المستوطنات، الترتيبات الأمنية، الحدود، العلاقات والتعاون مع جيران آخرين» ثم ما أسماه الاتفاق بـ «وسائل أخرى، ذات اهتمام مشترك».. وفي هذا الإطار أكدت هذه المادة اتفاق الطرفين على ألا تجحف أو تخل اتفاقيات المرحلة الانتقالية بنتيجة مفاوضات الوضع الدائم.

أما الفقرة الأولى رقم (١) من الملحق الأول لاتفاق أوسلو ـ ١ وعنوانه «بروتوكول حول صيغة الانتخابات وشروطها»، فقد نصت على الآتي، فيما يتصل بـ «القدس»: «على أن يكون لفلسطينيي القدس الذين يعيشون فيها، الحق في المشاركة في العملية الانتخابية، وفقًا لاتفاق بين الطرفين».

نلاحظ على «اتفاق أوسلو» ما يلي[٢٥]:

١ـ إنه كان ذلك بمثابة أول تراجع إسرائيلي عن مبدأ «القدس عاصمة أبدية وموحدة لإسرائيل»، حيث إن المادة الخامسة أكدت على اعتراف إسرائيلي ضمني بوجود مشكلة ما حول المدينة، تستحق التفاوض عليها ووضعت (القدس) في هذا الإطار، ضمن مفاوضات الوضع النهائي الأخرى، كاللاجئين، والمستوطنات.

٢ـ تغافل عن الكثير من الأمور، والحقائق السياسية، ومنها على ـ سبيل المثال ـ أن «القدس» المعنية في هذا الاتفاق هي «القدس الشرقية»، تحديدًا، بما فيها «البلدة القديمة»، وليست «القدس» «المدينة الكاملة»، حيث استولت العصابات الصهيونية على الشطر الغربي، أو القسم الجديد من المدينة، في حرب عام ١٩٤٨، وخرجت من المفاوضات بين الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي، خاصة وأن منطلقات «عملية السلام في الشرق الأوسط» بما فيها عملية أوسلو تدور حول مرجعيات دولية أولية، هي قرارات «مجلس الأمن الدولي» أرقام «٢٤٢» لعام ١٩٦٧، و«٣٣٨» و«٣٣٩» لعام ١٩٧٣، وهي القرارات المتعلقة، أساسًا بقضية الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها، في حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧.

٣ـ تأجيل موضوع القدس، وآلية البت فيه، إلى مفاوضات الحل النهائي، وذلك إلى جانب مواضيع وملفات حساسة أخرى كالمستوطنات، واللاجئين والترتيبات الأمنية والحدود، وكان من المفروض أن يبدأ البحث فيها حسب اتفاقيات أوسلو، في مطلع السنة الثالثة من بدء الاتفاقية الانتقالية للحكم الذاتي (أي في عام ١٩٩٦) إلا أن ذلك لم يحدث، ودخلت في نفق التسويف، المبرمج والمستمر، الذي يخدم إسرائيل في تهويدها للقدس، وقيامها بتثبيت السيادة عليها، عبر الحفريات، ومصادرة الأراضي، وبناء المستوطنات، وشق الطرق الالتفافية، وتضييق الخناق على المؤسسات الفلسطينية العاملة في القدس، وفصل القدس عن بقية الأراضي الفلسطينية، ومنع دخولها إلا بتصريح، وحظر ممارسة أي نشاطات جماهيرية فلسطينية، أو فتح مكاتب إلا بموافقة مسبقة بإذن خاص من الحكومة الإسرائيلية، بشكل أجرأ، فاقت إجراءات التهويد التي كانت قائمة قبل اتفاقات أوسلو؛ لأن «إسرائيل» وجدت في هذا الاتفاق فرصة كبيرة، ومظلة غير مسبوقة، لمتابعة ممارساتها التهويدية بكل طمأنينة.

● **(ج) القدس في معاهدة وادي عربة (١٩٩٤)**

توصل المفاوضان الأردني والإسرائيلي في واشنطن، في ٢٥ من تموز/ يوليو ١٩٩٤، إلى ما سمي «إعلان مبادئ للتسوية»، تضمن الحديث عن «دور خاص للأردن تجاه المقدسات، عند تسوية الوضع النهائي للقدس». وهو الأمر الذي اعترض عليه الجانب الفلسطيني، محتجًا، باعتباره يتعارض والولاية الفلسطينية على هذه القضية، وقد يؤدي إلى التضارب، وإثارة الإحن، بين السياستين، الأردنية والفلسطينية، كما أنه يتعارض، ونص إعلان المبادئ (أوسلو ١٩٩٣) بين «منظمة التحرير الفلسطينية»، وإسرائيل حول القدس.

انتهت المفاوضات الأردنية ـ الإسرائيلية إلى توقيع وثيقة للسلام، عرفت بـ «معاهدة وادي عربة»، في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، وتطرقت إلى القدس بوضوح، وذلك في الفقرة الثانية من المادة التاسعة التي نصت على[٢٦]:

١ ـ سيمنح كل طرف لمواطني الطرف الآخر حرية دخول الأماكن ذات الأهمية الدينية والتاريخية.

٢ ـ وفي هذا الخصوص، وبما يتماشى مع «إعلان واشنطن»، تحترم «إسرائيل» الدور الحالي للمملكة الأردنية الهاشمية في الأماكن الإسلامية المقدسة، في القدس، وعند انعقاد مفاوضات الوضع النهائي، ستولي «إسرائيل» أولوية كبرى للدور الأردني التاريخي في هذه الأماكن.

رغم أن «إسرائيل» بررت هذا النص بأن الأردن تمكن من رعاية الأماكن المقدسة الإسلامية لسنوات طويلة، فإنها سعت لإثارة الخلافات بين الطرفين، الأردني والفلسطيني، وبالفعل صدر بيان عن «منظمة التحرير الفلسطينية»، نص على أن «يعتبر هذا البند انتهاكًا صريحًا، من قبل (إسرائيل)، وليس من حقها إعطاء أي تعهد، أو التزام بشأن أراض متنازع عليها، ومؤجلة لمرحلة التفاوض النهائي، وأن من شأن ذلك أن يضعف من الموقف التفاوضي الفلسطيني، خلال المفاوضات المتوقعة، حول الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة».

رد الأردن على ذلك في بيان رسمي، في ٢٨/ ٧/ ١٩٩٤ جاء فيه: «لم تر الحكومة الأردنية أي تناقض بين استرجاع السيادة السياسية على القدس العربية من خلال المفاوضات الإسرائيلية، وبين استمرار الأردن القيام بدوره في ممارسته لولايته الدينية على المقدسات الإسلامية في القدس»[٢٧].

● **(د) «القدس» في مفاوضات كامب ديفيد ـ ٢ (٢٠٠٠)**

جاءت هذه المفاوضات، التي جرت في منتجع كامب ديفيد بالولايات المتحدة، في شهر يوليو/ تموز ٢٠٠٠، في ظل أجواء مهيأة لتعاط جديد مع القضية الفلسطينية، واستحقاقات عملية التسوية في الشرق الأوسط، بعد تبدل القيادة الليكودية في «إسرائيل»، ومجيء حكومة عمل جديدة بقيادة الجنرال إيهود باراك، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الأسبق، في مقابل قيادة أمريكية ديمقراطية، مثلها الرئيس الأمريكي، بيل كلينتون، والذي طرحت إدارته مجموعة من الأفكار الجديدة، حول الأوضاع الدولية وقضية السلام العالمي، مع تمهيد فوزه بفترة رئاسية ثانية، لتحرره، إلى حد كبير، من سطوة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة[٢٨].

في هذا السياق، دعا كلينتون كلًّا من رئيس السلطة الفلسطينية، ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي، إيهود باراك إلى قمة في كامب ديفيد، لإجراء سلسلة من المفاوضات، عرفت باسم مفاوضات «كامب ديفيد ـ ٢». وتمسك عرفات بقرارات الشرعية الدولية، لا سيما فيما يتصل بملفيْ «القدس» و«اللاجئين»، وعلى رأسها القرار «٢٤٢»، ومرجعيتيْ مؤتمر مدريد (١٩٩١م)، وأوسلو[٢٩].

من جانبه، سعى كلينتون لدى الحكومات العربية، للضغط على عرفات، من أجل قبول عرض باراك، الذي وصفه كلينتون بالتاريخي، والذي يتمثل في إعادة نحو ٩٦٪ من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، باستثناء «القدس»، وتجمعات استيطانية كبيرة، مع إعادة اللاجئين إلى أراضي الـ٦٧، التي ستقام عليها «دولة فلسطينية»، في وقت لاحق، على أن تستبدل أبو ديس بالقدس، والتي يمكن أن تكون ـ من وجهة نظر باراك ـ عاصمة للدولة الفلسطينية. إلا أن الدول العربية رفضت هذا العرض، كون «القدس» و«اللاجئين» حقوق فلسطينية مصنَّفة، طبقًا للقانون الدولي، ومواثيق الأمم المتحدة، على أنها «حقوق لا تسقط بالتقادم، ولا يمكن التصرف فيها»، أي لا يمكن

لأي طرف التنازل عنها، لحساب طرف آخر، دون توقيعات، وموافقات كاملة، من أصحاب الشأن، فردًا فردًا، وليس حتى لممثلين عنهم؛ ولذلك لم يملك عرفات السلطة القانونية، ولا السياسية، للتوقيع على اتفاق مع باراك، في ذلك الوقت، يتنازل بمقتضاه عن الحقوق الفلسطينية في «القدس»، وحق عودة اللاجئين، حتى لو أراد عرفات ذلك.

بعد فشل عرض باراك، قدم كلينتون مقترحات، ابتعدت كثيرًا عن مجال الشرعية الدولية، ومحدداتها في المفاوضات، بين الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي، سواءً فيما يتصل بملف «القدس»، أو بعموم ملفات القضية الفلسطينية، على النحو التالي[٣٠]:

١ ـ أخذت المقترحات بأسلوب التجهيل عند ذكر «الدولة الفلسطينية»، بعدم ذكر أداة التعريف (الـ)، والتي تعيد إلى الذاكرة الالتباس الشهير، الذي جرى في التفسير العربي والرؤية الإسرائيلية، بين النصين، الإنجليزي والفرنسي، لقرار «مجلس الأمن الدولي» رقم «٢٤٢»، والمتعلق بمسألة الانسحاب من (الـ) «أراضي» (الـ) «محتلة» عام ١٩٦٧م، وفيما تمسك العرب بالنص الفرنسي للقرار، الذي نص على الانسحاب الإسرائيلي من «الأراضي المحتلة»، تمسكت «إسرائيل» بالنص الإنجليزي، الذي يقول من «أراضٍ احتُلت» عام ١٩٦٧م. وفي مقترحات كلينتون، هناك نص يقول «قيام دولة فلسطينية، ذات سيادة قابلة للتطبيق، تضع في الاعتبار متطلبات الأمن 'لإسرائيلية، والحقائق السكانية»، مع عدم النظر، تمامًا، لمتطلبات الأمن الفلسطيني، أو توضيح قاطع ومحدد لمفهوم «الحقائق السكانية»، وهل هي التي أفرزتها سياسات «التهويد»، وأعمال الاقتلاع، والطرد المتواصلة، من جانب الدولة الصهيونية للأهالي الفلسطينيين، أم للحقائق التي نصت عليها الشرعية الدولية، ممثلة في «قانون العودة»، و«اتفاقيات جنيف» الأربع، الموقعة عام ١٩٤٩م. وحتى عندما تتحدث مقترحات الرئيس الأمريكي عن «دولة فلسطينية»، فإن مكوناتها، طبقًا للمقترحات، «قطاع غزة»، و«معظم» أراضي الضفة الغربية، وهي عبارة مضللة، تحتمل الكثير من التفسيرات، وتفتح المجال أمام «إسرائيل»، للاستيلاء على أراض مهمة، لها في الضفة، كـ «القدس» والمستوطنات الكبرى، مع مبادلة بعض الأراضي بين الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي، مراعاة للاعتبارات السكانية.

٢ ـ رغم أن المقترحات الأمريكية أقرت بحساسية قضية القدس، فإنها انحازت للطرف الإسرائيلي، على حساب الطرف الفلسطيني، حيث نصَّت على:

ـ أن تكون «القدس» مدينة مفتوحة، غير مقسَّمة، يتمتع فيها الجميع بحرية التنقل، والعبادات، وأن تضم عاصمتيْ دولتي فلسطين و«إسرائيل»، المعترف بهما، دوليًّا.

ـ يجب أن يصبح كل ما هو عربي فلسطينيًّا.

ـ وبمثل ما ينبغي أن يكون كل ما هو يهودي إسرائيليًّا، وهذا يسمح بـ «قدس» يهودية أكبر، وتنبض بالحياة، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ.

ـ ما هو مقدس للجانبين يتطلب رعاية خاصة، لتلبية احتياجات الكل، ولن يدوم اتفاق سلام، ما لم يتم مراعاة المشاعر، والمعتقدات الدينية، واحترامها، واحترام مقدسات المسلمين، والمسيحيين، واليهود، في المدينة المقدسة.

٣ـ ثمة مغالطة سياسية وقانونية كبرى في مقترحات «كلينتون»، وهي أنها تفترض بأن «القدس» معترف بها، دوليًّا، كعاصمة «لإسرائيل»، وهو ما يخالف الحقيقة، حيث إن كل الدول التي تقيم علاقات دبلوماسية مع «إسرائيل»، تضع سفاراتها في «تل أبيب»، وليس في «القدس»، باستثناء دولتيْ السلفادور، وكوستاريكا[٣١].

● **(هـ) «القدس» في «وثيقة جنيف» (ديسمبر/ كانون الأول (٢٠٠٣م)**

جاءت هذه الوثيقة ثمرة لمفاوضات استمرت ثلاث سنوات، بين كل من وزير الإعلام الفلسطيني، في ذلك الوقت، ياسر عبد ربه، ووزير العدل الإسرائيلي الأسبق، يوسي بيلين، وعضو «الكنيست» الإسرائيلي، ورئيس حركة «ميريتس» اليسارية، شريك الائتلاف الحاكم السابق لحزب «العمل»، وطُرحت، وجرى التوقيع عليها، بحضور عدد كبير من الشخصيات الدولية، لتتواكب مع «خارطة الطريق» الأمريكية، التي جرى طرحها، في وقت سبق الإعلان عن «وثيقة جنيف»، بفترة وجيزة.

ونصت هذه الوثيقة على إنهاء الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وإحلال السلام بين الطرفين، وإقامة علاقات دبلوماسية طبيعية وكاملة، بين «دولتي» «إسرائيل» وفلسطين. ووضعت هذه الوثيقة غير الرسمية برنامجًا زمنيًّا لتسوية النزاع بين الجانبين، وعلى أن تشكل بديلًا لقرارات الأمم المتحدة، ذات الصلة بالصراع، في حال إقرارها، رسميًّا، من جانب الحكومتين الفلسطينية والإسرائيلية.

فيما يتعلق بالقدس، نصت الوثيقة على مايلي [٣٢] :

١ـ أن تحتفظ كلا الدولتين، الفلسطينية والإسرائيلية، بعاصمتيهما في «القدس»، كل في المنطقة التي يسيطر عليها، أي سيطرة الجانب الإسرائيلي على «القدس الغربية»، وتصبح عاصمة رسمية لدولة «إسرائيل»، مع سيطرة فلسطينية كاملة بالمقابل، على «القدس العتيقة»، أو «القدس الشرقية»، باستثناء الحي اليهودي، وحائط البراق ـ جاء في الوثيقة أن اسمه «حائط المبكى»! ـ مع سيطرة فلسطينية كاملة على المسجد الأقصى، على أن تكون حرية الوصول إليه مكفولة للجميع، تحت إشراف قوة دولية للمراقبة.

٢ـ يمنع اليهود، تمامًا، من الصلاة في المسجد الأقصى، وتمنع جميع الحفائر الأثرية فيه، ويتخذ الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي، كافة الإجراءات التي من شأنها أن تسهِّل وصول اليهود إلى مزاراتهم الدينية المقدسة ومنها «بئر راحيل»، في بيت لحم ومقبرة «إبراهيم» في الخليل.

٣ـ تحتفظ «إسرائيل» بحق تمركز قوات أمنية في تكتل مستوطنات «جوش عتصيون»، بجنوب الضفة الغربية، والمستوطنات الواقعة في ضواحي «القدس»، مع انتقال السيادة إلى الجانب الفلسطيني في مستوطنات «آرييل وعفرات، وجبل أبى غنيم (هارحوماه) [٣٣] .

واضح أن الوثيقة غامضة ومطاطة، فقد حلت قضية القدس على أساس أن الحي اليهودي لليهود، والحي العربي للعرب، وأن الحرم القدسي يبقى تحت السيادة الفلسطينية، مع إبقاء (حائط المبكى) تحت السيادة (الإسرائيلية). أما المدينة القديمة، فتبقى في إطار دولي. لكن لم تشرح الوثيقة ماذا تعني ببقاء المدينة القديمة في إطار دولي؟! فهل تعني الوثيقة ما ورد في قرار التقسيم، الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ برقم ١٨١

والذي جعل مدينة القدس كيانًا منفصلًا خاضعًا لنظام دولي خاص؟! أم هل تعني بأن القدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل وفق قرار الكنيست؟! أم أنها عاصمة لفلسطين و«إسرائيل» معًا؟! بيد أن الوثيقة قسمت المدينة إلى حيين عربي ويهودي، دون أن تشير إلى الانسحاب من المدينة العربية التي احتلتها «إسرائيل» في حرب ١٩٦٧، خاصة وأن الطرف الإسرائيلي لم يكن، في يوم من الأيام، جادًا في الانسحاب إلى حدود ١٩٦٧، حتى الآن[٣٤].

تنطوي الوثيقة، أيضًا، على مخاطر عدة، وعلى رأسها التنازل عن القدس، كعاصمة للدولة الفلسطينية، والموافقة على اقتسام المقدسات الدينية، وخصوصًا في المسجد الأقصى المبارك، أي التنازل عن جزء من المقدسات الإسلامية والمسيحية، بدعوى الشراكة، والتفاهم بين الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي[٣٥].

* * *

خاتمة

من الواضح أن الجانبين، الإسرائيلي والفلسطيني، لا يملكان القدرة على حسم نتائج التفاوض حول القدس، وأن عملية السلام والاتفاقات التي وقعتها كل من مصر والأردن وقيادة م. ت. ف لم تتمكن من تحقيق أي نوع من الحماية للأقصى والقدس، بل شجعت إسرائيل على مزيد من التهويد، وإحكام السيطرة، الأمر الذي ترتب عليه عدم حدوث تقدم جوهري في هذا الملف المصيري ومن المتوقع ألا يشهد تحسنًا، أو أن يتم حسمه، في السنوات القليلة المقبلة، في ظل الفجوة الواسعة خاصة بين الموقفين، الفلسطيني والإسرائيلي، إذ تصر «إسرائيل» على الاستمرار في تهويد القدس الشرقية، واعتبار القدس موحدة تحت سيادتها، ورفض التفاوض على التراجع عن ضم القدس الشرقية إليها، ولم تتجاوز الرؤية الإسرائيلية فكرة القبول بعاصمة فلسطينية تقوم على بلدة أبو ديس، القريبة من القدس، أي أن تكون هذه البلدة هي القدس البديلة.

تتحدث إسرائيل، اليوم، عن «القدس الكبرى» و«القدس العظمى»، التي تضم قطاع غوش عتصيون بين بيت لحم والخليل جنوبًا، ومعاليه أدوميم «الخان الأحمر» شمالًا، ومستوطنة بيت شيمش غربًا.

إن خريطة «القدس العظمى» ـ وفقًا لصحيفة يديعوت أحرونوت ـ تشمل دائرة قطرها ٢٣ كيلو متر، أي حوالي ١٢٪ من مساحة الضفة الغربية. علمًا بأن مساحة القدس الغربية، التي كانت «إسرائيل» تسيطر عليها، قبل عام ١٩٦٧، بلغت ٢٨ ألف دونم، وأصبحت بعد ضم ومصادرة الأراضي في القدس الشرقية، ٧٢ ألف دونم. كما قامت «إسرائيل»، منذ اتفاق أوسلو في عام ١٩٩٣، بمصادرة ٢٦٣٨٢ فدانًا من الأراضي الفلسطينية، تحت ذريعة (مناطق عسكرية مغلقة)، و٤٢٩٥ فدانًا، لتوسيع المستوطنات، و٢٩٨٤ فدانًا، لشق شوارع للمستوطنات، و٢٩٥٠ فدانا كمحميات طبيعية. وهذا يعني أن ٧٩٪ من الأراضي فيما يسمى (القدس العظمى) أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية. لذا تستند إسرائيل في تصلبها في المفاوضات إلى قوة موقفها الناتج عن التغييرات التي فرضتها منذ عام ١٩٦٧ على القدس، خاصة المستوطنات المتداخلة مع التجمعات السكانية الفلسطينية، ونجاحها في تهويد القدس، وإزالة الطابع العربي عن القدس الشرقية إلى حد بعيد.

أما السلطة الفلسطينية فلا تزال تتمسك بكون القدس عاصمة الدولة الفلسطينية، وتقترح بأن تكون القدس مفتوحة، تحتوي على عاصمتين، واحدة للفلسطينيين والأخرى للإسرائيليين، مع إجراء ترتيبات خاصة بالأماكن المقدسة. ويستند المفاوض الفلسطيني إلى القانون الدولي وعدم اعتراف المجتمع الدولي بالتغييرات التي قامت بها «إسرائيل» في القدس، ولا في اعتبار القدس عاصمة موحدة «لإسرائيل».

من هنا باتت الحاجة ملحة لكي تتوحد الجهود الفلسطينية والعربية والإسلامية الشعبية منها والرسمية، من أجل الحفاظ على مدينة القدس من التهويد وطمس الهوية والمعالم من خلال التحرك أمام المحافل الدولية، وخاصة الأمم المتحدة، للتأكيد على المركز القانوني للقدس كما جاء في قرار مجلس الأمن رقم ٤٧٨ الصادر عام ١٩٨٠، وألزم الدول بعدم نقل بعثاتها من تل أبيب إلى القدس، وتوفير الدعم المالي اللازم لدعم صمود سكان القدس خاصة، وترميم الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية حفاظًا عليها من العبث الإسرائيلي، وتخصيص مساحة كافية على الفضائيات العربية والإسلامية، وبجميع اللغات العالمية الحية موجهة الرأي العام العالمي للحديث عن أهمية القدس ومكانتها، خاصة أنها ستلعب دورًا رئيسيًّا في شرعية فلسطين، لا في نظر الفلسطينيين، وحدهم، بل كذلك في نظر العرب والمسلمين، عمومًا. ذلك أن قيام دولة فلسطينية جديدة ليس لها وجود سيادي قادر على الحياة في القدس، سوف يفتقر، مؤكدًا، للشرعية الأساسية للدولة، في نظر شعبها.

* * *

هوامش الفص السادس:

(١) الدكتور محمد أحمد جميعان ، **القدس بين «مشاريع السلام» وحتمية التحرير**، مركز الشرق العربي للحضارة، ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٨ .

(٢) **المصدر نفسه.**

(٣) **يديعوت أحرونوت**، ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٠.

(٤) محمد عبد العاطي، قضايا الحل النهائي في المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، **الجزيرة نت** للدراسات والبحوث، يناير / كانون الثاني ٢٠٠٨.

(٥) جلال الدين عز الدين علي، القدس في الإدراك الإسرائيلي، **إسلام أون لاين**، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٠.

(٦) **هآرتس**، ٩/ ١٠/ ٢٠٠٧.

(٧) د. مهدي عبد الهادي، القدس ... رؤية مستقبلية ، **القدس**، مارس/ آذار ٢٠٠٧.

(٨) **جميعان، مصدر سبق ذكره.**

(٩) **المصدر نفسه.**

(١٠) **الشرق الأوسط** (لندن)، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٠.

(١١) المشروعات العربية: مشروعات التسوية العربية للقضية الفلسطينية..نظرة نقدية، مركز الخليج للدراسات الإستراتيجية، **أخبار الخليج**، ٩/ ٢/ ٢٠٠٤.

(١٢) نصير عاروري، الرؤية الأمريكية والدولية تجاه القدس، تحرير صالح عبد الجواد، **نحو إستراتيجية فلسطينية تجاه القدس** (جامعة بير زيت: مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، ١٩٤٨، ص ٨١ـ٨٤.

(١٣) **الشرق الأوسط**، ٢/ ١٢/ ٢٠٠٨.

(١٤) أحمد صدقي الدجاني، **القدس في خطر**، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠١، ص ٦٣.

(١٥) محمد شديد، **الولايات المتحدة والفلسطينيون بين الاستيعاب والتصفية**، ترجمة كوكب الريس، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥، ص ٧٠ـ٧١.

(١٦) خلدون أبو السعود، **أثر الاحتلال «الإسرائيلي» وإقامة المستوطنات على وضع القدس وفقًا لأحكام القانون الدولي**، رام الله: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠١، ص ٢٤٨.

(١٧) د. أحمد سعيد نوفل، الصراع على القدس خلال خمسين عاما .. بين القرارات الدولية ومشاريع الحلول السياسية، **القدس أون لاين**. http: / /www.alqudsonline.com

(١٨) شفيق شقير، مسار التفاوض بعد حرب ٦٧، **الجزيرة نت**، ٤/ ٧/ ٢٠٠٦.

(١٩) د. محمد خالد الأزعر، القدس في معاهدات التسوية العربية ـ الإسرائيلية، **القدس أون لاين**. http: / /www.alqudsonline.com

(٢٠) **المصدر نفسه**.

(٢١) **قضية القدس بين الإرث التاريخي والجغرافيا السياسية**، منشورات الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، القدس، ٢٠٠٤.

(٢٢) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٣) خلدون أبو السعود، **أثر الاحتلال «الإسرائيلي» وإقامة المستوطنات على وضع القدس وفقًا لأحكام القانون الدولي**، رام الله: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠١، ص ٢٤٤ـ٢٥٠.

(٢٤) أحمد محمود التلاوي، القدس في مشروعات التسوية الفلسطينية ـ الإسرائيلية، **القدس أون لاين**.

http: / /www.alqudsonline.com

(٢٥) جميعان، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٦) **قضية القدس بين الإرث التاريخي والجغرافيا السياسية**، منشورات الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، القدس، ٢٠٠٤، ص ١٣.

(٢٧) جميعان، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٨) خطاب مارتن أنديك أمام معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، بتاريخ ١٨/ ٥/ ١٩٩٣، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٥، صيف ١٩٩٣، ص ٨٦.

(٢٩) دينيس روس، السلام المفقود، **الأيام** (رام الله)، ١١/ ١٠/ ٢٠٠٤.

(٣٠) جمال البابا، الأرض والمستوطنات والقدس في أفكار كلينتون، **مجلة مركز التخطيط الفلسطيني**، (غزة) السنة الأولى، العدد الأول، آذار (مارس) ٢٠٠١، ص ١٤.

(31) Report on Israeli Settlements in the Occupied Territories, A Bimonthly publication of the Foundation for Middle East Peace, Volume 11, No. 7, Jan_Feb. 2001.

(٣٢) د. أحمد يوسف القرعي، مستقبل القدس من إعلان أوسلو إلى وثيقة جنيف، **السياسة الدولية**، (القاهرة)، العدد ١٥٥، يناير ٢٠٠٤، ص ١٢٤.

(٣٣) **الشرق الأوسط**، ١/ ١٢/ ٢٠٠٣.

(٣٤) د. هيثم الكيلاني، وثيقة جنيف والقدس، **الاتحاد** (أبو ظبي) ٧/ ١٢/ ٢٠٠٣.

(٣٥) القرعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٥.

obeikan.com

الفصل السابع

مستقبل مدينة القدس

محمود عبده

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصل مستقبل القدس عن مستقبل القضية الفلسطينية، ولا عن مسيرة الصراع العربي ـ الصهيوني، كما أنه من الخطورة بمكان أن تختزل القضية الفلسطينية في استعادة القدس، بما تحتويه من مزارات دينية، ومعابد للديانات السماوية الثلاث، دون تحرير باقي التراب الفلسطيني، والقضاء على المشروع الصهيوني، إذا أدركنا تلك المقدمة، صار بوسعنا أن نتعامل بشكل علمي، عملي، مع السؤال الملح: ما هو مستقبل مدينة القدس الشريفة؟

على المدى القريب، وحتى تتحرر فلسطين كاملة (إن شاء الله)، وتعود «مدينة السماء» إلى المؤمنين، نلمس عدة محددات يرتبط بها مستقبل القدس، أهمها:

(أ) تمسك الاحتلال الصهيوني بالقدس عاصمة موحدة

«ليس من حق أحد فينا التفريط في هذه المدينة، فهي أقدس أقداس اليهود، وقد حررناها بثمن باهظ من دماء اليهود، ولا نسمح لأحد بأن يترك هذه الدماء هدرًا ..».

(شاؤول موفاز، رئيس الأركان الإسرائيلي السابق، في اجتماع لمجلس الوزراء الصهيوني، ١٩ / ٩/ ٢٠٠٨).

في الوقت الذي يقنع فيه المفاوضون العرب بالقدس الشرقية، لتكون عاصمة للدويلة الفلسطينية، التي يحلمون بها، ويتنازلون فيه عن القدس الغربية، وباقي فلسطين المحتلة، نجد المحتل الصهيوني يتجاوز الواقع السياسي، والجغرافي، الذي نتج عن الاحتلال، وينادي بالقدس الموحدة، عاصمة «أبدية» للدولة الصهيونية، ونجده يحظى، في ذلك، بالتأييد من الرعاة، والحلفاء الغربيين، وعلى رأسهم الولايات المتحدة. صحيح أن كلامًا دار في الفترة

الأخيرة، من حكومة أولمرت المنصرفة، عن تقاسم المدينة مع الفلسطينيين، في إطار تسوية دائمة للصراع، وأن نقاشات حادة دارت بهذا الشأن في الوسط السياسي الإسرائيلي، وأن الإذاعة العامة في الدولة الصهيونية نقلت، في مارس/ آذار ٢٠٠٩، تصريحات لأولمرت، أكدت أن السلام (الاستسلام) لن يتحقق، ما لم يُعطَ الفلسطينيون جزءًا من المدينة المقدسة، ليكون عاصمة للدويلة الفلسطينية، ولكن في النهاية، يبقى ذلك كله، من قبيل الخداع السياسي، والتصريحات التي تظهر صاحبها في ثوب العقلاني، المحب للسلام، فالواقع، وطبيعة الدولة الصهيونية، يجزمان بأن الاحتلال لن يسمح للفلسطينيين بدولة، وأن الصهاينة لن يتنازلوا عن جزء من القدس، فمشروع توسعي وظيفي، مثل المشروع الصهيوني، لا يمكن أن يقبل بحدود، ولا بكيان سياسي حقيقي للفلسطينيين، ولا يمكن له بحال، أن يتنازل عن المدينة، التي يستمد المشروع الصهيوني مشروعيته الدينية، منها.

إستراتيجيًا، لا تتمتع القدس بالأهمية التي تجعل التمسك بها مصيريًا للدولة الصهيونية، والوزن الحقيقي للمدينة، هو الوزن الديني لمدينة تحوى تراثًا دينيًا لأصحاب الديانات السماوية الثلاث الباقية. والصهيونية الدينية، التي تمثل ركنًا من أركان المشروع الصهيوني، لا تستطيع التخلي عن حلم «الهيكل»، الذي يدشّن بناؤه تحقيق الوعد التوراتي، ونبوءات العهد القديم.

جزء كبير من الدعاية للمشروع الصهيوني، يقوم على مكانة «أورشليم» في الدولة الصهيونية؛ لذا نجد مخططات تهويد المدينة تتسارع، والعدوان الديموجرافي، والمعماري يطّرد، وتحذيرات مفتي المدينة، وعلمائها، من هدم الأقصى، تنطلق من حين لآخر!

تمثل المدينة، كذلك، بكنائسها، ومزاراتها التابعة للمذاهب المسيحية الثلاثة، موضوعًا لعلاقات سياسية، واقتصادية، مع المؤسسات الدينية الغربية، فالدولة التي ترعى مقدسات مسيحيي العالم، من الطبيعي أن تحظى بالاعتراف من العالم المسيحي، وأن يُكنّ لها مسيحيو العالم الغربي المودة، وأن تتوطد العلاقات بين الفاتيكان (القيادة الروحية العالمية)، وبين الدولة الصهيونية، وأن يزور البابا الأماكن المقدسة، تحت حماية اليهود الصهاينة، ومباركتهم.

قيام الدولة الصهيونية على المقدسات الدينية في المدينة، ورعاية تلك المقدسات، يمثل مكسبًا معنويًا كبيرًا، لا يمكن للصهاينة التخلي عنه مختارين، بحالٍ من الأحوال، دعك من المكاسب الاقتصادية من السياحة الدينية التي تتدفق على المدينة، وما يجاورها من مدن ترتبط في الوجدان الديني المسيحي بعيسى (عليه السلام)، وحياته في فلسطين.

لهذه الأسباب مجتمعة، يصعب أن نتخيل أن يتنازل المشروع الصهيوني عن القدس، أو يقبل بقيام دويلة فلسطينية، تتخذها عاصمة لها، مهما تردد من أقوال الساسة، والكُتاب، والمحللين الصهاينة، وحتى لو صدَّق الساسة، وقبلوا تقسيم القدس، فإن الشارع الإسرائيلي في أغلبيته ضد فكرة التقسيم، استطلاعات الرأي تؤكد ذلك، واختيارات الإسرائيليين في الانتخابات الأخيرة (فبراير/ شباط ٢٠٠٩) تؤكد ذلك.

من تلك الاستطلاعات، استطلاع أجراه مركز «بيجن ـ السادات» للدراسات الإستراتيجية، في مارس / آذار ٢٠٠٨، وكانت النتيجة أن ٧١٪ من المستطلعين رفضوا أي تقسيم للمدينة، مقابل ٢١٪ أيدوا ذلك، و٨٪ لم يبدوا أي رأي، كما رفض ٦٢٪ من المستطلعين مناقشة وضع القدس، في إطار مفاوضات ما يسمونه «السلام».

مع حكومة صهيونية جديدة، أشد وضوحًا وصراحة في احتلالها واغتصابها للحقوق، ومع أمثال نتنياهو وليبرمان ، يختفي مجرد التلويح بتقسيم المدينة، فليبرمان حين **يرسم حدود مدينة القدس، يُبقي «الحوض المقدس» تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة، مع منح حرية العبادة لأبناء الديانات الثلاث.**

«الحوض المقدس» مصطلح صهيوني، يمثل الحد الأدنى، والخطوط الحمراء، في التعامل الصهيوني مع قضية القدس، ويضم «الحوض»، حسب المصادر اليهودية، جميع المواقع الدينية اليهودية ـ التي يدعونها ـ في القدس، وهي: البلدة القديمة، ووادي قدرون، وجبل الزيتون. هذه المواقع لا يمكن، بحال من الأحوال التنازل عنها، كما قال أولمرت، وكما قال ليبرمان، وكما سيقول رؤساء الحكومات التالية، فماذا يتبقى من القدس، بعد هذا الحوض المقدس؟!

نعود، ونذكِّر بأننا ضد تقسيم فلسطين، وليس القدس، وحدها، وضد أي حل، لا يعيد فلسطين كاملة لأهلها، ولكننا نتناول هذا الفرض من باب الجدل مع من يدعون لتقسيم المدينة، وجعلها عاصمة للدويلة الفلسطينية، التي يلهثون خلفها.

(ب) جهود تهويد القدس

في خطوة نحو إعلان القدس عاصمة للدولة الصهيونية، وكوسيلة لإضفاء شرعية دينية، وتاريخية (زائفة) على تلك الدولة، يسعى المحتل الصهيوني، بقوة، نحو تهويد القدس، فالهوية العربية ـ الإسلامية، التي صبغت القدس، منذ عشرات القرون، تصادم الادعاءات الصهيونية، وتقاوم المشروع الاستيطاني الصهيوني، وليتحقق ذلك المشروع في صورته الكبرى، لا بد أن تتغير تلك الهوية، وأن تنتحل المدينة المقدسة هوية يهودية تاريخية، وأن يتم ذلك عبر:

ـ الاستيطان ومصادرة الأراضي

من أهم الخطوات، التي يتخذها الاحتلال لتهويد القدس، زيادة الاستيطان اليهودي في المدينة، على حساب أهلها، من المسلمين والمسيحيين العرب، حتى يأتي الوقت الذي تصبح فيه أغلبية سكان المدينة من المستوطنين اليهود، فيسهل ابتلاعها في المشروع الصهيوني، وجعلها عاصمة للدولة.

في الوقت الذي تتم فيه مصادرة الأراضي المقدسية، للتوسع في الاستيطان اليهودي، يقوم الاحتلال بتطويق التجمعات السكنية الفلسطينية، والحد من توسعها، مع تهديد بعض تلك التجمعات بالإزالة، وبث الرعب في نفوس فلسطينيي القدس، وضواحيها، من خلال الاعتداءات المتكررة عليهم من قبل المستوطنين المدججين بالسلاح، وفي السياق ذاته، يسعى الاحتلال لعزل القدس، وضواحيها، عن محيطها الفلسطيني في الشمال والجنوب، وقطع التواصل الجغرافي بين أنحاء الضفة الغربية، وتقسيمها لقطع متناثرة، ليستحيل عمليًا أن تكون القدس عاصمة لأي دويلة فلسطينية، في الضفة والقطاع.

ـ تهجير الفلسطينيين وسحب الهويات منهم

فالقدس لن تتسع للمستوطنين اليهود، والعرب، معًا، وإن كان لا بد أن يرحل أحد الفريقين، في ظل الأوضاع

القائمة، حاليًا، فسيكون التهجير، والطرد، وسحب الهويات من نصيب العرب، يقينًا، وهي السياسة المعتمدة لدى الاحتلال، لا فارق بين جولدا مائير، أو شارون، أو شيمون بيريز، أو ليبرمان، وإن كانت جولدا أكثر رفقًا بفلسطينيي القدس، فقد أوصت، وهي رئيسة اللجنة الوزارية لشؤون القدس عام (١٩٧٣)، بألا يتجاوز الفلسطينيون ٢٢٪ من مجموع سكان القدس، أما شارون فقد صرح في الذكرى الثامنة والثلاثين لاحتلال القدس الشرقية (٢٠٠٥)، بأن القدس ملك لإسرائيل، وأنها لن تكون، بعد اليوم، ملكًا للأجانب، أما بيريز الحريص على رداء «صديق العرب»، الراغب في السلام، فقد سبق أن أعلن ضرورة تهجير العرب من القدس، وصدرت تصريحات بالمعنى نفسه من ساسة إسرائيليين آخرين.

وها نحن اليوم(*)، وفي الأشهر الماضية، نرى قوات الاحتلال ترسل الإخطارات لهدم عشرات المنازل العربية في أحياء القدس العريقة، وطرد مئات الأسر منها، ونرى الحكومة الجديدة (نتنياهو/ ليبرمان/ باراك) تعلن مرحلة متقدمة من تهويد القدس، وطرد أهلها، وتسن قوانين أسوأ من «قوانين الطوارئ» والانتداب، مثل القانون الذي يفرض غرامة باهظة على المقدسي، الذي يملك بيتًا غير مرخص، ويقوم بتأجيره، أو تسكينه، أو منحه لشخص مقدسي آخر، حتى لو كان من أفراد العائلة نفسها، وتفرض الغرامة، نفسها، على الطرف الآخر، ويجري هدم البيت، لاحقًا.

- الحفريات تحت الأقصى

فإذا كان الأقصى هو الرمز الديني، والتاريخي الأكبر في المدينة، وإن كان من العسير هدمه بشكل مباشر، خشية عواقب ذلك، فإن الحفريات حول المسجد، وفتح الأنفاق تحته، تعد خطوة تمهيدية، ووسيلة لتحقيق ذلك الهدف، يومًا ما، بشكل قد يبدو قدريًّا، غير متعمد، وقد شهدت السنوات الخمس الأخيرة، تصاعدًا في الحفريات، دعت مؤسسة «الأقصى للوقف والتراث»، للتحذير من مضاعفات الحفريات الإسرائيلية تحت محيط المسجد الأقصى، خاصة بعد الانهيار الذي وقع في مدرسة البنات التابعة للأونروا، في الأول من فبراير/ شباط ٢٠٠٩، على بعد أمتار جنوب الأقصى، وأعربت المؤسسة عن خشيتها من وقوع انهيارات في المسجد، أو المباني المجاورة، بسبب الحفريات الخطيرة التي تجري.

بجانب الحفريات، هناك الاعتداءات، والاقتحامات، التي يتعرض لها المسجد من المستوطنين الصهاينة، وقوات الاحتلال، والعدوان على المصلين، وفرض الحصار عليهم، وغيرها من وسائل التضييق/ والتعنت.

(ج) الضعف العربي ونهج الاستسلام والتفاوض

في مقابل التمسك الصهيوني بالقدس، والسعي الدؤوب لتهويدها، نجد العرب الرسميين، في مجملهم، يعلنون أن السلام هو خيارهم الإستراتيجي، الذي لا بديل له، وأن التفاوض هو وسيلتهم الوحيدة، وإن كانوا لا يملكون القوة، التي تمكِّنهم من فرض شروطهم على الصهاينة في ذلك التفاوض! وإن كان التفاوض على جزء من الحق، ومع قوم لا يفهمون غير لغة القوة! وإن طال التفاوض عشرات السنين، ازداد العدو فيها توحشًا وعدوانًا! وإن كانت الشعوب العربية، في أغلبيتها، تؤيد المقاومة، وتنادي بها!

(*) كتبت هذه السطور، في مايو / آيار ٢٠٠٩ .

بل نجد أنظمة في دول عربية كبرى، تحارب المقاومة، وتنسِّق مع الدولة الصهيونية، والولايات المتحدة، في الجهود الرامية لمحاصرة الجماهير المقاوِمة، وفرض نهج التفاوض والاستسلام عليهم!

مع أن الدول العربية، التي صالحت الدولة الصهيونية، وعقدت معها المعاهدات، أعلنت أنها تفعل ذلك لالتقاط الأنفاس، وبناء قوتها الاقتصادية والعسكرية، بعد أن استنفد الصراع الطويل قواها، فإن ذلك الهدف المعلن لم يتحقق، ما حدث هو العكس: تردٍّ في مجمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية لتلك الدول، واتساع الفجوة العلمية، والعسكرية، التي تفصل العرب في مجملهم عن الدولة الصهيونية، واختلال ميزان القوى، اختلالًا فادحًا، ينذر باحتمالات بالغة الخطورة في حال نشوب صراع مسلح مع الكيان الصهيوني.

الخلاصة، أن العرب ينحدرون من ضعفٍ إلى ضعف، وأن من عجزوا عن حماية بغداد، ومقديشيو، والخرطوم، لا يتوقع منهم أن يحرروا فلسطين، أو جزءًا غاليًا منها، كالقدس، هذا إن توفرت لهم النية، أساسًا.

(د) غياب العالم الإسلامي عن المعادلة

رغم الموقع الذي تحتله القدس في قلوب مسلمي العالم، ورغم الأخطار الدائمة التي تهدد المسجد الأقصى، ورغم أن إنشاء «منظمة المؤتمر الإسلامي»، جاء ردًّا مباشرًا على محاولة حرق الأقصى، في أغسطس/ آب ١٩٦٩، فإن العالم الإسلامي، غائب، بشكل فعلي، عن معادلة الصراع مع الصهيونية، وحلفائها، وهو غياب راجع إلى عدة أسباب، منها تحالف أنظمة دول مسلمة كبرى مع الكيان الصهيوني، مثل تركيا، وسير دول أخرى في الركاب الأمريكي، فيما يخص فلسطين، والسعي المتواصل لعزل القضية الفلسطينية عن بعديها العربي والإسلامي، بجعلها صراعًا محليًّا بين الإسرائيليين، والفلسطينيين، يقوم فيه العرب والمسلمون بدور الوساطة، وعجز «منظمة المؤتمر الإسلامي» عن أي دور حقيقي في قضايا العالم الإسلامي، وهو ما نتج عنه، في مجمله، غياب الرؤية الموحدة، التي تجمع العالم الإسلامي، فيما يخص القضية الفلسطينية، وغياب الخطة التي تعين على استعادة فلسطين، وفي القلب منها القدس.

(هـ) موقف العالم المسيحي

من الواضح أن العلاقة بين الدولة الصهيونية، والفاتيكان، تتوثق، يومًا بعد يوم، فبعد أن برأ الفاتيكان اليهود من دم المسيح، في سنة ١٩٦٥، كانت الخطوة المهمة الثانية: زيارة البابا الراحل (يوحنا بولس الثاني) لمعبد يهودي في روما، ١٩٨٦، والتي مثلت سابقة تاريخية فريدة من نوعها في التاريخ الكاثوليكي. وفي سنة ١٩٩٤ بدأت العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين الفاتيكان، والدولة الصهيونية، ومع مطلع الألفية الميلادية الثالثة، وزيارة البابا الراحل يوحنا بولس للدولة الصهيونية، آنذاك، بدأت العلاقات الرسمية بين مجمع الحاخامية الكبرى لإسرائيل، وبين الفاتيكان، وقد قام البابا الحالي بزيارتين لمعبدين يهوديين: في كولونيا بألمانيا (٢٠٠٥)، ونيويورك (٢٠٠٨)، وفي مايو/ آيار من العام الحالي جرت زيارته الأولى للكيان الصهيوني، تحت شعار الحج للأماكن المقدسة في القدس، وما حولها.

لا شك أن تلك العلاقات هي في صالح المشروع الصهيوني، في المقام الأول، يحقق من ورائها مكاسب سياسية، ودعائية كبيرة، والأهم أنه يحيِّد الفاتيكان، المرجعية الروحية لأغلبية مسيحيي العالم، في قضية الصراع العربي ـ

الصهيوني، وربما جعله يميل لكفة الصهاينة، باعتبارهم القائمين على المقدسات المسيحية في فلسطين المحتلة، وفي القلب منها القدس، ويكفي أن الفاتيكان يعترف بالدولة الصهيونية، ويعقد معها الاتفاقيات.

أما عن البروتستانت، الذين يمثلون الأغلبية في دول استعمارية كبرى، مثل: الولايات المتحدة، وبريطانيا، فقد تنامى بينهم ما يسمى بـ «المسيحية الصهيونية»، كاتجاه سياسي يرى في مناصرة الدولة الصهيونية، واجبًا دينيًّا، يعجِّل بنزول المسيح، الذي ينتظرونه، ولا يتوقع من هؤلاء، في مجملهم، أي مناصرة حقيقية للعرب، والمسلمين، في قضية القدس، أو قضية فلسطين، عمومًا، فغالبية البريطانيين، والأمريكيين، على مر العقود، يؤيدون المشروع ثم الكيان الصهيوني.

قد يختلف مسيحيو الشرق العربي في موقفهم من الدولة الصهيونية، وقد يأخذ مسيحيو مصر موقفًا إيجابيًّا من القضية الفلسطينية، مناصرًا للحقوق العربية، ولكن يبقى هؤلاء أصحاب صوت ضعيف، وينعكس عليهم الضعف العام، الذي اعترى الأمة العربية منذ أمد، ويصب تحركهم من أجل القدس في مجمل الجهود العربية من أجل تلك القضية، وهي جهود نعرف حجمها، والمتوقع منها.

المقاومة هي الحل

إذا كانت أغلب المحددات، التي ذكرناها، في غير صالح القضية الفلسطينية، وفي القلب منها القدس، فما السلاح الأخير الذي يملكه العرب والمسلمون في صراعهم مع الصهيونية؟

إنه السلاح الوحيد الذي يفهمه الصهاينة، اللغة الوحيدة التي يستوعبونها، والمنطق الوحيد الذي يقنعهم: سلاح المقاومة.

لقد مرت الأمة بظروف مشابهة، وربما أشد قسوة، في تاريخها الطويل، وليست تجربة الحروب الصليبية منا ببعيد، ولكن لم يحدث في تاريخنا أن تعرضت المقاومة للتشويه والمحاربة، كما يحدث الآن، كان الملوك والأمراء العرب، فيما سبق، يتحالفون مع الصليبيين، ويقاتلون معهم، ولكن كان الجميع يعرف، والصليبيون أنفسهم، أنها مرحلة وستمر، وأن الأرض المحتلة، ستعود لأصحابها، ولم يكن في مقدور حاكم عربي واحد، أن يسلِّم بحق المحتل في الأرض، أو يهنئه على قيام دولة الاحتلال، أو يعلن أن «السلام» خيار إستراتيجي، ويدعو لقبول الكيان الغاصب في نسيج الأمة، ولم يكن بوسع فقهاء السلطان، في ذلك الزمن، أن يصدروا فتاوى الاعتراف بالاحتلال، و«تطبيع» العلاقات معه، أو يصافحوا قادة العدو، بحرارة وترحاب!! كانت الأنظمة تتفاوت في نهجها مع المحتلين، حربًا ومصالحة، ولكن، في النهاية يبقى أمل التحرير والخلاص، لا أن تتفاوت في علاقاتها مع العدو، والرضا بما يقدمه لها كما يحدث اليوم!! بقي مبدأ المقاومة/ الجهاد، وظل العلماء والمربون يهيئون النفوس ليوم التحرير، حتى ظهر القادة الذين حملوا اللواء، وقادوا المقاومة الشعبية، وحرروا الأرض.

هناك جهود محمومة لتصفية القضية الفلسطينية، وتثبيت الكيان الصهيوني في المنطقة، وجعله جزءًا «طبيعيًّا» منها، وصار قيام دويلة فلسطينية في الضفة والقطاع حلمًا، وشعارًا مرفوعًا، يمثل أقصى الأماني في الصراع، ويتولى الإعلام الرسمي العربي (الحكومي، والمستقل)، الإلحاح على هذا الشعار، باعتباره الحل الوحيد، والممكن، بل باعتباره:

«الحل العادل»، وكأن تحرير فلسطين، وعودتها لأهلها، وعودة أهلها لأراضيهم، ظلم وجور، وكأنه ميراث يقسَّم بين الأشقاء!

للأسف استطاعت هذه الفكرة أن تغزو عقول العامة، مع اليأس والإحباط، الذي يخيِّم على النفوس، بل عقول كثير من المثقفين الوطنيين، في بلاد العروبة والإسلام، تحت شعار «الواقعية»، و«الحلول الممكنة»، وربما أراد البعض أن يخفف من الفكرة، فيقول إنه يقبل التقسيم، مرحليًّا، حتى تتهيأ ظروف التحرير الكامل والشامل، وبذلك ينجو من الملامة والتشكيك في موقفه. ويبقى المطالبون بالحق الفلسطيني الكامل، قابضين على الجمر، متمسكين بالتحرير الكامل، كواجب تمليه العقيدة، والشرف، والضمير الوطني، ربما أصبحوا أقلية في النخبة، ولكن الأمة ستسير حلفهم، وحتمًا، إذا جد الجد، وتغيَّرت الظروف، وخفَّت القيود.

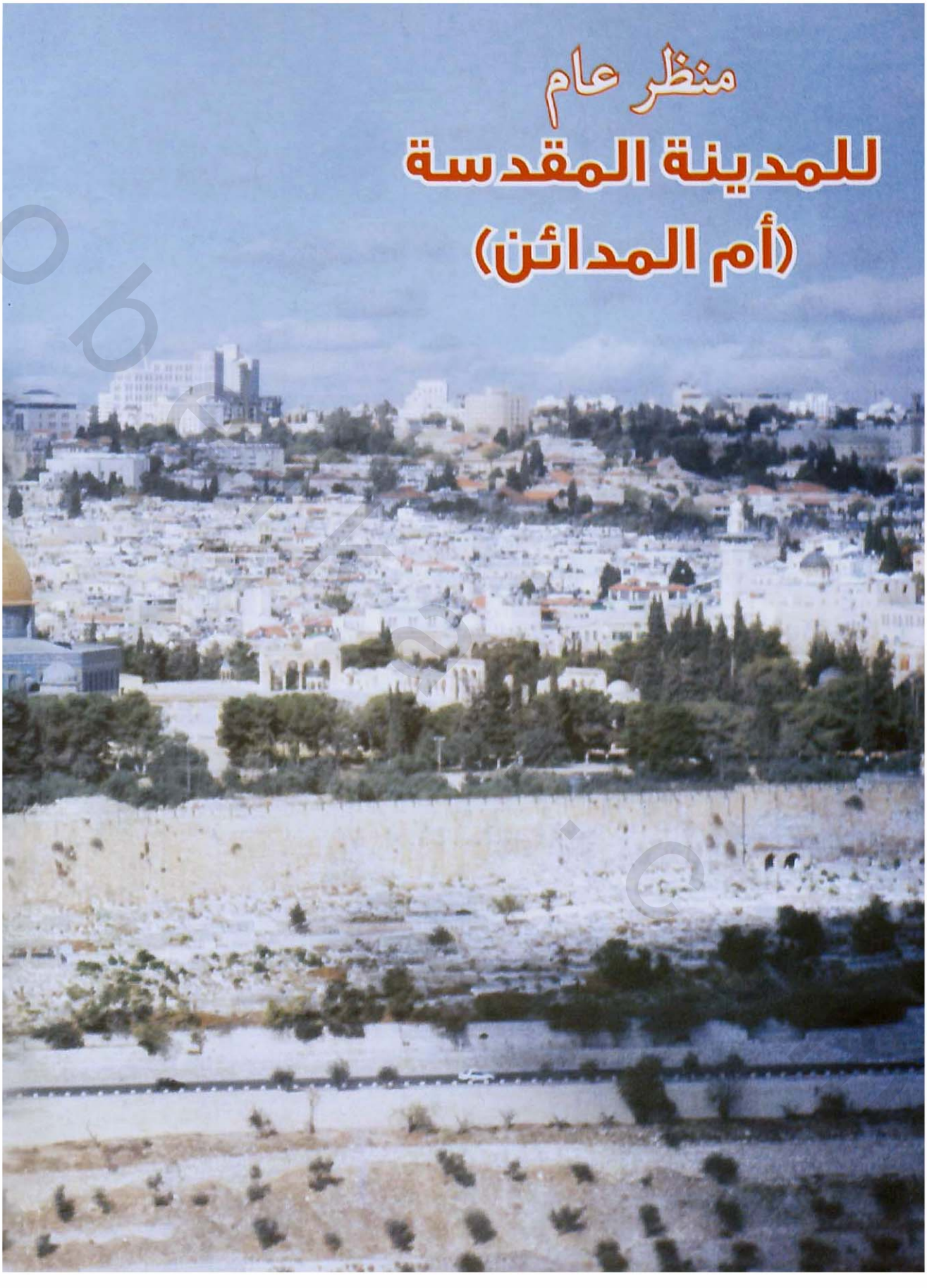
لا مستقبل للقدس، بغير تحرير فلسطين، وقد علَّمنا التاريخ أن القدس تكون آخر مدن فلسطين، احتلالًا، وآخرها تحريرًا، ولا تحرير بغير المقاومة، فهل نجد في حكام الأمة، اليوم، من يصنع منبرًا للأقصى، ليخطب عليه يوم التحرير، كما فعل نور الدين محمود زنكي؟ ..أشك كثيرًا، ولكني لا أيأس من روح الله.

* * *

obeikan.com

ملحق الصور

obeikan.com


منظر عام
للمدينة المقدسة
(أم المدائن)





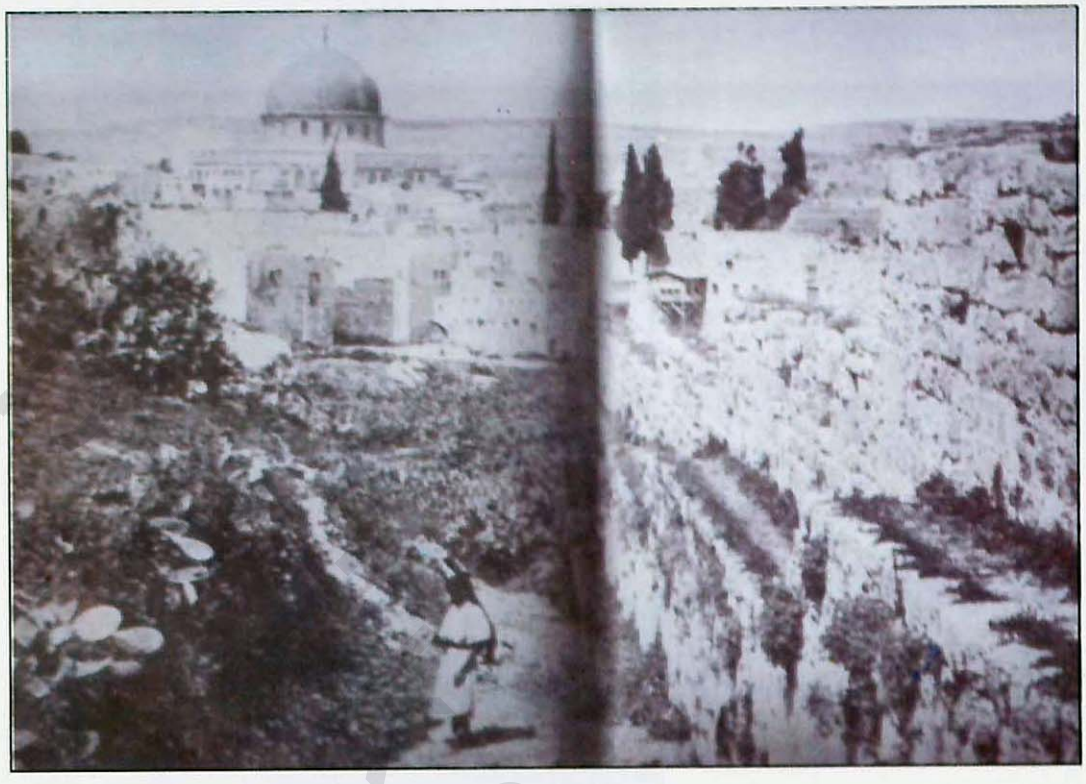
منظر عام ودوار للسيارات ما بين باب العامود
والباب الجديد، حي المصرارة



طريق بالقدس يسمى طريق الآلام، وهو الطريق الذي
سار به سيدنا عيسى عليه السلام



طريق درب الآلام



حائط البراق ١٨٧٧م



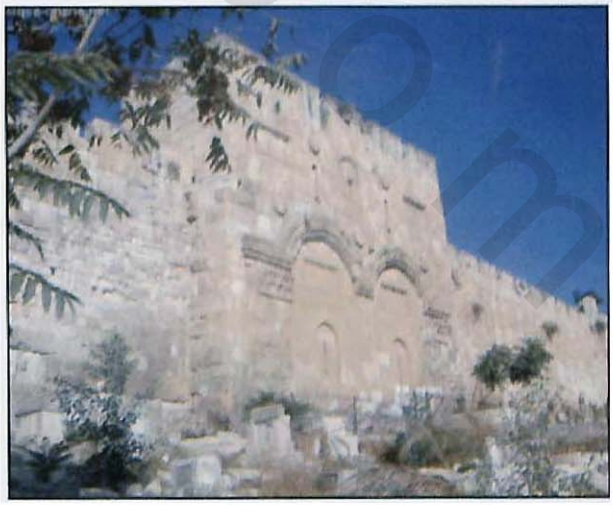
حائط البراق حاليًا

أبواب مدينة القدس

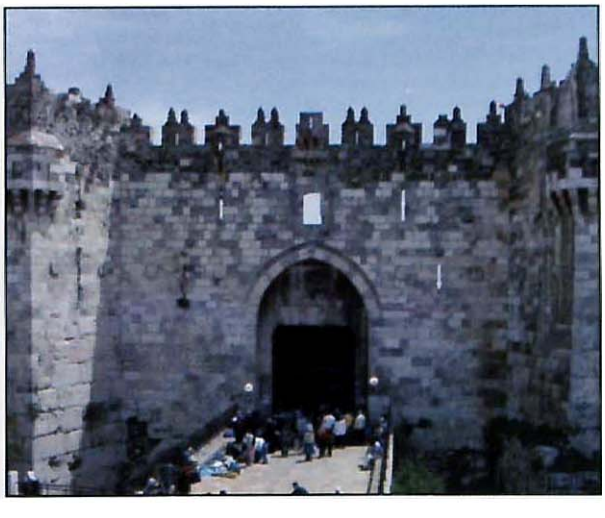
(الأبواب الخارجية)



باب النبي داود



باب الرحمة أو الباب الذهبى

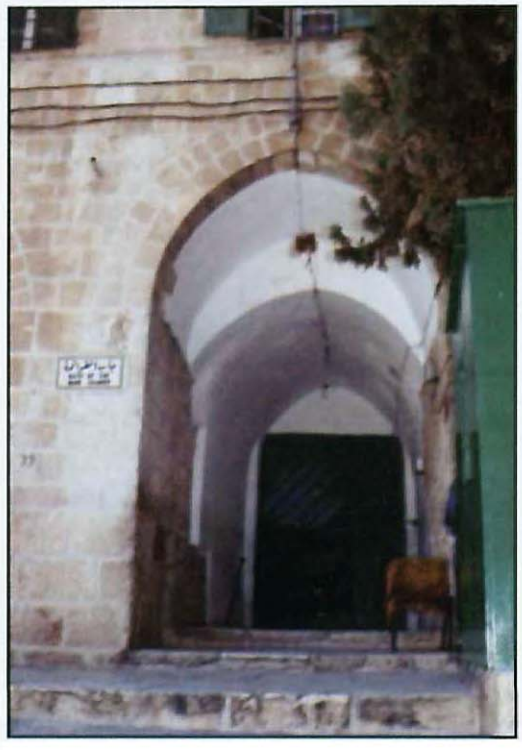


باب العامود أو بوابة دمشق أو باب النصر ـ باب نابلس

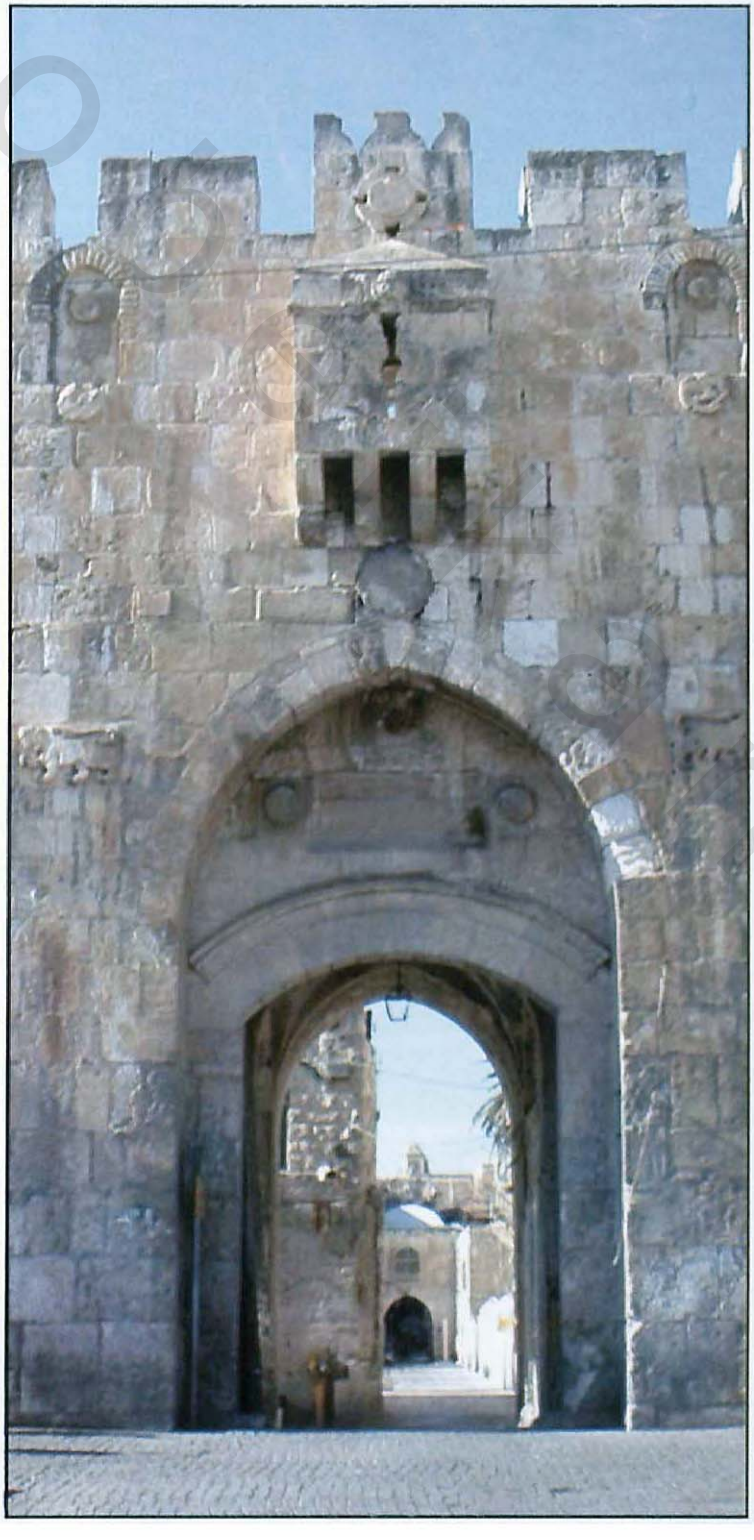
obeikan.com

أبواب ساحات المسجد الأقصى

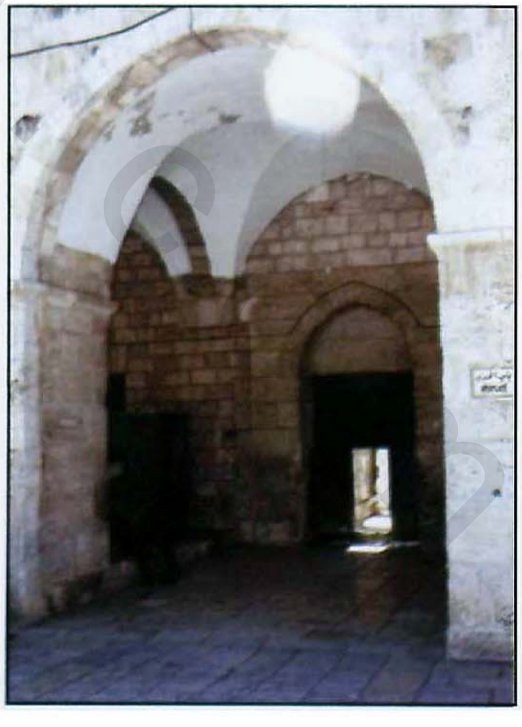
(الأبواب الداخلية)



باب الغوانمة



باب الأسباط

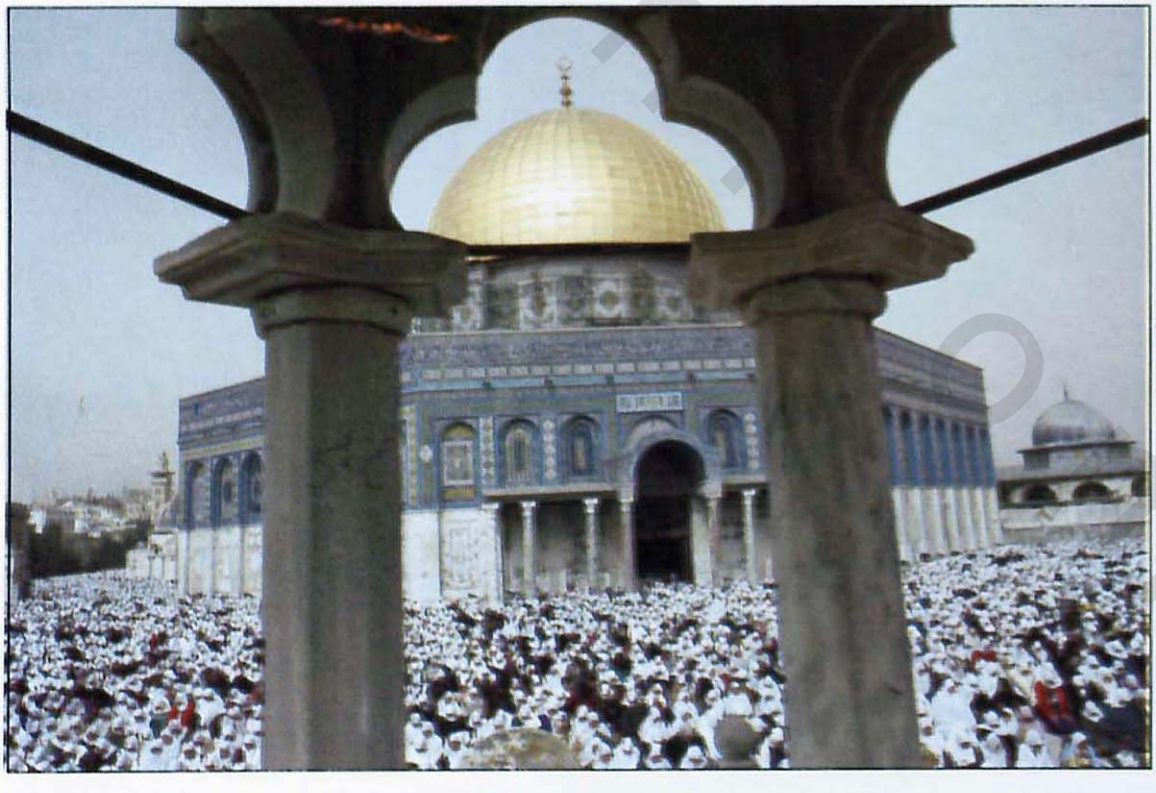


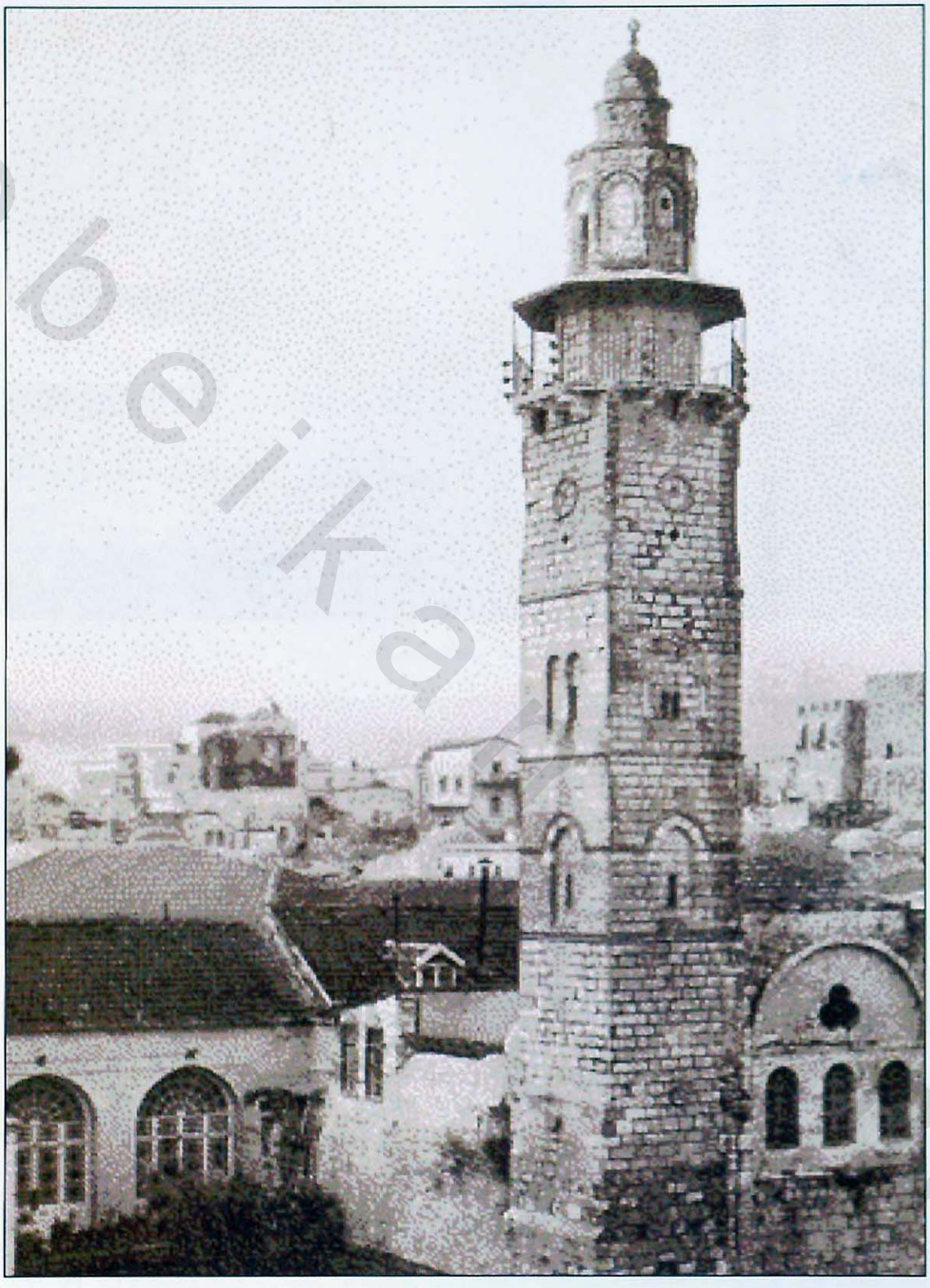
باب الحديد

المساجد

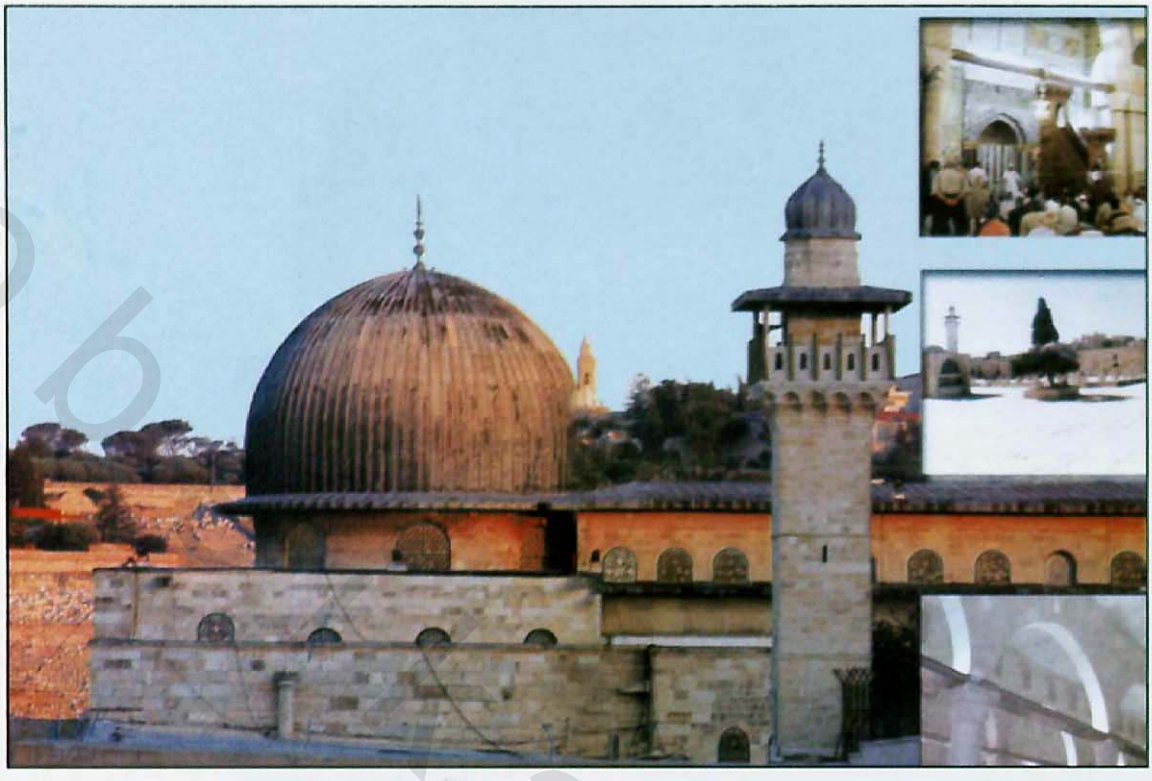


حشود الفلسطينيين تصلي في باحة الصخرة المشرفة





مسجد عمر بن الخطاب

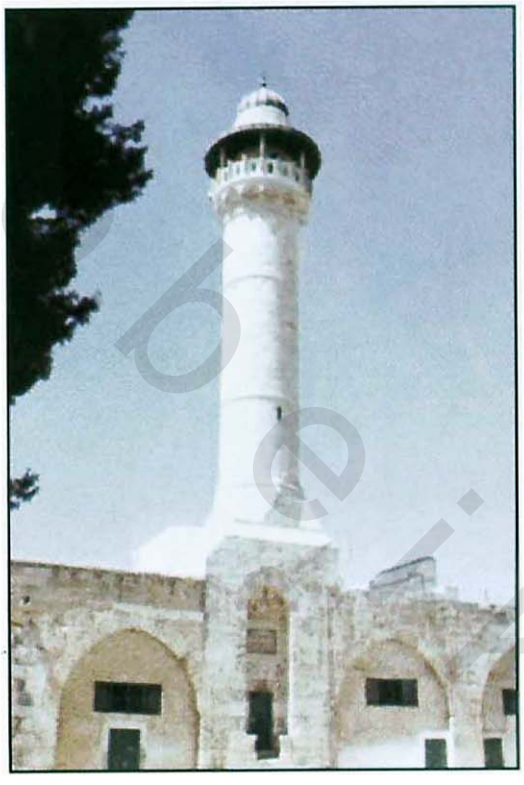


المسجد الأقصى الشريف

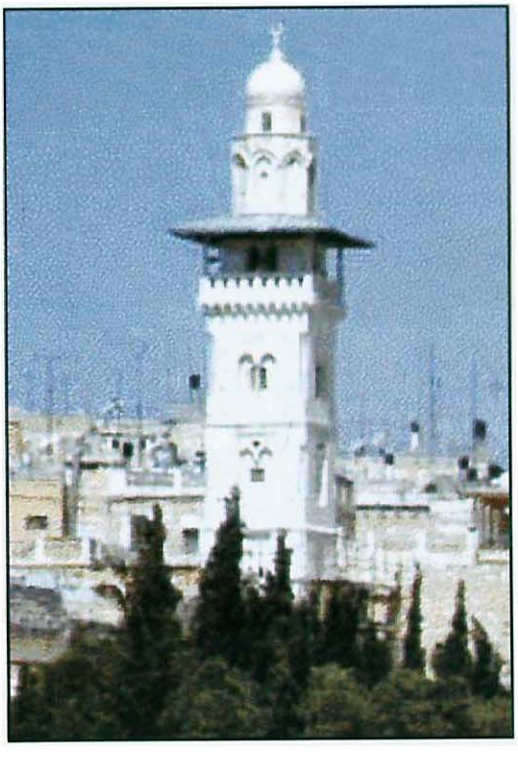


الأقصى الشريف (الجامع القبلي)

المـآذن



مئذنة الأسباط

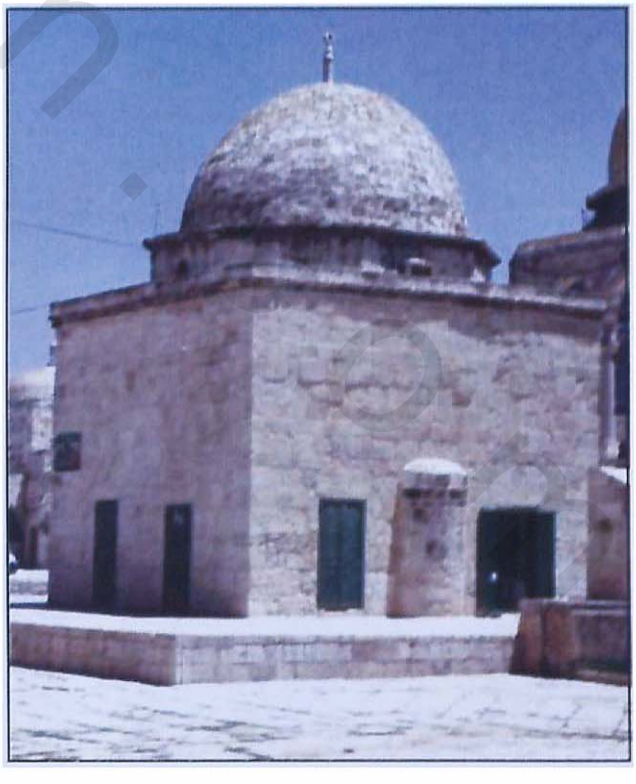




القباب



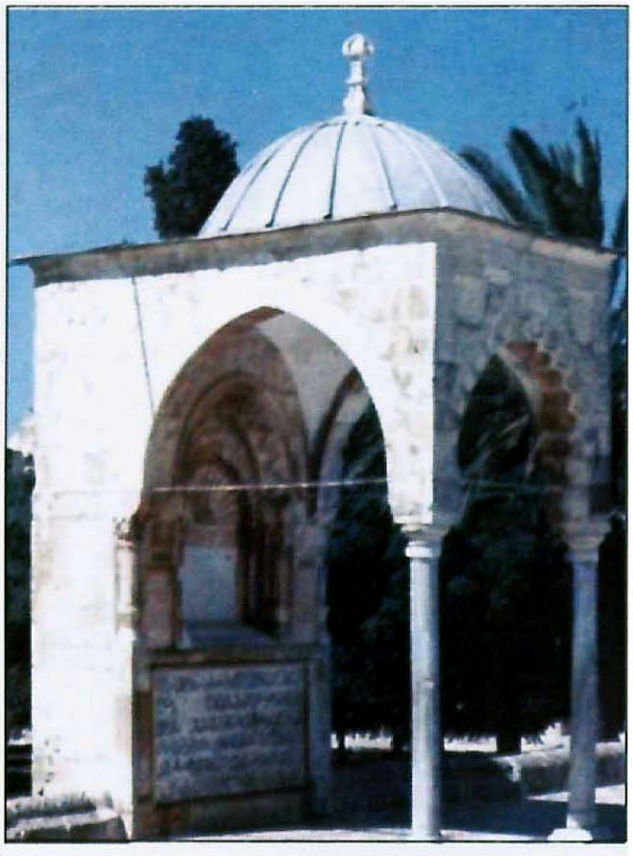
قبة الميزان



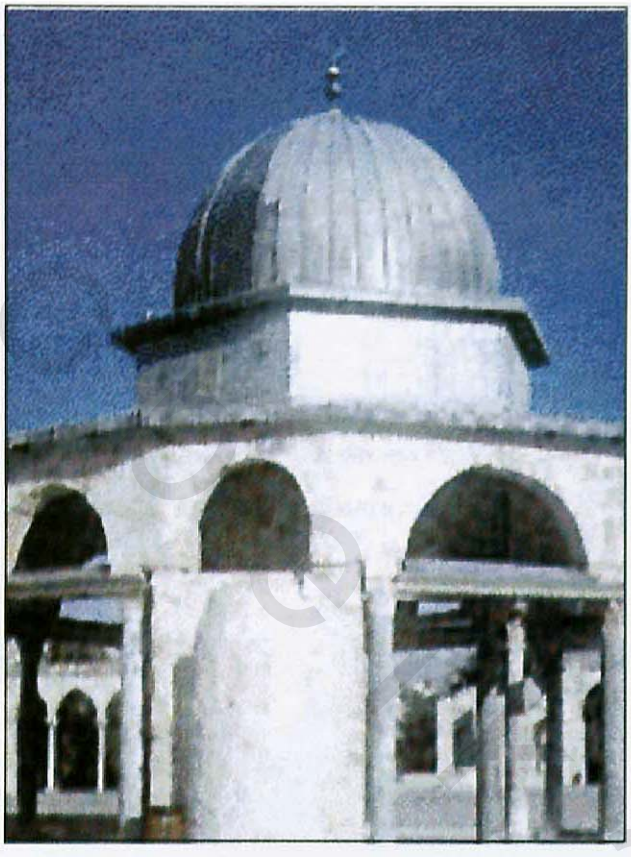
قبة موسى



محراب النبى



قبة يوسف



قبة السلسلة



قبة المعراج



قبة سليمان

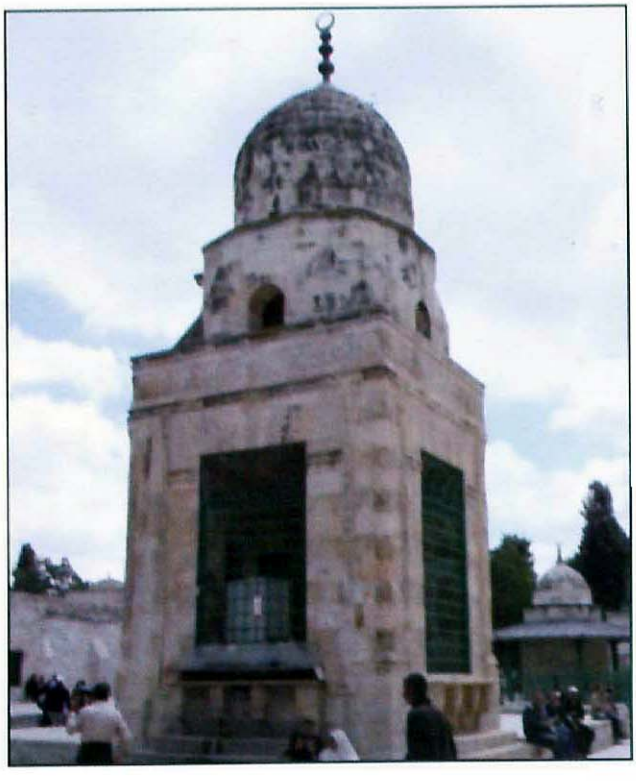
السبل



سبيل الكأس



سبيل باب حطة

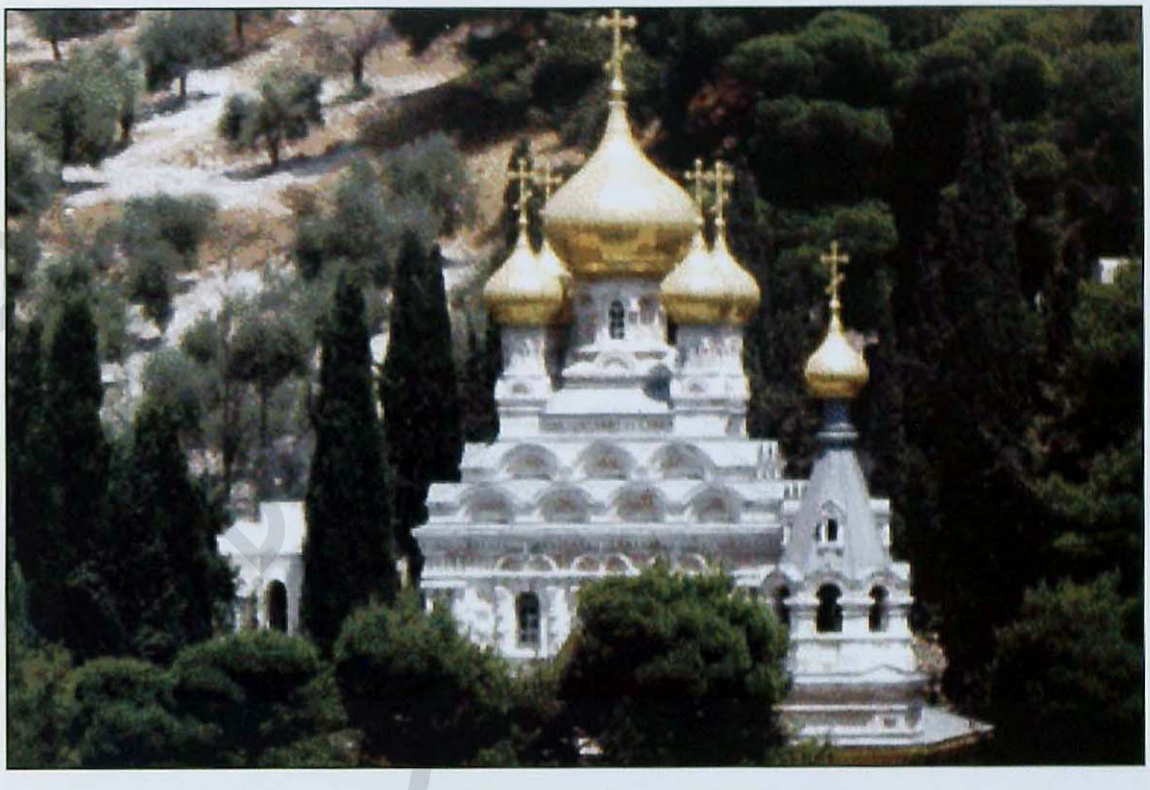


سبيل قايتباي

الكنـــائس



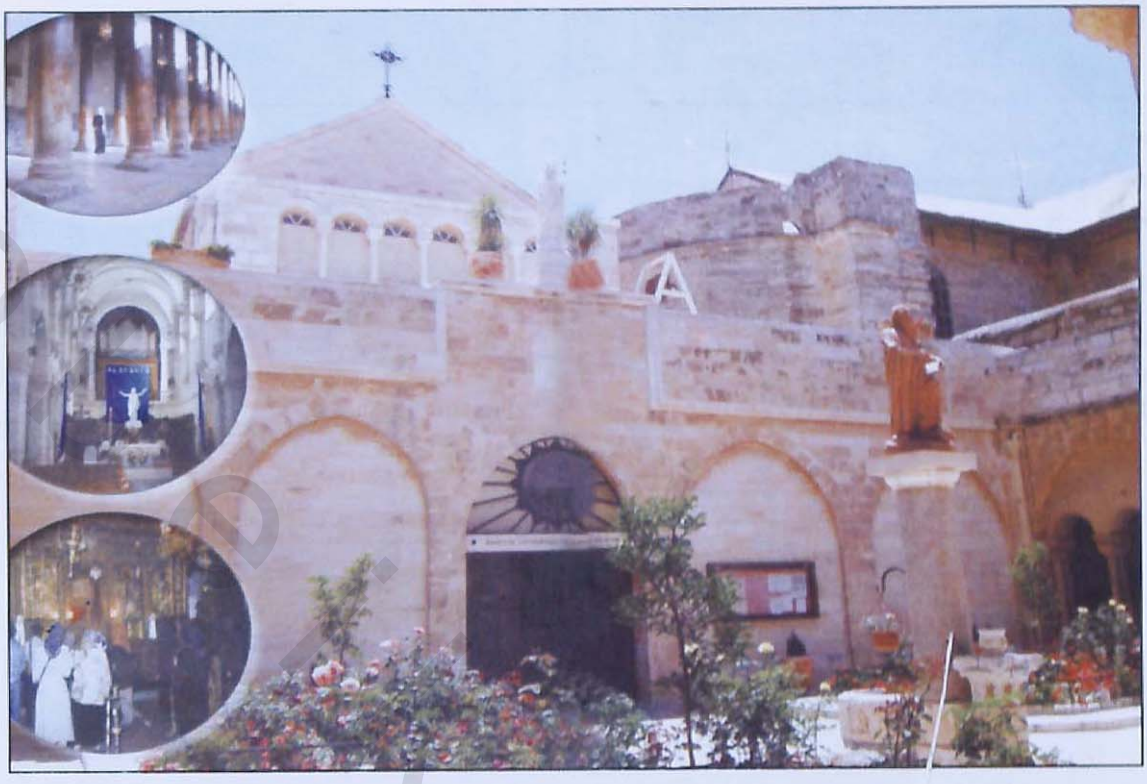
قبة كنيسة القيامة فوق القبر



كنيسة مريم المجدلية



كنيسة القيامة



كنيسة المهد



كنيسة المهد (نجمة الميلاد)

الاعتداءات



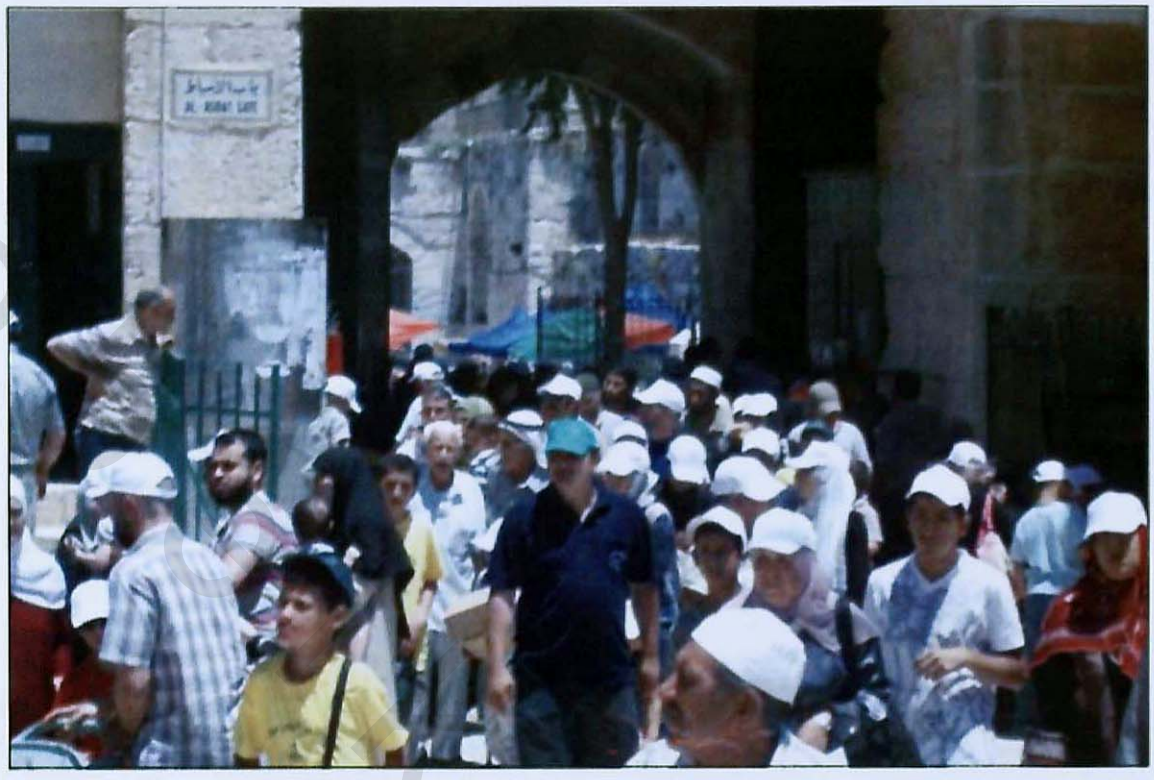
اللنبي يحتل المدينة (١٩١٧)



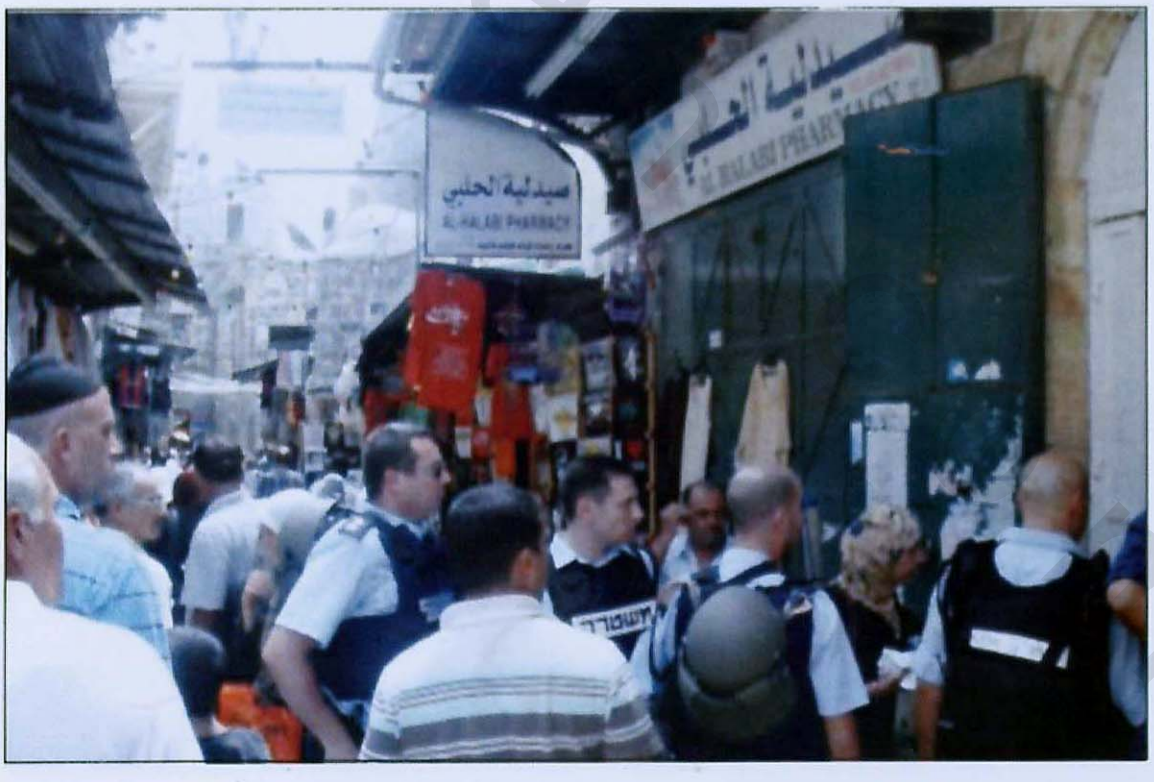
الأماكن المقدسة مكبلة بسياج الاحتلال



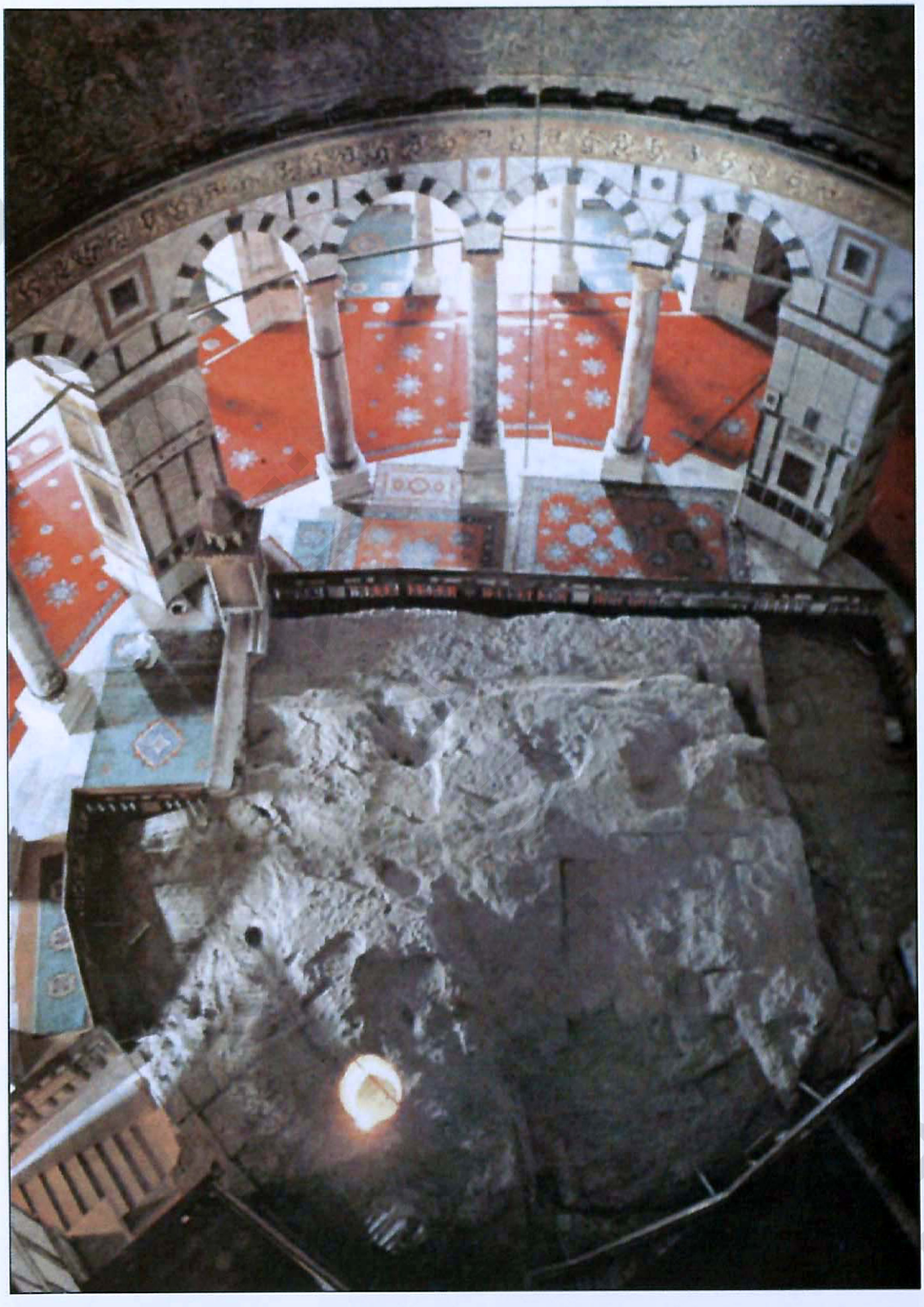
الإسرائيليون يضعون نموذجًا مصغرًا للهيكل



الإسرائيليون يمنعون المصلين من دخول المسجد



جنود الاحتلال يضيّقون على سكان المدينة المقدسة



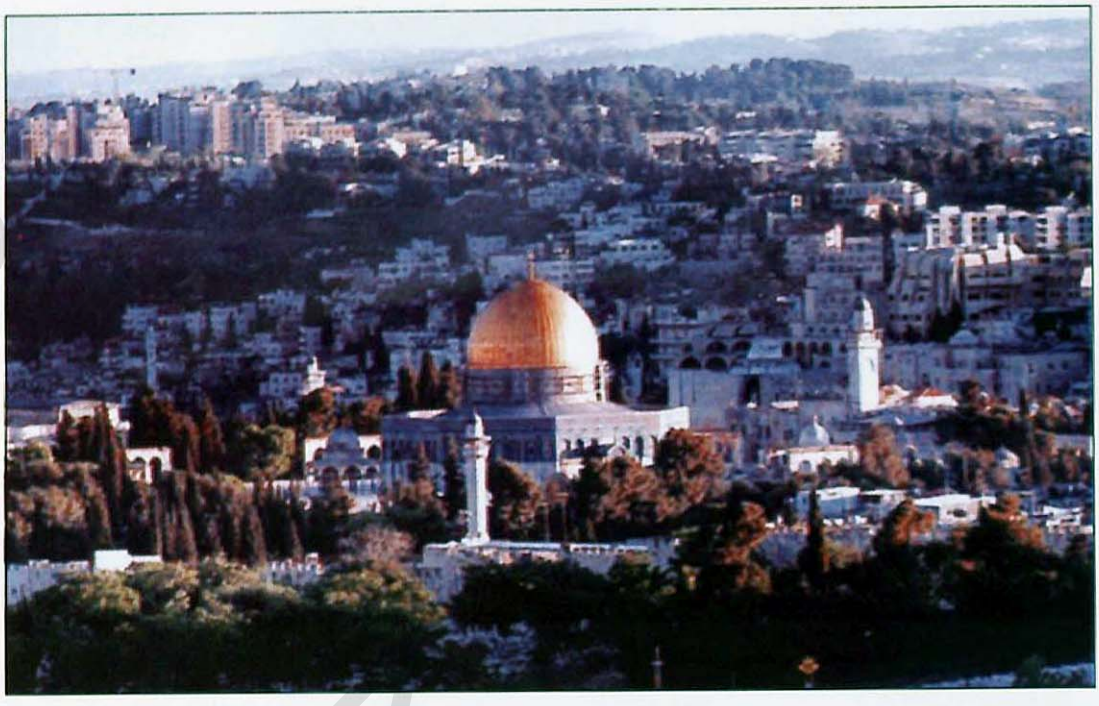
الصخرة المشرفة من الداخل وفيها آثار الاعتداء



اقتحام المسجد والتحرش بالمسلمين



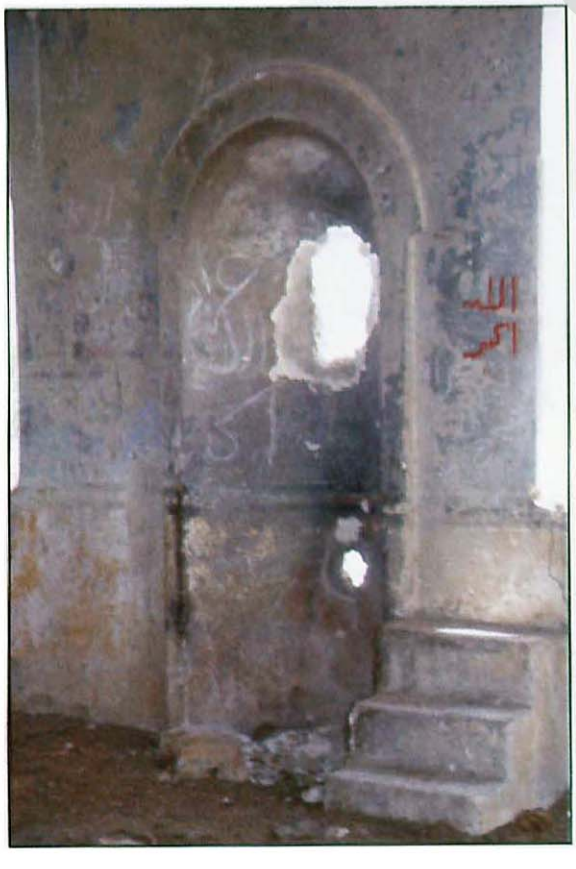
جنود الاحتلال .. منعوا الأهالى من العبور



المستوطنات تحدق بالمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة



الأنفاق



إعتداء



اعتداءات على أهالي الشيخ جراح وأثاثهم ملقى بالشارع